مقدمة

ابن خلدون

كتاب الشعب

مقدمة ابن خلدون

حسن قليل

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني القاهرة ت : ٣١٨٠

بين يدى هذه الطبعة من

مقدمة ابن خلدون

الفيلسوف المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون ومقدمته أشهر وأعظم من أن نحاول التعريف بهما أو تقديمهما للقارئ . ومن ثم نقدم هذه الطبعة من المقدمة مستقيمة النص ، محررة العبارة فى أقرب صورها إلى الحال التى كانت عليها يوم كتبها ابن خلدون .

ولكى نعين القارئ على الإحاطة بها : نقدم بين يديه جلاء ما قد يشق عليه دركه من أسماء البلاد والأماكن التى حفلت بها المقدمة وخاصة فى الجزء الأول منها . كما نتبعها إن شاء الله ببيان آخر يضم نبذاً عن الأعلام ، والرجال الذين ذكرهم ابن خلدون ، أو عرض لحديثهم ، مع الفهارس التحليلية الشافية . ولعلنا بهذا نكون قد يسرنا لجماهير المثقفين أن تفيد من علم ابن خلدون ، وأن تطالع بعض جوانب فكره الثاقب العظيم وفيما يلى بيان أهم الأماكن التى ورد ذكرها فى المقدمة :

آبِل : بالكسر ، اسم لأربعة مواضع منها : آبل القمح من نواحى بانياس من أعمال دمشق ؛ وآبل السوق قرية كبيرة فى غوطة دمشق ، وآبل من قرى حمص بينها وبين حمص نحو ميلين وغيرها .

آمِد : بكسر الميم ، أعظم مدن ديار بكر ، وأجلها قدراً ، وأشهرها ذكراً ، افتتحها المسلمون سنة عشرين من الهجرة بعد فتح الجزيرة على يد عياض بن غنم ، وينسب إليها طائفة من العلماء منهم الحسن بن بشر الآمدى صاحب الموازنة بين أبى تمام والبحترى .

آمُل : بالضم أكبر مدينة بطبرستان فى السهل ، وقد خرج منها طائفة من العلماء ، لكنهم ينسبون إلى طبرستان ، فيقال : الطبرى ، ولا يقال : الآملى .

الأُبُلَّة : على شاطئ دجلة فى زاوية الخليج الذى يدخل إلى مدينة البصرة ، وهى أقدم منها لأن البصرة مصرت فى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكانت الأبلة يومئذ مدينة .

الأَحْساء : مدينة بالبحرين معروفة ، أول من عمرها وجعلها عاصمة هجر : أبو طاهر الجنابى القرمطى ، وثمة أكثر من مكان بهذا الاسم فى طريق مكة وغيره .

أَذْرِعَات : بلد فى أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان ، وتنسب إليه الخمر .

أُرْبُونة : فى طرف الثغر من أرض الأندلس ، وبينها وبين قرطبة نحو ألف ميل .

أَرَّجَان : وعامة العجم يسمونها أرغان ، مدينة كبيرة كثيرة الخير ، كان أول من أنشأها قباذ بن فيروز والد أنوشروان لما استرجع الملك من أخيه جاماسب .

أَرْحَب : مخلاف باليمن سمى بقبيلة كبيرة من همذان وإليه تنسب الإبل الأرحبية ، وقيل : على ساحل البحر ، بينها وبين ظفار نحو عشرة فراسخ .

أَسْتَرَاباذ : من أعمال طبرستان بين سارية وجرجان ، اخرجت كثيراً من أهل العلم فى كل فن ، منهم أبو نعيم الاستراباذى أحد الأئمة فى علوم الحديث .

أَسْفَرَايِين : بلدة حصينة من نواحى نيسابور على منتصف الطريق من جرجان ، واسمها القديم مهرجان ، وينسب إليها الأسفراييني الحافظ المصحح على كتاب مسلم .

أَسَفِى : بلدة على شاطئ البحر المحيط بأقصى المغرب .

أُشْرُوسْنَة : بلد كبير فيما وراء النهر من بلاد الهياطلة من سيجون وسمرقند ، وينسب إليها بعض أهل العلم مثل أبى طلحة بن نصر الأشروسنى وغيره .

إصطَخْر : من أعظم حصون فارس ومدنها ، ويقال إن أول من أنشأها هو إصطخر بن طهمورث ملك الفرس ، وينسب إليها كثير من العلماء . منهم الاصطخرى الجغرافى الشهير .

أَغْمات : ناحية فى بلاد المغرب قرب مراكش ، كثيرة الخير ، وفيرة الخصب .

أَقْرِيطِش : جزيرة فى البحر تقابلها ليبيا من البر الأفريقى ، أخذ المسلمون فى فتحها على أيام معاوية ، ثم فى خلافة الرشيد ، ثم فى خلافة المأمون .

أَنْطَرْطُوس : بلد من سواحل بحر الشام ، وهى آخر أعمال دمشق ، وأول أعمال حمص . قيل إن الذى فتحها عبادة بن الصامت سنة ١٧ هـ بعد فتح اللاذقية ، وينسب إليها طائفة من المحدثين والعلماء .

الأَنْكُبَرْدَة : بلاد واسعة فى شمال البحر المتوسط ، بين القسطنطينية والأندلس .

الأَهْوَاز : كورة بين البصرة وفارس ، وأصلها بالعربية الأحواز بالحاء ، واسمها الفارسى القديم خوزستان ، وقيل هوزمشير .

أَوْلِيل : إحدى مدن المغرب على نحر البحر — كما يقول ياقوت — وهى معدن الملح ببلاد المغرب ، وبينها وبين لمطة — معدن الورق — خمسة وعشرون ميلا .

إيلَان : موضع قرب مراكش ورد ذكره كثيراً فى حروب عبد المؤمن بن على .

باجَبَّارة : قرية فى شرق مدينة الم . على نحو ميل ، وكان نهر « الخوسر » يمر قديماً تحت قناطرها .

بارِى : قرية من أعمال كلواذ فى نواحى بغداد كانت ذات بساتين يقصدها أهل البطالة ، وفيها يقول الحسين ابن الضحاك :

أحب الحسن من نخلات بارى   وجوسقها المشيد بالصفيح

بِجَايَة : مدينة على ساحل البحر بين أفريقية ، وكان أول من اختطها الناصر بن علناس حوالى سنة ٤٥٧ هـ وتسمى الناصرية أيضاً باسم بانيها .

بحر فارس: الخليج العربي الآن .

بحر القلزم: البحر الأحمر .

بحر الزَّنج: كانت الكلمة تطلق على المحيط الممتد فى الجزء المواجه لشرق أفريقيا وجنوب شرقها .

بحر بُنْطس: بالسين المهملة كلمة يونانية معناها البحر الذى منه خليج القسطنطينية ، ثم يمتد إلى الغرب والجنوب حتى يصل ببحر الشام ، وينطقها كثيرون بالشين المعجمة .

بَذَخْشان : بلد فى أعلى طخارستان ، متاخمة لبلاد الترك ، بينها وبين بلخ ثلاث عشرة مرحلة وكان بها رباط بنته السيدة زبيدة زوج الرشيد ، وأم الأمين ، وبها كثير من الأحجار الكريمة والمعادن النادرة .

بَرْغَش : قرية قرب طليطلة بالأندلس .

بِسْطَام : بلدة كبيرة على الطريق إلى نيسابور بعد دامغان ، ومنها الصوفى الزاهد « أبو يزيد البسطامى » ويقال إن من خواصها أن لم بها عاشق قط ، وأن العاشق إذا دخلها وشرب من مائها زال العشق عنه . وتحكى عن مائها وهوائها طرائف عجيبة .

بَطَلْيُوس : مدينة كبيرة بالأندلس من أعمال ماردة غربى قرطبة ، وينسب إليها خلق كثير من العلماء .

بَلاق : بلد فى آخر عمل الصعيد ، وأول النوبة ، كالحد بينهما .

بَلَرْم : أعظم مدينة فى جزيرة صقلية ، وقد تحدث ابن حوقل عنها كثيراً .

بَلَنْسِيَة : مدينة مشهورة بالأندلس ، برية بحرية ، ذات أشجار وأنهار ، وتعرف بمدينة التراب ، ويسمى أهلها « عرب الأندلس » ، ورد ذكرها كثيراً فى الشعر الأندلسى ومنه قول أبى العباس الزقاق :

كأن بلنســية كاعب … وملبسها السندس الأخضر
إذا جئتها سترت وجهها … بأكمامها فهى لا تظهـر

بُنْت : بلد بالأندلس من ناحية بلنسية ينسب إليها الشاعر أبو عبد الله البنى البلنسى .

بُوشَنْج : بليدة نزهة خصيبة فى واد مشتجر من نواحى هراة ، ذكرها الداودى فى شعر له يخاطب أبا إسحاق الاسفرايينى

وحلت إليك من بوشنج أرجو … بك العز الذى لا يستضام

تَاجَرة : بلدة صغيرة بالمغرب من ناحية هنين من سواحل تلمسان كان بها مولد عبد المؤمن بن على صاحب المغرب

تَادِلة : من جبال البربر بالمغرب قرب تلمسان وفاس منها أبو عبد الله القرطبى الأديب الشاعر .

تَدْمُر : مدينة قديمة مشهورة فى برية الشام بينها وبين حلب خمسة أيام ، ويزعم قوم أنها مما بنته الجن ، وفى هذا يقول النابغة الذبيانى :

إلا سليمان إذ قال الإله لـه … قم فى البرية فاحددها عن الفند
وخيِّر الجن أنى قد أمرتهم … يبنون تدمر بالصفاح والعمد

تِرْمِذ : بفتح التاء وكسرها مدينة مشهورة على نهر جيحون واشتهر من رجالها أبو عيسى الترمذى الضرير صاحب الصحيح ، وأحد الأئمة المقتدى بهم فى علوم الحديث .

تُسْتَر : أعظم مدينة بخوزستان ، وكانت مخططة على شكل فرس ، كما خططت جند يسابور على شكل رقعة الشطرنج ، وبها قبر البراء بن مالك الأنصارى ، وينسب إليها سهل ابن عبد الله بن يونس بن عيسى التسترى شيخ الصوفية المعروف .

تَكْرُور : بلاد تنسب إلى قبائل من السودان فى أقصى جنوب المغرب .

تَيْمَاء : بلد صغير فى أطراف الشام يطل عليه « الأبلق الفرد » حصن السموءل بن عادياء اليهودى وكان أهلها قد صالحوا النبى (ص) سنة تسع على الجزية ، فلما أجلى عمر بن الخطاب اليهود عن جزيرة العرب أجلاهم معهم .

جبال القُفْص: وتسمى أيضاً « جبال القفس » بالسين المهملة وهى من جبال كرمان مما يلى البحر .

جبال الصَّمَّان: الصمان أرض غليظة دون الجبل فيها ارتفاع وقيعان واسعة ، وقيل : هو جبل القمان فى أرض تميم ، وبينه وبين البصرة تسعة أيام .

جِيرَفْت : مدينة بكرمان جليلة كبيرة بها نخل كثير وفواكه كثيرة إلا أنها شديدة الحر ويقول الاصطخرى: إن لأهلها سنة حسنة فهم لا يرفعون من تمورهم ما أسقطته الريح ، بل هو للصعاليك ، وربما كثرت الرياح فيصير فيها إلى الصعاليك أكثر مما صار إلى أربابها .

جوزجان ، جُوزْجَانان : هما واحد ، وهو اسم كورة واسعة من كور بلخ بخراسان ، وهى بين مرو الروذ وبلخ ، وبها قتل يحيى بن زيد بن على بن الحسين رضى الله عنه ، وينسب إليها جماعة كثيرة من العلماء . منهم أبو إسحاق السعدى الجوزجانى المذكور فى تاريخ دمشق . (١٤٩/٢) .

جَرْجَرَايَا : بلد من أعمال النهروان الأسفل بين واسط وبغداد من الجانب الشرقى ، وممن ينسب إليها محمد بن الفضل الجرجرائى وزير المتوكل بعد ابن الزيات ، وقد ذكرها العمانى فى شعره إذ قال :

ألا يا حبذا يوماً جررنا … ذيول اللهو فيه بجرجرايا

جَلُولَاء : على طريق خراسان ، وبها كانت الوقعة المشهورة للمسلمين على الفرس سنة ١٩ هـ ، وسميت جلولاء الوقيعة ، لما أوقع بهم المسلمون من القتل ، وفيها يقول القعقاع بن عمرو

ويوم جلولاء الوقيعة أفنيت … بنو فارس لما حوتها الكتائب

جُنْدَيْسَابور : مدينة بخوزستان بناها سابور بن أزدشير فنسبت إليه وقد افتتحها المسلمون سنة ١٩هـ فى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى السنة التى تم فيها فتح نهاوند .

الجزيرة الخضراء : مدينة مشهورة بالأندلس ، وقبالتها من البر فى أفريقية سبته ، ولا يحيط بها البحر من جميع جهاتها ، وبهذا الاسم أيضاً جزيرة عظيمة بأرض الزنج يحيط بها البحر من كل جانب .

الجزائر الخالدات ، أو : جزر السعادة : يذكرها المنجمون فى كتبهم ، وهى عامرة فى اقصى المغرب فى البحر المحيط وكان بها مقام طائفة من الحكماء بنوا عليها قواعد علم النجوم .

جزيرة شُقْر : قال ياقوت : فى شرق الأندلس ، وهى أنزه بلاد الله وأكثرها روضة وشجراً وماء ، وكان ابن عائشة الأندلسى كثيراً ما يقيم بها وفيها يقول :

فيا راكبا مستعجل الخطو قاصداً   ألا عج بشقر رائحاً ومغاديا

جزيرة ابن عمر : بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام أول من عمرها الحسن بن عمر بن خطاب التغلبى ، وينسب إليها طائفة من أئمة فقه الشافعية .

الحِيرَةُ : مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له «النجف» وهى غير الحيرة : المحلة المشهورة بنيسابور والتى ينسب إليها كثير من المحدثين .

حَرَّان : مدينة عظيمة مشهورة كانت فى القديم عاصمة ديار مضر وهى على طريق الشام والروم ، وقد افتتحها المسلمون على يد عياض بن غنم فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وحران أيضاً قرية بغوطة دمشق ، وأخرى بحلب ، وثالثة ورابعة بالبحرين .

حُرَان : بالضم وتخفيف الراء : سكة معروفة بأصبهان ، وينسب إليها طائفة من العلماء .

الحِجْرُ : حجر الكعبة وهو ما تركت قريش فى بنائها من أساس إبراهيم عليه السلام وحجرت على الموضع ليعلم أنه من الكعبة فسمى حجراً ، وكان ابن الزبير أدخله فى الكعبة حين بناها ، فلما هدم الحجاج بناءه حرفه عما كان عليه فى الجاهلية ، وفى الحجر قبر هاجر أم إسماعيل عليه السلام .

الْحَوْرَاءُ : قال القضاعى : كورة من كور مصر القبلية فى آخر حدودها من جهة الحجاز على شاطئ البحر الأحمر ، وقيل : مرفأ سفن مصر إلى المدينة .

خَازَر : مكان بين نهر أربل والموصل ، ثم بين الزاب الأعلى والموصل ، وهو موضع كانت عنده واقعة بين عبيد الله بن زياد ومالك بن الأشتر النخعى فى أيام المختار ، ويومها قتل ابن زياد وذلك سنة ٩٩ للهجرة .

خُونَجَان : قرية من قرى أصبهان منها أبو محمد بن أبى نصر بن إبراهيم الخونجانى .

خُوزِسْتَان : مكان يتاخم تستر وجنديسابور من ناحية ، ويتاخم دجلة وأرض العراق من ناحية وأرضها أشبه بأرض العراق وهوائها ، وخوزستان اسم لجميع بلاد « الخوز » وكلمة « استان » فيها كياء النسب فى العربية ، وقد تحدث ياقوت الحموى كثيراً عن أهلها فى معجمه .

الخُتَّل : كورة واسعة على تخوم السند ، قال ياقوت « هى أجل من صنانيان وأوسع خطة وأكبر مدناً وأكثر خيراً ، وينسب إليها قوم من أهل العلم منهم : عباد بن موسى الختلى وابنه إسحاق وغيرهما .

دَرَن : من جبال البربر بالمغرب فيه عدة قبائل وبلدان وقرى .

دَهْلَك : اسم أعجمى معرب ويقال له دهيك أيضاً وهى جزيرة فى بحر اليمن ، وكانت المرسى بين بلاد اليمن والحبشة وهى بلاد ضيقة حارة ، حرجة ولذا كان بنو أمية إذا سخطوا على أحد نفوه إليها .

دِيَارُبَكر : بلاد كبيرة واسعة تنسب إلى بكر بن وائل بن قاسط ، وحدها – كما ذكر ياقوت – ما غرب من دجلة من بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة ، ومنه حصن كيفا وآمد ، وميافارقين .

دُومَةُ الْجَنْدَل : بضم الدال ، ويفتحها بعضهم وأنكره ابن دريد ، وعده من أغلاط المحدثين ووردت فى حديث الواقدى بلفظ « دوماء الجندل » وهى على سبع مراحل من دمشق بينها وبين المدينة المنورة وسميت بذلك لأن حصنها مبنى بالجندل ، ويعرف حصنها باسم « مارد » وهو حصن الأكيدر بن عبد الملك السكونى الذى أسره خالد بن الوليد وافتتح دومة الجندل عنوة سنة تسع من الهجرة ، فأطلقه الرسول وصالحه وآمنه ثم نقض الصلح بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

رَامَهُرْمُز : من مدن خوزستان تجمع النخل والجوز والأترنج ، وتسميها العامة « رامز » اختصاراً ، وقد ورد ذكرها فى شعر ورد بن الورد الجعدى إذ قال :

أمغتربا أصبحت فى رامهرمز   ألا كل كعبى هناك غريب

الرَّقَّة : وأصله كل أرض إلى جنب واد منبسط عليها الماء وجمعها رقاق ، وهى مدينة مشهورة على نهر الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام ، ويقال لها الرقة البيضاء ، وقد ورد ذكرها فى شعر سهيل بن عدى ، وعبيد الله بن قيس الرقيات ، وفى وصفها يقول ربيعة الرقى :

حبذا الرقة داراً وبلد   بلد ساكنه ممن تود
ما رأينا بلدة تعدلها   لا ولا أخبرنا عنها أحد

رُمّ : قيل : بئر بمكة ، ورم بالكسر ما فى البئر ، ورم بالفتح اسم مواضع بفارس هى أماكن للأكراد على ما ذكره : ياقوت

الرُّهَا : وتمد فيقال : الرهاء مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام . سميت باسم الذى استحدثها وهو الرهاء ابن سند بن مالك . وقد ذكرها ابن مقبل فقال :

رهوية مترع دونها   ترجع من عود وعس مرن

رُوزَان : بليدة قريبة من أبرقوية بأرض فارس ، وأيضاً قرية من قرى خوارزم .

الزّاب : أنهر بالعراق يحمل كل منها هذا الاسم وتنسب إلى من حفرها قديماً وهو على ماذكره ياقوت : زاب ابن توكان ، ومنها الزاب الأعلى ، والزاب الأسفل ، وعلى كل نهر منها قرى تسمى زابات . و « يوم الزاب » مشهور كان بين مروان « الملقب » بالحمار آخر الأمويين وبين بنى العباس وكان على « الزاب الأعلى » بين الموصل وإربل .

زَغَاوَة : قيل جنس من السودان ، وقيل : بلد فى جنوبى أفريقية بالمغرب ، ويقال إنه كانت للزغاوة مملكة عظيمة من ممالك السودان فى جهة الشرق منها مملكة النوبة .

سَابُور : مدينة تحمل اسم سابور الملك الذى ابتناها ، وبينها وبين شيراز خمسة وعشرون فرسخاً ، وكانت للمهلب بن أبى صفرة وقائع مع الخوارج ذكرها الشعراء ومنهم كعب الأشقرى إذ قال :

تساقوا بكأس الموت يوماً وليلة ... بسابور حتى كادت الشمس تطلع

وبالبحرين أيضاً موضع يسمى « سابور » فتح على يد العلاء ابن الحضرمى .

سَالِمْ : مدينة بالأندلس تتصل بأعمال باروشة ، وكان طارق ابن زياد لما افتتح الأندلس ألفاها خراباً فعمرها .

سِجِلْمَاسَة : مدينة فى جنوب المغرب ، بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب ، وهى عند نهاية جبال درن .

سِجِسْتَان : أطال ياقوت الحديث عنها فى معجمه فليراجع .

سَرَخْس : مدينة كبيرة من نواحى خراسان بين نيسابور ومرو ، وقد نسب إليها طائفة من الأئمة فى الفقه والحديث والقراءات .

سَرْدَانية : جزيرة فى بحر المغرب كبيرة . غزاها المسلمون وملكوها سنة ٩٢ هـ فى عسكر موسى بن نصير ، ويقال : إنها مدينة بصقلية .

السُّوس : بلدة بخوزستان يقال إن بها قبر النبى دانيال ، وأنها كانت آخر ما فتح من الأهواز على عهد عمر .

سَرَقُوسَة : مدينة بجزيرة صقلية كان بها قديماً عرش ملك الروم ، ذكرها ابن قلاقس فقال فى شعره : فى وصف صقلية :

وتكفلت سرقوسة بأماننا ... فى ملجأ للخائفين أمين

سَرُوج : بلدة قريبة من حران من ديار مضر فتحها صلحاً عياض بن غنم سنة ١٧ هـ على عهد عمر رضى الله عنه» . وهى التى ذكرها الحريرى على لسان أبى زيد السروجى فى مقاماته .

سُفَالَة : آخر مدينة تعرف بأرض الزنج ، وتعرف عند التجار قديماً بذهبها السفالى .

سُمَيْسَاط : مدينة على شاطئ الفرات ، وينسب إليها السميساطى المعروف بالحميش ، وقد ذكرها المتنبى فقال :

ودون سميساط المطامير والملا ... وأودية مجهولة وهواجل

شَاطِبَة : مدينة فى شرقى الأندلس شرق قرطبة ، وينسب إليها طائفة كبيرة من العلماء .

شَرِيش : مدينة كبيرة من أعمال شذونة بالأندلس وتسمى أيضاً شرش .

شَقُورة : مدينة بالأندلس شمالى مرسية تنسب إليها أبو الاصبغ عبد العزيز بن على الغافقى الشقورى الفقيه الحافظ .

شِيرَاز : بلد عظيمة مشهورة كانت عاصمة فارس وقد أطال فى وصفها والحديث عنها ياقوت فى معجمه .

الصُّغْد : قال ياقوت : هى كورة عجيبة قصبتها (عاصمتها) سمرقند ، وقد نسب إليها طائفة من أهل العلم .

صِفِّين : موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربى وكانت بها الوقعة المشهورة بين على رضى الله عنه ومعاوية سنة ٣٧ هـ .

طَرَاز : بلد قريب من أسبيجاب من ثغور الترك ، وينسب إلييه طائفة من المحدثين والعلماء .

طَلَبِيرَة : مدينة بالأندلس من أعمال طليطلة ، وقد عمرها وجددها عبد الرحمن الناصر .

العُرُوش : دار العروش قرية ، أو ماء باليمامة كما نقل ياقوت عن أبى حفصة .

غَافِق : حصن بالأندلس من أعمال « فحص البلوط » .

غَدَامس : ذكر ياقوت أنها مدينة بالمغرب فى جنوبيه تدبغ فيها الجلود الغدامسية .

قنطرة السيف : بالأندلس وينسب إليها ابن القنطرى ، ذكره ابن بشكوال .

مَرْو الشَّاهِجَان : هى مرو العظمى أشهر مدن خراسان ، وعاصمتها القديمة ، ذكره الحاكم أبو عبد الله فى « تاريخ نيسابور » والنسبة إليها مروزى .

مَرْو الرُّوز : مدينة قريبة من مرو الشاهجان ، على نهر عظيم سميت به ، والنسبة إليها مرورذى ، ومروذى ، وبها مات المهلب بن أبى صفرة .

مُكْرَان : وأكثر ما نجده فى شعر العرب مشددة وهى التى يقول فيها عمرو بن معد يكرب :

قوم هم ضربوا الجبابر إذ بغوا ... بالمشرفية من بنى ساسان

حتى استبيح قرى السواد وفارس ... والسهل والأجبال من مكران

هَرَاة : قال ياقوت : مدينة عظيمة من أمهات مدن خراسان محشوة بالعلماء ، مملوءة بأهل الفضل والثراء .

بسم الله الرحمن الرحيم

يَقُولُ الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى رَحْمَةِ رَبِّهِ الْغَنِيِّ بِلُطْفِهِ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ خَلْدُونَ الْحَضْرَمِيُّ وَفَّقَهُ اللهُ تَعَالَى .

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي لَهُ الْعِزَّةُ وَالْجَبَرُوتُ • وَبِيَدِهِ الْمُلْكُ وَالْمَلَكُوتُ • وَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَالنُّعُوتُ الْعَالِمِ فَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مَا تُظْهِرُهُ النَّجْوَى أَوْ يُخْفِيهِ السُّكُوتُ • الْقَادِرُ فَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا يَفُوتُ • أَنْشَأَنَا مِنَ الْأَرْضِ نَسَمًا وَاسْتَعْمَرَنَا فِيهَا أَجْيَالًا وَأُمَمًا • وَيَسَّرَ لَنَا مِنْهَا أَرْزَاقًا وَقِسَمًا • تُكِنُّنَا الْأَرْحَامُ وَالْبُيُوتُ • وَيَكْفُلُنَا الرِّزْقُ وَالْقُوتُ • وَتُبْلِينَا الْأَيَّامُ وَالْوُقُوتُ • وَتَعْتَوِرُنَا الْآجَالُ الَّتِي خَطَّ عَلَيْنَا كِتَابُهَا الْمَوْقُوتُ • وَلَهُ الْبَقَاءُ وَالثُّبُوتُ • وَهُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ • وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْعَرَبِيِّ الْمَكْتُوبِ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ الْمَنْعُوتِ • الَّذِي تَمَخَّضَ لِفِصَالِهِ الْكَوْنُ قَبْلَ أَنْ تَتَعَاقَبَ الْآحَادُ وَالسُّبُوتُ • وَيَتَبَايَنَ زُحَلُ وَالْبَهَمُوتُ (١) وَشَهِدَ بِصِدْقِهِ الْحَمَامُ وَالْعَنْكَبُوتُ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ لَهُمْ فِي مَحَبَّتِهِ وَأَتْبَاعِهِ الْأَثَرُ الْبَعِيدُ وَالصِّيتُ • وَالشَّمْلُ الْجَمِيعُ فِي مُظَاهَرَتِهِ وَلِعَدُوِّهِمِ الشَّمْلُ الشَّتِيتُ • صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ مَا اتَّصَلَ بِالْإِسْلَامِ جَدُّهُ الْمَبْخُوتُ • وَانْقَطَعَ بِالْكُفْرِ حَبْلُهُ الْمَبْتُوتُ • وَسَلَّمَ كَثِيرًا .

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ فَنَّ التَّارِيخِ مِنَ الْفُنُونِ الَّتِي تَتَدَاوَلُهَا الْأُمَمُ وَالْأَجْيَالُ • وَتُشَدُّ إِلَيْهِ الرَّكَائِبُ وَالرِّحَالُ • وَتَسْمُو إِلَى مَعْرِفَتِهِ السُّوقَةُ وَالْأَغْفَالُ • وَتَتَنَافَسُ فِيهِ الْمُلُوكُ وَالْأَقْيَالُ • وَيَتَسَاوَى فِي فَهْمِهِ الْعُلَمَاءُ وَالْجُهَّالُ • إِذْ هُوَ فِي ظَاهِرِهِ لَا يَزِيدُ عَلَى إِخْبَارٍ عَنِ الْأَيَّامِ وَالدُّوَلِ • وَالسَّوَابِقِ مِنَ الْقُرُونِ الْأُوَلِ • تَنْمُو فِيهَا الْأَقْوَالُ • وَتُضْرَبُ فِيهَا الْأَمْثَالُ • وَتُطْرَفُ بِهَا الْأَنْدِيَةُ إِذَا غَصَّهَا الِاحْتِفَالُ • وَتُؤَدِّي إِلَيْنَا شَأْنَ الْخَلِيقَةِ كَيْفَ تَقَلَّبَتْ بِهَا الْأَحْوَالُ وَاتَّسَعَ لِلدُّوَلِ فِيهَا النِّطَاقُ وَالْمَجَالُ • وَعَمَرُوا الْأَرْضَ حَتَّى نَادَى بِهِمُ الِارْتِحَالُ وَحَانَ مِنْهُمُ الزَّوَالُ • وَفِي بَاطِنِهِ نَظَرٌ وَتَحْقِيقٌ ، وَتَعْلِيلٌ لِلْكَائِنَاتِ وَمَبَادِيهَا دَقِيقٌ • وَعِلْمٌ بِكَيْفِيَّاتِ الْوَقَائِعِ وَأَسْبَابِهَا عَمِيقٌ • فَهُوَ لِذٰلِكَ أَصِيلٌ فِي الْحِكْمَةِ عَرِيقٌ ، وَجَدِيرٌ بِأَنْ يُعَدَّ فِي عُلُومِهَا وَخَلِيقٌ •

وَإِنَّ فُحُولَ الْمُؤَرِّخِينَ فِي الْإِسْلَامِ قَدِ اسْتَوْعَبُوا أَخْبَارَ الْأَيَّامِ وَجَمَعُوهَا • وَسَطَرُوهَا فِي صَفَحَاتِ الدَّفَاتِرِ وَأَوْدَعُوهَا • وَخَلَطَهَا الْمُتَطَفِّلُونَ بِدَسَائِسَ مِنَ الْبَاطِلِ وَهِمُوا فِيهَا أَوِ ابْتَدَعُوهَا • وَزَخَارِفَ مِنَ الرِّوَايَاتِ الْمُضْعَفَةِ لَفَّقُوهَا وَوَضَعُوهَا • وَاقْتَفَى

---

(١) فى هامش الأصل : البهموت هو النون أى الحوت ويسمى أيضا لوتيا كما فى المزهر وروح البيان . ومعلوم أن بينه وبين زحل الذى هو فى الفلك السابع بونا بعيداً . وقال الشهاب الخفاجى فى حاشيته على البيضاوى فى أول سورة نون : البهموت بفتح المثناة التحتية وسكون الهاء . وما اشتهر من أنه بالباء الموحدة غلط على ومثله فى روح البيان ا . هـ .

تِلْكَ الْآثَارَ الْكَثِيرُ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ وَاتَّبَعُوهَا • وَأَدَّوْهَا إِلَيْنَا كَمَا سَمِعُوهَا • وَلَمْ يُلَاحِظُوا أَسْبَابَ الْوَقَائِعِ وَالْأَحْوَالِ وَلَمْ يُرَاعُوهَا • وَلَا رَفَضُوا تُرَّهَاتِ الْأَحَادِيثِ وَلَا دَفَعُوهَا • فَالتَّحْقِيقُ قَلِيلٌ • وَطَرْفُ التَّنْقِيحِ فِي الْغَالِبِ كَلِيلٌ • وَالْغَلَطُ وَالْوَهْمُ نَسِيبٌ لِلْأَخْبَارِ وَخَلِيلٌ • وَالتَّقْلِيدُ عَرِيقٌ فِي الْآدَمِيِّينَ وَسَلِيلٌ • وَالتَّطَفُّلُ عَلَى الْفُنُونِ عَرِيضٌ وَطَوِيلٌ • وَمَرْعَى الْجَهْلِ بَيْنَ الْأَنَامِ وَخِيمٌ وَبِيلٌ • وَالْحَقُّ لَا يُقَاوَمُ سُلْطَانُهُ • وَالْبَاطِلُ يُقْذَفُ بِشِهَابِ النَّظَرِ شَيْطَانُهُ • وَالنَّاقِلُ إِنَّمَا هُوَ يُمْلِي وَيَنْقُلُ • وَالْبَصِيرَةُ تَنْقُدُ الصَّحِيحَ إِذَا تَمْقُلُ (١) • وَالْعِلْمُ يَجْلُو لَهَا صَفَحَاتِ الْقُلُوبِ وَيَصْقُلُ .

هٰذَا وَقَدْ دَوَّنَ النَّاسُ فِي الْأَخْبَارِ وَأَكْثَرُوا • وَجَمَعُوا تَوَارِيخَ الْأُمَمِ وَالدُّوَلِ فِي الْعَالَمِ وَسَطَّرُوا • وَالَّذِينَ ذَهَبُوا بِفَضْلِ الشُّهْرَةِ وَالْأَمَانَةِ الْمُعْتَبَرَةِ • وَاسْتَفْرَغُوا دَوَاوِينَ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي صُحُفِهِمُ الْمُتَأَخِّرَةِ • هُمْ قَلِيلُونَ لَا يَكَادُونَ يُجَاوِزُونَ عَدَدَ الْأَنَامِلِ • وَلَا حَرَكَاتِ الْعَوَامِلِ • مِثْلُ ابْنِ إِسْحٰقَ وَالطَّبَرِيِّ وَابْنِ الْكَلْبِيِّ ، وَمُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ الْوَاقِدِيِّ ، وَسَيْفِ ابْنِ عُمَرَ الْأَسَدِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمَشَاهِيرِ الْمُتَمَيِّزِينَ عَنِ الْجَمَاهِيرِ • وَإِنْ كَانَ فِي كُتُبِ الْمَسْعُودِيِّ وَالْوَاقِدِيِّ مِنَ الْمَطْعَنِ وَالْمَغْمَزِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْأَثْبَاتِ • وَمَشْهُورٌ بَيْنَ الْحَفَظَةِ الثِّقَاتِ • إِلَّا أَنَّ الْكَافَّةَ اخْتَصَّتْهُمْ بِقَبُولِ أَخْبَارِهِمْ • وَاقْتِفَاءِ سُنَنِهِمْ فِي التَّصْنِيفِ وَاتِّبَاعِ آثَارِهِمْ • وَالنَّاقِدُ الْبَصِيرُ قِسْطَاسُ نَفْسِهِ فِي تَزْيِيفِهِمْ فِيمَا يَنْقُلُونَ أَوِ اعْتِبَارِهِمْ • فَلِلْعُمْرَانِ طَبَائِعُ فِي أَحْوَالِهِ تَرْجِعُ إِلَيْهَا الْأَخْبَارُ • وَتُحْمَلُ عَلَيْهَا الرِّوَايَاتُ وَالْآثَارُ •

ثُمَّ إِنَّ أَكْثَرَ التَّوَارِيخِ لِهٰؤُلَاءِ عَامَّةُ الْمَنَاهِجِ وَالْمَسَالِكِ • لِعُمُومِ الدَّوْلَتَيْنِ صَدْرِ الْإِسْلَامِ فِي الْآفَاقِ وَالْمَمَالِكِ • وَتَنَاوُلِهَا الْبَعِيدَ مِنَ الْغَايَاتِ فِي الْمَآخِذِ وَالْمَتَارِكِ • وَمِنْ هٰؤُلَاءِ مَنِ اسْتَوْعَبَ مَا قَبْلَ الْمِلَّةِ مِنَ الدُّوَلِ وَالْأُمَمِ • وَالْأَمْرِ الْعَمَمِ • كَالْمَسْعُودِيِّ وَمَنْ نَحَا مَنْحَاهُ . وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ عَدَلَ عَنِ الْإِطْلَاقِ إِلَى التَّقْيِيدِ • وَوَقَفَ فِي الْعُمُومِ وَالْإِحَاطَةِ عَنِ الشَّأْوِ الْبَعِيدِ • فَقَيَّدَ شَوَارِدَ عَصْرِهِ • وَاسْتَوْعَبَ أَخْبَارَ أُفُقِهِ وَقُطْرِهِ • وَاقْتَصَرَ عَلَى تَارِيخِ دَوْلَتِهِ وَمِصْرِهِ • كَمَا فَعَلَ أَبُو حَيَّانَ مُؤَرِّخُ الْأَنْدَلُسِ وَالدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِهَا ، وَابْنُ الرَّفِيقِ مُؤَرِّخُ أَفْرِيقِيَّةَ وَالدَّوْلَةِ الَّتِي كَانَتْ بِالْقَيْرَوَانِ .

ثُمَّ لَمْ يَأْتِ مِنْ بَعْدِ هٰؤُلَاءِ إِلَّا مُقَلِّدٌ وَبَلِيدُ الطَّبْعِ وَالْعَقْلِ أَوْ مُتَبَلِّدٌ • يَنْسِجُ عَلَى ذٰلِكَ الْمِنْوَالِ • وَيَحْتَذِي مِنْهُ بِالْمِثَالِ • وَيَذْهَلُ عَمَّا أَحَالَتْهُ الْأَيَّامُ مِنَ الْأَحْوَالِ • وَاسْتَبْدَلَتْ بِهِ مِنْ عَوَائِدِ الْأُمَمِ وَالْأَجْيَالِ • فَيَجْلِبُونَ الْأَخْبَارَ عَنِ الدُّوَلِ • وَحِكَايَاتِ الْوَقَائِعِ فِي الْعُصُورِ الْأُوَلِ • صُوَرًا قَدْ تَجَرَّدَتْ عَنْ مَوَادِّهَا • وَصِفَاحًا انْتُضِيَتْ مِنْ أَغْمَادِهَا • وَمَعَارِفَ تُسْتَنْكَرُ لِلْجَهْلِ بِطَارِفِهَا وَتِلَادِهَا • إِنَّمَا هِيَ حَوَادِثُ لَمْ تُعْلَمْ أُصُولُهَا • وَأَنْوَاعٌ لَمْ تُعْتَبَرْ أَجْنَاسُهَا وَلَا تَحَقَّقَتْ فُصُولُهَا • يُكَرِّرُونَ فِي مَوْضُوعَاتِهِمُ الْأَخْبَارَ الْمُتَدَاوَلَةَ بِأَعْيَانِهَا • اتِّبَاعًا لِمَنْ عُنِيَ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ بِشَأْنِهَا • وَيُغْفِلُونَ أَمْرَ الْأَجْيَالِ النَّاشِئَةِ فِي دِيوَانِهَا • بِمَا أَعْوَزَ عَلَيْهِمْ مِنْ تَرْجُمَانِهَا •

---
(١) مقله يمقله : نظر إليه وتأمله .

فَتَسْتَعْجِمُ صُحُفُهُمْ عَنْ بَيَانِهَا . ثُمَّ إِذَا تَعَرَّضُوا لِذِكْرِ الدَّوْلَةِ نَسَقُوا أَخْبَارَهَا نَسْقًا . مُحَافِظِينَ عَلَى نَقْلِهَا وَهْمًا أَوْ صِدْقًا . لَا يَتَعَرَّضُونَ لِبِدَايَتِهَا . وَلَا يَذْكُرُونَ السَّبَبَ الَّذِي رَفَعَ مِنْ رَايَتِهَا . وَأَظْهَرَ مِنْ آيَتِهَا . وَلَا عِلَّةَ الْوُقُوفِ عِنْدَ غَايَتِهَا . فَيَبْقَى النَّاظِرُ مُتَطَلِّعًا بَعْدُ إِلَى افْتِقَادِ أَحْوَالِ مَبَادِئِ الدُّوَلِ وَمَرَاتِبِهَا . مُفَتِّشًا عَنْ أَسْبَابِ تَزَاحُمِهَا أَوْ تَعَاقُبِهَا . بَاحِثًا عَنِ الْمُقْنِعِ فِي تَبَايُنِهَا أَوْ تَنَاسُبِهَا . حَسْبَمَا نَذْكُرُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي مُقَدِّمَةِ الْكِتَابِ .

ثُمَّ جَاءَ آخَرُونَ بِإِفْرَاطِ الِاخْتِصَارِ . وَذَهَبُوا إِلَى الِاكْتِفَاءِ بِأَسْمَاءِ الْمُلُوكِ وَالْأَمْصَارِ . مَقْطُوعَةً عَنِ الْأَنْسَابِ وَالْأَخْبَارِ . مَوْضُوعَةً عَلَيْهَا أَعْدَادُ أَيَّامِهِمْ بِحُرُوفِ الْغُبَارِ . كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ رَشِيقٍ فِي مِيزَانِ الْعَمَلِ . وَمَنِ اقْتَفَى هَذَا الْأَثَرَ مِنَ الْهَمَلِ . وَلَيْسَ يُعْتَبَرُ لِهَؤُلَاءِ مَقَالٌ . وَلَا يُعَدُّ لَهُمْ ثُبُوتٌ وَلَا انْتِقَالٌ . لِمَا أَذْهَبُوا مِنَ الْفَوَائِدِ . وَأَخَلُّوا بِالْمَذَاهِبِ الْمَعْرُوفَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَالْعَوَائِدِ .

وَلَمَّا طَالَعْتُ كُتُبَ الْقَوْمِ . وَسَبَرْتُ غَوْرَ الْأَمْسِ وَالْيَوْمِ . نَبَّهْتُ عَيْنَ الْقَرِيحَةِ مِنْ سِنَةِ الْغَفْلَةِ وَالنَّوْمِ . وَسُمْتُ التَّصْنِيفَ مِنْ نَفْسِي وَأَنَا الْمُفْلِسُ أَحْسِنُ السَّوْمَ . فَأَنْشَأْتُ فِي التَّارِيخِ كِتَابًا . رَفَعْتُ بِهِ عَنْ أَحْوَالِ النَّاشِئَةِ مِنَ الْأَجْيَالِ حِجَابًا . وَفَصَّلْتُهُ فِي الْأَخْبَارِ وَالِاعْتِبَارِ بَابًا بَابًا . وَأَبْدَيْتُ فِيهِ لِأَوَّلِيَّةِ الدُّوَلِ وَالْعُمْرَانِ عِلَلًا وَأَسْبَابًا . وَبَنَيْتُهُ عَلَى أَخْبَارِ الْأُمَمِ الَّذِينَ عَمَرُوا الْمَغْرِبَ فِي هَذِهِ الْأَعْصَارِ . وَمَلَأُوا أَكْنَافَ الضَّوَاحِي مِنْهُ وَالْأَمْصَارِ . وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الدُّوَلِ الطِّوَالِ أَوِ الْقِصَارِ . وَمَنْ سَلَفَ لَهُمْ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْأَنْصَارِ . وَهُمَا الْعَرَبُ وَالْبَرْبَرُ . إِذْ هُمَا الْجِيلَانِ اللَّذَانِ عُرِفَ بِالْمَغْرِبِ مَأْوَاهُمَا . وَطَالَ فِيهِ عَلَى الْأَحْقَابِ مَثْوَاهُمَا . حَتَّى لَا يَكَادُ يُتَصَوَّرُ فِيهِ مَا عَدَاهُمَا . وَلَا يَعْرِفُ أَهْلُهُ مِنْ أَجْيَالِ الْآدَمِيِّينَ سِوَاهُمَا . فَهَذَّبْتُ مَنَاحِيَهُ تَهْذِيبًا . وَقَرَّبْتُهُ لِأَفْهَامِ الْعُلَمَاءِ وَالْخَاصَّةِ تَقْرِيبًا . وَسَلَكْتُ فِي تَرْتِيبِهِ وَتَبْوِيبِهِ مَسْلَكًا غَرِيبًا . وَاخْتَرَعْتُهُ مِنْ بَيْنِ الْمَنَاحِي مَذْهَبًا عَجِيبًا . وَطَرِيقَةً مُبْتَدَعَةً وَأُسْلُوبًا . وَشَرَحْتُ فِيهِ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمْرَانِ وَالتَّمَدُّنِ وَمَا يَعْرِضُ فِي الِاجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِيِّ مِنَ الْعَوَارِضِ الذَّاتِيَّةِ مَا يُمَتِّعُكَ بِعِلَلِ الْكَوَائِنِ وَأَسْبَابِهَا . وَيُعَرِّفُكَ كَيْفَ دَخَلَ أَهْلُ الدُّوَلِ مِنْ أَبْوَابِهَا . حَتَّى تَنْزِعَ مِنَ التَّقْلِيدِ يَدَكَ . وَتَقِفَ عَلَى أَحْوَالِ مَا قَبْلَكَ مِنَ الْأَيَّامِ وَالْأَجْيَالِ وَمَا بَعْدَكَ . وَرَتَّبْتُهُ عَلَى مُقَدِّمَةٍ وَثَلَاثَةِ كُتُبٍ :

الْمُقَدِّمَةُ : فِي فَضْلِ عِلْمِ التَّارِيخِ وَتَحْقِيقِ مَذَاهِبِهِ وَالْإِلْمَاعِ بِمَغَالِطِ الْمُؤَرِّخِينَ .

الْكِتَابُ الْأَوَّلُ : فِي الْعُمْرَانِ وَذِكْرِ مَا يَعْرِضُ فِيهِ مِنَ الْعَوَارِضِ الذَّاتِيَّةِ مِنَ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ . وَالْكَسْبِ وَالْمَعَاشِ وَالصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ وَمَا لِذَلِكَ مِنَ الْعِلَلِ وَالْأَسْبَابِ .

الْكِتَابُ الثَّانِي : فِي أَخْبَارِ الْعَرَبِ وَأَجْيَالِهِمْ وَدُوَلِهِمْ مُنْذُ مَبْدَإِ الْخَلِيقَةِ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ . وَفِيهِ الْإِلْمَاعُ بِبَعْضِ مَنْ عَاصَرَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَشَاهِيرِ وَدُوَلِهِمْ . مِثْلِ النَّبَطِ وَالسُّرْيَانِيِّينَ وَالْفُرْسِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْقِبْطِ وَالْيُونَانِ وَالرُّومِ وَالتُّرْكِ وَالْإِفْرَنْجَةِ .

الْكِتَابُ الثَّالِثُ : فِي أَخْبَارِ الْبَرْبَرِ وَمَوَالِيهِمْ مِنْ

زَنَاتَةَ • وَذِكْرِ أَوَّلِيَّتِهِمْ وَأَجْيَالِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم بِدِيَارِ الْمَغْرِبِ خَاصَّةً مِنَ الْمُلْكِ وَالدُّوَلِ .

ثُمَّ كَانَتِ الرِّحْلَةُ إِلَى الْمَشْرِقِ لِاجْتِلَاءِ أَنْوَارِهِ • وَقَضَاءِ الْفَرْضِ وَالسُّنَّةِ فِي مَطَافِهِ وَمَزَارِهِ • وَالْوُقُوفِ عَلَى آثَارِهِ فِي دَوَاوِينِهِ وَأَسْفَارِهِ • فَأَفَدْتُ مَا نَقَصَ مِنْ أَخْبَارِ مُلُوكِ الْعَجَمِ بِتِلْكَ الدِّيَارِ • وَدُوَلِ التُّرْكِ فِيمَا مَلَكُوهُ مِنَ الْأَقْطَارِ • وَأَتْبَعْتُ بِهَا مَا كَتَبْتُهُ فِي تِلْكَ الْأَسْطَارِ • وَأَدْرَجْتُهَا فِي ذِكْرِ الْمُعَاصِرِينَ لِتِلْكَ الْأَجْيَالِ مِنْ أُمَمِ النَّوَاحِي • وَمُلُوكِ الْأَمْصَارِ وَالضَّوَاحِي • سَالِكًا سَبِيلَ الِاخْتِصَارِ وَالتَّلْخِيصِ • مُقْتَدِيًا بِالْمَرَامِ السَّهْلِ مِنَ الْعَوِيصِ • دَاخِلًا مِنْ بَابِ الْأَسْبَابِ عَلَى الْعُمُومِ • إِلَى الْإِخْبَارِ عَلَى الْخُصُوصِ . فَاسْتَوْعَبَ أَخْبَارَ الْخَلِيقَةِ اسْتِيعَابًا • وَذَلَّلَ مِنَ الْحِكَمِ النَّافِرَةِ صِعَابًا • وَأَعْطَى لِحَوَادِثِ الدُّوَلِ عِلَلًا وَأَسْبَابًا • فَأَصْبَحَ لِلْحِكْمَةِ صِوَانًا • وَلِلتَّارِيخِ جِرَابًا .

وَلَمَّا كَانَ مُشْتَمِلًا عَلَى أَخْبَارِ الْعَرَبِ وَالْبَرْبَرِ • مِنْ أَهْلِ الْمَدَرِ وَالْوَبَرِ • وَالْإِلْمَاعِ بِمَنْ عَاصَرَهُمْ مِنَ الدُّوَلِ الْكُبَرِ • وَأَفْصَحَ بِالذِّكْرَى وَالْعِبَرِ • فِي مُبْتَدَإِ الْأَحْوَالِ وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْخَبَرِ • سَمَّيْتُهُ « كِتَابَ الْعِبَرِ • وَدِيوَانَ الْمُبْتَدَإِ وَالْخَبَرِ • فِي أَيَّامِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَالْبَرْبَرِ • وَمَنْ عَاصَرَهُمْ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ الْأَكْبَرِ • »

وَلَمْ أَتْرُكْ شَيْئًا فِي أَوَّلِيَّةِ الْأَجْيَالِ وَالدُّوَلِ • وَتَعَاصُرِ الْأُمَمِ الْأُوَلِ • وَأَسْبَابِ التَّصَرُّفِ وَالْحِوَلِ • فِي الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ وَالْمِلَلِ • وَمَا يَعْرِضُ فِي الْعُمْرَانِ مِنْ دَوْلَةٍ وَمِلَّةٍ • وَمَدِينَةٍ وَحِلَّةٍ • وَعِزَّةٍ وَذِلَّةٍ • وَكَثْرَةٍ وَقِلَّةٍ • وَعِلْمٍ وَصِنَاعَةٍ • وَكَسْبٍ وَإِضَاعَةٍ • وَأَحْوَالٍ مُتَقَلِّبَةٍ مُشَاعَةٍ • وَبَدْوٍ وَحَضَرٍ • وَوَاقِعٍ وَمُنْتَظَرٍ • إِلَّا وَاسْتَوْعَبْتُ جُمَلَهُ • وَأَوْضَحْتُ بَرَاهِينَهُ وَعِلَلَهُ • فَجَاءَ هَذَا الْكِتَابُ فَذًّا بِمَا ضَمَّنْتُهُ مِنَ الْعُلُومِ الْغَرِيبَةِ • وَالْحِكَمِ الْمَحْجُوبَةِ الْقَرِيبَةِ • وَأَنَا مِنْ بَعْدِهَا مُوقِنٌ بِالْقُصُورِ بَيْنَ أَهْلِ الْعُصُورِ • مُعْتَرِفٌ بِالْعَجْزِ عَنِ الْمَضَاءِ فِي مِثْلِ هَذَا الْقَضَاءِ • رَاغِبٌ مِنْ أَهْلِ الْيَدِ الْبَيْضَاءِ • وَالْمَعَارِفِ الْمُتَّسِعَةِ الْفَضَاءِ • فِي النَّظَرِ بِعَيْنِ الِانْتِقَادِ لَا بِعَيْنِ الِارْتِضَاءِ • وَالتَّغَمُّدِ لِمَا يَعْثُرُونَ عَلَيْهِ بِالْإِصْلَاحِ وَالْإِغْضَاءِ • فَالْبِضَاعَةُ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ مُزْجَاةٌ • وَالِاعْتِرَافُ – مِنَ اللَّوْمِ – مَنْجَاةٌ • وَالْحُسْنَى مِنَ الْإِخْوَانِ مُرْتَجَاةٌ • وَاللَّهَ أَسْأَلُ أَنْ يَجْعَلَ أَعْمَالَنَا خَالِصَةً لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

وَبَعْدَ أَنِ اسْتَوْفَيْتُ عِلَاجَهُ • وَأَنَرْتُ مِشْكَاتَهُ لِلْمُسْتَبْصِرِينَ وَأَذْكَيْتُ سِرَاجَهُ • وَأَوْضَحْتُ بَيْنَ الْعُلُومِ طَرِيقَهُ وَمِنْهَاجَهُ • وَأَوْسَعْتُ فِي فَضَاءِ الْمَعَارِفِ نِطَاقَهُ وَأَدَرْتُ سِيَاجَهُ • أَتْحَفْتُ بِهَذِهِ النُّسْخَةِ مِنْهُ (١) خِزَانَةَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْإِمَامِ

(١) قوله أتحفت بهذه النسخة منه الخ وجد فى نسخة بخط بعض فضلاء المغاربة زيادة قبل قوله أتحفت وبعد قوله وأدرت سياجه ونصها : التمست له الكفء الذى يلمح بعين الاستبصار فنونه . ويلحظ بمداركه الشريفة معياره الصحيح وقانونه . ويميز رتبته فى المعارف عما دونه . فسرحت فكرى فى فضاء الوجود . وأجلت نظرى ليل التمام والمجود . بين التهائم والنجود . فى العلماء الركع والسجود . والخلفاء أهل الكرم والجود حتى وقف الاختيار بساحة الكمال . وطافت الأفكار بموقف الآمال . وظفرت أيدى المساعى والأعمال بمنتدى المعارف مشرقة فيه غرر الجمال وحدائق العلوم الوارفة الظلال ، عن اليمين والشمال . فأنخت مطى الأفكار فى عرصاتها ، وجلوت محاسن الأنظار على منصاتها . واتحفت بديوانها مقاصير إيوانها . وأطلعته كوكباً وقاداً فى أفق خزانتها وصوانها . ليكون آية للعقلاء يهتدون بمناره . ويعرفون فضل المدارك الإنسانية فى آثاره . وهى خزانة مولانا السلطان الإمام المجاهد . الفاتح الماهد . إلى آخر =

الْمُجَاهِد . الْفَاتِحِ الْمَاهِدِ . الْمتحلى مُنْذُ خَلْعِ التَّمَائِمِ . وَلَوْثِ الْعَمَائِمِ . بِحلي الْقَانِتِ الزَّاهِدِ . الْمُتَوَشِّحِ بِزَكَاءِ الْمَنَاقِبِ وَالْمَحَامِدِ . وَكَرَمِ الشَّمَائِلِ وَالشَّوَاهِدِ . بِأَجْمَلَ مِنَ الْقَلَائِدِ . فِي نُحُورِ الْوَلَائِدِ . الْمُتَنَاوِلِ بِالْعَزْمِ الْقَوِيِّ السَّاعِدِ . وَالْجِدِّ الْمُوَاتِي الْمُسَاعِدِ . وَالْمَجْدِ الطَّارِفِ وَالتَّالِدِ . ذَوَائِبَ مُلْكِهِمِ الرَّاسِي الْقَوَاعِدِ . الْكَرِيمِ الْمَعَالِي وَالْمَصَاعِدِ . جَامِعِ أَشْتَاتِ الْعُلُومِ وَالْفَوَائِدِ . وَنَاظِمِ شَمْلِ الْمَعَارِفِ الشَّوَارِدِ . وَمُظْهِرِ الْآيَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ . فِي فَضْلِ الْمَدَارِكِ الْإِنْسَانِيَّةِ . بِفِكْرِهِ الثَّاقِبِ النَّاقِدِ . وَرَأْيِهِ الصَّحِيحِ الْمَعَاقِدِ . النَّيِّرِ الْمَذَاهِبِ وَالْعَقَائِدِ . نُورِ اللهِ الْوَاضِحِ الْمَرَاشِدِ وَنِعْمَتِهِ الْعَذْبَةِ الْمَوَارِدِ . وَلُطْفِهِ الْكَامِنِ بِالْمَرَاصِدِ لِلشَّدَائِدِ . وَرَحْمَتِهِ الْكَرِيمَةِ الْمَقَالِدِ . الَّتِي وَسِعَتْ صَلَاحَ الزَّمَانِ الْفَاسِدِ . وَاسْتِقَامَةَ الْمَائِدِ مِنَ الْأَحْوَالِ وَالْعَوَائِدِ . وَذَهَبَتْ بِالْخُطُوبِ الْأَوَابِدِ . وَخَلَعَتْ عَلَى الزَّمَانِ رَوْنَقَ الشَّبَابِ الْعَائِدِ . وَحُجَّتِهِ الَّتِي لَا يُبْطِلُهَا إِنْكَارُ الْجَاحِدِ وَلَا شُبُهَاتُ الْمُعَانِدِ . (أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ) أَبِي فَارِسٍ عَبْدِ الْعَزِيزِ ابْنِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمُعَظَّمِ الشَّهِيرِ الشَّهِيدِ أَبِي سَالِمٍ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمُقَدَّسِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ . أَبِي الْحَسَنِ ابْنِ السَّادَةِ الْأَعْلَامِ مِنْ مُلُوكِ بَنِي مَرِينَ . الَّذِينَ جَدَّدُوا الدِّينَ . وَنَهَجُوا السَّبِيلَ لِلْمُهْتَدِينَ . وَمَحَوْا آثَارَ الْبُغَاةِ الْمُفْسِدِينَ . أَفَاءَ اللهُ عَلَى الْأُمَّةِ ظِلَالَهُ . وَبَلَّغَهُ فِي نَصْرِ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ آمَالَهُ . وَبَعَثْتُهُ إِلَى خِزَانَتِهِمِ الْمَوْقُوفَةِ لِطَلَبَةِ الْعِلْمِ بِجَامِعِ الْقَرَوِيِّينَ مِنْ مَدِينَةِ فَاسَ حَاضِرَةِ مُلْكِهِمْ وَكُرْسِيِّ سُلْطَانِهِمْ . حَيْثُ مَقَرُّ الْهُدَى . وَرِيَاضُ الْمَعَارِفِ خَضِلَةُ النَّدَى . وَفَضَاءُ الْأَسْرَارِ الرَّبَّانِيَّةِ فَسِيحُ الْمَدَى . وَالْإِمَامَةُ الْكَرِيمَةُ الْفَارِسِيَّةُ(١) الْعَزِيزَةُ إِنْ شَاءَ اللهُ بِنَظَرِهَا الشَّرِيفِ . وَفَضْلِهَا الْغَنِيِّ عَنِ التَّعْرِيفِ . تَبْسُطُ لَهُ مِنَ الْعِنَايَةِ مِهَادًا . وَتَفْسَحُ لَهُ فِي جَانِبِ الْقَبُولِ آمَادًا . فَتُوضِحُ بِهَا أَدِلَّةً عَلَى رُسُوخِهِ وَأَشْهَادًا . فَفِي سُوقِهَا تَنْفُقُ بَضَائِعُ الْكُتَّابِ وَعَلَى حَضْرَتِهَا تُعْكَفُ رَكَائِبُ الْعُلُومِ وَالْآدَابِ . وَمِنْ مَدَدِ بَصَائِرِهَا الْمُنِيرَةِ نَتَائِجُ الْقَرَائِحِ وَالْأَلْبَابِ . وَاللهُ يُوزِعُنَا شُكْرَ نِعْمَتِهَا . وَيُوَفِّرُ لَنَا حُظُوظَ الْمَوَاهِبِ مِنْ رَحْمَتِهَا . وَيُعِينُنَا عَلَى حُقُوقِ خِدْمَتِهَا . وَيَجْعَلُنَا مِنَ السَّابِقِينَ فِي مَيْدَانِهَا الْمُجَلِّينَ فِي حَوْمَتِهَا . وَيُضْفِي عَلَى أَهْلِ إِيَالَتِهَا . وَمَا أَوَى مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَى حَرَمِ عِمَالَتِهَا . لَبُوسَ حِمَايَتِهَا وَحُرْمَتِهَا . وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْمَسْئُولُ أَنْ يَجْعَلَ أَعْمَالَنَا خَالِصَةً فِي وِجْهَتِهَا . بَرِيئَةً مِنْ شَوَائِبِ الْغَفْلَةِ وَشُبْهَتِهَا وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

= النعوت المذكورة هنا ثم قال : الخليفة أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين أبو العباس أحمد ابن مولانا الأمير الطاهر المقدس أبي عبد الله محمد ابن مولانا الخليفة المقدس أمير المؤمنين ، أبي يحيى أبي بكر ابن الخلفاء الراشدين. من أئمة الموحدين الذين جددوا الدين . ونهجوا السبل للمهتدين . ومحوا آثار البغاة المفسدين من المجسمة والمعتدين . سلالة أبي حفص الفاروق . والنبعة النامية على تلك المغارس الزاكية والعروق. والنور المتلالى من تلك الأشعة والبروق . فأوردته من مودعها إلى العلى بحيث مقر الهدى . ورياض المعارف خضلة الندى إلى آخر ما ذكر هنا إلا أنه لم يقيد الإمامة بالفارسية لكن النسخة المذكورة مختصرة عن هذه النسخة المنقولة من خزانة الكتب الفارسية ولم يقل فيها ثم كانت الرحلة إلى المشرق الخ .

(١) الفارسية أى المنسوبة إلى أبى فارس المتقدم ذكره ا

المقدمة

فى فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شىء من أسبابها

إعْلَمْ أنَّ فَنَّ التَّارِيخِ فَنٌّ عَزِيزُ الْمَذْهَبِ، جَمُّ الْفَوَائِدِ، شَرِيفُ الْغَايَةِ، إذْ هُوَ يُوقِفُنَا عَلَى أَحْوَالِ الْمَاضِينَ مِنَ الْأُمَمِ فِى أَخْلَاقِهِمْ. وَالْأَنْبِيَاء فى سِيَرِهِمْ. وَالْمُلُوكِ فى دُوَلِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ. حَتَّى تَتِمَّ فَائِدَةُ الِاقْتِدَاء فى ذٰلِكَ لِمَنْ يَرُومُهُ فى أَحْوَالِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، فَهُوَ مُحْتَاجٌ إلَى مَآخِذَ مُتَعَدِّدَة، وَمَعَارِفَ مُتَنَوِّعَةٍ، وَحُسْنِ نَظَرٍ وَتَثَبُّتٍ يُفْضِيَانِ بِصَاحِبِهِمَا إلَى الْحَقِّ، وَيُنَكِّبَانِ بِهِ عَنِ الْمَزَلَّاتِ وَالمغَالِطِ لِأَنَّ الْأَخْبَارَ إذَا اعْتُمِدَ فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ النَّقْلِ، وَلَمْ تُحَكَّمْ أُصُولُ الْعَادَةِ، وَقَوَاعِدُ السِّيَاسَةِ، وَطَبِيعَةُ الْعُمْرَانِ وَالْأَحْوَال فى الِاجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِى، وَلَا قِيسَ الْغَائِبُ مِنْهَا بِالشَّاهِدِ، وَالْحَاضِرُ بِالذَّاهِبِ، فَرُبَّمَا لَمْ يُؤْمَنْ فِيهَا مِنَ الْعُثُورِ وَمَزَلَّةِ الْقَدَمِ، وَالْحَيْدِ عَنْ جَادَّةِ الصِّدْقِ. وَكَثِيرًا مَا وَقَعَ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَالْمُفَسِّرِينَ وَأَئِمَّةِ النَّقْلِ مِنَ الْمَغَالِطِ فى الْحِكَايَاتِ وَالْوَقَائِعِ. لِاعْتِمَادِهِمْ فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ النَّقْلِ غَثًّا أَوْ سَمِينًا، وَلَمْ يَعْرِضُوهَا عَلَى أُصُولِهَا، وَلَا قَاسُوهَا بِأَشْبَاهِهَا، وَلَا سَبَرُوهَا بِمِعْيَارِ الْحِكْمَةِ وَالْوُقُوفِ عَلَى طَبَائِعِ الْكَائِنَاتِ وَتَحْكِيمِ النَّظَرِ وَالْبَصِيرَةِ فى الْأَخْبَارِ، فَضَلُّوا عَنِ الْحَقِّ وَتَاهُوا فى بَيْدَاءِ الْوَهْمِ وَالْغَلَطِ، وَلَا سِيَّمَا فى إحْصَاءِ الْأَعْدَادِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْعَسَاكِرِ إذَا عَرَضَتْ فى الْحِكَايَاتِ، إذْ هِىَ مَظِنَّةُ الْكَذِبِ وَمَطِيَّةُ الْهَذَرِ، وَلَا بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إلَى الْأُصُولِ وَعَرْضِهَا عَلَى الْقَوَاعِدِ، وَهٰذَا كَمَا نَقَلَ الْمَسْعُودِى وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ فى جُيُوشِ بَنِى إِسْرَائِيلَ بِأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَحْصَاهُمْ فى التِّيهِ بَعْدَ أَنْ أَجَازَ مَنْ يُطِيقُ حَمْلَ السِّلَاحِ، خَاصَّةً مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ فَمَا فَوْقَهَا، فَكَانُوا سِتَّمِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ، وَيَذْهَلُ فى ذٰلِكَ عَنْ تَقْدِيرِ مِصْرَ وَالشَّامِ وَاتِّسَاعِهِمَا لِمِثْلِ هٰذَا الْعَدَدِ مِنَ الْجُيُوشِ. لِكُلِّ مَمْلَكَةٍ مِنَ الْمَمَالِكِ حِصَّةٌ مِنَ الْحَامِيَةِ تَتَّسِعُ لَهَا وَتَقُومُ بِوَظَائِفِهَا، وَتَضِيقُ عَمَّا فَوْقَهَا، تَشْهَدُ بِذٰلِكَ الْعَوَائِدُ الْمَعْرُوفَةُ، وَالْأَحْوَالُ الْمَأْلُوفَةُ

٦ ثُمَّ إنَّ مِثْلَ هٰذِهِ الْجُيُوشِ الْبَالِغَةِ إلَى مِثْلِ هٰذَا الْعَدَدِ، يَبْعُدُ أَنْ يَقَعَ بَيْنَهَا زَحْفٌ أَوْ قِتَالٌ، لِضِيقِ سَاحَةِ الْأَرْضِ عَنْهَا، وَبُعْدِهَا إذَا اصْطَفَّتْ عَنْ مَدَى الْبَصَرِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا أَوْ أَزْيَدَ، فَكَيْفَ يَقْتَتِلُ هٰذَانِ الْفَرِيقَانِ أَوْ تَكُونُ غَلَبَةُ أَحَدِ الصَّفَّيْنِ وَشَىْءٌ مِنْ جَوَانِبِهِ لَا يَشْعُرُ بِالْجَانِبِ الْآخَرِ وَالْحَاضِرُ يَشْهَدُ لِذٰلِكَ فَالْمَاضِى أَشْبَهُ بِالْآتِى مِنَ الْمَاءِ بِالْمَاءِ.

وَلَقَدْ كَانَ مُلْكُ الْفُرْسِ – وَدَوْلَتُهُمْ أَعْظَمَ، مِنْ مُلْكِ بَنِى إسْرَائِيلَ بِكَثِيرٍ – يَشْهَدُ لِذٰلِكَ مَا كَانَ مِنْ غَلَبِ بُخْتَنَصَّرَ لَهُمْ وَالْتِهَامِهِ بِلَادَهُمْ وَاسْتِيلَائِهِ عَلَى أَمْرِهِمْ وَتَخْرِيبِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ قَاعِدَةِ مِلَّتِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ، وَهُوَ مِنْ بَعْضِ عُمَّالِ مَمْلَكَةِ فَارِسَ، يُقَالُ إنَّهُ كَانَ مَرْزُبَانُ الْمَغْرِبِ مِنْ تُخُومِهَا، وَكَانَتْ مَمَالِكُهُمْ بِالْعِرَاقَيْنِ وَخُرَاسَانَ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ، وَالْأَبْوَابُ أَوْسَعُ مِنْ مَمَالِكِ بَنِى إسْرَائِيلَ بِكَثِيرٍ. وَمَعَ ذٰلِكَ

لَمْ تَبْلُغْ جُيُوشُ الْفُرْسِ قَطُّ مِثْلَ هٰذَا الْعَدَدِ وَلَا قَرِيباً مِنْهُ ، وَأَعْظَمُ مَا كَانَتْ جُمُوعُهُمْ بِالْقَادِسِيَّةِ مِائَةٌ وَعِشْرِينَ أَلْفاً ، كُلُّهُمْ مَتْبُوعٌ عَلَى مَا نَقَلَهُ سَيْفٌ قَالَ : وَكَانُوا فِى أَتْبَاعِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ مِائَتَىْ أَلْفٍ . وَعَنْ عَائِشَةَ وَالزُّهْرِىِّ أَنَّ جُمُوعَ رُسْتُمَ الَّتِى زَحَفَ بِهِمْ لِسَعْدٍ بِالْقَادِسِيَّةِ إِنَّمَا كَانُوا سِتِّينَ أَلْفاً ، كُلُّهُمْ مَتْبُوعٌ .

وَأَيْضاً فَلَوْ بَلَغَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِثْلَ هٰذَا الْعَدَدِ لَاتَّسَعَ نِطَاقُ مُلْكِهِمْ ، وَانْفَسَحَ مَدَى دَوْلَتِهِمْ ، فَإِنَّ الْعِمَالَاتِ وَالْمَمَالِكَ فِى الدُّوَلِ عَلَى نِسْبَةِ الْحَامِيَةِ وَالْقَبِيلِ الْقَائِمِينَ بِهَا ، فِى قِلَّتِهَا وَكَثْرَتِهَا حَسْبَمَا نُبَيِّنُ فِى فَصْلِ الْمَمَالِكِ مِنَ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ ، وَالْقَوْمُ لَمْ تَتَّسِعْ مَمَالِكُهُمْ إِلَى غَيْرِ الْأُرْدُنِ وَفِلَسْطِينَ مِنَ الشَّامِ وَبِلَادِ يَثْرِبَ وَخَيْبَرَ مِنَ الْحِجَازِ عَلَى مَا هُوَ الْمَعْرُوفُ .

وَأَيْضاً فَالَّذِى بَيْنَ مُوسَى وَإِسْرَائِيلَ إِنَّمَا هُوَ أَرْبَعَةُ آبَاءٍ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْمُحَقِّقُونَ فَإِنَّهُ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ بْنِ يَصْهُرَ بْنِ قَاهَتَ بِفَتْحِ الْهَاءِ وَكَسْرِهَا ابْنِ لَاوِى بِكَسْرِ الْوَاوِ وَفَتْحِهَا ، ابْنِ يَعْقُوبَ وَهُوَ إِسْرَائِيلُ اللهِ هٰكَذَا نَسَبُهُ فِى التَّوْرَاةِ ، وَالْمُدَّةُ بَيْنَهُمَا عَلَى مَا نَقَلَهُ الْمَسْعُودِىُّ قَالَ : دَخَلَ إِسْرَائِيلُ مِصْرَ مَعَ وُلْدِهِ الْأَسْبَاطِ وَأَوْلَادِهِمْ حِينَ أَتَوْا إِلَى يُوسُفَ سَبْعِينَ نَفْساً ، وَكَانَ مُقَامُهُمْ بِمِصْرَ إِلَى أَنْ خَرَجُوا مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى التِّيهِ مِائَتَيْنِ وَعِشْرِينَ سَنَةً تَتَدَاوَلُهُمْ مُلُوكُ الْقِبْطِ مِنَ الْفَرَاعِنَةِ وَيَبْعُدُ أَنْ يَتَشَعَّبَ النَّسْلُ فِى أَرْبَعَةِ أَجْيَالٍ إِلَى مِثْلِ هٰذَا الْعَدَدِ وَإِنْ زَعَمُوا أَنَّ عَدَدَ تِلْكَ الْجُيُوشِ إِنَّمَا كَانَ فِى زَمَنِ سُلَيْمَانَ وَمَنْ بَعْدَه فَبَعِيدٌ أَيْضاً إِذْ لَيْسَ بَيْنَ سُلَيْمَانَ وَإِسْرَائِيلَ إِلَّا أَحَدَ عَشَرَ أَباً فَإِنَّ سُلَيْمَانَ ابْنُ دَاوُدَ بْنِ إِيشَا بن عُوفِيذَ وَيُقَالُ ابْنِ عُوفِذَ بْنِ بَاعِزَ وَيُقَالُ بُوعَزَ بْنِ سَلْمُونَ بْنِ نَحْشُونَ بْنِ عَمِّينُوذَبَ وَيُقَالُ حَمِّينَاذَابَ بْنِ رَمٍّ بْنِ حَصْرُونَ وَيُقَالُ حَسْرُونَ بْنِ بَارِسَ وَيُقَالُ بِيرْسَ بْنِ يَهُوذَا ابْنِ يَعْقُوبَ وَلَا يَتَشَعَّبُ النَّسْلُ فِى أَحَدَ عَشَرَ مِنَ الْوُلْدِ إِلَى مِثْلِ هٰذَا الْعَدَدِ الَّذِى زَعَمُوهُ ، اللَّهُمَّ إِلَى الْمِئِينَ وَالْآلَافِ فَرُبَّمَا يَكُونُ ، وَأَمَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ إِلَى مَا بَعْدَهُمَا مِنْ عُقُودِ الْأَعْدَادِ فَبَعِيدٌ ، وَاعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِى الْحَاضِرِ الْمُشَاهَدِ ، وَالْقَرِيبِ الْمَعْرُوفِ تَجِدْ زَعْمَهُمْ بَاطِلاً ، وَنَقْلَهُمْ كَاذِباً (وَالَّذِى ثَبَتَ فِى الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ) أَنَّ جُنُودَ سُلَيْمَانَ كَانَتِ اثْنَى عَشَرَ أَلْفاً خَاصَّةً ، وَأَنَّ مُقَرَّبَاتِهِ كَانَتْ أَلْفاً وَأَرْبَعَمِائَةِ فَرَسٍ مُرْتَبِطَةً عَلَى أَبْوَابِهِ ، هٰذَا هُوَ الصَّحِيحُ مِنْ أَخْبَارِهِمْ ، وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى خُرَافَاتِ الْعَامَّةِ مِنْهُمْ وَفِى أَيَّامِ سُلَيْمَانَ (عليه السلام) وَمُلْكِهِ ، كَانَ عُنْفُوَانُ دَوْلَتِهِمْ وَاتِّسَاعُ مُلْكِهِمْ ، هٰذَا وَقَدْ نَجِدُ الْكَافَّةَ مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ إِذَا أَفَاضُوا فِى الْحَدِيثِ عَنْ عَسَاكِرِ الدُّوَلِ الَّتِى لِعَهْدِهِمْ أَوْ قَرِيباً مِنْهُ وَتَفَاوَضُوا فِى الْأَخْبَارِ عَنْ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ أَوِ النَّصَارَى أَوْ أَخَذُوا فِى إِحْصَاءِ أَمْوَالِ الْجِبَايَاتِ وَخَرَاجِ السُّلْطَانِ وَنَفَقَاتِ الْمُتْرَفِينَ ، وَبَضَائِعِ الْأَغْنِيَاءِ الْمُوسِرِينَ تَوَغَّلُوا فِى الْعَدَدِ وَتَجَاوَزُوا حُدُودَ الْعَوَائِدِ ، وَطَاوَعُوا وَسَاوِسَ الْإِغْرَابِ ، فَإِذَا اسْتُكْشِفَ أَصْحَابُ الدَّوَاوِينِ عَنْ عَسَاكِرِهِمْ وَاسْتُنْبِطَتْ أَحْوَالُ أَهْلِ الثَّرْوَةِ فِى بَضَائِعِهِمْ وَفَوَائِدِهِمْ وَاسْتُجْلِيَتْ عَوَائِدُ الْمُتْرَفِينَ فِى نَفَقَاتِهِمْ ، لَمْ تَجِدْ مِعْشَارَ مَا يَعُدُّونَهُ ، وَمَا ذٰلِكَ إِلَّا لِوُلُوعِ

النَّفْسِ بِالْغَرائِبِ وَسُهولَةِ التَّجاوُزِ عَلَى اللِّسانِ ، وَالْغَفْلَةِ عَلَى الْمُتَعَقِّبِ وَالْمُنْتَقِدِ ،حتى لَا يُحاسِبُ نَفْسَهُ عَلَى خَطإٍ وَلَا عَمْدٍ ، وَلَا يطالبُها فى الْخبر بِتوسُّط وَلَا عَدالة وَلَا يُرْجِعُها إِلَى بَحْثٍ وَتَفْتيش فَيُرْسِلُ عِنانَهُ ،وَيُسِيمُ فى مَراتِعِ الْكَذِبِ لِسانَهُ ، وَيَتَّخِذُ آيات الله هُزُوًا ، وَيَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَحَسْبُكَ بِها صَفْقَةً خاسِرَةً .

وَمِنَ الْأَخْبارِ الْواهِيَةِ لِلْمُؤَرِّخين ما يَنْقُلُونَهُ كافَّةً فى أَخْبارِ التَّبابِعَةِ ،مُلُوكِ الْيَمَنِ وَجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ،أَنَّهُمْ كانُوا يَغْزُون مِنَ قُراهُمْ بالْيَمَنِ إِلَى أَفْرِيقِيَّةَ وَالْبَرْبَرِ مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ ،وَأَنَّ أَفْرِيقِش بْنَ قَيْس بْنِ صَيْفِى مِنْ أَعاظِمِ مُلُوكِهم الْأَوَل ـ وَكان لِعَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ ـ غزا أَفْرِيقِيَّةَ وَأَثْخَنَ فى الْبَرْبَرِ ، وأَنَّهُ الَّذى سَمَّاهُمْ بِهذا الاِسْمِ حِينَ سَمِعَ رَطانَتَهُمْ ،وَقالَ ما هٰذِهِ الْبَرْبَرَةُ فأُخِذ هٰذا الاسْمُ عَنْهُ وَدُعُوا بِهِ مِنْ حِينئذ وَأَنَّهُ لمَّا انصرف مِنَ الْمَغْرِبِ حجز هُنالِكَ قَبائِلَ مِنْ حِمْيَرَ فأَقامُوا بِها وَاخْتَلَطُوا بِأَهْلِها ،وَمِنْهُمْ صَنْهاجَةُ وَكُتامَةُ ،وَمِنْ هٰذا ذَهَبَ الطَّبَرِىُّ وَالْجُرْجانِىُّ وَالْمَسْعُودِىُّ وَابْنُ الْكَلْبِىِّ وَالْبِيلِىُّ ، إِلَى أَنَّ صَنْهاجَةَ وَكُتامَةَ مِنْ حِمْيَر وَتَأْباهُ نَسَّابَةُ الْبَرْبَرِ وَهُوَ الصَّحِيحُ (وَذَكَرَ الْمَسْعُودِىُّ أَيْضاً) أَنَّ ذا الْإِذْعارِ مِنْ مُلُوكِهم قَبْلَ أَفْرِيقِش ـ وَكان عَلَى عَهْدِ سُلَيْمانَ (عليه السلام) ـ غزا الْمَغْرِبَ وَدَوَّخَهُ ،وَكَذٰلِكَ ذَكَرَ مِثْلَهُ عَنْ يَاسِرَ ابْنِهِ مِنْ بَعْدِهِ ،وَأَنَّهُ بلغ وَادِى الرَّمْلِ فى بِلَادِ الْمَغْرِبِ ، وَلَمْ يجدْ فيه مَسْلَكاً لِكَثْرَةِ الرَّمْلِ فَرَجَع ،وَكَذٰلِكَ يَقُولُون فى تُبَّعٍ الْآخِرِ ،وَهُوَ أَسْعَدُ أَبُو كَرِب وَكان عَلَى عَهْدِ يَسْتاسِف مِنْ مُلُوكِ الْفُرْسِ الْكَيانِيَةِ : أَنَّهُ مَلَكَ الْمَوْصِلَ وَأَذْرَبِيجان وَلَقِىَ التُّرْكَ فَهَزَمَهُمْ وَأَثْخَن ، ثُمَّ غزاهُمْ ثانِيَةً وَثالِثَةً كَذٰلِكَ ، وأَنَّه بَعْدَ ذٰلِكَ أَغْزى ثَلَاثَةً مِنْ بَنِيهِ بِلَادَ فارِس وَإِلَى بِلَادِ الصُّغْدِ مِنْ بِلَادِ أُمَمِ التُّرْكِ وَراءَ النَّهْرِ ، وَإِلَى بِلَادِ الرُّومِ . فملك الْأَوَّلُ الْبِلَادَ إِلَى سَمَرْقَنْدَ ،وَقَطَعَ الْمَفازة إِلَى الصِّينِ ، فَوَجَدَ أَخاهُ الثَّانِىَ الَّذى غزا إِلَى سَمَرْقَنْدَ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيْها ، فَأَثْخَنا فى بِلَادِ الصِّينِ وَرَجَعَا جَمِيعاً بِالْغَنائِمِ وَتَرَكُوا بِبِلَادِ الصِّينِ قَبائِلَ مِنْ حِمْيَرَ فَهُمْ بِها إِلَى هذا الْعَهْدِ ، وبلغ الثَّالِثُ إِلَى قُسْطَنْطِينِيَّةَ فَدَرَسَها وَدَوَّخَ بِلَادَ الرُّومِ وَرَجَعَ ؛ وَهٰذِهِ الْأَخْبارُ كُلُّها بَعِيدَة عَنِ الصِّحَّةِ عَرِيقَةٌ فى الْوَهْمِ وَالْغَلَطِ وَأَشْبَهُ بِأَحادِيثِ الْقِصَصِ الْمَوْضُوعَةِ .

وَذٰلِكَ أَنَّ مُلْكَ التَّبابِعَةِ إِنَّما كان بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَقَرارُهُمْ وَكُرْسِيُّهُمْ بِصَنْعاءِ الْيَمَنِ . وَجَزِيرَةُ الْعَرَبِ يُحِيطُ بِها الْبَحْرُ مِنْ ثَلَاثِ جِهاتِها فَبَحْرُ الْهِنْدِ مِنَ الْجَنُوبِ ، وَبَحْرُ فارِسَ الْهابِطُ مِنْهُ إِلَى الْبَصْرَةِ مِنَ الْمَشْرِق ، وَبَحْرُ السُّوَيْسِ الْهابِطُ مِنْهُ إِلَى السُّوَيْسِ مِنْ أَعْمالِ مِصْر مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ ،كَما تَراهُ فى مُصَوَّرِ الْجُغْرافيا ، فَلَا يَجِدُ السَّالِكُون مِنَ الْيَمَنِ إِلَى الْمَغْرِبِ طَرِيقًا مِنْ غَيْرِ السُّوَيْسِ ، وَالْمَسْلَكُ هُناكَ ما بَيْنَ بَحْرِ السُّوَيْسِ وَالْبَحْرِ الشَّامِىِّ قَدْرُ مَرْحَلَتَيْنِ فَما دُونَهُما ، وَيَبْعُدُ أَنْ يَمُرَّ بِهٰذا الْمَسْلَكِ مَلِكٌ عَظِيمٌ فى عَساكِرَ مَوْفُورَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَصِير مِنْ أَعْمالِهِ وَهٰذا مُمْتَنِعٌ فى الْعادَةِ . وَقَدْ كان بِتِلْكَ الْأَعْمالِ الْعَمالِقَةُ وَكَنْعانُ بالشَّامِ وَالْقِبْطُ بِمِصر ،

ثُمَّ مَلَكَ الْعَمَالِقَةُ مِصْر ، وَمَلَكَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الشَّام ، وَلَمْ يُنْقَلْ قَطُّ أَنَّ التَّبَابِعَةَ حَارَبُوا أَحَدًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْأُمَمِ ، وَلَا مَلَكُوا شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَعْمَال ، وَأَيْضاً فَالشُّقَّةُ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْمَغْرِبِ بَعِيدَةٌ وَالْأَزْوِدَةُ وَالْعُلُوفَةُ لِلْعَسَاكِرِ كَثِيرَةٌ ، فَإِذَا سَارُوا فِى غَيْرِ أَعْمَالِهِمْ احْتَاجُوا إِلَى انْتِهَابِ الزَّرْعِ وَالنَّعَمِ وَانْتِهَابِ الْبِلَادِ فِيمَا يَمُرُّونَ عَلَيْهِ ، وَلَا يَكْفِى ذَٰلِكَ لِلْأَزْوِدَةِ وَلِلْعُلُوفَةِ عَادَةً وَإِنْ نَقَلُوا كِفَايَتَهُمْ مِنْ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ فَلَا تَفِى لَهُمْ الرَّوَاحِلُ بِنَقْلِهِ ، فَلَا بُدَّ وَأَنْ يَمُرُّوا فِى طَرِيقِهِمْ كُلِّهَا بِأَعْمَالٍ قَدْ مَلَكُوهَا وَدَوَّخُوهَا لِتَكُونَ الْمِيرَةُ مِنْهَا ، وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ تِلْكَ الْعَسَاكِرَ تَمُرُّ بِهَؤُلَاءِ الْأُمَمِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَهِيجَهُمْ فَتَحْصُلُ لَهُمُ الْمِيرَةُ بِالْمُسَالَمَةِ ، فَذَٰلِكَ أَبْعَدُ وَأَشَدُّ امْتِنَاعاً فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هَٰذِهِ الْأَخْبَارَ وَاهِيَةٌ أَوْ مَوْضُوعَةٌ .

(وَأَمَّا وَادِى الرَّمْلِ) الَّذِى يُعْجِزُ السَّالِكَ فَلَمْ يُسْمَعْ قَطُّ ذِكْرُهُ فِى الْمَغْرِبِ عَلَى كَثْرَةِ سَالِكِهِ وَمَنْ يَقُصُّ طُرُقَهُ مِنَ الرُّكَّابِ وَأَهْلِ الْقُرَى فِى كُلِّ عَصْرٍ وَكُلِّ جِهَة ، وَهُوَ عَلَى مَا ذَكَرُوهُ مِنَ الْغَرَابَةِ تَتَوَفَّرُ الدَّوَاعِى عَلَى نَقْلِهِ .

وَأَمَّا غَزْوُهُمْ بِلَادَ الشَّرْقِ وَأَرْضَ التُّرْكِ ، وَإِنْ كَانَ طَرِيقُهُ أَوْسَعَ مِنْ مَسَالِكِ السُّوَيْس إِلَّا أَنَّ الشُّقَّةَ هُنَا أَبْعَدُ ، وَأُمَمُ فَارِسَ وَالرُّومِ مُعْتَرِضُونَ فِيهَا دُونَ التُّرْكِ ، وَلَمْ يُنْقَلْ قَطُّ أَنَّ التَّبَابِعَةَ مَلَكُوا بِلَادَ فَارِسَ وَلَا بِلَادَ الرُّومِ وَإِنَّمَا كَانُوا يُحَارِبُونَ أَهْلَ فَارِسَ عَلَى حُدُودِ بِلَادِ الْعِرَاقِ ، وَمَا بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ وَالْحِيرَةِ وَالْجَزِيرَةِ بَيْنَ دِجْلَةَ وَالْفُرَاتِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى الْأَعْمَالِ وَقَدْ وَقَعَ ذَٰلِكَ بَيْنَ «ذِى الْأَذْعَارِ مِنْهُمْ» و«كَيْكَاوُسَ» مِنْ مُلُوكِ الْكِيَانِيَّةِ ، وَبَيْنَ تُبَّعٍ الْأَصْغَرِ ، أَبِى كَرِبٍ وَيَسْتَاسِفَ مِنْهُمْ أَيْضاً ، وَمَعَ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ بَعْدَ الْكِيَانِيَّةِ وَالسَّاسَانِيَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ بِمُجَاوَزَةِ أَرْضِ فَارِسَ بِالْغَزْوِ إِلَى بِلَادِ التُّرْكِ وَالتُّبَّت وَهُوَ مُمْتَنِعٌ عَادَةً مِنْ أَجْلِ الْأُمَمِ الْمُعْتَرِضَةِ مِنْهُمْ ، وَالْحَاجَةِ إِلَى الْأَزْوِدَةِ وَالْعُلُوفَاتِ مَعَ بُعْدِ الشُّقَّةِ كَمَا مَرَّ ، فَالْأَخْبَارُ بِذَٰلِكَ وَاهِيَةٌ مَدْخُولَةٌ ، وَهِىَ لَوْ كَانَتْ صَحِيحَةَ النَّقْلِ لَكَانَ ذَٰلِكَ قَادِحاً فِيهَا فَكَيْفَ وَهِىَ لَمْ تُنْقَلْ مِنْ وَجْهٍ صَحِيحٍ ، وَقَوْلُ ابْنِ إِسْحَاقَ فِى خَبَرِ يَثْرِبَ وَالْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ ، أَنَّ تُبَّعاً الْآخِرَ سَارَ إِلَى الْمَشْرِقِ مَحْمُولاً عَلَى الْعِرَاقِ وَبِلَادِ فَارِسَ وَأَمَّا بِلَادُ التُّرْكِ وَالتُّبَّتِ فَلَا يَصِحُّ غَزْوُهُمْ إِلَيْهَا بِوَجْه ، لِمَا تَقَرَّرَ فَلَا تَثِقَنَّ بِمَا يُلْقَى إِلَيْكَ مِنْ ذَٰلِكَ وَتَأَمَّلِ الْأَخْبَارَ وَاعْرِضْهَا عَلَى الْقَوَانِينِ الصَّحِيحَةِ يَقَعْ لَكَ تَمْحِيصُهَا بِأَحْسَنِ وَجْهٍ وَاللهُ الْهَادِى إِلَى الصَّوَابِ .

فصل

وَأَبْعَدُ مِنْ ذَٰلِكَ وَأَعْرَقُ فِى الْوَهْمِ ، مَا يَتَنَاقَلُهُ الْمُفَسِّرُونَ فِى تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَجْرِ ، فِى قَوْلِهِ تَعَالَى «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ» فَيَجْعَلُونَ لَفْظَةَ إِرَمَ اسْماً لِمَدِينَةٍ وُصِفَتْ بِأَنَّهَا ذَاتُ عِمَادٍ أَى أَسَاطِينَ وَيَنْقُلُونَ أَنَّهُ كَانَ لِعَادِ بْنِ عُوصِ بْنِ إِرَمَ ابْنَانِ هُمَا شَدِيدٌ وَشَدَّادٌ مَلَكَا مِنْ بَعْدِهِ ، وَهَلَكَ شَدِيدٌ فَخَلَصَ الْمُلْكُ لِشَدَّادٍ وَدَانَتْ لَهُ مُلُوكُهُمْ وَسَمِعَ وَصْفَ الْجَنَّةِ ، فَقَالَ لَأَبْنِيَنَّ مِثْلَهَا فَبَنَى مَدِينَةَ إِرَمَ فِى صَحَارِى عَدَنَ فِى مُدَّةِ

ثلثمائة سنة وكان عمره تسعمائة سنة وأنها مدينة عظيمة قصورها من الذهب وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف الشجر، والأنهار المطردة ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته حتى إذا كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم. ذكر ذلك الطبري والثعلبي والزمخشري وغيرهم من المفسرين، وينقلون عن عبد الله بن قلابة من الصحابة أنه خرج في طلب إبل له فوقع عليها وحمل منها ما قدر عليه وبلغ خبره معاوية فأحضره وقص عليه فبحث عن كعب الأحبار وسأله عن ذلك فقال: هي إرم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين أحمر أشقر قصير على حاجبه خال، وعلى عنقه خال يخرج في طلب إبل له ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال هذا والله ذلك الرجل.

وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ في شيء من بقاع الأرض، وصحارى عدن التي زعموا أنها بنيت فيها هي في وسط اليمن وما زال عمرانه متعاقباً والأدلاء تقص طرقه من كل وجه، ولم ينقل عن هذه المدينة خبر، ولا ذكرها أحد من الإخباريين، ولا من الأمم، ولو قالوا إنها درست فيما درس من الآثار لكان أشبه، إلا أن ظاهر كلامهم أنها موجودة، وبعضهم يقول إنها دمشق بناء على أن قوم عاد ملكوها، وقد ينتهي الهذيان ببعضهم إلى أنها غائبة وإنما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر، مزاعم كلها أشبه بالخرافات، والذي حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الإعراب في لفظة ذات العماد، أنها صفة إرم وحملوا العماد على الأساطين، فتعين أن يكون بناء ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير «عاد إرم» على الاضافة من غير تنوين، ثم وقفوا على تلك الحكايات التي هي أشبه بالأقاصيص الموضوعة والتي هي أقرب إلى الكذب، المنقولة في عداد المضحكات وإلا فالعماد هي عماد الأخبية بل الخيام، وإن أريد بها الأساطين فلابدع في وصفهم بأنهم أهل بناء وأساطين على العموم بما اشتهر من قوتهم لا أنه بناء خاص في مدينة معينة أو غيرها وإن أضيفت كما في قراءة ابن الزبير فعلى إضافة الفصيلة إلى القبيلة كما تقول قريش كنانة وإلياس مضر وربيعة نزار، وأي ضرورة إلى هذا المحمل البعيد الذي تمحلت لتوجيهه لأمثال هذه الحكايات الواهية التي ينزه كتاب الله عن مثلها لبعدها عن الصحة.

ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة في سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه وأنه لكلفه بمكانهما من معاقرته إياهما الخمر أذن لهما في عقد النكاح دون الخلوة حرصاً على اجتماعهما في مجلسه وأن العباسة تحيلت عليه في التماس الخلوة به لما شغفها من حبه حتى واقعها (زعموا في حالة السكر) فحملت ووشي بذلك للرشيد فاستغضب، وهيهات ذلك من منصب العباسة في دينها وأبويها وجلالها وأنها بنت عبد الله بن عباس، ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال، هم

أشراف الدين وعظماء الملة من بعده . والعباسة بنت محمد المهدى بن عبد الله أبى جعفر المنصور بن محمد السجاد ابن على أبى الخلفاء ابن عبد الله ترجمان القرآن بن العباس عم النبى (صلى الله عليه وسلم) ابنة خليفة وأخت خليفة، محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته، وإمامة الملة ونور الوحى ومهبط الملائكة من سائر جهاتها، قريبة عهد ببداوة العروبية وسذاجة الدين البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش، فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها، أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا فقدا من بيتها، أو كيف تلحم نسبها بجعفر ابن يحيى وتدنس شرفها العربى بمولى من موالى العجم بملكة جده من الفرس أو بولاء جدها من عمومة الرسول وأشراف قريش، وغايته أن جذبت دولتهم بضبعه وضبع أبيه، واستخلصتهم ورقتهم إلى منازل الأشراف، وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالى الأعاجم على بعد همته وعظم آبائه؟ ولو نظر المتأمل فى ذلك نظر المنصف وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها وفى سلطان قومها واستنكره ولج فى تكذيبه، وأين قدر العباسة والرشيد من الناس .

وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم(١) أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه، ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه، فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم . ويقال إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيسا من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب، ودفعوهم عنها بالراح لمكان أبيهم يحيى من كفالة هارون ولى عهد وخليفة حتى شب فى حجره ودرج من عشه وغلب على أمره وكان يدعوه يا أبت، فتوجه الإيثار من السلطان إليهم، وعظمت الدالة منهم وانبسط الجاه عندهم، وانصرفت نحوهم الوجوه، وخضعت لهم الرقاب، وقصرت عليهم الآمال وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء، وسيرت إلى خزائنهم فى سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية، وأفاضوا فى رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوقوهم المنن، وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدم، وفكوا العانى ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم، وأسنوا لعفاتهم الجوائز والصلات . واستولوا على القرى والضياع من الضواحى والأمصار فى سائر الممالك حتى آسفوا البطانة، وأحقدوا الخاصة، وأغصوا أهل الولاية، فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد، ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية، حتى لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم، لم تعطفهم ـ لما وقر فى نفوسهم من الحسد ـ عواطف الرحم ولا وزعتهم

(١) اقتطاعها والتفرد بها .

أَوَاصِرُ الْقَرَابَةِ ، وَقارَنَ ذٰلِكَ عِنْدَ مَخْدُومِهِمْ نَوَاشِيءُ لغَيْرَةِ وَالِاسْتِنْكَافِ مِنَ الْحَجْرِ وَالْأَنفَةِ وكان من الْحُقُود الَّتِى بَعَثَتْهَا مِنْهُمْ صَغائِرُ الدَّالَّةِ وَانْتَهَى بِهَا الْإِصْرَارُ عَلَى شأْنِهِمْ إِلَى كَبَائِرِ الْمُخالفةِ ، كَقِصَّتِهِمْ فِى يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الحَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ ابْنِ عَلِىِّ بْنِ أَبِى طالِب أَخِى مُحَمَّد الْمَهْدِىِّ الْمُلَقَّبِ بِالنَّفْسِ الزَّكِيَّةِ الْخارجِ عَلَى الْمَنْصُورِ ، وَيَحْيَى هٰذا هُوَ الَّذِى اسْتَنْزَلَهُ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى مِنْ بِلَادِ الدَّيْلَمِ عَلَى أَمَانِ الرَّشِيدِ بِخطِّهِ وَبَذَل لَهُمْ فِيهِ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الطَّبَرِىُّ ، وَدَفَعَهُ الرَّشِيدُ إِلَى جَعْفَر وَجَعَلَ اعْتِقاله بِدارِهِ وَإِلَى نظرِهِ فَحَبَسَهُ مُدَّةً ، ثُمَّ حَمَلَتْهُ الدَّالَّةُ عَلَى تَخْلِيَةِ سَبِيلِهِ ، وَالِاسْتِبْدادِ بِحَلِّ عِقالِهِ حُرمًا لِدِماءِ أَهْلِ الْبَيْتِ - بِزَعْمِهِ - وَدَالَّةً عَلَى السُّلْطانِ فِى حُكْمِهِ . وَسَأَلَهُ الرَّشِيدُ عَنْهُ لَمَّا وُشِىَ بِهِ إِلَيْهِ فَفَطِنَ وَقالَ : أَطْلَقْتُهُ . فَأَبْدَى لَهُ وَجْهَ الِاسْتِحْسَانِ وَأَسَرَّهَا فِى نَفْسِهِ ، فَأَوْجَدَ السَّبِيلَ بِذٰلِكَ عَلَى نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ ، حَتَّى ثُلَّ عَرْشُهُمْ وَأُلْقِيَتْ عَلَيْهِمْ سَمَاؤُهُ ، وَخَسَفَتِ الْأَرْضُ بِهِمْ وَبِدارِهِمْ ، وَذَهَبَتْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ أَيَّامُهُمْ ، وَمَنْ تَأَمَّلَ أَخْبَارَهُمْ وَاسْتَقْصَى سِيَرَ الدَّوْلَةِ وَسِيَرَهُمْ ، وَجَدَ ذٰلِكَ مُحَقَّقَ الْأَثَرِ مُمَهَّدَ الْأَسْبَابِ .

وَانْظُرْ مَا نَقَلَهُ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ فِى مُفاوَضَةِ الرَّشِيدِ عَمَّ جَدِّهِ دَاوُدَ بْنَ عَلِىٍّ فِى شأْنِ نَكْبَتِهِمْ ، وَمَا ذَكَرَهُ فِى بَابِ الشُّعَرَاءِ فِى كِتَابِ « الْعِقْدِ » فِى مُحَاوَرَةِ الْأَصْمَعِىِّ لِلرَّشِيدِ وَلِلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى فِى سَمَرِهِمْ تَتَفَهَّمْ أَنَّهُ إِنَّمَا قَتَلَتْهُمُ الْغَيْرَةُ وَالْمُنَافَسَةُ فِى الِاسْتِبْدَادِ مِنَ الْخَلِيفَةِ فَمَنْ دُونَهُ ، وَكَذٰلِكَ مَا تَحَيَّلَ بِهِ أَعْدَاؤُهُمْ مِنَ الْبِطانَةِ فِيمَا دَسُّوهُ لِلْمُغَنِّينَ مِنَ الشِّعْرِ احْتِيالًا عَلَى إِسْماعِهِ لِلْخَلِيفَةِ وَتَحْرِيكِ حَفَائِظِهِ لَهُم ، وهو قوله :

لَيْتَ هِنْدًا أَنْجَزَتْنَا مَا تَعِدْ
وَشَفَتْ أَنْفُسَنَا مِمَّا نَجِدْ
وَاسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً
إِنَّمَا الْعاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِدْ

وَإِنَّ الرَّشِيدَ لَمَّا سَمِعَهَا قَالَ « إِىْ وَاللهِ إِنِّى عَاجِزٌ » حَتَّى بَعَثُوا بِأَمْثَالِ هٰذِهِ كَامِنَ غَيْرَتِهِ ، وَسَلَّطُوا عَلَيْهِمْ بَأْسَ انْتِقامِهِ ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ غَلَبَةِ الرِّجَالِ وَسُوءِ الْحَالِ .

وَأَمَّا مَا تُمَوَّهُ بِهِ الْحِكَايَةُ مِنْ مُعَاقَرَةِ الرَّشِيدِ الْخَمْرَ وَاقْتِرَانِ سُكْرِهِ بِسُكْرِ النَّدْمَانِ ، فَحَاشَا للهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ، وَأَيْنَ هٰذا مِنْ حَالِ الرَّشِيدِ وَقِيَامِهِ بِمَا يَجِبُ لِمَنْصِبِ الْخِلَافَةِ مِنَ الدِّينِ وَالْعَدالَةِ ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ صَحَابَةِ الْعُلَمَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ ، وَمُحَاوَرَاتِهِ لِلْفُضَيْلِ ابْنِ عِيَاضٍ وَابْنِ السَّمَّاكِ وَالْعُمَرِىِّ وَمُكاتَبَتِهِ سُفْيَانَ الثَّوْرِىَّ ، وَبُكَائِهِ مِنْ مَوَاعِظِهِمْ وَدُعَائِهِ بِمَكَّةَ فِى طَوَافِهِ ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ وَشُهُودِ الصُّبْحِ لِأَوَّلِ وَقْتِهَا ؟ .

حَكَى الطَّبَرِىُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّى فِى كُلِّ يَوْمٍ مِائَةَ رَكْعَةٍ نَافِلَةً ، وَكانَ يَغْزُو عامًا وَيَحُجُّ عامًا ، وَلَقَدْ زَجَرَ ابْنَ أَبِى مَرْيَمَ مُضْحِكَهُ فِى سَمَرِهِ حِينَ تَعَرَّضَ لَهُ بِمِثْلِ ذٰلِكَ فِى الصَّلاةِ لَمَّا سَمِعَهُ يَقْرَأُ « وَمَا لِىَ لَا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى » ، وَقَالَ وَاللهِ مَا أَدْرِى لِمَ ، فَمَا تَمَالَكَ الرَّشِيدُ أَنْ ضَحِكَ ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْهِ مُغْضَبًا ، وَقَالَ يَا ابْنَ أَبِى مَرْيَمَ : فِى الصَّلَاةِ أَيْضًا !! ، إِيَّاكَ إِيَّاكَ وَالْقُرْآنَ وَالدِّينَ وَلَكَ مَا شِئْتَ بَعْدَهُمَا .

وأيضا فقد كان من العلم والبداوة بمكان لقرب عهده من سلفه المنتحلين لذلك ولم يكن بينه وبين جده أبي جعفر بعيد زمن، إنما خلفه غلاما وقد كان أبو جعفر بمكان من العلم والدين قبل الخلافة وبعدها، وهو القائل لمالك حين أشار عليه بتأليف الموطأ: يا أبا عبد الله إنه لم يبق على وجه الأرض أعلم مني ومنك، وإني قد شغلتني الخلافة فضع أنت للناس كتابا ينتفعون به وتجنب فيه رخص ابن عباس وشدائد ابن عمر ووطئه للناس توطئة. قال مالك: «فوالله لقد علمني التصنيف يومئذ». ولقد أدركه ابنه المهدي أبو الرشيد هذا وهو يتورع عن كسوة الجديد لعياله من بيت المال. ودخل عليه يوما وهو بمجلسه يباشر الخياطين في إرقاع الخلقان من ثياب عياله فاستنكف المهدي من ذلك، وقال: يا أمير المؤمنين علي كسوة هذه العيال عامنا هذا من عطائي، فقال له لك ذلك، ولم يصده عنه ولا سمح بالإنفاق فيه من أموال المسلمين.

فكيف يليق بالرشيد على قرب العهد من هذا الخليفة وأبوته وما ربي عليه من أمثال هذه السير في أهل بيته والتخلق بها أن يعاقر الخمر أو يجاهر بها، وقد كانت حالة الأشراف من العرب الجاهلية في اجتناب الخمر معلومة ولم يكن الكرم شجرتهم، وكان شربها مذمة عند الكثير منهم والرشيد وآباؤه كانوا على ثبج من اجتناب المذمومات في دينهم ودنياهم والتخلق بالمحامد وأوصاف الكمال ونزعات العرب.

وانظر ما نقله الطبري والمسعودي في قصة جبريل بن بختيشوع الطبيب حين أحضر له السمك في مائدته فحماه عنه ثم أمر صاحب المائدة بحمله إلى منزله وفطن الرشيد وارتاب به ودس خادمه حتى عاينه يتناوله، فأعد ابن بختيشوع للاعتذار ثلاث قطع من السمك في ثلاثة أقداح، خلط إحداها باللحم المعالج بالتوابل والبقول والبوارد والحلوى وصب على الثانية ماء مثلجا وعلى الثالثة خمرا صرفا وقال في الأول والثاني هذا طعام أمير المؤمنين إن خلط السمك بغيره أو لم يخلطه، وقال في الثالث هذا طعام ابن بختيشوع ودفعها إلى صاحب المائدة، حتى إذا انتبه الرشيد وأحضره للتوبيخ، أحضر ثلاثة الأقداح فوجد صاحب الخمر قد اختلط وأماع وتفتت، ووجد الآخرين قد فسدا وتغيرت رائحتهما فكانت له في ذلك معذرة، وتبين من ذلك أن حال الرشيد في اجتناب الخمر كانت معروفة عند بطانته وأهل مائدته.

ولقد ثبت عنه أنه عهد بحبس أبي نواس لما بلغه من انهماكه في المعاقرة حتى تاب وأقلع، وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق وفتاويهم فيها معروفة، وأما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتهامه بها، ولا تقليد الأخبار الواهية فيها، فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرما من أكبر الكبائر عند أهل الملة، ولقد كان أولئك القوم كلهم بمنجاة من ارتكاب السرف والترف في ملابسهم وزينتهم

وَسَائِرِ مُتَنَاوَلَاتِهِمْ ، لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ خُشُونَةِ الْبَدَاوَةِ وَسَذَاجَةِ الدِّينِ الَّتِى لَمْ يُفَارِقُوهَا بَعْدُ ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَا يَخْرُجُ عَنِ الْإِبَاحَةِ إِلَى الْحَظْرِ ، وَعَنِ الْحِلِّيَّةِ إِلَى الْحُرْمَةِ .

وَلَقَدِ اتَّفَقَ الْمُؤَرِّخُونَ : الطَّبَرِىُّ وَالْمَسْعُودِى وَغَيْرُهُمْ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ مَنْ سَلَفَ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِى أُمَيَّةَ وَبَنِى الْعَبَّاسِ ، إِنَّمَا كَانُوا يَرْكَبُونَ بِالْحِلْيَةِ الْخَفِيفَةِ مِنَ الْفِضَّةِ فِى الْمَنَاطِقِ وَالسُّيُوفِ وَاللُّجُمِ وَالسُّرُوجِ ، وَأَنَّ أَوَّلَ خَلِيفَةٍ أَحْدَثَ الرُّكُوبَ بِحِلْيَةِ الذَّهَبِ هُوَ الْمُعْتَزُّ بْنُ الْمُتَوَكِّلِ ثَامِنُ الْخُلَفَاءِ بَعْدَ الرَّشِيدِ ، وَهٰكَذَا كَانَ حَالُهُمْ أَيْضًا فِى مَلَابِسِهِمْ ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَشَارِبِهِمْ ، وَيَتَبَيَّنُ ذٰلِكَ بِأَتَمَّ مِنْ هٰذَا إِذَا فَهِمْتَ طَبِيعَةَ الدَّوْلَةِ فِى أَوَّلِهَا مِنَ الْبَدَاوَةِ وَالْغَضَاضَةِ ، كَمَا نَشْرَحُ فِى مَسَائِلِ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ إِنْ شَاءَ اللهُ وَاللهُ الْهَادِى إِلَى الصَّوَابِ .

وَيُنَاسِبُ هٰذَا أَوْ قَرِيبٌ مِنْهُ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً عَنْ يَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ قَاضِى الْمَأْمُونِ وَصَاحِبِهِ ، وَأَنَّهُ كَانَ يُعَاقِرُ الْخَمْرَ ، وَأَنَّهُ سَكِرَ لَيْلَةً مَعَ شَرْبِهِ فَدُفِنَ فِى الرَّيْحَانِ حَتَّى أَفَاقَ وَيُنْشِدُونَ عَلَى لِسَانِهِ :

يَا سَيِّدِى وَأَمِيرَ النَّاسِ كُلِّهِمِ
قَدْ جَارَ فِى حُكْمِهِ مَنْ كَانَ يَسْقِينِى
إِنِّى غَفَلْتُ عَنِ السَّاقِى فَصَيَّرَنِى
كَمَا تَرَانِى سَلِيبَ الْعَقْلِ وَالدِّينِ

وَحَالُ ابْنِ أَكْثَمَ وَالْمَأْمُونِ فِى ذٰلِكَ مِنْ حَالِ الرَّشِيدِ وَشَرَابُهُمْ إِنَّمَا كَانَ النَّبِيذَ ، وَلَمْ يَكُنْ مَحْظُورًا عِنْدَهُمْ ، وَأَمَّا السُّكْرُ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِهِمْ ، وَصَحَابَتُهُ لِلْمَأْمُونِ إِنَّمَا كَانَتْ خُلَّةً فِى الدِّينِ ، وَلَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ كَانَ يَنَامُ مَعَهُ فِى الْبَيْتِ

وَنُقِلَ فِى فَضَائِلِ الْمَأْمُونِ وَحُسْنِ عِشْرَتِهِ ، أَنَّهُ انْتَبَهَ ذَاتَ لَيْلَةٍ عَطْشَانَ فَقَامَ يَتَحَسَّسُ وَيَلْتَمِسُ الْإِنَاءَ مَخَافَةَ أَنْ يُوقِظَ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ ، وَثَبَتَ أَنَّهُمَا كَانَا يُصَلِّيَانِ الصُّبْحَ جَمِيعًا ، فَأَيْنَ هٰذَا مِنَ الْمُعَاقَرَةِ .

وَأَيْضًا فَإِنَّ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ كَانَ مِنْ عِلْيَةِ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَقَدْ أَثْنَى عَلَيْهِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَإِسْمَاعِيلُ الْقَاضِى وَخَرَّجَ عَنْهُ التِّرْمِذِىُّ كِتَابَهُ الْجَامِعَ ، وَذَكَرَ الْمُزَنِىُّ الْحَافِظُ أَنَّ الْبُخَارِىَّ رَوَى عَنْهُ فِى غَيْرِ الْجَامِعِ ، فَالْقَدْحُ فِيهِ قَدْحٌ فِى جَمِيعِهِمْ ، وَكَذٰلِكَ مَا يَنْبِزُهُ الْمُجَّانُ بِالْمَيْلِ إِلَى الْغِلْمَانِ بُهْتَانًا عَلَى اللهِ وَفِرْيَةً عَلَى الْعُلَمَاءِ ، وَيَسْتَنِدُونَ فِى ذٰلِكَ إِلَى أَخْبَارِ الْقُصَّاصِ الْوَاهِيَةِ الَّتِى لَعَلَّهَا مِنِ افْتِرَاءِ أَعْدَائِهِ ، فَإِنَّهُ كَانَ مَحْسُودًا فِى كَمَالِهِ وَخُلَّتِهِ لِلسُّلْطَانِ ، وَكَانَ مَقَامُهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالدِّينِ مُنَزَّهًا عَنْ مِثْلِ ذٰلِكَ ، وَقَدْ ذُكِرَ لِابْنِ حَنْبَلٍ مَا يَرْمِيهِ بِهِ النَّاسُ ، فَقَالَ : سُبْحَانَ اللهِ ! سُبْحَانَ اللهِ ! وَمَنْ يَقُولُ هٰذَا ؟ وَأَنْكَرَ ذٰلِكَ إِنْكَارًا شَدِيدًا ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ إِسْمَاعِيلُ الْقَاضِى ، فَقِيلَ لَهُ مَا كَانَ يُقَالُ فِيهِ ، فَقَالَ : مَعَاذَ اللهِ أَنْ تَزُولَ عَدَالَةُ مِثْلِهِ بِتَكَذُّبِ بَاغٍ وَحَاسِدٍ ، وَقَالَ أَيْضًا : يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ أَبْرَأُ إِلَى اللهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ شَىْءٌ مِمَّا كَانَ يُرْمَى بِهِ مِنْ أَمْرِ الْغِلْمَانِ ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَقِفُ عَلَى سَرَائِرِهِ فَأَجِدُهُ شَدِيدَ الْخَوْفِ مِنَ اللهِ ، لٰكِنَّهُ كَانَتْ فِيهِ دُعَابَةٌ وَحُسْنُ خُلُقٍ ، فَرُمِىَ بِمَا رُمِىَ بِهِ ، وَذَكَرَهُ ابْنُ حِبَّانَ فِى الثِّقَاتِ ، وَقَالَ : لَا يُشْتَغَلُ بِمَا يُحْكَى عَنْهُ لِأَنَّ أَكْثَرَهَا لَا يَصِحُّ عَنْهُ .

وَمِنْ أَمْثَالِ هٰذِهِ الْحِكَايَاتِ ، مَا نَقَلَهُ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ الْعِقْدِ مِنْ حَدِيثِ الزَّنْبِيلِ فِى سَبَبِ إِصْهَارِ

المأمون إلى الحسن بن سهل في بنته بوران، وأنه عثر في بعض الليالي في تطوافه بسكك بغداد في زنبيل مدلى من بعض السطوح بمعالق وجدل مغارة الفتل من الحرير فاعتقده، وتناول المعالق فاهتزت وذهب به صعدا إلى مجلس شأنه كذا ووصف من زينة فرشه وتنضيد أبنيته وجمال رؤيته ما يستوقف الطرف، ويملك النفس، وأن امرأة برزت له من خلل الستور في ذلك المجلس رائقة الجمال فتانة المحاسن، فحيته ودعته إلى المنادمة فلم يزل يعاقرها الخمر حتى الصباح، ورجع إلى أصحابه بمكانهم من انتظاره وقد شغفته حبا بعثه على الإصهار إلى أبيها، وأين هذا كله من حال المأمون المعروفة في دينه وعلمه واقتفائه سنن الخلفاء الراشدين من آبائه، وأخذه بسير الخلفاء الأربعة أركان الملة، ومناظرته العلماء، وحفظه لحدود الله تعالى في صلواته وأحكامه، فكيف تصح عنه أحوال الفساق المستهترين (١) في التطواف بالليل وطروق المنازل وغشيان السمر سبيل عشاق الأعراب؟! وأين ذلك من منصب ابنة الحسن بن سهل وشرفها، وما كان بدار أبيها من الصون والعفاف، وأمثال هذه الحكايات كثيرة، وفي كتب المؤرخين معروفة.

وإنما يبعث على وضعها والحديث بها الانهماك في اللذات المحرمة، وهتك قناع المخدرات ويتعللون بالتأسي بالقوم فيما يأتونه من طاعة لذاتهم، فلذلك تراهم كثيرا ما يلهجون بأشباه هذه الأخبار، وينقرون عنها عند تصفحهم لأوراق الدواوين، ولو ائتسوا بهم في غير هذا من أحوالهم، وصفات الكمال اللائقة بهم، المشهورة عنهم، لكان خيرا لهم لو كانوا يعلمون، ولقد عذلت يوما بعض الأمراء من أبناء الملوك في كلفه بتعلم الغناء وولوعه بالأوتار، وقلت له: ليس هذا من شأنك، ولا يليق بمنصبك، فقال لي أفلا ترى إلى إبراهيم بن المهدي كيف كان إمام هذه الصناعة ورئيس المغنين في زمانه، فقلت له يا سبحان الله! وهلا تأسيت بأبيه وأخيه؟! أوما رأيت كيف قعد ذلك بإبراهيم عن مناصبهم؟! فصم عن عذلي وأعرض والله يهدي من يشاء.

ومن الأخبار الواهية ما يذهب إليه الكثير من المؤرخين والأثبات في العبيديين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة من نفيهم عن أهل البيت صلوات الله عليهم، والطعن في نسبهم إلى إسماعيل الإمام ابن جعفر الصادق، يعتمدون في ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس، تزلفا إليهم بالقدح فيمن ناصبهم، وتفننا في الشمات بعدوهم حسبما نذكر بعض هذه الأحاديث في أخبارهم، ويغفلون عن التفطن لشواهد الواقعات وأدلة الأحوال التي اقتضت خلاف ذلك من تكذيب دعواهم والرد عليهم، فإنهم متفقون في حديثهم عن مبدأ دولة الشيعة أن أبا عبد الله المحتسب لما دعي بكتامة للرضى من آل محمد واشتهر خبره وعلم تحويمه على عبيد الله المهدي

(١) المستهتر بالفتح المولع بالشيء لا يبالي بما فعل فيه والذي كثرت أباطيله اه قاموس.

وَابْنِهِ أَبِي الْقَاسِمِ ، خَشْيًا عَلَى أَنْفُسِهِمَا فَهَرَبَا مِنَ الْمَشْرِقِ مَحَلِّ الْخِلَافَةِ وَاجْتَازَا بِمِصْرَ وَأَنَّهُمَا خَرَجَا مِنَ الاسْكَنْدَرِيَّةِ فِي زِيِّ التُّجَّارِ وَنُمِيَ خَبَرُهُمَا إِلَى عِيسَى النُّوشَرِيِّ عَامِلِ مِصْرَ وَالاسْكَنْدَرِيَّةِ فَسَرَّحَ فِي طَلَبِهِمَا الْخَيَّالَةَ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَا خَفِيَ حَالُهُمَا عَلَى تَابِعِهِمَا بِمَا لَبِسُوا بِهِ مِنَ الشَّارَةِ وَالزِّيِّ فَأَفْلَتُوا إِلَى الْمَغْرِبِ ، وَأَنَّ الْمُعْتَضِدَ أَوْعَزَ إِلَى الأَغَالِبَةِ أُمَرَاءِ أَفْرِيقِيَا بِالْقَيْرَوَانِ وَبَنِي مِدْرَارٍ أُمَرَاءِ سِجِلْمَاسَةَ بِأَخْذِ الآفَاقِ عَلَيْهِمَا وَإِذْكَاءِ الْعُيُونِ فِي طَلَبِهِمَا فَعَثَرَ الْيَسَعُ صَاحِبُ سِجِلْمَاسَةَ مِنْ آلِ مِدْرَارٍ عَلَى خَفِيِّ مَكَانِهِمَا بِبَلَدِهِ وَاعْتَقَلَهُمَا مَرْضَاةً لِلْخَلِيفَةِ ، هٰذَا قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ الشِّيعَةُ عَلَى الأَغَالِبَةِ بِالْقَيْرَوَانِ ، ثُمَّ كَانَ بَعْدَ ذٰلِكَ مَا كَانَ مِنْ ظُهُورِ دَعْوَتِهِمْ بِالْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةَ ، ثُمَّ بِالْيَمَنِ ثُمَّ بِالاسْكَنْدَرِيَّةِ ، ثُمَّ بِمِصْرَ وَالشَّامِ وَالْحِجَازِ ، وَقَاسَمُوا بَنِي الْعَبَّاسِ فِي مَمَالِكِ الإِسْلَامِ شِقَّ الأُبْلَةِ وَكَادُوا يَلِجُونَ عَلَيْهِمْ مَوَاطِنَهُمْ وَيُزَايِلُونَ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَلَقَدْ أَظْهَرَ دَعْوَتَهُمْ بِبَغْدَادَ وَعِرَاقِهَا الأَمِيرُ الْبَسَاسِيرِيُّ مِنْ مَوَالِي الدَّيْلَمِ الْمُتَغَلِّبِينَ عَلَى خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي مُغَاضَبَةٍ جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُمَرَاءِ الْعَجَمِ ، وَخَطَبَ لَهُمْ عَلَى مَنَابِرِهَا حَوْلًا كَامِلًا ، وَمَا زَالَ بَنُو الْعَبَّاسِ يَغَصُّونَ بِمَكَانِهِمْ وَدَوْلَتِهِمْ وَمُلُوكُ بَنِي أُمَيَّةَ وَرَاءَ الْبَحْرِ يُنَادُونَ بِالْوَيْلِ وَالْحَرْبِ مِنْهُمْ ، وَكَيْفَ يَقَعُ هٰذَا كُلُّهُ لِدَعِيٍّ فِي النَّسَبِ يَكْذِبُ فِي انْتِحَالِ الأَمْرِ ، وَاعْتَبِرْ حَالَ الْقِرْمِطِيِّ إِذْ كَانَ دَعِيًّا فِي انْتِسَابِهِ ، كَيْفَ تَلَاشَتْ دَعْوَتُهُ وَتَفَرَّقَتْ أَتْبَاعُهُ ، وَظَهَرَ سَرِيعًا عَلَى خُبْثِهِمْ وَمَكْرِهِمْ فَسَاءَتْ عَاقِبَتُهُمْ وَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ، وَلَوْ كَانَ أَمْرُ الْعُبَيْدِيِّينَ بِذٰلِكَ لَعُرِفَ وَلَوْ بَعْدَ مُهْلَةٍ .

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ
وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

فَقَدِ اتَّصَلَتْ دَوْلَتُهُمْ نَحْوًا مِنْ مِائَتَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةً وَمَلَكُوا مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمُصَلَّاهُ وَمَوْطِنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَدْفَنَهُ وَمَوْقِفَ الْحَجِيجِ وَمَهْبِطَ الْمَلَائِكَةِ ، ثُمَّ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَشِيعَتُهُمْ فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ عَلَى أَتَمِّ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُمْ وَالْحُبِّ فِيهِمْ وَاعْتِقَادِهِمْ بِنَسَبِ الإِمَامِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ ، وَلَقَدْ خَرَجُوا مِرَارًا بَعْدَ ذَهَابِ الدَّوْلَةِ وَدُرُوسِ أَثَرِهَا ، دَاعِينَ إِلَى بِدْعَتِهِمْ هَاتِفِينَ بِأَسْمَاءِ صِبْيَانٍ مِنْ أَعْقَابِهِمْ ، يَزْعُمُونَ اسْتِحْقَاقَهُمْ لِلْخِلَافَةِ ، وَيَذْهَبُونَ إِلَى تَعْيِينِهِمْ بِالْوَصِيَّةِ ، مِمَّنْ سَلَفَ قَبْلَهُمْ مِنَ الأَئِمَّةِ ، وَلَوِ ارْتَابُوا فِي نَسَبِهِمْ لَمَا رَكِبُوا أَعْنَاقَ الأَخْطَارِ فِي الانْتِصَارِ لَهُمْ ، فَصَاحِبُ الْبِدْعَةِ لَا يُلَبِّسُ فِي أَمْرِهِ ، وَلَا يُشَبِّهُ فِي بِدْعَتِهِ ، وَلَا يُكَذِّبُ نَفْسَهُ فِيمَا يَنْتَحِلُهُ .

وَالْعَجَبُ مِنَ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ الْبَاقِلَّانِيِّ شَيْخِ النُّظَّارِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ ، كَيْفَ يَجْنَحُ إِلَى هٰذِهِ الْمَقَالَةِ الْمَرْجُوحَةِ ، وَيَرَى هٰذَا الرَّأْيَ الضَّعِيفَ؟ فَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الإِلْحَادِ فِي الدِّينِ ، وَالتَّعَمُّقِ فِي الرَّافِضِيَّةِ فَلَيْسَ ذٰلِكَ بِدَافِعٍ فِي صَدْرِ دَعْوَتِهِمْ وَلَيْسَ إِثْبَاتُ مُنْتَسَبِهِمْ بِالَّذِي يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا فِي كُفْرِهِمْ ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي شَأْنِ ابْنِهِ « إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا

تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ(١) » وقال صلى الله عليه وسلم لفاطمة يعظها « يا فاطمة : اعملي فلن أغني عنك من الله شيئا » ومتى عرف امرؤ قضية أو استيقن أمرا وجب عليه أن يصدع به ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، والقوم كانوا في مجال لظنون الدول بهم وتحت رقبة من الطغاة لتوفر شيعتهم وانتشارهم في القاصية بدعوتهم وتكرر خروجهم مرة بعد أخرى ، فلاذت رجالاتهم بالاختفاء ولم يكادوا يعرفون كما قيل :

فلو تسأل الأيام ما اسمي ما درت
وأين مكاني ما عرفن مكانيا

حتى لقد سمي محمد بن إسماعيل الإمام جد عبيد الله المهدي بالمكتوم ، سمته بذلك شيعتهم لما اتفقوا عليه من إخفائه حذرا من المتغلبين عليهم فتوصل شيعة بني العباس بذلك عند ظهورهم إلى الطعن في نسبهم وازدلفوا بهذا الرأي القائل للمستضعفين من خلفائهم ، وأعجب به أولياؤهم ، وأمراء دولتهم المتولون لحروبهم مع الأعداء يدفعون به عن أنفسهم وسلطانهم معرة العجز عن المقاومة والمدافعة لمن غلبهم على الشام ومصر والحجاز من البربر الكتاميين شيعة العبيديين وأهل دعوتهم ، حتى لقد أسجل القضاة ببغداد بنفيهم عن هذا النسب ، وشهد بذلك عندهم من أعلام الناس جماعة ، منهم الشريف الرضي وأخوه المرتضى وابن البطحاوي ومن العلماء أبو حامد الإسفرايني والقدوري والصيمري وابن الأكفاني والأبيوردي وأبو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة وغيرهم من أعلام الأمة ببغداد في يوم مشهود ، وذلك سنة ستين وأربعمائة في أيام القادر ، وكانت شهادتهم في ذلك على السماع ، لما اشتهر وعرف بين الناس ببغداد وغالبها شيعة بني العباس الطاعنون في هذا النسب فنقله الأخباريون كما سمعوه ورووه حسبما وعوه ، والحق من ورائه وفي كتاب المعتضد في شأن عبيد الله إلى ابن الأغلب بالقيروان وابن مدرار بسجلماسة أصدق شاهد وأوضح دليل على صحة نسبهم ، فالمعتضد أقعد بنسب أهل البيت من كل أحد ، والدولة والسلطان سوق للعالم ، تجلب إليه بضائع العلوم والصنائع وتلتمس فيه ضوال الحكم ، وتحدى إليه ركائب الروايات والأخبار ، وما نفق فيها نفق عند الكافة فإن تنزهت الدولة عن التعسف والميل والأفن والسفسفة وسلكت النهج الأمم(٢) ولم تجر عن قصد السبيل ، نفق في سوقها الإبريز الخالص واللجين المصفى وإن ذهبت مع الأغراض والحقود وماجت بسماسرة البغي والباطل نفق البهرج والزائف . والناقد البصير قسطاس نظره وميزان بحثه وملتمسه .

ومثل ، هذا وأبعد منه كثيرا ما يتناجى به الطاعنون في نسب إدريس بن ادريس ابن عبد الله بن حسن بن الحسن ابن علي ابن أبي طالب (رضوان الله عليهم) الإمام بعد أبيه بالمغرب الأقصى ، ويعرضون تعريض الحسد بالتظنن في الحمل المخلف عن إدريس الأكبر إنه لراشد مولاهم قبحهم الله وأبعدهم ما أجهلهم

(١) الآية ٤٦ من سورة هود .

(٢) الأمم بالفتح : المعتدل ، الوسط .

«أَمَا يَعْلَمُونَ أَنَّ إِدْرِيسَ الْأَكْبَرَ كَانَ إِصْهَارُهُ فِى الْبَرْبَرِ، وَأَنَّهُ مُنْذُ دَخَلَ الْمَغْرِبَ إِلَى أَنْ تَوَفَّاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَرِيقٌ فِى الْبَدْوِ، وَأَنَّ حَالَ الْبَادِيَةِ فِى مِثْلِ ذَلِكَ غَيْرُ خَافِيَةٍ إِذْ لَا مَكَامِنَ لَهُمْ يَتَأَتَّى فِيهَا الرِّيَبُ وَأَحْوَالُ حُرَمِهِمْ أَجْمَعِينَ بِمَرْأَى مِنْ جَارَاتِهِنَّ وَمَسْمَعٍ مِنْ جِيرَانِهِنَّ لِتَلَاصُقِ الْجُدْرَانِ، وَتَطَامُنِ الْبُنْيَانِ، وَعَدَمِ الْفَوَاصِلِ بَيْنَ الْمَسَاكِنِ وَقَدْ كَانَ رَاشِدٌ يَتَوَلَّى خِدْمَةَ الْحُرَمِ أَجْمَعَ مِنْ بَعْدِ مَوْلَاهُ، بِمَشْهَدٍ مِنْ أَوْلِيَائِهِمْ وَشِيعَتِهِمْ، وَمُرَاقَبَةٍ مِنْ كَافَّتِهِمْ وَقَدِ اتَّفَقَ بَرَابِرَةُ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى عَامَّةً عَلَى بَيْعَةِ إِدْرِيسَ الْأَصْغَرِ مِنْ بَعْدِ أَبِيهِ، وَآتَوْهُ طَاعَتَهُمْ عَنْ رِضًى وَإِصْفَاقٍ، وَبَايَعُوهُ عَلَى الْمَوْتِ الْأَحْمَرِ، وَخَاضُوا دُونَهُ بِحَارَ الْمَنَايَا فِى حُرُوبِهِ وَغَزَوَاتِهِ، وَلَوْ حَدَّثُوا أَنْفُسَهُمْ بِمِثْلِ هٰذِهِ الرِّيبَةِ أَوْ قَرَعَتْ أَسْمَاعَهُمْ وَلَوْ مِنْ عَدُوٍّ كَاشِحٍ أَوْ مُنَافِقٍ مُرْتَابٍ لَتَخَلَّفَ عَنْ ذٰلِكَ وَلَوْ بَعْضُهُمْ، كَلَّا وَاللهِ إِنَّمَا صَدَرَتْ هٰذِهِ الْكَلِمَاتُ مِنْ بَنِى الْعَبَّاسِ، أَقْتَالِهِمْ وَمِنْ بَنِي الْأَغْلَبِ عُمَّالِهِمْ، كَانُوا بِأَفْرِيقِيَّةَ وَوُلَاتِهِمْ وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَمَّا فَرَّ إِدْرِيسُ الْأَكْبَرُ إِلَى الْمَغْرِبِ مِنْ وَقْعَةِ بَلْخَ أَوْعَزَ الْهَادِى إِلَى الْأَغَالِبَةِ أَنْ يَقْعُدُوا لَهُ الْمَرَاصِدَ، وَيَذْكُوا عَلَيْهِ الْعُيُونَ فَلَمْ يَظْفَرُوا بِهِ وَخَلَصَ إِلَى الْمَغْرِبِ فَتَمَّ أَمْرُهُ وَظَهَرَتْ دَعْوَتُهُ وَظَهَرَ الرَّشِيدُ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ، عَلَى مَا كَانَ مِنْ وَاضِحٍ مَوْلَاهُمْ وَعَامِلِهِمْ عَلَى الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ مِنْ دَسِيسَةِ التَّشَيُّعِ لِلْعَلَوِيَّةِ وَإِدْهَانِهِ فِى نَجَاةِ إِدْرِيسَ إِلَى الْمَغْرِبِ فَقَتَلَهُ وَدَسَّ الشَّمَّاخَ مِنْ مَوَالِى الْمَهْدِى أَبِيهِ لِلتَّحَيُّلِ، عَلَى قَتْلِ إِدْرِيسَ فَأَظْهَرَ اللَّحَاقَ بِهِ وَالْبَرَاءَةَ مِنْ بَنِى الْعَبَّاسِ، مَوَالِيهِ فَاشْتَمَلَ عَلَيْهِ إِدْرِيسُ وَخَلَطَهُ بِنَفْسِهِ وَنَاوَلَهُ الشَّمَّاخُ فِى بَعْضِ خَلَوَاتِهِ سُمًّا اسْتَهْلَكَهُ بِهِ، وَوَقَعَ خَبَرُ مَهْلِكِهِ مِنْ بَنِى الْعَبَّاسِ أَحْسَنَ الْمَوَاقِعِ، لِمَا رَجَوْهُ مِنْ قَطْعِ أَسْبَابِ الدَّعْوَةِ الْعَلَوِيَّةِ بِالْمَغْرِبِ، وَاقْتِلَاعِ جُرْثُومَتِهَا، وَلَمَّا تَأَدَّى إِلَيْهِمْ خَبَرُ الْحَمْلِ الْمُخَلَّفِ لِإِدْرِيسَ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِلَّا كَلَا وَلَا وَإِذَا بِالدَّعْوَةِ قَدْ عَادَتْ وَالشِّيعَةُ بِالْمَغْرِبِ قَدْ ظَهَرَتْ، وَدَوْلَتُهُمْ بِإِدْرِيسَ بْنِ إِدْرِيسَ قَدْ تَجَدَّدَتْ فَكَانَ ذٰلِكَ عَلَيْهِمْ أَنْكَى مِنْ وَقْعِ السِّهَامِ وَكَانَ الْفَشَلُ وَالْهَرَمُ قَدْ نَزَلَا بِدَوْلَةِ الْعَرَبِ عَنْ أَنْ يَسْمُوا إِلَى الْقَاصِيَةِ فَلَمْ يَكُنْ مُنْتَهَى قُدْرَةِ الرَّشِيدِ عَلَى إِدْرِيسَ الْأَكْبَرِ بِمَكَانِهِ مِنْ قَاصِيَةِ الْمَغْرِبِ وَاشْتِمَالِ الْبَرْبَرِ عَلَيْهِ إِلَّا التَّحَيُّلَ فِى إِهْلَاكِهِ بِالسُّمُومِ، فَعِنْدَ ذٰلِكَ نَزَعُوا إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْأَغَالِبَةِ بِأَفْرِيقِيَّةَ فِى سَدِّ تِلْكَ الْفُرْجَةِ مِنْ نَاحِيَتِهِمْ وَحَسْمِ الدَّاءِ الْمُتَوَقَّعِ بِالدَّوْلَةِ مِنْ قِبَلِهِمْ وَاقْتِلَاعِ تِلْكَ الْعُرُوقِ قَبْلَ أَنْ تَشْبَحَ(١) مِنْهُمْ يُخَاطِبُهُمْ بِذٰلِكَ الْمَأْمُونُ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنْ خُلَفَائِهِمْ فَكَانَ الْأَغَالِبَةُ عَنْ بَرَابِرَةِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى أَعْجَزَ وَلِمِثْلِهَا مِنَ الزَّبُونِ عَلَى مُلُوكِهِمْ أَحْوَجَ، لِمَا طَرَقَ الْخِلَافَةَ مِنِ انْتِزَاءِ مَمَالِكِ الْعَجَمِ، عَلَى سُدَّتِهَا وَامْتِطَائِهِمْ صَهْوَةَ التَّغَلُّبِ عَلَيْهَا وَتَصْرِيفِهِمْ أَحْكَامَهَا طَوْعَ أَغْرَاضِهِمْ فِى رِجَالِهَا وَجِبَايَتِهَا وَأَهْلِ خِطَطِهَا وَسَائِرِ نَقْضِهَا وَإِبْرَامِهَا كَمَا قَالَ شَاعِرُهُمْ.

خَلِيفَةٌ فِى قَفَصٍ   بَيْنَ وَصِيفٍ وَبُغَا
يَقُولُ مَا قَالَا لَهُ   كَمَا تَقُولُ الْبَبَّغَا

فَخَشِىَ هٰؤُلَاءِ الْأُمَرَاءُ الْأَغَالِبَةُ بَوَادِرَ السِّعَايَاتِ، وَتَلَوْا

(١) تنمو وتمتد.

بِالْمَعَاذِيرِ ،فَطَوْرًا بِاحْتِقَارِ الْمغربِ ،وَأَهْلِهِ ، وَطَوْرًا بِالْإِرْهَابِ بِشَأْنِ إِدْرِيسَ الْخَارِجِ بِهِ وَمَنْ قَامَ مَقَامَهُ مِنْ أَعْقَابِهِ ،يُخَاطِبُونَهُمْ بِتَجَاوُزِهِ حُدُودَ التُّخُومِ مِنْ عَمَلِهِ ،وَيُنْفِذُونَ سِكَّتَهُ فِى تُحَفِهِمْ وَهَدَايَاهُمْ وَمُرْتَفِعِ جِبَايَاتِهِمْ تَعْرِيضًا بِاسْتِفْحَالِهِ وَتَهْوِيلًا بِاشْتِدَادِ شَوْكَتِهِ ، وَتَعْظِيمًا لِمَا دُفِعُوا إِلَيْهِ مِنْ مُطَالَبَتِهِ وَمِرَامِهِ وَتَهْدِيدًا بِقَلْبِ الدَّعْوَةِ إِنْ أُلْجِئُوا إِلَيْهِ ،وَطَوْرًا يَطْعَنُونَ فِى نَسَبِ إِدْرِيسَ بِمِثْلِ ذَلِكَ الطَّعْنِ الْكَاذِبِ تَخْفِيضًا لِشَأْنِهِ ،لَا يُبَالُونَ بِصِدْقِهِ مِنْ كَذِبِهِ لِبُعْدِ الْمَسَافَةِ ،وَأَفَنِ(١) عُقُولِ مَنْ خَلَفَ مِنْ صِبْيَةِ بَنِى الْعَبَّاسِ ، وَمَمَالِيكِهِمِ الْعَجَمِ فِى الْقَبُولِ مِنْ كُلِّ قَائِلٍ ،وَالسَّمْعِ لِكُلِّ نَاعِقٍ ،وَلَمْ يَزَلْ هَذَا دَأْبَهُمْ حَتَّى انْقَضَى أَمْرُ الْأَغَالِبَةِ ، فَقَرَعَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ الشَّنْعَاءُ أَسْمَاعَ الْغَوْغَاءِ وَصَرَّ عَلَيْهَا بَعْضُ الطَّاعِنِينَ أُذُنَهُ وَاعْتَدَّهَا ذَرِيعَةً إِلَى النَّيْلِ مِنْ خَلَفِهِمْ عِنْدَ الْمُنَافَسَةِ ،وَمَالَهُمْ قَبَّحَهُمُ اللَّهُ وَالْعُدُولَ عَنْ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ فَلَا تَعَارُضَ فِيهَا بَيْنَ الْمَقْطُوعِ وَالْمَظْنُونِ وَإِدْرِيسُ وُلِدَ عَلَى فِرَاشِ أَبِيهِ وَالْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ عَلَى أَنَّ تَنْزِيهَ أَهْلِ الْبَيْتِ عَنْ مِثْلِ هَذَا مِنْ عَقَائِدِ أَهْلِ الْإِيمَانِ ،فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ أَذْهَبَ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيرًا ، فَفِرَاشُ إِدْرِيسَ طَاهِرٌ مِنَ الدَّنَسِ وَمُنَزَّهٌ عَنِ الرِّجْسِ بِحُكْمِ الْقُرْآنِ وَمَنِ اعْتَقَدَ خِلَافَ هَذَا فَقَدْ بَاءَ بِإِثْمِهِ وَوَلَجَ الْكُفْرَ مِنْ بَابِهِ ،وَإِنَّمَا أَطْنَبْتُ فِى هَذَا الرَّدِّ سَدًّا لِأَبْوَابِ الرِّيَبِ وَدَفْعًا فِى صَدْرِ الْحَاسِدِ لِمَا سَمِعَتْهُ أُذُنَاىَ مِنْ قَائِلِهِ الْمُعْتَدِى عَلَيْهِمِ الْقَادِحِ فِى نَسَبِهِمْ بِفِرْيَتِهِ وَيَنْقُلُهُ بِزَعْمِهِ عَنْ بَعْضِ مُؤَرِّخِى الْمَغْرِبِ مِمَّنِ انْحَرَفَ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَارْتَابَ فِى الْإِيمَانِ بِسَلَفِهِمْ وَإِلَّا فَالْمَحَلُّ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ مَعْصُومٌ مِنْهُ ،وَنَفْىُ الْعَيْبِ حَيْثُ يَسْتَحِيلُ عَيْبٌ ،لَكِنِّى جَادَلْتُ عَنْهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَرْجُو أَنْ يُجَادِلُوا عَنِّى يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَلْتَعْلَمْ أَنَّ أَكْثَرَ الطَّاعِنِينَ فِى نَسَبِهِمْ إِنَّمَا هُمُ الْحَسَدَةُ لِأَعْقَابِ إِدْرِيسَ ،هَذَا مِنْ مُنْتَمٍ إِلَى أَهْلِ الْبَيْتِ أَوْ دَخِيلٍ فِيهِمْ فَإِنَّ ادِّعَاءَ هَذَا النَّسَبِ الْكَرِيمِ دَعْوَى شَرَفٍ عَرِيضَةٌ عَلَى الْأُمَمِ وَالْأَجْيَالِ مِنْ أَهْلِ الْآفَاقِ فَتَعْرِضُ التُّهْمَةُ فِيهِ ،وَلَمَّا كَانَ نَسَبُ بَنِى إِدْرِيسَ هَؤُلَاءِ بِمَوَاطِنِهِمْ مِنْ فَاسَ وَسَائِرِ دِيَارِ الْمَغْرِبِ ،قَدْ بَلَغَ مِنَ الشُّهْرَةِ وَالْوُضُوحِ مَبْلَغًا لَا يَكَادُ يُلْحَقُ وَلَا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِى دَرْكِهِ ، إِذْ هُوَ نَقْلُ الْأُمَّةِ وَالْجِيلِ مِنَ الْخَلَفِ عَنِ الْأُمَّةِ وَالْجِيلِ مِنَ السَّلَفِ ،وَبَيْتُ جَدِّهِمْ إِدْرِيسَ مُخْتَطِّ فَاسَ وَمُؤَسِّسِهَا مِنْ بُيُوتِهِمْ ،وَمَسْجِدُهُ لِصْقُ مَحَلَّتِهِمْ وَدُرُوبِهِمْ وَسَيْفُهُ مُنْتَضًى بِرَأْسِ الْمَأْذَنَةِ الْعُظْمَى مِنْ قَرَارِ بَلَدِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ آثَارِهِ الَّتِى جَاوَزَتْ أَخْبَارُهَا حُدُودَ التَّوَاتُرِ مَرَّاتٍ وَكَادَتْ تَلْحَقُ بِالْعِيَانِ فَإِذَا نَظَرَ غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ هَذَا النَّسَبِ إِلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ أَمْثَالِهَا وَمَا عَضَدَ شَرَفَهُمُ النَّبَوِىَّ مِنْ جَلَالِ الْمُلْكِ الَّذِى كَانَ لِسَلَفِهِمْ بِالْمَغْرِبِ ،وَاسْتَيْقَنَ أَنَّهُ بِمَعْزِلٍ عَنْ ذَلِكَ وَأَنَّهُ لَا يَبْلُغُ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ وَأَنَّ غَايَةَ أَمْرِ الْمُنْتَمِينَ إِلَى الْبَيْتِ الْكَرِيمِ مِمَّنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ أَمْثَالُ هَذِهِ الشَّوَاهِدِ أَنْ يُسَلَّمَ لَهُمْ حَالُهُمْ لِأَنَّ النَّاسَ مُصَدَّقُونَ فِى أَنْسَابِهِمْ ، وَبَوْنٌ مَا بَيْنَ الْعِلْمِ وَالظَّنِّ وَالْيَقِينِ وَالتَّسْلِيمِ ،فَإِذَا عَلِمَ بِذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ غَصَّ بِرِيقِهِ وَوَدَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ لَوْ يَرُدُّونَهُمْ عَنْ شَرَفِهِمْ ذَلِكَ سُوقَةً وَوُضَعَاءَ حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ

(١) أفن العقول ضعفها واختلالها .

فيرجعون إلى العناد وارتكاب اللجاج والبهت بمثل هذا الطعن الفائل(١) ، والقول المكذوب تعللاً بالمساواة فى الظنة والمشابهة فى تطرق الاحتمال وهيهات لهم ذلك فليس فى المغرب فيما نعلمه من أهل هذا البيت الكريم ، من يبلغ فى صراحة نسبه ووضوحه مبالغ أعقاب إدريس هذا من آل الحسن ، وكبراؤهم لهذا العهد بنو عمران بفاس من ولد يحيى الجوطى بن محمد بن يحيى العوام ابن القاسم بن أدريس ، وهم نقباء أهل البيت هناك ، والساكنون ببيت جدهم إدريس ، ولهم السيادة على أهل المغرب كافة حسبما نذكرهم عند ذكر الأدارسة إن شاء الله تعالى .

ويلحق بهذه المقالات الفاسدة والمذاهب الفائلة ، ما يتناوله ضعفة الرأى من فقهاء المغرب من القدح فى الإمام المهدى صاحب دولة الموحدين ونسبته إلى الشعوذة والتلبيس فيما أتاه من القيام بالتوحيد الحق والنعى على أهل البغى قبله وتكذيبهم لجميع مدعياته فى ذلك حتى فيما يزعم الموحدون اتباعه من انتسابه فى أهل البيت وإنما حمل الفقهاء على تكذيبه ما كمن فى نفوسهم من حسده على شأنه فإنهم لما رأوا من أنفسهم مناهضته فى العلم والفتيا وفى الدين بزعمهم ثم امتاز عنهم بأنه متبوع الرأى ، مسموع القول ، موطأ العقب نفسوا ذلك عليه وغضوا منه بالقدح فى مذاهبه والتكذيب لمدعياته ، وأيضاً فكانوا يؤنسون من ملوك لمتونة أعدائه تجلة وكرامة لم تكن لهم من غيرهم لما كانوا عليه من السذاجة وانتحال الديانة فكان لحملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة والانتصاب للشورى كل فى بلده وعلى قدره فى قومه فأصبحوا بذلك شيعة لهم وحرباً لعدوهم ونقموا على المهدى ما جاء به من خلافهم والتثريب عليهم والمناصبة لهم تشيعاً للمتونة وتعصباً لدولتهم ومكان الرجل غير مكانهم ، وحاله على غير معتقداتهم ، وما ظنك برجل نقم على أهل الدولة ما نقم من أحوالهم ، وخالف اجتهاده فقهاؤهم فنادى فى قومه ودعا إلى جهادهم بنفسه فاقتلع الدولة من أصولها ، وجعل عاليها سافلها أعظم ما كانت قوة ، وأشد شوكة ، وأعز أنصاراً ، وحامية وتساقطت فى ذلك من أتباعه نفوس لا يحصيها إلا خالقها قد بايعوه على الموت ووقوه بأنفسهم من الهلكة ، وتقربوا إلى الله تعالى بإتلاف مهجهم فى إظهار تلك الدعوة والتعصب لتلك الكلمة ، حتى علت على الكلم ودالت بالعدوتين من الدول وهو بحالة من التقشف والحصر والصبر على المكاره والتقلل من الدنيا حتى قبضه الله وليس على شىء من الحظ والمتاع فى دنياه حتى الولد الذى ربما تجنح إليه النفوس ، وتخادع عن تمنيه فليت شعرى ما الذى قصد بذلك ، إن لم يكن وجه الله وهو لم يحصل له حظ من الدنيا فى عاجله ومع هذا فلو كان قصده غير صالح لما تم أمره وانفسحت دعوته : سنة الله التى قد خلت فى عباده .

وأما إنكارهم نسبه فى أهل البيت فلا تعضده حجة لهم مع أنه إن ثبت أنه ادعاه وانتسب إليه فلا

---

(١) مكان فوق عظم الورك لا يطعنه إلا حاذق .

دليل يقوم على بطلانه لأن الناس مصدقون فى أنسابهم. وإن قالوا إن الرئاسة لا تكون على قوم فى غير أهل جلدتهم، كما هو الصحيح، حسبما يأتى فى الفصل الأول من هذا الكتاب والرجل قد رأس سائر المصامدة ودانوا باتباعه والانقياد إليه وإلى عصابته من هرغة حتى تم أمر الله فى دعوته فاعلم أن هذا النسب الفاطمى لم يكن أمر المهدى يتوقف عليه ولا اتبعه الناس بسببه وإنما كان اتباعهم له بعصبية الهرغية والمصمودية ومكانه منها ورسوخ شجرته فيها وكان ذلك النسب الفاطمى خفيا قد درس عند الناس وبقى عنده وعند عشيرته يتناقلونه بينهم، فيكون النسب الأول كأنه انسلخ منه، ولبس جلدة هؤلاء وظهر فيها فلا يضره الانتساب الأول فى عصبيته، إذ هو مجهول عند أهل العصابة ومثل هذا واقع كثيرا إذا كان النسب الأول خفيا وانظر قصة عرفجة وجرير فى رئاسة بجيلة وكيف كان عرفجة من الأزد ولبس جلدة بجيلة حتى تنازع مع جرير رئاستهم عند عمر رضى الله عنه كما هو مذكور تتفهم منه وجه الحق والله الهادى للصواب.

وقد كدنا أن نخرج عن غرض الكتاب بالإطناب فى ذكر هذه المغالط. فقد زلت أقدام كثير من الأثبات والمؤرخين الحفاظ فى مثل هذه الأحاديث والآراء وعلقت بأفكارهم ونقلها عنهم الكافة من ضعفة النظر والغفلة عن القياس، وتلقوها هم أيضا كذلك من غير بحث ولا روية واندرجت فى محفوظاتهم، حتى صار فن التاريخ واهيا مختلطا وناظره مرتبكا وعد من مناحى العامة.

فلذا يحتاج صاحب هذا الفن إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار فى السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال والإحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منها والمختلف، والقيام على أصول الدول والملل ومبادئ ظهورها وأسباب حدوثها ودواعى كونها وأحوال القائمين بها وأخبارهم، حتى يكون مستوعبا لأسباب كل خبره، وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول، فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا، وإلا زيفه واستغنى عنه.

وما استكبر القدماء علم التاريخ إلا لذلك، حتى انتحله الطبرى والبخارى وابن إسحاق من قبلهما وأمثالهم من علماء الأمة، وقد ذهل الكثير عن هذا السر فيه حتى صار انتحاله مجهلة، واستخف العوام ومن لا رسوخ له فى المعارف مطالعته وحمله والخوض فيه والتطفل عليه، فاختلط المرعى بالهمل، واللباب بالقشر، والصادق بالكاذب، وإلى الله عاقبة الأمور.

ومن الغلط الخفى فى التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال فى الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام، وهو داء دوى شديد الخفاء إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة، فلا يكاد يتفطن

لَهُ إلاَّ الآحَادُ مِنْ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ أَحْوَالَ الْعَالَمِ وَالْأُمَمِ وَعَوَائِدَهُمْ وَنِحَلَهُمْ لاَ تَدُومُ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ وَمِنْهَاجٍ مُسْتَقِرٍّ إِنَّمَا هُوَ اخْتِلاَفٌ عَلَى الْأَيَّامِ وَالْأَزْمِنَةِ وَانْتِقَالٌ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ ، وَكَمَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْأَشْخَاصِ وَالْأَوْقَاتِ وَالْأَمْصَارِ ، فَكَذَلِكَ يَقَعُ فِي الْآفَاقِ وَالْأَقْطَارِ وَالْأَزْمِنَةِ وَالدُّوَلِ : سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ، وَقَدْ كَانَتْ فِي الْعَالَمِ أُمَمُ الْفُرْسِ الْأُولَى وَالسِّرْيَانِيُّونَ وَالنَّبَطُ وَالتَّبَابِعَةُ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ وَالْقِبْطُ ، وَكَانُوا عَلَى أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ بِهِمْ فِي دُوَلِهِمْ وَمَمَالِكِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ وَاصْطِلاَحَاتِهِمْ وَسَائِرِ مُشَارَكَاتِهِمْ مَعَ أَبْنَاءِ جِنْسِهِمْ . وَأَحْوَالُ اعْتِمَارِهِمْ لِلْعَالَمِ تَشْهَدُ بِهَا آثَارُهُمْ ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِهِمِ الْفُرْسُ الثَّانِيَةُ وَالرُّومُ وَالْعَرَبُ فَتَبَدَّلَتْ تِلْكَ الْأَحْوَالُ ، وَانْقَلَبَتْ بِهَا الْعَوَائِدُ إِلَى مَا يُجَانِسُهَا أَوْ يُشَابِهُهَا وَإِلَى مَا يُبَايِنُهَا أَوْ يُبَاعِدُهَا ، ثُمَّ جَاءَ الْإِسْلاَمُ بِدَوْلَةِ مُضَرَ فَانْقَلَبَتْ تِلْكَ الْأَحْوَالُ أَجْمَعُ انْقِلاَبَةً أُخْرَى وَصَارَتْ إِلَى مَا أَكْثَرُهُ مُتَعَارَفٌ لِهَذَا الْعَهْدِ يَأْخُذُهُ الْخَلَفُ عَنِ السَّلَفِ ، ثُمَّ دَرَسَتْ دَوْلَةُ الْعَرَبِ وَأَيَّامُهُمْ وَذَهَبَتِ الْأَسْلاَفُ الَّذِينَ شَيَّدُوا عِزَّهُمْ وَمَهَّدُوا مُلْكَهُمْ ، وَصَارَ الْأَمْرُ فِي أَيْدِي سِوَاهُمْ مِنَ الْعَجَمِ مِثْلِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ ، وَالْبَرْبَرِ بِالْمَغْرِبِ ، وَالْفِرِنْجَةِ بِالشَّمَالِ ، فَذَهَبَتْ بِذَهَابِهِمْ أُمَمٌ وَانْقَلَبَتْ أَحْوَالٌ وَعَوَائِدُ نُسِيَ شَأْنُهَا وَأُغْفِلَ أَمْرُهَا .

وَالسَّبَبُ الشَّائِعُ فِي تَبَدُّلِ الْأَحْوَالِ وَالْعَوَائِدِ أَنَّ عَوَائِدَ كُلِّ جِيلٍ تَابِعَةٌ لِعَوَائِدِ سُلْطَانِهِ كَمَا يُقَالُ فِي الْأَمْثَالِ الْحِكَمِيَّةِ ، النَّاسُ عَلَى دِينِ الْمَلِكِ ، وَأَهْلُ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ إِذَا اسْتَوْلَوْا عَلَى الدَّوْلَةِ وَالْأَمْرِ فَلاَ بُدَّ مِنْ أَنْ يَفْزَعُوا إِلَى عَوَائِدِ مَنْ قَبْلَهُمْ وَيَأْخُذُوا الْكَثِيرَ مِنْهَا ، وَلاَ يُغْفِلُونَ عَوَائِدَ جِيلِهِمْ مَعَ ذَلِكَ فَيَقَعُ فِي عَوَائِدِ الدَّوْلَةِ بَعْضُ الْمُخَالَفَةِ لِعَوَائِدِ الْجِيلِ الْأَوَّلِ فَإِذَا جَاءَتْ دَوْلَةٌ أُخْرَى مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَزَجَتْ مِنْ عَوَائِدِهِمْ وَعَوَائِدِهَا ، خَالَفَتْ أَيْضًا بَعْضَ الشَّيْءِ وَكَانَتْ لِلْأُولَى أَشَدَّ مُخَالَفَةً ، ثُمَّ لاَ يَزَالُ التَّدْرِيجُ فِي الْمُخَالَفَةِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْمُبَايَنَةِ بِالْجُمْلَةِ ، فَمَا دَامَتِ الْأُمَمُ وَالْأَجْيَالُ تَتَعَاقَبُ فِي الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ لاَ تَزَالُ الْمُخَالَفَةُ فِي الْعَوَائِدِ وَالْأَحْوَالِ وَاقِعَةً وَالْقِيَاسُ وَالْمُحَاكَاةُ لِلْإِنْسَانِ طَبِيعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، وَمِنَ الْغَلَطِ غَيْرُ مَأْمُونَةٍ تُخْرِجُهُ مَعَ الذُّهُولِ وَالْغَفْلَةِ عَنْ قَصْدِهِ وَتَعُوجُ بِهِ عَنْ مَرَامِهِ ، فَرُبَّمَا يَسْمَعُ السَّامِعُ كَثِيرًا مِنْ أَخْبَارِ الْمَاضِينَ ، وَلاَ يَتَفَطَّنُ لِمَا وَقَعَ مِنْ تَغَيُّرِ الْأَحْوَالِ وَانْقِلاَبِهَا فَيُجْرِيهَا لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ عَلَى مَا عَرَفَ وَيَقِيسُهَا بِمَا شَهِدَ ، وَقَدْ يَكُونُ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا كَثِيرًا فَيَقَعُ فِي مَهْوَاةٍ مِنَ الْغَلَطِ .

فَمِنْ هَذَا الْبَابِ مَا يَنْقُلُهُ الْمُؤَرِّخُونَ مِنْ أَحْوَالِ الْحَجَّاجِ وَأَنَّ أَبَاهُ كَانَ مِنَ الْمُعَلِّمِينَ مَعَ أَنَّ التَّعْلِيمَ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ الْمَعَاشِيَّةِ الْبَعِيدَةِ مِنِ اعْتِزَازِ أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ ، وَالْمُعَلِّمُ مُسْتَضْعَفٌ مِسْكِينٌ مُنْقَطِعُ الْجِذْمِ (١) فَيَتَشَوَّفُ الْكَثِيرُ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ أَهْلِ الْحِرَفِ وَالصَّنَائِعِ الْمَعَاشِيَّةِ إِلَى نَيْلِ الرُّتَبِ الَّتِي لَيْسُوا لَهَا بِأَهْلٍ وَيَعُدُّونَهَا مِنَ الْمُمْكِنَاتِ لَهُمْ ، فَتَذْهَبُ بِهِمْ وَسَاوِسُ الْمَطَامِعِ ، وَرُبَّمَا انْقَطَعَ حَبْلُهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ ، فَسَقَطُوا فِي مَهْوَاةِ الْهَلَكَةِ وَالتَّلَفِ وَلاَ يَعْلَمُونَ اسْتِحَالَتَهَا

---

(١) الجذم : بكسر الجيم الأصل .

في حقهم وأنهم أهل حِرَف وصنائع للمعاش، وأن التعليم صدر الإسلام والدولتين لم يكن كذلك ولم يكن العلم بالجملة صناعة إنما كان نقلاً لما سُمع من الشارع وتعليماً لما جُهل من الدين على جهة البلاغ، فكان أهل الأنساب والعصبية الذين قاموا بالملة هم الذين يعلّمون كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم على معنى التبليغ الخبري لا على وجه التعليم الصناعي، إذ هو كتابهم المنزل على الرسول منهم وبه هدايتهم والإسلام دينهم قاتلوا عليه وقتلوا واختصوا به من بين الأمم وشرفوا، فيحرصون على تبليغ ذلك وتفهيمه للأمة لا تصدهم عنه لائمة الكبر، ولا يزعهم عاذل الأنفة، ويشهد لذلك بعث النبي صلى الله عليه وسلم كبار أصحابه مع وفود العرب، يعلمونهم حدود الإسلام وما جاء به من شرائع الدين؛ بعث في ذلك من أصحابه العشرة فمن بعدهم، فلما استقر الإسلام ووشجت عروق الملة حتى تناولها الأمم البعيدة من أيدي أهلها، واستحالت بمرور الأيام أحوالها وكثر استنباط الأحكام الشرعية من النصوص لتعدد الوقائع وتلاحقها فاحتاج ذلك لقانون يحفظه من الخطأ، وصار العلم ملكة يحتاج إلى التعلم، فأصبح من جملة الصنائع والحرف كما يأتي ذكره في فصل العلم والتعليم، واشتغل أهل العصبية بالقيام بالملك والسلطان فدُفع للعلم من قام به من سواهم، وأصبح حرفة للمعاش وشمخت أنوف المترفين وأهل السلطان عن التصدي للتعليم، واختص انتحاله بالمستضعفين، وصار منتحله محتقراً عند أهل العصبية والملك والحجاج بن يوسف كان أبوه من سادات ثقيف وأشرافهم ومكانهم من عصبية العرب ومناهضة قريش في الشرف ما علمت ولم يكن تعليمه للقرآن على ما هو الأمر عليه لهذا العهد من أنه حرفة للمعاش، وإنما كان على ما وصفناه من الأمر الأول في الإسلام.

ومن هذا الباب أيضاً ما يتوهمه المتصفحون لكتب التاريخ إذا سمعوا أحوال القضاة وما كانوا عليه من الرئاسة في الحروب وقود العساكر، فتترامى بهم وساوس الهمم إلى مثل تلك الرتب يحسبون أن الشأن في خطة القضاء لهذا العهد على ما كان عليه من قبل، ويظنون بابن أبي عامر صاحب هشام المستبد عليه وابن عباد من ملوك الطوائف بإشبيلية إذا سمعوا أن آباءهم كانوا قضاة أنهم مثل القضاة لهذا العهد، ولا يتفطنون لما وقع في رتبة القضاء من مخالفة العوائد كما نبينه في فصل القضا من الكتاب الأول، وابن أبي عامر وابن عباد كانا من قبائل العرب القائمين بالدولة الأموية بالأندلس وأهل عصبيتها، وكان مكانهم فيها معلوماً، ولم يكن نيلهم لما نالوه من الرئاسة والملك بخطة القضاء كما هي لهذا العهد، بل إنما كان القضاء في الأمر القديم لأهل العصبية من قبيل الدولة ومواليها كما هي الوزارة لعهدنا بالمغرب وانظر خروجهم بالعساكر في الطوائف وتقليدهم عظائم الأمور التي لا تقلد إلا لمن له الغنى فيها بالعصبية فيغلط السامع في ذلك ويحمل الأحوال على غير ما هي.

وأكثر ما يقع في هذا الغلط ضعفاء البصائر من

أَهْلِ الأَنْدَلُسِ لِهٰذَا الْعَهْدِ، لِفُقْدَانِ الْعَصَبِيَّةِ فى مَوَاطِنِهِمْ مُنْذُ أَعْصَارٍ بَعِيدَةٍ بِفَنَاءِ الْعَرَبِ وَدَوْلَتِهِمْ بِهَا وَخُرُوجِهِمْ عَنْ مَلَكَةِ أَهْلِ الْعَصَبِيَّاتِ (١) مِنَ الْبَرْبَرِ فَبَقِيَتْ أَنْسَابُهُمُ الْعَرَبِيَّةُ مَحْفُوظَةً وَالذَّرِيعَةُ إِلَى الْعِزِّ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ وَالتَّنَاصُرِ مَفْقُودَةً، بَلْ صَارُوا مِنْ جُمْلَةِ الرَّعَايَا الْمُتَخَاذِلِينَ الذِينَ تَعَبَّدَهُمُ الْقَهْرُ وَرَئِمُوا المَذَلَّةَ يَحْسَبُونَ أَنَّ أَنْسَابَهُمْ مَعَ مُخَالَطَةِ الدَّوْلَةِ هِيَ الَّتِي يَكُونُ لَهُمْ بِهَا الْغَلَبُ وَالتَّحَكُّمُ فَتَجِدُ أَهْلَ الْحِرَفِ وَالصَّنَائِعِ مِنْهُمْ مُتَصَدِّينَ لِذٰلِكَ سَاعِينَ فِى نَيْلِهِ، فَأَمَّا مَنْ بَاشَرَ أَحْوَالَ الْقَبَائِلِ وَالْعَصَبِيَّةِ وَدُوَلَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْغَرْبِيَّةِ وَكَيْفَ يَكُونُ التَّغَلُّبُ بَيْنَ الأُمَمِ وَالْعَشَائِرِ، فَقَلَّمَا يَغْلَطُونَ فى ذٰلِكَ وَيُخْطِئُونَ فى اعْتِبَارِهِ.

وَمِنْ هٰذَا الْبَابِ أَيْضًا مَا يَسْلُكُهُ الْمُؤَرِّخُونَ عِنْدَ ذِكْرِ الدُّوَلِ وَنَسَقِ مُلُوكِهَا فَيَذْكُرُونَ اسْمَهُ وَنَسَبَهُ وَأَبَاهُ وَأُمَّهُ وَنِسَاءَهُ وَلَقَبَهُ وَخَاتَمَهُ وَقَاضِيَهُ وَحَاجِبَهُ وَوَزِيرَهُ، كُلُّ ذٰلِكَ تَقْلِيدٌ لِمُؤَرِّخِي الدَّوْلَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ تَفَطُّنٍ لِمَقَاصِدِهِمْ، وَالْمُؤَرِّخُونَ لِذٰلِكَ الْعَهْدِ كَانُوا يَضَعُونَ تَوَارِيخَهُمْ لأَهْلِ الدَّوْلَةِ، وَأَبْنَاؤُهَا مُتَشَوِّفُونَ إِلَى سِيَرِ أَسْلاَفِهِمْ وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهِمْ لِيَقْتَفُوا آثَارَهُمْ وَيَنْسِجُوا عَلَى مِنْوَالِهِمْ، حَتَّى فى اصْطِنَاعِ الرِّجَالِ مِنْ خَلَفِ دَوْلَتِهِمْ وَتَقْلِيدِ الْخُطَطِ وَالْمَرَاتِبِ لأَبْنَاءِ صَنَائِعِهِمْ وَذَوِيهِمْ، وَالْقُضَاةُ أَيْضًا كَانُوا مِنْ أَهْلِ عَصَبِيَّةِ الدَّوْلَةِ وَفِى عِدَادِ الْوُزَرَاءِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ لَكَ فَيَحْتَاجُونَ إِلَى ذِكْرِ ذٰلِكَ كُلِّهِ.

وَأَمَّا حِينَ تَبَايَنَتِ الدُّوَلُ وَتَبَاعَدَ مَا بَيْنَ الْعُصُورِ وَوَقَفَ الْغَرَضُ عَلَى مَعْرِفَةِ الْمُلُوكِ بِأَنْفُسِهِمْ خَاصَّةً وَنِسَبِ الدُّوَلِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ فى قُوَّتِهَا وَغَلَبَتِهَا وَمَنْ كَانَ يُنَاهِضُهَا مِنَ الأُمَمِ أَوْ يَقْصُرُ عَنْهَا، فَمَا الْفَائِدَةُ لِلْمُصَنِّفِ فى هٰذَا الْعَهْدِ فى ذِكْرِ الأَبْنَاءِ وَالنِّسَاءِ وَنَقْشِ الْخَاتَمِ وَاللَّقَبِ وَالْقَاضِي وَالْوَزِيرِ وَالْحَاجِبِ مِنْ دَوْلَةٍ قَدِيمَةٍ لاَ يُعْرَفُ فِيهَا أُصُولُهُمْ وَلاَ أَنْسَابُهُمْ وَلاَ مَقَامَاتُهُمْ، إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذٰلِكَ التَّقْلِيدُ وَالْغَفْلَةُ عَنْ مَقَاصِدِ الْمُؤَلِّفِينَ الأَقْدَمِينَ، وَالذُّهُولُ عَنْ تَحَرِّى الأَغْرَاضِ مِنَ التَّارِيخِ اللَّهُمَّ إِلاَّ ذِكْرَ الْوُزَرَاءِ الَّذِينَ عَظُمَتْ آثَارُهُمْ وَعَفَتْ عَنِ الْمُلُوكِ أَخْبَارُهُمْ كَالْحَجَّاجِ وَبَنِى الْمُهَلَّبِ وَالْبَرَامِكَةِ وَبَنِى سَهْلِ بْنِ نُوبَخْتَ وَكَافُورٍ الأَخْشِيدِى وَابْنِ أَبِى عَامِرٍ وَأَمْثَالِهِمْ فَغَيْرُ نَكِيرٍ الإِلْمَاعُ بِآبَائِهِمْ وَالإِشَارَةُ إِلَى أَحْوَالِهِمْ لاِنْتِظَامِهِمْ فى عِدَادِ الْمُلُوكِ.

وَلْنَذْكُرْ هُنَا فَائِدَةً نَخْتِمُ كَلاَمَنَا فى هٰذَا الْفَصْلِ بِهَا وَهِىَ أَنَّ التَّارِيخَ إِنَّمَا هُوَ ذِكْرُ الأَخْبَارِ الْخَاصَّةِ بِعَصْرٍ أَوْ جِيلٍ، فَأَمَّا ذِكْرُ الأَحْوَالِ الْعَامَّةِ لِلآفَاقِ وَالأَجْيَالِ وَالأَعْصَارِ فَهُوَ أُسٌّ لِلْمُؤَرِّخِ تَنْبَنِى عَلَيْهِ أَكْثَرُ مَقَاصِدِهِ وَتَتَبَيَّنُ بِهِ أَخْبَارُهُ، وَقَدْ كَانَ النَّاسُ يُفْرِدُونَهُ بِالتَّآلِيفِ كَمَا فَعَلَهُ الْمَسْعُودِىُّ فى كِتَابِ «مُرُوجِ الذَّهَبِ» شَرَحَ فِيهِ أَحْوَالَ الأُمَمِ وَالآفَاقِ لِعَهْدِهِ فى عَصْرِ الثَّلاَثِينَ وَالثَّلاَثِمِائَةِ غَرْبًا وَشَرْقًا وَذَكَرَ نِحَلَهُمْ وَعَوَائِدَهُمْ وَوَصَفَ الْبُلْدَانَ وَالْجِبَالَ

---

(١) العصبية بفتحتين : التعصب وهو أن يذب الرجل عن حريم صاحبه ويجد فى نصره . منسوبة إلى العصبة محركة وهم أقارب الرجل من قبل أبيه لأنهم هم الذابون عن حريم من هو منهم وهى بهذا المعنى ممدوحة .

وأما العصبية المذمومة فى الحديث فى الجامع الصغير «ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية» فهى تعصب رجال لقبيلة على رجال لقبيلة أخرى لغير ديانة نسبة إلى العصبة بمعنى قوم الرجل الذين يتعصبون له ولو من غير أقاربه ظالماً كان أو مظلوماً

وفى الفتاوى الخيرية : من موانع قبول الشهادة : العصبية وهى أن يبغض الرجل الرجل لأنه من بنى فلان أو من قبيلة كذا والوجه فى ذلك ظاهر .

وَالْبِحَارَ وَالْمَمَالِكَ وَالدُّوَلَ وَفِرَقَ شُعُوبِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ فصار إماماً لِلْمُؤَرِّخِينَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ وَأَصْلاً يُعَوِّلُونَ فى تَحْقِيقِ الْكَثِيرِ مِنْ أَخْبَارِهِمْ عَلَيْهِ ،ثُمَّ جاء الْبَكْرِىُّ مِنْ بَعْده فَفَعَلَ مِثْلَ ذٰلِكَ فى الْمَسَالِكِ وَالْمَمالِك خاصَّةً دُون غَيْرِهَا مِنَ الْأَحْوال ،لأَنَّ الْأُمَمَ وَالْأَجْيَال لِعهده لَمْ يَقَعْ فِيهَا كَثِيرُ انْتِقَالٍ وَلَاعَظِيمُ تَغَيُّرٍ ،وَأَمَّا لِهذا الْعَهْدِ وَهُوَ آخِرُ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ فَقَدِ انْقَلَبَتْ أَحْوَالُ الْمَغْرِبِ الَّذِى نَحْنُ شَاهِدُوهُ وَتَبَدَّلَتْ بِالْجُمْلَةِ وَاعْتَاضَ مِنْ أَجْيَالِ الْبَرْبَرِ أَهْلُهُ عَلَى الْقِدَمِ بِمَا طَرَأَ فِيهِ مِنْ لَدُن الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ مِنْ أَجْيَالِ الْعَرَبِ بِمَا كَسَرُوهُمْ وَغَلَبُوهُمْ وَانْتَزَعُوا مِنْهُمْ عَامَّةَ الْأَوْطَان وَشَارَكُوهُمْ فِيمَا بَقِىَ مِنَ الْبُلْدَان لِمِلْكِهِمْ هذا إِلَى مَا نَزَلَ بِالْعُمْرَانِ شَرْقاً وَغَرْباً فى مُنْتَصَفِ هذه الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ مِنَ الطَّاعُونِ الْجَارِفِ الَّذى تَحَيَّفَ الْأُمَمَ ، وَذَهَبَ بِأَهْلِ الْجِيلِ وَطَوَى كَثِيراً مِنْ مَحَاسِنِ الْعُمْرَان وَمَحَاهَا وَجاء لِلدُّوَل عَلَى حِينِ هَرَمِهَا وَبُلُوغِ الْغَايَةِ مِنْ مَدَاهَا فَقَلَّصَ مِنْ ظِلَالِهَا ،وَفَلَّ مِنْ حَدِّهَا ،وَأَوْهَنَ مِنْ سُلْطَانِهَا وَتَدَاعَتْ إِلَى التَّلَاشِى وَالاضمِحْلَال أَمْوَالُهَا وَانْتَقَصَ عُمْرَان الْأَرْض بِانْتِقَاصِ الْبَشَرِ ، فَخَرِبَتِ الْأَمْصَار ،وَالْمَصَانِعُ وَدَرَسَت السُّبُلُ وَالْمَعَالِمُ ، وَخَلَتِ الدِّيَارُ وَالْمَنَازِلُ ، وَضَعُفَتِ الدُّوَلُ وَالْقَبَائِلُ ، وَتَبَدَّلَ السَّاكِنُ وَكَأَنِّى بِالْمَشْرِق قَدْ نَزَلَ بِهِ مِثْلُ مَا نَزَلَ بِالْمَغْرِبِ لٰكِنْ عَلَى نِسْبَتِهِ وَمِقْدَارِ عُمْرَانِهِ وَكَأَنَّمَا نَادَى لِسَانُ الْكَوْنِ فى الْعَالَمِ بِالْخُمُول وَالانْقِبَاض فَبَادَرَ بِالإِجَابَةِ وَاللهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِذَا تَبَدَّلَتِ الْأَحْوَالُ جُمْلَةً فَكَأَنَّمَا تَبَدَّلَ الْخَلْقُ مِنْ أَصْلِهِ ، وَتَحَوَّلَ الْعَالَمُ بِأَسْرِهِ ، وَكَأَنَّهُ خَلْقٌ جَدِيدٌ وَنَشْأَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ ،وَعَالَمٌ مُحْدَثٌ ، فاحْتَاجَ لِهذَا الْعَهْدِ مَنْ يُدَوِّنُ أَحْوَالَ الْخَلِيقَةِ وَالْآفَاقِ وَأَجْيَالِهَا ، وَالْعَوَائِدِ وَالنِّحَلِ لِأَهْلِهَا ، وَيَقْفُو مَسْلَكَ الْمَسْعُودِىِّ لِعَصْرِهِ لِيَكُونَ أَصْلاً يَقْتَدِى بِهِ مَنْ يَأْتِى مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ مِنْ بَعْدِهِ.

وَأَنَا ذَاكِرٌ فى كتابى هذا مَا أَمْكَنَنِى مِنْهُ فى هذَا الْقُطْرِ الْمَغْرِبِى إِمَّا صَرِيحاً أَوْ مُنْدَرِجاً فى أَخْبَارِهِ وَتَلْوِيحاً لاخْتِصَاصِ قَصْدِى فى التَّأْلِيفِ بِالْمَغْرِبِ وَأَحْوَالِ أَجْيَالِهِ وَأُمَمِهِ وَذِكْرِ مَمَالِكِهِ وَدُوَلِهِ دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَقْطَار لِعَدَمِ اطِّلَاعِى عَلَى أَحْوَالِ الْمَشْرِقِ وَأُمَمِهِ ، وَأَنَّ الْأَخْبَارَ الْمُتَنَاقَلَةَ لَاتَفِى كُنْهَ مَا أُرِيدُهُ مِنْهُ ،وَالْمَسْعُودِىُّ إِنَّمَا اسْتَوْفَى ذلكَ لِبُعْدِ رِحْلَتِهِ وَتَقَلُّبِهِ فى الْبِلَادِ كَمَا ذَكَرَ فى كِتَابِهِ ، مَعَ أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الْمَغْرِبَ قَصَّرَ فى اسْتِيفَاءِ أَحْوَالِهِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ،وَمَرَدُّ الْعِلْمِ كُلِّهِ إِلَى اللهِ ،وَالْبَشَرُ عَاجِزٌ قَاصِرٌ وَالاعْتِرَافُ مُتَعَيِّنٌ وَاجِبٌ وَمَنْ كَانَ اللهُ فى عَوْنِهِ تَيَسَّرَتْ عَلَيْهِ الْمَذَاهِبُ ، وَأَنْجَحَتْ لَهُ الْمَسَاعِى وَالْمَطَالِبُ ، وَنَحْنُ آخِذُونَ بِعَوْنِ اللهِ فِيمَا رُمْنَاهُ مِنْ أَغْرَاضِ التَّأْلِيفِ، وَاللهُ الْمُسَدِّدُ وَالْمُعِينُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ .

وَقَدْ بَقِىَ عَلَيْنَا أَن نُقَدِّمَ مُقَدِّمَةً فى كَيْفِيَّةِ وَضْعِ الْحُرُوفِ الَّتِى لَيْسَتْ مِنْ لُغَاتِ الْعَرَبِ إِذَا عَرَضَتْ فى كِتَابِنَا هذَا .

إِعْلَمْ أَنَّ الْحُرُوفَ فى النُّطْقِ كَمَا يَأْتِى شَرْحُهُ بَعْدُ هِىَ كَيْفِيَّاتُ الْأَصْوَاتِ الْخَارِجَةِ مِنَ الْحَنْجَرَةِ تَعْرِضُ مِنْ تَقْطِيعِ الصَّوْتِ بِقَرْعِ اللَّهَاةِ وَأَطْرَافِ اللِّسَانِ مَعَ الْحَنَكِ وَالْحَلْقِ وَالْأَضْرَاسِ

أو بقرع الشفتين أيضاً فتتغاير كيفيات الأصوات بتغاير ذلك القرع، وتجيء الحروف متمايزة في السمع، وتتركب منها الكلمات الدالة على ما في الضمائر، وليست الأمم كلها متساوية في النطق بتلك الحروف، فقد يكون لأمة من الحروف ما ليس لأمة أخرى والحروف التي نطقت بها العرب هي ثمانية وعشرون حرفاً كما عرفت؛ ونجد للعبرانيين حروفاً ليست في لغتنا وفي لغتنا أيضاً حروف ليست في لغتهم، وكذلك الإفرنج والترك والبربر وغير هؤلاء من العجم، ثم إن أهل الكتاب من العرب اصطلحوا في الدلالة على حروفهم المسموعة بأوضاع حروف مكتوبة متميزة بأشخاصها كوضع ألف وباء وجيم وراء وطاء إلى آخر الثمانية والعشرين؛ وإذا عرض لهم الحرف الذي ليس من حروف لغتهم بقي مهملاً عن الدلالة الكتابية مغفلاً عن البيان، وربما يرسمه بعض الكتاب بشكل الحرف الذي يكتنفه من لغتنا قبله أو بعده، وليس بكاف في الدلالة بل هو تغيير للحرف من أصله. ولما كان كتابنا مشتملاً على أخبار البربر وبعض العجم وكانت تعرض لنا في أسمائهم أو بعض كلماتهم حروف ليست من لغة كتابتنا ولا اصطلاح أوضاعنا اضطررنا إلى بيانه ولم نكتف برسم الحرف الذي يليه كما قلناه، لأنه عندنا غير واف بالدلالة عليه فاصطلحت في كتابي هذا على أن أضع ذلك الحرف العجمي بما يدل على الحرفين اللذين يكتنفانه، ليتوسط القارىء بالنطق به بين مخرجي ذينك الحرفين فتحصل تأديته وإنما اقتبست ذلك من رسم أهل المصحف حروف الإشمام كالصراط في قراءة خلف فإن النطق بصاده فيها معجم متوسط بين الصاد والزاي فوضعوا الصاد ورسموا في داخلها شكل الزاي ودل ذلك عندهم على التوسط بين الحرفين فكذلك رسمت أنا كل حرف يتوسط بين حرفين من حروفنا كالكاف المتوسطة عند البربر بين الكاف الصريحة عندنا والجيم أو القاف مثل اسم بلكين فأضعها كافاً وأنقطها بنقطة الجيم واحدة من أسفل أو بنقطة القاف واحدة من فوق أو اثنتين فيدل ذلك على أنه متوسط بين الكاف والجيم أو القاف وهذا الحرف أكثر ما يجيء في لغة البربر وما جاء من غيره فعلى هذا القياس أضع الحرف المتوسط بين حرفين من لغتنا بالحرفين معاً ليعلم القارىء أنه متوسط فينطق به كذلك فنكون قد دللنا عليه ولو وضعناه برسم الحرف الواحد عن جانبيه لكنا قد صرفناه من مخرجه إلى مخرج الحرف الذي من لغتنا وغيرنا لغة القوم فاعلم ذلك والله الموفق للصواب بمنه وفضله.

الكتاب الأول

فى طبيعة العمران فى الخليقة وما يعرض فيها فى البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والأسباب

إعْلَمْ أنَّهُ لَمَّا كَانَتْ حَقِيقَةُ التَّارِيخِ أنَّهُ خَبَرٌ عَنِ الإجْتِمَاعِ الإنْسَانِىِّ الَّذِى هُوَ عُمْرَانُ الْعَالَمِ وَمَا يَعْرِضُ لِطَبِيعَةِ ذلِكَ الْعُمْرَانِ مِنَ الأَحْوَالِ مِثْلِ التَّوَحُّشِ وَالتَّأنُّسِ وَالعَصَبِيَّاتِ وَأصْنَافِ التَّغَلُّبَاتِ لِلبَشَرِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ وَمَا يَنْشَأُ عَنْ ذلِكَ مِنَ الْمُلْكِ وَالدُّوَلِ وَمَرَاتِبِهَا وَمَا يَنْتَحِلُهُ الْبَشَرُ بِأعْمَالِهِمْ وَمَسَاعِيهِمْ مِنَ الْكَسْبِ وَالْمَعَاشِ وَالْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَسَائِرِ مَا يَحْدُثُ مِنْ ذلِكَ الْعُمْرَانِ بِطَبِيعَتِهِ مِنَ الأحْوَالِ .

وَلَمَّا كَانَ الْكَذِبُ مُتَطَرِّقًا لِلْخَبَرِ بِطَبِيعَتِهِ وَلَهُ أسْبَابٌ تَقْتَضِيهِ . فَمِنْهَا التَّشَيُّعَاتُ لِلآرَاءِ وَالْمَذَاهِبِ ،فَإنَّ النَّفْسَ إذَا كَانَتْ عَلَى حَالِ الإعْتِدَالِ فى قَبُولِ الْخَبَرِ أعْطَتْهُ حَقَّهُ مِنَ التَّمْحِيصِ وَالنَّظَرِ حَتى تَتَبَيَّنَ صِدْقَهُ مِنْ كَذِبِهِ ،وَإذَا خَامَرَهَا تَشَيُّعٌ لِرَأىٍ أوْ نِحْلَةٍ قَبِلَتْ مَا يُوَافِقُهَا مِنَ الأخْبَارِ لأوَّلِ وَهْلَةٍ ،وَكَانَ ذلِكَ الْمَيْلُ وَالتَّشَيُّعُ غِطَاءً عَلَى عَيْنِ بَصِيرَتِهَا عَنِ الإنْتِقَادِ وَالتَّمْحِيصِ ، فَتَقَعُ فى قَبُولِ الكَذِبِ وَنَقْلِهِ ، وَمِنَ الأسْبَابِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلْكَذِبِ فى الأخْبَارِ أيْضًا ،الثِّقَةُ بِالنَّاقِلِينَ ،وَتَمْحِيصُ ذلِكَ يَرْجِعُ إلَى التَّعْدِيلِ وَالتَّجْرِيحِ ، وَمِنْهَا الذُّهُولُ عَنِ الْمَقَاصِدِ فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاقِلِينَ لَا يَعْرِفُ الْقَصْدَ بِمَا عَايَنَ أوْ سَمِعَ وَيَنْقُلُ الْخَبَرَ عَلَى مَا فى ظَنِّهِ وَتَخْمِينِهِ فَيَقَعُ فى الْكَذِبِ . وَمِنْهَا تَوَهُّمُ الصِّدْقِ وَهُوَ كَثِيرٌ وَإنَّمَا يَجِىءُ فى الأكْثَرِ مِنْ جِهَةِ الثِّقَةِ بِالنَّاقِلِينَ ، وَمِنْهَا الْجَهْلُ بِتَطْبِيقِ الأحْوَالِ عَلَى الْوَقَائِعِ لِأجْلِ مَا يُدَاخِلُهَا مِنَ التَّلْبِيسِ وَالتَّصَنُّعِ فَيَنْقُلُهَا الْمُخْبِرُ كَمَا رَآهَا وَهِىَ بِالتَّصَنُّعِ عَلَى غَيْرِ الْحَقِّ فى نَفْسِهِ . وَمِنْهَا تَقَرُّبُ النَّاسِ فى الأكْثَرِ لأصْحَابِ التَّجِلَّةِ وَالْمَرَاتِبِ بِالثَّنَاءِ وَالْمَدْحِ .وَتَحْسِينِ الأحْوَالِ وَإشَاعَةِ الذِّكْرِ بِذلِكَ ، فَيَسْتَفِيضُ الإخْبَارُ بِهَا عَلَى غَيْرِ حَقِيقَةٍ ، فَالنُّفُوسُ مُولَعَةٌ بِحُبِّ الثَّنَاءِ وَالنَّاسُ مُتَطَلِّعُونَ إلى الدُّنْيَا وَأسْبَابِهَا مِنْ جَاهٍ أوْ ثَرْوَةٍ وَلَيْسُوا فى الأكْثَرِ بِرَاغِبِينَ فى الْفَضَائِلِ وَلَا مُتَنَافِسِينَ فى أهْلِهَا . وَمِنَ الأسْبَابِ الْمُقْتَضِيَةِ لَهُ أيْضًا وَهِىَ سَابِقَةٌ عَلَى جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ الْجَهْلُ بِطَبَائِعِ الأحْوَالِ فى الْعُمْرَانِ ،فَإنَّ كُلَّ حَادِثٍ مِنَ الْحَوَادِثِ ذَاتًا كَانَ أوْ فِعْلاً لَا بُدَّ لَهُ مِنْ طَبِيعَةٍ تَخُصُّهُ فى ذَاتِهِ ،وَفِيمَا يَعْرِضُ لَهُ مِنْ أحْوَالِهِ ،فَإذَا كَانَ السَّامِعُ عَارِفًا بِطَبَائِعِ الْحَوَادِثِ وَالأحْوَالِ فى الْوُجُودِ وَمُقْتَضَيَاتِهَا أعَانَهُ ذلِكَ فى تَمْحِيصِ الْخَبَرِ عَلَى تَمْيِيزِ الصِّدْقِ مِنَ الْكَذِبِ ،وَهذَا أبْلَغُ فى التَّمْحِيصِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ يَعْرِضُ .وَكَثِيرًا مَا يَعْرِضُ لِلسَّامِعِينَ قَبُولُ الأخْبَارِ الْمُسْتَحِيلَةِ وَيَنْقُلُونَهَا وَتُؤْثَرُ عَنْهُمْ كَمَا نَقَلَهُ الْمَسْعُودِىُّ عَنِ الإسْكَنْدَرِ لَمَّا صَدَّتْهُ دَوَابُّ الْبَحْرِ عَنْ بِنَاءِ الإسْكَنْدَرِيَّةِ .وَكَيْفَ اتَّخَذَ صُنْدُوقَ الزُّجَاجِ

وَغَاصَ فِيهِ إِلَى قَعْرِ الْبَحْرِ حَتَّى صَوَّرَ تِلْكَ الدَّوَابَّ الشَّيْطَانِيَّةَ الَّتِي رَآهَا وَعَمِلَ تَمَاثِيلَهَا مِنْ أَجْسَادٍ مَعْدَنِيَّةٍ ،وَنَصَبَهَا حِذَاءَ الْبُنْيَانِ ،فَفَرَّتْ تِلْكَ الدَّوَابُّ حِينَ خَرَجَتْ ،وَعَايَنَتْهَا وَتَمَّ بِنَاؤُهَا فِي حِكَايَةٍ طَوِيلَةٍ مِنْ أَحَادِيثِ خُرَافَةٍ مُسْتَحِيلَةٍ ،مِنْ قِبَلِ اتِّخَاذِهِ التَّابُوتَ الزُّجَاجِيَّ وَمُصَادَمَةِ الْبَحْرِ وَأَمْوَاجِهِ بِجِرْمِهِ ، وَمِنْ قِبَلِ أَنَّ الْمُلُوكَ لَا تَحْمِلُ أَنْفُسَهَا عَلَى مِثْلِ هذَا الْغُرُورِ ، وَمَنِ اعْتَمَدَهُ مِنْهُمْ فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْهَلَكَةِ وَانْتِقَاضِ الْعُقْدَةِ وَاجْتِمَاعِ النَّاسِ إِلَى غَيْرِهِ .وَفِي ذَلِكَ إِتْلَافُهُ .وَلَا يَنْتَظِرُونَ بِهِ رُجُوعَهُ مِنْ غُرُورِهِ ذلِكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ .وَمِنْ قِبَلِ أَنَّ الْجِنَّ لَا يُعْرَفُ لَهَا صُوَرٌ وَلَا تَمَاثِيلُ تَخْتَصُّ بِهَا إِنَّمَا هِيَ قَادِرَةٌ عَلَى التَّشَكُّلِ ، وَمَا يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ الرُّؤُوسِ لَهَا فَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِ الْبَشَاعَةُ وَالتَّهْوِيلُ لَا أَنَّهُ حَقِيقَةٌ . وَهذِهِ كُلُّهَا قَادِحَةٌ فِي تِلْكَ الْحِكَايَةِ ،وَالْقَادِحُ الْمُحِيلُ لَهَا مِنْ طَرِيقِ الْوُجُودِ أَبْيَنُ مِنْ هذَا كُلِّهِ ،وَهُوَ أَنَّ الْمُنْغَمِسَ فِي الْمَاءِ وَلَوْ كَانَ فِي الصُّنْدُوقِ يَضِيقُ عَلَيْهِ الْهَوَاءُ لِلتَّنَفُّسِ الطَّبِيعِيِّ ،وَتَسْخُنُ رُوحُهُ بِسُرْعَةٍ لِقِلَّتِهِ فَيَفْقِدُ صَاحِبُهُ الْهَوَاءَ الْبَارِدَ الْمُعَدِّلَ لِمِزَاجِ الرِّئَةِ وَالرُّوحِ الْقَلْبِيِّ وَيَهْلِكُ مَكَانَهُ وَهذَا هُوَ السَّبَبُ فِي هَلَاكِ أَهْلِ الْحَمَّامَاتِ إِذَا أُطْبِقَتْ عَلَيْهِمْ عَنِ الْهَوَاءِ الْبَارِدِ وَالْمُتَدَلِّينَ فِي الْآبَارِ وَالْمَطَامِيرِ الْعَمِيقَةِ الْمَهْوَى إِذَا سَخُنَ هَوَاؤُهَا بِالْعُفُونَةِ وَلَمْ تُدَاخِلْهَا الرِّيَاحُ فَتُخَلْخِلُهَا ،فَإِنَّ الْمُتَدَلِّيَ فِيهَا يَهْلِكُ لِحِينِهِ ،وَبِهذَا السَّبَبِ يَكُونُ مَوْتُ الْحُوتِ إِذَا فَارَقَ الْبَحْرَ فَإِنَّ الْهَوَاءَ لَا يَكْفِيهِ فِي تَعْدِيلِ رِئَتِهِ .إِذْ هُوَ حَارٌّ بِإِفْرَاطٍ وَالْمَاءُ الَّذِي يُعَدِّلُهُ بَارِدٌ ، وَالْهَوَاءُ الَّذِي خَرَجَ إِلَيْهِ حَارٌّ ، فَيَسْتَوْلِي الْحَارُّ عَلَى رُوحِهِ الْحَيَوَانِيِّ وَيَهْلِكُ دَفْعَةً. وَمِنْهُ هَلَاكُ الْمَصْعُوقِينَ وَأَمْثَالُ ذلِكَ

وَمِنَ الْأَخْبَارِ الْمُسْتَحِيلَةِ مَا نَقَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ أَيْضًا فِي تِمْثَالِ الزُّرْزُورِ الَّذِي بِرُومَةَ تَجْتَمِعُ إِلَيْهِ الزَّرَازِيرُ فِي يَوْمٍ مَعْلُومٍ مِنَ السَّنَةِ ،حَامِلَةً لِلزَّيْتُونِ ،وَمِنْهُ يَتَّخِذُونَ زَيْتَهُمْ .وَانْظُرْ مَا أَبْعَدَ ذلِكَ عَنِ الْمَجْرَى الطَّبِيعِيِّ فِي اتِّخَاذِ الزَّيْتِ .

وَمِنْهَا مَا نَقَلَهُ الْبَكْرِيُّ فِي بِنَاءِ الْمَدِينَةِ الْمُسَمَّاةِ ذَاتَ الْأَبْوَابِ ، تُحِيطُ بِأَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ مَرْحَلَةً ، وَتَشْتَمِلُ عَلَى عَشَرَةِ آلَافِ بَابٍ وَالْمُدُنُ إِنَّمَا اتُّخِذَتْ لِلتَّحَصُّنِ وَالِاعْتِصَامِ كَمَا يَأْتِي ،وَهذِهِ خَرَجَتْ عَنْ أَنْ يُحَاطَ بِهَا فَلَا يَكُونُ فِيهَا حِصْنٌ وَلَا مُعْتَصَمٌ ، وَكَمَا نَقَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ أَيْضًا فِي حَدِيثِ مَدِينَةِ النُّحَاسِ ،وَأَنَّهَا مَدِينَةٌ كُلُّ بِنَائِهَا نُحَاسٌ بِصَحْرَاءِ سِجِلْمَاسَةَ ظَفِرَ بِهَا مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ فِي غَزْوَتِهِ إِلَى الْمَغْرِبِ ،وَأَنَّهَا مُغْلَقَةُ الْأَبْوَابِ وَأَنَّ الصَّاعِدَ إِلَيْهَا مِنْ أَسْوَارِهَا إِذَا أَشْرَفَ عَلَى الْحَائِطِ صَفَّقَ وَرَمَى بِنَفْسِهِ ،فَلَا يَرْجِعُ آخِرَ الدَّهْرِ فِي حَدِيثٍ مُسْتَحِيلٍ عَادَةً مِنْ خُرَافَاتِ الْقُصَّاصِ. وَصَحْرَاءُ سِجِلْمَاسَةَ قَدْ نَفَضَهَا الرُّكَّابُ وَالْأَدِلَّاءُ وَلَمْ يَقِفُوا لِهذِهِ الْمَدِينَةِ عَلَى خَبَرٍ ، ثُمَّ إِنَّ هذِهِ الْأَحْوَالَ الَّتِي ذَكَرُوا عَنْهَا كُلُّهَا مُسْتَحِيلٌ عَادَةً ،مُنَافٍ لِلْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي بِنَاءِ الْمُدُنِ وَاخْتِطَاطِهَا ، وَأَنَّ الْمَعَادِنَ غَايَةُ الْمَوْجُودِ مِنْهَا أَنْ يُصْرَفَ فِي الْآنِيَةِ وَالْخُرْثِيِّ (١) وَأَمَّا تَشْيِيدُ مَدِينَةٍ مِنْهَا فَكَمَا تَرَاهُ مِنَ الِاسْتِحَالَةِ وَالْبُعْدِ .وَأَمْثَالُ ذلِكَ كَثِيرَةٌ وَتَمْحِيصُهُ إِنَّمَا هُوَ بِمَعْرِفَةِ طَبَائِعِ الْعُمْرَانِ وَهُوَ أَحْسَنُ الْوُجُوهِ

(١) الخرثى بالضم أثاث البيت : قاموس .

وأوثقها فى تمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها. وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة، ولا يرجع إلى تعديل الرواة حتى يعلم أن ذلك الخبر فى نفسه ممكن أو ممتنع، وأما إذا كان مستحيلاً فلا فائدة للنظر فى التعديل والتجريح.

ولقد عد أهل النظر من المطاعن فى الخبر استحالة مدلول اللفظ وتأويله بما لا يقبله العقل، وإنما كان التعديل والتجريح هو المعتبر فى صحة الأخبار الشرعية، لأن معظمها تكاليف إنشائية أوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط.

وأما الأخبار عن الواقعات فلا بد فى صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة، فلذلك وجب أن ينظر فى إمكان وقوعه، وصار فيها ذلك أهم من التعديل ومقدما عليه، إذ فائدة الإنشاء مقتبسة منه فقط، وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة، وإذا كان ذلك فالقانون فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر فى الاجتماع البشرى الذى هو العمران، ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه، وما يكون عارضا لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له. وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانونا فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار، والصدق من الكذب بوجه برهانى لا مدخل للشك فيه – وحينئذ فاذا سمعنا عن شىء من الأحوال الواقعة فى العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه، وكان ذلك لنا معيارا صحيحا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه: وهذا هو غرض هذا الكتاب الأول من تأليفنا وكأن هذا علم مستقل بنفسه، فإنه ذو موضوع وهو العمران البشرى والاجتماع الإنسانى، وذو مسائل وهى بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى. وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أو عقليا.

واعلم أن الكلام فى هذا الغرض مستحدث الصنعة، غريب النزعة، عزيز الفائدة، أعثر عليه البحث، وأدى إليه الغوص وليس من علم الخطابة، إنما هو الأقوال المقنعة النافعة فى استمالة الجمهور إلى رأى، أو صدهم عنه، ولا هو أيضا من علم السياسة المدنية، إذ السياسة المدنية هى تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الأخلاق والحكمة، ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه – فقد خالف موضوعه موضوع هذين الفنين اللذين ربما يشبهانه وكأنه علم مستنبط النشأة ولعمرى لم أقف على الكلام فى منحاه لأحد من الخليقة ما أدرى ألغفلتهم عن ذلك – وليس الظن بهم – أو لعلهم كتبوا فى هذا الغرض واستوفوه ولم يصل إلينا فالعلوم كثيرة، والحكماء فى أمم النوع الإنسانى متعددون، وما لم يصل إلينا من العلوم أكثر مما وصل، فأين علوم الفرس التى أمر عمر رضى الله عنه بمحوها عند الفتح، وأين علوم الكلدانيين والسريانيين، وأهل بابل، وما ظهر عليهم من آثارها ونتائجها، وأين علوم القبط ومن قبلهم، وإنما وصل إلينا علوم أمة واحدة، وهم يونان خاصة لكلف المأمون

بإخراجها من لغتهم، واقتداره على ذلك بكثرة المترجمين، وبذل الأموال فيها، ولم نقف على شيء من علوم غيرهم. وإذا كانت كل حقيقة متعلقة طبيعية يصلح أن يبحث عما يعرض لها من العوارض لذاتها وجب أن يكون باعتبار كل مفهوم وحقيقة، علم من العلوم يخصه، لكن الحكماء لعلهم إنما لاحظوا فى ذلك العناية بالثمرات، وهذا إنما ثمرته فى الأخبار فقط، كما رأيت. وإن كانت مسائله فى ذاتها وفى اختصاصها شريفة، لكن ثمرته تصحيح الأخبار وهى ضعيفة فلهذا هجروه والله أعلم، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا.

وهذا الفن الذى لاح لنا النظر فيه نجد منه مسائل تجرى بالعرض لأهل العلوم فى براهين علومهم، وهى من جنس مسائله بالموضوع والطلب، مثل ما يذكره الحكماء والعلماء فى إثبات النبوة، من أن البشر متعاونون فى وجودهم، فيحتاجون فيه إلى الحاكم والوازع — ومثل ما يذكر فى أصول الفقه فى باب إثبات اللغات، أن الناس محتاجون إلى العبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع وتبيان العبارات أخف، ومثل ما يذكره الفقهاء فى تعليل الأحكام الشرعية بالمقاصد فى أن الزنا مخلط للأنساب مفسد للنوع، وأن القتل أيضا مفسد للنوع، وأن الظلم مؤذن بخراب العمران المفضى لفساد النوع، وغير ذلك من سائر المقاصد الشرعية فى الأحكام، فإنها كلها مبنية على المحافظة على العمران، فكان لها النظر فيما يعرض له وهو ظاهر من كلامنا هذا فى هذه المسائل الممثلة.

وكذلك أيضا يقع إلينا القليل من مسائله فى كلمات متفرقة لحكماء الخليقة، لكنهم لم يستوفوه. فمن كلام الموبذان بهرام بن بهرام فى حكاية البوم التى نقلها المسعودى: «أيها الملك إن الملك لا يتم عزه إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه، ولا قوام للشريعة إلا بالملك، ولا عز للملك إلا بالرجال، ولا قوام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل للمال إلا بالعمارة ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل، والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة، نصبه الرب وجعل له قيما وهو الملك». ومن كلام أنوشروان فى هذا المعنى بعينه «الملك بالجند، والجند بالمال، والمال بالخراج، والخراج بالعمارة والعمارة بالعدل والعدل بإصلاح العمال، وإصلاح العمال باستقامة الوزراء، ورأس الكل بافتقاد الملك حال رعيته بنفسه واقتداره على تأديبها حتى يملكها ولا تملكه». وفى الكتاب المنسوب لأرسطو فى السياسة المتداول بين الناس جزء صالح منه، إلا أنه غير مستوف ولا معطى حقه من البراهين، ومختلط بغيره، وقد أشار فى ذلك الكتاب إلى هذه الكلمات التى نقلناها عن الموبذان وأنوشروان، وجعلها فى الدائرة القريبة التى أعظم القول فيها هو قوله: «العالم بستان سياجه الدولة، الدولة سلطان تحيا به السنة، السنة سياسة يسوسها الملك، الملك نظام يعضده الجند، الجند أعوان يكفلهم المال، المال رزق تجمعه الرعية، الرعية عبيد يكنفهم العدل، العدل مألوف وبه قوام العالم، العالم بستان» ثم ترجع إلى أول الكلام. فهذه ثمان

كلمات حكمية سياسية ارتبط بعضها ببعض ، وارتدت أعجازها إلى صدورها ، واتصلت فى دائرة لا يتعين طرفها ، فخر بعثوره عليها وعظم من فوائدها . وأنت إذا تأملت كلامنا فى فصل الدول والملك ، وأعطيته حقه من التصفح والتفهم ، عثرت فى أثنائه على تفسير هذه الكلمات ، وتفصيل إجمالها مستوفى بينا بأوعب بيان ، وأوضح دليل وبرهان ، أطلعنا الله عليه من غير تعليم أرسطو ، ولا إفادة موبذان ، وكذلك تجد فى كلام ابن المقفع وما يستطرد فى رسائله من ذكر السياسات الكثير من مسائل كتابنا هذا ، غير مبرهنة كما برهناه ، إنما يجليها فى الذكر على منحى الخطابة فى أسلوب الترسل وبلاغة الكلام . وكذلك حوم القاضى أبو بكر الطرطوشى فى كتاب « سراج الملوك » وبوبه على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا ومسائله . لكنه لم يصادف فيه الرمية ، ولا أصاب الشاكلة ، ولا استوفى المسائل ، ولا أوضح الأدلة ، إنما يبوب الباب للمسألة ثم يستكثر من الأحاديث والآثار وينقل كلمات متفرقة لحكماء الفرس مثل بزرجمهر والموبذان وحكماء الهند والمأثور عن دانيال وهرمس وغيرهم من أكابر الخليقة ولا يكشف عن التحقيق قناعا ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حجابا إنما هو نقل وتركيب شبيه بالمواعظ وكأنه حوم على الغرض ولم يصادفه ولا تحقق قصده ولا استوفى مسائله ونحن ألهمنا الله إلى ذلك إلهاما وأعثرنا على علم جعلنا سن بكره وجهينة خبره فإن كنت قد استوفيت مسائله وميزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاءه فتوفيق من الله وهداية ، وإن فاتنى شىء فى إحصائه واشتبهت بغيره ، فللناظر المحقق إصلاحه ولى الفضل لأنى نهجت له السبيل ، وأوضحت له الطريق والله يهدى بنوره من يشاء .

ونحن الآن نبين فى هذا الكتاب ما يعرض للبشر فى اجتماعهم من أحوال العمران فى الملك والكسب والعلوم والصنائع بوجوه برهانية يتضح بها التحقيق فى معارف الخاصة والعامة وتندفع بها الأوهام وترفع الشكوك ونقول :

لما كان الإنسان متميزا عن سائر الحيوانات بخواص اختص بها : فمنها العلوم والصنائع التى هى نتيجة الفكر الذى تميز به عن الحيوانات وشرف بوصفه على المخلوقات ، ومنها الحاجة إلى الحكم الوازع والسلطان القاهر ، إذ لا يمكن وجوده دون ذلك من بين الحيوانات كلها إلا ما يقال عن النحل والجراد ، وهذه وإن كان لها مثل ذلك فبطريق إلهامى لا بفكر وروية ، ومنها السعى فى المعاش والاعتمال فى تحصيله من وجوهه واكتساب أسبابه ، لما جعل الله فيه من الافتقار إلى الغذاء فى حياته وبقائه وهداه إلى التماسه وطلبه قال تعالى « أعطى كل شىء خلقه ثم هدى (١) » ومنها العمران وهو التساكن والتنازل فى مصر أو حلة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات ، لما فى طباعهم من التعاون على المعاش كما نبينه ، ومن هذا العمران ما يكون بدويا وهو الذى يكون فى الضواحى وفى الجبال وفى الحلل المنتجعة فى القفار وأطراف الرمال ، ومنه ما يكون حضريا وهو الذى بالأمصار والقرى والمدن والمدر

---

(١) الآية رقم ٥٠ من سورة طه .

لِلاعْتِصَامِ بِها والتّحصّنِ بِجُدْرانِهَا ، وَلَهُ فى كُلٍّ هذه الأَحْوَالِ أُمورٌ تَعْرِضُ مِنْ حَيْثُ الاجْتِمَاعِ عُرُوضًا ذَاتِيًّا لهُ فَلاَ جرَمَ انْحصرَ الْكَلامُ فى هذَا الْكِتَابِ فى سِتَّةِ أَبْوَابٍ .

أَلأوَّلُ فى الْعُمْرَانِ الْبشرِيِّ عَلَى الْجُمْلَةِ وَأَصْنَافِهِ وقِسْطِهِ مِنَ الأَرْضِ .

وَالثَّانِى فى الْعُمْرَانِ الْبَدَوِىِّ وذِكْرِ الْقَبَائِلِ والأُممِ الْوَحْشيَّةِ .

والثَّالِثُ فى الدُّوَلِ وَالْخِلافَةِ وَالْمُلْكِ وذِكْرِ الْمَراتِبِ السُّلْطانِيَّةِ .

وَالرَّابع فى الْعُمْرَانِ الْحَضَرِىِّ والْبُلْدانِ وَالأَمْصَار .

وَالْخَامِسُ فى الصَّنَائِعِ وَالْمَعَاشِ وَالْكَسْبِ ووُجُوهِهِ .

والسَّادِسُ فى الْعُلُومِ واكْتِسابِهَا وتَعَلُّمِهَا .

وقَدْ قدَّمتُ الْعُمْرَانَ الْبدوىَّ لأَنَّهُ سابِقٌ عَلَى جمِيعِهَا كَما نُبَيِّنُ لَكَ بعْدُ ، وكَذَا تَقْدِيمُ الْمِلكِ على الْبُلْدانِ والأَمْصار ، وأَمَّا تَقْدِيمُ المعاشِ فَلأَنَّ الْمَعاشَ ضَرُورِىٌّ طَبِيعِىٌّ ، وتَعَلُّمُ الْعِلْمِ كَمالِىٌّ أَوْ حَاجِىٌّ ، والطَّبِيعِىُّ أَقْدمُ مِنَ الْكَمالِىِّ ، وجَعَلْتُ الصَّنائِعَ مَعَ الْكَسْبِ لأَنَّهَا مِنْهُ ببعْضِ الْوُجوه ، ومِنْ حَيْثُ الْعُمْران كَما نُبَيِّنُ لكَ بعْدُ وَاللهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوابِ وَالْمُعِينُ علَيْهِ .

الباب الأول

من الكتاب الأول

في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات

الأولى: في أنّ الاجتماع الإنسانيّ ضروريّ، ويُعبّر الحكماء عن هذا بقولهم «الإنسان مدنيّ بالطبع»، أي لا بدّ له من الاجتماع الذي هو المدنيّة في اصطلاحهم، وهو معنى العمران. وبيانه أنّ الله سبحانه خلق الإنسان وركّبه على صورة لا يصحّ حياتها وبقاؤها إلّا بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته وبما رُكّب فيه من القدرة على تحصيله، إلّا أنّ قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادّة حياته منه. ولو فرضنا منه أقلّ ما يُمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلاً، فلا يحصل إلّا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ، وكلّ واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات، لا تتمّ إلّا بصناعات متعدّدة، من حدّاد ونجّار وفاخوريّ. وهب أنّه يأكله حبًّا من غير علاج، فهو أيضاً يحتاج في تحصيله أيضاً حبًّا إلى أعمال أخرى أكثر من هذه، من الزراعة والحصاد والدراس الذي يُخرج الحبّ من غلاف السنبل. ويحتاج كلّ واحد من هذه آلات متعدّدة، وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير، ويستحيل أن تفي بذلك كلّه أو ببعضه قدرة الواحد، فلا بدّ من اجتماع القُدَر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف. وكذلك يحتاج كلّ واحد منهم أيضاً في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه، لأنّ الله سبحانه لمّا ركّب الطباع في الحيوانات كلّها، وقسم القُدَر بينها، جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظّ الإنسان، فقدرة الفرس مثلاً أعظم بكثير من قدرة الإنسان، وكذا قدرة الحمار، والثور، وقدرة الأسد والفيل أضعاف من قدرته. ولمّا كان العدوان طبيعيًّا في الحيوان جعل لكلّ واحد منها عضواً يختصّ بمدافعته ما يصل إليه من عادية غيره. وجعل للإنسان عوضاً من ذلك كلّه الفكر، واليد، فاليد مهيّئة للصنائع بخدمة الفكر والصنائع تحصّل له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المعدّة في سائر الحيوانات للدفاع، مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة، والسيوف النائبة عن المخالب الجارحة، والتراس النائبة عن البشرات الجاسية. إلى غير ذلك وغيره ممّا ذكره جالينوس في كتاب منافع الأعضاء، فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم سيما المفترسة، فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة، ولا تفي قدرته أيضاً باستعمال الآلات المعدّة لها، فلا بدّ في ذلك كلّه

مِنَ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ بِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ . وَمَا لَمْ يَكُنْ هذَا التَّعَاوُنُ فَلَا يَحْصُلُ لَهُ قُوتٌ وَلَا غِذَاءٌ ، وَلَا تَتِمُّ حَيَاتُهُ لِمَا رَكَّبَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى الْغِذَاءِ فِى حَيَاتِهِ ، وَلَا يَحْصُلُ لَهُ أَيْضًا دِفَاعٌ عَنْ نَفْسِهِ لِفُقْدَانِ السِّلَاحِ ، فَيَكُونُ فَرِيسَةً لِلْحَيَوَانَاتِ ، وَيُعَاجِلُهُ الْهَلَاكُ عَنْ مَدَى حَيَاتِهِ ، وَيَبْطُلُ نَوْعُ الْبَشَرِ . وَإِذَا كَانَ التَّعَاوُنُ حَصَلَ لَهُ الْقُوتُ لِلْغِذَاءِ ، وَالسِّلَاحُ لِلْمُدَافَعَةِ وَتَمَّتْ حِكْمَةُ اللهِ فِى بَقَائِهِ وَحِفْظِ نَوْعِهِ ، فَإِذَنْ هذَا الِاجْتِمَاعُ ضَرُورِىٌّ لِلنَّوْعِ الْإِنْسَانِىِّ ، وَإِلَّا لَمْ يَكْمُلْ وُجُودُهُمْ ، وَمَا أَرَادَهُ اللهُ مِنِ اعْتِمَارِ الْعَالَمِ بِهِمْ ، وَاسْتِخْلَافِهِ إِيَّاهُمْ . وَهذَا هُوَ مَعْنَى الْعُمْرَانِ الَّذِى جَعَلْنَاهُ مَوْضُوعًا لِهذَا الْعِلْمِ . وَفِى هذَا الْكَلَامِ نَوْعُ إِثْبَاتٍ لِلْمَوْضُوعِ فِى فَنِّهِ الَّذِى هُوَ مَوْضُوعٌ لَهُ . وَهذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَاجِبًا عَلَى صَاحِبِ الْفَنِّ لِمَا تَقَرَّرَ فِى الصِّنَاعَةِ الْمَنْطِقِيَّةِ ، أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى صَاحِبِ عِلْمٍ إِثْبَاتُ الْمَوْضُوعِ فِى ذلِكَ الْعِلْمِ ، فَلَيْسَ أَيْضًا مِنَ الْمَمْنُوعَاتِ عِنْدَهُمْ فَيَكُونُ إِثْبَاتُهُ مِنَ التَّبَرُّعَاتِ وَاللهُ الْمُوَفِّقُ بِفَضْلِهِ . ثُمَّ إِنَّ هذَا الِاجْتِمَاعَ إِذَا حَصَلَ لِلْبَشَرِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ ، وَتَمَّ عُمْرَانُ الْعَالَمِ بِهِمْ ، فَلَا بُدَّ مِنْ وَازِعٍ يَدْفَعُ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ ، لِمَا فِى طِبَاعِهِمُ الْحَيَوَانِيَّةِ مِنَ الْعُدْوَانِ وَالظُّلْمِ ، وَلَيْسَتِ السِّلَاحُ الَّتِى جُعِلَتْ دَافِعَةً لِعُدْوَانِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ عَنْهُمْ كَافِيَةً فِى دَفْعِ الْعُدْوَانِ عَنْهُمْ ، لِأَنَّهَا مَوْجُودَةٌ لِجَمِيعِهِمْ ، فَلَا بُدَّ مِنْ شَىْءٍ آخَرَ يَدْفَعُ عُدْوَانَ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ . وَلَا يَكُونُ مِنْ غَيْرِهِمْ لِقُصُورِ جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ عَنْ مَدَارِكِهِمْ وَإِلْهَامَاتِهِمْ ، فَيَكُونُ ذلِكَ الْوَازِعُ وَاحِدًا مِنْهُمْ يَكُونُ لَهُ عَلَيْهِمُ الْغَلَبَةُ وَالسُّلْطَانُ وَالْيَدُ الْقَاهِرَةُ ، حَتَّى لَا يَصِلَ أَحَدٌ إِلَى غَيْرِهِ بِعُدْوَانٍ ، وَهذَا هُوَ مَعْنَى الْمُلْكِ .

وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ بِهذَا أَنَّ لِلْإِنْسَانِ خَاصَّةً طَبِيعِيَّةً ، وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهَا وَقَدْ يُوجَدُ فِى بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْحُكَمَاءُ كَمَا فِى النَّحْلِ وَالْجَرَادِ ، لِمَا اسْتُقْرِىَ فِيهَا مِنَ الْحُكْمِ وَالِانْقِيَادِ وَالِاتِّبَاعِ لِرَئِيسٍ مِنْ أَشْخَاصِهَا مُتَمَيِّزٍ عَنْهُمْ فِى خَلْقِهِ وَجُثْمَانِهِ ، إِلَّا أَنَّ ذلِكَ مَوْجُودٌ لِغَيْرِ الْإِنْسَانِ بِمُقْتَضَى الْفِطْرَةِ وَالْهِدَايَةِ لَا بِمُقْتَضَى الْفِكْرَةِ وَالسِّيَاسَةِ ، «أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى» وَتَزِيدُ الْفَلَاسِفَةُ عَلَى هذَا الْبُرْهَانِ حَيْثُ يُحَاوِلُونَ إِثْبَاتَ النُّبُوَّةِ بِالدَّلِيلِ الْعَقْلِىِّ وَأَنَّهَا خَاصَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ ، فَيُقَرِّرُونَ هذَا الْبُرْهَانَ إِلَى غَايَةٍ ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْبَشَرِ مِنَ الْحُكْمِ الْوَازِعِ ، ثُمَّ يَقُولُونَ بَعْدَ ذلِكَ وَذلِكَ الْحُكْمُ يَكُونُ بِشَرْعٍ مَفْرُوضٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ يَأْتِى بِهِ وَاحِدٌ مِنَ الْبَشَرِ ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُتَمَيِّزًا عَنْهُمْ بِمَا يُودِعُ اللهُ فِيهِ مِنْ خَوَاصِّ هِدَايَتِهِ ، لِيَقَعَ التَّسْلِيمُ لَهُ وَالْقَبُولُ مِنْهُ ، حَتَّى يَتِمَّ الْحُكْمُ فِيهِمْ وَعَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ إِنْكَارٍ وَلَا تَزْيِيفٍ ، وَهذِهِ الْقَضِيَّةُ لِلْحُكَمَاءِ غَيْرُ بُرْهَانِيَّةٍ ، كَمَا تَرَاهُ . إِذِ الْوُجُودُ وَحَيَاةُ الْبَشَرِ قَدْ تَتِمُّ مِنْ دُونِ ذلِكَ بِمَا يَفْرِضُهُ الْحَاكِمُ لِنَفْسِهِ ، أَوْ بِالْعَصَبِيَّةِ الَّتِى يَقْتَدِرُ بِهَا عَلَى قَهْرِهِمْ وَحَمْلِهِمْ عَلَى جَادَّتِهِ ، فَأَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمُتَّبِعُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ قَلِيلُونَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَجُوسِ ، الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ ، فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعَالَمِ وَمَعَ ذلِكَ فَقَدْ كَانَتْ لَهُمُ الدُّوَلُ وَالْآثَارُ فَضْلًا عَنِ الْحَيَاةِ ، وَكَذلِكَ هِىَ لَهُمْ لِهذَا الْعَهْدِ فِى الْأَقَالِيمِ الْمُنْحَرِفَةِ فِى الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ ، بِخِلَافِ حَيَاةِ الْبَشَرِ فَوْضَى دُونَ وَازِعٍ لَهُمُ الْبَتَّةَ ، فَإِنَّهُ يَمْتَنِعُ ، وَبِهذَا يَتَبَيَّنُ لَكَ غَلَطُهُمْ فِى وُجُوبِ النُّبُوَّاتِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِعَقْلِىٍّ ، وَإِنَّمَا مُدْرَكُهُ الشَّرْعُ ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ السَّلَفِ مِنَ الْأُمَّةِ وَاللهُ وَلِىُّ التَّوْفِيقِ وَالْهِدَايَةِ .

المقدمة الثانية

فى قسط العمران من الأرض والإشارة إلى بعض ما فيه من الأشجار والأنهار والأقاليم

إعْلَمْ أنَّهُ قَدْ تَبَيَّنَ فى كتب الْحُكَمَاء النَّاظِرِينَ فى أحْوَالِ الْعَالَمِ ، أنْ شَكْلَ الْأَرْضِ كروِىٌّ ، وَأَنَّهَا مَحْفُوفَةٌ بِعُنْصُرِ الْمَاء ، كَأَنَّهَا عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ عَلَيْهِ فَانْحَسَرَ الْمَاءُ عَنْ بَعْضِ جَوَانِبِهَا ، لِمَا أَرَادَ اللهُ مِنْ تَكْوِينِ الْحَيَوَانَاتِ فِيهَا ، وَعُمْرَانِهَا بِالنَّوْعِ الْبَشَرِىِّ الَّذِى لَهُ الْخِلَافَةُ عَلَى سَائِرِهَا وَقَدْ يُتَوَهَّمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْمَاءَ تَحْتَ الْأَرْضِ وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ ، وَإِنَّمَا التَّحْتُ الطَّبِيعِىُّ قَلْبُ الْأَرْضِ وَوَسَط كُرَتِهَا الَّذِى هُوَ مَرْكَزُهَا ، وَالْكُلُّ يَطْلُبُهُ بِمَا فِيهِ مِنَ الثِّقَلِ ، وَمَاعَدَا ذَلِكَ مِنْ جَوَانِبِهَا ، وَأَمَّا الْمَاءُ الْمُحِيط بِهَا فَهُوَ فَوْقَ الْأَرْضِ ، وَإِنْ قِيلَ فى شَىْءٍ مِنْهَا إنَّهُ تَحْتَ الْأَرْضِ فَبِالْإِضَافَةِ إِلَى جهة أُخْرَى مِنْهُ . وَأَمَّا الَّذِى انْحَسَرَ عَنْهُ الْمَاءُ مِنَ الْأَرْضِ فَهُوَ النِّصْفُ مِنْ سَطْحِ كُرَتِهَا فى شَكْلِ دَائِرَةٍ أَحَاطَ الْعُنْصُرُ الْمَائِىُّ بِهَا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا ، بَحْرًا يُسَمَّى الْبَحْرَ الْمُحِيطَ ، وَيُسَمَّى أَيْضًا لَبْلَايَه بِتَفْخِيمِ اللَّامِ الثَّانِيَةِ ، وَيُسَمَّى أُوقِيانُوسَ أَسْمَاءٌ أَعْجَمِيَّةٌ ، وَيُقَالُ لَهُ الْبَحْرُ الْأَخْضَرُ وَالْأَسْوَدُ.

ثُمَّ إنَّ هَذَا الْمُنْكَشِفَ مِنَ الْأَرْضِ لِلْعُمْرَانِ فِيهِ الْقِفَارُ وَالْخَلَاءُ أَكْثَرُ مِنْ عُمْرَانِهِ ، وَالْخَالِى مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ ، وَإِنَّمَا الْمَعْمُورُ مِنْهُ أَمْيَلُ إِلَى الْجَانِبِ الشَّمَالِىِّ عَلَى شَكْلٍ مُسَطَّحٍ كُرَوِىٍّ يَنْتَهِى مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ إِلَى خَطِّ الاسْتِوَاءِ ، وَمِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ إِلَى خَطٍّ كُرَوِىٍّ ، وَوَرَاءَهُ الْجِبَالُ الْفَاصِلَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَاءِ الْعُنْصُرِىِّ الَّذِى بَيْنَهُمَا سَدُّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَهَذِهِ الْجِبَالُ مَائِلَةٌ إِلَى جِهَةِ الْمَشْرِقِ .

وَيَنْتَهِى مِنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِلَى عُنْصُرِ الْمَاءِ أَيْضًا بِقِطْعَتَيْنِ مِنَ الدَّائِرَةِ الْمُحِيطَةِ ، وَهَذَا الْمُنْكَشِفُ مِنَ الْأَرْضِ قَالُوا هُوَ مِقْدَارُ النِّصْفِ مِنَ الْكُرَةِ أَوْ أَقَلُّ ، وَالْمَعْمُورُ مِنْهُ مِقْدَارُ رُبْعِهِ وَهُوَ الْمُنْقَسِمُ بِالْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ ، وَخَطُّ الاسْتِوَاءِ يَقْسِمُ الْأَرْضَ بِنِصْفَيْنِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَهُوَ طول الْأَرْضِ ، وَأَكْبَرُ خَطٍّ فى كُرَتِهَا . كَمَا أَنَّ مِنْطَقَةَ فَلَكِ الْبُرُوجِ وَدَائِرَةَ مُعَدِّلِ النَّهَارِ أَكْبَرُ خَطٍّ فى الْفَلَكِ . وَمِنْطَقَةُ الْبُرُوجِ مُنْقَسِمَةٌ بِثَلَثِمِائَةٍ وَسِتِّينَ دَرَجَةً ، وَالدَّرَجَةُ مِنْ مَسَافَةِ الْأَرْضِ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ فَرْسَخًا ، وَالْفَرْسَخُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ ذِرَاعٍ ، وَالذِّرَاعُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ إِصْبَعًا ، وَالْإِصْبَعُ سِتُّ حَبَّاتِ شَعِيرٍ مَصْفُوفَةٌ مُلْصَقٌ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ظَهْرًا لِبَطْنٍ . وَبَيْنَ دَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ الَّتِى تَقْسِمُ الْفَلَكَ بِنِصْفَيْنِ ، وَتُسَامِتُ خَطَّ الاسْتِوَاءِ مِنَ الْأَرْضِ ، وَبَيْنَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْقُطْبَيْنِ تِسْعُونَ دَرَجَةً ، لَكِنِ الْعِمَارَةُ فى الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ خَطِّ الاسْتِوَاءِ أَرْبَعٌ وَسِتُّونَ دَرَجَةً ، وَالْبَاقِى مِنْهَا خَلَاءٌ لَا عِمَارَةَ فِيهِ لِشِدَّةِ الْبَرْدِ وَالْجُمُودِ ، كَمَا كَانَتِ الْجِهَةُ الْجَنُوبِيَّةُ خَلَاءً كُلُّهَا لِشِدَّةِ الْحَرِّ ، كَمَا نُبَيِّنُ ذَلِكَ كُلَّهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

ثم إن المخبرين عن هذا المعمور وحدوده وعما فيه من الأمصار والمدن والجبال والبحار والأنهار والقفار والرمال، مثل بطليموس فى كتاب الجغرافيا، وصاحب كتاب رجار من بعده، قسموا هذا المعمور بسبعة أقسام، يسمونها الأقاليم السبعة بحدود وهمية بين المشرق والمغرب متساوية فى العرض مختلفة فى الطول. فالإقليم الأول أطول مما بعده وهكذا الثانى إلى آخرها، فيكون السابع أقصر لما اقتضاه وضع الدائرة الناشئة عن انحسار الماء عن كرة الأرض، وكل واحد من هذه الأقاليم عندهم منقسم بعشرة أجزاء من المغرب إلى المشرق على التوالى، وفى كل جزء الخبر عن أحواله وأحوال عمرانه. وذكروا أن هذا البحر المحيط يخرج منه من جهة المغرب فى الإقليم الرابع البحر الرومى، المعروف ويبدأ فى خليج متضايق فى عرض اثنى عشر ميلا، أو نحوها ما بين طنجة وطريف، ويسمى الزقاق، ثم يذهب مشرقا وينفسح إلى عرض ستمائة ميل، ونهايته فى آخر الجزء الرابع من الإقليم الرابع على ألف فرسخ ومائة وستين فرسخا من مبدئه، وعليه هنالك سواحل الشام، وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب، أولها طنجة عند الخليج، ثم افريقية ثم برقة إلى الاسكندرية، ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية عند الخليج، ثم البنادقة ثم رومة ثم الافرنجة ثم الأندلس إلى طريف عند الزقاق قبالة طنجة، ويسمى هذا البحر الرومى والشامى، وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل أقريطش وقبرص وصقلية وميورقة وسردانية.

قالوا ويخرج منه فى جهة الشمال بحران آخران من خليجين: أحدهما مسامت للقسطنطينية يبدأ من هذا البحر متضايقا فى عرض رمية السهم ويمد ثلاثة بحار فيتصل بالقسطنطينية، ثم ينفسح فى عرض أربعة أميال، ويمر فى جريه ستين ميلا، ويسمى خليج القسطنطينية، ثم يخرج من فوهة عرضها ستة أميال، فيمد بحر نيطش وهو بحر ينحرف من هنالك فى مذهبه إلى ناحية الشرق فيمر بأرض هريقلية، وينتهى إلى بلاد الخزرية على ألف وثلثمائة ميل من فوهته، وعليه من الجانبين أمم من الروم والترك وبرجان والروس. والبحر الثانى من خليجى هذا البحر الرومى وهو بحر البنادقة، يخرج من بلاد الروم على سمت الشمال فإذا انتهى إلى سمت الجبل انحرف فى سمت المغرب إلى بلاد البنادقة، وينتهى إلى بلاد إنكلاية على ألف ومائة ميل من مبدئه، وعلى حافتيه من البنادقة والروم وغيرهم أمم، ويسمى خليج البنادقة.

قالوا: وينساح من هذا البحر المحيط أيضا من الشرق وعلى ثلاث عشرة درجة فى الشمال من خط الاستواء، بحر عظيم متسع يمر فى الجنوب قليلا حتى ينتهى إلى الإقليم الأول، ثم يمر فيه مغربا إلى أن ينتهى فى الجزء الخامس منه إلى بلاد الحبشة والزنج، وإلى بلاد باب المندب منه على أربعة آلاف فرسخ من مبدئه، ويسمى البحر الصينى والهندى والحبشى، وعليه من جهة الجنوب بلاد الزنج وبلاد بربر التى ذكرها امرؤ القيس فى شعره، وليسوا من البربر الذين هم قبائل المغرب.

ثُمَّ بَلَدُ مَقْدَشُو ثُمَّ بَلَدُ سُفَالَةَ وَأَرْضُ الْوَاقِ وَاقِ وَأُمَمٌ أُخَرُ لَيْسَ بَعْدَهُمْ إِلاَّ الْقِفَارُ وَالْخَلاءُ. وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ الصِّينُ مِنْ عِنْدِ مَبْدَئِهِ ، ثُمَّ الْهِنْدُ ثُمَّ السِّنْدُ ثُمَّ سَوَاحِلُ الْيَمَنِ مِنَ الأَحْقَافِ وَزَبِيدَ وَغَيْرِهَا ، ثُمَّ بِلادُ الزِّنْجِ عِنْدَ نِهَايَتِهِ وَبَعْدَهُمُ الْحَبَشَةُ .

قَالُوا وَيَخْرُجُ مِنْ هذا الْبَحْرِ الْحَبَشِىِّ بَحْرَانِ آخَرَانِ ، أَحَدُهُمَا يَخْرُجُ مِنْ نِهَايَتِهِ عِنْدَ بَابِ الْمَنْدَبِ فَيَبْدَأُ مُتَضَايِقًا ، ثُمَّ يَمُرُّ مُسْتَبْحِرًا إِلَى نَاحِيَةِ الشَّمَالِ وَمُغَرِّبًا قَلِيلاً إِلَى أَنْ يَنْتَهِىَ إِلَى الْقُلْزُمِ فى الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنَ الإِقْلِيمِ الثَّانِى عَلَى أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةِ مِيلٍ مِنْ مَبْدَئِهِ ، وَيُسَمَّى بَحْرَ الْقُلْزُمِ وَبَحْرَ السُّوَيْسِ ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ فُسْطَاطِ مِصْرَ مِنْ هُنَالِكَ ثَلاثُ مَرَاحِلَ ، وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ سَوَاحِلُ الْيَمَنِ ثُمَّ الْحِجَازُ وَجُدَّةُ ، ثُمَّ مَدْيَنُ وَأَيْلَةُ وَفَارَانُ عِنْدَ نِهَايَتِهِ. وَمِنْ جِهَةِ الْغَرْبِ سَوَاحِلُ الصَّعِيدِ وَعَيْذَابُ وَسَوَاكِنُ وَزَيْلَعُ ، ثُمَّ بِلادُ الْحَبَشَةِ عِنْدَ مَبْدَئِهِ وَآخِرُهُ عِنْدَ الْقُلْزُمِ يُسَامِتُ الْبَحْرَ الرُّومِىَّ عِنْدَ الْعَرِيشِ ، وَبَيْنَهُمَا نَحْوُ سِتِّ مَرَاحِلَ. وَمَا زَالَ الْمُلُوكُ فى الإِسْلامِ وَقَبْلَهُ يَرُومُونَ خَرْقَ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمْ يَتِمَّ ذلِكَ (١) ، وَالْبَحْرُ الثَّانِى مِنْ هذا الْبَحْرِ الْحَبَشِىِّ وَيُسَمَّى الْخَلِيجَ الأَخْضَرَ يَخْرُجُ مَا بَيْنَ بِلادِ السِّنْدِ وَالأَحْقَافِ مِنَ الْيَمَنِ ، وَيَمُرُّ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّمَالِ مُغَرِّبًا قَلِيلاً إِلَى أَنْ يَنْتَهِى إِلَى الأُبُلَّةِ مِنْ سَوَاحِلِ الْبَصْرَةِ فى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الإِقْلِيمِ الثَّانِى عَلَى أَرْبَعِمِائَةِ فَرْسَخٍ وَأَرْبَعِينَ فَرْسَخًا مِنْ مَبْدَئِهِ ، وَيُسَمَّى بَحْرَ فَارِسَ ، وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ سَوَاحِلُ السِّنْدِ وَمُكْرَانَ وَكَرْمَانَ وَفَارِسَ وَالأُبُلَّةُ . وَعِنْدَ نِهَايَتِهِ مِنْ جِهَةِ الْغَرْبِ سَوَاحِلُ الْبَحْرَيْنِ وَالْيَمَامَةِ وَعُمَانَ وَالشِّحْرِ ، وَالأَحْقَافُ عِنْدَ مَبْدَئِهِ . وَفِيمَا بَيْنَ بَحْرِ فَارِسَ وَالْقُلْزُمِ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ كَأَنَّهَا دَاخِلَةٌ مِنَ الْبَرِّ فى الْبَحْرِ يُحِيطُ. الْبَحْرُ بِهَا الْحَبَشِىُّ مِنَ الْجَنُوبِ ، وَبَحْرُ الْقُلْزُمِ مِنَ الْغَرْبِ ، وَبَحْرُ فَارِسَ مِنَ الشَّرْقِ وَتُفْضِى إِلَى الْعِرَاقِ بَيْنَ الشَّامِ وَالْبَصْرَةِ عَلَى أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ مِيلٍ بَيْنَهُمَا ، وَهُنَالِكَ الْكُوفَةُ وَالْقَادِسِيَّةُ وَبَغْدَادُ وَإِيوَانُ كِسْرَى وَالْحِيرَةُ. وَوَرَاءَ ذلِكَ أُمَمُ الأَعَاجِمِ مِنَ التُّرْكِ وَالْخَزَرِ وَغَيْرِهِمْ ، وَفى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ بِلادُ الْحِجَازِ فى جِهَةِ الْغَرْبِ مِنْهَا ، وَبِلادُ الْيَمَامَةِ وَالْبَحْرَيْنِ وَعُمَانَ فى جِهَةِ الشَّرْقِ مِنْهَا ، وَبِلادُ الْيَمَنِ فى جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْهَا ، وَسَوَاحِلُهُ عَلَى الْبَحْرِ الْحَبَشِىِّ . قَالُوا وَفى هذَا الْمَعْمُورِ بَحْرٌ آخَرُ مُنْقَطِعٌ مِنْ سَائِرِ الْبِحَارِ فى نَاحِيَةِ الشَّمَالِ بِأَرْضِ الدَّيْلَمِ يُسَمَّى بَحْرَ جُرْجَانَ وَطَبَرِسْتَانَ طُولُهُ أَلْفُ مِيلٍ فى عَرْضِ سِتِّمِائَةِ مِيلٍ ، فى غَرْبِيِّهِ أَذْرَبِيجَانُ وَالدَّيْلَمُ ، وَفى شَرْقِيِّهِ أَرْضُ التُّرْكِ وَخُوَارَزْمُ ، وَفى جَنُوبِيِّهِ طَبَرِسْتَانُ ، وَفى شَمَالِيِّهِ أَرْضُ الْخَزَرِ وَاللاَّنِ . هذِهِ جُمْلَةُ الْبِحَارِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِى ذَكَرَهَا أَهْلُ الْجُغْرَافِيَا .

قَالُوا وَفى هذَا الْجُزْءِ الْمَعْمُورِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ أَعْظَمُهَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ وَهِىَ : النِّيلُ وَالْفُرَاتُ وَدِجْلَةُ وَنَهْرُ بَلْخَ الْمُسَمَّى جَيْحُونَ .

فَأَمَّا النِّيلُ فَمَبْدَؤُهُ مِنْ جَبَلٍ عَظِيمٍ وَرَاءَ خَطِّ الاسْتِوَاءِ بِسِتَّ عَشْرَةَ دَرَجَةً عَلَى سَمْتِ الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ الإِقْلِيمِ الأَوَّلِ وَيُسَمَّى جَبَلَ الْقَمَرِ ، وَلاَ يُعْلَمُ فى الأَرْضِ جَبَلٌ أَعْلَى مِنْهُ . تَخْرُجُ مِنْهُ عُيُونٌ كَثِيرَةٌ ، فَيَصُبُّ بَعْضُهَا فى بُحَيْرَةٍ هُنَاكَ ، وَبَعْضُهَا فى أُخْرَى ، ثُمَّ تَخْرُجُ أَنْهَارٌ

---

(١) يعنى توصيل البحرين الأحمر والأبيض فى المنطقة التى تم فيها حفر قناة السويس فيما بعد .

مِنَ الْبحيرتَيْنِ فَتَصُبُّ كُلُّهَا فى بُحيْرةٍ واحدةٍ عِنْد خطِّ الاسْتِواءِ على عشرِ مراحِلَ مِنَ الجبلِ ، ويخْرُجُ مِنْ هذهِ الْبُحيْرةِ نهْرانِ يذهبُ أحدُهُما إلَى ناحيةِ الشّمالِ علَى سمْتِهِ ، ويمُرُّ ببِلادِ النُّوبةِ ثُمَّ بِلادِ مِصْر فَاذَا جاوزَها تَشَعّب فى شُعبٍ مُتقارِبةٍ يُسمّى كُلُّ واحِدٍ مِنْها خَلِيجًا ، وتَصُبُّ كُلُّهَا فى الْبحْرِ الرُّومىّ عِنْد الإسْكَنْدرِيّةِ ويُسمّى نِيل مِصْر ، وعلَيْهِ الصّعِيدُ مِنْ شَرْقِيّةِ والْواحاتُ مِنْ غَرْبِيّةِ ، ويذهبُ الآخرُ مُنعطِفًا إلَى الْمغْرِبِ ثُمّ يمُرُّ على سمْتِهِ إلَى أنْ يصُبَّ فى الْبحْرِ الْمُحِيطِ ، وهُو نَهْرُ السُّودانِ وأُممُهُمْ كُلُّهُمْ علَى ضِفّتَيْهِ ، وأمّا الفُراتُ فَمبْدؤُهُ مِنْ بِلادِ أرْمِينِيّةَ فى الْجُزْءِ السّادِسِ مِنَ الإقْلِيمِ الْخامِسِ ، ويمُرُّ جنُوبًا فى أرْضِ الرُّومِ وملَطْيةَ إلَى منْبِج ، ثُمّ يمُرُّ بِصفِّينَ ثُمّ بِالرّقّةِ ثُمّ بِالْكُوفةِ إلَى أنْ ينْتهِىَ إلَى الْبطْحاءِ الّتى بيْنَ الْبصْرةِ وواسِطَ ، ومِنْ هُناكَ يصُبُّ فى الْبحْرِ الْحبشِىِّ ، وتَنْجلِبُ إليْهِ فى طَرِيقِهِ أنْهارٌ كَثِيرةٌ ، ويخْرُجُ مِنْهُ أنْهارٌ أُخرى تَصُبُّ فى دِجْلَةَ .

وأمّا دِجْلَةُ فَمبْدؤُها عيْنٌ بِبِلادِ خِلاطَ مِنْ أرْمِينِيّةَ أيْضًا ، وتَمرُّ علَى سمْتِ الْجنُوبِ بِالْموْصِلِ وأذْربِيجانَ وبغْداد إلَى واسِطَ ، فَتَتَفرّقُ إلَى خلْجانٍ كُلُّها تَصُبُّ فى بُحيْرةِ الْبصْرةِ ، وتفْضِى إلَى بحْرِ فَارِسٍ ، وهُو فى الشّرْقِ علَى يمِينِ الْفراتِ ، وينْجلِبُ إليْهِ أنْهارٌ كَثِيرةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ كلِّ جانِبٍ ، وفِيما بيْنَ الْفراتِ ودِجْلَةَ مِنْ أوّلِهِ جزِيرةُ الْموْصِلِ قُبالَةَ الشّامِ مِنْ عُدْوَتَى الْفراتِ وقُبالَةَ أذْربِيجانَ مِنْ عُدْوَةِ دِجْلَةَ .

وَأمّا نَهْرُ جَيْحُونَ فَمَبْدَؤُهُ مِنْ بَلْخَ فى الْجُزْءِ الثّامِنِ مِنَ الإقْلِيمِ الثّالِثِ مِنْ عُيُونٍ هُنَاكَ كَثِيرَةٍ ، وَتَنْجَلِبُ إلَيْهِ أنْهارٌ عِظَامٌ ، وَيَذْهَبُ مِنَ الْجنُوبِ إلَى الشّمَالِ فَيَمُرُّ بِبِلَادِ خُرَاسَانَ ، ثُمّ يَخْرُجُ مِنْهَا إلَى بِلَادِ خوَارَزْمَ فى الْجُزْءِ الثّامِنِ مِنَ الإقْلِيمِ الْخَامِسِ فَيَصُبُّ فى بُحَيْرَةِ الْجُرْجَانِيّةِ الّتى بِأسْفَلِ مَدِينَتِهَا وَهِىَ مَسِيرَةُ شَهْرٍ فى مِثْلِهِ ، وَإلَيْهَا يَنْصَبُّ نَهْرُ فَرْغَانَةَ وَالشّاشِ الآتِى مِنْ بِلَادِ التُّرْكِ ، وَعَلَى غَرْبِىِّ نَهْرِ جَيْحُونَ بِلَادُ خرَاسَانَ وَخوَارَزْمَ ، وَعَلَى شَرْقِيِّهِ بِلَادُ بُخَارَى وَتِرْمِذَ وسَمَرْقَنْدَ ، وَمِنْ هُنَالِكَ إلَى مَا وَرَاءَهُ بِلَادُ التُّرْكِ وَفَرْغَانَةَ وَالْخَزْجِيّةِ وَأُمَمِ الأعَاجِمِ ، وَقَدْ ذَكَرَ ذلِكَ كلّهُ بَطْلَيمُوسُ فى كِتَابِهِ ، وَالشّرِيفُ فى كِتَابِ «رُجار» ، وَصَوّرُوا فى الْجُغْرَافِيَا جَمِيعَ مَا فِى الْمَعْمُورِ مِنَ الْجِبَالِ وَالْبِحَارِ وَالأوْدِيَةِ ، وَاسْتَوْفَوا مِنْ ذلِكَ مَا لاَ حَاجَةَ لَنَا بِهِ لِطولِهِ ، وَلأنّ عِنَايَتَنَا فى الأكْثَرِ إنّمَا هِىَ بِالْمَغْرِبِ الّذى هُوَ وَطَنُ الْبَرْبَرِ وَبِالأوْطَانِ الّتى لِلْعَرَبِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَاللهُ الْمُوَفّقُ .

تكملة لهذه المقدمة الثانية

فى الربع الشمالى من الأرض الأرض أكثر عمرانا من الربع الجنوبى وذكر السبب فى ذلك

وَنَحْنُ نَرَى بِالْمُشَاهَدَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ ، أَنَّ الْأَوَّلَ وَالثَّانِيَ مِنَ الْأَقَالِيمِ الْمَعْمُورَةِ أَقَلُّ عُمْرَانًا مِمَّا بَعْدَهُمَا ، وَمَا وُجِدَ مِنْ عُمْرَانِهِ فَيَتَخَلَّلُهُ الْخَلَاءُ وَالْقِفَارُ وَالرِّمَالُ ، وَالْبَحْرُ الْهِنْدِيُّ (١) الَّذِي فِي الشَّرْقِ مِنْهُمَا ، وَأُمَمُ هٰذَيْنِ الْإِقْلِيمَيْنِ وَأَنَاسِيُّهُمَا لَيْسَتْ لَهُمُ الْكَثْرَةُ الْبَالِغَةُ ، وَأَمْصَارُهُ وَمُدُنُهُ كَذَلِكَ .

وَالثَّالِثُ وَالرَّابِعُ وَمَا بَعْدَهُمَا بِخِلَافِ ذَلِكَ ؛ فَالْقِفَارُ فِيهَا قَلِيلَةٌ وَالرِّمَالُ كَذَلِكَ أَوْ مَعْدُومَةٌ ، وَأُمَمُهَا وَأَنَاسِيُّهَا تَجُوزُ الْحَدَّ مِنَ الْكَثْرَةِ ، وَأَمْصَارُهَا وَمُدُنُهَا تُجَاوِزُ الْحَدَّ عَدَدًا ، وَالْعُمْرَانُ فِيهَا مُنْدَرِجٌ مَا بَيْنَ الثَّالِثِ وَالسَّادِسِ ، وَالْجَنُوبُ خَلَاءٌ كُلُّهُ .

وَقَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْحُكَمَاءِ أَنَّ ذَلِكَ لِإِفْرَاطِ الْحَرِّ وَقِلَّةِ مَيْلِ الشَّمْسِ فِيهَا عَنْ سَمْتِ الرُّؤُوسِ ، فَلْنُوضِحْ ذَلِكَ بِبُرْهَانِهِ وَيَتَبَيَّنْ مِنْهُ سَبَبُ كَثْرَةِ الْعِمَارَةِ فِيمَا بَيْنَ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ مِنْ جَانِبِ الشَّمَالِ إِلَى الْخَامِسِ وَالسَّابِعِ ، فَنَقُولُ :

إِنَّ قُطْبَيِ الْفَلَكِ الْجَنُوبِيَّ وَالشَّمَالِيَّ إِذَا كَانَا عَلَى الْأُفُقِ فَهُنَالِكَ دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ تَقْسِمُ الْفَلَكَ بِنِصْفَيْنِ ، هِيَ أَعْظَمُ الدَّوَائِرِ الْمَارَّةِ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ ، وَتُسَمَّى دَائِرَةَ مُعَدَّلِ النَّهَارِ .

وَقَدْ تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْهَيْئَةِ أَنَّ الْفَلَكَ الْأَعْلَى مُتَحَرِّكٌ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ حَرَكَةً يَوْمِيَّةً يُحَرِّكُ بِهَا سَائِرَ الْأَفْلَاكِ فِي جَوْفِهِ قَهْرًا ، وَهَذِهِ الْحَرَكَةُ مَحْسُوسَةٌ . وَكَذَلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ لِلْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاكِهَا حَرَكَةً مُخَالِفَةً لِهَذِهِ الْحَرَكَةِ وَهِيَ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ ، وَتَخْتَلِفُ آمَادُهَا بِاخْتِلَافِ حَرَكَةِ الْكَوَاكِبِ فِي السُّرْعَةِ وَالْبُطْءِ .

وَمَمَرَّاتُ هَذِهِ الْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاكِهَا تُوَازِيهَا كُلُّهَا دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ الْفَلَكِ الْأَعْلَى تَقْسِمُهُ بِنِصْفَيْنِ ، وَهِيَ دَائِرَةُ فَلَكِ الْبُرُوجِ مُنْقَسِمَةً بِاثْنَيْ عَشَرَ بُرْجًا ، وَهِيَ عَلَى مَا تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مُقَاطِعَةٌ لِدَائِرَةِ مُعَدَّلِ النَّهَارِ عَلَى نُقْطَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ مِنَ الْبُرُوجِ ، هُمَا أَوَّلُ الْحَمَلِ ، وَأَوَّلُ الْمِيزَانِ ، فَتَقْسِمُهَا دَائِرَةُ مُعَدَّلِ النَّهَارِ بِنِصْفَيْنِ : نِصْفٌ مَائِلٌ عَنْ مُعَدَّلِ النَّهَارِ إِلَى الشَّمَالِ ، وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ الْحَمَلِ إِلَى آخِرِ السُّنْبُلَةِ ، وَنِصْفٌ مَائِلٌ عَنْهُ إِلَى الْجَنُوبِ ، وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ الْمِيزَانِ إِلَى آخِرِ الْحُوتِ .

وَإِذَا وَقَعَ الْقُطْبَانِ عَلَى الْأُفُقِ فِي جَمِيعِ نَوَاحِي الْأَرْضِ كَانَ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ خَطٌّ

---

(١) يعنى المحيط المعروف بهذا الاسم

وَاحِدٌ يُسَامِتُ دَائِرَةَ مُعَدَّلِ النَّهَارِ يَمُرُّ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَيُسَمَّى خَطَّ الاسْتِوَاءِ . وَوَقَعَ هذَا الْخَطُّ بِالرَّصْدِ عَلَى مَازَعَمُوا فى مَبْدَإِ الإِقْلِيمِ الأَوَّلِ مِنَ الأَقَالِيمِ (١) السَّبْعَةِ. وَالْعُمْرَانُ كُلُّهُ فى الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ يَرْتَفِعُ عَنْ آفَاقِ هذَا الْمَعْمُورِ بِالتَّدْرِيجِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ ارْتِفَاعُهُ إِلَى أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ دَرَجَةً ، وَهُنَالِكَ يَنْقَطِعُ الْعُمْرَانُ ، وَهُوَ آخِرُ الإِقْلِيمِ السَّابِعِ . وَإِذَا ارْتَفَعَ عَلَى الأُفُقِ تِسْعِينَ دَرَجَةً ، وَهِيَ الَّتِي بَيْنَ الْقُطْبِ وَدَائِرَةِ مُعَدَّلِ النَّهَارِ عَلَى الأُفُقِ ، بَقِيَتْ سِتَّةٌ مِنَ الْبُرُوجِ فَوْقَ الأُفُقِ ، وَهِيَ الشَّمَالِيَّةُ ، وَسِتَّةٌ تَحْتَ الأُفُقِ وَهِيَ الْجَنُوبِيَّةُ .

وَالْعِمَارَةُ فِيمَا بَيْنَ الأَرْبَعَةِ وَالسِّتِّينَ إِلَى التِّسْعِينَ مُمْتَنِعَةٌ ، لأَنَّ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ حِينَئِذٍ لاَ يَحْصُلاَنِ مُمْتَزِجَيْنِ لِبُعْدِ الزَّمَانِ بَيْنَهُمَا ، فَلاَ يَحْصُلُ التَّكْوِينُ . فَإِذَا الشَّمْسُ تُسَامِتُ الرُّؤُوسَ عَلَى خَطِّ الاسْتِوَاءِ فى رَأْسِ الْحَمَلِ وَالْمِيزَانِ ، ثُمَّ تَمِيلُ عَنِ الْمُسَامَتَةِ إِلَى رَأْسِ السَّرَطَانِ وَرَأْسِ الْجَدْيِ ، وَيَكُونُ نِهَايَةُ مَيْلِهَا عنْ دَائِرَةِ مُعَدَّلِ النَّهَارِ أَرْبَعًا وعِشْرِينَ دَرَجَةً .

ثُمَّ إِذَا ارْتَفَعَ الْقُطْبُ الشَّمَالِيُّ عَنِ الأُفُقِ مَالَتْ دَائِرَةُ مُعَدَّلِ النَّهَارِ عَنْ سَمْتِ الرُّؤُوسِ بِمِقْدَارِ ارْتِفَاعِهِ ، وَانْخَفَضَ الْقُطْبُ الْجَنُوبِيُّ كَذلِكَ بِمِقْدَارٍ مُتَسَاوٍ فى الثَّلاثَةِ ، وَهُوَ الْمُسَمَّى عِنْدَ أَهْلِ الْمَوَاقِيتِ عَرْضَ الْبَلَدِ .

وَإِذَا مَالَتْ دَائِرَةُ مُعَدَّلِ النَّهَارِ عَنْ سَمْتِ الرُّؤُوسِ ، عَلَتْ عَلَيْهَا الْبُرُوجُ الشَّمَالِيَّةُ مُنْدَرِجَةً فى مِقْدَارِ عُلُوِّهَا إِلَى رَأْسِ السَّرَطَانِ ، وَانْخَفَضَتِ الْبُرُوجُ الْجَنُوبِيَّةُ مِنَ الأُفُقِ كَذلِكَ إِلَى رَأْسِ الْجَدْيِ ، لانْحِرَافِهَا إِلَى الْجَانِبَيْنِ فى أُفُقِ الاسْتِوَاءِ - كَمَا قُلْنَاهُ - فَلاَ يَزَالُ الأُفُقُ الشَّمَالِيُّ يَرْتَفِعُ حَتَّى يَصِيرَ أَبْعَدَ الشَّمَالِيَّةِ ، وَهُوَ رَأْسُ السَّرَطَانِ فى سَمْتِ الرُّؤُوسِ ، وَذلِكَ حَيْثُ يَكُونُ عَرْضُ الْبَلَدِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ فى الْحِجَازِ وَمَا يَلِيهِ ، وَهذَا هُوَ الْمَيْلُ الَّذى إِذَا مَالَ رَأْسُ السَّرَطَانِ عَنْ مُعَدَّلِ النَّهَارِ فى أُفُقِ الاسْتِوَاءِ ، ارْتَفَعَ بِارْتِفَاعِ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ حَتَّى صَارَ مُسَامِتًا .

فَإِذَا ارْتَفَعَ الْقُطْبُ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ ، نَزَلَتِ الشَّمْسُ عَنِ الْمُسَامَتَةِ ، وَلا تَزَالُ فى انْخِفَاضٍ إِلَى أَنْ يَكُونَ ارْتِفَاعُ الْقُطْبِ أَرْبَعًا وَسِتِّينَ ، وَيَكُونَ انْخِفَاضُ الشَّمْسِ عَنِ الْمُسَامَتَةِ كَذلِكَ وَانْخِفَاضُ الْقُطْبِ الْجَنُوبِيِّ عن الأُفُقِ مِثْلَهَا ، فَيَنْقَطِعُ التَّكْوِينُ لإِفْرَاطِ الْبَرْدِ وَالْجَمَدِ وَطُولِ زَمَانِهِ غَيْرَ مُمْتَزِجٍ بِالْحَرِّ .

ثُمَّ إِنَّ الشَّمْسَ عِنْدَ الْمُسَامَتَةِ وَمَا يُقَارِبُهَا ، تَبْعَثُ الأَشِعَّةَ قَائِمَةً ، وَفِيمَا دُونَ الْمُسَامَتَةِ عَلَى زَوَايَا مُنْفَرِجَةٍ وَحَادَّةٍ . وَإِذَا كَانَتْ زَوَايَا الأَشِعَّةِ قَائِمَةً عَظُمَ الضَّوْءُ وَانْتَشَرَ . بِخِلافِهِ فى الْمُنْفَرِجَةِ وَالْحَادَّةِ فَلِهذَا يَكُونُ الْحَرُّ عِنْدَ الْمُسَامَتَةِ وَمَايَقْرُبُ

(١) سياق الكلام هنا فى الفصل الذى عنوانه « تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا » .

(٢) فى طبعة التجارية: التكوير بالراء المهملة وما أثبتناه هنا من: الطبعة المنشورة بتحقيق الدكتور على عبدالواحد وافى ، ونسخة: صاحب المطبعة البهية .

مِنْهَا أَكْثَرَ مِنْهُ فِيمَا بَعْدُ لأَنَّ الضَّوْءَ سَبَبُ الْحَرِّ وَالتَّسْخِينِ .

ثُمَّ إِنَّ الْمُسَامَتَةَ فى خَطِّ الاسْتِوَاء تَكُونُ مَرَّتَيْنِ فى السَّنَةِ عِنْدَ نُقْطَتَى الْحَمَلِ وَالْمِيزَانِ ، وَإِذَا مَالَتْ فَغَيْرُ بَعِيد . وَلاَ يَكَادُ الْحَرُّ يَعْتَدِلُ فى آخِرِ مَيْلِهَا عِنْدَ رَأْسِ السَّرَطَانِ وَالْجَدْى إِلاَّ إِنْ صَعِدَتْ إِلَى الْمُسَامَتَةِ ، فَتَبْقَى الأَشِعَّةُ الْقَائِمَةُ الزَّوَايَا تُلِحُّ عَلَى ذلِكَ الأُفُقِ ، وَيَطُولُ مُكْثُهَا أَوْ يَدُومُ ، فَيَشْتَعِلُ الْهَوَاءُ حَرَارَةً ، وَيُفْرِطُ فى شِدَّتِهَا . وَكَذَا مَا دَامَتِ الشَّمْسُ تُسَامِتُ مَرَّتَيْنِ فِيمَا بَعْدَ خَطِّ الاسْتِوَاء إِلَى عَرْضِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ ، فَإِنَّ الأَشِعَّةَ مُلِحَّةٌ عَلَى الأُفُقِ فى ذلِكَ بِقَرِيبٍ مِنْ إِلْحَاحِهَا فى خَطِّ الاسْتِوَاء .

وَإِفْرَاطُ الْحَرِّ يَفْعَلُ فى الْهَوَاء تَجْفِيفًا وَيُبْسًا يَمْنَعُ مِنَ التَّكْوِينِ ، لأَنَّهُ إِذَا أَفْرَطَ الْحَرُّ جَفَّتِ الْمِيَاهُ وَالرُّطُوبَاتُ ، وَفَسَدَ التَّكْوِينُ فى الْمَعْدِنِ وَالْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ ، إِذِ التَّكْوِينُ لاَ يَكُونُ إِلاَّ بِالرُّطُوبَةِ .

ثُمَّ إِذَا مَالَ رَأْسُ السَّرَطَانِ عَنْ سَمْتِ الرُّؤُوسِ فى عَرْضِ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ فَمَا بَعْدَهُ ، نَزَلَتِ الشَّمْسُ عَنِ الْمُسَامَتَةِ ، فَيَصِيرُ الْحَرُّ إِلَى الاعْتِدَالِ ، أَوْ يَمِيلُ عَنْهُ مَيْلاً قَلِيلاً ، فَيَكُونُ التَّكْوِينُ ، وَيَتَزَايَدُ عَلَى التَّدْرِيجِ ، إِلَى أَنْ يُفْرِطَ الْبَرْدُ فى شِدَّتِهِ ـ لِقِلَّةِ الضَّوْءِ ، وَكَوْنِ الأَشِعَّةِ مُنْفَرِجَةَ الزَّوَايَا ـ فَيَنْقُصُ التَّكْوِينُ ، وَيَفْسُدُ .

بَيْدَ أَنَّ فَسَادَ التَّكْوِينِ مِنْ جِهَةِ شِدَّةِ الْحَرِّ أَعْظَمُ مِنْهُ مِنْ جِهَةِ شِدَّةِ الْبَرْدِ ، لأَنَّ الْحَرَّ أَسْرَعُ تَأْثِيرًا فى التَّجْفِيفِ مِنْ تَأْثِيرِ الْبَرْدِ فى الْجَمَدِ .

فَلِذلِكَ كَانَ الْعُمْرَانُ فى الإِقْلِيمِ الأَوَّلِ وَالثَّانِى قَلِيلاً ، وَفى الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ وَالْخَامِسِ مُتَوَسِّطًا ، لاعْتِدَالِ الْحَرِّ بِنُقْصَانِ الضَّوْءِ ، وَفى السَّادِسِ وَالسَّابِعِ كَثِيرًا لِنُقْصَانِ الْحَرِّ ، وَأَنَّ كَيْفِيَّةَ الْبَرْدِ لا تُؤَثِّرُ عِنْدَ أَوَّلِهَا فى فَسَادِ التَّكْوِينِ كَمَا يَفْعَلُ الْحَرُّ ، إِذْ لاَ تَجْفِيفَ فِيهَا إِلاَّ عِنْدَ الإِفْرَاطِ بِمَا يَعْرِضُ لَهَا حِينَئِذٍ مِنَ الْيُبْسِ كَمَا بَعْدَ السَّابِعِ .

فَلِهذَا كَانَ الْعُمْرَانُ فى الرُّبْعِ الشَّمَالِىِّ ، أَكْثَرَ وَأَوْفَرَ وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَمِنْ هُنَا أَخَذَ الْحُكَمَاءُ خَلاَءَ خَطِّ الاسْتِوَاءِ وَمَا وَرَاءَهُ ، وَأُورِدَ عَلَيهِمْ أَنَّهُ مَعْمُورٌ بِالْمُشَاهَدَةِ وَالأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ ، فَكَيْفَ يَتِمُّ الْبُرْهَانُ عَلَى ذلكَ .

وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا امْتِنَاعَ الْعُمْرَانِ فِيهِ بِالْكُلِّيَّةِ ، إِنَّمَا أَدَّاهُمُ الْبُرْهَانُ إِلَى أَنَّ فَسَادَ التَّكْوِينِ فِيهِ قَوِىٌّ بِإِفْرَاطِ الْحَرِّ ، وَالْعُمْرَانُ فِيهِ إِمَّا مُمْتَنِعٌ أَوْ مُمْكِنٌ أَقَلِّىٌّ ، وَهُوَ كَذلِكَ . فَإِنَّ خَطَّ الاسْتِوَاءِ وَالَّذِى وَرَاءَهُ ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ عُمْرَانٌ ، كَمَا نُقِلَ فَهُوَ قَلِيلٌ جِدًّا .

وَقَدْ زَعَمَ ابْنُ رُشْد أَنَّ خَطَّ الاسْتِوَاءِ مُعْتَدِلٌ وَأَنَّ مَا وَرَاءَهُ فى الْجَنُوبِ بِمَثَابَةِ مَا وَرَاءَهُ فى الشَّمَالِ فَيَعْمُرُ مِنْهُ مَا عَمَرَ مِنْ هذا . والذى قَالَهُ غَيْرُ مُمْتَنِعٍ مِنْ جِهَةِ فَسَادِ التَّكْوِينِ ، وَإِنَّمَا امْتَنَعَ فِيما وَرَاءَ خَطِّ الاسْتِوَاءِ فى الْجَنُوبِ ، مِنْ جِهَةِ أَنَّ الْعُنْصُرَ الْمَادِى غَمَرَ وَجْهَ الأَرْضِ هُنَالِكَ إِلَى الْحَدِّ الَّذِى كَانَ مُقَابِلَهُ مِنَ الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ قَابِلاً لِلتَّكْوِينِ ، وَلَمَّا امْتَنَعَ الْمُعْتَدِلُ لِغَيْبَةِ الْمَاءِ ، تَبِعَهُ مَا سِوَاهُ ، لأَنَّ الْعُمْرَانَ مُتَدَرِّجٌ . وَيَأْخُذُ

فى التدريج من جهة الوجود ، لا من جهة الامتناع .

وأما القول بامتناعه فى خط الاستواء ، فيرده النقل المتواتر ، والله أعلم .

ولنرسم بعد هذا الكلام صورة الجغرافيا كما رسمها صاحب كتاب رجار[1] ، ثم نأخذ فى تفصيل الكلام عليها إلى آخره .

تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا

إعلم أن الحكماء قسموا هذا المعمور كما تقدم ذكره على سبعة أقسام من الشمال إلى الجنوب ، يسمون كل قسم منها إقليما ، فانقسم المعمور من الأرض كله على هذه السبعة الأقاليم ، كل واحد منها آخذ من الغرب إلى الشرق على طوله . فالأول منها مار من المغرب إلى المشرق مع خط الاستواء ، بحده من جهة الجنوب . وليس وراءه هنالك إلا القفار والرمال وبعض عمارة ، إن صحت فهى كلا عمارة . ويليه من جهة شماليه الإقليم الثانى ، ثم الثالث كذلك ، ثم الرابع والخامس والسادس والسابع . وهو آخر العمران من جهة الشمال .

وليس وراء السابع إلا الخلاء والقفار ، إلى أن ينتهى إلى البحر المحيط ، كالحال فيما وراء الإقليم الأول فى جهة الجنوب . إلا أن الخلاء فى جهة الشمال أقل بكثير من الخلاء الذى فى جهة الجنوب .

ثم إن أزمنة الليل والنهار تتفاوت فى هذه الأقاليم بسبب ميل الشمس عن دائرة معدل النهار ، وارتفاع القطب الشمالى عن آفاقها ، فيتفاوت قوس الليل والنهار لذلك .

وينتهى طول الليل والنهار فى آخر الإقليم الأول ، وذلك عند حلول الشمس برأس الجدى لليل ، وبرأس السرطان للنهار ، كل واحد منهما إلى ثلاث عشرة ساعة ، وكذلك فى آخر الإقليم الثانى مما يلى الشمال ، فينتهى طول النهار فيه عند حلول الشمس برأس السرطان ، وهو منقلبها الصيفى ، إلى ثلاث عشرة ساعة ونصف ساعة ، ومثله أطول الليل عند منقلبها الشتوى برأس الجدى ، ويبقى للأقصر من الليل والنهار ما يبقى بعد الثلاث عشرة ونصف من جملة أربع وعشرين الساعات الزمانية لمجموع الليل والنهار ، وهى دورة الفلك الكاملة .

وكذلك فى آخر الإقليم الثالث مما يلى الشمال أيضا ينتهيان إلى أربع عشرة ساعة . وفى آخر الرابع إلى أربع عشرة ساعة ونصف ساعة ، وفى آخر الخامس إلى خمس عشرة ساعة ، وفى آخر السادس إلى خمس عشرة ساعة ونصفا وفى آخر السابع إلى ست عشرة

(١) صاحب الكتاب : هو الشريف الإدريسى وقد ألفه لصاحب صقلية فى عهده الملك روجير الثانى . انظر النسخة المنشورة بتحقيق د. وافى هامش ص ٤٢٦ جـ ١ وسيأتى ذكره فى الصفحة التالية .

(٢) يختلف هذا الفصل عن نظيره فى نسخة « المكتبة التيمورية » فليرجع إليه من شاء .

ساعةٌ ، وهنالك ينقطع العمران ، فيكون تفاوت هذه الأقاليم في الأطول من ليلها ونهارها بنصف ساعة ، لكلّ إقليم يتزايد من أوله في ناحية الجنوب إلى آخره في ناحية الشمال ، موزّعة على أجزاء هذا البعد .

وأمّا عرض البلدان في هذه الأقاليم ، وهو عبارةٌ عن بعد ما بين سمت رأس البلد ودائرة معدّل النهار ، الذي هو سمت رأس خطّ الاستواء وبمثله سواءً ينخفض القطب الجنوبيّ عن أفق ذلك البلد ، ويرتفع القطب الشماليّ عنه وهو ثلاثة أبعاد متساوية ، تسمّى عرض البلد كما مرّ ذلك قبلُ .

والمتكلمون على هذه الجغرافيا ، قسموا كلّ واحد من هذه الأقاليم السبعة ، في طوله من المغرب إلى المشرق بعشرة أجزاء متساوية ، ويذكرون ما اشتمل عليه ، كلّ جزء منها من البلدان ، والأمصار ، والجبال ، والأنهار ، والمسافات بينها في المسالك ، ونحن الآن نوجز القول في ذلك ، ونذكر مشاهير البلدان والأنهار والبحار في كلّ جزء منها ، ونحاذي بذلك ، ما وقع في كتاب «نزهة المشتاق» الذي ألّفه العلويّ الأدريسيّ الحموديّ لملك صقلّية من الإفرنج ، وهو رجار بن رجار ، عند ما كان نازلاً عليه بصقلّية ، بعد خروج صقلّية من إمارة مالقة ، وكان تأليفه للكتاب في منتصف المائة السادسة ، وجمع له كتباً جمّةً : للمسعوديّ وابن خرداذبة والحوقليّ والقدريّ (١) وابن إسحاق المنجّم وبطليموس وغيرهم ، ونبدأ منها بالإقليم الأول إلى آخرها ، والله سبحانه وتعالى يعصمنا بمنّه وفضله .

الإقليم الأول

وفيه من جهة غربيّه الجزائر الخالدات التي منها بدأ بطليموس بأخذ أطوال البلاد ، وليست في بسيط الإقليم ، وإنّما هي في البحر المحيط جزرٌ متكثّرةٌ ، أكبرها وأشهرها ثلاثٌ ، ويقال إنّها معمورةٌ .

وقد بلغنا أنّ سفائن من الإفرنج مرّت بها في أواسط هذه المائة ، وقاتلوهم فغنموا منهم وسبوا ، وباعوا بعض أسراهم بسواحل المغرب الأقصى ، وصاروا إلى خدمة السلطان ، فلمّا تعلّموا اللسان العربيّ أخبروا عن حال جزائرهم ، وأنّهم يحتفرون الأرض للزراعة بالقرون ، وأنّ الحديد مفقودٌ بأرضهم ، وعيشهم من الشعير ، وماشيتهم المعز وقتالهم بالحجارة ، يرمونها إلى خلف ، وعبادتهم السجود للشمس إذا طلعت ، ولا يعرفون ديناً ولم تبلغهم دعوةٌ .

ولا يوقف على مكان هذه الجزائر إلّا بالعثور ، لا بالقصد إليها لأنّ سفر السفن في البحر إنّما هو بالرياح ، ومعرفة جهات مهابّها ، وإلى أين يوصل إذا مرّت على الاستقامة من البلاد التي في ممرّ ذلك المهبّ ، وإذا اختلف المهبّ

(١) في «التيمورية» العذرى .

وَعِلْمٍ حَيْثُ يُوصَلُ عَلَى الاسْتِقَامَةِ حُوذِي بِهِ الْقِلْعُ مُحَاذَاةً يَحْمِلُ السَّفِينَةَ بِهَا عَلَى قَوَانِينَ فِي ذَلِكَ مُحَصَّلَةٍ عِنْدَ النَّوَاتِي(١) وَالْمَلَّاحِينَ الَّذِينَ هُمْ رُؤَسَاءُ السُّفُنِ فِي الْبَحْرِ .

وَالْبِلَادُ الَّتِي فِي حَافَاتِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ ، وَفِي عُدْوَتِهِ مَكْتُوبَةٌ كُلُّهَا فِي صَحِيفَةٍ عَلَى شَكْلِ مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي الْوُجُودِ ، وَفِي وَضْعِهَا فِي سَوَاحِلِ الْبَحْرِ عَلَى تَرْتِيبِهَا ، وَمَهَابُّ الرِّيَاحِ وَمَمَرَّاتُهَا عَلَى اخْتِلَافِهَا مَرْسُومٌ مَعَهَا فِي تِلْكَ الصَّحِيفَةِ ، وَيُسَمُّونَهَا الْكُنْبَاصَ(٢) ، وَعَلَيْهَا يَعْتَمِدُونَ فِي أَسْفَارِهِمْ .

وَهَذَا كُلُّهُ مَفْقُودٌ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ ، فَلِذَلِكَ لَا تَلِجُ فِيهِ السُّفُنُ ، لِأَنَّهَا إِنْ غَابَتْ عَنْ مَرْأَى السَّوَاحِلِ ، فَقَلَّ أَنْ تَهْتَدِيَ إِلَى الرُّجُوعِ إِلَيْهَا مَعَ مَا يَنْعَقِدُ فِي جَوِّ هَذَا الْبَحْرِ ، وَعَلَى سَطْحِ مَائِهِ مِنَ الْأَبْخِرَةِ الْمُمَانِعَةِ لِلسُّفُنِ فِي مَسِيرِهَا ، وَهِيَ لِبُعْدِهَا لَا تُدْرِكُهَا أَضْوَاءُ الشَّمْسِ الْمُنْعَكِسَةُ مِنْ سَطْحِ الْأَرْضِ فَتُحَلِّلَهَا ، فَلِذَلِكَ عَسُرَ الِاهْتِدَاءُ إِلَيْهَا ، وَصَعُبَ الْوُقُوفُ عَلَى خَبَرِهَا .

وَأَمَّا الْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فَفِيهِ مَصَبُّ النِّيلِ الْآتِي مِنْ مَبْدَئِهِ عِنْدَ جَبَلِ الْقَمَرِ ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَيُسَمَّى نِيلَ السُّودَانِ وَيَذْهَبُ إِلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ ، فَيَصُبُّ فِيهِ عِنْدَ جَزِيرَةِ أُولِيلَ .

وَعَلَى هَذَا النِّيلِ مَدِينَةُ سَلَا وَتَكْرُورُ وَغَانَةُ ، وَكُلُّهَا لِهَذَا الْعَهْدِ فِي مَمْلَكَةِ مَلِكِ « مَالِي » مِنْ أُمَمِ السُّودَانِ ، وَإِلَى بِلَادِهِمْ تُسَافِرُ تُجَّارُ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى ، وَبِالْقُرْبِ مِنْهَا مِنْ شَمَالِيِّهَا بِلَادُ لَمْتُونَةَ وَسَائِرُ طَوَائِفِ الْمُلَثَّمِينَ ، وَمَفَاوِزُ يَجُولُونَ فِيهَا .

وَفِي جَنُوبِيِّ هَذَا النِّيلِ قَوْمٌ مِنَ السُّودَانِ ، يُقَالُ لَهُمْ لِمْلَمْ ، وَهُمْ كُفَّارٌ وَيَكْتَوُونَ فِي وُجُوهِهِمْ وَأَصْدَاغِهِمْ ، وَأَهْلُ غَانَةَ وَالتَّكْرُورِ يُغِيرُونَ عَلَيْهِمْ ، وَيَسْبُونَهُمْ وَيَبِيعُونَهُمْ لِلتُّجَّارِ ، فَيَجْلِبُونَهُمْ إِلَى الْمَغْرِبِ ، وَكُلُّهُمْ عَامَّةُ رَقِيقِهِمْ .

وَلَيْسَ وَرَاءَهُمْ فِي الْجَنُوبِ عُمْرَانٌ يُعْتَبَرُ إِلَّا أَنَاسِيُّ أَقْرَبُ إِلَى الْحَيَوَانِ الْعُجْمِ مِنَ النَّاطِقِ ، يَسْكُنُونَ الْفَيَافِيَ وَالْكُهُوفَ ، وَيَأْكُلُونَ الْعُشْبَ وَالْحُبُوبَ ، غَيْرَ مُهَيَّأَةٍ ، وَرُبَّمَا يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَلَيْسُوا فِي عِدَادِ الْبَشَرِ .

وَفَوَاكِهُ بِلَادِ السُّودَانِ كُلُّهَا مِنْ قُصُورِ صَحْرَاءِ الْمَغْرِبِ مِثْلِ تُوَاتٍ وَتِكْدَرَارِينَ وَوَرْكَلَانَ . فَكَانَ فِي غَانَةَ – فِيمَا يُقَالُ – مُلْكٌ وَدَوْلَةٌ لِقَوْمٍ مِنَ الْعَلَوِيِّينَ يُعْرَفُونَ بِبَنِي صَالِحٍ ، وَقَالَ صَاحِبُ كِتَابِ رُجَارَ : إِنَّهُ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ وَلَا يُعْرَفُ صَالِحٌ هَذَا فِي وَلَدِ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَسَنٍ ، وَقَدْ ذَهَبَتْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَصَارَتْ غَانَةُ لِسُلْطَانِ مَالِي .

وَفِي شَرْقِيِّ هَذَا الْبَلَدِ ، فِي الْجُزْءِ الثَّالِثِ مِنَ الْإِقْلِيمِ ، بَلَدُ « كُوكُو » عَلَى نَهْرٍ يَنْبُعُ مِنْ بَعْضِ الْجِبَالِ هُنَالِكَ وَيَمُرُّ مُغَرِّبًا فَيَغُوصُ فِي رِمَالِ الْجُزْءِ الثَّانِي وَكَانَ مَلِكُ كُوكُو قَائِمًا بِنَفْسِهِ ، ثُمَّ اسْتَوْلَى عَلَيْهَا سُلْطَانُ مَالِي ، وَأَصْبَحَتْ فِي مَمْلَكَتِهِ وَخَرِبَتْ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ أَجْلِ فِتْنَةٍ وَقَعَتْ هُنَاكَ ، نَذْكُرُهَا عِنْدَ ذِكْرِ دَوْلَةِ « مَالِي » فِي مَحَلِّهَا مِنْ تَارِيخِ الْبَرْبَرِ .

---

(١) جمع نوتى وهو الملاح فى البحر .
(٢) Compass (البوصلة)

وَفى جَنُوبِىِّ بَلَد « كُوكُو » بِلَادُ كَاتِم ، مِنْ أُمَمِ السُّودَانِ ، وَبَعْدَهُمْ « ونغارة » عَلَى ضِفَّةِ النِّيلِ مِنْ شَمَالِيهِ .

وَفى شَرْقِى بِلَادِ « وَنْغَارَةَ » « وَكَاتِم » ، بِلَادُ « زَغَاوَةَ » وتاجرة الْمُتَّصِلَةُ بِأَرْضِ النُّوبَةِ فى الْجُزْءِ الرَّابِعِ ، مِنْ هذَا الإِقْلِيمِ . وَفِيهِ يَمُرُّ نيل مصر ذاهبًا مِنْ مبدئه عِنْدَ خَطِّ الاسْتِوَاءِ إِلَى الْبَحْرِ الرُّومِى فى الشَّمَالِ .

وَمَخْرَجُ هذَا النِّيلِ مِنْ جَبَلِ الْقَمَرِ الَّذِى فَوْقَ خَطِّ الاسْتِوَاءِ بِستَّ عَشْرَةَ دَرَجَةً . وَاخْتَلَفُوا فى ضَبْطِ هذه اللَّفْظَةِ فَضَبَطَهَا بَعْضُهُمْ بِفَتْحِ الْقَافِ وَالْمِيمِ ، نِسْبَةً إِلَى قَمَرِ السَّمَاءِ لِشِدَّةِ بَيَاضِهِ وَكَثْرَةِ ضَوْئِهِ ، وَفى كِتَابِ « الْمُشْتَرَك » لِيَاقُوتَ بِضَمِّ الْقَافِ وَسُكُونِ الْمِيمِ ، نِسْبَةً إِلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْهِنْدِ ، وَكَذَا ضَبَطَهُ ابْنُ سَعِيد ، فَيَخْرُجُ مِنْ هذَا الْجَبَلِ عَشْرُ عُيُون تَجْتَمِعُ كُلُّ خَمْسَةٍ مِنْهَا فى بُحَيْرَةٍ وَبَيْنَهُمَا سِتَّةُ أَمْيَالٍ ، وَيَخْرُجُ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْبُحَيْرَتَيْنِ ثَلَاثَةُ أَنْهَارٍ ، تَجْتَمِعُ كُلُّهَا فى بَطِيحَةٍ وَاحِدَةٍ ، فى أَسْفَلِهَا جَبَلٌ مُعْتَرِضٌ يَشُقُّ الْبُحَيْرَةَ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّمَالِ ، وَيَنْقَسِمُ مَاؤُهَا بِقِسْمَيْنِ : فَيَمُرُّ الْغَرْبِىُّ مِنْهُ إِلَى بِلَادِ السُّودَانِ مُغَرِّبًا حَتَّى يَصُبَّ فى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ . وَيَخْرُجُ الشَّرْقِىُّ مِنْهُ ذَاهِبًا إِلَى الشَّمَالِ عَلَى بِلَادِ الْحَبَشَةِ وَالنُّوبَةِ ، وَفِيمَا بَيْنَهُمَا ، وَيَنْقَسِمُ فى أَعْلَى أَرْضِ مِصْرَ فَيَصُبُّ ثَلَاثَةٌ مِنْ جَدَاوِلِهِ فى الْبَحْرِ الرُّومِى عِنْدَ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ ، وَرَشِيد وَدِمْيَاطَ ، وَيَصُبُّ وَاحِدٌ فى بُحَيْرَةٍ مِلْحَةٍ قَبْلَ أَنْ يَتَّصِلَ بِالْبَحْرِ فى وَسَطِ هذَا الإِقْلِيمِ الأَوَّلِ .

وَعَلَى هذَا النِّيلِ بِلَادُ النُّوبَةِ وَالْحَبَشَةِ وَبَعْضُ بِلَادِ الْوَاحَاتِ إِلَى أُسْوَانَ ، وَحَاضِرَةُ بِلَادِ النُّوبَةِ مَدِينَةُ دُنْقُلَةَ ، وَهِىَ فى غَرْبِىِّ هذَا النِّيلِ ، وَبَعْدَهَا عَلْوَةُ وَبِلَاق ، وَبَعْدَهُمَا جَبَلُ الْجَنَادِلِ عَلَى سِتَّةِ مَرَاحِلَ مِنْ بِلَاق فى الشَّمَالِ ، وَهُوَ جَبَلٌ عَالٍ مِنْ جِهَةِ مِصْرَ وَمُنْخَفِضٌ مِنْ جِهَةِ النُّوبَةِ ، فَيَنْفُذُ فِيهِ النِّيلُ وَيَصُبُّ فى مَهْوًى بَعِيدٍ صَبًّا هَائِلًا ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَسْلُكَهُ الْمَرَاكِبُ ، بَلْ يُحَوَّلُ الْوَسْقُ مِنْ مَرَاكِبِ السُّودَانِ ، فَيُحْمَلُ عَلَى الظَّهْرِ إِلَى بَلَدِ أُسْوَانَ قَاعِدَةِ الصَّعِيدِ إِلَى فَوْقِ الْجَنَادِلِ .

وَبَيْنَ الْجَنَادِلِ وَأُسْوَانَ اثْنَتَا عَشْرَةَ مَرْحَلَةً ، وَالْوَاحَاتُ فى غَرْبِيِّهَا عَدْوَةُ النِّيلِ وَهِىَ الآنَ خَرَابٌ ، وَبِهَا آثَارُ الْعِمَارَةِ الْقَدِيمَةِ .

وَفى وَسَطِ هذَا الإِقْلِيمِ فى الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ بِلَادُ الْحَبَشَةِ عَلَى وَادٍ يَأْتِى مِنْ وَرَاءِ خَطِّ الاسْتِوَاءِ ذَاهِبًا إِلَى أَرْضِ النُّوبَةِ ، فَيَصُبُّ هُنَاكَ فى النِّيلِ الْهَابِطِ إِلَى مِصْرَ ، وَقَدْ وَهِمَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ مِنْ نِيلِ الْقَمَرِ ، وَبَطْلِيمُوسُ ذَكَرَهُ فى كِتَابِ « الْجُغْرَافِيَا » ، وَذَكَرَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ هذَا النِّيلِ .

وَإِلَى وَسَطِ هذَا الإِقْلِيمِ فى الْجُزْءِ الْخَامِسِ يَنْتَهِى بَحْرُ الْهِنْدِ[1] الَّذِى يَدْخُلُ مِنْ نَاحِيَةِ الصِّينِ وَيَغْمُرُ عَامَّةَ هذَا الإِقْلِيمِ ، إِلَى هذَا الْجُزْءِ الْخَامِسِ فَلَا يَبْقَى فِيهِ عُمْرَانٌ إِلَّا مَا كَانَ فى الْجَزَائِرِ الَّتِى فى دَاخِلِهِ ، وَهِىَ مُتَعَدِّدَةٌ يُقَالُ تَنْتَهِى إِلَى أَلْفِ جَزِيرَةٍ أَوْ فِيمَا عَلَى سَوَاحِلِهِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ ،

(١) المحيط الهندى .

وَلَيْسَ مِنْهَا فى هذَا الْإِقْلِيمِ الأَوَّلِ إِلاَّ طَرَفٌ مِنْ بِلَادِ الصِّينِ فى جِهَةِ الشَّرْقِ ، وَفى بِلَادِ الْيَمَنِ .

وَفى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هذَا الإِقْلِيمِ ، فِيمَا بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ الْهَابِطَيْنِ مِنْ هذَا الْبَحْرِ الْهِنْدِىِّ ، إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ وَهُمَا بَحْرُ قُلْزُمُ (١) ، وَبَحْرُ فَارِسَ (٢) ، وَفِيمَا بَيْنَهُمَا جَزِيرَةُ الْعَرَبِ ، وَتَشْتَمِلُ عَلَى بِلَادِ الْيَمَنِ ،وَبِلَادِ الشِّحْرِ فى شَرْقِيِّهَا عَلَى سَاحِلِ هذَا الْبَحْرِ الْهِنْدِىِّ ، وَعَلَى بِلَادِ الْحِجَازِ وَالْيَمَامَةِ وَمَا إِلَيْهِمَا ، كَمَا نَذْكُرُهُ فى الإِقْلِيمِ الثَّانى وَمَا بَعْدَهُ .

أَمَّا الَّذى عَلَى سَاحِلَ هذَا الْبَحْرِ مِنْ غَرْبِيِّهِ فَبَلَدُ «زَالِعَ» مِنْ اطْرَافِ بِلَادِ الْحَبَشَةِ ، وَمَجَالَاتُ الْبَجَةِ (٣) فى شَمَالِىِّ الْحَبَشَةِ مَا بَيْنَ جَبَلِ الْعَلَّاقى فى أَعَالِى الصَّعِيدِ ، وَبَيْنَ بَحْرِ الْقُلْزُمِ الْهَابِطِ مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِىِّ .

وَتَحْتَ بِلَادِ زَالِعَ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ فى هذَا الْجُزْءِ خَلِيجُ بَابِ الْمَنْدَبِ إِذْ يَضِيقُ الْبَحْرُ الْهَابِطُ هُنَالِكَ بِمُزَاحَمَةِ جَبَلِ الْمَنْدَبِ الْمَائِلِ فى وَسَطِ الْبَحْرِ الْهِنْدِىِّ ، مُمْتَدًّا مَعَ سَاحِلِ الْيَمَنِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ فى طُولِ اثْنَى عَشَرَ مِيلاً ، فَيَضِيقُ الْبَحْرُ بِسَبَبِ ذلِكَ إِلَى أَنْ يَصِيرَ فى عَرْضِ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ أَوْ نَحْوِهَا ، وَيُسَمَّى بَابَ الْمَنْدَبِ ، وَعَلَيْهِ تَمُرُّ مَرَاكِبُ الْيَمَنِ إِلَى سَاحِلِ السُّوَيْسِ قَرِيبًا مِنْ مِصْرَ .

(١) البحر الأحمر .

(٢) الخليج العربي الآن .

(٣) ويقال أيضاً: البجاة وهي اسم لبعض القبائل سيذكر بعد أنها من أمم السودان . وزالع هي زيلع المعروفة الآن .

وَتَحْتَ بَابِ الْمَنْدَبِ جَزِيرَةُ سَوَاكِنَ وَدَهْلَكَ وَقُبَالَتَهُ مِنْ غَرْبِيِّهِ مَجَالَاتُ الْبَجَةِ مِنْ أُمَمِ السُّودَانِ ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ ؛ وَمِنْ شَرْقِيِّهِ فى هذَا الْجُزْءِ تَهَائِمُ (٤) الْيَمَنِ . وَمِنْهَا عَلَى سَاحِلِهِ بَلَدُ عَلِىِّ بْنِ يَعْقُوبَ .

وَفى جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْ بَلَدِ زَالِعَ ، وَعَلَى سَاحِلِ هذَا الْبَحْرِ مِنْ غَرْبِيِّهِ قُرَى بَرْبَرٍ يَتْلُو بَعْضُهَا بَعْضًا وَيَنْعَطِفُ مِنْ جَنُوبِيِّهِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ السَّادِسِ .

وَيَلِيهَا هُنَالِكَ مِنْ جِهَةِ شَرْقِيِّهَا بِلَادُ الزَّنْجِ ، ثُمَّ بِلَادُ (سُفَالَةَ)(٥) مِنْ سَاحِلِهِ الْجَنُوبِىِّ بِلَادُ الْوَقْوَاقِ(٦) ،مُتَّصِلَةً إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنْ هذَا الإِقْلِيمِ عِنْدَ مَدْخَلِ هذَا الْبَحْرِ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ .

وَأَمَّا جَزَائِرُ هذَا الْبَحْرِ فَكَثِيرَةٌ . مِنْ أَعْظَمِهَا جَزِيرَةُ سَرَنْدِيبَ (٧) مُدَوَّرَةُ الشَّكْلِ وَبِهَا الْجَبَلُ الْمَشْهُورُ ، يُقَالُ :لَيْسَ فى الأَرْضِ أَعْلَى مِنْهُ ، وَهِىَ قُبَالَةَ سُفَالَة ثُمَّ جَزِيرَةُ الْقَمَرِ ،وَهِىَ جَزِيرَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ ، تَبْدَأُ مِنْ قُبَالَةِ أَرْضِ سُفَالَةَ وَتَذْهَبُ إِلَى الشَّرْقِ مُنْحَرِفَةً بِكَثِيرٍ إِلَى أَنْ تَقْرُبَ مِنْ سَوَاحِلِ أَعَالِى الصِّينِ ، وَيَحْتَفُّ بِهَا فى هذَا الْبَحْرِ مِنْ جَنُوبِيِّهَا جَزَائِرُ الْوَقْوَاقِ ، وَمِنْ شَرْقِيِّهَا جَزَائِرُ السِّيلَانِ إِلَى جَزَائِرَ أُخَرَ فى هذَا الْبَحْرِ كَثِيرَةِ الْعَدَدِ ، وَفِيهَا أَنْوَاعُ الطِّيبِ وَالأَفَاوِيهِ ، وَفِيهَا يُقَالُ :مَعَادِنُ الذَّهَبِ وَالزُّمُرُّدِ ، وَعَامَّةُ أَهْلِهَا عَلَى

(٤) جمع تهامة وهى ما انخفض من الأرض ومقابله : نجد .

(٥) مدينة وميناء أنشأه البرتغاليون بأفريقيا الشرقية فى القرن السادس عشر الميلادى .

(٦) فى بعض النسخ بلاد الواق واق . وتشتهر عند العامه باسم « واق الواق » . وهى فى شمال الصين .

(٧) التى نفى إليها زعماء الثورة العرابية بعد فشلها .

دِينِ الْمَجُوسِيَّةِ ، وَفِيهِم مُلُوكٌ مُتَعَدِّدُونَ ، وَبِهذِهِ الْجَزَائِرِ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمْرَانِ عَجَائِبُ ذَكَرَهَا أَهْلُ الْجِغْرَافِيا .

وَعَلَى الضِّفَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هذَا الْبَحْرِ فِى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هذَا الإِقْلِيمِ ، بِلَادُ الْيَمَنِ كُلُّهَا ، فَمِنْ جِهَةِ بَحْرِ الْقُلْزُمِ بَلَدُ « زَبِيدَ » ، وَ« الْمَهْجَمُ » ، وَتِهَامَةُ الْيَمَنِ ، وَبَعْدَهَا بَلَدُ « صَعْدَةَ » ، مَقَرُّ الإِمَامَةِ الزَّيْدِيَّةِ ، وَهِىَ بَعِيدَةٌ عَنِ الْبَحْرِ الْجَنُوبِىِّ وَعَنِ الْبَحْرِ الشَّرْقِىِّ ، وَفِيمَا بَعْدَ ذلِكَ مَدِينَةُ « عَدَنَ » ، وَفِى شَمَالِيِّهَا « صَنْعَاءُ » ، وَبَعْدَهُمَا إِلَى الْمَشْرِقِ أَرْضُ الأَحْقَافِ وَظَفَارِ وَبَعْدَهَا أَرْضُ حَضْرَمَوْتَ ، ثُمَّ بِلادُ الشِّحْرِ ، مَا بَيْنَ الْبَحْرِ الْجَنُوبِىِّ وَبَحْرِ فَارِسَ .

وَهذِهِ الْقِطْعَةُ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ هِىَ الَّتِى انْكَشَفَ عَنْهَا الْبَحْرُ مِنْ أَجْزَاءِ هذَا الإِقْلِيمِ ، الْوُسْطَى وَيَنْكَشِفُ بَعْدَهَا قَلِيلٌ مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ ، وَأَكْثَرُ مِنْهُ مِنَ الْعَاشِرِ ، فِيهِ أَعَالِى بِلَادِ الصِّينِ ، وَمِنْ مُدُنِهِ الشَّهِيرَةِ خَانِكُو ، وَقُبَالَتَهَا مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ جَزَائِرُ السِّيلَانِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا ، وَهذَا آخِرُ الْكَلَامِ فِى الإِقْلِيمِ الأَوَّلِ وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلِىُّ التَّوْفِيقِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ .

الإِقْلِيمُ الثَّانِى

وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِالأَوَّلِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ ، وَقُبَالَةُ الْمَغْرِبِ مِنْهُ فِى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ ، جَزِيرَتَانِ مِنَ الْجَزَائِرِ الْخَالِدَاتِ ، الَّتِى مَرَّ ذِكْرُهَا .

وَفِى الْجُزْءِ الأَوَّلِ وَالثَّانِى مِنْهُ فِى الْجَانِبِ الأَعْلَى مِنْهُمَا أَرْضُ قَنُورِيَةَ ، وَبَعْدَهَا فِى جِهَةِ الشَّرْقِ أَعَالِى أَرْضِ غَانَةَ ، ثُمَّ مَجَالَاتُ زَغَاوَةَ مِنَ السُّودَانِ ، وفى الجَانِبِ الأَسْفَلِ مِنْهُمَا صَحْرَاءُ[1] تَسْتَمِرُّ مُتَّصِلَةً مِنَ الْغَرْبِ إِلَى الشَّرْقِ ذَاتُ مَفَاوِزَ تَسْلُكُ فِيهَا التُّجَّارُ ، مَا بَيْنَ بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَبِلَادِ السُّودَانِ ، وَفِيهَا مَجَالَاتُ الْمُلَثَّمِينَ مِنْ صِنْهَاجَةَ ، وَهُمْ شُعُوبٌ كَثِيرَةٌ مَابَيْنَ « كَزُولَةَ » ، « وَلِمْتُونَةَ » وَ « مَسْرَاتَه » ، وَ « لِمْطَةَ » ، وَ « وَرِيكَةَ » .

وَعَلَى سَمْتِ هذِهِ الْمَفَاوِزِ شَرْقًا أَرْضُ « فَزَّانَ » ، ثُمَّ مَجَالَاتُ أَزْكَارَ مِنْ قَبَائِلِ الْبَرْبَرِ ، ذَاهِبَةً إِلَى أَعَالِى الْجُزْءِ الثَّالِثِ عَلَى سَمْتِهَا فِى الشَّرْقِ ، وَبَعْدَهَا مِنْ هذَا الْجُزْءِ الثَّالِثِ وَهِىَ جِهَةُ الشَّمَالِ مِنْهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ وَدَّانَ ، وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا أَرْضُ سِنْتَرِيَّةَ ، وَتُسَمَّى بِالْوَاحَاتِ الدَّاخِلَةِ .

وَفِى الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ أَعْلَاهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ الْبَاجَوِيِّينَ ، ثُمَّ يَعْتَرِضُ فِى وَسَطِ هذَا الْجُزْءِ بِلَادُ الصَّعِيدِ ، حافَاتُ النِّيلِ الذَّاهِبِ مِنْ مَبْدَئِهِ فِى الإِقْلِيمِ الأَوَّلِ إِلَى مَصَبِّهِ فِى الْبَحْرِ ، فَيَمُرُّ فِى هذَا الْجُزْءِ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ الحَاجِزَيْنِ ، وَهُمَا : جَبَلُ الْوَاحَاتِ مِنْ غَرْبِيِّهِ ، وَجَبَلُ الْمُقَطَّمِ مِنْ شَرْقِيِّهِ ، وَعَلَيْهِ مِنْ أَعْلَاهُ بَلَدُ « إِسْنَا » ، وَ« أَرْمَنْتَ » ، وتتصل كَذلِكَ حَافَاتُهُ إِلَى « أَسْيُوطَ » ، وَ« قُوصَ » ، ثُمَّ إِلَى « صُولَ » ، وَيَفْتَرِقُ النِّيلُ هُنَالِكَ عَلَى شُعْبَيْنِ يَنْتَهِى الأَيْمَنُ مِنْهُمَا فِى هذَا الْجُزْءِ عِنْدَ « اللَّاهُونِ » وَالأَيْسَرُ عِنْدَ « دِلَاصٍ » ، وَفِيمَا بَيْنَهُمَا أَعَالِى دِيَارِ مِصْرَ .

---

(١) الصحراء الأفريقية الكبرى .

وَفى الشَّرْقِ مِنْ جَبَلِ الْمُقَطَّمِ صَحَارَى عَيْذَابَ ذَاهِبَةً فى الْجُزْءِ الْخَامِسِ إلَى أَنْ تَنْتَهِىَ إلى بَحْرِ السُّوَيْسِ وَهُوَ بَحْرُ الْقُلْزُمِ الْهَابِطُ مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِىِّ فى الْجَنُوبِ إلَى جِهَةِ الشَّمَالِ وَفى عُدْوَتِهِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هذَا الْجُزْءِ أَرْضُ الْحِجَازِ مِنْ جَبَلِ يَلَمْلَمَ ، إلَى بِلَادِ يَثْرِبَ ، وفى وَسَطِ الْحِجازِ مَكَّةُ شَرَّفَهَا اللهُ ، وَفى سَاحِلِهَا مَدِينَةُ جَدَّةَ ، تُقَابِلُ بَلَدَ عَيْذَابَ فى الْعُدْوَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ هذا الْبَحْرِ .

وَفى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ غَرْبِيِّهِ بِلَادُ نَجْد ، أَعْلَاهَا فى الْجَنُوبِ وَتَبَالَةُ[1] وَجرَشُ[2] إلَى عُكَاظَ مِنَ الشَّمَالِ ، وَتَحْتَ نَجْدَ مِنْ هذا الْجُزْءِ بَقِيَّةُ أَرْضِ الْحِجَازِ ، وَعَلَى سَمْتِهَا فى الشَّرْقِ بِلَادُ نَجْرَانَ ، وَخَيْبَرَ ، وَتَحْتَهَا أَرْضُ الْيَمَامَةِ ، وَعَلَى سَمْتِ نَجْرَانَ فى الشَّرْقِ أَرْضُ سَبأَ وَمَأْرِبَ ثُمَّ أَرْضُ الشَّحْرِ .

وَيَنْتَهِى إلَى بَحْرِ فَارِسَ ، وَهُوَ الْبَحْرُ الثَّانِى الْهَابِطُ مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِىِّ إلَى الشَّمَالِ ، كَمَا مَرَّ ، وَيَذْهَبُ فى هذَا الْجُزْءِ بِانْحِرَافٍ إلَى الْغَرْبِ ، فَيَمُرُّ مَا بَيْنَ شَرْقِيِّهِ وَجَوْفِيِّهِ قِطْعَةٌ مُثَلَّثَةٌ عَلَيْهَا مِنْ أَعْلَاهُ مَدِينَةُ قَلْهَاتَ ، وَهِىَ سَاحِلُ الشَّحْرِ ،ثُمَّ تَحْتَهَا عَلَى سَاحِلِهِ بِلَادُ عُمَانَ ،ثُمَّ بِلَادُ الْبَحْرَيْن ، وَهَجَرُ ، مِنْهَا فى آخِرِ الْجُزْءِ .

وَفى الْجُزْءِ السَّابعِ فى الأَعْلَى مِنْ غَرْبِيِّهِ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ فَارِسَ تَتَّصِلُ بِالْقِطْعَةِ الأُخْرَى فى السَّادِسِ ، وَيَغْمُرُ بَحْرُ الْهِنْدِ جَانِبَهُ الأَعْلَى كُلَّهُ ،وَعَلَيْهِ هُنَالِكَ بِلَادُ السِّنْدِ إلَى بِلَادِ مَكْرَانَ ، وَيُقَابِلُهَا بِلَادُ الطُّوبَرَانِ ، وَهِىَ مِنَ السِّنْدِ أَيْضًا فَيَتَّصِلُ السِّنْدُ كُلُّهُ فى الْجَانِبِ الْغَرْبِىِّ مِنْ هذا الْجُزْءِ ، وَتَحُولُ الْمَفَاوِزُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَرْضِ الْهِنْدِ ، وَيَمُرُّ فِيهِ نَهْرُهُ الآتِى مِنْ نَاحِيَةِ بِلَادِ الْهِنْدِ وَيَصُبُّ فى الْبَحْرِ الْهِنْدِىِّ فى الْجَنُوبِ .

وَأَوَّلُ بِلَادِ الْهِنْدِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْهِنْدِىِّ ، وَفى سَمْتِهَا شَرْقًا بِلَادُ بَلَهْرَا ، وَتَحْتَهَا فى الْجَانِبِ الأَسْفَلِ أَرْضُ كَابِلَ ، وَبَعْدَهَا شَرْقًا إلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ بِلَادُ الْقِنَّوْجِ ، مَا بَيْنَ قَشْمِيرَ الدَّاخِلَةِ وَقَشْمِيرَ الْخَارِجَةِ عِنْدَ آخِرِ الإِقْلِيمِ .

وَفى الْجُزْءِ التَّاسِعِ ، ثُمَّ فى الْجَانِبِ الْغَرْبِىِّ مِنْهُ بِلَادُ الْهِنْدِ الأَقْصَى ، وَيَتَّصِلُ فِيهِ إلَى الْجَانِبِ الشَّرْقِىِّ فَيَتَّصِلُ مِنْ أَعْلَاهُ إلَى الْعَاشِرِ ، وَتَبْقَى فى أَسْفَلِ ذلِكَ الْجَانِبِ قِطْعَةٌ مِنْ بِلَادِ الصِّينِ فِيهَا مَدِينَةُ شِيغُونَ ، ثُمَّ تَتَّصِلُ بِلَادُ الصِّينِ فى الْجُزْءِ الْعَاشِرِ كلهِ إلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ .

وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ وَبِهِ سُبْحَانَهُ التَّوْفِيقُ وَهُوَ وَلِىُّ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ .

الإقليم الثالث

وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِالثانِى مِنْ جِهَةِ الشمَالِ ، فَفِى الْجُزْءِ الأَولِ مِنْهُ وَعَلَى نَحْوِ الثُّلُثِ مِنْ أَعْلَاهُ جَبَلُ دَرَنَ مُعْتَرِضٌ فِيهِ مِنْ غَرْبِيِّهِ عِنْدَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ إلَى الشرْقِ عِنْدَ آخِرِهِ ، وَيَسْكُنُ هذا الْجَبَلَ مِنَ الْبَرْبَرِ أُمَمٌ لا يُحْصِيهِمْ إلا خَالِقُهُمْ حَسْبَمَا يَأْتِى ذِكْرُهُ ، وَفى الْقِطْعَةِ التِى بَيْنَ هذا الْجَبَلِ وَالإِقْلِيمِ الثانِى ، وَعَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنْهَا رباطُ مَاسَّةَ ،

(١) بلد باليمن .

(٢) بلد بالأردن .

وَيَتَّصِلُ بِهِ شَرْقًا بِلَادُ سُوسٍ ، وَنُول ، وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا بِلَادُ دَرْعَةَ ، ثُمَّ بِلَادُ سِجِلْمَاسَةَ ، ثُمَّ قِطْعَةٌ مِنْ صَحْرَاءِ نِسْتَرَ الْمَفَازَةِ الَّتِى ذَكَرْنَاهَا فى الإِقْلِيمِ الثَّانِى

وَهذَا الْجَبَلُ مُطِلٌّ عَلَى هذهِ الْبِلَادِ كلِّهَا فى هذَا الْجُزْءِ ، وَهُوَ قَلِيلُ الثَّنَايَا وَالْمَسَالِكِ فى هذهِ النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ إِلَى أَنْ يُسَامِتَ وَادِىَ مَلْوِيَّةَ فَتَكْثُرُ ثَنَايَاهُ وَمَسَالِكُهُ ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِى .

وَفى هذهِ النَّاحِيَةِ مِنْهُ أُمَمُ الْمَصَامِدَةِ (١) ، ثُمَّ هِنْتَاتَةُ ، ثُمَّ تِينَمَلَكَ ، ثُمَّ كَدْمِيُوهُ ، ثُمَّ مَشْكُورَةَ وَهُمْ آخِرُ الْمَصَامِدَةِ فيهِ ، ثُمَّ قَبَائِلُ صِنهاكَةَ ، وَهُمْ صِنْهاجَةُ وَفى آخِرِ هذا الْجُزْءِ مِنْهُ بَعْض قبَائِلِ زَنَاتَةَ .

وَيَتَّصِلُ بِهِ هُنَالِكَ مِنْ جَوْفِيهِ جَبَلُ أَوْرَاسَ ، وَهُوَ جَبَلُ كُتَامَةَ وَبَعْدَ ذلِكَ أُمَمٌ أُخْرَى مِنَ الْبَرَابِرَةِ نَذْكُرُهُمْ فى أَمَاكِنِهِمْ

ثُمَّ إِنَّ جَبَلَ دَرَن هذا ، مِنْ جِهَةِ غَرْبِيهِ مُطِلٌّ عَلَى بِلادِ الْمَغْرِبِ الأَقْصَى ، وَهِىَ فى جَوْفِيهِ ، فَفِى النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهَا بِلادُ مُرَّاكِش ، وَأَغْمَات وَتَادلاً ، وَعَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنْها رِبَاط أَسْفى وَمَدِينة سَلاَ .

وَفى الْجَوْفِ عَنْ بِلادِ مُرَاكِش ، بِلادُ فاس وَمِكْنَاسَةَ ، وَتَازا ، وَقَصْرُ كُتَامَةَ ، وَهذِهِ هِىَ الَّتِى تُسَمَّى الْمَغْرِبَ الأَقْصَى فى عُرْفِ أَهْلِهَا وَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنها بِلْدَانُ أَصِيلا ، وَالْعَرَائِش .

وَفى سَمْتِ هذهِ الْبِلَادِ شَرْقا بِلَادُ الْمَغْرِبِ الأَوْسَطِ ، وَقَاعِدَتُها تِلْمُسَانُ ، فى سَوَاحِلِها عَلى الْبَحْرِ الرُّومِى بَلَدُ هُنينَ وَوَهْرَانُ وَالْجَزائِرُ لأَنَّ هذا الْبَحْرَ الرُّومِىَّ يَخْرُجُ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنْ خليجِ طَنْجَةَ فى النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنَ الإِقْلِيمِ الرَّابِعِ ، وَيَذْهَبُ مُشَرِّقًا فَيَنْتَهِى إِلى بِلادِ الشَّامِ ، فإذا خرَجَ مِنَ الْخَلِيجِ الْمُتَضايِقِ غيْرَ بَعِيد انْفَسَح جَنُوبا وَشَمَالا ، فدَخَل فى الإِقْلِيم الثَّالِثِ وَالْخَامِسِ فلِهذا كان عَلَى سَاحِلِهِ مِنْ هذا الإِقْلِيمِ الثَّالِثِ الْكَثِيرُ مِنْ بِلادِهِ ، ثُمَّ يَتَّصِلُ بِبِلادِ الْجَزَائِرِ مِنْ شرْقِيهَا بِلَادُ بِجَايَةَ فى سَاحِلِ الْبَحْرِ ثُمَّ قُسْطَنْطِينَةُ فى الشَّرْقِ مِنهَا .

وَفى آخِرِ الْجُزْءِ الأَوَّلِ ، وَعَلى مَرْحَلَة مِن هذا الْبَحْرِ فى جَنُوبِى هذهِ الْبِلادِ وَمُرْتَفِعا إِلَى جنوب الْمَغْرِب الأَوْسَطِ ، بَلَدُ أَشِيرَ ، ثُم بَلَدُ الْمَسِيلَةِ ، ثُم الزابُ ، وَقاعِدَتُهُ بِسْكَرَةُ تحت جَبَل أَوْرَاس الْمُتَصِلِ بِدَرَنَ كما مَرَ وَذلِكَ عِنْدَ آخِرِ هذا الْجُزْء مِنْ جِهَةِ الشرْق . وَالْجُزْءِ الثانى مِنْ هذا الإِقْلِيمِ عَلى هَيْئَةِ الْجُزْءِ الأَولِ ، ثُم جَبَلُ دَرَن عَلى نحْوِ الثُّلُثْ مِنْ جَنُوبِهِ ذاهِبًا فِيهِ مِنْ غرْب إِلى شرْق ، فيَقْسِمُهُ بِقِطْعَتيْنِ . وَيَغْمُرُ الْبَحْرُ الرُّومِىُّ مَسَافَةً مِنْ شمَالِهِ . فالْقِطْعَةُ الْجَنُوبِيَةُ عَنْ جَبَلِ دَرَن ، غرِبِيها كُلُّهُ مَفاوِزُ ، وَفى الشرْقِ مِنْها بَلَدُ غَدَامِسَ الثانى كما مَرَّ والْقَطْعَةُ الجوفيَّةُ عن جبلِ دَرَنَ وَفى سَمْتِها شرقًا أَرْض وَدَّان التِى بَقِيتُها فى الإِقْلِيم مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَحْرِ الرُّومِىِّ فى الْغَرْبِ مِنها جَبَلُ أَوْرَاس ، وَتبِسَةَ وَالأُوْبُس ، وَعَلى سَاحِلِ الْبَحْرِ ، بَلَدُ بُونة .

---

(١) وإليهم ينتسب الإمام يحيى المصمودى أحد ناشرى موطأ الإمام مالك .

ثُمَّ فى سَمْتِ هذه الْبِلَادِ شَرْقًا بِلَادُ أَفْرِيقِيَّةَ ، فَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ مَدِينَةُ تونِس ، ثُمَّ السُّوسَةُ ، ثُمَّ الْمَهْدِيَّةُ ، وَفى جَنُوبِ هذه الْبِلَادِ تَحْتَ جَبَلِ دَرَنَ بِلَادُ الْجَرِيدِ : تَوْزَرُ ، وَقَفْصَةُ ، وَنَفْزَاوَةُ ، وَفِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ السَّوَاحِلِ مَدِينَةُ الْقَيْرَوَانِ ، وَجَبَلُ وَسْلَاتَ وَسْبِيطَلَةُ . وَعَلَى سَمْتِ هذه الْبِلَادِ كُلِّهَا شَرْقًا بَلَدُ طَرَابُلُسَ عَلَى الْبَحْرِ الرُّومِىِّ ، وَبِإِزَائِهَا فى الْجَنُوبِ جَبَلُ دُمَّرَ ، وَنَقْرَةُ مِنْ قَبَائِلِ هَوَّارَةَ مُتَّصِلَةٌ بِجَبَلِ دَرَنَ ، وَفى مُقَابَلَةِ غَدَامِسَ الَّتِى مَرَّ ذِكْرُهَا فى آخِرِ الْقِطْعَةِ الْجَنُوبِيَّةِ .

وَآخِرُ هذَا الْجُزْءِ فى الشَّرْقِ سُوَيْقَةُ ابْنِ مَشْكُورَةَ عَلَى الْبَحْرِ وَفى جَنُوبِهَا مَجَالَاتُ الْعَرَبِ فى أَرْضِ وَدَّانَ ، وَفى الْجُزْءِ الثَّالِثِ مِنْ هذَا الْإِقْلِيمِ يَمُرُّ أَيْضًا فِيهِ جَبَلُ دَرَنَ إِلَّا أَنَّهُ يَنْعَطِفُ عِنْدَ آخِرِهِ إِلَى الشَّمَالِ ، وَيَذْهَبُ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ فى الْبَحْرِ الرُّومِىِّ ، وَيُسَمَّى هُنَالِكَ طَرَفَ أَوْثَانَ .

وَالْبَحْرُ الرُّومِىُّ مِنْ شَمَالِيِّهِ يَغْمُرُ طَائِفَةً مِنْهُ إِلَى أَنْ يُضَايِقَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَبَلِ دَرَنَ ، فَالَّذِى وَرَاءَ الْجَبَلِ فى الْجَنُوبِ وَفى الْغَرْبِ مِنْهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ وَدَّانَ ، وَمَجَالَاتُ الْعَرَبِ فِيهَا ، ثُمَّ زَوِيلَةُ ابْنُ الخطاب ، ثُمَّ رِمَالٌ وَقِفَارٌ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ فى الشَّرْقِ ، وَفِيمَا بَيْنَ الْجَبَلِ وَالْبَحْرِ فى الْغَرْبِ مِنْهُ بَلَدُ سَرْتَ عَلَى الْبَحْرِ ، ثُمَّ خَلَاءٌ وَقِفَارٌ ، تَجُولُ فِيهَا الْعَرَبُ ، ثُمَّ « أَجْدَابِيَةُ » ، ثُمَّ بَرْقَةُ عِنْدَ مُنْعَطَفِ الْجَبَلِ ، ثُمَّ طَلْمَسَةُ عَلَى الْبَحْرِ هُنَالِكَ ، ثُمَّ فى شَرْقِ الْمُنْعَطَفِ مِنَ الْجَبَلِ مَجَالَاتُ هَيْبٍ ، وَرُوَاحَةُ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ .

وَفى الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هذَا الْإِقْلِيمِ ، وَفى الْأَعْلَى مِنْ غَرْبِيِّهِ صَحَارَى بَرْقِيقٍ ، وَأَسْفَلُ مِنْهَا بِلَادُ هَيْبٍ وَرُوَاحَةَ ، ثُمَّ يَدْخُلُ الْبَحْرُ الرُّومِىُّ فى هذَا الْجُزْءِ ، فَيَغْمُرُ طَائِفَةً مِنْهُ إِلَى الْجَنُوبِ حَتَّى يُزَاحِمَ طَرَفَهُ الْأَعْلَى ، وَيَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ آخِرِ الْجُزْءِ قِفَارٌ ، تَجُولُ فِيهَا الْعَرَبُ .

وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا بِلَادُ الْفَيُّومِ ، وَهِىَ عَلَى مَصَبِّ أَحَدِ الشُّعْبَتَيْنِ مِنَ النِّيلِ الَّذِى يَمُرُّ عَلَى اللَّاهُونِ مِنْ بِلَادِ الصَّعِيدِ فى الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّانِى ، وَيَصُبُّ فى بُحَيْرَةِ فَيُّومَ[1] وَعَلَى سَمْتِهِ شَرْقًا أَرْضُ مِصْرَ ، وَمَدِينَتُهَا الشَّهِيرَةُ عَلَى الشُّعْبِ الثَّانِى الَّذِى يَمُرُّ بِدِلَاصٍ مِنْ بِلَادِ الصَّعِيدِ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ الثَّانِى .

وَيَفْتَرِقُ هذَا الشُّعْبُ افْتِرَاقَةً ثَانِيَةً ، مِنْ تَحْتِ مِصْرَ عَلَى شُعْبَتَيْنِ آخَرَيْنِ ، مِنْ شُطْنُوفَ ، وَزِفْتَى ، وَيَنْقَسِمُ الْأَيْمَنُ مِنْهُمَا مِنْ قُرْمُطَ بِشُعْبَتَيْنِ آخَرَيْنِ ، وَيَصُبُّ جَمِيعُهَا فى الْبَحْرِ الرُّومِىِّ ، فَعَلَى مَصَبِّ الْغَرْبِىِّ مِنْ هذَا الشُّعْبِ بَلَدُ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَعَلَى مَصَبِّ الْوَسَطِ بَلَدُ رَشِيدَ ، وَعَلَى مَصَبِّ الشَّرْقِىِّ بَلَدُ دِمْيَاطَ ، وَبَيْنَ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةِ وَبَيْنَ هذه السَّوَاحِلِ الْبَحْرِيَّةِ أَسَافِلُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ كُلُّهَا مَحْشُوَّةٌ عُمْرَانًا وَفَلَجًا[2] .

---

(١) بحيرة قارون .

(٢) بمعنى فلح الأرض وإعدادها للزراعة .

وَفِى الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْ هٰذَا الإِقْلِيمِ بِلَادُ الشَّامِ ، وَأَكْثَرُهَا عَلَى مَا أَصِفُ وَذٰلِكَ لأَنَّ بَحْرَ الْقُلْزُمِ يَنْتَهِى مِنَ الْجَنُوبِ وَفِى الْغَرْبِ مِنْهُ عِنْدَ السُّوَيْسِ ،لأَنَّهُ فى مَمَرِّهِ مُبْتَدِئٌ مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِىِّ إِلَى الشَّمَالِ ، يَنْعَطِفُ آخِذًا إِلَى جِهَةِ الْغَرْبِ فَتَكُونُ قِطْعَةٌ مِنِ انْعِطَافِهِ فى هٰذَا الْجُزْءِ طَوِيلَةٌ ، فَيَنْتَهِى فى الطَّرَفِ الْغَرْبِىِّ مِنْهُ إِلَى السُّوَيْسِ .

وَعَلَى هٰذِهِ الْقِطْعَةِ بَعْدَ السُّوَيْسِ فَارَانُ ثُمَّ جَبَلُ الطُّورِ ، ثُمَّ أَيْلَةُ[1] مَدْيَنَ ، ثُمَّ الْحَوْرَاءُ فى آخِرِهَا ، وَمِنْ هُنَالِكَ يَنْعَطِفُ بِسَاحِلِهِ إِلَى الْجَنُوبِ فى أَرْضِ الْحِجَازِ كَمَا مَرَّ فى الإِقْلِيمِ الثَّانِى فى الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ .

وَفِى النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِىِّ غَمَرَتْ كَثِيرًا مِنْ غَرْبِيِّهِ عَلَيْهَا الْفَرَمَا ، وَالْعَرِيشُ ، وَقَارَبَ طَرَفُهَا بَلَدَ الْقُلْزُمِ ، فَيَضَايِقُ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ هُنَالِكَ ، وَبَقِىَ شِبْهُ الْبَابِ مُفْضِيًا إِلَى أَرْضِ الشَّامِ ، وَفِى غَرْبِىِّ هٰذَا الْبَابِ فَحْصُ التِّيهِ ، أَرْضٌ جَرْدَاءُ لا تُنْبِتُ ، كَانَتْ مَجَالاً لِبَنِى إِسْرَائِيلَ ، بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ ، وَقَبْلَ دُخُولِهِمْ إِلَى الشَّامِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، كَمَا قَصَّهُ الْقُرْآنُ

وَفِى هٰذِهِ الْقِطْعَةِ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِىِّ ، فى هٰذَا الْجُزْءِ ، طَائِفَةٌ مِنْ جَزِيرَةِ قُبْرُصَ ، وَبَقِيَّتُهَا فى الإِقْلِيمِ الرَّابِعِ ، كَمَا نَذْكُرُهُ وَعَلَى سَاحِلِ هٰذِهِ الْقِطْعَةِ عِنْدَ الطَّرَفِ الْمُتَضَايِقِ لِبَحْرِ السُّوَيْسِ بَلَدُ الْعَرِيشِ ، وَهُوَ آخِرُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَعَسْقَلَانُ وَبَيْنَهُمَا طَرَفُ هٰذَا الْبَحْرِ .

ثُمَّ تَنْحَطُّ هٰذِهِ الْقِطْعَةُ فى انْعِطَافِهَا مِنْ هُنَالِكَ إِلَى الإِقْلِيمِ الرَّابِعِ عِنْدَ طَرَابُلُسَ وَغَزَّةَ ، وَهُنَالِكَ يَنْتَهِى الْبَحْرُ الرُّومِىُّ فى جِهَةِ الشَّرْقِ ، وَعَلَى هٰذِهِ الْقِطْعَةِ أَكْثَرُ سَوَاحِلِ الشَّامِ ، فَفِى شَرْقِهِ غَزَّةُ ، ثُمَّ عَسْقَلَانُ وَبِانْحِرَافٍ يَسِيرٍ عَنْهَا إِلَى الشَّمَالِ بَلَدُ قَيْسَارِيَّةَ ، ثُمَّ كَذٰلِكَ بَلَدُ عَكَّاءَ ، ثُمَّ صُورُ ثُمَّ صَيْدَاءُ ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ الْبَحْرُ إِلَى الشَّمَالِ فى الإِقْلِيمِ الرَّابِعِ .

وَيُقَابِلُ هٰذِهِ الْبِلَادَ السَّاحِلِيَّةَ مِنْ هٰذِهِ الْقِطْعَةِ فى هٰذَا الْجُزْءِ جَبَلٌ عَظِيمٌ يَخْرُجُ مِنْ سَاحِلِ أَيْلَةَ ، مِنْ بَحْرِ الْقُلْزُمِ وَيَذْهَبُ فى نَاحِيَةِ الشَّمَالِ مُنْحَرِفًا إِلَى الشَّرْقِ إِلَى أَنْ يُجَاوِزَ هٰذَا الْجُزْءَ ، وَيُسَمَّى جَبَلَ اللُّكَامِ ، وَكَأَنَّهُ حَاجِزٌ بَيْنَ أَرْضِ مِصْرَ وَالشَّامِ فَفِى طَرَفِهِ عِنْدَ أَيْلَةَ الْعَقَبَةُ الَّتِى يَمُرُّ عَلَيْهَا الْحُجَّاجُ مِنْ مِصْرَ إِلَى مَكَّةَ ، ثُمَّ بَعْدَهَا فى نَاحِيَةِ الشَّمَالِ مَدْفَنُ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِنْدَ جَبَلِ السَّرَاةِ ، يَتَّصِلُ مِنْ عِنْدِ جَبَلِ اللُّكَامِ الْمَذْكُورِ مِنْ شَمَالِ الْعَقَبَةِ ذَاهِبًا عَلَى سَمْتِ الشَّرْقِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ قَلِيلاً .

وَفِى شَرْقِهِ هُنَالِكَ بَلَدُ الْحِجْرِ ، وَدِيَارُ ثَمُودَ وَتَيْمَاءُ وَدُومَةُ الْجَنْدَلِ ، وَهِىَ أَسَافِلُ الْحِجَازِ ، وَفَوْقَهَا جَبَلُ رَضْوَى ، وَحُصُونُ خَيْبَرَ فى جِهَةِ الْجَنُوبِ عَنْهَا .

---

(١) ميناء إيلات المعروف الآن .

وَفِيمَا بَيْنَ جَبَلِ السَّرَاةِ وَبَحْرِ الْقُلْزُمِ صَحْرَاءُ تَبُوكَ ، وَفِى شَمَالِ جَبَلِ السَّرَاةِ مَدِينَةُ الْقُدْسِ ، عِنْدَ جَبَلِ اللُّكَامِ ، ثُمَّ الْأُرْدُنُّ ، ثُمَّ طَبَرِيَّةُ وَفِى شَرْقِيِّهَا بِلَادُ الْغَوْرِ إِلَى أَذْرِعَاتٍ ، وَفِى سَمْتِهَا شَرْقًا دُومَةُ الْجَنْدَلِ آخِرَ هٰذَا الْجُزْءِ وَهِىَ آخِرُ الْحِجَازِ .

وَعِنْدَ مُنْعَطَفِ جَبَلِ اللُّكَامِ إِلَى الشَّمَالِ مِنْ آخِرِ هٰذَا الْجُزْءِ مَدِينَةُ دِمَشْقَ ، مُقَابِلَةَ صَيْدَا ، وَبَيْرُوتَ مِنَ الْقِطْعَةِ الْبَحْرِيَّةِ وَجَبَلُ اللُّكَامِ ، يَعْتَرِضُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا ، وَعَلَى سَمْتِ دِمَشْقَ فِى الشَّرْقِ مَدِينَةُ بَعْلَبَكَّ ، ثُمَّ مَدِينَةُ حِمْصَ فِى الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ آخِرَ الْجُزْءِ عِنْدَ مُنْقَطَعِ جَبَلِ اللُّكَامِ ، وَفِى الشَّرْقِ عَنْ بَعْلَبَكَّ وَحِمْصَ بَلَدُ تَدْمُرَ ، وَمَجَالَاتُ الْبَادِيَةِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ .

وَفِى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ أَعْلَاهُ مَجَالَاتُ الْأَعْرَابِ تَحْتَ بِلَادِ نَجْدٍ وَالْيَمَامَةِ مَا بَيْنَ جَبَلِ الْعَرْجِ ، وَالصَّمَّانِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ وَهَجَرَ ، عَلَى بَحْرِ فَارِسَ وَفِى أَسَافِلِ هٰذَا الْجُزْءِ تَحْتَ الْمَجَالَاتِ بَلَدُ الْحِيرَةِ ، وَالْقَادِسِيَّةِ وَمَغَايِضِ الْفُرَاتِ . وَفِيمَا بَعْدَهَا شَرْقًا مَدِينَةُ الْبَصْرَةِ ، وَفِى هٰذَا الْجُزْءِ يَنْتَهِى بَحْرُ فَارِسَ عِنْدَ عَبَّادَانَ وَالْأُبُلَّةِ ، مِنْ أَسَافِلِ الْجُزْءِ مِنْ شَمَالِهِ وَيَنْصَبُّ فِيهِ عِنْدَ عَبَّادَانَ نَهْرُ دِجْلَةَ بَعْدَ أَنْ يَنْقَسِمَ بِجَدَاوِلَ كَثِيرَةٍ وَتَخْتَلِطَ بِهِ جَدَاوِلُ أُخْرَى مِنَ الْفُرَاتِ ، ثُمَّ تَجْتَمِعُ كُلُّهَا عِنْدَ عَبَّادَانَ ، وَتَصُبُّ فِى بَحْرِ فَارِسَ .

وَهٰذِهِ الْقِطْعَةُ مِنَ الْبَحْرِ مُتَّسِعَةٌ فِى أَعْلَاهُ مُتَضَايِقَةٌ فِى آخِرِهِ ، فِى شَرْقِيِّهِ ، وَضَيِّقَةٌ عِنْدَ مُنْتَهَاهُ ، مُضَايِقَةٌ لِلْحَدِّ الشَّمَالِىِّ مِنْهُ ، وَعَلَى عُدْوَتِهَا الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ أَسَافِلُ الْبَحْرَيْنِ ، وَهَجَرُ ، وَالْإِحْسَاءُ ، وَفِى غَرْبِهَا أَخْطَبُ ، وَالصَّمَّانُ ، وَبَقِيَّةُ أَرْضِ الْيَمَامَةِ ، وَعَلَى عُدْوَتِهِ الشَّرْقِيَّةِ سَوَاحِلُ فَارِسَ مِنْ أَعْلَاهَا وَهُوَ مِنْ عِنْدِ آخِرِ الْجُزْءِ مِنَ الشَّرْقِ عَلَى طَرَفٍ قَدِ امْتَدَّ مِنْ هٰذَا الْبَحْرِ مُشَرِّقًا وَوَرَاءَهُ إِلَى الْجَنُوبِ فِى هٰذَا الْجُزْءِ جِبَالُ الْقُفْصِ مِنْ كَرْمَانَ .

وَتَحْتَ هُرْمُزَ بِلَادُ فَارِسَ مِثْلَ سَابُورَ ، وَدَارَابْجَرْدَ ، وَنَسَا ، وَإِصْطَخْرَ ، وَالشَّاهِجَانِ ، وَشِيرَازَ ، وَهِىَ قَاعِدَتُهَا كُلِّهَا .

وَتَحْتَ بِلَادِ فَارِسَ إِلَى الشَّمَالِ عِنْدَ طَرَفِ الْبَحْرِ ، بِلَادُ خُوزِسْتَانَ وَمِنْهَا الْأَهْوَازُ ، وَتُسْتَرُ ، وَصَدَى وَسَابُورُ ، وَالسُّوسُ ، وَرَامَ هُرْمُزَ ، وَغَيْرُهَا ، وَأَرَّجَانُ وَهِىَ حَدُّ مَا بَيْنَ فَارِسَ وَخُوزِسْتَانَ ، وَفِى شَرْقِ بِلَادِ خُوزِسْتَانَ جِبَالُ الْأَكْرَادِ مُتَّصِلَةٌ إِلَى نَوَاحِى أَصْبَهَانَ ، وَبِهَا مَسَاكِنُهُمْ ، وَمَجَالَاتُهُمْ وَرَاءَهَا فِى أَرْضِ فَارِسَ ، وَتُسَمَّى الرُّسُومَ .

وَفِى الْجُزْءِ السَّابِعِ فِى الْأَعْلَى مِنْهُ مِنَ الْمَغْرِبِ بَقِيَّةُ جِبَالِ الْقُفْصِ ، وَيَلِيهَا مِنَ الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ بِلَادُ كَرْمَانَ ، وَمَكْرَانَ ، وَمِنْ مُدُنِهَا الرُّودَنُ ، وَالشِّيرَجَانُ ، وَجِيرَفْتُ وَيَزْدَشِيرُ وَالْبَهْرَجُ . وَتَحْتَ أَرْضِ كَرْمَانَ إِلَى الشَّمَالِ بَقِيَّةُ بِلَادِ فَارِسَ إِلَى حُدُودِ أَصْبَهَانَ ، وَمَدِينَةُ أَصْبَهَانَ فِى طَرَفِ هٰذَا الْجُزْءِ مَا بَيْنَ غَرْبِهِ وَشَمَالِهِ .

ثُمَّ فِى الْمَشْرِقِ عَنْ بِلَادِ كَرْمَانَ وَبِلَادِ فَارِسَ أَرْضُ سِجِسْتَانَ ، وَكُوهَسْتَانَ ، فِى الْجَنُوبِ ، وَأَرْضُ كُوهَسْتَانَ فِى الشَّمَالِ غَرْبًا وَيَتَوَسَّطُ بَيْنَ كَرْمَانَ

وَفَارِسَ ، وَبَيْنَ سِجِسْتَانَ وَكُوهَسْتَانَ ، وفى وَسَط هٰذَا الْجُزْءِ الْمَفَاوِزُ العظمى الْقَلِيلَةُ الْمَسَالِكِ لِصُعُوبَتِهَا ، وَمِنْ مُدُنِ سِجِسْتَانَ بَسْت ، والطَّاق. وأَمَّا كُوهَسْتَانُ فَهِىَ مِنْ بِلَادِ خرَاسَان ،ومِن مشاهِيرِ بِلَادِهَا سَرْخَس ، وَقُوهَسْتَانُ آخِرَ الْجُزْءِ .

وَفِى الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ غَرْبِهِ وَجَنُوبِهِ مَجَالَاتُ الْخَلَجِ ، مِنْ أُمَمِ التُّرْكِ مُتَّصِلَةٌ بِأَرْضِ سِجِسْتَانَ مِنْ غَرْبِهَا ، وبِأَرْضِ كَابِلِ الْهِنْدِ مِنْ جَنُوبِهَا . وَفِى الشَّمَالِ عَنْ هٰذِهِ الْمَجَالَاتِ جِبَالُ الْغُورِ ، وَبِلَادُهَا وَقَاعِدَتُهَا غَزْنَةُ : فرضَة الْهِنْدِ .

وفى آخِرِ الْغُورِ مِنَ الشَّمَالِ بِلَادُ أَسْتَرَابَاذَ ، ثُمَّ فِى الشَّمَالِ غَرْبًا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ بِلَادُ هَرَاتَ أَوْسَطَ خُرَاسَانَ . وَبِهَا أَسْفَرَايِنُ وَقَاشَانُ وَبُوشَنْجُ وَمَرْوُ الرُّوذِ ، وَالطَّالقَانُ وَالْجُوزْجَانُ .

وَتَنْتَهِى خُرَاسَانُ هُنَالِكَ إِلَى نَهرِ جَيْحُونَ. وَعَلَى هَذَا النَّهرِ مِنْ بِلَادِ خرَاسَانَ مِنْ غَرْبِيِّهِ مَدِينَةُ بَلْخ وَفِى شَرْقِيِّهِ مَدِينَةُ تِرْمِذَ ، وَمَدِينَةُ بَلْخ كَانَتْ كُرْسِيَّ مَمْلَكَةِ التُّرْكِ .

وَهٰذَا النَّهْرُ نَهرَ جَيْحُونَ مَخْرَجُهُ مِنْ بِلَادِ وَجَّارَ فِى حُدُودِ بَذَخْشَانَ ، مِمَّا يَلِى الْهِنْدَ .

وَيَخْرُجُ مِنْ جَنُوبِ هٰذَا الْجُزْءِ وَعِنْدَ آخِرِهِ مِنَ الشَّرْقِ ، فَيَنْعَطِفُ عَنْ قُرْبٍ مُغَرِّبًا إِلى وَسَطِ الْجُزْءِ وَيُسَمَّى هُنَالِكَ نَهرَ خَرْنَابَ ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَمُرَّ بِخرَاسَانَ وَيَذْهَبُ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ يَصُبَّ فِى بُحَيْرَةِ خوارزمَ فِى الإِقْلِيمِ الْخَامِسِ كَمَا نَذْكُرُهُ .

وَيُمِدُّهُ عِنْدَ انْعِطَافِهِ فِى وَسَطِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ خَمْسَةُ أَنْهَارٍ عَظِيمَةٌ مِنْ بِلَادِ الْخُتَّلِ وَالْوَخْشِ مِن شَرْقِيِّهِ ،وَأَنْهَارٌ أُخرَى مِنْ جِبَالِ الْبُتَّمِ مِنْ شَرْقِيِّهِ أَيْضاً وَجَوْفِى الْجَبَلِ حَتَّى يَتَّسِعَ وَيَعْظُمَ بِمَا لَا كِفَاءَ لَهُ .

وَمِنْ هٰذِهِ الأَنْهَارِ الْخَمْسَةِ الْمُمِدَّةِ لَهُ نَهْرُ وَخْشَابَ يَخْرُجُ مِنْ بِلَادِ التُّبَّتِ ، وَهِىَ بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ فَيَمُرُّ مُغَرِّبًا بِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ قَرِيبًا مِنْ شَمَالِ هٰذَا الْجُزْءِ يَعْتَرِضُهُ فى طَرِيقِهِ جَبَلٌ عَظِيمٌ ، يَمُرُّ مِنْ وَسَطِ الْجَنُوبِ فى هٰذَا الْجُزْءِ وَيَذْهَب مُشَرِّقًا بِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ قَرِيبًا مِنْ شَمَالِ هٰذَا الْجُزْءِ ، فَيَجُوزُ بِلَادَ التُّبَّتِ إِلَى الْقِطْعَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ ، وَيَحُولُ بَيْنَ التُّرْكِ وَبَيْنَ بِلَادِ «الْخُتَّلِ» ، وَلَيْسَ فِيهِ إِلَّا مَسْلَكٌ وَاحِدٌ فِى وَسَطِ الشَّرْقِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ ، جَعَلَ فِيهِ الْفَضْلُ ابْنُ يَحْيَى سَدًّا وَبَنَى فِيهِ بَابًا كَسَدِّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ .

فَإِذَا خَرَجَ نَهْرُ «وَخْشَابَ» مِنْ بِلَادِ التُّبَّتِ وَاعْتَرَضَهُ هٰذَا الْجَبَلُ فَيَمُرُّ تَحْتَهُ فى مَدًى بَعِيدٍ إِلَى أَنْ يَمُرَّ فى بِلَادِ الْوَخْشِ ، وَيَصُبَّ فى نَهرِ جَيْحُونَ عِنْدَ حُدُودِ بَلْخَ ، ثُمَّ يَمُرُّ هَابِطًا إِلَى التِّرْمِذِ فِى الشَّمَالِ إِلَى بِلَادِ الْجُوزْجَانِ .

وَفى الشَّرْقِ عَنْ بِلَادِ الْغُورِ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ نَهْرِ جَيْحُونَ بِلَادُ النَّاسَانِ مِنْ خُرَاسَانَ ، وَفِى الْعُدْوَةِ الشَّرْقِيَّةِ هُنَالِكَ مِنَ النَّهرِ بِلَادُ الْخُتَّلِ وَأَكْثَرُهَا جِبَالٌ ، وَبِلَادُ الْوَخْشِ ، وَيَحُدُّهَا مِنْ

جهة الشمال جبال البتم، تخرج من طرف خراسان غربي نهر جيحون، وتذهب مشرقة إلى أن يتصل طرفها بالجبل العظيم الذي خلفه بلاد التبت، ويمر تحته نهر وخشاب كما قلناه فيتصل به عند باب الفضل بن يحيى.

ويمر نهر جيحون بين هذه الجبال وأنهار أخرى، تصب فيه، منها: نهر بلاد الوخش يصب فيه من الشرق تحت الترمذ إلى جهة الشمال،

ونهر بلخ يخرج من جبال البتم مبدؤه عند الجوزجان ويصب فيه من غربيه.

وعلى هذا النهر من غربيه بلاد «آمد» من خراسان وفي شرقي النهر من هنالك أرض الصغد، وأسر وشنة من بلاد الترك، وفي شرقها أرض فرغانة أيضا إلى آخر الجزء شرقا، وكل بلاد الترك، تحوزها جبال البتم إلى شمالها.

وفي الجزء التاسع من غربه أرض التبت إلى وسط الجزء، وفي جنوبيها بلاد الهند. وفي شرقيها بلاد الصين، إلى آخر الجزء، وفي أسفل هذا الجزء شمالا عن بلاد التبت بلاد الخزلجية من بلاد الترك إلى آخر الجزء شرقا وشمالا، ويتصل بها من غربيها أرض فرغانة أيضا إلى آخر الجزء شرقا، ومن شرقيها أرض التغزغز من الترك إلى الجزء شرقا وشمالا.

وفي الجزء العاشر في الجنوب منه جميعا بقية الصين، وأسافله، وفي الشمال بقية بلاد التغزغز، ثم شرقا عنهم بلاد خرخير، من الترك أيضا إلى آخر الجزء شرقا.

وفي الشمال من أرض خرخير، بلاد كتمان من الترك، وقبالتها في البحر المحيط جزيرة الياقوت في وسط جبل مستدير لا منفذ منه إليها ولا مسلك، والصعود إلى أعلاه من خارجه صعب في الغاية وفي الجزيرة حيات قتالة وحصى من الياقوت كثيرة، فيحتال أهل تلك الناحية بما يلهمهم الله إليه.

وأهل هذه البلاد في هذا الجزء التاسع والعاشر فيما وراء خراسان، والجبال كلها مجالات للترك: أمم لا تحصى وهم ظواعن(١) رحالة أهل إبل وشاء وبقر وخيل للنتاج، وللركوب والأكل، وطوائفهم كثيرة، لا يحصيهم إلا خالقهم، وفيهم مسلمون، مما يلي بلاد النهر نهر جيحون، ويغزون الكفار منهم الدائنين بالمجوسية، فيبيعون رقيقهم لمن يليهم ويخرجون إلى بلاد خراسان، والهند، والعراق.

الإقليم الرابع

يتصل بالثالث من جهة الشمال. والجزء الأول منه في غربيه قطعة من البحر المحيط، مستطيلة، من أوله جنوبا إلى آخره شمالا، وعليها في الجنوب مدينة طنجة، ومن هذه القطعة تحت طنجة من المحيط، إلى البحر الرومي، في خليج متضايق بمقدار اثني عشر ميلا، ما بين طريف، والجزيرة الخضراء شمالا، وقصر المجاز وسبتة جنوبا، ويذهب مشرقا إلى أن ينتهي إلى وسط الجزء الخامس من هذا الإقليم، وينفسح في ذهابه بتدريج إلى أن يغمر الأربعة الأجزاء،

(١) ظواعن: يكثرون التنقل وفيها معنى رحالة.

وأَكْثَرَ الْخَامِسِ مِنْ هٰذَا الإِقْلِيمِ الثَّالِثِ وَالْخَامِسِ كَمَا سَنَذْكُرُهُ .

وَيُسَمَّى هٰذَا الْبَحْرُ الْبَحْرَ الشَّامِىَّ[1] أيضاً ، وَفِيهِ جَزَائِرُ كَثِيرَةٌ ، أَعْظَمُهَا فى جِهَةِ الْغَرْبِ يَابِسَةُ ثُمَّ مَايَرْقَةُ ، ثُمَّ مِنرَقَةُ ، ثُمَّ سَرْدَانِيَةُ ، صِقِلِّيَةُ ، وَهِيَ أَعْظَمُهَا ثُمَّ بَلُونِسُ ، ثُمَّ أَقْرِيطِشُ ثُمَّ قُبْرُصُ كَمَا نَذْكُرُهَا كُلَّهَا فِى أَجْزَائِهَا الَّتِي وَقَعَتْ فِيهَا .

وَيَخْرُجُ مِنْ هٰذَا الْبَحْرِ الرُّومِىِّ[2] عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ الثَّالِثِ مِنْهُ ، وَفِى الْجُزْءِ الثَّالِثِ مِنَ الإِقْلِيمِ الْخَامِسِ ، خَلِيجُ الْبَنَادِقَةِ يَذْهَبُ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّمَالِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ عِنْدَ وَسَطِ الْجُزْءِ مِنْ جَوْفِهِ ، وَيَمُرُّ مُغَرِّبًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ فِى الْجُزْءِ الثَّانِى مِنَ الْخَامِسِ .

وَيَخْرُجُ مِنْهُ أَيْضاً فِى آخِرِ الْجُزْءِ الرَّابِعِ شَرْقًا مِنَ الإِقْلِيمِ الْخَامِسِ خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، يَمُرُّ فِى الشَّمَالِ مُتَضَايِقًا فى عَرْضِ رَمْيَةِ السَّهْمِ إِلَى آخِرِ الإِقْلِيمِ ثُمَّ يُفْضِى إِلَى الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ الإِقْلِيمِ السَّادِسِ ، وَيَنْعَطِفُ إِلَى بَحْرِ بَنْطَشَ[2] ، ذَاهِبًا إِلَى الشَّرْقِ فِى الْجُزْءِ الْخَامِسِ كُلِّهِ وَنِصْفَ السَّادِسِ مِنَ الإِقْلِيمِ السَّادِسِ ، كَمَا نَذْكُرُ ذٰلِكَ فِى أَمَاكِنِهِ .

وَعِنْدَمَا يَخْرُجُ هٰذَا الْبَحْرُ الرُّومِىُّ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِى خَلِيجِ طَنْجَةَ ، وَيَنْفَسِحُ إِلَى الإِقْلِيمِ الثَّالِثِ يَبْقَى فِى الْجَنُوبِ عَنِ الْخَلِيجِ قِطْعَةٌ صَغِيرَةٌ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ ، فِيهَا مَدِينَةُ طَنْجَةَ عَلَى مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ ، وَبَعْدَهَا مَدِينَةُ سَبْتَةَ عَلَى الْبَحْرِ الرُّومِىِّ ، ثُمَّ قَطَاوُنُ[3] ، ثُمَّ بَادِيسُ ، ثُمَّ يَغْمُرُ هٰذَا الْبَحْرُ بَقِيَّةَ هٰذَا الْجُزْءِ شَرْقًا ، وَيَخْرُجُ إِلَى الثَّالِثِ

وَأَكْثَرُ الْعِمَارَةِ فِى هٰذَا الْجُزْءِ فِى شَمَالِهِ الْخَلِيجِ مِنْهُ وَهِيَ كُلُّهَا بِلَادُ الأَنْدَلُسِ الْغَرْبِيَّةُ ، مِنْهَا مَا بَيْنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ ، وَالْبَحْرِ الرُّومِىِّ ، أَوَّلُهَا طَرِيفُ عِنْدَ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ ، وَفِى الشَّرْقِ مِنْهَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِىِّ ، الْجَزِيرَةُ الْخَضْرَاءُ ثُمَّ مَالِقَةُ ، ثُمَّ الْمُنَقَّبُ ، ثُمَّ الْمِرِيَّةُ .

وَتَحْتَ هٰذِهِ مِنْ لَدُنِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ غَرْبًا ، وَعَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْهُ شَرِيشُ ، ثُمَّ لَبْلَةُ ، وَقُبَالَتَهَا فِيهِ جَزِيرَةُ قَادِسَ ، وَفِى الشَّرْقِ عَنْ شَرِيشَ وَلَبْلَةَ ، إِشْبِيلِيَّةُ ، ثُمَّ أَسْتَجَةُ وَقُرْطُبَةُ وَمَدِيلَةُ ، ثُمَّ غَرْنَاطَةُ ، وَجَيَّانُ ، وَأُبَّدَةُ ، ثُمَّ وَادِيَاشُ وَبَسْطَةُ .

وَتَحْتَ هٰذِهِ شَنْتَمَرِيَّةُ وَشِلْبُ عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ غَرْبًا ، وَفِى الشَّرْقِ عَنْهُمَا بَطَلْيُوسُ ، وَمَارِدَةُ ، وَيَابِرَةُ ثُمَّ غَافِقُ ، وَبَزْجَالَةُ ، ثُمَّ قَلْعَةُ رِبَاحٍ .

وَتَحْتَ هٰذِهِ أُشْبُونَةُ عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ غَرْبًا وَعَلَى نَهْرِ بَاجَةَ ، وَفِى الشَّرْقِ عَنْهَا شَنْتَرِينُ ، وَمَوْزِيَّةُ عَلَى النَّهْرِ الْمَذْكُورِ ، ثُمَّ قَنْطَرَةُ السَّيْفِ .

وَيُسَامِتُ أُشْبُونَةَ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ ، جَبَلُ الشَّارَاتِ ، يَبْدَأُ مِنَ الْمَغْرِبِ هُنَالِكَ وَيَذْهَبُ مُشَرِّقًا مَعَ آخِرِ الْجُزْءِ مِنْ شَمَالِيهِ ، فَيَنْتَهِى إِلَى مَدِينَةِ سَالِمٍ ، فِيمَا بَعْدَ النِّصْفِ مِنْهُ وَتَحْتَ هٰذَا الْجَبَلِ طَلَبِيرَةُ فى الشَّرْقِ مِنْ فُورِنَةَ ، ثُمَّ طُلَيطِلَةُ ثُمَّ وَادِى الْحِجَارَةِ ، ثُمَّ مَدِينَةُ سَالِمٍ .

وَعِنْدَ أَوَّلِ هٰذَا الْجَبَلِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُشْبُونَةَ ، بَلَدُ قَلْمَرِيَّةَ وَهٰذِهِ غَرْبِىُّ الأَنْدَلُسِ .

---

(١) البحر الأبيض المتوسط .

(٢) البحر الأسود .

(٣) فى نسخة التيمورية ، تطاون بالتاء .

وأمّا شرقي الأندلس فعلى ساحل البحر الرومي منها بعد المرية قرطاجنة، ثم لقنتة، ثم دانية، ثم بلنسية إلى طرطوشة آخر الجزء في الشرق، وتحتها شمالا ليورقة وشقورة تتاخمان بسطة، وقلعة رياح من غرب الأندلس، ثم مرسية شرقا، ثم شاطبة تحت بلنسية شمالا، ثم شقر، ثم طرطوشة ثم طركونة آخر الجزء.

ثم تحت هذه شمالا أرض منجالة، وريدة متاخمان لشقورة وطليطلة من الغرب، ثم أفراغة شرقا تحت طرطوشة، وشمالا عنها، ثم في الشرق عن مدينة سالم قلعة أيوب، ثم سرقسطة، ثم لا ردة آخر الجزء شرقا وشمالا.

والجزء الثاني من هذا الإقليم غمر الماء جميعه، إلا قطعة من غربيه في الشمال، فيها بقية جبل البرنات، ومعناه جبل الثنايا والسالك يخرج إليه من آخر الجزء الأول من الإقليم الخامس يبدأ من الطرف المنتهي من البحر المحيط. عند آخر ذلك الجزء جنوبا وشرقا ويمر في الجنوب بانحراف إلى الشرق، فيخرج في هذا الإقليم الرابع منحرفا عن الجزء الأول منه إلى هذا الجزء الثاني فيقع فيه قطعة تفضي ثناياها إلى البر المتصل، وتسمى أرض غشكونية، وفيه مدينة خريدة، وقرقشونة وعلى ساحل البحر الرومي من هذه القطعة مدينة برسلونة، ثم أربونة وفي هذا البحر الذي غمر الجزء، جزائر كثيرة والكثير منها غير مسكون لصغرها ففي غربيه جزيرة سردانية، وفي شرقيه جزيرة صقلية متسعة الأقطار، يقال إن دورها سبعمائة ميل، وبها مدن كثيرة من مشاهيرها سرقوسة وبلرم وطرابغة ومازر ومسيني، وهذه الجزيرة تقابل أرض أفريقية، وفيما بينهما جزيرة أغدوش ومالطة.

والجزء الثالث من هذا الإقليم معمور أيضا بالبحر، إلا ثلاث قطع من ناحية الشمال الغربية، منها أرض قلورية والوسطى من أرض أنكبردة، والشرقية من بلاد البنادقة.

والجزء الرابع من هذا الإقليم معمور أيضا بالبحر، كما مر، وجزائره كثيرة وأكثرها غير مسكون كما في الثالث، والمعمور منها جزيرة بكونس في الناحية الغربية الشمالية، وجزيرة أقريطش مستطيلة من وسط الجزء إلى ما بين الجنوب والشرق منه.

والجزء الخامس من هذا الإقليم، غمر البحر منه مثلثة كبيرة بين الجنوب والغرب وينتهي الضلع الغربي منها إلى آخر الجزء في الشمال، وينتهي الضلع الجنوبي منها إلى نحو الثلثين من الجزء ويبقى في الجانب الشرقي من الجزء قطعة نحو الثلث يمر الشمالي منها الغرب منعطفا إلى الغرب منعطفا مع البحر كما قلناه.

وفي النصف الجنوبي منها أسافل الشام ويمر في وسطها جبل اللكام إلى أن ينتهي إلى آخر الشام في الشمال، فينعطف من هنالك ذاهبا إلى القطر الشرقي الشمالي، ويسمى بعد انعطافه جبل السلسلة ومن هنالك يخرج إلى

الأقليم الْخَامِسِ ، ويَجُوزُ مِنْ عِنْدِ مُنْعَطَفِهِ قِطعة مِن بِلادِ الْجَزِيرَةِ إِلَى جهةِ الشَّرْق

ويَقومُ مِنْ عِنْدِ مُنْعَطَفِهِ مِنْ جهةِ الْمَغْرِب جبالٌ مُتَّصلةٌ بَعْضُها بِبَعْضٍ إِلَى أَنْ يَنْتَهِى إِلَى طَرَف خارِجٍ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومى ، مُتَأَخِّرٍ إِلَى آخر الْجُزْء مِنَ الشَّمَال ، وبَيْنَ هٰذِهِ الْجبالِ ثَنايا ، تُسمى الدُّروب وهِيَ الَّتى تفضى إِلَى بِلادِ الْأَرْمَنِ ، وفى هٰذا الجُزْء قِطعَةٌ مِنْها بَيْنَ هٰذِهِ الْجِبالِ ، وبَيْنَ جَبَلِ السِّلْسِلَةِ .

فَأَمَّا الْجِهَةُ الْجَنُوبِيَّةُ الَّتى قَدَّمْنا أَنَّ فيها فيهَا أَسافِلَ الشَّامِ ، وأَنَّ جَبَلَ اللّكام مُعْتَرِضٌ فيها بَيْنَ الْبَحْرِ الرُّومى ، وآخرِ الْجُزْء مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَال ، فَعَلَى ساحِلِ الْبَحْرِ بَلَدُ أَنْطَرْطُوس فى أَوَّلِ الْجُزْء مِنَ الْجَنُوبِ ، مُتاخِمةٌ لِغَزَّة وطَرابُلس عَلَى سَاحِلِهِ مِنَ الإِقْلِيمِ الثَّالِثِ ، وفى شَمَال أَنْطَرْطُوسَ جَبْلَةُ ثُمَّ اللَّاذِقِيَّةُ ثُمَّ إِسْكَنْدَرُونَةُ ، ثُمَّ سَلُوقِيَّةُ وبَعْدَها شَمالاً بِلادُ الرُّومِ .

وأَمَّا جَبَلُ اللُّكامِ الْمُعْتَرِضُ بَيْنَ الْبَحْرِ وآخرِ الجُزْء بِحافاتِهِ ، فَيُصاقِبُهُ مِنْ بِلادِ الشَّام مِنْ أَعْلَى الْجُزْء جَنُوبًا مِنْ غَرْبِيِّهِ حصْنُ الْحَوانى وهُوَ لِلْحَشِيشَةِ الْإِسْماعِيلِيَّةِ ، ويُعْرَفُونَ لِهٰذَا الْعَهْدِ بِالْفداوِيَّةِ ، ويُسَمَّى مِصْيات ، وهُوَ قُبالَةَ أَنْطَرْطُوسَ .

وقُبالَةَ هٰذَا الْحُصْنِ فى شَرْقِ الْجَبَلِ بَلَدُ سَلَمِيَّةَ فى الشَّمالِ عَنْ حِمْصٍ ، وفى الشَّمالِ وفى مِصْيات بَيْنَ الْجَبَلِ والْبَحْرِ ، بَلَدُ أَنطاكِيَةَ ، ويُقابِلُها فى شَرْقِ الْجَبَلِ «الْمَعَرَّة» ، وفى شَرْقِها الْمَراغَة وفى شَمالِ أَنْطاكِيَةَ الْمَصِيصَةُ ، ثُمَّ أَذَنَةُ ، ثُمَّ طَرَسُوسُ آخرَ الشَّامِ ، ويُحاذيها مِنْ غَرْبِ الْجَبَلِ قِنَّسْرِينُ ثُمَّ عَيْنُ زُرْبَةَ ، وقُبالَةَ قِنَّسْرِينَ فى شَرْقِ الْجَبَلِ حَلَبُ ، ويُقابِلُ عَيْنَ زرْبَةَ مَنْبجُ آخرَ الشَّامِ .

وأَمَّا الدُّرُوبُ فَعَنْ يَمينِها ما بَيْنَها وبَيْنَ الْبَحْرِ الرُّومى بِلادُ الرومِ الَّتى هِىَ لِهٰذَا الْعَهْدِ ، لِلتُّرْكُمانِ وسُلْطانُها ابْنُ عُثْمان ، وفى ساحِلِ الْبَحْرِ مِنْها بَلَدُ أَنْطاكِيَةَ والْعَلايَا

وأَمَّا بِلادُ الْأَرْمَنِ الَّتى بَيْنَ جَبَلِ الدُّرُوبِ ، وجَبَلِ السِّلْسِلَةِ فَفِيهَا بَلَدُ مَرْعَش ، ومَلَطِيَة ، والْمَعَرَّةُ إِلَى آخرِ الْجُزْء الشَّمالىِّ .

ويَخْرُجُ مِنَ الْجُزْء الْخَامِسِ فى بِلادِ الْأَرْمَنِ ، نَهْرُ جيحانَ ، ونَهْرُ سيحانَ فى شَرْقِيهِ فَيَمُرُّ بِها جيحانُ جَنُوبًا حَتَّى يَتَجاوزَ الدُّرُوبَ ، ثُمَّ يَمُرُّ بِطَرَسُوس ، ثُمَّ بِالْمَصِيصَةِ ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ هابِطًا إِلَى الشَّمالِ ، ومُغَرِّبًا حَتَّى يَصُب فى الْبَحْرِ الرُّومىِّ جَنُوبَ سَلُوقِيَّةَ.

ويَمُرُّ نَهْرُ سيحانَ مُوازِيًا لِنَهْرِ جيحانَ فَيُحاذِى الْمَعَرَّةَ ومَرْعَشَ ويَتَجاوزُ جبالَ الدُّرُوبِ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ ثُمَّ يَمُرُّ بِعَيْنِ زُرْبَةَ ، ويَجُوزُ عَنْ نَهْرِ جِيحانَ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الشَّمالِ مُغَرِّبًا فَيَخْتَلِطُ بِنَهْرِ جيحانَ عِنْدَ الْمَصِيصَةِ ، ومِنْ غَرْبِها .

وأَمَّا بِلادُ الْجَزِيرَةِ الَّتى يُحِيطُ بِها مُنْعَطَفُ جَبَلِ اللُّكام إِلَى جَبَلِ السِّلْسِلَةِ فَفى جَنوبِها بَلَدُ الرَّافِقَةِ والرَّقَّةُ ، ثُمَّ حَرَّانُ ، ثُمَّ سَرُوجُ والرَّها ثم نصيبينُ

ثُمَّ سَمِيسَاطُ وَآمِدُ تَحْتَ جَبَلِ السِّلْسِلَةِ ، وَآخِرُ الْجُزْءِ مِنْ شَمَالِهِ وَهُوَ أَيْضًا آخِرُ الْجُزْءِ مِنْ شَرْقِيِّهِ ، وَيَمُرُّ فِي وَسَطِ هٰذِهِ الْقِطْعَةِ نَهْرُ الْفُرَاتِ ، وَنَهْرُ دِجْلَةَ يَخْرُجَانِ مِنَ الإِقْلِيمِ الْخَامِسِ ، وَيَمُرَّانِ فِي بِلَادِ الْأَرْمَنِ جَنُوبًا إِلَى أَنْ يَتَجَاوَزَا جَبَلَ السِّلْسِلَةِ فَيَمُرُّ نَهْرُ الْفُرَاتِ مِنْ غَرْبِيِّ سَمِيسَاطَ وَسَرُوجَ ، وَيَنْحَرِفُ إِلَى الشَّرْقِ فَيَمُرُّ بِقُرْبِ الرَّافِضَةِ وَالرَّقَّةِ . وَيَخْرُجُ إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ ، وَيَمُرُّ دِجْلَةُ فِي شَرْقِ آمِدِ وَيَنْعَطِفُ قَرِيبًا إِلَى الشَّرْقِ فَيَخْرُجُ قَرِيبًا إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ .

وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هٰذَا الإِقْلِيمِ مِنْ غَرْبِيِّهِ بِلَادُ الْجَزِيرَةِ ، وَفِي الشَّرْقِ مِنْهَا بِلَادُ الْعِرَاقِ مُتَّصِلَةً بِهَا تَنْتَهِي فِي الشَّرْقِ إِلَى قُرْبِ آخِرِ الْجُزْءِ ، وَيَعْتَرِضُ مِنْ آخِرِ الْعِرَاقِ هُنَالِكَ جَبَلُ أَصْبَهَانَ هَابِطًا مِنْ جَنُوبِ الْجُزْءِ مُنْحَرِفًا إِلَى الْغَرْبِ فَإِذَا انْتَهَى إِلَى وَسَطِ الْجُزْءِ مِنْ آخِرِهِ فِي الشَّمَالِ يَذْهَبُ مُغَرِّبًا إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ ، وَيَتَّصِلَ عَلَى سَمْتِهِ بِجَبَلِ السِّلْسِلَةِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ فَيَنْقَطِعُ هذا الْجُزْءُ السَّادِسُ بِقِطْعَتَيْنِ غَرْبِيَّةٍ وَشَرْقِيَّةٍ ، فَفِي الْغَرْبِيَّةِ مِنْ جَنُوبِيِّهَا مَخْرَجُ الْفُرَاتِ مِنَ الْخَامِسِ ، وَفِي شَمَالِيِّهَا مَخْرَجُ دِجْلَةَ مِنْهُ ، أَمَّا الْفُرَاتُ : فَأَوَّلُ مَا يَخْرُجُ إِلَى السَّادِسِ يَمُرُّ بِقَرْقِيسِيَا ، وَيَخْرُجُ مِنْ هُنَالِكَ جَدْوَلٌ إِلَى الشَّمَالِ يَنْسَابُ فِي أَرْضِ الْجَزِيرَةِ وَيَغُوصُ فِي نَوَاحِيهَا ، وَيَمُرُّ مِنْ قَرْقِيسِيَا غَيْرَ بَعِيدٍ ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الْجَنُوبِ فَيَمُرُّ بِقُرْبِ الْخَابُورِ إِلَى غَرْبِ الرَّحْبَةِ ، وَيَخْرُجُ مِنْهُ جَدَاوِلُ مِنْ هُنَالِكَ يَمُرُّ جَنُوبًا ، وَيَبْقَى صِفِّينُ[1] فِي غَرْبِيِّهِ ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ شَرْقًا وَيَنْقَسِمُ بِشُعُوبٍ ، فَيَمُرُّ بَعْضُهَا بِالْكُوفَةِ وَبَعْضُهَا بِقَصْرِ ابْنِ هُبَيْرَةَ وَبِالْجَامِعَيْنِ ، وَتَخْرُجُ جَمِيعًا فِي جَنُوبِ الْجُزْءِ إِلَى الإِقْلِيمِ الثَّالِثِ فَيَغُوصُ هُنَالِكَ فِي شَرْقِ الْحِيرَةِ وَالْقَادِسِيَّةِ ، وَيَخْرُجُ الْفُرَاتُ مِنَ الرَّحْبَةِ مُشَرِّقًا عَلَى سَمْتِهِ إِلَى هِيتَ[2] شَمَالِيِّهَا ، وَيَمُرُّ إِلَى الزَّابِ وَالْأَنْبَارِ مِنْ جَنُوبِيِّهِمَا ، ثُمَّ يَصُبُّ فِي دِجْلَةَ عِنْدَ بَغْدَادَ .

وَأَمَّا نَهْرُ دِجْلَةَ فَإِذَا دَخَلَ مِنَ الْجُزْءِ الْخَامِسِ إِلَى هٰذَا الْجُزْءِ يَمُرُّ مُشَرِّقًا عَلَى سَمْتِهِ ، ومحاذيًا لِجَبَلِ السِّلْسِلَةِ المتصل بجبل العراق على سمته فيمر بِجَزِيرَةِ ابْنِ عُمَرَ ، عَلَى شَمَالِهَا ثُمَّ بِالْمَوْصِلِ كَذٰلِكَ وَتِكْرِيتَ وَيَنْتَهِي إِلَى الْحَدِيثَةِ ، فَيَنْعَطِفُ جَنُوبًا وَتَبْقَى الْحَدِيثَةُ فِي شَرْقِهِ ، وَالزَّابُ الْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ كَذٰلِكَ ، وَيَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ جَنُوبًا وَفِي غَرْبِ الْقَادِسِيَّةِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى بَغْدَادَ وَيَخْتَلِطَ بِالْفُرَاتِ ثُمَّ يَمُرُّ جَنُوبًا عَلَى غَرْبِ جَرْجَرَايَا إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْجُزْءِ إِلَى الإِقْلِيمِ الثَّالِثِ فَتَنْتَشِرُ هُنَالِكَ شُعُوبُهُ وَجَدَاوِلُهُ ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ وَيَصُبُّ هُنَالِكَ فِي بَحْرِ فَارِسَ عِنْدَ عَبَّادَانَ .

وَفِيمَا بَيْنَ نَهْرِ الدِّجْلَةِ وَالْفُرَاتِ قَبْلَ مَجْمَعِهِمَا بِبَغْدَادَ ، هِيَ بِلَادُ الْجَزِيرَةِ .

وَيَخْتَلِطُ بِنَهْرِ دِجْلَةَ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِ بِبَغْدَادَ نَهْرٌ آخَرُ يَأْتِي مِنَ الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْهُ ، وَيَنْتَهِي إِلَى

---

(١) اسم مكان بالعراق حدثت فيه موقعة « صفين » التاريخية الشهيرة .

(٢) فى القاموس هيت بكسر الهاء المعدودة بلد بالعراق .

بلاد النهروان قبالة بغداد شرقا ، ثم ينعطف جنوبا ويختلط بدجلة قبل خروجه إلى الإقليم الثالث ويبقى ما بين هذا النهر وبين جبل العراق والأعاجم بلد جلولاء وفي شرقها عند الجبل بلد حلوان وصيمرة .

وأما القطعة الغربية من الجزء فيعترضها جبل يبدأ من جبل الأعاجم مشرقا إلى آخر الجزء ، ويسمى جبل شهرزور ، ويقسمها بقطعتين في الجنوب من هذه القطعة الصغرى بلد خونجان من الغرب والشمال عن أصبهان ، وتسمى هذه القطعة بلد الهلوس وفي وسطها بلد نهاوند ، وفي شمالها بلد شهرزور غربا ، عند ملتقى الجبلين ، والدينور شرقا عند آخر الجزء .

وفي القطعة الصغرى الثانية طرف من بلاد أرمينية ، قاعدتها المراغة والذي يقابلها من جبل العراق ، يسمى باريا ، وهو مساكن للأكراد ، والزاب الكبير والصغير الذي على دجلة من ورائه . وفي آخر هذه القطعة من جهة الشرق بلاد أذربيجان ومنها تبريز ، والبيلقان ، وفي الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء قطعة من بحر بنطش[1] وهو بحر الخزر .

وفي الجزء السابع من هذا الإقليم من غربه وجنوبه معظم بلاد الهلوس وفيها همذان وقزوين وبقيتها في الإقليم الثالث ، وفيها هنالك أصبهان ، ويحيط بها من الجنوب جبل يخرج من غربها ويمر بالإقليم الثالث ، ثم ينعطف من الجزء السادس إلى الإقليم الرابع ، ويتصل بجبل العراق في شرقيه الذي مر ذكره هنالك ، وإنه محيط ببلاد الهلوس في القطعة الشرقية .

ويهبط هذا الجبل المحيط بأصبهان من الإقليم الثالث إلى جهة الشمال ، ويخرج إلى هذا الجزء السابع ، فيحيط ببلاد الهلوس من شرقها وتحته هنالك قاشان ثم ، «قم» . وينعطف في قرب النصف من طريقه مغربا بعض الشيء ، ثم يرجع مستديرا فيذهب مشرقا ومنحرفا إلى الشمال حتى يخرج إلى الاقليم الخامس

ويشتمل على منعطفه واستدارته على بلد الري في شرقيه ، ويبدأ من منعطفه جبل آخر يمر غربا إلى آخر هذا الجزء ، ومن جنوبه من هنالك قزوين ومن جانبه الشمالي وجانب جبل الري المتصل معه ذاهبا إلى الشرق والشمال ، إلى وسط الجزء ثم إلى الإقليم الخامس ، بلاد طبرستان فيما بين هذه الجبال وبين قطعة من بحر طبرلنان ويدخل من الإقليم الخامس في هذا الجزء في نحو النصف من غربه إلى شرقه ويعترض عند جبل الري .

وعند انعطافه إلى الغرب جبل متصل يمر على سمته مشرقا وبانحراف قليل إلى الجنوب حتى يدخل في الجزء الثامن من غربه ، ويبقى بين جبل الري وهذا الجبل من عند مبدئهما بلاد جرجان فيما بين الجبلين ومنها بسطام .

ووراء هذا الجبل قطعة من هذا الجزء ، فيها بقية المفازة التي بين فارس وخراسان وهي في شرقي قاشان وفي آخرها عند هذا الجبل

---

[1] البحر الأسود .

بَلَدُ اسْتَرَاباذَ ، وَحَافَاتُ هٰذَا الْجَبَلِ مِنْ شَرْقِيِّهِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ بِلَادُ نيسابور مِنْ خُرَاسَانَ فَفِي جَنُوبِ الْجَبَلِ وَشَرْقِ الْمَفَازَةِ بَلَدُ نيسابور ، ثُمَّ مَرْوُ الشَّاهِجَانِ آخِرَ الْجُزْءِ وَفِي شَمَالِهِ وَشَرْقِيِّ جُرْجَانَ بَلَدُ مَهْرَجَانَ ، وَخَازِرُونَ ، وَطُوسِ آخِرَ الْجُزْءِ شَرْقًا وَكُلُّ هٰذَا تَحْتَ الْجَبَلِ ، وَفِي الشَّمَالِ عَنْهَا بِلَادُ « نَسَا » ، وَيُحِيطُ بِهَا عِنْدَ زَاوِيَةِ الْجُزْئَيْنِ الشَّمَالِ وَالشَّرْقِ مَفَاوِزُ مُعَطَّلَةٌ .

وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ هٰذَا الْإِقْلِيمِ ، وَفِي غَرْبِيِّهِ نَهْرُ جَيْحُونَ ذَاهِبًا مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ ، فَفِي عُدْوَتِهِ الْغَرْبِيَّةِ رَمٌ وَآمُلُ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ ، وَالطَّاهِرِيَّةُ وَالْجُرْجَانِيَّةُ ، مِنْ بِلَادِ خُوَارِزْمَ ، وَيُحِيطُ بِالزَّاوِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهُ جَبَلُ أَسْتَرَاباذَ الْمُعْتَرِضُ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ قَبْلَهُ ، وَيَخْرُجُ فِي هٰذَا الْجُزْءِ مِنْ غَرْبِيِّهِ ، وَيُحِيطُ بِهٰذِهِ الزَّاوِيَةِ وَفِيهَا بَقِيَّةُ بِلَادِ هَرَاةَ وَيَمُرُّ الْجَبَلُ فِي الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ بَيْنَ هَرَاةَ وَالْجُوزْجَانِ حَتَّى يَتَّصِلَ بِجَبَلِ الْبُتْمِ ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ هُنَالِكَ .

وَفِي شَرْقِيِّ نَهْرِ جَيْحُونَ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ وَفِي الْجَنُوبِ مِنْهُ بِلَادُ بُخَارَى ، ثُمَّ بِلَادُ الصُّغْدِ ، وَقَاعِدَتُهَا سَمَرْقَنْدُ ، ثُمَّ بِلَادُ أُسْرُوشَنَةَ وَمِنْهَا خُجَنْدَةُ آخِرَ الْجُزْءِ شَرْقًا ، وَفِي الشَّمَالِ عَنْ سَمَرْقَنْدَ وَأُسْرُوشَنَةَ أَرْضُ إِيلَاقَ[1] ، ثُمَّ فِي الشَّمَالِ عَنْ إِيلَاقَ أَرْضُ الشَّاشِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا ، وَيَأْخُذُ قِطْعَةً مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ ، فِي جَنُوبِ تِلْكَ الْقِطْعَةِ بَقِيَّةُ أَرْضِ فَرْغَانَةَ وَيَخْرُجُ مِنْ تِلْكَ الْقِطْعَةِ الَّتِي فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ ، نَهْرُ الشَّاشِ يَمُرُّ مُعْتَرِضًا فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ إِلَى أَنْ يَنْصَبَّ فِي نَهْرِ جَيْحُونَ عِنْدَ مَخْرَجِهِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ الثَّامِنِ فِي شَمَالِهِ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ ، وَيَخْتَلِطُ مَعَهُ فِي أَرْضِ إِيلَاقَ نَهْرٌ يَأْتِي مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ مِنْ تُخُومِ بِلَادِ التُّبَّتِ ، وَيَخْتَلِطُ مَعَهُ قَبْلَ مَخْرَجِهِ مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ نَهْرُ فَرْغَانَةَ .

وَعَلَى سَمْتِ نَهْرِ الشَّاشِ جَبَلُ جَبْرَاغُونَ ، يَبْدَأُ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ ، وَيَنْعَطِفُ شَرْقًا وَمُنْحَرِفًا إِلَى الْجَنُوبِ حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ مُحِيطًا بِأَرْضِ الشَّاشِ ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ فَيُحِيطُ بِالشَّاشِ ، وَفَرْغَانَةُ هُنَاكَ إِلَى جَنُوبِهِ فَيَدْخُلُ فِي الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ .

وَبَيْنَ نَهْرِ الشَّاشِ وَطَرَفِ هٰذَا الْجَبَلِ فِي وَسَطِ الْجُزْءِ بِلَادُ فَارَابَ ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ أَرْضِ بُخَارَى وَخُوَارِزْمَ مَفَاوِزُ مُعَطَّلَةٌ وَفِي زَاوِيَةِ هٰذَا الْجُزْءِ مِنَ الشَّمَالِ وَالشَّرْقِ أَرْضُ خُجَنْدَةَ ، وَفِيهَا بَلَدُ إِسْبِيجَابَ[1] وَطَرَازُ .

وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ هٰذَا الْإِقْلِيمِ فِي غَرْبِيِّهِ بَعْدَ أَرْضِ فَرْغَانَةَ ، وَالشَّاشِ ، أَرْضُ الْخَزْلَجِيَّةِ فِي الْجَنُوبِ ، وَأَرْضُ الْخَلِيجَةِ فِي الشَّمَالِ ، وَفِي شَرْقِ الْجُزْءِ كُلِّهِ أَرْضُ الْكِيمَاكِيَّةِ وَيَتَّصِلُ فِي **الْجُزْءِ الْعَاشِرِ كُلِّهِ إِلَى جَبَلِ** قُوقِيَا ، آخِرَ الْجُزْءِ شَرْقًا ، وَعَلَى قِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ هُنَالِكَ ،

(١) فى المشترك إقليم إيلاق متصل بإقليم الشاش لا فصل بينهما وهو بكسر الهمزة وسكون الياء بعدها » اهـ.

(١) فى التيمورية « بلد السنجاب » .

وَهُوَ جَبَلُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهَذِهِ الْأُمَمُ كُلُّهَا مِنْ شعوبِ التُّرْكِ . انتهى .

الإقليم الخامس

الْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْهُ أَكْثَرُهُ مَغْمُورٌ بِالْمَاءِ إِلَّا قَليلاً مِنْ جَنُوبِهِ وَشَرْقِهِ ، لأَنَّ الْبَحْرَ الْمُحيطَ بِهذِهِ الْجِهَةِ الْغَرْبِيَّةِ ، دَخَلَ فى الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَالسَّادِسِ وَالسَّابِعِ مِنَ الدَّائِرَةِ الْمُحيطَةِ بِالْإِقْليم ، فَأَمَّا الْمُنْكَشِفُ مِنْ جَنُوبِهِ فَقِطْعَةٌ عَلَى شَكْلِ مُثَلَّث مُتَّصِلَةً مِنْ هُنَالِكَ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَعَلَيْهَا بَقِيَّتُهَا وَيُحيطُ بِهَا الْبَحْرُ مِنْ جِهَتَيْنِ كَأَنَّهُمَا ضِلْعَانِ مُحيطَانِ بِزَاوِيَةِ الْمُثَلَّثِ فَفِيهَا مِنْ بَقِيَّةِ غَرْبِ الْأَنْدَلُسِ سَغْيُورُ عَلَى الْبَحْرِ ، عِنْدَ أَوَّلِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ وَسَلَمَنْكَةُ شَرْقًا عَنْهَا ، وَفِى جَوْفِهَا سَمُّورَةُ ، وَفِى الشَّرْقِ عَنْ سَلَمَنْكَةَ آبِلَةُ[1] آخِرَ الْجَنُوبِ ، وَأَرْضُ قَشْتَالِيَةَ شَرْقًا عَنْهَا وَفِيهَا مَدِينَةُ شَقُونِيَّةُ ، وَفِى شَمَالِهَا أَرْضُ لِيُونَ وَبَرْغَشْتُ ، ثُمَّ وَرَاءَهَا فِى الشَّمَالِ أَرْضُ جِلِيقِيَّةَ إِلَى زَاوِيَةِ الْقِطْعَةِ .

وَفِيهَا عَلَى الْبَحْرِ الْمُحيطِ فِى آخِرِ الضِّلْعِ الْغَرْبِىِّ بَلَدُ شَنْتَيَاقُو ، وَمَعْنَاهُ يَعْقُوبُ .

وَفِيهَا مِنْ شَرْقِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مَدِينَةُ شِطْلِيَّةَ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ فِى الْجَنُوبِ ، وَشَرْقًا عَنْ قَشْتَالِيَةَ وَفِى شَمَالِهَا وَشَرْقِهَا وَشْقَةُ وَبَنْبَلُونَةُ عَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا وَشَمَالاً ، وفِى غَرْبِ بَنْبَلُونَةَ قَشْطَالَةُ ، ثُمَّ نَاجِزَةُ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ بَرْغَشْتَ وَيَعْتَرِضُ وَسَطَ هذه القِطْعَة جَبَلٌ عَظِيمٌ مُحَاذٍ لِلْبَحْرِ ، وَلِلضِّلْعِ الشَّمَالِىِّ الشَّرْقِىِّ مِنْهُ ، وَعَلَى قُرْبٍ ، وَيَتَّصِلُ بِهِ وَبِطَرَفِ الْبَحْرِ عِنْدَ بَنْبَلُونَةَ[2] فى جِهَةِ الشَّرْقِ الَّذِى ذَكَرْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَّصِلَ فى الْجَنُوبِ بِالْبَحْرِ الرُّومِىِّ ، فِى الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَصِيرَ حَجْرًا عَلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ ، وَثَنَايَاهُ لَهَا أَبْوَابٌ تُفْضِى إِلَى بِلَادِ غَشْكُونِيَّةَ مِنْ أُمَمِ الْفِرَنْجِ فَمِنْهَا مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ ، بَرْشَلُونَةُ ، وَأَرْبُونَةُ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِىِّ وَخَرِيدَةُ وَقَرْقَشُونَةُ وَرَاءَهُمَا فى الشَّمَالِ وَمِنْهَا مِنَ الإِقْلِيمِ الْخَامِسِ طَلُوشَةُ شَمَالاً عَنْ خَرِيدَةَ .

وَأَمَّا الْمُنْكَشِفُ فى هٰذَا الْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ فَقِطْعَةٌ عَلَى شَكْلِ مُثَلَّثٍ مُسْتَطِيلٍ ، زَاوِيَتُهُ الْحَادَّةُ وَرَاءَ الْبُرْنَاتِ شَرْقًا وَفِيهَا عَلَى الْبَحْرِ الْمُحيطِ عَلَى رَأْسِ الْقِطْعَةِ الَّتِى يَتَّصِلُ بِهَا جَبَلُ الْبُرْنَاتِ بَلَدُ نِيُونَةَ ، وَفِى آخِرِ هٰذِهِ الْقِطْعَةِ فِى النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ أَرْضُ بِنْطُو مِنَ الفِرَنْجِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ .

وَفِى الْجُزْءِ الثَّانِى مِنَ النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ أَرْضُ غَشْكُونِيَّةَ ، وَفِى شَمَالِهَا أَرْضُ بِنْطُو وَبَرْغَشْتَ ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُمَا ، وَفِى شَرْقِ بِلَادِ غَشْكُونِيَّةَ فِى شَمَالِهَا قِطْعَةُ أَرْضٍ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِىِّ دَخَلَتْ فِى هٰذَا الْجُزْءِ كَالضِّرْسِ مَائِلَةً إِلَى الشَّرْقِ قَلِيلاً وَصَارَتْ بِلَادُ غَشْكُونِيَّةَ فِى غَرْبِهَا دَاخِلَةً فِى جَوْنٍ مِنَ الْبَحْرِ .

وَعَلَى رَأْسِ هٰذِهِ الْقِطْعَةِ شَمَالا بِلَادُ جَنْوَةَ ،

---

(١) مدينة فى الشمال الغربى لمقاطعة مدريد .

(٢) فى أكثر من نسخة : ينبلونة بالياء .

وَعَلَى سَمْتِهَا فِي الشَّمَال جَبَلٌ نيت جُونَ ، وَفِي شَمَالِهِ وَعَلَى سَمْتِهِ أَرْض بَرْغُونَة .

وَفِي الشَّرْق عَنْ طَرَفِ جنْوَة الخَارِجِ مِنَ الْبَحْرِ الرومِيّ طَرَفٌ آخرُ خارجٌ منهُ يَبْقَى بَيْنَهُمَا جُون دَاخِلٌ مِنَ الْبَرِّ فِي الْبَحْرِ ، فِي غَرْبِيَّةِ بِيش ، وَفِي شَرْقِيَّةِ مَدِينَةُ رُومَةَ الْعُظْمَى كُرْسِي مَلِكِ الإِفْرَنْجَةِ ، وَمَسْكِنِ الْبَابَا بَطْرَكِهِم الأَعْظَم ، وَفِيهَا مِنَ الْمَبَانِي الضَّخْمَةِ وَالْهَيَاكِلِ الْهَائِلَةِ وَالْكَنَائِسِ الْعَادِيَّةِ مَا هُوَ مَعْرُوف الأَخْبَارِ ، وَمِنْ عَجَائِبِهَا النَّهْرُ الْجَارِي فِي وَسَطِهَا مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِب مَفْرُوشٌ قَاعُهُ بِبَلَاطِ النُّحَاسِ ، وَفِيهَا كَنِيسَةُ بُطْرُسَ وَبُولُسَ مِنَ الْحَوَارِيِّينَ ، وَهُمَا مَدْفُونَانِ بِهَا .

وَفِي الشَّمَالِ عَنْ بِلَادِ رُومَةَ بِلَادُ أَفْرَنْصِيصَةَ(١) إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ ، وَعَلَى هٰذَا الطَّرَفِ مِنَ الْبَحْرِ الَّذِي فِي جَنُوبِهِ رُومَةُ بِلَادُ نَابِل فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْهُ مُتَّصِلَةً بِبَلَدِ قلورِيَةَ مِنْ بِلَادِ الْفِرَنْجِ ، وَفِي شَمَالِهَا طَرَفٌ مِنْ خَلِيجِ الْبَنَادِقَةِ دَخَلَ فِي هٰذَا الْجُزْءِ مِنَ الْجُزْءِ الثَّالِثِ ، مُغَرِّبًا وَمُحَاذِيًا لِلشَّمَالِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ ، وَانْتَهَى إِلَى نَحْوِ الثُّلُثِ مِنْهُ ، وَعَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ بِلَادِ الْبَنَادِقَةِ دَخَلَ فِي هٰذَا الْجُزْءِ مِنْ جَنُوبِهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ . وَمِنْ شَمَالِهِ بِلَادُ إِنْكِلَايَةَ فِي الإِقْلِيمِ السَّادِسِ .

وَفِي الْجُزْءِ الثَّالِثِ مِنْ هٰذَا الإِقْلِيمِ فِي غَرْبِيَّةِ بِلَادُ قلورِيَةَ بَيْنَ خَلِيجِ الْبَنَادِقَةِ وَالْبَحْرِ الرُّومِيِّ ، يُحِيطُ بِهَا مِنْ شَرْقِيهِ يصل من برها في الإقليم الرَّابِعِ ، فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي جُون بَيْنَ طَرَفَيْنِ خَرَجَا مِنَ الْبَحْرِ عَلَى سَمْتِ الشَّمَالِ إِلَى هٰذَا الْجُزْءِ فِي شَرْقِيِّ بِلَادِ قلورِيَةَ ، بِلَادُ أَنْكِبِرْدَة فِي جُونٍ بَيْنَ خَلِيجِ الْبَنَادِقَةِ وَالْبَحْرِ الرُّومِيِّ .

وَيَدْخُلُ طَرَفٌ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ فِي الْجُونِ فِي الإِقْلِيمِ الرَّابِعِ ، وَفِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَيُحِيطُ بِهِ مِنْ شَرْقِيِّهِ خَلِيجُ الْبَنَادِقَةِ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ ذَاهِبًا إِلَى سَمْتِ الشَّمَالِ ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الْغَرْبِ مُحَاذِيًا لآخِرِ الْجُزْءِ الشَّمَالِيِّ ، وَيَخْرُجُ عَلَى سَمْتِهِ مِنَ الإِقْلِيمِ الرَّابِعِ جَبَلٌ عَظِيمٌ يُوَازِيهِ وَيَذْهَبُ مَعَهُ إِلَى الشَّمَالِ ، ثُمَّ يُغَرِّبُ مَعَهُ فِي الإِقْلِيمِ السَّادِسِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ قُبَالَةَ خَلِيجٍ فِي شَمَالِيِّهِ فِي بِلَادِ إِنْكِلَايَةَ مِنْ أُمَمِ الْلَمَانِيِّينَ . كَمَا نَذْكُرُ وَعَلَى هٰذَا الْخَلِيجِ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ هٰذَا الْجَبَلِ مَا دَامَا ذَاهِبَيْنِ إِلَى الشَّمَالِ بِلَادُ الْبَنَادِقَةِ ، فَإِذَا ذَهَبَا إِلَى الْمَغْرِبِ فَبَيْنَهُمَا بِلَادُ حَرْوَايَا ، ثُمَّ بِلَادُ الأَلْمَانِيِّينَ عِنْدَ طَرَفِ الْخَلِيجِ .

وَفِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هٰذَا الإِقْلِيمِ قِطْعَةٌ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ خَرَجَتْ إِلَيْهِ مِنَ الإِقْلِيمِ الرَّابِعِ مُضَرَّسَةٌ كُلُّهَا بِقِطَعٍ مِنَ الْبَحْرِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى الشَّمَالِ ، وَبَيْنَ كُلِّ ضِرْسَيْنِ مِنْهَا طَرَفٌ مِنَ الْبَحْرِ فِي الْجُونِ بَيْنَهُمَا وَفِي آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا قِطَعٌ مِنَ الْبَحْرِ ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى الشَّمَالِ خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ يَخْرُجُ مِنْ هٰذَا الطَّرَفِ الْجَنُوبِيِّ ، وَيَذْهَبُ عَلَى سَمْتِ الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ فِي الإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَيَنْعَطِفُ مِنْ هُنَالِكَ عَنْ قُرْبٍ مُشَرِّقًا إِلَى بَحْرِ بَنْطَش فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ وَبَعْضِ الرَّابِعِ قَبْلَهُ وَالسَّادِسِ بَعْدَهُ مِنْ

---

(١) فرنسا .

الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ كَمَا نَذْكُرُ ، وَبَلَدُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي شَرْقِيِّ هٰذَا الْخَلِيجِ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ مِنَ الشَّمَالِ وَهِيَ الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي كَانَتْ كُرْسِيَّ الْقَيَاصِرَةِ وَبِهَا مِنْ آثَارِ الْبِنَاءِ وَالضَّخَامَةِ مَا كَثُرَتْ عَنْهُ الْأَحَادِيثُ ، وَالْقِطْعَةُ الَّتِي مَا بَيْنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَخَلِيجِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ وَفِيهَا بِلَادُ مَقْدُونِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ لِلْيُونَانِيِّينَ وَمِنْهَا ابْتِدَاءُ مُلْكِهِمْ ، وَفِي شَرْقِيِّ هٰذَا الْخَلِيجِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ بَاطُوسَ وَأَظُنُّهَا لِهٰذَا الْعَهْدِ مَجَالَاتٍ لِلتُّرْكُمَانِ ، وَبِهَا مُلْكُ ابْنِ عُثْمَانَ وَقَاعِدَتُهُ بِهَا بُرْصَةُ وَكَانَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ لِلرُّومِ وَغَلَبَهُمْ عَلَيْهَا الْأُمَمُ إِلَى أَنْ صَارَتْ لِلتُّرْكُمَانِ .

وَفِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْ هٰذَا الْإِقْلِيمِ ، مِنْ غَرْبِيِّهِ وَجَنُوبِيِّهِ أَرْضُ بَاطُوسَ ، وَفِي الشَّمَالِ عَنْهَا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ بِلَادُ عَمُّورِيَّةَ ، وَفِي شَرْقِيِّ عَمُّورِيَّةَ نَهْرُ قُبَاقِبَ الَّذِي يُمِدُّ الْفُرَاتَ وَيَخْرُجُ مِنْ جَبَلٍ هُنَالِكَ وَيَذْهَبُ فِي الْجَنُوبِ حَتَّى يُخَالِطَ الْفُرَاتَ قَبْلَ وُصُولِهِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ إِلَى مَمَرِّهِ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ ، وَهُنَالِكَ فِي غَرْبِيِّهِ آخِرَ الْجُزْءِ مَبْدَأُ نَهْرِ سِيحَانَ ، ثُمَّ نَهْرِ جِيحَانَ غَرْبِيَّهُ الذَّاهِبَيْنِ عَلَى سَمْتِهِ ، وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُمَا وَفِي شَرْقِهِ هُنَالِكَ مَبْدَأُ نَهْرِ دِجْلَةَ الذَّاهِبِ عَلَى سَمْتِهِ ، وَفِي مُوَازَرَتِهِ حَتَّى يُخَالِطَهُ عِنْدَ بَغْدَادَ .

وَفِي الزَّاوِيَةِ الَّتِي بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ وَرَاءَ الْجَبَلِ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْهُ نَهْرُ دِجْلَةَ بَلَدُ مَيَّافَارِقِينَ .

وَنَهْرُ قُبَاقِبَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ يَقْسِمُ هٰذَا الْجُزْءَ بِقِطْعَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا غَرْبِيَّةٌ جَنُوبِيَّةٌ ، وَفِيهَا أَرْضُ بَاطُوسَ كَمَا قُلْنَاهُ وَأَسَافِلُهَا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَمَالاً وَوَرَاءَ الْجَبَلِ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْهُ نَهْرُ قُبَاقِبَ أَرْضُ عَمُّورِيَّةَ كَمَا قُلْنَاهُ ، وَالْقِطْعَةُ الثَّانِيَةُ شَرْقِيَّةٌ شَمَالِيَّةٌ عَلَى الثُّلُثِ ، فِي الْجَنُوبِ مِنْهَا مَبْدَأُ دِجْلَةَ وَالْفُرَاتِ وَفِي الشَّمَالِ بِلَادُ الْبَيْلَقَانِ مُتَّصِلَةٌ بِأَرْضِ عَمُّورِيَّةَ مِنْ وَرَاءِ جَبَلِ قُبَاقِبَ ، وَهِيَ عَرِيضَةٌ ، وَفِي آخِرِهَا عِنْدَ مَبْدَإِ الْفُرَاتِ بَلَدُ خَرْشَنَةَ وَفِي الزَّاوِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ نِيطِشَ الَّذِي يُمِدُّهُ خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ .

وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هٰذَا الْإِقْلِيمِ فِي جَنُوبِهِ وَغَرْبِهِ بِلَادُ أَرْمِينِيَّةَ مُتَّصِلَةً إِلَى أَنْ يَتَجَاوَزَ وَسَطَ الْجُزْءِ إِلَى جَانِبِ الشَّرْقِ ، وَفِيهَا بِلَادُ أُرْدُنَّ فِي الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ وَفِي شَمَالِهَا تَفْلِيسُ وَدَبِيلُ ، وَفِي شَرْقِ أُرْدُنَّ مَدِينَةُ خِلَاطَ. ثُمَّ بَرْذَعَةُ . فِي جَنُوبِهَا بِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّرْقِ مَدِينَةُ أَرْمِينِيَّةَ وَمِنْ هُنَالِكَ مَخْرَجُ بِلَادِ أَرْمِينِيَّةَ إِلَى الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَفِيهَا هُنَالِكَ بَلَدُ الْمَرَاغَةِ فِي شَرْقِيِّ جَبَلِ الْأَكْرَادِ ، الْمُسَمَّى بِأُرْمِيَّ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْهُ .

وَيُتَاخِمُ بِلَادَ أَرْمِينِيَّةَ فِي هٰذَا الْجُزْءِ ، وَفِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ قَبْلَهُ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ فِيهَا بِلَادُ أَذْرَبِيجَانَ ، وَآخِرُهَا فِي هٰذَا الْجُزْءِ شَرْقًا بِلَادُ أَرْدَبِيلَ عَلَى قِطْعَةٍ مِنْ بَحْرِ طَبَرِسْتَانَ دَخَلَتْ فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ السَّابِعِ ، وَيُسَمَّى بَحْرَ طَبَرِسْتَانَ ، وَعَلَيْهِ مِنْ شَمَالِهِ فِي هٰذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْ بِلَادِ الْخَزَرِ وَهُمُ التُّرْكُمَانُ ، وَيَبْدَأُ مِنْ عِنْدِ آخِرِ هٰذِهِ الْقِطْعَةِ الْبَحْرِيَّةِ فِي الشَّمَالِ ، جِبَالٌ يَتَّصِلُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ عَلَى سَمْتِ الْغَرْبِ إِلَى الْجُزْءِ الْخَامِسِ .

فَتَمُرُّ فِيهِ مُنْعَطِفَةً وَمُحِيطَةً بِبَلَدِ مَيَّافَارِقِينَ، وَيَخْرُجُ إِلَى الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ، عِنْدَ آمِدَ وَيَتَّصِلُ بِجَبَلِ السِّلْسِلَةِ فِي أَسَافِلِ الشَّامِ، وَمِنْ هُنَالِكَ يَتَّصِلُ بِجَبَلِ اللُّكَامِ كَمَا مَرَّ. وَبَيْنَ هٰذِهِ الْجِبَالِ الشَّمَالِيَّةِ فِى هٰذَا الْجُزْءِ ثَنَايَا كَالْأَبْوَابِ، تُفْضِى مِنَ الْجَانِبَيْنِ فَفِى جَنُوبِيِّهَا بِلَادُ الْأَبْوَابِ مُتَّصِلَةً فِى الشَّرْقِ إِلَى بَحْرِ طَبَرِسْتَانَ، وَعَلَيْهِ مِنْ هٰذِهِ الْبِلَادِ مَدِينَةُ بَابِ الْأَبْوَابِ، وَتَتَّصِلُ بِلَادُ الْأَبْوَابِ(١) فِى الْغَرْبِ مِنْ نَاحِيَةِ جَنُوبِيِّهَا بِبَلَدِ أَرْمِينِيَةَ، وَبَيْنَهُمَا فِى الشَّرْقِ، وَبَيْنَ بِلَادِ أَذْرَبِيجَانَ الْجَنُوبِيَّةِ بِلَادُ الزَّابِ(٢) مُتَّصِلَةً إِلَى بَحْرِ طَبَرِسْتَانَ وَفِى شَمَالِ هٰذِهِ الْجِبَالِ قِطْعَةٌ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ فِى غَرْبِهَا مَمْلَكَةُ السَّرِيرِ فِى الزَّاوِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْهَا.

وَفِى زَاوِيَةِ الْجُزْءِ كُلِّهِ قِطْعَةٌ أَيْضًا مِنْ بَحْرِ بَنْطُشَ الَّذِى يُمِدُّهُ خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ، وَيَحُفُّ بِهٰذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ بَنْطُشَ بِلَادُ السَّرِيرِ، وَعَلَيْهَا مِنْهَا بَلَدُ أَطْرَابَزِيدَةَ.

وَتَتَّصِلُ بِلَادُ السَّرِيرِ بَيْنَ جَبَلِ الْأَبْوَابِ وَالْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِىَ شَرْقًا إِلَى جَبَلٍ حَاجِزٍ، بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَرْضِ الْخَزَرِ، وَعِنْدَ آخِرِهَا مَدِينَةُ صُول وَوَرَاءَ هٰذَا الْجَبَلِ الْحَاجِزِ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ الْخَزَرِ، تَنْتَهِى إِلَى الزَّاوِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ مِنْ بَحْرِ طَبَرِسْتَانَ وَآخِرِ الْجُزْءِ شَمَالًا.

(١) وجد فى هامش إحدى النسخ الخطية تعليق يظهر أنه من عمل ابن خلدون نفسه، وقد نقله الدكتور على عبد الواحد وافى فى النسخة المنشورة بتحقيقه، وله عليه تعليق. انظر ص ٣٦٦ ج ١ من المقدمة لنشر د. وافى.

(٢) لا معنى لها هنا، ولعلها محرفة عن كلمة الأبواب.

وَالْجُزْءُ السَّابِعُ مِنْ هٰذَا الْإِقْلِيمِ غَرْبِيُّهُ كُلُّهُ مَغْمُورٌ بِبَحْرِ طَبَرِسْتَانَ وَخَرَجَ مِنْ جَنُوبِهِ فِى الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ الْقِطْعَةُ الَّتِى ذَكَرْنَا هُنَالِكَ أَنَّ عَلَيْهَا بِلَادَ طَبَرِسْتَانَ وَجِبَالَ الدَّيْلَمِ إِلَى قَزْوِينَ، وَفِى غَرْبِىِّ تِلْكَ الْقِطْعَةِ مُتَّصِلَةٌ بِهَا الْقِطْعَةُ الَّتِى فِى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ، وَيَتَّصِلُ بِهَا مِنْ شَمَالِهَا الْقِطْعَةُ الَّتِى فِى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ شَرْقِهِ أَيْضًا.

وَيَنْكَشِفُ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ عِنْدَ زَاوِيَتِهِ الشَّمَالِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ يَصُبُّ فِيهَا نَهْرُ أَثِل فِى هٰذَا الْبَحْرِ وَيَبْقَى مِنْ هٰذَا الجزء فِى نَاحِيَةِ الشَّرْقِ قِطْعَةٌ مُنْكَشِفَةٌ مِنَ الْبَحْرِ، هِىَ مَجَالَاتٌ لِلْغُزِّ مِنْ أُمَمِ التُّرْكِ يُحِيطُ بِهَا جَبَلٌ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ دَاخِلٌ فِى الْجُزْءِ الثَّامِنِ، وَيَذْهَبُ فِى الْغَرْبِ إِلَى مَا دُونَ وَسَطِهِ فَيَنْعَطِفُ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يُلَاقِىَ بَحْرَ طَبَرِسْتَانَ، فَيَحُفُّ بِهِ ذَاهِبًا مَعَهُ إِلَى بَقِيَّتِهِ فِى الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ مَعَ طَرَفِهِ وَيُفَارِقُهُ وَيُسَمَّى هُنَالِكَ جَبَلَ سِيَاهْ، وَيَذْهَبُ مُغَرِّبًا إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ، ثُمَّ يَرْجِعُ جَنُوبًا إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ، وَهٰذَا الطَّرَفُ مِنْهُ وَهُوَ الَّذِى اعْتَرَضَ فِى هٰذَا الْجُزْءِ بَيْنَ أَرْضِ السَّرِيرِ وَأَرْضِ الْخَزَرِ، وَاتَّصَلَتْ بِأَرْضِ الْخَزَرِ فِى الْجُزْءِ السَّادِسِ وَالسَّابِعِ حَافَاتُ هٰذَا الْجَبَلِ الْمُسَمَّى جَبَلَ سِيَاهْ كَمَا سَيَأْتِى.

وَالْجُزْءُ الثَّامِنُ مِنْ هٰذَا الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ، كُلُّهُ مَجَالَاتٌ لِلْغُزِّ مِنْ أُمَمِ التُّرْكِ، وَفِى الْجِهَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ بُحَيْرَةُ خُوَارَزْمَ الَّتِى يَصُبُّ

فيهَا نَهرُ جَيحُونَ دَوْرُها ثَلاثُمائَةَ مِيل ، ويَصُبّ فِيها أَنْهارٌ كثيرَةٌ مِنْ أَرْضِ هٰذِهِ الْمَجَالاتِ .

وَفى الْجهَةِ الشَّمَالِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْهُ بُحَيْرَةُ عُرْغُونَ دَوْرُهَا أَرْبَعُمائَةِ مِيل وَمَاؤُهَا حُلْوٌ ، وَفى النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ جَبَلُ مِرْغَار وَمَعْنَاه جَبَلُ الثَّلْجِ لأَنَّهُ لَايَذُوبُ فِيهِ وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِآخِرِ الْجُزْءِ وَفى الْجَنُوبِ عَنْ بُحَيْرَةِ عُرْغُونَ جَبَلٌ مِنَ الْحَجَرِ الصَّلْدِ لَايُنْبِتُ شَيْئًا يُسَمَّى عُرْغُونَ ، بِهِ سُمِّيَتِ الْبُحَيْرَةُ وَيَنْحَلِبُ مِنْهُ وَمِنْ جَبَلِ مِرْغَار شَمَالِيَّ الْبُحَيْرَةِ أَنْهارٌ لَاتَنْحَصِرُ عِدَّتُهَا فَتَصُبُّ فِيهَا مِنَ الْجَانِبَيْنِ .

وَفِى الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ هٰذَا الإِقْلِيمِ بِلَادُ أَرْكَس مِنْ أُمَمِ التُّرْكِ فى غَرْبِ بِلَادِ الْغُزِّ وَشَرْقِ بِلَادِ الْكِيمَاكِيَّةِ ، وَيَحُفُّ بِهِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ آخِرَ الْجُزْءِ جَبَلُ قُوقِيَا الْمُحِيطُ بِيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ يَعْتَرِضُ هُنَالِكَ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ ، حَتَّى يَنْعَطِفَ أَوَّلَ دُخُولِهِ مِنَ الْجُزْءِ الْعَاشِرِ ، وَقَدْ كَانَ دَخَلَ إِلَيْهِ مِنْ آخِرِ الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنَ الإِقْلِيمِ الرَّابِعِ قَبْلَهُ ، وَاحْتَفَّ هُنَالِكَ بِالْبَحْرِ الْمُحِيطِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ فى الشَّمَالِ ، ثُمَّ انْعَطَفَ مُغَرِّبًا فى الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنَ الإِقْلِيمِ الرَّابِعِ . إِلَى مَا دُونَ نِصْفِهِ وَأَحَاطَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى هُنَا بِبِلَادِ الكِيمَاكِيَّةِ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنَ الإِقْلِيمِ الْخَامِسِ ، فَذَهَبَ فِيهِ مُغَرِّبًا إِلَى آخِرِهِ وَبَقِيَتْ فى جَنُوبِيِّهِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ إِلَى الْغَرْبِ قَبْلَ آخِرِ بِلَادِ الْكِيمَاكِيَّةِ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ فى شَرْقِيِّهِ ، وَفى الأَعْلَى مِنْهُ وَانْعَطَفَ قَرِيبًا إِلَى الشَّمَالِ ، وَذَهَبَ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الإِقْلِيمِ السَّادِسِ ، وَفِيهِ السَّدُّ هُنَالِكَ كَمَا نَذْكُرُهُ وَبَقِيَتْ مِنْهُ الْقِطْعَةُ الَّتِى أَحَاطَ بِهَا جَبَلُ قُوقِيَا عِنْدَ الزَّاوِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ مُسْتَطِيلَةً إِلَى الْجَنُوبِ ، وَهِىَ مِنْ بِلَادِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ .

وَفى الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنْ هٰذَا الإِقْلِيمِ أَرْضُ يَأْجُوجَ مُتَّصِلَةً فِيهِ كُلِّهِ إِلَّا قِطْعَةً مِنَ الْبَحْرِ غَمَرَتْ طَرَفًا فى شَرْقِيِّهِ مِنْ جَنُوبِهِ إِلَى شَمَالِهِ إِلَّا الْقِطْعَةَ الَّتى يَفْصِلُهَا إِلَى جِهَةِ الْجَنُوبِ ، وَالْغَرْبِ جَبَلُ قُوقِيَا حِينَ مَرَّ فِيهِ وَمَا سِوَى ذٰلِكَ فَأَرْضُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

الإقليم السادس

فَالْجُزْءُ الأَوَّلُ مِنْهُ غَمَرَ الْبَحْرُ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِهِ وَاسْتَدَارَ شَرْقًا مَعَ النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ ، ثُمَّ ذَهَبَ مَعَ النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ إِلَى الْجَنُوبِ ، وَانْتَهَى قَرِيبًا مِنَ النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ فَانْكَشَفَتْ قِطْعَةٌ مِنْ هٰذِهِ الأَرْضِ فى هٰذَا الْجُزْءِ دَاخِلَةً بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ ، وَفى الزَّاوِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ كَالْجُونِ فِيهِ ، وَيَنْفَسِحُ طُولاً وَعَرْضًا وَهِىَ كُلُّهَا أَرْضُ بريطَانِيَةَ وَفى بَابِهَا بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ ، وَفى الزَّاوِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ بِلَادُ صَاقِسَ مُتَّصِلَةً بِبِلَادِ بَنْطُو الَّتى مَرَّ ذِكْرُهَا فى الْجُزْءِ الأَوَّلِ وَالثَّانى مِنَ الإِقْلِيمِ الْخَامِسِ .

وَالْجُزْءُ الثَّانى مِنْ هٰذَا الإِقْلِيمِ دَخَلَ الْبَحْرُ الْمُحِيطُ مِنْ غَرْبِهِ وَشَمَالِهِ ، فَمِنْ غَرْبِهِ قِطْعَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ أَكْبَرُ مِنْ نِصْفِهِ الشَّمَالِىِّ مِنْ شَرْقِ أَرْضِ بريطَانِيَةَ فى الْجُزْءِ الأَوَّلِ ، وَاتَّصَلَتْ بِهَا الْقِطْعَةُ الأُخْرَى فى الشَّمَالِ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ ، وَانْفَسَحَتْ فى النِّصْفِ الْغَرْبِىِّ مِنْهُ بَعْضَ الشَّىْءِ .

وفيه هنالك قطعة من جزيرة أنكلترا وهي جزيرة عظيمة مشتملة على مدن ، وبها ملك ضخم ، وبقيتها في الإقليم السابع وفي جنوب هذه القطعة وجزيرتها في النصف الغربي من هذا الجزء بلاد أرمندية(1) ، وبلاد أفلادش متصلين بها ثم بلاد إفرنسية جنوبا وغربا من هذا الجزء ، بلاد برغونية شرقا عنها وكلها لأمم الإفرنجة ، وبلاد الليمانيين في النصف الشرقي من الجزء ، فجنوبه بلاد أنكلاية ثم بلاد برغونية شمالا ثم أرض لهويكة وشطونية ، وعلى قطعة البحر المحيط في الزاوية الشمالية الشرقية أرض أفريزة وكلها لأمم الليمانيين .

وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم في الناحية الغربية بلاد مرانية في الجنوب وبلاد شطونية في الشمال وفي الناحية الشرقية بلاد أنكوية في الجنوب وبلاد بلونية في الشمال يعترض بينهما جبل بلواط داخلا من الجزء الرابع ويمر مغربا بانحراف إلى الشمال . إلى أن يقف في بلاد شطونية آخر النصف الغربي وفي الجزء الرابع في ناحية الجنوب أرض جثولية وتحتها في الشمال بلاد الروسية ، ويفصل بينهما جبل بلواط من أول الجزء غربا إلى أن يقف في النصف الشرقي ، وفي شرق أرض جثولية بلاد جرمانية ، وفي الزاوية الجنوبية الشرقية أرض القسطنطينية ومدينتها عند آخر الخليج الخارجي من البحر الرومي ، وعند مدفعه في بحر بنطش ، فيقع قطيعة من بحر بنطش في أعالي الناحية الشرقية ، من هذا الجزء ، ويمدها الخليج ، وبينهما في الزاوية بلد مسيناة

وفي الجزء الخامس من الإقليم السادس ثم في الناحية الجنوبية عند بحر بنطش يتصل من الخليج في آخر الجزء الرابع ، ويخرج من سمته مشرقا فيمر في هذا الجزء كله ، وفي بعض السادس على طول ألف وثلاثمائة ميل من مبدئه في عرض ستمائة ميل ، ويبقى وراء هذا البحر في الناحية الجنوبية من هذا الجزء في غربها إلى شرقها بر مستطيل ، في غربه هرقلية على ساحل بحر بنطش متصلة بأرض البيلقان من الإقليم الخامس ، وفي شرقه بلاد اللانية وقاعدتها سوتلي على بحر بنطش .

وفي شمال بحر بنطش في هذا الجزء غربا أرض ترخان وشرقا بلاد الروسية ، وكلها على ساحل هذا البحر ، وبلاد الروسية محيطة ببلاد ترخان من شرقها في هذا الجزء من شمالها في الجزء الخامس من الإقليم السابع ، ومن غربها في الجزء الرابع من هذا الإقليم .

وفي الجزء السادس في غربيه بقية بحر بنطش وينحرف قليلا إلى الشمال .

ويبقى بينه هنالك وبين آخر الجزء شمالا بلاد قمانية ، وفي جنوبه ومنفسحا إلى الشمال بما انحرف هو كذلك بقية بلاد اللانية التي كانت آخر جنوبه في الجزء الخامس .

وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء متصل أرض الخزر ، وفي شرقها أرض برطاس وفي الزاوية الشرقية الشمالية أرض بلغار .

(1) يعني إقليم « نورمانديا » المعروف .

وفى الزاوية الشرقية الجنوبية أرض بلجر يجوزها هناك قطعة من جبل سياه كوه المنعطف مع بحر الخزر فى الجزء السابع بعده ، ويذهب بعد مفارقته مغربا فيجوز فى هذه القطعة ويدخل ويدخل إلى الجزء السادس من الإقليم الخامس فيتصل هنالك بجبل الأبواب ، وعليه من هنالك ناحية بلاد الخزر .

وفى الجزء السابع من هذا الإقليم فى الناحية الجنوبية ما جازه جبل سياه ، بعد مفارقته بحر طبرستان ، وهو قطعة من أرض الخزر إلى آخر الجزء غربا وفى شرقها القطعة من بحر طبرستان التى يجوزها هذا الجبل من شرقها وشمالها ووراء جبل سياه فى الناحية الغربية الشمالية أرض برطاس وفى الناحية الشرقية من الجزء أرض شحرب ، وبخناك ، وهم أمم الترك .

وفى الجزء الثامن والناحية الجنوبية منه كلها أرض الجولخ من الترك فى الناحية الشمالية غربا ، والأرض المنتنة ، وشرق الأرض التى يقال إن يأجوج ومأجوج خرباها قبل بناء السد وفى هذه الأرض المنتنة مبدأ نهر الأتل[1] من أعظم أنهار العالم ، وممره فى بلاد الترك ومصبه فى بحر طبرسان فى الإقليم الخامس فى الجزء السابع منه ، وهو كثير الانعطاف يخرج من جبل من الأرض المنتنة من ثلاثة ينابيع ، تجتمع فى نهر واحد ، ويمر على سمت الغرب إلى آخر السابع من هذا الإقليم ، فينعطف شمالا إلى الجزء السابع من الإقليم السابع ، فيمر فى طرفه بين الجنوب والمغرب ، فيخرج فى الجزء السادس من السابع ، ويذهب ، مغربا غير بعيد ، ثم ينعطف ثانية إلى الجنوب ، ويرجع إلى الجزء السادس من الإقليم السادس ، ويخرج منه جدول يذهب مغربا ويصب فى بحر نبطش فى ذلك الجزء ، ويمر هو فى قطعة بين الشمال والشرق فى بلاد بلغار ، فيخرج فى الجزء السابع من الإقليم السادس ، ثم ينعطف ثالثة إلى الجنوب ، وينفذ فى جبل سياه ، ويمر فى بلاد الخزر ، ويخرج إلى الإقليم الخامس فى الجزء السابع منه فيصب هنالك فى بحر طبرستان فى القطعة التى انكشفت من الجزء عند الزاوية الغربية الجنوبية .

وفى الجزء التاسع من هذا الإقليم فى الجانب الغربى منه بلاد خفشاخ من الترك وهم قفجاق ، وبلاد السركس منهم أيضا .

وفى الشرق منه بلاد يأجوج يفصل بينهما جبل قوقيا المحيط ، وقد مر ذكره : يبدأ من البحر المحيط فى شرق الإقليم الرابع ، ويذهب معه إلى آخر الإقليم فى الشمال ، ويفارقه مغربا وبانحراف إلى الشمال حتى يدخل فى الجزء التاسع من الإقليم الخامس ، فيرجع إلى سمته الأول حتى يدخل فى هذا الجزء التاسع من الإقليم من جنوبه إلى شماله بانحراف إلى المغرب .

---

(١) يقال إنه نهر : الأورال .

وَفِي وَسَطِهِ هَهُنَا السَّدُّ الَّذِي بَنَاهُ الْإِسْكَنْدَرُ ، ثُمَّ يَخْرُجُ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى الْإِقْلِيمِ السَّابِعِ ، وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْهُ فَيَمُرُّ فِيهِ إِلَى الْجَنُوبِ إِلَى أَنْ يَلْقَى الْبَحْرَ الْمُحِيطَ فِي شَمَالِهِ ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ مَعَهُ مِنْ هُنَالِكَ مُغَرِّبًا إِلَى الْإِقْلِيمِ السَّابِعِ إِلَى الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ فَيَتَّصِلُ هُنَالِكَ بِقِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِي غَرْبِيِّهِ ،وفي وَسَطِ هَذَا الْجُزْءِ التَّاسِعِ هُوَ السَّدُّ الَّذِي بَنَاهُ الْإِسْكَنْدَرُ ، كَمَا قُلْنَاهُ ، وَالصَّحِيحُ مِنْ خَبَرِهِ فِي الْقُرْآنِ[1] وَقَدْ ذَكَرَ عَبْدُ اللهِ بْنُ خرْدَاذْبَة فِي كِتَابِهِ فِي الْجُغْرَافِيَا : أَنَّ الْوَاثِقَ رَأَى فِي مَنَامِهِ كَأَنَّ السَّدَّ انْفَتَحَ فَانْتَبَهَ فَزِعًا ،وَبَعَثَ سَلَّامًا التَّرْجُمَانَ فَوَقَفَ عَلَيْهِ وَجَاءَ بِخَبَرِهِ وَوَصْفِهِ فِي حِكَايَةٍ طَوِيلَةٍ لَيْسَتْ مِنْ مَقَاصِدِ كِتَابِنَا هَذَا .

وَفِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ بِلَادُ مَأْجُوجَ مُتَّصِلَةٌ فِيهِ إِلَى آخِرِهِ عَلَى قِطْعَةٍ مِنْ هُنَالِكَ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ أَحَاطَتْ بِهِ مِنْ شَرْقِهِ وَشَمَالِهِ مُسْتَطِيلَةً فِي الشَّمَالِ وَعَرِيضَةً بَعْضَ الشَّيْءِ فِي الشَّرْقِ .

الْإِقْلِيمُ السابعُ :

وَالْبَحْرُ الْمُحِيطُ قَدْ غَمَرَ عَامَّتَهُ مِنْ جِهَةِ الشمَالِ إِلَى وَسَطِ الْجُزْءِ الْخَامِسِ حَيْثُ يَتَّصِلُ بِجَبَلِ قُوقِيَا الْمُحِيطِ بِيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ .

فَالْجُزْءُ الْأَوَّلُ وَالثانِي مَغْمُورَانِ بِالْمَاءِ إِلَّا مَا انْكَشَفَ مِنْ جَزِيرَةِ أَنْكِلْتِرا الَّتِي مُعْظَمُهَا فِي الثانِي ، وَفِي الْأَوَّلِ مِنْهَا طَرَفٌ انْعَطَفَ بِانْحِرَافٍ إِلَى الشمَالِ ، وَبَقِيَّتُهَا مَعَ قِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ مُسْتَدِيرَةٍ عَلَيْهِ فِي الْجُزْءِ الثانِي مِنَ الْإِقْلِيمِ السادِسِ ، وَهِيَ مَذْكُورَةٌ هُنَاكَ وَالْمَجَازُ مِنْهَا إِلَى الْبَرِّ فِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ سَعَةُ اثْنَي عَشَرَ مِيلا ، وَوَرَاءَ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ فِي شَمَالِ الْجُزْءِ الثانِي جَزِيرَةُ رَسْلَانِدَةَ مُسْتَطِيلَةً مِنَ الْغَرْبِ إِلَى الشرْقِ .

وَالْجُزْءُ الثالِثُ مِنْ هَذَا الإقْلِيمِ مَغْمُورٌ أَكْثَرُهُ بِالْبَحْرِ إِلَّا قِطْعَةً مُسْتَطِيلَةً فى جنوبِهِ ، وَتَتَّسِعُ فى شَرْقِهَا ، وَفِيهَا هُنَالِكَ مُتَّصَلُ أَرْضِ فَلُونِيَّةَ التى مَرَّ ذِكْرُهَا فى الثالِثِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السادِسِ ، وَأَنها فى شَمَالِهِ ،وَفى الْقِطْعَةِ مِنَ الْبَحْرِ التى تَغْمُرُ هَذَا الْجُزْءَ ، ثم فى الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْهَا مُسْتَدِيرَةٌ فَسِيحَةٌ وَتَتَّصِلُ بِالْبَرِّ مِنْ بَابٍ فى جنوبِهَا يُفْضِي إلى بِلادِ فَلونِيَّةَ ، وَفى شَمَالِهَا جَزِيرَةُ بَرْعَاقِبَةَ[2] مُسْتَطِيلَةً مَعَ الشَّمَالِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلى الْمَشْرِقِ .

وَالْجُزْءُ الرَّابِعُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ شَمَالُهُ كُلُّهُ مَغْمُورٌ بِالْبَحْرِ الْمُحِيطِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلى الْمَشْرِقِ ، وَجَنوبُهُ مُنْكَشِفٌ ، وَفى غَرْبِهِ أَرْضُ فِيمَازِكَ مِنَ التُّرْكِ ، وَفى شَرْقِهَا بِلادُ طَسْتَ ، ثم أَرْضُ رَسْلَانَ[3] إِلى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا وَهِيَ دَائِمَةُ الثُّلوجِ ، وَعُمْرَانُهَا قَلِيلٌ وَيَتَّصِلُ بِبِلادِ الرُّوسِيَّةِ فى الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَفى الْجُزْءِ الرَّابِعِ وَالْخَامِسِ مِنْهُ.

وَفى الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فى النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ بِلادُ الرُّوسِيَّةِ

وَيَنْتَهِي فى الشَّمَالِ إِلى قِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ الَّتِي يَتَّصِلُ بِهَا جَبَلُ قوقِيَا ، كَمَا

(١) انظر سورة الكهف ، الآيات : ٩٣ - ٩٩ .

(٢) وفى التيمورية : برقاعة .

(٣) فى أكثر النسخ سلاندة .

ذَكَرْنَاهُ مِنْ قَبْلُ ، وَفِى النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْهُ مُتَّصِلُ أَرْضِ الْقَمَانِيَةِ الَّتِى عَلَى قِطْعَةِ بَحْرِ بنطش من الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ ، وَيَنْتَهِى إِلَى بُحَيْرَةِ طَرْمَى مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ وَهِىَ عَذْبَةٌ ، تَنْجَلِبُ إِلَيْهَا أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْجِبَالِ عَنِ الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ ، وَفِى شَمَالِ النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ أَرْضُ التَّتَارِيَّةِ(١) مِنَ التُّرْكِ إِلَى آخِرِهِ .

وَفِى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ مُتَّصِلُ بِلَادِ الْقَمَانِيَةِ ، وَفِى وَسَطِ النَّاحِيَةِ بُحَيْرَةُ غنور عَذْبَةٌ تَنْجَلِبُ إِلَيْهَا الْأَنْهَارُ مِنَ الْجِبَالِ فِى النَّوَاحِى الشَّرْقِيَّةِ وَهِىَ جَامِدَةٌ دَائِمًا لِشِدَّةِ الْبَرْدِ إِلَّا قَلِيلًا فِى زَمَنِ الصَّيْفِ ، وَفِى شَرْقِ بِلَادِ الْقَمَانِيَةِ بِلَادُ الرُّوسِيَّةِ الَّتِى كَانَ مَبْدَؤُهَا فِى الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ فِى النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ وَفِى الزَّاوِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ بَقِيَّةُ أَرْضِ بُلْغَرَ الَّتِى كَانَ مَبْدَؤُهَا فِى الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَفِى النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْهُ وَفِى وَسَطِ هٰذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ أَرْضِ بُلْغَرَ مُنْعَطَفُ نَهْرِ أَتْلَ الْقِطْعَةَ الْأُولَى إِلَى الْجَنُوبِ كَمَا مَرَّ ، وَفِى آخِرِ هٰذَا الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ شَمَالِهِ جَبَلُ قوقيا مُتَّصِلٌ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ ،

وَفِى الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْ هٰذَا الْإِقْلِيمِ فِى غَرْبِهِ بَقِيَّةُ أَرْضِ بِخْنَاكَ من أُمَمِ التُّرْكِ ، وَكَانَ مَبْدَؤُهَا مِنَ النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ قَبْلَهُ ، وَفِى النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ ، وَيَخْرُجُ إِلَى الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ مِنْ فَوْقِهِ ، وَفِى النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ بَقِيَّةُ أَرْضِ سُحَرْتَ ، ثُمَّ بَقِيَّةُ الْأَرْضِ الْمُنْتِنَةِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا وَفِى آخِرِ الْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ جَبَلُ قُوقِيَا الْمُحِيطُ ، مُتَّصِلًا مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ ، فى الجزء الثَّامن من هذا الاقليم فى الجنوبِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ فيه الْأَرْضِ الْمُنْتِنَةِ

وَفِى شَرْقِهَا الْأَرْضُ الْمَحْفُورَةُ وَهِىَ مِنَ الْعَجَائِبِ خَرْقٌ عَظِيمٌ فِى الْأَرْضِ بَعِيدُ الْمَهْوَى ، فَسِيحُ الْأَقْطَارِ ، مُمْتَنِعُ الْوُصُولِ إِلَى قَعْرِهِ ، يُسْتَدَلُّ عَلَى عُمْرَانِهِ بِالدُّخَانِ فِى النَّهَارِ وَالنِّيرَانِ فِى اللَّيْلِ ، تُضِيءُ وَتَخْفَى وَرُبَّمَا رُئِىَ فِيهَا نَهْرٌ يَشُقُّهَا مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ .

وَفِى النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ الْبِلَادُ الْخَرَابُ الْمُتَاخِمَةُ لِلسَّدِّ ، وَفِى آخِرِ الشَّمَالِ مِنْهُ جَبَلُ قوقيا مُتَّصِلًا مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ ،

وَفِى الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ هٰذَا الْإِقْلِيمِ فِى الْجَانِبِ الْغَرْبِىِّ مِنْهُ بِلَادُ خَفْشَاخَ وَهُمْ قَفْجَقُ يَجُوزُهَا جَبَلُ قوقيا حِينَ يَنْعَطِفُ مِنْ شَمَالِهِ عِنْدَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ ، وَيَذْهَبُ فِى وَسَطِهِ إِلَى الْجَنُوبِ بِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّرْقِ فَيَخْرُجُ فِى الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ ، وَيَمُرُّ مُعْتَرِضًا فيه ، وَفِى وَسَطِهِ هُنَالِكَ سَدُّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ ، وَفِى النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ أَرْضُ يَأْجُوجَ ، وَرَاءَ جَبَلِ قوقيا عَلَى الْبَحْرِ ، قَلِيلَةُ الْعَرْضِ مُسْتَطِيلَةٌ أَحَاطَتْ بِهِ مِنْ شَرْقِهِ وَشَمَالِهِ .

وَالْجُزْءُ الْعَاشِرُ غَمَرَ الْبَحْرُ جَمِيعَهُ . هٰذَا آخِرُ الْكَلَامِ عَلَى الْجُغْرَافِيَا وَأَقَالِيمِهَا السَّبْعَةِ وَفِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ

(١) فى التيمورية البتارية .

المقدمة الثالثة

فى المعتدل من الأقاليم المنحرف ، وتأثير الهواء فى ألوان البشر والكثير من أحوالهم

قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْمَعْمُورَ مِنْ هٰذَا الْمُنْكَشِفِ مِنَ الْأَرْضِ ، إِنَّمَا هُوَ وَسَطُهُ لِإِفْرَاطِ الْحَرِّ فِى الْجَنُوبِ مِنْهُ وَالْبَرْدِ فِى الشَّمَالِ ،وَلَمَّا كَانَ الْجَانِبَانِ مِنَ الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ مُتَضَادَّيْنِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ ، وَجَبَ أَنْ تَتَدَرَّجَ الْكَيْفِيَّةُ مِنْ كِلَيْهِمَا إِلَى الْوَسَطِ ،فَيَكُونُ مُعْتَدِلاً .

فَالإِقْلِيمُ الرَّابِعُ أَعْدَلُ الْعُمْرَانِ ، وَالَّذِى حَافَاتُهُ مِنَ الثَّالِثِ وَالْخَامِسِ أَقْرَبُ إِلَى الاعْتِدَالِ ، وَالَّذِى يَلِيهِمَا وَالثَّانِى وَالسَّادِسِ بَعِيدَانِ مِنَ الاعْتِدَالِ ، وَالْأَوَّلُ وَالسَّابِعُ أَبْعَدُ بِكَثِيرٍ ، فَلِهٰذَا كَانَتِ الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ وَالْمَبَانِى وَالْمَلَابِسُ ، وَالْأَقْوَاتُ وَالْفَوَاكِهُ بَلْ وَالْحَيَوَانَاتُ ، وَجَمِيعُ مَا يَتَكَوَّنُ فِى هٰذِهِ الْأَقَالِيمِ الثَّلَاثَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ ، مَخْصُوصَةً بِالاعْتِدَالِ ، وَسُكَّانُهَا مِنَ الْبَشَرِ أَعْدَلُ أَجْسَامًا وَأَلْوَانًا وَأَخْلَاقًا أَدْيَانًا حَتَّى النُّبُوَّاتُ ، فَإِنَّمَا تُوجَدُ فِى الْأَكْثَرِ فِيهَا ، وَلَمْ نَقِفْ عَلَى خَبَرٍ بَعْثَةٍ فِى الْأَقَالِيمِ الْجَنُوبِيَّةِ وَلَا الشَّمَالِيَّةِ ، وَذٰلِكَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ إِنَّمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ أَكْمَلُ النَّوْعِ فِى خَلْقِهِمْ ، وَأَخْلَاقِهِمْ قَالَ تَعَالَى : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ (١) » ، وَذٰلِكَ لِيَتِمَّ الْقَبُولُ بِمَا يَأْتِيهِمْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ .

وَأَهْلُ هٰذِهِ الْأَقَالِيمِ ، أَكْمَلُ لِوُجُودِ الاعْتِدَالِ لَهُمْ فَتَجِدُهُمْ عَلَى غَايَةٍ مِنَ التَّوَسُّطِ فِى مَسَاكِنِهِمْ وَمَلَابِسِهِمْ وَأَقْوَاتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ ، يَتَّخِذُونَ الْبُيُوتَ الْمُنَجَّدَةَ بِالْحِجَارَةِ الْمُنَمَّقَةِ بِالصِّنَاعَةِ يَتَنَاغَوْن فِى اسْتِجَادَةِ الْآلَاتِ وَالْمَوَاعِينِ ، وَيَذْهَبُونَ فِى ذٰلِكَ إِلَى الْغَايَةِ ، وَتُوجَدُ لَدَيْهِمُ الْمَعَادِنُ الطَّبِيعِيَّةُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَدِيدِ وَالنُّحَاسِ وَالرَّصَاصِ وَالْقَصْدِيرِ ، وَيَتَصَرَّفُونَ فِى مُعَامَلَاتِهِمْ بِالنَّقْدَيْنِ الْعَزِيزَيْنِ ، وَيَبْتَعِدُونَ عَنِ الانْحِرَافِ فِى عَامَّةِ أَحْوَالِهِمْ وَهٰؤُلَاءِ أَهْلُ الْمَغْرِبِ وَالشَّامِ وَالْحِجَازِ وَالْيَمَنِ وَالْعِرَاقَيْنِ وَالْهِنْدِ وَالسِّنْدِ وَالصِّينِ وَكَذٰلِكَ الْأَنْدَلُسُ ، وَمَنْ قَرُبَ مِنْهَا مِنَ الْفَرَنْجَةِ وَالْجَلَالِقَةِ وَالرُّومِ ، وَالْيُونَانِيِّينَ وَمَنْ كَانَ مَعَ هٰؤُلَاءِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُمْ فِى هٰذِهِ الْأَقَالِيمِ الْمُعْتَدِلَةِ ، وَلِهٰذَا كَانَ الْعِرَاقُ وَالشَّامُ أَعْدَلَ هٰذِهِ كُلِّهَا ، لِأَنَّهَا وَسَطٌ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ .

وَأَمَّا الْأَقَالِيمُ الْبَعِيدَةُ مِنَ الاعْتِدَالِ ، مِثْلَ الْأَوَّلِ وَالثَّانِى وَالسَّادِسِ وَالسَّابِعِ ، فَأَهْلُهَا أَبْعَدُ مِنَ الاعْتِدَالِ فِى جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ ، فَبِنَاؤُهُمْ بِالطِّينِ وَالْقَصَبِ ،وَأَقْوَاتُهُمْ مِنَ الذُّرَةِ وَالْعُشْبِ ، وَمَلَابِسُهُمْ مِنْ أَوْرَاقِ الشَّجَرِ ، يَخْصِفُونَهَا عَلَيْهِمْ أَوِ الْجُلُودِ ، وَأَكْثَرُهُمْ عَرَايَا مِنَ اللِّبَاسِ ، وَفَوَاكِهُ بِلَادِهِمْ

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١١٠ . ويعلق الدكتور وافى فى منشورته بقوله : « ولا يخفى أن الآية لا تصلح أن تكون دليلا لما يريد الاستدلال عليه لأنها ليست موجهة إلى جميع الأمم التى أرسل فيها الأنبياء ، يعنى أن الآية خاصة بالأمة العربية المسلمة .

وأدمُها غريبةُ التكوين ، مائلةٌ إلى الانحراف ، ومُعاملاتهم بغير الحجرين الشريفين[(١)] ، من نُحاس أو حديد أو جلود يُقدّرونها للمعاملات ، وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العُجم ، حتى لَيُنقَل عن الكثير من السودان أهلِ الإقليم الأول ، أنهم يسكنون الكهوف والغياض ويأكلون العُشب ، وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضا ، وكذا الصقالبة .

والسبب في ذلك أنهم لبُعدهم عن الاعتدال ، يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العُجم ، ويبعُدون عن الإنسانية بمقدار ذلك ، وكذلك أحوالهم في الديانة أيضاً ، فلا يعرفون نُبوّة ، ولا يدينون بشريعة إلا من قرُب منهم من جوانب الاعتدال ، وهو في الأقل النادر ، مثل الحبشة المجاورين لليمن الدائنين بالنصرانية فيما قبل الإسلام ، وما بعده لهذا العهد ، ومثل أهل مالي وكوكو والتكرور المجاورين لأرض المغرب الدائنين بالإسلام ، لهذا العهد ، يقال إنهم دانوا به في المائة السابعة ، ومثل من دان بالنصرانية من أمم الصقالبة ، والإفرنجة والترك من الشمال .

ومن سوى هؤلاء من أهل تلك الأقاليم المنحرفة جنوباً وشمالاً ، فالدين مجهول عندهم ، والعلم مفقود بينهم ، وجميع أحوالهم بعيدة من أحوال الأناسي ، قريبة من أحوال البهائم ، ويخلق ما لاتعلمون[(٢)] .

ولا يُعترض على هذا القول بوجود اليمن ، وحضرموت والأحقاف وبلاد الحجاز واليمامة وما يليها من جزيرة العرب في الإقليم الأول والثاني ، فإن جزيرة العرب كلها أحاطت بها البحار من الجهات الثلاث ، كما ذكرنا فكان لرطوبتها أثر في رطوبة هوائها ، فنقص ذلك من اليبس والانحراف الذي يقتضيه الحرّ ، وصار فيها بعض الاعتدال بسبب رطوبة البحر .

وقد توهم بعض النسابين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات ، أن السودان هم ولد حام ابن نوح ، اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ، ظهر أثرها في لونه ، وفيما جعل الله من الرق في عقبه ، وينقلون في ذلك حكاية من خرافات القُصّاص ، ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في التوراة وليس فيه ذكر السواد ، وإنما دعا عليه بأن يكون ولده عبيداً لولد إخوته لا غير . وفي القول بنسبة السواد إلى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد ، وأثرهما في الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات ، وذلك أن هذا اللون شمل أهل الإقليم الأول والثاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب فإن الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة قريبة إحداهما من الأخرى فتطول المسامتة عامة الفصول ، فيكثر الضوء لأجلها ، ويلح القيظ الشديد عليهم ، وتسود جلودهم لإفراط الحر .

ونظير هذين الإقليمين مما يقابلهما من الشمال ، الإقليم السابع والسادس شمل سكانهما

(١) أي الذهب والفضة .

(٢) سورة النحل ، الآية : ٨ .

أَيْضًا الْبَيَاضَ مِنْ مِزَاجِ هَوَائِهِمْ ، لِلْبَرْدِ الْمُفْرِطِ بِالشَّمَالِ ، إِذِ الشَّمْسُ لَاتَزَالُ بِأُفُقِهِمْ فِى دَائِرَةِ مَرْأَى الْعَيْنِ ، أَوْ مَاقَرُبَ مِنْهَا ، وَلَا تَرْتَفِعُ إِلَى الْمُسَامَتَةِ ، وَلَا مَاقَرُبَ مِنْهَا ، فَيَضْعُفُ الْحَرُّ فِيهَا ، وَيَشْتَدُّ الْبَرْدُ عَامَّةَ الْفُصُولِ ، فَتَبْيَضُّ أَلْوَانُ أَهْلِهَا وَتَنْتَهِى إِلَى الزُّعُورَةِ ، وَيَتْبَعُ ذَٰلِكَ مَايَقْتَضِيهِ مِزَاجُ الْبَرْدِ الْمُفْرِطِ ، مِنْ زُرْقَةِ الْعُيُونِ ، وَبَرَشِ(١) الْجُلُودِ ، وَصُهُوبَةِ(٢) الشُّعُورِ ، وَتَوَسَّطَتْ بَيْنَهُمَا الْأَقَالِيمُ الثَّلَاثَةُ الْخَامِسُ وَالرَّابِعُ وَالثَّالِثُ ، فَكَانَ لَهَا فِى الِاعْتِدَالِ الَّذِى هُوَ مِزَاجُ الْمُتَوَسِّطِ حَظٌّ وَافِرٌ ، وَالرَّابِعُ أَبْلَغُهَا فِى الِاعْتِدَالِ غَايَةً لِنِهَايَتِهِ فِى التَّوَسُّطِ ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَكَانَ لِأَهْلِهِ مِنَ الِاعْتِدَالِ فِى خُلُقِهِمْ وَخَلْقِهِمْ ، مَا اقْتَضَاهُ مِزَاجُ أَهْوِيَتِهِمْ وَتَبِعَهُ مِنْ جَانِبَيْهِ الثَّالِثُ وَالْخَامِسُ وَإِنْ لَمْ يَبْلُغَا غَايَةَ التَّوَسُّطِ ، لِمَيْلِ هٰذَا قَلِيلاً إِلَى الْجَنُوبِ الْحَارِّ ، وَهٰذَا قَلِيلاً إِلَى الشَّمَالِ الْبَارِدِ ، إِلَّا أَنَّهُمَا لَمْ يَنْتَهِيَا إِلَى الِانْحِرَافِ وَكَانَتِ الْأَقَالِيمُ الْأَرْبَعَةُ مُنْحَرِفَةً وَأَهْلُهَا كَذَٰلِكَ فِى خُلُقِهِمْ وَخَلْقِهِمْ فَالْأَوَّلُ وَالثَّانِى لِلْحَرِّ ، وَالسَّوَادِ ، وَالسَّابِعُ وَالسَّادِسُ لِلْبَرْدِ وَالْبَيَاضِ .

وَيُسَمَّى سُكَّانُ الْجَنُوبِ مِنَ الْإِقْلِيمَيْنِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِى بِاسْمِ الْحَبَشَةِ ، وَالزَّنْجِ وَالسُّودَانِ أَسْمَاءً مُتَرَادِفَةً عَلَى الْأُمَمِ الْمُتَغَيِّرَةِ بِالسَّوَادِ ، وَإِنْ كَانَ اسْمُ الْحَبَشَةِ مُخْتَصًّا مِنْهُمْ بِمَنْ تُجَاهَ مَكَّةَ ، هذه الاسماء لهم من اجل انتسابهم إلى آدمى وَالْيَمَنِ ، وَالزَّنْجِ بِمَنْ تُجَاهَ بَحْرِ الْهِنْدِ ، وَلَيْسَتْ أَسْوَدَ لَاحَام وَلَا غَيْرِهِ .

وَقَدْ نَجِدُ مِنَ السُّودَانِ أَهْلِ الْجَنُوبِ مَنْ يَسْكُنُ الرُّبْعَ الْمُعْتَدِلَ أَوِ السَّابِعَ الْمُنْحَرِفَ إِلَى الْبَيَاضِ ، فَتَبْيَضُّ أَلْوَانُ أَعْقَابِهِمْ عَلَى التَّدْرِيجِ مَعَ الْأَيَّامِ ، وَبِالْعَكْسِ فِيمَنْ يَسْكُنُ مِنْ أَهْلِ الشَّمَالِ ، أَوِ الرَّابِعِ ، بِالْجَنُوبِ فَتَسْوَدُّ أَلْوَانُ أَعْقَابِهِمْ ، وَفِى ذَٰلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّوْنَ تَابِعٌ لِمِزَاجِ الْهَوَاءِ .

قَالَ ابْنُ سِينَا فِى أُرْجُوزَتِهِ فِى الطِّبِّ :

بِالزَّنْجِ حَرٌّ غَيَّرَ الْأَجْسَادَا
حَتَّى كَسَا جُلُودَهَا سَوَادَا
وَالصَّقْلَبُ اكْتَسَبَتِ الْبَيَاضَا
حَتَّى غَدَتْ جُلُودُهَا بِضَاضَا

وَأَمَّا أَهْلُ الشَّمَالِ فَلَمْ يُسَمَّوْا بِاعْتِبَارِ أَلْوَانِهِمْ لِأَنَّ الْبَيَاضَ كَانَ لَوْنًا لِأَهْلِ تِلْكَ اللُّغَةِ الْوَاضِعَةِ لِلْأَسْمَاءِ ، فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ غَرَابَةٌ تَحْمِلُ عَلَى اعْتِبَارِهِ فِى التَّسْمِيَةِ لِمُوَافَقَتِهِ وَاعْتِيَادِهِ ، وَوَجَدْنَا سُكَّانَهُ مِنَ التُّرْكِ وَالصَّقَالِبَةِ وَالطُّغُرْغُرِ ، وَالْخَزَرِ ، وَاللَّانِ ، وَالْكَثِيرِ مِنَ الْإِفْرَنْجَةِ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَسْمَاءً مُتَفَرِّقَةً ، وَأَجْيَالاً مُتَعَدِّدَةً مُسَمَّيْنَ بِأَسْمَاءٍ مُتَنَوِّعَةٍ .

وَأَمَّا أَهْلُ الْأَقَالِيمِ الثَّلَاثَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ ، أَهْلِ الِاعْتِدَالِ فِى خُلُقِهِمْ وَخَلْقِهِمْ وَسِيَرِهِمْ وَكَافَّةِ الْأَحْوَالِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلِاعْتِمَارِ لَدَيْهِمْ مِنَ الْمَعَاشِ ، وَالْمَسَاكِنِ ، وَالصَّنَائِعِ ، وَالْعُلُومِ ، وَالرِّئَاسَاتِ ، وَالْمُلْكِ فَكَانَتْ فِيهِمِ النُّبُوَّاتُ ، وَالْمُلْكُ وَالدُّوَلُ وَالشَّرَائِعُ وَالْعُلُومُ ، وَالْبُلْدَانُ وَالْأَمْصَارُ وَالْمَبَانِى ،

(١) اختلاط اللون الأحمر بغيره فى الجلد .
(٢) ميلها إلى الاحمرار والشقرة .

وَالفِرَاسَةُ وَالصَّنَائِعُ الْفَائِقَةُ ، وَسَائِرُ الأَحْوَالِ الْمُعْتَدِلَةِ وَأَهْلُ هٰذِهِ الأَقَالِيمِ الَّتِى وَقَفْنَا عَلَى أَخْبَارِهِمْ ، مِثْلَ الْعَرَبِ وَالرُّومِ وَفَارِسَ ، وَبَنِى إِسْرَائِيلَ وَالْيُونَانِ ، وَأَهْلِ السِّنْدِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ. وَلَمَّا رَأَى النَّسَّابُونَ اخْتِلَافَ هٰذِهِ الأُمَمِ بِسِمَاتِهَا وَشِعَارِهَا حَسِبُوا ذٰلِكَ لِأَجْلِ الأَنْسَابِ ، فَجَعَلُوا أَهْلَ الْجَنُوبِ كُلَّهُمُ السُّودَانَ ،مِنْ وُلْدِ حَام وَارْتَابُوا فِى أَلْوَانِهِمْ فَتَكَلَّفُ وانَقْلَ تِلْكَ الْحِكَايَةِ الْوَاهِيَةِ[١] ، وَجَعَلُوا أَهْلَ الشَّمَالِ كُلَّهُمْ أَوْ أَكْثَرَهُمْ ، مِنْ وُلْدِ يَافِثَ ، وَأَكْثَرَ الأُمَمِ الْمُعْتَدِلَةِ وَأَهْلَ الْوَسَطِ الْمُنْتَحِلِينَ لِلْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَالْمِلَلِ وَالشَّرَائِعِ وَالسِّيَاسَةِ وَالْمُلْكِ ، مِنْ وُلْدِ سَام .

وَهٰذَا الزَّعْمُ وَإِنْ صَادَفَ الْحَقَّ فِى انْتِسَابِ هٰؤُلَاءِ فَلَيْسَ ذٰلِكَ بِقِيَاسٍ مُطَّرِدٍ ، إِنَّمَا هُوَ إِخْبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ ، لَا أَنَّ تَسْمِيَةَ أَهْلِ الْجَنُوبِ بِالسُّودَانِ وَالْحُبْشَانِ مِن أَجْلِ انْتِسَابِهِمْ إِلَى حَامٍ الأَسْوَدِ ، وَمَا أَدَّاهُمْ إِلَى هٰذَا الْغَلَطِ إِلَّا اعْتِقَادُهُمْ أَنَّ التَّمْيِيزَ بَيْنَ الأُمَمِ ، إِنَّمَا يَقَعُ بِالأَنْسَابِ فَقَطْ ، وَلَيْسَ كَذٰلِكَ فَإِنَّ التَّمْيِيزَ لِلْجِيلِ ، أَوِ الأُمَّةِ ، يَكُونُ بِالنَّسَبِ فِى بَعْضِهِمْ كَمَا لِلْعَرَبِ وَبَنِى إِسْرَائِيلَ وَالْفُرْسِ ، وَيَكُونُ بِالْجِهَةِ السِّمة ، كَمَا لِلزَّنْجِ وَالْحَبَشَةِ وَالصَّقَالِبَةِ وَالسُّودَانِ ، وَيَكُونُ بِالْعَوَائِدِ وَالشِّعَارِ وَالنَّسَبِ كَمَا لِلْعَرَبِ ، وَيَكُونُ بِغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ أَحْوَالِ الأُمَمِ وَخَوَاصِّهِمْ وَمُمَيِّزَاتِهِمْ ، فَتَعْمِيمُ الْقَوْلِ فِى أَهْلِ جِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنْ جَنُوبٍ أَوْشَمَالٍ ، بِأَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ فُلَانٍ الْمَعْرُوفِ لِمَا شَمَلَهُمْ مِنْ نِحْلَةٍ أَوْلَوْنٍ أَوْ سِمَةٍ وُجِدَتْ لِذٰلِكَ الأَبِ ، إِنَّمَا هُوَ مِنَ الأَغَالِيطِ الَّتِى أَوْقَعَ فِيهَا الْغَفْلَةُ عَنْ طَبَائِعِ الأَكْوَانِ وَالْجِهَاتِ ، وَإِنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا تَتَبَدَّلُ فِى الأَعْقَابِ وَلَا يَجِبُ اسْتِمْرَارُهَا ، سُنَّةَ اللّٰهِ فِى عِبَادِهِ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّٰهِ تَبْدِيلاً ، وَاللّٰهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ بِغَيْبِهِ وَأَحْكَمُ وَهُوَ الْمَوْلَى الْمُنْعِمُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ

---

(١) حكاية أن سواد لون ولد حام كان بسبب دعوة نوح عليه .

المقدمة الرابعة

فى أثر الهواء فى أخلاق البشر

قَدْ رَأَيْنَا مِنْ خُلُقِ السُّودَانِ عَلَى الْعُمُومِ ، الْخِفَّةَ وَالطَّيْشَ وَكَثْرَةَ الطَّرَبِ ، فَتَجِدُهُمْ مُولَعِينَ بِالرَّقْصِ عَلَى كُلِّ تَوْقِيعٍ ، مَوْصُوفِينَ بِالْحُمْقِ فى كلِّ قُطْرٍ ، وَالسَّبَبُ الصَّحِيحُ فى ذلِكَ أَنَّهُ تَقَرَّرَ فى مَوْضِعِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنَّ طَبِيعَةَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ ، هِيَ انْتِشَارُ الرُّوحِ الْحَيَوَانِىِّ وَتَفَشِّيهِ . وَطَبِيعَةَ الْحُزْنِ بِالْعَكْسِ ، وَهُوَ انْقِبَاضُهُ وَتَكَاثُفُهُ . وَتَقَرَّرَ أَنَّ الْحَرَارَةَ مُفَشِّيَةٌ لِلْهَوَاءِ ، وَالْبُخَارِ ، مُخَلْخِلَةٌ لَهُ زَائِدَةٌ فى كَمِّيَّتِهِ ، وَلِهذَا يَجِدُ الْمُنْتَشِى مِنَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ مَالَا يُعَبَّرُ عنه ، وَذلِكَ بِمَا يُدَاخِلُ بُخَارَ الرُّوحِ فى الْقَلْبِ مِنَ الْحَرَارَةِ الْغَرِيزِيَّةِ الَّتِى تَبْعَثُهَا سَوْرَةُ الْخَمْرِ فى الرُّوحِ ، مِنْ مَزَاجِهِ فَيَتَفَشَّى الرُّوحُ ، وَتَجِىءُ طَبِيعَةُ الْفَرَحِ ، وَكَذلِكَ نَجِدُ الْمُتَنَعِّمِينَ بِالْحَمَّامَاتِ إِذَا تَنَفَّسُوا فى هَوَائِهَا ، وَاتَّصَلَتْ حَرَارَةُ الْهَوَاءِ فى أَرْوَاحِهِمْ فَتَسَخَّنَتْ لذلِكَ حَدَثَ لَهُمْ فَرَحٌ ، وَرُبَّمَا انْبَعَثَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ بِالْغِنَاءِ النَّاشِىءِ عَنِ السُّرُورِ .

وَلمَّا كَانَ السُّودَانُ سَاكِنِينَ فى الْإِقْلِيمِ الْحَارِّ ، وَاسْتَوْلَى الْحَرُّ عَلَى أَمْزِجَتِهِمْ ، وَفى أَصْلِ تَكْوِينِهِم ، كَانَ فى أَرْوَاحِهِمْ مِنَ الْحَرَارَةِ عَلَى نِسْبَةِ أَبْدَانِهِمْ وَإِقْلِيمِهِمْ ، فَتَكُونُ أَرْوَاحُهُمْ بِالْقِيَاسِ إِلَى أَرْوَاحِ أَهْلِ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ أَشَدَّ حَرًّا ، فَتَكُونُ أَكْثَرَ تَفَشِّيًا ، فَتَكُونُ أَسْرَعَ فَرَحًا وَسُرُورًا ، وَأَكْثَرَ انْبِسَاطًا ، وَيَجِىءُ الطَّيْشُ عَلَى أَثَرِ هذِهِ ، وَكَذلِكَ يَلْحَقُ بِهِمْ قَلِيلاً أَهْلُ الْبِلَادِ الْبَحْرِيَّةِ ، لَمَّا كَانَ هَوَاؤُهَا مُتَضَاعِفَ الْحَرَارَةِ بِمَا يَنْعَكِسُ عَلَيْهِ مِنْ أَضْوَاءِ بَسِيطِ الْبَحْرِ وَأَشِعَّتِهِ ، كَانَتْ حِصَّتُهُمْ مِنْ تَوَابِعِ الْحَرَارَةِ فى الْفَرَحِ وَالْخِفَّةِ مَوْجُودَةً أَكْثَرَ مِنْ بِلَادِ التُّلُولِ وَالْجِبَالِ الْبَارِدَةِ ، وَقَدْ نَجِدُ يَسِيرًا مِنْ ذلِكَ فى أَهْلِ الْبِلَادِ الْجَزِيرِيَّةِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ لِتَوَفُّرِ الْحَرَارَةِ فِيهَا ، وَفى هَوَائِهَا لِأَنَّهَا عَرِيقَةٌ فى الْجَنُوبِ عَنِ الْأَرْيَافِ وَالتُّلُولِ ، وَاعْتَبِرْ ذلِكَ أَيْضاً بِأَهْلِ مِصْرَ فَإِنَّهَا مِثْلُ عَرْضِ الْبِلَادِ الْجَزِيرِيَّةِ أَوْ قَرِيباً مِنْهَا ، كَيْفَ غَلَبَ الْفَرَحُ عَلَيْهِمْ وَالْخِفَّةُ وَالْغَفْلَةُ عَنِ الْعَوَاقِبِ حَتَّى أَنَّهُمْ لَايَدَّخِرُونَ أَقْوَاتَ سَنَتِهِمْ وَلَا شَهْرِهِمْ ، وَعَامَّةُ مَأْكَلِهِمْ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ .

وَلَمَّا كَانَتْ فَاسُ مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ بِالْعَكْسِ مِنْهَا فى التَّوَغُّلِ فى التُّلُولِ الْبَارِدَةِ .

كَيْفَ تَرَى أَهْلَهَا مُطْرِقِينَ إِطْرَاقَ الْحُزْنِ ، وَكَيْفَ أَفْرَطُوا فى نَظَرِ الْعَوَاقِبِ ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيَدَّخِرُ قُوتَ سَنَتَيْنِ مِنْ حُبُوبِ الْحِنْطَةِ ، وَيُبَاكِرُ الْأَسْوَاقَ لِشِرَاءِ قُوتِهِ لِيَوْمِهِ مَخَافَةَ أَنْ يُرْزَأَ شَيْئًا مِنْ مُدَّخَرِهِ ، وَتَتَبَّعْ ذلِكَ فى الْأَقَالِيمِ وَالْبُلْدَانِ تَجِدْ فى الْأَخْلَاقِ أَثَرًا مِنْ كَيْفِيَّاتِ الْهَوَاءِ وَاللهُ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ .

وَقَدْ تَعَرَّضَ الْمَسْعُودِىُّ لِلْبَحْثِ عَنِ السَّبَبِ فى خِفَّةِ السُّودَانِ وَطَيْشِهِمْ وَكَثْرَةِ الطَّرَبِ فِيهِمْ ، وَحَاوَلَ تَعْلِيلَهُ فَلَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهُ نَقَلَ عَنْ جَالِينُوسَ وَيَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ الْكِنْدِى ، أَنَّ ذلِكَ لِضَعْفِ أَدْمِغَتِهِمْ ، وَمَا نَشَأَ عَنْهُ مِنْ ضَعْفِ عُقُولِهِمْ ، وَهَذَا كَلَامٌ لَا مُحَصَّلَ لَهُ ، وَلَا بُرْهَانَ فِيهِ ، وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

المقدمة الخامسة

فى اختلاف أحوال العمران، فى الخصب والجوع، وما ينشأ عن ذلك من الآثار فى أبدان البشر وأخلاقهم

إعْلَمْ أنَّ هذه الأقاليمَ المعتدلة ليس كُلُّهَا يوجدُ بِهَا الْخِصْبُ ، وَلَا كُلُّ سُكَّانِهَا فى رَغَد مِنَ مِنَ العَيْشِ ، بَلْ فِيهَا مَا يُوجَدُ لأهْلِهِ خِصْبُ الْعَيْشِ مِنَ الْحُبُوبِ ، وَالأُدْمِ وَالْحِنْطَةِ وَالْفَوَاكِهِ لِزَكَاءِ الْمَنَابِتِ ، وَاعْتِدَالِ الطِّينَةِ وَوُفُورِ الْعُمْرَانِ .

وَفِيهَا الأَرْضُ الْحَرَّةُ الَّتِى لَا تُنْبِتُ زَرْعًا ، وَلَا عُشْبًا بِالْجُمْلَةِ ، فَسُكَّانُهَا فى شَظَفٍ مِنَ الْعَيْشِ مِثْلُ أَهْلِ الْحِجَازِ وَجَنُوبِ الْيَمَنِ ؛ وَمِثْلُ الْمُلَثَّمِينَ مِنْ صَنْهَاجَةَ السَّاكِنِينَ بِصَحْرَاءِ الْمَغْرِبِ ، وَأَطْرَافِ الرِّمَالِ فِيمَا بَيْنَ الْبَرْبَرِ وَالسُّودَانِ ؛ فَإِنَّ هؤلاءِ يَفْقِدُونَ الْحُبُوبَ وَالأُدْمَ جُمْلَةً ، وَإِنَّمَا أَغْذِيَتُهُمْ وَأَقْوَاتُهُمُ الأَلْبَانُ وَاللُّحُومُ . وَمِثْلُ الْعَرَبِ أَيْضًا الْجَائِلِينَ فى الْقِفَارِ ، فَإِنَّهُمْ وَإِنْ كَانُوا يَأْخُذُونَ الْحُبُوبَ وَالأُدْمَ مِنَ التُّلُولِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ فى الأَحَايِينِ وَتَحْتَ رِبْقَةٍ (١) مِنْ حَامِيَتِهَا وَعَلَى الإِقْلالِ لِقِلَّةِ وُجْدِهِمْ (٢) . فَلَا يَتَوَصَّلُونَ مِنْهُ إِلَى سَدِّ الْخَلَّةِ أَوْ دُونِهَا فَضْلاً عَنِ الرَّغَدِ وَالْخِصْبِ . وَتَجِدُهُمْ يَقْتَصِرُونَ فى غَالِبِ أَحْوَالِهِمْ عَلَى الأَلْبَانِ ، وَتُعَوِّضُهُمْ مِنَ الْحِنْطَةِ أَحْسَنَ مَعَاضٍ ، وَتَجِدُ مَعَ ذَلِكَ هؤلاءِ الْفَاقِدِينَ لِلْحُبُوبِ وَالأُدْمِ مِنْ أَهْلِ الْقِفَارِ أَحْسَنَ حَالاً فى جُسُومِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ مِنْ أَهْلِ التُّلُولِ الْمُنْغَمِسِينَ فى الْعَيْشِ ، فَأَلْوَانُهُمْ أَصْفَى وَأَبْدَانُهُمْ أَنْقَى وَأَشْكَالُهُمْ أَتَمُّ وَأَحْسَنُ ، وَأَخْلَاقُهُمْ أَبْعَدُ مِنَ الانْحِرَافِ ، وَأَذْهَانُهُمْ أَثْقَبُ فى الْمَعَارِفِ وَالإِدْرَاكَاتِ ، هذَا أَمْرٌ تَشْهَدُ لَهُ التَّجْرِبَةُ فى كُلِّ جِيلٍ مِنْهُمْ فَكَثِيرٌ مَا بَيْنَ الْعَرَبِ وَالْبَرْبَرِ فِيمَا وَصَفْنَاهُ ، وَبَيْنَ الْمُلَثَّمِينَ وَأَهْلِ التُّلُولِ ، يَعْرِفُ ذَلِكَ مَنْ خَبَرَهُ .

وَالسَّبَبُ فى ذَلِكَ وَاللهُ أَعْلَمُ : أَنَّ كَثْرَةَ الأَغْذِيَةِ ، وَكَثْرَةَ الأَخْلَاطِ الْفَاسِدَةِ الْعَفِنَةِ وَرُطُوبَاتِهَا تُوَلِّدُ فى الْجِسْمِ فَضَلَاتٍ رَدِيئَةً يَنْشَأُ عَنْهَا بُعْدُ أَقْطَارِهَا فى غَيْرِ نِسْبَةٍ وَيَتْبَعُ ذَلِكَ انْكِسَافُ الأَلْوَانِ ، وَقُبْحُ الأَشْكَالِ مِنْ كَثْرَةِ اللَّحْمِ كَمَا قُلْنَاهُ . وَتُغَطِّى الرُّطُوبَاتُ عَلَى الأَذْهَانِ وَالأَفْكَارِ بِمَا يَصْعَدُ إِلَى الدِّمَاغِ مِنْ أَبْخِرَتِهَا الرَّدِيئَةِ ، فَتَجِىءُ الْبَلَادَةُ وَالْغَفْلَةُ وَالإِنْحِرَافُ عَنِ الاعْتِدَالِ بِالْجُمْلَةِ .

وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فى حَيَوَانِ الْقَفْرِ ، وَمَوَاطِنِ الْجَدْبِ مِنَ الْغَزَالِ وَالنَّعَامِ ، وَالْمَهَا ، وَالزَّرَافَةِ ، وَالْحُمُرِ الْوَحْشِيَّةِ ، وَالْبَقَرِ ، مَعَ أَمْثَالِهَا مِنْ حَيَوَانِ التُّلُولِ وَالأَرْيَافِ ، وَالْمَرَاعِى الْخَصِبَةِ كَيْفَ تَجِدُ بَوْنًا بَعِيدًا فى صَفَاءِ أَدِيمِهَا وَحُسْنِ رَوْنَقِهَا

---

(١) فى أكثر النسخ « تحت رقبة » ومعناها المراقبة والحراسة حتى لا يفاجئهم مغير .

(٢) قلة ما يجدون .

وأشكالها وتناسب أعضائها وحدة مداركها . فالغزال أخو المعز ، والزراف أخو البعير والحمار والبقر أخو الحمار والبقر ، والبون بينها ما رأيت ، وما ذاك إلا لأجل أن الخصب فى التلول فعل فى أبدان هذه من الفضلات الردية والأخلاط الفاسدة ما ظهر عليها أثره . والجوع لحيوان القفر حسن فى خلقها وأشكالها ما شاء .

واعتبر ذلك فى الآدميين أيضا : فإنا نجد أهل الأقاليم المخصبة العيش ، الكثيرة الزرع والضرع والأدم ، والفواكه ، يتصف أهلها غالبا بالبلادة فى أذهانهم ، والخشونة فى أجسامهم ؛ وهذا شأن البربر المنغمسين فى الأدم والحنطة مع المتقشفين فى عيشهم المقتصرين على الشعير أو الذرة مثل المصامدة منهم وأهل غمارة والسوس فتجد هؤلاء أحسن حالا فى عقولهم وجسومهم . وكذا أهل بلاد المغرب على الجملة المنغمسين فى الأدم والبر ، مع أهل الأندلس المفقود بأرضهم السمن جملة وغالب عيشهم الذرة ، فتجد لأهل الأندلس من ذكاء العقول وخفة الأجسام وقبول التعليم ما لا يوجد لغيرهم ، وكذا أهل الضواحى من المغرب بالجملة مع أهل الحضر والأمصار ، فإن الأمصار وإن كانوا مكثرين مثلهم من الأدم ومخصبين فى العيش ، إلا أن استعمالهم إياها بعد العلاج بالطبخ والتلطيف بما يخلطون معها فيذهب لذلك غلظها ويرق قوامها . وعامة مآكلهم لحوم الضأن والدجاج ، ولا يغبطون السمن من بين الأدم لتفاهته فتقل الرطوبات لذلك فى أغذيتهم ويخف ما تؤديه إلى أجسامهم من الفضلات الردية ، فلذلك تجد جسوم أهل الأمصار ألطف من جسوم البادية المخشنين فى العيش ، وكذلك تجد المعودين بالجوع من أهل البادية لا فضلات فى جسومهم غليظة ولا لطيفة .

واعلم أن أثر هذا الخصب فى البدن وأحواله يظهر حتى فى حال الدين والعبادة . فنجد المتقشفين من أهل البادية أو الحاضرة ممن يأخذ نفسه بالجوع والتجافى عن الملاذ أحسن دينا وإقبالا على العبادة من أهل الترف والخصب ، بل نجد أهل الدين قليلين فى المدن والأمصار لما يعمها من القساوة والغفلة المتصلة بالإكثار من اللحمان والأدم ولباب البر ويختص وجود العباد والزهاد لذلك بالمتقشفين فى غذائهم من أهل البوادى .

وكذلك نجد هؤلاء المخصبين فى العيش ، المنغمسين فى طيباته من أهل البادية ومن أهل الحواضر والأمصار ، إذا نزلت بهم السنون وأخذتهم المجاعات يسرع إليهم الهلاك أكثر من غيرهم ، مثل برابرة المغرب وأهل مدينة فاس ومصر فيما يبلغنا ، لا مثل العرب أهل القفر والصحراء ، ولا مثل أهل بلاد النخل الذين غالب عيشهم التمر ، ولا مثل أهل أفريقية لهذا العهد الذين غالب عيشهم الشعير والزيت ، وأهل الأندلس الذين غالب عيشهم الذرة والزيت ، فإن هؤلاء وإن أخذتهم السنون والمجاعات

فَلَا تَنَال مِنْهُمْ مَا تَنَالُ مِنْ أُولَئِكَ وَلَا يَكْثُرُ فِيهِمُ الْهَلَاكُ بِالْجُوعِ ، بَلْ وَلَا يَنْدُرُ .

وَالسَّبَبُ فِى ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ : أَنَّ الْمُنْغَمِسِينَ فِى الْخِصْبِ الْمُتَعَوِّدِينَ لِلْأُدْمِ وَالسَّمْنِ خُصُوصًا تَكْتَسِبُ مِنْ ذَلِكَ أَمْعَاؤُهُمْ رُطُوبَةً فَوْقَ رُطُوبَتِهَا الْأَصْلِيَّةِ الْمِزَاجِيَّةِ حَتَّى تُجَاوِزَ حَدَّهَا ، فَإِذَا خُولِفَ بِهَا الْعَادَةُ بِقِلَّةِ الْأَقْوَاتِ ، وَفُقْدَانِ الْأُدْمِ وَاسْتِعْمَالِ الْخَشِنِ غَيْرِ الْمَأْلُوفِ مِنَ الْغِذَاءِ أَسْرَعَ إِلَى الْمِعَى[1] الْيُبْسُ وَالْإِنْكِمَاشُ وَهُوَ عُضْوٌ ضَعِيفٌ فِى الْغَايَةِ ، فَيُسْرِعُ إِلَيْهِ الْمَرَضُ وَيَهْلِكُ صَاحِبُهُ دَفْعَةً ، لِأَنَّهُ مِنَ الْمَقَاتِلِ . فَالْهَالِكُونَ فِى الْمَجَاعَاتِ إِنَّمَا قَتَلَهُمُ الشِّبَعُ الْمُعْتَادُ السَّابِقُ لَا الْجُوعُ الْحَادِثُ اللَّاحِقُ .

وَأَمَّا الْمُتَعَوِّدُونَ لِقِلَّةِ الْأُدْمِ وَالسَّمْنِ فَلَا تَزَالُ رُطُوبَتُهُمُ الْأَصْلِيَّةُ وَاقِفَةً عِنْدَ حَدِّهَا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَهِىَ قَابِلَةٌ لِجَمِيعِ الْأَغْذِيَةِ الطَّبِيعِيَّةِ فَلَا يَقَعُ فِى مِعَاهُمْ بِتَبَدُّلِ الْأَغْذِيَةِ يُبْسٌ وَلَا انْحِرَافٌ فَيَسْلَمُونَ فِى الْغَالِبِ مِنَ الْهَلَاكِ الَّذِى يَعْرِض لِغَيْرِهِم بِالْخِصْبِ وَكَثْرَةِ الْأُدْمِ فِى الْمَآكِلِ .

وَأَصْلُ هَذَا كُلِّهِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْأَغْذِيَةَ وَائْتِلَافَهَا أَوْ تَرْكَهَا إِنَّمَا هُوَ بِالْعَادَةِ . فَمَنْ عَوَّدَ نَفْسَهُ غِذَاءً وَلَاءَمَهُ تَنَاوُلُهُ ، كَانَ لَهُ مَأْلُوفًا وَصَارَ الْخُرُوجُ عَنْهُ وَالتَّبَدُّلُ بِهِ دَاءً مَا لَمْ يَخْرُجْ عَنْ غَرَضِ الْغِذَاءِ بِالْجُمْلَةِ كَالسُّمُومِ وَالْيَتُوعِ (٢) ، وَمَا أَفْرَطَ فِى الْانْحِرَافِ . فَأَمَّا مَا وُجِدَ فِيهِ التَّغَذِّى وَالْمُلَاءَمَةُ فَيَصِيرُ غِذَاءً مَأْلُوفًا بِالْعَادَةِ ، فَإِذَا أَخَذَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ بِاسْتِعْمَالِ اللَّبَنِ وَالْبَقْلِ عِوَضًا عَنِ الْحِنْطَةِ حَتَّى صَارَ لَهُ دَيْدَنًا ، فَقَدْ حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ غِذَاءً ، وَاسْتَغْنَى بِهِ عَنِ الْحِنْطَةِ وَالْحُبُوبِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ . وَكَذَا مَنْ عَوَّدَ نَفْسَهُ الصَّبْرَ عَلَى الْجُوعِ وَالِاسْتِغْنَاءَ عَنِ الطَّعَامِ ، كَمَا يُنْقَلُ عَنْ أَهْلِ الرِّيَاضِيَّاتِ ، فَإِنَّا نَسْمَعُ عَنْهُمْ فِى ذَلِكَ أَخْبَارًا غَرِيبَةً يَكَادُ يُنْكِرُهَا مَنْ لَا يَعْرِفُهَا

وَالسَّبَبُ فِى ذَلِكَ الْعَادَةُ ، فَإِنَّ النَّفْسَ إِذَا أَلِفَتْ شَيْئًا صَارَ مِنْ جِبِلَّتِهَا وَطَبِيعَتِهَا لِأَنَّهَا كَثِيرَةُ التَّلَوُّنِ ، فَإِذَا حَصَلَ لَهَا اعْتِيَادُ الْجُوعِ بِالتَّدْرِيجِ وَالرِّيَاضَةِ ، فَقَدْ حَصَلَ ذَلِكَ عَادَةً طَبِيعِيَّةً لَهَا . وَمَا يَتَوَهَّمُهُ الْأَطِبَّاءُ مِنْ أَنَّ الْجُوعَ مُهْلِكٌ فَلَيْسَ عَلَى مَا يَتَوَهَّمُونَهُ ، إِلَّا إِذَا حُمِلَتِ النَّفْسُ عَلَيْهِ دَفْعَةً ، وَقُطِعَ عَنْهَا الْغِذَاءُ بِالْكُلِّيَّةِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَنْحَسِمُ الْمِعَى ، وَيَنَالُهُ الْمَرَضُ الَّذِى يُخْشَى مَعَهُ الْهَلَاكُ . وَأَمَّا إِذَا كَانَ ذَلِكَ الْقَدْرُ تَدْرِيجًا وَرِيَاضَةً بِإِقْلَالِ الْغِذَاءِ شَيْئًا فَشَيْئًا كَمَا يَفْعَلُهُ الْمُتَصَوِّفَةُ ، فَهُوَ بِمَعْزِلٍ عَنِ الْهَلَاكِ

وَهَذَا التَّدْرِيجُ ضَرُورِىٌّ حَتَّى فِى الرُّجُوعِ عَنْ هَذِهِ الرِّيَاضَةِ . فَإِنَّهُ إِذَا رَجَعَ بِهِ إِلَى الْغِذَاءِ الْأَوَّلِ دَفْعَةً خِيفَ عَلَيْهِ الْهَلَاكُ ، وَإِنَّمَا يَرْجِع بِهِ كَمَا بَدَأَ فِى الرِّيَاضَةِ بِالتَّدْرِيجِ ، وَلَقَدْ شَاهَدْنَا مَنْ يَصْبِرُ عَلَى الْجُوعِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وِصَالًا وَأَكْثَرَ . وَحَضَرَ أَشْيَاخُنَا بِمَجْلِسِ السُّلْطَانِ ، أَبِى الْحَسَنِ ، وَقَدْ

---

(١) الأمعاء .

(٢) قال فى القاموس اليتوع كصبور أو تنور له لبن دار مسهل محرق مقطع والمشهور منه سبعة : الشبرم واللاعبة والعرطنيثا والماهودانة والمازريون والفلجلشت والعشر . وكل اليتوعات إذا استعملت فى غير وجهها أهلكت . اهـ .

دُفِعَ إِلَيْهِ امْرَأَتَانِ مِنْ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاء ، وَرَنْدَةَ ، حَبَسَتَا أَنْفُسَهُمَا عَنِ الْأَكْلِ جُمْلَةً مُنْذُ سِنِينَ ، وَشَاعَ أَمْرُهُمَا وَوَقَعَ اخْتِبَارُهُمَا ، فَصَحَّ شَأْنُهُمَا وَاتَّصَلَ عَلَى ذَٰلِكَ حَالُهُمَا إِلَى أَنْ مَاتَتَا . وَرَأَيْنَا كَثِيرًا مِنْ أَصْحَابِنَا أَيْضًا مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى حَلِيبِ شَاةٍ مِنَ الْمَعِزِ يَلْتَقِمُ ثَدْيَهَا فِى بَعْضِ النَّهَارِ أَوْ عِنْدَ الْإِفْطَارِ ، وَيَكُونُ ذَٰلِكَ غِذَاءَهُ وَاسْتَدَامَ عَلَى ذَٰلِكَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ، وَغَيْرُهُمْ كَثِيرٌ ، وَلَا يُسْتَنْكَرُ ذَٰلِكَ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الْجُوعَ أَصْلَحُ لِلْبَدَنِ مِنْ إِكْثَارِ الْأَغْذِيَةِ بِكُلِّ وَجْهٍ لِمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ ، أَوْ عَلَى الْإِقْلَالِ مِنْهَا ، وَأَنَّ لَهُ أَثَرًا فِى الْأَجْسَامِ وَالْعُقُولِ فِى صَفَائِهَا وَصَلَاحِهَا كَمَا قُلْنَاهُ . وَاعْتَبِرْ ذَٰلِكَ بِآثَارِ الْأَغْذِيَةِ الَّتِى تَحْصُلُ عَنْهَا فِى الْجُسُومِ ، فَقَدْ رَأَيْنَا الْمُتَغَذِّينَ بِلُحُومِ الْحَيَوَانَاتِ الْفَاخِرَةِ الْعَظِيمَةِ الْجُثْمَانِ ، تَنْشَأُ أَجْيَالُهُمْ كَذَٰلِكَ ، وَهٰذَا مُشَاهَدٌ فِى أَهْلِ الْبَادِيَةِ مَعَ أَهْلِ الْحَاضِرَةِ وَكَذَا الْمُتَغَذُّونَ بِأَلْبَانِ الْإِبِلِ وَلُحُومِهَا أَيْضًا ، مَعَ مَا يُؤَثِّرُ فِى أَخْلَاقِهِمْ مِنَ الصَّبْرِ وَالِاحْتِمَالِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى حَمْلِ الْأَثْقَالِ ، الْمَوْجُودِ ذَٰلِكَ لِلْإِبِلِ وَتَنْشَأُ أَمْعَاؤُهُمْ أَيْضًا عَلَى نِسْبَةِ أَمْعَاءِ الْإِبِلِ فِى الصِّحَّةِ وَالْغِلَظِ . فَلَا يَطْرُقُهَا الْوَهَنُ وَلَا يَنَالُهَا مِنْ مَدَارِ الْأَغْذِيَةِ مَا يَنَالُ غَيْرَهُمْ ، فَيَشْرَبُونَ الْيَتُّوعَاتِ لِاسْتِطْلَاقِ بُطُونِهِمْ غَيْرَ مَحْجُوبَةٍ كَالْحَنْظَلِ قَبْلَ طَبْخِهِ ، وَالدَّرْيَاسِ وَالْفَرْبِيُونِ ، وَلَا يَنَالُ أَمْعَاءَهُمْ مِنْهَا ضَرَرٌ وَهِىَ لَوْ تَنَاوَلَهَا أَهْلُ الْحَضَرِ الرَّقِيقَةِ أَمْعَاؤُهُمْ بِمَا نَشَأَتْ عَلَيْهِ مِنْ لَطِيفِ الْأَغْذِيَةِ لَكَانَ الْهَلَاكُ أَسْرَعَ إِلَيْهِمْ مِنْ طَرْفَةِ الْعَيْنِ ، لِمَا فِيهَا مِنَ السُّمِّيَّةِ .

وَمِنْ تَأْثِيرِ الْأَغْذِيَةِ فِى الْأَبْدَانِ مَا ذَكَرَهُ أَهْلُ الْفَلَاحَةِ ، وَشَاهَدَهُ أَهْلُ التَّجْرِبَةِ : أَنَّ الدَّجَاجَ إِذَا غُذِّيَتْ بِالْحُبُوبِ الْمَطْبُوخَةِ فِى بَعَرِ الْإِبِلِ ، وَاتُّخِذَ بَيْضُهَا ، ثُمَّ حَضَنَتْ عَلَيْهِ ، جَاءَ الدَّجَاجُ مِنْهَا أَعْظَمَ مَا يَكُونُ . وَقَدْ يَسْتَغْنُونَ عَنْ تَغْذِيَتِهَا وَطَبْخِ الْحُبُوبِ بِطَرْحِ ذَٰلِكَ الْبَعَرِ مَعَ الْبَيْضِ الْمُحَضَّنِ فَيَجِىءُ دَجَاجُهَا فِى غَايَةِ الْعِظَمِ . وَأَمْثَالُ ذَٰلِكَ كَثِيرَةٌ . فَإِذَا رَأَيْنَا هٰذِهِ الْآثَارَ مِنَ الْأَغْذِيَةِ فِى الْأَبْدَانِ ، فَلَا شَكَّ أَنَّ لِلْجُوعِ أَيْضًا آثَارًا فِى الْأَبْدَانِ لِأَنَّ الضِّدَّيْنِ عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ فِى التَّأْثِيرِ وَعَدَمِهِ ، فَيَكُونُ تَأْثِيرُ الْجُوعِ فِى نَقَاءِ الْأَبْدَانِ مِنَ الزِّيَادَاتِ الْفَاسِدَةِ وَالرُّطُوبَاتِ الْمُخْتَلِطَةِ الْمُخِلَّةِ بِالْجِسْمِ وَالْعَقْلِ ، كَمَا كَانَ الْغِذَاءُ مُؤَثِّرًا فِى وُجُودِ ذَٰلِكَ الْجِسْمِ وَاللّٰهُ مُحِيطٌ بِعِلْمِهِ .

المقدمة السادسة

فى أصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة أو الرياضة

ويتقدمه الكلام فى الوحى والرؤيا

إعلم أن الله سبحانه اصطفى من البشر أشخاصا فضلهم بخطابه، وفطرهم على معرفته، وجعلهم وسائل بينه وبين عباده، يعرفونهم بمصالحهم ويحرضونهم على هدايتهم، ويأخذون بحجزاتهم عن النار[1]، ويدلونهم على طريق النجاة، وكان فيما يلقيه إليهم من المعارف ويظهره على ألسنتهم من الخوارق والإخبار بالكائنات المغيبة عن البشر التى لاسبيل إلى معرفتها إلا من الله بوساطتهم، ولا يعلمونها إلا بتعليم الله إياهم. قال صلى الله عليه وسلم: «ألا وإنى لا أعلم إلا ما علمنى الله».

واعلم أن خبرهم فى ذلك من خاصيته وضرورته الصدق. لما يتبين لك عند بيان حقيقة النبوة. وعلامة هذا الصنف من البشر أن توجد لهم فى حال الوحى غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيط، كأنها غشى أو إغماء فى رأى العين، وليست منها فى شىء، وإنما هى فى الحقيقة استغراق فى لقاء الملك الروحانى بإدراكهم المناسب لهم، الخارج عن مدارك البشر بالكلية ثم يتنزل إلى المدارك البشرية، إما بسماع دوى من الكلام فيتفهمه، أو يتمثل له صورة شخص يخاطبه بما جاء به من عند الله، ثم تنجلى عنه تلك الحال، وقد وعى ما ألقى إليه، قال صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن الوحى: «أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على، فيفصم عنى[1]، وقد وعيت ما قال، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول» ويدركه أثناء ذلك من الشدة والغط مالا يعبر عنه. ففى الحديث: «كان يعالج من التنزيل شدة». وقالت عائشة: «كان ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا». وقال تعالى «إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا[2]»

ولأجل هذه الغاية فى تنزل الوحى كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون، ويقولون: له رئى أو تابع من الجن، وإنما لبس عليهم بما شاهدوه من ظاهر تلك الأحوال «ومن يضلل الله فما له من هاد[3]».

ومن علاماتهم أيضا: أنه يوجد لهم قبل الوحى خلق الخير والزكاء، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع، وهذا هو معنى العصمة، وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها،

---

(١) يصرفونهم عنها.

(١) يفارقنى.

(٢) سورة المزمل، آية: ٥.

(٣) سورة الزمر، آية: ٣٦.

وكأنها منافية لجبلته. وفي الصحيح: أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة، فجعلها في إزاره فانكشف فسقط مغشيا عليه حتى استتر بإزاره؛ ودعى إلى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب، فأصابه غشي النوم إلى أن طلعت الشمس، ولم يحضر شيئا من شأنهم بل نزهه الله عن ذلك كله حتى إنه بجبلته يتنزه عن المطعومات المستكرهة، فقد كان صلى الله عليه وسلم لايقرب البصل والثوم، فقيل له في ذلك فقال: «إني أناجي من لا تناجون».

وانظر لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم خديجة رضي الله عنها بحال الوحي أول ما فجأته. وأرادت اختباره، فقالت: اجعلني بينك وبين ثوبك، فلما فعل ذلك ذهب عنه فقالت: إنه ملك وليس بشيطان. ومعناه أنه لايقرب النساء. وكذلك سألته عن أحب الثياب إليه أن يأتيه فيها، فقال: البياض والخضرة، فقالت إنه الملك؛ يعني أن البياض والخضرة من ألوان الخير والملائكة؛ والسواد من ألوان الشر والشياطين، وأمثال ذلك.

ومن علاماتهم أيضا: دعاؤهم إلى الدين والعبادة من الصلاة والصدقة والعفاف، وقد استدلت خديجة على صدقه صلى الله عليه وسلم بذلك. وكذلك أبوبكر. ولم يحتاجا في أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلقه؛ وفي الصحيح: أن هرقل حين جاءه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام أحضر من وجد ببلده من قريش وفيهم أبوسفيان ليسألهم عن حاله. فكان فيما سأل أن قال: بم يأمركم؟ فقال أبو سفيان: بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف إلى آخر ما سأل، فأجابه فقال: إن يكن ماتقول حقا فهو نبي، وسيملك ماتحت قدمي هاتين، والعفاف الذي أشار إليه هرقل هو العصمة فانظر كيف أخذ من العصمة والدعاء إلى الدين والعبادة دليلا على صحة نبوته، ولم يحتج إلى معجزة فدل على أن ذلك من علامات النبوة.

ومن علاماتهم أيضا: أن يكونوا ذوي حسب في قومهم، وفي الصحيح «مابعث الله نبيا إلا في منعة من قومه»، وفي رواية أخرى «في ثروة من قومه» استدركه الحاكم على الصحيحين. وفي مسئلة هرقل لأبي سفيان كما هو في الصحيح قال: كيف هو فيكم؟ فقال أبوسفيان هو فينا ذوحسب. فقال هرقل: والرسل تبعث في أحساب قومها، ومعناه أن تكون له عصبة وشوكة تمنعه عن أذى الكفار، حتى يبلغ رسالة ربه، ويتم مراد الله من إكمال دينه وملته.

ومن علاماتهم أيضا: وقوع الخوارق لهم شاهدة بصدقهم. وهي أفعال يعجز البشر عن مثلها، فسميت بذلك معجزة، وليست من جنس مقدور العباد، وإنما تقع في غير محل قدرتهم، وللناس في كيفية وقوعها ودلالتها على تصديق الأنبياء خلاف.

فالمتكلمون: بناء على القول بالفعل المختار قائلون بأنها واقعة بقدرة الله لا بفعل النبي. وإن كانت أفعال العباد عند المعتزلة صادرة عنهم، إلا أن المعجزة لا تكون من جنس أفعالهم وليس للنبي فيها عند سائر المتكلمين إلا التحدي بها بإذن الله، وهو أن يستدل بها النبي صلى الله عليه وسلم قبل وقوعها على صدقه في مدعاه فإذا وقعت تنزلت منزلة القول الصريح من الله بأنه صادق، وتكون دلالتها حينئذ على الصدق قطعية. فالمعجزة دالة بمجموع الخارق والتحدي. ولذلك كان التحدي جزءا منها، وعبارة المتكلمين صفة نفسها، وهو واحد، لأنه معنى الذاتي عندهم.

والتحدي. هو الفارق بينها وبين الكرامة والسحر. إذ لا حاجة فيهما إلى التصديق، فلا وجود للتحدي إلا إن وجد اتفاقا، وإن وقع التحدي في الكرامة عند من يجيزها، وكانت لها دلالة فإنما هي على الولاية وهي غير النبوة ومن هنا منع الأستاذ أبو إسحق(1) وغيره وقوع الخوارق كرامة فرارا من الالتباس بالنبوة عند التحدي بالولاية، وقد أريناك المغايرة بينهما وأنه يتحدى بغير ما يتحدى به النبي فلا لبس. على أن النقل عن الأستاذ في ذلك ليس صريحا وربما حمل على إنكار لأن تقع خوارق الأنبياء لهم بناء على اختصاص كل من الفريقين بخوارقه.

وأما المعتزلة: فالمانع من وقوع الكرامة عندهم أن الخوارق ليست من أفعال العباد، وأفعالهم معتادة، فلا فرق. وأما وقوعها على يد الكاذب تلبيسا فهو محال.

أما عند الأشعرية: فلأن صفة نفس المعجزة التصديق والهداية، فلو وقعت بخلاف ذلك انقلب الدليل شبهة، والهداية ضلالة، والتصديق كذبا، واستحالت الحقائق، وانقلبت صفات النفس، وما يلزم من فرض وقوعه المحال لا يكون ممكنا. وأما عند المعتزلة فلأن وقوع الدليل شبهة والهداية ضلالة قبيح فلا يقع من الله.

وأما الحكماء: فالخارق عندهم من فعل النبي ولو كان في غير محل القدرة بناء على مذهبهم في الإيجاب الذاتي. ووقوع الحوادث، بعضها عن بعض متوقف على الأسباب. والشروط الحادثة مستندة أخيرا إلى الواجب الفاعل بالذات لا بالاختيار. وإن النفس النبوية عندهم لها خواص ذاتية، منها صدور هذه الخوارق بقدرته، وطاعة العناصر له في التكوين. والنبي عندهم مجبول على التصريف في الأكوان، مهما توجه إليها واستجمع لها بما جعل الله له من ذلك. والخارق عندهم يقع للنبي سواء كان للتحدي، أم لم يكن، وهو شاهد بصدقه من حيث دلالته على تصرف النبي في الأكوان الذي هو من خواص النفس النبوية، لا بأنه يتنزل منزلة القول الصريح بالتصديق؛ فلذلك لا تكون دلالتها عندهم قطعية، كما هي عند المتكلمين ولا

(1) الأسفراييني الفقيه الشافعي.

يكون التحدى جزءا من المعجزة ولم يصح فارقا
لها عن السحر والكرامة . وفارقها عندهم عن
السحر أن النبى مجبول على أفعال الخير مصروف
عن أفعال الشر ، فلا يلم الشر بخوارقه . والساحر
على الضد ؛ فأفعاله كلها شر وفى مقاصد الشر .
وفارقها عن الكرامة : أن خوارق النبى مخصوصة
كالصعود إلى السماء والنفوذ فى الأجسام الكثيفة ،
وإحياء الموتى وتكليم الملائكة والطيران فى الهواء .
وخوارق الولى دون ذلك كتكثير القليل والحديث
عن بعض المستقبل وأمثاله مما هو قاصر عن
تصريف الأنبياء ، ويأتى النبى بجميع خوارقه
ولا يقدر هو على مثل خوارق الأنبياء ، وقد قرر
ذلك المتصوفة فيما كتبوه فى طريقتهم ، ولقنوه
عمن أخبرهم .

وإذا تقرر ذلك فاعلم أن أعظم المعجزات
وأشرفها ، وأوضحها دلالة : القرآن الكريم ،
المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .
فإن الخوارق فى الغالب تقع مغايرة للوحى الذى
يتلقاه النبى ، ويأتى بالمعجزة شاهدة بصدقه .
والقرآن هو بنفسه الوحى المدعى . وهو الخارق
المعجز ، فشاهده فى عينه ، ولا يفتقر إلى دليل
مغاير له كسائر المعجزات مع الوحى . فهو
أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه .
وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم «ما من نبى
من الأنبياء إلا وأوتى من الآيات ما مثله آمن
عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحى
إلى ، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم
القيامة » ، يشير إلى أن المعجزة متى كانت
بهذه المثابة فى الوضوح وقوة الدلالة ، وهو
كونها نفس الوحى كان الصدق لها أكثر لوضوحها
فكثر المصدق المؤمن وهو التابع والأمة .

ولنذكر الآن تفسير حقيقة النبوة على
على ماشرحه كثير من المحققين ثم نذكر
حقيقة الكهانة ، ثم الرؤيا ثم شأن العرافين
وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول :

إعلم : أرشدنا الله وإياك أنا نشاهد هذا
العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من
الترتيب والإحكام ، وربط الأسباب بالمسببات ،
واتصال الأكوان بالأكوان واستحالة بعض
الموجودات إلى بعض ، لاتنقضى عجائبه فى
ذلك ولا تنتهى غاياته .

وأبدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجثمانى .
وأولا : عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعدا
من الأرض إلى الماء ، ثم إلى الهواء ثم إلى النار
متصلا بعضها ببعض وكل واحد منها مستعد إلى
أن يستحيل إلى ما يليه صاعدا وهابطا ، ويستحيل
بعض الأوقات . والصاعد منها ألطف مما قبله
إلى أن ينتهى إلى عالم الأفلاك وهو ألطف من
الكل على طبقات اتصل بعضها ببعض على هيئة
لا يدرك الحس منها إلا الحركات فقط ، وبها
يهتدى بعضهم إلى معرفة مقاديرها وأوضاعها
وما بعد ذلك من وجود الذوات التى لها هذه
الآثار فيها . ثم انظر إلى عالم التكوين كيف
ابتدأ من المعادن ثم النبات ، ثم الحيوان على

هيئة بديعة من التدريج وآخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش ، وما لابذر له ، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان ، مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط .

ومعنى الاتصال في هذه المكونات ، أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب[1] لأن يصير أول أفق الذي بعده ، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية ترتفع إليه من عالم القدرة[2] الذي اجتمع فيه الحس والإدراك ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل ، وكان ذلك أول أفق الإنسان بعده وهذا غاية شهودنا .

ثم إنا نجد في العوالم على اختلافها آثارا متنوعة . ففي عالم الحس آثار من حركات الأفلاك والعناصر . وفي عالم التكوين آثار من حركة النمو والإدراك تشهد كلها بأن لها مؤثرا مباينا للأجسام فهو روحاني ، ويتصل بالمكونات لوجود اتصال هذا العالم في وجودها ، ولذلك هو النفس المدركة والمحركة ولا بد فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الإدراك والحركة ، ويتصل بها أيضا ويكون ذاته إدراكا صرفا وتعقلا وهو محضا عالم الملائكة فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتا من الأوقات في لمحة من اللمحات ، وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل كما نذكره بعد .

ويكون لها اتصال بالأفق الذي بعدها شأن الموجودات المرتبة كما قدمناه فلها في الاتصال جهتا العلو والسفل ، وهي متصلة بالبدن من أسفل منها وتكتسب به المدارك الحسية التي تستعد بها للحصول على التعقل بالفعل ، ومتصلة من جهة الأعلى منها بأفق الملائكة ، ومكتسبة به المدارك العلمية والغيبية ؛ فإن عالم الحوادث موجود في تعقلاتهم من غير زمان ، وهذا على ما قدمناه من الترتيب المحكم في الوجود باتصال ذواته وقواه بعضها ببعض .

ثم إن هذه النفس الإنسانية غائبة عن العيان وآثارها ظاهرة في البدن فكأنه وجميع أجزائه مجتمعة ومفترقة آلات للنفس ولقواها.

أما الفاعلية فالبطش باليد والمشي بالرجل ، والكلام باللسان والحركة الكلية بالبدن متدافعا .

أما المدركة ، وإن كانت قوى الإدراك مرتبة ومرتقية إلى القوة العليا منها وهي المفكرة التي يعبر عنها بالناطقة فقوى الحس الظاهرة بآلاته من السمع والبصر وسائرها يرتقي إلى الباطن .وأوله الحس المشترك وهو قوة تدرك المحسوسات مبصرة ومسموعة وملموسة وغيرها في حالة واحدة ، وبذلك فارقت قوة الحس الظاهر ؛ لأن المحسوسات لاتزدحم عليها في الوقت الواحد ، ثم يؤدي الحس المشترك إلى الخيال . وهي قوة تمثل الشيء المحسوس في

---

(١) في بعض النسخ : القريب . وفي كلهما نظر .

(٢) هكذا في جميع النسخ وفي منشورة الدكتور وافي : « القردة » وينطلق منها إلى مناقشة قيمة لنظرية النشوء والارتقاء عند مفكري المسلمين وغيرهم . انظر ج ١ ص ٥٠٩ وهوامشها .

النَّفْسِ ، كَمَا هُوَ مُجَرَّدٌ عَنِ الْمَوَادِّ الْخَارِجَةِ فَقَطْ .

وَآلَةُ هَاتَيْنِ الْقُوَّتَيْنِ فِى تَصْرِيفِهِمَا : الْبَطْنُ الْأَوَّلُ مِنَ الدِّمَاغِ مُقَدَّمُهُ لِلْأُولَى وَمُؤَخَّرُهُ لِلثَّانِيَةِ ، ثُمَّ يَرْتَقِى الْخَيَالُ إِلَى الْوَاهِمَةِ وَالْحَافِظَةِ . فَالْوَاهِمَةُ لِإِدْرَاكِ الْمَعَانِى الْمُتَعَلِّقَةِ بِالشَّخْصِيَّاتِ ، كَعَدَاوَةِ زَيْدٍ وَصَدَاقَةِ عَمْرٍو وَرَحْمَةِ الْأَبِ وَافْتِرَاسِ الذِّئْبِ . وَالْحَافِظَةُ لِإِيدَاعِ الْمُدْرَكَاتِ كُلِّهَا مُتَخَيَّلَةً ، وَهِىَ لَهَا كَالْخِزَانَةِ تَحْفَظُهَا لِوَقْتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا . وَآلَةُ هَاتَيْنِ الْقُوَّتَيْنِ فِى تَصْرِيفِهِمَا : الْبَطْنُ الْمُؤَخَّرُ مِنَ الدِّمَاغِ ؛ أَوَّلُهُ لِلْأُولَى وَمُؤَخَّرُهُ لِلْأُخْرَى . ثُمَّ تَرْتَقِى جَمِيعُهَا إِلَى قُوَّةِ الْفِكْرِ وَآلَتُهُ الْبَطْنُ الْأَوْسَطُ مِنَ الدِّمَاغِ ، وَهِىَ الْقُوَّةُ الَّتِى يَقَعُ بِهَا حَرَكَةُ الرُّؤْيَةِ وَالتَّوَجُّهُ نَحْوَ التَّعَقُّلِ فَتُحَرِّكُ النَّفْسُ بِهَا دَائِمًا لِمَا رُكِّبَ فِيهَا مِنَ النُّزُوعِ لِلتَّخَلُّصِ مِنْ دَرْكِ الْقُوَّةِ وَالاسْتِعْدَادِ الَّذِى لِلْبَشَرِيَّةِ ، وَتَخْرُجُ إِلَى الْفِعْلِ فِى تَعَقُّلِهَا مُتَشَبِّهَةً بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى الرُّوحَانِىِّ ، وَتَصِيرُ فِى أَوَّلِ مَرَاتِبِ الرُّوحَانِيَّاتِ فِى إِدْرَاكِهَا بِغَيْرِ الْآلَاتِ الْجُسْمَانِيَّةِ ، فَهِىَ مُتَحَرِّكَةٌ دَائِمًا وَمُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ ذَلِكَ . وَقَدْ تَنْسَلِخُ بِالْكُلِّيَّةِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ وَرُوحَانِيَّتِهَا إِلَى الْمَلَكِيَّةِ مِنَ الْأُفُقِ الْأَعْلَى مِنْ غَيْرِ اكْتِسَابٍ بَلْ بِمَا جَعَلَ اللهُ فِيهَا مِنَ الْجِبِلَّةِ وَالْفِطْرَةِ الْأُولَى فِى ذَلِكَ .

وَالنُّفُوسُ الْبَشَرِيَّةُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ :

صِنْفٌ عَاجِزٌ بِالطَّبْعِ عَنِ الْوُصُولِ ، فَيَنْقَطِعُ بِالْحَرَكَةِ إِلَى الْجِهَةِ السُّفْلَى نَحْوَ الْمَدَارِكِ الْحِسِّيَّةِ وَالْخَيَالِيَّةِ ، وَتَرْكِيبِ الْمَعَانِى مِنَ الْحَافِظَةِ وَالْوَاهِمَةِ ، عَلَى قَوَانِينَ مَحْصُورَةٍ وَتَرْتِيبٍ خَاصٍّ ، يَسْتَفِيدُونَ بِهِ الْعُلُومَ التَّصَوُّرِيَّةَ وَالتَّصْدِيقِيَّةَ الَّتِى لِلْفِكْرِ فِى الْبَدَنِ ، وَكُلُّهَا خَيَالِىٌّ مُنْحَصِرٌ نِطَاقُهُ . إِذْ هُوَ مِنْ جِهَةِ مَبْدَئِهِ يَنْتَهِى إِلَى الْأَوَّلِيَّاتِ وَلَا يَتَجَاوَزُهَا ، وَإِنْ فَسَدَ فَسَدَ مَا بَعْدَهَا ، وَهَذَا هُوَ فِى الْأَغْلَبِ نِطَاقُ الْإِدْرَاكِ الْبَشَرِىِّ الْجُسْمَانِىِّ ، وَإِلَيْهِ تَنْتَهِى مَدَارِكُ الْعُلَمَاءِ ، وَفِيهِ تَرْسَخُ أَقْدَامُهُمْ .

وَصِنْفٌ مُتَوَجِّهٌ بِتِلْكَ الْحَرَكَةِ الْفِكْرِيَّةِ نَحْوَ الْعَقْلِ الرُّوحَانِىِّ ، وَالْإِدْرَاكِ الَّذِى لَا يَفْتَقِرُ إِلَى الْآلَاتِ الْبَدَنِيَّةِ ، بِمَا جُعِلَ فِيهِ مِنَ الاسْتِعْدَادِ لِذَلِكَ . فَيَتَّسِعُ نِطَاقُ إِدْرَاكِهِ عَنِ الْأَوَّلِيَّاتِ الَّتِى هِىَ نِطَاقُ الْإِدْرَاكِ الْأَوَّلِ الْبَشَرِىِّ ، وَيَسْرَحُ فِى فَضَاءِ الْمُشَاهَدَاتِ الْبَاطِنِيَّةِ ، وَهِىَ وِجْدَانٌ كُلُّهَا ، لَا نِطَاقَ لَهَا مِنْ مَبْدَئِهَا وَلَا مِنْ مُنْتَهَاهَا ، وَهَذِهِ مَدَارِكُ الْعُلَمَاءِ الْأَوْلِيَاءِ أَهْلِ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ وَالْمَعَارِفِ الرَّبَّانِيَّةِ ، وَهِىَ الْحَاصِلَةُ بَعْدَ الْمَوْتِ لِأَهْلِ السَّعَادَةِ فِى الْبَرْزَخِ .

وَصِنْفٌ مَفْطُورٌ عَلَى الانْسِلَاخِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ جُمْلَةً جُسْمَانِيَّتِهَا وَرُوحَانِيَّتِهَا إِلَى الْمَلَائِكَةِ مِنَ الْأُفُقِ الْأَعْلَى لِيَصِيرَ فِى لَمْحَةٍ مِنَ اللَّمَحَاتِ مَلَكًا بِالْفِعْلِ ، وَيَحْصُلَ لَهُ شُهُودُ الْمَلَإِ الْأَعْلَى فِى أُفُقِهِمْ وَسَمَاعُ الْكَلَامِ النَّفْسَانِىِّ وَالْخِطَابِ الْإِلَهِىِّ فِى تِلْكَ اللَّمْحَةِ ، وَهَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ . جَعَلَ اللهُ لَهُمُ الانْسِلَاخَ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ فِى تِلْكَ اللَّمْحَةِ ، وَهِىَ حَالَةُ الْوَحْىِ فِطْرَةً فَطَرَهُمُ اللهُ

عَلَيْهَا وَجِبلَّةً صَوَّرَهُمْ فيهَا ، وَنَزَّهَهُمْ عَنْ مَوَانِعِ الْبَدَن وَعَوَائِقِهِ مَادَامُوا مُلابِسين لهَا بِالْبَشَرِيَّةِ بِمَا رُكِبَ فى غرائزِهِمْ مِنَ الْقصد(١) وَالاستقامَةِ الَّتِى يُحاذون بِهَا تِلْكَ الْوِجْهَةَ ، وركَّزَ فى طبَائِعِهِمْ رَغْبَةً فى الْعِبَادَةِ تكْشَف بِتِلْكَ الْوِجْهَةِ وَتَشيع(٢) نَحْوَهَا ، فَهُمْ يَتَوَجَّهُونَ إِلَى ذَلِكَ الأُفُقِ بِذَلِكَ النَّوْعِ مِنَ الانسِلاخ متى شاءُوا بِتِلْكَ الْفِطْرَةِ الَّتِى فُطِرُوا عَلَيْهَا ، لَا بِاكْتِسَاب وَلَا صِناعة . فإذَا تَوَجَّهُوا وَانسلَخوا عَنْ بَشَرِيتهمْ وَتَلَقَّوْا فى ذَلِكَ الْمَلَإِ الأَعْلَى مَايَتَلَقَّوْنَهُ ، عَاجُوا بِهِ عَلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ مُنَزَّلاً فى قُوَاهَا لِحِكْمَةِ التَّبْلِيغِ لِلعِبَادِ ، فَتَارَةً يَسمَعُ أَحَدُهُمْ دَوِيًّا كَأَنَّهُ رَمْزٌ مِنَ الْكَلامِ يَأْخُذُ مِنْهُ الْمَعْنَى الَّذِى أُلقِى إِلَيْهِ فَلَا يَنقضِى الدوِىُّ إلا وَقَدْ وَعَاهُ وَفهِمه . وَتَارَةً يَتَمَثَّلُ له الْمَلَكُ الَّذِى يُلْقِى إليه رَجُلا ، فَيُكَلِّمُهُ وَيعِى مَا يَقُولُهُ . وَالتَّلَقِّى مِنَ الْمَلَكِ وَالرجوع إِلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ وَفَهْمُهُ مَا أُلقِى عليْهِ كُلُّهُ كَأَنَّه فى لحظة وَاحِدَة ، بَلْ أقْرَبُ مِنْ لمح الْبَصرِ لأنَّهُ ليس فى زَمَان ، بَلْ كلّهَا تَقعُ جميعا فَيظْهَرُ كأَنَّهَا سَرِيعَة وَلِذَلِكَ سُميت وَحْيا لأنَّ الْوَحْى لغَةً الإسْرَاعُ ، وَاعلم أنَّ الأولى وهى حالَةُ الدوى هىَ رتبَةُ الأَنْبِيَاء غيرِ الْمُرْسَلِين عَلَى مَاحَقَّقُوه . وَالثَانِيَة وهى حالَةُ تمثلِ الْمَلَك رجُلا يخاطِبُ هى رُتْبَةُ الأَنْبِيَاء الْمُرْسَلِينَ ، وَلِذَلِكَ كَانَتْ أَكْمَلَ مِنَ الأولَى . وَهَذَا مَعْنَى الْحَدِيث الَّذِى فَسَّرَ فِيهِ النَّبِىُّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَحْىَ ، لَمَّا سَأَلَهُ الْحَارثُ بْن هِشَام وَقَالَ : كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْى ؟ فَقَالَ : « أَحْيَانًا يَأْتِينِى مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَىَّ فَيَفْصِمُ عَنِّى وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لى الْمَلَكُ رَجُلاً فَيُكَلِّمُنى فَأَعِى مَايَقُولُ » وَإِنَّمَا كَانَتِ الأُولَى أَشَدَّ ، لأَنَّهَا مَبْدَأُ الْخُرُوجِ فى ذَلِكَ الاتصال مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ ، فَيَعْسُر بَعْضَ الْعُسْرِ ، وَلِذَلِكَ لَمَّاعَاجَ(١) فيها عَلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّة اخْتَصَّتْ بِالسَّمْعِ وَصَعُبَ ماسِواهُ وَعِنْدَ مَا يَتَكَرَّرُ الْوَحىُ وَيَكْثُرُ التَّلَقِّى يسهل ذلِكَ الاتصال ، فَعِنْدَمَا يَعُوجُ إِلَى الْمَدَارِك الْبَشَرِيَّةِ يَأْتِى عَلَى جَمِيعِهَا وَخصوصًا الأَوْضَح مِنْهَا ، وَهُوَ إدرَاكُ الْبَصرِ . وفى العبارة عَن الْوَعْى فى الأُولى بصيغة الماضى ، وفى الثانية بصيغة المضارع لطيفة من البلاغة وهى : أنَّ الْكَلام جَاء مجىء التَّمْثِيلِ لِحَالَتَىِ الْوَحْىِ فَمثَّل الْحَالَةَ الأُولى بِالدوِىّ الَّذِى هُوَ فِى الْمُتَعَارَفِ غيْرُ كَلام ، وَأَخبَرَ أَنَّ الْفَهْمَ وَالْوَعْىَ يَتْبَعُهُ غب(٢) انقِضائِهِ فَنَاسب عِنْدَ تَصْوِيرِ انْقِضَائِهِ وَانفِصَالِهِ الْعِبَارَةَ عَنِ الْوَعْىِ بِالْمَاضى الْمُطَابِقِ لِلانقضاء وَالانقطاع ، وَمَثَّلَ الْمَلَكَ فِى الْحَالَةِ الثَّانِيَةِ بِرَجُل يُخَاطِبُ وَيَتَكَلَّم، وَالْكَلام يُسَاوِقه(٣) الْوَعْىُ فَنَاسَبَ الْعِبَارَةَ بِالْمُضَارِعِ الْمُقْتَضِى لِلتَّجَدُّدِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ فِى حَالَةِ الْوَحْىِ كُلّهَا صُعُوبَةً عَلَى الْجُمْلَةِ ، وَشِدَّةً . قَدْ أَشَارَ إِلَيْهَا الْقُرْآن ، قالَ تعالى

(١) الاعتدال والتوسط .

(٢) فى جميع النسخ « تسيغ » وما أثبتناه عن منشورة « د. وافى » وهو أقرب إلى الصواب وإلى سياق اسلوب ابن خلدون فى هذه الفقرة .

(١) يعنى : أعتمد عليها .

(٢) بعد انقضائه .

(٣) يسايره ويكون معه .

«إنَّا سَنلقِي عَلَيكَ قولاً ثَقيلاً(١)» وقالت عائشة: «كَانَ يُعَانِي مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً.» وقَالَتْ: «كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيفصمُ(٢) عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا» وَلِذَلِكَ كَانَ يَحْدُثُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ مِنَ الْغَيْبَةِ وَالْغَطِيطِ مَاهُو معروفٌ.

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْوَحْيَ كَمَا قَرَّرْنَا مُفَارَقَةُ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَدَارِكِ الْمَلَكِيَّةِ، وَتَلَقِّي كَلَامِ النَّفْسِ فَيَحْدُثُ عَنْهُ شِدَّةٌ مِنْ مُفَارَقَةِ الذَّاتِ ذَاتَهَا وَانْسِلَاخِهَا عَنْهَا مِنْ أُفُقِهَا إِلَى ذَلِكَ الْأُفُقِ الْآخَرِ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْغَطِّ الَّذِي عَبَّرَ بِهِ فِي مَبْدَإِ الْوَحْيِ فِي قَوْلِهِ «فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْد، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ، وَكَذَا ثَانِيَةً وَثَالِثَةً» كَمَا فِي الْحَدِيثِ. وَقَدْ يُفْضِي الاعْتِيَادُ بِالتَّدرِيجِ فِيهِ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى بَعْضِ السُّهُولَةِ بِالْقِيَاسِ إِلَى مَا قَبْلَهُ، وَلِذَلِكَ كَانَ تَنَزُّلُ نُجُومِ(٣) الْقُرآن وسورِهِ وَآيِهِ حِينَ كَانَ بِمَكَّةَ أَقْصَرَ مِنْهَا وَهو بِالْمَدِينَةِ. وَانْظُرْ إِلَى مَا نُقِلَ فِي نُزُولِ سورةِ بَرَاءَةَ فِي غَزْوَةِ تبوك، وَأَنَّهَا نَزَلَتْ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا عَلَيْهِ وَهُوَ يَسِيرُ عَلَى نَاقَتِهِ، بَعْدَ أَنْ كَانَ بِمَكَّةَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ بَعْضُ السُّورَةِ مِنْ قِصَارِ الْمفصَّلِ فِي وَقْت، وَيَنْزِلُ الْبَاقِي فِي حِينٍ آخَرَ. وَكَذَلِكَ كَانَ آخِرُ مَا نزل بِالْمَدِينَةِ آيَةَ الدَّين(٤)، وَهِيَ مَاهِيَ فِي الطُّول بَعدأَنْ كَانَتِ الْآيَةُ تُنَزَّلُ بِمَكَّةَ، مِثْلَ آيات «الرحمن» وَ«الذَّارِيَاتِ» وَ«الْمُدَّثِّر» وَ«الضحى» وَ«الفلق» وَأَمْثَالِهَا. وَاعتبرْ مِنْ ذَلِكَ عَلَامَةً تُمَيِّزُ بِهَا بَيْنَ الْمَكِّي وَالْمَدَنِي مِنَ السُّوَرِ وَالْآيَاتِ، وَاللهُ الْمُرْشِدُ إِلَى الصَّوَابِ. هَذَا مُحَصَّلُ أَمْرِ النُّبُوَّةِ.

وَأَمَّا الْكَهَانَةُ: فَهِيَ أَيْضًا مِنْ خَوَاصِّ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي جَمِيعِ مَا مَرَّ، أَنَّ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ اسْتِعْدَادًا لِلانْسِلَاخِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي فَوْقَهَا، وَأَنَّهُ يَحْصُلُ مِنْ ذَلِكَ لَمْحَةٌ لِلْبَشَرِ فِي صِنْفِ الْأَنْبِيَاءِ بِمَا فُطِرُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ، وَتَقَرَّرَ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ غَيْرِ اكْتِسَابٍ وَلَا اسْتِعَانَةٍ بشيء من المدارك ولا من التصوّرات ولا من الأفعال البدنيَّة كلامًا أو حركةً وَلَا بِأَمْرٍ مِنَ الأمورِ. إِنَّمَا هُوَ انسلاخٌ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَكِيَّةِ بِالْفِطْرَةِ فِي لَحْظَةٍ أَقْرَبَ مِنْ لَمحِ الْبَصَرِ.

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ وَكَانَ ذَلِكَ الاسْتِعْدَادُ موجودًا فى الطَّبيعة البشرية، فَيُعْطِي التَّقْسِيمُ الْعَقْلِيُّ، أَنَّ هُنَا صِنفًا آخرَ مِنَ الْبَشَرِ نَاقِصًا عَن رُتْبَةِ الصِّنْفِ الْأَوَّلِ نُقْصَانَ الضِّدِّ عَن ضِدِّهِ الْكَامِلِ؛ لِأَنَّ عَدَمَ الاسْتِعَانَةِ فى ذَلِكَ الْإِدْرَاكِ ضِدُّ الاسْتِعَانَةِ فيهِ وشَتَّانَ مَا بَيْنَهُمَا، فَإِذَا أُعْطِيَ تَقْسِيمُ الْوُجُودِ إِلَى هُنَا صِنفًا آخرَ مِنَ الْبَشرِ مَفْطُورًا عَلَى أَنْ تتحرَّكَ قُوَّتُهُ الْعَقْلِيَّةُ حَرَكتها الْفِكْرِيَّةَ بالْإِرَادَةِ عِنْدَ مَايَبْعَثُهَا النُّزُوعُ لذلِكَ وَهِيَ نَاقِصَةٌ عَنْهُ بِالْجِبِلَّةِ فَيكُونُ لها بالجبلَّة عِنْدَمَا يُعَوِّقُهَا الْعجزُ عَنْ ذَلِكَ تَشَبُّثٌ بِأُمُورٍ جُزْئِيَّةٍ مَحْسُوسَةٍ أَوْ مُتَخَيَّلَةٍ، كَالْأَجْسَامِ الشَّفَّافَةِ، وَعِظَامِ الْحَيَوَانَاتِ، وَسَجْعِ الْكَلَامِ، وَمَا سَنَحَ مِنْ طَيرٍ أو حَيَوَانٍ، فَيَسْتَدِيمُ ذَلِكَ الاحساسَ أو التَّخَيُّلَ مُسْتَعِينًا بِهِ فى ذَلِكَ الانْسِلَاخِ الَّذِي

(١) سورة المزمل، آية: ٥. (٢) يفارقه.
(٣) متفرقاته. (٤) الآيه ١٨٢ سورة البقرة.

بقصده ، ويكون كالمشيع له ، وهذه القوة التي فيهم مبدأ لذلك الإدراك ، هي الكهانة .

ولكون هذه النفوس مفطورة على النقص والقصور عن الكمال ، كان إدراكها في الجزئيات أكثر من الكليات ، ولذلك تكون المخيلة فيهم في غاية القوة ، لأنها آلة الجزئيات فتنفذ فيها نفوذا تاما في نوم أو يقظة ، وتكون عندها حاضرة عتيدة تحضرها المخيلة وتكون لها كالمرآة تنظر فيها دائما ، ولا يقوى الكاهن على الكمال في إدراك المعقولات لأن وحيه من وحي الشيطان ، وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموازنة ، ليشتغل به عن الحواس ويقوى بعض الشيء على ذلك الاتصال الناقص ، فيهجس في قلبه عن تلك الحركة ، والذي يشيعها من ذلك الأجنبي ما يقذفه على لسانه فربما صدق ووافق الحق ، وربما كذب لأنه يتمم نقصه بأمر أجنبي عن ذاته المدركة ، ومباين لها غير ملائم ، فيعرض له الصدق والكذب جميعا ، ولا يكون موثوقا به ، وربما يفزع إلى الظنون والتخمينات حرصا على الظفر بالإدراك بزعمه ، وتمويها على السائلين.

وأصحاب هذا السجع هم المخصوصون باسم الكهان لأنهم أرفع سائر أصنافهم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم في مثله : «هذا من سجع الكهان» ، فجعل السجع مختصا بهم بمقتضى الإضافة ، وقد قال لابن صياد حين سأله كاشفا عن حاله بالإخبار : «كيف يأتيك هذا الأمر ؟ قال يأتيني صادقا وكاذبا» ، فقال : «خلط عليك الأمر» يعني أن النبوة خاصتها الصدق فلا يعتريها الكذب بحال ، لأنها اتصال من ذات النبي بالملإ الأعلى من غير مشيع ولا استعانة بأجنبي ، والكهانة لما احتاج صاحبها بسبب عجزه إلى الاستعانة بالتصورات الأجنبية ، كانت داخلة في إدراكه ، والتبست بالإدراك الذي توجه إليه فصار مختلطا بها وطرقه الكذب من هذه الجهة فامتنع أن تكون نبوة ، وإنما قلنا إن أرفع مراتب الكهانة حالة السجع لأن معنى السجع أخف من سائر المغيبات من المرئيات والمسموعات . وتدل خفة المعنى على قرب ذلك الاتصال والإدراك ، والبعد فيه عن العجز بعض الشيء .

وقد زعم بعض الناس أن هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدي البعثة ، وأن ذلك كان لمنعهم ، من خبر السماء كما وقع في القرآن(١). والكهان إنما يتعرفون أخبار السماء من الشياطين فبطلت الكهانة من يومئذ . ولا يقوم من ذلك دليل لأن علوم الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم أيضا ، كما قررناه . وأيضا : فالآية إنما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء ، وهو ما يتعلق بخبر البعثة ، ولم يمنعوا مما سوى ذلك وأيضا فإنما كان ذلك الانقطاع بين يدي النبوة فقط ، ولعلها عادت بعد ذلك إلى ما كانت عليه ، وهذا هو الظاهر لأن هذه المدارك كلها تخمد ، في زمن النبوة ، كما تخمد الكواكب

(١) سورة الجن ، آية : ٩ .

وَالسُّرُجِ عِنْدَ وُجُودِ الشَّمْسِ ، لأَنَّ النُّبُوَّةَ هِيَ النُّورُ الأَعْظَمُ الَّذِي يَخْفَى مَعَهُ كُلُّ نُورٍ وَيَذْهَبُ .

وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ أَنَّهَا إِنَّمَا تُوجَدُ بَيْنَ يَدَيِ النُّبُوَّةِ ، ثُمَّ تَنْقَطِعُ . وَهٰكَذَا كُلُّ نُبُوَّةٍ وَقَعَتْ لأَنَّ وُجُودَ النُّبُوَّةِ لَابُدَّ لَهُ مِنْ وَضْعٍ فَلَكِيٍّ يَقْتَضِيهِ وَفِي تَمَامِ ذٰلِكَ الْوَضْعِ تَمَامُ تِلْكَ النُّبُوَّةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا ، وَنَقْصُ ذٰلِكَ الْوَضْعِ عَنِ التَّمَامِ يَقْتَضِي وُجُودَ طَبِيعَةٍ مِنْ ذٰلِكَ النَّوْعِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ نَاقِصَةً ، وَهُوَ مَعْنَى الْكَاهِنِ عَلَى مَا قَرَّرْنَاهُ . فَقَبْلَ أَنْ يَتِمَّ ذٰلِكَ الْوَضْعُ الْكَامِلُ يَقَعُ الْوَضْعُ النَّاقِصُ وَيَقْتَضِي وُجُودَ الْكَاهِنِ . إِمَّا وَاحِدًا ، أَوْ مُتَعَدِّدًا ، فَإِذَا تَمَّ ذٰلِكَ الْوَضْعُ تَمَّ وُجُودُ النَّبِيِّ بِكَمَالِهِ ، وَانْقَضَتِ الأَوْضَاعُ الدَّالَّةُ عَلَى مِثْلِ تِلْكَ الطَّبِيعَةِ ، فَلَا يُوجَدُ مِنْهَا شَيْءٌ بَعْدُ . وَهٰذَا بِنَاءٌ عَلَى أَنَّ بَعْضَ الْوَضْعِ الْفَلَكِيِّ يَقْتَضِي بَعْضَ أَثَرِهِ وَهُوَ غَيْرُ مُسَلَّمٍ . فَلَعَلَّ الْوَضْعَ إِنَّمَا يَقْتَضِي ذٰلِكَ الأَثَرَ بِهَيْئَتِهِ الْخَالِصَةِ ، وَلَوْ نَقَصَ بَعْضُ أَجْزَائِهَا فَلَا يَقْتَضِي شَيْئًا لَا أَنَّهُ يَقْتَضِي ذٰلِكَ الأَثَرَ نَاقِصًا كَمَا قَالُوهُ .

ثُمَّ إِنَّ هٰؤُلَاءِ الْكُهَّانَ إِذَا عَاصَرُوا زَمَنَ النُّبُوَّةِ فَإِنَّهُمْ عَارِفُونَ بِصِدْقِ النَّبِيِّ وَدَلَالَةِ مُعْجِزَتِهِ لأَنَّ لَهُمْ بَعْضَ الْوِجْدَانِ مِنْ أَمْرِ النُّبُوَّةِ ، كَمَا لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ أَمْرِ النَّوْمِ (١) ، وَمَعْقُولِيَّةُ تِلْكَ النِّسْبَةِ مَوْجُودَةٌ لِلْكَاهِنِ بِأَشَدَّ مِمَّا لِلنَّائِمِ ، وَلَا يَصُدُّهُمْ عَنْ ذٰلِكَ وَيُوقِعُهُمْ فِي التَّكْذِيبِ إِلَّا قُوَّةُ الْمَطَامِعِ فِي أَنَّهَا نُبُوَّةٌ لَهُمْ ، فَيَقَعُونَ فِي الْعِنَادِ كَمَا وَقَعَ لِأُمَيَّةَ ابْنِ أَبِي الصَّلْتِ فَإِنَّهُ كَانَ يَطْمَعُ أَنْ يَتَنَبَّأَ ، وَكَذَا وَقَعَ لِابْنِ صَيَّادٍ ، وَلِمُسَيْلِمَةَ وَغَيْرِهِمْ ، فَإِذَا غَلَبَ الإِيمَانُ وَانْقَطَعَتْ تِلْكَ الأَمَانِيُّ آمَنُوا أَحْسَنَ إِيمَانٍ ، كَمَا وَقَعَ لِطُلَيْحَةَ الأَسَدِيِّ وَسَوَادِ ابْنِ قَارِبٍ ، وَكَانَ لَهُمَا فِي الْفُتُوحَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ مِنَ الآثَارِ الشَّاهِدَةِ بِحُسْنِ الإِيمَانِ .

وَأَمَّا الرُّؤْيَا : فَحَقِيقَتُهَا مُطَالَعَةُ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ فِي ذَاتِهَا الرُّوحَانِيَّةِ ، لَمْحَةً مِنْ صُوَرِ الْوَاقِعَاتِ ، فَإِنَّهَا عِنْدَ مَا تَكُونُ رُوحَانِيَّةً ، تَكُونُ صُوَرُ الْوَاقِعَاتِ فِيهَا مَوْجُودَةً بِالْفِعْلِ ، كَمَا هُوَ شَأْنُ الذَّوَاتِ الرُّوحَانِيَّةِ كُلِّهَا ، وَتَصِيرُ رُوحَانِيَّةً بِأَنْ تَتَجَرَّدَ عَنِ الْمَوَادِّ الْجِسْمَانِيَّةِ ، وَالْمَدَارِكِ الْبَدَنِيَّةِ . وَقَدْ يَقَعُ لَهَا ذٰلِكَ لَمْحَةً بِسَبَبِ النَّوْمِ كَمَا نَذْكُرُ فَتَقْتَبِسُ بِهَا عِلْمَ مَا تَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ مِنَ الأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ ، وَتَعُودُ بِهِ إِلَى مَدَارِكِهَا ، فَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ الاقْتِبَاسُ ضَعِيفًا وَغَيْرَ جَلِيٍّ بِالْمُحَاكَاةِ ، وَالْمِثَالِ فِي الْخَيَالِ لِتَخَلُّصِهِ ، فَيَحْتَاجُ مِنْ أَجْلِ هٰذِهِ الْمُحَاكَاةِ إِلَى التَّعْبِيرِ ، وقد يكون الاقتباسُ قويًا يُسْتَغْنَى فِيهِ عن المحاكاة فلا يَحْتَاجُ إِلَى تَعْبِيرٍ لِخُلُوصِهِ مِنَ الْمِثَالِ وَالْخَيَالِ

وَالسَّبَبُ فِي وُقُوعِ هٰذِهِ اللَّمْحَةِ لِلنَّفْسِ : أَنَّهَا ذَاتٌ رُوحَانِيَّةٌ بِالْقُوَّةِ ، مُسْتَكْمِلَةٌ بِالْبَدَنِ وَمَدَارِكِهِ حَتَّى تَصِيرَ ذَاتُهَا تَعَقُّلًا مَحْضًا ، وَيَكْمُلَ وُجُودُهَا بِالْفِعْلِ ، فَتَكُونَ حِينَئِذٍ ذَاتًا رُوحَانِيَّةً مُدْرِكَةً بِغَيْرِ شَيْءٍ مِنَ الآلَاتِ الْبَدَنِيَّةِ إِلَّا أَنَّ نَوْعَهَا فِي الرُّوحَانِيَّاتِ دُونَ نَوْعِ الْمَلَائِكَةِ أَهْلِ الأُفُقِ

---

(١) فى أكثر النسخ : اليوم ، وما أثبتناه عن منشورة د . وافى ص ٥٢١ ج ١ . ويؤكده السياق .

الأعلى على الذين لم يستكملوا ذواتهم بشيء من مدارك البدن ولا غيره . فهذا الاستعداد حاصل لها ما دامت فى البدن ، ومنه خاص كالذى للأولياء . ومنه عام للبشر على العموم وهو أمر الرؤيا . وأما الذى للأنبياء فهو استعداد بالانسلاخ من البشرية إلى الملكية المحضة التى هى أعلى الروحانيات ، ويخرج هذا الاستعداد فيهم متكررا فى حالات الوحى . وهو عندما يعرج على المدارك البدنية ويقع فيها ما يقع من الإدراك يكون شبيها بحال النوم شبها بينا ، وإن كان حال النوم أدنى منه بكثير فلأجل هذا الشبه عبر الشارع عن الرؤيا بأنها «جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة» ، وفى رواية : «ثلاثة وأربعين» وفى رواية : سبعين . وليس العدد فى جميعها مقصودا بالذات ، وإنما المراد الكثرة فى تفاوت هذه المراتب ، بدليل ذكر السبعين فى بعض طرقه وهو للتكثير عند العرب ، وما ذهب إليه بعضهم فى رواية ستة وأربعين من أن الوحى كان فى مبدئه بالرؤيا ستة أشهر وهى نصف سنة ، ومدة النبوة كلها بمكة والمدينة ثلاث وعشرون سنة ، فنصف السنة منها جزء من ستة وأربعين فكلام بعيد من التحقيق . لأنه إنما وقع ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم . ومن أين لنا أن هذه المدة وقعت لغيره من الأنبياء ، مع أن ذلك إنما يعطى نسبة زمن الرؤيا من زمن النبوة ولا يعطى حقيقتها من حقيقة النبوة .

وإذا تبين لك هذا مما ذكرناه أولا علمت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الأول الشامل للبشر إلى الاستعداد القريب الخاص بصنف الأنبياء الفطرى لهم ، صلوات الله عليهم إذ هو الاستعداد البعيد وإن كان عاما فى البشر ومعه عوائق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل .

ومن أعظم تلك الموانع الحواس الظاهرة . ففطر الله البشر على ارتفاع حجاب الحواس بالنوم الذى هو جبلى لهم ، فتتعرض النفس عند ارتفاعه إلى معرفة ما تتشوف إليه فى عالم الحق ، فتدرك فى بعض الأحيان منه لمحة يكون فيها الظفر بالمطلوب ، ولذلك جعلها الشارع من المبشرات ، فقال : «لم يبق من النبوة إلا المبشرات قالوا وما المبشرات يا رسول الله ؟ قال : الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح ، أو ترى له» .

وأما سبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم ، فعلى ما أصفه لك ، وذلك أن النفس الناطقة إنما إدراكها وأفعالها بالروح الحيوانى الجسمانى ، وهو بخار لطيف مركزه بالتجويف الأيسر من القلب على ما فى كتب التشريح لجالنوس وغيره ، وينبعث مع الدم فى الشريانات والعروق ، فيعطى الحس والحركة وسائر الأفعال البدنية . ويرتفع لطيفه إلى الدماغ ، فيعدل من برده وتتم أفعال القوى التى فى بطونه . فالنفس الناطقة إنما تدرك وتعقل بهذا الروح البخارى ، وهى متعلقة به لما اقتضته حكمة التكوين فى أن اللطيف لا يؤثر فى

الكثيفِ ، ولمّا لطُفَ هذا الروحُ الحيوانيُّ من بينِ الموادِّ البدنيةِ صارَ محلًّا لآثارِ الذاتِ المباينةِ له في جسمانيتِه وهي النفسُ الناطقةُ ، وصارتْ آثارُها حاصلةً في البدنِ بواسطتِه . وقد كنّا قدّمنا أنّ إدراكَها على نوعين : إدراكٌ بالظاهرِ وهو الحواسُّ الخمسُ . وإدراكٌ بالباطنِ ، وهو القوى الدماغيةُ . وأنّ هذا الإدراكَ كلَّه صارفٌ لها عن إدراكِها ما فوقَها من ذواتِها الروحانيةِ التي هي مستعدةٌ له بالفطرةِ . ولمّا كانتِ الحواسُّ الظاهرةُ جسمانيةً ، كانتْ معرَّضةً للوسنِ والفشلِ بما يدركُها من التعبِ والكلالِ وتغشّي الروحِ بكثرةِ التصرّفِ ، فخلقَ اللهُ لها طلبَ الاستجمامِ لتجرّدِ الإدراكِ على الصورةِ الكاملةِ ، وإنّما يكونُ ذلك بانخناسِ(١) الروحِ الحيوانيِّ من الحواسِّ الظاهرةِ كلِّها ، ورجوعِه إلى الحسِّ الباطنِ ، ويعينُ على ذلك ما يغشى البدنَ من البردِ بالليلِ ، فتطلبُ الحرارةُ الغريزيةُ أعماقَ البدنِ وتذهبُ من ظاهرِه إلى باطنِه فتكونُ مشيّعةً مركبَها وهو الروحُ الحيوانيُّ إلى الباطنِ ، ولذلك كانَ النومُ للبشرِ في الغالبِ إنّما هو بالليلِ . فإذا انخنسَ الروحُ عن الحواسِّ الظاهرةِ ورجعَ إلى القوى الباطنةِ وخفّتْ عن النفسِ شواغلُ الحسِّ وموانعُه ، ورجعتْ إلى الصورةِ التي في الحافظةِ تمثّلَ منها بالتركيبِ والتحليلِ صورٌ خياليةٌ ، وأكثرُ ما تكونُ معتادةً لأنّها منتزعةٌ من المدركاتِ المتعاهدةِ قريبًا ، ثمّ ينزلُها الحسُّ المشتركُ الذي هو جامعُ الحواسِّ الظاهرةِ فيدركُها على أنحاءِ الحواسِّ الخمسِ الظاهرةِ . وربّما التفتتِ النفسُ لفتةً إلى ذاتِها الروحانيةِ مع منازعتِها القوى الباطنيةَ ، فتدركُ بإدراكِها الروحانيِّ ، لأنّها مفطورةٌ عليه . وتقتبسُ من صورِ الأشياءِ التي صارتْ متعلّقةً في ذاتِها حينئذٍ ، ثمّ يأخذُ الخيالُ تلك الصورَ المدركةَ فيمثّلُها بالحقيقةِ أو المحاكاةِ في القوالبِ المعهودةِ . والمحاكاةُ من هذه هي المحتاجةُ للتعبيرِ ، وتصرّفُها بالتركيبِ والتحليلِ في صورِ الحافظةِ قبلَ أن تدركَ من اللمحةِ ما تدركُه ، هي أضغاثُ أحلامٍ . وفي الصحيحِ أنّ النبيَّ صلّى اللهُ عليه وسلّمَ قالَ : « الرؤيا ثلاثٌ : رؤيا من اللهِ ، ورؤيا من الملكِ ، ورؤيا من الشيطانِ » ، وهذا التفصيلُ مطابقٌ لما ذكرناه ، فالجليُّ من اللهِ ، والمحاكاةُ الداعيةُ إلى التعبيرِ من الملكِ وأضغاثُ الأحلامِ من الشيطانِ . لأنّها كلَّها باطلٌ ، والشيطانُ ينبوعُ الباطلِ .

هذه حقيقةُ الرؤيا وما يسبّبُها ويشيّعُها من النومِ . وهي خواصُّ للنفسِ الإنسانيةِ موجودةٌ في البشرِ على العمومِ ، لا يخلو عنها أحدٌ منهم. بل كلُّ واحدٍ من الأناسيّ رأى في نومِه ما صدرَ له في يقظتِه مرارًا غيرَ واحدةٍ ، وحصلَ له على القطعِ أنّ النفسَ مدركةٌ للغيبِ في النومِ ولا بدَّ . وإذا جازَ ذلك في عالمِ النومِ فلا يمتنعُ في غيرِه من الأحوالِ ، لأنّ الذاتَ المدركةَ واحدةٌ ، وخواصُّها عامةٌ في كلِّ حالٍ واللهُ الهادي إلى الحقِّ بمنِّه وفضلِه .

(١) تأخرها وتخلفها.

(فصل) ووقوع ما يقع للبشر من ذلك غالبا، إنما هو من غير قصد ولا قدرة عليه. وإنما تكون النفس متشوقة لذلك الشىء، فيقع لها بتلك اللمحة فى النوم، لأنها تقصد إلى ذلك فتراه. وقد وقع فى كتاب «الغاية» وغيره من كتب أهل الرياضيات ذكر أسماء تذكر عند النوم، فتكون عنها الرؤيا فيما يتشوف إليه، ويسمونها «الحالومية»، وذكر منها مسلمة فى كتاب «الغاية» حالومة سماها حالومة الطباع التام، وهو أن يقال عند النوم بعد فراغ السر، وصحة التوجه هذه الكلمات الأعجمية وهى: تماغس بعدان يسواد وغداس نوفنا غادس، ويذكر حاجته، فإنه يرى الكشف عما يسأل عنه فى النوم.

وحكى إن رجلا فعل ذلك بعد رياضة ليال فى مأكله، وذكره فتمثل له شخص يقول له، أنا طباعك التام فسأله وأخبره عما كان يتشوف إليه. وقد وقع لى أنا بهذه الأسماء مراء عجيبة، واطلعت بها على أمور كنت أتشوف عليها من أحوالى. وليس ذلك بدليل على أن القصد للرؤيا يحدثها، وإنما هذه الحالومات تحدث استعدادا فى النفس لوقوع الرؤيا، فإذا قوى الاستعداد كان أقرب إلى حصول ما يستعد له. وللشخص أن يفعل من الاستعداد ما أحب، ولا يكون دليلا على إيقاع المستعد له. فالقدرة على الاستعداد غير القدرة على الشىء، فاعلم ذلك وتدبره فيما تجد من أمثاله، والله الحكيم الخبير.

(فصل) ثم إنا نجد فى النوع الإنسانى أشخاصا يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم، يتميز بها صنفهم عن سائر الناس، ولا يرجعون فى ذلك إلى صناعة، ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا من غيرها. إنما نجد مداركهم فى ذلك بمقتضى فطرتهم التى فطروا عليها، وذلك مثل العرافين، والناظرين فى الأجسام الشفافة كالمرايا وطساس الماء، والناظرين فى قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها، وأهل الزجر فى الطير والسباع، وأهل الطرق بالحصى والحبوب، من الحنطة والنوى، وهذه كلها موجودة فى عالم الانسان لا يسع أحدا جحدها، ولا إنكارها. وكذلك المجانين يلقى على ألسنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها، وكذلك النائم والميت، لأول موته أو نومه يتكلم بالغيب، وكذلك أهل الرياضيات من المتصوفة، لهم مدارك فى الغيب على سبيل الكرامة معروفة.

ونحن الآن نتكلم عن هذه الادراكات كلها، ونبتدئ منها بالكهانة، ثم نأتى عليها إلى آخرها، ونقدم على ذلك مقدمة، فى أن النفس الإنسانية كيف تستعد لادراك الغيب فى جميع الأصناف التى ذكرناها. وذلك أنها ذات روحانية موجودة بالقوة من بين سائر الروحانيات كما ذكرناه من قبل، وإنما تخرج من القوة إلى الفعل بالبدن وأحواله، وهذا أمر مدرك لكل أحد. وكل ما بالقوة فله مادة وصورة هذه النفس التى بها يتم وجودها هو عين الادراك والتعقل، فهى

توجد أولا بالقوة مستعدة للإدراك وقبول الصور الكلية والجزئية، ثم يتم نشوءها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن، وما يعودها بورود مدركاتها المحسوسة عليها، وما تنتزع من تلك الإدراكات من المعاني الكلية فتتعقل الصور مرة بعد أخرى حتى يحصل لها الإدراك والتعقل بالفعل، فتتم ذاتها وتبقى النفس كالهيولى والصور متعاقبة عليها بالإدراك واحدة بعد واحدة.

لذلك نجد الصبي في أول نشأته لا يقدر على الإدراك الذي لها من ذاتها لا بنوم ولا بكشف ولا بغيرهما، وذلك أن صورتها التي هي عين ذاتها وهي الإدراك والتعقل لم تتم بعد بل لم يتم لها انتزاع الكليات. ثم إذا تمت ذاتها بالفعل حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الإدراك: إدراك بآلات الجسم تؤديه إليها المدارك البدنية، وإدراك بذاتها من غير واسطة وهي محجوبة عنه بالانغماس في البدن والحواس وبشواغلها؛ لأن الحواس أبدا جاذبة بها إلى الظاهر بما فطرت عليه أولا من الإدراك الجسماني. وربما تنغمس من الظاهر إلى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة، إما بالخاصية التي هي للإنسان على الإطلاق، مثل النوم أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر، مثل الكهانة والطرق، أو بالرياضة مثل أهل الكشف من الصوفية؛ فتلتفت حينئذ إلى الذوات التي فوقها من الملأ، لما بين أفقها وأفقهم من الاتصال في الوجود، كما قررنا قبل. وتلك الذوات روحانية، وهي إدراك محض وعقول بالفعل، وفيها صور الموجودات وحقائقها كما مر فيتجلى فيها شيء من تلك الصور، وتقتبس منها علوما، وربما دفعت تلك الصور المدركة إلى الخيال، فيصرفه في القوالب المعتادة، ثم يراجع الحس بما أدركت، إما مجردا أو في قوالبه فتخبر به. هذا هو شرح استعداد النفس لهذا الإدراك الغيبي. ولنرجع إلى ما وعدنا به من بيان أصنافه.

فأما الناظرون في الأجسام الشفافة: من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها، وأهل الطرق بالحصى والنوى، فكلهم من قبيل الكهان إلا أنهم أضعف رتبة فيه في أصل خلقهم، لأن الكاهن لا يحتاج في رفع حجاب الحس إلى كثير معاناة. وهؤلاء يعانونه بانحصار المدارك الحسية كلها في نوع واحد منها، وأشرفها البصر فيعكف على المرئي البسيط. حتى يبدو له مدركه الذي يخبر به عنه. وربما يظن أن مشاهدة هؤلاء لما يرونه هو في سطح المرآة وليس كذلك بل لا يزالون ينظرون في سطح المرآة إلى أن يغيب عن البصر، ويبدو فيما بينهم وبين سطح المرآة حجاب كأنه غمام يتمثل فيه صور، هي مداركهم فيشيرون إليهم بالمقصود لما يتوجهون إلى معرفته من نفي أو إثبات. فيخبرون بذلك على نحو ما أدركوه.

وأما المرآة: وما يدرك فيها من الصور فلا يدركونه في تلك الحال. وإنما ينشأ لهم بها هذا النوع الآخر من الإدراك، وهو نفساني

لَيْسَ مِنْ إدْرَاكِ الْبَصَرِ بَلْ يَتَشَكَّلُ بِهِ الْمُدْرِكُ النَّفْسَانِىُّ لِلْحِسِّ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ . وَمِثْلُ ذٰلِكَ مَا يَعْرِضُ لِلنَّاظِرِينَ فِى قُلُوبِ الْحَيَوَانَاتِ وَأَكْبَادِهَا ، وَلِلنَّاظِرِينَ فِى الْمَاءِ وَالطِّسَاسِ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ . وَقَدْ شَاهَدْنَا مِنْ هٰؤُلَاءِ مَنْ يُشْغِلُ الْحِسَّ بِالْبَخُورِ فَقَطْ ، ثُمَّ بِالْعَزَائِمِ لِلاسْتِعْدَادِ ، ثُمَّ يُخْبِرُ كَمَا أَدْرَكَ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ الصُّوَرَ مُتَشَخِّصَةً فِى الْهَوَاءِ تَحْكِى لَهُمْ أَحْوَالَ مَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى إِدْرَاكِهِ بِالْمِثَالِ وَالْإِشَارَةِ ، وَغَيْبَةُ هٰؤُلَاءِ عَنِ الْحِسِّ أَخَفُّ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَالْعَالَمُ أَبُو الْغَرَائِبِ .

وَأَمَّا الزَّجْرُ : وَهُوَ مَا يَحْدُثُ ، مِنْ بَعْضِ النَّاسِ مِنَ التَّكَلُّمِ بِالْغَيْبِ عِنْدَ سُنُوحِ طَائِرٍ أَوْ حَيَوَانٍ ، وَالْفِكْرِ فِيهِ بَعْدَ مَغِيبِهِ ، وَهِىَ قُوَّةٌ فِى النَّفْسِ تَبْعَثُ عَلَى الْحِرْصِ وَالْفِكْرِ فِيمَا زُجِرَ فِيهِ مِنْ مَرْئِىٍّ أَوْ مَسْمُوعٍ ، وَتَكُونُ قُوَّتُهُ الْمُخَيِّلَةُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ قَوِيَّةً ، فَيَبْعَثُهَا فِى الْبَحْثِ مُسْتَعِينًا بِمَا رَآهُ أَوْ سَمِعَهُ فَيُؤَدِّيهِ ذٰلِكَ إِلَى إِدْرَاكِ مَا ، كَمَا تَفْعَلُهُ الْقُوَّةُ الْمُتَخَيِّلَةُ فِى النَّوْمِ ، وَعِنْدَ رُكُودِ الْحَوَاسِّ إِذْ تَتَوَسَّطُ بَيْنَ الْمَحْسُوسِ الْمَرْئِىِّ فِى يَقْظَتِهِ وَتَجْمَعُهُ مَعَ مَا عَقَلَتْهُ فَيَكُونُ عَنْهَا الرُّؤْيَا .

وَأَمَّا الْمَجَانِينُ : فَنُفُوسُهُمُ النَّاطِقَةُ ضَعِيفَةُ التَّعَلُّقِ بِالْبَدَنِ لِفَسَادِ أَمْزِجَتِهِمْ غَالِبًا وَضَعْفِ الروح الْحَيَوَانِىِّ فيها فتكون نفسه غير مُسْتَغْرِقَة فى الْحَوَاسِّ ، وَلَا مُنْغَمِسة فيها بِمَا شَغَلَهَا فى نَفْسِهَا مِنْ أَلَمِ النَّقْصِ وَمَرَضِهِ . وَرُبَّمَا زَاحَمَهَا عَلَى التَّعَلُّقِ بِهِ رُوحَانِيَّةٌ أُخْرَى شَيْطَانِيَّةٌ ، تَتَشَبَّثُ بِهِ وَتَضْعُفُ هٰذِهِ عَنْ مُمَانَعَتِهَا فَيَكُونُ عَنْهُ التَّخَبُّطُ ، فَإِذَا أَصَابَهُ ذٰلِكَ التَّخَبُّطُ ، إِمَّا لِفَسَادِ مِزَاجِهِ مِنْ فَسَادٍ فِى ذَاتِهَا ، أَوْ لِمُزَاحَمَةٍ مِنَ النُّفُوسِ الشَّيْطَانِيَّةِ فِى تَعَلُّقِهِ غَابَ عَنْ حِسِّهِ جُمْلَةً ، فَأَدْرَكَ لَمْحَةً مِنْ عَالَمِ نَفْسِهِ وَانْطَبَعَ فِيهَا بَعْضُ الصُّوَرِ وَصَرَّفَهَا الْخَيَالُ . وَرُبَّمَا نَطَقَ عَنْ لِسَانِهِ فِى تِلْكَ الْحَالِ مِنْ غَيْرِ إِرَادَةِ النُّطْقِ .

وَإِدْرَاكُ هٰؤُلَاءِ كُلِّهِمْ مَشُوبٌ فِيهِ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُمُ الاتِّصَالُ وَإِنْ فَقَدُوا الْحِسَّ إِلَّا بَعْدَ الاسْتِعَانَةِ بِالتَّصَوُّرَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ . وَمِنْ ذٰلِكَ يَجِىءُ الْكَذِبُ فِى هٰذِهِ الْمَدَارِكِ .

وَأَمَّا الْعَرَّافُونَ : فَهُمُ الْمُتَعَلِّقُونَ بِهٰذَا الْإِدْرَاكِ ، وَلَيْسَ لَهُمْ ذٰلِكَ الاتِّصَالُ ، فَيُسَلِّطُونَ الْفِكْرَ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِى يَتَوَجَّهُونَ إِلَيْهِ ، وَيَأْخُذُونَ فِيهِ بِالظَّنِّ وَالتَّخْمِينِ ، بِنَاءً عَلَى مَا يَتَوَهَّمُونَهُ مِنْ مَبَادِىءِ ذٰلِكَ الاتِّصَالِ وَالْإِدْرَاكِ وَيَدَّعُونَ بِذٰلِكَ مَعْرِفَةَ الْغَيْبِ وَلَيْسَ مِنْهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ .

هٰذَا تَحْصِيلُ هٰذِهِ الْأُمُورِ (١) . وَقَدْ تَكَلَّمَ عَلَيْهَا «الْمَسْعُودِىُّ» فى «مُرُوجِ الذَّهَبِ» فَمَا صَادَفَ تَحْقِيقًا وَلَا إِصَابَةً ، وَيَظْهَرُ مِنْ كَلَامِ الرَّجُلِ أَنَّهُ كَانَ بَعِيدًا عَنِ الرُّسُوخِ فِى الْمَعَارِفِ فَيَنْقُلُ مَا سَمِعَ مِنْ أَهْلِهِ وَمِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ . وَهٰذِهِ الْإِدْرَاكَاتُ الَّتِى ذَكَرْنَاهَا مَوْجُودَةٌ كُلُّهَا فِى نَوْعِ الْبَشَرِ . فَقَدْ كَانَ الْعَرَبُ يَفْزَعُونَ إِلَى الْكُهَّانِ فِى تَعَرُّفِ الْحَوَادِثِ وَيَتَنَافَرُونَ إِلَيْهِمْ فِى الْخُصُومَاتِ ، لِيُعَرِّفُوهُمْ بِالْحَقِّ فِيهَا مِنْ إِدْرَاكِ غَيْبِهِمْ . وَفِى كُتُبِ أَهْلِ

---

(١) يعنى أمور الكهان والعرافين ومدعى النظر فى الغيب من سبق حديثه عنهم .

الأَدَبِ كَثِيرٌ مِنْ ذٰلِكَ ، وَاشْتَهَرَ مِنْهُمْ فى الْجَاهِلِيَّةِ : شِقٌّ بْنُ أَنْمَارِ بْنِ نِزَارٍ ، وَسَطِيحُ بْنُ مَازِنِ بْنِ غَسَّانَ ، وَكَانَ يُدْرجُ كَمَا يُدْرجُ الثَّوْبُ ، وَلَا عَظْمَ فِيهِ إِلَّا الْجُمْجُمَةُ . وَمِنْ مَشْهُورِ الْحِكَايَاتِ عَنْهُمَا : تَأْوِيلُ رُؤْيَا رَبِيعَةَ بْنِ مُضَرَوَمَا أَخْبَرَاهُ بِهِ مِنْ مُلْكِ الْحَبَشَةِ لِلْيَمَنِ ، وَمُلْكِ مُضَرَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَظُهُورِ النُّبُوَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ فى قُرَيْشٍ ، وَرُؤْيَا الْمُوبَذَانِ الَّتِى أَوَّلَهَاسَطِيحُ ، لَمَّا بَعَثَ إِلَيْهِ بِهَا كِسْرَى عَبْدَ الْمَسِيحِ ، فَأَخْبَرَهُ بِشَأْنِ النُّبُوءَةِ وَخَرَابِ مُلْكِ فَارِسَ ، وَهٰذِهِ كُلُّهَا مَشْهُورَةٌ . وَكَذٰلِكَ الْعَرَّافُونَ : كَانَ فى الْعَرَبِ مِنْهُمْ كَثِيرٌ وَذَكَرُوهُمْ فى أَشْعَارِهِمْ قَالَ (الشاعر) :

فَقُلْتُ لِعَرَّافِ الْيَمَامَةِ دَاوِنِى
فَإِنَّكَ إِنْ دَاوَيْتَنِى لَطَبِيبُ

وقال الآخر :

جَعَلْتُ لِعَرَّافِ الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ
وَعَرَّافِ نَجْدٍ إِنْ هُمَا شَفَيَانِى
فَقَالَ : شَفَاكَ اللّٰهُ وَاللّٰهِ مَالَنَا
بِمَا حَمَلَتْ مِنْكَ الضُّلُوعُ يَدَانِ

وَعَرَّافُ الْيَمَامَةِ : هُوَ رِبَاحُ بْنُ عِجْلَةَ . وَعَرَّافُ نَجْدٍ : الأَبْلَقُ الأَسَدِىُّ .

وَمِنْ هٰذِهِ الْمَدَارِكِ الْغَيْبِيَّةِ مَا يَصْدُرُ لِبَعْضِ النَّاسِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ الْيَقَظَةِ ، وَالْتِبَاسِهِ بِالنَّوْمِ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى الشَّيْءِ الَّذِى يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ بِمَا يُعْطِيهِ غَيْبَ ذٰلِكَ الأَمْرِ كَمَا يُرِيدُ . وَلَا يَقَعُ ذٰلِكَ إِلَّا فى مَبَادِىءِ النَّوْمِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ الْيَقَظَةِ وَذَهَابِ الاخْتِيَارِ فى الْكَلَامِ ، فَيَتَكَلَّمُ كَأَنَّهُ مَجْبُولٌ عَلَى النُّطْقِ ، وَغَايَتُهُ أَنْ يَسْمَعَهُ وَيَفْهَمَهُ . وَكَذٰلِكَ يَصْدُرُ عَنِ الْمَقْتُولِينَ عِنْدَ مُفَارَقَةِ رُؤُوسِهِمْ وَأَوْسَاطِ أَبْدَانِهِمْ كَلَامٌ بِمِثْلِ ذٰلِكَ . وَلَقَدْ بَلَغَنَا عَنْ بَعْضِ الْجَبَابِرَةِ الظَّالِمِينَ : أَنَّهُمْ قَتَلُوا مِنْ سُجُونِهِمْ أَشْخَاصًا ، لِيَتَعَرَّفُوا مِنْ كَلَامِهِمْ عِنْدَ الْقَتْلِ عَوَاقِبَ أُمُورِهِمْ فى أَنْفُسِهِمْ فَأَعْلَمُوهُمْ بِمَا يُسْتَبْشَعُ. وَذَكَرَ مَسْلَمَةُ فى كِتَابِ «الْغَايَةِ» لَهُ فى مِثْلِ ذٰلِكَ : أَنَّ آدَمِيًّا إِذَا جُعِلَ فى دَنٍّ مَمْلُوءٍ بِدُهْنِ السِّمْسِمِ ، وَمَكَثَ فِيهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، يُغَذَّى بِالتِّينِ وَالْجَوْزِ حَتَّى يَذْهَبَ لَحْمُهُ وَلَا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا الْعُرُوقُ وَشُؤُونُ رَأْسِهِ ، فَيَخْرُجُ مِنْ ذٰلِكَ الدُّهْنِ فَحِينَ يَجِفُّ عَلَيْهِ الهَوَاءُ يُجِيبُ عَن كُلِّ شَيْءٍ يُسْأَلُ عَنْهُ مِنْ عَوَاقِبِ الأُمُورِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ وَهٰذَا فِعْلٌ مِنْ مَنَاكِيرِ أَفْعَالِ السَّحَرَةِ ، لٰكِنْ يُفْهَمُ مِنْهُ عَجَائِبُ الْعَالَمِ الإِنْسَانِىِّ .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُحَاوِلُ حُصُولَ هٰذَا الْمُدْرَكِ الغَيْبِىِّ بِالرِّيَاضَةِ . فَيُحَاوِلُونَ بِالْمُجَاهَدَةِ مَوْتًا صِنَاعِيًّا بِإِمَاتَةِ جَمِيعِ الْقُوَى الْبَدَنِيَّةِ ، ثُمَّ مَحْوِ آثَارِهَا الَّتِى تَلَوَّنَتْ بِهَا النَّفْسُ ، ثُمَّ تَغْذِيَتِهَا بِالذِّكْرِ لِتَزْدَادَ قُوَّةً فى نَشْئِهَا ، وَيَحْصُلُ ذٰلِكَ بِجَمْعِ الْفِكْرِ وَكَثْرَةِ الْجُوعِ . وَمِنَ الْمَعْلُومِ عَلَى الْقَطْعِ أَنَّهُ إِذَا نَزَلَ الْمَوْتُ بِالْبَدَنِ ، ذَهَبَ الْحِسُّ وَحِجَابُهُ ، وَاطَّلَعَتِ النَّفْسُ عَلَى الْمُغَيَّبَاتِ . وَمِنْ هٰؤُلَاءِ أَهْلُ الرِّيَاضَةِ السِّحْرِيَّةِ : يَرْتَاضُونَ بِذٰلِكَ لِيَحْصُلَ لَهُمُ الاطِّلَاعُ عَلَى الْمُغَيَّبَاتِ وَالتَّصَرُّفَاتِ فى الْعَالَمِ . وَأَكْثَرُ هٰؤُلَاءِ فى الأَقَالِيمِ الْمُنْحَرِفَةِ جَنُوبًا وَشَمَالًا

خُصُوصًا بِلَادِ الْهِنْدِ، وَيُسَمُّونَ هُنَالِكَ الْحوكيَّة[١]، وَلَهُمْ كتب فى كَيْفِيَةِ هذهِ الرياضةِ كثيرة والأَخْبَارُ عَنْهُمْ فى ذَلِكَ غَرِيبَةٌ.

وَأَمَّا الْمُتَصَوِّفَةُ: فَرِيَاضَتُهُمْ دِينِيَّةٌ وَعَرِيَّةٌ[٢] عَنْ هذهِ الْمَقَاصِدِ الْمَذْمُومَةِ. وَإِنَّمَا يَقْصِدُونَ جَمْعَ الْهِمَّةِ وَالْإِقْبَالَ عَلَى اللهِ بِالْكُلِّيَّةِ، لِيَحْصُلَ لَهُمْ أَذْوَاقُ أَهْلِ الْعِرْفَانِ وَالتَّوْحِيدِ، وَيَزِيدُونَ فى رِيَاضَتِهِمْ إِلَى الْجَمْعِ وَالْجُوعِ، التَّغْذِيَةَ بِالذِّكْرِ، فَبِهَا تَتِمُّ وِجْهَتُهُمْ فى هذهِ الرِّيَاضَةِ. لِأَنَّهُ إِذَا نَشَأَتِ النَّفْسُ عَلَى الذِّكْرِ كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى الْعِرْفَانِ بِاللهِ. وَإِذَا عَرِيَتْ عَنِ الذِّكْرِ كَانَتْ شَيْطَانِيَّةً. وَحُصُولُ مَا يَحْصُلُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْغَيْبِ وَالتَّصَرُّفِ لِهَؤُلَاءِ الْمُتَصَوِّفَةِ إِنَّمَا هُوَ بِالْعَرَضِ، وَلَا يَكُون مَقْصُودًا مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ، لِأَنَّهُ إِذَا قصدَ ذَلِكَ كَانَتِ الْوِجْهَةُ فيهِ لِغَيْرِ اللهِ، وَإِنَّمَا هِيَ لِقَصْدِ التَّصَرُّفِ وَالاطِّلَاعِ عَلَى الْغَيْبِ، وَأَخْسِرْ بِهَا صَفْقَةً فَإِنَّهَا فى الْحَقِيقَةِ شِرْكٌ. قَالَ بَعْضُهُمْ «مَنْ آثَرَ الْعِرْفَانَ لِلْعِرْفَانِ، فَقَدْ قَالَ بِالثَّانِي» فَهُمْ يَقْصِدُونَ بِوِجْهَتِهِمِ الْمَعْبُودَ لَا لِشَيْءٍ سِوَاهُ. وَإِذَا حَصَلَ فى أَثْنَاءِ ذَلِكَ مَا يَحْصُلُ فَبِالْعَرَضِ وَغَيْرُ مَقْصُود لَهُمْ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَفِرُّ مِنْهُ إِذَا عَرَضَ لَهُ، وَلَا يَحْفِلُ بِهِ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ اللهَ لِذَاتِهِ لَا لِغَيْرِهِ. وَحُصُولُ ذَلِكَ لَهُمْ مَعْرُوفٌ وَيُسَمُّونَ مَا يَقَعُ لَهُمْ مِنَ الْغَيْبِ وَالْحَدِيثِ عَلَى الْخَوَاطِرِ فِرَاسَةً وَكَشْفًا، وَمَا يَقَعُ لَهُمْ مِنَ التَّصَرُّفِ كَرَامَةً، وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ بِنَكِيرٍ فِي حَقِّهِمْ.

وَقَدْ ذَهَبَ إِلَى إِنْكَارِهِ الْأُسْتَاذُ أَبُو إِسْحَقَ الْإِسْفِرَايِينِيُّ وَأَبُو مُحَمَّدِ بْنُ أَبِي زَيْدٍ الْمَالِكِيُّ فِي آخرِينَ، فِرَارًا مِنِ الْتِبَاسِ الْمُعْجِزَةِ بِغَيْرِهَا. وَالْمُعَوَّلُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ حُصُول التَّفْرِقَةِ بِالتَّحَدِّي فَهُوَ كَافٍ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

«إِنَّ فِيكُمْ مُحَدَّثِينَ وَإِنَّ مِنْهُمْ عُمَرَ»، وَقَدْ وَقَعَ لِلصَّحَابَةِ مِنْ ذَلِكَ وَقَائِعُ مَعْرُوفَةٌ، تَشْهَد بِذَلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يَاسَارِيَةَ الْجَبَلَ. [وَهُوَ سَارِيَةُ بْنُ زُنَيم كَانَ قَائِدًا عَلَى بَعْضِ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ بِالْعِرَاقِ أَيَّامَ الْفُتُوحَاتِ، وَتَوَرَّطَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ فِي مُعْتَرَك وَهَمّ بِالانهزام، وَكَانَ بِقُرْبِهِ جَبَلٌ يَتَحَيَّزُ إِلَيْهِ، فَرُفِعَ لِعُمَرَ ذَلِكَ وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ بِالْمَدِينَةِ، فَنَادَاهُ: يَاسَارِيَةَ هنالِكَ الْجَبَلَ وَسَمِعَهُ سَارِيَةُ وَهُوَ بِمَكَانِهِ، وَرَأَى شَخْصَهُ وَالْقِصَّةُ مَعْرُوفَةٌ. وَوَقَعَ مِثْلُهُ أَيْضًا لِأَبِي بَكْرٍ فِي وَصِيَّتِهِ عَائِشَةَ ابْنَتَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فِي شَأْنِ مَا نَحَلَهَا[١] مِنْ أَوْسُقِ التَّمْرِ مِنْ حَدِيقَتِهِ، ثُمَّ نَبَّهَهَا عَلَى جُذَاذِهِ[٢] لِتَحُوزَهُ عَنِ الْوَرَثَةِ، فَقَالَ فِي سِيَاقِ كَلَامِهِ: وَإِنَّمَا هُمَا أَخَوَاكِ وَأُخْتَاكِ، فَقَالَتْ إِنَّمَا هِيَ أَسْمَاءُ فَمَنِ الْأُخْرَى، فَقَالَ: إِنَّ ذَا بَطْنِ بِنْتِ خَارِجَةَ أُرَاهَا جَارِيَةً فَكَانَتْ جَارِيَةً. وَقَعَ فِي الْمُوَطَّإِ فِي بَابِ مَا لَا يَجُوز مِنَ النحلِ. وَمِثْلَ

---

(١) يذهب د. وافى فى منشورته إلى أن صواب هذه الكلمة هو «اليوجية» نسبة إلى الرياضة المعروفة «اليوجا». انظر ج ١ ص ٥٣٢.

(٢) خالية منها.

(١) أعطاها.

(٢) قطعه.

(٣) زوجة أبي بكر. وقد تنبأ بأن ما تحمله سيكون جارية، أى فتاة.

هٰذِهِ الْوَقَائِعِ كَثِيرَةٌ لَهُمْ ، وَلِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ، وَأَهْلِ الْاِقْتِدَاءِ . إِلَّا أَنَّ أَهْلَ التَّصَوُّفِ يَقُولُونَ: إِنَّهُ يَقِلُّ فِى زَمَنِ النُّبُوَّةِ ، إِذْ لَا يَبْقَى لِلْمُرِيدِ حَالَةٌ بِحَضْرَةِ النَّبِىِّ ، حَتَّى إِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الْمُرِيدَ إِذَا جَاءَ لِلْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ يُسْلَبُ حَالَهُ مَا دَامَ فِيهَا حَتَّى يُفَارِقَهَا ، وَاللهُ يَرْزُقُنَا الْهِدَايَةَ وَيُرْشِدُنَا إِلَى الْحَقِّ .

وَمِنْ هٰؤُلَاءِ الْمُرِيدِينَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ: قَوْمٌ بَهَالِيلُ مَعْتُوهُونَ أَشْبَهُ بِالْمَجَانِينِ مِنَ الْعُقَلَاءِ ، وَهُمْ مَعَ ذٰلِكَ قَدْ صَحَّتْ لَهُمْ مَقَامَاتُ الْوِلَايَةِ وَأَحْوَالُ الصِّدِّيقِينَ ، وَعَلِمَ ذٰلِكَ مِنْ أَحْوَالِهِمْ مَنْ يَفْهَمُ عَنْهُمْ مِنْ أَهْلِ الذَّوْقِ ، مَعَ أَنَّهُمْ غَيْرُ مُكَلَّفِينَ وَيَقَعُ لَهُمْ مِنَ الْأَخْبَارِ عَنِ الْمُغَيَّبَاتِ عَجَائِبُ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَقَيَّدُونَ بِشَىْءٍ فَيُطْلِقُونَ كَلَامَهُمْ فِى ذٰلِكَ ، وَيَأْتُونَ مِنْهُ بِالْعَجَائِبِ . وَرُبَّمَا يُنْكِرُ الْفُقَهَاءُ أَنَّهُمْ عَلَى شَىْءٍ مِنَ الْمَقَامَاتِ ، لِمَا يَرَوْنَ مِنْ سُقُوطِ التَّكْلِيفِ عَنْهُمْ ، وَالْوِلَايَةُ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالْعِبَادَةِ وَهُوَ غَلَطٌ ، فَإِنَّ فَضْلَ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَلَا يَتَوَقَّفُ حُصُولُ الْوِلَايَةِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَلَا غَيْرِهَا .

وَإِذَا كَانَتِ النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ ثَابِتَةَ الْوُجُودِ ، فَاللهُ تَعَالَى يَخُصُّهَا بِمَا شَاءَ مِنْ مَوَاهِبِهِ ، وَهٰؤُلَاءِ لَمْ تَعْدَمْ نُفُوسُهُمُ النَّاطِقَةُ ، وَلَا فَسَدَتْ كَحَالِ الْمَجَانِينِ . وَإِنَّمَا فَقَدَ لَهُمُ الْعَقْلُ الَّذِى يُنَاطُ بِهِ التَّكْلِيفُ وَهِىَ صِفَةٌ خَاصَّةٌ لِلنَّفْسِ ، وَهِىَ عُلُومٌ ضَرُورِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ يَشْتَدُّ بِهَا نَظَرُهُ وَيَعْرِفُ أَحْوَالَ مَعَاشِهِ وَاسْتِقَامَةَ مَنْزِلِهِ . وَكَأَنَّهُ إِذَا مَيَّزَ أَحْوَالَ مَعَاشِهِ وَاسْتِقَامَةَ مَنْزِلِهِ لَمْ يَبْقَ لَهُ عُذْرٌ فِى قَبُولِ التَّكَالِيفِ لِإِصْلَاحِ مَعَادِهِ ، وَلَيْسَ مَنْ فَقَدَ هٰذِهِ الصِّفَةَ بِفَاقِدٍ لِنَفْسِهِ وَلَاذَاهِلٍ عَنْ حَقِيقَتِهِ ، فَيَكُونُ مَوْجُودَ الْحَقِيقَةِ مَعْدُومَ الْعَقْلِ التَّكْلِيفِىِّ الَّذِى هُوَ مَعْرِفَةُ الْمَعَاشِ وَلَا اسْتِحَالَةَ فِى ذٰلِكَ وَلَا يَتَوَقَّفُ اصْطِفَاءُ اللهِ عِبَادَهُ لِلْمَعْرِفَةِ عَلَى شَىْءٍ مِنَ التَّكَالِيفِ.

وَإِذَا صَحَّ ذٰلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ رُبَّمَا يَلْتَبِسُ حَالُ هٰؤُلَاءِ بِالْمَجَانِينِ الَّذِينَ تَفْسُدُ نُفُوسُهُمُ النَّاطِقَةُ ، وَيَلْتَحِقُونَ بِالْبَهَائِمِ . وَلَكَ فِى فِى تَمْيِيزِهِمْ عَلَامَاتٌ مِنْهَا: أَنَّ هٰؤُلَاءِ الْبَهَالِيلَ تَجِدُ لَهُم وجهةً ما ، لَا يَخْلُون عنها أصلاً من ذكرٍ وعبادة ، ولكن على غير الشروط الشرعيّة لما قلناه من عدم التكليفِ ؛ والمجانين لَا تجدُ لَهُمْ وِجْهَةً أصلاً . وَمِنْهَا أَنَّهُمْ يُخْلَقُونَ عَلَى الْبَلَهِ مِنْ أَوَّلِ نَشْأَتِهِمْ ، وَالْمَجَانِينُ يَعْرِضُ لَهُمُ الْجُنُونُ بَعْدَ مُدَّةٍ مِنَ الْعُمْرِ لِعَوَارِضَ بَدَنِيَّةٍ طَبِيعِيَّةٍ ، فَإِذَا عَرَضَ لَهُمْ ذٰلِكَ وَفَسَدَتْ نُفُوسُهُمُ النَّاطِقَةُ ذَهَبُوا بِالْخَيْبَةِ . وَمِنْهَا كَثْرَةُ تَصَرُّفِهِمْ فِى النَّاسِ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَوَقَّفُونَ عَلَى إِذْنٍ لِعَدَمِ التَّكْلِيفِ فِى حَقِّهِمْ ، وَالْمَجَانِينُ لَا تَصَرُّفَ لَهُمْ . وَهٰذَا فَصْلٌ انْتَهَى بِنَا الْكَلَامُ إِلَيْهِ وَاللهُ الْمُرْشِدُ لِلصَّوَابِ .

(فَصْلٌ) وَقَدْ يَزْعُمُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هُنَا مَدَارِكَ لِلْغَيْبِ مِنْ دُونِ غَيْبَةٍ عَنِ الْحِسِّ .

فَمِنْهُمُ الْمُنَجِّمُونَ: الْقَائِلُونَ بِالدَّلَالَاتِ النُّجُومِيَّةِ وَمُقْتَضَى أَوْضَاعِهَا فِى الْفَلَكِ وَآثَارِهَا فِى الْعَنَاصِرِ ، وَمَا يَحْصُلُ مِنَ الْامْتِزَاجِ بَيْنَ طِبَاعِهَا بِالتَّنَاظُرِ ، وَيَتَأَدَّى مِنْ ذٰلِكَ الْمِزَاجِ إِلَى الْهَوَاءِ . وَهٰؤُلَاءِ **الْمُنَجِّمُونَ لَيْسُوا مِنَ الْغَيْبِ فِى شَىْءٍ ؛ إِنَّمَا هِىَ**

ظنون حدسية ، وتخمينات مبنية على التأثير النجومية وحصول المزاج منه للهواء ، مع مزيد حدس يقف به الناظر على تفصيله فى الشخصيات فى العالم ، كما قاله بطليموس . ونحن نبين بطلان ذلك فى محله إن شاء الله : وهو لو ثبت فغايته حدس وتخمين ،وليس مما ذكرناه فى شىء .

ومن هؤلاء قوم من العامة : استنبطوا الاستخراج الغيب وتعرف الكائنات صناعة سموها : خط الرمل ، نسبة إلى المادة التى يضعون فيها عملهم . ومحصول هذه الصناعة أنهم صيروا من النقط أشكالا ذات أربع مراتب تختلف باختلاف مراتبها فى الزوجية والفردية واستوائها فيهما ، فكانت ستة عشر شكلا؛ لأنها إن كانت أزواجا كلها أو أفرادا كلها فشكلان . وإن كان الفرد فيهما فى مرتبة واحدة فقط فأربعة أشكال . وإن كان الفرد فى مرتبتين فستة أشكال . وإن كان فى ثلاث مراتب فأربعة أشكال جاءت ستة عشر شكلا ميزوها كلها بأسمائها وأنواعها إلى سعود ونحوس شأن الكواكب ، وجعلوا لها ستة عشر بيتا طبيعية بزعمهم وكأنها البروج الاثنا عشر التى للفلك والأوتاد الأربعة . وجعلوا لكل شكل منها بيتا وخطوطا ودلالة على صنف من موجودات عالم العناصر يختص به ، واستنبطوا من ذلك فنا حاذوا به فن النجامة ونوع قضائه ،إلا أن أحكام النجامة مستندة إلى أوضاع طبيعية كما يزعم بطليموس . وهذه إنما مستندها أوضاع تحكيمية وأهواء اتفاقية ، ولا دليل يقوم على شىء منها .

ويزعمون أن أصل ذلك من النبوات القديمة فى العالم. وربما نسبوها إلى دانيال أو إلى إدريس صلوات الله عليهما شأن الصنائع كلها . وربما يدعون مشروعيتها ويحتجون بقوله صلى الله عليه وسلم : « كان نبى يخط، فمن وافق خطه فذاك » وليس فى الحديث دليل على مشروعية خط الرمل كما يزعمه بعض من لا تحصيل لديه ؛ لأن معنى الحديث كان نبى يخط، فيأتيه الوحى عند ذلك الخط، ، ولا استحالة فى أن يكون ذلك عادة لبعض الأنبياء ، فمن وافق خطه ذلك النبى فهو ذاك ، أى فهو صحيح من بين الخط، بما عضده من الوحى لذلك النبى الذى كانت عادته أن يأتيه الوحى عند الخط. وأما إذا أخذ ذلك من الخط، مجردا من غير موافقة وحى فلا ، وهذا معنى الحديث والله أعلم .

فإذا أرادوا استخراج مغيب بزعمهم عمدوا إلى قرطاس أورمل أو دقيق فوضعوا النقط سطورا على عدد المراتب االأربع ثم كرروا ذلك أربع مرات ، فتجىء ستة عشر سطرا ، ثم يطرحون النقط أزواجا ويضعون ما بقى من كل سطر زوجا كان أو فردا فى مرتبته على الترتيب ، فتجىء أربعة أشكال ، يضعونها فى سطور متتالية ثم سطور يولدون منها أربعة أشكال أخرى من جانب العرض باعتبار كل مرتبة وما قابلها من الشكل بإزائه ، وما يجتمع منهما من زوج أو فرد فتكون ثمانية أشكال موضوعة فى سطر ، ثم يولدون من كل شكلين شكلا باعتبار ما يجتمع

فى كُلِّ مَرْتَبَةٍ مِنْ مَرَاتِبِ الشَّكْلَيْنِ أَيْضًا ، مِنْ زَوْجٍ أَوْ فَرْدٍ فَتَكُونُ أَرْبَعَةً أُخْرَى تَحْتَهَا . ثُمَّ يُوَلِّدُونَ مِنَ الْأَرْبَعَةِ شَكْلَيْنِ كَذٰلِكَ تَحْتَهَا مِنَ الشَّكْلَيْنِ شَكْلًا كَذٰلِكَ ، تَحْتَهُمَا . ثُمَّ مِنْ هٰذَا الشَّكْلِ الْخَامِسِ عَشَرَ مَعَ الشَّكْلِ الْأَوَّلِ شَكْلًا يَكُونُ آخِرَ السِّتَّةَ عَشَرَ ، ثُمَّ يَحْكُمُونَ عَلَى الْخَطِّ كُلِّهِ بِمَا اقْتَضَتْهُ أَشْكَالُهُ مِنَ السُّعُودَةِ وَالنُّحُوسَةِ بِالذَّاتِ ، وَالنَّظَرِ وَالْحُلُولِ وَالامْتِزَاجِ ، وَالدَّلَالَةِ عَلَى أَصْنَافِ الْمَوْجُودَاتِ وَسَائِرِ ذٰلِكَ ، تَحَكُّمًا غَرِيبًا .

وَكَثُرَتْ هٰذِهِ الصِّنَاعَةُ فى الْعُمْرَانِ ، وَوُضِعَتْ فِيهَا التَّآلِيفُ ، وَاشْتَهَرَ فِيهَا الْأَعْلَامُ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ ، وَهِىَ كَمَا رَأَيْتَ تَحَكُّمٌ وَهَوًى .

وَالتَّحْقِيقُ الَّذِى يَنْبَغِى أَنْ يَكُونَ نُصْبَ فِكْرِكَ أَنَّ الْغُيُوبَ لا تُدْرَكُ بِصِنَاعَةٍ الْبَتَّةَ . وَلَا سَبِيلَ إِلَى تَعَرُّفِهَا إِلَّا لِلْخَوَاصِّ مِنَ الْبَشَرِ الْمَفْطُورِينَ عَلَى الرُّجُوعِ مِنْ عَالَمِ الْحِسِّ إِلَى عَالَمِ الرُّوحِ . وَلِذٰلِكَ يُسَمِّى الْمُنَجِّمُونَ هٰذَا الصِّنْفَ كُلَّهُمْ بِالزُّهَرِيِّينَ نِسْبَةً إِلَى مَا تَقْتَضِيهِ دِلَالَةُ الزُّهَرَةِ ، بِزَعْمِهِمْ فى أَصْلِ مَوَالِيدِهِمْ عَلَى إِدْرَاكِ الْغَيْبِ . فَالْخَطُّ وَغَيْرُهُ مِنْ هٰذِهِ إِنْ كَانَ النَّاظِرُ فِيهِ مِنْ أَهْلِ هٰذِهِ الْخَاصِّيَّةِ ، وَقَصَدَ بِهٰذِهِ الْأُمُورِ الَّتِى يَنْظُرُ فِيهَا مِنَ النُّقَطِ أَوِ الْعِظَامِ أَوْ غَيْرِهَا ، إِشْغَالَ الْحِسِّ لِتَرْجِعَ النَّفْسُ إِلَى عَالَمِ الرُّوحَانِيَّاتِ لَحْظَةً مَا ، فَهُوَ مِنْ بَابِ الطَّرْقِ بِالْحَصَى وَالنَّظَرِ فى قُلُوبِ الْحَيَوَانَاتِ ، وَالْمَرَايَا الشَّفَّافَةِ ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ ، وَإِنَّمَا قَصَدَ

مَعْرِفَةَ الْغَيْبِ بِهٰذِهِ الصِّنَاعَةِ وَأَنَّهَا تُفِيدُهُ ذٰلِكَ فَهَذَرٌ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ .

وَالْعَلَامَةُ لِهٰذِهِ الْفِطْرَةِ الَّتِى فُطِرَ عَلَيْهَا أَهْلُ هٰذَا الْإِدْرَاكِ الْغَيْبِىِّ : أَنَّهُمْ عِنْدَ تَوَجُّهِهِمْ إِلَى تَعَرُّفِ الْكَائِنَاتِ يَعْتَرِيهِمْ خُرُوجٌ عَنْ حَالَتِهِمِ الطَّبِيعِيَّةِ ، كَالتَّثَاؤُبِ وَالتَّمَطُّطِ وَمَبَادِىءِ الْغَيْبَةِ عَنِ الْحِسِّ ، وَيَخْتَلِفُ ذٰلِكَ بِالْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ عَلَى اخْتِلَافِ وُجُودِهَا فِيهِمْ ، فَمَنْ لَمْ تُوجَدْ لَه هٰذِهِ الْعَلَامَةُ فَلَيْسَ مِنْ إِدْرَاكِ الْغَيْبِ فى شَىْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ سَاعٍ فى تَنْفِيقِ[1] كَذِبِهِ .

وَمِنْهُمْ طَوَائِفُ : يَضَعُونَ قَوَانِينَ لاسْتِخْرَاجِ الْغَيْبِ لَيْسَتْ مِنَ الطَّوْرِ الْأَوَّلِ الَّذِى هُوَ مِنْ مَدَارِكِ النَّفْسِ الرُّوحَانِيَّةِ ، وَلَا مِنَ الْحَدْسِ الْمَبْنِىِّ عَلَى تَأْثِيرَاتِ النُّجُومِ ، كَمَا زَعَمَهُ بَطْلَيْمُوسُ ، وَلَا مِنَ الظَّنِّ وَالتَّخْمِينِ الَّذِى يُحَاوِلُ عَلَيْهِ الْعَرَّافُونَ . وَإِنَّمَا هِىَ مَغَالِطُ يَجْعَلُونَهَا كَالْمَصَائِدِ لِأَهْلِ الْعُقُولِ الْمُسْتَضْعَفَةِ . وَلَسْتُ أَذْكُرُ مِنْ ذٰلِكَ إِلَّا مَا ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُونَ وَوَلِعَ بِهِ الْخَوَاصُّ .

فَمِنْ تِلْكَ الْقَوَانِينِ : الْحِسَابُ الَّذِى يُسَمُّونَهُ حِسَابَ النِّيمِ ، وَهُوَ مَذْكُورٌ فى آخِرِ كِتَابِ « السِّيَاسَةِ » الْمَنْسُوبِ لِأَرِسْطُو ، يُعْرَفُ بِهِ الْغَالِبُ مِنَ الْمَغْلُوبِ فى الْمُتَحَارِبِينَ مِنَ الْمُلُوكِ ، وَهُوَ أَنْ تَحْسُبَ الْحُرُوفَ الَّتِى فى اسْمِ أَحَدِهِمَا بِحِسَابِ « الْجُمَّلِ » الْمُصْطَلَحِ عَلَيْهِ فى حُرُوفِ أَبْجَدَ مِنَ الْوَاحِدِ إِلَى الْأَلْفِ آحَادًا وَعَشَرَاتٍ وَمِئِينَ وَأُلُوفًا . فَإِذَا حَسَبْتَ الاسْمَ وَتَحَصَّلَ لَكَ مِنْهُ عَدَدٌ ، فَاحْسِبِ اسْمَ الآخَرِ

(١) نفق «دوترويجه».

كَذلِكَ ، ثُمَّ اطْرَحْ مِنْ كُلِّ واحد مِنْهُمَا تِسْعَةً ، تِسْعَةً ، واحْفَظْ بَقِيَّةَ هٰذا وبَقِيَّةَ هٰذا ، ثُمَّ انظُرْ بَيْنَ الْعَدَدَيْنِ الْبَاقِيَيْنِ مِنْ حِسابِ الاسْمَيْنِ ، فَإِنْ كَانَ الْعَدَدَان مُخْتَلِفَيْنِ فِى الْكَمِّيَّةِ وكَانَا مَعًا زَوْجَيْنِ ، أَوْ فَرْدَيْنِ مَعًا فَصَاحِبُ الْأَقَلِّ مِنْهُمَا هُوَ الْغَالِبُ ، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا زَوْجًا وَالْآخَرُ فَرْدًا فَصَاحِبُ الْأَكْثَرِ هُوَ الْغَالِبُ ، وَإِنْ كَانَا مُتَسَاوِيَيْنِ فِى الْكَمِّيَّةِ وَهُمَا مَعًا زَوْجَانِ فَالْمَطْلُوبُ هُوَ الْغَالِبُ ، وَإِنْ كَانَا مَعًا فَرْدَيْنِ فَالطَّالِبُ هُوَ الْغَالِبُ . وَيُقَالُ هُنَالِكَ بَيْتَانِ فِى هٰذَا الْعَمَلِ اشْتَهَرَا بَيْنَ النَّاسِ وَهُمَا :

أَرَى الزَّوْجَ وَالْأَفْرَادَ يَسْمُو أَقَلُّهَا
وَأَكْثَرُهَا عِنْدَ التَّخَالُفِ غَالِبُ
وَيُغْلَبُ مَطْلُوبٌ إِذَا الزَّوْجُ يَسْتَوِى
وَعِنْدَ اسْتِوَاءِ الْفَرْدِ يُغْلَبُ طَالِبُ

ثُمَّ وَضَعُوا لِمَعْرِفَةِ مَا بَقِىَ مِنَ الْحُرُوفِ بَعْدَ طَرْحِهَا بِتِسْعَة قَانُونًا مَعْرُوفًا عِنْدَهُمْ فِى طَرْحِ تِسْعَة : وَذَلِكَ أَنَّهُمْ جَمَعُوا الْحُرُوفَ الدَّالَّةَ عَلَى الْوَاحِدِ فِى الْمَرَاتِبِ الْأَرْبَعِ ، وَهِىَ (ا) الدَّالَّةُ عَلَى الْوَاحِد و (ى) الدَّالَّةُ عَلَى الْعَشَرَةِ ، وَهِىَ وَاحِدٌ فِى مَرْتَبَةِ الْعَشَرَات ، و (ق) الدَّالَّةُ عَلَى الْمِائَة ، لِأَنَّهَا وَاحِدٌ فِى مَرْتَبَةِ الْمِئِينَ و (ش) الدَّالَّةُ عَلَى الْأَلْفِ ، لِأَنَّهَا وَاحِدٌ فِى مَرْتَبَةِ الْآلَافِ وَلَيْسَ بَعْدَ الْأَلْفِ عَدَدٌ يُدَلُّ عَلَيْهِ بِالْحُرُوفِ لِأَنَّ الشِّينَ هِىَ آخِرُ حُرُوف أبجد . ثُمَّ رَتَّبُوا هٰذِهِ الْأَحْرُفَ الْأَرْبَعَةَ عَلَى نَسَقِ الْمَرَاتِبِ ، فَكَانَ مِنْهَا كَلِمَةٌ رُبَاعِيَّةٌ وَهِىَ « أيقش » ثم فَعَلوا ذَلِكَ بِالْحُرُوفِ الدَّالَّةِ عَلَى اثْنَيْنِ فِى الْمَرَاتِبِ الثَّلاثِ وَأَسْقَطُوا مَرْتَبَةَ الْآلَافِ مِنْهَا ، لِأَنَّهَا كَانَتْ آخِرَ حُرُوفِ أبجد ، فَكَانَ مَجْمُوعُ حُرُوفِ الاثْنَيْنِ فِى الْمَرَاتِبِ الثَّلاثِ ثَلاثَةَ حُرُوف ، وَهِىَ : (ب) الدَّالَّةُ عَلَى اثْنَيْنِ فِى الْآحَاد ، و (ك) الدَّالَّةُ عَلَى اثْنَيْنِ فِى الْعَشَرَاتِ وَهِىَ عِشْرُونَ ، و (ر) الدَّالَّةُ عَلَى اثْنَيْنِ فِى الْمِئِينَ وَهِىَ مِائَتَانِ وَصَيَّرُوهَا كَلِمَةً وَاحِدَةً ثُلاثِيَّةً عَلَى نَسَقِ الْمَرَاتِبِ وَهِىَ « بكر » . ثُمَّ فَعَلُوا ذَلِكَ بِالْحُرُوفِ الدَّالَّةِ عَلَى ثَلاثَة فَنَشَأَتْ عَنْهَا كَلِمَةُ « جلس » ، وَكَذَلِكَ إِلَى آخِرِ حُرُوفِ أبجد ، وَصَارَتْ تِسْعَ كَلِمَات نِهَايَةَ عَدَدِ الْآحَادِ وَهِىَ (ايقش ، بكر ، جلس ، دمت ، هنث ، وصخ ، زعد ، حفظ ، طضع) مُرَتَّبَةً عَلَى تَوَالِى الْأَعْدَاد ، وَلِكُلِّ كَلِمَة مِنْهَا عَدَدُهَا الَّذِى هِىَ فِى مَرْتَبَتِه ، فَالْوَاحِدُ لِكَلِمَةِ « أيقش » ، وَالاثْنَانِ لِكَلِمَةِ « بكر » ، وَالثَّلاثَةُ لِكَلِمَةِ « جلس » ، وَكَذَلِكَ إِلَى التَّاسِعَةِ الَّتِى هِىَ ، طضع ، فَتَكُونُ لَهَا التِّسْعَةُ .

فَإِذَا أَرَادُوا طَرْحَ الاسْمِ بِتِسْعَة نَظَرُوا كُلَّ حَرْف مِنْهُ فِى أَىِّ كَلِمَة هُوَ مِنْ هٰذِهِ الْكَلِمَاتِ ، وَأَخَذُوا عَدَدَهَا مَكَانَهُ ثُمَّ جَمَعُوا الْأَعْدَادَ الَّتِى يَأْخُذُونَهَا بَدَلاً مِنْ حُرُوفِ الاسْمِ ؛ فَإِنْ كَانَتْ زَائِدَةً عَلَى التِّسْعَةِ أَخَذُوا مَا فَضَلَ عَنْهَا ، وَإِلَّا أَخَذُوهُ كَمَا هُوَ ، ثُمَّ يَفْعَلُونَ كَذَلِكَ بِالاسْمِ الْآخَرِ ، وَيَنْظُرُونَ بَيْنَ الْخَارِجَين بِمَا قَدَّمْنَاهُ وَالسِّرُّ فِى هٰذَا بَيِّنٌ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْبَاقِىَ مِنْ كُلِّ عَقْد مِنْ عُقُودِ الْأَعْدَادِ بِطَرْحِ تِسْعَة ، إِنَّمَا هُوَ وَاحِدٌ فَكَأَنَّهُ يَجْمَعُ عَدَدَ الْعُقُودِ خَاصَّةً مِنْ كُلِّ مَرْتَبَة فَصَارَتْ أَعْدَادُ الْعُقُودِ كَأَنَّهَا آحَادٌ ، فَلا فَرْقَ بَيْنَ

الاثنين والعشرين والمائتين والألفين ، وكلها اثنان وكذلك الثلاثة والثلاثون والثلاثمائة والثلاثة الآلاف، كلها ثلاثة ثلاثة فوضعت الأعداد على التوالى دالة على أعداد العقود لا غير ، وجعلت الحروف الدالة على أصناف العقود فى كل كلمة من الآحاد والعشرات والمئين والألوف (١) ، وصار عدد الكلمة الموضوع عليها ، نائبا عن كل حرف فيها سواء دل على الآحاد أو العشرات أو المئين ، فيؤخذ عدد كل كلمة عوضا من الحروف التى فيها ، وتجمع كلها إلى آخرها كما قلناه ، هذا هو العمل المتداول بين الناس منذ الأمر القديم ؛ وكان بعض من لقيناه من شيوخنا يرى أن الصحيح فيها كلمات أخرى تسعة مكان هذه ، ومتوالية كتواليها ، ويفعلون بها فى الطرح بتسعة مثل ما يفعلونه بالأخرى سواء وهى هذه : (أرب ، يسقك ، جزلط ، مدوص ، هف ، تحذن ، عش ، خع ، ثضظ) تسع كلمات على توالى العدد ، ولكل كلمة منها عددها الذى فى مرتبته فيها الثلاثى والرباعى والثنائى وليست جارية على أصل مطرد كما تراه . لكن كان شيوخنا ينقلونها عن شيخ المغرب فى هذه المعارف من السيمياء ، وأسرار الحروف والنجامة ، وهو أبو العباس بن البناء ، ويقولون عنه : إن العمل بهذه الكلمات فى طرح حساب النيم أصح من العمل بكلمات « أيقش » والله يعلم كيف ذلك .

(١) فى هامش الأصل : قوله والألوف فيه نظر لأن الحروف ليس فيها ما يزيد عن الألف كما سبق فى كلامه .

وهذه كلها مدارك للغيب غير مستندة إلى برهان ولا تحقيق ، والكتاب الذى وجد فيه حساب النيم غير معزو إلى أرسطو عند المحققين لما فيه من الآراء البعيدة عن التحقيق والبرهان . يشهد لك بذلك تصفحه إن كنت من أهل الرسوخ .

ومن هذه القوانين الصناعية لاستخراج الغيوب فيما يزعمون ، « الزايرجة » المسماة « بزايرجة العالم » المعزوة إلى أبى العباس : سيدى أحمد السبتى من أعلام المتصوفة بالمغرب ، كان فى آخر المائة السادسة بمراكش ، ولعهد أبى يعقوب المنصور من ملوك الموحدين . وهى غريبة العمل صناعة ، وكثير من الخواص يولعون بإفادة الغيب منها بعملها المعروف الملغوز (١) ، فيحرضون بذلك على حل رمزه ، وكشف غامضه وصورتها التى يقع العمل عندهم فيها دائرة عظيمة ، داخلها دوائر متوازية للأفلاك والعناصر ، والمكونات والروحانيات ، وغير ذلك من أصناف الكائنات والعلوم .

وكل دائرة مقسومة بأقسام فلكها إما البروج ، وإما العناصر أو غيرهما ، وخطوط كل قسم مارة إلى المركز ، ويسمونها الأوتار ، وعلى كل وتر حروف متتابعة موضوعة ؛ فمنها برشوم الزمام التى هى أشكال الأعداد عند أهل الدواوين والحساب بالمغرب لهذا العهد .

(١) المبنى على الألغاز .

وَمِنْهَا بِرُشُومِ الْغُبَارِ الْمُتَعَارَفَةِ فِى دَاخِلِ «الزَّايِرْجَةِ». وَبَيْنَ الدَّوَائِرِ أَسْمَاءُ الْعُلُومِ وَمَوَاضِعُ الْأَكْوَانِ، وَعَلَى ظَاهِرِ الدَّوَائِرِ جَدْوَلٌ مُتَكَثِّرُ الْبُيُوتِ الْمُتَقَاطِعَةِ طُولًا وَعَرْضًا، يَشْتَمِلُ عَلَى خَمْسَةٍ وَخَمْسِينَ بَيْتًا فِى الْعَرْضِ، وَمِائَةٍ وَوَاحِدٍ وَثَلَاثِينَ فِى الطُّولِ، جَوَانِبُ مِنْهُ مَعْمُورَةُ الْبُيُوتِ تَارَةً بِالْعَدَدِ وَأُخْرَى بِالْحُرُوفِ، وَجَوَانِبُ خَالِيَةُ الْبُيُوتِ. وَلَا تُعْلَمُ نِسْبَةُ تِلْكَ الْأَعْدَادِ فِى أَوْضَاعِهَا، وَلَا الْقِسْمَةُ الَّتِى عَيَّنَتِ الْبُيُوتَ الْعَامِرَةَ مِنَ الْخَالِيَةِ، وَحَافَاتُ الزَّايِرْجَةِ أَبْيَاتٌ مِنْ عَرُوضِ الطَّوِيلِ (١) عَلَى رَوِىِّ اللَّامِ الْمَنْصُوبَةِ، تَتَضَمَّنُ صُورَةَ الْعَمَلِ فِى اسْتِخْرَاجِ الْمَطْلُوبِ مِنْ تِلْكَ الزَّايِرْجَةِ، إِلَّا أَنَّهَا مِنْ قَبِيلِ الْإِلْغَازِ فِى عَدَمِ الْوُضُوحِ وَالْجَلَاءِ.

وَفِى بَعْضِ جَوَانِبِ الزَّايِرْجَةِ بَيْتٌ مِنَ الشِّعْرِ مَنْسُوبٌ لِبَعْضِ أَكَابِرِ أَهْلِ الْحَدَثَانِ بِالْمَغْرِبِ، وَهُوَ مَالِكُ بْنُ وُهَيْبٍ مِنْ عُلَمَاءِ أَشْبِيلِيَةَ كَانَ فِى الدَّوْلَةِ اللَّمْتُونِيَّةِ، وَنَصُّ الْبَيْتِ:

سُؤَالُ عَظِيمِ الْخَلْقِ حُزْتَ فَصُنْ إِذَنْ
غَرَائِبَ شَكٍّ ضَبْطُهُ الْجِدُّ مَثِّلَا

وَهُوَ الْبَيْتُ الْمُتَدَاوَلُ عِنْدَهُمْ فِى الْعَمَلِ لِاسْتِخْرَاجِ الْجَوَابِ مِنَ السُّؤَالِ فِى هٰذِهِ الزَّايِرْجَةِ وَغَيْرِهَا.

فَإِذَا أَرَادُوا اسْتِخْرَاجَ الْجَوَابِ عَمَّا يُسْأَلُ عَنْهُ مِنَ الْمَسَائِلِ كَتَبُوا ذٰلِكَ السُّؤَالَ وَقَطَّعُوهُ حُرُوفًا، ثُمَّ أَخَذُوا الطَّالِعَ لِذٰلِكَ الْوَقْتِ مِنْ بُرُوجِ الْفَلَكِ وَدَرَجِهَا، وَعَمَدُوا إِلَى الزَّايِرْجَةِ، ثُمَّ إِلَى الْوَتَرِ الْمُكْتَنِفِ فِيهَا بِالْبُرْجِ الطَّالِعِ مِنْ أَوَّلِهِ مَارًّا إِلَى الْمَرْكَزِ، ثُمَّ إِلَى مُحِيطِ الدَّائِرَةِ قُبَالَةَ الطَّالِعِ، فَيَأْخُذُونَ جَمِيعَ الْحُرُوفِ الْمَكْتُوبَةِ عَلَيْهِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ وَالْأَعْدَادَ الْمَرْسُومَةَ بَيْنَهُمَا، وَيُصَيِّرُونَهَا حُرُوفًا بِحِسَابِ الْجُمَّلِ. وَقَدْ يَنْقُلُونَ آحَادَهَا إِلَى الْعَشَرَاتِ، وَعَشَرَاتِهَا إِلَى الْمِئِينَ وَبِالْعَكْسِ فِيهِمَا، كَمَا يَقْتَضِيهِ قَانُونُ الْعَمَلِ عِنْدَهُمْ، وَيَضَعُونَهَا مَعَ حُرُوفِ السُّؤَالِ وَيُضِيفُونَ إِلَى ذٰلِكَ جَمِيعَ مَا عَلَى الْوَتَرِ الْمُكْتَنِفِ بِالْبُرْجِ الثَّالِثِ مِنَ الطَّالِعِ مِنَ الْحُرُوفِ وَالْأَعْدَادِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى الْمَرْكَزِ فَقَطْ، لَا يَتَجَاوَزُونَهُ إِلَى الْمُحِيطِ، وَيَفْعَلُونَ بِالْأَعْدَادِ مَا فَعَلُوهُ بِالْأَوَّلِ وَيُضِيفُونَهَا إِلَى الْحُرُوفِ الْأُخْرَى، ثُمَّ يُقَطِّعُونَ حُرُوفَ الْبَيْتِ الَّذِى هُوَ أَصْلُ الْعَمَلِ وَقَانُونُهُ عِنْدَهُمْ وَهُوَ بَيْتُ مَالِكِ بْنِ وُهَيْبٍ الْمُتَقَدِّمُ وَيَضَعُونَهَا نَاحِيَةً ثُمَّ يَضْرِبُونَ عَدَدَ دَرَجِ الطَّالِعِ فِى أُسِّ الْبُرْجِ. وَأُسُّهُ عِنْدَهُمْ هُوَ بُعْدُ الْبُرْجِ عَنْ آخِرِ الْمَرَاتِبِ، عَكْسُ مَا عَلَيْهِ الْأُسُّ عِنْدَ أَهْلِ صِنَاعَةِ الْحِسَابِ، فَإِنَّهُ عِنْدَهُمُ الْبُعْدُ عَنْ أَوَّلِ الْمَرَاتِبِ، ثُمَّ يَضْرِبُونَهُ فِى عَدَدٍ آخَرَ يُسَمُّونَهُ الْأُسَّ الْأَكْبَرَ، وَالدَّوْرَ الْأَصْلِىَّ، وَيَدْخُلُونَ بِمَا تَجَمَّعَ لَهُمْ مِنْ ذٰلِكَ فِى بُيُوتِ الْجَدْوَلِ عَلَى قَوَانِينَ مَعْرُوفَةٍ، وَأَعْمَالٍ مَذْكُورَةٍ، وَأَدْوَارٍ مَعْدُودَةٍ، وَيَسْتَخْرِجُونَ مِنْهَا حُرُوفًا وَيُسْقِطُونَ أُخْرَى، وَيُقَابِلُونَ بِمَا مَعَهُمْ فِى حُرُوفِ الْبَيْتِ، وَيَنْقُلُونَ مِنْهُ مَا يَنْقُلُونَ إِلَى حُرُوفِ السُّؤَالِ، وَمَا مَعَهَا ثُمَّ يَطْرَحُونَ تِلْكَ الْحُرُوفَ بِأَعْدَادٍ مَعْلُومَةٍ يُسَمُّونَهَا الْأَدْوَارَ، وَيُخْرِجُونَ فِى كُلِّ دَوْرٍ الْحَرْفَ

(٣) أى على وزن البحر الطويل من أوزان الشعر.

الذى ينتهى عنده الدور ، ويعاودون ذلك بعدد الأدوار المعينة عندهم لذلك فيخرج آخرها حروف متقطعة ، وتؤلف على التوالى فتصير كلمات منظومة فى بيت واحد على وزن البيت ، الذى يقابل به العمل ورويه ، وهو بيت مالك بن وهيب المتقدم حسبما نذكر ذلك كله فى فصل العلوم عند كيفية العمل بهذه الزايرجة .

وقد رأينـــا كثيرا من الخواص يتهافتون على استخراج الغيب منها بتلك الأعمال . ويحسبون أن ما وقع من مطابقة الجواب للسؤال فى توافق الخطاب دليل على مطابقة الواقع ، وليس ذلك بصحيح . لأنه قد مر لك أن الغيب لا يدرك بأمر صناعى البتة ، وإنما المطابقة التى فيها بين الجواب والسؤال ، من حيث الإفهام والتوافق فى الخطاب ، حتى يكون الجواب مستقيما أو موافقا للسؤال .

ووقوع ذلك فى هذه الصناعة فى تكسير الحروف المجتمعة من السؤال والأوتار ، والدخول فى الجدول بالأعداد المجتمعة من ضرب الأعداد المفروضة ، واستخراج الحروف من الجدول بذلك ، وطرح أخرى ومعاودة ذلك فى الأدوار المعدودة ، ومقابلة ذلك كله بحروف البيت على التوالى غير مستنكر . وقد يقع الاطلاع من بعض الأذكياء على تناسب بين هذه الأشياء ، فيقع له معرفة المجهول ، فالتناسب بين الأشياء هو سبب الحصول على المجهول من المعلوم الحاصل للنفس وطريق لحصوله ، سيما من أهل الرياضة ، فإنها تفيد العقل قوة على القياس وزيادة فى الفكر ، وقد مر تعليل ذلك غير مرة .

ومن أجل هذا المعنى ينسبون هذه الزايرجة فى الغالب لأهل الرياضة ، فهى منسوبة للسبتى ، ولقد وقفت على أخرى منسوبة لسهل بن عبد الله .

ولعمرى إنها من الأعمال الغريبة والمعاناة العجيبـة . والجواب الذى يخرج منها ، فالسر فى خروجه منظوما يظهر لى ، إنما هو المقابلة بحروف ذلك البيت ، ولهذا يكون النظم على وزنه ورويه . ويدل عليه أنا وجدنا أعمالا أخرى لهم فى مثل ذلك أسقطوا فيها المقابلة بالبيت ، فلم يخرج الجواب منظوما كما تراه عند الكلام على ذلك فى موضعه .

وكثير من الناس تضيق مداركهم عن التصديق بهذا العمل ونفوذه إلى المطلوب ، فينكر صحتها ويحسب أنها من التخيلات والإيهامات ، وأن صاحب العمل بها يثبت حروف البيت الذى ينظمه ، كما يريد بين أثناء حروف السؤال والأوتار ويفعل تلك الصناعات على غير نسبة ، ولا قانون ، ثم يجىء بالبيت ويوهم أن العمل جاء على طريقة منضبطة ، وهذا الحسبان توهم فاسد حمل عليه القصور عن فهم التناسب بين الموجودات والمعدومات ، والتفاوت بين المدارك والعقول . ولكن من شأن كل مدرك إنكار ما ليس فى طوقه إدراكه ، ويكفينا فى رد ذلك مشاهدة العمل بهذه الصناعة ، والحدس

الْقَطْعِى فَإِنَّهَا جَاءَتْ بِعَمَلٍ مُطَّرِدٍ ، وَقَانُونٍ صَحِيحٍ لَا مِرْيَةَ فِيهِ عِنْدَ مَنْ يُبَاشِرُ ذٰلِكَ مِمَّنْ لَهُ ذَكَاءٌ وَحَدْسٌ .

وَإِذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُعَايَاةِ (١) فِى الْعَدَدِ الَّذِى هُوَ أَوْضَحُ الْوَاضِحَاتِ يَعْسُرُ عَلَى الْفَهْمِ إِدْرَاكُهُ ، ، لِبُعْدِ النِّسْبَةِ فِيهِ وَخَفَائِهَا ؛ فَمَا ظَنُّكَ بِمِثْلِ هٰذَا مَعَ خَفَاءِ النِّسْبَةِ فِيهِ وَغَرَابَتِهَا . فَلْنَذْكُرْ مَسْأَلَةً مِنَ الْمُعَايَاةِ يَتَّضِحُ لَكَ بِهَا شَىْءٌ مِمَّا ذَكَرْنَا مِثَالُهُ .

لَوْ قِيلَ لَكَ خُذْ عَدَدًا مِنَ الدَّرَاهِمِ ، وَاجْعَلْ بِإِزَاءِ كُلِّ دِرْهَمٍ ثَلَاثَةً مِنَ الْفُلُوسِ ، ثُمَّ اجْمَعِ الْفُلُوسَ الَّتِى أَخَذْتَ وَاشْتَرِ بِهَا طَائِرًا ، ثُمَّ اشْتَرِ بِالدَّرَاهِمِ كُلِّهَا طُيُورًا بِسِعْرِ ذٰلِكَ الطَّائِرِ ، فَكَمِ الطُّيُورُ الْمُشْتَرَاةُ بِالدَّرَاهِمِ ؟ فَجَوَابُهُ أَنْ تَقُولَ : هِىَ تِسْعَةٌ . لِأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ فُلُوسَ الدَّرَاهِمِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ وَأَنَّ الثَّلَاثَةَ ثُمْنُهَا ، وَأَنَّ عِدَّةَ أَثْمَانِ الْوَاحِدِ ثَمَانِيَةٌ ، فَإِذَا جَمَعْتَ الثَّمَنَ مِنَ الدَّرَاهِمِ إِلَى الثَّمَنِ الْآخَرِ فَكَانَ كُلُّهُ ثَمَنَ طَائِرٍ ، فَهِىَ ثَمَانِيَةُ طُيُورٍ ، عِدَّةَ أَثْمَانِ الْوَاحِدِ وَتَزِيدُ عَلَى الثَّمَانِيَةِ طَائِرًا آخَرَ وَهُوَ الْمُشْتَرَى بِالْفُلُوسِ الْمَأْخُوذَةِ أَوَّلًا ، وَعَلَى سِعْرِهِ اشْتَرَيْتَ بِالدَّرَاهِمِ ، فَتَكُونُ تِسْعَةً . فَأَنْتَ تَرَى كَيْفَ خَرَجَ لَكَ الْجَوَابُ الْمُضْمَرُ بِسِرِّ التَّنَاسُبِ الَّذِى بَيْنَ أَعْدَادِ الْمَسْأَلَةِ ، وَالْوَهْمُ – أَوَّلَ مَا يُلْقَى إِلَيْكَ هٰذِهِ وَأَمْثَالُهَا – إِنَّمَا يَجْعَلُهُ مِنْ قَبِيلِ الْغَيْبِ الَّذِى لَا يُمْكِنُ مَعْرِفَتُهُ ، وَظَهَرَ أَنَّ التَّنَاسُبَ بَيْنَ الْأُمُورِ هُوَ الَّذِى يُخْرِجُ مَجْهُولَهَا مِنْ مَعْلُومِهَا ، وَهٰذَا إِنَّمَا هُوَ فِى الْوَاقِعَاتِ الْحَاصِلَةِ فِى الْوُجُودِ أَوِ الْعِلْمِ .

(١) التعقيد الذى لا يكاد يفهم أو يوجه له حل .

وَأَمَّا الْكَائِنَاتُ الْمُسْتَقْبَلَةُ إِذَا لَمْ تُعْلَمْ أَسْبَابُ وُقُوعِهَا ، وَلَا يَثْبُتْ لَهَا خَبَرٌ صَادِقٌ عَنْهَا فَهُوَ غَيْبٌ لَا يُمْكِنُ مَعْرِفَتُهُ .

وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ ذٰلِكَ فَالْأَعْمَالُ الْوَاقِعَةُ فِى الزَّايِرْجَةِ كُلِّهَا ، إِنَّمَا هِىَ فِى اسْتِخْرَاجِ الْجَوَابِ مِنْ أَلْفَاظِ السُّؤَالِ ؛ لِأَنَّهَا كَمَا رَأَيْتَ اسْتِنْبَاطُ حُرُوفٍ عَلَى تَرْتِيبٍ مِنْ تِلْكَ الْحُرُوفِ بِعَيْنِهَا عَلَى تَرْتِيبٍ آخَرَ . وَسِرُّ ذٰلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ تَنَاسُبٍ بَيْنَهُمَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ بَعْضٌ دُونَ بَعْضٍ ، فَمَنْ عَرَفَ ذٰلِكَ التَّنَاسُبَ تَيَسَّرَ عَلَيْهِ اسْتِخْرَاجُ ذٰلِكَ الْجَوَابِ بِتِلْكَ الْقَوَانِينِ ، وَالْجَوَابُ يَدُلُّ فِى مَقَامٍ آخَرَ مِنْ حَيْثُ مَوْضُوعِ أَلْفَاظِهِ وَتَرَاكِيبِهِ عَلَى وُقُوعِ أَحَدِ طَرَفَىِ السُّؤَالِ مِنْ نَفْىٍ أَوْ إِثْبَاتٍ ، وَلَيْسَ هٰذَا مِنَ الْمَقَامِ الْأَوَّلِ بَلْ إِنَّمَا يَرْجِعُ لِمُطَابَقَةِ الْكَلَامِ لِمَا فِى الْخَارِجِ ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَةِ ذٰلِكَ مِنْ هٰذِهِ الْأَعْمَالِ ، بَلِ الْبَشَرُ مَحْجُوبُونَ عَنْهُ ، وَقَدِ اسْتَأْثَرَ اللهُ بِعِلْمِهِ «وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» (١)

(١) الآية رقم : ٢٣٢ من سورة : البقرة .

الباب الثانى

فى العمران البدوى ، والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض فى ذلك من الأحوال وفيه فصول وتمهيدات

الفصل الأول

فى أن أجيال البَدْوِ وَالحَضَر طَبيعيَّة

إعْلَمْ أنَّ اخْتِلَافَ الأَجْيَالِ فى أَحْوَالِهِمْ ، إنَّمَا هُوَ بِاخْتِلَافِ نِحْلَتِهِمْ مِنَ الْمَعَاشِ ، فَإِنَّ اجْتِمَاعَهُمْ إنَّمَا هُوَ لِلتَّعَاوُنِ عَلَى تَحْصِيلِهِ وَالابْتِدَاءِ بِمَا هُوَ ضَرُورِىٌّ مِنْهُ وَبَسِيطٌ قَبْلَ الْحَاجِىِّ (١) وَالْكَمَالِىِّ . فَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعْمِلُ الْفَلْحَ(٢) مِنَ الْغِرَاسَةِ وَالزِّرَاعَةِ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَحِلِ الْقِيَامَ عَلَى الْحَيَوانِ مِنَ الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ وَالْمعزِ وَالنَّحْلِ وَالدُّودِ لِنِتَاجِهَا ، وَاسْتِخْرَاجِ فَضَلَاتِهَا . وَهٰؤلَاءِ الْقَائِمُونَ عَلَى الْفَلْحِ وَالْحَيَوانِ ، تَدْعُوهُمُ الضَّرُورَةُ وَلَا بُدَّ إلَى الْبَدْوِ لِأنَّهُ مُتَّسِعٌ لِمَا لَا يَتَّسِعُ لَهُ الْحَوَاضِرُ ، مِنَ الْمَزَارِعِ وَالْفُدُنِ(٣) وَالْمَسَارِحِ لِلْحَيَوَانِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ ، فَكَانَ اخْتِصَاصُ هٰؤلَاءِ بِالْبَدْوِ أَمْرًا ضَرُورِيًّا لَهُمْ ؛ وَكَانَ حِينَئِذٍ اجْتِمَاعُهُمْ وَتَعَاوُنُهُمْ فى حَاجَاتِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ وَعُمْرَانِهِمْ مِنَ الْقُوتِ ، وَالْكِنِّ وَالدِّفْءِ إنَّمَا هُوَ بِالْمِقْدَارِ الَّذِى يَحْفَظُ الْحَيَاةَ ، وَيُحَصِّلُ بُلْغَةَ الْعَيْشِ مِنْ غَيْرِ مَزِيدٍ عَلَيْهِ لِلْعَجْزِ عَمَّا وَرَاءَ ذٰلِكَ .

ثُمَّ إذَا اتَّسَعَتْ أَحْوَالُ هٰؤلَاءِ الْمُنْتَحِلِينَ لِلْمَعَاشِ ، وَحَصَلَ لَهُمْ مَا فَوْقَ الْحَاجَةِ مِنَ الْغِنَى وَالرَّفْهِ ، دَعَاهُمْ ذٰلِكَ إلَى السُّكُونِ وَالدَّعَةِ ، وَتَعَاوَنُوا فى الزَّائِدِ عَلَى الضَّرُورَةِ واسْتَكْثَرُوا مِنَ الأَقْوَاتِ وَالْمَلَابِسِ وَالتَّأَنُّقِ فِيهَا ، وَتَوْسِعَةِ الْبُيُوتِ واخْتِطَاطِ الْمُدُنِ وَالأَمْصَارِ لِلتَّحَضُّرِ .

ثُمَّ تَزِيدُ أَحْوَالُ الرَّفْهِ والدَّعَةِ فَتَجِىءُ عَوَائِدُ التَّرَفِ الْبَالِغَةُ مبالِغَهَا فى التَّأَنُّقِ فى عِلَاجِ الْقُوتِ وَاسْتِجَادَةِ الْمطَابِخِ ، وانْتِقَاءِ الْمَلَابِسِ الْفَاخِرَةِ فى أَنْوَاعِهَا مِنَ الْحَرِيرِ والدِّيبَاجِ وغَيْرِ ذٰلِكَ ، ومُعَالَاةِ الْبُيُوتِ والصُّرُحِ ، وَإحْكَامِ وَضْعِهَا فى تَنْجِيدِهَا والانْتِهَاءِ فى الصَّنَائِعِ – فى الْخُرُوجِ مِنَ الْقُوَّةِ إلَى الْفِعْلِ – إلَى غَايَاتِهَا ، فَيَتَّخِذُونَ الْقُصُورَ والْمَنَازِلَ ويُجْرُونَ فِيهَا الْمِيَاهَ ، ويُعَالُونَ فى صَرْحِهَا وَيُبَالِغُونَ فى تَنْجِيدِهَا ، ويَخْتَلِقُونَ(١) فى اسْتِجَادَةِ مَا يَتَّخِذُونَهُ لِمَعَاشِهِمْ مِنْ ملْبُوسٍ أَوْ فِرَاشٍ أَوْ آنِيَةٍ أَوْ مَاعُونٍ ، وهٰؤلَاءِ هُمُ الْحَضَرُ ومَعْنَاهُ : الْحَاضِرُونَ أَهْلُ الأَمْصَارِ ، وَالْبُلْدَانِ .

وَمِنْ هٰؤلَاءِ مَنْ يَنْتَحِلُ فى مَعَاشِهِ الصَّنَائِعَ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَحِلُ التِّجَارَةَ ، وَتَكُونُ مَكَاسِبُهُمْ أَنْمَى(٢) وَأَرْفَهَ من أهلِ الْبَدْوِ لأَنَّ أحوالَهُم زائدةٌ على الضَّرورىِّ وَمَعَاشُهُمْ عَلَى نِسْبَةِ وُجْدِهِم . فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَجْيَالَ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ طَبِيعِيَّةٌ لَابُدَّ مِنْهَا كَمَا قُلْنَاهُ .

---

(١) يعنى غير الأساسى والضرورى .

(٢) فلاحة الأرض .

(٣) جمع فدان والمراد به هنا آلة الحرث .

---

(١) يتنكرون .

(٢) أوفر وأكثر .

الفصل الثانى

فى أنَّ جيلَ العرب فى الخلقة طبيعىٌّ

قَدْ قَدَّمْنَا فى الْفَصْلِ قَبْلَهُ أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ ، هُمُ الْمُنتحِلونَ للْمَعَاشِ الطَّبِيعِىِّ مِنَ الْفَلْحِ وَالْقِيَامِ عَلَى الْأَنْعَامِ ، وَأَنَّهمْ مُقْتَصِرُونَ عَلَى الضَّرُورِىِّ مِنَ الْأَقْوَاتِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِنِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ وَالْعَوَائِدِ ، وَمُقَصِّرُونَ عَمَّا فَوقَ ذَلِكَ مِنْ حَاجِىٍّ أَوْ كَمَالِىٍّ ، يَتَّخِذُونَ الْبُيُوتَ مِنَ الشَّعْرِ وَالْوَبَرِ أَوِ الشَّجَرِ أَوْ مِنَ الطِّينِ وَالْحِجارَةِ غَيْرَ مُنَجَّدَة ، إِنَّمَا هُوَ قَصْدُ الاسْتِظْلَالِ وَالْكِنِّ ، لَا مَا وَرَاءَهُ . وَقَدْ يَأْوُونَ إِلَى الْغِيرَانِ(١) ، وَالْكُهُوفِ .

وَأَمَّا أَقْوَاتُهُمْ فَيَتَنَاوَلُونَ بِهَا يَسِيرًا بِعِلَاجٍ أَوْ بِغَيْرِ عِلَاجٍ أَلْبَتَّةَ إِلَّا مَا مَسَّتْهُ النَّـار . فَمَنْ كَانَ مَعَاشُهُ مِنْهُمْ فى الزِّرَاعَةِ وَالْقِيَامِ بِالْفَلْحِ ، كَانَ الْمُقَامُ بِهِ أَوْلَى مِنَ الظَّعْنِ ، وَهَؤُلَاءِ سُكَّانُ الْمَدَرِ وَالْقُرَى وَالْجِبالِ ، وَهُمْ عَامَّةُ الْبَرْبَرِ وَالْأَعَاجِمِ .

وَمَنْ كَانَ مَعَاشُهُ فى السَّائِمَةِ مِثْلِ الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ فَهُمْ ظُعَّنٌ فى الْأَغْلَبِ لارْتِيَادِ الْمَسَارِحِ وَالْمِيَاهِ لِحَيَوَانَاتِهِمْ ، فَالتَّقَلُّبُ فى الْأَرْضِ أَصْلَحُ بِهِمْ ، وَيُسمَّونَ شَاوِيَةً . وَمَعْنَاهُ : الْقَائِمُونَ عَلَى الشَّاءِ وَالْبَقَرِ ؛ وَلَا يُبْعِدُونَ فى الْقَفْرِ لِفِقْدَانِ الْمَسَارِحِ الطَّيِّبَةِ ؛ وَهؤُلَاءِ مِثْلُ الْبَرْبَرِ والترك وإخوانهم من التُّرْكُمانِ والصَّقَالِبَةِ .

وَأَمَّا مَنْ كَانَ مَعَاشُهُمْ فى الْإِبِلِ ، فَهُمْ أَكْثَرُ ظَعْنًا وَأَبْعَدُ فى الْقَفْرِ مَجَالًا ، لِأَنَّ مَسَارِحَ التُّلُولِ وَنَبَاتَهَا وَشَجَرَهَا لَا يَسْتَغْنِى بِهَا الْإِبِلُ فى قِوَامِ حَيَاتِهَا عَنْ مَرَاعِى الشَّجَرِ بِالْقَفْرِ وَوُرُودِ مِيَاهِهِ الْمِلحَةِ ، وَالتَّقَلُّبِ فَصْلَ الشِّتَاءِ فى نَوَاحِيهِ فِرَارًا مِنْ أَذَى الْبَرْدِ إِلَى دِفْءِ هَوَائِهِ وَطَلَبًا لِمَاخِضِ(١) النِّتَاجِ فى رِمَالِهِ ، إِذِ الْإِبِلُ أَصْعَبُ الْحَيَوَانِ فِصَالًا وَمَخَاضًا وَأَحْوَجُهَا فى ذَلِكَ إِلَى الدِّفْءِ ، فَاضْطُرُّوا إِلَى إِبْعَادِ النُّجْعَةِ(٢) ، وَرُبَّمَـا ذَادَتْهُمُ الْحَامِيَةُ عَنِ التُّلُولِ أَيْضًا فَأَوْغَلُوا فى الْقِفَارِ نُفْرَةً عَنِ الضَّعَةِ مِنْهُمْ ، فَكَانُوا لِذَلِكَ أَشَدَّ النَّاسِ تَوَحُّشًا . وَيَنْزِلُونَ مِنْ أَهْلِ الْحَوَاضِرِ مَنْزِلَةَ الْوَحْشِ غَيْرِ الْمَقْدُورِ عَلَيْهِ وَالْمُفْتَرِسِ مِنَ الْحَيَوَانِ الْعُجْمِ . وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْعَرَبُ وَفى مَعْنَاهُـمْ ظُعُونُ الْبَرْبَرِ وَزَنَاتَة بِالْمَغْرِبِ وَالْأَكْرَادِ وَالتُّرْكُمَانِ وَالتُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ . إِلَّا أَنَّ الْعَرَبَ أَبْعَدُ نُجْعَةً وَأَشَدُّ بَدَاوَةً ، لأَنَّهُمْ مُخْتَصُّونَ بِالْقِيَامِ عَلَى الْإِبِلِ فَقَطْ ، وَهَؤُلَاءِ يَقُومُونَ عَلَيْهَا وَعَلَى الشِّيَاهِ وَالْبَقَرِ مَعَهَا ، فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ جِيلَ الْعَرَبِ طَبِيعِىٌّ لَابُدَّ مِنْهُ فى الْعُمْرَانِ وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل الثالث

فى أن البدو أقدمُ من الحضر وسابقٌ عليه وأن البادية أصلُ الْعُمْران والأمصارُ مَدَدٌ لها

قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْبَدْوَ هُمُ الْمُقْتَصِرُونَ عَلَى الضَّرُورِىِّ فى أَحْوَالِهِمِ ، الْعَاجِزُونَ عَمَّا فَوْقَهُ ، وَأَنَّ الْحَضَرَ الْمُعْتَنُونَ بِحَاجَاتِ التَّرَفِ وَالْكَمَالِ فى أَحْوَالِهِمْ

---

(١) جمع غار .

(١) يريد كثير الولادة والنسل وجيدها .

(٢) الذهاب فى طلب الكلأ والمرعى .

وعوائدهم . ولا شك أن الضرورى أقدم من الحاجى والكمالى وسابق عليه ، ولأن الضرورى أصل والكمالى فرع ناشىء عنه ، فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما لأن أول مطالب الإنسان الضرورى ولا ينتهى إلى الكمال والترف ، إلا إذا كان الضرورى حاصلا. فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة . ولهذا نجد التمدن غاية للبدوى يجرى إليها وينتهى بسعيه إلى مقترحه منها . ومتى حصل على الرياش الذى يحصل له به أحوال الترف وعوائده عاج إلى الدعة ، وأمكن نفسه إلى قياد المدينة . وهكذا شأن القبائل المتبدية كلهم . والحضرى لا يتشوف إلى أحوال البادية ، إلا لضرورة تدعوه إليها أو لتقصير عن أحوال أهل مدينته .

ومما يشهد لنا أن البدو أصل للحضر ومتقدم عليه أنا إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصر وأنهم أيسروا فسكنوا المصر ، وعدلوا إلى الدعة والترف الذى فى الحضر . وذلك يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها فتفهمه .

ثم إن كل واحد من البدو والحضر متفاوت الأحوال من جنسه ، فرب حى أعظم من حى ، وقبيلة أعظم من قبيلة ، ومصر أوسع من مصر ، ومدينة أكثر عمرانا من مدينة . فقد تبين أن وجود البدو متقدم على وجود المدن والأمصار وأصل لها ، بما أن وجود المدن والأمصار من عوائد الترف والدعة ، التى هى متأخرة عن عوائد الضرورة المعاشية والله أعلم .

الفصل الرابع

فى أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر

وسببه أن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر ، قال صلى الله عليه وسلم «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

وبقدر ما سبق إليها من أحد الخلقين تبعد عن الآخر ويصعب عليها اكتسابه . فصاحب الخير إذا سبقت إلى نفسه عوائد الخير ، وحصلت لها ملكته بعد عن الشر ، وصعب عليه طريقه . وكذا صاحب الشر ، إذا سبقت إليه أيضا عوائده .

وأهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر . وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة فى أحوالهم ؛ فتجد الكثير منهم يقذعون فى أقوال الفحشاء فى مجالسهم ، وبين كبرائهم وأهل محارمهم لا يصدهم عنه وازع الحشمة لما أخذتهم به عوائد السوء فى التظاهر بالفواحش قولا وعملا .

وأهل البدو وإن كانوا مقبلين على الدنيا

مِثْلَهُمْ . إِلَّا أَنَّهُ فِى الْمِقْدَارِ الضَّرُورِيِّ لَا فِى التَّرَفِ وَلَا فِى شَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَّاتِ ودواعيها. فَعَوَائِدُهُمْ فِى مُعَامَلَاتِهِمْ عَلَى نِسْبَتِهَا ؛ وَمَا يَحْصُلُ فِيهِمْ مِنْ مَذَاهِبِ السُّوءِ وَمَذْمُومَاتِ الْخُلُقِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَهْلِ الْحَضَرِ أَقَلُّ بِكَثِيرٍ . فَهُمْ أَقْرَبُ إِلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى ، وَأَبْعَدُ عَمَّا يَنْطَبِعُ فِى النَّفْسِ مِنْ سُوءِ الْمَلَكَاتِ بِكَثْرَةِ الْعَوَائِدِ الْمَذْمُومَةِ وَقُبْحِهَا فَيَسْهُلُ عِلَاجُهُمْ عَنْ عِلَاجِ الْحَضَرِ وَهُوَ ظَاهِرٌ .

وَقَدْ يَتَّضِحُ فِيمَا بَعْدُ أَنَّ الْحَضَارَةَ هِيَ نِهَايَةُ الْعُمْرَانِ وَخُرُوجِهِ إِلَى الْفَسَادِ ، وَنِهَايَةُ الشَّرِّ وَالْبُعْدِ عَنِ الْخَيْرِ . فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ أَقْرَبُ إِلَى الْخَيْرِ مِنْ أَهْلِ الْحَضَرِ ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . وَلَا يُعْتَرَضُ عَلَى ذَلِكَ بِمَا وَرَدَ فِى صَحِيحِ الْبُخَارِى مِنْ قَوْلِ الْحَجَّاجِ لِسَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ ، وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ خَرَجَ إِلَى سُكْنَى الْبَادِيَةِ ، فَقَالَ لَهُ : ارْتَدَدْتَ عَلَى عَقِبَيْكَ ؟ تَعَرَّبْتَ ؟ فَقَالَ : لَا ، وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذِنَ لِى فِى الْبَدْوِ » فَاعْلَمْ أَنَّ الْهِجْرَةَ افْتُرِضَتْ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ ، لِيَكُونُوا مَعَ النَّبِيِّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ حَلَّ مِنَ الْمَوَاطِنِ يَنْصُرُونَهُ وَيُظَاهِرُونَهُ عَلَى أَمْرِهِ وَيَحْرُسُونَهُ ، وَلَمْ تَكُنْ وَاجِبَةً عَلَى الْأَعْرَابِ أَهْلِ الْبَادِيَةِ لِأَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ يَمَسُّهُمْ مِنْ عَصَبِيَّةِ النَّبِيِّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِى الْمُظَاهَرَةِ وَالْحِرَاسَةِ مَالَا يَمَسُّ غَيْرَهُمْ مِنْ بَادِيَةِ الْأَعْرَابِ .

وَقَدْ كَانَ الْمُهَاجِرُونَ يَسْتَعِيذُونَ بِاللهِ مِنَ التَّعَرُّبِ وَهُوَ سُكْنَى الْبَادِيَةِ ، حَيْثُ لَاتَجِبُ الْهِجْرَةُ . وَقَالَ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِى حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِى وَقَّاصٍ عِنْدَ مَرَضِهِ بِمَكَّةَ : « اللَّهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحَابِى هِجْرَتَهُمْ ، وَلَا تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ » ، وَمَعْنَاهُ أَنْ يُوَفِّقَهُمْ لِمُلَازَمَةِ الْمَدِينَةِ وَعَدَمِ التَّحَوُّلِ عَنْهَا ، فَلَا يَرْجِعُوا عَنْ هِجْرَتِهِمِ الَّتِى ابْتَدَأُوا بِهَا وَهُوَ مِنْ بَابِ الرُّجُوعِ عَلَى الْعَقِبِ فِى السَّعْيِ إِلَى وَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ .

وَقِيلَ : إِنَّ ذَلِكَ كَانَ خَاصًّا بِمَا قَبْلَ الْفَتْحِ حِينَ كَانَتِ الْحَاجَةُ دَاعِيَةً إِلَى الْهِجْرَةِ لِقِلَّةِ الْمُسْلِمِينَ . وَأَمَّا بَعْدَ الْفَتْحِ وَحِينَ كَثُرَ الْمُسْلِمون وَاعْتَزُّوا ، وَتَكَفَّلَ اللهُ لِنَبِيِّهِ بِالْعِصْمَةِ مِنَ النَّاسِ ، فَإِنَّ الْهِجرة سَاقِطَةٌ حِينَئِذٍ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَاهِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ » . وَقِيلَ : سَقَطَ إِنْشَاؤُهَا عَمَّنْ يُسْلِمُ بَعْدَ الْفَتْحِ . وَقِيلَ : سَقَطَ وُجُوبُهَا عَمَّنْ أَسْلَمَ وَهَاجَرَ قَبْلَ الْفَتْحِ ، وَالْكُلُّ مُجْمِعُونَ عَلى أَنَّهَا بَعْدَ الْوَفَاةِ سَاقِطَةٌ ؛ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ افْتَرَقُوا مِنْ يَوْمَئِذٍ فِى الْآفَاقِ ، وَانْتَشَرُوا وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا فَضْلُ السُّكْنَى بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ هِجْرَةٌ .

فَقَوْلُ الْحَجَّاجِ لِسَلَمَةَ حِينَ سَكَنَ الْبَادِيَةَ : ارْتَدَدْتَ عَلَى عَقِبَيْكَ !! تَعَرَّبْتَ !! نَعْيٌ عَلَيْهِ فِى تَرْكِ السُّكْنَى بِالْمَدِينَةِ ، بِالْإِشَارَةِ إِلَى الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ الَّذِى قَدَّمْنَاهُ وَهُوَ قَوْلُهُ « لَاتَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ » وَقَوْلُهُ : تَعَرَّبْتَ ؟ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ صَارَ مِنَ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ لَا يُهَاجِرُونَ . وَأَجَابَ سَلَمَةُ بِإِنْكَارِ مَا أَلْزَمَهُ مِنَ الْأَمْرَيْنِ ، وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذِنَ لَهُ فِى الْبَدْوِ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ خَاصًّا بِهِ كَشَهَادَةِ خُزَيْمَةَ ، وَعَنَاقِ أَبِى بُرْدَةَ . وَيَكُونُ الْحَجَّاجُ إِنَّمَا نَعَى عَلَيْهِ تَرْكَ السُّكْنَى بِالْمَدِينَةِ فَقَطْ ، لِعِلْمِهِ

بِسُقُوطِ الْهِجْرَةِ بَعْدَ الْوَفَاةِ، وَأَجَابَهُ سَلَمَةُ بِأَنَّ اغْتِنَامَهُ لِإِذْنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْلَى وَأَفْضَلُ؛ فَمَا آثَرَهُ بِهِ وَاخْتَصَّهُ إِلَّا لِمَعْنًى عَلِمَهُ فِيهِ.

وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَلَيْسَ دَلِيلًا عَلَى مَذَمَّةِ الْبَدْوِ الَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ بِالتَّعَرُّبِ؛ لِأَنَّ مَشْرُوعِيَّةَ الْهِجْرَةِ إِنَّمَا كَانَتْ كَمَا عَلِمْتَ لِمُظَاهَرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحِرَاسَتِهِ لَا لِلْمَذَمَّةِ الْبَدْوِ؛ فَلَيْسَ فِي النَّعْيِ عَلَى تَرْكِ هٰذَا الْوَاجِبِ دَلِيلٌ عَلَى مَذَمَّةِ التَّعَرُّبِ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ.

الفصل الخامس

فى أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر

وَالسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ: أَنَّ أَهْلَ الْحَضَرِ أَلْقَوْا جُنُوبَهُمْ عَلَى مِهَادِ الرَّاحَةِ وَالدَّعَةِ، وَانْغَمَسُوا فِي النَّعِيمِ وَالتَّرَفِ، وَوَكَلُوا أَمْرَهُمْ فِي الْمُدَافَعَةِ عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ إِلَى وَالِيهِمْ وَالْحَاكِمِ الَّذِي يَسُوسُهُمْ، وَالْحَامِيَةِ الَّتِي تَوَلَّتْ حِرَاسَتَهُمْ، وَاسْتَنَامُوا إِلَى الْأَسْوَارِ الَّتِي تَحُوطُهُمْ وَالْحِرْزِ الَّذِي يَحُولُ دُونَهُمْ فَلَا تَهِيجُهُمْ هَيْعَةٌ[1]، وَلَا يَنْفِرُ لَهُمْ صَيْدٌ، فَهُمْ غَارُّونَ آمِنُونَ، قَدْ أَلْقَوُا السِّلَاحَ وَتَوَالَتْ عَلَى ذٰلِكَ مِنْهُمُ الْأَجْيَالُ، وَتَنَزَّلُوا مَنْزِلَةَ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ هُمْ عِيَالٌ عَلَى أَبِي مَثْوَاهُمْ حَتَّى صَارَ ذٰلِكَ خُلُقًا يَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الطَّبِيعَةِ.

وَأَهْلُ الْبَدْوِ: لِتَفَرُّدِهِمْ عَنِ الْمُجْتَمَعِ وَتَوَحُّشِهِمْ فِي الضَّوَاحِي وَبُعْدِهِمْ عَنِ الْحَامِيَةِ وَانْتِبَاذِهِمْ[2] عَنِ

(١) الصوت المفزع ونداء الاستغاثة من شر.

(٢) بعدهم عنها وتحرزهم منها.

الْأَسْوَارِ وَالْأَبْوَابِ، قَائِمُونَ بِالْمُدَافَعَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ لَا يَكِلُونَهَا إِلَى سِوَاهُمْ، وَلَا يَثِقُونَ فِيهَا بِغَيْرِهِمْ. فَهُمْ دَائِمًا يَحْمِلُونَ السِّلَاحَ وَيَتَلَفَّتُونَ عَنْ كُلِّ جَانِبٍ فِي الطُّرُقِ، وَيَتَجَافَوْنَ عَنِ الْهُجُوعِ إِلَّا غِرَارًا فِي الْمَجَالِسِ، وَعَلَى الرِّحَالِ، وَفَوْقَ الْأَقْتَابِ، وَيَتَوَجَّسُونَ لِلنَّبَآتِ[1] وَالْهَيْعَاتِ وَيَتَفَرَّدُونَ فِي الْقَفْرِ وَالْبَيْدَاءِ مُدِلِّينَ بِبَأْسِهِمْ، وَاثِقِينَ بِأَنْفُسِهِمْ، قَدْ صَارَ لَهُمُ الْبَأْسُ خُلُقًا وَالشَّجَاعَةُ سَجِيَّةً يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا مَتَى دَعَاهُمْ دَاعٍ أَوِ اسْتَنْفَرَهُمْ صَارِخٌ.

وَأَهْلُ الْحَضَرِ مَهْمَا خَالَطُوهُمْ فِي الْبَادِيَةِ أَوْ صَاحَبُوهُمْ فِي السَّفَرِ عِيَالٌ عَلَيْهِمْ، لَا يَمْلِكُونَ مَعَهُمْ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ أَنْفُسِهِمْ، وَذٰلِكَ مُشَاهَدٌ بِالْعِيَانِ، حَتَّى فِي مَعْرِفَةِ النَّوَاحِي وَالْجِهَاتِ وَمَوَارِدِ الْمِيَاهِ وَمَشَارِعِ السُّبُلِ، وَسَبَبُ ذٰلِكَ مَا شَرَحْنَاهُ.

وَأَصْلُهُ: أَنَّ الْإِنْسَانَ ابْنُ عَوَائِدِهِ وَمَأْلُوفِهِ، لَا ابْنُ طَبِيعَتِهِ وَمِزَاجِهِ، فَالَّذِي أَلِفَهُ فِي الْأَحْوَالِ حَتَّى صَارَ خُلُقًا وَمَلَكَةً وَعَادَةً، تَنَزَّلَ مَنْزِلَةَ الطَّبِيعَةِ وَالْجِبِلَّةِ. وَاعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِي الْآدَمِيِّينَ تَجِدْهُ كَثِيرًا صَحِيحًا وَاللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ.

الفصل السادس

فى أن معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للبأس فيهم، ذاهبة بالمنعة منهم

وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ مَالِكَ أَمْرِ نَفْسِهِ، إِذِ الرُّؤَسَاءُ وَالْأُمَرَاءُ الْمَالِكُونَ لِأَمْرِ النَّاسِ قَلِيلٌ

(١) جمع نبأة وهى: ما تفزع له الطيور من صوت أو حركة.

بالنسبة إلى غيرهم ، فمن الغالب أن يكون الإنسان فى ملكة غيره ولا بد ، فإن كانت الملكة رفيقة وعادلة لايعانى منها حكم ، ولا منع وصد كان الناس من تحت يدها مدلين بما فى أنفسهم من شجاعة أو جبن واثقين بعدم الوازع حتى صار لهم الإدلال جبلة ، لايعرفون سواها.

وأما إذا كانت الملكة وأحكامها بالقهر والسطوة والإخافة فتكسر حينئذ من سورة بأسهم وتذهب المنعة عنهم لما يكون من التكاسل فى النفوس المضطهدة كما نبينه . وقد نهى عمر سعدا رضى الله عنهما عن مثلها لما أخذ زهرة بن حوية سلب[1] الجالنوس ، وكانت قيمته خمسة وسبعين ألفا من الذهب ، وكان اتبع الجالنوس يوم القادسية فقتله ، وأخذ سلبه فانتزعه منه سعد وقال له « : هلا انتظرت فى اتباعه إذنى ؟ » وكتب إلى عمر يستأذنه ، فكتب إليه عمر : «تعمد إلى مثل زهرة ، وقد صلى بما صلى به ، وبقى عليك ما بقى من حربك ، وتكسر فوقه[2] وتفسد قلبه ؟ ! » وأمضى له عمر سلبه .

وأما إذا كانت الأحكام بالعقاب فمذهبة للبأس بالكلية. لأن وقوع العقاب به ، ولم يدافع عن نفسه يكسبه المذلة التى تكسر من سورة بأسه بلاشك . وأما إذا كانت الأحكام تأديبية وتعليمية وأخذت من عهد الصبا أثرت فى ذلك بعض الشىء لمرباه على المخافة والانقياد ، فلا يكون مدلا ببأسه ، ولهذا تجد المتوحشين من العرب أهل البدو أشد بأسا ممن تأخذه الأحكام.

وتجد أيضا الذين يعانون الأحكام وملكتها من لدن مرباهم فى التأديب والتعليم فى الصنائع والعلوم والديانات ينقص ذلك من بأسهم كثيرا ولا يكادون يدفعون عن أنفسهم عادية بوجه من الوجوه. وهذا شأن طلبة العلم المنتحلين للقراءة والأخذ عن المشايخ والأئمة الممارسين للتعليم والتأديب فى مجالس الوقار والهيبة ؛ فيهم هذه الأحوال وذهابها بالمنعة والبأس .

ولا تستنكر ذلك بما وقع فى الصحابة من أخذهم بأحكام الدين والشريعة ولم ينقص ذلك من بأسهم ، بل كانوا أشد الناس بأسا ؛ لأن الشارع صلوات الله عليه لما أخذ المسلمون عنه دينهم كان وازعهم فيه من أنفسهم لما تلى عليهم من الترغيب والترهيب ، ولم يكن بتعليم صناعى ولا تأديب تعليمى ، إنما هى أحكام الدين وآدابه المتلقاة نقلا يأخذون أنفسهم بها بما رسخ فيهم من عقائد الإيمان والتصديق فلم تزل سورة بأسهم مستحكمة كما كانت ، ولم تخدشها أظفار التأديب والحكم . قال عمر رضى الله عنه : «من لم يؤدبه الشرع لاأدبه الله » ، حرصا على أن يكون الوازع لكل أحد من نفسه ، ويقينا بأن الشارع أعلم بمصالح العباد.

ولما تناقص الدين فى الناس ، وأخذوا بالأحكام الوازعة ثم صار الشرع علما وصناعة يؤخذ بالتعليم والتأديب ، ورجع الناس إلى الحضارة

(١) مايسلبه المحارب من عدوه حين يصرعه .
(٢) فوق السهم موضع الوتر منه والمراد هنا تثبيط الهمة .

وَخُلُقِ الانْقِيَادِ إِلَى الْأَحْكَامِ نَقَصَتْ بِذَلِكَ سَوْرَةُ الْبَأْسِ فِيهِمْ . فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْأَحْكَامَ السُّلْطَانِيَّةَ وَالتَّعْلِيمِيَّةَ مُفْسِدَةٌ لِلْبَأْسِ ، لِأَنَّ الْوَازِعَ فِيهَا ذَاتِي . وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةُ وَالتَّعْلِيمِيَّةُ مِمَّا تُؤَثِّرُ فِي أَهْلِ الْحَوَاضِرِ ، فِي ضَعْفِ نُفُوسِهِمْ وَتَخْضِدِ(١) الشَّوْكَةِ مِنْهُمْ بِمُعَانَاتِهِمْ فِي وَلِيدِهِمْ وَكُهُولِهِمْ .

وَالْبَدْوُ بِمَعْزِلٍ مِنْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ لِبُعْدِهِمْ عَنْ السُّلْطَانِ وَالتَّعْلِيمِ وَالْآدَابِ . وَلِهَذَا قَالَ مُحَمَّدُ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ فِي كِتَابِهِ فِي « أَحْكَامِ الْمُعَلِّمِينَ وَالْمُتَعَلِّمِينَ » : إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤَدِّبِ أَنْ يَضْرِبَ أَحَدًا مِنَ الصِّبْيَانِ فِي التَّعْلِيمِ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَسْوَاطٍ . نَقَلَهُ عَنْ شُرَيْحٍ الْقَاضِي . وَاحْتَجَّ لَهُ بَعْضُهُمْ بِمَا وَقَعَ فِي حَدِيثِ بَدْءِ الْوَحْيِ مِنْ شَأْنِ الْغَطِّ ، وَأَنَّهُ كَانَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَهُوَ ضَعِيفٌ ، وَلَا يَصْلُحُ شَأْنُ الْغَطِّ أَنْ يَكُونَ دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ لِبُعْدِهِ عَنِ التَّعْلِيمِ الْمُتَعَارَفِ . وَاللهُ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ .

الفصل السابع

فى أن سكنى البدو لاتكون إلا للقبائل أهل العصبية

إِعْلَمْ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ رَكَّبَ فِي طَبَائِعِ الْبَشَرِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى « وَهَدَيْنَاهُ(٢) النَّجْدَيْنِ » وَقَالَ : « فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا »(٣) ، وَالشَّرُّ أَقْرَبُ الْخِلَالِ إِلَيْهِ إِذَا أُهْمِلَ فِي مَرْعَى عَوَائِدِهِ ، وَلَمْ يُهَذِّبْهُ الِاقْتِدَاءُ بِالدِّينِ ، وَعَلَى ذَلِكَ الْجَمُّ الْغَفِيرُ ، إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ . وَمِنْ أَخْلَاقِ الْبَشَرِ فِيهِمِ الظُّلْمُ وَالْعُدْوَانُ بَعْضٍ عَلَى بَعْضٍ ، فَمَنِ امْتَدَّتْ عَيْنُهُ إِلَى مَتَاعِ أَخِيهِ فَقَدِ امْتَدَّتْ يَدُهُ إِلَى أَخْذِهِ ، إِلَّا أَنْ يَصُدَّهُ وَازِعٌ كَمَا قَالَ :

وَالظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ
ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لَا يَظْلِمُ

فَأَمَّا الْمُدُنُ وَالْأَمْصَارُ فَعُدْوَانُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ تَدْفَعُهُ الْحُكَّامُ وَالدَّوْلَةُ بِمَا قَبَضُوا عَلَى أَيْدِي مَنْ تَحْتَهُمْ مِنَ الْكَافَّةِ أَنْ يَمْتَدَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، أَوْ يَعْدُو عَلَيْهِ ، فَهُمْ مَكْبُوحُونَ بِحَكَمَةِ(١) الْقَهْرِ وَالسُّلْطَانِ عَنِ التَّظَالُمِ ، إِلَّا إِذَا كَانَ مِنَ الْحَاكِمِ بِنَفْسِهِ . وَأَمَّا الْعُدْوَانُ الَّذِي مِنْ خَارِجِ الْمَدِينَةِ فَيَدْفَعُهُ سِيَاجُ الْأَسْوَارِ عِنْدَ الْغَفْلَةِ أَوِ الْغِرَّةِ لَيْلًا أَوِ الْعَجْزِ عَنِ الْمُقَاوَمَةِ نَهَارًا أَوْ يَدْفَعُهُ ذِيَادُ الْحَامِيَةِ مِنْ أَعْوَانِ الدَّوْلَةِ عِنْدَ الِاسْتِعْدَادِ وَالْمُقَاوَمَةِ .

وَأَمَّا أَحْيَاءُ الْبَدْوِ فَيَزَعُ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ مَشَايِخُهُمْ وَكُبَرَاؤُهُمْ بِمَا وَقَرَ فِي نُفُوسِ الْكَافَّةِ لَهُمْ مِنَ الْوَقَارِ وَالتَّجِلَّةِ . وَأَمَّا حِلَلُهُمْ فَإِنَّمَا يَذُودُ عَنْهَا مِنْ خَارِجٍ حَامِيَةُ الْحَيِّ مِنْ أَنْجَادِهِمْ وَفِتْيَانِهِمُ الْمَعْرُوفِينَ بِالشَّجَاعَةِ فِيهِمْ ، وَلَا يَصْدُقُ دِفَاعُهُمْ وَذِيَادُهُمْ إِلَّا إِذَا كَانُوا عَصَبِيَّةً وَأَهْلَ نَسَبٍ وَاحِدٍ ، لِأَنَّهُمْ بِذَلِكَ تَشْتَدُّ شَوْكَتُهُمْ وَيُخْشَى جَانِبُهُمْ إِذْ نُعَرَةُ كُلِّ أَحَدٍ عَلَى نَسَبِهِ وَعَصَبِيَّتِهِ أَهَمُّ . وَمَا جَعَلَ اللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ مِنَ الشَّفَقَةِ وَالنُّعَرَةِ(٢) عَلَى ذَوِي أَرْحَامِهِمْ وَقُرْبَاهُمْ مَوْجُودَةٌ فِي الطَّبَائِعِ

(١) كسرها .. وهو كناية عن الخضوع والانقياد .
(٢) الآية رقم : ١٠ من سورة : البلد .
(٣) الآية رقم : ٢٨ من سورة : الشمس .

(١) الحكمة وزان قصبة ما أحاط بحنكى الفرس من لجامه .
(٢) النعرة والنعارة بالضم فيهما والنعير الصراخ والصياح فى حرب أو شر كما فى القاموس .

الْبَشَرِيَّةِ ، وَبِهَا يَكُونُ التَّعَاضُدُ وَالتَّنَاصُرُ ، وَتَعْظُمُ رَهْبَةُ الْعَدُوِّ لَهُمْ .

وَاعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِيمَا حَكَاهُ الْقُرْآنُ عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قَالُوا لِأَبِيهِ ، «لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ(١)» وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَا يُتَوَهَّمُ الْعُدْوَانُ عَلَى أَحَدٍ مَعَ وُجُودِ الْعُصْبَةِ لَهُ ، وَأَمَّا الْمُتَفَرِّدُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ فَقَلَّ أَنْ تُصِيبَ أَحَدًا مِنْهُمْ نُعْرَةٌ عَلَى صَاحِبِهِ ، فَإِذَا أَظْلَمَ الْجَوُّ بِالشَّرِّ يَوْمَ الْحَرْبِ تَسَلَّلَ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَبْغِي النَّجَاةَ لِنَفْسِهِ خِيفَةً وَاسْتِيحَاشًا مِنَ التَّخَاذُلِ ، فَلَا يَقْدِرُونَ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ عَلَى سُكْنَى الْقَفْرِ لِمَا أَنَّهُمْ حِينَئِذٍ طُعْمَةٌ لِمَنْ يَلْتَهِمُهُمْ مِنَ الْأُمَمِ سِوَاهُمْ .

وَإِذَا تَبَيَّنَ ذٰلِكَ فِي السُّكْنَى الَّتِي تَحْتَاجُ لِلْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ فَبِمِثْلِهِ يَتَبَيَّنُ لَكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ يُحْمَلُ النَّاسُ عَلَيْهِ مِنْ نُبُوَّةٍ أَوْ إِقَامَةِ مُلْكٍ أَوْ دَعْوَةٍ ، إِذْ بُلُوغُ الْغَرَضِ مِنْ ذٰلِكَ كُلِّهِ إِنَّمَا بِالْقِتَالِ عَلَيْهِ لِمَا فِي طَبَائِعِ الْبَشَرِ مِنَ الِاسْتِعْصَاءِ ، وَلَا بُدَّ فِي الْقِتَالِ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ آنِفًا ، فَاتَّخِذْهُ إِمَامًا تَقْتَدِي بِهِ فِيمَا نُورِدُهُ عَلَيْكَ بَعْدُ . وَاللهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ .

الفصل الثامن

فى أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما فى معناه .

وَذٰلِكَ أَنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ طَبِيعِيٌّ فِي الْبَشَرِ ، إِلَّا فِي الْأَقَلِّ ، وَمِنْ صِلَتِهَا النُّعْرَةُ عَلَى ذَوِي الْقُرْبَى وَأَهْلِ الْأَرْحَامِ أَنْ يَنَالَهُمْ ضَيْمٌ أَوْ تُصِيبَهُمْ هَلَكَةٌ ، فَإِنَّ الْقَرِيبَ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ غَضَاضَةً مِنْ ظُلْمِ قَرِيبِهِ أَوِ الْعِدَاءِ عَلَيْهِ ، وَيَوَدُّ لَوْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَصِلُهُ مِنَ الْمَعَاطِبِ وَالْمَهَالِكِ : نَزْعَةٌ طَبِيعِيَّةٌ فِي الْبَشَرِ ، مُذْ كَانُوا . فَإِذَا كَانَ النَّسَبُ الْمُتَوَاصِلُ بَيْنَ الْمُتَنَاصِرِينَ قَرِيبًا جِدًّا بِحَيْثُ حَصَلَ بِهِ الِاتِّحَادُ وَالِالْتِحَامُ ، كَانَتِ الْوُصْلَةُ ظَاهِرَةً فَاسْتَدْعَتْ ذٰلِكَ بِمُجَرَّدِهَا وَوُضُوحِهَا ، وَإِذَا بَعُدَ النَّسَبُ بَعْضَ الشَّيْءِ فَرُبَّمَا تُنُوسِيَ بَعْضُهَا ، وَيَبْقَى مِنْهَا شُهْرَةٌ فَتَحْمِلُ عَلَى النُّصْرَةِ لِذَوِي نَسَبِهِ بِالْأَمْرِ الْمَشْهُورِ مِنْهُ فِرَارًا مِنَ الْغَضَاضَةِ الَّتِي يَتَوَهَّمُهَا فِي نَفْسِهِ مِنْ ظُلْمِ مَنْ هُوَ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ بِوَجْهٍ .

وَمِنْ هٰذَا الْبَابِ الْوَلَاءُ وَالْحِلْفُ . إِذْ نُعْرَةُ كُلِّ أَحَدٍ عَلَى أَهْلِ وَلَائِهِ وَحِلْفِهِ ، لِلْأُلْفَةِ الَّتِي تَلْحَقُ النَّفْسَ مِنَ اهْتِضَامِ جَارِهَا أَوْ قَرِيبِهَا أَوْ نَسِيبِهَا بِوَجْهٍ مِنْ وُجُوهِ النَّسَبِ ، وَذٰلِكَ لِأَجْلِ اللُّحْمَةِ الْحَاصِلَةِ مِنَ الْوَلَاءِ مِثْلَ لُحْمَةِ النَّسَبِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا . وَمِنْ هٰذَا تَفْهَمُ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ» ، بِمَعْنَى أَنَّ النَّسَبَ إِنَّمَا فَائِدَتُهُ هٰذَا الِالْتِحَامُ الَّذِي يُوجِبُ صِلَةَ الْأَرْحَامِ ، حَتَّى تَقَعَ الْمُنَاصَرَةُ وَالنُّعْرَةُ ، وَمَا فَوْقَ ذٰلِكَ مُسْتَغْنًى عَنْهُ . إِذِ النَّسَبُ أَمْرٌ وَهْمِيٌّ لَا حَقِيقَةَ لَهُ ، وَنَفْعُهُ إِنَّمَا هُوَ فِي هٰذِهِ الْوُصْلَةِ وَالِالْتِحَامِ . فَإِذَا كَانَ ظَاهِرًا وَاضِحًا حَمَلَ النُّفُوسَ عَلَى طَبِيعَتِهَا مِنَ النُّعْرَةِ كَمَا قُلْنَاهُ ؛ وَإِذَا كَانَ إِنَّمَا يُسْتَفَادُ مِنَ الْخَبَرِ الْبَعِيدِ ضَعُفَ فِيهِ الْوَهْمُ ، وَذَهَبَتْ فَائِدَتُهُ وَصَارَ الشُّغْلُ بِهِ مَجَّانًا ، وَمِنْ أَعْمَالِ اللَّهْوِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ . وَمِنْ هٰذَا الِاعْتِبَارِ مَعْنَى قَوْلِهِمْ : «النَّسَبُ عِلْمٌ

(١) الآية رقم : ١٤ من سورة يوسف .

لَا يَنْفَعُ ، وَجَهَالَةٌ لَا تَضُرُّ » بِمَعْنَى أَنَّ النَّسَبَ إِذَا خَرَجَ عَنِ الْوُضُوحِ ، وَصَارَ مِنْ قَبِيلِ الْعُلُومِ ذَهَبَتْ فَائِدَةُ الْوَهْمِ فِيهِ عَنِ النَّفْسِ ، وَانْتَفَتِ النُّعْرَةُ الَّتِي تَحْمِلُ عَلَيْهَا الْعَصَبِيَّةُ ، فَلَا مَنْفَعَةَ فِيهِ حِينَئِذٍ . وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل التاسع

فى أن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين فى القفر من العرب ومن فى معناهم .

وَذَلِكَ لِمَا اخْتُصُّوا بِهِ مِنْ نَكَدِ الْعَيْشِ ، وَشَظَفِ الْأَحْوَالِ ، وَسُوءِ الْمَوَاطِنِ ، حَمَلَتْهُمْ عَلَيْهَا الضَّرُورَةُ الَّتِي عَيَّنَتْ لَهُمْ تِلْكَ الْقِسْمَةَ . وَهِيَ لِمَا كَانَ مَعَاشُهُمْ مِنَ الْقِيَامِ عَلَى الْإِبِلِ وَنِتَاجِهَا وَرِعَايَتِهَا ، وَالْإِبِلُ تَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوَحُّشِ فِى الْقَفْرِ لِرَعْيِهَا مِنْ شَجَرِهِ ، وَنِتَاجِهَا فِى رِمَالِهِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَالْقَفْرُ مَكَانُ الشَّظَفِ وَالسَّغَبِ ، فَصَارَ لَهُمْ إِلْفًا وَعَادَةً وَرَبِيَتْ فِيهِ أَجْيَالُهُمْ ، حَتَّى تَمَكَّنَتْ خُلُقًا وَجِبِلَّةً ، فَلَا يَنْزِعُ إِلَيْهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْأُمَمِ أَنْ يُسَاهِمَهُمْ فِى حَالِهِمْ وَلَا يَأْنَسُ بِهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْأَجْيَالِ ، بَلْ لَوْ وَجَدَ وَاحِدٌ مِنْهُمُ السَّبِيلَ إِلَى الْفِرَارِ مِنْ حَالِهِ ، وَأَمْكَنَهُ ذَلِكَ لَمَا تَرَكَهُ ، فَيُؤْمَنُ عَلَيْهِمْ لِأَجْلِ ذَلِكَ مِنِ اخْتِلَاطِ أَنْسَابِهِمْ وَفَسَادِهَا ، وَلَا تَزَالُ بَيْنَهُم مَحْفُوظَةً صَرِيحَةً .

وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِى مُضَرَ مِن قُرَيْشٍ ، وَكِنَانَةَ ، وَثَقِيفٍ ، وَبَنِى أَسَدٍ ، وَهُذَيْلٍ ، وَمَن جَاوَرَهُمْ مِنْ خُزَاعَةَ ، لَمَّا كَانُوا أَهْلَ شَظَفٍ وَمَوَاطِنَ غَيْرِ ذَاتِ زَرْعٍ وَلَا ضَرْعٍ ، وَبَعُدُوا مِنْ أَرْيَافِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمَعَادِنِ الْأُدْمِ وَالْحُبُوبِ ، كَيْفَ كَانَتْ أَنْسَابُهُمْ صَرِيحَةً مَحْفُوظَةً لَم يَدْخُلْهَا اخْتِلَاطٌ ، وَلَا عُرِفَ فِيهَا شَوْبٌ (١) .

وَأَمَّا الْعَرَبُ الَّذِينَ كَانُوا بِالتُّلُولِ وَفِى مَعَادِنِ الْخِصْبِ لِلْمَرَاعِى وَالْعَيْشِ مِنْ حِمْيَرَ وَكَهْلَانَ : مِثْلَ لَخْمٍ وَجُذَامَ وَغَسَّانَ وَطَيِّءٍ وَقُضَاعَةَ وَإِيَادَ ، فَاخْتَلَطَتْ أَنْسَابُهُمْ ، وَتَدَاخَلَتْ شُعُوبُهُمْ ، فَفِى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ بُيُوتِهِمْ مِنَ الْخِلَافِ عِنْدَ النَّاسِ مَا تَعْرِفُ . وَإِنَّمَا جَاءَهُمْ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِ الْعَجَمِ ، وَمُخَالَطَتِهِمْ . وَهُمْ لَا يَعْتَبِرُونَ الْمُحَافَظَةَ عَلَى النَّسَبِ فِى بُيُوتِهِمْ وَشُعُوبِهِمْ ، وَإِنَّمَا هَذَا لِلْعَرَبِ فَقَطْ . قَالَ عُمَرُ رَضِىَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ ، « تَعَلَّمُوا النَّسَبَ وَلَا تَكُونُوا كَنَبَطِ السَّوَادِ ، إِذَا سُئِلَ أَحَدُهُمْ عَنْ أَصْلِهِ قَالَ مِنْ قَرْيَةِ كَذَا » ، هَذَا – إِلَى مَا لَحِقَ هَؤُلَاءِ الْعَرَبَ أَهْلَ الْأَرْيَافِ – مِنَ الِازْدِحَامِ مَعَ النَّاسِ عَلَى الْبَلَدِ الطَّيِّبِ وَالْمَرَاعِى الْخَصِيبَةِ ، فَكَثُرَ الِاخْتِلَاطُ ، وَتَدَاخَلَتِ الْأَنْسَابُ .

وَقَدْ كَانَ وَقَعَ فِى صَدْرِ الْإِسْلَامِ الِانْتِمَاءُ إِلَى الْمَوَاطِنِ ، فَيُقَالُ : جُنْدُ قِنَسْرِينَ ، جُنْدُ دِمَشْقَ ، جُنْدُ الْعَوَاصِمِ ، وَانْتَقَلَ ذَلِكَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ ، وَلَمْ يَكُنْ لِاطِّرَاحِ الْعَرَبِ أَمْرَ النَّسَبِ ، وَإِنَّمَا كَانَ لِاخْتِصَاصِهِمْ بِالْمَوَاطِنِ بَعْدَ الْفَتْحِ حَتَّى عُرِفُوا بِهَا ، وَصَارَتْ لَهُمْ عَلَامَةً زَائِدَةً عَلَى النَّسَبِ يَتَمَيَّزُونَ بِهَا عِنْدَ أُمَرَائِهِمْ ، ثُمَّ وَقَعَ الِاخْتِلَاطُ فِى الْحَوَاضِرِ مَعَ الْعَجَمِ وَغَيْرِهِمْ ، وَفَسَدَتِ الْأَنْسَابُ بِالْجُمْلَةِ وَفُقِدَتْ ثَمَرَتُهَا مِنَ الْعَصَبِيَّةِ ، فَاطُّرِحَتْ ثُمَّ تَلَاشَتِ الْقَبَائِلُ ،

(١) يقال شوب تكدر صفوه ، ونسب شوب : مختلط .

وَدَثَرَتْ ، فَدَثَرَتِ(١) الْعَصَبِيَّةُ بِدُثُورِهَا ، وَبَقِيَ ذَلِكَ فِى الْبَدْوِ كَمَا كَانَ ، وَاللهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا .

الفصل العاشر

فى اختلاط الأنساب كيف يقع ؟

إِعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ الْبَيِّنِ أَنَّ بَعْضًا مِنْ أَهْلِ الْأَنْسَابِ يَسْقُطُ إِلَى أَهْلِ نَسَبٍ آخَرَ بِقَرَابَةٍ إِلَيْهِمْ : حِلْفٍ أَوْ وَلَاءٍ أَوْ لِفِرَارٍ مِنْ قَوْمِهِ بِجِنَايَةٍ أَصَابَهَا ، فَيَدْعِي بِنَسَبِ هَؤُلَاءِ وَيُعَدُّ مِنْهُم فِى ثَمَرَاتِهِ مِنَ النُّعْرَةِ وَالْقَوَدِ(٢) وَحَمْلِ الدِّيَاتِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ ، وَإِذَا وُجِدَتْ ثَمَرَاتُ النَّسَبِ فَكَأَنَّهُ وُجِدَ لِأَنَّهُ لَا مَعْنَى لِكَوْنِهِ مِنْ هَؤُلَاءِ ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا جَرَيَانُ أَحْكَامِهِم وَأَحْوَالِهِم عَلَيْهِ ، وَكَأَنَّهُ الْتَحَمَ بِهِم .

ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ يَتَنَاسَى النَّسَبُ الْأَوَّلُ بِطُولِ الزَّمَانِ ، وَيَذْهَبُ أَهْلُ الْعِلْمِ بِهِ فَيَخْفَى عَلَى الْأَكْثَرِ وَمَا زَالَتِ الْأَنْسَابُ تَسْقُطُ مِنْ شَعْبٍ إِلَى شَعْبٍ ، وَيَلْتَحِمُ قَوْمٌ بِآخَرِينَ فِى الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ وَالْعَرَبِ وَالْعَجَمِ . وَانْظُرْ خِلَافَ النَّاسِ فِى نَسَبِ آلِ الْمُنْذِرِ وَغَيْرِهِمْ يَتَبَيَّنْ لَكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ . وَمِنْهُ شَأْنُ بَجِيلَةَ فِى عَرْفَجَةَ بْنِ هَرْثَمَةَ ، لَمَّا وَلَّاهُ عُمَرُ عَلَيْهِمْ فَسَأَلُوهُ الْإِعْفَاءَ مِنْهُ ، وَقَالُوا هُوَ فِينَا لَزِيقٌ ، أَيْ دَخِيلٌ وَلَصِيقٌ ، وَطَلَبُوا أَنْ يُوَلِّيَ عَلَيْهِمْ جَرِيرًا ، فَسَأَلَهُ عُمَرُ عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ عَرْفَجَةُ : صَدَقُوا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنَا رَجُلٌ مِنَ الْأَزْدِ أَصَبْتُ دَمًا فِى قَوْمِي ، وَلَحِقْتُ بِهِم . وَانْظُرْ مِنْهُ كَيْفَ اخْتَلَطَ عَرْفَجَةُ بِبَجِيلَةَ وَلَبِسَ جِلْدَتَهُم ، وَدُعِيَ بِنَسَبِهِم حَتَّى تَرَشَّحَ لِلرِّيَاسَةِ عَلَيْهِم ، لَوْلَا عِلْمُ بَعْضِهِمْ بِوَشَائِجِهِ . وَلَوْ غَفَلُوا عَنْ ذَلِكَ ، وَامْتَدَّ الزَّمَنُ لَتُنُوسِيَ بِالْجُمْلَةِ وَعُدَّ مِنْهُم بِكُلِّ وَجْهٍ ، وَمَذْهَبٍ فَافْهَمْهُ ، وَاعْتَبِرْ سِرَّ اللهِ فِى خَلِيقَتِهِ .

وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلِمَا قَبْلَهُ مِنَ الْعُهُودِ ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ .

الفصل الحادى عشر (١)

فى أن الرئاسة لاتزال فى نصابها المخصوص من أهل العصبية

إِعْلَمْ أَنَّ كُلَّ حَيٍّ ، أَوْ بَطْنٍ مِنَ الْقَبَائِلِ وَإِنْ كَانُوا عِصَابَةً وَاحِدَةً لِنَسَبِهِمِ الْعَامِّ ، فَفِيهِمْ أَيْضًا عَصَبِيَّاتٌ أُخْرَى لِأَنْسَابٍ خَاصَّةٍ ، هِيَ أَشَدُّ الْتِحَامًا مِنَ النَّسَبِ الْعَامِّ لَهُم ، مِثْلَ عَشِيرٍ وَاحِدٍ ، أَوْ أَهْلِ بَيْتٍ وَاحِدٍ ، أَوْ إِخْوَةٍ بَنِي أَبٍ وَاحِدٍ ، لَا مِثْلَ بَنِي الْعَمِّ الْأَقْرَبِينَ أَوِ الْأَبْعَدِينَ ، فَهَؤُلَاءِ أَقْعَدُ بِنَسَبِهِمِ الْمَخْصُوصِ ، وَيُشَارِكُونَ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْعَصَائِبِ فِى النَّسَبِ الْعَامِّ ، وَالنُّعْرَةُ تَقَعُ مِنْ أَهْلِ نَسَبِهِمُ الْمَخْصُوصِ ، وَمِنْ أَهْلِ النَّسَبِ الْعَامِّ ، إِلَّا أَنَّهَا فِى النَّسَبِ الْخَاصِّ أَشَدُّ لِقُرْبِ اللُّحْمَةِ . وَالرِّئَاسَةُ فِيهِمْ ، إِنَّمَا تَكُونُ فِى نِصَابٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَلَا تَكُونُ فِى الْكُلِّ .

وَلَمَّا كَانَتِ الرِّئَاسَةُ إِنَّمَا تَكُونُ بِالْغَلَبِ ، وَجَبَ أَنْ تَكُونَ عَصَبِيَّةُ ذَلِكَ النِّصَابِ أَقْوَى مِنْ سَائِرِ

---

(١) انمحت .

(٢) القصاص .

(١) هذا الفصل ساقط من بعض النسخ مثبت فى نسخ أخرى ، وإثباته أولى ليطابق ما يذكره المؤلف فى أول الفصل التالى .

العصائب، ليقع الغلب بها، وتتم الرياسة لأهلها. فإذا وجب ذلك تعين أن الرئاسة عليهم لاتزال فى ذلك النصاب المخصوص بأهل الغلب عليهم، إذ لو خرجت عنهم وصارت فى العصائب الأخرى النازلة عن عصابتهم فى الغلب، لما تمت لهم الرياسة، فلا تزال فى ذلك النصاب متناقلة من فرع منهم إلى فرع، ولا تنتقل إلا إلى الأقوى من فروعه لما قلناه من سر الغلب.

لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج للمتكون والمزاج فى المتكون لايصلح إذا تكافأت العناصر فلا بد من غلبة أحدها وإلا لم يتم التكوين. فهذا هو سر اشتراط الغلب فى العصبية. ومنه تعين استمرار الرياسة فى النصاب المخصوص بها كما قررناه.

الفصل الثانى عشر
فى أن الرياسة على أهل العصبية لاتكون فى غير نسبهم

وذلك أن الرياسة لاتكون إلا بالغلب، والغلب إنما يكون بالعصبية كما قدمناه، فلا بد فى الرياسة على القوم، أن تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة، لأن كل عصبية منهم إذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم، أقروا بالإذعان والإتباع، والساقط فى نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب، إنما هو ملصق لزيق، وغاية التعصب له بالولاء والحلف، وذلك لايوجب له غلبا عليهم البتة.

وإذا فرضنا أنه قد التحم بهم واختلط وتنوسى عهده الأول من الالتصاق، ولبس جلدتهم ودعى بنسبهم فكيف له الرياسة قبل هذا الالتحام أو لأحد من سلفه، والرياسة على القوم إنما تكون متناقلة فى منبت واحد، تعين له الغلب بالعصبية، فالأولية التى كانت لهذا الملصق قد عرف فيها التصاقه من غير شك، ومنعه ذلك الالتصاق من الرياسة حينئذ، فكيف تنوقلت عنه وهو على حال الالصاق؟ والرئاسة، لابد وأن تكون موروثة عن مستحقها لما قلناه من التغلب بالعصبية، وقد يتشوف كثير من الرؤساء على القبائل والعصائب إلى أنساب يلهجون بها، إما لخصوصية فضيلة كانت فى أهل ذلك النسب من شجاعة أو كرم أو ذكر كيف اتفق، فينزعون إلى ذلك النسب، ويتورطون بالدعوى فى شعوبه، ولا يعلمون مايوقعون فيه أنفسهم من القدح فى رياستهم والطعن فى شرفهم، وهذا كثير فى الناس لهذا العهد.

فمن ذلك مايدعيه زناتة جملة أنهم من العرب.

ومنه ادعاء أولاد رباب المعروفين بالحجازيين من بنى عامر، أحد شعوب زغبة أنهم من بنى سليم، ثم من الشريد منهم لحق جدهم ببنى عامر، نجارا يصنع الحرجان (١)، واختلط بهم والتحم بنسبهم حتى رأس عليهم ويسمونه الحجازى.

ومن ذلك ادعاء بنى عبد القوى بن العباس ابن توجين، أنهم من ولد العباس بن عبد المطلب،

---

(١) الحرجان بكسر الحاء جمع حرج بفتحتين نعش الموتى اه.

رَغْبَةً فى هٰذَا النَّسَبِ الشَّرِيفِ، وَغَلَطًا باسْمِ الْعَبَّاس ابْنِ عطيةَ أَبِى عَبْدِ الْقَوِىّ، وَلَمْ يَعْلَمْ دُخُولُ أَحَد مِنَ الْعَبَّاسِيِّينَ إِلَى الْمَغْرِبِ، لِأَنَّهُ كَانَ مُنْذُ أَوَّلِ دَوْلَتِهِمْ عَلَى دَعْوَةِ الْعَلَوِيِّينَ أَعْدَائِهِمْ مِنَ الْأَدَارِسَةِ وَالْعُبَيْدِيِّينَ، فَكَيْفَ يَكُونُ مِنْ سِبْط الْعَبَّاسِ أَحَدٌ مِنْ شِيعَةِ الْعَلَوِيِّينَ!

وَكَذٰلِكَ مَا يَدَّعِيهِ أَبْنَاءُ زَيَّانَ، مُلُوكُ تِلِمْسَانَ مِنْ بَنِى عَبْدِ الْوَاحِدِ، أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ الْقَاسِمِ بْنِ إِدْرِيسَ ذَهَابًا إِلَى مَا اشْتَهَرَ فى نَسَبِهِمْ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ الْقَاسِمِ، فَيَقُولُونَ بِلِسَانِهِمِ الزَّنَاتِى: أَنْتَ الْقَاسِمُ، أَىْ بَنُو الْقَاسِمِ، ثُمَّ يَدَّعُونَ أَنَّ الْقَاسِمَ هٰذَا هُوَ الْقَاسِمُ ابْنُ إِدْرِيسَ، أَوِ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَدْرِيسَ. وَلَوْ كَانَ ذٰلِكَ صَحِيحًا فَغَايَةُ الْقَاسِمِ هٰذَا أَنَّهُ فَرَّ مِنْ مَكَانِ سُلْطَانِهِ مُسْتَجِيرًا بِهِمْ، فَكَيْفَ تَتِمُّ لَهُ الرِّيَاسَةُ عَلَيْهِمْ فى بَادِيَتِهِمْ، وَإِنَّمَا هُوَ غَلَطٌ مِنْ قِبَلِ اسمِ الْقَاسِمِ، فَإِنَّهُ كَثِيرُ الْوُجُودِ فى الْأَدَارِسَةِ، فَتَوَهَّمُوا أَنَّ قَاسِمَهُمْ مِنْ ذٰلِكَ النَّسَبِ، وَهُمْ غَيْرُ مُحْتَاجِينَ لِذٰلِكَ، فَإِنَّ مَنَالَهُمْ لِلْمُلْكِ وَالْعِزَّةِ إِنَّمَا كَانَ بِعَصَبِيَّتِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ بِادِّعَاءِ عَلَوِيَّةٍ وَلَا عَبَاسِيَّةٍ وَلَا شَىْءٍ مِنَ الْأَنْسَابِ، وَإِنَّمَا يَحْمِلُ عَلَى هٰذَا الْمُتَقَرِّبُونَ إِلَى الْمُلُوكِ بِمَنَازِعِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ. وَيَشْتَهِرُ حَتَّى يَبْعُدَ عَنِ الرَّدِّ، وَلَقَدْ بَلَغَنِى عَنْ يَغْمُرَاسِنَ بْنِ زَيَّانَ مُؤَثِّلِ سُلْطَانِهِمْ، أَنَّهُ لَمَّا قِيلَ لَهُ ذٰلِكَ أَنْكَرَهُ، وَقَالَ بِلُغَتِهِ الزَّنَاتِيَّةِ مَا مَعْنَاهُ؟ أَمَّا الدنيا وَالْمُلْكُ فَنِلْنَاهُمَا بِسُيُوفِنَا، لَا بِهٰذَا النَّسَبِ، وَأَمَّا نَفْعُهُمَا فى الْآخِرَةِ فَمَرْدُودٌ إِلَى اللهِ. وَأَعْرَضَ عَنِ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِذٰلِكَ.

وَمِنْ هٰذَا الْبَابِ مَا يَدَّعِيهِ بَنُو سَعْدٍ شُيُوخُ بَنِى يَزِيدَ مِنْ زُغْبَةَ، أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ أَبِى بَكْرٍ الصديق رضى الله عَنْهُ، وَبَنُو سَلَامَةَ شُيُوخُ بَنِى يَدْلَلْتَنَ مِنْ توجين أَنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمٍ، وَالزَّوَاوِدَةُ شُيُوخُ رِيَاحٍ، أَنَّهُمْ مِنْ مِنْ أَعْقَابِ الْبَرَامِكَةِ، وَكَذَا بَنُو مُهَنَّى أُمَرَاءُ طَيِّءٍ بِالْمَشْرِقِ، يَدَّعُونَ فِيمَا بَلَغَنَا أَنَّهُمْ مِنْ أَعْقَابِهِمْ، وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ كَثِير وَرِيَاسَتُهُمْ فى قَوْمِهِمْ مَانِعَةٌ مِن ادِّعَاءِ هٰذِهِ الْأَنْسَابِ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ؛ بَلْ تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ صَرِيحِ ذٰلِكَ النَّسَبِ وَأَقْوَى عَصَبِيَّاتِهِ، فَاعْتَبِرْهُ، وَاجْتَنِبِ الْمَغَالِطَ فِيهِ. وَلَا تَجْعَلْ مِنْ هٰذَا الْبَابِ إِلْحَاقَ مَهْدِى الْمُوَحِّدِينَ بِنَسَبِ الْعَلَوِيَّةِ، فَإِنَّ الْمَهْدِىَّ لَمْ يَكُنْ مِنْ مَنْبِتِ الرِّيَاسَةِ فى هَرْثَمَةَ قَوْمِهِ، وَإِنَّمَا رَأَسَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ اشْتِهَارِهِ بِالْعِلْمِ وَالدِّينِ وَدُخُولِ قَبَائِلِ الْمَصَامِدَةِ فى دَعْوَتِهِ، وَكَانَ مَعَ ذٰلِكَ مِنْ أَهْلِ الْمَنَابِتِ الْمُتَوَسِّطَةِ فِيهِمْ. وَاللهُ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ.

الفصل الثالث عشر

فى أن البيت والشرف بالأصالة والحقيقة لأهل العصبية ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه

وَذٰلِكَ أَنَّ الشَّرَفَ وَالْحَسَبَ إِنَّمَا هُوَ بِالْخِلَالِ. وَمَعْنَى الْبَيْتِ أَنْ يَعُدَّ الرَّجُلُ فى آبَائِهِ أَشْرَافًا مَذْكُورِينَ يَكُونُ لَهُ بِوِلَادَتِهِمْ إِيَّاهُ وَالِانْتِسَابِ إِلَيْهِمْ تَجِلَّةٌ فى أَهْلِ جِلْدَتِهِ، لِمَا وَقَرَ فى نفوسِهِمْ مِنْ تَجِلَّةِ سَلَفِهِ وَشَرَفِهِمْ بِخِلَالِهِمْ، وَالنَّاسُ فى نَشْأَتِهِمْ وَتَنَاسُلِهِمْ مَعَادِنُ. قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: النَّاسُ مَعَادِنُ خِيَارُهُمْ فى الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فى الْإِسْلَامِ إِذَا فقِهوا، فَمَعْنَى الْحَسَبِ رَاجِعٌ إِلَى الْأَنْسَابِ.

وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ ثَمَرَةَ الْأَنْسَابِ وَفَائِدَتَهَا إِنَّمَا هِيَ الْعَصَبِيَّةُ لِلنُّعَرَةِ وَالتَّنَاصُرِ. فَحَيْثُ تَكُونُ الْعَصَبِيَّةُ مَرْهُوبَةً، وَالْمَنْبِتُ فِيهَا زَكِيٌّ مَحْمِي، تَكُونُ فَائِدَةُ النَّسَبِ أَوْضَحَ، وَثَمَرَتُهَا أَقْوَى. وَتَعْدِيدُ الْأَشْرَافِ مِنَ الْآبَاءِ زَائِدٌ فِي فَائِدَتِهَا، فَيَكُونُ الْحَسَبُ وَالشَّرَفُ أَصْلِيَّيْنِ فِي أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ لِوُجُودِ ثَمَرَةِ النَّسَبِ. وَتَفَاوُتُ الْبُيُوتِ فِي هٰذَا الشَّرَفِ بِتَفَاوُتِ الْعَصَبِيَّةِ، لِأَنَّهُ سِرُّهَا. وَلَا يَكُونُ لِلْمُنْفَرِدِينَ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ بَيْتٌ إِلَّا بِالْمَجَازِ، وَإِنْ تَوَهَّمُوهُ فَزُخْرُفٌ مِنَ الدَّعَاوَى.

وَإِذَا اعْتَبَرْتَ الْحَسَبَ فِي أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَجَدْتَ مَعْنَاهُ: أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ يَعُدُّ سَلَفًا فِي خِلَالِ الْخَيْرِ، وَمُخَالَطَةِ أَهْلِهِ مَعَ الرُّكُونِ إِلَى الْعَافِيَةِ مَا اسْتَطَاعَ. وَهٰذَا مُغَايِرٌ لِسِرِّ الْعَصَبِيَّةِ الَّتِي هِيَ ثَمَرَةُ النَّسَبِ وَتَعْدِيدِ الْآبَاءِ، لٰكِنَّهُ يُطْلَقُ عَلَيْهِ حَسَبٌ وَبَيْتٌ بِالْمَجَازِ، لِعَلَاقَةِ مَا فِيهِ مِنْ تَعْدِيدِ الْآبَاءِ الْمُتَعَاقِبِينَ عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْخَيْرِ وَمَسَالِكِهِ، وَلَيْسَ حَسَبًا بِالْحَقِيقَةِ، وَعَلَى الْإِطْلَاقِ؛ وَإِنْ ثَبَتَ أَنَّهُ حَقِيقَةٌ فِيهِمَا بِالْوَضْعِ اللُّغَوِي، فَيَكُونُ مِنَ الْمُشَكِّكِ الَّذِي هُوَ فِي بَعْضِ مَوَاضِعِهِ أَوْلَى. وَقَدْ يَكُونُ لِلْبَيْتِ شَرَفٌ أَوَّلُ بِالْعَصَبِيَّةِ وَالْخِلَالِ، ثُمَّ يَنْسَلِخُونَ مِنْهُ لِذَهَابِهَا بِالْحَضَارَةِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَيَخْتَلِطُونَ بِالْغِمَارِ وَيَبْقَى فِي نُفُوسِهِمْ وَسْوَاسُ ذٰلِكَ الْحَسَبِ، يَعُدُّونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ أَشْرَافِ الْبُيُوتَاتِ أَهْلِ الْعَصَائِبِ، وَلَيْسُوا مِنْهَا فِي شَيْءٍ لِذَهَابِ الْعَصَبِيَّةِ جُمْلَةً.

وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ النَّاشِئِينَ فِي بُيُوتِ الْعَرَبِ أَوِ الْعَجَمِ لِأَوَّلِ عَهْدِهِمْ مُوَسْوَسُونَ بِذٰلِكَ. وَأَكْثَرُ مَا رَسَخَ الْوَسْوَاسُ فِي ذٰلِكَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِنَّهُ كَانَ لَهُمْ بَيْتٌ مِنْ أَعْظَمِ بُيُوتِ الْعَالَمِ بِالْمَنْبِتِ، أَوَّلًا لِمَا تَعَدَّدَ فِي سَلَفِهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مِنْ لَدُنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِلَى مُوسَى صَاحِبِ مِلَّتِهِمْ وَشَرِيعَتِهِمْ؛ ثُمَّ بِالْعَصَبِيَّةِ ثَانِيًا وَمَا آتَاهُمُ اللّٰهُ بِهَا مِنَ الْمُلْكِ الَّذِي وَعَدَهُمْ بِهِ، ثُمَّ انْسَلَخُوا مِنْ ذٰلِكَ أَجْمَعَ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ، وَكُتِبَ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءُ فِي الْأَرْضِ وَانْفَرَدُوا بِالِاسْتِعْبَادِ لِلْكُفْرِ آلَافًا مِنَ السِّنِينَ، وَمَا زَالَ هٰذَا الْوَسْوَاسُ مُصَاحِبًا لَهُمْ، فَتَجِدُهُمْ يَقُولُونَ: هٰذَا هَارُونِي، هٰذَا مِنْ نَسْلِ يُوشَعَ، هٰذَا مِنْ عَقِبِ كَالِبَ، هٰذَا مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا، مَعَ ذَهَابِ الْعَصَبِيَّةِ وَرُسُوخِ الذُّلِّ فِيهِمْ مُنْذُ أَحْقَابٍ مُتَطَاوِلَةٍ. وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَغَيْرِهِمِ الْمُنْقَطِعِينَ فِي أَنْسَابِهِمْ عَنِ الْعَصَبِيَّةِ يَذْهَبُ إِلَى هٰذَا الْهَذَيَانِ.

وَقَدْ غَلِطَ أَبُو الْوَلِيدِ بْنُ رُشْدٍ فِي هٰذَا لَمَّا ذَكَرَ الْحَسَبَ فِي كِتَابِ الْخَطَابَةِ مِنْ تَلْخِيصِ كِتَابِ الْمُعَلِّمِ الْأَوَّلِ(١)، «وَالْحَسَبُ هُوَ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْمٍ قَدِيمٍ نُزُلُهُمْ بِالْمَدِينَةِ»، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِمَا ذَكَرْنَاهُ.

وَلَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي يَنْفَعُهُ قِدَمُ نُزُلِهِمْ بِالْمَدِينَةِ إِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ عِصَابَةٌ، يُرْهَبُ بِهَا جَانِبُهُ وَتَحْمِلُ غَيْرَهُمْ عَلَى الْقَبُولِ مِنْهُ، فَكَأَنَّهُ أَطْلَقَ الْحَسَبَ عَلَى تَعْدِيدِ الْآبَاءِ فَقَطْ، مَعَ أَنَّ الْخَطَابَةَ إِنَّمَا هِيَ اسْتِمَالَةُ مَنْ تُؤَثِّرُ اسْتِمَالَتُهُ، وَهُمْ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ، وَأَمَّا مَنْ لَا قُدْرَةَ لَهُ الْبَتَّةَ فَلَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى اسْتِمَالَةِ أَحَدٍ، وَلَا يُسْتَمَالُ هُوَ.

---

(١) لقب يعرف به أرسطو. كما يعرف الفارابي باسم المعلم الثاني.

وَأَهْلُ الْأَمْصَارِ مِنَ الْحَضَرِ بِهٰذِهِ الْمَثَابَةِ. إِلَّا أَنَّ ابْنَ رُشْد رِبى فى جَبَلٍ وَبَلَد، وَلَمْ يُمَارِسُوا الْعَصَبِيَّةَ، وَلَا أَنِسُوا أَحْوَالَهَا، فَبَقِيَ فِى أَمْرِ الْبَيْتِ وَالْحَسَبِ عَلَى الْأَمْرِ الْمَشْهُورِ مِنْ تَعْدِيدِ الآبَاءِ عَلَى الإِطْلَاقِ، وَلَمْ يُرَاجِعْ فِيهِ حَقِيقَةَ الْعَصَبِيَّةِ وَسِرَّهَا فِى الْخَلِيقَةِ. وَاللّٰهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ.

الفصل الرابع عشر

فى أن البيت والشرف للموالى وأهل الاصطناع، إنما هو بمواليهم لا بأنسابهم

وَذٰلِكَ أَنَّا قَدَّمْنَا: أَنَّ الشَّرَفَ بِالْأَصَالَةِ وَالْحَقِيقَةِ، إِنَّمَا هُوَ لِأَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ، فَإِذَا اصْطَنَعَ أَهْلُ الْعَصَبِيَّةِ قَوْمًا مِنْ غَيْرِ نَسَبِهِمْ، أَوِ اسْتَرَقُّوا الْعُبْدَانَ وَالْمَوَالِيَ وَالْتَحَمُوا بِهِ كَمَا قُلْنَاهُ، ضَرَبَ مَعَهُمْ أُولٰئِكَ الْمَوَالِي وَالْمُصْطَنَعُونَ بِنَسَبِهِمْ فِى تِلْكَ الْعَصَبِيَّةِ، وَلَبِسُوا جِلْدَتَهَا كَأَنَّهَا عَصَبَتُهُمْ، وَحَصَلَ لَهُمْ مِنَ الانْتِظَامِ فِى الْعَصَبِيَّةِ مُسَاهَمَةٌ فِى نَسَبِهَا، كَمَا قَالَ صَلَّى اللّٰهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُم»؛ وَسَوَاءٌ كَانَ مَوْلَى رِقٍّ، أَوْ مَوْلَى اصْطِنَاعٍ وَحِلْفٍ. وَلَيْسَ نَسَبُ وِلَادَتِهِ بِنَافِعٍ لَهُ. وَعَصَبِيَّةُ ذٰلِكَ النَّسَبِ مَفْقُودَةٌ لِذَهَابِ سِرِّهَا عِنْدَ الْتِحَامِهِ بِهٰذَا النَّسَبِ الآخَرِ. وَفُقْدَانِهِ أَهْلَ عَصَبِيَّتِهَا فَيَصِيرُ مِنْ هٰؤُلَاءِ وَيَنْدَرِجُ فِيهِمْ، فَإِذَا تَعَدَّدَتْ لَهُ الآبَاءُ فِى هٰذِهِ الْعَصَبِيَّةِ، كَانَ لَهُ بَيْنَهُم شَرَفٌ وَبَيْتٌ عَلَى نِسْبَتِهِ فِى وَلَائِهِمْ وَاصْطِنَاعِهِمْ لَا يَتَجَاوَزُهُ إِلَى شَرَفِهِمْ، بَلْ يَكُونُ أَدْوَنَ مِنْهُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

وَهٰذَا شَأْنُ الْمَوَالِي فِى الدُّوَلِ، وَالْخَدَمَةِ كُلِّهِمْ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَشْرُفُونَ بِالرُّسُوخِ فِى وَلَاءِ الدَّوْلَةِ وَخِدْمَتِهَا، وتَعَدُّدِ الآبَاءِ فى وِلَايَتِهَا، أَلَا تَرَى إِلَى مَوَالِى الأَتْرَاكِ فى دَوْلَةِ بَنِى الْعَبَّاسِ. وَإِلَى بَنِى بَرْمَكَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَبَنِى نُوبَخْتَ كَيْفَ أَدْرَكُوا الْبَيْتَ وَالشَّرَفَ وَبَنَوْا الْمَجْدَ وَالْأَصَالَةَ بِالرُّسُوخِ فِى وَلَاءِ الدَّوْلَةِ، فَكَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى بنِ خَالِد مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ بَيْتًا وَشَرَفًا بِالانْتِسَابِ إِلَى وَلَاءِ الرَّشِيدِ وَقَوْمِهِ، لَا بِالانْتِسَابِ فِى الْفُرْسِ، وَكَذَا مَوَالِى كُلِّ دَوْلَةٍ وَخَدَمُهَا، إِنَّمَا يَكُونُ لَهُمُ الْبَيْتُ وَالْحَسَبُ بِالرُّسُوخِ فِى وَلَائِهَا وَالْأَصَالَةِ فِى اصْطِنَاعِهَا، وَيَضْمَحِلُّ نَسَبُهُ الْأَقْدَمُ مِنْ غَيْرِ نَسَبِهَا، وَيَبْقَى مُلْغًى لَا عِبْرَةَ بِهِ فِى أَصَالَتِهِ وَمَجْدِهِ، وَإِنَّمَا الْمُعْتَبَرُ نِسْبَةُ وَلَائِهِ وَاصْطِنَاعِهِ. إِذْ فِيهِ سِرُّ الْعَصَبِيَّةِ الَّتِى بِهَا الْبَيْتُ وَالشَّرَفُ، فَكَانَ شَرَفُهُ مُشْتَقًّا مِنْ شَرَفِ مَوَالِيهِ، وَبِنَاؤُهُ مِنْ بِنَائِهِمْ، فَلَمْ يَنْفَعْهُ نَسَبُ وِلَادَتِهِ، وَإِنَّمَا بَنَى مَجْدَهُ نَسَبُ الْوَلَاءِ فِى الدَّوْلَةِ وَلُحْمَةُ الاصْطِنَاعِ فِيهَا وَالتَّرْبِيَة.

وَقَدْ يَكُونُ نَسَبُهُ الْأَوَّلِ فِى لُحْمَةِ عَصَبِيَّتِهِ وَدَوْلَتِهِ، فَإِذَا ذَهَبَتْ وَصَارَ وَلَاؤُهُ وَاصْطِنَاعُهُ فِى أُخْرَى، لَمْ تَنْفَعْهُ الْأُولَى لِذَهَابِ عَصَبِيَّتِهَا، وَانْتَفَعَ بِالثَّانِيَةِ لِوُجُودِهَا. وَهٰذَا حَالُ بَنِى بَرْمَكَ، إِذِ الْمَنْقُولُ أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ بَيْتٍ فِى الْفُرْسِ مِنْ سَدَنَةِ بُيُوتِ النَّارِ عِنْدَهُمْ، وَلَمَّا صَارُوا إِلَى وَلَاءِ بَنِى الْعَبَّاسِ، لَمْ يَكُنْ بِالْأَوَّلِ اعْتِبَارٌ، وَإِنَّمَا كَانَ شَرَفُهُمْ مِنْ حَيْثُ وِلَايَتُهُم فِى الدَّوْلَةِ، وَاصْطِنَاعِهِم وَمَا سِوَى هٰذَا فَوَهْمٌ تُوَسْوِسُ بِهِ النُّفُوسُ الْجَامِحَةُ لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَالْوُجُودُ شَاهِدٌ بِمَا قُلْنَاهُ، وَ «إِنَّ

أَكْرَمَكُمْ عِندَاللهِ أَتْقَاكُمْ»(١) ، واللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ .

الفصل الخامس عشر

فى أن نهاية الحسب فى العقب الواحد أربعة آباء

إِعْلَمْ أَنَّ الْعَالَمَ الْعُنْصُرِىَّ بِما فِيهِ كَائِنٌ فَاسِدٌ ، لَامِنْ ذَوَاتِهِ ، وَلَا مِنْ أَحْوَالِهِ . فَالْمُكَوَّنَاتُ مِنَ الْمَعْدِنِ وَالنَّبَاتِ وَجَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ كَائِنَةٌ فَاسِدَةٌ بِالْمُعَايَنَةِ ، وَكَذَلِكَ مَا يَعْرِضُ لَهَا مِنَ الْأَحْوَالِ ، وَخُصُوصًا الْإِنْسَانِيَّةُ . فَالْعُلُومُ تَنْشَأُ ثُمَّ تَدْرُسُ وَكَذَا الصَّنَائِعُ وَأَمْثَالُهَا . وَالْحَسَبُ مِنَ الْعَوَارِضِ الَّتِى تَعْرِضُ لِلْآدَمِيِّينَ ، فَهُوَ كَائِنٌ فَاسِدٌ لَامَحَالَةَ . وَلَيْسَ يُوجَدُ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْخَلِيقَةِ شَرَفٌ مُتَّصِلٌ فى آبَائِهِ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَيْهِ ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ لِلنَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَرَامَةً بِهِ وَحِيَاطَةً عَلَى السِّرِّ فِيهِ .وَأَوَّلُ كُلِّ شَرَفٍ خَارِجِيَّةٌ كَمَا قِيلَ ، وَهِىَ الْخُرُوجُ عَنِ الرِّيَاسَةِ وَالشَّرَفِ إِلَى الضَّعَةِ والابْتِذَالِ ، وَعَدَمِ الْحَسَبِ ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ كُلَّ شَرَفٍ وَحَسَبٍ فَعَدَمُهُ سَابِقٌ عَلَيْهِ ، شَأْنَ كُلِّ مُحْدَثٍ .

ثُمَّ إِنَّ نِهَايَتَهُ فى أَرْبَعَةِ آبَاءٍ ، وَذَلِكَ أَنَّ بَانِىَ الْمَجْدِ عَالِمٌ بِمَا عَانَاهُ فى بِنَائِهِ ، وَمُحَافِظٌ عَلَى الْخِلَالِ الَّتِى هِىَ أَسْبَابُ كَوْنِهِ وَبَقَائِهِ ، وَابْنُهُ مِنْ بَعْدِهِ مُبَاشِرٌ لِأَبِيهِ ، فَقَدْ سَمِعَ مِنْهُ ذَلِكَ وَأَخَذَهُ عَنْهُ إِلَّا أَنَّهُ مُقَصِّرٌ فى ذَلِكَ تَقْصِيرَ السَّامِعِ بِالشَّىْءِ عَنِ الْمُعَانِى لَهُ ، ثُمَّ إِذَا جَاءَ الثَّالِثُ كَانَ حَظُّهُ الاقْتِفَاءَ وَالتَّقْلِيدَ خَاصَّةً فَقَصَّرَ عَنِ الثَّانِى تَقْصِيرَ الْمُقَلِّدِ عَنِ الْمُجْتَهِدِ ؛ ثُمَّ إِذَا جَاءَ الرَّابِعُ قَصَّرَ عَنْ طَرِيقَتِهِمْ جُمْلَةً وَأَضَاعَ الْخِلَالَ الْحَافِظَةَ لِبِنَاءِ مَجْدِهِمْ وَاحْتَقَرَهَا ، وَتَوَهَّمَ أَنَّ ذَلِكَ الْبُنْيَانَ لَمْ يَكُنْ بِمُعَانَاةٍ وَلَا تَكَلُّفٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ وَجَبَ لَهُمْ مُنْذُ أَوَّلِ النَّشْأَةِ بِمُجَرَّدِ انْتِسَابِهِمْ ، وَلَيْسَ بِعِصَابَةٍ وَلَا بِخِلَالٍ لِمَا يَرَى مِنَ التَّجِلَّةِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَلَا يَعْلَمُ كَيْفَ كَانَ حُدُوثُهَا وَلَا سَبَبُهَا وَيَتَوَهَّمُ أَنَّهُ النَّسَبُ فَقَطْ . فَيَرْبَأُ بِنَفْسِهِ عَنْ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ وَيَرَى الْفَضْلَ لَهُ عَلَيْهِمْ وُثُوقًا بِمَا رَبِىَ فِيهِ مِنِ اسْتِتْبَاعِهِمْ وَجَهْلًا بِمَا أَوْجَبَ ذَلِكَ الاسْتِتْبَاعَ مِنَ الْخِلَالِ الَّتِى مِنْهَا التَّوَاضُعُ لَهُمْ ، وَالْأَخْذُ بِمَجَامِعِ قُلُوبِهِمْ فَيَحْتَقِرُهُمْ بِذَلِكَ فَيَنْغَصُونَ عَلَيْهِ وَيَحْتَقِرُونَهُ وَيُدِيلُونَ مِنْهُ سِوَاهُ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْمَنْبِتِ وَمِنْ فُرُوعِهِ فى غَيْرِ ذَلِكَ الْعَقِبِ لِلْإِذْعَانِ لِعَصَبِيَّتِهِمْ كَمَا قُلْنَاهُ بَعْدَ الْوُثُوقِ بِمَا يَرْضَوْنَهُ مِنْ خِلَالِهِ فَتَنْمُو فُرُوعُ هَذَا ، وَتَذْوِى فُرُوعُ الْأَوَّلِ وَيَنْهَدِمُ بِنَاءُ بَيْتِهِ .

هَذَا فى الْمُلُوكِ. وهكَذَا فى بُيُوتِ الْقَبَائِلِ وَالْأُمَرَاءِ وَأَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ أَجْمَعَ ؛ ثُمَّ فى بُيُوتِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ :إِذَا انْحَطَّتْ بُيُوتٌ نَشَأَتْ بُيُوتٌ أُخْرَى مِنْ ذَلِكَ النَّسَبِ «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ(١)» .

وَاشْتِرَاطُ الْأَرْبَعَةِ فى الْأَحْسَابِ إِنَّمَا هُوَ فى الْغَالِبِ . وَإِلا فَقَدْ يَدْثُرُ الْبَيْتُ مِنْ دُونِ الْأَرْبَعَةِ وَيَتَلَاشَى وَيَنْهَدِمُ ، وَقَدْ يَتَّصِلُ أَمْرُهَا إِلَى الْخَامِسِ وَالسَّادِسِ ، إِلا أَنَّهُ فى انْحِطَاطٍ وَذَهَابٍ ، وَاعْتِبَارُ

---

(١) الآية رقم : ١٣ من سورة الحجرات .

(١) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة : فاطر .

الأَرْبعة مِنْ قِبَلِ الأَجْيالِ الأَرْبَعة : بَانٍ ، ومُباشِرٍ لَهُ ، ومُقَلِّد ، وهَادِمٍ ، وهُوَ أَقَلُّ مَا يُمْكِنُ . وقد اعتبرتِ الأَرْبَعةُ فى نهايةِ الحَسَبِ فى بابِ المَدْحِ والثَّناء. قالَ صلى الله عليهِ وسلَّمَ : «إنَّما الكَرِيمُ ابْنُ الكَرِيمِ ابْنُ الكَرِيمِ ابْنُ الكَرِيمِ ، يُوسُفُ ابْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إسْحَاقَ بْنِ إبْرَاهِيمَ» إشارةً إلى أَنَّهُ بَلَغَ الغَايَةَ مِنَ المَجْدِ . وفى التَّوْراةِ ما مَعْنَاهُ : إنَّ اللهَ رَبَّكَ طائِقٌ(١) غَيُورٌ مُطالِبٌ بِذُنُوبِ الآباءِ لِلْبَنِينَ عَلَى الثَّوالِثِ والرَّوابِعِ » . وهذا يَدُلُّ عَلى أنَّ الأَرْبَعَةَ الأعقابِ غايَةٌ فى الأَنْسابِ والحَسَبِ .

وفى كِتابِ الأغانى : فى أخبارِ عويف القَوافى (٢) أنْ كِسْرَى قالَ لِلنُّعْمانِ: هَلْ فى العَرَبِ قَبِيلَةٌ تَتَشَرَّفُ عَلَى قَبِيلَةٍ ؟ قالَ : نَعَمْ قالَ بِأَىِّ شَىْءٍ؟ قالَ: مَنْ كانَ لَهُ ثَلاثَةُ آباءٍ مُتَوالِيَةٍ رُؤساءَ، ثُمَّ اتَّصَلَ ذَلِكَ بِكَمالِ الرَّابِعِ ، فالْبَيْتُ مِنْ قَبِيلَتِهِ . وطَلَبَ ذَلِكَ فَلَمْ يَجِدْهُ إلَّا فى آلِ حُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرٍ الفَزارِىِّ ، وهُمْ بَيْتُ قَيْسٍ ، وآلِ ذِى الجَدَّيْنِ بَيْتُ شَيْبانَ، وآلِ الأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ مِنْ كِنْدَةَ ، وآلِ حاجِبِ بْنِ زُرارَةَ ، وآلِ قَيْسِ بن عاصِمٍ المِنْقَرِىِّ مِنْ بَنِى تَمِيمٍ . فَجَمَعَ هؤلاءِ الرَّهْطَ، ومَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ عَشائِرِهِمْ ، وأَقْعَدَ لَهُمُ الحُكَّامَ والعُدُولَ. فَقامَ حُذَيْفَةُ بْنُ بَدْرٍ ، ثُمَّ الأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ لِقَرابَتِهِ مِنَ النُّعْمانِ، ثُمَّ بِسْطامُ ابْنُ قَيْسِ بْنِ شَيْبانَ ، ثُمَّ حاجِبُ بْنُ زُرارَةَ ، ثُمَّ قَيْسُ بْنُ عاصِمٍ ، وخَطَبُوا ونَثَرُوا فَقالَ كِسْرَى : كُلُّهُمْ سَيِّدٌ يَصْلُحُ لِمَوْضِعِهِ. وكانَتْ هذِهِ البُيُوتاتُ هِىَ المَذْكُورَةَ فى العَرَبِ بَعْدَ بَنِى هاشِمٍ ، ومَعَهُمْ بَيْتُ بَنِى الذُّبْيانِ ، مِنْ بَنِى الحارِثِ بْنِ كَعْبٍ اليَمَنِىِّ . وهذا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَى أنَّ الأَرْبَعَةَ الآباءَ نِهايَةٌ فى الحَسَبِ ، واللهُ أَعْلَمُ .

(١) نادر . (٢) فى الأصل : عويف القوافى وهو تحريف .

الفصل السادس عشر

فى أن الأمم الوحشية أقدر على التغلب ممن سواها

إعْلَمْ أنَّهُ لَمَّا كانَتِ البَداوَةُ سَبَبًا فى الشَّجاعَةِ ، كَما قُلْناهُ فى المُقَدِّمَةِ الثَّالِثَةِ(١) ، لا جَرَمَ كانَ هذا الجِيلُ الوَحْشِىُّ أَشَدَّ شَجاعَةً مِنَ الجِيلِ الآخَرِ . فَهُمْ أَقْدَرُ عَلَى التَّغَلُّبِ وانْتِزاعِ ما فى أَيْدِى سِواهُمْ مِنَ الأُمَمِ . بَلِ الجِيلُ الواحِدُ تَخْتَلِفُ أَحْوالُهُ فى ذَلِكَ بِاخْتِلافِ الأَعْصارِ .

فَكُلَّما نَزَلُوا الأَرْيافَ وتَفَنَّقُوا(٢) النَّعِيمَ ، وأَلِفُوا عَوائِدَ الخِصْبِ فى المَعاشِ والنَّعِيمِ ، نَقَصَ مِنْ شَجاعَتِهِمْ بِمِقْدارِ ما نَقَصَ مِنْ تَوَحُّشِهِمْ وبَداوَتِهِمْ . واعْتَبِرْ ذَلِكَ فى الحَيَواناتِ العُجْمِ بِدَواجِنِ الظِّباءِ والبَقَرِ الوَحْشِيَّةِ والحُمُرِ ، إذا زالَ تَوَحُّشُها بِمُخالَطَةِ الآدَمِيِّينَ ، وأَخْصَبَ عَيْشُها كَيْفَ يَخْتَلِفُ حالُها فى الانْتِهاضِ والشِّدَّةِ حَتَّى فى مِشْيَتِها وحُسْنِ أَدِيمِها ، وكَذلِكَ الآدَمِىُّ المُتَوَحِّشُ ، إذا أَنِسَ وأَلِفَ .

وسَبَبُهُ : أنْ تَكُونَ السَّجايا والطَّبائِعُ ، إنَّما هُوَ عَنِ المَأْلُوفاتِ والعَوائِدِ . إذا كانَ الغَلَبُ لِلْأُمَمِ إنَّما يَكُونُ بِالإِقْدامِ والبَسالَةِ . فَمَنْ كانَ مِنْ هذِهِ الأَجْيالِ أَعْرَقَ فى البَداوَةِ وأَكْثَرَ تَوَحُّشًا كانَ أَقْرَبَ إلى التَّغَلُّبِ عَلَى سِواهُ ، إذا تَقارَبا فى

(١) صوابه الفصل الخامس من هذا الباب .
(٢) تقلبوا فيه بعد البؤس .

الْعَدَدِ وَتَكَافَآ فِى الْقُوَّةِ الْعَصَبِيَّةِ . وَانْظُرْ فِى ذَلِكَ شَأْنَ مُضَرَ مَعَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ حِمْيَرَ وَكَهْلَانَ السَّابِقِينَ إِلَى الْمُلْكِ وَالنَّعِيمِ ، وَمَعَ رَبِيعَةَ الْمُتَوَطِّنِينَ أَرْيَافَ الْعِرَاقِ وَنَعِيمِهِ ، لَمَّا بَقِىَ مُضَرُ فِى بَدَاوَتِهِمْ وَتَقَدَّمَهُمُ الْآخَرُونَ إِلَى خِصْبِ الْعَيْشِ وَغَضَارَةِ النَّعِيمِ ، كَيْفَ أَرْهَفَتِ الْبَدَاوَةُ حَدَّهُمْ فِى التَّغَلُّبِ فَغَلَبُوهُمْ عَلَى مَا فِى أَيْدِيهِمْ وَانْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ . وَهَذَا حَالُ بَنِى طَيِّءٍ ، وَبَنِى عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ ، وَبَنِى سُلَيْمِ بْنِ مَنْصُورٍ وَمَنْ بَعْدَهُمْ ، لَمَّا تَأَخَّرُوا فِى بَادِيَتِهِمْ عَنْ سَائِرِ قَبَائِلِ مُضَرَ وَالْيَمَنِ ، وَلَمْ يَتَلَبَّسُوا بِشَىْءٍ مِنْ دُنْيَاهُمْ كَيْفَ أَمْسَكَتْ حَالُ الْبَدَاوَةِ عَلَيْهِمْ قُوَّةَ عَصَبِيَّتِهِمْ وَلَمْ تَخْلُفْهَا مَذَاهِبُ التَّرَفِ حَتَّى صَارُوا أَغْلَبَ عَلَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ . وَكَذَا كُلُّ حَىٍّ مِنَ الْعَرَبِ يَلِى نَعِيمًا وَعَيْشًا خِصْبًا دُونَ الْحَىِّ الْآخَرِ ، فَإِنَّ الْحَىَّ الْمُتَبَدِّى يَكُونُ أَغْلَبَ لَهُ وَأَقْدَرَ عَلَيْهِ إِذَا تَكَافَآ فِى الْقُوَّةِ وَالْعَدَدِ . سُنَّةَ اللهِ فِى خَلْقِهِ .

الفصل السابع عشر

فى أن الغاية التى تجرى إليها العصبية هى الملك

وَذَلِكَ لِأَنَّا قَدَّمْنَا : أَنَّ الْعَصَبِيَّةَ بِهَا تَكُونُ الْحِمَايَةُ وَالْمُدَافَعَةُ وَالْمُطَالَبَةُ ، وَكُلُّ أَمْرٍ يُجْتَمَعُ عَلَيْهِ . وَقَدَّمْنَا أَنَّ الْآدَمِيِّينَ بِالطَّبِيعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ يَحْتَاجُونَ فِى كُلِّ اجْتِمَاعٍ إِلَى وَازِعٍ ، وَحَاكِمٍ يَزَعُ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ . فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُتَغَلِّبًا عَلَيْهِمْ بِتِلْكَ الْعَصَبِيَّةِ وَإِلَّا لَمْ تَتِمَّ قُدْرَتُهُ عَلَى ذَلِكَ . وَهَذَا التَّغَلُّبُ هُوَ الْمُلْكُ . وهو أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَى الرِّيَاسَةِ . لِأَنَّ الرِّيَاسَةَ إِنَّمَا هِىَ سُؤْدَدٌ ، وَصَاحِبُهَا مَتْبُوعٌ وَلَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ قَهْرٌ فِى أَحْكَامِهِ . وَأَمَّا الْمُلْكُ فَهُوَ التَّغَلُّبُ وَالْحُكْمُ بِالْقَهْرِ

وَصَاحِبُ الْعَصَبِيَّةِ إِذَا بَلَغَ إِلَى رُتْبَةٍ طَلَبَ مَا فَوْقَهَا . فَإِذَا بَلَغَ رُتْبَةَ السُّؤْدَدِ وَالِاتِّبَاعِ ، وَوَجَدَ السَّبِيلَ إِلَى التَّغَلُّبِ وَالْقَهْرِ لَا يَتْرُكُهُ لِأَنَّهُ مَطْلُوبٌ لِلنَّفْسِ . وَلَا يَتِمُّ اقْتِدَارُهَا عَلَيْهِ إِلَّا بِالْعَصَبِيَّةِ الَّتِى يَكُونُ بِهَا مَتْبُوعًا ، فَالتَّغَلُّبُ الْمُلْكِىُّ غَايَةٌ لِلْعَصَبِيَّةِ ، كَمَا رَأَيْتَ ، ثُمَّ إِنَّ الْقَبِيلَ الْوَاحِدَ وَإِنْ كَانَتْ فِيهِ بُيُوتَاتٌ مُتَفَرِّقَةٌ وَعَصَبِيَّاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ ، فَلَا بُدَّ مِنْ عَصَبِيَّةٍ تَكُونُ أَقْوَى مِنْ جَمِيعِهَا تَغْلِبُهَا وَتَسْتَتْبِعُهَا وَتَلْتَحِمُ جَمِيعُ الْعَصَبِيَّاتِ فِيهَا وَتَصِيرُ كَأَنَّهَا عَصَبِيَّةٌ وَاحِدَةٌ كُبْرَى ، وَإِلَّا وَقَعَ الِافْتِرَاقُ الْمُفْضِى إِلَى الِاخْتِلَافِ وَالتَّنَازُعِ « وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ (١) » .

ثُمَّ إِذَا حَصَلَ التَّغَلُّبُ بِتِلْكَ الْعَصَبِيَّةِ عَلَى قَوْمِهَا طَلَبَتْ بِطَبْعِهَا التَّغَلُّبَ عَلَى أَهْلِ عَصَبِيَّةٍ أُخْرَى بَعِيدَةٍ عَنْهَا ، فَإِنْ كَافَأَتْهَا أَوْ مَانَعَتْهَا كَانُوا أَقْتَالًا (٢) وَأَنْظَارًا ، وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا التَّغَلُّبُ عَلَى حَوْزَتِهَا وَقَوْمِهَا شَأْنُ الْقَبَائِلِ وَالْأُمَمِ الْمُفْتَرِقَةِ فِى الْعَالَمِ ، وَإِنْ غَلَبَتْهَا ، وَاسْتَتْبَعَتْهَا الْتَحَمَتْ بِهَا أَيْضًا وَزَادَتْ قُوَّةً فِى التَّغَلُّبِ إِلَى قُوَّتِهَا وَطَلَبَتْ غَايَةً مِنَ التَّغَلُّبِ وَالتَّحَكُّمِ أَعْلَى مِنَ الْغَايَةِ الْأُولَى وَأَبْعَدَ ، وَهَكَذَا دَائِمًا حَتَّى تُكَافِئَ بِقُوَّتِهَا قُوَّةَ الدَّوْلَةِ فِى هَرَمِهَا ، فَإِنْ أَدْرَكَت الدولة فى هرمها وَلَمْ يَكُنْ لَهَا مُمَانِعٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ الدَّوْلَةِ أَهْلِ الْعَصَبِيَّاتِ اسْتَوْلَتْ عَلَيْهَا ، وَانْتَزَعَتْ ،

(١) الآية رقم ٢٥١ من سورة البقرة .
(٢) القتل بكسر القاف وسكون التاء العدو والمقاتل وجمعه أقتال .

الْأَمْرَ مِنْ يَدِهَا وَصَارَ الْمُلْكُ أَجْمَعُ لَهَا ، وَإِنِ انْتَهَتْ قُوَّتُهَا وَلَمْ يُقَارِنْ ذَٰلِكَ هَرَمَ الدَّوْلَةِ ، وَإِنَّمَا قَارَنَ حَاجَتَهَا إِلَى الِاسْتِظْهَارِ بِأَهْلِ الْعَصَبِيَّاتِ انْتَظَمَتْهَا الدَّوْلَةُ فِى أَوْلِيَائِهَا تَسْتَظْهِرُ بِهَا عَلَى مَا يَعِنُّ مِنْ مَقَاصِدِهَا ، وَذَٰلِكَ مُلْكٌ آخَرُ دُونَ الْمُلْكِ الْمُسْتَبِدِّ . وَهُوَ كَمَا وَقَعَ لِلتُّرْكِ فِى دَوْلَةِ بَنِى الْعَبَّاسِ وَلِصَنْهَاجَةَ وَزَنَاتَةَ مَعَ كُتَامَةَ ، وَلِبَنِى حَمْدَانَ مَعَ مُلُوكِ الشِّيعَةِ مِنَ الْعَلَوِيَّةِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ . فَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ الْمُلْكَ هُوَ غَايَةُ الْعَصَبِيَّةِ ، وَأَنَّهَا إِذَا بَلَغَتْ إِلَى غَايَتِهَا ، حَصَلَ لِلْقَبِيلَةِ الْمُلْكُ إِمَّا بِالِاسْتِبْدَادِ أَوْ بِالْمُظَاهَرَةِ عَلَى حَسَبِ مَا يَسَعُهُ الْوَقْتُ الْمُقَارِنُ لِذَٰلِكَ ، وَإِنْ عَاقَهَا عَنْ بُلُوغِ الْغَايَةِ عَوَائِقُ كَمَا نُبَيِّنُهُ وَقَفَتْ فِى مَقَامِهَا إِلَى أَنْ يَقْضِىَ اللهُ بِأَمْرِهِ .

الفصل الثامن عشر

فى أن من عوائق المُلك حصول الترف وانغماس القبيل فى النعيم .

وَسَبَبُ ذَٰلِكَ أَنَّ الْقَبِيلَ إِذَا غَلَبَتْ بِعَصَبِيَّتِهَا بَعْضَ الْغَلَبِ ، اسْتَوْلَتْ عَلَى النِّعْمَةِ بِمِقْدَارِهِ ، وَشَارَكَتْ أَهْلَ النِّعَمِ وَالْخِصْبِ فِى نِعْمَتِهِم خِصْبِهِمْ ، وَضَرَبَتْ مَعَهُمْ فِى ذَٰلِكَ بِسَهْمٍ وَحِصَّةٍ بِمِقْدَارِ غَلَبِهَا وَاسْتِظْهَارِ الدَّوْلَةِ بِهَا . فَإِنْ كَانَتِ الدَّوْلَةُ مِنَ الْقُوَّةِ بِحَيْثُ لَا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِى انْتِزَاعِ أَمْرِهَا ، وَلَا مُشَارَكَتِهَا فِيهِ أَذْعَنَ ذَٰلِكَ الْقَبِيلُ لِوِلَايَتِهَا وَالْقُنُوعِ بِمَا يُسَوِّغُونَ مِنْ نِعْمَتِهَا وَيُشْرِكُونَ فِيهِ مِنْ جِبَايَتِهَا ، وَلَمْ تَسْمُ آمَالُهُمْ إِلَى شَىْءٍ مِنْ مَنَازِعِ الْمُلْكِ وَلَا أَسْبَابِهِ ، إِنَّمَا هِمَّتُهُمُ النَّعِيمُ وَالْكَسْبُ وَخِصْبُ الْعَيْشِ وَالسُّكُونُ فِى ظِلِّ الدَّوْلَةِ إِلَى الدَّعَةِ وَالرَّاحَةِ ، وَالْأَخْذِ بِمَذَاهِبِ الْمُلْكِ فِى الْمَبَانِى وَالْمَلَابِسِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْ ذَٰلِكَ وَالتَّأَنُّقِ فِيهِ بِمِقْدَارِ مَا حَصَلَ مِنَ الرِّيَاشِ وَالتَّرَفِ ، وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ تَوَابِعِ ذَٰلِكَ فَتَذْهَبُ خُشُونَةُ الْبَدَاوَةِ وَتَضْعُفُ الْعَصَبِيَّةُ وَالْبَسَالَةُ ، وَيَتَنَعَّمُونَ فِيمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنَ الْبَسْطَةِ ، وَتَنْشَأُ بَنُوهُمْ وَأَعْقَابُهُمْ فِى مِثْلِ ذَٰلِكَ مِنَ التَّرَفُّعِ عَنْ خِدْمَةِ أَنْفُسِهِمْ وَوِلَايَةِ حَاجَاتِهِمْ وَيَسْتَنْكِفُونَ عَنْ سَائِرِ الْأُمُورِ الضَّرُورِيَّةِ فِى الْعَصَبِيَّةِ حَتَّى يَصِيرَ ذَٰلِكَ خُلُقًا لَهُمْ وَسَجِيَّةً فَتَنْقُصُ عَصَبِيَّتُهُمْ وَبَسَالَتُهُمْ فِى الْأَجْيَالِ بَعْدَهُمْ بِتَعَاقُبِهِم إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ الْعَصَبِيَّةُ فَيَأْذَنُونَ بِالِانْقِرَاضِ .

وَعَلَى قَدْرِ تَرَفِهِمْ وَنِعْمَتِهِمْ يَكُونُ إِشْرَافُهُمْ عَلَى الْفَنَاءِ فَضْلًا عَنِ الْمُلْكِ ، فَإِنَّ عَوَارِضَ التَّرَفِ وَالْغَرَقِ فِى النَّعِيمِ ، كَاسِرٌ مِنْ سَوْرَةِ الْعَصَبِيَّةِ الَّتِى بِهَا التَّغَلُّبُ ، وَإِذَا انْقَرَضَتِ الْعَصَبِيَّةُ قَصُرَ الْقَبِيلُ عَنِ الْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ فَضْلًا عَنِ الْمُطَالَبَةِ ، وَالْتَهَمَتْهُمُ الْأُمَمُ سِوَاهُمْ . فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ التَّرَفَ مِنْ عَوَائِقِ الْمُلْكِ ، وَاللهُ يُؤْتِى مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ .

الفصل التاسع عشر

فى أن من عوائق الملك حصول المذلّة للقبيل والانقياد إلى سواهم .

وَسَبَبُ ذَٰلِكَ : أَنَّ الْمَذَلَّةَ وَالِانْقِيَادَ كَاسِرَانِ لِسَوْرَةِ الْعَصَبِيَّةِ وَشِدَّتِهَا فَإِنَّ انْقِيَادَهُمْ وَمَذَلَّتَهُمْ دَلِيلٌ عَلَى فِقْدَانِهَا ، فَمَا رَئِمُوا لِلْمَذَلَّةِ حَتَّى عَجَزُوا عَنِ الْمُدَافَعَةِ ، فَأَوْلَى أَنْ يَكُونَ عَاجِزًا عَنِ الْمُقَاوَمَةِ وَالْمُطَالَبَةِ .

وَاعْتَبِرْ ذَٰلِكَ فِى بَنِى إِسْرَائِيلَ ، لَمَّا دَعَاهُمْ مُوسَى

عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى مُلْكِ الشَّامِ ، وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ اللهَ قَدْ كَتَبَ لَهُمْ مُلْكَهَا كَيْفَ عجزوا عَنْ ذَلِكَ وَقَالُوا : « إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ، وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا »(١) أى يُخْرِجَهُمُ اللهُ تَعَالَى مِنْهَا بِضَرْبٍ مِنْ قُدْرَتِهِ غَيْرِ عَصَبِيَّتِنَا ، وَتَكُونَ مِنْ مُعْجِزَاتِكَ يَا مُوسَى . وَلَمَّا عَزَمَ عَلَيْهِمْ لَجُّوا وَارْتَكَبُوا الْعِصْيَانَ ، وَقَالُوا : « اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا(٢) » وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِمَا آنَسُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعَجْزِ عَنِ الْمُقَاوَمَةِ وَالْمُطَالَبَةِ ، كَمَا تَقْتَضِيهِ الْآيَةُ ، وَمَا يُؤْثَرُ فِى تَفْسِيرِهَا وَذَلِكَ بِمَا حَصَلَ فِيهِمْ مِنْ خُلُقِ الانْقِيَادِ ، وَمَا رَئِمُوا مِنَ الذُّلِّ لِلْقِبْطِ أَحْقَابًا حَتَّى ذَهَبَتِ الْعَصَبِيَّةُ مِنْهُمْ جُمْلَةً مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا حَقَّ الإِيمَانِ بِمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ مُوسَى مِنْ أَنَّ الشَّامَ لَهُمْ ، وَأَنَّ الْعَمَالِقَةَ الَّذِينَ كَانُوا بِأَرِيحَا فَرِيسَتُهُمْ بِحُكْمٍ مِنَ اللهِ قَدَّرَهُ لَهُمْ ، فَأَقْصَرُوا عَنْ ذَلِكَ وَعَجَزُوا تَعْوِيلًا عَلَى مَا فِى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعَجْزِ عَنِ الْمُطَالَبَةِ ، لِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ خُلُقِ الْمَذَلَّةِ ، وَطَعَنُوا فِيمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ مِنْ ذَلِكَ ، وَمَا أَمَرَهُمْ بِهِ فَعَاقَبَهُمُ اللهُ بِالتِّيهِ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ تَاهُوا فِى قَفْرٍ مِنَ الْأَرْضِ مَا بَيْنَ الشَّامِ وَمِصْرَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمْ يَأْوُوا فِيهَا لِعُمْرَانٍ ، وَلَا نَزَلُوا مِصْرًا وَلَا خَالَطُوا بَشَرًا كَمَا قَصَّهُ الْقُرْآنُ لِغِلْظَةِ الْعَمَالِقَةِ بِالشَّامِ ، وَالْقِبْطِ بِمِصْرَ عَلَيْهِمْ لِعَجْزِهِمْ عَنْ مُقَاوَمَتِهِمْ كَمَا زَعَمُوهُ .

وَيَظْهَرُ مِنْ مَسَاقِ الْآيَةِ وَمَفْهُومِهَا أَنَّ حِكْمَةَ ذَلِكَ التِّيهِ مَقْصُودَةٌ ، وَهِىَ فَنَاءُ الْجِيلِ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ قَبْضَةِ الذُّلِّ وَالْقَهْرِ وَالْقُوَّةِ وَتَخَلَّقُوا بِهِ وَأَفْسَدُوا مِنْ عَصَبِيَّتِهِمْ حَتَّى نَشَأَ فِى ذَلِكَ التِّيهِ جِيلٌ آخَرُ عَزِيزٌ ، لَا يَعْرِفُ الْأَحْكَامَ وَالْقَهْرَ وَلَا يُسَامُ بِالْمَذَلَّةِ ، فَنَشَأَتْ بِذَلِكَ عَصَبِيَّةٌ أُخْرَى اقْتَدَرُوا بِهَا عَلَى الْمُطَالَبَةِ وَالتَّغَلُّبِ . وَيَظْهَرُ لَكَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً أَقَلُّ مَا يَأْتِى فِيهَا فَنَاءُ جِيلٍ وَنَشْأَةُ جِيلٍ آخَرَ ، سُبْحَانَ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ .

وَفِى هَذَا أَوْضَحُ دَلِيلٍ عَلَى شَأْنِ الْعَصَبِيَّةِ وَأَنَّهَا هِىَ الَّتِى تَكُونُ بِهَا الْمُدَافَعَةُ وَالْمُقَاوَمَةُ وَالْحِمَايَةُ وَالْمُطَالَبَةُ ، وَأَنَّ مَنْ فَقَدَهَا عَجَزَ عَنْ جَمِيعِ ذَلِكَ كُلِّهِ .

وَيَلْحَقُ بِهَذَا الْفَصْلِ فِيمَا يُوجِبُ الْمَذَلَّةَ لِلْقَبِيلِ شَأْنُ الْمَغَارِمِ وَالضَّرَائِبِ ، فَإِنَّ الْقَبِيلَ الْغَارِمِينَ مَا أَعْطَوُا الْيَدَ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى رَضُوا بِالْمَذَلَّةِ فِيهِ لِأَنَّ فِى الْمَغَارِمِ وَالضَّرَائِبِ ضَيْمًا وَمَذَلَّةً لَا تَحْتَمِلُهَا النُّفُوسُ الْأَبِيَّةُ إِلَّا إِذَا اسْتَهْوَنَتْهُ عَنِ الْقَتْلِ وَالتَّلَفِ ، وَأَنَّ عَصَبِيَّتَهُمْ حِينَئِذٍ ضَعِيفَةٌ عَنِ الْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ ، وَمَنْ كَانَتْ عَصَبِيَّتُهُ لَا تَدْفَعُ عَنْهُ الضَّيْمَ ، فَكَيْفَ لَهُ بِالْمُقَاوَمَةِ وَالْمُطَالَبَةِ وَقَدْ حَصَلَ لَهُ الانْقِيَادُ لِلذُّلِّ ، وَالْمَذَلَّةُ عَائِقَةٌ كَمَا قَدَّمْنَاهُ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِى شَأْنِ الْحَرْثِ لَمَّا رَأَى سِكَّةَ الْمِحْرَاثِ فِى بَعْضِ دُورِ الْأَنْصَارِ : « مَا دَخَلَتْ هَذِهِ دَارَ قَوْمٍ إِلَّا دَخَلَهُمُ الذُّلُّ » فَهُوَ دَلِيلٌ صَرِيحٌ عَلَى أَنَّ الْمَغْرَمَ مُوجِبٌ لِلذِّلَّةِ . هَذَا إِلَى مَا يَصْحَبُ ذُلَّ الْمَغَارِمِ مِنْ خُلُقِ الْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ بِسَبَبِ مَلَكَةِ الْقَهْرِ ، فَإِذَا رَأَيْتَ الْقَبِيلَ بِالْمَغَارِمِ فِى رِبْقَةٍ مِنَ الذُّلِّ فَلَا تَطْمَعَنَّ لَهَا بِمُلْكٍ آخِرَ الدَّهْرِ .

---

(١) الآية رقم : ٢٢ من سورة المائدة .

(٢) الآية رقم : ٢٤ من سورة المائدة

وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ لَكَ غَلَطُ مَنْ يَزْعَمُ أَنَّ زَنَاتَةَ بِالْمَغْرِبِ كَانُوا شَاوِيَةً يُؤَدُّونَ الْمَغَارِمَ لِمَنْ كَانَ عَلَى عَهْدِهِمْ مِنَ الْمُلُوكِ ، وَهُوَ غَلَطٌ فَاحِشٌ كَمَا رَأَيْتَ ، إِذْ لَوْ وَقَعَ ذَلِكَ لَمَا اسْتَتَبَّ لَهُمْ مُلْكٌ ، وَلَا تَمَّتْ لَهُمْ دَوْلَةٌ . وَانْظُرْ فِيمَا قَالَهُ شَهْرَبراز مَلِكُ الْبَابِ لِعَبْدِ الرَّحْمٰنِ بْنِ رَبِيعَةَ لَمَّا أَطَلَّ عَلَيْهِ ، وَسَأَلَ شَهْرَبراز أَمَانَهُ عَلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ ، فَقَالَ : « أَنَا الْيَوْمَ مِنْكُمْ ، يَدِى فِى أَيْدِيكُمْ ، وَصَعَرِى[١] مَعَكُمْ فَمَرْحَبًا بِكُمْ وَبَارَكَ اللهُ لَنَا وَلَكُمْ ، وَجِزْيَتُنَا إِلَيْكُمْ وَالنَّصْرُ لَكُمْ ، وَالْقِيَامُ بِمَا تُحِبُّونَ وَلَا تُذِلُّونَا بِالْجِزْيَةِ فَتُوهِنُونَا لِعَدُوِّكُمْ » . فَاعْتَبِرْ هٰذَا فِيمَا قُلْنَاهُ فَإِنَّهُ كَافٍ .

الفصل العشرون

فى أن من علامات الملك التنافس فى الخلال الحميدة وبالعكس .

لَمَّا كَانَ الْمُلْكُ طَبِيعِيًّا لِلْإِنْسَانِ ، لِمَا فِيهِ مِنْ طَبِيعَةِ الاجْتِمَاعِ كَمَا قُلْنَاهُ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَقْرَبَ إِلَى خِلَالِ الْخَيْرِ مِنْ خِلَالِ الشَّرِّ ، بِأَصْلِ فِطْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ النَّاطِقَةِ الْعَاقِلَةِ لِأَنَّ الشَّرَّ إِنَّمَا جَاءَهُ مِنْ قِبَلِ الْقُوَى الْحَيَوَانِيَّةِ الَّتِى فِيهِ ، وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ فَهُوَ إِلَى الْخَيْرِ وَخِلَالِهِ أَقْرَبُ ، وَالْمُلْكُ وَالسِّيَاسَةُ إِنَّمَا كَانَا لَهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ . لِأَنَّهُمَا لِلْإِنْسَانِ خَاصَّةً لَا لِلْحَيَوَانِ ، فَإِذَا خِلَالُ الْخَيْرِ فِيهِ هِىَ الَّتِى تُنَاسِبُ السِّيَاسَةَ وَالْمُلْكَ ، إِذِ الْخَيْرُ هُوَ الْمُنَاسِبُ لِلسِّيَاسَةِ .

وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْمَجْدَ لَهُ أَصْلٌ يُبْنَى عَلَيْهِ وَتَتَحَقَّقُ بِهِ حَقِيقَتُهُ وَهُوَ الْعَصَبِيَّةُ وَالْعَشِيرُ : وَفَرْعٌ يَتِمُّ وُجُودَهُ وَيُكْمِلُهُ وَهُوَ الْخِلَالُ . وَإِذَا كَانَ الْمُلْكُ غَايَةً لِلْعَصَبِيَّةِ فَهُوَ غَايَةٌ لِفُرُوعِهَا وَمُتَمِّمَاتِهَا وَهِىَ الْخِلَالُ لِأَنَّ وُجُودَهُ دُونَ مُتَمِّمَاتِهِ كَوُجُودِ شَخْصٍ مَقْطُوعِ الْأَعْضَاءِ ، أَوْ ظُهُورِهِ عُرْيَانًا بَيْنَ النَّاسِ .

وَإِذَا كَانَ وُجُودُ الْعَصَبِيَّةِ فَقَطْ مِنْ غَيْرِ انْتِحَالِ الْخِلَالِ الْحَمِيدَةِ نَقْصًا فِى أَهْلِ الْبُيُوتِ وَالْأَحْسَابِ فَمَا ظَنُّكَ بِأَهْلِ الْمُلْكِ الَّذِى هُوَ غَايَةٌ لِكُلِّ مَجْدٍ ، وَنِهَايَةٌ لِكُلِّ حَسَبٍ !

وَأَيْضًا فَالسِّيَاسَةُ وَالْمُلْكُ هِىَ كَفَالَةٌ لِلْخَلْقِ وَخِلَافَةٌ لِلّٰهِ فِى الْعِبَادِ لِتَنْفِيذِ أَحْكَامِهِ فِيهِمْ . وَأَحْكَامُ اللهِ فِى خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ ، إِنَّمَا هِىَ بِالْخَيْرِ وَمُرَاعَاةِ الْمَصَالِحِ كَمَا تَشْهَدُ بِهِ الشَّرَائِعُ . وَأَحْكَامُ الْبَشَرِ إِنَّمَا هِىَ مِنَ الْجَهْلِ وَالشَّيْطَانِ ، بِخِلَافِ قُدْرَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَقَدَرِهِ فَإِنَّهُ فَاعِلٌ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ مَعًا وَمُقَدِّرُهُمَا إِذْ ، لَا فَاعِلَ سِوَاهُ . فَمَنْ حَصَلَتْ لَهُ الْعَصَبِيَّةُ الْكَفِيلَةُ بِالْقُدْرَةِ وَأُونِسَتْ مِنْهُ خِلَالُ الْخَيْرِ الْمُنَاسِبَةُ لِتَنْفِيذِ أَحْكَامِ اللهِ فِى خَلْقِهِ ، فَقَدْ تَهَيَّأَ لِلْخِلَافَةِ فِى الْعِبَادِ وَكَفَالَةِ الْخَلْقِ ، وَوُجِدَتْ فِيهِ الصَّلَاحِيَّةُ لِذٰلِكَ ، وَهٰذَا الْبُرْهَانُ أَوْثَقُ مِنَ الْأَوَّلِ ، وَأَصَحُّ مَبْنًى .

فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ خِلَالَ الْخَيْرِ شَاهِدَةٌ بِوُجُودِ الْمُلْكِ لِمَنْ وُجِدَتْ لَهُ الْعَصَبِيَّةُ ، فَإِذَا نَظَرْنَا فِى أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ وَمَنْ حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْغَلَبِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّوَاحِى وَالْأُمَمِ ، فَوَجَدْنَاهُم يَتَنَافَسُونَ فِى الْخَيْرِ وَخِلَالِهِ مِنَ الْكَرَمِ وَالْعَفْوِ عَنِ الزَّلَّاتِ

(١) انجابى سيكون معكم .

والاحتمال من غير القادر ، والقرى للضيوف وحمل الكل[1] وكسب المعدم والصبر على المكاره ، والوفاء بالعهد، وبذل الأموال فى صون الأعراض وتعظيم الشريعة ، وإجلال العلماء الحاملين لها والوقوف عندما يحددونه لهم من فعل أو ترك ، وحسن الظن بهم ، واعتقاد أهل الدين والتبرك بهم ، ورغبة الدعاء منهم والحياء من الأكابر والمشايخ وتوقيرهم وإجلالهم والانقياد إلى الحق مع الداعى إليه وإنصاف المستضعفين من أنفسهم والتبذل فى أحوالهم ، والانقياد للحق والتواضع للمسكين واستماع شكوى المستغيثين ، والتدين بالشرائع والعبادات والقيام عليها وعلى أسبابها ، والتجافى عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد ، وأمثال ذلك ، علمنا أن هذه خلق السياسة قد حصلت لديهم واستحقوا بها أن يكونوا ساسة لمن تحت أيديهم ، أو على العموم وأنه خير ساقه الله تعالى إليهم مناسب لعصبيتهم وغلبهم وليس ذلك سدى فيهم ولا وجد عبثا منهم ، والملك أنسب المراتب والخيرات لعصبيتهم ، فعلمنا بذلك أن الله تأذن لهم بالملك وساقه إليهم .

وبالعكس من ذلك إذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طرقها فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة ، ولا تزال فى انتقاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم ، ويتبدل به سواهم ليكون نعيا عليهم فى سلب ما كان الله

(١) الكل بفتح الكاف اليتيم ومن لا يقدر على القيام بشئون نفسه.

قد آتاهم من الملك وجعل فى أيديهم من الخير «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا[1]» ، واستقرىء ذلك وتتبعه فى الأمم السابقة تجد كثيرا مما قلناه ورسمناه والله يخلق ما يشاء ويختار .

واعلم أن من خلال الكمال التى يتنافس فيها القبائل أولو العصبية وتكون شاهدة لهم بالملك : إكرام العلماء ، والصالحين والأشراف وأهل الأحساب ، وأصناف التجار والغرباء ، وإنزال الناس منازلهم ، وذلك أن إكرام القبائل وأهل العصبيات والعشائر لمن يناهضهم فى الشرف ويجاذبهم حبل العشير والعصبية ، ويشاركهم فى اتساع الجاه ، أمر طبيعى يحمل عليه فى الأكثر الرغبة فى الجاه ، أو المخافة من قوم المكرم ، أو التماس مثلها منه .

وأما أمثال هؤلاء ممن ليس لهم عصبية تتقى ولا جاه يرتجى فيندفع الشك فى شأن كرامتهم ، ويتمحض القصد فيهم أنه للمجد وانتحال الكمال فى الخلال والإقبال على السياسة بالكلية ؛ لأن إكرام أقتاله وأمثاله ضرورى فى السياسة الخاصة بين قبيله ونظرائه ، وإكرام الطارئين من أهل الفضائل والخصوصيات كمال فى السياسة العامة ، فالصالحون للدين والعلماء للجأ[2] إليهم فى إقامة مراسم الشريعة ، والتجار للترغيب ،

(١) سورة الإسراء الآية : ١٦ .

(٢) يعنى للالتجاء إليهم ...

حتّى تعمَّ المنفعةُ بما في أيديهم ، والغرباءُ من مكارمِ الأخلاق ، وإنزالُ الناسِ منازلَهم من الإنصافِ وهو من العدلِ . فيُعلم بوجودِ ذلك من أهل عصبيّتِه انتماؤهم للسياسةِ العامّةِ ، وهي المُلكُ وأنّ الله قد تأذّن بوجودِها فيهم لوجودِ علاماتِها .

ولهذا كان أوّلُ ما يذهبُ من القبيلِ - أهلِ المُلكِ - إذا تأذّن الله تعالى بسلبِ مُلكهم وسلطانهم إكرامُ هذا الصنفِ من الخلقِ . فإذا رأيتَه قد ذهب من أمّةٍ من الأمم فاعلمْ أنّ الفضائلَ قد أخذتْ في الذهابِ عنهم ، وارتقبْ زوالَ المُلكِ منهم ، «وإذا أرادَ اللهُ بقومٍ سوءًا فلا مردَّ له»(١) واللهُ تعالى أعلمُ .

الفصل الحادى والعشرون

في أنه إذا كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع .

وذلك لأنّهم أقدرُ على التغلبِ ، والاستبدادِ كما قلناه ، واستعبادِ الطوائفِ لقدرتِهم على محاربةِ الأممِ سواهم ، ولأنّهم يتنزّلون من الأهلين منزلةَ المفترسِ من الحيواناتِ العجمِ ، وهؤلاء مثلُ العربِ ، وزناتةَ ، ومَن في معناهم من الأكرادِ والتركمانِ ، وأهلِ اللثامِ من صنهاجةَ .

وأيضا فهؤلاء المتوحشون ليس لهم وطن يرتافون(٢) منه ولا بلدٌ يجنحون إليه ، فنسبةُ الأقطارِ والمواطنِ إليهم على السواءِ ، فلهذا لا يقتصرون على ملكةِ قطرِهم وما جاورهم من البلادِ ، ولا يقفون عند حدودِ أفقِهم ، بل يطفرون إلى الأقاليمِ البعيدةِ ، ويتغلّبون على الأممِ النائيةِ .

(١) الآية ١١ من سورة الرعد .

(٢) يتعيشون منه .

وانظرْ ما يحكى في ذلك عن عمرَ رضي الله عنه لمّا بويعَ وقام يحرّضُ الناسَ على العراقِ ، فقال : إنّ الحجازَ ليس لكم بدارٍ إلّا على النُّجعةِ ، ولا يقوى عليه أهلُه إلّا بذلك ، أين القرّاءُ المهاجرون عن موعدِ اللهِ؟ سيروا في الأرضِ التي وعدكم اللهُ في الكتابِ أن يورثكموها فقال : «ليظهره على الدينِ كلِّه ولو كره المشركون»(١) .

واعتبرْ ذلك أيضا بحالِ العربِ السالفةِ من قبلُ ، مثلَ التبابعةِ ، وحِمْيَرَ ، كيف كانوا يخطون من اليمنِ إلى المغربِ مرّةً ، وإلى العراقِ والهندِ أخرى ، ولم يكن ذلك لغيرِ العربِ من الأممِ .

وكذا حالُ الملثّمين من المغربِ ، لمّا نزعوا إلى المُلكِ طفروا من الإقليمِ الأوّلِ ومجالاتُهم منه في جوارِ السودانِ إلى الإقليمِ الرابعِ والخامسِ في ممالكِ الأندلسِ من غيرِ واسطةٍ . وهذا شأنُ هذه الأممِ الوحشيّةِ فلذلك تكونُ دولتُهم أوسعَ نطاقًا ، وأبعدَ من مراكزِها نهايةً ، «واللهُ يقدّرُ الليلَ والنهارَ»(٢) وهو الواحدُ القهّارُ لا شريكَ له .

الفصل الثانى والعشرون

في أن الملك إذا ذهب عن بعض الشعوب من أمة فلا بد من عوده إلى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية

والسببُ في ذلك . أنّ المُلكَ إنّما حصل لهم بعد سورةِ الغلبِ والإذعانِ لهم من سائرِ الأممِ سواهم فيتعيّن منهم المباشرون للأمرِ ، الحاملون سريرَ المُلكِ ، ولا يكون

(١) الآية رقم : ... من سورة :

(٢) الآية رقم : ٢٠ من سورة : المزمل .

ذلك لجميعهم ، لما هم عليه من الكثرة التى يضيق عنها نطاق المزاحمة والغيرة التى تجدع(١) أنوف كثير من المتطاولين للرتبة ، فإذا تعين أولئك القائمون بالدولة انغمسوا فى النعيم ، وغرقوا فى بحر الترف والخصب ، واستعبدوا إخوانهم من ذلك الجيل ، وأنفقوهم فى وجوه الدولة ومذاهبها ، وبقى الذين بعدوا عن الأمر ، وكبحوا عن المشاركة فى ظل من عز الدولة التى شاركوها بنسبهم ، وبمنجاة من الهرم لبعدهم عن الترف وأسبابه ، فإذا استولت على الأولين الأيام ، وأباد خضراءهم الهرم فطبختهم الدولة ، وأكل الدهر عليهم وشرب بما أرهف النعيم من حدهم ، واشتفت غريزة الترف من مائهم ، وبلغوا غايتهم من طبيعة التمدن الإنسانى ، والتغلب السياسى (شعر :

كدود القز ينسج ثم يفنى
بمركز نسجه فى الانعكاس)

كانت حينئذ عصبية الآخرين موفورة ، وسورة غلبهم من الكاسر محفوظة ، وشارتهم فى الغلب معلومة ، فتسمو آمالهم إلى الملك الذى كانوا ممنوعين منه بالقوة الغالبة من جنس عصبيتهم ، وترتفع المنازعة لما عرف من غلبهم ، فيستولون على الأمر ويصير إليهم .

وكذا يتفق فيهم مع من بقى أيضا منتبذا عنه من عشائر أمتهم ، فلا يزال الملك ملجأ فى الأمة إلى أن تنكسر سورة العصبية منها ، أو يفنى سائر عشائرها : سنة الله فى الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين (١) .

واعتبر هذا بما وقع فى العرب ، لما انقرض ملك عاد ، قام به من بعدهم إخوانهم من ثمود ، ومن بعدهم إخوانهم العمالقة ، ومن بعدهم إخوانهم من حمير أيضا ، ومن بعدهم إخوانهم التبابعة من حمير أيضا ، ومن بعدهم الأذواء كذلك ، ثم جاءت الدولة لمضر ، وكذا الفرس لما انقرض أمر الكينية ملك من بعدهم الساسانية ، حتى تأذن الله بانقراضهم أجمع بالإسلام ، وكذا اليونانيون انقرض أمرهم ، وانتقل إلى إخوانهم من الروم ، وكذا البربر بالمغرب لما انقرض أمر مغراوة وكتامة الملوك الأول منهم ، رجع إلى صنهاجة ، ثم الملثمين من بعدهم ، ثم من بقى من شعوب زناتة وهكذا ، سنة الله فى عباده وخلقه.

وأصل هذا كله إنما يكون بالعصبية وهى متفاوتة فى الأجيال ، والملك يخلقه(٢) الترف ويذهبه ، كما سنذكره بعد . فإذا انقرضت دولة فإنما يتناول الأمر منهم من له عصبية مشاركة لعصبيتهم التى عرف لها التسليم والانقياد ، وأونس منها الغلب لجميع العصبيات ، وذلك إنما يوجد فى النسب القريب منهم لأن تفاوت العصبية بحسب ما قرب من ذلك النسب التى هى فيه أو بعد ، حتى إذا وقع فى العالم تبديل كبير من تحويل ملة ، أو ذهاب عمران ، أو ما شاء

(١) تقهرهم وتخضعهم .

(١) الآية رقم « ٣٥ » من سورة الزخرف .

(٢) يبلى جديده ويفنيه .

الله مِنْ قُدْرَتِهِ ، فحينئذ يَخْرُجُ عَنْ ذَلِكَ الجيلِ إلى الْجيلِ الذى يَأْذَنُ اللهُ بِقِيامِهِ بِذَلِكَ التَّبْديل. كَما وقَعَ لِمُضَرَ حينَ غَلَبُوا عَلَى الأُمَمِ وَالدُّوَلِ ، وَأَخذُوا الأَمْرَ مِنْ أَيْدِى أَهْلِ الْعَالَمِ ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا مَكْبُوحِينَ عَنْهُ أَحْقابًا .

الفصل الثالث والعشرون

فى أن المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب فى شعاره ،وزيه ، ونحلته ،وسائر أحواله وعوائده .

وَالسَّبَبُ فى ذَلِكَ : أَنَّ النَّفْسَ أَبدًا تَعْتَقِدُ الْكَمالَ فى مَنْ غَلَبَهَا وَانْقادَتْ إِلَيْهِ . إمَّا لِنَظَرِهِ بِالْكَمالِ بِمَا وَقَر عِنْدَها مِنْ تَعْظِيمِهِ ، أَوْلِمَا تُغالِطُ بِهِ مِنْ أَنَّ انْقِيادَها لَيْسَ لِغَلَبٍ طَبِيعِىٍّ ، إنَّما هُوَ لِكَمالِ الغالِبِ ، فَإذَاغالَطَتْ بِذَلِكَ وَاتَّصَلَ لَهاحصل اعْتِقادًا فانْتَحَلَتْ جَميع مَذَاهِبِ الْغَالِبِ ، وَتَشَبَّهَتْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الاقْتِداءُ . أَوْ لِمَا تَراهُ وَاللهُ أَعْلَمُ ، مِنْ أَنَّ غَلَبَ الْغالِبِ لَيْسَ بِعَصَبِيَّةٍ وَلَا قُوَّةِ بَأْسٍ ، وَإنَّما هُوَ بِمَا انْتَحَلَهُ مِنَ الْعَوائِدِ وَالْمَذاهِبِ تُغالِطُ أَيْضًا بِذَلِكَ عَنِ الْغَلَبِ ، وَهَذَا رَاجِعٌ لِلأَوَّلِ ، وَلِذَلِكَ تَرَى الْمَغْلُوبَ يَتَشَبَّهُ أَبَدًا بِالْغَالِبِ فى مَلْبَسِهِ وَمَرْكَبِهِ وَسِلاحِهِ فى اتِّخاذِهَا وَأَشْكالِهَا ، بَلْ وَفى سائِرِ أَحْوالِهِ .

وَانْظُرْ ذَلِكَ فى الأَبْناءِ مع آبائِهِمْ كَيْفَ تَجِدُهُمْ مُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ دَائِمًا ، وَما ذَلِكَ إلَّا لاعْتِقادِهِمِ الْكَمالَ فِيهِمْ . وَانْظُرْ إلَى كُلِّ قُطْرٍ مِنَ الأَقْطَارِ ، كَيْفَ يَغْلِبُ عَلَى أَهْلِهِ زِيُّ الْحامِيَةِ وَجُنْدُ السُّلْطَانِ فى الأَكْثَرِ ، لأَنَّهُمُ الْغالِبُونَ لَهُمْ ، حَتَّى إنَّهُ إذَا كَانَتْ أُمَّةٌ تُجاوِرُ أُخْرَى وَلَهَا الْغَلَبُ عليْهَا فَيَسْرِى إِلَيْهِمْ مِنْ هَذَا التَّشَبُّهِ والاقْتِداءِ حظٌّ كَبِيرٌ ، كَمَا هُوَ فى الأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ مع أُمَمِ الْجَلالِقَةِ ، فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ يَتَشَبَّهُونَ بِهِمْ فى مَلابِسِهِمْ وَشاراتِهِم وَالْكَثِيرِ مِنْ عَوائِدِهِمْ وَأَحْوالِهِمْ حَتَّى فى رَسْمِ التَّماثِيلِ فى الْجُدْرانِ وَالْمَصانِعِ وَالْبُيُوتِ ، حَتَّى لَقَدْ يَسْتَشْعِرُ مِنْ ذَلِكَ النَّاظِرُ بِعَيْنِ الْحِكْمَةِ أَنَّهُ مِنْ عَلاماتِ الاسْتِيلاءِ . وَالأَمْرُ للهِ .

وَتَأَمَّلْ فى هَذَا سِرَّ قَوْلِهِمْ ،الْعَامَّةُ عَلَى دِينِ الْمَلِكِ ، فَإِنَّهُ مِنْ بَابِهِ ، إذِ الْمَلِكُ غَالِبٌ لِمَنْ تَحْتَ يَدِهِ ، وَالرَّعِيَّةُ مُقْتَدُونَ بِهِ لاعْتِقادِ الْكَمالِ فِيهِ اعْتِقَادَ الأَبْناءِ بِآبائِهِمْ ، وَالْمُتَعَلِّمِينَ بِمُعَلِّمِيهِم وَاللهُ الْحَكِيمُ ، وَبِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالَى التَّوْفِيقُ .

الفصل الرابع والعشرون

فى أن الأُمة إذا غُلبت ، وصارت فى مُلْكِ غيرها أسرع إليها الفناءُ .

وَالسَّبَبُ فى ذَلِكَ وَاللهُ أَعْلَمُ : مَا يَحْصُلُ فى النُّفُوسِ مِنَ التَّكاسُلِ إذَا مُلِكَ أَمْرُهَا عَلَيْهَاوصارَتْ بِالاسْتِعْبادِ آلَةً لِسِواها ،وَعَالَةً عَلَيْهِمْ ، فَيَقْصُرُ الأَمَلُ وَيَضْعُفُ التَّناسُلُ ؛ وَالاعْتِمارُ، إنَّما هُوَ عَنْ جِدَّةِ الأَمَلِ وَمَا يَحْدُثُ عَنْهُ مِنَ النَّشاطِ فى الْقُوَى الْحَيوانِيَّةِ ؛ فإذَا ذَهَبَ الأَمَلُ بِالتَّكاسُلِ وَذَهَبَ مَايَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ الأَحْوالِ ، وَكَانَتِ الْعَصَبِيَّةُ ذَاهِبَةً بِالْغَلَبِ الْحَاصِلِ عَلَيْهِمْ ، تَنَاقَصَ عُمْرانُهُمْ ،وتَلاشَتْ مَكاسِبُهُمْ وَمَساعِيهِمْ ، وَعَجَزُوا عَنِ الْمُدَافَعَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِمَا خَضَدَ الْغَلَبُ مِنْ شَوْكَتِهِمْ ،فَأَصْبَحُوا مُغَلَّبِينَ لِكُلِّ مُتَغَلِّبٍ ، وَطُعْمَةً لِكُلِّ آكِلٍ ، وَسَواءٌ كَانُوا حَصَلُوا عَلَى غَايَتِهِمْ مِنَ الْمُلْكِ أَمْ لَمْ يَحْصُلُوا .

وفيه والله أعلم سر آخر . وهو أن الإنسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذى خلق له . والرئيس إذا غلب على رياسته وكبح عن غاية عزه ، تكاسل حتى عن شبع بطنه ، ورى كبده . وهذا موجود فى أخلاق الأناسى . ولقد يقال مثله فى الحيوانات المفترسة ، وإنها لا تسافد إذا كانت فى ملكة الآدميين . فلا يزال هذا القبيل المملوك عليه أمره فى تناقص واضمحلال ، إلى أن يأخذهم الفناء ، والبقاء لله وحده .

واعتبر ذلك فى أمة الفرس كيف كانت قد ملأت العالم كثرة ، ولما فنيت حاميتهم فى أيام العرب بقى منهم كثير ، وأكثر من الكثير . يقال إن سعدا أحصى ماوراء المدائن فكانوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألفا ، منهم سبعة وثلاثون ألفا رب بيت . ولما تحصلوا فى ملكة العرب وقبضة القهر ، لم يكن بقاؤهم إلا قليلا ، ودثروا كأن لم يكونوا . ولا تحسبن أن ذلك لظلم نزل بهم أو عدوان شملهم ، فملكة الإسلام فى العدل ما علمت ، وإنما هى طبيعة فى الإنسان إذا غلب على أمره وصار آلة لغيره . ولهذا إنما تذعن للرق فى الغالب أمم السودان لنقص الإنسانية فيهم وقربهم من عرض الحيوانات العجم كما قلناه ، أو من يرجو بانتظامه فى ربقة الرق حصول رتبة ، أو إفادة مال أو عز كما يقع لمماليك الترك بالمشرق والعلوج [١] من الجلالقة والإفرنجة . فإن العادة جارية باستخلاص الدولة لهم ، فلا يأنفون من الرق لما يأملونه من الجاه والرتبة باصطفاء الدولة . والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

(١) العجم .

الفصل الخامس والعشرون

فى أن العرب [١] لا يتغلبون إلا على البسائط

وذلك أنهم بطبيعة التوحش الذى فيهم أهل انتهاب وعيث ، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ، ويفرون إلى منتجعهم بالقفر ، ولا يذهبون إلى المزاحفة والمحاربة إلا إذا دفعوا بذلك عن أنفسهم . فكل معقل أو مستصعب عليهم فهم تاركوه إلى ما يسهل عنه ولا يعرضون له . والقبائل الممتنعة عليهم بأوعار الجبال بمنجاة من عيثهم وفسادهم ، لأنهم لا يتسنمون إليهم الهضاب ولا يركبون الصعاب ولا يحاولون الخطر . وأما البسائط فمتى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة فهى نهب وطعمة لآكلهم يرددون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم ، إلى أن يصبح أهلها مغلبين لهم ثم يتعاورونهم باختلاف الأيدى ، وانحراف السياسة ، إلى أن ينقرض عمرانهم . والله قادر على خلقه وهو الواحد القهار لا رب غيره .

الفصل السادس والعشرون

فى أن العرب [٢] إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب .

والسبب فى ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار لهم خلقا وجبلة ، وكان عندهم ملذوذا لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة . وهذه

(٢،١) كلمة العرب هنا وفى الفصول التالية مراد بها الأعراب الرحل ساكنو البادية وأرباب الخيام .

الطَّبِيعَةُ مُنَافِيَةٌ لِلْعُمْرَانِ ، وَمُنَاقِضَةٌ لَهُ . فَغَايَةُ الأَحْوَالِ الْعَادِيَةِ كُلِّهَا عِنْدَهُمُ الرِّحْلَةُ وَالتَّغَلُّبُ ، وَذَلِكَ مُنَاقِضٌ لِلسُّكُونِ الَّذِى بِهِ الْعُمْرَانُ وَمُنَافٍ لَهُ . فَالْحَجَرُ مَثَلاً إِنَّمَا حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ لِنَصْبِهِ أَثَافِىَّ(١) الْقِدْرِ ، فَيَنْقُلُونَهُ مِنَ الْمَبَانِى وَيُخَرِّبُونَهَا عَلَيْهِ وَيُعِدُّونَهُ لِذَلِكَ . وَالْخَشَبُ أَيْضًا إِنَّمَا حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ لِيُعَمِّرُوا بِهِ خِيَامَهُمْ وَيَتَّخِذُوا الأَوْتَادَ مِنْهُ لِبُيُوتِهِمْ فَيُخَرِّبُونَ السَّقْفَ عَلَيْهِ . لِذَلِكَ فَصَارَتْ طَبِيعَةُ وُجُودِهِمْ مُنَافِيَةً لِلْبِنَاءِ الَّذِى هُوَ أَصْلُ الْعُمْرَانِ . هٰذَا فِى حَالِهِمْ عَلَى الْعُمُومِ .

وَأَيْضًا فَطَبِيعَتُهُمْ انْتِهَابُ مَا فِى أَيْدِى النَّاسِ ، وَأَنَّ رِزْقَهُمْ فِى ظِلَالِ رِمَاحِهِمْ ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ فِى أَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ حَدٌّ يَنْتَهُونَ إِلَيْهِ بَلْ كُلَّمَا امْتَدَّتْ أَعْيُنُهُمْ إِلَى مَالٍ أَوْ مَتَاعٍ ، أَوْ مَاعُونٍ انْتَهَبُوهُ . فَإِذَا تَمَّ اقْتِدَارُهُمْ عَلَى ذَلِكَ بِالتَّغَلُّبِ وَالْمُلْكِ بَطَلَتِ السِّيَاسَةُ فِى حِفْظِ أَمْوَالِ النَّاسِ ، وَخَرِبَ الْعُمْرَانُ .

وَأَيْضًا فَلِأَنَّهُمْ يُتْلِفُونَ عَلَى أَهْلِ الأَعْمَالِ مِنَ الصَّنَائِعِ وَالْحِرَفِ أَعْمَالَهُمْ لَا يَرَوْنَ لَهَا قِيمَةً وَلَا قِسْطًا مِنَ الأَجْرِ وَالثَّمَنِ . وَالأَعْمَالُ كَمَا سَنَذْكُرُهُ ، هِىَ أَصْلُ الْمَكَاسِبِ وَحَقِيقَتُهَا ؛ وَإِذَا فَسَدَتِ الأَعْمَالُ وَصَارَتْ مَجَّانًا ضَعُفَتِ الآمَالُ فِى الْمَكَاسِبِ ، وَانْقَبَضَتِ الأَيْدِى عَنِ الْعَمَلِ وَابْذَعَرَّ(٢) السَّاكِنُ وَفَسَدَ الْعُمْرَانُ .

وَأَيْضًا فَإِنَّهُمْ لَيْسَتْ لَهُمْ عِنَايَةٌ بِالأَحْكَامِ وَزَجْرِ النَّاسِ عَنِ الْمَفَاسِدِ ، وَدِفَاعِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ . إِنَّمَا هَمُّهُمْ مَا يَأْخُذُونَهُ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ نَهْبًا أَوْ غَرَامَةً . فَإِذَا تَوَصَّلُوا إِلَى ذَلِكَ وَحَصَلُوا عَلَيْهِ أَعْرَضُوا عَمَّا بَعْدَهُ مِنْ تَسْدِيدِ أَحْوَالِهِمْ وَالنَّظَرِ فِى مَصَالِحِهِمْ ، وَقَهْرِ بَعْضِهِمْ عَنْ أَغْرَاضِ الْمَفَاسِدِ . رُبَّمَا فَرَضُوا الْعُقُوبَاتِ فِى الأَمْوَالِ حِرْصًا عَلَى تَحْصِيلِ الْفَائِدَةِ وَالْجِبَايَةِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْهَا ، كَمَا هُوَ شَأْنُهُمْ ، وَذَلِكَ لَيْسَ بِمُغْنٍ فِى دَفْعِ الْمَفَاسِدِ وَزَجْرِ الْمُتَعَرِّضِ لَهَا ، بَلْ يَكُونُ ذَلِكَ زَائِدًا فِيهَا لِاسْتِسْهَالِ الْغُرْمِ فِى جَانِبِ حُصُولِ الْغَرَضِ فَتَبْقَى الرَّعَايَا فِى مَلَكَتِهِمْ كَأَنَّهَا فَوْضَى(١) دُونَ حُكْمٍ ، وَالْفَوْضَى مَهْلَكَةٌ لِلْبَشَرِ ، مَفْسَدَةٌ لِلْعُمْرَانِ بِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَنَّ وُجُودَ الْمُلْكِ خَاصَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ لَا يَسْتَقِيمُ وُجُودُهُمْ وَاجْتِمَاعُهُمْ إِلَّا بِهَا ، وَتَقَدَّمَ ذَلِكَ أَوَّلَ الْفَصْلِ .

وَأَيْضًا فَهُمْ مُتَنَافِسُونَ فِى الرِّيَاسَةِ ؛ وَقَلَّ أَنْ يُسَلِّمَ أَحَدٌ مِنْهُمُ الأَمْرَ لِغَيْرِهِ ، وَلَوْ كَانَ أَبَاهُ أَوْ أَخَاهُ أَوْ كَبِيرَ عَشِيرَتِهِ إِلَّا فِى الأَقَلِّ ، وَعَلَى كُرْهٍ مِنْ أَجْلِ الْحَيَاءِ . فَيَتَعَدَّدُ الْحُكَّامُ مِنْهُمْ وَالأُمَرَاءُ ، وَتَخْتَلِفُ الأَيْدِى عَلَى الرَّعِيَّةِ فِى الْجِبَايَةِ وَالأَحْكَامِ ، فَيَفْسُدُ الْعُمْرَانُ وَيَنْتَقِضُ . قَالَ الأَعْرَابِىُّ الْوَافِدُ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ ، لَمَّا سَأَلَهُ عَنِ الْحَجَّاجِ ، وَأَرَادَ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ عِنْدَهُ بِحُسْنِ السِّيَاسَةِ وَالْعُمْرَانِ فَقَالَ : « تَرَكْتُهُ يَظْلِمُ وَحْدَهُ » .

وَانْظُرْ إِلَى مَا مَلَكُوهُ وَتَغَلَّبُوا عَلَيْهِ مِنَ الأَوْطَانِ

(١) الأثافى : الأحجار توضع تحت القدر وتحمى بينها النيران .

(٢) فر وتشتت .

(١) ومما يعزى إلى الإمام على رضى الله عنه : لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا .

منْ لَدُنْ الْخَلِيقَةِ ، كَيْفَ تَقَوَّضَ عُمْرَانُهُ ، وَأَقْفَرَ ساكِنُهُ ، وبُدِّلَتِ الأرْضُ فِيهِ غيرَ الأرْضِ . فَالْيَمَنُ قَرَارُهُمْ خَرَابٌ ، إلا قَليلاً مِنَ الأمْصَارِ . وعِرَاقُ الْعَرَبِ كَذَلِكَ قَدْ خَرِبَ عُمْرَانُهُ الَّذِى كَانَ لِلْفُرْسِ أجْمَعَ . والشَّامُ لِهذَا الْعَهْدِ كَذَلِكَ . وأَفْرِيقِيَّةُ والْمَغْرِبُ لما جَازَ إلَيْهَا بنو هلال وبَنُو سُلَيم مُنْذُ أَوَّلِ الْمائَةِ الْخَامِسَةِ ، وتَمَرَّسُوا بِهَا لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بهَا وعادت بَسَائِطُهُ خَرَابًا كلهَا ، بَعْدَ أنْ كَانَ مَا بَيْنَ السودانِ والْبَحْرِ الرومى كلهِ عُمْرَانًا . تَشْهَدُ بِذَلِكَ آثَارُ الْعُمْرَانِ فيهِ مِنَ الْمَعَالِمِ ، وتَمَاثِيلُ الْبِنَاءِ وشَوَاهِدُ القُرَى والْمَدَرِ . واللهُ يرِثُ الأرْضَ ومَنْ عَلَيْهَا وهُوَ خيرُ الْوَارِثِينَ .

الفصل السابع والعشرون

فى أن العرب لايحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أوولاية أوأثر عظيم من الدين على الجملة

والسَّبَبُ فى ذَلِكَ أنهمْ لِخلقِ التَّوَحُّشِ الَّذى فيهمِ أَصْعَبُ الأمَمِ انقِيَادًا بَعْضِهِمْ لبَعْضٍ لِلْغِلْظَةِ والأنَفَةِ ، وبُعْدِ الْهِمَّةِ والْمُنَافَسَةِ فى الرِّئَاسَةِ ، فقَلَّما تَجْتَمِعُ أهْوَاؤهُم . فإذَا كَانَ الدينُ بِالنُّبُوَّةِ أوِ الوِلايَةِ كَانَ الْوَازِعُ لَهمْ مِنْ أنْفسِهِمْ وذَهبَ خلقُ الْكِبْرِ والْمُنَافَسَةِ مِنهُمْ ، فَسَهلَ انقِيَادُهُمْ واجْتِمَاعُهمْ ، وذَلِكَ بِمَا يَشْمَلُهُمْ مِنَ الدينِ الْمُذْهِبِ لِلْغِلْظَةِ والأنَفَةِ ، الْوَازِعِ عَنِ التَّحَاسُدِ والتَّنَافُسِ . فإذَا كَانَ فِيهِمُ النَّبِىُّ أوِ الْوَلِىُّ الَّذى يَبْعَثُهُمْ عَلَى الْقِيامِ بِأمرِ اللهِ ، ويُذْهِبُ عَنْهمْ مَذْمُومَاتِ الأَخْلاقِ ، ويَأْخُذُهُمْ بِمَحْمُودِهَا ، ويُؤَلِّفُ كَلِمَتَهُمْ لإظْهَارِ الْحقِّ تَمَّ اجْتِماعُهمْ ، وحصل لهمْ التغَلُّبُ والْمُلْكُ . وهمْ مَعَ ذَلِكَ أَسْرَعُ النَّاسِ قبُولاً لِلْحقِّ والْهُدَى لِسَلامَةِ طِبَاعِهِمْ مِنْ عِوَجِ الْمَلَكَاتِ وبَرَاءتِها مِنْ ذَمِيمِ الأخلاقِ ، إلا مَاكَانَ مِنْ خلقِ التَّوَحُّشِ الْقَرِيبِ الْمُعَانَاةِ الْمُتَهَيِّءِ لِقَبُولِ الْخيْرِ بِبقائِهِ عَلَى الْفِطْرَةِ الأُولَى ، وبُعْدِهِ عَمَّا يَنْطَبِعُ فى النُّفُوسِ مِنْ قَبِيحِ الْعَوَائِدِ وسُوءِ الْمَلَكَاتِ ، فَإنَّ كلَّ مولُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، كمَا وَرَدَ فى الْحَدِيثِ وقَدْ تَقَدَّمَ .

الفصل الثامن والعشرون

فى أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك

والسَّبَبُ فى ذَلِكَ أَنَّهمْ أَكْثرُ بَدَاوَةً مِنْ سائِرِ الأُمَمِ ، وأَبْعَدُ مجَالاً فى الْقَفْرِ ، وأغْنَى عَنْ حاجَاتِ التُّلُولِ وحُبُوبِها ، لاعْتِيَادِهِمِ الشَّظَفَ وخُشُونَةَ الْعَيْشِ ، فاسْتَغْنَوا عَنْ غَيْرِهِمْ فَصَعُبَ انقِيادُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ ، لإِيلافِهِمْ ذَلِكَ ولِلتَّوَحُّشِ . ورَئِيسُهمْ مُحْتَاجٌ إلَيْهِمْ غالبًا لِلْعَصَبِيَّةِ الَّتى بِهَا الْمُدَافَعَةُ ، فكَانَ مُضْطَرًّا إلَى إحْسَانِ مَلَكَتِهِمْ وتَرْكِ مُرَاغَمَتِهِمْ لِئَلاَّ يَخْتَلَّ عَلَيْهِ شَأْنُ عَصَبِيَّتِهِ فَيَكُونَ فيهَا هَلاكُهُ وهَلاكُهُمْ . وسِيَاسَةُ الْمُلْكِ والسُّلْطَانِ تَقْتَضِى أنْ يكون السَّائِسُ وازعًا بالقَهرِ وإلا لَمْ تَسْتَقِمْ سِيَاسَتُهُ .

وأَيْضًا فإنَّ مِنْ طَبِيعَتِهِمْ كمَا قدَّمْنَاهُ(١) أَخْذَ مَا فى أيْدى النَّاسِ خَاصَّةً ، والتَّجَافى عَمَّا سِوى ذَلِكَ مِنَ الأَحْكَامِ بَيْنَهمْ ، ودِفَاعِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ ؛ فَإذَا مَلَكُوا أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ جَعَلُوا غَايَةَ مُلْكِهِم الانْتِفَاعَ بِأَخْذِ مَا فى أَيْدِيهِمْ ، وتَرَكُوا مَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ

(١) فى الفصل الخامس والعشرين من هذا الباب .

الأحكام بينهم. وربما جعلوا العقوبات على المفاسد فى الأموال حرصا على تكثير الجبايات، وتحصيل الفوائد فلايكون ذلك وازعا، وربما يكون باعثا بحسب الأغراض الباعثة على المفاسد، واستهانة ما يعطى من ماله فى جانب غرضه، فتنمو المفاسد بذلك ويقع تخريب العمران، فتبقى تلك الأمة كأنها فوضى، مستطيلة أيدى بعضها على بعض، فلا يستقيم لها عمران، وتخرب سريعا شأن الفوضى كما قدمناه، فبعدت طباع العرب لذلك كله عن سياسة الملك.

وإنما يصيرون إليها بعد انقلاب طباعهم، وتبدلها بصبغة دينية تمحو ذلك منهم، وتجعل الوازع لهم من أنفسهم، وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض، كما ذكرناه، واعتبر ذلك بدولتهم فى الملة لما شيد لهم الدين أمر السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهرا وباطنا، وتتابع فيها الخلفاء، عظم حينئذ ملكهم وقوى سلطانهم. وكان رستم إذا رأى المسلمين يجتمعون للصلاة يقول: «أكل عمر كبدى، يعلم الكلاب الآداب».

ثم إنهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة أجيال نبذوا الدين فنسوا السياسة، ورجعوا إلى قفرهم وجهلوا شأن عصبيتهم مع أهل الدولة ببعدهم عن الانقياد وإعطاء النصفة، فتوحشوا كما كانوا ولم يبق لهم من اسم الملك إلا أنهم من جنس الخلفاء ومن جيلهم. ولما ذهب أمر الخلافة وامحى رسمها، انقطع الأمر جملة من أيديهم، وغلب عليهم العجم دونهم، وأقاموا فى بادية قفارهم لايعرفون الملك ولا سياسته، بل قد يجهل الكثير منهم أنهم قد كان لهم ملك فى القديم. وما كان فى القديم لأحد من الأمم فى الخليقة ما كان لأجيالهم من الملك. ودول عاد وثمود والعمالقة وحمير والتبابعة شاهدة بذلك، ثم دولة مضر فى الإسلام؛ بنى أمية وبنى العباس. لكن بعد عهدهم بالسياسة لما نسوا الدين فرجعوا إلى أصلهم من البداوة. وقد يحصل لهم فى بعض الأحيان غلب على الدول المستضعفة، كما فى المغرب لهذا العهد، فلا يكون مآله وغايته إلا تخريب ما يستولون عليه من العمران كما قدمناه «والله يؤتى ملكه من يشاء» (١).

الفصل التاسع والعشرون

فى أن البوادى من القبائل والعصائب مغلوبون لأهل الأمصار.

قد تقدم لنا أن عمران البادية ناقص عن عمران الحواضر والأمصار؛ لأن الأمور الضرورية فى العمران ليس كلها موجودة لأهل البدو، وإنما توجد لديهم فى مواطنهم أمور الفلح، وموادها معدومة ومعظمها الصنائع، فلا توجد لديهم بالكلية من نجار وخياط، وحداد، وأمثال ذلك مما يقيم لهم ضروريات معاشهم فى الفلح وغيره. وكذا الدنانير والدراهم مفقودة لديهم، وإنما بأيديهم أعواضها من مغل الزراعة، وأعيان الحيوان أو فضلاته ألبانا وأوبارا وأشعارا وإهابا مما يحتاج إليه أهل

(١) الآية رقم: ١٤٧ من سورة البقرة.

الْأَمْصَارِ فَيُعَوِّضُونَهُمْ عَنْهُ بِالدَّنَانِيرِ وَالدَّرَاهِمِ. إِلَّا أَنَّ حَاجَتَهُمْ إِلَى الْأَمْصَارِ فِى الضَّرُورِىِّ، وَحَاجَةُ أَهْلِ الْأَمْصَارِ إِلَيْهِمْ فِى الْحَاجِىِّ وَالْكَمَالِىِّ. فَهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَى الْأَمْصَارِ بِطَبِيعَةِ وُجُودِهِمْ.

فَمَا دَامُوا فِى الْبَادِيَةِ، وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ مُلْكٌ وَلَا اسْتِيلَاءٌ عَلَى الْأَمْصَارِ، فَهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَى أَهْلِهَا وَيَتَصَرَّفُونَ فِى مَصَالِحِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ مَتَى دَعَوْهُمْ إِلَى ذٰلِكَ وَطَالَبُوهُمْ بِهِ. وَإِنْ كَانَ فِى الْمِصْرِ مَلِكٌ، كَانَ خُضُوعُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ لِغَلَبِ الْمَلِكِ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِى الْمِصْرِ مَلِكٌ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ رِيَاسَةٍ وَنَوْعِ اسْتِبْدَادٍ مِنْ بَعْضِ أَهْلِهِ عَلَى الْبَاقِينَ، وَإِلَّا انْتَقَضَ عُمْرَانُهُ. وَذٰلِكَ الرَّئِيسُ يَحْمِلُهُمْ عَلَى طَاعَتِهِ وَالسَّعْىِ فِى مَصَالِحِهِ، إِمَّا طَوْعًا بِبَذْلِ الْمَالِ لَهُمْ، ثُمَّ يَبْذُلُ لَهُمْ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ فِى مِصْرِهِ، فَيَسْتَقِيمُ عُمْرَانُهُمْ، وَإِمَّا كَرْهًا إِنْ تَمَّتْ قُدْرَتُهُ عَلَى ذٰلِكَ، وَلَوْ بِالتَّفْرِيقِ بَيْنَهُمْ حَتَّى يَحْصُلَ لَهُ جَانِبٌ مِنْهُمْ يُغَالِبُ بِهِ الْبَاقِينَ فَيُضْطَرُّ الْبَاقُونَ إِلَى طَاعَتِهِ بِمَا يَتَوَقَّعُونَ لِذٰلِكَ مِنْ فَسَادِ عُمْرَانِهِمْ، وَرُبَّمَا لَا يَسَعُهُمْ مُفَارَقَةُ تِلْكَ النَّوَاحِى إِلَى جِهَاتٍ أُخْرَى، لِأَنَّ كُلَّ الْجِهَاتِ مَعْمُورٌ بِالْبَدْوِ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَيْهَا وَمَنَعُوهَا مِنْ غَيْرِهَا، فَلَا يَجِدُ هٰؤُلَاءِ مَلْجَأً إِلَّا طَاعَةَ الْمِصْرِ. فَهُمْ بِالضَّرُورَةِ مَغْلُوبُونَ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ. وَاللّٰهُ قَاهِرٌ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْقَهَّارُ.

الباب الثالث

من الكتاب الأول (١)

فى الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض فى ذلك كله من الأحوال وفيه قواعد ومتممات

الفصل الأول

فى أن الملك والدولة العامة إنما يحصلان بالقبيل والعصبية .

وذلك أنا قررنا فى الفصل الأول أن المغالبة والممانعة إنما تكون بالعصبية ، لما فيها من النعرة والتذامر واستماتة كل واحد منهم دون صاحبه . ثم إن الملك منصب شريف ملذوذ ، يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية ، والملاذ النفسانية ، فيقع فيه التنافس غالبا ، وقل أن يسلمه أحد لصاحبه إلا إذا غلب عليه ، فتقع المنازعة وتفضى إلى الحرب والقتال والمغالبة ، وشىء منها لا يقع إلا بالعصبية كما ذكرناه آنفا .

وهذا الأمر بعيد عن أفهام الجمهور بالجملة ، ومتناسون له لأنهم نسوا عهد تمهيد الدولة منذ أولها ، وطال أمد مرباهم فى الحضارة وتعاقبهم فيها جيلا بعد جيل ، فلا يعرفون ما فعل الله أول الدولة ، إنما يدركون أصحاب الدولة وقد استحكمت صبغتهم ، ووقع التسليم لهم ، والاستغناء عن العصبية فى تمهيد أمرهم ، ولا يعرفون كيف كان الأمر من أوله ، وما لقى أولهم من المتاعب دونه ، وخصوصا أهل الأندلس فى نسيان هذه العصبية وأثرها لطول الأمد واستغنائهم فى الغلب عن قوة العصبية ، بما تلاشى وطنهم (١) وخلا من العصائب . والله قادر على ما يشاء ، وهو بكل شىء عليم ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الفصل الثانى

فى أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغنى عن العصبية .

والسبب فى ذلك : أن الدول العامة فى أولها ، يصعب على النفوس الانقياد لها إلا بقوة قوية من الغلب للغرابة وأن الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه ، فإذا استقرت الرئاسة فى أهل النصاب المخصوص بالملك فى الدولة وتوارثوه واحدا بعد آخر فى أعقاب كثيرين ودول متعاقبة ، نسيت النفوس شأن الأولية ، واستحكمت لأهل ذلك النصاب صبغة الرئاسة ، ورسخ فى العقائد دين الانقياد لهم والتسليم ، وقاتل الناس معهم على أمرهم قتالهم على العقائد الإيمانية . فلم يحتاجوا حينئذ فى أمرهم إلى كبير عصابة . بل كأن طاعتها كتاب من الله لا يبدل ، ولا يعلم خلافه .

ولأمر ما يوضع الكلام فى الإمامة آخر الكلام على العقائد الإيمانية ، كأنه من جملة عقودها . ويكون استظهارهم حينئذ على سلطانهم ودولتهم المخصوصة إما بالموالى والمصطنعين الذين نشأوا فى ظل العصبية وغيرها ، وإما بالعصائب

(١) آثرنا أن نطلق على الفصل الرئيسى اسم «الباب» تمييزا له عن الفصول الفرعية .

(١) أى لتلاشى وطنهم .

الْخَارِجِينَ عَنْ نَسَبِهَا الدَّاخِلِينَ فِى وِلَايَتِهَا .

وَمِثْلُ هَذَا وَقَعَ لِبَنِى الْعَبَّاسِ . فَإِنَّ عَصَبِيَّةَ الْعَرَبِ كَانَتْ فَسَدَتْ لِعَهْدِ دَوْلَةِ الْمُعْتَصِمِ وَابْنِهِ الْوَاثِقِ ، وَاسْتِظْهَارُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ بِالْمَوَالِى مِنَ الْعَجَمِ وَالتُّرْكِ وَالدَّيْلَمِ وَالسَّلْجُوقِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ . ثُمَّ تَغَلَّبَ الْعَجَمُ الْأَوْلِيَاءُ عَلَى النَّوَاحِى ، وَتَقَلَّصَ ظِلُّ الدَّوْلَةِ فَلَمْ تَكُنْ تَعْدُو أَعْمَالَ بَغْدَادَ حَتَّى زَحَفَ إِلَيْهَا الدَّيْلَمُ وَمَلَكُوهَا ، وَصَارَ الْخَلَائِقُ فِى حُكْمِهِمْ . ثُمَّ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ ، وَمَلَكَ السَّلْجُوقِيَّةُ مِنْ بَعْدِهِمْ فَصَارُوا فِى حُكْمِهِمْ . ثُمَّ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ ، وَزَحَفَ آخِرَ التَّتَارِ فَقَتَلُوا الْخَلِيفَةَ ، وَمَحَوْا رَسْمَ الدَّوْلَةِ .

وَكَذَا صِنْهَاجَةُ بِالْمَغْرِبِ ، فَسَدَتْ عَصَبِيَّتُهُمْ مُنْذُ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ أَوْ مَا قَبْلَهَا ، وَاسْتَمَرَّتْ لَهُمُ الدَّوْلَةُ مُتَقَلِّصَةَ الظِّلِّ بِالْمَهْدِيَّةِ وَبِجَايَةَ وَالْقَلْعَةِ وَسَائِرِ ثُغُورِ أَفْرِيقِيَّةَ . وَرُبَّمَا انْتَزَى (١) بِتِلْكَ الثُّغُورِ مَنْ نَازَعَهُمُ الْمُلْكَ وَاعْتَصَمَ فِيهَا . وَالسُّلْطَانُ وَالْمُلْكُ مَعَ ذَلِكَ مُسَلَّمٌ لَهُمْ ، حَتَّى تَأَذَّنَ اللهُ بِانْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ . وَجَاءَ الْمُوَحِّدُونَ بِقُوَّةٍ قَوِيَّةٍ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ فِى الْمَصَامِدَةِ فَمَحَوْا آثَارَهُمْ .

وَكَذَا دَوْلَةُ بَنِى أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ ، لَمَّا فَسَدَتْ عَصَبِيَّتُهَا مِنَ الْعَرَبِ اسْتَوْلَى مُلُوكُ الطَّوَائِفِ عَلَى أَمْرِهَا ، وَاقْتَسَمُوا خِطَّتَهَا وَتَنَافَسُوا بَيْنَهُمْ ، وَتَوَزَّعُوا مَمَالِكَ الدَّوْلَةِ ، وَانْتَزَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى مَا كَانَ فِى وِلَايَتِهِ وَشَمَخَ بِأَنْفِهِ . وَبَلَغَهُمْ شَأْنُ الْعَجَمِ مَعَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، فَتَلَقَّبُوا بِأَلْقَابِ الْمُلْكِ . وَلَبِسُوا شَارَتَهُ وَأَمِنُوا مِمَّنْ يَنْقُضُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُغَيِّرُهُ ، لِأَنَّ الْأَنْدَلُسَ لَيْسَ بِدَارِ عَصَائِبَ وَلَا قَبَائِلَ ، كَمَا سَنَذْكُرُهُ وَاسْتَمَرَّ لَهُمْ ذَلِكَ كَمَا قَالَ ابْنُ شَرَفٍ :

مِمَّا يُزَهِّدُنِى فِى أَرْضِ أَنْدَلُسٍ
أَسْمَاءُ مُعْتَصِمٍ فِيهَا وَمُعْتَضِدِ
أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِى غَيْرِ مَوْضِعِهَا
كَالْهِرِّ يَحْكِى انْتِفَاخًا صُورَةَ الْأَسَدِ

فَاسْتَظْهَرُوا عَلَى أَمْرِهِمْ بِالْمَوَالِى وَالْمُصْطَنَعِينَ ، وَالطُّرَّاءِ عَلَى الْأَنْدَلُسِ مِنْ أَهْلِ الْعُدْوَةِ مِنْ قَبَائِلِ الْبَرْبَرِ وَزَنَاتَةَ وَغَيْرِهِمِ اقْتِدَاءً بِالدَّوْلَةِ فِى آخِرِ أَمْرِهَا ، فِى الِاسْتِظْهَارِ بِهِمْ حِينَ ضَعُفَتْ عَصَبِيَّةُ الْعَرَبِ . وَاسْتَبَدَّ ابْنُ أَبِى عَامِرٍ (١) عَلَى الدَّوْلَةِ فَكَانَ لَهُمْ دُوَلٌ عَظِيمَةٌ اسْتَبَدَّتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِجَانِبٍ مِنَ الْأَنْدَلُسِ وَحَظٍّ كَبِيرٍ مِنَ الْمُلْكِ عَلَى نِسْبَةِ الدَّوْلَةِ الَّتِى اقْتَسَمُوهَا ، وَلَمْ يَزَالُوا فِى سُلْطَانِهِمْ ذَلِكَ حَتَّى جَازَ إِلَيْهِمُ الْبَحْرَ الْمُرَابِطُونَ أَهْلُ الْعَصَبِيَّةِ الْقَوِيَّةِ مِنْ لَمْتُونَةَ ، فَاسْتَبْدَلُوا بِهِمْ وَأَزَالُوهُمْ عَنْ مَرَاكِزِهِمْ ، وَمَحَوْا آثَارَهُمْ وَلَمْ يَقْتَدِرُوا عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ لِفُقْدَانِ الْعَصَبِيَّةِ لَدَيْهِمْ .

فَبِهَذِهِ الْعَصَبِيَّةِ يَكُونُ تَمْهِيدُ الدَّوْلَةِ وَحِمَايَتُهَا مِنْ أَوَّلِهَا . وَقَدْ ظَنَّ الطُّرْطُوشِىُّ أَنَّ حَامِيَةَ الدُّوَلِ بِإِطْلَاقٍ هُمُ الْجُنْدُ أَهْلُ الْعَطَاءِ الْمَفْرُوضِ مَعَ الْأَهِلَّةِ (٢) . ذَكَرَ ذَلِكَ فِى كِتَابِهِ الَّذِى سَمَّاهُ «سِرَاجَ الْمُلُوكِ» . وَكَلَامُهُ لَا يَتَنَاوَلُ تَأْسِيسَ الدُّوَلِ الْعَامَّةِ فِى أَوَّلِهَا ، وَإِنَّمَا هُوَ مَخْصُوصٌ بِالدُّوَلِ الْأَخِيرَةِ بَعْدَ التَّمْهِيدِ وَاسْتِقْرَارِ الْمُلْكِ فِى

(١) وثب .

(١) يقصد استبداده على هشام أحد ملوك الأندلس .

(٢) أى : الذين لهم رزق مرتب مع هلال كل شهر .

النِّصاب وَاسْتِحْكَام الصِّبْغَةِ لأَهْلِهِ ، فَالرَّجُلُ إِنَّمَا أَدْرَكَ الدَّوْلَةَ عِنْدَ هَرَمِهَا وَخَلَقِ جِدَّتِهَا ، وَرُجُوعِهَا إِلَى الاسْتِظْهَارِ بِالموالى وَالصَّنائع ، ثُمَّ إِلَى الْمُسْتَخْدَمِين مِنْ وَرائِهِمْ بِالأُجَرِ عَلَى الْمُدَافَعَةِ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا أَدْرَكَ دُوَلَ الطَّوَائِفِ ، وَذَلِكَ عِنْدَ اخْتِلالِ بنى أُمَيَّة وَانْقِرَاضِ عَصَبِيَّتِهَا مِنَ الْعَرَبِ ، واسْتِبْدَادِ كُلِّ أَمِيرٍ بِقُطْرِهِ. وكَانَ فى إِيَالَةِ الْمُسْتَعِينِ بْنِ هُود وَابْنِهِ الْمُظَفَّرِ أَهْلِ سرقسطة ، وَلَمْ يَكُنْ بَقِىَ لَهُمْ مِنْ أَمْرِ الْعَصَبِيَّةِ شَىْءٌ لاسْتِيلاءِ التَّرَفِ عَلَى الْعَرَبِ مُنْذُ ثَلاثِمائَة مِنَ السِّنِينَ وَهَلاكِهِمْ ، وَلَمْ يَرَ إِلَّا سُلْطَانًا مُسْتَبِدًّا بِالْمُلْكِ عَنْ عَشَائِرِهِ ، وَقَدِ اسْتَحْكَمَتْ لَهُ صِبْغَةُ الاسْتِبْدَادِ مُنْذُ عَهْدِ الدَّوْلَةِ وَبَقِيَّةِ الْعَصَبِيَّةِ فَهُوَ لِذَلِكَ لَايُنَازَعُ فِيهِ وَيَسْتَعِينُ عَلَى أَمْرِهِ بِالأجراء مِن الْمُرْتَزِقَةِ . فَأَطْلَقَ الطُّرْطُوشِىُّ الْقَوْلَ فى ذَلِكَ وَلَمْ يَتَفَطَّنْ لِكَيْفِيَّةِ الأَمْرِ مُنْذُ أَوَّلِ الدَّوْلَةِ ، وَأَنَّهُ لَايَتِمُّ إلا لأَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ . فَتَفَطَّنْ أَنْتَ لَهُ وَافْهَم سِرَّ اللهِ فِيهِ ، «وَاللهُ يُؤْتِى مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ»(١) .

الفصل الثالث

فى أنه قد يحدث لبعض أهل النصاب الملكى دولة تستغنى عن العصبية .

وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ لِعَصَبِيَّةٍ غَلَبٌ كَثِيرٌ عَلَى الأُمَمِ وَالأَجْيَالِ ، وَفى نُفُوسِ الْقَائِمِين بِأَمْرِهِ مِنْ أَهْلِ الْقَاصِيَةِ إِذْعَانٌ لَهُم وَانْقِيَادٌ ، فَإِذَا نَزَعَ إِلَيهِم هَذَا الْخَارِجُ وَانْتَبَذَ عَنْ مَقَرِّ مُلْكِهِ وَمَنْبِتِ عِزِّهِ ، اشْتَمَلُوا عَلَيْهِ وَقَامُوا بِأَمْرِهِ وَظَاهَرُوهُ عَلَى شَأْنِهِ وَعُنُوا بِتَمْهِيدِ دَوْلَتِهِ يَرْجُونَ اسْتِقْرَارَهُ فى نِصَابِهِ ، وَتَنَاوُلَهُ الأَمْرَ مِنْ يَدِ أَعْيَاصِهِ(١) وَجَزَاءَهُ لَهُمْ عَلَى مُظَاهَرَتِهِ ، بِاصْطِفَائِهِمْ لِرُتَبِ الْمُلْكِ وَخُطَطِهِ ، مِنْ وِزَارَةٍ أَوْ قِيَادَةٍ أَوْ وِلَايَةِ ثَغْرٍ ، وَلَا يَطْمَعُونَ فى مُشَارَكَتِهِ فى شَىْءٍ مِنْ سُلْطَانِهِ تَسْلِيمًا لِعَصَبِيَّتِهِ ، وَانْقِيَادًا لِمَا اسْتَحْكَمَ لَهُ وَلِقَوْمِهِ مِنْ صِبْغَةِ الْغَلَبِ فى الْعَالَمِ ، وَعَقِيدَةٍ إِيمَانِيَّةٍ اسْتَقَرَّتْ فى الإِذْعَان لَهُمْ ، فَلَو رَامُوهَا مَعَهُ أَوْ دُونَهُ لَزُلْزِلَتِ الأَرْض زِلْزَالَهَا . وَهَذَا كَمَا وَقَعَ لِلأَدَارِسَةِ بِالْمَغْرِب الأَقْصَى وَالْعُبَيْدِيِّينَ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَمِصرَ ، لَمَّا انْتَبَذَ الطَّالِبِيُّونَ مِن الْمَشْرِقِ إِلَى الْقَاصِيَةِ ، وَابتَعَدُوا عَنْ مَقَرِّ الْخِلافَةِ وَسَمَوْا إِلَى طَلَبِهَا مِن أَيْدِى بنى الْعَبَّاسِ ، بعد أن اسْتَحْكَمَتِ الصِّبْغَةُ لِبَنِى عَبْدِ مَنَاف لِبَنِى أُمَيَّةَ أَوَّلاً ، ثُمَّ لِبَنِى هَاشِمٍ مِنْ بَعْدِهِمْ ، فَخَرَجُوا بِالْقَاصِيَةِ مِنَ الْمغْرِبِ وَدَعَوا لأَنْفُسِهِم وَقَامَ بِأَمْرِهِم الْبَرَابِرَةُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى فَأَوْرَبَةُ وَمَغِيلَةُ لِلأَدَارِسَةِ. وَكُتَامَةُ وَصِنْهَاجَةُ وَهَوَّارَةُ لِلعُبَيْدِيِّينَ. فَشَيَّدُوا دَوْلَتَهُمْ وَمَهَّدُوا بِعَصَائِبِهِمْ أَمْرَهُم ، وَاقْتَطَعُوا مِنْ مَمَالِكِ الْعَبَّاسِيِّين الْمَغْرِبَ كُلَّهُ ، ثُمَّ أَفْرِيقِيَّةَ . وَلَمْ يَزَلْ ظِلُّ الدَّوْلَةِ يَتَقَلَّصُ ، وَظِلُّ الْعُبَيْدِيِّين يَمْتَدُّ إِلَى أَنْ مَلَكُوا مِصْرَ وَالشَّامَ وَالْحِجَازَ ، وَقَاسَمُوهُمْ فى الْمَمَالِكِ الإِسْلَامِيَّةِ شِقَّ الأَبْلُمَةِ(٢) . وَهَؤُلَاءِ الْبَرَابِرَةُ الْقَائِمُونَ بِالدَّوْلَةِ مَعَ ذَلِكَ ، كُلُّهُمْ مُسَلِّمُونَ لِلْعُبَيْدِيِّينَ أَمْرَهُمْ مُذْعِنونَ لِمُلْكِهِمْ ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَتَنَافَسُونَ فى الرُّتْبَةِ عِنْدَهُمْ خَاصَّةً تَسْلِيمًا لِمَا حَصَلَ مِنْ صِبْغَةِ الْمُلْكِ لِبَنِى هَاشِمٍ ، وَلِمَا اسْتَحْكَمَ مِن

(١) الآية رقم : ٢٤٧ من سورة البقرة .

(١) من أصوله .

(٢) يعنى مناصفة ، والأبلمة مثلثة الهمزة واللام خوص يشق شقين .

الْغَلَبِ لِقُرَيْشٍ وَمُضَرَ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ ، فَلَمْ يَزَلِ الْمُلْكُ فى أَعْقَابِهِمْ إِلَى أَنِ انْقَرَضَتْ دَوْلَةُ الْعَرَبِ بِأَسْرِهَا . « وَاللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ »(١) .

الفصل الرابع

فى أن الدول العامة الاستيلاء ، العظيمة الملك ، أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق

وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُلْكَ ، إِنَّمَا يَحْصُلُ بِالتَّغَلُّبِ ، وَالتَّغَلُّبُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصَبِيَّةِ . وَاتِّفَاقُ الْأَهْوَاءِ عَلَى الْمُطَالَبَةِ ، وَجَمْعُ الْقُلُوبِ وَتَأْلِيفُهَا ، إِنَّمَا يَكُونُ بِمَعُونَةٍ مِنَ اللهِ فى إِقَامَةِ دِينِهِ . قَالَ تَعَالَى «لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ »(٢) وَسِرُّهُ أَنَّ الْقُلُوبَ إِذَا تَدَاعَتْ إِلَى أَهْوَاءِ الْبَاطِلِ وَالْمَيْلِ إِلَى الدُّنْيَا ، حَصَلَ التَّنَافُسُ وَفَشَا الْخِلَافُ . وَإِذَا انْصَرَفَتْ إِلَى الْحَقِّ وَرَفَضَتِ الدُّنْيَا وَالْبَاطِلَ ، وَأَقْبَلَتْ عَلَى اللهِ اتَّحَدَتْ وِجْهَتُهَا ، فَذَهَبَ التَّنَافُسُ وَقَلَّ الْخِلَافُ ، وَحَسُنَ التَّعَاوُنُ وَالتَّعَاضُدُ ، وَاتَّسَعَ نِطَاقُ الْكَلِمَةِ لِذَلِكَ ، فَعَظُمَتِ الدَّوْلَةُ ، كَمَا نُبَيِّنُ لَكَ بَعْدُ إِنْ شَاءَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ .

الفصل الخامس

فى أن الدعوة الدينية ، تزيد الدولة فى أصلها قوة على قوة العصبية التى كانت لها من عددها

وَالسَّبَبُ فى ذَلِكَ ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ ، أَنَّ الصِّبْغَةَ الدِّينِيَّةَ تَذْهَبُ بِالتَّنَافُسِ وَالتَّحَاسُدِ الَّذِى فى أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ ، وَتُفْرِدُ الْوِجْهَةَ إِلَى الْحَقِّ . فَإِذَا حَصَلَ لَهُمُ الِاسْتِبْصَارُ فى أَمْرِهِمْ لَمْ يَقِفْ لَهُمْ شَىْءٌ ، لِأَنَّ الْوِجْهَةَ وَاحِدَةٌ ، وَالْمَطْلُوبُ مُتَسَاوٍ عِنْدَهُمْ ، وَهُمْ مستميتون عَلَيْهِ . وَأَهْلُ الدَّوْلَةِ الَّتِى هُمْ طَالِبُوهَا وَإِنْ كَانُوا أَضْعَافَهُمْ ، فَأَغْرَاضُهُمْ مُتَبَايِنَةٌ بِالْبَاطِلِ وَتَخَاذُلُهُمْ لِتَقِيَّةِ الْمَوْتِ حَاصِلٌ ، فَلَا يُقَاوِمُونَهُمْ وَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ ، بَلْ يَغْلِبُونَ عَلَيْهِمْ ويعاجلهم الْفَنَاءُ بِمَا فِيهِمْ مِنَ التَّرَفِ وَالذُّلِّ ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ .

وَهَذَا كَمَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ صَدْرَ الْإِسْلَامِ فى الْفُتُوحَاتِ فَكَانَتْ جُيُوشُ الْمُسْلِمِينَ بِالْقَادِسِيَّةِ وَالْيَرْمُوكِ بِضْعَةً وَثَلَاثِينَ أَلْفًا فى كُلِّ مُعَسْكَرٍ ، وَجُمُوعُ فَارِسَ مِائَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا بِالْقَادِسِيَّةِ ، وَجُمُوعُ هِرَقْلَ عَلَى مَقَالَةِ الْوَاقِدِىِّ : أَرْبَعَمِائَةِ أَلْفٍ ، فَلَمْ يَقِفْ لِلْعَرَبِ أَحَدٌ مِنَ الْجَانِبَيْنِ وَهَزَمُوهُمْ وَغَلَبُوهُمْ عَلَى مَا بِأَيْدِيهِمْ .

وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ أَيْضًا فى دَوْلَةِ لَمْتُونَةَ وَدَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ ، فَقَدْ كَانَ بِالْمَغْرِبِ مِنَ الْقَبَائِلِ كَثِيرٌ مِمَّنْ يُقَاوِمُهُمْ فى الْعَدَدِ وَالْعَصَبِيَّةِ أَوْ يَشِفُّ(١) عَلَيْهِمْ ، إِلَّا أَنَّ الِاجْتِمَاعَ الدِّينِىَّ ضَاعَفَ قُوَّةَ عَصَبِيَّتِهِمْ بِالِاسْتِبْصَارِ وَالِاسْتِمَاتَةِ كَمَا قُلْنَاهُ ، فَلَمْ يَقِفْ لَهُمْ شَىْءٌ .

وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ إِذَا حَالَتْ صِبْغَةُ الدِّينِ وَفَسَدَتْ ، كَيْفَ يَنْتَقِضُ الْأَمْرُ وَيَصِيرُ الْغَلَبُ عَلَى نِسْبَةِ الْعَصَبِيَّةِ وَحْدَهَا دُونَ زِيَادَةِ الدِّينِ ، فَيَغْلِبُ الدَّوْلَةَ مَنْ كَانَ تَحْتَ يَدِهَا مِنَ الْعَصَائِبِ الْمُكَافِئَةِ لَهَا أَوِ الزَّائِدَةِ الْقُوَّةِ عَلَيْهَا الَّذِينَ غَلَبَتْهُمْ بِمُضَاعَفَةِ الدِّينِ لِقُوَّتِهَا ، وَلَوْ كَانُوا أَكْثَرَ عَصَبِيَّةً مِنْهَا وَأَشَدَّ بَدَاوَةً .

---

(١) الآية رقم « ٤١ » من سورة « الرعد » .

(٢) الآية رقم « ٦٣ » من سورة الأنفال .

(١) يزيد .

وَاعْتَبِرْ هٰذَا فِى الْمُوَحِّدِينَ مَعَ زَنَاتَةَ ، لَمَّا كَانَتْ زَنَاتَةُ أَبْدَى مِنَ الْمَصَامِدَةِ وَأَشَدَّ تَوَحُّشًا ، وَكَانَ لِلْمَصَامِدَةِ الدَّعْوَةُ الدِّينِيَّةُ بِاتِّبَاعِ الْمَهْدِىِّ فَلَبِسُوا صِبْغَتَهَا ، وَتَضَاعَفَتْ قُوَّةُ عَصَبِيَّتِهِمْ بِهَا ، فَغَلَبُوا عَلَى زَنَاتَةَ أَوَّلاً وَاسْتَتْبَعُوهُمْ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ حَيْثُ الْعَصَبِيَّةُ وَالْبَدَاوَةُ أَشَدَّ مِنْهُمْ ، فَلَمَّا خَلَوْا مِنْ تِلْكَ الصِّبْغَةِ الدِّينِيَّةِ انْتَقَضَتْ عَلَيْهِمْ زَنَاتَةُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَغَلَبُوهُمْ عَلَى الْأَمْرِ وَانْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ .

الفصل السادس

فى أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم

وَهٰذَا لِمَا قَدَّمْنَاهُ ، مِنْ أَنَّ كُلَّ أَمْرٍ تُحْمَلُ عَلَيْهِ الْكَافَّةُ ، فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ . وَفِى الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ كَمَا مَرَّ «مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا فِى مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ[1]» ، وَإِذَا كَانَ هٰذَا فِى الْأَنْبِيَاءِ وَهُمْ أَوْلَى النَّاسِ النَّاسِ بِخَرْقِ الْعَوَائِدِ فَمَا ظَنُّكَ بِغَيْرِهِمْ أَنْ لَاتُخْرَقَ لَهُ الْعَادَةُ فِى الْغَلَبِ بِغَيْرِ عَصَبِيَّةٍ .

وَقَدْ وَقَعَ هٰذَا لِابْنِ قَسِىٍّ شَيْخِ الصُّوفِيَّةِ ، صَاحِبِ كِتَابِ «خَلْعِ النَّعْلَيْنِ» فِى التَّصَوُّفِ : ثَارَ بِالْأَنْدَلُسِ دَاعِيًا إِلَى الْحَقِّ وَسُمِّىَ أَصْحَابُهُ بِالْمُرَابِطِينَ قُبَيْلَ دَعْوَةِ الْمَهْدِىِّ ، فَاسْتَتَبَّ لَهُ الْأَمْرُ قَلِيلاً لِشُغْلِ لَمْتُونَةَ ، بِمَا دَهَمَهُمْ مِنْ أَمْرِ الْمُوَحِّدِينَ ، وَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ عَصَائِبُ وَلَا قَبَائِلُ يَدْفَعُونَهُ عَنْ شَأْنِهِ ، فَلَمْ يَلْبَثْ حِينَ اسْتَوْلَى الْمُوَحِّدُونَ عَلَى الْمَغْرِبِ أَنْ أَذْعَنَ لَهُمْ ، وَدَخَلَ فِى دَعْوَتِهِمْ وَتَابَعَهُمْ مِنْ مَعْقِلِهِ بِحِصْنِ أَرْكُش ، وَأَمْكَنَهُمْ مِنْ ثَغْرِهِ وَكَانَ أَوَّلَ دَاعِيَةٍ لَهُمْ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَكَانَتْ ثَوْرَتُهُ تُسَمَّى ثَوْرَةَ الْمُرَابِطِينَ .

وَمِنْ هٰذَا الْبَابِ أَحْوَالُ الثُّوَّارِ الْقَائِمِينَ بِتَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ مِنَ الْعَامَّةِ وَالْفُقَهَاءِ . فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُنْتَحِلِينَ لِلْعِبَادَةِ وَسُلُوكِ طُرُقِ الدِّينِ ، يَذْهَبُونَ إِلَى الْقِيَامِ عَلَى أَهْلِ الْجَوْرِ مِنَ الْأُمَرَاءِ دَاعِينَ إِلَى تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ وَالنَّهْىِ عَنْهُ ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ رَجَاءً فِى الثَّوَابِ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ ، فَيَكْثُرُ أَتْبَاعُهُمْ وَالْمُتَشَبِّثُونَ بِهِمْ مِنَ الْغَوْغَاءِ وَالدَّهْمَاءِ ، وَيُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ فِى ذٰلِكَ لِلْمَهَالِكِ ، وَأَكْثَرُهُمْ يَهْلِكُونَ فِى هٰذَا السَّبِيلِ مَأْزُورِينَ[1] غَيْرَ مَأْجُورِينَ لِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَكْتُبْ ذٰلِكَ عَلَيْهِمْ ، وَإِنَّمَا أَمَرَ بِهِ حَيْثُ تَكُونُ الْقُدْرَةُ عَلَيْهِ ، قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ» .

وَأَحْوَالُ الْمُلُوكِ وَالدُّوَلِ رَاسِخَةٌ قَوِيَّةٌ لَا يُزَحْزِحُهَا وَيَهْدِمُ بِنَاءَهَا إِلَّا الْمُطَالَبَةُ الْقَوِيَّةُ الَّتِى مِنْ وَرَائِهَا عَصَبِيَّةُ الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ . وَهٰكَذَا كَانَ حَالُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِى دَعْوَتِهِمْ إِلَى اللهِ بِالْعَشَائِرِ وَالْعَصَائِبِ ، وَهُمُ الْمُؤَيَّدُونَ مِنَ اللهِ بِالْكَوْنِ كُلِّهِ لَوْ شَاءَ ، لٰكِنَّهُ إِنَّمَا أَجْرَى الْأُمُورَ عَلَى مُسْتَقَرِّ الْعَادَةِ ، وَاللهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

فَإِذَا ذَهَبَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ هٰذَا الْمَذْهَبَ وَكَانَ فِيهِ مُحِقًّا ، قَصُرَ بِهِ الِانْفِرَادُ عَنِ الْعَصَبِيَّةِ فَطَاحَ فِى هُوَّةِ الْهَلَاكِ ، وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُلَبِّسِينَ بِذٰلِكَ فِى طَلَبِ الرِّيَاسَةِ فَأَجْدَرُ أَنْ تَعُوقَهُ الْعَوَائِقُ ، وَتَنْقَطِعَ بِهِ

(١) أى فى عز وحماية بفضل قومه .

(١) عليهم الوزر .

الْمَهَالِكُ؛ لِأَنَّهُ أَمْرُ اللهِ لَايَتِمُّ إِلَّا بِرِضَاهُ وَإِعَانَتِهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ، وَالنَّصِيحَةِ لِلْمُسْلِمِينَ. وَلَا يَشُكُّ فِى ذٰلِكَ مُسْلِمٌ، وَلَايَرْتَابُ فِيهِ ذُوبَصِيرَةٍ.

وَأَوَّلُ ابْتِدَاءِ هٰذِهِ النَّزْعَةِ فِى الْمِلَّةِ بِبَغْدَادَ حِينَ وَقَعَتْ فِتْنَةُ طَاهِرٍ، وَقُتِلَ الْأَمِينُ، وَأَبْطَأَ الْمَأْمُونُ بِخُرَاسَانَ عَنْ مَقْدَمِ الْعِرَاقِ، ثُمَّ عَهِدَ لِعَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرِّضَى مِنْ آلِ الْحُسَيْنِ، فَكَشَفَ بَنُوالْعَبَّاسِ عَنْ وَجْهِ النَّكِيرِ عَلَيْهِ وَتَدَاعَوْا لِلْقِيَامِ وَخَلْعِ طَاعَةِ الْمَأْمُونِ وَالاسْتِبْدَالِ مِنْهُ ، وَبُويِعَ إِبْرٰهِيمُ بْنُ الْمَهْدِىِّ، فَوَقَعَ الْهَرْجُ بِبَغْدَادَ، وَانْطَلَقَتْ أَيْدِى الزَّعَرَةِ(١) بِهَا مِنَ الشُّطَّارِ(٢) وَالْحَرْبِيَّةِ عَلَى أَهْلِ الْعَافِيَةِ وَالصَّوْنِ وَقَطَعُوا السَّبِيلَ، وَامْتَلَأَتْ أَيْدِيهِمْ مِنْ نِهَابِ النَّاسِ، وَبَاعُوهَا عَلَانِيَةً فِى الْأَسْوَاقِ، وَاسْتَعْدَى أَهْلُهَا الْحُكَّامَ فَلَمْ يُعْدُوهُمْ(٣)، فَتَوَافَرَ أَهْلُ الدِّينِ وَالصَّلَاحِ عَلَى مَنْعِ الْفُسَّاقِ، وَكَفِّ عَادِيَتِهِمْ. وَقَامَ بِبَغْدَادَ رَجُلٌ يُعْرَفُ بِخَالِدِ الدَّرْيُوسِ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْىِ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَأَجَابَهُ خَلْقٌ، وَقَاتَلَ أَهْلَ الزَّعَارَةِ فَغَلَبَهُمْ، وَأَطْلَقَ يَدَهُ فِيهِمْ بِالضَّرْبِ وَالتَّنْكِيلِ.

ثُمَّ قَامَ مِنْ بَعْدِهِ رَجُلٌ آخَرُ مِنْ سَوَادِ أَهْلِ بَغْدَادَ، يُعْرَفُ بِسَهْلِ بْنِ سَلَامَةَ الْأَنْصَارِىِّ، وَيُكْنَى: أَبَا حَاتِمٍ، وَعَلَّقَ مُصْحَفًا فِى عُنُقِهِ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْىِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالْعَمَلِ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاتَّبَعَهُ النَّاسُ كَافَّةً مِنْ بَيْنِ شَرِيفٍ وَوَضِيعٍ مِنْ بَنِى هَاشِمٍ فَمَنْ دُونَهُمْ، وَنَزَلَ قَصْرَ طَاهِرٍ، وَاتَّخَذَ الدِّيوَانَ وَطَافَ بِبَغْدَادَ، وَمَنَعَ كُلَّ مَنْ أَخَافَ الْمَارَّةَ وَمَنَعَ الْخِفَارَةَ لِأُولٰئِكَ الشُّطَّارِ، وَقَالَ لَهُ خَالِدُ الدَّرْيُوسُ: أَنَا لَا أَعِيبُ عَلَى السُّلْطَانِ. فَقَالَ لَهُ سَهْلُ: لٰكِنِّى أُقَاتِلُ كُلَّ مَنْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ كَائِنًا مَنْ كَانَ. وَذٰلِكَ سَنَةَ إِحْدَى وَمَائَتَيْنِ، وَجَهَّزَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِىِّ الْعَسَاكِرَ، فَغَلَبَهُ وَأَسَرَهُ وَانْحَلَّ أَمْرُهُ سَرِيعًا، وَذَهَبَ وَنَجَا بِنَفْسِهِ.

ثُمَّ اقْتَدَى بِهٰذَا الْعَمَلِ بَعْدُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُوَسْوِسِينَ يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِإِقَامَةِ الْحَقِّ وَلَايَعْرِفُونَ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِى إِقَامَتِهِ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ، وَلَا يَشْعُرُونَ بِمَغَبَّةِ أَمْرِهِمْ وَمَآلِ أَحْوَالِهِمْ. وَالَّذِى يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِى أَمْرِ هٰؤُلَاءِ: إِمَّا الْمُدَاوَاةُ إِنْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْجُنُونِ؛ وَإِمَّا التَّنْكِيلُ بِالْقَتْلِ أَوِ الضَّرْبِ، إِنْ أَحْدَثُوا هَرْجًا؛ وَإِمَّا إِذَاعَةُ السُّخْرِيَةِ مِنْهُمْ، وَعَدُّهُمْ مِنْ جُمْلَةِ الصَّفَاعِينَ(٣). وَقَدْ يَنْتَسِبُ بَعْضُهُمْ إِلَى الْفَاطِمِىِّ الْمُنْتَظَرِ، إِمَّا بِأَنَّهُ هُوَ، أَوْبِأَنَّهُ دَاعٍ لَهُ، وَلَيْسَ مَعَ ذٰلِكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ أَمْرِ الْفَاطِمِىِّ وَلَا مَا هُوَ.

وَأَكْثَرُ الْمُنْتَحِلِينَ لِمِثْلِ هٰذَا. تجدهم مُوَسْوِسِينَ أَوْ مجانين أو مُلَبِّسِين يَطْلُبُونَ بِمِثْلِ هٰذِهِ الدَّعْوَةِ رِيَاسَةً امْتَلَأَتْ بِهَا جوانحهم، وَعجزوا عَنِ التَّوَصُّلِ إِلَيْهَا بِشَىْءٍ مِنْ أَسْبَابِهَا الْعَادِيَّةِ، فَيَحْسَبُونَ أَنَّ هٰذَا مِنَ الْأَسْبَابِ الْبَالِغَةِ بِهِمْ إِلَى مَا يُؤَمِّلُونَهُ مِنْ ذٰلِكَ، وَلَا يَحْسَبُونَ مَا يَنَالُهُمْ فِيهِ مِنَ الْهَلَكَةِ، فَيُسْرِعُ إِلَيْهِمِ الْقَتْلُ

---

(١) المفسدون فى الأرض .
(٢) جمع شاطر وهو الخبيث .
(٣) لم يعينوهم ولم ينصروهم .

(١) من يصفعون على الأقفية للسخرية بهم وهو أن شأنهم .

بمَا يُحْدِثُونَهُ مِنَ الْفِتْنَةِ وتَسُوءُ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ.

وَقَدْ كَانَ لأوَّلِ هٰذِهِ الْمائَةِ خرَجَ بِالسُّوسِ رَجُلٌ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ يُدْعَى التُّويذَرِيّ عَمَدَ إِلَى مَسْجِدِ مَاسَةَ بِساحِلِ الْبَحْرِ هُنَاكَ، وَزَعَمَ أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ الْمُنْتَظَر تَلْبِيسًا عَلَى الْعَامَّةِ هُنَالِك بِمامَلأ قُلُوبَهُمْ مِنَ الْحَدَثَانِ بِانْتِظَارِهِ هُنَالِكَ، وَأَنَّ مِنْ ذٰلِكَ الْمَسْجِدِ يَكُونُ أَصْلُ دَعْوَتِهِ، فَتَهَافَتَتْ عَلَيْهِ طَوَائِفُ مِنْ عَامَّةِ، الْبَرْبَرِ تَهَافُتَ الْفَرَاشِ، ثُمَّ خَشِي رُؤَسَاؤُهُمْ اتِّسَاعَ نطاقِ الْفِتْنَةِ، فَدَسَّ إِلَيْهِ كَبِيرُ الْمَصَامِدَةِ يَوْمَئِذٍ عُمَرُ السَّكْسِيوِيُّ مَنْ قَتَلَهُ فِى فِرَاشِهِ.

وَكَذٰلِكَ خرَجَ فى غِمَارِهِ أَيْضًا، لأوَّلِ هذهِ الْمِائَةِ، رَجُلٌ يُعْرَفُ بِالْعَبَّاسِ، وَادَّعَى مِثْلَ هٰذِهِ الدَّعْوَةِ، وَاتَّبَعَ نَعِيقَهُ الأرْذَلُونَ مِنْ سُفَهَاءِ تِلْكَ الْقَبَائِلِ وَأَغْمَارِهِمْ، وَزَحَفَ إِلَى بَادِسَ مِنْ أَمْصَارِهِمْ، وَدَخَلَهَا عُنْوَةً، ثُمَّ قُتِلَ لأرْبَعِينَ يَوْمًا مِنْ ظُهُورِ دَعْوَتِهِ، وَمَضَى فِى الْهَالِكِينَ الأوَّلِينَ. وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرٌ، وَالْغَلَطُ فِيهِ مِنَ الْغَفْلَةِ عَنِ اعْتِبَارِ الْعَصَبِيَّةِ فِى مِثْلِهَا. وَأَمَّا إِنْ كَانَ التَّلْبِيسُ فَأَحْرَى أَنْ لَايَتِمَّ لَهُ أَمْرٌ، وَأَنْ يَبُوءَ بِإِثْمِهِ، وَذٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ. وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ. وَبِهِ التَّوْفِيقُ لَاربَّ غَيْرُهُ، وَلَا مَعْبُودَ سِوَاهُ.

الفصل السابع

فى أن كل دولة لها حصة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها

والسَّبَبُ فِى ذٰلِكَ أَنَّ عصابةَ الدَّوْلَةِ وقَوْمَهَا الْقَائِمِينَ بِهَا الْمُمَهِّدِينَ لَهَا، لَابُدَّ مِنْ تَوْزِيعِهِمْ حِصصًا عَلَى الْمَمَالِكِ وَالثُّغُورِ الَّتِى تَصِيرُ إِلَيْهِمْ ويَسْتَوْلُونَ عَلَيْهَا لِحِمَايَتِهَا من الْعَدُوِّ، وإِمْضَاءِ أَحْكَامِ الدَّوْلَةِ فيهَا مِنْ جِبَايَةٍ ورَدْعٍ وغَيْرِ ذٰلِكَ. فَإِذَا تَوَزَّعَتِ الْعَصَائِبُ كُلُّهَا عَلَى الثُّغُورِ والْمَمَالِكِ، فَلَابُدَّ مِنْ نَفَادِ عَدَدِهَا، وقَدْ بَلَغَتِ الْمَمَالِكُ حِينَئِذٍ إِلَى حدٍّ يَكُونُ ثَغْرًا لِلدَّوْلَةِ وتَخْمًا لِوَطَنِهَا، ونِطَاقًا لِمَرْكَزِ مُلْكِهَا. فَإِنْ تَكَفَّلَتِ الدَّوْلَةُ بَعْدَ ذٰلِكَ زِيَادَةً عَلَى مَا بِيَدِهَا، بَقِيَ دُونَ حَامِيَةٍ وَكَانَ مَوْضِعًا لانْتِهَازِ الْفُرْصَةِ مِنَ الْعَدُوِّ وَالْمُجَاوِرِ، وَيَعُودُ وَبَالُ ذٰلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ بِمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ التَّجَاسُرِ وَخَرْقِ سِيَاجِ الْهَيْبَةِ.

وَمَا كَانَتِ الْعِصَابَةُ مَوْفُورَةً، وَلَمْ يَنْفَدْ عَدَدُهَا فِى تَوْزِيعِ الْحِصَصِ عَلَى الثُّغُورِ وَالنَّوَاحِى، بَقِيَ فِى الدَّوْلَةِ قُوَّةٌ عَلَى تَنَاوُلِ مَا وَرَاءَ الْغَايَةِ، حَتَّى يَنْفَسِحَ نِطَاقُهَا إِلَى غَايَتِهِ. وَالْعِلَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ فِى ذٰلِكَ، هِيَ قُوَّةُ الْعَصَبِيَّةِ مِن سَائِرِ الْقُوَى الطَّبِيعِيَّةِ. وَكُلُّ قُوَّة يَصْدُرُ عَنْهَا فِعْلٌ مِنَ الأفْعَالِ فَشَأْنُهَا ذٰلِكَ فِى فِعْلِهَا. وَالدَّوْلَةُ فِى مَرْكَزِهَا أَشَدُّ مِمَّا يَكُونُ فِى الطَّرَفِ وَالنِّطَاقِ، وَإِذَا انْتَهَتْ إِلَى النِّطَاقِ الَّذِى هُوَ الْغَايَةُ، عَجزَتْ وَأَقْصَرَتْ عَمَّا وَرَاءَهُ، شَأْنُ الأشِعَّةِ وَالأنْوَارِ إِذَا انْبَعَثَتْ مِنَ الْمَرَاكِزِ وَالدَّوَائِرِ الْمُنْفَسِحَةِ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ مِنَ النَّقْرِ[1] عَلَيْهِ. ثُمَّ إِذَا أَدْرَكَهَا الْهَرَمُ وَالضَّعْفُ، فَإِنَّمَا تَأْخُذُ فِى التَّنَاقُصِ مِنْ جِهَةِ الأطْرَافِ، وَلَا يَزَال الْمَرْكَزُ مَحْفُوظًا، إِلَى أَنْ يَتَأَذَّنَ اللهُ بِانْقِرَاضِ الأمْرِ جُمْلَةً، فَحِينَئِذٍ يَكُونُ انْقِرَاضُ الْمَرْكَزِ.

وَإِذَا غُلِبَ عَلَى الدَّوْلَةِ مَرْكَزُهَا، فَلَا يَنْفَعُهَا

(١) أى عل أثر النقر عليه بحصاة مثلا.

بقاء الأطراف والنطاق بل تضمحل لوقتها ؛ فإن المركز كالقلب الذى تنبعث منه الروح ، فإذا غلب على القلب وملك انهزم جميع الأطراف.

وانظر هذا فى الدولة الفارسية : كان مركزها المدائن ؛ فلما غلب المسلمون على المدائن انقرض أمر فارس أجمع ، ولم ينفع يزدجرد ما بقى بيده من أطراف ممالكه . وبالعكس من ذلك الدولة الرومية بالشام لما كان مركزها القسطنطينية وغلبهم المسلمون بالشام ، تحيزوا إلى مركزهم بالقسطنطينية ، ولم يضرهم انتزاع الشام من أيديهم ، فلم يزل ملكهم متصلا بها إلى أن تأذن الله بانقراضه .

وانظر أيضا شأن العرب أول الإسلام : لما كانت عصائبهم موفورة كيف غلبوا على ما جاورهم من الشام والعراق ومصر لأسرع وقت ، ثم تجاوزوا ذلك إلى ما وراءه من السند والحبشة وأفريقية والمغرب ثم إلى الأندلس.

فلما تفرقوا حصصا على الممالك والثغور ونزلوها حامية ، ونفد عددهم فى تلك التوزيعات أقصروا عن الفتوحات بعد وانتهى أمر الإسلام ، ولم يتجاوز تلك الحدود ، ومنها تراجعت الدولة حتى تأذن الله بانقراضها . وكذا كان حال الدول من بعد ذلك ، كل دولة على نسبة القائمين بها فى القلة والكثرة ، وعند نفاد عددهم بالتوزيع ، ينقطع لهم الفتح والإستيلاء . سنة الله فى خلقه .

الفصل الثامن

فى أن عظم الدولة واتساع نطاقها ، وطول أمدها على نسبة القائمين بها فى القلة والكثرة

والسبب فى ذلك أن الملك ، إنما يكون بالعصبية . وأهل العصبية هم الحامية الذين ينزلون بممالك الدولة وأقطارها ، وينقسمون عليها . فما كان من الدولة العامة قبيلها وأهل عصابتها أكثر ، كانت أقوى وأكثر ممالك وأوطانا ، وكان ملكها أوسع لذلك .

واعتبر ذلك بالدولة الإسلامية : لما ألف الله كلمة العرب على الإسلام ، وكان عدد المسلمين فى غزوة تبوك آخر غزوات النبى صلى الله عليه وسلم مائة ألف وعشرة آلاف من مضر وقحطان ، ما بين فارس وراجل ، إلى من أسلم منهم بعد ذلك إلى الوفاة . فلما توجهوا لطلب ما فى أيدى الأمم من الملك ، لم يكن دونه حمى ولا وزر ، فاستبيح حمى فارس والروم ، أهل الدولتين العظيمتين فى العالم لعهدهم ، والترك بالمشرق ، والإفرنجة والبربر بالمغرب ، والقوط بالأندلس ، وخطوا من الحجاز إلى السوس الأقصى ، ومن اليمن إلى الترك بأقصى الشمال ، واستولوا على الأقاليم السبعة .

ثم انظر بعد ذلك دولة صنهاجة والموحدين مع العبيديين قبلهم لما كان قبيل كتامة القائمون بدولة العبيديين أكثر من صنهاجة ، ومن المصامدة كانت دولتهم أعظم فملكوا أفريقية والمغرب والشام ومصر والحجاز . تم انظر بعد ذلك دولة زناتة لما كان عددهم أقل من المصامدة قصر ملكهم عن

مُلْكِ الْمُوحِّدِينَ لِقُصُورِ عددِهِمْ عنْ عددِ الْمصامِدةِ مُنْذُ أَوَّلِ أَمْرِهِمْ .

ثُمَّ اعْتَبِرْ بعْد ذٰلِكَ حال الدَّوْلَتَيْنِ لِهٰذَا الْعهْدِ ، لزناتَة بنِى مُرِيْن وبَنِى عبْدِ الْوادِ ؛ كَانَتْ دولتُهُمْ أقوى مِنْهَا وأوْسع نِطَاقًا ، وكَانَ لَهُمْ علَيْهِم الْغَلَبُ مرَّةً بعْد أُخرى . يُقَالُ إنَّ عدد بنِى مُرِيْنَ لأوَّلِ مُلْكِهِمْ ، كَانَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ . وإنَّ بنى عبْدِ الْوادِ كَانُوا أَلْفًا . إلَّا أنَّ الدَّوْلَةَ بالرِّفْد وكثْرةِ التَّابعِ كَثَّرتْ مِنْ أعْدادِهِمْ ، وعلَى هٰذِهِ النِّسْبَةِ فى أعْدادِ الْمُتَغَلِّبِينَ لِأَوَّلِ الْمُلْكِ يكُونُ اتِّساعُ الدَّوْلَةِ وقُوَّتُهَا .

وأمَّا طُولُ أمدِها أيْضًا فَعلَى تِلْكَ النِّسْبَةِ لأنَّ عُمْر الْحادِثِ مِنْ قُوَّةِ مِزاجِهِ ؛ ومِزاجِ الدُّوَلِ إنَّما هُو بالْعصبِيَّةِ ؛ فَإذَا كَانَتِ الْعصبِيَّةُ قوِيَّةً ، كَانَ الْمزاجُ تَابعًا لَهَا ، وكَان أمْرُ الْعُمْرِ طَوِيلًا ؛ والْعصبِيَّةُ إنَّما هِى بِكَثْرةِ الْعددِ ووُفُورِهِ ؛ كَما قُلْنَاهُ .

والسَّببُ الصَّحِيحُ فى ذٰلِكَ أنَّ النَّقْص ، إنَّما يبْدُو فى الدَّوْلَةِ مِن الْأَطْرافِ ؛ فَإذَا كَانَتْ ممالِكُهَا كثيرةً ، كَانَتْ أطْرافُهَا بعيدةً عنْ مرْكَزِهَا وكَثِيرةً ، وكُلُّ نَقْصٍ يقَعُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ زَمنٍ ، فَتَكْثُرُ أزْمانُ النَّقْصِ لِكَثْرةِ الْممالِكِ ، واخْتِصاص كُلِّ واحِدٍ مِنْهَا بِنَقْصٍ وزمانٍ ، فَيكُونُ أمدُها طَوِيلًا . وانْظُرْ فى ذٰلِكَ دولةَ العربِ الْإسْلامِيَّة كَيْفَ كَانَ أمدُها أطْولَ الدُّوَلِ ، لَابنُو الْعبَّاسِ ، أهْلُ الْمرْكَزِ ، ولَابنُو أُمية الْمُسْتَبِدُّونَ بالْأَنْدلُسِ (١) ، ولَمْ ينْقُصْ أمْرُ جميعِهِمْ إلَّا بعْد الْأَرْبعِمائَةِ مِن الْهجْرةِ . ودوْلَةُ الْعبِيدِيِّين ، كَانَ أمدُها قَرِيبًا مِنْ مائتَيْنِ وثمانين سنةً ، ودَوْلَةُ صَنْهَاجَةَ دُونَهُمْ مِنْ لَدُنْ تَقْلِيدِ مُعِزِّ الدَّوْلَةِ أمْرَ أفْرِيقِيَةَ لِبلُكِّين بْنِ زِيرِى فى سَنَةِ ثَمانٍ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثِمائَةٍ ، إلَى حِينَ اسْتِيلَاءِ الْمُوحِّدِينَ عَلَى الْقَلْعَةِ ، وَبِجَايَةَ سَنَةَ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمائَةٍ . وَدَوْلَةُ الْمُوحِّدِينَ لِهٰذَا الْعَهْدِ تُنَاهِزُ مِائَتَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةً . وَهٰكَذَا نَسَبُ الدُّوَلِ فى أعْمارِهَا عَلَى نِسْبَةِ الْقَائِمِينَ بِهَا ، سُنَّةَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فى عِبَادِهِ .

(١) صوابه : لافرق فى ذلك بين بنى العباس أهل المركز وبنى أمية المستبدين بالأندلس .

الفصل التاسع

فى أن الأَوطان الكثيرة القبائل، قل أن تستحكم فيها دولة

وَالسَّبَبُ فى ذٰلِكَ اخْتِلَافُ الْآرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ ، وَأنَّ وَرَاءَ كُلِّ رَأْيٍ مِنْهَا هوًى وَعَصَبِيَّةً تُمانِعُ دُونَهَا فَيَكْثُرُ الِانْتِقَاضُ عَلَى الدَّوْلَةِ وَالْخُرُوجُ عَلَيْهَا فى كُلِّ وَقْتٍ ، وَإنْ كَانَتْ ذَاتَ عَصَبِيَّةٍ لأنَّ كُلَّ عَصَبِيَّةٍ مِمَّنْ تَحْتَ يَدِهَا تَظُنُّ فى نَفْسِهَا مَنَعَةً وَقُوَّةً .

وَانْظُرْ مَاوقَعَ مِنْ ذٰلِكَ بِأفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ ، مُنْذُ أوَّلِ الْإسْلَامِ وَلِهٰذَا الْعَهْدِ . فَإنَّ سَاكِنَ هٰذِهِ الْأَوْطَانِ مِنَ الْبَرْبَرِ أهْلُ قَبَائِلَ وَعَصَبِيَّاتٍ ، فَلَمْ يُغْنِ فِيهِم الْغَلَبُ الْأَوَّلُ ، الَّذى كَانَ لابْنِ أبِى سَرْحٍ عَلَيْهِم وَعَلَى الْإفْرِنْجَةِ شَيْئًا ، وَعَاوَدُوا بَعْدَ ذٰلِكَ الثَّوْرَةَ وَالرِّدَّةَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى ، وَعَظُمَ الْإثْخَانُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ . وَلَمَّا اسْتَقَرَّ الدِّينُ عِنْدَهُمْ عَادُوا إلَى الثَّوْرَةِ وَالْخُرُوجِ ، وَالْأَخْذِ بِدِينِ الْخَوَارِجِ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً .

قَالَ ابْنُ أبِى زَيْدٍ ، ارْتَدَّتِ الْبَرَابِرَةُ بِالْمَغْرِبِ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ مَرَّةً ، وَلَمْ تَسْتَقِرَّ كَلِمَةُ الْإسْلَامِ

فيهم إلا لعهد ولاية موسى بن نصير، فما بعده.
وهذا معنى ما ينقل عن عمر: أن أفريقة مفرقة لقلوب أهلها، إشارة إلى ما فيها من كثرة العصائب والقبائل الحاملة لهم على عدم الإذعان والانقياد، ولم يكن العراق لذلك العهد بتلك الصفة، ولا الشام، إنما كانت حاميتها من فارس والروم، والكافة دهماء، أهل مدن وأمصار فلما غلبهم المسلمون على الأمر وانتزعوه من أيديهم لم يبق فيها ممانع ولا مشاق. والبربر قبائلهم بالمغرب أكثر من أن تحصى وكلهم بادية، وأهل عصائب وعشائر، وكلما هلكت قبيلة، عادت الأخرى مكانها، وإلى دينها من الخلاف والردة، فطال أمر العرب في تمهيد الدولة بوطن أفريقية والمغرب. وكذلك كان الأمر بالشام لعهد بني إسرائيل: كان فيه من قبائل فلسطين وكنعان وبني عيصو وبني مدين وبني لوط، واليونان والعمالقة وأكريكش والنبط، من جانب الجزيرة والموصل ما لا يحصى كثرة وتنوعا في العصبية، فصعب على بني إسرائيل تمهيد دولتهم، ورسوخ أمرهم، واضطرب عليهم الملك مرة بعد أخرى. وسرى ذلك الخلاف إليهم، فاختلفوا على سلطانهم، وخرجوا عليه. ولم يكن لهم ملك موطد سائر أيامهم، إلى أن غلبهم الفرس ثم يونان، ثم الروم آخر أمرهم عند الجلاء، والله غالب على أمره.

وبعكس هذا أيضا: الأوطان الخالية من العصبيات يسهل تمهيد الدولة فيها، ويكون سلطانها وازعا لقلة الهرج (١) والانتقاض، ولا تحتاج الدولة فيها إلى كثير من العصبية، كما هو الشأن في مصر والشام لهذا العهد، إذ هي خلو من القبائل والعصبيات، كأن لم يكن الشام معدنا لهم كما قلناه. فملك مصر في غاية الدعة والرسوخ لقلة الخوارج، وأهل العصائب. إنما هو سلطان ورعية، ودولتها قائمة بملوك الترك وعصائبهم يغلبون على الأمر واحدا بعد واحد، وينتقل الأمر فيهم من منبت إلى منبت والخلافة مسماة للعباسي من أعقاب الخلفاء، ببغداد، وكذا شأن الأندلس لهذا العهد: فإن عصبية ابن الأحمر سلطانها لم تكن لأول دولتهم بقوية، ولا كانت كرات، إنما يكون أهل بيت من بيوت العرب أهل الدولة الأموية بقوا من ذلك القلة.

وذلك أن أهل الأندلس لما انقرضت الدولة العربية منهم، وملكهم البربر من لمتونة والموحدين سئموا ملكتهم وثقلت (٢) وطأتهم عليهم، فأشربت القلوب بغضاءهم، وأمكن الموحدون والسادة في آخر الدولة كثيرا من الحصون للطاغية في سبيل الاستظهار به على شأنهم، من تملك الحضرة مراكش: فاجتمع من كان بقي بها من أهل العصبية القديمة معادن من بيوت العرب تجافى بهم المنبت عن الحاضرة والأمصار بعض الشيء، ورسخوا في العصبية مثل ابن هود وابن الأحمر وابن مردنيش وأمثالهم، فقام ابن هود بالأمر ودعا بدعوة الخلافة العباسية بالمشرق،

(١) الفتنة والقتل . (٢) مرة بعد مرة .

وَحَمَلَ النَّاسَ عَلَى الْخُرُوجِ عَلَى الْمُوَحِّدِينَ فَنَبَذُوا إِلَيْهِم الْعَهْدَ، وَأَخْرَجُوهُمْ وَاسْتَقَلَّ ابْنُ هُود بِالْأَمْرِ فِي الْأَنْدَلُسِ. ثُمَّ سَمَا ابْنُ الْأَحْمَرِ لِلْأَمْرِ وَخَالَفَ ابْنَ هُود فِي دَعْوَتِهِ، فَدَعَا هَؤُلَاءِ لِابْنِ أَبِي حَفْصٍ صَاحِبِ أَفْرِيقِيَّةَ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ، وَقَامَ بِالْأَمْرِ وَتَنَاوَلَهُ بِعِصَابَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ قَرَابَتِهِ كَانُوا يُسَمَّوْنَ الرُّؤَسَاءَ، وَلَمْ يَحْتَجْ لِأَكْثَرَ مِنْهُمْ لِقِلَّةِ الْعَصَائِبِ بِالْأَنْدَلُسِ، وَإِنَّهَا سُلْطَانٌ وَرَعِيَّةٌ، ثُمَّ اسْتَظْهَرَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى الطَّاغِيَةِ بِمَنْ يُجِيزُ إِلَيْهِ الْبَحْرَ مِنْ أَعْيَاصِ[1] زَنَاتَةَ، فَصَارُوا مَعَهُ عُصْبَةً عَلَى الْمُثَاغَرَةِ وَالرِّبَاطِ. ثُمَّ سَمَا لِصَاحِبٍ مِنْ مُلُوكِ زَنَاتَةَ أَمَلٌ فِي الِاسْتِيلَاءِ عَلَى الْأَنْدَلُسِ، فَصَارَ أُولَئِكَ الْأَعْيَاصُ عِصَابَةَ ابْنِ الْأَحْمَرِ عَلَى الِامْتِنَاعِ مِنْهُ إِلَى أَنْ تَأَثَّلَ أَمْرُهُ، وَرَسَخَ وَأَلِفَتْهُ النُّفُوسُ، وَعَجَزَ النَّاسُ عَنْ مُطَالَبَتِهِ وَوَرِثَهُ أَعْقَابُهُ لِهَذَا الْعَهْدِ. فَلَا تَظُنَّ أَنَّهُ بِغَيْرِ عِصَابَةٍ فَلَيْسَ كَذَلِكَ، وَقَدْ كَانَ مَبْدَؤُهُ بِعِصَابَةٍ، إِلَّا أَنَّهَا قَلِيلَةٌ، وَعَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ: فَإِنَّ قُطْرَ الْأَنْدَلُسِ لِقِلَّةِ الْعَصَائِبِ وَالْقَبَائِلِ فِيهِ، يُغْنِي عَنْ كَثْرَةِ الْعَصَبِيَّةِ فِي التَّغَلُّبِ عَلَيْهِمْ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ.

الفصل العاشر

في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد

وَذَلِكَ أَنَّ الْمُلْكَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ، إِنَّمَا هُوَ بِالْعَصَبِيَّةِ. وَالْعَصَبِيَّةُ مُتَأَلِّفَةٌ مِنْ عُصَبَاتٍ كَثِيرَةٍ وَتَكُونُ وَاحِدَةٌ مِنْهَا أَقْوَى مِنَ الْأُخْرَى كُلِّهَا فَتَغْلِبُهَا وَتَسْتَوْلِي عَلَيْهَا حَتَّى تُصَيِّرَهَا جَمِيعًا فِي ضِمْنِهَا، وَبِذَلِكَ يَكُونُ الِاجْتِمَاعُ وَالْغَلَبُ عَلَى النَّاسِ وَالدُّوَلِ. وَسِرُّهُ أَنَّ الْعَصَبِيَّةَ الْعَامَّةَ لِلْقَبِيلِ هِيَ مِثْلُ الْمِزَاجِ لِلْمُتَكَوِّنِ، وَالْمِزَاجُ إِنَّمَا يَكُونُ عَنِ الْعَنَاصِرِ، وَقَدْ تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ أَنَّ الْعَنَاصِرَ إِذَا اجْتَمَعَتْ مُتَكَافِئَةً فَلَا يَقَعُ مِنْهَا مِزَاجٌ أَصْلًا، بَلْ لَابُدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ وَاحِدَةٌ مِنْهَا هِيَ الْغَالِبَةَ عَلَى الْكُلِّ حَتَّى تَجْمَعَهَا، وَتُؤَلِّفَهَا وَتُصَيِّرَهَا عَصَبِيَّةً وَاحِدَةً شَامِلَةً لِجَمِيعِ الْعَصَائِبِ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي ضِمْنِهَا، وَتِلْكَ الْعَصَبِيَّةُ الْكُبْرَى، إِنَّمَا تَكُونُ لِقَوْمٍ أَهْلِ بَيْتٍ وَرِئَاسَةٍ فِيهِم، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ رَئِيسًا لَهُمْ غَالِبًا عَلَيْهِمْ، فَيَتَعَيَّنُ رَئِيسًا لِلْعَصَبِيَّاتِ كُلِّهَا لِغَلَبِ مَنْبِتِهِ لِجَمِيعِهَا.

وَإِذَا تَعَيَّنَ لَهُ ذَلِكَ، فَمِنَ الطَّبِيعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ خُلُقُ الْكِبْرِ وَالْأَنَفَةِ، فَيَأْنَفُ حِينَئِذٍ مِنَ الْمُسَاهَمَةِ وَالْمُشَارَكَةِ فِي اسْتِتْبَاعِهِمْ وَالتَّحَكُّمِ فِيهِمْ، وَيَجِيءُ خُلُقُ التَّأَلُّهِ الَّذِي فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ، مَعَ مَا تَقْتَضِيهِ السِّيَاسَةُ مِنِ انْفِرَادِ الْحَاكِمِ لِفَسَادِ الْكُلِّ بِاخْتِلَافِ الْحُكَّامِ «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا»[1] فَتُجْدَعُ حِينَئِذٍ أُنُوفُ الْعَصَبِيَّاتِ وَتُفْلَجُ شَكَائِمُهُمْ عَنْ أَنْ يَسْمُوا إِلَى مُشَارَكَتِهِ فِي التَّحَكُّمِ، وَتُقْرَعُ عَصَبِيَّتُهُمْ عَنْ ذَلِكَ، وَيَنْفَرِدُ بِهِ مَا اسْتَطَاعَ حَتَّى لَا يَتْرُكَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي الْأَمْرِ، لَا نَاقَةً وَلَا جَمَلًا فَيَنْفَرِدُ بِذَلِكَ الْمَجْدِ بِكُلِّيَّتِهِ، وَيَدْفَعُهُمْ عَنْ مُسَاهَمَتِهِ. وَقَدْ يَتِمُّ ذَلِكَ لِلْأَوَّلِ مِنْ مُلُوكِ الدَّوْلَةِ، وَقَدْ لَا يَتِمُّ إِلَّا لِلثَّانِي وَالثَّالِثِ عَلَى قَدْرِ مُمَانَعَةِ الْعَصَبِيَّاتِ وَقُوَّتِهَا. إِلَّا أَنَّهُ أَمْرٌ لَابُدَّ مِنْهُ فِي الدُّوَلِ، سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

---

(١) من يعتبرون أصولها وذوى المكانة فيها.

(١) الآية رقم: ٢٢ من سورة الأنبياء.

الفصل الحادى عشر

فى أن من طبيعة الملك الترف

وَذٰلِكَ أَنَّ الْأُمَّةَ إِذَا تَغَلَّبَتْ وَمَلَكَتْ مَا بِأَيْدِى أَهْلِ الْمُلْكِ قَبْلَهَا، كَثُرَ رِيَاشُهَا وَنِعْمَتُهَا، فَتَكْثُرُ عَوَائِدُهُمْ وَيَتَجَاوَزُونَ ضَرُورَاتِ الْعَيْشِ وَخُشُونَتَهُ، إِلَى نَوَافِلِهِ وَرِقَّتِهِ وَزِينَتِهِ، وَيَذْهَبُونَ إِلَى اتِّبَاعِ مَنْ قَبْلَهُمْ فى عَوَائِدِهِمْ وَأَحْوَالِهِم، وَتَصِيرُ لِتِلْكَ النَّوَافِلِ عَوَائِدُ ضَرُورِيَّةٌ فى تَحْصِيلِهَا وَيَنْزِعُونَ مَعَ ذٰلِكَ إِلَى رِقَّةِ الْأَحْوَالِ فى الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ، وَالْفُرُشِ وَالْآنِيَةِ، وَيَتَفَاخَرُونَ فى ذٰلِكَ، وَيُفَاخِرُونَ فِيهِ غَيْرَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ، فى أَكْلِ الطَّيِّبِ وَلُبْسِ الْأَنِيقِ وَرُكُوبِ الْفَارِهِ[1]، وَيُنَاغِى خَلَفُهُمْ فِى ذٰلِكَ سَلَفَهُمْ إِلَى آخِرِ الدَّوْلَةِ، وَعَلَى قَدْرِ مُلْكِهِمْ يَكُونُ حَظُّهُمْ مِنْ ذٰلِكَ وَتَرَفُهُمْ فِيهِ، إِلَى أَنْ يَبْلُغُوا مِنْ ذٰلِكَ الْغَايَةَ الَّتى لِلدَّوْلَةِ إِلَى أَنْ تَبْلُغَهَا بِحَسَبِ قُوَّتِهَا وَعَوَائِدِ مَنْ قَبْلَهَا، سُنَّةَ اللهِ فى خَلْقِهِ وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الفصل الثانى عشر

فى أن من طبيعة الملك الدعة والسكون

وَذٰلِكَ أَنَّ الْأُمَّةَ لَا يَحْصُلُ لَهَا الْمُلْكُ إِلَّا بِالْمُطَالَبَةِ، وَالْمُطَالَبَةُ غَايَتُهَا الْغَلَبُ وَالْمُلْكُ، وَإِذَا حَصَلَتِ الْغَايَةُ انْقَضَى السَّعْىُ إِلَيْهَا (قال الشاعر)[2]:

عَجِبْتُ لِسَعْىِ الدَّهْرِ بَيْنِى وَبَيْنَهَا
فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ

فَإِذَا حَصَلَ الْمُلْكُ أَقْصَرُوا عَنِ الْمَتَاعِبِ الَّتى كَانُوا يَتَكَلَّفُونَهَا فى طَلَبِهِ، وَآثَرُوا الرَّاحَةَ وَالسُّكُونَ وَالدَّعَةَ وَرَجَعُوا إِلَى تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ الْمُلْكِ مِنَ الْمَبَانِى وَالْمَسَاكِنِ وَالْمَلَابِسِ، فَيَبْنُونَ الْقُصُورَ وَيُجْرُونَ الْمِيَاهَ وَيَغْرِسُونَ الرِّيَاضَ وَيَسْتَمْتِعُونَ بِأَحْوَالِ الدُّنْيَا، وَيُؤْثِرُونَ الرَّاحَةَ عَلَى الْمَتَاعِبِ، وَيَتَأَنَّقُونَ فى أَحْوَالِ الْمَلَابِسِ وَالْمَطَاعِمِ وَالْآنِيَةِ وَالْفُرُشِ مَا اسْتَطَاعُوا، وَيَأْلَفُونَ ذٰلِكَ وَيُورِثُونَهُ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أَجْيَالِهِمْ وَلَا يَزَالُ ذٰلِكَ يَتَزَايَدُ فِيهِمْ إِلَى أَنْ يَتَأَذَّنَ اللهُ بِأَمْرِهِ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الفصل الثالث عشر

فى أنه إذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة أقبلت الدولة على الهرم

وَبَيَانُهُ مِنْ وُجُوهٍ:

الْأَوَّلُ أَنَّهَا تَقْتَضِى الِانْفِرَادَ بِالْمَجْدِ كَمَا قُلْنَاهُ، وَمَا كَانَ الْمَجْدُ مُشْتَرَكًا بَيْنَ الْعِصَابَةِ، وَكَانَ سَعْيُهُمْ لَهُ وَاحِدًا كَانَتْ هِمَمُهُمْ فى التَّغَلُّبِ عَلَى الْغَيْرِ وَالذَّبِّ عَنِ الْحَوْزَةِ أُسْوَةً فى طُمُوحِهَا وَقُوَّةِ شَكَائِمِهَا، وَمَرْمَاهُمْ إِلَى الْعِزِّ جَمِيعًا يَسْتَطِيبُونَ الْمَوْتَ فى بِنَاءِ مَجْدِهِمْ، وَيُؤْثِرُونَ الْهَلَكَةَ عَلَى فَسَادِهِ؛ وَإِذَا انْفَرَدَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ بِالْمَجْدِ قَرَعَ عَصَبِيَّتَهُمْ وَكَبَحَ مِنْ أَعِنَّتِهِمْ، وَاسْتَأْثَرَ بِالْأَمْوَالِ دُونَهُمْ فَتَكَاسَلُوا عَنِ الْغَزْوِ وَفَشِلَ رِيحُهُمْ وَرَئِمُوا الْمَذَلَّةَ وَالِاسْتِعْبَادَ، ثُمَّ رُبِّىَ الْجِيلُ الثَّانِى مِنْهُمْ عَلَى ذٰلِكَ يَحْسَبُونَ مَا يَنَالُهُمْ مِنَ الْعَطَاءِ أَجْرًا مِنَ السُّلْطَانِ لَهُمْ عَنِ الْحِمَايَةِ وَالْمَعُونَةِ لَا يَجْرِى فى

(١) الفاره: الجيد السير؛ يناغى: ينافس.

(٢) هو أبو صخر ومطلع القصيدة: لليل بذات الجيش دار عرفتها ... البيت.

عقولهم سواه، وقل أن يستأجر أحد نفسه على الموت، فيصير ذلك وهنا فى الدولة، وخضدا من الشوكة وتقبل به على مناحى الضعف والهرم لفساد العصبية بذهاب البأس من أهلها.

والوجه الثانى: أن طبيعة الملك تقتضى الترف كما قدمناه، فتكثر عوائدهم وتزيد نفقاتهم على أعطياتهم ولا يفى دخلهم بخرجهم. فالفقير منهم يهلك، والمترف يستغرق عطاءه بترفه، ثم يزداد ذلك فى أجيالهم المتأخرة إلى أن يقصر العطاء كله عن الترف وعوائده، وتمسهم الحاجة وتطالبهم ملوكهم بحصر نفقاتهم فى الغزو والحروب فلا يجدون وليجة[1] عنها فيوقعون بهم العقوبات، وينتزعون ما فى أيدى الكثير منهم يستأثرون به عليهم أو يؤثرون به أبناءهم وصنائع دولتهم، فيضعفونهم لذلك عن إقامة أحوالهم، ويضعف صاحب الدولة بضعفهم.

وأيضا: إذا كثر الترف فى الدولة وصار عطاؤهم مقصرا عن حاجاتهم ونفقاتهم، احتاج صاحب الدولة الذى هو السلطان إلى الزيادة فى أعطياتهم حتى يسد خللهم، ويزيح عللهم والجباية مقدارها معلوم، ولا تزيد ولا تنقص. وإن زادت بما يستحدث المكوس فيصير مقدارها بعد الزيادة محدودا، فإذا وزعت الجباية على الأعطيات، وقد حدثت فيها الزيادة لكل واحد بما حدث من ترفهم وكثرة نفقاتهم، نقص عدد الحامية حينئذ عما كان قبل زيادة الأعطيات، ثم يعظم الترف وتكثر مقادير الأعطيات لذلك، فينقص عدد الحامية، وثالثا ورابعا إلى أن يعود العسكر إلى أقل الأعداد، فتضعف الحماية لذلك وتسقط قوة الدولة ويتجاسر عليها من يجاورها من الدول، أو من هو تحت يديها من القبائل والعصائب، ويأذن الله فيها بالفناء الذى كتبه على خليقته.

وأيضا: فالترف مفسد للخلق بما يحصل فى النفس من ألوان الشر والسفسفة وعوائدها، كما يأتى فى فصل الحضارة فتذهب منهم خلال الخير التى كانت علامة على الملك ودليلا عليه، ويتصفون بما يناقضها من خلال الشر، فيكون علامة على الإدبار والانقراض، بما جعل الله من ذلك فى خليقته، وتأخذ الدولة مبادىء العطب وتتضعضع أحوالها، وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم إلى أن يقضى عليها.

الوجه الثالث: أن طبيعة الملك تقتضى الدعة كما ذكرناه. وإذا اتخذوا الدعة والراحة مألفا وخلقا، صار لهم ذلك طبيعة وجبلة شأن العوائد كلها وإيلافها، فتربى أجيالهم الحادثة فى غضارة العيش ومهاد الترف والدعة. وينقلب خلق التوحش وينسون عوائد البداوة التى كان بها الملك من شدة البأس، وتعود الافتراس، وركوب البيداء، وهداية القفر فلا يفرق بينهم وبين السوقة من الحضر إلا فى الثقافة، والشارة فتضعف حمايتهم، ويذهب بأسهم، وتنخضد شوكتهم ويعود وبال ذلك على الدولة بما تلبس من ثياب الهرم، ثم لايزالون بعوائد الترف

(١) يعنى: مندوحة، وهذا الاستعمال غير سليم.

والْحضارةِ وَالسُّكُونِ وَالدَّعةِ ورِقَّةِ الْحاشِيةِ فى جَميعِ أحْوالِهِمْ ، وَيَنْغَمِسُونَ فِيهَا ، وَهُمْ فى ذٰلِكَ يَبْعُدُونَ عَنِ الْبِدَاوَةِ وَالْخُشُونَةِ ، وَيَنْسَلِخُونَ عَنْهَا شَيْئًا فَشَيْئًا ، وينْسونَ خُلُقَ الْبسالَةِ الَّتى كَانَتْ بِهَا الْحِماية والْمُدافعةُ حتَّى يعُودُوا عِيالاً على حامِيةٍ أُخرى إنْ كَانَتْ لَهُمْ .

واعْتَبرْ ذٰلِكَ فى الدوَلِ الَّتى أخْبارُها فى الصُّحُفِ لَدَيْكَ تَجِدْ ماقُلْتُهُ لَكَ مِنْ ذٰلِكَ صحِيحًا مِنْ غَيْرِ رِيبة . ورُبَّما يحْدُثُ فى الدَّوْلَةِ إذَا طَرقَهَا هٰذَا الْهَرمُ بِالتَّرفِ والرَّاحةِ ، أنْ يتَخيَّر صاحِبُ الدَّوْلَةِ أنْصارًا وشِيعةً مِن غيْرِ جِلْدتِهِمْ ، مِمَّنْ تَعوَّدَ الْخُشونَةَ فيَتَّخِذُهُمْ جُنْدًا يكُونُ أصْبر على الْحرْبِ ، وأقْدر على مُعاناةِ الشَّدائِدِ من الْجُوعِ والشَّظَفِ ، ويكُونُ ذٰلِكَ دواءً لِلدَّوْلَةِ مِن الْهرمِ ، الَّذى عساهُ أنْ يطْرُقَهَا حتَّى يأْذَنَ اللهُ فيها بِأمْرِهِ .

وهٰذَا كَما وقَع فى دوْلَةِ التُّرْكِ بِالْمشْرِقِ : فَإنَّ غالِب جُنْدِها الْموالى من التُّرْكِ ، فتَتَخيَّرُ مُلُوكُهمْ مِنْ أُولَئِكَ الْمماليكِ الْمجْلُوبِين إلَيْهِمْ فُرْسانًا وجُنْدًا ، فيكُونُونَ أجْرأَ على الْحرْبِ وأصْبر على الشَّظَفِ مِنْ أبْناءِ الْمماليكِ الَّذين كَانُوا قبْلهمْ وربُوا فى ماءِ النَّعيمِ والسُّلْطانِ وظِلِّهِ ، وكَذٰلِكَ فى دوْلَةِ الْمُوحِّدين بِأفْرِيقيَةَ فَإنَّ صاحِبها كَثِيرًا ما يتَّخِذُ أجْناده مِنْ زَنَاتَةَ والْعرب ، ويسْتكْثِرُ مِنْهُمْ ويتْرُكُ أهْلَ الدَّوْلَةِ الْمُتعوِّدين لِلتَّرفِ ، فتَسْتجِدُّ الدَّوْلَة بِذٰلِكَ عُمْرًا آخر سالِمًا مِن الْهرمِ واللهُ وارِثُ الأرْض ومنْ عليْهَا .

الفصل الرابع عشر

فى أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص

إعْلَمْ أنَّ الْعُمْر الطَّبِيعِىَّ لِلأشْخاصِ على مازعم الأطِبَّاءُ ، والْمُنَجِّمُونَ مائَةٌ وعِشْرُونَ سنَةً ، وهِى الْعُمْرُ فى كُلِّ جِيلٍ بِحسبِ الْقِرانَاتِ فيزِيدُ عنْ هٰذَا وينْقُصُ مِنْهُ ، فتَكُونُ أعْمارُ بعْضِ أهْلِ الْقِرانَاتِ مِائَةً تامَّةً ، وبعْضِهِمْ خمْسِين أوْثمانين أوْسبعين ، على ما تَقْتَضِيهِ أدِلَّةُ الْقِرانَاتِ عِنْد النَّاظِرِين فِيهَا وأعْمارُ هٰذِهِ الْمِلَّةِ مابيْن السِّتِّين إلَى السَّبْعِين كَما فى الْحدِيثِ ، ولَا يزِيدُ على الْعُمْرِ الطَّبِيعِىِّ الَّذى هُو مِائَةٌ وعِشْرُونَ إلَّا فى الصُّورِ النَّادِرةِ ، وعلَى الأوْضاعِ الْغرِيبَةِ من الْفَلَكِ ، كَما وقَع فى شَأْنِ نُوحٍ عليْهِ السَّلامِ وقَلِيلٍ ، مِنْ قوْمِ عاد وثَمُود .

وأمَّا أعْمارُ الدُّولِ أيْضًا : وإنْ كَانَتْ تَخْتَلِفُ بِحسب الْقِرانَاتِ إلَّا أنَّ الدَّوْلَةَ فى الْغالِبِ لاتَعْدُو أعْمار ثَلاثَةِ أجْيال ، والْجِيلُ هُو عُمْرُ شَخْصٍ واحِدٍ مِن الْعُمْرِ الْوسطِ ، فيكُونُ أرْبعين ، الَّذى هو انْتِهاءُ النُّمُوِّ والنُّشُوءِ إلَى غايتِهِ ، قال تَعالَى : «حتَّى إذَا بلَغَ أشُدَّهُ وبلَغ أرْبعِيْن سنَة»(١) ولِهٰذَا قُلْنَا : إنَّ عُمْر الشَّخْصِ الْواحِدِ هُو عُمْرُ الْجِيلِ ، ويُؤَيِّدُهُ ماذَكَرْنَاهُ فى حِكْمةِ التِّيهِ ، الَّذى وقَع فى بنِى إسْرائيل ، وأنَّ الْمقْصُود بِالأرْبعين فِيهِ فَنَاءُ الْجِيلِ الأحْياءِ ، ونَشْأةُ جِيلٍ آخر لَمْ يعْهَدُوا الذُّلَّ ولَا عرفُوهُ فدلَّ على اعْتِبارِ الأرْبعين فى عُمْرِ الْجِيلِ الَّذى هُو عُمْرُ الشَّخْصِ الْواحِدِ .

(١) الآية رقم : ١٥ من سورة الأحقاف .

وإنما قلنا إنّ عُمْر الدَّوْلَةِ لايعْدُو فى الْغالبِ ثَلاثَةَ أجْيال : لأنَّ الْجيلَ الأوَّل لَمْ يزالُوا على خُلُقِ الْبداوةِ وخُشُونتِهَا وتوحُّشِهَا مِنْ شَظَفِ الْعيْشِ والْبسالَةِ والافْتراسِ والاشْتراكِ فى الْمجْدِ، فَلا تزالُ بذلِكَ سَوْرَةُ الْعَصَبِيَّةِ محفوظَةً فِيهِم ، فَحَدُّهُمْ مُرْهَفٌ وَجانِبُهُمْ مَرْهُوبٌ ، وَالنَّاسُ لَهُم مَغْلُوبُونَ ، وَالْجِيلُ الثَّانِى تَحَوَّلَ حَالُهُم بِالْمُلْكِ وَالتَّرفُّهِ ، مِن الْبَدَاوَةِ إلَى الْحِضَارَةِ وَمِنَ الشَّظَفِ إلَى التَّرَفِ وَالْخِصْبِ وَمِنَ الاشْتِرَاكِ فى الْمَجْدِ إلَى انْفِرادِ الْوَاحِدِ بِهِ وكَسَلِ الْبَاقِينَ عنِ السَّعْيِ فِيهِ ، وَمِنْ عِزِّ الاسْتِطالَةِ إِلَى ذُلِّ الاسْتِكانَةِ ، فَتَنْكَسِرُ سَوْرَةُ الْعَصَبِيَّةِ بَعْضَ الشَّىْءِ وَتُؤْنَسُ مِنْهُمُ الْمَهانَةُ وَالْخُضُوعُ ، وَيَبقَى لَهُمُ الْكَثِيرُ مِنْ ذلِكَ بِمَا أدركُوا الْجِيلَ الأوَّلَ وَباشَرُوا أحْوالَهُمْ وَشَاهَدُوا اعتزازَهُمْ وَسَعْيَهُم إلَى الْمَجْدِ، وَمَرامِيهِمْ فى الْمُدافَعَةِ والْحِمايةِ فَلا يسعُهم تركُ ذلِكَ بِالْكُلِّيَّةِ ، وإنْ ذهب مِنْهُ ما ذهب ويكُونُونَ على رجاء مِنْ مُراجعَةِ الأحْوالِ الَّتِى كَانَتْ لِلْجِيلِ الأوَّلِ أوعلى ظَنٍّ مِنْ وُجُودِها فيهِمْ .

وأمّا الْجِيلُ الثَّالِثُ : فَيَنْسَوْنَ عهْدَ الْبداوةِ والْخُشُونَةِ كَأنْ لَمْ تَكُنْ ، ويفْقِدُونَ حلاوةَ (١) الْعِزِّ والْعصبيَّةِ بِما هُمْ فِيهِ مِنْ ملكَةِ الْقَهْرِ ، ويبْلُغُ فِيهِمُ التَّرفُ غايَتَهُ بِما تَفَنَّقُوهُ (٢) من النَّعيم وغضارةِ فَيَصِيرُونَ عيالاً عَلَى الدَّوْلَةِ ، وَمِنْ جُمْلَةِ النِّساء وَالْوِلْدان الْمُحْتاجِينَ لِلْمُدافَعَةِ عَنْهُمْ ، وتَسْقُطُ الْعَصَبِيَّةُ بِالْجُمْلَةِ ، وَيَنْسَوْنَ الْحِمايَةَ وَالْمُدافَعَةَ وَالْمُطالَبَةَ وَيُلَبِّسُونَ عَلَى النَّاسِ فى الشَّارَةِ وَالزِّيِّ وَرُكُوبِ الْخَيْلِ وَحُسْنِ الثَّقافَةِ يُمَوِّهُونَ بِها وَهُمْ فى الأكْثَرِ أجْبَنُ مِنَ النِّسْوانِ عَلَى ظُهُورِهَا . فَإذَا جاءَ الْمُطالِبُ لَهُمْ لَمْ يُقاوِمُوا مُدافَعته ، فَيَحْتاجُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ إلَى الاسْتِظْهارِ بِسِواهُمْ مِنْ أهْلِ النَّجْدَةِ وَيَسْتَكْثِرُ بِالْمَوَالِى ، وَيَصْطَنِعُ مَنْ يُغْنِى عنِ الدَّوْلَةِ بَعْضَ الْغَنَاء ، حَتَّى يَتَأذَّنَ اللهُ بِانْقِراضِها ، فَتَذْهَبَ الدَّوْلَة بِمَا حملَتْ .

فهذه كَمَا تَرَاهُ ثَلاثَةُ أجْيال فيها ، يَكُونُ هَرَمُ الدَّوْلَةِ وَتَخَلُّفُها ، ولِهذَا كَانَ انْقِراضُ الْحَسَبِ فى الْجِيلِ الرَّابعِ كَمَا مَرَّ فى أنَّ الْمَجْدَ وَالْحَسَبَ ، إنَّمَا هُوَ أرْبَعَةُ آباء . وَقَدْ أتيْنَاكَ فِيهِ بِبُرْهَانٍ طَبِيعِيٍّ كافٍ ظَاهِرٍ مبْنِيٍّ عَلَى مَامَهَّدْنَاهُ قَبْلُ مِنَ الْمُقَدِّمَاتِ ، فَتَأمَّلْهُ فَلَنْ تَعْدُوَ وَجْهَ الْحَقِّ ، إنْ كُنْتَ مِنْ أهْلِ الإنْصافِ .

وَهذِهِ الأجْيالُ الثَّلاثَةُ : عُمْرُهَا مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سنَةً عَلَى مَامَرَّ وَلا تَعْدُو الدُّوَلُ فى الْغالِبِ هذَا الْعُمْرَ بِتَقْرِيبِ قَبْلَهُ أوْ بَعْدَهُ ، إلَّا إنْ عرَضَ لَهَا عارِضٌ آخر ، مِنْ فِقْدَانِ الْمُطالِبِ فَيكُونُ الْهَرَمُ حاصِلاً مُسْتَوْلِياً ، وَالطَّالِبُ لَمْ يحْضُرْهَا وَلَوْ قَدْ جاءَ الطَّالِبُ لَمَا وَجدَ مُدافِعاً « فَإذَا جاءَ أجَلُهُمْ لايَسْتَأخِرُونَ سَاعَةً وَلايَسْتَقْدِمُونَ » (١) ، فَهذَا الْعُمْرُ لِلدَّوْلَةِ بِمَثابَةِ عُمْرِ الشَّخْصِ مِنَ التَّزيُّدِ إلَى سِنِّ الْوُقُوفِ ثُمَّ إلَى سِنِّ الرُّجُوعِ ، وَلِهذَا يَجْرِى عَلَى ألْسِنَةِ النَّاسِ فى الْمَشْهُورِ أنَّ عُمْرَ الدَّوْلَةِ مِائَةُ سنَةٍ ، وَهذَا مَعْنَاهُ

(١) كذا فى الأصل ؛ ولعلها محرفة عن خلال .

(٢) تقلبوا فيه من النعيم .

(١) الآية ٦١ من سورة النحل .

فاعتبره واتخذ منه قانوناً يصحح لك عدد الآباء في عمود النسب، الذي تريده من قبل معرفة السنين الماضية، إذا كنت قد استربت في عددهم، وكانت السنون الماضية منذ أولهم محصلة لديك، فعد لكل مائة من السنين ثلاثة من الآباء، فإن نفدت على هذا القياس مع نفود عددهم فهو صحيح، وإن نقصت عنه بجيل فقد غلط عددهم بزيادة واحد في عمود النسب وإن زادت بمثله فقد سقط واحد وكذلك تأخذ عدد السنين من عددهم إذا كان محصلاً لديك فتأمله تجده في الغالب صحيحاً «والله يقدر الليل والنهار»(١) .

الفصل الخامس عشر

في انتقال الدول من البداوة إلى الحضارة

إعلم أن هذه الأطوار طبيعية للدول، فإن الغلب الذي يكون به الملك، إنما هو بالعصبية وبما يتبعها من شدة البأس وتعود الافتراس، ولا يكون ذلك غالباً إلا مع البداوة ؛ فطور الدولة من أولها بداوة، ثم إذا حصل الملك تبعه الرفه، واتساع الأحوال. والحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع . المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية، وسائر عوائد المنزل وأحواله، فلكل واحد منها صنائع في استجادته، والتأنق فيه، تختص به ويتلو بعضها بعضاً وتتكثر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعم بأحوال الترف، وما تتلون به من العوائد فصار طور الحضارة في الملك يتبع طور البداوة ضرورة لضرورة تبعية الرفه للملك .

وأهل الدول أبداً يقلدون في طور الحضارة وأحوالها للدولة السابقة قبلهم. فأحوالهم يشاهدون ومنهم في الغالب يأخذون . ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح، وملكوا فارس والروم واستخدموا بناتهم وأبناءهم ، ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة ؛ فقد حكي أنه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقاعاً، وعثروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجينهم ملحاً، ومثال ذلك كثير، فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم في مهنهم وحاجات منازلهم، واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقومة عليهم ، أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فيه مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن في أحواله، فبلغوا الغاية في ذلك وتطوروا بطور الحضارة والترف في الأحوال ، واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخرثي وكذلك أحوالهم في أيام المباهاة والولائم ، وليالي الإعراس(١) ، فأتوا من ذلك وراء الغاية. وانظر ما نقله المسعودي والطبري وغيرهما في إعراس المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل ، وما بذل أبوها لحاشية المأمون حين وافاه في خطبتها

(١) الآية رقم ٢٠ من سورة المزمل.

(١) يعني ما نسميه الآن حفلات الزفاف.

إلى داره ، بِفَمِ الصُّلْح وركب إليها في السفين ، وما أنفق في إملاكها ، وما نحلها المأمون ، وأنفق في عرسها ، تقف من ذلك على العجب .

فمنه أن الحسن بن سهل نثر يوم الإملاك[١] في الصنيع الذي حضره حاشية المأمون : فنثر على الطبقة الأولى منهم بنادق المسك ملتوتة على الرقاع بالضياع ، والعقار مسوغة لمن حصلت في يده يقع لكل واحد منهم ما أداه إليه الاتفاق والبخت .

وفرق على الطبقة الثانية بدر[٢] الدنانير ، في كل بدرة عشرة آلاف ، وفرق على الطبقة الثالثة بدر الدراهم كذلك بعد أن أنفق على مقامة المأمون بداره أضعاف ذلك .

ومنه : أن المأمون أعطاها في مهرها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت ، وأوقد شموع العنبر في كل واحدة مائة منّ ، وهو رطل وثلثان[٣] وبسط لها فرشا كان الحصير منها منسوجا بالذهب مكللا بالدر والياقوت ، وقال المأمون حين رآه : قاتل الله أبا نواس ، كأنه أبصر هذا حيث يقول في صفة الخمر :

كأن صغرى وكبرى من فواقعها
حصباء در على أرض من الذهب

وأعد بدار الطبخ من الحطب ، لليلة الوليمة نقل مائة وأربعين بغلا مدة عام كامل ثلاث مرات في كل يوم ، وفنى الحطب لليلتين وأوقدوا الجريد يصبون عليه الزيت ، وأوعز إلى النواتية بإحضار السفن لإجازة الخواص من الناس ، بدجلة من بغداد إلى قصور الملك بمدينة المأمون ، لحضور الوليمة فكانت الحراقات[١] المعدة لذلك ثلاثين ألفا ، أجازوا الناس فيها أخريات نهارهم ، وكثير من هذا وأمثاله .

وكذلك عرس المأمون بن ذي النون بطليطلة : نقله ابن بسام في كتاب الذخيرة وابن حيان بعد أن كانوا كلهم في الطور الأول من البداوة عاجزين عن ذلك جملة لفقدان أسبابه والقائمين على صنائعه في غضاضتهم وسذاجتهم . يذكر أن الحجاج أولم في اختتان بعض ولده فاستحضر بعض الدهاقين ، يسأله عن ولائم الفرس ، وقال : أخبرني بأعظم صنيع شهدته . فقال له : نعم ، أيها الأمير شهدت بعض مرازبة كسرى ، وقد صنع ، لأهل فارس صنيعا أحضر فيه صحاف الذهب على أخونة الفضة أربعا على كل واحد وتحمله أربع وصائف ، ويجلس عليه أربعة من الناس ، فإذا طعموا أتبعوا أربعتهم المائدة بصحافها ووصفائها . فقال الحجاج يا غلام . انحر الجزر وأطعم الناس ، وعلم أنه لا يستقل بهذه الأبهة وكذلك كانت .

ومن هذا الباب أعطية بني أمية وجوائزهم ، فإنما كان أكثرها الإبل أخذا بمذاهب العرب وبداوتهم ، ثم كانت الجوائز في دولة بني العباس

---

(١) حفل الزواج .

(٢) جمع بدرة وهي في الأصل عشرة آلاف درهم ، ولكنها هنا دنانير .

(٣) قوله وثلثان والذي كتب في اللغة أن المن رطل وقيل رطلان .

(١) الحراقات بالفتح جمع حراقة سفينة فيها مرامي نار يرمى بها العدو .

وَالْعُبَيْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَاعَلِمْتَ مِنْ أَحْمَالِ الْمَالِ وَتُخُوتِ الثِّيَابِ ،وَإِعْدَادِ الْخَيْلِ بِمَرَاكِبِهَا. وَهٰكَذَا ، كَانَ شَأْنُ كُتَامَةَ مَعَ الْأَغَالِبَةِ بِأَفْرِيقِيَّةَ ، وَكَذَا بَنِى طُغْجَ بِمِصْرَ ، وَشَأْنُ لَمْتُونَةَ مَعَ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ وَالْمُوَحِّدِينَ. وَكَذٰلِكَ شَأْنُ زَنَاتَةَ مَعَ الْمُوَحِّدِينَ وَهَلُمَّ جَرًّا ؛ تَنْتَقِلُ الْحِضَارَةُ مِنَ الدُّوَلِ السَّالِفَةِ إِلَى الدُّوَلِ الْخَالِفَةِ ، فَانْتَقَلَتْ حِضَارَةُ الْفُرْسِ لِلْعَرَبِ بَنِى أُمَيَّةَ وَبَنِى الْعَبَّاسِ ، وَانْتَقَلَتْ حِضَارَةُ بَنِى أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ ، إِلَى مُلُوكِ الْمَغْرِبِ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ ،وَزَنَاتَةَ لِهٰذَا الْعَهْدِ ، وَانْتَقَلَتْ حِضَارَةُ بَنِى الْعَبَّاسِ إِلَى الدَّيْلَمِ ،ثُمَّ إِلَى التُّرْكِ ،ثُمَّ إِلَى السَّلْجُوقِيَّةِ ثُمَّ إِلَى التُّرْكِ الْمَمَالِيكِ بِمِصْرَ وَالتَّتَرِ بِالْعِرَاقَيْنِ .

وَعَلَى قَدْرِ عِظَمِ الدَّوْلَةِ يَكُونُ شَأْنُهَا فِى الْحِضَارَةِ ، إِذْ أُمُورُ الْحِضَارَةِ مِنْ تَوَابِعِ التَّرَفِ ، وَالتَّرَفُ مِنْ تَوَابِعِ الثَّرْوَةِ وَالنِّعْمَةِ ، وَالثَّرْوَةُ وَالنِّعْمَةُ مِنْ تَوَابِعِ الْمُلْكِ وَمِقْدَارِ مَا يَسْتَوْلِى عَلَيْهِ أَهْلُ الدَّوْلَةِ ، فَعَلَى نِسْبَةِ الْمُلْكِ ، يَكُونُ ذٰلِكَ كُلُّهُ ، فَاعْتَبِرْهُ وَتَفَهَّمْهُ ، وَتَأَمَّلْهُ تَجِدْهُ صَحِيحًا فِى الْعُمْرَانِ ، وَاللهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

الفصل السادس عشر

فى أن الترف يزيد الدولة فى أولها قوة إلى قوتها

وَالسَّبَبُ فِى ذٰلِكَ :أَنَّ الْقَبِيلَ إِذَا حَصَلَ لَهُمُ الْمُلْكُ وَالتَّرَفُ ، كَثُرَ التَّنَاسُلُ وَالْوُلْدُ وَالْعُمُومِيَّةُ ، فَكَثُرَتِ الْعِصَابَةُ وَاسْتَكْثَرُوا أَيْضًا مِنَ الْمَوَالِى وَالصَّنَائِعِ وَرُبِيَتْ أَجْيَالُهُمْ فِى جَوِّ ذٰلِكَ النَّعِيمِ ، وَالرَّفَهِ فَازْدَادُوا بِهِ عَدَدًا إِلَى عَدَدِهِمْ ، وَقُوَّةً إِلَى قُوَّتِهِمْ ، بِسَبَبِ كَثْرَةِ الْعَصَائِبِ حِينَئِذٍ بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ ، فَإِذَا ذَهَبَ الْجِيلُ الْأَوَّلُ وَالثَّانِى ، وَأَخَذَتِ الدَّوْلَةُ فِى الْهَرَمِ ، لَمْ تَسْتَقِلَّ أُولٰئِكَ الصَّنَائِعُ وَالْمَوَالِى بِأَنْفُسِهِمْ ، فِى تَأْسِيسِ الدَّوْلَةِ وَتَمْهِيدِ مُلْكِهَا لِأَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَىْءٌ ، إِنَّمَا كَانُوا عِيَالاً عَلَى أَهْلِهَا وَمَعُونَةً لَهَا ، فَإِذَا ذَهَبَ الْأَصْلُ لَمْ يَسْتَقِلَّ الْفَرْعُ بِالرُّسُوخِ ، فَيَذْهَبُ وَيَتَلَاشَى ، وَلَا تَبْقَى الدَّوْلَةُ عَلَى حَالِهَا مِنَ الْقُوَّةِ.

وَاعْتَبِرْ هٰذَا بِمَا وَقَعَ فِى الدَّوْلَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِى الْإِسْلَامِ ، كَانَ عَدَدُ الْعَرَبِ كَمَا قُلْنَا لِعَهْدِ النُّبُوَّةِ وَالْخِلَافَةِ مِائَةً وَخَمْسِينَ أَلْفًا وَمَا يُقَارِبُهَا مِنْ مُضَرَ وَقَحْطَانَ ، وَلَمَّا بَلَغَ التَّرَفُ مَبَالِغَهُ فِى الدَّوْلَةِ ، وَتَوَفَّرَ نُمُوُّهُمْ بِتَوَفُّرِ النِّعْمَةِ وَاسْتَكْثَرَ الْخُلَفَاءُ مِنَ الْمَوَالِى وَالصَّنَائِعِ ، بَلَغَ ذٰلِكَ الْعَدَدُ إِلَى أَضْعَافِهِ . يُقَالُ إِنَّ الْمُعْتَصِمَ نَازَلَ عَمُّورِيَّةَ لَمَّا افْتَتَحَهَا فِى تِسْعِمِائَةِ أَلْفٍ ، وَلَا يَبْعُدُ مِثْلُ هٰذَا الْعَدَدِ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا ، إِذَا اعْتَبَرْتَ حَامِيَتَهُمْ فِى الثُّغُورِ الدَّانِيَةِ وَالْقَاصِيَةِ شَرْقًا وَغَرْبًا ، إِلَى الْجُنْدِ الْحَامِلِينَ سَرِيرَ الْمُلْكِ وَالْمَوَالِى وَالْمُصْطَنَعِينَ . وَقَالَ الْمَسْعُودِىُّ : أَحْصَى بَنُو الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ خَاصَّةً أَيَّامَ الْمَأْمُونَ لِلْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ فَكَانُوا ثَلَاثِينَ أَلْفًا ، بَيْنَ ذُكْرَانٍ وَإِنَاثٍ . فَانْظُرْ مَبَالِغَ هٰذَا الْعَدَدِ لِأَقَلَّ مِنْ مِائَتَى سَنَةٍ وَاعْلَمْ أَنَّ سَبَبَهُ الرَّفَهُ وَالنَّعِيمُ الَّذِى حَصَلَ لِلدَّوْلَةِ وَرُبِىَ فِيهِ أَجْيَالُهُمْ ، وَإِلَّا فَعَدَدُ الْعَرَبِ لِأَوَّلِ الْفَتْحِ لَمْ يَبْلُغْ هٰذَا وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ ، وَاللهُ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ.

الفصل السابع عشر

فى أطوار الدولة واختلاف أحوالها ، وخلق أهلها باختلاف الأطوار

إعْلَمْ أنَّ الدَّوْلَةَ تَنْتَقِلُ فى أطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ وَحَالَاتٍ مُتَجَدِّدَةٍ ، وَيَكْتَسِبُ الْقَائِمُونَ بِهَا فى كُلِّ طَوْرٍ خُلُقًا مِنْ أحْوَالِ ذٰلِكَ الطَّوْرِ لَا يَكُونُ مِثْلُهُ فى الطَّوْرِ الْآخَرِ ، لِأنَّ الْخُلُقَ تَابِعٌ بِالطَّبْعِ لِمِزَاجِ الْحَالِ الَّذِى هُوَ فِيهِ . وَحَالَاتُ الدَّوْلَةِ وَأطْوَارُهَا لَا تَعْدُو فى الْغَالِبِ خَمْسَةَ أطْوَارٍ :

الطَّوْرُ الْأوَّلُ طَوْرُ الظَّفَرِ بِالْبُغْيَةِ ، وَغَلَبِ الْمُدَافِعِ وَالْمُمَانِعِ ، وَالاسْتِيلَاءِ عَلَى الْمُلْكِ ، وَانْتِزَاعِهِ مِنْ أيْدِى الدَّوْلَةِ السَّالِفَةِ قَبْلَهَا . فَيَكُونُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ فِى هٰذَا الطَّوْرِ أُسْوَةَ قَوْمِهِ فى اكْتِسَابِ الْمَجْدِ وَجِبَايَةِ الْمَالِ وَالْمُدَافَعَةِ عَنِ الْحَوْزَةِ وَالْحِمَايَةِ ، لَا يَنْفَرِدُ دُونَهُمْ بِشَىْءٍ ؛ لِأنَّ ذٰلِكَ هُوَ مُقْتَضَى الْعَصَبِيَّةِ الَّتِى وَقَعَ بِهَا الْغَلَبُ ، وَهِىَ لَمْ تَزَلْ بَعْدُ بِحَالِهَا .

الطَّوْرُ الثَّانِى : طَوْرُ الاسْتِبْدَادِ عَلَى قَوْمِهِ ، وَالانْفِرَادِ دُونَهُمْ بِالْمُلْكِ وَكَبْحِهِمْ عَنِ التَّطَاوُلِ لِلْمُسَاهَمَةِ وَالْمُشَارَكَةِ . وَيَكُونُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ فى هٰذَا الطَّوْرِ مَعْنِيًّا بِاصْطِنَاعِ الرِّجَالِ ، وَاتِّخَاذِ الْمَوَالِى وَالصَّنَائِعِ وَالاسْتِكْثَارِ مِنْ ذٰلِكَ ؛ لِجَدْعِ أُنُوفِ أهْلِ عَصَبِيَّتِهِ وَعَشِيرَتِهِ الْمُقَاسِمِينَ لَهُ فى نَسَبِهِ ، الضَّارِبِينَ فى الْمُلْكِ ، بِمِثْلِ سَهْمِهِ ، فَهُوَ يُدَافِعُهُمْ عَنِ الْأمْرِ ، وَيَصُدُّهُمْ عَنْ مَوَارِدِهِ ، وَيَرُدُّهُمْ عَلَى أعْقَابِهِمْ أنْ يَخْلُصُوا إلَيْهِ (١) حَتَّى يُقِرَّ الْأمْرَ فى نِصَابِهِ ، وَيُفْرِدَ أهْلَ بَيْتِهِ بِمَا يَبْنِى مِنْ مَجْدِهِ ، فَيُعَانِى مِنْ مُدَافَعَتِهِمْ وَمُغَالَبَتِهِمْ مِثْلَ مَا عَانَاهُ الْأوَّلُونَ فى طَلَبِ الْأمْرِ أوْ أشَدَّ ، لِأنَّ الْأوَّلِينَ دَافَعُوا الْأجَانِبَ فَكَانَ ظُهَرَاؤُهُمْ عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ أهْلُ الْعَصَبِيَّةِ بِأجْمَعِهِمْ ؛ وَهٰذَا يُدَافِعُ الْأقَارِبَ لَا يُظَاهِرُهُ عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ إلَّا الْأقَلُّ مِنَ الْأبَاعِدِ ، فَيَرْكَبُ صَعْبًا مِنَ الْأمْرِ .

الطَّوْرُ الثَّالِثُ : طَوْرُ الْفَرَاغِ وَالدَّعَةِ لِتَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ الْمُلْكِ مِمَّا تَنْزِعُ طِبَاعُ الْبَشَرِ إلَيْهِ ، مِنْ تَحْصِيلِ الْمَالِ وَتَخْلِيدِ الْآثَارِ ، وَبُعْدِ الصِّيتِ ؛ فَيَسْتَفْرِغُ وُسْعَهُ فى الْجِبَايَةِ وَضَبْطِ الدَّخْلِ وَالْخَرْجِ ، وَإحْصَاءِ النَّفَقَاتِ وَالْقَصْدِ فِيهَا وَتَشْيِيدِ الْمَبَانِى الْحَافِلَةِ وَالْمَصَانِعِ الْعَظِيمَةِ وَالْأمْصَارِ الْمُتَّسِعَةِ ، وَالْهَيَاكِلِ الْمُرْتَفِعَةِ ، وَإجَازَةِ (١) الْوُفُودِ مِنْ أشْرَافِ الْأُمَمِ وَوُجُوهِ الْقَبَائِلِ ، وَبَثِّ الْمَعْرُوفِ فى أهْلِهِ ؛ هٰذَا مَعَ التَّوْسِعَةِ عَلَى صَنَائِعِهِ وَحَاشِيَتِهِ فى أحْوَالِهِمْ بِالْمَالِ ، وَالْجَاهِ وَاعْتِرَاضِ (٢) جُنُودِهِ ، وَإدْرَارِ أرْزَاقِهِمْ وَإنْصَافِهِمْ فى أعْطِيَاتِهِمْ لِكُلِّ هِلَالٍ ، حَتَّى يَظْهَرَ أثَرُ ذٰلِكَ عَلَيْهِمْ فى مَلَابِسِهِمْ وَشِكَّتِهِمْ (٣) وَشَارَاتِهِمْ يَوْمَ الزِّينَةِ ، فَيُبَاهِى بِهِمُ الدُّوَلَ الْمُسَالِمَةَ ، وَيُرْهِبُ الدُّوَلَ الْمُحَارِبَةَ . وَهٰذَا الطَّوْرُ آخِرُ أطْوَارِ الاسْتِبْدَادِ مِنْ أصْحَابِ الدَّوْلَةِ ، لِأنَّهُمْ فى هٰذِهِ الْأطْوَارِ كُلِّهَا مُسْتَقِلُّونَ بِآرَائِهِمْ ، بَانُونَ لِعِزِّهِمْ مُوضِحُونَ الطُّرُقَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ .

الطَّوْرُ الرَّابِعُ : طَوْرُ الْقُنُوعِ وَالْمُسَالَمَةِ . وَيَكُونُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ فى هٰذَا قَانِعًا بِمَا بَنَى أوَّلُوهُ ، سِلْمًا لِأنْظَارِهِ الْمُلُوكِ وَأقْتَالِهِ ، مُقَلِّدًا لِلْمَاضِينَ مِنْ

---

(١) يعنى يحول بينهم وبين الوصول إلى الحكم .

---

(١) منحها الجوائز الهدايا .

(٢) يعنى عرضهم وتفقد أحوالهم وإن كان اللفظ هنا لا يفيده .

(٣) الشكة : السلاح .

سَلَفِهِ ، فَيَتْبَعُ آثَارَهُمْ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ ، وَيَقْتَفِى طُرُقَهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَاهِجِ الاقْتِدَاءِ ، وَيَرَى أَنَّ فِى الْخُرُوجِ عَنْ تَقْلِيدِهِمْ فَسَادَ أَمْرِهِ ، وَأَنَّهُمْ أَبْصَرُ بِمَا بَنَوْا مِنْ مَجْدِهِ .

الطَّوْرُ الْخَامِسُ : طَوْرُ الْإِسْرَافِ وَالتَّبْذِيرِ ، وَيَكُونُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ فِى هٰذَا الطَّوْرِ مُتْلِفًا لِمَا جَمَعَ أَوَّلُوهُ فِى سَبِيلِ الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَاذِّ ، وَالْكَرَمِ عَلَى بِطَانَتِهِ وَفِى مَجَالِسِهِ ، وَاصْطِنَاعِ أَخْدَانِ السُّوءِ وَخَضْرَاءِ[١] الدِّمَنِ ، وَتَقْلِيدِهِمْ عَظِيمَاتِ الْأُمُورِ الَّتِى لَا يَسْتَقِلُّونَ بِحَمْلِهَا ، وَلَا يَعْرِفُونَ مَا يَأْتُونَ وَيَذَرُونَ مِنْهَا ، مُسْتَفْسِدًا لِكِبَارِ الْأَوْلِيَاءِ مِنْ قَوْمِهِ وَصَنَائِعِ سَلَفِهِ ، حَتَّى يَضْطَغِنُوا[٢] عَلَيْهِ ، وَيَتَخَاذَلُوا عَنْ نُصْرَتِهِ ، مُضَيِّعًا مِنْ جُنْدِهِ بِمَا أَنْفَقَ مِنْ أَعْطِيَاتِهِمْ فِى شَهَوَاتِهِ ، وَحَجَبَ عَنْهُمْ وَجْهَ مُبَاشَرَتِهِ وَتَفَقُّدِهِ . فَيَكُونُ مُخَرِّبًا لِمَا كَانَ سَلَفُهُ يُؤَسِّسُونَ ، وَهَادِمًا لِمَا كَانُوا يَبْنُونَ . وَفِى هٰذَا الطَّوْرِ تَحْصُلُ فِى الدَّوْلَةِ طَبِيعَةُ الْهَرَمِ ، وَيَسْتَوْلِى عَلَيْهَا الْمَرَضُ الْمُزْمِنُ الَّذِى لَا تَكَادُ تَخْلُصُ مِنْهُ ، وَلَا يَكُونُ لَهَا مَعَهُ بُرْءٌ إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ ، كَمَا نُبَيِّنُهُ فِى الْأَحْوَالِ الَّتِى نَسْرُدُهَا وَاللّٰهُ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

الفصل الثامن عشر

فى أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها فى أصلها

وَالسَّبَبُ فِى ذٰلِكَ أَنَّ الْآثَارَ إِنَّمَا تَحْدُثُ عَنِ الْقُوَّةِ الَّتِى بِهَا كَانَتْ أَوَّلًا ، وَعَلَى قَدْرِهَا يَكُونُ الْأَثَرُ . فَمِنْ ذٰلِكَ مَبَانِى الدَّوْلَةِ وَهَيَاكِلُهَا الْعَظِيمَةُ ، فَإِنَّمَا تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ قُوَّةِ الدَّوْلَةِ فِى أَصْلِهَا ، لِأَنَّهَا لَا تَتِمُّ إِلَّا بِكَثْرَةِ الْفَعَلَةِ ، وَاجْتِمَاعِ الْأَيْدِى عَلَى الْعَمَلِ بِالتَّعَاوُنِ فِيهِ . فَإِذَا كَانَتِ الدَّوْلَةُ عَظِيمَةً فَسِيحَةَ الْجَوَانِبِ ، كَثِيرَةَ الْمَمَالِكِ وَالرَّعَايَا ، كَانَ الْفَعَلَةُ كَثِيرِينَ جِدًّا ، وَحُشِرُوا مِنْ آفَاقِ الدَّوْلَةِ وَأَقْطَارِهَا ، فَتَمَّ الْعَمَلُ عَلَى أَعْظَمِ هَيَاكِلِهِ .

أَلَا تَرَى إِلَى مَصَانِعِ قَوْمِ عَادٍ وَثَمُودَ ، وَمَا قَصَّهُ الْقُرْآنُ عَنْهُمَا ؟ وَانْظُرْ بِالْمُشَاهَدَةِ إِيوَانَ كِسْرَى ، وَمَا اقْتَدَرَ فِيهِ الْفُرْسُ ، حَتَّى أَنَّهُ [لَمَّا][١] عَزَمَ الرَّشِيدُ عَلَى هَدْمِهِ وَتَخْرِيبِهِ ، فَتَكَاءَدَ[٢] عَنْهُ وَشَرَعَ فِيهِ ، ثُمَّ أَدْرَكَهُ الْعَجْزُ . وَقِصَّةُ اسْتِشَارَتِهِ لِيَحْيَى ابْنِ خَالِدٍ فِى شَأْنِهِ مَعْرُوفَةٌ . فَانْظُرْ كَيْفَ تَقْتَدِرُ دَوْلَةٌ عَلَى بِنَاءٍ لَا تَسْتَطِيعُ أُخْرَى هَدْمَهُ ـ مَعَ بَوْنِ مَا بَيْنَ الْهَدْمِ وَالْبِنَاءِ فِى السُّهُولَةِ ـ تَعْرِفْ مِنْ ذٰلِكَ بَوْنَ مَا بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ .

وَانْظُرْ إِلَى بَلَاطِ الْوَلِيدِ بِدِمَشْقَ ، وَجَامِعِ بَنِى أُمَيَّةَ بِقُرْطُبَةَ ، وَالْقَنْطَرَةِ الَّتِى عَلَى وَادِيهَا ، وَكَذٰلِكَ بِنَاءُ الْحَنَايَا لِجَلْبِ الْمَاءِ إِلَى قَرْطَاجَنَّةَ فِى الْقَنَاةِ الرَّاكِبَةِ عَلَيْهَا ، وَآثَارُ شَرْشَالَ بِالْمَغْرِبِ ، وَالْأَهْرَامُ بِمِصْرَ ، وَكَثِيرٌ مِنْ هٰذِهِ الْآثَارِ الْمَاثِلَةِ لِلْعِيَانِ ، يُعْلَمُ مِنْهُ اخْتِلَافُ الدُّوَلِ فِى الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ تِلْكَ الْأَفْعَالَ لِلْأَقْدَمِينَ إِنَّمَا كَانَتْ بِالْهِنْدَامِ[٣] وَاجْتِمَاعِ الْفَعَلَةِ وَكَثْرَةِ الْأَيْدِى عَلَيْهَا ، فَبِذٰلِكَ شُيِّدَتْ تِلْكَ الْهَيَاكِلُ وَالْمَصَانِعُ . وَلَا تَتَوَهَّمْ

---

(١) أصحاب المظاهر الخادعة من ذوى المنابت السيئة .

(٢) يطوون قلوبهم على الضغينة .

(١) زيادة زادها الدكتور وافى فى منشورته لأن السياق يقتضيها .

(٢) أعجزه وشق عليه . (٣) النظام وإعمال العقل وحسن الإدارة .

ما تتوهمه العامة أن ذلك لعظم أجسام الأقدمين عن أجسامنا فى أطرافها وأقطارها ؛ فليس بين البشر فى ذلك كبير بون . كما نجد بين الهياكل والآثار.

ولقد ولع القصاص بذلك وتغالوا فيه ؛ وسطروا عن عاد وثمود والعمالقة فى ذلك أخبارا عريقة فى الكذب ، من أغربها ما يحكون عن عوج ابن عناق(١) رجل من العمالقة الذين قاتلهم بنو إسرائيل فى الشام ، زعموا أنه كان لطوله يتناول السمك من البحر ، ويشويه إلى الشمس . ويزيدون إلى جهلهم بأحوال البشر ، الجهل بأحوال الكواكب ، لما اعتقدوا أن للشمس حرارة(٢) ، وأنها شديدة فيما قرب منها ، ولا يعلمون أن الحر هو الضوء ، وأن الضوء فيما قرب من الأرض أكثر ، لانعكاس الأشعة من سطح الأرض ، بمقابلة الأضواء ، فتتضاعف الحرارة هنا لأجل ذلك ، وإذا تجاوزت مطارح الأشعة المنعكسة ، فلا حر هنالك ، بل يكون فيه البرد ، حيث مجارى السحاب وأن الشمس فى نفسها لا حارة ولا باردة ، وإنما هى جسم بسيط مضىء ، لا مزاج له .

وكذلك عوج بن عناق ، هو فيما ذكروه من العمالقة ، أو من الكنعانيين الذين كانوا فريسة بنى إسرائيل عند فتحهم الشام ، وأطوال بنى إسرائيل وجسمانهم لذلك العهد قريبة من هياكلنا . يشهد لذلك أبواب بيت المقدس ؛ فإنها وإن خربت وجددت لم تزل المحافظة على أشكالها ومقادير أبوابها ، وكيف يكون التفاوت بين عوج وبين أهل عصره بهذا المقدار . وإنما مثار غلطهم فى هذا أنهم استعظموا آثار الأمم ، ولم يفهموا حال الدول فى الاجتماع والتعاون ، وما يحصل بذلك وبالهندام من الآثار العظيمة ، فصرفوه إلى قوة الأجسام وشدتها بعظم هياكلها ، وليس الأمر كذلك .

وقد زعم المسعودى ونقله عن الفلاسفة مزعما لا مستند له إلا التحكم ، وهو : أن الطبيعة التى هى جبلة للأجسام ، لما برأ الله الخلق ، كانت فى تمام المرة(١) ، ونهاية القوة والكمال ، وكانت الأعمار أطول ، والأجسام أقوى ، لكمال تلك الطبيعة ؛ فإن طروء الموت إنما هو بانحلال القوى الطبيعية . فإذا كانت قوية ، كانت الأعمار أزيد ، فكان العالم فى أولية نشأته تام الأعمار ، كامل الأجسام . ثم لم يزل يتناقص لنقصان المادة ، إلى أن بلغ إلى هذه الحال التى هو عليها . ثم لا يزال يتناقص إلى وقت الانحلال وانقراض العالم .

وهذا رأى لا وجه له إلا التحكم كما تراه . وليس له علة طبيعية ، ولا سبب برهانى ، ونحن نشاهد مساكن الأولين وأبوابهم وطرقهم فيما أحدثوه من البنيان والهياكل والديار والمساكن ، كديار ثمود المنحوتة فى الصلد من الصخر بيوتا صغارا ، وأبوابها ضيقة . وقد أشار صلى الله عليه

(١) قوله ابن عناق الذى فى القاموس فى باب الجيم عوج بن عوق بالواو والمشهور على ألسنة الناس : عنق بالنون . (٢) ما يذهب إليه يناقض ما يجمع العلماء عليه من وجود حرارة هائلة فى الشمس نفسها أما تقريره عن تناقص درجات الحرارة بالارتفاع عن سطح الأرض فصحيح.

(١) القوة ، ومتانة التكوين .

وَتسلّمَ إلَى أنّهَا دِيَارُهُمْ ، وَنَهَى عَنِ اسْتِعْمَالِ مِيَاهِهِمْ ، وَطَرْحِ مَا عُجِنَ بِهِ ، وَأَهْرَقَهُ(١) ، وَقَالَ : « لَاتَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ ». وَكَذٰلِكَ أَرْض عَاد وَمِصْرَ ، وَالشَّام ، وَسَائِرِ بِقَاعِ الْأَرْضِ شَرْقًا وَغَرْبًا . وَالْحَقُّ مَا قَرَّرْنَاهُ .

وَمِنْ آثَارِ الدُّوَلِ أَيْضًا : حَالُهَا فِى الْأَعْرَاسِ وَالْوَلَائِمِ ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِى وَلِيمَةِ بُورَان(٢) ، وَصنيع الْحَجَّاجِ ، وَابْنِ ذِى النُّون ، وقَدْ مَرَّ ذٰلِكَ كُلُّهُ .

وَمِنْ آثَارِها أَيْضًا : عَطَايَا الدُّوَلِ ، وَأَنَّهَا تَكُونُ عَلَى نِسْبَتِهَا ، وَيَظْهَرُ ذٰلِكَ فِيهَا وَلَوْ أَشْرَفَتْ عَلَى الْهَرَمِ ، فَإِنَّ الْهِمَمَ الَّتى لِأَهْلِ الدَّوْلَةِ ، تَكُون عَلَى نِسْبَةِ قُوَّةِ مُلْكِهِمْ وَغَلَبِهِمْ لِلنَّاسِ ، وَالْهِمم لَاتَزَالُ مُصَاحِبَةً لَهُمْ إِلَى انْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ ، وَاعْتَبِرْ ذٰلِكَ بِجَوَائِزِ ابْنِ ذِى يَزَنَ لوفْدِ قُرَيْشٍ ، كَيْفَ أَعْطَاهُمْ مِنْ أَرْطَالِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْأَعْبُدِ(٣) وَالْوَصَائِفِ عَشْرًا عَشْرًا ، وَمِنْ كَرِشِ الْعَنْبَرِ واحِدةً ، وَأَضْعَفَ ذٰلِكَ بِعَشْرَةِ أَمْثَالِهِ لِعَبْدِ الْمُطَّلِب ؛ وَإِنَّمَا مُلْكُهُ يَوْمَئِذٍ قَرَارَةُ الْيَمَنِ خَاصَّةً تَحْتَ اسْتِبْدَادِ فَارِس ، وَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلى ذٰلِكَ هِمَّةُ نَفْسِه بِمَا كَانَ لِقَوْمِهِ التَّبَابِعَةِ مِنَ الْمُلْكِ فِى الْأَرْضِ وَالْغَلَبِ عَلَى الْأُمَمِ فِى الْعِرَاقَيْنِ وَالْهِنْدِ وَالْمغْرِبِ .

وَكَانَ الصِّنْهَاجِيُّونَ بِأَفْرِيقِيَّةَ أَيْضًا إِذَا أَجَازُوا الْوَفْدَ مِنْ أُمَرَاءِ زَنَاتَةَ الْوافِدِينَ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّمَا يُعْطُونَهُمُ الْمَالَ أَحْمَالاً ، وَالْكَسَاءِ تُخُوتًا(١) مَمْلُوءَةً وَالْحُمْلَانَ نَجَائِبَ(٢) عَدِيدَةً . وَفِى تَارِيخِ ابْنِ الرَّقِيقِ مِنْ ذٰلِكَ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ . وَكَذٰلِكَ كَانَ عَطَاءُ الْبَرَامِكَةِ ، وَجَوَائِزُهُمْ وَنَفَقَاتُهُمْ . وَكَانُوا إِذَا كَسَبُوا مُعْدِمًا ، فَإِنَّمَا هُوَ الْوِلَايَةُ وَالنِّعْمَةُ آخِرَ الدَّهْرِ لَاالْعَطَاءُ الَّذى يَسْتَنْفِدُه يَوْمٌ أَوْ بَعْض يَوْم . وَأَخْبَارُهُمْ فِى ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ مَسْطُورَةٌ ، وَهِىَ كُلُّهَا عَلَى نِسْبَةِ الدُّوَلِ جَارِيَةٌ .

هٰذَا جَوْهَرُ الصِّقِلِّى الْكَاتِبُ ، قَائِدُ جَيْشِ الْعُبَيْدِيِّينَ لَمَّا ارْتَحَلَ إِلَى فَتْحِ مِصْرَ ، اسْتَعَدَّ مِنَ الْقَيْرَوَانِ بِأَلْفِ حِمْلٍ مِنَ الْمَالِ ، وَلَا تَنْتَهِى الْيَوْمَ دَوْلَةٌ إِلَى مِثْلِ هٰذَا . وَكَذٰلِكَ وُجِدَ بِخَطِّ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ عَمَلٌ بِمَا يُحْمَلُ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ بِبَغْدَادَ ، أَيَّامَ الْمَأْمُونِ مِنْ جَمِيعِ النَّوَاحِى ، نَقَلْتُهُ مِنْ جراب الدَّوْلَةِ .

(غَلَّاتُ السَّوادِ) سَبْعٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، وَثَمَانمائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَمِنَ الْحُلَلِ النَّجْرَانِيَّةِ(٣) مِائَتَا حُلَّةٍ ، وَمِنْ طِينِ الْخَتْمِ مِائَتَانِ وَأَرْبَعُونَ رِطْلاً .

(كِنْكَر(٤)) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَسِتُّمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ .

(كوردجلة) عِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَثَمَانِيَةُ دَرَاهِم .

(١) صبه وأراقه .

(٢) بنت الحسن عند زفافها إلى المأمون .

(٣) العبيد . والوصائف جمع وصيفة وهى الجارية تؤهلها مهرتها لمصاحبة عقيلات الملوك والخدمة فى بيوت ذوى الجاه واليسار .

(١) التخوت جمع تخت وهو ما تصان فيه الثياب من أوعية أو صناديق .

(٢) فى جميع النسخ « والحملات جنائب » « وما أثبتناه عن منشورة د . وأق . جـ ٢ هامش ص ٦٦٩ .

(٣) نسبة إلى : نجران . اسم بلد كانت تعرف بتجويد صناعة النسيج . (٤) فى القاموس : كنكور بلد بين همدان وقرمسين .

(حُلوان) أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ، وَثَمَانِمائَةَ أَلْف دِرْهَمٍ.

(الأهواز) خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مَرَّةً، وَمِنَ السُّكَّرِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ رِطْلٍ.

(فارس) سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَمِنْ مَاءِ الْوَرْدِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ قَارُورَةٍ، وَمِنَ الزَّيْتِ الْأَسْوَدِ عِشْرُونَ أَلْفَ رِطْلٍ.

(كرمان) أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِائَتَا أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَمِنَ الْمَتَاعِ الْيَمَانِيِّ خَمْسُمِائَةِ ثَوْبٍ، وَمِنَ التَّمْرِ عِشْرُونَ أَلْفَ رِطْلٍ.

(مكران) أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّةً.

(السِّند وما يليه) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ، وَخَمْسُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَمِنَ الْعُودِ الْهِنْدِيِّ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ رِطْلًا.

(سِجستان) أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ، وَمِنَ الثِّيَابِ الْمُعَيَّنَةِ ثَلَثُمِائَةِ ثَوْبٍ، وَمِنَ الْفَانِيذِ(١) عِشْرُونَ رِطْلًا.

(خراسان) ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ، وَمِنْ نُقَرِ الْفِضَّةِ أَلْفَا نُقْرَةٍ، وَمِنَ الْبَرَاذِينِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ، وَمِنَ الرَّقِيقِ أَلْفُ رَأْسٍ، وَمِنَ الْمَتَاعِ عِشْرُونَ أَلْفَ ثَوْبٍ، وَمِنَ الْإِهْلِيلَجِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ رِطْلٍ.

(جُرجان) اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ، وَمِنَ الْإِبْرِيسَمِ(٢) أَلْفُ شُقَّةٍ.

(قومس) أَلْفُ أَلْفٍ مَرَّتَيْنِ وَخَمْسُمِائَةٍ مِنْ نُقَرِ الْفِضَّةِ.

(طبرستان والريان ونهاوند) سِتَّةُ آلَافِ أَلْفِ درهم مَرَّتَيْنِ. وثَلَاثُمائَةِ أَلْف. ومن الْفُرُشِ الطَّبَرِيِّ

(١) ضرب من الحلوى. (٢) الحرير.

سِتُّمِائَةِ قِطْعَةٍ، وَمِنَ الْأَكْسِيَةِ مِائَتَانِ، وَمِنَ الثِّيَابِ خَمْسُمِائَةِ ثَوْبٍ، وَمِنَ الْمَنَادِيلِ ثَلَاثُمِائَةٍ، وَمِنَ الْجَامَاتِ ثَلَاثُمِائَةٍ.

(الرَّي) اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ، وَمِنَ الْعَسَلِ عِشْرُونَ أَلْفَ رِطْلٍ.

(همدان) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ، وَثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ، وَمِنْ رُبِّ الرُّمَّانِ أَلْفُ رِطْلٍ، وَمِنَ الْعَسَلِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ رِطْلٍ.

(ما بين البصرة والكوفة) عَشَرَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَسَبْعُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ.

(ماسبذان والدينار)(١) أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ.

(شهر زور) سِتَّةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ، وَسَبْعُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ.

(الموصل وما يليها) أَرْبَعَةٌ وَعِشْرونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ، وَمِنَ الْعَسَلِ الْأَبْيَضِ عِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ رِطْلٍ.

(أذربيجان) أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ.

(الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات) أَرْبَعَةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ، وَمِنَ الرَّقِيقِ أَلْفُ رَأْسٍ، وَمِنَ الْعَسَلِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ زِقٍّ، وَمِنَ الْبُزَاةِ(٢) عَشَرَةٌ وَمِنَ الْأَكْسِيَةِ عِشْرُونَ.

(أرمينية) ثَلَاثَةَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ، وَمِنَ الْقُسْطِ(٣) الْمَحْفُورِ عِشْرُونَ، وَمِنَ الرَّقْمِ

(١) علق الهوريني بقوله: والدينار والظاهر انها الدينور. وفي الترجمة التركية ما سبذان وريان اهـ. (٢) علق الهوريني بقوله: ومن البزاة... الخ في الترجمة التركية: ومن السكر عشرة صناديق اهـ.

(٣) القسط: عود هندي وعربي يتداوى به.

خَمْسُمِائَةٍ وَثَلَاثُونَ رِطْلاً ، وَمِنَ الْمَسَايِحِ السُّورِ مَا هِىَ ، عَشْرَةُ آلَافِ رِطْلٍ ، وَمِنَ الصُّونَجِ عَشْرَةُ آلَافِ رِطْلٍ ، وَمِنَ الْبِغَالِ مِائَتَانِ ، وَمِنَ الْمهرة ثَلَاثُونَ .

(قِنَّسرين) أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ ، وَمِنَ الزَّيتِ أَلْفُ حِمْلٍ

(دمشق) أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ

(الاردن) سَبْعَةٌ وَتِسْعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ .

(فلسطين) ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَعَشْرَةُ آلَافِ دِينَارٍ ، وَمِنَ الزَّيْتِ ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ رِطْلٍ .

(مصر) أَلْفُ أَلْفِ دِينَارٍ وَتِسْعُمِائَةِ أَلْفِ دِينَار وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ .

(برقة) أَلْفُ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ .

(افريقية) ثَلَاثَةَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنَ الْبُسطِ (١) مَائَةٌ وَعِشْرُونَ .

(اليمن) ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَسَبْعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ سِوَى الْمَتَاعِ .

(الحجاز) ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ انْتَهَى .

وَأَمَّا الْأَنْدَلُس : فَالَّذِى ذَكَرَهُ الثِّقَاتُ مِنْ مُؤَرِّخِيهَا ، أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمٰنِ النَّاصِر ، خَلَّفَ فِى بُيُوتِ أَمْوَالِهِ خَمْسَةَ آلَافِ أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ مُكَرَّرَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، تَكُونُ جُمْلَتُهَا بِالْقَنَاطِيرِ خَمْسمِائَةِ أَلْفِ قِنْطَارٍ . وَرَأَيْتُ فِى بَعْضِ تَوَارِيخِ الرَّشِيدِ : أَنَّ الْمَحْمُولَ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ فِى أَيَّامِهِ ، سَبْعَةُ آلَافِ قِنْطَارٍ ، وَخَمْسُمِائَةِ قِنْطَارٍ فِى كُلِّ سَنَةٍ

فَاعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِى نِسَبِ الدُّوَلِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ ، وَلَا تُنْكِرَنَّ مَا لَيْسَ بِمَعْهُود عِنْدَكَ وَلَا فِى عَصْرِكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْثَالِهِ ، فَتَضِيقَ حَوْصَلَتُكَ عِنْدَ مُلْتَقَطِ الْمُمْكِنَاتِ . فَكَثِيرٌ مِنَ الْخَوَاصِ إِذَا سَمِعُوا أَمْثَالَ هٰذِهِ الْأَخْبَارِ عَنِ الدُّوَلِ السَّالِفَةِ بَادَر بِالإِنْكَار ، وَلَيْس ذٰلِكَ مِن الصَّوَابِ ، فَإِنَّ أَحْوَالَ الْوُجُودِ وَالْعُمْرَانِ مُتَفَاوِتَةٌ ، وَمَنْ أَدْرَكَ مِنْهَا رُتْبَةً سُفْلَى أَوْ وُسْطَى ، فَلَا يَحْصُرُ الْمَدَارِكَ كُلَّهَا فِيهَا .

وَنَحْنُ إِذَا اعْتَبَرْنَا مَا يُنْقَلُ لَنَا عَنْ دَوْلَةِ بَنِى الْعَبَّاسِ ، وبَنِى أُمَيَّةَ ، والْعُبَيْدِيِّين ، ونَاسَبْنَا الصَّحِيحَ مِنْ ذٰلِكَ ، والَّذِى لَاشَكَّ فِيهِ بِالَّذِى نُشَاهِدُهُ مِنْ هٰذِهِ الدُّوَلِ الَّتِى هِى أَقَلُّ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا وجَدْنَا بَيْنَهَا بوْنًا ، وهُو لِما بَيْنَهَا من التَّفَاوُتِ فى أَصْلِ قُوَّتِهَا وعُمْرَانِ ممالكها ؛ فَالْآثَارُ كُلُّهَا جارِيَةٌ عَلَى نِسْبَةِ الْأَصْلِ فى الْقُوَّةِ كما قَدَّمْنَاهُ ، ولَا يسعُنَا إِنْكَارُ ذَلِكَ عنها ، إِذْ كَثِيرٌ مِنْ هٰذِهِ الْأَحْوالِ فى غَايَةِ الشُّهْرَةِ والْوُضُوحِ ، بلْ فِيهَا مايُلْحقُ بِالْمُسْتَفِيضِ والْمُتَوَاتِرِ ، وفِيهَا الْمُعَايَنُ والْمُشَاهدُ مِنْ آثَارِ الْبِنَاء وغَيْرِهِ ، فَخذْ مِن الْأَحْوالِ الْمَنْقُولَةِ مراتِبَ الدُّوَلِ فى قُوَّتِهَا أَوْ ضَعْفِهَا وضَخَامتِهَا أَوْ صِغرِهَا .

واعْتَبِرْ ذٰلِكَ بِما نَقُصُّهُ عليْكَ مِنْ هٰذِهِ الْحِكَايَةِ الْمُسْتَطْرَفَةِ : وذٰلِكَ أَنَّهُ ورد بِالْمغْرِبِ لِعهْدِ السُّلْطَانِ أَبِى عِنَانٍ مِنْ مُلُوكِ بنى مَرِيْن رجُلٌ مِنْ مَشِيخَةِ طَنْجة يُعْرفُ بِابْنِ بطُّوطَةَ (١) كَانَ رحل مُنْذُ عِشْرِين سنَةً قَبْلَهَا إِلَى الْمشْرِقِ ، وتَقَلَّب فى بِلَادِ الْعراقِ والْيمنِ والْهِنْدِ ، ودخل مدِينَةَ دِهْلِى حاضِرةِ ملكِ الْهِنْدِ ، وهُو السُّلْطَانُ مُحمَّدُ شَاه ، واتَّصل بِملكِهَا لِذٰلِكَ الْعهْدِ وهو فيْروزجوهُ وكَانَ له مِنْهُ مكَانٌ واسْتَعْمَلَهُ فى خطَّةِ الْقَضَاء ، بِمذْهبِ الْمالِكِيَّةِ فى عملِهِ ،

(١) جمع بساط ، ويروى « القسط » كما تقدم.

(١) علق الهوريني بقوله : كان ابتداء رحلة ابن بطوطة سنة ٧٢٥ وانتهاؤها سنة ٧٥٤ وهي عجيبة ومختصرها ٧ كراريس اه .

ثمَّ انقلَبَ إلَى الْمغرِبِ واتَّصل بِالسُّلْطَانِ أَبِى عِنان ، وكَانَ يُحدِّثُ عنْ شَأْنِ رِحْلَتِهِ ، وما رأى من العجائِبِ بممالِكِ الأَرْضِ . وأَكْثرُ ما كَانَ يُحدِّثُ عنْ دوْلَةِ صاحِبِ الْهِنْدِ ، ويأْتِى منْ أَحْوالِهِ بما يسْتغْرِبُهُ السَّامِعُونَ ، مِثْل : أنَّ مَلِكَ الْهِنْدِ إذَا خرَج إلَى السَّفَرِ أَحْصى أَهْلَ مدِينَتِهِ منَ الرِّجالِ والنِّساء والْوِلْدانِ ، وفَرضَ لَهُمْ رِزْقَ سِتَّةِ أَشْهرٍ ، تُدْفَعُ لَهُمْ مِنْ عطَائِهِ ، وأَنَّهُ عِنْد رُجُوعِهِ مِنْ سفَرِهِ ، يدْخُلُ فى يوْمٍ مشْهُودٍ يبْرُزُ فيهِ النَّاسُ كَافَّةً إِلَى صحْراء الْبلَدِ ، ويطُوفُونَ بهِ ، وينْصبُ أمامهُ فى ذٰلِكَ الْحفْلِ منْجنِيقَاتٌ[1] علَى الظَّهْرِ ، تُرْمَى بِهَا شَكَائِرُ الدَّراهِمِ والدَّنانِيرِ علَى النَّاسِ ، إلَى أنْ يدْخُل إِيوانَهُ . وأَمْثَال هٰذِهِ الْحِكَاياتِ فتَنَاجى النَّاسُ بِتكْذِيبِهِ . ولَقِيتُ أَيَّامئِذٍ وزِيرَ السُّلْطَانِ فَارسَ بْنَ ودْرار الْبعِيدِ الصِّيتِ ، فَفَاوضْتُهُ فى هٰذَا الشَّأْنِ ، وأَرَيْتُهُ إِنْكَار أَخْبارِ ذٰلِكَ الرَّجُلِ لِما اسْتفَاضَ فى النَّاسِ منْ تكْذِيبِهِ ، فَقَال لِى الْوزِيرُ فَارِسُ : إِيَّاكَ أَنْ تَسْتنْكِر مِثْل هٰذَا منْ أَحْوالِ الدُّولِ ، بِما أنَّكَ لَمْ ترَهُ ، فتَكُونَ كابْنِ الْوزِيرِ النَّاشِىءِ فى السِّجْنِ . وذٰلِكَ أن وزِيرًا اعْتقَلَهُ سُلْطَانُهُ ومَكَثَ فى السِّجْنِ سِنِين رُبِّى فِيهَا ابْنُهُ فى ذٰلِكَ الْمَحْبِسِ . فلَمَّا أَدْرَكَ وعقَل ، سأَل عنِ اللُّحْمانِ الَّتى كَانَ يتَغَذَّى بِهَا فَقَال لَهُ أَبُوهُ هٰذَا لَحْمُ الْغَنَمِ . فقَال . وما الْغَنَمُ ؟ فيصِفُهَا لَهُ أَبُوهُ بِشِياتِها ونُعُوتِها ، فيقُولُ يا أبتِ تَراها مِثْلَ الْفَارِ ، فيُنْكِرُ علَيْهِ ويقُولُ : أَيْنَ الْغَنَمُ مِن الْفَارِ ؟ وكَذَا فى لَحْمِ الإِبِلِ والْبقَرِ ، إذْ لَمْ يُعايِنْ فى مَحْبِسِهِ من الْحيوانَاتِ إِلَّا الْفَار ، فَيحْسبُهَا كُلَّهَا أَبْنَاء جِنْسِ الْفَارِ ، وهذَا كَثِيرًا ما يعْترِى النَّاس فى الأَخْبارِ كَما يعْترِيهِم الْوسْواسُ فى الزِّيادةِ عِنْد قَصْدِ الإِغْرابِ كَما قَدَّمْنَاهُ أَوَّل الْكِتَابِ .

فَلْيرْجِع الإِنْسانُ إلَى أُصُولِهِ . ولْيكُنْ مُهيْمِنًا علَى نَفْسِهِ ، ومُميِّزًا بيْن طَبِيعةِ الْمُمْكِنِ والْمُمْتنِعِ بِصرِيحِ عقْلِهِ ، ومُسْتقِيمِ فِطْرتِهِ ؛ فما دخَل فى نِطَاقِ الإِمْكَانِ قَبِلَهُ ، وما خرَج عنْهُ رفَضَهُ ، ولَيْس مُرادُنا الإِمْكَانَ الْعقْلِىَّ الْمُطْلَقَ ، فَإِنَّ نِطَاقَهُ أَوْسعُ شَىْءٍ ، فَلَا يُفْرضُ حدًّا بيْن الْواقِعاتِ ؛ وإِنَّما مُرادُنا الإِمْكَانُ بِحسبِ الْمادَّةِ الَّتى لِلشَّىْءِ ، فَإِنَّا إِذَا نَظَرْنَا أَصْلَ الشَّىْءِ وجِنْسَهُ وصِنْفَهُ ومِقْدارَ عِظَمِهِ وقُوَّتِهِ ، أَجْريْنَا الْحُكْم مِنْ نِسْبةِ ذٰلِكَ علَى أَحْوالِهِ ، وحكَمْنَا بِالامْتِناعِ علَى ما خرَجَ مِنْ نِطَاقِهِ[1] . «وقُلْ ربِّ زِدْنِى[2] عِلْمًا » وأَنْتَ أَرْحمُ الرَّاحِمِين واللهُ سُبْحانَهُ وتعالَى أَعلَمُ .

الفصل التاسع عشر

فى استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبيته بالموالى والمصطنعين

اعْلَمْ أَنَّ صاحِبَ الدَّوْلَةِ ، إِنَّما يتِمُّ أَمْرُهُ كَما قُلْنَاهُ بِقَوْمِهِ ، فَهُمْ عِصابتُهُ وظُهراؤُهُ علَى شَأْنِهِ ، وبِهِمْ يُقَارِعُ الْخَوارِجَ علَى دوْلَتِهِ ، ومِنْهُمْ يُقَلِّدُ أَعْمَالَ مَمْلَكَتِهِ ووِزَارةَ دوْلَتِهِ وجِبايةَ أَمْوالِهِ ؛ لِأَنَّهُمْ أَعْوانُهُ علَى الْغَلَبِ ، وشُركَاؤُهُ فى الأَمْرِ ،

---

(١) هى فى الأصل آلة حربية تستخدم كالمدافع فى قذف العدو . واستخدمت هنا فى رمى الدراهم والدنانير .

(١) انظر : منشورة د . وافى جـ١ ص ٢٤٠ – ٢٥٥ ففيها تفصيل هذه النظرية الهامة التى قام على أساسها علم الاجتماع .

(٢) الآية رقم ١١٤ من سورة طه .

ومساهموه فى سائر مهماته . هذا مادام الطور الأول للدولة كما قلناه (١) .

فإذا جاء الطور الثانى ، وظهر الاستبداد عنهم والانفراد بالمجد ، ودافعهم عنه بالراح ، صاروا فى حقيقة الأمر من بعض أعدائه ، واحتاج فى مدافعتهم عن الأمر وصدهم عن المشاركة ، إلى أولياء آخرين من غير جلدتهم يستظهر بهم عليهم ويتولاهم دونهم ، فيكونون أقرب إليه من سائرهم ، وأخص به قربا واصطناعا ، وأولى إيثارا وجاها ، لما أنهم يستميتون دونه فى مدافعة قومه عن الأمر الذى كان لهم ، والرتبة التى ألفوها فى مشاركتهم ، فيستخلصهم صاحب الدولة ، ويخصهم بمزيد التكرمة والإيثار ، ويقسم لهم مثل ما للكثير من قومه ، ويقلدهم جليل الأعمال والولايات : من الوزارة ، والقيادة ، والجباية ، وما يختص به لنفسه ، وتكون خالصة له دون قومه من ألقاب المملكة ، لأنهم حينئذ أولياؤه الأقربون ، ونصحاؤه المخلصون . وذلك حينئذ مؤذن باهتضام الدولة ، وعلامة على المرض المزمن فيها لفساد العصبية التى كان بناء الغلب عليها ، ومرض قلوب أهل الدولة حينئذ من الامتهان ، وعداوة السلطان ، فيضطغنون (٢) عليه ويتربصون به الدوائر ، ويعود وبال ذلك على الدولة ، ولا يطمع فى برئها من هذا الداء لأن مامضى يتأكد فى الأعقاب إلى أن يذهب رسمها .

واعتبر ذلك فى دولة بنى أمية ، كيف كانوا إنما يستظهرون فى حروبهم وولاية أعمالهم برجال العرب ، مثل عمر بن سعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن زياد بن أبى سفيان والحجاج بن يوسف ، والمهلب بن أبى صفرة ، وخالد بن عبد الله القسرى ، وابن هبيرة ، وموسى بن نصير ، وبلال ابن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى ، ونصر بن سيار وأمثالهم من رجالات العرب . وكذا صدر من دولة بنى العباس كان الاستظهار فيها أيضا برجالات العرب . فلما صارت الدولة للانفراد بالمجد ، وكبح العرب عن التطاول للولايات ، صارت الوزارة للعجم والصنائع من البرامكة ، وبنى سهل بن نوبخت ، وبنى طاهر ، ثم بنى بويه ، وموالى الترك مثل بغا ، ووصيف ، وأتامش ، وباكناك ، وابن طولون ، وأبنائهم ، وغير هؤلاء من موالى العجم ، فتكون الدولة لغير من مهدها ، والعز لغير من اجتلبه : سنة الله فى عباده والله تعالى أعلم .

الفصل العشرون

فى أحوال الموالى والمصطنعين فى الدول

إعلم أن المصطنعين فى الدول يتفاوتون فى الالتحام بصاحب الدولة بتفاوت قديمهم وحديثهم فى الالتحام بصاحبها ، والسبب فى ذلك أن المقصود فى العصبية من المدافعة والمغالبة ، إنما يتم بالنسب لأجل التناصر فى ذوى الأرحام والقربى ، والتخاذل فى الأجانب والبعداء كما قدمناه . والولاية

(١) انظر الفصل السابع عشر من هذا الباب وعنوانه : « فصل فى أطوار الدولة ... الخ » ص ١٥٧ . (٢) يحملون له الضغينة والحقد .

وَالْمُخَالَطَةُ بِالرِّقِّ أَوْ بِالْحِلْفِ تَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ ذَلِكَ ، لِأَنَّ أَمْرَ النَّسَبِ وَإِنْ كَانَ طَبِيعِيًّا ، فَإِنَّمَا هُوَ وَهْمِيٌّ ، وَالْمَعْنَى الَّذِى كَانَ بِهِ الالْتِحَامُ إِنَّمَا هُوَ الْعِشْرَةُ وَالْمُدَافَعَةُ وَطُولُ الْمُمَارَسَةِ وَالصُّحْبَةُ بِالْمُرَبَّى وَالرِّضَاعِ وَسَائِرِ أَحْوَالِ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ .

وَإِذَا حَصَلَ الالْتِحَامُ بِذَلِكَ جَاءَتِ النُّعْرَةُ وَالتَّنَاصُرُ . وَهَذَا مُشَاهَدٌ بَيْنَ النَّاسِ . وَاعْتَبِرْ مِثْلَهُ فِى الاصْطِنَاعِ ، فَإِنَّهُ يَحْدُثُ بَيْنَ الْمُصْطَنِعِ وَمَنِ اصْطَنَعَهُ ، نِسْبَةٌ خَاصَّةٌ مِنَ الْوُصْلَةِ تَتَنَزَّلُ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ وَتُؤَكِّدُ اللحمةَ وإنْ لَمْ يَكُنْ نَسَبٌ فَثَمَرَاتُ النَّسَبِ مَوْجُودَةٌ .

فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْوِلَايَةُ بَيْنَ الْقَبِيلِ وَبَيْنَ أَوْلِيَائِهِمْ ، قَبْلَ حُصُولِ الْمُلْكِ لَهُمْ ، كَانَتْ عُرُوقُهَا أَوْشَجَ ، وَعَقَائِدُهَا أَصَحَّ ، وَنَسَبُهَا أَصْرَحَ لِوَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُمْ قَبْلَ الْمُلْكِ أُسْوَةٌ فِى حَالِهِمْ فَلَا يَتَمَيَّزُ النَّسَبُ عَنِ الْوِلَايَةِ إِلَّا عِنْدَ الْأَقَلِّ مِنْهُمْ فَيَتَنَزَّلُونَ مِنْهُمْ مَنْزِلَةَ ذَوِى قَرَابَتِهِمْ وَأَهْلِ أَرْحَامِهِمْ . وَإِذَا اصْطَنَعُوهُمْ بَعْدَ الْمُلْكِ كَانَتْ مَرْتَبَةُ الْمُلْكِ مُمَيِّزَةً لِلسَّيِّدِ عَنِ الْمَوْلَى ، وَلِأَهْلِ الْقَرَابَةِ عَنْ أَهْلِ الْوِلَايَةِ وَالاصْطِنَاعِ لِمَا تَقْتَضِيهِ أَحْوَالُ الرِّيَاسَةِ وَالْمُلْكِ مِنْ تَمَيُّزِ الرُّتَبِ وَتَفَاوُتِهَا فَتَتَمَيَّزُ حَالَتُهُمْ ، وَيَتَنَزَّلُونَ مَنْزِلَةَ الْأَجَانِبِ وَيَكُونُ الالْتِحَامُ بَيْنَهُمْ أَضْعَفَ ، وَالتَّنَاصُرُ لِذَلِكَ أَبْعَدَ ، وَذَلِكَ أَنْقَصُ مِنَ الاصْطِنَاعِ قَبْلَ الْمُلْكِ .
الْوَجْهُ الثَّانِى : أَنَّ الاصْطِنَاعَ قَبْلَ الْمُلْكِ يَبْعُدُ عَهْدُهُ عَنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ بِطُولِ الزَّمَانِ ، وَيَخْفَى شَأْنُ تِلْكَ اللُّحْمَةِ ، وَيُظَنُّ بِهَا فِى الْأَكْثَرِ النَّسَبُ فَيَقْوَى حَالُ الْعَصَبِيَّةِ .

وَأَمَّا بَعْدَ الْمُلْكِ فَيَقْرُبُ الْعَهْدُ وَيَسْتَوِى فِى مَعْرِفَتِهِ الْأَكْثَرُ فَتَتَبَيَّنُ اللُّحْمَةُ وَتَتَمَيَّزُ عَنِ النَّسَبِ فَتَضْعُفُ الْعَصَبِيَّةُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْوِلَايَةِ الَّتِى كَانَتْ قَبْلَ الدَّوْلَةِ .

وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِى الدُّوَلِ ، وَالرِّئَاسَاتِ تَجِدْهُ ، فَكُلُّ مَنْ كَانَ اصْطِنَاعُهُ قَبْلَ حُصُولِ الرِّيَاسَةِ وَالْمُلْكِ لِمُصْطَنِعِهِ تَجِدُهُ أَشَدَّ الْتِحَامًا بِهِ وَأَقْرَبَهُ قَرَابَةً إِلَيْهِ ، وَيَتَنَزَّلُ مِنْهُ مَنْزِلَةَ أَبْنَائِهِ وَإِخْوَانِهِ وَذَوِى رَحِمِهِ . وَمَنْ كَانَ اصْطِنَاعُهُ بَعْدَ حُصُولِ الْمُلْكِ وَالرِّيَاسَةِ لِمُصْطَنِعِهِ ، لايَكُونُ لَهُ مِنَ الْقَرَابَةِ وَاللُّحْمَةِ مَا لِلْأَوَّلِينَ . وَهَذَا مُشَاهَدٌ بِالْعِيَانِ ، حَتَّى إِنَّ الدَّوْلَةَ فِى آخِرِ عُمْرِهَا تَرْجِعُ إِلَى اسْتِعْمَالِ الْأَجَانِبِ وَاصْطِنَاعِهِمْ ، وَلَا يُبْنَى لَهُمْ مَجْدٌ كَمَا بَنَاهُ الْمُصْطَنَعُونَ قَبْلَ الدَّوْلَةِ لِقُرْبِ الْعَهْدِ حِينَئِذٍ بِأَوَّلِيَّتِهِمْ وَمُشَارَفَةِ الدَّوْلَةِ عَلَى الانْقِرَاضِ ، فَيَكُونُونَ مُنْحَطِّينَ فِى مَهَاوِى الضَّعَةِ .

وَإِنَّمَا يَحْمِلُ صَاحِبَ الدَّوْلَةِ عَلَى اصْطِنَاعِهِمْ وَالْعُدُولِ إِلَيْهِمْ عَنْ أَوْلِيَائِهَا الْأَقْدَمِينَ وَصَنَائِعِهَا الْأَوَّلِينَ مَا يَعْتَرِيهِمْ فِى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعِزَّةِ عَلَى صَاحِبِ الدَّوْلَةِ ، وَقِلَّةِ الْخُضُوعِ لَهُ وَنَظَرِهِ بِمَا يَنْظُرُهُ بِهِ قَبِيلُهُ وَأَهْلُ نَسَبِهِ لِتَأَكُّدِ اللُّحْمَةِ مُنْذُ الْعُصُورِ الْمُتَطَاوِلَةِ بِالْمُرَبَّى وَالاتِّصَالِ بِآبَائِهِ وَسَلَفِ قَوْمِهِ وَالانْتِظَامِ مَعَ كُبَرَاءِ أَهْلِ بَيْتِهِ ، فَيَحْصُلُ لَهُمْ بِذَلِكَ دَالَّةٌ عَلَيْهِ وَاعْتِزَازٌ فَيُنَافِرُهُمْ بِسَبَبِهَا صَاحِبُ الدَّوْلَةِ وَيَعْدِلُ عَنْهُمْ إِلَى اسْتِعْمَالِ سِوَاهُمْ ،

وَيَكُونُ عَهْدُ اسْتِخْلَاصِهِمْ واصْطِنَاعِهِمْ قَرِيبًا ، فَلَا يَبْلُغُونَ رُتَبَ الْمَجْدِ ، وَيَبْقَوْنَ عَلَى حَالِهِمْ مِنَ الْخَارِجِيَّةِ .

وَهكَذَا شَأْنُ الدُّوَلِ فى أَوَاخِرِهَا . وَأَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ اسْمُ الصَّنَائِعِ وَالْأَوْلِيَاء عَلَى الْأَوَّلِينَ . وَأَمَّا هؤُلَاء الْمُحْدَثُونَ فَخَدَمٌ وَأَعْوَانٌ ، وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْء وَكِيلٌ .

الفصل الحادى والعشرون

فيما يعرض فى الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه

إذَا اسْتَقَرَّ الْمُلْكُ فى نِصَابٍ مُعَيَّنٍ ، وَمَنْبِتٍ وَاحِدٍ مِنَ الْقَبِيلِ الْقَائِمِينَ بِالدَّوْلَةِ ، وَانْفَرَدُوا بِهِ ، وَدَفَعُوا سائِرَ الْقَبِيلِ عَنْهُ ، وتَدَاوَلَهُ بَنُوهُمْ واحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، بِحَسَبِ التَّرْشِيحِ ، فَرُبَّمَا حَدَثَ التَّغَلُّبُ عَلَى الْمَنْصِبِ مِنْ وُزَرَائِهِمْ وَحَاشِيَتِهِمْ . وَسَبَبُهُ فى الْأَكْثَرِ وِلَايَةُ صَبِيٍّ صَغِيرٍ ، أَوْ مُضْعَفٍ مِنْ أَهْلِ الْمَنْبِتِ يَتَرَشَّحُ لِلْوِلَايَةِ بِعَهْدِ أَبِيهِ ، أَوْ بِتَرْشِيحِ ذَوِيهِ وَخَوَلِهِ(١) وَيُؤْنَسُ مِنْهُ الْعَجْزُ عَنِ الْقِيَامِ بِالْمُلْكِ فَيَقُومُ بِهِ كَافِلُهُ مِنْ وُزَرَاءِ أَبِيهِ وحَاشِيَتِهِ وَمَوَالِيهِ أَوْ قَبِيلِهِ ، وَيُوَرِّى(٢) بحِفْظِ أَمْرِهِ عَلَيْهِ حَتَّى يُؤْنَسَ مِنْهُ الاسْتِبْدَادُ . وَيَجْعَلَ ذَلِكَ ذَرِيعَةً لِلْمُلْكِ فَيَحْجُبُ الصَّبِيَّ عَنِ النَّاسِ ، وَيُعَوِّدُهُ اللَّذَّاتِ الَّتِى يَدْعُو إِلَيْهَا تَرَفُ أَحْوَالِهِ وَيُسِيمُهُ فى مَرَاعِيهَا متى أَمْكَنَهُ ، وَيُنْسِيهِ النَّظَرَ فى الْأُمُورِ السُّلْطَانِيَّةِ حَتَّى يَسْتَبِدَّ عَلَيْهِ . وَهُوَ بِمَا عَوَّدَهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ حَظَّ السُّلْطَانِ مِنَ الْمُلْكِ إِنَّمَا هُوَ جُلُوسُ السَّرِيرِ ، وَإِعْطَاءُ الصَّفْقَةِ وَخِطَابُ التَّهْوِيلِ ، وَالْقُعُودُ مَعَ النِّسَاءِ خَلْفَ الْحِجَابِ وَأَنَّ الْحَلَّ وَالرَّبْطَ ، وَالْأَمْرَ وَالنَّهْىَ وَمُبَاشَرَةَ الْأَحْوَالِ الْمُلُوكِيَّةِ وتَفَقُّدَهَا مِنَ النَّظَرِ فى الْجَيْشِ وَالْمَالِ وَالثُّغُورِ إِنَّمَا هُوَ لِلْوَزِيرِ ، وَيُسَلِّمُ لَهُ فى ذَلِكَ إِلَى أَنْ تَسْتَحْكِمَ لَهُ الرِّيَاسَةُ وَالاسْتِبْدَادُ ، وَيَتَحَوَّلَ الْمُلْكُ إِلَيْهِ ، وَيُؤْثِرَ بِهِ عَشِيرَتَهُ وَأَبْنَاءَهُ مِنْ بَعْدِهِ . كَمَا وَقَعَ لِبَنِى بُوَيْهِ وَالتُّرْكِ وَكَافُورٍ الْأَخْشِيدِى وَغَيْرِهِمْ بِالْمَشْرِقِ ، وَلِلْمَنْصُورِ بْنِ أَبِى عَامِرٍ بِالْأَنْدَلُسِ .

وَقَدْ يَتَفَطَّنُ ذَلِكَ الْمَحْجُورُ الْمُغَلَّبُ لِشَأْنِهِ فَيُحَاوِلُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ رِبْقَةِ الْحَجْرِ وَالاسْتِبْدَادِ وَيُرْجِعُ الْمُلْكَ إِلَى نِصَابِهِ ، وَيَضْرِبُ عَلَى أَيْدِى الْمُتَغَلِّبِينَ عَلَيْهِ ؛ إِمَّا بِقَتْلٍ أَوْ بِرَفْعٍ عَنِ الرُّتْبَةِ فَقَطْ ؛ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ فى النَّادِرِ الْأَقَلِّ ، لِأَنَّ الدَّوْلَةَ إِذَا أَخَذَتْ فى تَغَلُّبِ الْوُزَرَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ اسْتَمَرَّ لَهَا ذَلِكَ وَقَلَّ أَنْ تَخْرُجَ عَنْهُ ، لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُوجَدُ فى الْأَكْثَرِ عَنْ أَحْوَالِ التَّرَفِ ، وَنَشْأَةِ أَبْنَاءِ الْمُلْكِ مُنْغَمِسِينَ فى نَعِيمِهِ ، قَدْ نَسُوا عَهْدَ الرُّجُولَةِ ، وَأَلِفُوا أَخْلَاقَ الدَّايَاتِ وَالْأَظْآرِ(١) وَرَبُوا عَلَيْهَا ، فَلَا يَنْزِعُونَ إِلَى رِيَاسَةٍ ، وَلَا يَعْرِفُونَ اسْتِبْدَادًا مِنْ تَغَلُّبٍ . إِنَّمَا هَمُّهُمْ فى الْقُنُوعِ بِالْأُبَّهَةِ ، وَالتَّنَفُّنِ فى اللَّذَّاتِ وَأَنْوَاعِ التَّرَفِ . وَهَذَا التَّغَلُّبُ يَكُونُ لِلْمَوَالِى وَالْمُصْطَنَعِينَ عِنْدَ اسْتِبْدَادِ عَشِيرِ الْمَلِكِ عَلَى قَوْمِهِمْ ، وَانْفِرَادِهِمْ بِهِ دُونَهُمْ . وَهُوَ عَارِضٌ لِلدَّوْلَةِ ضَرُورِىٌّ كَمَا قَدَّمْنَاهُ . وَهذَانِ مَرَضَانِ لَا بُرْءَ لِلدَّوْلَةِ مِنْهُمَا إِلَّا فى الْأَقَلِّ

(١) الخدم من البطانة والحاشية .

(٢) يخفى أطماعه الاستبدادية وراء التظاهر بالمحافظة للصبى على ملكه حتى يرشد .

(١) جمع ظئر ... وهي المرضعة .

النَّادِرِ ، « وَاللهُ يُؤْتِى مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ(١) » ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

الفصل الثانى والعشرون

فى أن المتغلبين على السلطان لايشاركونه فى اللقب الخاص بالملك

وَذٰلِكَ أَنَّ الْمُلْكَ وَالسُّلْطَانَ حَصَلَ لِأَوَّلِيهِ مُذْ أَوَّلِ الدَّوْلَةِ بِعَصَبِيَّةِ قَوْمِهِ وَعَصَبِيَّتِهِ الَّتِى اسْتَتْبَعَتْهُمْ حَتَّى اسْتَحْكَمَتْ لَهُ وَلِقَوْمِهِ صِبْغَةُ الْمُلْكِ وَالْغَلَبِ وَهِىَ لَمْ تَزَلْ بَاقِيَةً وَبِهَا انْحَفَظَ رَسْمُ الدَّوْلَةِ وَبَقَاؤُهَا . وَهٰذَا الْمُتَغَلِّبُ وَإِنْ كَانَ صَاحِبَ عَصَبِيَّةٍ مِنْ قَبِيلِ الْمَلِكِ أَوِ الْمَوَالِى وَالصَّنَائِعِ ، فَعَصَبِيَّتُهُ مُنْدَرِجَةٌ فِى عَصَبِيَّةِ أَهْلِ الْمُلْكِ وَتَابِعَةٌ لَهَا ، وَلَيْسَ لَهُ صِبْغَةٌ فِى الْمُلْكِ . وَهُوَ لَايُحَاوِلُ فِى اسْتِبْدَادِهِ انْتِزَاعَ ثَمَرَاتِهِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْىِ وَالْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَالْإِبْرَامِ وَالنَّقْضِ ، يُوهِمُ فِيهَا أَهْلَ الدَّوْلَةِ أَنَّهُ مُتَصَرِّفٌ عَنْ سُلْطَانِهِ ، مُنَفِّذٌ فِى ذٰلِكَ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ لِأَحْكَامِهِ . فَهُوَ يَتَجَافَى عَنْ سِمَاتِ الْمَلِكِ وَشَارَاتِهِ وَأَلْقَابِهِ جُهْدَهُ ، وَيُبْعِدُ نَفْسَهُ عَنِ التُّهَمَةِ بِذٰلِكَ وَإِنْ حَصَلَ لَهُ الاسْتِبْدَادُ لِأَنَّهُ مُسْتَتِرٌ فِى اسْتِبْدَادِهِ ذٰلِكَ بِالْحِجَابِ الَّذِى ضَرَبَهُ السُّلْطَانُ وَأَوَّلُوهُ(٢) عَلَى أَنْفُسِهِمْ عَنِ الْقَبِيلِ مُنْذُ أَوَّلِ الدَّوْلَةِ ، وَمُغَالِطٌ عَنْهُ بِالنِّيَابَةِ . وَلَوْ تَعَرَّضَ لِشَىْءٍ مِنْ ذٰلِكَ لَنَفِسَهُ(٣) عَلَيْهِ أَهْلُ الْعَصَبِيَّةِ ، وَقَبِيلُ الْمَلِكِ وَحَاوَلُوا الاسْتِئْثَارَ بِهِ دُونَهُ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ تَسْتَحْكِمْ لَهُ فِى ذٰلِكَ صِبْغَةٌ تَحْمِلُهُمْ عَلَى التَّسْلِيمِ لَهُ وَالانْقِيَادِ ، فَيَهْلِكُ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ .

وَقَدْ وَقَعَ مِثْلُ هٰذَا لِعَبْدِ الرَّحْمٰنِ بْنِ النَّاصِرِ ابْنِ مَنْصُورِ بْنِ أَبِى عَامِرٍ حِينَ سَمَا إِلَى مُشَارَكَةِ هِشَامٍ وَأَهْلِ بَيْتِهِ فِى لَقَبِ الْخِلَافَةِ ، وَلَمْ يَقْنَعْ بِمَا قَنِعَ بِهِ أَبُوهُ وَأَخُوهُ مِنَ الاسْتِبْدَادِ بِالْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَالْمَرَاسِمِ الْمُتَتَابِعَةِ . فَطَلَبَ مِنْ هِشَامٍ خَلِيفَتِهِ أَنْ يَعْهَدَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ . فَنَفِسَ ذٰلِكَ عَلَيْهِ بَنُو مَرْوَانَ ، وَسَائِرُ قُرَيْشٍ ، وَبَايَعُوا لِابْنِ عَمِّ الْخَلِيفَةِ هِشَامٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ بْنِ النَّاصِرِ ، وَخَرَجُوا عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ فِى ذٰلِكَ خَرَابُ دَوْلَةِ الْعَامِرِيِّينَ ، وَهَلَاكُ الْمُؤَيَّدِ خَلِيفَتِهِمْ ، وَاسْتُبْدِلَ مِنْهُ سِوَاهُ مِنْ أَعْيَاصِ الدَّوْلَةِ إِلَى آخِرِهَا ، وَاخْتَلَّتْ مَرَاسِمُ مُلْكِهِمْ وَاللهُ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

الفصل الثالث والعشرون

فى حقيقة الملك وأصنافه

الْمُلْكُ مَنْصِبٌ طَبِيعِىٌّ لِلْإِنْسَانِ ؛ لِأَنَّا قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْبَشَرَ لَايُمْكِنُ حَيَاتُهُمْ وَوُجُودُهُمْ إِلَّا بِاجْتِمَاعِهِمْ وَتَعَاوُنِهِمْ عَلَى تَحْصِيلِ قُوتِهِمْ وَضَرُورِيَّاتِهِمْ . وَإِذَا اجْتَمَعُوا دَعَتِ الضَّرُورَةُ إِلَى الْمُعَامَلَةِ وَاقْتِضَاءِ الْحَاجَاتِ ، وَمَدَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَدَهُ إِلَى حَاجَتِهِ يَأْخُذُهَا مِنْ صَاحِبِهِ ؛ لِمَا فِى الطَّبِيعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ وَيُمَانِعُهُ الْآخَرُ عَنْهَا بِمُقْتَضَى الْغَضَبِ وَالْأَنَفَةِ ، وَمُقْتَضَى الْقُوَّةِ الْبَشَرِيَّةِ فِى ذٰلِكَ ، فَيَقَعُ التَّنَازُعُ الْمُفْضِى إِلَى الْمُقَاتَلَةِ ، وَهِىَ تُؤَدِّى إِلَى الْهَرْجِ (١) وَسَفْكِ

(١) الآية : ٢٤٧ من سورة البقرة .

(٢) السابقون له من آبائه .

(٣) قوله لنفسه بفتح اللام والنون وكسر الفاء يقال نفس عليه الشيء كفرح لم يره أهلا به كما فى القاموس .

(١) الاضطرابات والفتن .

الدِّمَاءِ ، وَإِذْهَابِ النُّفُوسِ الْمُفْضِى ذَلِكَ إِلَى انْقِطَاعِ النَّوْعِ ، وهُوَ مِمَّا خَصَّهُ الْبَارِى سُبْحَانَهُ بِالْمُحَافَظَةِ ، فَاسْتَحَالَ بَقَاؤُهُمْ فَوْضَى دُونَ حَاكِمٍ يَزَعُ بَعْضَهُمْ عَنْ بعْضٍ ، وَاحْتَاجُوا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ إِلَى الْوَازِعِ ، وَهُوَ الْحَاكِمُ عَلَيْهِمْ وَهُوَ بِمُقْتَضَى الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ الْمَلِكُ الْقَاهِرُ الْمُتَحَكِّمُ .

وَلَا بُدَّ فِى ذَلِكَ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ ؛ لِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ الْمُطَالَبَاتِ كُلَّهَا وَالْمُدَافَعَاتِ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِالْعَصَبِيَّةِ . وَهٰذَا الْمُلْكُ كَمَا تَرَاهُ مَنْصِبٌ شَرِيفٌ تَتَوَجَّهُ نَحْوَهُ الْمُطَالَبَاتُ ، وَيَحْتَاجُ إِلَى الْمُدَافَعَاتِ ، وَلَا يَتِمُّ شَىْءٌ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالْعَصَبِيَّاتِ كَمَا مَرَّ وَالْعَصَبِيَّاتُ مُتَفَاوِتَةٌ ، وَكُلُّ عَصَبِيَّةٍ فَلَهَا تَحَكُّمٌ وَتَغَلُّبٌ عَلَى مَنْ يَلِيهَا مِنْ قَوْمِهَا وَعَشِيرِها . وَلَيْسَ الْمُلْكُ لِكُلِّ عَصَبِيَّةٍ ، وَإِنَّمَا الْمُلْكُ عَلَى الْحَقِيقَةِ لِمَنْ يَسْتَعْبِدُ الرَّعِيَّةَ ، وَيَجْبِى الْأَمْوَالَ ، وَيَبْعَثُ الْبُعُوثَ وَيَحْمِى الثُّغُورَ ، وَلَا تَكُونُ فَوْقَ يَدِهِ يدٌ قَاهِرَةٌ ، وَهٰذَا مَعْنَى الْمَلِكِ وَحَقِيقَتُهُ فِى الْمَشْهُورِ .

فَمَنْ قَصُرَتْ بِهِ عَصَبِيَّتُهُ عَنْ بَعْضِهَا مِثْلِ حِمَايَةِ الثُّغُورِ أَوْ جِبَايَةِ الْأَمْوَالِ ، أَوْ بَعْثِ الْبُعُوثِ ، فَهُوَ مَلِكٌ نَاقِصٌ ، لَمْ تَتِمَّ حَقِيقَتُهُ . كَمَا وَقَعَ لِكَثِيرٍ مِنْ مُلُوكِ الْبَرْبَرِ فِى دَوْلَةِ الْأَغَالِبَةِ بِالْقَيْرَوَانِ ، وَلِمُلُوكِ الْعَجَمِ صَدْرَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ .

وَمَنْ قَصُرَتْ بِهِ عَصَبِيَّتُهُ أَيْضًا عَنِ الاسْتِعْلَاءِ عَلَى جَمِيعِ الْعَصَبِيَّاتِ وَالضَّرْبِ عَلَى سَائِرِ الْأَيْدِى ، وَكَانَ فَوْقَهُ حُكْمُ غَيْرِهِ فَهُوَ أَيْضًا مَلِكٌ نَاقِصٌ لَمْ تَتِمَّ حَقِيقَتُهُ وَهٰؤُلَاءِ مِثْلُ أُمَرَاءِ النَّوَاحِى وَرُؤَسَاءِ الْجِهَاتِ الَّذِينَ تَجْمَعُهُمْ دَوْلَةٌ وَاحِدَةٌ . وَكَثِيرًا مَا يُوجَدُ هٰذَا فِى الدَّوْلَةِ الْمُتَّسِعَةِ النِّطَاقِ ، أَعْنِى تُوجَدُ مُلُوكٌ عَلَى قَوْمِهِم فِى النَّوَاحِى الْقَاصِيَةِ ، يَدِينُونَ بِطَاعَةِ الدَّوْلَةِ الَّتِى جَمَعَتْهُم مِثْلُ صَنْهَاجَةَ مع الْعُبَيْدِيِّين ، وزَنَاتَةَ مع الْأُمَوِيِّين تَارةً والْعُبَيْدِيِّين تَارةً أُخرى ، وَمِثْلُ مُلُوكِ الْعَجَمِ فِى دَوْلَةِ بَنِى الْعَبَّاسِ ، وَمِثْلُ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ مِن الْفُرْسِ مع الْإِسْكَنْدَرِ وَقَوْمِهِ الْيُونَانِيِّين . وَكَثِيرٌ مِن هٰؤُلَاءِ فَاعْتَبِرْهُ تَجِدْهُ واللهُ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ .

الفصل الرابع والعشرون

فى أن إرهاف الحد مضر بالملك ومفسد له فى الأكثر

إِعْلَمْ أَنَّ مَصْلَحَةَ الرَّعِيَّةِ فِى السُّلْطَانِ لَيْسَتْ فِى ذَاتِهِ وجِسْمِهِ ، مِنْ حُسْنِ شَكْلِهِ أَوْ مَلَاحَةِ وَجْهِهِ ، أَوْ عِظَمِ جُثْمَانِهِ أَوِ اتِّسَاعِ عِلْمِهِ أَوْ جَودةِ خَطِّهِ أَوْ ثُقُوبِ ذِهْنِهِ .

وَإِنَّمَا مَصْلَحَتُهُمْ فِيهِ مِنْ حَيْثُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِمْ ؛ فَإِنَّ الْمُلْكَ والسُّلْطَانَ مِن الْأُمُورِ الْإِضَافِيَّةِ وهِى نِسْبَةٌ بَيْنَ مُنْتَسِبَيْنِ . فَحَقِيقَةُ السُّلْطَانِ أَنَّهُ الْمَالِكُ لِلرَّعِيَّةِ الْقَائِمُ فِى أُمُورِهِمْ عَلَيْهِمْ . فَالسُّلْطَان مَنْ لَهُ رَعِيَّةٌ . والرَّعِيَّةُ مَن لَهَا سُلْطَانٌ . والصِّفَةُ الَّتِى لَهُ مِنْ حَيْثُ إِضَافَتُه إِلَيْهِمْ ، هِى الَّتِى تُسمَّى الْمَلَكَةَ وهِى كَوْنُهُ يَمْلِكُهُمْ . فَإِذَا كَانَتْ هٰذِهِ الْمَلَكَةُ وتَوابِعُهَا من الْجَودةِ بِمَكَان حصل الْمَقْصُودُ من السُّلْطَانِ على أَتَمِّ الْوُجُوهِ . فَإِنَّهَا إِنْ كَانَتْ جميلةً صالحةً كَانَ ذَلِكَ مَصْلَحَةً لَهُمْ وإِنْ كَانَتْ سَيِّئَةً مُتَعَسِّفَةً ، كَان ذَلِكَ ضررًا عَلَيْهِم وإِهلاكًا لَهُمْ .

ويعُود حُسْنُ الْملَكَةِ إلَى الرِّفْقِ، فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا كَانَ قَاهِرًا باطِشًا بِالْعُقُوبات. مُنَقِّبًا عَنْ عوْراتِ النَّاسِ، وتَعْدِيدِ ذُنُوبِهِمْ شَمِلَهُمُ الْخَوْفُ والذُّلُّ، ولَاذُوا مِنْهُ بِالْكَذِبِ والْمكْرِ والْخَدِيعةِ فَتَخَلَّقُوا بِهَا وفَسدتْ بصائرُهُمْ وأَخْلَاقُهُمْ، ورُبَّما خذَلُوهُ فى مَوَاطِنِ الْحُرُوبِ والْمُدافَعاتِ، فَفَسدتِ الْحِمايةُ بِفَسادِ النِّيَّاتِ؛ ورُبَّما أَجْمعُوا عَلَى قَتْلِهِ لِذَلِكَ، فَتَفْسُد الدَّوْلَةُ ويُخَرَّبُ السِّياجُ، وإنْ دام أَمْرُهُ عليْهِمْ وقَهْرُهُ فَسدتِ الْعصبِيَّةُ لِماقُلْنَاهُ أَوَّلًا(١) وفَسد السِّياجِ مِنْ أَصْلِهِ بِالْعجْزِ عنِ الْحِمايةِ.

وإِذَا كَانَ رفِيقًا بِهِمْ مُتَجاوِزًا عنْ سيِّئَاتِهِمْ اسْتَنَامُوا إِلَيْهِ ولَاذُوا بِهِ وأُشْرِبُوا محبَّتَهُ، واسْتَماتُوا دُونَهُ فى مُحاربةِ أَعْدائِهِ، فَاسْتَقَام الْأَمْرُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ.

وأَمَّا تَوابِعُ حُسْنِ الْملَكَةِ فَهِى النِّعْمةُ عليْهِمْ والْمُدافَعةُ عنْهُمْ: فَالْمُدافَعةُ بِهَا تَتِمُّ حقِيقَةُ الْمُلْكِ: وأَمَّا النِّعْمةُ عليْهِمْ والْإِحْسانُ لَهُمْ، فَمِنْ جُمْلَةِ الرِّفْقِ بِهِمْ، والنَّظَرِ لَهُمْ فى معاشِهِمْ وهِى أَصْلٌ كَبِيرٌ مِنَ التَّحبُّبِ إِلَى الرَّعِيَّةِ.

واعْلَمْ أَنَّهُ قَلَّما تَكُونُ ملَكَةُ الرِّفْقِ فِيمنْ يكُونُ يقِظًا شَدِيد الذَّكاءِ مِن النَّاسِ. وأَكْثَرُ ما يُوجدُ الرِّفْقُ فى الْغُفْلِ والْمُتَغَفِّلِ، وأَقَلُّ ما يكُونُ فى الْيقِظِ، لِأَنَّهُ يُكَلِّفُ الرَّعِيَّةَ فَوْقَ طَاقَتِهِمْ لِنُفُوذِ نَظَرِهِ فِيما وراءَ مدارِكِهِمْ واطِّلَاعِهِ عَلَى عواقِبِ الْأُمُورِ فى مبادِئِها بِأَلْمعِيَّتِهِ فَيهْلِكُونَ لِذَلِكَ. قَال صلَّى اللهُ علَيْهِ وسلَّم «سِيرُوا علَى سيْرِ أَضْعفِكُمْ». ومِنْ هٰذَا الْبابِ اشْتَرطَ الشَّارِعُ فى الْحاكِمِ قِلَّةَ الْإِفْراطِ فى الذَّكاءِ. ومأْخَذُهُ مِنْ قِصَّةِ زِيادِ ابْنِ أَبِى سفْيانَ، لَمَّا عزَلَهُ عُمرُ عنِ الْعِراقِ، وقَال لَهُ: لِم عزَلْتَنِى يا أَمِير الْمُؤْمِنِين، أَلِعجْزٍ أَمْ لِخِيانَةٍ؟ فَقَال عُمرُ «لَمْ أَعْزِلْكَ لِواحِدةٍ مِنْهُما. ولٰكِنِّى كَرِهْتُ أَنْ أَحْمِل فَضْل عقْلِكَ علَى النَّاسِ»، فَأُخِذَ مِنْ هٰذَا أَنَّ الْحاكِم لَايكُونُ مُفْرِط الذَّكاءِ والْكَيْسِ، مِثْل زِيادِ بْنِ أَبِى سفْيانَ وعمْرِو بْنِ الْعاصِ؛ لِما يتْبعُ ذٰلِكَ مِن التَّعسُّفِ وسُوءِ الْملَكَةِ وحمْلِ الْوُجُودِ علَى ما لَيْس فى طَبْعِهِ، كَما يأْتِى فى آخِرِ هٰذَا الْكِتَابِ واللهُ خَيْرُ الْمالِكِين. وتَقَرَّر مِنْ هٰذَا أَنَّ الْكَيس والذَّكاء عيْبٌ فى صاحِبِ السِّياسةِ لِأَنَّهُ إِفْراطٌ فى الْفِكْرِ كَما أَنَّ الْبلَادةَ إِفْراطٌ فى الْجُمُودِ. والطَّرفَانِ مذْمُومانِ مِنْ كُلِّ صِفَةٍ إِنْسانِيَّةٍ. والْمحْمُودُ هُو التَّوسُّطُ، كَما فى الْكَرمِ مع التَّبْذِيرِ والْبُخْلِ، وكَما فى الشَّجاعةِ مع الْهَوجِ والْجُبْنِ، وغَيْرِ ذٰلِكَ مِن الصِّفَاتِ الْإِنْسانِيَّةِ، ولِهٰذَا يُوصفُ الشَّدِيدُ الْكَيْسِ بِصِفَاتِ الشَّيْطَانِ، فَيُقَالُ شَيْطَانٌ ومُتَشَيْطِنٌ وأَمْثَالُ ذٰلِكَ. واللهُ يخْلُقُ ما يشَاءُ وهُو الْعلِيمُ الْقَدِيرُ.

الفصل الخامس والعشرون
فى معنى الخلافة والإمامة

لَمَّا كَانَتْ حقِيقَةُ الْمُلْكِ أَنَّهُ الاجْتِماعُ الضَّرُورِىُّ لِلْبَشَرِ، ومُقْتَضَاهُ التَّغَلُّبُ والْقَهْرُ اللَّذَانِ هُما آثَارُ الْغَضَبِ والْحيوانِيَّةِ، كَانَتْ أَحْكَامُ صاحِبِهِ فى الْغَالِبِ جائِرَةً عَنِ الْحَقِّ، مُجْحِفَةً بِمَنْ تَحْتَ يَدِهِ مِنَ الْخَلْقِ فى أَحْوالِ دُنْياهُمْ، لِحَمْلِهِ إِيَّاهُمْ فى الْغَالِبِ عَلَى ما لَيْسَ فى طَوْقِهِمْ مِنْ أَغْراضِهِ وشَهَواتِهِ،

(١) انظر: الفصل الثالث عشر من هذا الباب.

وَيَخْتَلِفُ ذٰلِكَ بِاخْتِلَافِ الْمَقَاصِدِ مِنَ الْخَلَفِ وَالسَّلَفِ مِنْهُمْ، فَتَعْسُرُ طَاعَتُهُ لِذٰلِكَ وَتَجِيءُ الْعَصَبِيَّةُ الْمُفْضِيَةُ إِلَى الْهَرْجِ (١) وَالْقَتْلِ، فَوَجَبَ أَنْ يُرْجَعَ فِى ذٰلِكَ إِلَى قَوَانِينَ سِيَاسِيَّةٍ مَفْرُوضَةٍ يُسَلِّمُهَا الْكَافَّةُ، وَيَنْقَادُونَ إِلَى أَحْكَامِهَا، كَمَا كَانَ ذٰلِكَ لِلْفُرْسِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ.

وَإِذَا خَلَتِ الدَّوْلَةُ مِنْ مِثْلِ هٰذِهِ السِّيَاسَةِ لَمْ يَسْتَتِبَّ أَمْرُهَا وَلَمْ يَتِمَّ اسْتِيلَاؤُهَا، «سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ» (٢). فَإِذَا كَانَتْ هٰذِهِ الْقَوَانِينُ مَفْرُوضَةً مِنَ الْعُقَلَاءِ وَأَكَابِرِ الدَّوْلَةِ وَبُصَرَائِهَا، كَانَتْ سِيَاسَةً عَقْلِيَّةً. وَإِذَا كَانَتْ مَفْرُوضَةً مِنَ اللهِ بِشَارِعٍ يُقَرِّرُهَا وَيَشْرَعُهَا، كَانَتْ سِيَاسَةً دِينِيَّةً نَافِعَةً فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ. وَذٰلِكَ أَنَّ الْخَلْقَ لَيْسَ الْمَقْصُودُ بِهِمْ دُنْيَاهُمْ فَقَطْ. فَإِنَّهَا كُلَّهَا عَبَثٌ وَبَاطِلٌ، إِذْ غَايَتُهَا الْمَوْتُ وَالْفَنَاءُ وَاللهُ يَقُولُ، «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا» (٣). فَالْمَقْصُودُ بِهِمْ إِنَّمَا هُوَ دِينُهُمُ الْمُفْضِى بِهِمْ إِلَى السَّعَادَةِ فِى آخِرَتِهِمْ «صِرَاطِ اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ» (٤) فَجَاءَتِ الشَّرَائِعُ بِحَمْلِهِمْ عَلَى ذٰلِكَ فِى جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ مِنْ عِبَادَةٍ وَمُعَامَلَةٍ حَتَّى فِى الْمُلْكِ الَّذِى هُوَ طَبِيعِىٌّ لِلِاجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِىِّ، فَأَجْرَتْهُ عَلَى مِنْهَاجِ الدِّينِ لِيَكُونَ الْكُلُّ مَحُوطًا بِنَظَرِ الشَّارِعِ.

فَمَا كَانَ مِنْهُ بِمُقْتَضَى الْقَهْرِ وَالتَّغَلُّبِ وَإِهْمَالِ

(١) الفتنة والإضطرابات.
(٢) من الآية رقم ٣٨ من سورة الأحزاب.
(٣) الآية : ١١٥ من سورة المؤمنين.
(٤) الآية : ٥٣ من سورة الشورى.

الْقُوَّةِ الْعَصَبِيَّةِ فِى مَرْعَاهَا فَجَوْرٌ وَعُدْوَانٌ وَمَذْمُومٌ عِنْدَهُ كَمَا هُوَ مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ السِّيَاسِيَّةِ.

وَمَا كَانَ مِنْهُ بِمُقْتَضَى السِّيَاسَةِ وَأَحْكَامِهَا فَمَذْمُومٌ أَيْضًا، لِأَنَّهُ نَظَرٌ بِغَيْرِ نُورِ اللهِ «وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ» (١) لِأَنَّ الشَّارِعَ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ الْكَافَّةِ فِيمَا هُوَ مُغَيَّبٌ عَنْهُمْ مِنْ أُمُورِ آخِرَتِهِمْ؛ وَأَعْمَالُ الْبَشَرِ كُلُّهَا عَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ فِى مَعَادِهِمْ مِنْ مُلْكٍ أَوْ غَيْرِهِ. قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِنَّمَا هِىَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ». وَأَحْكَامُ السِّيَاسَةِ إِنَّمَا تَطَّلِعُ عَلَى مَصَالِحِ الدُّنْيَا فَقَطْ، «يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» (٢)، وَمَقْصُودُ الشَّارِعِ بِالنَّاسِ صَلَاحُ آخِرَتِهِمْ، فَوَجَبَ بِمُقْتَضَى الشَّرَائِعِ حَمْلُ الْكَافَّةِ عَلَى الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فِى أَحْوَالِ دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ، وَكَانَ هٰذَا الْحُكْمُ لِأَهْلِ الشَّرِيعَةِ، وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَمَنْ قَامَ فِيهِ مَقَامَهُمْ وَهُمُ الْخُلَفَاءُ.

فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ مِنْ ذٰلِكَ مَعْنَى الْخِلَافَةِ: وَأَنَّ الْمُلْكَ الطَّبِيعِىَّ هُوَ حَمْلُ الْكَافَّةِ عَلَى مُقْتَضَى الْغَرَضِ وَالشَّهْوَةِ؛ وَالسِّيَاسِىَّ هُوَ حَمْلُ الْكَافَّةِ عَلَى مُقْتَضَى النَّظَرِ الْعَقْلِىِّ فِى جَلْبِ الْمَصَالِحِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَدَفْعِ الْمَضَارِّ؛ وَالْخِلَافَةَ هِىَ حَمْلُ الْكَافَّةِ عَلَى مُقْتَضَى النَّظَرِ الشَّرْعِىِّ فِى مَصَالِحِهِمِ الْأُخْرَوِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ الرَّاجِعَةِ إِلَيْهَا. إِذْ أَحْوَالُ الدُّنْيَا تَرْجِعُ كُلُّهَا عِنْدَ الشَّارِعِ إِلَى اعْتِبَارِهَا بِمَصَالِحِ الْآخِرَةِ، فَهِىَ فِى الْحَقِيقَةِ خِلَافَةٌ عَنْ صَاحِبِ الشَّرْعِ فِى حِرَاسَةِ

(١) الآية : ٤٠ من سورة النور.
(٢) الآية : ٧ من سورة الروم.

الدِّينِ وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا بِهِ، فَافْهَمْ ذَلِكَ وَاعْتَبِرْهُ فِيمَا نُورِدُهُ عَلَيْكَ مِنْ بَعْدُ وَاللهُ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ.

الفصل السادس والعشرون

فى اختلاف الأمة فى حكم هذا المنصب وشروطه

وَإِذْ قَدْ بَيَّنَّا حَقِيقَةَ هَذَا الْمَنْصِبِ وَأَنَّهُ نِيَابَةٌ عَنْ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ فِى حِفْظِ الدِّينِ وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا بِهِ سُمِّىَ خِلَافَةً وَإِمَامَةً. وَالْقَائِمُ بِهِ خَلِيفَةً وَإِمَامًا. [وَسَمَّاهُ الْمُتَأَخِّرُونَ سُلْطَانًا حِينَ فَشَا التَّعَدُّدُ فِيهِ، وَاضْطُرُّوا بِالتَّبَاعُدِ وَفُقْدَانِ شُرُوطِ الْمَنْصِبِ إِلَى عَقْدِ الْبَيْعَةِ لِكُلِّ مُتَغَلِّبٍ] (1)، فَأَمَّا تَسْمِيَتُهُ إِمَامًا فَتَشْبِيهًا بِإِمَامِ الصَّلَاةِ فِى اتِّبَاعِهِ وَالِاقْتِدَاءِ بِهِ، وَلِهَذَا يُقَالُ الْإِمَامَةُ الْكُبْرَى، وَأَمَّا تَسْمِيَتُهُ خَلِيفَةً فَلِكَوْنِهِ يَخْلُفُ النَّبِىَّ صلوات الله عليه فِى أُمَّتِهِ، فَيُقَالُ: خَلِيفَةٌ بِإِطْلَاقٍ، وَخَلِيفَةُ رَسُولِ اللهِ.

وَاخْتُلِفَ فِى تَسْمِيَتِهِ خَلِيفَةَ اللهِ، فَأَجَازَهُ بَعْضُهُمْ اقْتِبَاسًا مِنَ الْخِلَافَةِ الْعَامَّةِ الَّتِى لِلْآدَمِيِّينَ فِى قَوْلِهِ تَعَالَى «إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً» (2)، وَقَوْلِهِ «جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ» (3) وَمَنَعَ الْجُمْهُورُ مِنْهُ لِأَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ لَيْسَ عَلَيْهِ.

وَقَدْ نَهَى أَبُو بَكْرٍ عَنْهُ لَمَّا دُعِىَ بِهِ، وَقَالَ: لَسْتُ خَلِيفَةَ اللهِ، وَلَكِنِّى خَلِيفَةُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» وَلِأَنَّ الِاسْتِخْلَافَ إِنَّمَا هُوَ فِى حَقِّ الْغَائِبِ، وَأَمَّا الْحَاضِرُ فَلَا.

(1) تنفرد نسخة خطية من بين جميع النسخ بهذه العبارة. التى أثبتناها بين المعقوفتين نقلا عن منشورة د. وافى.

(2) من الآية رقم ٣٠ من سورة البقرة.

(3) من الآية رقم ١٦٥ من سورة الأنعام.

ثُمَّ إِنَّ نَصْبَ الْإِمَامِ وَاجِبٌ قَدْ عُرِفَ وُجُوبُهُ فِى الشَّرْعِ بِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، لِأَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ وَفَاتِهِ بَادَرُوا إِلَى بَيْعَةِ أَبِى بَكْرٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ، وَتَسْلِيمِ النَّظَرِ إِلَيْهِ فِى أُمُورِهِمْ، وَكَذَا فِى كُلِّ عَصْرٍ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ. وَلَمْ تُتْرَكِ النَّاسُ فَوْضَى فِى عَصْرٍ مِنَ الْأَعْصَارِ. وَاسْتَقَرَّ ذَلِكَ إِجْمَاعًا دَالًّا عَلَى وُجُوبِ نَصْبِ الْإِمَامِ.

وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ النَّاسِ إِلَى أَنَّ مُدْرَكَ وُجُوبِهِ الْعَقْلُ، وَأَنَّ الْإِجْمَاعَ الَّذِى وَقَعَ إِنَّمَا هُوَ قَضَاءٌ بِحُكْمِ الْعَقْلِ فِيهِ. قَالُوا: وَإِنَّمَا وَجَبَ بِالْعَقْلِ لِضَرُورَةِ الِاجْتِمَاعِ لِلْبَشَرِ، وَاسْتِحَالَةِ حَيَاتِهِمْ وَوُجُودِهِمْ مُنْفَرِدِينَ، وَمِنْ ضَرُورَةِ الِاجْتِمَاعِ التَّنَازُعُ لِازْدِحَامِ الْأَغْرَاضِ، فَمَا لَمْ يَكُنِ (1) الْحَاكِمُ الْوَازِعُ أَفْضَى ذَلِكَ إِلَى الْهَرْجِ الْمُؤْذِنِ بِهَلَاكِ الْبَشَرِ وَانْقِطَاعِهِمْ، مَعَ أَنَّ حِفْظَ النَّوْعِ مِنْ مَقَاصِدِ الشَّرْعِ الضَّرُورِيَّةِ.

وَهَذَا الْمَعْنَى بِعَيْنِهِ هُوَ الَّذِى لَحَظَهُ الْحُكَمَاءُ فِى وُجُوبِ النُّبُوَّاتِ فِى الْبَشَرِ، وَقَدْ نَبَّهْنَا عَلَى فَسَادِهِ، وَأَنَّ إِحْدَى مُقَدِّمَاتِهِ أَنَّ الْوَازِعَ إِنَّمَا يَكُونُ بِشَرْعٍ مِنَ اللهِ تُسَلِّمُ لَهُ الْكَافَّةُ تَسْلِيمَ إِيمَانٍ وَاعْتِقَادٍ، وَهُوَ غَيْرُ مُسَلَّمٍ، لِأَنَّ الْوَازِعَ قَدْ يَكُونُ بِسَطْوَةِ الْمُلْكِ وَقَهْرِ أَهْلِ الشَّوْكَةِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ شَرْعٌ، كَمَا فِى أُمَمِ الْمَجُوسِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ لَيْسَ لَهُ كِتَابٌ أَوْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ. أَوْ نَقُولُ يَكْفِى فِى رَفْعِ التَّنَازُعِ مَعْرِفَةُ كُلِّ وَاحِدٍ بِتَحْرِيمِ الظُّلْمِ عَلَيْهِ بِحُكْمِ الْعَقْلِ. فَادِّعَاؤُهُمْ أَنَّ التَّنَازُعَ إِنَّمَا يَكُونُ بِوُجُودِ

(1) فما لم يوجد.

الشَّرْعِ هُنَاكَ وَنَصْبِ الإمَامِ هُنَا غَيْرُ صَحِيحٍ ؛ بَلْ كَمَا يَكُونُ بِنَصْبِ الإمَامِ يَكُونُ بِوُجُودِ الرُّؤَسَاء أَهْلِ الشَّوْكَةِ، أَوْ بِامْتِنَاعِ النَّاسِ عَنِ التَّنَازُعِ وَالتَّظَالُمِ، فَلَا يَنْهَضُ دَلِيلُهُمُ الْعَقْلِيُّ الْمَبْنِيُّ عَلَى هٰذِهِ الْمُقَدِّمَةِ. فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مُدْرَكَ وُجُوبِهِ إِنَّمَا هُوَ بِالشَّرْعِ وَهُوَ الإِجْمَاعُ الَّذِى قَدَّمْنَاهُ.

وَقَدْ شَذَّ بَعْضُ النَّاسِ فَقَالَ بِعَدَمِ وُجُوبِ هٰذَا النَّصْبِ رَأْسًا لَا بِالْعَقْلِ وَلَا بِالشَّرْعِ ، مِنْهُمُ «الأَصَمُّ» مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ، وَبَعْضُ الْخَوَارِجِ، وَغَيْرُهُمْ. وَالْوَاجِبُ عِنْدَ هٰؤُلَاءِ إِنَّمَا هُوَ إِمْضَاءُ الْحُكْمِ بِالشَّرْعِ. فَإِذَا تَوَاطَأَتِ الأُمَّةُ عَلَى الْعَدْلِ وَتَنْفِيذِ أَحْكَامِ اللهِ تَعَالَى لَمْ يُحْتَجْ إِلَى إِمَامٍ، وَلَا يَجِبُ نَصْبُهُ، وَهٰؤُلَاء مَحْجُوجُونَ بِالإِجْمَاعِ.

وَالَّذِى حَمَلَهُمْ عَلَى هٰذَا الْمَذْهَبِ إِنَّمَا هُوَ الْفِرَارُ عَنِ الْمُلْكِ وَمَذَاهِبِهِ مِنَ الاسْتِطَالَةِ وَالتَّغَلُّبِ وَالاسْتِمْتَاعِ بِالدُّنْيَا لَمَّا رَأَوُا الشَّرِيعَةَ مُمْتَلِئَةً بِذَمِّ ذٰلِكَ، وَالنَّعْيِ عَلَى أَهْلِهِ وَمُرَغِّبَةً فِى رَفْضِهِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الشَّرْعَ لَمْ يَذُمَّ الْمُلْكَ لِذَاتِهِ وَلَا حَظَرَ الْقِيَامَ بِهِ ؛ وَإِنَّمَا ذَمَّ الْمَفَاسِدَ النَّاشِئَةَ عَنْهُ مِنَ الْقَهْرِ وَالظُّلْمِ وَالتَّمَتُّعِ بِاللَّذَّاتِ ؛ وَلَا شَكَّ أَنَّ فِى هٰذِهِ مَفَاسِدَ مَحْظُورَةً وَهِىَ مِنْ تَوَابِعِهِ، كَمَا أَثْنَى عَلَى الْعَدْلِ وَالنَّصَفَةِ وَإِقَامَةِ مَرَاسِمِ الدِّينِ وَالذَّبِّ[1] عَنْهُ، وَأَوْجَبَ بِإِزَائِهَا الثَّوَابَ وَهِىَ كُلُّهَا مِنْ تَوَابِعِ الْمُلْكِ. فَإِذًا إِنَّمَا وَقَعَ الذَّمُّ لِلْمُلْكِ عَلَى صِفَةٍ وَحَالٍ دُونَ حَالٍ أُخْرَى، وَلَمْ يَذُمَّهُ لِذَاتِهِ وَلَا طَلَبَ تَرْكَهُ ، كَمَا ذَمَّ الشَّهْوَةَ وَالْغَضَبَ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ،

(١) الدفاع عنه.

وَلَيْسَ مُرَادُهُ تَرْكَهُمَا بِالْكُلِّيَّةِ لِدِعَايَةِ الضَّرُورَةِ إِلَيْهِمَا، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ تَصْرِيفُهُمَا عَلَى مُقْتَضَى الْحَقِّ. وَقَدْ كَانَ لِدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا الْمُلْكُ الَّذِى لَمْ يَكُنْ لِغَيْرِهِمَا، وَهُمَا مِنْ أَنْبِيَاءِ اللهِ تَعَالَى وَأَكْرَمِ الْخَلْقِ عِنْدَهُ.

ثُمَّ نَقُولُ لَهُمْ : إِنَّ هٰذَا الْفِرَارَ عَنِ الْمُلْكِ بِعَدَمِ وُجُوبِ هٰذَا النَّصْبِ لَا يُغْنِيكُمْ شَيْئًا ؛ لِأَنَّكُمْ مُوَافِقُونَ عَلَى وُجُوبِ إِقَامَةِ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، وَذٰلِكَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالْعَصَبِيَّةِ وَالشَّوْكَةِ، وَالْعَصَبِيَّةُ مُقْتَضِيَةٌ بِطَبْعِهَا لِلْمُلْكِ (١)، فَيَحْصُلُ الْمُلْكُ وَإِنْ لَمْ يُنَصَّبْ إِمَامٌ، وَهُوَ عَيْنُ مَا فَرَرْتُمْ عَنْهُ.

وَإِذَا تَقَرَّرَ أَنَّ هٰذَا النَّصْبَ وَاجِبٌ بِإِجْمَاعٍ فَهُوَ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَةِ، وَرَاجِعٌ إِلَى اخْتِيَارِ أَهْلِ الْعَقْدِ وَالْحَلِّ فَيَتَعَيَّنُ عَلَيْهِمْ نَصْبُهُ. وَيَجِبُ عَلَى الْخَلْقِ جَمِيعًا طَاعَتُهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى «أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الأَمْرِ مِنْكُمْ (٢)».

وَأَمَّا شُرُوطُ هٰذَا الْمَنْصِبِ فَهِىَ أَرْبَعَةٌ :

الْعِلْمُ، وَالْعَدَالَةُ، وَالْكِفَايَةُ، وَسَلَامَةُ الْحَوَاسِّ وَالأَعْضَاءِ مِمَّا يُؤَثِّرُ فِى الرَّأْىِ وَالْعَمَلِ، وَاخْتُلِفَ فِى شَرْطٍ خَامِسٍ وَهُوَ النَّسَبُ الْقُرَشِىُّ.

فَأَمَّا اشْتِرَاطُ الْعِلْمِ فَظَاهِرٌ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ مُنَفِّذًا لِأَحْكَامِ اللهِ تَعَالَى إِذَا كَانَ عَالِمًا بِهَا وَمَا لَمْ يَعْلَمْهَا لَا يَصِحُّ تَقْدِيمُهُ لَهَا. وَلَا يَكْفِى مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُجْتَهِدًا ، لِأَنَّ التَّقْلِيدَ نَقْصٌ.

وَأَمَّا الْعَدَالَةُ فَلِأَنَّهُ مَنْصِبٌ دِينِىٌّ يَنْظُرُ فِى سَائِرِ الْمَنَاصِبِ الَّتِى هِىَ شَرْطٌ فِيهَا، فَكَانَ أَوْلَى بِاشْتِرَاطِهَا فِيهِ

(١) انظر الفصل السابع عشر من الباب الثانى وعنوانه : «فصل فى أن الغاية التى تجرى إليها العصبية هى الملك».

(٢) من الآية ٥٩ من سورة النساء.

وَلَا خلافٌ فى انتِفاء الْعَدَالَةِ فِيهِ بِفِسْقِ الْجَوَارِحِ ، مِنِ ارْتِكَابِ الْمَحْظُورَاتِ وَأَمْثَالِهَا . وَفى انْتِفَائِهَا بِالْبِدَعِ الاعتِقَادِيَّةِ خِلَافٌ .

وَأَمَّا الْكِفَايَةُ فَهُوَ أَنْ يَكُونَ جَرِيئًا عَلَى إِقَامَةِ الْحُدُودِ وَاقْتِحَامِ الْحُرُوبِ بَصِيرًا بِهَا ، كَفِيلاً بِحَمْلِ النَّاسِ عَلَيْهَا ، عَارِفًا بِالْعَصَبِيَّةِ وَأَحْوَالِ الدَّهَاء قَوِيًّا عَلَى مُعَانَاةِ السياسَةِ لِيَصِحَّ له بذلك مَاجُعِلَ إِلَيْهِ مِنْ حِمَايَةِ الدِّينِ وجِهَادِ الْعَدُوِّ ، وَإِقَامَةِ الْأَحْكَامِ ، وَتَدْبِيرِ الْمَصَالِحِ .

وَأَمَّا سَلَامَةُ الْحَوَاسِّ وَالْأَعْضَاء مِنَ النَّقْصِ وَالْعُطْلَةِ كَالْجُنُونِ وَالْعَمَى وَالصَّمَمِ وَالْخَرَسِ ؛ وَمَا يُؤَثِّرُ فَقْدُهُ مِنَ الأَعْضَاء فى الْعَمَلِ ، كَفَقْدِ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ وَالْأُنْثَيَيْنِ (١) ، فَتُشْتَرَطُ السَّلَامَةُ مِنْهَا كُلِّهَا لِتَأْثِيرِ ذَلِكَ فى تَمَامِ عَمَلِهِ وَقِيَامِهِ بِمَا جُعِلَ إِلَيْهِ . وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا يَشِينُ فى الْمَنْظَرِ فَقَطْ. كَفَقْدِ إِحْدَى هٰذِهِ الْأَعْضَاء فَشَرْطُ السَّلَامَةِ مِنْهُ شَرْطُ كَمَالٍ .

وَيَلْحَقُ بِفِقْدَانِ الْأَعْضَاءِ الْمَنْعُ مِنَ التَّصَرُّفِ وَهُوَ ضَرْبَانِ : ضَرْبٌ يُلْحَقُ بِهٰذِهِ فى اشْتِرَاطِ السَّلَامَةِ مِنْهُ شَرْطَ وُجُوبٍ ، وَهُوَ الْقَهْرُ وَالْعَجْزُ عَنِ التصرُّفِ جُمْلَةً بِالْأَسْرِ وشِبْهِهِ ، وَضَرْبٌ لَايُلْحَقُ بِهٰذِهِ وَهُوَ الْحَجْرُ بِاسْتِيلَاءِ بَعْضِ أَعْوَانِهِ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ عِصْيَانٍ وَلَا مُشَاقَّةٍ (٢) ، فَيَنْتَقِلُ النَّظَرُ فى حَالِ هٰذَا الْمُسْتَوْلِى ، فَإِنْ جَرَى عَلَى حُكْمِ الدِّينِ وَالْعَدْلِ وَحَمِيدِ السِّيَاسَةِ جَازَ قَرَارُهُ ، وَإِلَّا اسْتَنْصَرَ الْمُسْلِمُونَ بِمَنْ يَقْبِضُ

(١) الخصيتان .

(٢) ولا مخالفة .

يَدَهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَيَدْفَعُ عِلَّتَهُ حَتَّى يُنَفِّذَ فِعْلَ الْخَلِيفَةِ .

وَأَمَّا النَّسَبُ الْقُرَشِيُّ ، فَلِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ (١) عَلَى ذَلِكَ ، واحتَجَّتْ قُرَيْشٌ عَلَى الْأَنْصَارِ ـ لَمَّا هَمُّوا يَوْمَئِذٍ بِبَيْعَةِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ ، وَقَالُوا : مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ ـ بِقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الْأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ » ؛ وبِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ : أَوْصَانَا بِأَنْ نُحْسِنَ إِلَى مُحْسِنِكُمْ ، وَنَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِكُمْ ، وَلَوْ كَانَتِ الْإِمَارَةُ فِيكُمْ لَمْ تَكُنْ الْوَصِيَّةُ بِكُمْ ؛ فَحَجُّوا الْأَنْصَارَ وَرَجَعُوا عَنْ قَوْلِهِمْ مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ ، وَعَدَلُوا عَمَّا كَانُوا هَمُّوا بِهِ مِنْ بَيْعَةِ سَعْد لِذَلِكَ . وَثَبَتَ أَيْضًا فى الصَّحِيحِ : « لَايَزَالُ هٰذَا الْأَمْرُ فى هٰذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ » . وَأَمْثَالُ هٰذِهِ الْأَدِلَّةِ كَثِيرَةٌ .

إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا ضَعُفَ أَمْرُ قُرَيْشٍ ، وَتَلَاشَتْ عَصَبِيَّتُهُمْ بِمَا نَالَهُمْ مِنَ التَّرَفِ وَالنَّعِيمِ ، وَبِمَا أَنْفَقَتْهُمُ الدَّوْلَةُ فى سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، عَجَزُوا بِذَلِكَ عَنْ حَمْلِ الْخِلَافَةِ ، وَتَغَلَّبَتْ عَلَيْهِمِ الْأَعَاجِمُ ، وَصَارَ الْحَلُّ وَالْعَقْدُ لَهُمْ ، فَاشْتَبَهَ ذَلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ ، حَتَّى ذَهَبُوا إِلَى نَفْيِ اشْتِرَاطِ الْقُرَشِيَّةِ ، وَعَوَّلُوا عَلَى ظَوَاهِرَ فى ذَلِكَ مِثْلَ قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ وُلِّىَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ ذُوزَبِيبَةٍ » ؛ وَهٰذَا لَاتَقُومُ بِهِ حُجَّةٌ فى ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ خَرَجَ مَخْرَجَ التَّمْثِيلِ وَالْفَرْضِ لِلْمُبَالَغَةِ فى إِيجَابِ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ؛ وَمِثْلَ قَوْلِ عُمَرَ : « لَوْكَانَ سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ حَيًّا لَوَلَّيْتُهُ ، أَوْلَمَا دَخَلَتْنِى فِيهِ الظِّنَّةُ » ؛ وَهُوَ أَيْضًا لَايُفِيدُ ذَلِكَ لِمَا عَلِمْتَ أَنَّ

(١) سقيفة بنى ساعدة التى بويع فيها أبو بكر .

مَذْهَبَ الصَّحابِيِّ لَيْسَ بِحُجَّةٍ ، وَأَيْضًا فَمَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ ، وَعَصَبِيَّةُ الْوَلَاءِ حَاصِلَةٌ لِسَالِمٍ فِى قُرَيْشٍ ، وَهِىَ الْفَائِدَةُ فِى اشْتِرَاطِ النَّسَبِ . وَلَمَّا اسْتَعْظَمَ عُمَرُ أَمْرَ الْخِلَافَةِ وَرَأَى شُرُوطَهَا كَأَنَّهَا مَفْقُودَةٌ فِى ظَنِّهِ عَدَلَ إِلَى سَالِمٍ ، لِتَوَفُّرِ شُرُوطِ الْخِلَافَةِ عِنْدَهُ فِيهِ ، حَتَّى مِنَ النَّسَبِ الْمُفِيدِ لِلْعَصَبِيَّةِ كَمَا نَذْكُرُ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صَرَاحَةُ النَّسَبِ فَرَآهُ غَيْرَ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِ ، إِذِ الْفَائِدَةُ فِى النَّسَبِ إِنَّمَا هِىَ الْعَصَبِيَّةُ ، وَهِىَ حَاصِلَةٌ مِنَ الْوَلَاءِ فَكَانَ ذَلِكَ حِرْصًا مِنْ عُمَرَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ عَلَى النَّظَرِ لِلْمُسْلِمِينَ وَتَقْلِيدِ أَمْرِهِمْ لِمَنْ لَا تَلْحَقُهُ فِيهِ لَائِمَةٌ ، وَلَا عَلَيْهِ فِيهِ عُهْدَةٌ .

وَمِنَ الْقَائِلِينَ بِنَفْىِ اشْتِرَاطِ الْقُرَشِيَّةِ الْقَاضِى أَبُو بَكْرٍ الْبَاقِلَّانِىُّ ، لَمَّا أَدْرَكَ مَا عَلَيْهِ عَصَبِيَّةُ قُرَيْشٍ مِنَ التَّلَاشِى وَالِاضْمِحْلَالِ وَاسْتِبْدَادِ مُلُوكِ الْعَجَمِ عَلَى الْخُلَفَاءِ ، فَأَسْقَطَ شَرْطَ الْقُرَشِيَّةِ ، وَإِنْ كَانَ مُوَافِقًا لِرَأْىِ الْخَوَارِجِ ، لِمَا رَأَى عَلَيْهِ حَالَ الْخُلَفَاءِ لِعَهْدِهِ .

وَبَقِىَ الْجُمْهُورُ عَلَى الْقَوْلِ بِاشْتِرَاطِهَا وَصِحَّةِ الْإِمَامَةِ لِلْقُرَشِىِّ وَلَوْ كَانَ عَاجِزًا عَنِ الْقِيَامِ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ ، وَرُدَّ عَلَيْهِمْ سُقُوطُ شَرْطِ الْكِفَايَةِ[1] الَّتِى يَقْوَى بِهَا عَلَى أَمْرِهِ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا ذَهَبَتِ الشَّوْكَةُ بِذَهَابِ الْعَصَبِيَّةِ فَقَدْ ذَهَبَتِ الْكِفَايَةُ ، وَإِذَا وَقَعَ الْإِخْلَالُ بِشَرْطِ الْكِفَايَةِ تَطَرَّقَ ذَلِكَ أَيْضًا إِلَى الْعِلْمِ وَالدِّينِ ، وَسَقَطَ اعْتِبَارُ شُرُوطِ هَذَا الْمَنْصِبِ وَهُوَ خِلَافُ الْإِجْمَاعِ .

وَلْنَتَكَلَّمِ الْآنَ فِى حِكْمَةِ اشْتِرَاطِ النَّسَبِ لِيَتَحَقَّقَ بِهِ الصَّوَابُ فِى هَذِهِ الْمَذَاهِبِ فَنَقُولُ : إِنَّ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ كُلَّهَا ، لَا بُدَّ لَهَا مِنْ مَقَاصِدَ وَحِكَمٍ تَشْتَمِلُ عَلَيْهَا ، وَتُشْرَعُ لِأَجْلِهَا . وَنَحْنُ إِذَا بَحَثْنَا عَنِ الْحِكْمَةِ فِى اشْتِرَاطِ النَّسَبِ الْقُرَشِىِّ وَمَقْصِدِ الشَّارِعِ مِنْهُ ، لَمْ يُقْتَصَرْ فِيهِ عَلَى التَّبَرُّكِ بِوُصْلَةِ النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا هُوَ فِى الْمَشْهُورِ ، وَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ الْوُصْلَةُ مَوْجُودَةً وَالتَّبَرُّكُ بِهَا حَاصِلًا ، لَكِنِ التَّبَرُّكُ لَيْسَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الشَّرْعِيَّةِ كَمَا عَلِمْتَ ، فَلَا بُدَّ إِذَنْ مِنَ الْمَصْلَحَةِ فِى اشْتِرَاطِ النَّسَبِ ، وَهِىَ الْمَقْصُودَةُ مِنْ مَشْرُوعِيَّتِهَا . وَإِذَا سَبَرْنَا وَقَسَمْنَا[1] لَمْ نَجِدْهَا إِلَّا اعْتِبَارَ الْعَصَبِيَّةِ الَّتِى تَكُونُ بِهَا الْحِمَايَةُ وَالْمُطَالَبَةُ ، وَيَرْتَفِعُ الْخِلَافُ وَالْفُرْقَةُ بِوُجُودِهَا لِصَاحِبِ الْمَنْصِبِ ، فَتَسْكُنُ إِلَيْهِ الْمِلَّةُ وَأَهْلُهَا ، وَيَنْتَظِمُ حَبْلُ الْأُلْفَةِ فِيهَا .

وَذَلِكَ أَنَّ قُرَيْشًا كَانُوا عُصْبَةَ مُضَرَ وَأَصْلَهُمْ وَأَهْلَ الْغَلَبِ مِنْهُمْ ، وَكَانَ لَهُمْ عَلَى سَائِرِ مُضَرَ الْعِزَّةُ بِالْكَثْرَةِ وَالْعَصَبِيَّةِ وَالشَّرَفِ ، فَكَانَ سَائِرُ الْعَرَبِ يَعْتَرِفُ لَهُمْ بِذَلِكَ ، وَيَسْتَكِينُونَ لِغَلَبِهِمْ ؛ فَلَوْ جُعِلَ الْأَمْرُ فِى سِوَاهُمْ لَتُوُقِّعَ افْتِرَاقُ الْكَلِمَةِ بِمُخَالَفَتِهِمْ وَعَدَمِ انْقِيَادِهِمْ ، وَلَا يَقْدِرُ غَيْرُهُمْ مِنْ قَبَائِلِ مُضَرَ أَنْ يَرُدَّهُمْ عَنِ الْخِلَافِ ، وَلَا يَحْمِلَهُمْ عَلَى الْكَرَّةِ ، فَتَتَفَرَّقُ الْجَمَاعَةُ ، وَتَخْتَلِفُ الْكَلِمَةُ ، وَالشَّارِعُ مُحَذِّرٌ مِنْ ذَلِكَ ، حَرِيصٌ عَلَى اتِّفَاقِهِمْ ، وَرَفْعِ التَّنَازُعِ وَالشَّتَاتِ بَيْنَهُمْ لِتَحْصُلَ اللُّحْمَةُ وَالْعَصَبِيَّةُ ، وَتَحْسُنَ الْحِمَايَةُ . بِخِلَافِ مَا إِذَا كَانَ الْأَمْرُ فِى قُرَيْشٍ ؛ لِأَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى سَوْقِ النَّاسِ بِعَصَا الْغَلَبِ إِلَى مَا يُرَادُ مِنْهُمْ ، فَلَا يُخْشَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ خِلَافٍ عَلَيْهِمْ وَلَا فُرْقَةٍ ؛ لِأَنَّهُمْ كَفِيلُونَ حِينَئِذٍ بِدَفْعِهَا وَمَنْعِ النَّاسِ مِنْهَا ، فَاشْتُرِطَ نَسَبُهُمْ

(١) أى عدم اشتراط «القرشية» ، وإهدار ما عداها من شروط .

(١) قسم أمره : قدره ، أى إذا نظرنا وبحثنا .

الْقُرَشِيُّ فِي هَٰذَا الْمَنْصِبِ وَهُمْ أَهْلُ الْعَصَبِيَّةِ الْقَوِيَّةِ لِيَكُونَ أَبْلَغَ فِي انْتِظَامِ الْمِلَّةِ وَاتِّفَاقِ الْكَلِمَةِ، وَإِذَا انْتَظَمَتْ كَلِمَتُهُمْ انْتَظَمَتْ بِانْتِظَامِهَا كَلِمَةُ مُضَرَ أَجْمَعَ، فَأَذْعَنَ لَهُمْ سَائِرُ الْعَرَبِ، وَانْقَادَتِ الْأُمَمُ سِوَاهُمْ إِلَى أَحْكَامِ الْمِلَّةِ، وَوَطِئَتْ جُنُودُهُمْ قَاصِيَةَ الْبِلَادِ، كَمَا وَقَعَ فِي أَيَّامِ الْفُتُوحَاتِ وَاسْتَمَرَّ بَعْدَهَا فِي الدَّوْلَتَيْنِ إِلَى أَنِ اضْمَحَلَّ أَمْرُ الْخِلَافَةِ وَتَلَاشَتْ عَصَبِيَّةُ الْعَرَبِ.

وَيَعْلَمُ مَا كَانَ لِقُرَيْشٍ مِنَ الْكَثْرَةِ وَالتَّغَلُّبِ عَلَى بُطُونِ مُضَرَ مَنْ مَارَسَ أَخْبَارَ الْعَرَبِ وَسِيَرَهُمْ وَتَفَطَّنَ لِذَلِكَ فِي أَحْوَالِهِمْ. وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي كِتَابِ السِّيَرِ وَغَيْرِهِ. فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ اشْتِرَاطَ الْقُرَشِيَّةِ إِنَّمَا هُوَ لِدَفْعِ التَّنَازُعِ بِمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ وَالْغَلَبِ، وَعَلِمْنَا أَنَّ الشَّارِعَ لَا يَخُصُّ الْأَحْكَامَ بِجِيلٍ وَلَا عَصْرٍ وَلَا أُمَّةٍ، عَلِمْنَا أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْكِفَايَةِ فَرَدَدْنَاهُ إِلَيْهَا، وَطَرَدْنَا (١) الْعِلَّةَ الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى الْمَقْصُودِ مِنَ الْقُرَشِيَّةِ وَهِيَ وُجُودُ الْعَصَبِيَّةِ، فَاشْتَرَطْنَا فِي الْقَائِمِ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْمٍ أُولِي عَصَبِيَّةٍ قَوِيَّةٍ غَالِبَةٍ عَلَى مَنْ مَعَهَا لِعَصْرِهَا، لِيَسْتَتْبِعُوا مَنْ سِوَاهُمْ وَتَجْتَمِعَ الْكَلِمَةُ عَلَى حُسْنِ الْحِمَايَةِ. وَلَا يُعْلَمُ ذَلِكَ فِي الْأَقْطَارِ وَالْآفَاقِ كَمَا كَانَ فِي الْقُرَشِيَّةِ؛ إِذِ الدَّعْوَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ كَانَتْ عَامَّةً، وَعَصَبِيَّةُ الْعَرَبِ كَانَتْ وَافِيَةً بِهَا فَغَلَبُوا سَائِرَ الْأُمَمِ. وَإِنَّمَا يَخُصُّ لِهَٰذَا الْعَهْدِ كُلُّ قُطْرٍ بِمَنْ تَكُونُ لَهُ فِيهِ الْعَصَبِيَّةُ الْغَالِبَةُ.

(١) عممناها وجعلناها مطردة.

وَإِذَا نَظَرْتَ سِرَّ اللهِ فِي الْخِلَافَةِ لَمْ تَعْدُ هَٰذَا؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا جَعَلَ الْخَلِيفَةَ نَائِبًا عَنْهُ فِي الْقِيَامِ بِأُمُورِ عِبَادِهِ لِيَحْمِلَهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَيَرُدَّهُمْ عَنْ مَضَارِّهِمْ وَهُوَ مُخَاطَبٌ بِذَلِكَ وَلَا يُخَاطَبُ بِالْأَمْرِ إِلَّا مَنْ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَيْهِ. أَلَا تَرَى مَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ ابْنُ الْخَطِيبِ (١) فِي شَأْنِ النِّسَاءِ وَأَنَّهُنَّ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ جُعِلْنَ تَبَعًا لِلرِّجَالِ وَلَمْ يَدْخُلْنَ فِي الْخِطَابِ بِالْوَضْعِ وَإِنَّمَا دَخَلْنَ عِنْدَهُ بِالْقِيَاسِ وَذَلِكَ لَمَّا لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ وَكَانَ الرِّجَالُ قَوَّامِينَ عَلَيْهِنَّ، اللَّهُمَّ إِلَّا فِي الْعِبَادَاتِ الَّتِي كُلُّ أَحَدٍ فِيهَا قَائِمٌ عَلَى نَفْسِهِ فَخِطَابُهُنَّ فِيهَا بِالْوَضْعِ لَا بِالْقِيَاسِ. ثُمَّ إِنَّ الْوُجُودَ شَاهِدٌ بِذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَقُومُ بِأَمْرِ أُمَّةٍ أَوْ جِيلٍ إِلَّا مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِمْ، وَقَلَّ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ الشَّرْعِيُّ مُخَالِفًا لِلْأَمْرِ الْوُجُودِيِّ. وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الفصل السابع والعشرون

فى مذاهب الشيعة فى حكم الإمامة

إِعْلَمْ أَنَّ الشِّيعَةَ لُغَةً، هُمُ الصَّحْبُ وَالْأَتْبَاعُ، وَيُطْلَقُ فِي عُرْفِ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ (٢) مِنَ الْخَلَفِ وَالسَّلَفِ عَلَى أَتْبَاعِ عَلِيٍّ وَبَنِيهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وَمَذْهَبُهُمْ جَمِيعًا مُتَّفِقِينَ عَلَيْهِ أَنَّ الْإِمَامَةَ لَيْسَتْ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ الَّتِي تُفَوَّضُ إِلَى نَظَرِ الْأُمَّةِ، وَيَتَعَيَّنُ الْقَائِمُ بِهَا بِتَعْيِينِهِمْ، بَلْ هِيَ رُكْنُ الدِّينِ وَقَاعِدَةُ الْإِسْلَامِ، وَلَا يَجُوزُ لِنَبِيٍّ إِغْفَالُهُ وَلَا تَفْوِيضُهُ إِلَى الْأُمَّةِ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ تَعْيِينُ

(١) علق الهوريني بقوله: الإمام ابن الخطيب هو الفخر الرازي.
(٢) علماء التوحيد.

الإِمامِ لَهُمْ، وَيَكُونُ مَعْصُومًا مِنَ الْكَبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ؛ وَإِنَّ عَلِيًّا رَضِىَ اللهُ عَنْهُ هُوَ الَّذِى عَيَّنَهُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، بِنُصُوصٍ يَنْقُلُونَهَا وَيُؤَوِّلُونَهَا عَلَى مُقْتَضَى مَذْهَبِهِمْ، لَا يَعْرِفُهَا جَهَابِذَةُ السُّنَّةِ وَلَا نَقَلَةُ الشَّرِيعَةِ؛ بل أَكْثَرُها مَوْضُوعٌ، أَو مَطْعُونٌ فى طَرِيقِهِ أَوْ بَعِيدٌ عَنْ تَأْوِيلَاتِهِم الْفَاسِدَةِ.

وَتَنْقَسِمُ هٰذِهِ النُّصوصُ عِنْدَهُمْ إِلَى جَلِيٍّ وَخَفِىٍّ:

فَالْجَلِيُّ مِثْلُ قَوْلِهِ «مَنْ كُنْتَ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ» قالوا: وَلَمْ تَطَّرِدْ هٰذِهِ الْوِلَايَةُ إِلَّا فى عَلِيٍّ، وَلِهٰذَا قَالَ لَهُ عُمَرُ: «أَصْبَحْتَ مَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ» وَمِنْهَا قَوْلُهُ: «أَقْضَاكُمْ عَلِيٌّ». وَلَا مَعْنَى لِلْإِمَامَةِ إِلَّا الْقَضَاءُ بِأَحْكَامِ اللهِ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِأُولِى الْأَمْرِ الْوَاجِبَةِ طَاعَتُهُمْ بِقَوْلِهِ: «أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ(١)» وَلِهٰذَا كَانَ حَكَمًا فى قَضِيَّةِ الْإِمَامَةِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ، دُونَ غَيْرِهِ. وَمِنْهَا قَوْلُهُ: «مَنْ يُبَايِعُنِى عَلَى رُوحِهِ، وَهُوَ وَصِىٌّ وَوَلِىٌّ هٰذَا الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِى» فَلَمْ يُبَايِعْهُ إِلَّا عَلِيٌّ.

وَمِنَ الْخَفِىِّ عِنْدَهُمْ: بَعْثُ النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيًّا لِقِرَاءَةِ سُورَةِ «بَرَاءَةَ» فى الْمَوْسِمِ حِينَ أُنْزِلَتْ، فَإِنَّهُ بَعَثَ بِهَا أَوَّلًا أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ أُوحِىَ إِلَيْهِ: لِيُبَلِّغْهُ رَجُلٌ مِنْكَ، أَوْ مِنْ قَوْمِكَ، فَبَعَثَ عَلِيًّا، لِيَكُونَ الْقَارِئَ الْمُبَلِّغَ. قَالُوا وَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى تَقْدِيمِ عَلِيٍّ. وَأَيْضًا فَلَمْ يُعْرَفْ أَنَّهُ قدم أَحَدًا عَلَى عَلِيٍّ. وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَقَدَّمَ عَلَيْهِمَا فى غَزَاتَيْنِ(٢) أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ مَرَّةً، وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ أُخْرَى. وَهٰذِهِ كُلُّهَا أَدِلَّةٌ شَاهِدَةٌ بِتَعْيِينِ عَلِيٍّ لِلْخِلَافَةِ دُونَ غَيْرِهِ. فَمِنْهَا مَا هُوَ غَيْرُ مَعْرُوفٍ وَمِنْهَا مَا هُوَ بَعِيدٌ عَنْ تَأْوِيلِهِمْ.

ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّ هذه النُّصُوصَ تَدُلُّ عَلَى تَعْيِينِ عَلِيٍّ وَتَشْخِيصِهِ، وَكَذٰلِكَ تَنْتَقِلُ مِنْهُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُ وَهٰؤُلَاءِ هُمُ الْإِمَامِيَّةُ؛ وَيَتَبَرَّأُونَ مِنَ الشَّيْخَيْنِ(١) حَيْثُ لَمْ يُقَدِّمُوا عَلِيًّا وَيُبَايِعُوهُ بِمُقْتَضَى هٰذِهِ النُّصُوصِ، وَيَغْمِصُونَ(٢) فى إِمَامَتِهِمَا. وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى نَقْلِ الْقَدْحِ فِيهِمَا مِنْ غُلَاتِهِمْ، فَهُوَ مَرْدُودٌ عِنْدَنَا وَعِنْدَهُمْ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ هٰذِهِ الْأَدِلَّةَ إِنَّمَا اقْتَضَتْ تَعْيِينَ عَلِيٍّ بِالْوَصْفِ لَا بِالشَّخْصِ. وَالنَّاسُ مُقَصِّرُونَ حَيْثُ لَمْ يَضَعُوا الْوَصْفَ مَوْضِعَهُ وَهٰؤُلَاءِ هُمُ الزَّيْدِيَّةُ، وَلَا يَتَبَرَّأُونَ مِنَ الشَّيْخَيْنِ وَلَا يَغْمِصُونَ فى إِمَامَتِهِمَا مَعَ قَوْلِهِمْ بِأَنَّ عَلِيًّا أَفْضَلُ مِنْهُمَا لٰكِنَّهُمْ يُجَوِّزُونَ إِمَامَةَ الْمَفْضُولِ مَعَ وُجُودِ الْأَفْضَلِ.

ثُمَّ اخْتَلَفَتْ نُقُولُ هٰؤُلَاءِ الشِّيعَةِ فى مَسَاقِ الْخِلَافَةِ بَعْدَ عَلِيٍّ: فَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا فى وُلْدِ فاطِمَةَ بِالنَّصِّ عَلَيْهِمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ عَلَى مَا يُذْكَرُ بَعْدُ، وَهٰؤُلَاءِ يُسَمَّوْنَ الْإِمَامِيَّةَ، نِسْبَةً إِلَى مَقَالَتِهِمْ بِاشْتِرَاطِ مَعْرِفَةِ الْإِمَامِ وَتَعْيِينِهِ فى الْإِيمَانِ، وَهِىَ أَصْلٌ عِنْدَهُمْ.

وَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا فى وُلْدِ فَاطِمَةَ، لٰكِنْ بِالِاخْتِيَارِ مَعَ الشُّيُوخِ؛ وَيُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ الْإِمَامُ مِنْهُمْ عَالِمًا زَاهِدًا جَوَادًا شُجَاعًا وَيَخْرُجَ دَاعِيًا إِلَى إِمَامَتِهِ،

(١) الآية رقم: ٥٩ من سورة النساء.

(٢) هكذا فى جميع النسخ: وصوابه غزوتين أو مغزاتين مثنى مغزاة.

(١) المقصود هنا أبو بكر وعمر، وتطلق أحيانا على البخارى ومسلم.

(٢) يعيبونها ولا يعترفون بها.

وهؤلاء هم الزيدية نسبة إلى صاحب المذهب، وهو زيد بن علي بن الحسين السبط، وقد كان يناظر أخاه محمدا الباقر على اشتراط الخروج في الإمام فيلزمه الباقر أن لا يكون أبوهما زين العابدين(١) إماما، لأنه لم يخرج ولا تعرض للخروج. وكان مع ذلك ينعى عليه مذاهب المعتزلة، وأخذه إياها عن واصل بن عطاء، ولما ناظر الإمامية زيدا في إمامة الشيخين، ورأوه يقول بإمامتهما ولا يتبرأ منهما رفضوه، ولم يجعلوه من الأئمة، وبذلك سموا رافضة.

ومنهم من ساقها بعد علي وابنيه السبطين على اختلافهم في ذلك إلى أخيهما، محمد بن الحنفية، ثم إلى ولده، وهم الكيسانية، نسبة إلى كيسان مولاه. وبين هذه الطوائف اختلافات كثيرة تركناها اختصارا. ومنهم طوائف يسمون الغلاة، تجاوزوا حد العقل والإيمان في القول بألوهية هؤلاء الأئمة: إما على أنهم بشر اتصفوا بصفات الألوهية أو أن الإله حل في ذاته البشرية، وهو قول بالحلول يوافق مذهب النصارى في عيسى، صلوات الله عليه؛ ولقد حرق علي رضي الله عنه بالنار، من ذهب فيه إلى ذلك منهم، وسخط محمد بن الحنفية المختار بن أبي عبيد لما بلغه مثل ذلك عنه فصرح بلعنته والبراءة منه، وكذلك فعل جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه بمن بلغه مثل هذا عنه.

ومنهم من يقول إن كمال الإمام لا يكون لغيره، فإذا مات انتقلت روحه إلى إمام آخر ليكون فيه ذلك الكمال وهو قول بالتناسخ.

ومن هؤلاء الغلاة من يقف عند واحد من الأئمة لا يتجاوزه إلى غيره بحسب من يعين لذلك عندهم وهؤلاء هم الواقفية؛ فبعضهم يقول هو حي لم يمت إلا أنه غائب عن أعين الناس، ويستشهدون لذلك بقصة الخضر(١). قيل مثل ذلك في علي رضي الله عنه، وأنه في السحاب والرعد صوته والبرق في سوطه. وقالوا مثله في محمد بن الحنفية وأنه في جبل رضوى من أرض الحجاز وقال شاعرهم:

ألا إن الأئمة من قريش
ولاة الحق أربعة سواء
علي والثلاثة من بنيه
هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر
وسبط غيبته كربلاء(٢)
وسبط لا يذوق الموت حتى
يذود الجيش يقدمه اللواء(٣)
تغيب لا يرى فيهم زمانا
برضوى عنده عسل وماء

وقال مثله غلاة الإمامية، وخصوصا الاثنا عشرية منهم يزعمون أن الثاني عشر من أئمتهم، وهو محمد بن الحسن العسكري - ويلقبونه المهدي - دخل في سرداب بدارهم في الحلة(٤) وتغيب حين اعتقل مع أمه وغاب هنالك، وهو يخرج آخر

(١) علي زين العابدين بن الحسين السبط وهو أبو زيد ومحمد الباقر.

(١) رويت القصة في القرآن الكريم في سورة الكهف.
(٢) الأول الحسن. والثاني الحسين شهيد كربلاء رضي الله عنهما.
(٣) هو محمد بن الحنفية بن علي ويسمى سبطا تجوزا.
(٤) اسم بلد قرب بغداد.

الزَّمَانِ فَيَمْلأُ الأَرْضَ عَدْلاً ، يُشِيرُونَ بِذَلِكَ إِلَى الْحَدِيثِ الْوَاقِعِ فِى كِتَابِ التِّرْمَذِى فِى الْمَهْدِى ؛ وَهُمْ إِلَى الآنَ يَنْتَظِرُونَهُ وَيُسَمُّونَهُ الْمُنْتَظَرَ لِذَلِكَ ، وَيَقِفُونَ فِى كُلِّ لَيْلَةٍ بَعْدَ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ بِبَابِ هَذَا السِّرْدَابِ ، وَقَدْ قَدَّمُوا مَرْكَبًا فَيَهْتِفُونَ بِاسْمِهِ ، وَيَدْعُونَهُ لِلْخُرُوجِ حَتَّى تَشْتَبِكَ النُّجُومُ ، ثُمَّ يَنْفَضُّونَ وَيُرْجِئُونَ الأَمْرَ إِلَى اللَّيْلَةِ الآتِيَةِ ، وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ .

وَبَعْضُ هَؤُلَاءِ الْوَاقِفِيَّةِ يَقُولُ : إِنَّ الإِمَامَ الَّذِى مَاتَ يَرْجِعُ إِلَى حَيَاتِهِ الدُّنْيَا ، وَيَسْتَشْهِدُونَ لِذَلِكَ بِمَا وَقَعَ فِى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ قِصَّةِ أَهْلِ الْكَهْفِ ، وَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ[١] ، وَقَتِيلِ بَنِى إِسْرَائِيلَ حِينَ ضُرِبَ بِعِظَامِ الْبَقَرَةِ الَّتِى أُمِرُوا بِذَبْحِهَا . وَمِثْلِ ذَلِكَ مِنَ الْخَوَارِقِ الَّتِى وَقَعَتْ عَلَى طَرِيقِ الْمُعْجِزَةِ ، وَلَا يَصِحُّ الاسْتِشْهَادُ بِهَا فِى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا ، وَكَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ السَّيِّدُ الْحِمْيَرِىُّ ، وَمِنْ شِعْرِهِ فِى ذَلِكَ :

إِذَا مَا الْمَرْءُ شَابَ لَهُ قَذَالٌ[٢]
وَعَلَّلَهُ الْمَوَاشِطُ[٣] بِالْخِضَابِ
فَقَدْ ذَهَبَتْ بَشَاشَتُهُ وَأَوْدَى
فَقُمْ يَاصَاحِ نَبْكِ عَلَى الشَّبَابِ
إِلَى يَوْمٍ تَئُوبُ النَّاسُ فِيهِ
إِلَى دُنْيَاهُمُ قَبْلَ الْحِسَابِ
فَلَيْسَ بِعَائِدٍ مَا فَاتَ مِنْهُ
إِلَى أَحَدٍ إِلَى يَوْمِ الإِيَابِ

(١) القصة مذكورة فى الآية ٢٥٩ من سورة البقرة .
(٢) جماع مؤخر الرأس .
(٣) جمع ماشطة وهى التى ترجل الشعر وتمشطه .

أَدِينُ بِأَنَّ ذَلِكَ دِينُ حَقٍّ
وَمَا أَنَا فِى النُّشُورِ بِذِى ارْتِيَابِ
كَذَاكَ اللهُ أَخْبَرَ عَنْ أُنَاسٍ
حَيُوا مِنْ بَعْدِ دَرْسٍ فِى التُّرَابِ

وَقَدْ كَفَانَا مَؤُونَةَ هَؤُلَاءِ الْغُلَاةِ أَئِمَّةُ الشِّيعَةِ ، فَإِنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ بِهَا ، وَيُبْطِلُونَ احْتِجَاجَاتِهِمْ عَلَيْهَا .

وَأَمَّا الْكَيْسَانِيَّةُ فَسَاقُوا الإِمَامَةَ مِنْ بَعْدِ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ إِلَى ابْنِهِ أَبِى هَاشِمٍ وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْهَاشِمِيَّةُ . ثُمَّ افْتَرَقُوا : فَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا بَعْدَهُ إِلَى أَخِيهِ عَلِيٍّ ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ الْحَسَنِ ابْنِ عَلِيٍّ ؛ وَآخَرُونَ يَزْعُمُونَ أَنَّ أَبَا هَاشِمٍ لَمَّا مَاتَ بِأَرْضِ السَّرَاةِ مُنْصَرِفًا مِنَ الشَّامِ ، أَوْصَى إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، وَأَوْصَى مُحَمَّدٌ إِلَى ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ الْمَعْرُوفِ بِالإِمَامِ ، وَأَوْصَى إِبْرَاهِيمُ إِلَى أَخِيهِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِيَّةِ الْمُلَقَّبِ بِالسَّفَّاحِ ، وَأَوْصَى هُوَ إِلَى أَخِيهِ عَبْدِ اللهِ أَبِى جَعْفَرٍ الْمُلَقَّبِ بِالْمَنْصُورِ ، وَانْتَقَلَتْ فِى وَلَدِهِ بِالنَّصِّ وَالْعَهْدِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ إِلَى آخِرِهِمْ ، وَهَذَا مَذْهَبُ الْهَاشِمِيَّةِ الْقَائِمِينَ بِدَوْلَةِ بَنِى الْعَبَّاسِ ، وَكَانَ مِنْهُمْ أَبُومُسْلِمٍ[١] وَسُلَيْمَانُ بْنُ كَثِيرٍ ، وَأَبُوسَلَمَةَ الْخَلَّالُ وَغَيْرُهُمْ ، مِنْ شِيعَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، وَرُبَّمَا يَعْضُدُونَ[٢] ذَلِكَ بِأَنَّ حَقَّهُمْ فِى هَذَا الأَمْرِ يَصِلُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْعَبَّاسِ ، لِأَنَّهُ كَانَ حَيًّا وَقْتَ الْوَفَاةِ ، وَهُوَ أَوْلَى بِالْوِرَاثَةِ بِعَصَبِيَّةِ الْعُمُومَةِ .

وَأَمَّا الزَّيْدِيَّةُ فَسَاقُوا الإِمَامَةَ عَلَى مَذْهَبِهِمْ فِيهَا ، وَأَنَّهَا بِاخْتِيَارِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ، لَا بِالنَّصِّ .

(١) الخراسانى من أصحاب الفضل الأكبر فى قيام الدولة العباسية .
(٢) يؤيدون رأيهم .

فقالوا بإمامة عليّ ، ثمّ ابنه الحسن ثمّ أخيه الحسين ثمّ ابنه زيد بن عليّ ، وهو صاحب هذا المذهب ، وخرج بالكوفة داعياً إلى الإمامة فقتل ، وصلب بالكناسة[١] ؛ وقال الزيدية بإمامة ابنه يحيى من بعده ، فمضى إلى خراسان وقتل بالجوزجان بعد أن أوصى إلى محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن السبط ، ويقال له : النفس الزكية ، فخرج بالحجاز ، وتلقب بالمهدى ، وجاءته عساكر المنصور ، فقتل وعهد إلى أخيه إبراهيم ، فقام بالبصرة ، ومعه عيسى بن زيد بن عليّ فوجّه إليهم المنصور عساكره ، فهزم وقتل إبراهيم وعيسى ، وكان جعفر الصادق أخبرهم بذلك كله وهى معدودة فى كراماته .

وذهب آخرون منهم إلى أن الإمام بعد محمد ابن عبد الله النفس الزكية ، هو محمد بن القاسم ابن عليّ بن عمر ، وعمر هو أخو زيد بن عليّ ، فخرج محمد بن القاسم بالطالقان ، فقبض عليه وسيق إلى المعتصم فحبسه ومات فى حبسه .

وقال آخرون من الزيدية : إن الإمام بعد يحيى بن زيد هو أخوه عيسى الذى حضر مع إبراهيم بن عبد الله فى قتاله مع المنصور ، ونقلوا الإمامة فى عقبه ، وإليه انتسب دعىّ الزنج ، كما نذكره فى أخبارهم .

وقال آخرون من الزيدية : إن الإمام بعد محمد ابن عبد الله أخوه إدريس الذى فرّ إلى المغرب ومات هنالك ، وقام بأمره ابنه إدريس ، واختط مدينة فاس ، وكان من بعده عقبه ملوكاً بالمغرب ، إلى أن انقرضوا كما نذكره فى أخبارهم . وبقى أمر الزيدية بعد ذلك غير منتظم . وكان منهم الداعى الذى ملك طبرستان وهو الحسن بن زيد ابن محمد بن إسماعيل ابن الحسن بن زيد بن عليّ بن الحسين السبط ، وأخوه محمد بن زيد . ثمّ قام بهذه الدعوة فى الديلم ، الناصر الأطروش منهم ، وأسلموا على يده ، وهو الحسن بن عليّ ابن الحسن بن عليّ بن عمر ، وعمر أخو زيد بن عليّ فكانت لبنيه بطبرستان دولة ؛ وتوصل الديلم من نسبهم إلى الملك والاستبداد على الخلفاء ببغداد ، كما نذكر فى أخبارهم .

وأما الإمامية : فساقوا الإمامة من عليّ الرضى[١] إلى ابنه الحسن بالوصية ، ثمّ إلى أخيه الحسين ، ثمّ إلى ابنه عليّ زين العابدين ، ثمّ إلى ابنه محمد الباقر ، ثمّ إلى ابنه جعفر الصادق ، ومن هنا افترقوا فرقتين : فرقة ساقوها إلى ولده إسماعيل يعرفونه بينهم بالإمام وهم الإسماعيلية ؛ وفرقة ساقوها إلى ابنه موسى الكاظم ، وهم الاثنا عشرية لوقوفهم عند الثانى عشر من الأئمة ، وقولهم بغيبته إلى آخر الزمان كما مرّ .

فأما الإسماعيلية : فقالوا بإمامة إسماعيل الإمام بالنص من أبيه جعفر ، وفائدة النص عليه عندهم وإن كان قد مات قبل أبيه ، إنما هو بقاء الإمامة فى عقبه ، كقصة هارون مع موسى صلوات الله عليهما ، قالوا : ثمّ انتقلت الإمامة من إسماعيل إلى ابنه محمد المكتوم ، وهو أول الأئمة المستورين ، لأن الإمام عندهم قد لا يكون له

---

(١) موضع بالكوفة .

(١) صوابه : من عليّ بن أبى طالب .

شَوْكَةٌ فَيَسْتَتِرُ، وَتَكُونُ دُعَاتُهُ ظَاهِرِينَ إِقَامَةً لِلْحُجَّةِ عَلَى الْخَلْقِ، وَإِذَا كَانَتْ لَهُ شَوْكَةٌ ظَهَرَ، وَأَظْهَرَ دَعْوَتَهُ. قَالُوا وَبَعْدَ مُحَمَّدٍ الْمَكْتُومِ ابْنُهُ، جَعْفَرٌ الْمُصَدَّقُ[1]، وَبَعْدَهُ ابْنُهُ مُحَمَّدٌ الْحَبِيبُ، وَهُوَ آخِرُ الْمَسْتُورِينَ، وَبَعْدَهُ ابْنُهُ عَبْدُ اللهِ[2] الْمَهْدِىُّ الَّذِى أَظْهَرَ دَعْوَتَهُ أَبُو عَبْدِ اللهِ الشِّيعِىُّ فِى كُتَامَةَ وَتَتَابَعَ النَّاسُ عَلَى دَعْوَتِهِ، ثُمَّ أَخْرَجَهُ مِنْ مُعْتَقَلِهِ بِسِجِلْمَاسَةَ وَمَلَكَ الْقَيْرَوَانَ وَالْمَغْرِبَ، وَمَلَكَ بَنُوهُ مِنْ بَعْدُ مِصْرَ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِى أَخْبَارِهِمْ.

وَيُسَمَّى هَؤُلَاءِ: الْإِسْمَاعِيلِيَّةَ نِسْبَةً إِلَى الْقَوْلِ بِإِمَامَةِ إِسْمَاعِيلَ، وَيُسَمَّوْنَ أَيْضًا بِالْبَاطِنِيَّةِ نِسْبَةً إِلَى قَوْلِهِمْ بِالْإِمَامِ الْبَاطِنِ أَىِ الْمَسْتُورِ، وَيُسَمَّونَ أَيْضًا الْمُلْحِدَةَ لِمَا فِى ضِمْنِ مَقَالَتِهِمْ مِنَ الْإِلْحَادِ، وَلَهُمْ مَقَالَاتٌ قَدِيمَةٌ، وَمَقَالَاتٌ جَدِيدَةٌ، دَعَا إِلَيْهَا الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّبَّاحِ فِى آخِرِ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ، وَمَلَكَ حُصُونًا بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ، وَلَمْ تَزَلْ دَعْوَتُهُ فِيهَا إِلَى أَنْ تَوَزَّعَهَا الْهَلَاكُ بَيْنَ مُلُوكِ التُّرْكِ بِمِصْرَ، وَمُلُوكِ التَّتَرِ بِالْعِرَاقِ فَانْقَرَضَتْ. وَمَقَالَةُ هَذَا الصَّبَّاحِ فِى دَعْوَتِهِ مَذْكُورَةٌ فِى كِتَابِ الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ لِلشَّهْرَسْتَانِى.

وَأَمَّا الاثْنَا عَشْرِيَّةُ، فَرُبَّمَا خُصُّوا بِاسْمِ الْإِمَامِيَّةِ عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ، فَقَالُوا بِإِمَامَةِ مُوسَى الْكَاظِمِ ابْنِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ لِوَفَاةِ أَخِيهِ الْأَكْبَرِ إِسْمَاعِيلَ الْإِمَامِ فِى حَيَاةِ أَبِيهِمَا جَعْفَرٍ، فَنَصَّ عَلَى إِمَامَةِ مُوسَى هَذَا، ثُمَّ ابْنِهِ عَلِىٍّ الرِّضَا الَّذِى عَهِدَ إِلَيْهِ الْمَأْمُونُ: وَمَاتَ قَبْلَهُ، فَلَمْ يَتِمَّ لَهُ أَمْرٌ. ثُمَّ ابْنِهِ مُحَمَّدٍ التَّقِىِّ، ثُمَّ ابْنِهِ عَلِىٍّ الْهَادِى، ثُمَّ ابْنِهِ مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِىِّ، ثُمَّ ابْنِهِ مُحَمَّدٍ الْمَهْدِىِّ الْمُنْتَظَرِ الَّذِى قَدَّمْنَاهُ قَبْلُ.

وَفِى كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ لِلشِّيعَةِ اخْتِلَافٌ كَثِيرٌ، إِلَّا أَنَّ هَذِهِ أَشْهَرُ مَذَاهِبِهِمْ. وَمَنْ أَرَادَ اسْتِيعَابَهَا وَمُطَالَعَتَهَا فَعَلَيْهِ بِكِتَابِ «الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ» لِابْنِ حَزْمٍ، وَالشَّهْرَسْتَانِى وَغَيْرِهِمَا، فَفِيهَا بَيَانُ ذَلِكَ. وَاللهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَهُوَ الْعَلِىُّ الْكَبِيرُ.

الفصل الثامن والعشرون

فى انقلاب الخلافة إلى الملك

اعْلَمْ أَنَّ الْمُلْكَ غَايَةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلْعَصَبِيَّةِ، لَيْسَ وُقُوعُهُ عَنْهَا بِاخْتِيَارٍ، إِنَّمَا هُوَ بِضَرُورَةِ الْوُجُودِ وَتَرْتِيبِهِ كَمَا قُلْنَاهُ مِنْ قَبْلُ، وَأَنَّ الشَّرَائِعَ وَالدِّيَانَاتِ وَكُلَّ أَمْرٍ يُحْمَلُ عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ فَلَابُدَّ فِيهِ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ، إِذِ الْمُطَالَبَةُ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِهَا كَمَا قَدَّمْنَاهُ.

فَالْعَصَبِيَّةُ ضَرُورِيَّةٌ لِلْمِلَّةِ وَبِوُجُودِهَا يَتِمُّ أَمْرُ اللهِ مِنْهَا، وَفِى الصَّحِيحِ «مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا فِى مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ».

ثُمَّ وَجَدْنَا الشَّارِعَ[1] قَدْ ذَمَّ الْعَصَبِيَّةَ، وَنَدَبَ إِلَى اطِّرَاحِهَا وَتَرْكِهَا فَقَالَ «إِنَّ اللهَ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ[2] الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ». وَقَالَ تَعَالَى «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ[3]»، وَوَجَدْنَاهُ أَيْضًا قَدْ ذَمَّ الْمُلْكَ وَأَهْلَهُ، وَنَعَى عَلَى أَهْلِهِ أَحْوَالَهُمْ مِنَ الِاسْتِمْتَاعِ بِالْخَلَاقِ[4]، وَالْإِسْرَافِ

---

(١) هكذا فى نسخة خطية اعتمدها الدكتور وافى فى منشورته. وفى جميع النسخ الاخرى: جعفر الصادق، وهو خطأ.

(٢) هكذا فى جميع النسخ، وهو خطأ، وصوابه عبيد الله كما يحققه د. وافى.

(١) يعنى بالشارع هنا: الرسول صلوات الله عليه.

(٢) عبية بضم العين وكسرها وكسر الموحدة مشددة وتشديد المثناة التحتية الكبر والفخر والنخوة كما فى القاموس.

(٣) الآية رقم ١٣ من سورة: الحجرات.

(٤) فى بعض النسخ بالخلاف ولعله من خطأ النسخ والخلاق بالقاف النصيب.

فى غير القصد والتنكب عن صراط الله، وإنما حض على الألفة فى الدين وحذر من الخلاف والفرقة.

واعلم أن الدنيا كلها وأحوالها مطية للآخرة، ومن فقد المطية فقد الوصول، وليس مراده فيما ينهى عنه أو يذمه من أفعال البشر أو يندب إلى تركه إهماله بالكلية، أو اقتلاعه من أصله، وتعطيل القوى التى ينشأ عليها بالكلية؛ إنما قصده تصريفها فى أغراض الحق جهد الاستطاعة، حتى تصير المقاصد كلها حقا، وتتحد الوجهة، كما قال صلى الله عليه وسلم: «من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

فلم يذم الغضب وهو يقصد نزعه من الإنسان، فإنه لو زالت منه قوة الغضب لفقد منه الانتصار للحق، وبطل الجهاد وإعلاء كلمة الله؛ وإنما يذم الغضب للشيطان وللأغراض الذميمة فإذا كان الغضب لذلك كان مذموما، وإذا كان الغضب فى الله ولله كان ممدوحا، وهو من شمائله صلى الله عليه وسلم.

وكذا ذم الشهوات أيضا ليس المراد إبطالها بالكلية فإن من بطلت شهوته، كان نقصا فى حقه؛ وإنما المراد تصريفها فيما أبيح له باشتماله على المصالح ليكون الإنسان عبدا متصرفا طوع الأوامر الإلهية.

وكذا العصبية حيث ذمها الشارع، وقال: «لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم»(١) فإنما مراده حيث تكون العصبية على الباطل وأحواله، كما كانت فى الجاهلية، وأن يكون لأحد فخر بها أو حق على أحد، لأن ذلك مجان من أفعال العقلاء وغير نافع فى الآخرة التى هى دار القرار. فأما إذا كانت العصبية فى الحق وإقامة أمر الله فأمر مطلوب، ولو بطل لبطلت الشرائع إذ لا يتم قوامها إلا بالعصبية كما قلناه من قبل.

وكذا الملك لما ذمه الشارع لم يذم منه الغلب بالحق، وقهر الكافة على الدين، ومراعاة المصالح، وإنما ذمه لما فيه من التغلب بالباطل، وتصريف الآدميين طوع الأغراض والشهوات كما قلناه. فلو كان الملك مخلصا فى غلبه للناس، أنه لله ولحملهم على عبادة الله، وجهاد عدوه، لم يكن ذلك مذموما. وقد قال سليمان صلوات الله عليه «قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى»(٢)، لما علم من نفسه أنه بمعزل عن الباطل فى النبوة والملك.

ولما لقى معاوية عمر بن الخطاب رضى الله عنهما عند قدومه إلى الشام فى أبهة الملك، وزيه من العديد والعدة استنكر ذلك، وقال: أكسروية(٣) يا معاوية؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنا فى ثغر تجاه العدو، وبنا إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة، فسكت ولم يخطئه لما احتج

---

(١) الآية رقم: ٣ من سورة الممتحنة.
(٢) من الآية رقم: ٣٥ من سورة ص.
(٣) يعنى أتشبها بكسرى فى متاع الدنيا ومظاهرها؟.

عَلَيْهِ بِمَقْصَدٍ مِنْ مَقَاصِدِ الْحَقِّ وَالدِّينِ. فَلَوْ كَانَ الْقَصْدُ رَفْضَ الْمُلْكِ مِنْ أَصْلِهِ لَمْ يُقْنِعْهُ الْجَوابُ فِى تِلْكَ الْكِسْرَوِيَّةِ وانْتِحَالِهَا، بَلْ كَانَ يُحَرِّضُ عَلَى خُرُوجِهِ عَنْهَا بِالْجُمْلَةِ . وَإِنَّمَا أَرَادَ عُمَرُ بِالْكِسْرَوِيَّةِ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ فَارِسَ فِى مُلْكِهِمْ مِنِ ارْتِكَابِ الْبَاطِلِ وَالظُّلْمِ وَالْبَغْيِ وَسُلُوكِ سُبُلِهِ، وَالْغَفْلَةِ عَنِ اللهِ، وَأَجَابَهُ مُعَاوِيَةُ بِأَنَّ الْقَصْدَ بِذَلِكَ لَيْسَ كِسْرَوِيَّةَ فَارِسَ وَبَاطِلَهُمْ، وَإِنَّمَا قَصْدُهُ بِهَا وَجْهُ اللهِ فَسَكَتَ .

وهكَذَا كَانَ شَأْنُ الصَّحابةِ، فى رفضِ الْمُلْكِ وأَحْوالِهِ، ونِسْيانِ عوائِدِهِ حَذَرًا مِنَ الْتِباسِهَا بِالْباطِلِ، فَلَمَّا اسْتُحْضِرَ(١) رسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّم، اسْتَخْلَفَ أبابكْرٍ على الصَّلاةِ، إذْ هِى أهمُّ أُمورِ الدِّينِ، وارْتَضاهُ النَّاسُ لِلْخِلافَةِ، وهِى حَمْلُ الْكَافَّةِ عَلَى أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، ولَمْ يَجْرِ لِلْمُلْكِ ذِكْرٌ لِما أَنَّهُ مَظِنَّةٌ لِلْباطِلِ ونِحْلَةٌ يوْمئِذٍ لأَهْلِ الْكُفْرِ وأعْداءِ الدِّينِ. فقام بِذلِكَ أبُو بكْرٍ ماشاء اللهُ، مُتَّبِعًا سُنَنَ صاحِبِه، وقاتَلَ أَهْلَ الرِّدَّةِ حتى اجْتمع الْعربُ على الْإِسْلامِ.

ثُمَّ عَهِد إِلَى عُمرَ فاقْتفَى أَثَرهُ وقاتَلَ الأُمَمَ فَغَلَبهُمْ، وأَذِنَ لِلْعربِ بِانْتِزاعِ ما بِأَيْدِيهِمْ من الدُّنْيا والْمُلْكِ، فَغَلَبُوهُمْ عليْهِ وانْتَزعُوهُ مِنْهُمْ. ثُمَّ صارتْ إلى عُثْمانَ بْنِ عفَّانَ، ثُمَّ إِلَى عليٍّ رضى اللهُ عنْهما. والْكُلُّ مُتَبرِّئُونَ من الْمُلْكِ مُتَنَكِّبُونَ(٢) عنْ طُرُقِهِ. وأكّد ذلِكَ لَدَيْهِمْ، ما كانوا عليْهِ مِنْ غَضَاضَةِ(١) الْإِسْلامِ، وبداوةِ الْعربِ. فَقَدْ كَانُوا أَبْعد الأُمَمِ عنْ أَحْوالِ الدُّنْيا وترفِها لَا مِنْ حيْثُ دِينُهُمْ الَّذِى يدْعُوهُمْ إِلَى الزُّهْدِ فى النَّعِيمِ، ولَا مِنْ حيْثُ بَداوتُهُمْ ومواطِنُهُمْ، وما كانُوا عليْهِ مِنْ خُشونَةِ الْعيْشِ وشَظَفِهِ الَّذى أَلِفُوهُ. فَلَمْ تكُنْ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ أسْغَبَ(٢) عيْشًا مِنْ مُضَر لِمَا كَانُوا بِالْحِجازِ فى أرْضٍ غيْرِ ذاتِ زرْعٍ ولَا ضَرْعٍ، وكانُوا ممْنُوعِين مِنَ الأَرْيافِ وحُبُوبِها لِبُعْدِها واخْتِصاصِها بِمَنْ وَلِيهَا مِنْ رَبِيعَةَ وَالْيَمَنِ، فَلَمْ يكُونُوا يتطاوَلُونَ إلى خِصْبِها. ولَقَدْ كانُوا كَثِيرًا ما يأْكُلُونَ الْعَقارِبَ وَالْخنافِسَ، وَيَفْخَرُونَ بِأَكْلِ الْعِلْهِزِ(٣) وهُوَ وبَرُ الْإِبِلِ يَمْهُونَهُ بِالْحِجارَةِ فى الدَّمِ، ويَطْبُخُونَهُ. وقريبًا مِنْ هذا كانَتْ حالُ قُرَيْشٍ فى مَطاعِمِهِمْ ومَساكِنِهِمْ. حَتَّى إِذا اجْتَمَعَتْ عَصَبِيَّةُ الْعَرَبِ عَلَى الدِّينِ، بِمَا أَكْرَمَهُمْ اللهُ مِنْ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَحَفُوا إِلَى أُمَمِ فَارِسَ وَالرُّومِ، وَطَلَبُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِوَعْدِ الصِّدْقِ، فابْتَزُّوا مُلْكَهُمْ وَاسْتَباحُوا دُنْياهُمْ، فَزَخَرَتْ بِحارُ الرَّفَهِ لَدَيْهِمْ حَتَّى كانَ الْفارِسُ الْواحِدُ يُقْسَمُ لَهُ فى بَعْضِ الْغَزَواتِ ثَلاثُونَ أَلْفًا مِنَ الذَّهَبِ أَوْنَحْوُها. فاسْتَوْلَوْا مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَالًا يَأْخُذُهُ الْحَصْرُ، وهُمْ مَعَ ذَلِكَ عَلَى خُشونَةِ عَيْشِهِمْ، فَكانَ عُمَرُ يُرَقِّعُ ثَوْبَهُ بِالْجِلْدِ، وكَانَ عَلِيٌّ يَقُولُ: يَا صَفْراءُ(٥) وَيا بَيْضاءُ

---

(١) يعنى حضرته الوفاة.

(٢) تنكب عن الطريق: عدل عنه.

(١) يعنى هنا: جدته ونضارته.

(٢) سغب: جاع وأسغب ادخل فى المجاعة ومنه قوله تعالى: «أو إطعام فى يوم ذى مسغبة».

(٣) العلهز بالكسر طعام من الدم والوبر كان يتخذ فى المجاعة.

(٤) الصفراء والبيضاء هى: قطع الذهب والفضة.

غَرَى غَيرى. وكَانَ أَبُو مُوسَى يَتَجَافَى عَنْ أَكْلِ الدَّجاجِ لأنَّهُ لَمْ يَعْهَدْهَا لِلْعَرَبِ لِقِلَّتِها يَوْمَئِذ. وكَانَتْ الْمَنَاخِلُ مَفْقُودَةً عِنْدَهُمْ بِالْجُمْلَةِ ، وإنَّمَا يأكُلُونَ الْحِنْطَةَ بِنُخَالِهَا . وَمَكَاسِبُهُمْ مَعَ هٰذَا أَتَمُّ مَا كَانَتْ لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْعَالَمِ .

قَالَ الْمَسْعُودِيُّ : فِى أَيَّامِ عُثْمَانَ اقْتَنَى الصَّحَابَةُ الضِّيَاعَ وَالْمَالَ ، فَكَانَ لَهُ يَوْمَ قُتِلَ عِنْدَ خَازِنِهِ خَمْسُونَ وَمِائَةُ أَلْفِ دِينَارٍ وأَلْفُ أَلْفِ درهمٍ وقيمةُ ضِيَاعِهِ بِوادِى الْقُرَى وَحُنَيْنٍ وَغَيْرِهِمَا مِائَتَا أَلْفِ دِينَارٍ ، وَخَلَّفَ إبلاً وَخَيْلاً كَثِيرَةً . وبَلَغَ الثُّمُنُ الْوَاحِدُ مِنْ مَتْرُوكِ الزُّبَيْرِ بَعْدَ وَفَاتِهِ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَخَلَّفَ أَلْفَ فَرَسٍ وَأَلْفَ أَمَةٍ . وكَانَتْ غَلَّةُ طَلْحَةَ مِنَ الْعِرَاقِ أَلْفَ دِينَارٍ كُلَّ يَوْمٍ ، وَمِنْ نَاحِيَةِ السَّرَاةِ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ . وكَانَ عَلَى مَرْبِطِ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بْنِ عَوفٍ أَلْفُ فَرَسٍ وَلَهُ أَلْفُ بَعِيرٍ وعَشَرَةُ آلافٍ مِنَ الْغَنَمِ ، وَبَلَغَ الرُّبُعُ مِنْ مَتْرُوكِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ أَرْبَعَةً وَثَمَانِينَ أَلْفًا . وَخَلَّفَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ مِنَ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ مَا كَانَ يُكَسَّرُ بِالْفُؤُوسِ غَيْرَ مَا خَلَّفَ مِنَ الأَمْوَالِ وَالضِّيَاعِ بِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ . وَبَنَى الزُّبَيْرُ دَارَهُ بِالْبَصْرَةِ وكَذٰلِكَ بَنَى بِمِصْرَ وَالْكُوفَةِ وَالإسْكَنْدَرِيَّةِ ، وَكَذٰلِكَ بَنَى طَلْحَةُ دَارَهُ بِالْكُوفَةِ وَشَيَّدَ دَارَهُ بِالْمَدِينَةِ ، وَبَنَاهَا بِالْجِصِّ وَالآجُرِّ وَالسَّاجِ . وَبَنَى سَعْدُ بْنُ أَبِى وَقَّاصٍ دَارَهُ بِالْعَقِيقِ وَرَفَعَ سَمْكَهَا وَأَوْسَعَ فَضَاءَهَا ، وَجَعَلَ عَلَى أَعْلاهَا شُرُفَاتٍ . وَبَنَى الْمِقْدَادُ دَارَهُ بِالْمَدِينَةِ ، وَجَعَلَهَا مُجَصَّصَةً (١) الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ. وَخَلَّفَ يَعْلَى بْنُ مُنْيَةَ (٢) خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَعَقَارًا وَغَيْرَ ذٰلِكَ مَا قِيمَتُهُ ثَلاثُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ . انتهى كَلامُ الْمَسْعُودِىِّ .

فَكَانَتْ مَكَاسِبُ الْقَوْمِ كَمَا تَرَاهُ ، وَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ مَنْعِيًا عَلَيْهِمْ فِى دِينِهِمْ إذْ هِىَ أَمْوَالٌ حَلالٌ لأَنَّهَا غَنَائِمُ وَفُيُوءٌ(١) ، وَلَمْ يَكُنْ تَصَرُّفُهُمْ فِيهَا بِإِسْرَافٍ ، إنَّمَا كَانُوا عَلَى قَصْدٍ فِى أَحْوَالِهِمْ كَمَا قُلْنَاهُ فَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ بِقَادِحٍ فِيهِمْ . وَإنْ كَانَ الاسْتِكْثَارُ مِنَ الدُّنْيَا مَذْمُومًا ، فَإنَّمَا يَرْجِعُ إلَى مَا أَشَرْنَا إلَيْهِ مِنَ الإسْرَافِ وَالْخُرُوجِ بِهِ عَنِ الْقَصْدِ . وَإذَا كَانَ حَالُهُمْ قَصْدًا وَنَفَقَاتُهُمْ فِى سُبُلِ الْحَقِّ وَمَذَاهِبِهِ ، كَانَ ذٰلِكَ الاسْتِكْثَارُ عَوْنًا لَهُمْ عَلَى طُرُقِ الْحَقِّ وَاكْتِسَابِ الدَّارِ الآخِرَةِ .

فَلَمَّا تَدَرَّجَتِ الْبَدَاوَةُ وَالْغَضَاضَةُ إلَى نِهَايَتِهَا وَجَاءَتْ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ الَّتِى هِىَ مُقْتَضَى الْعَصَبِيَّةِ كَمَا قُلْنَاهُ وَحَصَلَ التَّغَلُّبُ وَالْقَهْرُ ، كَانَ حُكْمُ ذٰلِكَ الْمُلْكِ عِنْدَهُمْ حُكْمَ ذٰلِكَ الرَّفَهِ وَالاسْتِكْثَارِ مِنَ الأَمْوَالِ . فَلَمْ يَصْرِفُوا ذٰلِكَ التَّغَلُّبَ فِى بَاطِلٍ ، وَلا خَرَجُوا بِهِ عَنْ مَقَاصِدِ الدِّيَانَةِ وَمَذَاهِبِ الْحَقِّ .

وَلَمَّا وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ بَيْنَ عَلِىٍّ وَمُعَاوِيَةَ ، وَهِىَ مُقْتَضَى الْعَصَبِيَّةِ ، كَانَ طَرِيقُهُمْ فِيهَا الْحَقَّ وَالاجْتِهَادَ وَلَمْ يَكُونُوا فِى مُحَارَبَتِهِمْ لِغَرَضٍ دُنْيَوِىٍّ أَوْ لإيثَارِ بَاطِلٍ أَوْ لاسْتِشْعَارِ حِقْدٍ كَمَا قَدْ يَتَوَهَّمُهُ مُتَوَهِّمٌ ، وَيَنْزِعُ إلَيْهِ مُلْحِدٌ ، وَإنَّمَا اخْتَلَفَ اجْتِهَادُهُمْ فِى الْحَقِّ ، وَسَفَّهَ كُلٌّ وَاحِدٍ نَظَرَ صَاحِبِهِ بِاجْتِهَادِهِ فِى الْحَقِّ فَاقْتَتَلُوا عَلَيْهِ ، وَإنْ كَانَ الْمُصِيبُ عَلِيًّا فَلَمْ يَكُنْ مُعَاوِيَةُ قَائِمًا فِيهَا بِقَصْدِ الْبَاطِلِ ، إنَّمَا قَصَدَ

(١) جصص البناء : ملاه بالجص .
(٢) هكذا فى نسخة خطية اعتمد عليها الدكتور وافى ، وفى جميع النسخ الأخرى منبه وهو فى الغالب تحريف .

(١) جمع فىء : وهو ما يحصل عليه جيش المسلمين من الاعداء بدون قتال .

الْحَقِّ وَأَخْطَأَ ، وَالْكُلُّ كَانُوا فِى مَقَاصِدِهِمْ عَلَى حَقٍّ .

ثُمَّ اقْتَضَتْ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ الانفرادَ بِالْمَجْدِ وَاسْتِئْثَارَ الْوَاحِدِ بِهِ وَلَمْ يَكُنْ لِمُعَاوِيَةَ أَنْ يَدْفَعَ ذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ ، فَهُوَ أَمْرٌ طَبِيعِىٌّ سَاقَتْهُ الْعَصَبِيَّةُ بِطَبِيعَتِهَا وَاسْتَشْعَرَتْهُ بَنُو أُمَيَّةَ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى طَرِيقَةِ مُعَاوِيَةَ فِى اقْتِفَاءِ الْحَقِّ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ فَاعْصَوْصَبُوا(١) عَلَيْهِ ، وَاسْتَمَاتُوا دُونَهُ وَلَوْ حَمَلَهُمْ مُعَاوِيَةُ عَلَى غَيْرِ تِلْكَ الطَّرِيقَةِ وَخَالَفَهُمْ فِى الانفرادِ بِالأَمْرِ لَوَقَعَ فِى افْتِرَاقِ الْكَلِمَةِ الَّتِى كَانَ جَمْعُهَا وَتَأْلِيفُهَا أَهَمَّ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرٍ لَيْسَ وَرَاءَهُ كَبِيرُ مُخَالَفَةٍ .

وَقَدْ كَانَ عمرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ إِذَا رَأَى الْقَاسِمَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِى بَكْرٍ : «لَوْ كَانَ لِى مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ لَوَلَّيْتُهُ الْخِلَافَةَ » وَلَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْهَدَ إِلَيْهِ لَفَعَلَ . وَلَكِنَّهُ كَانَ يَخْشَى مِنْ بَنِى أُمَيَّةَ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ، لِمَا ذَكَرْنَاهُ فَلَا يَقْدِرُ أَنْ يُحَوِّلَ الأَمْرَ عَنْهُمْ لِئَلَّا تَقَعَ الْفُرْقَةُ . وَهَذَا كُلُّهُ إِنَّمَا حَمَلَ عَلَيْهِ مَنَازِعُ الْمُلْكِ الَّتِى هِىَ مُقْتَضَى الْعَصَبِيَّةِ . فَالْمُلْكُ إِذَا حَصَلَ وَفَرَضْنَا أَنَّ الْوَاحِدَ انْفَرَدَ بِهِ وَصَرَفَهُ فِى مَذَاهِبِ الْحَقِّ وَوُجُوهِهِ لَمْ يَكُنْ فِى ذَلِكَ نَكِيرٌ عَلَيْهِ . وَلَقَدْ انْفَرَدَ سُلَيْمَانُ وَأَبُوهُ دَاوُدُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا بِمُلْكِ بَنِى إِسْرَائِيلَ لِمَا اقْتَضَتْهُ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ مِنَ الانفرادِ بِهِ ، وَكَانُوا مَا عَلِمْتَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْحَقِّ .

وَكَذَلِكَ عَهِدَ مُعَاوِيَةُ إِلَى يَزِيدَ خَوْفًا مِنَ افْتِرَاقِ الْكَلِمَةِ بِمَا كَانَتْ بَنُو أُمَيَّةَ لَمْ يَرْضَوْا تَسْلِيمَ الأَمْرِ إِلَى مَنْ سِوَاهُمْ . فَلَوْ قَدْ عَهِدَ إِلَى غَيْرِهِ اخْتَلَفُوا عَلَيْهِ ، مَعَ أَنَّ ظَنَّهُمْ كَانَ بِهِ صَالِحًا وَلَا يَرْتَابُ أَحَدٌ فِى ذَلِكَ وَلَا يُظَنُّ بِمُعَاوِيَةَ غَيْرُهُ فَلَمْ يَكُنْ لِيَعْهَدَ إِلَيْهِ وَهُوَ يَعْتَقِدُ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْفِسْقِ : حَاشَا لِلهِ لِمُعَاوِيَةَ مِنْ ذَلِكَ . وَكَذَلِكَ كَانَ مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ وَابْنُهُ ، وَإِنْ كَانُوا مُلُوكًا لَمْ يَكُنْ مَذْهَبُهُمْ فِى الْمُلْكِ مَذْهَبَ أَهْلِ الْبَطَالَةِ وَالْبَغْىِ ، إِنَّمَا كَانُوا مُتَحَرِّينَ لِمَقَاصِدِ الْحَقِّ جُهْدَهُمْ ، إِلَّا فِى ضَرُورَةٍ تَحْمِلُهُمْ عَلَى بَعْضِهَا مِثْلَ خَشْيَةِ افْتِرَاقِ الْكَلِمَةِ الَّذِى هُوَ أَهَمُّ لَدَيْهِمْ مِنْ كُلِّ مَقْصِدٍ : يَشْهَدُ لِذَلِكَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الإِتِّبَاعِ ، وَالاقْتِدَاءِ وَمَا عَلِمَ السَّلَفُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَمَقَاصِدِهِمْ : فَقَدِ احْتَجَّ مَالِكٌ فِى الْمُوَطَّإِ بِعَمَلِ عَبْدِ الْمَلِكِ . وَأَمَّا مَرْوَانُ فَكَانَ مِنَ الطَّبَقَةِ الأُولَى مِنَ التَّابِعِينَ وَعَدَالَتُهُمْ مَعْرُوفَةٌ . ثُمَّ تَدَرَّجَ الأَمْرُ فِى وُلْدِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَكَانُوا مِنَ الدِّينِ بِالْمَكَانِ الَّذِى كَانُوا عَلَيْهِ ، وَتَوَسَّطَهُمْ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَنَزَعَ إِلَى طَرِيقَةِ الْخُلَفَاءِ الأَرْبَعَةِ وَالصَّحَابَةِ جُهْدَهُ ، وَلَمْ يُهْمِلْ .

ثُمَّ جَاءَ خَلَفُهُمْ وَاسْتَعْمَلُوا طَبِيعَةَ الْمُلْكِ فِى أَغْرَاضِهِمِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَمَقَاصِدِهِمْ ، وَنَسُوا مَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُهُمْ مِنْ تَحَرِّى الْقَصْدِ فِيهَا وَاعْتِمَادِ الْحَقِّ فِى مَذَاهِبِهَا . فَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا دَعَا النَّاسَ إِلَى أَنْ نَعَوْا عَلَيْهِمْ أَفْعَالَهُمْ وَأَدَالُوا بِالدَّعْوَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ مِنْهُمْ ، وَوَلِىَ رِجَالُهَا الأَمْرَ فَكَانُوا مِنَ الْعَدَالَةِ بِمَكَانٍ ، وَصَرَفُوا الْمُلْكَ فِى وُجُوهِ الْحَقِّ وَمَذَاهِبِهِ مَا اسْتَطَاعُوا ، حَتَّى جَاءَ بَنُو الرَّشِيدِ مِنْ بَعْدِهِ فَكَانَ مِنْهُمُ الصَّالِحُ وَالطَّالِحُ ، ثُمَّ أَفْضَى الأَمْرُ إِلَى بَنِيهِمْ فَأَعْطَوُا الْمُلْكَ

---

(١) اعصوصبت الإبل جدت فى السير واجتمعت واعصوصب الشر اشتد .

والترف حقه، وانغمسوا في الدنيا وباطلها، ونبذوا الدين وراءهم ظهريا، فتأذن الله بحربهم وانتزاع الأمر من أيدي العرب جملة، وأمكن سواهم. والله لا يظلم مثقال ذرة.

ومن تأمل سير هؤلاء الخلفاء والملوك واختلافهم في تحري الحق من الباطل علم صحة ما قلناه. وقد حكى المسعودي مثله في أحوال بني أمية عن أبي جعفر المنصور، وقد حضر عمومته وذكروا بني أمية فقال: أما عبد الملك فكان جبارا لا يبالي بما صنع، وأما سليمان فكان همه بطنه وفرجه، وأما عمر فكان أعور بين عميان، وكان رجل القوم هشام. قال: ولم يزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من السلطان يحوطونه ويصونون ما وهب الله لهم منه مع تسنمهم معالي الأمور، ورفضهم دنياتها حتى أفضى الأمر إلى أبنائهم المترفين، فكانت همتهم قصد الشهوات وركوب اللذات من معاصي الله جهلا باستدراجه، وأمنا لمكره مع اطراحهم صيانة الخلافة واستخفافهم بحق الرئاسة، وضعفهم عن السياسة فسلبهم الله العز، وألبسهم الذل ونفى عنهم النعمة. ثم استحضر عبد الله (١) بن مروان، فقص عليه خبره مع ملك النوبة لما دخل أرضهم فارا أيام السفاح، قال: أقمت مليا (٢) ثم أتاني ملكهم فقعد على الأرض وقد بسطت لي فرش ذات قيمة، فقلت ما منعك عن القعود على ثيابنا؟ فقال: إني ملك وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله، إذ رفعه الله. ثم قال لي: لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم؟ فقلت: اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا. قال: فلم تطئون الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم؟ قلت: فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم. قال: فلم تلبسون الديباج والذهب والحرير وهو محرم عليكم في كتابكم؟ قلت: ذهب منا الملك وانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا. فأطرق ينكت بيده في الأرض، ويقول: عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا في ديننا! ثم رفع رأسه إلي وقال: ليس كما ذكرت. بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم، وأتيتم ما عنه نهيتم، وظلمتم فيما ملكتم، فسلبكم الله العز وألبسكم الذل بذنوبكم، ولله نقمة لم تبلغ غايتها فيكم، وأنا خائف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلدي فينالني معكم، وإنما الضيافة ثلاث فتزود ما احتجت إليه، وارتحل عن أرضي. فتعجب المنصور وأطرق.

فقد تبين لك كيف انقلبت الخلافة إلى الملك، وأن الأمر كان في أوله خلافة ووازع كل أحد فيها من نفسه وهو الدين، وكانوا يؤثرونه على أمور دنياهم وإن أفضت إلى هلاكهم وحدهم دون الكافة.

فهذا عثمان لما حصر في الدار جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن جعفر وأمثالهم يريدون المدافعة عنه فأبى. ومنع من سل السيوف

---

(١) قوله عبد الله كذا في النسخة التونسية وبعض الفاسية وفي بعضها عبد الملك ولعله تصحيفاً قاله نصر.

(٢) الملي: الساعة الطويلة من النهار.

بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مَخَافَةَ الْفُرْقَةِ وَحِفْظًا لِلْأُلْفَةِ الَّتِي بِهَا حِفْظُ الْكَلِمَةِ وَلَوْ أَدَّى إِلَى هَلَاكِهِ.

وَهٰذَا عَلِيٌّ أَشَارَ عَلَيْهِ الْمُغِيرَةُ لِأَوَّلِ وِلَايَتِهِ بِاسْتِبْقَاءِ الزُّبَيْرِ وَمُعَاوِيَةَ وَطَلْحَةَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ عَلَى بَيْعَتِهِ، وَتَتَّفِقَ الْكَلِمَةُ، وَلَهُ بَعْدَ ذٰلِكَ مَاشَاءَ مِنْ أَمْرِهِ وَكَانَ ذٰلِكَ مِن سِيَاسَةِ الْمُلْكِ فَأَبَى فِرَارًا مِنَ الْغِشِّ الَّذِي يُنَافِيهِ الْإِسْلَامُ. وَغَدَا عَلَيْهِ الْمُغِيرَةُ مِنَ الْغَدَاةِ فَقَالَ: لَقَدْ أَشَرْتُ عَلَيْكَ بِالْأَمْسِ بِمَا أَشَرْتُ، ثُمَّ عُدْتُ إِلَى نَظَرِي فَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْحَقِّ وَالنَّصِيحَةِ وَأَنَّ الْحَقَّ فِيمَا رَأَيْتَهُ أَنْتَ. فَقَالَ عَلِيٌّ: لَا وَاللّٰهِ بَلْ أَعْلَمُ أَنَّكَ نَصَحْتَنِي بِالْأَمْسِ، وَغَشَشْتَنِي الْيَوْمَ، وَلٰكِنْ مَنَعَنِي مِمَّا أَشَرْتَ بِهِ ذَائِدُ الْحَقِّ.

وَهٰكَذَا كَانَتْ أَحْوَالُهُمْ فِي إِصْلَاحِ دِينِهِم وَبِفَسَادِ دُنْيَاهُمْ وَنَحْنُ:

نُرَقِّعُ دُنْيَانَا بِتَمْزِيقِ دِينِنَا
فَلَا دِينُنَا يَبْقَى وَلَا مَا نُرَقِّعُ

فَقَدْ رَأَيْتَ كَيْفَ صَارَ الْأَمْرُ إِلَى الْمُلْكِ وَبَقِيَتْ مَعَانِي الْخِلَافَةِ مِنْ تَحَرِّي الدِّينِ وَمَذَاهِبِهِ وَالْجَرْيِ عَلَى مِنْهَاجِ الْحَقِّ، وَلَمْ يَظْهَرِ التَّغَيُّرُ إِلَّا فِي الْوَازِعِ الَّذِي كَانَ دِينًا، ثُمَّ انْقَلَبَ عَصَبِيَّةً وَسَيْفًا. وَهٰكَذَا كَانَ الْأَمْرُ لِعَهْدِ مُعَاوِيَةَ وَمَرْوَانَ وَابْنِهِ عَبْدِالْمَلِكِ، وَالصَّدْرِ الْأَوَّلِ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ، إِلَى الرَّشِيدِ وَبَعْضِ وُلْدِهِ ثُمَّ ذَهَبَتْ مَعَانِي الْخِلَافَةِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا اسْمُهَا وَصَارَ الْأَمْرُ مُلْكًا بَحْتًا وَجَرَتْ طَبِيعَةُ التَّغَلُّبِ إِلَى غَايَتِهَا، وَاسْتُعْمِلَتْ فِي أَغْرَاضِهَا مِنَ الْقَهْرِ وَالتَّقَلُّبِ فِي الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَاذِّ. وَهٰكَذَا كَانَ الْأَمْرُ لِوُلْدِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَلِمَنْ جَاءَ بَعْدَ الرَّشِيدِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ، وَاسْمُ الْخِلَافَةِ بَاقِيًا فِيهِمْ لِبَقَاءِ عَصَبِيَّةِ الْعَرَبِ، وَالْخِلَافَةُ وَالْمُلْكُ فِي الطَّوْرَيْنِ مُلْتَبِسٌ بَعْضُهُمَا بِبَعْضٍ. ثُمَّ ذَهَبَ رَسْمُ الْخِلَافَةِ وَأَثَرُهَا بِذَهَابِ عَصَبِيَّةِ الْعَرَبِ وَفَنَاءِ جِيلِهِمْ وَتَلَاشِي أَحْوَالِهِمْ، وَبَقِيَ الْأَمْرُ مُلْكًا بَحْتًا كَمَا كَانَ الشَّأْنُ فِي مُلُوكِ الْعَجَمِ بِالْمَشْرِقِ يَدِينُونَ بِطَاعَةِ الْخَلِيفَةِ تَبَرُّكًا، وَالْمُلْكُ بِجَمِيعِ أَلْقَابِهِ وَمَنَاحِيهِ لَهُمْ، وَلَيْسَ لِلْخَلِيفَةِ مِنْهُ شَيْءٌ. وَكَذٰلِكَ فَعَلَ مُلُوكُ زَنَاتَةَ بِالْمَغْرِبِ مِثْلَ صَنْهَاجَةَ مَعَ الْعُبَيْدِيِّينَ وَمَغْرَاوَةَ وَبَنِي يَفْرَنَ أَيْضًا مَعَ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ وَالْعُبَيْدِيِّينَ بِالْقَيْرَوَانِ.

فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْخِلَافَةَ قَدْ وُجِدَتْ بِدُونِ الْمُلْكِ أَوَّلًا ثُمَّ الْتَبَسَتْ مَعَانِيهِمَا وَاخْتَلَطَتْ. ثُمَّ انْفَرَدَ الْمُلْكُ حَيْثُ افْتَرَقَتْ عَصَبِيَّتُهُ مِنْ عَصَبِيَّةِ الْخِلَافَةِ. وَاللّٰهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ.

الفصل التاسع والعشرون

فى معنى البيعة (١)

اعْلَمْ أَنَّ الْبَيْعَةَ هِيَ الْعَهْدُ عَلَى الطَّاعَةِ. كَأَنَّ الْمُبَايِعَ يُعَاهِدُ أَمِيرَهُ عَلَى أَنَّهُ يُسَلِّمُ لَهُ النَّظَرَ فِي أَمْرِ نَفْسِهِ وَأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ لَايُنَازِعُهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذٰلِكَ، وَيُطِيعُهُ فِيمَا يُكَلِّفُهُ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ عَلَى الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ (٢).

وَكَانُوا إِذَا بَايَعُوا الْأَمِيرَ وَعَقَدُوا عَهْدَهُ، جَعَلُوا أَيْدِيَهُمْ فِي يَدِهِ، تَأْكِيدًا لِلْعَهْدِ، فَأَشْبَهَ ذٰلِكَ

(١) البيعة بفتح الموحدة. وأما بكسرها على وزن شيعة بسكون الياء فهى معبد النصارى.

(٢) يطيعه فيما يحب وفيما يكره.

فِعْلَ الْبَائِعِ وَالْمُشْتَرِى ، فَسُمِّىَ بَيْعَةً ، مَصْدَرَ بَاعَ ، وَصَارَتِ الْبَيْعَةُ مُصَافَحَةً بِالْأَيْدِى . هٰذَا مَدْلُولُهَا فِى عُرْفِ اللُّغَةِ وَمَعْهُودِ الشَّرْعِ ، وَهُوَ الْمُرَادُ فِى الْحَدِيثِ فِى بَيْعَةِ النَّبِىِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ(١) وَعِنْدَ الشَّجَرَةِ(٢) وَحَيْثُمَا وَرَدَ هٰذَا اللَّفْظُ . وَمِنْهُ بَيْعَةُ الْخُلَفَاءِ . وَمِنْهُ أَيْمَانُ الْبَيْعَةِ . كَانَ الْخُلَفَاءُ يَسْتَحْلِفُونَ عَلَى الْعَهْدِ وَيَسْتَوْعِبُونَ الْأَيْمَانَ كُلَّهَا لِذٰلِكَ ، فَسُمِّىَ هٰذَا الاسْتِيعَابُ أَيْمَانَ الْبَيْعَةِ .

وَكَانَ الْإِكْرَاهُ فِيهَا أَكْثَرَ وَأَغْلَبَ . وَلِهٰذَا لَمَّا أَفْتَى مَالِكٌ رَضِىَ اللّٰهُ عَنْهُ بِسُقُوطِ يَمِينِ الْإِكْرَاهِ(٣) أَنْكَرَهَا الْوُلَاةُ عَلَيْهِ ، وَرَأَوْهَا قَادِحَةً فِى أَيْمَانِ الْبَيْعَةِ ، وَوَقَعَ مَا وَقَعَ مِنْ مِحْنَةِ الْإِمَامِ رَضِىَ اللّٰهُ عَنْهُ .

وَأَمَّا الْبَيْعَةُ الْمَشْهُورَةُ لِهٰذَا الْعَهْدِ فَهِىَ تَحِيَّةُ الْمُلُوكِ الْكِسْرَوِيَّةِ ، مِنْ تَقْبِيلِ الْأَرْضِ أَوِ الْيَدِ أَوِ الرِّجْلِ أَوِ الذَّيْلِ ، أُطْلِقَ عَلَيْهَا اسْمُ الْبَيْعَةِ ، الَّتِى هِىَ الْعَهْدُ عَلَى الطَّاعَةِ مَجَازًا لَمَّا كَانَ هٰذَا الْخُضُوعُ فِى التَّحِيَّةِ وَالْتِزَامُ الْآدَابِ مِنْ لَوَازِمِ الطَّاعَةِ وَتَوَابِعِهَا ، وَغَلَبَ فِيهِ حَتَّى صَارَتْ حَقِيقِيَّةً عُرْفِيَّةً ، وَاسْتَغْنَى بِهَا عَنْ مُصَافَحَةِ أَيْدِى النَّاسِ ، الَّتِى هِىَ الْحَقِيقَةُ فِى الْأَصْلِ ، لِمَا فِى الْمُصَافَحَةِ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ التَّنَزُّلِ وَالابْتِذَالِ الْمُنَافِيَيْنِ لِلرِّئَاسَةِ وَصَوْنِ الْمَنْصِبِ الْمُلُوكِىِّ ، إِلَّا فِى الْأَقَلِّ ، مِمَّنْ يَقْصِدُ التَّوَاضُعَ مِنَ الْمُلُوكِ ، فَيَأْخُذُ بِهِ نَفْسَهُ مَعَ خَوَاصِّهِ وَمَشَاهِيرِ أَهْلِ الدِّينِ مِنْ رَعِيَّتِهِ . فَافْهَمْ مَعْنَى الْبَيْعَةِ فِى الْعُرْفِ ، فَإِنَّهُ أَكِيدٌ عَلَى الْإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهُ ، لِمَا يَلْزَمُهُ مِنْ حَقِّ سُلْطَانِهِ وَإِمَامِهِ ، وَلَا تَكُونُ أَفْعَالُهُ عَبَثًا وَمَجَانًا ، وَاعْتَبِرْ ذٰلِكَ مِنْ أَفْعَالِكَ مَعَ الْمُلُوكِ . وَاللّٰهُ الْقَوِىُّ الْعَزِيزُ .

الفصل الثلاثون

فى ولاية العهد

إِعْلَمْ أَنَّا قَدَّمْنَا الْكَلَامَ فِى الْإِمَامَةِ وَمَشْرُوعِيَّتِهَا ، لِمَا فِيهَا مِنَ الْمَصْلَحَةِ ، وَأَنَّ حَقِيقَتَهَا لِلنَّظَرِ فِى مَصَالِحِ الْأُمَّةِ لِدِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ، فَهُوَ وَلِيُّهُمْ وَالْأَمِينُ عَلَيْهِمْ ، يَنْظُرُ لَهُمْ ذٰلِكَ فِى حَيَاتِهِ ، وَيَتْبَعُ ذٰلِكَ أَنْ يَنْظُرَ لَهُمْ بَعْدَ مَمَاتِهِ ، وَيُقِيمَ لَهُمْ مَنْ يَتَوَلَّى أُمُورَهُمْ ، كَمَا كَانَ هُوَ يَتَوَلَّاهَا ، وَيَثِقُونَ بِنَظَرِهِ لَهُمْ فِى ذٰلِكَ ، كَمَا وَثِقُوا بِهِ فِيمَا قَبْلُ .

وَقَدْ عُرِفَ ذٰلِكَ مِنَ الشَّرْعِ بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ عَلَى جَوَازِهِ وَانْعِقَادِهِ . إِذْ وَقَعَ بِعَهْدِ أَبِى بَكْرٍ رَضِىَ اللّٰهُ عَنْهُ لِعُمَرَ بِمَحْضَرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَأَجَازُوهُ ، وَأَوْجَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِهِ طَاعَةَ عُمَرَ رَضِىَ اللّٰهُ عَنْهُ وَعَنْهُمْ ، وَكَذٰلِكَ عَهِدَ عُمَرُ فِى الشُّورَى إِلَى السِّتَّةِ بَقِيَّةِ(١) الْعَشَرَةِ ، وَجَعَلَ لَهُمْ أَنْ يَخْتَارُوا لِلْمُسْلِمِينَ ، فَفَوَّضَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ حَتَّى أَفْضَى ذٰلِكَ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بْنِ عَوْفٍ ، فَاجْتَهَدَ وَنَاظَرَ الْمُسْلِمِينَ ، فَوَجَدَهُمْ مُتَّفِقِينَ عَلَى عُثْمَانَ وَعَلَى عَلِىٍّ ، فَآثَرَ

---

(١) هما بيعتان : الأولى فى السنة الثانية عشرة من البعثة . والثانية فى الثالثة عشرة .

(٢) وهى التى ذكرها القرآن الكريم : انظر سورة الفتح الآية رقم ١٨ .

(٣) روى ابن جرير أن مالكا حينما قال له بعض من بايعوا المنصور إن فى أعناقنا بيعته ، قال : لقد بايعتم مكرهين ، وليس على مستكره يمين ، ولقى بذلك من العنت ما رفع ذكره وأعلى قدره (انظر تعليق د. وافى رقم ٦٥٣ ص ٧٢٠) .

---

(١) أى الذين كانوا باقين على قيد الحياة من العشرة المبشرين بالجنة .

عثمان بالبيعة على ذلك، لموافقته إياه على لزوم الاقتداء بالشيخين فى كل مايعن دون اجتهاده. فانعقد أمر عثمان لذلك ، وأوجبوا طاعته، والملأ من الصحابة حاضرون للأولى والثانية، ولم ينكره أحد منهم. فدل على أنهم متفقون على صحة هذا العهد، عارفون بمشروعيته. والإجماع حجة كما عرف.

ولا يتهم الإمام فى هذا الأمر، وإن عهد إلى أبيه أو ابنه، لأنه مأمون على النظر لهم فى حياته، فأولى أن لايحتمل فيها تبعة بعد مماته، خلافا لمن قال باتهامه فى الولد والوالد. أو لمن خصص التهمة بالولد دون الوالد، فإنه بعيد عن الظنة فى ذلك كله، لاسيما إذا كانت هناك داعية تدعو إليه من إيثار مصلحة أو توقع مفسدة. فتنتفى الظنة فى ذلك رأسا، كما وقع فى عهد معاوية لابنه يزيد؛ وإن كان فعل معاوية مع وفاق الناس له حجة فى الباب. والذى دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه، إنما هو مراعاة المصلحة فى اجتماع الناس، واتفاق أهوائهم، باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بنى أمية، إذ بنو أمية يومئذ لايرضون سواهم، وهم عصابة قريش، وأهل الملة أجمع، وأهل الغلب منهم، فآثره بذلك دون غيره، ممن يظن أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول، حرصا على الاتفاق واجتماع الأهواء الذى شأنه أهم عند الشارع. وإن كان لايظن بمعاوية غير هذا، فعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك، وحضور أكابر الصحابة لذلك، وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه، فليسوا ممن يأخذهم فى الحق هوادة، وليس معاوية ممن تأخذه العزة فى قبول الحق، فإنهم كلهم أجل من ذلك، وعدالتهم مانعة منه.

وفرار عبد الله بن عمر من ذلك إنما هو محمول على تورعه من الدخول فى شىء من الأمور مباحا كان أو محظورا كما هو معروف عنه ولم يبق فى المخالفة لهذا العهد الذى اتفق عليه الجمهور إلا ابن الزبير، وندور المخالف معروف.

ثم إنه وقع مثل ذلك من بعد معاوية من الخلفاء الذين كانوا يتحرون الحق ويعملون به مثل عبد الملك وسليمان من بنى أمية، والسفاح والمنصور والمهدى والرشيد من بنى العباس، وأمثالهم ممن عرفت عدالتهم، وحسن رأيهم للمسلمين والنظر لهم.

ولا يعاب عليهم، إيثار أبنائهم وإخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء الأربعة فى ذلك، فشأنهم غير شأن أولئك الخلفاء. فإنهم كانوا على حين لم تحدث طبيعة الملك وكان الوازع دينيا، فعند كل أحد وازع من نفسه، فعهدوا إلى إلى من يرتضيه الدين فقط، وآثروه على غيره، ووكلوا كل من يسموا إلى ذلك إلى وازعه.

وأما من بعدهم من لدن معاوية، فكانت العصبية قد أشرفت على غايتها من الملك والوازع الدينى قد ضعف، واحتيج إلى الوازع السلطانى والعصبانى. فلو عهد إلى غير من

تَرْتَضِيه الْعَصَبِيَّةُ لَرَدَّتْ ذٰلِكَ الْعَهْدَ، وَانْتَقَضَ أَمْرُهُ سَرِيعًا، وصَارتِ الْجَمَاعَةُ إِلَى الْفُرْقَةِ وَالاخْتِلَافِ.

سَأَلَ رَجُلٌ عَلِيًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، مَا بَالُ الْمُسْلِمِينَ اخْتَلَفُوا عَلَيْكَ وَلَمْ يَخْتَلِفُوا عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ؟ فَقَالَ: لِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ كَانَا وَالِيَيْنِ عَلَى مِثْلِي، وَأَنَا الْيَوْمَ وَالٍ عَلَى مِثْلِكَ. يُشِيرُ إِلَى وَازِعِ الدِّينِ. أَفَلَا تَرَى إِلَى الْمَأْمُونِ، لَمَّا عَهِدَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ مُوسَى ابْنِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ وَسَمَّاهُ الرِّضَا، كَيْفَ أَنْكَرَتِ الْعَبَّاسِيَّةُ ذٰلِكَ وَنَقَضُوا بَيْعَتَهُ، وَبَايَعُوا لِعَمِّهِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ، وَظَهَرَ مِنَ الْهَرْجِ وَالْخِلَافِ وَانْقِطَاعِ السُّبُلِ وَتَعَدُّدِ الثُّوَّارِ وَالْخَوَارِجِ مَا كَادَ أَنْ يَصْطَلِمَ(١) الْأَمْرَ، حَتَّى بَادَرَ الْمَأْمُونُ مِنْ خُرَاسَانَ إِلَى بَغْدَادَ، وَرَدَّ أَمْرَهُمْ لِمَعَاهِدِهِ. فَلَا بُدَّ مِنِ اعْتِبَارِ ذٰلِكَ فِي الْعَهْدِ. فَالْعُصُورُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ مَا يَحْدُثُ فِيهَا مِنَ الْأُمُورِ وَالْقَبَائِلِ وَالْعَصَبِيَّاتِ، وَتَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْمَصَالِحِ، وَلِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهَا حُكْمٌ يَخُصُّهُ، لُطْفًا مِنَ اللهِ بِعِبَادِهِ.

وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ الْقَصْدُ بِالْعَهْدِ حِفْظَ التُّرَاثِ عَلَى الْأَبْنَاءِ. فَلَيْسَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الدِّينِيَّةِ، إِذْ هُوَ أَمْرٌ مِنَ اللهِ يَخُصُّ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، يَنْبَغِي أَنْ تُحَسَّنَ فِيهِ النِّيَّةُ مَا أَمْكَنَ، خَوْفًا مِنَ الْعَبَثِ بِالْمَنَاصِبِ الدِّينِيَّةِ. وَالْمُلْكُ لِلهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ.

وَعَرَضَ هُنَا أُمُورٌ تَدْعُو الضَّرُورَةُ إِلَى بَيَانِ الْحَقِّ فِيهَا:

الْأَوَّلُ مِنْهَا مَا حَدَثَ فِي يَزِيدَ مِنَ الْفِسْقِ أَيَّامَ خِلَافَتِهِ. فَإِيَّاكَ أَنْ تَظُنَّ بِمُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ عَلِمَ ذٰلِكَ مِنْ يَزِيدَ، فَإِنَّهُ أَعْدَلُ مِنْ ذٰلِكَ وَأَفْضَلُ. بَلْ كَانَ يَعْذِلُهُ(١) أَيَّامَ حَيَاتِهِ فِي سَمَاعِ الْغِنَاءِ وَيَنْهَاهُ عَنْهُ، وَهُوَ أَقَلُّ مِنْ ذٰلِكَ، وَكَانَتْ مَذَاهِبُهُمْ فِيهِ مُخْتَلِفَةً. وَلَمَّا حَدَثَ فِي يَزِيدَ مَا حَدَثَ مِنَ الْفِسْقِ، اخْتَلَفَ الصَّحَابَةُ حِينَئِذٍ فِي شَأْنِهِ: فَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى الْخُرُوجَ عَلَيْهِ، وَنَقَضَ بَيْعَتَهُ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ كَمَا فَعَلَ الْحُسَيْنُ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَمَنِ اتَّبَعَهُمَا فِي ذٰلِكَ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ أَبَاهُ(٢) لِمَا فِيهِ مِنْ إِثَارَةِ الْفِتْنَةِ وَكَثْرَةِ الْقَتْلِ مَعَ الْعَجْزِ عَنِ الْوَفَاءِ بِهِ، لِأَنَّ شَوْكَةَ يَزِيدَ يَوْمَئِذٍ هِيَ عِصَابَةُ بَنِي أُمَيَّةَ وَجُمْهُورِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ مِنْ قُرَيْشٍ، وَتَسْتَتْبِعُ عَصَبِيَّةَ مُضَرَ أَجْمَعَ، وَهِيَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَوْكَةٍ وَلَا تُطَاقُ مُقَاوَمَتُهُم، فَأَقْصَرُوا عَنْ يَزِيدَ بِسَبَبِ ذٰلِكَ، وَأَقَامُوا عَلَى الدُّعَاءِ بِهِدَايَتِهِ وَالرَّاحَةِ مِنْهُ. وَهٰذَا كَانَ شَأْنَ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ. وَالْكُلُّ مُجْتَهِدُونَ وَلَا يُنْكَرُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ. فَمَقَاصِدُهُمْ فِي الْبِرِّ وَتَحَرِّي الْحَقِّ مَعْرُوفَةٌ. وَفَّقَنَا اللهُ لِلِاقْتِدَاءِ بِهِمْ.

وَالْأَمْرُ الثَّانِي هُوَ شَأْنُ الْعَهْدِ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا تَدَّعِيهِ الشِّيعَةُ مِنْ وَصِيَّتِهِ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَهُوَ أَمْرٌ لَمْ يَصِحَّ، وَلَا نَقَلَهُ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ النَّقْلِ. وَالَّذِي وَقَعَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ طَلَبِ الدَّوَاةِ وَالْقِرْطَاسِ لِيَكْتُبَ الْوَصِيَّةَ، وَأَنَّ عُمَرَ مَنَعَ مِنْ ذٰلِكَ فَدَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ. وَكَذَا قَوْلُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حِينَ طُعِنَ وَسُئِلَ

(١) يقطعه ويستأصله.

(١) العذل: الملامة.

(٢) رفض فكرة الخروج عليه.

فى الْعَهْدِ، فَقَالَ : إنْ أعْهَدْ فَقَدْ عَهِدَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّى، يَعْنِى أبَا بَكْرٍ ،وَإنْ أتْرُكْ فَقَدْ تَرَكَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّى ، يَعْنِى أنَّ النَّبِىَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَمْ يَعْهَدْ . وَكَذَلِكَ قَوْلُ عَلِىٍّ لِلْعَبَّاسِ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمَا حِينَ دَعَاهُ لِلدُّخُولِ إلَى النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْألانِهِ عَنْ شَأْنِهِمَا فى الْعَهْدِ : فَأبَى عَلِىٌّ مِنْ ذَلِكَ، وَقَالَ : إنَّهُ إنْ مَنَعَنَا مِنْهَا فَلَا نَطْمَعُ فِيهَا آخِرَ الدَّهْرِ. وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أنَّ عَلِيًّا عَلِمَ أنَّهُ لَمْ يُوصِ وَلَا عَهِدَ إلَى أحَدٍ .

وَشُبْهَةُ الْإمَامِيَّةِ فى ذَلِكَ، إنَّمَا هِىَ كَوْنُ الْإمَامَةِ مِنْ أرْكَانِ الدِّينِ ، كَمَا يَزْعُمُونَ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، وَإنَّمَا هِىَ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ الْمُفَوَّضَةِ إلَى نَظَرِ الْخَلْقِ. وَلَوْ كَانَتْ مِنْ أرْكَانِ الدِّينِ، لَكَانَ شَأْنُهَا شَأْنَ الصَّلَاةِ، وَلَكَانَ يُسْتَخْلَفُ فِيهَا، كَمَا اسْتَخْلَفَ أبَابَكْرٍ فى الصَّلَاةِ ، وَلَكَانَ يَشْتَهِرُ كَمَا اشْتَهَرَ أمْرُ الصَّلَاةِ . واحْتِجَاجُ الصَّحَابَةِ عَلَى خِلَافَةِ أبِى بَكْرٍ بِقِيَاسِهَا على الصَّلَاةِ فى قَوْلِهِم ارْتَضَاهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِدِينِنَا أفَلَا نَرْضَاهُ لِدُنْيَانَا ؟ دَلِيلٌ عَلَى أنَّ الْوَصِيَّةَ لَمْ تَقَعْ. وَيَدُلُّ ذَلِكَ أيْضًا . عَلَى أنَّ أمْرَ الْإمَامَةِ وَالْعَهْدِ بِهَا لَمْ يَكُنْ مُهِمًّا كَمَا هُوَ الْيَوْمَ، وَشَأْنُ الْعَصَبِيَّةِ الْمُرَاعَاةِ فى الاجْتِمَاعِ والافْتِرَاقِ فى مَجَارِى الْعَادَهِ لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ بِذَلِكَ الاعْتِبَارِ، لأنَّ أمْرَ الدِّينِ وَالْإسْلَامِ كَانَ كُلُّهُ بِخَوَارِقِ الْعَادَةِ مِنْ تَألِيفِ الْقُلُوبِ عَلَيْهِ، وَاسْتِمَاتَةِ النَّاسِ دُونَهُ، وَذَلِكَ مِنْ أجْلِ الْأحْوَالِ الَّتِى كَانُوا يُشَاهِدُونَهَا فى حُضُورِ الْمَلَائِكَةِ لِنَصْرِهِمْ وَتَرَدُّدِ خَبَرِ السَّمَاءِ بَيْنَهُمْ، وتَجَدُّدِ خِطَابِ اللهِ فى كل حادِثَةٍ تُتْلَى عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يُحْتَجْ إلَى مُرَاعَاةِ الْعَصَبِيَّةِ لِمَا شَمِلَ النَّاسَ مِنْ صِبْغَةِ الانْقِيَادِ وَالْإذْعَانِ، وَمَا يَسْتَفِزُّهُمْ مِنْ تَتَابُعِ الْمُعْجِزَاتِ الْخَارِقَةِ، وَالْأحْوَالِ الْإلَهِيَّةِ الْوَاقِعَةِ، وَالْمَلَائِكَةِ الْمُتَرَدِّدَةِ، الَّتِى وَجَمُوا مِنْهَا، وَدُهِشُوا مِنْ تَتَابُعِهَا. فَكَانَ أمْرُ الْخِلَافَةِ وَالْمُلْكِ وَالْعَهْدِ وَالْعَصَبِيَّةِ وَسَائِرِ هَذِهِ الْأنْوَاعِ مُنْدَرِجًا فى ذَلِكَ الْقَبِيلِ كَمَا وَقَعَ .

فَلَمَّا انْحَسَرَ ذَلِكَ الْمَدَدُ بِذَهَابِ تِلْكَ الْمُعْجِزَاتِ ثُمَّ بِفَنَاءِ الْقُرُونِ الَّذِينَ شَاهَدُوهَا ، فَاسْتَحَالَتْ تِلْكَ الصِّبْغَةُ قَلِيلاً قَلِيلاً، وَذَهَبَتِ الْخَوَارِقُ، وَصَارَ الْحُكْمُ لِلْعَادَةِ كَمَا كَانَ . فَاعْتُبِرَ أمْرُ الْعَصَبِيَّةِ وَمَجَارِى الْعَوَائِدِ فِيمَا يَنْشَأُ عَنْهَا مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ، وَأصْبَحَ الْمُلْكُ وَالْخِلَافَةُ وَالْعَهْدُ بِهِمَا مُهِمًّا مِنَ الْمُهِمَّاتِ الْأكِيدَةِ كَمَا زَعَمُوا ،وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ قَبْلٍ .

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتِ الْخِلَافَةُ لِعَهْدِ النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرَ مُهِمَّةٍ ، فَلَمْ يَعْهَدْ فِيهَا، ثُمَّ تَدَرَّجَتِ الْأهَمِّيَّةُ زَمَانَ الْخِلَافَةِ بَعْضَ الشَّىْءِ، بِمَا دَعَتِ الضَّرُورَةُ إلَيْهِ، فى الْحِمَايَةِ وَالْجِهَادِ وَشَأْنِ الرِّدَّةِ وَالْفُتُوحَاتِ ، فَكَانُوا بِالْخِيَارِ فى الْفِعْلِ وَالتَّرْكِ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ عَنْ عُمَرَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ ، ثُمَّ صَارَتِ الْيَوْمَ مِنْ أهَمِّ الْأُمُورِ لِلْألْفَةِ عَلَى الْحِمَايَةِ، وَالْقِيَامِ بِالْمَصَالِحِ ، فَاعْتُبِرَتْ فِيهَا الْعَصَبِيَّةُ الَّتِى هِىَ سِرُّ الْوَازِعِ عَنِ الْفُرْقَةِ وَالتَّخَاذُلِ، وَمَنْشَأُ الاجْتِمَاعِ وَالتَّوَافُقِ الْكَفِيلُ بِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ وَأحْكَامِهَا .

وَالْأمْرُ الثَّالِثُ شَأْنُ الْحُرُوبِ الْوَاقِعَةِ فى الْإسْلَامِ

بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ : فَاعْلَمْ أَنَّ اخْتِلَافَهُمْ إِنَّمَا يَقَعُ فِى الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ ، وَيَنْشَأُ عَنِ الاجْتِهَادِ فِى الْأَدِلَّةِ الصَّحِيحَةِ وَالْمَدَارِكِ الْمُعْتَبَرَةِ . وَالْمُجْتَهِدُونَ إِذَا اخْتَلَفُوا ، فَإِنْ قُلْنَا : إِنَّ الْحَقَّ فِى الْمَسَائِلِ الاجْتِهَادِيَّةِ وَاحِدٌ مِنَ الطَّرَفَيْنِ ، وَمَنْ لَمْ يُصَادِفْهُ فَهُوَ مُخْطِئٌ ، فَإِنَّ جِهَتَهُ لَا تَتَعَيَّنُ بِإِجْمَاعٍ ، فَيَبْقَى الْكُلُّ عَلَى احْتِمَالِ الْإِصَابَةِ ، وَلَا يَتَعَيَّنُ الْمُخْطِئُ مِنْهُم ، وَالتَّأْثِيمُ مَدْفُوعٌ عَنِ الْكُلِّ إِجْمَاعًا ؛ وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ الْكُلَّ عَلَى حَقٍّ ، وَإِنَّ كُلَّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ ، فَأَحْرَى بِنَفْىِ الْخَطَإِ وَالتَّأْثِيمِ . وَغَايَةُ الْخِلَافِ الَّذِى بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ ، أَنَّهُ خِلَافٌ اجْتِهَادِىٌّ فِى مَسَائِلَ دِينِيَّةٍ ظَنِّيَّةٍ ، وَهٰذَا حُكْمُهُ .

وَالَّذِى وَقَعَ مِنْ ذٰلِكَ فِى الْإِسْلَامِ إِنَّمَا هُوَ وَاقِعَةُ عَلِىٍّ مَعَ مُعَاوِيَةَ ، وَمَعَ الزُّبَيْرِ وَعَائِشَةَ وَطَلْحَةَ ، وَوَاقِعَةُ الْحُسَيْنِ مَعَ يَزِيدَ ، وَوَاقِعَةُ ابْنِ الزُّبَيْرِ مَعَ عَبْدِ الْمَلِكِ .

فَأَمَّا وَاقِعَةُ عَلِىٍّ ، فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا عِنْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ مُفْتَرِقِينَ فِى الْأَمْصَارِ فَلَمْ يَشْهَدُوا بَيْعَةَ عَلِىٍّ . وَالَّذِينَ شَهِدُوا فَمِنْهُمْ مَنْ بَايَعَ ، وَمِنْهُم مَنْ تَوَقَّفَ ، حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ ، وَيَتَّفِقُوا عَلَى إِمَامٍ كَسَعْدٍ وَسَعِيدٍ وَابْنِ عُمَرَ وَأُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ وَالْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ ، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ ، وَقُدَامَةَ ابْنِ مَظْعُونٍ ، وَأَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ ، وَكَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ وَكَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ، وَالنُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ، وَحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ ، وَمَسْلَمَةَ بْنِ مُخَلَّدٍ ، وَفَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ ، وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ أَكَابِرِ الصَّحَابَةِ . وَالَّذِينَ كَانُوا فِى الْأَمْصَارِ ، عَدَلُوا عَنْ بَيْعَتِهِ أَيْضًا إِلَى الطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ ، وَتَرَكُوا الْأَمْرَ فَوْضَى ، حَتَّى يَكُونَ شُورَى بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لِمَنْ يُوَلُّونَهُ ، وَظَنُّوا بِعَلِىٍّ هَوَادَةً فِى السُّكُوتِ عَنْ نَصْرِ عُثْمَانَ مِنْ قَاتِلِيهِ ، لَا فِى الْمُمَالَأَةِ عَلَيْهِ ، فَحَاشَ للهِ مِنْ ذٰلِكَ .

وَلَقَدْ كَانَ مُعَاوِيَةُ إِذَا صَرَّحَ بِمَلَامَتِهِ ، إِنَّمَا يُوَجِّهُهَا عَلَيْهِ فِى سُكُوتِهِ فَقَطْ . ثُمَّ اخْتَلَفُوا بَعْدَ ذٰلِكَ ، فَرَأَى عَلِىٌّ أَنَّ بَيْعَتَهُ قَدِ انْعَقَدَتْ وَلَزِمَتْ مَنْ تَأَخَّرَ عَنْهَا بِاجْتِمَاعِ مَنِ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا بِالْمَدِينَةِ دَارِ النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَوْطِنِ الصَّحَابَةِ ، وَأَرْجَأَ الْأَمْرَ فِى الْمُطَالَبَةِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَى اجْتِمَاعِ النَّاسِ ، وَاتِّفَاقِ الْكَلِمَةِ ، فَيَتَمَكَّنُ حِينَئِذٍ مِنْ ذٰلِكَ . وَرَأَى الْآخَرُونَ أَنَّ بَيْعَتَهُ لَمْ تَنْعَقِدْ ، لِافْتِرَاقِ الصَّحَابَةِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ بِالْآفَاقِ ، وَلَمْ يَحْضُرْ إِلَّا قَلِيلٌ ، وَلَا تَكُونُ الْبَيْعَةُ إِلَّا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ، وَلَا تَلْزَمُ بِعَقْدِ مَنْ تَوَلَّاهَا مِنْ غَيْرِهِمْ ، أَوْ مِنَ الْقَلِيلِ مِنْهُمْ ، وَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ حِينَئِذٍ فَوْضَى ، فَيُطَالِبُونَ أَوَّلًا بِدَمِ عُثْمَانَ ، ثُمَّ يَجْتَمِعُونَ عَلَى إِمَامٍ ، وَذَهَبَ إِلَى هٰذَا مُعَاوِيَةُ ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ ، وَالزُّبَيْرُ وَابْنُهُ عَبْدُ اللهِ ، وَطَلْحَةُ وَابْنُهُ مُحَمَّدٌ ، وَسَعْدٌ ، وَسَعِيدٌ ، وَالنُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ ، وَمُعَاوِيَةُ بْنُ خَدِيجٍ ، وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْيِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ بَيْعَةِ عَلِىٍّ بِالْمَدِينَةِ كَمَا ذَكَرْنَا . إِلَّا أَنَّ أَهْلَ الْعَصْرِ الثَّانِى مِنْ بَعْدِهِمُ اتَّفَقُوا عَلَى انْعِقَادِ بَيْعَةِ عَلِىٍّ ، وَلُزُومِهَا لِلْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ ، وَتَصْوِيبِ رَأْيِهِ فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ، وَتَعْيِينِ الْخَطَإِ مِنْ جِهَةِ مُعَاوِيَةَ وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْيِهِ ، وَخُصُوصًا طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ ، لِانْتِقَاضِهِمَا عَلَى عَلِىٍّ بَعْدَ الْبَيْعَةِ لَهُ فِيمَا نُقِلَ مَعَ دَفْعِ التَّأْثِيمِ عَنْ كُلٍّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ ، كَالشَّأْنِ فِى الْمُجْتَهِدِينَ ، وَصَارَ

ذلِكَ إجْمَاعًا مِنْ أَهْلِ ، الْعَصْرِ الثَّانى على أَحَدِ قَوْلَى أَهْلِ الْعَصْرِ الْأَوَّلِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ .

وَلَقَدْ سُئِلَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ قَتْلَى الْجَمَلِ وَصِفِّينَ فَقَالَ : وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ ، لَا يَمُوتَنَّ أَحَدٌ مِنْ هؤُلَاءِ وَقَلْبُهُ نَقِيٌّ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ ، يُشِيرُ إِلَى الْفَرِيقَيْنِ ، نَقَلَهُ الطَّبَرِىُّ وَغَيْرُهُ . فَلَا يَقَعَنَّ عِنْدَكَ رَيْبٌ فى عَدَالَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَلَا قَدْحٌ فى شَيْءٍ مِنْ ذلِكَ ، فَهُمْ مَنْ عَلِمْتَ ، وَأَقْوَالُهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ إِنَّمَا هِيَ عَنِ الْمُسْتَنَدَاتِ ، وَعَدَالَتُهُمْ مَفْرُوغٌ مِنْهَا عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ ، إِلَّا قَوْلًا لِلْمُعْتَزِلَةِ فِيمَنْ قَاتَلَ عليًا ، لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ ، وَلَا عَرَّجَ عَلَيْهِ .

وَإِذَا نَظَرْتَ بِعَيْنِ الْإِنْصَافِ ، عَذَرْتَ النَّاسَ أَجْمَعِينَ فى شَأْنِ الاخْتِلَافِ فى عُثْمَانَ ، وَاخْتِلَافِ الصَّحَابَةِ مِنْ بَعْدُ ، وَعَلِمْتَ أَنَّهَا كَانَتْ فِتْنَةً ابْتَلَى اللهُ بِهَا الْأُمَّةَ بَيْنَمَا الْمُسْلِمُونَ قَدْ أَذْهَبَ اللهُ عَدُوَّهُمْ ، وَمَلَّكَهُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ ، وَنَزَلُوا الْأَمْصَارَ عَلَى حُدُودِهِمْ بِالْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ ، وَكَانَ أَكْثَرُ الْعَرَبِ الَّذِينَ نَزَلُوا هذِهِ الْأَمْصَارَ جُفَاةً لَمْ يَسْتَكْثِرُوا مِنْ صُحْبَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا ارْتَاضُوا بِخُلُقِهِ مَعَ مَا كَانَ فِيهِمْ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْجَفَاءِ وَالْعَصَبِيَّةِ وَالتَّفَاخُرِ وَالْبُعْدِ عَنْ سَكِينَةِ الْإِيمَانِ ، وَإِذَا بِهِمْ عِنْدَ اسْتِفْحَالِ الدَّوْلَةِ ، قَدْ أَصْبَحُوا فى مَلَكَةِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَكِنَانَةَ وَثَقِيفٍ وَهُذَيْلٍ وَأَهْلِ الْحِجَازِ وَيَثْرِبَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ إِلَى الإِيمَانِ ، فَاسْتَنْكَفُوا مِنْ ذلِكَ ، وَغَصُّوا بِهِ ، لِمَا يَرَوْنَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ التَّقَدُّمِ بِأَنْسَابِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ ، وَمُصَادَمَةِ فَارِسَ وَالرُّومِ ، مِثْلِ قَبَائِلِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ ، وَعَبْدِ الْقَيْسِ بْنِ رَبِيعَةَ وَقَبَائِلِ كِنْدَةَ وَالْأَزْدِ مِنَ الْيَمَنِ ، وَتَمِيمٍ وَقَيْسٍ مِنْ مُضَرَ ، فَصَارُوا إِلَى الْغَضِّ مِنْ قُرَيْشٍ وَالْأَنَفَةِ عَلَيْهِمْ ، وَالتَّمْرِيضِ فى طَاعَتِهِمْ ، وَالتَّعَلُّلِ فى ذلِكَ بِالتَّظَلُّمِ مِنْهُمْ ، وَالاسْتِعْدَاءِ عَلَيْهِمْ ، وَالطَّعْنِ فِيهِمْ بِالْعَجْزِ عَنِ السَّوِيَّةِ ، وَالْعَدْلِ فى الْقَسْمِ عَنِ السَّوِيَّةِ ، وَفَشَتِ الْمَقَالَةُ بِذلِكَ ، وَانْتَهَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُمْ مَنْ عَلِمْتَ فَأَعْظَمُوهُ ، وَأَبْلَغُوهُ عُثْمَانَ فَبَعَثَ إِلَى الْأَمْصَارِ مَنْ يَكْشِفُ لَهُ الْخَبَرَ ، بَعَثَ ابْنَ عُمَرَ وَمُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ ، وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَأَمْثَالَهُمْ ، فَلَمْ يُنْكِرُوا عَلَى الْأُمَرَاءِ شَيْئًا ، وَلَا رَأَوْا عَلَيْهِمْ طَعْنًا ، وَأَدَّوْا ذلِكَ كَمَا عَلِمُوهُ فَلَمْ يَنْقَطِعِ الطَّعْنُ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ ، وَمَا زَالَتِ الشَّنَاعَاتُ تَنْمُو ، وَرُمِيَ الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ وَهُوَ عَلَى الْكُوفَةِ بِشُرْبِ الْخَمْرِ ، وَشَهِدَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ ، وَحَدَّهُ عُثْمَانُ وَعَزَلَهُ . ثُمَّ جَاءَ إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ يَسْأَلُونَ عَزْلَ الْعُمَّالِ وَشَكَوْا إِلَى عَائِشَةَ وَعَلِيٍّ وَالزُّبَيْرِ وَطَلْحَةَ وَعَزَلَ لَهُمْ عُثْمَانُ بَعْضَ الْعُمَّالِ ، فَلَمْ تَنْقَطِعْ بِذلِكَ أَلْسِنَتُهُمْ بَلْ وَفَدَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِى وَهُوَ عَلَى الْكُوفَةِ ، فَلَمَّا رَجَعَ اعْتَرَضُوهُ بِالطَّرِيقِ ، وَرَدُّوهُ مَعْزُولًا . ثُمَّ انْتَقَلَ الْخِلَافُ بَيْنَ عُثْمَانَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ بِالْمَدِينَةِ ، وَنَقَمُوا عَلَيْهِ امْتِنَاعَهُ مِنَ الْعَزْلِ ، فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَلَى جُرْحَةٍ (١) ، ثُمَّ نَقَلُوا النَّكِيرَ إِلَى غَيْرِ ذلِكَ مِنْ أَفْعَالِهِ ، وَهُوَ مُتَمَسِّكٌ بِالاجْتِهَادِ ، وَهُمْ أَيْضًا كَذلِكَ ، ثُمَّ تَجَمَّعَ قَوْمٌ مِنَ الْغَوْغَاءِ ، وَجَاءُوا إِلَى الْمَدِينَةِ يُظْهِرُونَ طَلَبَ النَّصَفَةِ مِنْ عُثْمَانَ وَهُمْ يُضْمِرُونَ

(١) ما يجرح به ويسقط عدالته

هلاك ذلك من قتله ، وفيهم من البصرة والكوفة ومصر ، وقام معهم فى ذلك على وعائشة والزبير وطلحة وغيرهم ، يحاولون تسكين الأمور ، ورجوع عثمان إلى رأيهم . وعزل لهم عامل مصر ، فانصرفوا قليلا ثم رجعوا ، وقد لبسوا بكتاب مدلس يزعمون أنهم لقوه فى يد حامله إلى عامل مصر بأن يقتلهم ، وحلف عثمان على ذلك ، فقالوا مكنا من مروان فإنه كاتبك. فحلف مروان ، فقال : ليس فى الحكم أكثر من هذا ، فحاصروه بداره ، ثم بيتوه على حين غفلة من الناس وقتلوه وانفتح باب الفتنة .

فلكل من هولاء عذر فيما وقع ، وكلهم كانوا مهتمين بأمر الدين ، ولا يضيعون شيئا من تعلقاته ، ثم نظروا بعد هذا الواقع واجتهدوا ، والله مطلع على أحوالهم ، وعالم بهم . ونحن لا نظن بهم إلا خيرا ، لما شهدت به أحوالهم ، ومقالات الصادق .

وأما الحسين فإنه لما ظهر فسق يزيد عند الكافة من أهل عصره ، بعثت شيعة أهل البيت بالكوفة للحسين أن يأتيهم فيقوموا بأمره ، فرأى الحسين أن الخروج على يزيد متعين من أجل فسقه ، لا سيما من له القدرة على ذلك ، وظنها من نفسه بأهليته وشوكته ، فأما الأهلية فكانت كما ظن وزيادة . وأما الشوكة فغلط ، يرحمه الله فيها ، لأن عصبية مضر كانت فى قريش ، وعصبية عبد مناف إنما كانت فى بنى أمية ، تعرف ذلك لهم قريش وسائر الناس ، ولا ينكرونه . وإنما نسى ذلك أول الإسلام ، لما شغل الناس من الذهول بالخوارق وأمر الوحى ، وتردد الملائكة لنصرة المسلمين ، فأغفلوا أمور عوائدهم ، وذهبت عصبية الجاهلية ومنازعها ونسيت ، ولم يبق إلا العصبية الطبيعية فى الحماية والدفاع ، ينتفع بها فى إقامة الدين وجهاد المشركين ، والدين فيها محكم ، والعادة معزولة ، حتى إذا انقطع أمر النبوة والخوارق المهولة ، تراجع الحكم بعض الشىء للعوائد فعادت العصبية كما كانت ولمن كانت ، وأصبحت مضر أطوع لبنى أمية من سواهم بما كان لهم من ذلك قبل .

فقد تبين لك غلط الحسين ، إلا أنه فى أمر دنيوى لا يضره الغلط فيه ، وأما الحكم الشرعى فلم يغلط فيه لأنه منوط بظنه ، وكان ظنه القدرة على ذلك ، ولقد عذله ابن العباس وابن الزبير وابن عمر وابن الحنفية أخوه وغيره فى مسيره إلى الكوفة ، وعلموا غلطه فى ذلك ولم يرجع عما هو بسبيله ، لما أراده الله .

وأما غير الحسين من الصحابة الذين كانوا بالحجاز ، ومع يزيد بالشام والعراق ، ومن التابعين لهم ، فرأوا أن الخروج على يزيد وإن كان فاسقا لا يجوز ، لما ينشأ عنه من الهرج (١) والدماء ، فأقصروا عن ذلك ، ولم يتابعوا الحسين ، ولا أنكروا عليه ، ولا أثموه ، لأنه مجتهد ، وهو أسوة المجتهدين .

ولا يذهب بك الغلط أن تقول بتأثيم هولاء بمخالفة الحسين وقعودهم عن نصره ، فإنهم أكثر الصحابة وكانوا مع يزيد ولم يروا الخروج عليه ، وكان الحسين يستشهد بهم وهو بكربلاء

(١) الفتنة والاضطراب .

عَلَى فَضْلِهِ وَحَقِّهِ ، وَيَقُولُ : مَثَلُوا جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ . وَأَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ وَأَنَسَ بْنَ مَالِكٍ وَسَهْلَ بْنَ سَعِيدٍ وَزَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ وَأَمْثَالَهُمْ ، وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِمْ قُعُودَهُمْ عَنْ نَصْرِهِ ، وَلَا تَعَرَّضَ لِذَلِكَ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ عَنِ اجْتِهَادٍ منهم ، كما كان فعله عن اجتهاد منه . وكذلك لا يذهب بك الغلط ، أن تقول بتصويب قتله لما كان عَنِ اجْتِهَادٍ وَإِنْ كَانَ هُوَ عَلَى اجْتِهَادٍ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ كَمَا يَحُدُّ الشَّافِعِيُّ وَالْمَالِكِيُّ الْحَنَفِيَّ عَلَى شُرْبِ النَّبِيذِ(١) .

وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَذَلِكَ ، وَقِتَالُهُ لَمْ يَكُنْ عَنِ اجْتِهَادِ هٰؤُلَاءِ ، وَإِنْ كَانَ خِلَافُهُ عَنِ اجْتِهَادِهِمْ ، وَإِنَّمَا انْفَرَدَ بِقِتَالِهِ يَزِيدُ وَأَصْحَابُهُ . وَلَا تَقُولَنَّ إِنَّ يَزِيدَ وَإِنْ كَانَ فَاسِقًا وَلَمْ يُجِزْ هؤلاء الْخُرُوجَ عَلَيْهِ فَأَفْعَالُهُ عِنْدَهُمْ صَحِيحَةٌ . وَاعْلَمْ أَنَّهُ إِنَّمَا يَنْفُذُ مِنْ أَعْمَالِ الْفَاسِقِ مَا كَانَ مَشْرُوعًا ، وَقِتَالُ الْبُغَاةِ عِنْدَهُمْ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْإِمَامِ الْعَادِلِ ، وَهُوَ مَفْقُودٌ فِي مَسْأَلَتِنَا ، فَلَا يَجُوزُ قِتَالُ الْحُسَيْنِ مَعَ يَزِيدَ وَلَا لِيَزِيدَ بَلْ هِيَ مِنْ فَعَلَاتِهِ الْمُؤَكِّدَةِ لِفِسْقِهِ ، وَالْحُسَيْنُ فِيهَا شَهِيدٌ مُثَابٌ ، وَهُوَ عَلَى حَقٍّ وَاجْتِهَادٍ ، وَالصَّحَابَةُ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ يَزِيدَ عَلَى حَقٍّ أَيْضًا وَاجْتِهَادٍ .

وَقَدْ غَلِطَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ الْمَالِكِيُّ فِي هَذَا فَقَالَ فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ « بِالْعَوَاصِمِ وَالْقَوَاصِمِ » مَا مَعْنَاهُ : إِنَّ الْحُسَيْنَ قُتِلَ بِشَرْعِ جَدِّهِ ، وَهُوَ غَلَطٌ . حَمَلَتْهُ عَلَيْهِ الْغَفْلَةُ عن اشتراطِ الْإِمَامِ الْعَادِلِ ، وَمَنْ أَعْدَلُ مِنَ الْحُسَيْنِ فِي زَمَانِهِ فِي إِمَامَتِهِ وَعَدَالَتِهِ فِي قِتَالِ أَهْلِ الْآرَاءِ ؟!

وَأَمَّا ابْنُ الزُّبَيْرِ فَإِنَّهُ رَأَى فِي قِيَامِهِ مَا رَآهُ الْحُسَيْنُ ، وَظَنَّ كَمَا ظَنَّ ، وَغَلَطُهُ فِي أَمْرِ الشَّوْكَةِ أَعْظَمُ . لِأَنَّ بَنِي أَسَدٍ لَا يُقَاوِمُونَ بَنِي أُمَيَّةَ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ . وَالْقَوْلُ بِتَعَيُّنِ الْخَطَأِ فِي جِهَةِ مُعَاوِيَةَ مَعَ عَلِيٍّ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ ، لِأَنَّ الْإِجْمَاعَ هُنَالِكَ قَضَى لَنَا بِهِ ، وَلَمْ نَجِدْهُ هَا هُنَا . وَأَمَّا يَزِيدُ فَعَيَّنَ خَطَأَهُ فِسْقُهُ . وَعَبْدُ الْمَلِكِ صَاحِبُ ابْنِ الزُّبَيْرِ أَعْظَمُ النَّاسِ عَدَالَةً ، وَنَاهِيكَ بِعَدَالَتِهِ احْتِجَاجُ مَالِكٍ بِفِعْلِهِ . وَعُدُولُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ إِلَى بَيْعَتِهِ عَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ وهم معه بالحجاز ، مع أن الكثير من الصحابة كانوا يرون أن بيعة ابن الزبير لَمْ تَنْعَقِدْ لِأَنَّهُ لَمْ يَحْضُرْهَا أَهْلُ الْعَقْدِ وَالْحَلِّ كَبَيْعَةِ مَرْوَانَ . وَابْنُ الزُّبَيْرِ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ ، وَالْكُلُّ مُجْتَهِدُونَ مَحْمُولُونَ عَلَى الْحَقِّ فِي الظَّاهِرِ وَإِنْ لَمْ يَتَعَيَّنْ فِي جهة مِنْهُمَا ، وَالْقَتْلُ الَّذِي نَزَلَ بِهِ بَعْدَ تَقْرِيرِ مَا قَرَّرْنَاهُ يَجِيءُ عَلَى قَوَاعِدِ الْفِقْهِ وَقَوَانِينِهِ ، مَعَ أَنَّهُ شَهِيدٌ مُثَابٌ بِاعْتِبَارِ قَصْدِهِ وَتَحَرِّيهِ الْحَقَّ .

هَذَا هُوَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ أَفْعَالَ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ ، فَهُمْ خِيَارُ الْأُمَّةِ . وَإِذَا جَعَلْنَاهُمْ عُرْضَةً لِلْقَدْحِ فَمَنِ الَّذِي يَخْتَصُّ بِالْعَدَالَةِ ؟ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ « خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي . ثُمَّ الَّذِينَ يلونهم مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ، ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ » فَجَعَلَ الْخِيرَةَ وَهِيَ الْعَدَالَةُ مُخْتَصَّةً بِالْقَرْنِ الْأَوَّلِ ، وَالَّذِي يَلِيهِ . فَإِيَّاكَ أَنْ تُعَوِّدَ نَفْسَكَ أَوْ لِسَانَكَ التَّعَرُّضَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ ،

---

(١) اى كما يقيم القاضى الشافعى او المالكى الحد على حنفى شرب النبيذ ، مع أن الحنفى يرى جواز شربه ، لان القاضى لا يرى ذلك فيعمل برأيه واجتهاده .

ولا يُشَوِّشْ قَلْبَكَ بالرَّيْبِ فى شَىْءٍ مِمَّا وقع منهم والتمِسْ لَهُمْ مذاهِبَ الحقِّ وطُرُقَهُ ما استطعْتَ، فهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بذلِكَ، وما اختلفوا إلا عن بيِّنة. وما قاتلوا أو قُتلوا إلا فى سبيلِ جهاد، أو إظهارِ حقٍّ، واعتقِدْ مع ذلِكَ، أنَّ اختلافَهُمْ رحمةٌ لِمنْ بعْدهُمْ من الأُمَّةِ، لِيقْتدِى كُلُّ واحِد بمنْ يَخْتارُهُ مِنهُمْ إمامَهُ وهادِيَهُ ودليلَهُ. فافهَمْ ذلِكَ، وتبيَّنْ حِكْمَةَ اللهِ فى خَلْقِهِ وأكْوانِهِ، واعْلَمْ أنَّهُ علَى كُلِّ شىْءٍ قَديرٌ، وإليْهِ الملْجأُ والمصِيرُ. واللهُ تعالَى أعْلَمُ.

الفصل الحادى والثلاثون

فى الخطط الدينية الخلافية

لَمَّا تبيَّن أنَّ حقيقَةَ الخلافَةِ نيابةٌ عنْ صاحِبِ الشَّرْعِ فى حِفْظِ الدِّينِ وسِياسةِ الدُّنْيا، فصاحِبُ الشَّرْعِ مُتصرِّفٌ فى الأمْرَيْنِ: أمَّا فى الدِّينِ فبِمُقْتضَى التَّكاليفِ الشَّرْعِيَّةِ، الَّذى هُوَ مأمُورٌ بتبْليغِها، وحمْلِ النَّاسِ عليْها؛ وأمَّا سِياسةُ الدُّنْيا فَبِمُقْتَضى رِعايتِهِ لِمصالِحِهِمْ فى العُمْرانِ البَشرىِّ. وقدْ قدَّمْنا أنَّ هذا العُمْرانَ ضَرُورِىٌّ لِلْبشرِ، وأنَّ رِعاية مصالِحِهِ كذلِكَ، لِئَلَّا يفْسُد إنْ أُهْمِلتْ، وقدمْنا أن المُلْكَ وسَطْوَتَهُ كان فى حصول هذه المصالِحِ. نعمْ إنَّما تكون أكمل، إذا كانت بالأحْكامِ الشَّرْعيَّةِ لأنَّهُ أعْلَمُ بهذِهِ المصالِحِ، فقَدْ صار المُلْكُ يندرجُ تحْتَ الخلافةِ إذا كانَ إسْلاميًّا، ويكونُ منْ توابِعِها. وقدْ ينفرِدُ إذا كان فى غيْرِ المِلَّةِ. ولَهُ على كُلِّ حال مراتِبُ خادِمةٌ ووظائِفُ تابِعةٌ، تتعيَّنُ خطَطًا، وتتوزَّعُ على رِجالِ الدَّوْلَةِ وظائِفَ، فيقُومُ كُلٌّ واحِد بوظيفَتِهِ، حسْبما يُعيِّنُهُ المِلِكُ الَّذى تكونُ يدُهُ عالية عليهِمْ، فيتِمُّ بذلِكَ أمْرُهُ ويحْسُنُ قيامه بسُلْطانِهِ. وأمَّا المنْصِبُ الخِلافِيُّ، وإنْ كانَ المُلْكُ يندرِجُ تحْتَهُ بِهذا الاعْتبارِ الَّذى ذكَرْناهُ، فتصرُّفُهُ الدِّينى يخْتص بخُطَط. ومراتِبَ لا تُعْرفُ إلَّا لِلْخُلفاءِ الإسْلاميِّينَ فلْنذْكُر الآنَ الخطَطَ الدِّينيَّةَ المُخْتصَّةَ بالخلافةِ، ونرْجِعُ إلَى الخطَطِ المُلُوكيَّةِ السُّلْطانيَّةِ.

فاعْلَمْ أنَّ الخُطَطَ الدِّينيَّةَ الشَّرْعيَّةَ، من الصَّلاةِ والفُتْيا والقضاءِ والجِهادِ والحِسْبةِ كُلُّها مُنْدرجةٌ تحْتَ الإمامةِ الكُبْرى الَّتى هِى الخلافةُ. فكأنَّها الإمامُ الكبيرُ، والأصْلُ الجامعُ، وهذِهِ كُلُّها مُتفرِّعةٌ عنْها، وداخِلةٌ فيها لِعُمومِ نظَرِ الخِلافةِ، وتصرُّفها فى سائِرِ أحْوالِ المِلَّةِ الدِّينيَّةِ والدُّنْيويَّةِ، وتنْفيذِ أحْكامِ الشَّرْعِ فيها على العُمومِ.

(فأمَّا إمامةُ الصَّلاةِ) فهِى أرْفعُ هذِهِ الخُطَطِ كُلِّها، وأرْفعُ من المُلْكِ بخُصوصِهِ المُنْدرج معها تحْتَ الخلافةِ. ولقدْ يشْهدُ لِذلِكَ اسْتِدْلالُ الصَّحابةِ فى شأنِ أبى بكْرٍ رضى اللهُ عنْهُ باسْتِخْلافِهِ فى الصَّلاةِ على اسْتخْلافِهِ فى السِّياسةِ فى قوْلِهِمْ: ارْتضاهُ رسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّم لِدِينِنا، أفلا نرْضاهُ لِدُنْيانا؟ فلوْلا أنَّ الصَّلاةَ أرْفعُ من السِّياسةِ لما صحَّ القياسُ. وإذا ثبتَ ذلِكَ، فاعْلَمْ أنَّ المساجِدَ فى المدينةِ صِنْفانِ: مساجِدُ عظيمةٌ، كثيرةُ الغاشيةِ[1] مُعدَّةٌ لِلصلواتِ المشْهودةِ، وأُخْرى دونَها مُخْتصَّةٌ بقوْمٍ أوْ محلَّة، ولَيْستْ لِلصلواتِ العامَّةِ.

(١) من يغشونها من المصلين.

فَأَمَّا الْمساجدُ العظيمةُ ، فَأَمْرُها راجعٌ إِلَى الْخَلِيفَةِ ، أَوْمَنْ يُفَوِّضُ إِلَيْهِ ، مِنْ سُلْطَانٍ أَوْمِن وزيرٍ أَوْقَاضٍ ، فَيَنْصِبُ لَهَا الإِمامُ فى الصَّلَواتِ الْخَمْسِ والْجُمْعةِ والْعِيدَيْنِ والْخُسُوفَيْنِ والاسْتِسْقَاء . وتَعيُّنُ ذَلِكَ إِنَّما هُو مِنْ طَرِيقِ الأَوْلَى والاسْتِحْسانِ ، ولِئَلاَّ يفْتَاتَ الرِّعايا علَيْهِ فى شَىْء مِن النَّظَرِ ، فى الْمصالِحِ الْعامَّةِ . وقَدْ يقولُ بِالْوُجُوبِ فى ذَلِكَ مَنْ يقولُ بِوُجُوبِ إِقامةِ الْجُمْعةِ ، فَيكُونُ نَصْبُ الإِمامِ لَهَا عِنْدَهُ واجبًا . وأَمَّا الْمساجِدُ الْمُخْتَصَّةُ بِقَوْمٍ أَوْمحلَّةٍ فَأَمْرُها راجعٌ إِلَى الْجِيرانِ ، ولاَ تَحْتَاجُ إِلَى نَظَرِ خَلِيفَةٍ ولاَ سُلْطَانٍ . وأَحْكَامُ هَذِهِ الْوِلاَيةِ ، وشُروطِهَا وَالْمُوَلَّى فيها مَعْرُوفَةٌ فى كُتُبِ الْفِقْهِ ومبْسُوطَةٌ فى كُتُبِ الأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ لِلْماوَرْدِىِّ وغَيْرِهِ ، فَلاَ نُطَوِّلُ بِذِكْرِها .

ولَقَدْ كَانَ الْخُلَفَاءُ الأَوَّلُونَ لاَ يُقَلِّدُونَهالِغَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ ، وانْظُرْ مَنْ طُعِنَ مِن الْخُلَفَاء فى الْمَسْجِدِ عِنْد الأَذَانِ بِالصَّلاَةِ ، وتَرصُّدهُمْ لِذَلِكَ فى أَوْقَاتِهَا ، يشْهَدُ لَكَ ذَلِكَ بِمُباشَرتِهِمْ لَهَا ، وأَنَّهم لَمْ يكُونُوا مُسْتَخْلِفِين فِيهَا . وكَذَا رِجالُ الدَّوْلَةِ الأُمَوِيَّةِ مِنْ بعْدِهِمِ اسْتِئْثارًا بِهَا واسْتِعْظَامًا لِرُتْبَتِهَا . يُحْكَى عنْ عبْدِ الْملِكِ أَنَّهُ قَال لِحاجِبِهِ ، قَدْ جعلْتُ لَكَ حجابةَ بابِى إِلاَّ عنْ ثَلاثَة : صاحِب الطَّعام فَإِنَّهُ يفْسُدُ بِالتَّأْخِيرِ ، والأَذَانِ بِالصَّلاةِ فَإِنَّهُ داعٍ إِلَى الله ، والْبرِيدِ فَإِنَّ فى تَأْخِيرِهِ فَساد الْقَاصِيةِ .

فَلَمَّا جاءَتْ طَبِيعةُ الْملْكِ وعوارِضُهُ مِن الْغِلْظَةِ ، والتَّرفُّعِ عنْ مُساواةِ النَّاسِ فى دِينِهِمْ ودُنْياهُمْ اسْتَنَابُوا فى الصَّلاةِ فَكَانُوا . يسْتَأْثِرُونَ بِهَا فى الأَحْيانِ ، وفى الصَّلَواتِ الْعامَّةِ ، كَالْعِيدَيْنِ والْجُمْعةِ إِشارةً وتَنْوِيهًا . فَعل ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ خُلَفَاء بنِى الْعبَّاسِ ، والْعُبيْدِيِّين صدْر دوْلَتِهِمْ .

(وأَمَّا الْفُتْيا) فَلِلْخَلِيفَةِ تَصفُّحُ أَهْلِ الْعِلْمِ والتَّدْرِيسِ ، وردُّ الْفُتْيا إِلَى منْ هُو أَهْلٌ لَهَا وإِعانَتُهُ علَى ذَلِكَ ومنْعُ منْ لَيْس أَهْلاً لَهَا وزَجْرُهُ لأَنَّهَا مِنْ مصالِحِ الْمُسْلِمِين فى أَدْيانِهِمْ ، فَتَجِبُ علَيْهِ مُراعاتُهَا لِئَلاَّ يتَعرَّض لِذَلِكَ منْ لَيْس لَهُ بِأَهْلٍ فَيُضِلَّ النَّاس ، ولِلْمُدرِّسِ الانْتِصابُ لِتَعْلِيمِ الْعِلْمِ وبثِّهِ والْجُلُوسُ لِذَلِكَ فى الْمساجِدِ ، فَإِنْ كَانَتْ مِن الْمساجِدِ الْعِظَامِ الَّتى لِلسُّلْطَانِ الْوِلاَيةُ علَيْهَا والنَّظَرُ فى أَئِمَّتِهَا كَما مرَّ فَلاَبُدَّ مِنِ اسْتِئْذَانِهِ فى ذَلِكَ ، وإِنْ كَانَتْ مِنْ مساجِدِ الْعامَّةِ ، فَلا يتَوقَّفُ ذَلِكَ علَى إِذْنٍ . علَى أَنَّهُ ينْبغِى أَنْ لِكُلِّ أَحد مِن الْمُفْتِين والْمُدرِّسِين زَاجِرٌ مِنْ نَفْسِهِ ، يمْنَعُهُ عنِ التَّصدِّى لِما لَيْس لَهُ بِأَهْلٍ فَيُضِلُّ بِهِ الْمُسْتَهْدِى ويضِلُّ بِهِ الْمُسْتَرْشِدُ . وفى الأَثَرِ : «أَجْرأُكُمْ علَى الْفُتْيا ، أَجْرأُكُمْ علَى جراثِيمِ جهَنَّم » . فَلِلسُّلْطَانِ فِيهِمْ لِذَلِكَ مِن النَّظَرِ ما تُوجِبُهُ الْمصْلَحةُ مِنْ إِجازَةٍ أَوْردٍّ .

(وأَمَّا الْقَضَاء) فَهُو مِن الْوظَائِفِ الدَّاخِلَةِ تَحْتَ الْخِلاَفَةِ لأَنَّهُ منْصِبُ الْفَصْلِ بيْن النَّاسِ فى الْخُصُوماتِ حسْمًا لِلتَّداعِى وقَطْعًا لِلتَّنَازُعِ . إِلاَّ أَنَّهُ بِالأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْمُتَلَقَّاةِ من الْكِتَابِ والسُّنَّةِ . فَكَانَ لِذَلِكَ مِنْ وظَائِفِ الْخِلاَفَةِ ، ومُنْدرِجًا فى عُمُومِهَا

وكانَ الْخُلَفَاءُ فى صدْرِ الإِسْلَامِ يُباشِرُونَهُ بِأَنْفُسِهِمْ، ولَا يجعلونَ الْقَضَاء إِلَى منْ سِواهُمْ. وأوَّلُ منْ دفعهُ إِلَى غَيْرِهِ وفوَّضَهُ فيهِ عُمرُ رضِىَ اللهُ عنْهُ فَولَّى أبا الدَّرْداء معهُ بِالْمدِينَةِ، وولَّى شُرَيْحًا بالْبصْرةِ، وولَّى أبا موسى الأَشْعرِىَّ بِالْكوفَةِ وكَتَبَ لَهُ فى ذَٰلِكَ الْكِتَابَ الْمَشْهورَ الَّذى تَدُورُ علَيْهِ أَحْكَامُ الْقُضَاةِ، وهى مُسْتَوْفَاةٌ فيهِ يقولُ: «أمَّا بعْدُ، فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ، وسُنَّةٌ متَّبعةٌ، فَافْهمْ إِذَا أُدْلِىَ إِلَيْكَ (وأَنْفِذْ إِذا تبيَّنَ لَكَ)(١) فَإِنَّهُ لَا ينْفَعُ تكَلُّمٌ بِحقٍّ لَانفاذَ لَهُ. وآسِ(٢) بيْنَ النَّاسِ فى وجْهِكَ ومجْلِسِكَ وعدْلِكَ حتَّى لَايطْمعَ شَرِيفٌ فى حيْفِكَ، ولَا ييْأَسَ ضَعِيفٌ مِنْ عدْلِكَ. الْبيِّنَةُ على منِ ادعى، والْيمِينُ علَى منْ أنْكَر. والصُّلْحُ جائِزٌ بيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا صُلْحًا أحلَّ حرامًا أوْ حرَّم حلالاً. ولَا يمْنعْكَ قَضَاءٌ قَضَيْتَهُ أمْسِ فراجعْتَ الْيوْمَ فيهِ عقْلَكَ، وهُدِيتَ فِيهِ لِرُشْدِكَ، أنْ ترْجعَ إِلَى الْحقِّ فَإِنَّ الْحقَّ قدِيمٌ ومُراجعةُ الْحقِّ خيْرٌ مِنَ التَّمادِى فى الْباطِلِ. الْفَهْمَ الْفَهْمَ فيما يتلَجْلَجُ فى صدْرِكَ مِمَّا لَيْسَ فى كِتَابٍ ولَا سُنَّةٍ. ثُمَّ اعرِفِ الْأَمْثَالَ والْأَشْباهَ وقِسِ الْأُمُورَ بِنَظَائِرِها. واجْعلْ لِمنِ ادعى حقًّا غائِبًا أوْ بيِّنةً أمَدًا ينْتَهِى إِلَيْهِ، فَإِنْ أحْضر بيِّنَتَهُ، أخذْتَ لَهُ بِحقِّهِ، وإِلَّا اسْتَحْلَلْتَ الْقَضَاءَ علَيْهِ، فَإِنَّ ذَٰلِكَ أنْفَى لِلشَّكِّ، وأجْلَى لِلْعَمَى. الْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بعْضُهُمْ علَى بعْضٍ إِلَّا مجْلُودًا فى حدٍّ أوْ مُجرَّبًا علَيْهِ شَهادَةُ زُورٍ، أوْ ظَنِينًا فى نَسبٍ أوْ ولَاءٍ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ عفَا عنِ الْأَيْمانِ(١) ودرأ بِالْبيِّناتِ. وإِيَّاكَ والْقَلَقَ والضَّجَرَ والتَّأفُّفَ بِالْخُصُومِ، فَإِنَّ اسْتِقْرارَ الْحقِّ فى موَاطِنِ الْحقِّ، يُعَظِّمُ اللهُ بِهِ الْأَجْرَ، ويُحْسِنُ بِهِ الذِّكْرَ والسَّلَامُ.» انْتهى كِتَابُ عُمَرَ.

وإِنَّمَا كَانُوا يُقَلِّدُونَ الْقَضَاءَ لِغَيْرِهِمْ وإِنْ كَانَ مِمَّا يتَعلَّقُ بِهِمْ لِقِيامِهِمْ بِالسِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ، وكَثْرَةِ أَشْغَالِهَا مِنَ الْجِهادِ والْفُتُوحاتِ وسَدِّ الثُّغُورِ وحِمايَةِ الْبَيْضَةِ(٢) ولَمْ يكُنْ ذَٰلِكَ مِمَّا يقُومُ بِهِ غيْرُهُمْ لِعِظَمِ الْعِنايَةِ فَاسْتَخَفُّوا الْقَضَاءَ فى الْوَاقِعَاتِ بيْنَ النَّاسِ واسْتَخْلَفُوا فيهِ منْ يقُومُ بِهِ تخْفِيفًا علَى أنْفُسِهِمْ. وكَانُوا مَعَ ذَٰلِكَ إِنَّمَا يُقَلِّدُونَهُ أَهْلَ عَصَبِيَّتِهِمْ بِالنَّسَبِ أوِ الْوَلَاءِ، ولَا يُقَلِّدُونَهُ لِمَنْ بَعُدَ عَنْهُمْ فى ذَٰلِكَ.

وأمَّا أحكَامُ هَذَا الْمَنْصِبِ وشُرُوطُه، فَمعْرُوفَةٌ فى كُتُبِ الْفِقْهِ وخُصُوصًا كُتُبَ الْأَحكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ. إِلَّا أَنَّ الْقَاضِىَ إِنَّما كَانَ لَهُ فى عصرِ الْخُلَفَاءِ الْفَصْلُ بيْنَ الْخُصُومِ فَقَطْ. ثُمَّ دُفِعَ لَهُم بعد ذَٰلِكَ أُمُورٌ أُخْرى علَى التَّدرِيجِ، بِحسبِ اشْتِغَالِ الْخُلَفَاءِ والْمُلُوكِ بِالسِّياسةِ الْكُبرى. واسْتَقَرَّ منْصِبُ الْقَضاءِ آخِرَ الْأَمْرِ علَى أَنَّهُ يَجْمعُ مع الْفَصْلِ بينَ الْخُصُومِ

(١) ما بين المعقوفتين زيادة من رواية ابن القيم فى «اعلام الموقعين» عن منشورة د. على عبد الواحد وافى. انظر هامش ص ٧٣٨ ففيه تعليق له أهميته حول كتاب عمر وهل هو صحيح أم موضوع».

(٢) سو بينهم فى وجهك؟ بمعنى لا تهش لأحد الخصمين وتعبس فى وجه الآخر فليس هذا من العدل.

(١) «فى رواية ابن القيم: «فان الله تعالى تولى من العباد السرائر وستر عليهم الحدود إلا بالبينات والأيمان».

(٢) حماية أرض البلاد وما تشتمل عليه.

استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه وفي وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويج الأيامى عند فقد الأولياء على رأى من رآه، والنظر في مصالح الطرقات والأبنية، وتصفح الشهود والأمناء والنواب واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح [1]، ليحصل له الوثوق بهم. وصارت هذه كلها من تعلقات وظيفته، وتوابع ولايته.

وقد كان الخلفاء من قبل يجعلون للقاضى النظر في المظالم، وهي وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين، وتزجر المتعدى. وكأنه يمضى ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه. ويكون نظره في البينات والتعزير، واعتماد الأمارات والقرائن، وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق، وحمل الخصمين على الصلح، واستحلاف الشهود. وذلك أوسع من نظر القاضى.

وكان الخلفاء الأولون يباشرونها بأنفسهم إلى أيام المهتدى من بنى العباس. وربما كانوا يجعلونها لقضاتهم، كما فعل عمر رضى الله عنه مع قاضيه أبى أدريس الخولانى، وكما فعله المأمون ليحيى بن أكثم، والمعتصم لأحمد بن أبى دؤاد. وربما كانوا يجعلون للقاضى قيادة الجهاد في عساكر الطوائف [2]. وكان يحيى بن أكثم يخرج أيام المأمون بالطائفة [1] إلى أرض الروم، وكذا منذر بن سعيد قاضى عبد الرحمن الناصر من بنى أمية بالأندلس. فكانت تولية هذه الوظائف، إنما تكون للخلفاء، أو من يجعلون ذلك له من وزير مفوض أو سلطان متغلب.

وكان أيضا النظر في الجرائم، وإقامة الحدود في الدولة العباسية والأموية بالأندلس والعبيديين بمصر والمغرب، راجعا إلى صاحب الشرطة. وهي وظيفة أخرى دينية كانت من الوظائف الشرعية في تلك الدول، توسع النظر فيها عن أحكام القضاء قليلا فيجعل للتهمة في الحكم مجالا، ويفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم، ويقيم الحدود الثابتة في محالها ويحكم في القود والقصاص ويقيم التعزير [2] والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة.

ثم تنوسى شأن هاتين الوظيفتين في الدول التى تنوسى فيها أمر الخلافة فصار أمر المظالم راجعا إلى السلطان، كان له تفويض من الخليفة أو لم يكن. وانقسمت وظيفة الشرطة قسمين: منها وظيفة التهمة على الجرائم وإقامة حدودها ومباشرة القطع والقصاص حيث يتعين، ونصب لذلك في هذه الدول حاكم يحكم فيها بموجب السياسة دون مراجعة الأحكام الشرعية، ويسمى تارة باسم الوالى، وتارة باسم الشرطة؛ وبقى قسم التعازير وإقامة الحدود في الجرائم الثابتة شرعا، فجمع ذلك للقاضى مع ما تقدم وصار

---

(١) ما يؤثر في عدالة الشاهد ويسقط شهادته.

(٢) يرجع د. واى أنها محرفة عن الصوائف جمع صائفة وهى الغزوة في الصيف.

(١) انظر التعليق السابق.

(٢) عقوبة يترك القاضى تقديرها حسب حجم الجريمة وظروفها.

ذلك من توابع وظيفة ولايته، واستقر الأمر لهذا العهد على ذلك، وخرجت هذه الوظيفة عن أهل عصبية الدولة، لأن الأمر لما كان خلافة دينية، وهذه الخطة من مراسم الدين فكانوا لا يولّون فيها إلا من أهل عصبيتهم من العرب ومواليهم بالحلف أو بالرق أو بالاصطناع، ممن يوثق بكفايته أو غنائه، فيما يدفع إليه. ولما انقرض شأن الخلافة وطورها وصار الأمر كله ملكا أو سلطانا، صارت هذه الخطط الدينية بعيدة عنه بعض الشيء لأنها ليست من ألقاب الملك ولا مراسمه. ثم خرج الأمر جملة من العرب، وصار الملك لسواهم من أمم الترك والبربر، فازدادت هذه الخطط الخلافية بعدا عنهم، بمنحاها وعصبيتها. وذلك أن العرب كانوا يرون أن الشريعة دينهم، وأن النبى صلى الله عليه وسلم منهم وأحكامه وشرائعه نحلتهم بين الأمم وطريقهم، وغيرهم لا يرون ذلك، إنما يولونها جانبا من التعظيم، لما دانوا بالملة فقط. فصاروا يقلدونها من غير عصابتهم ممن كان تأهل لها فى دول الخلفاء السالفة.

وكان أولئك المتأهلون بما أخذهم ترف الدول منذ مئتين من السنين قد نسوا عهد البداوة وخشونتها والتبسوا بالحضارة فى عوائد ترفهم ودعتهم، وقلة الممانعة عن أنفسهم، وصارت هذه الخطط فى الدول الملوكية من بعد الخلفاء مختصة بهذا الصنف من المستضعفين فى أهل الأمصار، ونزل أهلها عن مراتب العز، لفقد الأهلية بأنسابهم، وما هم عليه من الحضارة، فلحقهم من الاحتقار ما لحق الحضر المنغمسين فى الترف والدعة البعداء عن عصبية الملك الذين هم عيال على الحامية، وصار اعتبارهم فى الدولة من أجل قيامها بالملة، وأخذها بأحكام الشريعة لما أنهم الحاملون للأحكام المقتدون بها. ولم يكن إيثارهم فى الدولة حينئذ إكراما لذواتهم، وإنما هو لما يتلمح من التجمل بمكانهم فى مجالس الملك لتعظيم الرتب الشرعية، ولم يكن لهم فيها من الحل والعقد شىء، وإن حضروه فحضور رسمى، لاحقيقة وراءه. إذ حقيقة الحل والعقد إنما هى لأهل القدرة عليه. فمن لا قدرة له عليه فلا حل له ولا عقد لديه، اللهم إلا أخذ الأحكام الشرعية عنهم، وتلقى الفتاوى منهم، فنعم والله الموفق، وربما يظن بعض الناس أن الحق فيما وراء ذلك، وأن فعل الملوك فيما فعلوه من إخراج الفقهاء والقضاة من الشورى مرجوح، وقد قال صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الأنبياء. فاعلم أن ذلك ليس كما ظنه. وحكم الملك والسلطان إنما يجرى على ما تقتضيه طبيعة العمران وإلا كان بعيدا عن السياسة. فطبيعة العمران فى هؤلاء لا تقتضى لهم شيئا من ذلك، لأن الشورى والحل والعقد لا تكون إلا لصاحب عصبية يقتدر بها على حل أو عقد أو فعل أو ترك. وأما من لا عصبية له ولا يملك من أمر نفسه شيئا ولا من حمايتها إنما هو عيال على غيره، فأى مدخل له فى الشورى أو أى معنى يدعو إلى

اعتبارِه فيها . اللهمّ إلّا شوراهُ فيما يعلَمُهُ من الأحكامِ الشرعيّةِ ، فموجودةٌ فى الاستفتاءِ خاصّةً ؛ وأمّا شوراهُ فى السياسةِ ، فهو بعيدٌ عنها لِفُقدانِهِ العَصبيّةَ والقيامِ على معرفةِ أحوالها وأحكامِها . وإنّما إكرامُهم من تبرّعاتِ المُلوكِ والأمراءِ ، الشاهِدةِ لهم بجميلِ الاعتقادِ فى الدينِ وتعظيمِ من ينتسِبُ إليهِ بأىِّ جهةٍ انتسب

وأمّا قولُهُ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم العُلماءُ ورثةُ الأنبياءِ فاعلم أنّ الفُقهاءَ فى الأغلبِ لهذا العهدِ وما احتفَّ بهِ إنّما حمّلوا الشريعةَ أقوالاً فى كيفيّةِ الأعمالِ فى العباداتِ وكيفيّةِ القضاءِ فى المُعاملاتِ ينصُّونها على من يحتاجُ إلى العملِ بها . هذهِ غايةُ أكابرِهم ، ولا يتّصفونَ إلّا بالأقلِّ منها وفى بعضِ الأحوالِ . والسّلفُ رضوانُ اللهِ عليهِم وأهلُ الدّينِ والورعِ مِن المُسلمين حملوا الشّريعةَ اتّصافًا بها وتحقّقًا بمذاهبِها . فمن حملها اتّصافًا وتحقّقًا دونَ نقلٍ فهو من الوارثين مثلِ أهلِ رسالةِ القُشيرى . ومنِ اجتمعَ لهُ الأمرانِ فهو العالِمُ ، وهو الوارثُ على الحقيقةِ مثلِ فُقهاءِ التابعين والسّلفِ والأئمّةِ الأربعةِ ومنِ اقتفى طريقَهم وجاء على أثرِهم

وإذا انفرد واحدٌ من الأمّةِ بأحدِ الأمرينِ فالعابدُ أحقُّ بالوراثةِ من الفقيهِ الّذى ليس بعابدٍ لأنّ العابدَ ورثَ بصفةٍ والفقيهُ الّذى ليس بعابدٍ لم يرثْ شيئًا ، إنّما هو صاحبُ أقوالٍ ينصُّها علينا فى كيفيّاتِ العملِ . وهؤلاء أكثرُ فُقهاءِ عصرِنا « إلّا الّذينَ آمنُوا وعمِلُوا الصّالِحاتِ وقليلٌ ما هُم » (١) .

(العدالة) :

وهى وظيفةٌ دينيّةٌ تابعةٌ لِلقضاءِ ، ومِنْ موادِّ تصريفِهِ . وحقيقةُ هذهِ الوظيفةِ القيامُ عن إذنِ القاضى بالشّهادةِ بينَ النّاسِ فيما لهُمْ وعليهِمْ تحمُّلاً عِندَ الإشهادِ وأداءً عِندَ التّنازُعِ وكَتْبًا فى السّجلّاتِ تُحفَظُ بهِ حُقوقُ النّاسِ وأملاكُهُم وديونُهُم وسائرُ معاملاتِهِم . وشرطُ هذهِ الوظيفةِ الاتّصافُ بالعدالةِ الشّرعيّةِ ، والبراءةُ منَ الجرحِ ثُمّ القيامُ بكتبِ السّجلّاتِ ، والعُقودِ من جهةِ إحكامِ شُروطِها الشّرعيّةِ وعُقودِها فيحتاجُ حينئذٍ إلى ما يتعلّقُ بذلكَ ، من الفِقهِ ، ولأجلِ هذهِ الشُّروطِ ، وما يحتاجُ إليهِ من المِرانِ (٢) على ذلكَ ، والمُمارسةِ لهُ اختصَّ ذلكَ ببعضِ العُدولِ ، وصار الصِّنفُ القائمونَ بهِ كأنّهُمْ مُختصّونَ بالعدالةِ وليسَ كذلكَ . وإنّما العدالةُ مِنْ شُروطِ اختصاصِهِمْ بالوظيفةِ .

ويجبُ علَى القاضى تصفُّحُ أحوالِهِمْ ، والكشفُ عنْ سِيَرِهِمْ ، رِعايةً لِشرطِ العدالةِ فيهِمْ ، وأنْ لا يُهمِلَ ذلكَ لِما يتعيّنُ عليهِ مِنْ حفظِ حُقوقِ النّاسِ . فالعُهدةُ عليهِ فى ذلكَ كُلِّهِ ، وهُو ضامنُ دَرَكِهِ (٣) .

إذا تعيّنَ هؤلاءِ لهذهِ الوظيفةِ عمّتِ الفائدةُ فى تعيينِ مَنْ تخفى عدالتُهُ على القُضاةِ بِسببِ

---

(١) من الآية : ٢٤ من سورة ص .

(٢) المران بكسر الميم التمرن والاعتياد على الشىء .

(٣) ضامن تبعته .

اتساع الأمصار واشتباه الأحوال، واضطرار القضاة إلى الفصل بين المتنازعين بالبينات الموثوقة، فيعولون غالبا في الوثوق بها على هذا الصنف. ولهم في سائر الأمصار دكاكين ومصاطب يختصون بالجلوس عليها، فيتعاهدهم أصحاب المعاملات للإشهاد وتقييده بالكتاب. وصار مدلول هذه اللفظة مشتركا بين هذه الوظيفة، التي تبين مدلولها، وبين العدالة الشرعية التي هي أخت الجرح. وقد يتواردان ويفترقان. والله تعالى أعلم.

الحسبة والسكة

(أما الحسبة) فهي وظيفة دينية، من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين، يعين لذلك من يراه أهلا له، فيتعين فرضه عليه، ويتخذ الأعوان على ذلك، ويبحث عن المنكرات، ويعزر ويؤدب على قدرها ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط. بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة، والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ [1] في ضربهم للصبيان المتعلمين. ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء، بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه، وليس له إمضاء الحكم في الدعاوى مطلقا، بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها في المكاييل والموازين، وله أيضا حمل المماطلين على الإنصاف، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة، ولا إنفاذ حكم. وكأنها أحكام ينزه القاضي عنها لعمومها وسهولة أغراضها، فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها، فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء، وقد كانت في كثير من الدول الإسلامية. مثل العبيديين بمصر، والمغرب والأمويين بالأندلس، داخلة في عموم ولاية القاضي، يولى فيها باختياره. ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة، وصار نظره عاما في أمور السياسة، اندرجت في وظائف الملك، وأفردت بالولاية.

(وأما السكة) فهي النظر في النقود المتعامل بها بين الناس، وحفظها مما يداخلها من الغش أو النقص إن كان يتعامل بها عددا، أو ما يتعلق بذلك، ويوصل إليه من جميع الاعتبارات، ثم في وضع علامة السلطان على تلك النقود بالاستجادة والخلوص [1] برسم تلك العلامة فيها من خاتم حديد اتخذ لذلك، ونقش فيه نقوش خاصة به فيوضع على الدينار، بعد أن يقدر ويضرب عليه بالمطرقة، حتى ترسم فيه تلك النقوش، وتكون علامة على جودته بحسب الغاية التي وقف عندها السبك والتخليص في متعارف أهل القطر، ومذاهب الدولة الحاكمة.

فإن السبك والتخليص في النقود لا يقف عند غاية، وإنما ترجع غايته إلى الاجتهاد فإذا

---

(١) المبالغة فيه بما يفقد العقوبة غايتها.

(١) من التزييف والغش.

وَقف أَهْلُ أُفُقٍ، أَوْ قُطْرٍ عَلَى غَايَةٍ مِنَ التَّخْلِيص، وَقفوا عِنْدَهَا وَسَمَّوْهَا إِمَامًا وعِيَارًا يَعْتَبِرُونَ بِهِ نُقُودَهُمْ وَيَنْتَقِدُونَهَا بِمُمَاثَلَتِهِ. فَإِنْ نَقَصَ عَنْ ذَٰلِكَ كَانَ زَيْفًا.

وَالنَّظَرُ فِى ذَٰلِكَ كُلِّهِ لِصَاحِبِ هٰذِهِ الْوَظِيفَةِ، وَهِىَ دِينِيَّةٌ بِهٰذَا الاعْتِبَارِ، فَتَنْدَرِجُ تَحْتَ الْخِلَافَةِ، وَقَدْ كَانَتْ تَنْدَرِجُ فِى عُمُومِ وِلَايَةِ الْقَاضِى، ثُمَّ أُفْرِدَتْ لِهٰذَا الْعَهْدِ كَمَا وَقَعَ فِى الْحِسْبَةِ.

هٰذَا آخِرُ الْكَلَامِ فِى الْوَظَائِفِ الْخِلَافِيَّةِ، وَبَقِيَتْ مِنْهَا وَظَائِفُ ذَهَبَتْ بِذَهَابِ مَا يُنْظَرُ فِيهِ، وَأُخْرَى صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً.

فَوَظِيفَةُ الْإِمَارَةِ وَالْوِزَارَةِ وَالْحَرْبِ وَالْخَرَاجِ، صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً نَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا فِى أَمَاكِنِهَا بَعْدَ وَظِيفَةِ الْجِهَادِ.

وَوَظِيفَةُ الْجِهَادِ بَطَلَتْ بِبُطْلَانِهِ، إِلَّا فِى قَلِيلٍ مِنَ الدُّوَلِ يُمَارِسُونَهُ، وَيُدْرِجُونَ أَحْكَامَهُ غَالِبًا فِى السُّلْطَانِيَّاتِ.

وَكَذَا نِقَابَةُ الْأَنْسَابِ، الَّتِى يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى الْخِلَافَةِ أَوِ الْحَقِّ فِى بَيْتِ الْمَالِ، قَدْ بَطَلَتْ لِدُثُورِ الخلافة ورسومها، وبِالْجُمْلَةِ قَدِ انْدَرَجَتْ رُسُومُ الْخِلَافَةِ وَوَظَائِفُهَا فِى رُسُومِ الْمُلْكِ وَالسِّيَاسَةِ فِى سَائِرِ الدُّوَلِ، لِهٰذَا الْعَهْدِ. وَاللهُ مُصَرِّفُ الْأُمُورِ كَيْفَ يَشَاءُ.

الفصل الثانى والثلاثون

فى اللقب بأمير المؤمنين، وأنه من سمات الخلافة، وهو محدث منذ عهد الخلفاء.

وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَمَّا بُويِعَ أَبُو بَكْرٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ وَكَانَ الصَّحَابَةُ رَضِىَ اللهُ عَنْهم وَسَائِرُ الْمُسْلِمِينَ يُسَمُّونَه خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يَزَلِ الْأَمْرُ عَلَى ذٰلِكَ إِلَى أَنْ هَلَكَ. فَلَمَّا بُويِعَ لِعُمَرَ بِعَهْدِهِ إِلَيْهِ، كَانُوا يَدْعُونَهُ خَلِيفَةَ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَكَأَنَّهُمُ اسْتَثْقَلُوا هٰذَا اللَّقَبَ بِكَثْرَتِهِ وَطُولِ إِضَافَتِهِ، وَأَنَّهُ يَتَزَايَدُ فِيمَا بَعْدُ دَائِمًا، إِلَى أَنْ يَنْتَهِىَ إِلَى الْهُجْنَةِ [1]، وَيَذْهَبَ مِنْهُ التَّمْيِيزُ بِتَعَدُّدِ الْإِضَافَاتِ وَكَثْرَتِهَا فَلَا يُعْرَف فَكَانُوا يَعْدِلُونَ عَنْ هٰذَا اللَّقَبِ إِلَى مَا سِوَاهُ، مِمَّا يُنَاسِبُهُ وَيُدْعَى بِهِ مِثْلُهُ، وَكَانُوا يُسَمُّونَ قُوَّادَ بِاسْمِ الْأَمِيرِ، وَهُوَ فَعِيلٌ مِنَ الْإِمَارَةِ، وَقَدْ كَانَ الْجَاهِلِيَّةُ يَدْعُونَ النَّبِىَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمِيرَ مَكَّةَ، وَأَمِيرَ الْحِجَازِ، وَكَانَ الصَّحَابَةُ أَيْضًا يَدْعُونَ سَعْدَ بْنَ أَبِى وَقَّاصٍ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِإِمَارَتِهِ على جَيْشِ الْقَادِسِيَّةِ، وَهُمْ مُعْظَمُ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ.

واتَّفَقَ أَنْ دَعَا بَعْضُ الصَّحَابَةِ عُمَرَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَاسْتَحْسَنَهُ النَّاسُ، وَاسْتَصْوَبُوهُ وَدَعَوْهُ بِهِ. يُقَالُ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ دَعَاهُ بِذٰلِكَ عَبْدُ اللهِ بْنُ جَحْشٍ، وَقِيلَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، والْمُغِيرَةُ بنُ شُعبَةَ، وَقِيلَ: بَرِيدٌ جاءَ بِالْفَتْحِ مِنْ بَعْضِ الْبُعُوثِ، وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ، وَهُوَ يَسْأَلُ عَنْ عُمَرَ، وَيَقُولُ أَينَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ؟ وَسَمِعَهَا أَصْحَابُهُ فَاسْتَحْسَنُوهُ، وقَالُوا: أَصَبْتَ وَاللهِ اسْمَهُ، إِنَّهُ وَاللهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا. فَدَعَوْهُ بِذٰلِكَ، وَذَهَبَ لَقَبًا لَهُ فِى النَّاسِ، وَتَوَارَثَهُ الْخُلَفَاءُ مِنْ بَعْدِهِ، سِمَةً لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا احَدٌ سِوَاهُمْ سَائِرَ دَوْلَةِ بَنِى أُمَيَّةَ.

(١) الهجنة فى الكلام ما يعيبه.

ثُمَّ إنَّ الشيعةَ خَصُّوا عَلِيًّا بِاسْمِ الإمامِ نَعْتًا لَهُ بالإمامةِ ، التي هي أُختُ الخلافةِ ، وتَعْرِيضًا بِمَذْهَبِهِمْ ، في أنَّهُ أحقُّ بإمامةِ الصلاةِ مِنْ أبي بكرٍ لِمَا هو مَذْهَبُهُمْ وبِدْعَتُهُمْ فَخَصُّوهُ بِهذا اللقبِ ، ولِمَنْ يَسُوقُونَ إليهِ منصبَ الخلافةِ مِنْ بعدِهِ ، فكانوا كُلُّهُمْ يُسَمَّوْنَ بالإمامِ ، ما داموا يَدْعُونَ لَهُمْ في الخفاء ، حَتَّى إذا استولَوْا على الدَّوْلَةِ يُحوِّلُونَ اللقبَ فيما بعدَهُ إلى أميرِ المؤمنين ، كما فعلَهُ شيعةُ بني العبَّاسِ . فإنَّهُمْ ما زالوا يَدْعُونَ أئِمَّتَهُمْ بالإمامِ إلى إبراهيمَ الذي جَهَرُوا بالدُّعاء لَهُ ، وعَقَدُوا الرَّاياتِ لِلْحَرْبِ على أمْرِهِ . فلمَّا هَلَكَ ، دُعِيَ أخُوهُ السَّفَّاحُ بأميرِ المؤمنين ، وكذا الرَّافِضَةُ بأفْرِيقِيا . فإنَّهُمْ ما زالوا يَدْعُونَ أئِمَّتَهُمْ مِنْ وُلْدِ إسماعيلَ بالإمامِ ، حَتَّى انتهى الأمْرُ إلى عُبَيْدِ اللهِ المهدِيِّ ، وكانوا أيضًا يدعونَهُ بالإمامِ ، ولابنِهِ أبي القاسمِ مِنْ بعدِهِ . فلمَّا اسْتَوْثَقَ لَهُمُ الأمْرُ ، دَعَوْا مِنْ بعدِهِما بأميرِ المؤمنين . وكذا الأدارِسَةُ بالمغربِ ، كانوا يُلَقِّبُونَ إدريسَ بالإمامِ ، وابنَهُ إدريسَ الأصغرَ كذلِكَ . وهكذا شأنُهُمْ .

وتوارثَ الخُلَفاءُ هذا اللقبَ ، بأميرِ المؤمنين وجَعَلُوهُ سِمَةً لِمَنْ يَمْلِكُ الحجازَ والشَّامَ والعراقَ والمواطِنَ التي هي دِيارُ العربِ ومَراكِزُ الدَّوْلَةِ وأهْلُ المِلَّةِ والفَتْحِ . وازدادَ كذلِكَ في عُنْفُوانِ الدَّوْلَةِ وبَذْخِها لَقَبٌ آخَرُ لِلْخُلَفاءِ يتميَّزُ بِهِ بعضُهُمْ عَنْ بعضٍ ، لِما في أميرِ المؤمنين مِنَ الاشْتِراكِ بينَهُمْ ، فاسْتَحْدَثَ لِذلِكَ بنو العبَّاسِ حِجابًا لأسمائِهِمِ الأعلامِ عَنِ امتهانِها في ألسنةِ السُّوقةِ ، وصَوْنًا لَها عنِ الابتذالِ ، فتلقَّبوا بالسَّفَّاحِ ، والمَنْصُورِ ، والمَهْدِيِّ ، والهادِي ، والرَّشِيدِ ، إلى آخِرِ الدَّوْلَةِ .

واقتفى أثَرَهُمْ في ذلِكَ العُبَيْدِيُّونَ بأفْرِيقِيَّةَ ومِصْرَ .

وتجافَى بنو أُمَيَّةَ عن ذلِكَ : أمَّا بالمَشْرِقِ فجريا على الغَضاضةِ والسَّذاجةِ لأنَّ العُرُوبِيَّةَ ومَنازِعَها لَمْ تُفارِقْهُمْ حِينَئِذٍ ، ولَمْ يَتَحَوَّلْ عَنْهُمْ شِعارُ البَداوةِ ، إلى شِعارِ الحَضارةِ[1] ؛ وأمَّا بالأنْدَلُسِ ، فتقليدا لسلفهم مع ما عَلِمُوهُ مِنْ أنْفُسِهِمْ مِنَ القُصُورِ عَنْ ذلِكَ بالقُصُورِ عَنِ الخلافةِ التي استأثر بها بنو العباس ، ثم بالعجز عن مُلْكِ الحِجازِ ، أصْلِ العربِ والمِلَّةِ والبُعْدِ عَنْ دارِ الخلافةِ التي هي مَرْكَزُ العَصَبِيَّةِ . ، وأنَّهُمْ إنَّما مَنَعُوا بإمارةِ القاصِيَةِ أنْفُسَهُمْ مِنْ مَهالِكِ بني العبَّاسِ . حَتَّى إذا جاءَ عبدُ الرحمنِ الآخِرُ مِنْهُمْ ، وهُوَ النَّاصِرُ ابنُ الأميرِ عبدِ اللهِ مُحَمَّدِ بنِ عبدِ الرحمنِ ، الأوْسَطِ لأوَّلِ المائةِ الرَّابِعَةِ ، واشْتَهَرَ ما نالَ الخلافةَ بالمَشْرِقِ مِنَ الحَجْرِ ، واسْتِبْدادِ المَوالِي ، وعَيْثِهِمْ في الخُلَفاءِ بالعَزْلِ والاسْتِبْدالِ ، والقَتْلِ والسَّمْلِ .[2] ذَهَبَ عبدُ الرحمنِ هذا إلى مِثْلِ مَذاهِبِ الخُلَفاءِ بالمَشْرِقِ وأفْرِيقِيَّةَ ، وتَسَمَّى بأميرِ المؤمنين ، وتَلَقَّبَ بالنَّاصِرِ لِدِينِ اللهِ ، وأُخِذَتْ مِنْ بعدِهِ عادةً ومَذْهَبًا لُقِّنَ عَنْهُ ، ولَمْ يَكُنْ لآبائِهِ وسَلَفِ قَوْمِهِ[1] .

---

(١) ما بين الرقمين منقول عن منشوره «د» وفقا لنسخة خطية دقيقة ؛ وبهذا يستقيم ما في النسخ الأخرى من تحريف

(٢) فقء العين »

واستمرَّ الحالُ على ذلك ، إلى أن انقرضت عصبيةُ العربِ أجمع ، وذهب رسمُ الخلافةِ ، وتغلّب الموالي من العجم على بني العباس ، والصنائعُ على العُبيديين بالقاهرةِ ، وصنهاجة على أمراء أفريقية ، وزناتة على المغرب ، وملوك الطوائف بالأندلس على أمر بني أمية واقتسموه ، وافترق أمرُ الإسلام ، فاختلفت مذاهبُ الملوك بالمغربِ والمشرق في الاختصاص بالألقاب ، بعد أن تسموا جميعا باسم السلطان .

فأما ملوك المشرقِ من العجم ، فكان الخلفاء يخصّونهم بألقاب تشريفية حتى يستشعر منها انقيادهم وطاعتهم وحسن ولايتهم ، مثل شرف الدولة ، وعضد الدولة ، وركن الدولة ، ومعز الدولة ونصير الدولة ، ونظام الملك ، وبهاء الدولة ، وذخيرة الملك ، وأمثال هذه . وكان العبيديون أيضا يخصون بها أمراء صنهاجة ، فلما استبدوا على الخلافة قنعوا بهذه الألقاب ، وتجافوا عن ألقاب الخلافة أدبا معها وعدولا عن سِماتها المختصة بها ، شأن المتغلبين المستبدين كما قلناه .

ونزع المتأخرون أعاجم المشرق حين قوي استبدادهم على الملك ، وعلا كعبهم في الدولة والسلطان ، وتلاشت عصبية الخلافة ، واضمحلت بالجملة ، إلى انتحال الألقاب الخاصة بالملك ، مثل الناصر ، والمنصور زيادة على ألقاب يختصون بها قبل هذا الانتحال ، مشعرة بالخروج عن ربقة الولاء والاصطناع بما أضافوها إلى الدين فقط ، فيقولون صلاح الدين ، أسد الدين ، نور الدين .

وأما ملوك الطوائف بالأندلس ، فاقتسموا ألقاب الخلافة وتوزعوها ، لقوة استبدادهم عليها بما كانوا من قبيلها ، وعصبيتها فتلقبوا بالناصر ، والمنصور ، والمعتمد ، والمظفر ، وأمثالها ، كما قال ابن أبي شرف ينعى عليهم :

مما يزهدني في أرض أندلس
أسماءُ معتمدٍ فيها ومعتضد
ألقابُ مملكة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخا صورة الأسد

وأما صنهاجة ، فاقتصروا على الألقاب التي كان الخلفاء العبيديون يلقبون بها للتنويه ، مثل نصير الدولة ، ومعز الدولة . واتصل لهم ذلك لما أدالوا من دعوة العبيديين بدعوة العباسيين ، ثم بعدت الشقة بينهم وبين الخلافة ونسوا عهدها فنسوا هذه الألقاب واقتصروا على اسم السلطان . وكذا شأن ملوك مغراوة بالمغرب لم ينتحلوا شيئا من هذه الألقاب ، إلا اسم السلطان جريا على مذاهب البداوة والغضاضة .

ولما محي رسم الخلافة ، وتعطل دستها ، وقام بالمغرب من قبائل البربر ، يوسف بن تاشفين ، ملك لمتونة فملك العدوتين ، وكان من أهل الخير والاقتداء ، نزعت به همته إلى الدخول في طاعة الخليفة تكميلا لمراسم دينه ، فخاطب المستظهر العباسي ، وأوفد عليه ببيعته عبد الله بن العربي وابنه القاضي أبا بكر من مشيخة إشبيلية ،

بِعَطَلان تَوْلِيَتَهُ إِيَّاهَا عَلَى الْمَغْرِبِ وَتَقْلِيدَهُ ذلك ، فَانْقَلَبُوا إِلَيْهِ بِعَهْدِ الْخِلَافَةِ لَهُ عَلَى الْمَغْرِبِ ، وَاسْتِشْعَارِ زِيهِمْ فى لَبُوسِهِ وَرُتْبَتِهِ ، وَخَاطَبَهُ فِيهِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ تَشْرِيفًا وَاخْتِصَاصًا ، فَاتَّخَذَهَا لَقَبًا . وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ دُعِيَ لَهُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَبْلُ[١] أَدَبًا ،مَعَ رُتْبَةِ الْخِلَافَةِ ، لِمَا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَقَوْمُهُ الْمُرَابِطُونَ مِنِ انْتِحَالِ الدِّينِ ، وَاتِّبَاعِ السُّنَّةِ . وجاء الْمَهْدِيُّ عَلَى أَثَرِهِمْ ، دَاعِيًا إِلَى الْحَقِّ آخذًا بِمَذَاهِبِ الْأَشْعَرِيَّةِ ، نَاعِيًا عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ عدولَهُمْ عنها إِلَى تَقْلِيدِ السَّلَفِ فى تَرْكِ التَّأْوِيلِ لِظَوَاهِرِ الشَّرِيعَةِ ، وما يَؤُولُ إِلَيْهِ ذَلِكَ مِنَ التَّجْسِيمِ ، كما هُوَ مَعْرُوفٌ فى مَذْهَبِ الْأَشْعَرِيَّةِ ، وَسَمَّى أَتْبَاعَهُ الْمُوَحِّدِينَ ، تَعْرِيضًا بِذَلِكَ التَّكْبِيرِ[٢] . وَكَانَ يَرَى رَأْيَ أَهْلِ الْبَيْتِ فى الْإِمَامِ الْمَعْصُومِ ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهُ فى كل زَمَانٍ ، يُحْفَظُ بِوُجُودِهِ نِظَامُ هَذَا الْعَالَمِ ، فَسُمِّيَ بِالْإِمَامِ لِمَا قُلْنَاهُ أَوَّلًا من مَذْهَبِ الشِّيعَةِ فى أَلْقَابِ خُلَفَائِهِمْ ، وَأُرْدِفَ بِالْمَعْصُومِ إِشَارَةً إِلَى مَذْهَبِهِ فى عِصْمَةِ الْإِمَامِ ، وَتَنَزَّهَ عِنْدَ أتباعه عن أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَخْذًا بِمَذَاهِبِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ الشِّيعَةِ ، وَلِمَا فيها مِنْ مُشَارَكَةِ الْأَغْمَارِ وَالْوِلْدَانِ مِنْ أَعْقَابِ أَهْلِ الْخِلَافَةِ يَوْمَئِذٍ بِالْمَشْرِقِ .

ثم انْتَحَلَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ وَلِيُّ عَهْدِهِ اللَّقَبَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَجَرَى عَلَيْهِ مِنْ بَعْدِهِ خُلَفَاءُ بنى عَبْدِ الْمُؤْمِنِ ، وآلُ أَبِى حَفْصٍ مِنْ بَعْدِهِمْ ، اسْتِئْثَارًا بِهِ عَمَّنْ سِوَاهُمْ ، لِمَا دَعَا إِلَيْهِ شَيْخُهُمُ الْمَهْدِيُّ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَنَّهُ صَاحِبُ الْأَمْرِ ، وَأَوْلِيَاؤُهُ مِنْ بعده كَذَلِكَ دُونَ كل أحد لِانْتِفَاءِ عَصَبِيَّةِ قُرَيْشٍ وَتَلَاشِيهَا ، فَكَانَ ذَلِكَ دَأْبَهُمْ .

وَلَمَّا انْتَقَضَ الْأَمْرُ بِالْمَغْرِبِ ، وَانْتَزَعَهُ زَنَاتَةُ ، ذَهَبَ أَوَّلُهُمْ مَذَاهِبَ الْبَدَاوَةِ وَالسَّذَاجَةِ ، وَاتِّبَاعِ لِمْتُونَةَ فى انْتِحَالِ اللَّقَبِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَدَبًا مَعَ رُتْبَةِ الْخِلَافَةِ ، الَّتِى كَانُوا عَلَى طَاعَتِهَا لِبَنِى عَبْدِ الْمُؤْمِنِ أَوَّلًا وَلِبَنِى أَبِى حَفْصٍ مِنْ بَعْدِهِمْ ، ثم نَزَعَ الْمُتَأَخِّرُونَ منهم إِلَى اللَّقَبِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَانْتَحَلُوهُ لِهَذَا الْعَهْدِ ، اسْتِبْلَاغًا فى مَنَازِعِ الْمُلْكِ ، وَتَتْمِيمًا لِمَذَاهِبِهِ وَسِمَاتِهِ ، وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ .

الفصل الثالث والثلاثون

فى شرح اسم البابا والبطرك فى الملة النصرانية واسم الكوهن عند اليهود

إِعْلَمْ أَنَّ الْمِلَّةَ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ قَائِمٍ عِنْدَ غَيْبَةِ النَّبِيِّ ، يَحْمِلُهُمْ عَلَى أَحْكَامِهَا وَشَرَائِعِهَا ، وَيَكُونُ كَالْخَلِيفَةِ فِيهِمْ لِلنَّبِيِّ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ التَّكَالِيفِ . وَالنَّوْعُ الْإِنْسَانِيُّ أَيْضًا ، بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ ضَرُورَةِ السِّيَاسَةِ فِيهِمْ لِلِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ ، لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ شَخْصٍ يَحْمِلُهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ ، وَيَزَعُهُمْ[١] عَنْ مَفَاسِدِهِمْ بِالْقَهْرِ ، وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالْمَلِكِ . وَالْمِلَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ ، لَمَّا كَانَ الْجِهَادُ فِيهَا مَشْرُوعًا لِعُمُومِ الدَّعْوَةِ ، وَحَمْلِ الْكَافَّةِ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، اتَّحَدَتْ[٢] فِيهَا الْخِلَافَةُ وَالْمُلْكُ ، لِتَوَجُّهِ الشَّوْكَةِ مِنَ الْقَائِمِينَ بِهَا إِلَيْهِمَا مَعًا .

(١) ذهب واڤى الى ان هنا جملة ساقطة بين كلمتى « قبل » و « أدبا » ، وهى : ثم اهمل ذلك ، (انظر تعليق ٧١٩ فى منشورة د . واڤى) .

(٢) يعنى القول المفضى الى التشبيه والتجسيم .

(١) منعهم وردعهم .

(٢) فى جميع النسخ . اتخذت بالذال المعجمة وهو تحريف

وَأَمَّا مَاسِوَى المِلَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ ، فَلَمْ تَكُنْ دَعْوَتُهُمْ عَامَّةً ، وَلَا الْجِهَادُ عِنْدَهُمْ مَشْرُوعًا ، إِلَّا فِى الْمُدَافَعَةِ فَقَطْ ، فَصَارَ الْقَائِمُ بِأَمْرِ الدِّينِ فِيهَا . لَايَعْنِيهِ شَىْءُ مِنْ سِيَاسَةِ الْمُلْكِ ، وَإِنَّمَا وَقَعَ الْمُلْكُ لِمَنْ وَقَعَ مِنْهُمْ بِالْعَرَضِ ، وَلِأَمْرٍ غَيْرِ دِينِى ، وَهُوَمَا اقْتَضَتْهُ لَهُمُ الْعَصَبِيَّةُ لِمَا فِيهَا مِنَ الطَّلَبِ لِلْمُلْكِ بِالطَّبْعِ ، لِمَا قَدَّمْنَاهُ ، لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُكَلَّفِينَ بِالتَّغَلُّبِ عَلَى الْأُمَمِ ، كَمَا فِى الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَإِنَّمَا هُمْ مَطْلُوبُونَ بِإِقَامَةِ دِينِهِمْ فِى خَاصَّتِهِمْ .

وَلِذَلِكَ بَقِىَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى وَيُوشَعَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا نَحْوَ أَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ لَا يَعْتَنُونَ بِشَىْءٍ مِنْ أَمْرِ الْمُلْكِ ، إِنَّمَا هَمُّهُمْ إِقَامَةُ دِينِهِمْ فَقَطْ ، وَكَانَ الْقَائِمُ بِهِ بَيْنَهُمْ يُسَمَّى الْكُوهِنَ كَأَنَّهُ خَلِيفَةُ مُوسَى صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ ، يُقِيمُ لَهُمْ أَمْرَ الصَّلَاةِ وَالْقُرْبَانِ ، وَيَشْتَرِطُونَ فِيهِ أَنْ يَكُونَ مِنْ ذُرِّيَّةِ هَارُونَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ ، لِأَنَّ مُوسَى لَمْ يُعْقِبْ . ثُمَّ اخْتَارُوا لِإِقَامَةِ السِّيَاسَةِ الَّتِى هِىَ لِلْبَشَرِ بِالطَّبْعِ سَبْعِينَ شَيْخًا ، كَانُوا يَتَوَلَّوْنَ أَحْكَامَهُمُ الْعَامَّةَ ، وَالْكُوهِنُ أَعْظَمُ مِنْهُمْ رُتْبَةً فِى الدِّينِ ، وَأَبْعَدُ عَنْ شَغَبِ الْأَحْكَامِ . وَاتَّصَلَ ذَلِكَ فِيهِمْ إِلَى أَنِ اسْتَحْكَمَتْ طَبِيعَةُ الْعَصَبِيَّةِ ، وَتَمَحَّضَتِ الشَّوْكَةُ لِلْمُلْكِ ، فَغَلَبُوا الْكَنْعَانِيِّينَ عَلَى الْأَرْضِ الَّتِى أَوْرَثَهُمُ اللهُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ — وَمَا جَاوَرَهَا — كَمَا بَيَّنَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ مُوسَى صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ ، فَحَارَبَتْهُمْ أُمَمُ الْفِلِسْطِينِ ، وَالْكَنْعَانِيِّينَ ، وَالْأَرْمَنِ وَأَرْدُنَّ ، وَعَمَّانَ ، وَمَآرِبَ ، وَرِئَاسَتُهُمْ فِى ذَلِكَ رَاجِعَةٌ إِلَى شُيُوخِهِمْ ، وَأَقَامُوا عَلَى ذَلِكَ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ . وَلَمْ تَكُنْ بِهِمْ صَوْلَةُ الْمُلْكِ . وَضَجِرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ مُطَالَبَةِ الْأُمَمِ ، فَطَلَبُوا عَلَى لِسَانِ شَمْوِيلَ مِنْ أَنبيائِهِم أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لَهُمْ فِى تَمْلِيكِ رَجُلٍ عليهم فَوَلَّى طَالُوتَ ، وَغَلَبَ الْأُمَمَ ، وَقَتَلَ جَالُوتَ مَلِكَ الْفِلِسْطِينِ ، ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ دَاوُدُ ، ثُمَّ سُلَيْمَانُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا ، وَاسْتَفْحَلَ مُلْكُهُ وَامْتَدَّ إِلَى الْحِجَازِ ، ثُمَّ أَطْرَافِ الْيَمَنِ ، ثُمَّ إِلَى أَطْرَافِ بِلَادِ الرُّومِ .

ثُمَّ افْتَرَقَ الْأَسْبَاطُ ، مِنْ بَعْدِ سُلَيْمَانَ صلواتُ اللهِ عليهِ بِمُقْتَضَى الْعَصَبِيَّةِ فِى الدُّوَلِ ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ إِلَى دَوْلَتَيْنِ ، كَانَتْ إِحْدَاهُمَا بِالْجَزِيرَةِ وَالْمَوْصِلِ لِلْأَسْبَاطِ الْعَشَرَةِ ، وَالْأُخْرَى بِالْقُدْسِ وَالشَّامِ لِبَنِى يَهُوذَا وَبِنْيَامِينَ .

ثُمَّ غَلَبَهُمْ بُخْتُنَصَّرُ مَلِكُ بَابِلَ ، عَلَى مَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْمُلْكِ ، أَوَّلًا الْأَسْبَاطَ الْعَشَرَةَ ، ثُمَّ ثَانِيًا بَنِى يَهُوذَا وَبَيْتَ الْمَقْدِسِ بَعْدَ اتِّصَالِ مُلْكِهِمْ نَحْوَ أَلْفِ سَنَةٍ ، وَخَرَّبَ مَسْجِدَهُمْ ، وَأَحْرَقَ تَوْرَاتَهُمْ ، وَأَمَاتَ دِينَهُم ، وَنَقَلَهُمْ إِلَى أَصْبَهَانَ وَبِلَادِ الْعِرَاقِ ، إِلَى أَنْ رَدَّهُمْ بَعْضُ مُلُوكِ الْكَيَانِيَّةِ مِنَ الْفُرْسِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ مِنْ بَعْدِ سَبْعِينَ سَنَةً مِنْ خُرُوجِهِم ، فَبَنَوُا الْمَسْجِدَ وَأَقَامُوا أَمْرَ دِينِهِمْ عَلَى الرَّسْمِ الْأَوَّلِ لِلْكَهَنَةِ فَقَطْ ، وَالْمُلْكُ لِلْفُرْسِ . ثُمَّ غَلَبَ الْإِسْكَنْدَرُ ، وَبَنُو يُونَانَ عَلَى الْفُرْسِ ، وَصَارَ الْيَهُودُ فِى مَلَكَتِهِمْ ، ثُمَّ فَشِلَ أَمْرُ الْيُونَانِيِّينَ ، فَاعْتَزَّ الْيَهُودُ عَلَيْهِمْ بِالْعَصَبِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ ، وَدَفَعُوهُمْ عَنِ الاسْتِيلَاءِ عَلَيْهِمْ ، وَقَامَ بِمُلْكِهِمِ الْكَهَنَةُ الَّذِينَ كَانُوا فِيهِمْ مِنْ بَنِى حَشْمَنَاى وَقَاتَلُوا يُونَانَ حَتَّى انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ ، وَغَلَبَهُمُ الرُّومُ فَصَارُوا تَحْتَ أَمْرِهِمْ . ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ

وَفِيهَا بَنُو هِيرُودُس ، أَصْهَارُ بَنِي حَشْمَنَايَ ، وَبَقِيَتْ دَوْلَتُهِمْ فَحَاصَرُوهُمْ مُدَّةً ، ثُمَّ افتتحوهَا عُنْوَةً ، وَأَفْحَشُوا فِي الْقَتْلِ وَالْهَدْمِ وَالتَّحْرِيقِ ، وَخَرَّبُوا بَيْتَ الْمَقْدِسِ ، وَأَجْلَوْهُمْ عَنْهَا إِلَى رُومَةَ وَمَا وَرَاءَهَا وَهُوَ الْخَرَابُ الثَّانِي لِلْمَسْجِدِ ، وَيُسَمِّيهِ الْيَهُودُ بِالْجَلْوَةِ الْكُبْرَى . فَلَمْ يَقُمْ لَهُمْ بَعْدَهَا مُلْكٌ لِفِقْدَانِ الْعَصَبِيَّةِ مِنْهُمْ ، وَبَقُوا بَعْدَ ذَلِكَ فِي مَلَكَةِ الرُّومِ مِنْ بَعْدِهِمْ ، يُقِيمُ لَهُمْ أَمْرَ دِينِهِمْ ، الرَّئِيسُ عَلَيْهِمْ ، الْمُسَمَّى بِالْكُوهِنِ

ثُمَّ جَاءَ الْمَسِيحُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ الدِّينِ وَالنَّسْخِ لِبَعْضِ أَحْكَامِ التَّوْرَاةِ ، وَظَهَرَتْ عَلَى يَدَيْهِ الْخَوَارِقُ الْعَجِيبَةُ ، مِنْ إِبْرَاءِ الْأَكْمَهِ وَالْأَبْرَصِ وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى ، وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، وَآمَنُوا بِهِ ، وَأَكْثَرُهُمُ الْحَوَارِيُّونَ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَكَانُوا اثْنَى عَشَرَ ، وَبَعَثَ مِنْهُمْ رُسُلاً إِلَى الْآفَاقِ ، دَاعِينَ إِلَى مِلَّتِهِ ، وَذَلِكَ أَيَّامَ أُوغسطس ، أَوَّلِ مُلُوكِ الْقَيَاصِرَةِ وَفِي مُدَّةِ هِيرُودُس مَلِكِ الْيَهُودِ ، الَّذِي انْتَزَعَ الْمُلْكَ مِنْ بَنِي حَشْمَنَايَ أَصْهَارِهِ ، فَحَسَدَهُ الْيَهُودُ وَكَذَّبُوهُ وَكَاتَبَ هِيرُودُس مَلِكُهُمْ مَلِكَ الْقَيَاصِرَةِ أُوغسطس يُغْرِيهِ بِهِ ، فَأَذِنَ لَهُمْ فِي قَتْلِهِ ، وَوَقَعَ مَا تَلَاهُ الْقُرْآنُ مِنْ أَمْرِهِ .

وَافْتَرَقَ الْحَوَارِيُّونَ شِيَعًا ، وَدَخَلَ أَكْثَرُهُمْ بِلَادَ الرُّومِ دَاعِينَ إِلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ ، وَكَانَ بُطْرُسُ كَبِيرَهُمْ ، فَنَزَلَ بِرُومَةَ دَارِ مُلْكِ الْقَيَاصِرَةِ ، ثُمَّ كَتَبُوا الْإِنْجِيلَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى عِيسَى صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ ، فِي نُسَخٍ أَرْبَعٍ عَلَى اخْتِلَافِ رِوَايَاتِهِمْ ، فَكَتَبَ مَتَّى إِنْجِيلَهُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ ، وَنَقَلَهُ يُوحَنَّا بْنُ زَبْدِي مِنْهُمْ إِلَى اللِّسَانِ اللَّاتِينِيِّ ، وَكَتَبَ لُوقَا مِنْهُم إِنْجِيلَهُ بِاللَّاتِينِيِّ ، إِلَى بَعْضِ أَكَابِرِ الرُّومِ ، وَكَتَبَ يُوحَنَّا بْنُ زَبْدِي مِنْهُمْ إِنْجِيلَهُ بِرُومَةَ ، وَكَتَبَ بُطْرُسُ إِنْجِيلَهُ بِاللَّاتِينِيِّ وَنَسَبَهُ إِلَى مُرْقَاصَ (١) تِلْمِيذِهِ ، وَاخْتَلَفَتْ هَذِهِ النُّسَخُ الْأَرْبَعُ مِنَ الْإِنْجِيلِ ، مَعَ أَنَّهَا لَيْسَتْ كُلُّهَا وَحْيًا صِرْفًا ، بَلْ مَشُوبَةٌ بِكَلَامِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِكَلَامِ الْحَوَارِيِّينَ ، وَكُلُّهَا مَوَاعِظُ وَقِصَصٌ ، وَالْأَحْكَامُ فِيهَا قَلِيلَةٌ جِدًّا .

وَاجْتَمَعَ الْحَوَارِيُّونَ ، الرُّسُلُ لِذَلِكَ الْعَهْدِ ، بِرُومَةَ وَوَضَعُوا قَوَانِينَ الْمِلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ ، وَصَيَّرُوهَا بِيَدِ أَقْلِيمَنْطَسَ تِلْمِيذِ بُطْرُسَ ، وَكَتَبُوا فِيهَا عَدَدَ الْكُتُبِ الَّتِي يَجِبُ قَبُولُهَا وَالْعَمَلُ بِهَا .

فَمِنْ شَرِيعَةِ الْيَهُودِ الْقَدِيمَةِ ، التَّوْرَاةُ : وَهِيَ خَمْسَةُ أَسْفَارٍ ، وَكِتَابُ يُوشَعَ ، وَكِتَابُ الْقُضَاةِ ، وَكِتَابُ رَاعُوثَ ، وَكِتَابُ يَهُوذَا ، وَأَسْفَارُ الْمُلُوكِ أَرْبَعَةٌ ، وَسِفْرُ بِنْيَامِينَ ، وَكُتُبُ الْمَقَابِيِّينَ ، لِابْنِ كِرْيُونَ ثَلَاثَةٌ ، وَكِتَابُ عزرا الْإِمَامِ ، وَكِتَابُ أُوشِيرَ وَقِصَّةُ هَامَانَ ، وَكِتَابُ أَيُّوبَ الصِّدِّيقِ ، وَمَزَامِيرُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكُتُبُ ابْنِهِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَمْسَةٌ وَنُبُوَّاتُ الْأَنْبِيَاءِ الْكِبَارِ وَالصِّغَارِ سِتَّةَ عَشَرَ ، وَكِتَابُ يَشُوعَ بْنِ شَارَخَ وَزِيرِ سُلَيْمَانَ (٢) .

وَمِنْ شَرِيعَةِ عِيسَى صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ الْمُتَلَقَّاةِ مِنَ الْحَوَارِيِّينَ ، نُسَخُ الْإِنْجِيلِ الْأَرْبَعِ ، وَكُتُبُ

---

(١) مرقص الرسول .

(٢) انظر تحرير هذا الموضوع فى تعليق ٧٤٤ من منشورة د . واف

القتاليقون سبع رسائل ، وثامنها الابريكسيس في قصص الرسل ، وكتاب بولس أربع عشرة رسالة ، وكتاب أقليمنطس ، وفيه الأحكام ، وكتاب أبو غالمسيس ، وفيه رؤيا يوحنا بن زبدى [1] .

واختلف شأن القياصرة في الأخذ بهذه الشريعة تارة وتعظيم أهلها ثم تركها أخرى ، والتسلط عليهم بالقتل والبغي ، إلى أن جاء قسطنطين وأخذ بها واستمروا عليها . وكان صاحب هذا الدين والمقيم لمراسيمه يسمونه « البطرك » وهو رئيس الملة عندهم وخليفة المسيح بيهم ، يبعث نوابه وخلفاءه إلى ما بعد عنه من أمم النصرانية ، ويسمونه الأسقف أي نائب البطرك ، ويسمون الامام الذى يقيم الصلوات ويفتيهم في الدين بالقسيس ، ويسمون المنقطع الذى حبس نفسه في الخلوة للعبادة بالراهب ، وأكثر خلواتهم في الصوامع . وكان بطرس الرسول ، رأس الحواريين ، وكبير التلاميذ بروما ، يقيم بها دين النصرانية ، إلى أن قتله نيرون خامس القياصرة ، فيمن قتل من البطارق والأساقفة ، ثم قام بخلافته في كرسي رومة أريوس . وكان مرقاس [2] الانجيلي بالاسكندرية ومصر والمغرب داعيا سبع سنين ، فقام بعده حنانيا ، وتسمى بالبطرك ، وهو أول البطاركة فيها ، وجعل معه اثنى عشر قسا ، على أنه إذا مات البطرك ، يكون واحد من الاثنى عشر مكانه ، ويختار من المؤمنين واحدا ، مكان ذلك الثاني عشر فكان أمر البطاركة إلى القسوس [1] .

ثم لما وقع الاختلاف بينهم في قواعد دينهم وعقائده ، واجتمعوا بنيقية ، أيام قسطنطين لتحرير الحق في الدين ، واتفق ثلاثمائة وثمانية عشر من أساقفتهم على رأى واحد في الدين ، فكتبوه وسموه الإمام ، وصيروه أصلا يرجعون إليه ، وكان فيما كتبوه : أن البطرك القائم بالدين لا يرجع في تعيينه إلى اجتهاد الأقسة [2] ، كما قرره حنانيا تلميذ مرقاس ، وأبطلوا ذلك الرأى ، وإنما يقدم عن بلاء واختيار من أئمة المؤمنين ورؤسائهم ، فبقى الأمر كذلك . ثم اختلفوا بعد ذلك في تقرير قواعد الدين ، وكانت لهم مجتمعات في تقريره ، ولم يختلفوا في هذه القاعدة ، فبقى الأمر فيها على ذلك ، واتصل فيهم نيابة الأساقفة عن البطاركة .

وكان الأساقفة يدعون البطرك بالأب الأعظم تعظيما له . فصار الأقسة يدعون الأسقف فيما غاب عن البطرك بالأب أيضا ، تعظيما له فاشتبه الاسم في أعصار متطاولة ، يقال آخرها بطركية هرقل بإسكندرية ، فأرادوا أن يميزوا البطرك عن الأسقف في التعظيم ، فدعوه البابا ، ومعناه أبو الآباء . وظهر هذا الاسم أول ظهوره بمصر ، على مازعم ا جرجيس بن العميد في تاريخه . ثم نقلوه إلى صاحب الكرسى الأعظم عندهم ، وهو كرسى بطرس الرسول ،

(١) انظر تحرير هذا الموضوع في تعليق ٧٤٥ من منشورة الدكتور وافى .

(٢) مرقص الرسول .

(١) انظر تحرير هذا الموضوع في تعليق ٧٤٧ من منشورة د . وافى .

(٢) جمع غير مقيس او معروف لكلمة قسيس .

كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَلَمْ يَزَلْ سِمَةً عَلَيْهِ حَتَّى الْآنَ .

ثُمَّ اخْتَلَفَتِ النَّصَارَى فِى دِينِهِمْ بَعْدَ ذٰلِكَ ، وَفِيمَا يَعْتَقِدُونَهُ فِى الْمَسِيحِ وَصَارُوا طَوَائِفَ وَفِرَقًا ، وَاسْتَظْهَرُوا بِمُلُوكِ النَّصْرَانِيَّةِ ، كُلٌّ عَلَى صَاحِبِهِ ، فَاخْتَلَفَ الْحَالُ فِى الْعُصُورِ فِى ظُهُورِ فِرْقَةٍ دُونَ فِرْقَةٍ ، إِلَى أَنِ اسْتَقَرَّتْ لَهُمْ ثَلَاثُ طَوَائِفَ هِىَ فِرَقُهُمْ ، وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى غَيْرِهَا ، وَهُمُ الْمَلَكِيَّةُ ، وَالْيَعْقُوبِيَّةُ ، وَالنَّسْطُورِيَّةُ .

[وَلَمْ نَرَ أَنْ نُسَخِّمَ أَوْرَاقَ الْكِتَابِ بِذِكْرِ مَذَاهِبِ كُفْرِهِمْ ، فَهِىَ عَلَى الْجُمْلَةِ مَعْرُوفَةٌ ، وَكُلُّهَا كُفْرٌ كَمَا صَرَّحَ بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ ، وَلَمْ يَبْقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فِى ذٰلِكَ جِدَالٌ وَلَا اسْتِدْلَالٌ ، إِنَّمَا هُوَ الْإِسْلَامُ أَوِ الْجِزْيَةُ أَوِ الْقَتْلُ] (١).

ثُمَّ اخْتَصَّتْ كُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ بِبَطْرَكٍ . فَبَطْرَكُ رُومَةَ الْيَوْمَ ، الْمُسَمَّى بِالْبَابَا عَلَى رَأْىِ الْمَلَكِيَّةِ ، وَرُومَةُ لِلْإِفْرَنْجَةِ ، وَمَلِكُهُمْ قَائِمٌ بِتِلْكَ النَّاحِيَةِ . وَبَطْرَكُ الْمُعَاهِدِينَ بِمِصْرَ عَلَى رَأْىِ الْيَعْقُوبِيَّةِ ، وَهُوَ سَاكِنٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ ، وَالْحَبَشَةُ يَدِينُونَ بِدِينِهِمْ ، وَلِبَطْرَكِ مِصْرَ فِيهِمْ أَسَاقِفَةٌ ، يَنُوبُونَ عَنْهُ فِى إِقَامَةِ دِينِهِمْ هُنَالِكَ . وَاخْتَصَّ اسْمُ الْبَابَا بِبَطْرَكِ رُومَةَ ، لِهٰذَا الْعَهْدِ . وَلَا تُسَمِّى الْيَعَاقِبَةُ بَطْرَكَهُمْ بِهٰذَا الِاسْمِ . وَضَبْطُ هٰذِهِ اللَّفْظَةِ (٢) بِبَاءَيْنِ مُوَحَّدَتَيْنِ ، مِنْ أَسْفَلَ ، وَالنُّطْقُ بِهَا مُفَخَّمَةً ، وَالثَّانِيَةُ مُشَدَّدَةٌ . وَمِنْ مَذَاهِبِ الْبَابَا عِنْدَ الْإِفْرَنْجَةِ أَنَّهُ يَحُضُّهُمْ عَلَى الِانْقِيَادِ لِمَلِكٍ وَاحِدٍ ، يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِى اخْتِلَافِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ تَحَرُّجًا مِنِ افْتِرَاقِ الْكَلِمَةِ ، وَيَتَحَرَّى بِهِ الْعَصَبِيَّةَ الَّتِى لَا فَوْقَهَا مِنْهُمْ لِتَكُونَ يَدُهُ عَالِيَةً عَلَى جَمِيعِهِمْ ، وَيُسَمُّونَهُ الْإِنْبَرَذُورَ (١) ، وَحَرْفُهُ الْوَسَطُ بَيْنَ الذَّالِ وَالظَّاءِ الْمُعْجَمَتَيْنِ ، وَمُبَاشِرُهُ يَضَعُ التَّاجَ عَلَى رَأْسِهِ ، لِلتَّبَرُّكِ ، فَيُسَمَّى الْمُتَوَّجَ ، وَلَعَلَّهُ مَعْنَى لَفْظَةِ الْإِنْبَرَذُورِ ، وَهٰذَا مُلَخَّصُ مَا أَوْرَدْنَاهُ مِنْ شَرْحِ هٰذَيْنِ الِاسْمَيْنِ اللَّذَيْنِ هُمَا الْبَابَا وَالْكُوهِنُ وَاللّٰهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ .

الفصل الرابع والثلاثون

فى مراتب الملك والسلطان وألقابها

إِعْلَمْ أَنَّ السُّلْطَانَ فِى نَفْسِهِ ضَعِيفٌ ، يَحْمِلُ أَمْرًا ثَقِيلًا ، فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الِاسْتِعَانَةِ بِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ ، وَإِذَا كَانَ يَسْتَعِينُ بِهِمْ فِى ضَرُورَةِ مَعَاشِهِ وَسَائِرِ مِهَنِهِ (٢) ، فَمَا ظَنُّكَ بِسِيَاسَةِ نَوْعِهِ ، وَمَنِ اسْتَرْعَاهُ اللّٰهُ مِنْ خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ . وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى حِمَايَةِ الْكَافَّةِ مِنْ عَدُوِّهِمْ بِالْمُدَافَعَةِ عَنْهُمْ ، وَإِلَى كَفِّ عُدْوَانِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ فِى أَنْفُسِهِمْ ، بِإِمْضَاءِ الْأَحْكَامِ الْوَازِعَةِ فِيهِمْ ، وَكَفِّ الْعُدْوَانِ عَلَيْهِمْ فِى أَمْوَالِهِمْ ، بِإِصْلَاحِ سَابِلَتِهِمْ ، وَإِلَى حَمْلِهِمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ ، وَمَا تَعُمُّهُمْ بِهِ الْبَلْوَى فِى مَعَاشِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ ، مِنْ تَفَقُّدِ الْمَعَايِشِ وَالْمَكَايِيلِ وَالْمَوَازِينِ حَذَرًا مِنَ التَّطْفِيفِ ، وَإِلَى النَّظَرِ فِى السِّكَّةِ بِحِفْظِ النُّقُودِ الَّتِى يَتَعَامَلُونَ بِهَا مِنَ الْغِشِّ ، وَإِلَى سِيَاسَتِهِمْ بِمَا يُرِيدُهُ مِنْهُمْ مِنَ الِانْقِيَادِ لَهُ ، وَالرِّضَى

(١) ما بين المعقوفتين ساقط فى بعض النسخ . فهل أسقط عمداً وتحكماً كما يرى د. وافى ص ٧٦٩ ج ٢ من منشورته أم هى فقرة مزيدة على النسخ الخطية الأصلية وليست لابن خلدون كما يرى الأستاذ ساطع الحصرى فى: دراسات عن مقدمة ابن خلدون ص ٦٣٤-٦٣٨؟ .

(٢) لفظة البابا .

(١) الأصل اللاتينى إمبراطور بالطاء المهملة ومعناه عندهم الحاكم .

(٢) المهنة الخدمة وجمعها مهن بكسر الميم .

بمقاصده منهم ، وانفراده بالمجد دونهم ، فيتحمل من ذلك فوق الغاية من معاناة القلوب .

قال بعض الأشراف من الحكماء : « لمعاناة نقل الجبال من أماكنها أهون على من معاناة قلوب الرجال » .

ثم إن الاستعانة إذا كانت بأولى القربى ، من أهل النسب ، أو التربية ، أو الاصطناع القديم للدولة كانت أكمل ، لما يقع فى ذلك من مجانسة خلقهم لخلقه ، فتتم المشاكلة فى الاستعانة ، قال تعالى « واجعل لى وزيرا من أهلى ، هارون أخى ، اشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى »(١)

وهو إما أن يستعين فى ذلك بسيفه أو قلمه أو رأيه أو معارفه أو بحجابه عن الناس أن يزدحموا عليه فيشغلوه عن النظر فى مهماتهم ، أو يدفع النظر فى الملك كله [إليه] (٢) ، ويعول على كفايته فى ذلك ، واضطلاعه . فلذلك قد توجد فى رجل واحد ، وقد تفترق فى أشخاص . وقد يتفرع كل واحد منها إلى فروع كثيرة . كالقلم يتفرع ، إلى قلم الرسائل والمخاطبات ، وقلم الصكوك والإقطاعات ، وإلى قلم المحاسبات ، وهو صاحب الجباية والعطاء وديوان الجيش . وكالسيف ، يتفرع إلى : صاحب الحرب ، وصاحب الشرطة ، وصاحب البريد ، وولاية الثغور .

ثم اعلم أن الوظائف السلطانية فى هذه الملة الإسلامية مندرجة تحت الخلافة ، لاشتمال منصب الخلافة على الدين والدنيا كما قدمناه . فالأحكام الشرعية متعلقة بجميعها وموجودة لكل واحدة منها فى سائر وجوهها ، لعموم تعلق الحكم الشرعى ، بجميع أفعال العباد . والفقيه ينظر فى مرتبة الملك والسلطان وشروط تقليدها استبدادا على الخلافة ، وهو معنى السلطان ، أو تفويضا منها ، وهو معنى الوزارة عندهم كما يأتى ، وفى نظره فى الأحكام والأموال وسائر السياسات ، مطلقا أو مقيدا ، وفى موجبات العزل ، إن عرضت ، وغير ذلك من معانى الملك والسلطان ، وكذا فى سائر الوظائف التى تحت الملك والسلطان من وزارة أو جباية أو ولاية ، لا بد للفقيه من النظر فى جميع ذلك لما قدمناه ، من انسحاب حكم الخلافة الشرعية فى الملة الإسلامية على رتبة الملك والسلطان .

إلا أن كلامنا فى وظائف الملك والسلطان ورتبته إنما هو بمقتضى طبيعة العمران ووجود البشر ، لا بما يخصها من أحكام الشرع ؛ فليس من غرض كتابنا كما علمت ، فلا نحتاج إلى تفصيل أحكامها الشرعية ، مع أنها مستوفاة فى كتب الأحكام السلطانية ، مثل كتاب القاضى أبى الحسن الماوردى وغيره من أعلام الفقهاء . فإن أردت استيفاءها فعليك بمطالعتها هنالك . وإنما تكلمنا فى الوظائف الخلافية ، وأفردناها لنميز بينها وبين الوظائف السلطانية فقط . ، لا لتحقيق أحكامها الشرعية ، فليس من غرض

---

(١) الآيات رقم : ٢٩ — ٣٢ من سورة طه .

(٢) فى هامش هذه العبارة ص ٧٧٢ ج ٢ من منشورة د. وافى إضافة كلمة « إليه » كى يستقيم السياق .

كِتَابِنَا . وَإِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فى ذَٰلِكَ بِمَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ الْعُمْرَانِ فى الْوُجُودِ الْإِنْسَانِىِّ ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ .

(الوزارة) وَهِىَ أُمُّ الْخُطَطِ السُّلْطَانِيَّةِ ، وَالرُّتَبِ الْمُلُوكِيَّةِ ، لأَنَّ اسْمَهَا يَدُلُّ عَلَى مُطْلَقِ الإِعَانَةِ . فَإِنَّ الْوِزَارَةَ مَأْخُوذَةٌ : إِمَّا مِنَ الْمُؤَازَرَةِ ، وَهِىَ الْمُعَاوَنَةُ ، أَوْ مِنَ الْوِزْرِ ، وَهُوَ الثِّقْلُ ، كَأَنَّهُ يَحْمِلُ ، مَعَ مُفَاعِلِهِ ، أَوْزَارَهُ وَأَثْقَالَهُ ، وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى الْمُعَاوَنَةِ الْمُطْلَقَةِ .

وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا فى أَوَّلِ الْفَصْلِ أَنَّ أَحْوَالَ السُّلْطَانِ وَتَصَرُّفَاتِهِ لَا تَعْدُو أَرْبَعَةً . لأَنَّهَا :

إِمَّا أَنْ تَكُونَ فى أُمُورِ حِمَايَةِ الْكَافَّةِ وَأَسْبَابِهَا مِنَ النَّظَرِ فى الْجُنْدِ وَالسِّلَاحِ وَالْحُرُوبِ وَسَائِرِ أُمُورِ الْحِمَايَةِ وَالْمُطَالَبَةِ . وَصَاحِبُ هَٰذَا هُوَ الْوَزِيرُ الْمُتَعَارَفُ فى الدُّوَلِ الْقَدِيمَةِ ، بِالْمَشْرِقِ ، وَلِهَٰذَا الْعَهْدِ بِالْمَغْرِبِ .

وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ فى أُمُورِ مُخَاطَبَاتِهِ لِمَنْ بَعُدَ عَنْهُ فى أُمُورِ جِبَايَةِ الْمَالِ وَإِنْفَاقِهِ ، وَضَبْطِ ذَٰلِكَ مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِهِ أَنْ يَكُونَ بِمَضْبَطَةٍ . وَصَاحِبُ هَٰذَا هُوَ صَاحِبُ الْمَالِ وَالْجِبَايَةِ ، وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالْوَزِيرِ ، لِهَٰذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ .

وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فى مُدَافَعَةِ النَّاسِ ذَوِى الْحَاجَاتِ عَنْهُ أَنْ يَزْدَحِمُوا عَلَيْهِ ، فَيُشْغِلُوهُ عَنْ فَهْمِهِ . وَهَٰذَا رَاجِعٌ لِصَاحِبِ الْبَابِ الَّذِى يَحْجُبُهُ .

فَلَا تَعْدُو أَحْوَالُهُ هَٰذِهِ الأَرْبَعَةَ بِوَجْهٍ . وَكُلُّ خِطَّةٍ أَوْ رُتْبَةٍ مِنْ رُتَبِ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ فَإِلَيْهَا يَرْجِعُ . إِلَّا أَنَّ الأَرْفَعَ مِنْهَا مَا كَانَتِ الإِعَانَةُ فِيهِ عَامَّةً فِيمَا تَحْتَ يَدِ السُّلْطَانِ ، مِنْ ذَٰلِكَ الصِّنْفِ . إِذْ هُوَ يَقْتَضِى مُبَاشَرَةَ السُّلْطَانِ دَائِمًا ، وَمُشَارَكَتَهُ فى كُلِّ صِنْفٍ مِنْ

أَحْوَالِ مُلْكِهِ . وَأَمَّا مَا كَانَ خَاصًّا بِبَعْضِ النَّاسِ ، أَوْ بِبَعْضِ الْجِهَاتِ ، فَيَكُونُ دُونَ الرُّتْبَةِ الأُخْرَى كَقِيَادَةِ ثَغْرٍ ، أَوْ وِلَايَةِ جِبَايَةٍ خَاصَّةٍ ، أَوِ النَّظَرِ فى أَمْرٍ خَاصٍّ كَحِسْبَةِ الطَّعَامِ ، أَوِ النَّظَرِ فى السِّكَّةِ ، فَإِنَّ هَٰذِهِ كُلَّهَا نَظَرٌ فى أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ ، فَيَكُونُ صَاحِبُهَا تَبَعًا لأَهْلِ النَّظَرِ الْعَامِّ ، وَتَكُونُ رُتْبَتُهُ مَرْؤُوسَةً لأُولَئِكَ .

وَمَازَالَ الأَمْرُ فى الدُّوَلِ قَبْلَ الإِسْلَامِ هَكَذَا ، حَتَّى جَاءَ الإِسْلَامُ ، وَصَارَ الأَمْرُ خِلَافَةً ، فَذَهَبَتْ تِلْكَ الْخُطَطُ كُلُّهَا بِذَهَابِ رَسْمِ الْمُلْكِ إِلا (١) مَاهُوَ طَبِيعِىٌّ ، مِنَ الْمُعَاوَنَةِ بِالرَّأْىِ ، وَالْمُفَاوَضَةِ فِيهِ ، فَلَمْ يُمْكِنْ زَوَالُهُ إِذْ هُوَ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ . فَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُشَاوِرُ أَصْحَابَهُ ، وَيُفَاوِضُهُمْ فى مُهِمَّاتِهِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ ، وَيَخُصُّ مَعَ ذَٰلِكَ أَبَا بَكْرٍ بِخُصُوصِيَّاتٍ أُخْرَى ، حَتَّى كَانَ الْعَرَبُ الَّذِينَ عَرَفُوا الدُّوَلَ وَأَحْوَالَهَا فى كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَالنَّجَاشِىِّ ، يُسَمُّونَ أَبَا بَكْرٍ وَزِيرَهُ وَلَمْ يَكُنْ لَفْظُ الْوَزِيرِ يُعْرَفُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، لِذَهَابِ رُتْبَةِ الْمُلْكِ بِسَذَاجَةِ الإِسْلَامِ . وَكَذَا عُمَرُ مَعَ أَبِى بَكْرٍ وَعَلِىٌّ ، وَعُثْمَانُ مَعَ عُمَرَ .

وَأَمَّا حَالُ الْجِبَايَةِ وَالإِنْفَاقِ ، وَالْحُسْبَانِ فلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ بِرُتْبَةٍ ، لأَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا عَرَبًا أُمِّيِّينَ ، لَا يُحْسِنُونَ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ ، فَكَانُوا يَسْتَعْمِلُونَ فى الْحِسَابِ أَهْلَ الْكِتَابِ ، أَوْ أَفْرَادًا مِنْ مَوَالِى الْعَجَمِ ، مِمَّنْ يُجِيدُهُ ، وَكَانَ قَلِيلًا فِيهِمْ . وَأَمَّا أَشْرَافُهُمْ فَلَمْ يَكُونُوا يُجِيدُونَهُ ، لأَنَّ الأُمِّيَّةَ كَانَتْ

(١) فى جميع النسخ « الى » وهو تحريف لا يستقيم معه المعنى .

صِفَتَهُمُ الَّتِى امْتَازُوا بِهَا . وَكَذَا حَالُ الْمُخَاطَبَاتِ وَتَنْفِيذِ الْأُمُورِ لَمْ تَكُنْ عِنْدَهُمْ رُتْبَةً خَاصَّةً لِلْأُمِّيَّةِ الَّتِى كَانَتْ فِيهِمْ ، وَالْأَمَانَةِ الْعَامَّةِ فِى كِتْمَانِ الْقَوْلِ وَتَأْدِيتِهِ ، وَلَمْ تُحْوِج[1] السِّيَاسَةُ إِلَى اخْتِيَارِهِ لِأَنَّ الْخِلَافَةَ إِنَّمَا هِىَ دِينٌ لَيْسَتْ مِنَ السِّيَاسَةِ الْمُلْكِيَّةِ فِى شَىْءٍ وَأَيْضًا فَلَمْ تَكُنِ الْكِتَابَةُ صِنَاعَةً ، فَيُسْتَجَادَ لِلْخَلِيفَةِ أَحْسَنُهَا لِأَنَّ الْكُلَّ كَانُوا يُعَبِّرُونَ عَنْ مَقَاصِدِهِمْ ، بِأَبْلَغِ الْعِبَارَاتِ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْخَطُّ . فَكَانَ الْخَلِيفَةُ يَسْتَنِيبُ فِى كِتَابَتِهِ ، مَتَى عَنَّ لَهُ مَنْ يُحْسِنُهُ .

وَأَمَّا مُدَافَعَةُ ذَوِى الْحَاجَاتِ عَنْ أَبْوَابِهِمْ ، فَكَانَ مَحْظُورًا بِالشَّرِيعَةِ ، فَلَمْ يَفْعَلُوهُ .

فَلَمَّا انْقَلَبَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى الْمُلْكِ ، وَجَاءَتْ رُسُومُ السُّلْطَانِ وَأَلْقَابُهُ ، كَانَ أَوَّلُ شَىْءٍ بُدِئَ بِهِ فِى الدَّوْلَةِ شَأْنَ الْبَابِ ، وَسَدَّهُ دُونَ الْجُمْهُورِ ، بِمَا كَانُوا يَخْشَوْنَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ مِنِ اغْتِيَالِ الْخَوَارِجِ وَغَيْرِهِمْ ، كَمَا وَقَعَ بِعُمَرَ وَعَلِىٍّ وَمُعَاوِيَةَ وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَغَيْرِهِمْ . مَعَ مَا فِى فَتْحِهِ مِنِ ازْدِحَامِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ وَشُغْلِهِمْ بِهِمْ عَنِ الْمُهِمَّاتِ ، فَاتَّخَذُوا مَنْ يَقُومُ لَهُمْ بِذَلِكَ وَسَمَّوْهُ الْحَاجِبَ .

وَقَدْ جَاءَ : أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ لَمَّا وَلَّى حَاجِبَهُ ، قَالَ لَهُ قَدْ وَلَّيْتُكَ حِجَابَةَ بَابِى إِلَّا عَنْ ثَلَاثَةٍ : الْمُؤَذِّنِ لِلصَّلَاةِ ، فَإِنَّهُ دَاعِى اللهِ ، وَصَاحِبِ الْبَرِيدِ ، فَأَمْرٌ مَا جَاءَ بِهِ ، وَصَاحِبِ الطَّعَامِ لِئَلَّا يَفْسُدَ .

ثُمَّ اسْتَفْحَلَ الْمُلْكُ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَظَهَرَ الْمُشَاوِرُ وَالْمُعِينُ فِى أُمُورِ الْقَبَائِلِ وَالْعَصَائِبِ وَاسْتِئْلَافِهِمْ ، وَأُطْلِقَ عَلَيْهِ اسْمُ الْوَزِيرِ . وَبَقِىَ أَمْرُ الْحُسْبَانِ فِى الْمَوَالِى وَالذِّمِّيِّينَ . وَاتُّخِذَ لِلسِّجِلَّاتِ كَاتِبٌ مَخْصُوصٌ حَوْطَةً عَلَى أَسْرَارِ السُّلْطَانِ أَنْ تَشْتَهِرَ فَتَفْسُدَ سِيَاسَتُهُ مَعَ قَوْمِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ بِمَثَابَةِ الْوَزِيرِ ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا احْتِيجَ لَهُ مِنْ حَيْثُ الْخَطُّ ، وَالْكِتَابُ ، لَا مِنْ حَيْثُ اللِّسَانِ الَّذِى هُوَ الْكَلَامُ ، إِذِ اللِّسَانُ لِذَلِكَ الْعَهْدِ عَلَى حَالِهِ لَمْ يَفْسُدْ . فَكَانَتِ الْوِزَارَةُ لِذَلِكَ أَرْفَعَ رُتَبِهِمْ يَوْمَئِذٍ فِى سَائِرِ دَوْلَةِ بَنِى أُمَيَّةَ . فَكَانَ النَّظَرُ لِلْوَزِيرِ عَامًّا فِى أَحْوَالِ التَّدْبِيرِ وَالْمُفَاوَضَاتِ وَسَائِرِ أُمُورِ الْحِمَايَاتِ ، وَالْمُطَالَبَاتِ ، وَمَا يَتْبَعُهَا مِنَ النَّظَرِ فِى دِيوَانِ الْجُنْدِ ، وَفَرْضِ الْعَطَاءِ بِالْأَهِلَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

فَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ بَنِى الْعَبَّاسِ ، وَاسْتَفْحَلَ الْمُلْكُ وَعَظُمَتْ مَرَاتِبُهُ ، وَارْتَفَعَتْ ، وَعَظُمَ شَأْنُ الْوَزِيرِ وَصَارَتْ إِلَيْهِ النِّيَابَةُ فِى إِنْفَاذِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ، تَعَيَّنَتْ مَرْتَبَتُهُ فِى الدَّوْلَةِ وَعَنَتْ لَهَا الْوُجُوهُ وَخَضَعَتْ لَهَا الرِّقَابُ ، وَجُعِلَ لَهَا النَّظَرُ فِى دِيوَانِ الْحُسْبَانِ ، لِمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ خُطَّتُهُ مِنْ قَسْمِ الْأَعْطِيَاتِ فِى الْجُنْدِ ، فَاحْتَاجَ إِلَى النَّظَرِ فِى جَمْعِهِ وَتَفْرِيقِهِ ، وَأُضِيفَ إِلَيْهِ النَّظَرُ فِيهِ ، ثُمَّ جُعِلَ لَهُ النَّظَرُ فِى الْقَلَمِ وَالتَّرْسِيلِ لِصَوْنِ أَسْرَارِ السُّلْطَانِ ، وَلِحِفْظِ الْبَلَاغَةِ لِمَا كَانَ اللِّسَانُ قَدْ فَسَدَ عِنْدَ الْجُمْهُورِ ، وَجُعِلَ الْخَاتَمُ لِسِجِلَّاتِ السُّلْطَانِ لِيَحْفَظَهَا مِنَ الذِّيَاعِ وَالشِّيَاعِ ، وَدُفِعَ إِلَيْهِ . فَصَارَ اسْمُ الْوَزِيرِ جَامِعًا لِخُطَّتَىِ السَّيْفِ وَالْقَلَمِ ، وَسَائِرِ مَعَانِى الْوِزَارَةِ وَالْمُعَاوَنَةِ ، حَتَّى لَقَدْ دُعِىَ جَعْفَرُ ابْنُ يَحْيَى بِالسُّلْطَانِ أَيَّامَ الرَّشِيدِ ، إِشَارَةً إِلَى

(١) فى أكثر النسخ « تخرج » ويأباه السياق .

عموم نظره وقيامه بالدولة. ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها، إلا الحجابة التي هي القيام على الباب فلم تكن له لاستنكافه عن مثل ذلك.

ثم جاء في الدولة العباسية شأن الاستبداد على السلطان، وتعاور فيها استبداد الوزارة مرة، والسلطان أخرى، وصار الوزير إذا استبد محتاجا إلى استنابة الخليفة إياه لذلك لتصح الأحكام الشرعية، وتجيء على حالها، كما تقدم.

فانقسمت الوزارة حينئذ إلى وزارة تنفيذ، وهي حال ما يكون السلطان قائما على نفسه، وإلى وزارة تفويض، وهي حال ما يكون الوزير مستبدا عليه. ثم استمر الاستبداد وصار الأمر لملوك العجم، وتعطل رسم الخلافة. ولم يكن لأولئك المتغلبين أن ينتحلوا ألقاب الخلافة، واستنكفوا من مشاركة الوزراء في اللقب لأنهم خول لهم فتسموا بالإمارة والسلطان. وكان المستبد على الدولة، يسمى أمير الأمراء، أو بالسلطان إلى ما يحليه به الخليفة من ألقابه كما تراه في ألقابهم، وتركوا اسم الوزارة إلى من يتولاها للخليفة في خاصته. ولم يزل هذا الشأن عندهم إلى آخر دولتهم. وفسد اللسان خلال ذلك كله، وصارت صناعة ينتحلها بعض الناس، فامتهنت وترفع الوزراء عنها لذلك، ولأنهم عجم، وليست تلك البلاغة هي المقصودة من لسانهم، فتخير لها من سائر الطبقات، واختصت به، وصارت خادمة للوزير. واختص اسم الأمير بصاحب الحروب والجند، وما يرجع إليها، ويده مع ذلك عالية على أهل الرتب وأمره نافذ في الكل: إما نيابة أو استبدادا، واستمر الأمر على هذا.

ثم جاءت دولة الترك آخرا بمصر، فرأوا أن الوزارة قد ابتذلت بترفع أولئك عنها، ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المحجور، ونظره مع ذلك متعقب بنظر الأمير فصارت مرءوسة ناقصة، فاستنكف أهل هذه الرتبة العالية في الدولة عن اسم الوزارة، وصار صاحب الأحكام والنظر في الجند، يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد، وبقي اسم الحاجب في مدلوله واختص اسم الوزير عندهم بالنظر في الجباية.

وأما دولة بني أمية بالأندلس فأنفوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة، ثم قسموا خطته أصنافا، وأفردوا لكل صنف وزيرا، فجعلوا لحسبان المال وزيرا، وللترسيل وزيرا، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيرا، وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيرا، وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم، وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له، وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت، فارتفع مجلسه عن مجالسهم، وخصوه باسم الحاجب. ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم، فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها فأكثرهم يومئذ يسمى الحاجب كما نذكره.

ثم جاءت دولة الشيعة بإفريقية والقيروان وكان للقائمين بها رسوخ في البداوة فأغفلوا

أمر هذه الخُطَط. أوّلاً وتنقيح أسمائها كما تراه في أخبار دولتهم.

ولمّا جاءت دولة الموحّدين من بعد ذاك أغفلت الأمر أوّلاً للبداوة، ثمّ صارت إلى انتحال الأسماء والألقاب، وكان اسم الوزير في مدلوله، ثمّ اتّبعوا دولة الأمويّين وقلّدوها في مذاهب السلطان واختاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان في مجلسه ويقف بالوفود والداخلين على السلطان عند الحدود في تحيّتهم وخطابهم والآداب التي تلزم في الكون بين يديه، ورفعوا خطّة الحجابة عنه ما شاءوا، ولم يزل الشأن ذلك إلى هذا العهد.

وأمّا في دولة الترك بالمشرق فيسمّون هذا الذي يقف بالناس على حدود الآداب في اللقاء والتحيّة في مجالس السلطان والتقدّم بالوفود بين يديه، الدويدار، ويضيفون إليه استتباع كاتب السرّ وأصحاب البريد المتصرّفين في حاجات السلطان بالقاصية وبالحاضرة، وحالهم على ذلك لهذا العهد. والله مولى الأمور لمن يشاء.

(الحجابة) قد قدّمنا أنّ هذا اللقب كان مخصوصاً في الدولة الأمويّة والعبّاسيّة بمن يحجب السلطان عن العامّة، ويغلق بابه دونهم أو يفتحه لهم على قدره في مواقيته. وكانت هذه منزلة يومًا عن الخطط، مرءوسة لها؛ إذ الوزير متصرّف فيها بما يراه. وهكذا كانت سائر أيّام بني العبّاس وإلى هذا العهد، فهي بمصر مرءوسة لصاحب الخطّة العليا المسمّى بالنائب

وأمّا في الدولة الأمويّة بالأندلس فكانت الحجابة لمن يحجب السلطان عن الخاصّة والعامّة، ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم. فكانت في دولتهم رفيعة غاية كما تراه في أخبارهم، كابن حديد وغيره من حجّابهم. ثمّ لمّا جاء الاستبداد على الدولة اختصّ المستبدّ باسم الحجابة لشرفها، فكان المنصور بن أبي عامر وأبناؤه كذلك.

ولمّا بدأوا في مظاهر الملك وأطواره، جاء من بعدهم من ملوك الطوائف، فلم يتركوا لقبها، وكانوا يعدّونه شرفاً لهم. وكان أعظمهم ملكاً بعد انتحال ألقاب الملك وأسمائه، لابدّ له من ذكر الحاجب وذي الوزارتين، يعنون به السيف والقلم.

ويدلّون بالحجابة على حجابة السلطان عن العامّة والخاصّة، وبذي الوزارتين عن جمعه لخطّتي السيف والقلم. ثمّ لم يكن في دول المغرب وأفريقية ذكر لهذا الاسم للبداوة التي كانت فيهم، وربّما يوجد في دولة العبيديّين بمصر عند استعظامها وحضارتها إلّا أنّه قليل.

ولمّا جاءت دولة الموحّدين لم تستمكن فيها الحضارة الداعية إلى انتحال الألقاب، وتمييز الخطط، وتعيينها بالأسماء، إلّا آخرا. فلم يكن عندهم من الرتب إلّا الوزير. فكانوا أوّلاً يخصّون بهذا الاسم الكاتب المتصرّف المشارك للسلطان في خاصّ أمره كابن عطيّة وعبد السلام الكومي، وكان له مع ذلك النظر في الحساب، والأشغال الماليّة. ثمّ صار بعد ذلك اسم الوزير، لأهل نسب الدولة من الموحّدين، كابن جامع وغيره. ولم يكن اسم الحاجب معروفاً في دولتهم يومئذ.

وَأَمَّا بَنُو أَبِى حَفْص بِأَفْرِيقِيَّةَ ، فَكَانَتِ الرِّيَاسَةِ فِى دَوْلَتِهِمْ أَوَّلاً ، وَالتَّقَدُّمُ لِوَزِيرِ الرَّأْىِ وَالْمَشُورَةِ ؛ وَكَانَ يُخَصُّ بِاسْمِ شَيْخِ الْمُوَحِّدِينَ ، وَكَانَ لَهُ النَّظَرُ فِى الْوِلَايَاتِ وَالْعَزْلِ وَقَوْدِ الْعَسَاكِرِ وَالْحُرُوبِ ، وَاخْتُصَّ الْحُسْبَانُ وَالدِّيوَانُ بِرُتْبَةٍ أُخْرَى ، وَيُسَمَّى مُتَوَلِّيهَا بِصَاحِبِ الْأَشْغَالِ ، يَنْظُرُ فِيهَا النَّظَرَ الْمُطْلَقَ فِى الدَّخْلِ وَالْخَرْجِ ، وَيُحَاسِبُ وَيَسْتَخْلِصُ الْأَمْوَالَ ، وَيُعَاقِبُ عَلَى التَّفْرِيطِ . وَكَانَ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ .

وَاخْتُصَّ عِنْدَهُمْ الْقَلَمُ أَيْضًا بِمَنْ يُجِيدُ التَّرْسِيلَ ، وَيُؤْتَمَنُ عَلَى الْأَسْرَارِ ، لِأَنَّ الْكِتَابَةَ لَمْ تَكُنْ مِنْ مُنْتَحَلِ الْقَوْمِ ، وَلَا التَّرْسِيلُ بِلِسَانِهِمْ ، فَلَمْ يُشْتَرَطْ فِيهِ النَّسَبُ .

وَاحْتَاجَ السُّلْطَانُ لِاتِّسَاعِ مُلْكِهِ وَكَثْرَةِ الْمُرْتَزِقِينَ بِدَارِهِ إِلَى قَهْرَمَانٍ خَاصٍّ بِدَارِهِ ، فِى أَحْوَالِهِ يُجْرِيهَا عَلَى قَدْرِهَا ، وَتَرْتِيبِهَا مِنْ رِزْقٍ وَعَطَاءٍ وَكُسْوَةٍ وَنَفَقَةٍ فِى الْمَطَابِخِ وَالْاصْطَبْلَاتِ وَغَيْرِهِمَا ، وَحَصْرِ الذَّخِيرَةِ ، وَتَنْفِيذِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِى ذَلِكَ عَلَى أَهْلِ الْجِبَايَةِ ، فَخَصُّوهُ بِاسْمِ الْحَاجِبِ ، وَرُبَّمَا أَضَافُوا إِلَيْهِ كِتَابَةَ الْعَلَامَةِ عَلَى السِّجِلَّاتِ ، إِذَا اتَّفَقَ أَنَّهُ يُحْسِنُ صِنَاعَةَ الْكِتَابَةِ ، وَرُبَّمَا جَعَلُوهُ لِغَيْرِهِ .

وَاسْتَمَرَّ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ ، وَحَجَبَ السُّلْطَانُ نَفْسَهُ عَنِ النَّاسِ فَصَارَ هَذَا الْحَاجِبُ وَاسِطَةً بَيْنَ النَّاسِ ، وَبَيْنَ أَهْلِ الرُّتَبِ كُلِّهِمْ ، ثُمَّ جُمِعَ لَهُ آخِرَ الدَّوْلَةِ السَّيْفُ وَالْحَرْبُ ، ثُمَّ الرَّأْىُ وَالْمَشُورَةُ ، فَصَارَتِ الْخُطَّةُ أَرْفَعَ الرُّتَبِ وَأَوْعَبَهَا لِلْخُطَطِ .

ثُمَّ جَاءَ الاسْتِبْدَادُ وَالْحَجْرُ مُدَّةً مِنْ بَعْدِ السُّلْطَانِ الثَّانِى عَشَرَ مِنْهُمْ ، ثُمَّ اسْتَبَدَّ بَعْدَ ذَلِكَ حَفِيدُهُ السُّلْطَانُ أَبُوالْعَبَّاسِ عَلَى نَفْسِهِ ، وَأَذْهَبَ آثَارَ الْحَجْرِ وَالاسْتِبْدَادِ بِإِذْهَابِ خُطَّةِ الْحِجَابَةِ الَّتِى كَانَتْ سُلَّمًا إِلَيْهِ ، وَبَاشَرَ أُمُورَهُ كُلَّهَا بِنَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ اسْتِعَانَةٍ بِأَحَدٍ . وَالْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ .

وَأَمَّا دَوْلَةُ زَنَاتَةَ بِالْمَغْرِبِ وَأَعْظَمُهَا دَوْلَةُ بَنِى مَرِينَ ، فَلَا أَثَرَ لِاسْمِ الْحَاجِبِ عِنْدَهُمْ . وَأَمَّا رِيَاسَةُ الْحَرْبِ وَالْعَسَاكِرِ فَهِىَ لِلْوَزِيرِ ، وَرُتْبَةُ الْقَلَمِ فِى الْحُسْبَانِ وَالرَّسَائِلِ رَاجِعَةٌ إِلَى مَنْ يُحْسِنُهَا مِنْ أَهْلِهَا ، وَإِنِ اخْتُصَّتْ بِبَعْضِ الْبُيُوتِ الْمُصْطَنِعِينَ فِى دَوْلَتِهِم ، وَقَدْ تُجْمَعُ عِنْدَهُمْ ، وَقَدْ تُفَرَّقُ

وَأَمَّا بَابُ السُّلْطَانِ وَحَجْبُهُ عَنِ الْعَامَّةِ ، فَهِىَ رُتْبَةٌ عِنْدَهُمْ ، فَيُسَمَّى صَاحِبُهَا عِنْدَهُمْ بِالْمِزْوَارِ ، وَمَعْنَاهُ ، الْمُقَدَّمُ عَلَى الْجَنَادِرَةِ الْمُتَصَرِّفِينَ بِبَابِ السُّلْطَانِ فِى تَنْفِيذِ أَوَامِرِهِ ، وَتَصْرِيفِ عُقُوبَاتِهِ ، وَإِنْزَالِ سَطَوَاتِهِ ، وحِفْظِ الْمُعْتَقَلِينَ فِى سُجُونِهِ ، وَالْعَرِيفُ عَلَيْهِمْ فِى ذَلِكَ . فَالْبَابُ لَهُ وَأَخْذُ النَّاسِ بِالْوُقُوفِ عِنْدَ الْحُدُودِ فِى دَارِ الْعَامَّةِ رَاجِعٌ إِلَيْهِ ، فَكَأَنَّهَا وِزَارَةٌ صُغْرَى .

وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِى عَبْدِ الْوَادِ ، فَلَا أَثَرَ عِنْدَهُمْ لِشَىْءٍ مِنْ هٰذِهِ الْأَلْقَابِ وَلَا تَمْيِيزَ الْخُطَطِ ، لِبَدَاوَةِ دَوْلَتِهِمْ وَقُصُورِهَا ، وَإِنَّمَا يَخُصُّونَ بِاسْمِ الْحَاجِبِ فِى بَعْضِ الْأَحْوَالِ مُنَفِّذَ الْخَاصِّ بِالسُّلْطَانِ فِى دَارِهِ ، كَمَا كَانَ فِى دَوْلَةِ بَنِى أَبِى حَفْص ، وَقَدْ يَجْمَعُونَ لَهُ الْحُسْبَانَ وَالسِّجِلَّ كَمَا كَانَ فِيهَا . حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ تَقْلِيدُ الدَّوْلَةِ بِمَا كَانُوا فِى تَبَعِهَا وَقَائِمِينَ بِدَعْوَتِهَا مُنْذُ أَوَّلِ أَمْرِهِمْ .

وأما أهل الأندلس لهذا العهد، فالمخصوص عندهم بالحسبان وتنفيذ حال السلطان وسائر الأمور المالية يسمونه بالوكيل. وأما الوزير فكالوزير إلا أنه يجمع له الترسيل. والسلطان عندهم يضع خطه على السجلات كلها فليس هناك خطة العلامة كما لغيرهم من الدول.

وأما دولة الترك بمصر، فاسم الحاجب عندهم موضوع لحاكم من أهل الشوكة، وهم الترك ينفذ الأحكام بين الناس في المدينة، وهم متعددون. وهذه الوظيفة عندهم تحت وظيفة النيابة التي لها الحكم في أهل الدولة وفي العامة على الإطلاق. وللنائب التولية والعزل في بعض الوظائف على الأحيان، ويقطع القليل من الأرزاق ويبتها وتنفذ أوامره كما تنفذ المراسم السلطانية، وكان له النيابة المطلقة عن السلطان. وللحجاب الحكم فقط، في طبقات العامة والجند عند الترافع إليهم، وإجبار من أبى الانقياد للحكم، وطورهم تحت طور النيابة. والوزير في دولة الترك هو صاحب جباية الأموال في الدولة على اختلاف أصنافها من خراج أو مكس أو جزية، ثم في تصريفها في الإنفاقات السلطانية أو الجرايات المقدرة، وله مع ذلك التولية والعزل في سائر العمال المباشرين لهذه الجباية والتنفيذ على اختلاف مراتبهم، وتباين أصنافهم.

ومن عوائدهم أن يكون هذا الوزير من صنف القبط القائمين على ديوان الحسبان والجباية لاختصاصهم بذلك في مصر منذ عصور قديمة. وقد يوليها السلطان بعض الأحيان لأهل الشوكة من رجالات الترك أو أبنائهم على حسب الداعية لذلك. والله مدبر الأمور، ومصرفها بحكمته لا إله إلا هو رب الأولين والآخرين.

(ديوان الأعمال والجبايات)

إعلم أن هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك، وهي القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم في إباناتها (١) والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتبها (٢) قومة تلك الأعمال، وقهارمة (٣) الدولة، وهي كلها مسطورة، في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج، مبني على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال، ويسمى ذلك الكتاب بالديوان، وكذلك مكان جلوس العمال المباشرين لها.

ويقال إن أصل هذه التسمية أن كسرى نظر يوما إلى كتاب ديوانه، وهم يحسبون على أنفسهم كأنهم يحادثون، فقال: ديوانه أي مجانين بلغة الفرس، فسمي موضعهم بذلك، وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفا فقيل ديوان، ثم نقل هذا الاسم إلى كتاب هذه الأعمال المتضمن للقوانين والحسبانات.

---

(١) في مواعيدها.
(٢) يسنها.
(٣) جمع قهرمان ... وهو لخادم الخاص. ويفيد السياق أن هؤلاء القهارمة كانوا بمثابة الخبراء في ترتيب تلك القوانين.

وَقِيلَ إِنَّهُ اسْمٌ لِلشَّيَاطِينِ بِالْفَارِسِيَّةِ ، سُمِّيَ الْكُتَّابُ بِذَلِكَ لِسُرْعَةِ نُفُوذِهِمْ فِي فَهْمِ الْأُمُورِ ، وَوُقُوفِهِمْ عَلَى الْجَلِيِّ مِنْهَا وَالْخَفِيِّ ، وَجَمْعِهِمْ لِمَا شَذَّ وَتَفَرَّقَ ، ثُمَّ نُقِلَ إِلَى مَكَانِ جُلُوسِهِمْ لِتِلْكَ الْأَعْمَالِ . وَعَلَى هَذَا فَيَتَنَاوَلُ اسْمُ الدِّيوَانِ كُتَّابَ الرَّسَائِلِ ، وَمَكَانَ جُلُوسِهِم بِبَابِ السُّلْطَانِ عَلَى مَا يَأْتِي بَعْدُ .

وَقَدْ تُفْرَدُ هَذِهِ الْوَظِيفَةُ بِنَاظِرٍ وَاحِدٍ ، يَنْظُرُ فِي سَائِرِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ ، وَقَدْ يُفْرَدُ كُلُّ صِنْفٍ مِنْهَا بِنَاظِرٍ ، كَمَا يُفْرَدُ فِي بَعْضِ الدُّوَلِ النَّظَرُ فِي الْعَسَاكِرِ وَإِقْطَاعَاتِهِمْ وَحُسْبَانِ أَعْطِيَاتِهِمْ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ عَلَى حَسَبِ مُصْطَلَحِ الدَّوْلَةِ وَمَا قَرَّرَهُ أَوَّلُوهَا .

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْوَظِيفَةَ ، إِنَّمَا تَحْدُثُ فِي الدُّوَلِ عِنْدَ تَمَكُّنِ الْغَلَبِ وَالِاسْتِيلَاءِ ، وَالنَّظَرِ فِي أَعْطَافِ الْمُلْكِ وَفُنُونِ التَّمْهِيدِ .

وَأَوَّلُ مَنْ وَضَعَ الدِّيوَانَ فِي الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، يُقَالُ لِسَبَبِ مَالٍ أَتَى بِهِ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنَ الْبَحْرَيْنِ ، فَاسْتَكْثَرُوهُ وَتَعِبُوا فِي قَسْمِهِ ، فَسَمَوْا إِلَى إِحْصَاءِ الْأَمْوَالِ وَضَبْطِ الْعَطَاءِ وَالْحُقُوقِ فَأَشَارَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِالدِّيوَانِ وَقَالَ رَأَيْتُ مُلُوكَ الشَّامِ يُدَوِّنُونَ ، فَقَبِلَ مِنْهُ عُمَرُ .

وَقِيلَ بَلْ أَشَارَ عَلَيْهِ بِهِ الْهُرْمُزَانُ (١) لَمَّا رَآهُ يَبْعَثُ الْبُعُوثَ بِغَيْرِ دِيوَانٍ ، فَقِيلَ لَهُ ، وَمَنْ يَعْلَمُ بِغَيْبَةِ مَنْ يَغِيبُ مِنْهُمْ ؟ فَإِنَّ مَنْ تَخَلَّفَ أَخَلَّ بِمَكَانِهِ . وَإِنَّمَا يَضْبُطُ ذَلِكَ الْكِتَابُ . فَأَثْبَتَ لَهُمْ دِيوَانًا . وَسَأَلَ عُمَرُ عَنِ اسْمِ الدِّيوَانِ فَعُبِّرَ لَهُ ، وَلَمَّا اجْتَمَعَ ذَلِكَ أَمَرَ عَقِيلَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، وَمَخْرَمَةَ ابْنَ نَوْفَلٍ وَجُبَيْرَ بْنَ مُطْعِمٍ ، وَكَانُوا مِنْ كُتَّابِ قُرَيْشٍ ، فَكَتَبُوا دِيوَانَ الْعَسَاكِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، عَلَى تَرْتِيبِ الْأَنْسَابِ مُبْتَدَأً مِنْ قَرَابَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَا بَعْدَهَا الْأَقْرَبُ ، فَالْأَقْرَبُ . هَكَذَا كَانَ ابْتِدَاءُ دِيوَانِ الْجَيْشِ . وَرَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ ، أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي الْمُحَرَّمِ سَنَةَ عِشْرِينَ .

وَأَمَّا دِيوَانُ الْخَرَاجِ وَالْجِبَايَاتِ فَبَقِيَ بَعْدَ الْإِسْلَامِ ، عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلٍ : دِيوَانُ الْعِرَاقِ بِالْفَارِسِيَّةِ ، وَدِيوَانُ الشَّامِ بِالرُّومِيَّةِ ، وَكُتَّابُ الدَّوَاوِينِ مِنْ أَهْلِ الْعَهْدِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ .

وَلَمَّا جَاءَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ وَاسْتَحَالَ الْأَمْرُ مُلْكًا ، وَانْتَقَلَ الْقَوْمُ مِنْ غَضَاضَةِ الْبَدَاوَةِ إِلَى رَوْنَقِ الْحَضَارَةِ ، وَمِنْ سَذَاجَةِ الْأُمِّيَّةِ إِلَى حِذْقِ الْكِتَابَةِ ، وَظَهَرَ فِي الْعَرَبِ وَمَوَالِيهِمْ مَهَرَةٌ فِي الْكِتَابِ وَالْحِسْبَانِ ، فَأَمَرَ عَبْدُ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ بْنَ سَعْدٍ وَالِي الْأُرْدُنِّ لِعَهْدِهِ ، أَنْ يَنْقُلَ دِيوَانَ الشَّامِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ ، فَأَكْمَلَهُ لِسَنَةٍ مِنْ يَوْمِ ابْتِدَائِهِ ، وَوَقَفَ عَلَيْهِ سَرْجُونُ كَاتِبُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَقَالَ لِكُتَّابِ الرُّومِ اطْلُبُوا الْعَيْشَ فِي غَيْرِ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ ، فَقَدْ قَطَعَهَا اللهُ عَنْكُمْ .

وَأَمَّا دِيوَانُ الْعِرَاقِ فَأَمَرَ الْحَجَّاجُ كَاتِبَهُ صَالِحَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، وَكَانَ يَكْتُبُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْفَارِسِيَّةِ ، وَلَقِنَ ذَلِكَ عَنْ زَادَانَ فَرُّوخَ كَاتِبِ الْحَجَّاجِ قَبْلَهُ ، وَلَمَّا قُتِلَ زَادَانُ فِي حَرْبِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ

---

(١) يلقب به الكبير من ملوك العجم .

ابن الأشعث استخلف الحجاج صالحا هذا مكانه، وأمره أن ينقل الديوان من الفارسية إلى العربية ففعل، ورغم لذلك كتاب الفرس. وكان عبد الحميد بن يحيى يقول لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب.

ثم جعلت هذه الوظيفة فى دولة بنى العباس مضافة إلى من كان له النظر فيه كما كان شأن بنى برمك، وبنى سهل بن نوبخت وغيرهم من وزراء الدولة.

وأما ما يتعلق بهذه الوظيفة من الأحكام الشرعية مما يختص بالجيش، أو بيت المال فى الدخل والخرج، وتمييز النواحي بالصلح والعنوة، وفى تقليد هذه الوظيفة لمن يكون، وشروط الناظر فيها والكاتب، وقوانين الحسبانات، فأمر راجع إلى كتب الأحكام السلطانية، وهى مسطورة هنالك، وليست من غرض كتابنا، وإنما نتكلم فيها من حيث طبيعة الملك الذى نحن بصدد الكلام فيه. وهذه الوظيفة جزء عظيم من الملك، بل هى ثالثة أركانه لأن الملك لابد له من الجند والمال والمخاطبة لمن غاب عنه، فاحتاج صاحب الملك إلى الأعوان فى أمر السيف وأمر القلم وأمر المال، فينفرد صاحبها لذلك بجزء من رياسة الملك. وكذلك كان الأمر فى دولة بنى أمية بالأندلس والطوائف بعدهم.

وأما فى دولة الموحدين فكان صاحبها إنما يكون من الموحدين، يستقل بالنظر فى استخراج الأموال وجمعها وضبطها، وتعقب نظر الولاة والعمال فيها، ثم تنفيذها على قدرها، وفى مواقيتها، وكان يعرف بصاحب الأشغال.

وكان ربما يليها فى الجهات غير الموحدين ممن يحسنها.

ولما استبد بنو أبى حفص بإفريقية، وكان شأن الجالية من الأندلس، فقدم عليهم أهل البيوتات، وفيهم من كان يستعمل ذلك فى الأندلس، مثل بنى سعيد، أصحاب القلعة، جوار غرناطة المعروفين ببنى أبى الحسن، فاستكفوا بهم فى ذلك، وجعلوا لهم النظر فى الأشغال كما كان لهم بالأندلس، وداولوا[1] فيها بينهم وبين الموحدين، ثم استقل بها أهل الحسبان والكتاب، وخرجت عن الموحدين ثم لما استغلظ أمر الحاجب، ونفذ أمره فى كل شأن من شئون الدولة، تعطل هذا الرسم وصار صاحبه مرؤوسا للحاجب، وأصبح من جملة الجباة، وذهبت تلك الرياسة التى كانت له فى الدولة.

وأما دولة بنى مرين، لهذا العهد فحسبان العطاء والخراج مجموع لواحد، وصاحب هذه الرتبة هو الذى يصحح الحسبانات كلها، ويرجع إلى ديوانه ونظره معقب بنظر السلطان، أو الوزير، وخطه معتبر فى صحة الحسبان فى الخارج والعطاء.

هذه أصول الرتب والخطط السلطانية، وهى الرتب العالية، التى هى عامة النظر ومباشرة للسلطان.

وأما هذه الرتبة فى دولة الترك، فمتنوعة. وصاحب ديوان العطاء يعرف بناظر الجيش.

(١) تداولوها فيما بينهم

وَصَاحِبُ الْمَالِ مَخْصُوصٌ بِاسْمِ الْوَزِيرِ ، وَهُوَ النَّاظِرُ فى دِيوَانِ الْجِبَايَةِ الْعَامَّةِ للدَّوْلَةِ ، ووَهُوَ أَعْلَى رُتَبِ النَّاظِرِينَ فى الْأَمْوَالِ ، لِأَنَّ النَّظَرَ فى الْأَمْوَالِ عِنْدَهُمْ يَتَنَوَّعُ إِلَى رُتَبٍ كَثِيرَةٍ ، لانْفِسَاحِ دَوْلَتِهِمْ ، وَعَظَمَةِ سُلْطَانِهِمْ ، وَاتِّسَاعِ الْأَمْوَالِ وَالْجِبَايَاتِ عَنْ أَنْ يَسْتَقِلَّ بِضَبْطِهَا الْوَاحِدُ مِنَ الرِّجَالِ .وَلَوْبَلَغَ فى الْكِفَايَةِ مَبَالِغَهُ . فَتَعَيَّنَ لِلنَّظَرِ الْعَامِّ مِنْهَا هٰذَا الْمَخْصُوصَ بِاسْمِ الْوَزِيرِ .

وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ رَدِيفٌ لِمَوْلًى مِنْ مَوَالِى السُّلْطَانِ وَأَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ وَأَرْبَابِ السُّيُوفِ فى الدَّوْلَةِ يَرْجِعُ نَظَرُ الْوَزِيرِ إِلَى نَظَرِهِ وَيَجْتَهِدُ جُهْدَهُ فى مُتَابَعَتِهِ ، وَيُسَمَّى عِنْدَهُمْ أُسْتَاذَ الدَّوْلَةِ ، وَهُوَ أَحَدُ الْأُمَرَاءِ الْأَكَابِرِ فى الدَّوْلَةِ مِنَ الْجُنْدِ ، وَأَرْبَابِ السُّيُوفِ .

وَيَتْبَعُ هٰذِهِ الْخُطَّةَ خُطَطٌ عِنْدَهُمْ أُخْرَى كُلُّهَا رَاجِعَةٌ إِلَى الْأَمْوَالِ وَالْحُسْبَانِ ، مَقْصُورَةُ النَّظَرِ إِلَى أُمُورٍ خَاصَّةٍ مِثْلِ نَاظِرِ الْخَاصِّ وَهُوَ الْمُبَاشِرُ لِأَمْوَالِ السُّلْطَانِ الْخَاصَّةِ بِهِ مِنْ إِقْطَاعَاتِهِ أَوْ سُهْمَانِهِ[1] مِنْ أَمْوَالِ الْخَرَاجِ وَبِلَادِ الْجِبَايَةِ ، مِمَّا لَيْسَ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ الْعَامَّةِ ، وَهُوَ تَحْتَ يَدِ الْأَمِيرِ أُسْتَاذِ الدَّارِ .

وَإِنْ كَانَ الْوَزِيرُ مِنَ الْجُنْدِ فَلَا يَكُونُ لِأُسْتَاذِ الدَّارِ نَظَرٌ عَلَيْهِ . وَنَاظِرُ الْخَاصِّ تَحْتَ يَدِ الْخَازِنِ لِأَمْوَالِ السُّلْطَانِ مِنْ مَمَالِيكِهِ الْمُسَمَّى خَازِنَ الدَّارِ لِاخْتِصَاصِ وَظِيفَتِهِمَا بِمَالِ السُّلْطَانِ الْخَاصِّ .

هٰذَا بَيَانُ هٰذِهِ الْخُطَّةِ ، بِدَوْلَةِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ ، بَعْدَ مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَمْرِهَا بِالْمَغْرِبِ . وَاللّٰهُ مُصَرِّفُ الْأُمُورِ لَا رَبَّ غَيْرُهُ .

(١) جمع سهم .

ديوان الرسائل والكتابة

هٰذِهِ الْوَظِيفَةُ غَيْرُ ضَرُورِيَّةٍ فى الْمُلْكِ لِاسْتِغْنَاءِ كَثِيرٍ مِنَ الدُّوَلِ عَنْهَا رَأْسًا كَمَا فى الدُّوَلِ الْعَرِيقَةِ فى الْبَدَاوَةِ الَّتِى لم يَأْخُذْهَا تَهْذِيبُ الْحِضَارَةِ وَلَا اسْتِحْكَامُ الصَّنَائِعِ .

وَإِنَّمَا أَكَّدَ الْحَاجَةَ إِلَيْهَا فى الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، شَأْنُ اللِّسَانِ الْعَرَبِىِّ ، وَالْبَلَاغَةُ فى الْعِبَارَةِ عَنِ الْمَقَاصِدِ ، فَصَارَ الْكِتَابُ يُؤَدِّى كُنْهَ الْحَاجَةِ بِأَبْلَغَ مِنَ الْعِبَارَةِ اللِّسَانِيَّةِ فى الْأَكْثَرِ . وَكَانَ الْكَاتِبُ لِلْأَمِيرِ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ نَسَبِهِ ، وَمِنْ عُظَمَاءِ قَبِيلِهِ ، كَمَا كَانَ لِلْخُلَفَاءِ وَأُمَرَاءِ الصَّحَابَةِ بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ لِعِظَمِ أَمَانَتِهِمْ وَخُلُوصِ أَسْرَارِهِمْ .

فَلَمَّا فَسَدَ اللِّسَانُ وَصَارَ صِنَاعَةً اخْتُصَّ بِمَنْ يُحْسِنُهُ . وَكَانَتْ عِنْدَ بَنِى الْعَبَّاسِ رَفِيعَةً وَكَانَ الْكَاتِبُ يُصْدِرُ السِّجِلَّاتِ مُطْلَقَةً ، وَيَكْتُبُ فى آخِرِهَا اسْمَهُ وَيَخْتِمُ عَلَيْهَا بِخَاتَمِ السُّلْطَانِ وَهُوَ طَابَعٌ مَنْقُوشٌ فِيهِ اسْمُ السُّلْطَانِ أَوْشَارَتُهُ يُغْمَسُ فى طِينٍ أَحْمَرَ مُذَابٍ بِالْمَاءِ وَيُسَمَّى طِينَ الْخَتْمِ ، وَيُطْبَعُ بِهِ عَلَى طَرَفَىِ السِّجِلِّ عِنْدَ طَيِّهِ وَإِلْصَاقِهِ .

ثُمَّ صَارَتِ السِّجِلَّاتُ مِنْ بَعْدِهِمْ تُصْدَرُ بِاسْمِ السُّلْطَانِ ، وَيَضَعُ الْكَاتِبُ فِيهَا عَلَامَتَهُ أَوَّلًا أَوْ آخِرًا ، عَلَى حَسَبِ الِاخْتِيَارِ فى مَحَلِّهَا وفى لَفْظِهَا . ثُمَّ قَدْ تَنْزِلُ هٰذِهِ الْخُطَّةُ بِارْتِفَاعِ الْمَكَانِ عِنْدَ السُّلْطَانِ لِغَيْرِ صَاحِبِهَا ، مِنْ أَهْلِ الْمَرَاتِبِ فى الدَّوْلَةِ ، أَوِ اسْتِبْدَادِ وَزِيرٍ عَلَيْهِ ، فَتَصِيرُ عَلَامَةُ هٰذَا الْكِتَابِ مُلْغَاةَ الْحُكْمِ بِعَلَامَةِ الرَّئِيسِ عَلَيْهِ ، يُسْتَدَلُّ بِهَا فَيُكْتَبُ صُورَةَ عَلَامَتِهِ الْمَعْهُودَةِ ، وَالْحُكْمُ لِعَلَامَةِ

ذٰلِكَ الرَّئِيسِ ، كَمَا وَقَعَ آخِرَ الدَّوْلَةِ الْحَفْصِيَّةِ ، لَمَّا ارْتَفَعَ شأن الْحِجَابَةِ ، وَصَارَ أَمْرُهَا إِلَى التَّفْوِيضِ ثُمَّ الاسْتِبْدَادِ صَارَ حُكْمُ الْعَلَامَةِ الَّتِى لِلْكَاتِبِ مُلْغًى وَصُورَتُهَا ثَابِتَةً ، إِتْبَاعًا لِمَا سَلَفَ مِنْ أَمْرِهَا . فَصَارَ الْحَاجِبُ يَرْسِمُ لِلْكَاتِبِ امْضَاءَ كِتَابِهِ ذٰلِكَ بِخَطٍّ يَصْنَعُهُ وَيَتَخَيَّرُ لَهُ مِنْ صِيَغِ الإِنْفَاذِ مَاشَاءَ ، فَيَأْتَمِرُ الْكَاتِبُ لَهُ ، وَيَضَعُ الْعَلَامَةَ الْمُعْتَادَةَ ، وَقَدْ يَخْتَصُّ السُّلْطَانُ بِنَفْسِه ذٰلِكَ إِذَا كَانَ مُسْتَبِدًّا بِأَمْرِهِ قَائِمًا عَلَى نَفْسِهِ ، فَيَرْسِمُ الْأَمْرَ لِلْكَاتِبِ لِيَضَعَ عَلَامَتَهُ .

وَمِنْ خُطَطِ الْكِتَابَةِ التَّوْقِيعُ ، وَهُوَ أَنْ يَجْلِسَ الْكَاتِبُ بَيْنَ يَدَىِ السُّلْطَانِ فِى مَجَالِسِ حُكْمِهِ وَفَصْلِهِ ، وَيُوَقِّعَ عَلَى الْقِصَصِ الْمَرْفُوعَةِ إِلَيْهِ أَحْكَامُهَا وَالْفَصْلُ فِيهَا مُتَلَقَّاةً مِنَ السُّلْطَانِ بِأَوْجَزِ لَفْظٍ وَأَبْلَغِهِ . فَإِمَّا أَنْ تَصْدُرَ كَذٰلِكَ ، وَإِمَّا أَنْ يَحْذُوَ الْكَاتِبُ عَلَى مِثَالِهَا فِى سِجِلٍّ يَكُونُ بِيَدِ صَاحِبِ الْقِصَّةِ . وَيَحْتَاجُ الْمُوَقِّعُ إِلَى عَارِضَةٍ مِنَ الْبَلَاغَةِ يَسْتَقِيمُ بِهَا تَوْقِيعُهُ .

وَقَدْ كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى يُوَقِّعُ فِى الْقِصَصِ بَيْنَ يَدَىِ الرَّشِيدِ ، وَيَرْمِى بِالْقِصَّةِ إِلَى صَاحِبِهَا ، فَكَانَتْ تَوْقِيعَاتُهُ يَتَنَافَسُ الْبُلَغَاءُ فِى تَحْصِيلِهَا لِلْوُقُوفِ فِيهَا عَلَى أَسَالِيبِ الْبَلَاغَةِ وَفُنُونِهَا ، حَتَّى قِيلَ إِنَّهَا كَانَتْ تُبَاعُ كُلُّ قِصَّةٍ مِنْهَا بِدِينَارٍ ، وَهٰكَذَا كَانَ شَأْنُ الدُّوَلِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ صَاحِبَ هٰذِهِ الْخُطَّةِ لَابُدَّ مِنْ أَنْ يُتَخَيَّرَ مِن أَرْفَعِ طَبَقَاتِ النَّاسِ وَأَهْلِ الْمُرُوءَةِ وَالْحِشْمَةِ مِنْهُمْ وَزِيَادَةِ الْعِلْمِ وَعَارِضَةِ الْبَلَاغَةِ ، فَإِنَّهُ مُعَرَّضٌ لِلنَّظَرِ فِى أُصُولِ الْعِلْمِ لِمَا يَعْرِضُ فِى مَجَالِسِ الْمُلُوكِ وَمَقَاصِدِ أَحْكَامِهِمْ مِنْ أَمْثَالِ ذٰلِكَ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ عِشْرَةُ الْمُلُوكِ مِنَ الْقِيَامِ عَلَى الْآدَابِ وَالتَّخَلُّقِ بِالْفَضَائِلِ مع مَا يُضْطَرُّ إِلَيْهِ فِى التَّرْسِيلِ وَتَطْبِيقِ مَقَاصِدِ الْكَلَامِ مِنَ الْبَلَاغَةِ وأسرارها .

وَقَد تَكُونُ الرُّتْبَةُ فِى بَعْضِ الدُّوَلِ مُسْتَنِدَةً إِلَى أَرْبَابِ السُّيُوفِ لِمَا يَقْتَضِيهِ طَبْعُ الدَّوْلَةِ مِنَ الْبُعْدِ عَن مُعَانَاةِ الْعُلُومِ لِأَجْلِ سَذَاجَةِ الْعَصَبِيَّةِ ، فَيَخْتَصُّ السُّلْطَانُ أَهلَ عَصَبِيَّتِهِ بِخُطَطِ دَوْلَتِهِ ، وَسَائِرِ رُتَبِهِ ، فَيُقَلِّدُ الْمَالَ وَالسَّيْفَ وَالْكِتَابَةَ مِنْهُم . فَأَمَّا رُتْبَةُ السَّيْفِ فَتَسْتَغْنِى عَن مُعَانَاةِ الْعِلْمِ . وَأَمَّا الْمَالُ والكتـابة فيضطر إِلَى ذٰلِكَ للبلاغة فى هـذه وَالْحُسْبَانُ فِى الْأُخْرَى ، فَيَخْتَارُونَ لَهَا مِن هٰذِهِ الطَّبَقَةِ مَادَعَتْ إليهِ الضَّرُورَةُ ، وَيُقَلِّدُونَهُ . إِلَّا أَنَّهُ تَكُونُ[1] يَدُ آخَرَ مِن أَهلِ الْعَصَبِيَّةِ غَالِبَةً عَلَى يَدِهِ وَيَكُونُ نَظَرُهُ مُتَصَرِّفًا عَن نَظَرِهِ كَمَا هُوَ فِى دَوْلَةِ التُّرْكِ لِهٰذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ . فَإِنَّ الْكِتَابَةَ عِنْدَهُم وَإِنْ كَانَتْ لِصَاحِبِ الْإِنْشَاءِ ، إِلَّا أَنَّهُ تحتَ يَدِ أَمِيرٍ مِن أَهلِ عَصَبِيَّةِ السُّلْطَانِ ، يُعرَفُ بِالدُّوَيْدَارِ . وَتَعوِيلُ السُّلْطَانِ وَوُثُوقُهُ بِهِ وَاستِنَامَتُهُ[2] فِى غَالِبِ أَحوَالِهِ إِلَيهِ ، وَتَعوِيلُهُ عَلَى الْآخَرِ فِى أَحوَالِ الْبَلَاغَةِ ، وَتَطْبِيقِ الْمَقَاصِدِ وَكِتْمَانِ الْأَسْرَارِ وَغَيرِ ذٰلِكَ مِن تَوَابِعِهَا .

وَأَمَّا الشُّرُوطُ الْمُعْتَبَرَةُ فِى صَاحِبِ هٰذِهِ الرُّتْبَةِ الَّتِى يُلَاحِظُهَا السُّلْطَانُ فِى اخْتِيَارِهِ وَانْتِقَائِهِ مِن

---

(١) فى الأصل (لا تكون) بزيادة لا . وفيه مناقضة للمعنى . وقد حذفه د. وافى فى منشورته و هو الصواب .

(٢) اطمئنانه إليه .

أصناف الناس فهي كثيرة وأحسن من استوعبها عبد الحميد الكاتب في رسالته إلى الكتّاب وهي :

« أمّا بعدُ حفظكم اللهُ يا أهل صناعة الكتابة ، وحاطكم ووفّقكم وأرشدكم . فإنّ الله عزّ وجلّ جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ومن بعد الملوك المكرّمين أصنافا وإنْ كانوا في الحقيقة سواءً . وصرّفهم في صنوف الصناعات ، وضروب المحاولات ، إلى أسباب معاشهم ، وأبواب أرزاقهم فجعلكم معشر الكتّاب في أشرف الجهات أهل الأدب والمروءات والعلم والرزانة . بكم ينتظم للخلافة محاسنها ، وتستقيم أمورها . وبنصحائكم يصلح الله للخلق سلطانهم ، وتعمر بلدانهم ولا يستغني الملك عنكم ، ولا يوجد كافٍ إلّا منكم . فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها يبصرون ، وألسنتهم التي بها ينطقون ، وأيديهم التي بها يبطشون فأمتعكم الله بما خصّكم من فضل صناعتكم ، ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم . وليس أحدٌ من أهل الصناعات كلّها أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم » .

« أيّها الكتّاب : إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم فإنّ الكاتب يحتاج في نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمّات أموره ، أنْ يكون حليما في موضع الحلم ، فهيما في موضع الحكم ، مقداما في موضع الإقدام ، محجما في موضع الإحجام ، مؤثرا للعفاف والعدل والإنصاف ، كتوما للأسرار ، وفيّا عند الشدائد ، عالما بما يأتي من النوازل ، يضع الأمور مواضعها ، والطوارق في أماكنها . قد نظر في كلّ فنّ من فنون العلم فأحكمه ، وإنْ لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به . يعرف بغريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره ، فيعدّ لكلّ أمر عدّته وعتاده ويهيّئ لكلّ وجه هيئته وعادته » .

« فتنافسوا يا معشر الكتّاب في صنوف الآداب . وتفقّهوا في الدين وابدأوا بعلم كتاب الله عزّ وجلّ ، والفرائض ، ثمّ العربيّة فإنّها ثقاف(١) ألسنتكم ، ثمّ أجيدوا الخطّ ، فإنّه حلية كتبكم ، وارووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيّام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ، فإنّ ذلك معين لكم على ما تسموا إليه هممكم ، ولا تضيعوا النظر في الحساب ، فإنّه قوام كتّاب الخراج » .

« وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيّها ودنيّها وسفساف الأمور ومحاقرها فإنّها مذلّة للرقاب مفسدة للكتّاب . ونزّهوا صناعتكم عن الدناءة واربأوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة ، وما فيه أهل الجهالات » .

« وإيّاكم والكبر والسخف والعظمة ، فإنّها عداوة مجتلبة من غير إحنة ، وتحابّوا في الله عزّ

(١) وسيلة تقويمها . والثقاف في الأصل الآلة التي تسوى بها الرماح .

وجل فى صناعتكم وتواصوا عليها بالذى هو أليق لأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم ».

« وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وآسوه حتى يرجع إليه حاله، ويثوب إليه أمره. وإن أقعد أحدا منكم الكبر عن مكسبه ولقاء إخوانه ، فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته ».

« وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه أحوط منه على ولده وأخيه . فإن عرضت فى الشغل محمدة فلا يصرفها إلا إلى صاحبه وإن عرضت مذمة فليحملها هو من دونه ، وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال . فإن العيب إليكم معشر الكتاب أسرع منه إلى القراء، وهو لكم أفسد منه لهم ».

« فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه من يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وخيره ونصيحته وكتمان سره وتدبير أمره ما هو جزاء لحقه ، ويصدق ذلك بفعاله عند الحاجة إليه ، والاضطرار إلى ما لديه فاستشعروا ذلك . وفقكم الله من أنفسكم فى حالة الرخاء والشدة والحرمان والمواساة والإحسان والسراء والضراء ؛ فنعمت السمة هذه من وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة ».

« وإذا ولى الرجل منكم أو صير إليه من أمر خلق الله وعياله أمر فليراقب الله عز وجل وليؤثر طاعته ، وليكن على الضعيف رفيقا ، وللمظلوم منصفا ، فإن الخلق عيال الله وأحبهم إليه أرفقهم بعياله ، ثم ليكن بالعدل حاكما وللأشراف مكرما ، وللفىء موفرا ، وللبلاد عامرا ، وللرعية متألفا ، وعن أذاهم متخلفا ، وليكن فى مجلسه متواضعا حليما ، وفى سجلات خراجه واستقضاء حقوقه رفيقا ».

« وإذا صحب أحدكم رجلا فليختبر خلائقه ، فإذا عرف حسنها وقبحها ، أعانه على ما يوافقه من الحسن ، واحتال على صرفه عما يهواه من القبح بألطف حيلة وأجمل وسيلة ».

« وقد علمتم أن سائس البهيمة ، إذا كان بصيرا بسياستها التمس معرفة أخلاقها ، فإن كانت رموحا(١) لم يهجها ، إذا ركبها ، وإن كانت شبوبا(٢) اتقاها من بين يديها وإن خاف منها شرودا توقاها من من ناحية رأسها ، وإن كانت حرونا(٣) قمع برفق هواها فى طرقها(٤) ، فإن استمرت عطفها بيسيرا فيسلس(٥) له قيادها . وفى هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم ».

« والكاتب بفضل أدبه وشريف صنعته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره من الناس ويناظره ويفهم عنه أو يخاف سطوته أولى بالرفق لصاحبه ومداراته وتقويم أوده من سائس البهيمة التى لا تحير(٥) جوابا ولا تعرف صوابا ولا تفهم خطابا إلا بقدر ما يصيرها إليه صاحبها الراكب عليها ».

---

(١) كثيرة الرفس .
(٢) كثيرة رفع اليدين .
(٣) التى إذا استدر جريها وقفت ولم تستجب .
(٤) فى ضربه لها .
(٥) يلين .
(٦) لا ترد جواباً .

« أَلَا فَارْفُقُوا رَحِمَكُمُ اللهُ فِى النَّظَرِ ، وَاعْمَلُوا مَا أَمْكَنَكُم فِيهِ مِنَ الرَّوِيَّةِ وَالْفِكْرِ ، تَأْمَنُوا بِإِذْنِ اللهِ ، مِمَّنْ صَحِبْتُمُوهُ النَّبْوَةَ وَالاسْتِثْقَالَ وَالْجَفْوَةَ ، وَيَصِيرُ مِنْكُم إِلَى الْمُوَافَقَةِ ، وَتَصِيرُوا مِنْهُ إِلَى الْمُؤَاخَاةِ وَالشَّفَقَةِ إِنْ شَاءَ اللهُ » .

« وَلَا يُجَاوِزَنَّ الرَّجُلُ مِنْكُم فِى هَيْئَةِ مَجْلِسِهِ وَمَلْبَسِهِ وَمَرْكَبِهِ وَمَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ وَبِنَائِهِ وَخَدَمِهِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِن فُنُونِ أَمْرِهِ قَدْرَ حَقِّهِ ؛ فَإِنَّكُم مَعَ مَا فَضَّلَكُمُ اللهُ بِهِ مِن شَرَفِ صَنْعَتِكُم خَدَمَةٌ لَاتُحْمَلُونَ فِى خِدْمَتِكُم عَلَى التَّقْصِيرِ ، وَحَفَظَةٌ لَاتُحْتَمَلُ مِنْكُم أَفْعَالُ التَّضْيِيعِ وَالتَّبْذِيرِ . وَاسْتَعِينُوا عَلَى عَفَافِكُم بِالْقَصْدِ فِى كُلِّ مَا ذَكَرْتُهُ لَكُمْ وَقَصَصْتُهُ عَلَيْكُمْ . وَاحْذَرُوا مَتَالِفَ السَّرَفِ وَسُوءَ عَاقِبَةِ التَّرَفِ ، فَإِنَّهُمَا يُعْقِبَانِ الْفَقْرَ وَيُذِلَّانِ الرِّقَابَ وَيَفْضَحَانِ أَهْلَهُمَا وَسِيَّمَا الْكُتَّابَ وَأَرْبَابَ الْآدَابِ » .

« وَلِلْأُمُورِ أَشْبَاهٌ وَبَعْضُهَا دَلِيلٌ عَلَى بَعْضٍ ؛ فَاسْتَدِلُّوا عَلَى مُؤْتَنَفِ(١) أَعْمَالِكُمْ بِمَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ تَجْرِبَتُكُمْ ، ثُمَّ اسْلُكُوا مِنْ مَسَالِكِ التَّدْبِيرِ أَوْضَحَهَا مَحَجَّةً وَأَصْدَقَهَا حُجَّةً ، وَأَحْمَدَهَا عَاقِبَةً . وَاعْلَمُوا أَنَّ لِلتَّدْبِيرِ آفَةً مُتْلِفَةً ، وَهُوَ الْوَصْفُ الشَّاغِلُ لِصَاحِبِهِ عَنْ إِنْفَاذِ عِلْمِهِ وَرَوِيَّتِهِ . فَلْيَقْصِدِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِى مَجْلِسِهِ قَصْدَ الْكَافِى مِنْ مَنْطِقِهِ ، وَلْيُوجِزْ فِى ابْتِدَائِهِ وَجَوَابِهِ ، وَلْيَأْخُذْ بِمَجَامِعِ حُجَجِهِ ؛ فَإِنَّ ذٰلِكَ مَصْلَحَةٌ لِفِعْلِهِ وَمَدْفَعَةٌ لِلشَّاغِلِ عَنْ إِكْثَارِهِ . وَلْيَضْرَعْ إِلَى اللهِ فِى صِلَةِ تَوْفِيقِهِ وَإِمْدَادِهِ بِتَسْدِيدِهِ مَخَافَةَ وُقُوعِهِ فِى الْغَلَطِ الْمُضِرِّ بِبَدَنِهِ وَعَقْلِهِ وَأَدَبِهِ » .

(١) ما لم تجربوه .

« فَإِنَّهُ إِنْ ظَنَّ مِنْكُمْ ظَانٌّ أَوْ قَالَ قَائِلٌ إِنَّ الَّذِى بَرَزَ مِنْ جَمِيلِ صَنْعَتِهِ وَقُوَّةِ حَرَكَتِهِ إِنَّمَا هُوَ بِفَضْلِ حِيلَتِهِ ، وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ ، فَقَدْ تَعَرَّضَ بِظَنِّهِ أَوْ مَقَالَتِهِ إِلَى أَنْ يَكِلَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى نَفْسِهِ فَيَصِيرَ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ كَافٍ ، وَذٰلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ غَيْرُ خَافٍ » .

« وَلَا يَقُلْ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِنَّهُ أَبْصَرُ بِالْأُمُورِ وَأَحْمَلُ لِعِبْءِ التَّدْبِيرِ مِنْ مُرَافِقِهِ فِى صِنَاعَتِهِ وَمُصَاحِبِهِ فِى خِدْمَتِهِ . فَإِنَّ أَعْقَلَ الرَّجُلَيْنِ عِنْدَ ذَوِى الْأَلْبَابِ مَنْ رَمَى بِالْعُجْبِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ وَرَأَى أَنَّ أَصْحَابَهُ أَعْقَلُ مِنْهُ وَأَحْمَدُ فِى طَرِيقَتِهِ . وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَنْ يَعْرِفَ فَضْلَ نِعَمِ اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ مِنْ غَيْرِ اغْتِرَارٍ بِرَأْيِهِ وَلَا تَزْكِيَةٍ لِنَفْسِهِ . وَلَا يُكَاثِرْ عَلَى أَخِيهِ أَوْ نَظِيرِهِ وَصَاحِبِهِ وَعَشِيرِهِ . وَحَمْدُ اللهِ وَاجِبٌ عَلَى الْجَمِيعِ ، وَذٰلِكَ بِالتَّوَاضُعِ لِعَظَمَتِهِ ، وَالتَّذَلُّلِ لِعِزَّتِهِ ، وَالتَّحَدُّثِ بِنِعْمَتِهِ » .

« وَأَنَا أَقُولُ فِى كِتَابِى هٰذَا مَا سَبَقَ بِهِ الْمَثَلُ : مَنْ تَلْزَمْهُ النَّصِيحَةُ يَلْزَمْهُ الْعَمَلُ ، وَهُوَ جَوْهَرُ هٰذَا الْكِتَابِ ، وَغُرَّةُ(١) كَلَامِهِ بَعْدَ الَّذِى فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَلِذٰلِكَ جَعَلْتُهُ آخِرَهُ ، وَتَمَّمْتُهُ بِهِ . تَوَلَّانَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ يَا مَعْشَرَ الطَّلَبَةِ وَالْكَتَبَةِ بِمَا يَتَوَلَّى بِهِ مَنْ سَبَقَ عِلْمُهُ بِإِسْعَادِهِ وَإِرْشَادِهِ ؛ فَإِنَّ ذٰلِكَ إِلَيْهِ وَبِيَدِهِ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ » .

(الشُّرْطَة) : وَيُسَمَّى صَاحِبُهَا لِهٰذَا الْعَهْدِ بِأَفْرِيقِيَّةَ الْحَاكِمَ ، وَفِى دَوْلَةِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ صَاحِبَ الْمَدِينَةِ ، وَفِى دَوْلَةِ التُّرْكِ الْوَالِى . وَهِىَ وَظِيفَةٌ مَرْؤُوسَةٌ

(١) أحسن ما فيه .

لصاحب السيف في الدولة، وحكمه نافذ في صاحبها في بعض الأحيان.

وكان أصل وضعها في الدولة العباسية لمن يقيم أحكام الجرائم في حال استبدادها أولا، ثم الحدود بعد استيفائها، فإن التهم التي تعرض في الجرائم لا نظر للشرع إلا في استيفاء حدودها وللسياسة النظر في استيفاء موجباتها بإقرار يكرهه عليه الحاكم إذا احتفت به القرائن لما توجبه المصلحة العامة في ذلك. فكان الذي يقوم بهذا الاستبداد وباستيفاء الحدود بعده إذا تنزه عنه القاضي يسمى صاحب الشرطة. وربما جعلوا إليه النظر في الحدود والدماء بإطلاق وأفردوها من نظر القاضي، ونزهوا هذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم.

ولم تكن عامة التنفيذ في طبقات الناس إنما كان حكمهم على الدهماء وأهل الريب، والضرب على أيدي الرعاع والفجرة.

ثم عظمت نباهتها في دولة بني أمية بالأندلس وتنوعت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى: وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء وجعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم في الظلامات، وعلى أيدي أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه، وجعل صاحب الصغرى مخصوصا بالعامة. ونصب لصاحب الكبرى كرسي بباب دار السلطان، ورجال يتبوءون المقاعد بين يديه فلا يبرحون عنها إلا في تصريفه، وكانت ولايتها للأكابر من رجالات الدولة، حتى كانت ترشيحا للوزارة والحجابة.

وأما في دولة الموحدين بالمغرب، فكان لها حظ من التنويه، وإن لم يجعلوها عامة، وكان لا يليها إلا رجالات الموحدين وكبراؤهم ولم يكن له التحكم على أهل المراتب السلطانية.

ثم فسد اليوم منصبها، وخرجت عن رجال الموحدين، وصارت ولايتها لمن قام بها من المصطنعين.

وأما في دولة بني مرين، لهذا العهد بالمشرق، فولايتها في بيوت مواليهم وأهل اصطناعهم:

وفي دولة الترك بالمشرق في رجالات الترك أو أعقاب أهل الدولة قبلهم من الترك يتخيرونهم لها في النظر بما يظهر منهم من الصلابة والمضاء في الأحكام، لقطع مواد الفساد وحسم أبواب الدعارة وتخريب مواطن الفسوق وتفريق مجامعه مع إقامة الحدود الشرعية والسياسية: كما تقتضيه رعاية المصالح العامة في المدينة. والله مقلب الليل والنهار وهو العزيز الجبار. والله تعالى أعلم

(قيادة الأساطيل): وهي من مراتب الدولة وخططها في ملك المغرب وأفريقية، ومرءوسة لصاحب السيف وتحت حكمه في كثير من الأحوال، ويسمى صاحبها في عرفهم: «الملند» بتفخيم اللام، منقولا من لغة الإفرنجة، فإنه اسمها في اصطلاح لغتهم، وإنما اختصت هذه المرتبة بملك أفريقية والمغرب لأنهما جميعا على صفة

الْبَحْرِ الرُّومِىُّ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ وَعَلَى عُدْوَتِهِ الْجَنُوبِيَّةِ بِلَادُ الْبَرْبَرِ كُلِّهِمْ مِنْ سَبْتَةَ إِلَى الشَّامِ وَعَلَى عُدْوَتِهِ الشَّمَالِيَّةِ بِلَادُ الْأَنْدَلُسِ وَالْإِفْرَنْجَةِ وَالصَّقَالِبَةِ وَالرُّومِ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ أَيْضًا وَيُسَمَّى الْبَحْرَ الرُّومِىَّ وَالْبَحْرَ الشَّامِىَّ نِسْبَةً إِلَى أَهْلِ عُدْوَتِهِ.

وَالسَّاكِنُونَ بِسِيفِ[1] هٰذَا الْبَحْرِ، وَسَوَاحِلِهِ مِنْ عُدْوَتَيْهِ يُعَانُونَ مِنْ أَحْوَالِهِمَا لَا تُعَانِيهِ أُمَّةٌ مِنْ أُمَمِ الْبِحَارِ. فَقَدْ كَانَتِ الرُّومُ وَالْإِفْرَنْجَةُ وَالْقُوطُ بِالْعُدْوَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هٰذَا الْبَحْرِ الرُّومِىِّ، وَكَانَتْ أَكْثَرُ حُرُوبِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ فِى السُّفُنِ، فَكَانُوا مَهَرَةً فِى رُكُوبِهِ، وَالْحَرْبِ فِى أَسَاطِيلِهِ. وَلَمَّا أَسَفَّ مَنْ أَسَفَّ مِنْهُمْ إِلَى مُلْكِ الْعُدْوَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِثْلِ الرُّومِ إِلَى أَفْرِيقِيَّةَ وَالْقُوطِ إِلَى الْمَغْرِبِ أَجَازُوا فِى الْأَسَاطِيلِ وَمَلَكُوهَا، وَتَغَلَّبُوا عَلَى الْبَرْبَرِ بِهَا وَانْتَزَعُوا مِنْ أَيْدِيهِمْ أَمْرَهَا، وَكَانَ لَهُمْ بِهَا الْمُدُنُ الْحَافِلَةُ مِثْلُ قَرْطَاجَنَّةَ وَسَبِيطَلَةَ وَجَلُولَاءَ وَمَرْنَاقَ وَشِرْشَالَ وَطَنْجَةَ. وَكَانَ صَاحِبُ قَرْطَاجَنَّةَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحَارِبُ صَاحِبَ رُومَةَ، وَيَبْعَثُ الْأَسَاطِيلَ لِحَرْبِهِ مَشْحُونَةً بِالْعَسَاكِرِ وَالْعُدَدِ. فَكَانَتْ هٰذِهِ عَادَةً لِأَهْلِ هٰذَا الْبَحْرِ السَّاكِنِينَ حِفَافَيْهِ مَعْرُوفَةً فِى الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ.

وَلَمَّا مَلَكَ الْمُسْلِمُونَ مِصْرَ، كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمَا أَنْ صِفْ لِى الْبَحْرَ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ إِنَّ الْبَحْرَ خَلْقٌ عَظِيمٌ، يَرْكَبُهُ خَلْقٌ ضَعِيفٌ، دُودٌ عَلَى عُودٍ. فَأَوْعَزَ حِينَئِذٍ بِمَنْعِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ رُكُوبِهِ، وَلَمْ يَرْكَبْهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ، إِلَّا مَنِ افْتَاتَ عَلَى عُمَرَ فِى رُكُوبِهِ، وَنَالَهُ مِنْ عِقَابِهِ كَمَا فَعَلَ بِعَرْفَجَةَ بْنِ هَرْثَمَةَ الْأَزْدِىِّ سَيِّدِ بَجِيلَةَ، لَمَّا أَغْزَاهُ عُمَانَ فَبَلَغَهُ غَزْوُهُ فِى الْبَحْرِ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ وَعَنَّفَهُ أَنَّهُ رَكِبَ الْبَحْرَ لِلْغَزْوِ.

وَلَمْ يَزَلِ الشَّأْنُ ذٰلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَ لِعَهْدِ مُعَاوِيَةَ أَذِنَ لِلْمُسْلِمِينَ فِى رُكُوبِهِ، وَالْجِهَادِ عَلَى أَعْوَادِهِ. وَالسَّبَبُ فِى ذٰلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ لِبِدَاوَتِهِمْ لَمْ يَكُونُوا مَهَرَةً فِى ثِقَافَتِهِ وَرُكُوبِهِ، وَالرُّومُ وَالْإِفْرَنْجَةُ لِمُمَارَسَتِهِمْ أَحْوَالَهُ، وَمَرْبَاهُمْ فِى التَّقَلُّبِ عَلَى أَعْوَادِهِ، مَرَنُوا عَلَيْهِ، وَأَحْكَمُوا الدِّرَايَةَ بِثِقَافَتِهِ.

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ الْمُلْكُ لِلْعَرَبِ، وَشَمَخَ سُلْطَانُهُمْ، وَصَارَتْ أُمَمُ الْعَجَمِ خَوَلًا لَهُمْ، وَتَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وَتَقَرَّبَ كُلُّ ذِى صَنْعَةٍ إِلَيْهِمْ بِمَبْلَغِ صِنَاعَتِهِ، وَاسْتَخْدَمُوا مِنَ النَّوَاتِيَّةِ فِى حَاجَاتِهِمِ الْبَحْرِيَّةِ أُمَمًا، وَتَكَرَّرَتْ مُمَارَسَتُهُمْ لِلْبَحْرِ وَثِقَافَتِهِ، وَاسْتَحْدَثُوا بُصَرَاءَ بِهَا، فَشَرِهُوا إِلَى الْجِهَادِ فِيهِ، وَأَنْشَئُوا السُّفُنَ فِيهِ وَالشَّوَانِى[1]، وَشَحَنُوا الْأَسَاطِيلَ بِالرِّجَالِ وَالسِّلَاحِ، وَأَمْطَوْهَا الْعَسَاكِرَ وَالْمُقَاتِلَةَ لِمَنْ وَرَاءَ الْبَحْرِ مِنْ أُمَمِ الْكُفْرِ، وَاخْتَصُّوا بِذٰلِكَ مِنْ مَمَالِكِهِمْ وَثُغُورِهِمْ مَا كَانَ أَقْرَبَ لِهٰذَا الْبَحْرِ وَعَلَى حَافَتِهِ مِثْلَ الشَّامِ وَأَفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ.

وَأَوْعَزَ الْخَلِيفَةُ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى حَسَّانَ بْنِ النُّعْمَانِ عَامِلِ أَفْرِيقِيَّةَ، بِاتِّخَاذِ دَارِ صِنَاعَةٍ بِتُونِسَ لِإِنْشَاءِ الْآلَاتِ الْبَحْرِيَّةِ حِرْصًا عَلَى مَرَاسِمِ الْجِهَادِ، وَمِنْهَا كَانَ فَتْحُ صِقِلِّيَّةَ أَيَّامَ زِيَادَةِ اللهِ الْأَوَّلِ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْأَغْلَبِ عَلَى يَدِ أَسَدِ بْنِ الْفُرَاتِ شَيْخِ

(١) بساحله.

(١) المراكب الحربية.

الْفُتْيَا، وَفَتْحُ قُوصَرَّةَ أَيْضًا فِى أَيَّامِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُعَاوِيَةُ بْنُ حُدَيْجٍ أَغْزَى صِقِلِّيَّةَ أَيَّامَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِى سُفْيَانَ فَلَمْ يَفْتَحِ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ وَفُتِحَتْ عَلَى يَدِ ابْنِ الْأَغْلَبِ وَقَائِدِهِ أَسَدِ بْنِ الْفُرَاتِ. وَكَانَتْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ أَسَاطِيلُ إِفْرِيقِيَّةَ وَالْأَنْدَلُسِ فِى دَوْلَةِ الْعُبَيْدِيِّينَ وَالْأُمَوِيِّينَ تَتَعَاقَبُ إِلَى بِلَادِهِمَا فِى سَبِيلِ الْفِتْنَةِ فَتَجُوسُ خِلَالَ السَّوَاحِلِ بِالْإِفْسَادِ وَالتَّخْرِيبِ.

وَانْتَهَى أُسْطُولُ الْأَنْدَلُسِ أَيَّامَ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ النَّاصِرِ إِلَى مِائَتَىْ مَرْكَبٍ أَوْ نَحْوِهَا، وَأُسْطُولُ أَفْرِيقِيَّةَ كَذٰلِكَ مِثْلَهُ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ، وَكَانَ قَائِدُ الْأَسَاطِيلِ بِالْأَنْدَلُسِ ابْنُ دماحس، وَمَرْفَأُهَا لِلْحَطِّ وَالْإِقْلَاعِ بِجَايَةَ وَالْمَرِيَّةَ، وَكَانَتْ أَسَاطِيلُهَا مُجْتَمِعَةً مِنْ سَائِرِ الْمَمَالِكِ مِنْ كُلِّ بَلَدٍ تُتَّخَذُ فِيهِ السُّفُنُ أُسْطُولٌ يَرْجِعُ نَظَرُهُ إِلَى قَائِدٍ مِنَ النَّوَاتِيَةِ يُدَبِّرُ أَمْرَ حَرْبِهِ وَسِلَاحِهِ وَمُقَاتِلَتِهِ وَرَئِيسٌ يُدَبِّرُ أَمْرَ جَرْيَتِهِ بِالرِّيحِ أَوْ بِالْمَجَادِيفِ وَأَمْرَ إِرْسَائِهِ فِى مَرْفَئِهِ. فَإِذَا اجْتَمَعَتِ الْأَسَاطِيلُ لِغَزْوٍ مُحْتَفَلٍ أَوْ غَرَضٍ سُلْطَانِىٍّ مُهِمٍّ، عَسْكَرَتْ بِمَرْفَئِهَا الْمَعْلُومِ وَشَحَنَهَا السُّلْطَانُ بِرِجَالِهِ وَأَنْجَادِ عَسَاكِرِهِ وَمَوَالِيهِ، وَجَعَلَهُمْ لِنَظَرِ أَمِيرٍ وَاحِدٍ مِنْ أَعْلَى طَبَقَاتِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ يَرْجِعُونَ كُلُّهُمْ إِلَيْهِ ثُمَّ يُسَرِّحُهُمْ لِوَجْهِهِمْ وَيَنْتَظِرُ إِيَابَهُمْ بِالْفَتْحِ وَالْغَنِيمَةِ.

وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ لِعَهْدِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ قَدْ غَلَبُوا عَلَى هٰذَا الْبَحْرِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ، وَعَظُمَتْ صَوْلَتُهُمْ وَسُلْطَانُهُمْ فِيهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلْأُمَمِ النَّصْرَانِيَّةِ قِبَلٌ بِأَسَاطِيلِهِمْ بِشَىْءٍ مِنْ جَوَانِبِهِ، وَامْتَطَوْا ظَهْرَهُ لِلْفَتْحِ سَائِرَ أَيَّامِهِمْ، فَكَانَتْ لَهُمُ الْمَقَامَاتُ الْمَعْلُومَةُ مِنَ الْفَتْحِ وَالْغَنَائِمِ وَمَلَكُوا سَائِرَ الْجَزَائِرِ الْمُنْقَطِعَةِ عَنِ السَّوَاحِلِ فِيهِ مِثْلَ مَيُورْقَةَ وَمَنُورْقَةَ وَيَابِسَةَ وَسِرْدَانِيَةَ وَصِقِلِّيَّةَ وَقُوصَرَّةَ وَمَالِطَةَ وَأَقْرِيطِشَ وَقُبْرُسَ، وَسَائِرِ مَمَالِكِ الرُّومِ وَالْإِفْرَنْجِ. وَكَانَ أَبُو الْقَاسِمِ الشِّيعِىُّ وَأَبْنَاؤُهُ يُغْزُونَ أَسَاطِيلَهُمْ مِنَ الْمَهْدِيَّةِ جَزِيرَةَ جَنَوَةَ فَتَنْقَلِبُ بِالظَّفَرِ وَالْغَنِيمَةِ. وَافْتَتَحَ مُجَاهِدٌ الْعَامِرِىُّ صَاحِبُ دَانِيَةَ مِنْ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ جَزِيرَةَ سِرْدَانِيَةَ فِى أَسَاطِيلِهِ سَنَةَ خَمْسٍ وَأَرْبَعِمَائَةٍ، وَارْتَجَعَهَا النَّصَارَى لِوَقْتِهَا. وَالْمُسْلِمُونَ خِلَالَ ذٰلِكَ كُلِّهِ قَدْ تَغَلَّبُوا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ لُجَّةِ هٰذَا الْبَحْرِ، وَصَارَتْ أَسَاطِيلُهُمْ فِيهِ جَائِيَةً وَذَاهِبَةً، وَالْعَسَاكِرُ الْإِسْلَامِيَّةُ تُجِيزُ الْبَحْرَ فِى الْأَسَاطِيلِ مِنْ صِقِلِّيَّةَ إِلَى الْبَرِّ الْكَبِيرِ الْمُقَابِلِ لَهَا مِنَ الْعُدْوَةِ الشَّمَالِيَّةِ، فَتُوقِعُ بِمُلُوكِ الْإِفْرَنْجِ، وَتُثْخِنُ فِى مَمَالِكِهِمْ، كَمَا وَقَعَ فِى أَيَّامِ بَنِى الْحُسَيْنِ، مُلُوكِ صِقِلِّيَّةَ الْقَائِمِينَ فِيهَا بِدَعْوَةِ الْعُبَيْدِيِّينَ. وَانْحَازَتْ أُمَمُ النَّصْرَانِيَّةِ بِأَسَاطِيلِهِمْ إِلَى الْجَانِبِ الشَّمَالِىِّ الشَّرْقِىِّ مِنْهُ مِنْ سَوَاحِلِ الْإِفْرَنْجَةِ وَالصَّقَالِبَةِ وَجَزَائِرِ الرُّومَانِيَّةِ لَا يَعْدُونَهَا، وَأَسَاطِيلُ الْمُسْلِمِينَ قَدْ ضَرِيَتْ عَلَيْهِمْ ضِرَاءَ (١) الْأَسَدِ عَلَى فَرِيسَتِهِ، وَقَدْ مَلَأَتِ الْأَكْثَرَ مِنْ بَسِيطِ هٰذَا الْبَحْرِ عُدَّةً وَعَدَدًا وَاخْتَلَفَتْ فِى طُرُقِهِ سِلْمًا وَحَرْبًا، فَلَمْ تَظْهَرْ لِلنَّصْرَانِيَّةِ فِيهِ أَلْوَاحٌ.

حَتَّى إِذَا أَدْرَكَ الدَّوْلَةَ الْعُبَيْدِيَّةَ وَالْأُمَوِيَّةَ الْفَشَلُ وَالْوَهَنُ، وَطَرَقَهَا الِاعْتِلَالُ، مَدَّ النَّصَارَى أَيْدِيَهُمْ إِلَى جَزَائِرِ الْبَحْرِ الشَّرْقِيَّةِ مِثْلَ صِقِلِّيَّةَ

(١) اجتراء عليها.

وَإِقْرِيطِشَ وَمَالِطَةَ فَمَلَكُوهَا ، ثُمَّ أَلَحُّوا عَلَى سَوَاحِلِ الشَّامِ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ وَمَلَكُوا طَرَابُلُسَ وَعَسْقَلَانَ وَصُورَ وَعَكَّا ، وَاسْتَوْلَوْا عَلَى جَمِيعِ الثُّغُورِ بِسَوَاحِلِ الشَّامِ ، وَغَلَبُوا عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَبَنَوْا عَلَيْهِ كَنِيسَةً لِمَظْهَرِ دِينِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ ، وَغَلَبُوا بَنِي خَزْرُونَ عَلَى طَرَابُلُسَ ، ثُمَّ عَلَى قَابِسَ وَصَفَاقِسَ وَوَضَعُوا عَلَيْهِمِ الْجِزْيَةَ ، ثُمَّ مَلَكُوا الْمَهْدِيَّةَ مَقَرَّ مُلُوكِ الْعُبَيْدِيِّينَ ، مِنْ يَدِ أَعْقَابِ بُلُكِّينَ بْنِ زِيرِي . وَكَانَتْ لَهُمْ فِي الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ الْكَرَّةُ بِهَذَا الْبَحْرِ . وَضَعُفَ شَأْنُ الْأَسَاطِيلِ فِي دَوْلَةِ مِصْرَ وَالشَّامِ ، إِلَى أَنِ انْقَطَعَ ، وَلَمْ يَعْتَنُوا بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ لِهَذَا بَعْدَ أَنْ كَانَ لَهُمْ بِهِ فِي الدَّوْلَةِ الْعُبَيْدِيَّةِ عِنَايَةٌ تَجَاوَزَتِ الْحَدَّ ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِمْ . فَبَطَلَ رَسْمُ هَذِهِ الْوَظِيفَةِ هُنَالِكَ ، وَبَقِيَتْ بِإِفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ ، فَصَارَتْ مُخْتَصَّةً بِهَا .

وَكَانَ الْجَانِبُ الْغَرْبِيُّ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ لِهَذَا الْعَهْدِ مَوْفُورَ الْأَسَاطِيلِ ، ثَابِتَ الْقُوَّةِ لَمْ يَتَحَيَّفْهُ عَدُوٌّ ، وَلَا كَانَتْ لَهُمْ بِهِ كَرَّةٌ ، فَكَانَ قَائِدُ الْأُسْطُولِ بِهِ لِعَهْدِ لِمْتُونَةَ بَنِي مَيْمُونٍ ، رُؤَسَاءَ جَزِيرَةِ قَادِسَ ، وَمِنْ أَيْدِيهِمْ أَخَذَهَا عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بِتَسْلِيمِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ ، وَانْتَهَى عَدَدُ أَسَاطِيلِهِمْ إِلَى الْمِائَةِ مِنْ بِلَادِ الْعُدْوَتَيْنِ جَمِيعًا .

وَلَمَّا اسْتَفْحَلَتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ فِي الْمِائَةِ السَّادِسَةِ ، وَمَلَكُوا الْعُدْوَتَيْنِ ، أَقَامُوا خُطَّةَ هَذَا الْأُسْطُولِ ، عَلَى أَتَمِّ مَا عُرِفَ وَأَعْظَمِ مَا عُهِدَ . وَكَانَ قَائِدُ أُسْطُولِهِمْ أَحْمَدُ الصِّقِلِّيُّ أَصْلُهُ مِنْ صَدْغِيَارِ الْمُوَطَّنِينَ بِجَزِيرَةِ جَرْبَةَ مِنْ سَدْوِيكِشَ ، أَسَرَهُ النَّصَارَى مِنْ سَوَاحِلِهَا ، وَرُبِّيَ عِنْدَهُمْ . وَاسْتَخْلَصَهُ صَاحِبُ صِقِلِّيَةَ ، وَاسْتَكْفَاهُ ، ثُمَّ هَلَكَ وَوَلِيَ ابْنُهُ ، فَأَسْخَطَهُ بِبَعْضِ النَّزَعَاتِ وَخَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ ، وَلَحِقَ بِتُونِسَ ، وَنَزَلَ عَلَى السَّيِّدِ بِهَا مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ ، وَأَجَازَ مَرَّاكُشَ فَتَلَقَّاهُ الْخَلِيفَةُ يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ بِالْمَبَرَّةِ وَالْكَرَامَةِ ، وَأَجْزَلَ الصِّلَةَ وَقَلَّدَهُ أَمْرَ أَسَاطِيلِهِ فَجَلَّى فِي جِهَادِ أُمَمِ النَّصْرَانِيَّةِ ، وَكَانَتْ لَهُ آثَارٌ وَأَخْبَارٌ وَمَقَامَاتٌ مَذْكُورَةٌ فِي دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ .

وَانْتَهَتْ أَسَاطِيلُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِهِ فِي الْكَثْرَةِ وَالِاسْتِجَادَةِ إِلَى مَا لَمْ تَبْلُغْهُ مِنْ قَبْلُ وَلَا بَعْدُ ، فِيمَا عَهِدْنَاهُ .

وَلَمَّا قَامَ صَلَاحُ الدِّينِ يُوسُفُ بْنُ أَيُّوبَ مَلِكُ مِصْرَ وَالشَّامِ لِعَهْدِهِ بِاسْتِرْجَاعِ ثُغُورِ الشَّامِ مِنْ يَدِ أُمَمِ النَّصْرَانِيَّةِ وَتَطْهِيرِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ مِنْ رِجْسِ الْكُفْرِ وَبِنَائِهِ تَتَابَعَتْ أَسَاطِيلُهُمُ الْكُفْرِيَّةُ بِالْمَدَدِ لِتِلْكَ الثُّغُورِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ قَرِيبَةٍ لِبَيْتِ الْمَقْدِسِ ، الَّذِي كَانُوا قَدِ اسْتَوْلَوْا عَلَيْهِ ، فَأَمَدُّوهُمْ بِالْعَدَدِ وَالْأَقْوَاتِ ، وَلَمْ تُقَاوِمْهُمْ أَسَاطِيلُ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ ، لِاسْتِمْرَارِ الْغَلَبِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْبَحْرِيَّةِ ، وَتَعَدُّدِ أَسَاطِيلِهِمْ بِهِ ، وَضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ مُنْذُ زَمَانٍ طَوِيلٍ عَنْ مُمَانَعَتِهِمْ هُنَاكَ كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ قَبْلُ . فَأَوْفَدَ صَلَاحُ الدِّينِ عَلَى أَبِي يَعْقُوبَ الْمَنْصُورِ سُلْطَانِ الْمَغْرِبِ لِعَهْدِهِ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ رَسُولَهُ عَبْدَ الْكَرِيمِ بْنَ مُنْقِذٍ مِنْ بَيْتِ بَنِي مُنْقِذٍ مُلُوكِ شَيْزَرَ ، وَكَانَ مَلَكَهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ ، وَأَبْقَى عَلَيْهِمْ فِي دَوْلَتِهِ ، فَبَعَثَ عَبْدَ الْكَرِيمِ مِنْهُمْ هَذَا إِلَى مَلِكِ الْمَغْرِبِ طَالِبًا مَدَدَ الْأَسَاطِيلِ ، لِتَحُولَ فِي الْبَحْرِ بَيْنَ أَسَاطِيلِ الْكَفَرَةِ وَبَيْنَ مَرَامِهِمْ مِنْ إِمْدَادِ

النصرانية بثغور الشام ، وأصحبه كتابه إليه فى ذلك من إنشاء الفاضل البيساني يقول فى افتتاحه .

«فتح الله لسيدنا أبواب المناجح والميامن» حسبما نقله العماد الأصفهانى فى كتاب الفتح القيسي

فنقم عليهم المنصور تجافيهم عن خطابه بأمير المؤمنين ، وأسرها فى نفسه ، وحملهم على مناهج البر والكرامة وردهم إلى مرسلهم ، ولم يجبه إلى حاجته من ذلك . وفى هذا دليل على اختصاص ملك المغرب بالأساطيل ، وما حصل للنصرانية فى الجانب الشرقى من هذا البحر من الاستطالة . وعدم عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد ما بعد ، لشأن الأساطيل البحرية والاستعداد منها للدولة .

ولما هلك أبو يعقوب المنصور ، واعتلت دولة الموحدين ، واستولت أمم الجلالقة على الأكثر من بلاد الأندلس ، وألجأوا المسلمين إلى سيف(1) البحر ، وملكوا الجزائر التى بالجانب الغربى من البحر الرومى ، قويت ريحهم فى بسيط هذا البحر ، واشتدت شوكتهم ، وكثرت فيه أساطيلهم ، وتراجعت قوة المسلمين فيه إلى المساواة معهم ، كما وقع لعهد السلطان أبى الحسن ملك زناتة بالمغرب ، فإن أساطيله كانت عند مرامه الجهاد مثل عدة النصرانية وعديدهم .

ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين فى الأساطيل لضعف الدولة ونسيان عوائد البحر بكثرة العوائد البدوية بالمغرب وانقطاع العوائد الأندلسية ، ورجع النصارى فيه إلى دينهم المعروف من الدربة فيه والمران عليه ، والبصر بأحواله ، وغلب الأمم فى لجته على أعواده ، وصار المسلمون فيه كالأجانب ، إلا قليلا من أهل البلاد الساحلية لهم المران عليه لو وجدوا كثرة من الأنصار والأعوان ، أو قوة من الدولة تستجيش لهم أعوانا ، وتوضح لهم فى هذا الغرض مسلكا . وبقيت الرتبة لهذا العهد فى الدولة الغربية محفوظة ، والرسم فى معاناة الأساطيل بالإنشاء والركوب معهودا ، لما عساه أن تدعو إليه الحاجة من الأغراض السلطانية فى البلاد البحرية ، والمسلمون يستهبون الريح على الكفر وأهله . فمن المشتهر بين أهل المغرب عن كتب الحدثان أنه لابد للمسلمين من الكرة على النصرانية ، وافتتاح ما وراء البحر من بلاد الإفرنجة ، وأن ذلك يكون فى الأساطيل . والله ولى المؤمنين وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الفصل الخامس والثلاثون

فى التفاوت بين مراتب السيف والقلم فى الدول

اعلم أن السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بها على أمره . إلا أن الحاجة فى أول الدولة إلى السيف - ما دام أهلها فى تمهيد أمرهم - أشد من الحاجة إلى القلم ، لأن القلم فى تلك الحال خادم فقط ، منفذ للحكم السلطانى ، والسيف شريك فى المعونة . وكذلك فى آخر الدولة ، حيث تضعف عصبيتها كما ذكرناه ، ويقل أهلها بما ينالهم من الهرم الذى قدمناه

(1) جانبه وساحله .

فتحتاج الدولة إلى الاستظهار بأرباب السيوف وتقوى الحاجة إليهم في حماية الدولة والمدافعة عنها ، كما كان الشأن أول الأمر في تمهيدها ، فيكون للسيف مزية على القلم في الحالتين ، ويكون أرباب السيف حينئذ أوسع جاها ، وأكثر نعمة وأسنى إقطاعا .

وأما في وسط الدولة ، فيستغني صاحبها بعض الشيء عن السيف ، لأنه قد تمهد أمره ، ولم يبق همه إلا في تحصيل ثمرات الملك من الجباية والضبط ، ومباهاة الدول ، وتنفيذ الأحكام ، والقلم هو المعين له في ذلك ، فتعظم الحاجة إلى تصريفه ، ويكون السيوف مهملة في مضاجع أغمادها ، إلا إذا دعت نائبة ، أو دعيت إلى سد فرجة ، وما سوى ذلك ، فلا حاجة إليها . فيكون أرباب الأقلام في هذه الحاجة أوسع جاها ، وأعلى رتبة ، وأعظم نعمة وثروة ، وأقرب من السلطان مجلسا وأكثر إليه ترددا ، وفي خلواته نجيا لأنه(١) حينئذ آلته التي بها يستظهر على تحصيل ثمرات ملكه ، والنظر إلى أعطافه ، وتثقيف أطرافه ، والمباهاة بأحواله ، ويكون الوزراء حينئذ وأهل السيوف مستغنى عنهم مبعدين عن باطن السلطان ، حذرين على أنفسهم من بوادره .

وفي معنى ذلك ما كتب به أبو مسلم للمنصور حين أمره بالقدوم : « أما بعد فإنه مما حفظناه من وصايا الفرس ، أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء » سنة الله في عباده ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) يعني القلم .

الفصل السادس والثلاثون
في شارات الملك والسلطان الخاصة به

إعلم أن للسلطان شارات وأحوالا تقتضيها الأبهة والبذخ ، فيختص بها ويتميز بانتحالها عن الرعية والبطانة ، وسائر الرؤساء في دولته فلنذكر ما هو مشتهر منها بمبلغ المعرفة « وفوق كل ذي علم عليم(١) »

الآلة ـ فمن شارات الملك اتخاذ الآلة ، من نشر الألوية والرايات ، وقرع الطبول والنفخ في الأبواق والقرون ، وقد ذكر أرسطو في الكتاب المنسوب إليه في السياسة : أن السر في ذلك ارهاب العدو في الحرب ، فإن الأصوات الهائلة لها تأثير في النفوس بالروعة . ولعمري إنه أمر وجداني ، في مواطن الحرب ، يجده كل أحد من نفسه ، وهذا السبب الذي ذكره أرسطو ـ إن كان ذكره ـ فهو صحيح ببعض الاعتبارات .

وأما الحق في ذلك فهو أن النفس عند سماع النغم والأصوات ، يدركها الفرح والطرب بلا شك ، فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب ويستميت في ذلك الوجه الذي هو فيه وهذا موجود حتى في الحيوانات العجم بانفعال الإبل بالحداء ، والخيل بالصفير والصريخ كما علمت ، ويزيد ذلك تأثيرا إذا كانت الأصوات متناسبة كما في الغناء ، وأنت تعلم ما يحدث لسامعه من مثل هذا المعنى .

(١) الآية رقم : ٧٦ . من سورة يوسف .

لأجل ذلك ، تتخذ العجم فى مواطن حروبهم الآلات الموسيقية (١) لا طبلا ولا بوقا ، فيحدق المغنون بالسلطان فى موكبه بآلاتهم ، ويغنون فيحركون نفوس الشجعان بضربهم إلى الاستماتة .

ولقد رأينا فى حروب العرب ، من يتغنى أمام الموكب بالشعر ويطرب ، فتجيش همم الأبطال بما فيها ، ويسارعون إلى مجال الحرب ، وينبعث كل قرن إلى قرنه .

وكذلك زناتة من أمم المغرب يتقدم الشاعر عندهم أمام الصفوف ، ويتغنى فيحرك بغنائه الجبال الرواسى ، ويبعث على الاستماتة من لا يظن بها ، ويسمون ذلك الغناء « تاصوكايت » ، وأصله كله فرح يحدث فى النفس ، فتنبعث عنه الشجاعة ، كما تنبعث عن نشوة الخمر بما حدث عنها من الفرح ، والله أعلم .

وأما تكثير الرايات وتلوينها وإطالتها ، فالقصد به التهويل لا أكثر ، وربما تحدث فى النفوس من التهويل زيادة فى الإقدام ، وأحوال النفوس وتلوناتها غريبة ، والله الخلاق العليم .

ثم إن الملوك والدول ، يختلفون فى اتخاذ هذه الشارات ، فمنهم مكثر ، ومنهم مقلل بحسب اتساع الدولة وعظمها . فأما الرايات فإنها شعار الحروب من عهد الخليقة ولم تزل الأمم تعقدها فى مواطن الحروب والغزوات لعهد النبى صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الخلفاء .

وأما قرع الطبول والنفخ فى الأبواق ، فكان المسلمون لأول الملة متجافين عنه تنزها عن غلظة الملك ، ورفضا لأحواله واحتقارا لأبهته التى ليست من الحق فى شىء ، حتى إذا انقلبت الخلافة ملكا ، وتبجحوا بزهرة الدنيا ونعيمها ولابسهم الموالى من الفرس والروم أهل الدول السالفة ، وأروهم ماكان أولئك ينتحلونه من مذاهب البذخ والترف ، فكان مما استحسنوه اتخاذ الآلة ، فأخذوها وأذنوا لعمالهم فى اتخاذها تنويها بالملك وأهله .

فكثيرا ، ما كان العامل صاحب الثغر ، أو قائد الجيش يعقد له الخليفة من العباسيين أو العبيديين لواءه ، ويخرج إلى بعثه أو عمله من دار الخليفة أو داره فى موكب من أصحاب الرايات والآلات ، فلا يميز بين موكب العامل والخليفة إلا بكثرة الألوية وقلتها ، أو بما اختص به الخليفة من الألوان لرايته ، كالسواد فى رايات بنى العباس ، فإن راياتهم كانت سودا ، حزنا على شهدائهم من بنى هاشم ، ونعيا على بنى أمية فى قتلهم ، ولذلك سموا المسودة .

ولما افترق أمر الهاشميين ، وخرج الطالبيون على العباسيين من كل جهة وعصر ، ذهبوا إلى مخالفتهم فى ذلك ، فاتخذوا الرايات بيضا وسموا المبيضة لذلك سائر أيام العبيديين ومن خرج من الطالبيين فى ذلك العهد بالمشرق

---

(١) علق الهورينى بقوله : قوله موسيقية وفى نسخة الموسيقارية وهى صحيحة لأن الموسيقى بكسر القاف بين التحيتين اسم للنغم والألحان وتوقيعها ويقال فيها موسيقير ويقال لضارب الآلة موسيقار. انظر أول سفينة الشيخ شهاب .

كَالدَّاعى ، بطَبَرسْتَانَ ، وَدَاعى صَعْدَةَ ، أو مَنْ دَعَا إلى بِدْعَةِ الرافِضةِ مِنْ غَيْرِهِمْ كَالْقَرَامِطَةِ .

وَلَمَّا نَزَعَ الْمَأْمُونُ عَنْ لُبْسِ السَّوَادِ وَشِعَارِهِ فى دَوْلَتِهِ ، عَدَلَ إلَى لَوْنِ الْخضْرَةِ ، فَجَعَلَ رَايَتَهُ خضْرَاء .

وَأَمَّا الاسْتِكْثَارُ منْهَا فَلَا يَنْتَهِى إلَى حَدٍّ ، وَقَدْ كَانَتْ آلَةُ الْعُبَيْدِيين لَمَّا خَرَجَ الْعَزِيزُ إلى فَتْحِ الشَّامِ ، خَمْسمِائةٍ مِنَ الْبُنودِ ، وَخَمْسمِائةٍ مِنَ الأَبْوَاقِ .

وَأَمَّا مُلوكُ الْبَرْبَر بِالْمَغْرِبِ مِنْ صَنْهَاجَةَ وَغَيْرِهَا فَلَمْ يَخْتَصُّوا بِلَوْن وَاحِد بَلْ وَشَّوْهَا بِالذهب ، وَاتَّخذوهَا مِنَ الْحَرِيرِ الْخَالِصِ مُلَوَّنَةً ، وَاسْتَمَرُّوا عَلَى الإِذْن فِيهَا لعُمَّالِهِمْ ، حَتى إذَا جَاءتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ زَنَاتَةَ ، قَصَرُوا الآلَةَ مِنَ الطُّبُول وَالْبُنُودِ عَلَى السُّلْطَان ، وَحَظَرُوهَا عَلَى مَنْ سِوَاهُ مِن عُمَّالِهِ ، وَجَعَلوا لَهَا موْكِبًا خاصًّا يَتْبَعُ أثَرَ السلطان فى مَسِيرهِ ، يُسَمَّى السَّاقَةَ ، وَهُمْ فِيهِ بَيْنَ مُكْثِرٍ وَمُقِلٍّ باختلاف مَذاهِب الدوَل فى ذٰلِكَ ، فَمنهُمْ مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى سَبْعَة مِنَ الْعَدَد تَبَرُّكًا بِالسَّبْعَةِ ، كَمَا هُوَ فى دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِين ، وَبَنى الأَحْمَرِ بِالأَنْدَلُس ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغ الْعَشَرَةَ وَالْعِشْرِين ، كَمَا هُوَ عِنْدَ زَنَاتَةَ ، وَقَدْ بَلَغَتْ فى أَيَام السُّلْطَان أَبِى الْحَسَنِ – فِيمَا أَدْرَكْنَاهُ – مِائَةً مِنَ الطُّبول ، وَمِائَةً مِنَ الْبُنُودِ مُلَوَّنَةً بِالْحَرِيرِ مَنْسُوجَةً بِالذَّهَب ، مَا بَيْنَ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ ، وَيَأْذَنُونَ لِلْوُلَاةِ وَالْعُمَّالِ وَالْقُوَّادِ فى اتِّخاذِ رَايَةٍ وَاحِدَةٍ صغِيرَة مِنَ الْكَتَّان بَيْضَاء وطَبْــلٍ صَغِيرٍ أَيَّامَ الْحَرْبِ ، لَا يَتجَاوَزُونَ ذٰلِكَ .

وَأَمَّا دَوْلَةُ التُّرْك لِهٰذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِق ، فَيَتَّخِذُونَ رَايَةً وَاحِدَةً عَظِيمَةً ، وَفى رَأْسِها خصْلَةً كَبِيرَةً مِنَ الشعْرِ ، يُسَمُّونَهَا الشَّالِش وَالْجتْر ، وَهِىَ شِعَارُ السُّلْطَان عِنْدَهُمْ ، ثُمَّ تَتَعَدَّدُ الرَّايَاتُ ، وَيُسَمُّونَهَا السَّنَاجِقَ ، وَاحِدُهَا سَنْجَق ، وَهِىَ الرَّايَةُ بِلِسَانِهِمْ . وَأَمَّا الطُّبُولُ فَيُبَالِغُونَ فى الاسْتِكْثَار مِنْهَا ، وَيُسَمُّونَهَا الْكوسَات ، وَيُبِيحُونَ لِكُلِّ أَمِيرٍ أَوْ قَائِدِ عَسْكَرٍ ، أنْ يَتَّخِذَ مِنْ ذٰلِكَ مَا يَشاءُ إلَّا الْجتْرَ ، فَإنَّهُ خَاصٌّ بِالسُّلْطَان . وَأَمَّا الْجَلَالِقَةُ لِهٰذَا الْعَهْدِ مِنْ أُمَمِ الإِفْرنجَة بِالأَنْدَلُس ، فَأَكْثَرُ شَأْنِهِم اتِّخَاذُ الأَلْوِيَةِ الْقَلِيلَةِ ذَاهِبَةً فى الْجَوِّ صعداً ، وَمَعَهَا قَرْعُ الأَوْتَارِ مِنَ الطَّنَابِيرِ ، وَنَفخُ الْعِيطَات ، يَذْهَبُونَ فِيهَا مَذْهَبَ الْغِنَاء ، وَطَرِيقَه فى مَوَاطِنِ حُرُوبِهِمْ هكَذَا يَبْلُغُنَا عَنْهُمْ ، وَعَمَّنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ مُلُوكِ الْعَجَم « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ، إِنَّ فى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِين[1] » .

(السرير) . وَأَمَّا السَّرِيرُ ، وَالْمِنْبَرُ ، وَالتَّخْتُ وَالْكُرْسِىُّ ، فَهِىَ أَعْوَادٌ مَنْصُوبَةٌ أَوْ أَرَائِكُ مُنَضَّدَةٌ ، لِجُلُوسِ السُّلْطَان عَلَيْهَا مُرْتَفِعًا عَنْ أَهْلِ مجْلِسِهِ أَن يساوِيهِمْ فى الصَّعِيدِ ، وَلَمْ يزَلْ ذٰلِكَ مِنْ سُنَنِ الْمُلُوك قَبْلَ الإِسْلَام ، وفى دُول الْعجم ، وَقَدْ كَانُوا يجْلِسُونَ على أَسِرَّةِ الذَّهبِ ، وكَانَ لِسُلَيْمان ابْنِ داوُد صلواتُ اللهِ عليْهِما وسلَامُهُ ، كُرسِىٌّ

(١) الآية رقم ٢٢ من سورة الروم .

وسريرٌ مِنْ عاجٍ مُغَشّى بالذّهب ، إلّا أنّهُ لا تأخُذُ بِهِ الدُّولُ إلّا بعْد الاستفحال والتّرفِ ، شأنَ الأُبّهةِ كُلّها كما قُلْناهُ ، وأمّا في أوّلِ الدّوْلةِ عِنْد البداوةِ ، فَلا يتشوّفُونَ إليْهِ .

وأوّلُ من اتّخذَهُ فى الإسْلام مُعاوية ، واسْتأذَنَ النّاسَ فِيهِ ، وقال لهُمْ : إنّى قدْ بدُنْتُ ، فأذِنُوا لَهُ ، فاتّخذَه واتّبعهُ المُلوكُ الإسْلاميُّونَ فِيهِ ، وصار مِنْ منازِعِ الأُبّهةِ . ولقدْ كانَ عمْرو بْنُ العاصِ بمِصْر ، يجْلِسُ فى قصْرِهِ على الأرْضِ مع العربِ ويأتِيهِ المُقوْقسُ إلى قصْرِهِ ، ومعهُ سريرٌ مِن الذّهبِ محْمُولًا على الأيْدى لِجُلوسِهِ ، شأنَ المُلُوكِ ، فيجْلِسُ عليْهِ وهُو أمامهُ ولا يُغيرُونَ عليْهِ وفاءً لَهُ بما عقد معهُمْ مِن الذِّمّةِ ، واطّراحًا لأُبّهةِ المُلْكِ ، ثُمّ كانَ بعْد ذلِكَ لِبنى العبّاسِ والعُبيْدِيّين وسائرِ مُلُوكِ الإسْلامِ ، شرْقًا وغرْبًا ، مِن الأسِرّةِ والمنابرِ والتُّخُوتِ ، ما عفا عنِ الأكاسِرةِ والقياصِرةِ ، واللهُ مُقلِّبُ اللّيْلِ والنّهارِ .

(السكة) ، وهى الخَتْمُ على الدّنانيرِ والدّراهِم المُتعامل بِها بيْن النّاسِ بِطابعِ حديد يُنقشُ فِيهِ صُورٌ ، أوْ كلِماتٌ مقْلُوبةٌ ، ويُضْربُ بِها على الدّينارِ أوِ الدّرْهمِ ، فتخْرُجُ رُسومُ تِلْكَ النُّقُوشِ عليْها ظاهِرةً ، مُسْتقيمةً بعْد أنْ يُعْتبر عِيارُ النّقْدِ مِنْ ذلِكَ الجِنْسِ ، فى خلُوصِهِ بالسّبْكِ مرةً بعْد أخرى ، وبعْد تقْدِيرِ أشْخاصِ الدّراهِمِ والدّنانيرِ بِوزْنٍ مُعيّنٍ صحيح ، يُصْطلحُ عليْهِ فيكُونُ التّعامُلُ بِها عددًا ، وإنْ لمْ تُقدّرْ أشْخاصُها يكُونُ التّعامُلُ بِها وزْنًا .

ولفْظُ السِّكّةِ كانَ اسْمًا لِلطّابعِ ، وهِيَ الحديدةُ المُتّخذةُ لِذلِكَ ، ثُمّ نُقِلَ إلى أثرِها وهِى النُّقُوشُ الماثِلةُ على الدّنانيرِ والدّراهِمِ ، ثُمّ نُقِلَ إلى القِيامِ على ذلِكَ ، والنّظرِ فى اسْتيفاءِ حاجاتِهِ وشُرُوطِهِ ، وهِى الوظيفةُ فصار علمًا عليْها فى عُرْفِ الدُّولِ ، وهِيَ وظيفةٌ ضرُورِيّةٌ لِلْمُلْكِ إذْ بِهَا يتميّزُ الخالِصُ مِن المغْشُوشِ بيْن النّاسِ فى النُّقُودِ عِنْد المُعاملاتِ ، ويتّقُون فى سلامتِها الغِشّ بِختْمِ السلْطانِ عليْها بِتِلْكَ النُّقُوشِ المعْرُوفةِ وكانَ مُلُوكُ العجمِ يتّخِذُونها ، وينْقُشُون فِيها تماثِيلَ تكُونُ مخْصُوصةً بِها ، مِثْل تِمْثالِ السُّلْطانِ لِعهْدِها ، أوْ تمْثِيلِ حِصْنٍ أوْ حيوانٍ أوْ مصْنُوعٍ أوْ غيْرِ ذلِكَ ، ولمْ يزلْ هذا الشّأنُ عِنْد العجمِ إلى آخرِ أمْرِهِمْ .

ولمّا جاء الإسْلامُ أغْفلَ ذلِكَ لِسذاجةِ الدِّينِ ، وبداوةِ العربِ ، وكانُوا يتعاملُونَ بالذّهبِ والفِضّةِ وزْنًا ، وكانتْ دنانيرُ الفُرْسِ ودراهِمُهُمْ بيْنَ أيْدِيهِمْ ، ويرُدُّونها فى مُعاملتِهِمْ إلى الوزْنِ ، ويتصارفُونَ بِها بيْنهُمْ إلى أنْ تفاحشَ الغِشُّ فى الدّنانيرِ والدّراهِمِ ، لِغفْلةِ الدّوْلةِ ، عنْ ذلِكَ ، وأمرَ عبْدُ الملِكِ الحجّاجَ على ما نقلَ سعيدُ بْنُ المُسيّبِ وأبُو الزِّنادِ بِضرْبِ الدّراهِمِ ، وتمْييزِ المغْشُوشِ مِنَ الخالِصِ ، وذلِكَ سنةَ أرْبعٍ وسبْعِينَ . وقالَ المدائِنىُّ سنةَ خمْسٍ وسبْعِينَ . ثُمّ أمرَ بِصرْفِها فى سائِرِ النّواحى سنةَ سِتٍّ وسبْعِينَ ، وكُتِبَ عليْها اللهُ أحدٌ اللهُ الصّمدُ .

ثم وَلِى ابنُ هُبَيْرَةَ العراقَ أيام يزيد بن عبد الملك فجوَّد السِّكَّةَ . ثم بالغ خالد القسرى فى تجويدها . ثم يوسف بن عمر بعده .

وقيل : أول من ضرب الدَّنانير والدراهم مُصْعَبُ بن الزبير بالعراق سنة سبعين بأمر أخيه عبد الله لما ولى الحجاز : وكتب عليها فى أحد الوجهين « بركة الله » وفى الآخر « اسم الله » ؛ ثم غيَّرها الحجَّاجُ بعد ذلك بسنة . وكُتِبَ عليها اسمُ الحجاج وقدر وزنها على ما كانت استقرت أيام عمر . وذلك أن الدِّرهم كان وزنهُ أوَّلَ الاسلام ستة دوانق : والمثقال وزنُه درهمٌ وثلاثة أسباع درهم : فتكون عشرة دراهم بسبعة مثاقيل . وكان السبب فى ذلك أن أوزانَ الدرهم أيام الفرس كانت مختلفة وكان منها على وزن المثقال عشرون قيراطًا: ومنها اثنا عشر : ومنها عشرة . فلما احتيج إلى تقديره فى الزكاة أُخِذَ الوسط وذلك اثنا عشر قيراطًا : فكان المثقالُ درهمًا وثلاثة أسباع درهم .

وقيل : كان منها البَغْلى بثمانيةِ دَوَانِق : والطَّبرى أربعة دَوَانِقَ : والمغربىُّ ثمانية دوانِق ؛ واليمنىُّ ستة دَوانِق : فأمر عمر أن يُنْظَرَ الأغلبُ فى التعامل فكان البَغلىُّ والطبرىُّ وهما اثنا عشر دانقًا . وكان الدرهم ستة دوانق : وإن زِدْتَ ثلاثةَ أسباعه كانَ مثقالا : وإذا أنقصت ثلاثة أعشار المثقال كان درهمًا . فلما رأى عبدُ المَلِك اتِّخاذ السكَّة لصيانة النقْدَين الْجَارِيَيْنِ فى مُعَاملة المسلمين من الغش عيَّن مقدارَهَا على هذا الذى استقر لعهد عمر رضى الله عنه : واتخذ طَابِعَ الحديد واتخذ فيه كلمات لا صورا ؛ لأن العرب كان الكلام والبلاغةُ أقرب مناحيهم وأظهرها : مع أن الشرع ينهى عن الصور . فلما فعل ذلك استمرَّ بين الناس فى أيام الملة كلها : وكان الدينار والدرهمُ على شكلين مدوَّرين : والكتابة عليهمَا فى دوائِر متوازية يكتب فيها من أحد الوجهين أسماءُ الله تهليلًا وتحميدًا وصلاة على النبى وآله : وفى الوجه الثانى التاريخُ واسمُ الخليفة . وهكذا أيام العباسِيِّين والعُبَيْدِيين والأُمَوِيين .

وأما صَنْهاجة فلم يتخذوا سِكَّةً إلا آخر الأَمْر اتَّخذَها منصور صاحب بِجَاية ذكر ذلك ابن حَمَّاد فى تاريخه . ولما جاءت دولة الموحِّدين كان مما سَنَّ لهم المهدى اتخاذ سِكَّةِ الدِّرهمِ مربَّع الشَّكل : وأن يرسم فى دائِرة الدينارِ شكلٌ مربَّع فى وسطه ، ويملأ من أحد الجانبين تهليلًا وتحميدًا : ومن الجانب الآخر كَتْبًا فى السطور باسْمه واسم الخلفاء مِن بعده . ففعل ذلك الموحِّدون : وكانت سِكَّتُهُم على هذا الشَّكْل لهذا العهد . ولقد كانَ المهدِى فيما ينقل يُنْعَتُ قبلَ ظهوره بصاحبِ الدِّرهم المربَّع نعته بذلك المتكلمون بالحِدثان (١) من قَبْله ، المخبرون فى مَلاحِمِهم عن دولته .

وأما أهل المشرق لهذا العهد فسِكَّتُهُم غير مقدرة وإنما يتعاملُونَ بالدنانير والدراهم وزنًا بالصَّنْجَات (٢) المقدرة بعدة منها : ولا يطبعون عليها بالسِّكة نقوش الكلمات بالتهليل والصلاة واسم السلطان كما يفعله

---

(١) المتحدثون عما يتشوف إليه الناس من أمور الغيب .

(٢) مفرده صنجة وهى معربة ؛ وفى القاموس : « وصنجة الميزان ، معربة » .

أهل المغرب . « ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ »(١) .

ولنختم الكلام فى السّكّةِ بذكر حقيقة الدّرهم والدّينار الشرعيَّيْن وبيان حقيقةِ مِقدارِهما :

وذلك أن الدّينارَ والدّرهمَ مختلفا السكّةِ فى المقدار والموازين بالآفاق والأمصارِ وسائرِ الأعمالِ والشرعُ قد تعرّض لذكرهما وعلّق كثيرًا من الأحكام بهما فى الزّكاةِ والأنكحة والحدود وغيرها . فلا بدّ لهما عنده من حقيقة ومقدار معيَّن فى تقدير تجرى عليهما أحكامُه دون غير الشّرعى منهما .

فاعلم أنّ الإجماعَ منعقدٌ منذ صدر الإسلامِ وعهدِ الصّحابة والتّابعينَ أن الدرهم الشرعيَّ هو الذى تزن العشرةُ منه سبعةَ مثاقِيلَ من الذهب : والأوقيةُ منه أربعين درهمًا : وهو على هذا سبعةُ أعشارِ الدّينار . ووزنُ المثقال من الذّهب اثنتان وسبعونَ حبةً من الشّعير . فالدرهم الذى هو سبعة أعشاره خمسونَ حبّة وخُمُسَا حبة . وهذه المقادير كلها ثابتةٌ بالإجماع . فإن الدّرهم الجاهلىَّ كان بينهم على أنواع أجودُها الطبرى : وهو أربعةُ دوانِقَ : والبَغْلىّ وهو ثمانيةُ دوانِق : فجعلوا الشّرعى بينهما وهو ستة دوانق . فكانوا يوجبُون الزكاة فى مائةِ درهم بغْلِيَّة ومائة طبرية خمسة دراهم وسَطًا .

وقد اختلف الناس هل كان ذلك من وضع عبد الملك وإجماع(٢) الناس بعد عليه كما ذكرناه : ذكر ذلك الخطابى فى كتاب « معا
السنن » والماوردىّ فى « الأحكامِ السّلطانية » :
وأنكره المحققون من المتأخرين : لما يلزم عليه أن يكون الدّينار والدرهمُ الشرعيّان مجهولَيْنِ فى عهد الصحابة ومن بعدهم مع تعلق الحقوق الشرعية بهما فى الزكاة والأنكحة والحدود وغيرها كما ذكرناه . والحقُّ أنهما كانا معلومى المِقدارِ فى ذلك العصر لجريَان الأحكام يومئذ بما يتعلق بهما من الحقوق . وكان مقدارُهُما غير مشخَّص فى الخارج، وإنما كان متعارفًا بينهم بالحكم الشّرعى على المقد فى مقدارهما وزِنَتِهِمَا . حتى استفحلَ الإسلا وعظمت الدولة ، ودعت الحالُ إلى تشخيصه فى المقدار والوزْن كما هو عند الشرع ليستريح من كلفة التقدير . وقارن ذلك أيام عبد المل فشخَّص مقدارهما وعيَّنَهما فى الخارج كما ه فى الذّهن ونقش عليهما السّكّة باسمه وتاريخ إثْرَ الشهادتين الإيمانيّتين ، وطرحَ النقودَ الجاهل رأْسًا حتى خلصت ونقش عليها سِكّةً وتلاش وجودها . فهذا هو الحقّ الذى لا مَحيدَ عنه .

ومن بعد ذلك وقع اختيارُ أهل السكّة فى الدو على مخالفة المقدار الشرعى فى الدينار والدرهم واختلفت فى كلّ الأقطارِ والآفاق ، ورجع النا إلى تصوُّر مقاديرهما الشّرعيّة ذِهنًا كما كان فى الصدر الأول : وصار أهل كل أفق يستخرجو الحقوق الشرعية من سِكّتهم بمعرفةِ النسبة ا بينها وبين مقاديرِهَا الشرعية .

وأما وزن الدينار باثنتين وسبعين حبّةً

(١) آخر آية ٣٨ من سورة يس : « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » .

(٢) فى جميع النسخ « أو إجماع » وهو تحريف كما لا يخفى على المتتبع لسياق الموضوع .

الشعير الوسط. فهو الذى نقله المحققون وعليه الإجماع إلا ابن حزم (١) خالف ذلك وزعم أن وزنه أربعة وثمانون حبّة ، نقل ذلك عنه القاضى عبد الحق ، ورده المحقّقون وعده وهمًا وغلطًا ، وهو الصحيح . والله يُحِقّ الحقَّ بكلماته .

وكذلك تعلم أن الأُوقية الشرعية ليست هى المتعارفةُ بين الناس ، لأن المتعارفة مختلفة باختلاف الأقطار ، والشرعية متحدة ذهنًا لا إختلاف فيها . والله « خلق كل شىء فقدّره تقديرًا (٢) » .

(الخاتَم) وأما الخاتم فهو من الخُطَط السلطانية والوظائف الملوكيّة . والختم على الرسائل والصُّكوكِ معروفٌ للملوك قبل الإسلام وبعده . وقد ثبت فى الصحيحين: أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أراد أن يكتُبَ إلى قيصَر : فقيل له : إن العجمِ لا يقبلون كتابًا إلا أن يكون مختومًا ، فاتخذ خاتمًا من فضة ونقش فيه ، « محمّدٌ رسولُ الله » . قال البخارى : « جعل ثلاث كلمات فى ثلاثة أسطر وختم به وقال : « لا ينقش أحدٌ مثلَه » ؛ قال : « وتَختّم به أبو بكر وعُمرُ وعثمانُ ، ثم سقط من يد عثمانَ فى بئرِ أريسَ : وكانت قليلةَ الماء فلم يدرك قعرها بعد : واغتمّ عثمانَ وتطير منه وصنَع آخر على مثْله » .

وفى كيفية نقش الخاتَم والختْم به وجوهٌ : وذلك أن الخاتَمَ يطلق على الآلة التى تجعل فى الأصبع ، ومنه تَختَّمَ إذا لبسه . ويطلق على النهاية والتمامِ ، ومنه ختمت الأمر إذا بلغت آخره ، وختمت القرآن كذلك ، ومنه خاتَم النبيين وخاتَمُ الأمرِ . ويطلق على السِّداد الذى يسد به الأوانى والدِّنان ، ويقال فيه خِتَام ، ومنه قوله تعالى « خِتامُهُ مِسْكٌ » (١) . وقد غلِط من فسّر هذا بالنهاية والتمام . قال لأنّ آخر ما يجدُونه فى شرابهم ريحُ المسك ؛ وليس المعنى عليه ؛ وإنما هو من الختام الذى هو السِّدادُ لأن الخمر يجعل لها فى الدّنّ سِداد الطين أو القارِ يحفظها ويطيِّبُ عَرْفَها وذوقهـا فبولغ فى وصف خَمْرِ الجنّة بأن سدادها من المسك : وهو أطيب عَرْفًا وذوقًا من القار والطين المعهودين فى الدنيا .

فإذا صح إطلاقُ الخاتَم على هذه كلها صح إطلاقُه على أثرها النّاشِىء عنها . وذلك أن الخاتَم إذا نقشت به كلماتٌ أو أشكال ثم غمس فى مُذاق (٢) من الطين أو مداد : ووضع على صُفح القرطَاس بقِى أكثرُ الكلمات فى ذلك الصَّفح . وكذلك إذا طُبع به على جسمٍ لَيِّن كالشمع ، فإنه يبقى نقش ذلك المكتوب مرتسمًا فيه . وإذا كانت كلماتٌ وارتسمت فقد يُقرأ من الجهة اليسرى إذا كان النقش على الاستقامة من اليمنى ، وقد يقرأ من الجهة اليمنى إذا كان النقشُ من الجهة اليسرى لأن الخَتْمَ يقلب جهة الخطِّ فى الصفح عما كان فى النّقش من يمين أو يَسار فيحتمل أن يكون

(١) من أشهر علماء المسلمين . ولد بقرطبة سنة ٣٨٣ أو ٣٨٤هـ وتوفى سنة ٤٥٧ هـ .

(٢) جزء من آية ٢ من سورة الفرقان .

(١) أول آية ٢٦ من سورة المطففين .

(٢) فى مزيج من الطين والماء . هذا ، وفى جميع النسخ « فى مداف » وهو تحريف .

الختم بهذا الخاتم بغمسه فى المِدَاد أو الطين ، ووضعه على الصّفح فتنتقش الكلماتُ فيه ويكون هذا من معنى النّهايةَ والتّمام بمعنى صحّة ذلك المكتوب ونُفُوذه كأن الكِتاب إنما يتمُّ العملُ به بهذه العلامات وهو من دونها ملغى ليس بتمام . وقد يكونُ هذا الختْم بالخطّ آخرَ الكتاب أو أوله بكلماتٍ منتظمة من تحميد أو تسْبيحٍ ، أو باسم السُّلطان أو الأمير أو صَاحب الكِتاب كائنًا من كانَ أو شيءٍ من نعُوتِه يكون ذلك الخَطُّ علامةً على صحة الكِتَاب ونفُوذه : ويسمى ذلك فى المتعارف علامةً ويسمى ختمًا تشبيهًا له بأثر الخاتم الآصَفى [١] فى النقش ، ومن هذا خاتمُ القاضى الذى يبعثُ به للخصوم : أى علامته وخطه الذى ينفذ بهما أحكامَه ومنه خاتم السلطان أو الخليفة أى علامته . قال الرشيدُ ليحيي بن خالد لما أراد أن يستوزِر جعفرًا ويستبدل به من الفضل أخيه فقال لأبيهما يحيي : « يا أبت [٢] إنى أردت أن أحوِّل الخاتَم من يمينى إلى شِمالى » : فكنّى له بالخاتم عن الوزارة لما كانت العلامةُ على الرسائل والصّكُوك من وظائف الوزارة ويشهدُ لصحة هذا الاطلاق ما نقله الطبرى : أن معاويةَ أرسل إلى الحَسن عند مراودته فى الصّلح صحيفةً بيضاء ختم على أسفلها ، و كتب إليه أن اشترطْ فى هذه الصحيفة التى ختمتُ أسفلَها ما شئت فهو لَكَ . ومعنى الَختم هنا علامة فى آخر الصيفة بخطه أو غيره . ويحتمل أن يختم به فى جسم لين فتنتقش فيه حروفه : ويحمل على موضع الَحزْم من الكتاب إذا حَزِمَ وعلى المودوعات وهو من السداد كما مر وهو فى الوجهين آثار الخاتَم : فيطلق عليه خاتّم .

وأول من أطلق الختْم على الكتَابِ أى العلامة معاوية ، لأنه أمر لعمر بن الزبير عند زياد بالكوفة بمائة ألف ففتح الكتاب وصير المائة مائتين ورفع زياد حسابه فانكرها معاوية وطلب بها عُمَر وحبسه حتى قضاها عنه أخوه عبد الله . واتخذ معاويةُ عند ذلك ديوان الخاتَم ذكره الطبرى . وقال آخرون وَحزَم الكتب ولم تكن تحزَمْ أى جعل لها السّداد . وديوان الخَتمْ عبارة عن الكتّاب القائمين على إنفاذ كتب السلطان والختمْ عليها إما بالعلامة أو بالحزْم . وقد يطلق الديوانُ على مكان جلوس هؤلاء الكتاب كما ذكرناه فى ديوان الأعمال [١] .

والحزْم للكتب يكون إما بدَسّ الورق كما فى عُرْف كتاب المغرِب وإما بلَصق رأسِ الصّحيفة على ما تنطوى عليه من الكتاب كما فى عُرْف أهل المشرق . وقد يجعل على مكان الدس أو الالصاق علامة يُؤْمَن معها من فتحه والاطلاع على ما فيه . فأهل المغرب يجعلون على مكان الدّس قطعةً من الشمع ويختمون عليها بخاتم نقشت فيه علامة لذلك : فيرسم النقش فى الشمع . وكان فى المشرق

(١) نسبة إلى « آصف » كهاجر ، « وهو كتاب سليمان صلوات الله وسلامه عليه دعا بالاسم الأعظم فرآى سليمان العرش مستقرا عنده » (القاموس) .

(٢) هكذا كان الرشيد يخاطب يحى بن خالد البرمكى ، والسبب كما قال ابن خلدون من قبل هومكانة يحى من كفالة هرون وليّ عهد وخليفة ، حتى شب فى حجره ، ودرج من عشه ، وغلبه على أمره وكان يدعوه يا أبت » .

(١) انظر الحديث عنه فى الفصل الرابع والثلاثين من هذا الباب

فى الدول القديمة يُخْتم على مكان اللصق بخاتَم منقوش أيضاً قد غمس فى مُذَاق من الطِّين معدٌّ لذلك صبغه أحمر فيرتسِم ذلك النقش عليه . وكان هذا الطين فى الدولة العباسية يعرف بطين الختم وكان يجلب من سِيرَاف فيظهر أنه مخصوص بها .

فهذا الخاتم الذى هو العلامةُ المكتوبةُ أو النَّقش للسِّداد والحزْم للكتب خاصٌّ بديوان الرسائل . وكانَ ذلك للوزير فى الدولة العباسية . ثم اختلفَ العُرف وصار لمن إليه التَّرْسيلُ وديوان الكتاب فى الدَّولة ثم صاروا فى دول المغرب يعدون من علامات الملك وشاراته الخاتَم للاصبع ، فيستجيدُون صوغَه من الذهب ويرصِّعونه بالفصُوص من الياقوت والفيروزج والزُّمرد ويلبسه السلطان شارةً فى عرفهم كما كانت البردة والقضيبُ فى الدولة العبَّاسية والمظلة فى الدولة العُبَيْدية . واللهُ مصرِّف الأمور بحكمه .

(الطراز) من أُبَّهة الملك والسلطان ومذَاهبِ الدول أن ترسم أسماؤهم أو علاماتٌ تختص بهم فى طراز أثوابهم المعدَّة للبَاسهم من الحرير أو الدِّيباج أو الإبْرِيسَم تعتبر كتابة خطِّها فى نسج الثَّوب ألحامًا وأسداء [١] بخيط الذهب أو ما يخالف لون الثوب من الخيـوط الملوَّنة من غير الذهب على ما يُحْكِمُهُ الصناع فى تقدير ذلك ووضعه فى صناعة نَسْجهم . فتصيرَ الثيابُ الملوكية مُعْلَمَةً بذلك الطِّرَاز قصد التَّنويه بلابسها من السلطان فمن دونه أو التَّنويه بمن يختصه السلطان بملبوسه إذا قَصَدَ تشريفَهُ بذلك أو ولايتَه لوظيفة من وظائف دولته .

وكان ملوكُ العجم من قبل الإسْلام يجعلون ذلك الطِّرازَ بصوَر الملوك وأشكالهم ، أو أشكال وصور معيَّنة لذلك . ثم اعتَاضَ ملوك الإسلام عن ذلك بكتب أَسمائهم مع كلمات أخرى تجرى مجرى الفـأْل أو السِّجلات . وكان ذلك فى الدولتين من أُبَّهة الأمور وأَفخم الأَحوال . وكانت الدورُ المعدة لنسج أثوابهم فى قصورهم تسمى دُور الطِّراز لذلك وكان القائم على النظر فيها يسمى صاحب الطراز ينظُر فى أُمور الصُّباغ والآلة والْحَاكَة فيها وإجْراء أرزاقهم وتسهيل آلاتهم ومشَارفة أعمالهم . وكانوا يُقَلِّدون ذلك لخواص دولَتهم وثقات مواليهم . وكذلك كان الحالُ فى دولة بنى أُميَّة بالأَندلس والطوائف من بعدهم ، وفى دولة العُبَيْديين بمصْر ، ومن كان علَى عهدِهم من ملوك العْجَمَ بالمشرق . . ثم لما ضاقَ نطاقُ الدُّول عن التَّرَف والتفنن فيه لضيق نطاقها فى الاستيـلاء وتعددت الدُّولُ تعطَّلت هذه الوظِيفة والولاية عليها من أكثر الدول بالجملة .

ولما جاءَت دولة الموحدين بالمغرب بعد بنى أُمية أول المائة السـادسة لم يأْخذوا بذلك أول دولتهم لما كانوا عليه من مَنازِع الدِّيانة والسذاجة التى لقنوها عن إمامهم مُحمَّد بن تُومَرْت المهْدى وكانوا يتورعون عن لباس الحرير والذَّهب . فسقطت هذه الوظِيفَة من دولتهم ؛ واستدرك منها

(١) اللحمة بالفتح والضم للثوب ما ينسج عرضا وقد جمعه ابن خلدون على ألحام ؛ والسدى ما يمد طولا فى النسج ، وجمعه أسداء كما فى المصباح .

أعقابُهم آخر الدولة طرفًا لم يكن بتلك النباهة . وأما لهذا العهد فأدركنا بالمغرب فى الدولة المرينيَّة لعنفوانها وشموخها رسمًا جليلا لُقِّنوه من دولة ابن الأحمر مُعَاصِرِهم بالأندلس واتبع هُو فى ذلك ملوكَ الطوائف فأتى منه بلمحة شاهدة بالأثر .

وأما دولة الترك بمصر والشَّام لهذا العهد ففيها من الطِّراز تحريرٌ آخر على مقدار ملكهم وعُمران بلادهم . إلا أن ذلك لَا يَصنع فى دُورهم وقُصورِهم وليستْ من وظائف دولتهم وإنما ينسج ما تطلبه الدولة من ذلك عند صُنَّاعِهِ من الحرير ومن الذَّهب الخالص ويسمونه المُزَرْكَش (لفظةٌ أعجمية) . ويرسم اسم السّلطان أو الأميرِ عليه ويُعِدُّهُ الصُّنَّاعُ لهم فيما يُعِدُّونَه للدولة من طُرَف الصناعة اللائقة بها . والله مُقَدِّر اللَّيل والنَّهار : والله خَيرُ الوَارِثين .

(الفساطيط والسياج) اعلم أن من شارات الملك وترفه اتخاذ الأخبية والفَساطِيط والفَازَات (١) من ثِيَاب الكتَّان والصُّوف والقطن بجدْل الكتان والقطن فيُبَاهَى بها فى الأسفار وتُنَوَّعُ منها الألوانُ ما بين كبير وصغير على نِسبَة الدَّولةِ فى الثَّروة واليَسَار . وإنما يكون الأَمرُ فى أول الدولة فى بيوتهم التى جرت عادتهم باتخاذها قبل الملك . وكان العربُ لعهد الخلفاء الأوَّلين من بنى أُميَّة إنما يسكنون بيوتهم التى كانت لهم خيامًا من الوبَرَ والصُّوف . ولم تزل العرب لذلك العهد بادِينَ إلا الأقل منهم . فكانت أسفارُهم لغزواتهم وحروبهم بظعونهم (٢) وسائر حِللهم وأحيائهم من الأهل والولد كما هو شأن العرب لهذا العهد . وكانت عساكِرُهم لذلك كثيرةَ الحِلل بعيدة ما بين المَنَازل متفرقة الأَحْياء يغيبُ كلٌّ واحد منها عن نَظَر صاحبه من الأُخرى كشأن العرب . ولذلك كان عبدُ الملك يحتاج إلى سَاقَة (١) تحشِدُ الناس على أثرِه أن يقيموا إذا ظَعَنَ . ونقل أنه استعملَ فى ذلك الحجَّاجَ حين أشارَ به روْحُ بن زِنْبَاع . وقصتها فى إحْرَاق فَسَاطِيط روح وخِيَامه لأول ولايته حين وجدَهم مُقيمين فى يوم رحيل عبد الملك قصة مشهورة . ومن هذه الولاية تُعرَفُ رتبةُ الحجاج بين العرب ؛ فإنه لا يتولى إرادتهم على الظعْنِ إلا من يَأْمَن بوادِرَ السُّفهاء من أحْيَائهم : بما له من العصبيَّة الحائلةَ دون ذلك ولذلك اختصه عبد الملك بهذه الرُّتبة ثقة بغَنائه فيها بعصبيَّته وصَرَامَتِهِ .

فلما تفننت الدولة العربية فى مذاهب الحضارة والبَذَخ ونزلوا المدن والأمصار وانتقلوا من سكنى الخيام إلى سكنى القصور ، ومن ظَهْرِ الخُلفُ إلى ظهر الحافر (٢) اتخذوا للسُّكنى فى أسْفَارهم ثياب الكتان يستعْملون منها بيوتاً مختلفة الأشكال مقدر الأمثال من القَوْراء (٣) والمستَطِيلة والمربَّعة ويحتفِلون فيها بأبلَغ مذاهب الاحتفال والزِّينة ويدير الأمير القائد للعساكر على فَساطيطه وفازاته من بينهم سياجاً من الكتَّان يسمى فى المَغرب بلسان

(١) فى القاموس : « الفازة : مظلة بعمودين »

(٢) لعله يعنى جمعا غير وارد للظعينة وهى الهودج فيه أمرأة أم لا .

(١) ساق سوقا فهو سائق وسواق ويجمع على ساقة وبهذا المعنى استعمله هنا ابن خلدون . والساقة أيضا مؤخرة الجيش كأنها تسوقه سوقا .

(٢) أى من ظهور الإبل إلى ظهور الخيل .

(٣) « القوراء الواسعة » (القاموس) .

بربر الذى هو لسان أهله «أفراك» بالكاف التى بين
كاف والقاف ويختص به السلطان بذلك القطر
يكون لغيره .

وأما فى المشرق فيتخذه كلّ أمير وإن كان دون
سلطان . ثم جنحت الدّعةُ بالنساء والوِلدان إلى
قام بقصُورهم ومنَازلهم ، فخف لذلك ظهرهم
تقاربَتْ السَّاحُ بينَ منَازِل العسكر ، واجتمع
الجيشُ والسُّلطان فى معَسْكر واحد يحصره البصر
فى بسيطة زهوا أنيقاً لاختلاف ألوانه . واستمرّ
الحال على ذلك فى مذاهب الدول فى بذخِها وترفها.

وكذا كانت دولةُ الموحِّدين وزنَاته التى أظلتنا.
كان سفرهم أوّلَ أمرهم فى بيوت سكناهم قبل الملك
من الخِيام والقَياطن (١) . حتى إذا أخذت الدولة
فى مذَاهب الترف وسكنى القُصور عادوا إلى سكَنى
الأخبِيَة والفسَاطِيط ، وبلغوا من ذلك فوق ما
أرادوه وهو من التَّرف بمكان . إلا أن العساكر به
تصير عُرْضَةً للبيَات (٢) لاجتماعهم فى مكان واحد
تشملهم فيه الصيحة ولخفتهم من الأهل والولد
اللذين تكون ، الاستماتةُ دونهم ، فيُحتاجُ فى ذلك
إلى تحَفّظ آخَر والله القوى العزيز .

(المقصورةُ للصلاةُ والدعاء فى الخطبة) وهما
من الأُمور الخِلافِيَّة ومِن شارات الملك الإسلامى ،
ولم يعرف فى غير دول الإسلام .

فأما البيت المقصورة من المسجد لصلاة السلطان
فيتخذ سياجا على المحراب فيحوزه وما يليه . فأول
من اتخذها معاوية بنُ أبى سفيان حين طعَنَه الخارجى
والقِصَّةُ معروفَةٌ ، وقيلَ أول من اتَّخذها مروان بن
الحكم حين طعنه اليمانى . ثم اتخذها الخلفاء من
بعدهما وصارت سُنَّةً فى تمييزِ السُّلطان عن النَّاسِ
فى الصلاة . وهى إنما تحدث عندَ حصُول الترف
فى الدول والاستفحَالِ شأن أحوال الأبّهة كلها .
وما زال الشأنُ ذلك فى الدُّول الإسلامية كلها .
وعند افتراق الدولة العباسيَّة وتعدّد الدول بالمشرق ،
وكذا بالأندلُس عند انقراضِ الدولة الأُموية وتعدد
ملوك الطوائف . وأما المغربُ فكان بنو الأغلب
يتخذونها بالقَيْرَوان ثم الخلفاءُ العُبَيْدِيُّون ، ثم
وُلاتهم على المغرب من صنْهَاجَة ، بنو بَاديس بفَاس
وبنو حمَّاد بالقلعة . ثم مَلَكَ الموحِّدون سائر المغرب
والأندلُس ، ومَحَوْا ذلك الرَّسم على طريقة البداوة
التى كانت شِعَارهم ، ولما استفحلت الدولة وأخذت
بحظها من الترف ، وجَاء أبو يَعْقوب المَنْصُور
ثَالث ملُوكهم فاتَّخذ هَذِهِ المَقصُورة ، وبقيت من
بعْدِهِ سنة لملُوك المغرب والأندلس . وهكذا كان
الشَّأنُ فى سائرِ الدول سنة الله فى عباده

وأما الدعاءُ على المنابر فى الخطبة فكان الشأن
أولا عند الخلفاء ولايةَ الصلاة بأنفسهم . فكانُوا
يدعونَ لذلك بعد الصلاة بالصلاة على النبى صلى الله
عليه وسلم والرضا عن أصحابه . وأول من اتخذ
المنبر عمرُو بنُ العاص لما بنى جامعه بمصر . وأول
من دعا للخليفة على المنبر ابن عبَّاس دعَا لعلى رضى
الله عنهما فى خطبته وهو بالبصرة عامل له عليها ،

(١) فى القاموس جمع قيطون وهو المخدع .
(٢) « بيت العدو : أوقع بهم ليلا والاسم البيات » .

فقال : « اللّهم انصُر عليًا على الْحق » . واتّصل العمل على ذَلك فيما بعد .

وبعد أخذ عمْرو بن العَاصِ المنبرَ بلَغ عُمَرَ بنَ الخطاب ذلك ، فكتب إليه عمر بن الخطاب : « أما بعدُ فقد بَلَغَنى أنّك اتخذْت منبرًا ترقَى به على رِقَاب المسْلِمين ، أو ما يكْفِيكَ أن تكُونَ قائمًا والمسلِمُون تَحتَ عِقبك ؟ ! فَعزمتُ عليكَ إلّا مَا كَسَرْتَه » . فلما حدثَت الأُبهة ، وحدثَ فى الخلفاء المانِعُ من الْخُطْبة والصّلاةِ استنَابوا فِيهما . فكانَ الخطيب يُشيد بذكر الخَلِيفة على المنبر تَنْويهًا باسمه ودعاء له بما جعل الله مصْلَحةَ العالمِ فيه ، ولأن تلك الساعة مَظِنّةٌ للإجابة ، ولما ثَبتَ عن السّلف فى قولهم : من كانت له دعوةٌ صالِحة فليضَعها فى السُّلطَان . وكان الخليفة يُفرَد بذلك .

فلما جاء الْحجَرُ والاستِبدَاد صار المتقلِّبون على الدول كثيرًا ما يشاركون الخليفة فى ذلك ، ويُشادُ باسمهم عقِبَ اسمه وذهب ذَلِك بذَهَاب تلك الدول وصار الأمرُ إلى اختِصَاص السلطان بالدّعاء له على المنبر دونَ من سواه ، وحظر أن يشاركه فيه أحد ويسمو إليه .

وكثيرًا ما يغْفل المَاهِدُون من أهل الدُّول هذا الرّسمَ عندما تكون الدولة فى أسْلوب الغَضاضة ومنَاحِى البدَاوة فى التّغافل والخشُونة . ويقنعون بالدعاء على الإبهام والإجمال لمَنْ وَلى أمورَ المسلمين ويسمون مثل هذه الخطبة إذا كانت على هذا المنحى عَبّاسِيّة ، يعنون بذلك أن الدّعاء على الإجمال إنما يتناوَل العبّاسى تقليدًا فى ذلك لما سلف من الأَمر ، ولا يَحْفِلون بما وراء ذلك من تعيين والتّصريح باسمه .

يحكى أن يُغْمراسِن بنْ زيّان ، ماهِدَ دولة بنى عَبْد الْوَادِ لمّا غلبه الأمير أبو زكريا يَحيى بن أبى حفص على تِلِمْسان ، ثم بداله فى إعادة الأمر إليه على شُروط شرَطها ، كان فيها ذِكرُ اسمه على منابر عمله ، فقال يغمراسن : تِلك أعوادُهم يذكرون عليها من شاءُوا . وكذلك يعقوب بن عبد الحق ماهد دولة بنى مَرِين ، حضره رسولُ المستنصِر الخليفة بتونس من بَنى أبى حفص وثالث ملوكهم ، وتخلف بعضَ أيامه عن شهود الجمعة ، فقيل له لم يحضر هذا الرسول كراهيةً لخلو الخطبة من ذكر سلطانه . فأذن فى الدعاء له ، وكان ذلك سببًا لأخذهم بدعوته .

وهكذا شأْنُ الدول فى بدايتها وتمكنها فى الغضاضة والبدَاوة . فإذا انتبهت عيونُ ساسهم . ونظروا فى أعطاف ملكهم ، واستتموا شِيَات (١) الحضارة ومعانى البَذَخِ والأُبّهةِ ، انتحلوا جميع هذه السّمات وتفننوا فيها ، وتَجاروا إلى غايتها ، وأنِفوا من المشاركة فيها ، وجزعُوا من افتقادها وخلو دولتهم من آثارها . والعالم بستانٌ . والله على كل شيء رقيب .

---

(١) الشية العلامة واللون .

٣٧ - فصل فى الحروب ومذاهب الأمم فى ترتيبها [١]

أعلم أن الحروب وأنواع المُقاتلة لم تزل واقعةً فى الخليقة منذ برأها الله . وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض ، ويتعصّب لكل منها أهل عصبيته . فإذا تذامروا [٢] لذلك وتواقفت الطائفتان ، إحداهُما تطلب الانتقامَ ، والأُخرى تدافع ، كانت الحرب . وهو أمر طبيعي فى البشر لا تخلو عنه أُمةٌ ولا جيل .

وسببُ هذا الانتقامُ فى الأكثر : إما غيرة ومنافسةٌ ، وإما عدوان ، وإما غضبٌ لله ولدينه ، وإما غضب للمُلْك وسعى فى تمهيده

فالأول أكثر ما يجرى بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة .

والثانى وهو العدوانُ أكثر ما يكون من الأمم الوحْشيّة السّاكنين بالقفر كالعرب [٣] والترك والتركمان والأكراد وأشباههم ؛ لأنهم جعلوا أرزاقهم فى رِماحهم : ومعاشهم فيما بأيدى غيرهم : ومن دافعهم عن متاعه آذنوهُ بالحرب : ولا بُغْيَةَ لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك : وإنما همهم ونصبُ أعينهم غَلَبُ الناس على ما فى أيديهم .

والثالث هو المسمى فى الشّريعة بالجهاد .

والرّابع هو حروب الدّول مع الخارجِين عليها والمانعين لطاعتها . فهذه أربعة أصنافٌ من الحروب الصنفان الأُولان منها حروب بغى وفتنة ؛ والصنفان الأَخيرَان حروب جهاد وعدْل .

وصفةُ الحروب الواقعةِ بين الخليقةِ منذُ أول وجودهم على نوعين : نوعٍ بالزّحف صفوفًا ؛ ونوعٍ بالكرّ والفرّ . أما الذى بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم . وأما الذى بالكَرّ والفرّ فهو قتال العرَب والبرْبر من أهل المغربِ .

وقتالُ الزحف أوثقُ وأشدّ من قتال الكرّ والفر ، وذلك لأن قتـال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القِـداح أو صفوف الصلاة ويمشون بصفوفهم إلى العدو قدُمًا . فلذلك تكون أثبتَ عند المصارِع وأصدقَ فى القتال وأرهب للعدو ، لأنه كالحائط. الممتد والقصر المشيدِلا يطمع فى إزالته . وفى التنزيل ، « إنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يقَاتِلُونَ فى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهم بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ [١] أى يشد بعضهم بعضًا بالثبات . وفى الحديث الكريم ، « المؤمِنُ للمؤمن كالبُنْيان يشُدُّ بعضه بعضًا » . ومن هنا يظهر لك حكمة إيجاب الثبات وتحريم التولى فى الزحف [٢] ؛ فإن المقصود من الصفُ فى القتال حفظُ النظام كما قلناه : فمن ولّى العدوُ ظهرَه فقد أخل بالمصاف : وباء بإثم الهزيمة إنْ وقعت : وصار كأنه جرها على المسلمين :

(١) ما يقرره ابن خلدون هنا لا ينطبق إلا على الشعوب التى عاصرها وشهد أحوالها ، وخاصة العرب والبربر . أما غيرها فلم يستقرئها ، ومن ثم لا تندرج أحكامه عليها . ونقص الاستقراء أكبر ما أخذ على ابن خلدون فى بعض فصول المقدمة .

(٢) تحاضوا على القتال .

(٣) يعنى الأعراب .

(١) آية ٤ من سورة الصف .

(٢) يشير بذلك إلى قوله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » (آيتى ١٥ ، ١٦ من سورة الأنفال) .

وأمْكَنَ منهم عدوَّهم ؛ فَعظُم الذنب لعموم المفسدة وتعدِّيها إلى الدين بخرْق سِيَاجه ؛ فعُدَّ من الكبائر. ويظهر من هذه الأدلة أن قتالَ الزحف أشدُّ عند الشارع .

وأما قتال الكرِّ والفر فليس فيه من الشدَّة والأمنِ من الهزيمة مافى قتال الزحف . إلا أنهم قد يتخذون وراءهم فى القتال مصافًا ثابتًا يلجأُون إليه فى الكرِّ والفر ، ويقوم لهم مقام قتال كما نذكره بعد .

ثم إن الدُّول القديمة الكثيرة الجنودِ المتَّسعة الممالك كانوا يقسمون الجيوش والعساكر أقساما يسمونها كراديس ، ويسوُّون فى كل كردوس (١) صفوفة . وسبب ذلك أنه لما كثرت جنودُهم الكثرة البالغة وحشدوا من قاصية النواحي استدْعى ذلك أن يجهل بعضهم بعضًا إذا اختلطوا فى مجال الحربِ واْعْتَوروُا مع عدوهم الطعنَ والضربَ ، فيخشى من تدافعهم فيما بينهم لأجل النَّكْرَاء (٢) وجَهْلِ بعضهم ببعض . فلذلك كانوا يقسمون العساكرَ جموعًا ويضمون المتعارفين بعضهم لبعض ويرتبونها قريبًا من الترتيب الطبيعى فى الجهاتِ الأربع ورئيس العساكر كلها من سلطان أو قائد فى القلب . ويسمون هذا الترتيب التَّعْبِئَة ، وهو وصدْر الإسلام . فيجعلون بين يدى الملك عسكرًا

(١) : الكردوسة بالضم قطعة عظيمة من الخيل ، وكردس الخيل جعلها كتيبة كتيبة ، (القاموس) .

(٢) النكراء المنكر والأمر الشديد وقد استعملها ابن خلدون هنا بمعنى الجهل بالشىء ، وهو استعمال للكلمة فى غير معانيها الحقيقية .

منفردًا بصفوفه ممتيزًا بقائده ورايته وشعاره ، ويسمُّونه المقدِّمَة ؛ ثم عسكرًا آخر من ناحية اليمين عن موقف الملك وعلى سمته يسمون الْمَيْمَنَة ؛ ثم عسكرًا آخر من ناحية الشمال كذلك يسمونه المَيْسَرَة ؛ ثم عسكرًا آخر من وراء العسكر يسمونه السَّاقَة(١) ؛ ويقف الملك وأصحَابه فى الوسط بين هذه الأربع ، ويسمون موقِفَه القلْبَ . فإذا تم لهم هذا الترتيب المحكم ، إما فى مدًى واحد للبصر أو على مسافة بعيدة ، أكثرها اليومُ واليومَان بين كل عسكرين منها أو كيفَما أعطاهُ حال العساكر فى القلة والكثرة ، فحينئذ يكون الزَّحف من بعد هذه التعبئة .

وانظر ذلك فى أخبار الفتوحات وأخبار الدَّولَتين بالمشرق ، وكيف كانت العسَاكِرُ لعهد عبدالملك تتخلَّف عن رَحِيله لِبُعدِ المدَى فى التعبئة ، فَاحتيجَ لمن يَسُوقها من خلْفه وعين لِذلك الحجَّاج بنَ يوسَفَ كما أشرنا إليه (٢) هو معروف فى أخباره . وكان فى الدولة الأُموية بالأندلس أيضا كثيرٌ منه . وهو مجهولٌ فيما لدينا ، لأنا إنما أدركنا دولاً قليلة العساكر لاتنتهى فى مَجال الحرب إلى التَّنَاكُر ، بل أكثر الجيوش من من الطائفتين معًا يجمعهم لدينا حِلَّةٌ أو مدينة ويعرف كل واحد منهم قِرْنَهُ(٣) ويناديه فى حومة الحرب باسمه ولقبه ، فاستُغْنى عن تلك التعبئة ،

(١) ساقة الجيش مؤخرته ، وكأنها تسوقه سوقاً .

(٢) فى الفصل السابق عند حديثه عن « القساطيط والسياج ».

(٣) قرينه ونظيره .

(فصل) ومن مذاهبِ الكَرِّ والفرِّ فى الحروب ضربُ المَصَافِّ وراءَ عسكرهم من الجمادات والحيوانات العُجْم ، فيتخذونها ملجأً للخيالة فى كرهم وفرهم ، يطلبون به ثبات المُقَاتِلَةَ ليكون أدوم للحرب وأقرب إلى الغلب . وقد يفعله أهل الزحف أيضاً ليزيدَهم ثباتا وشدة .

فقد كان الفرس ، وهم أهْل الزحف ، يتخذون الفيلة فى الحروب ويحمّلون عليا أبراجاً من الخشب أمثال الصرُّوح ، مشحونةً بالمقاتلة والسلاح والرَّايات ، ويصفونها وراءهم فى حومة الحرب كأنّها حصونٌ ، فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد وثوقُهم .

وانظر ما وقَع من ذلك فى القَادِسِيَّة ، وأن فارِسَ فى اليوم الثالث اشتدوا بها على المسلمين حتى اشتدت رجَالَاتٍ من العرب فخالطوهم وبعجوها (١) بالسيوف على خرَاطِيمها ، فنفرت ونكَصَت على أعقابها إلى مَرَابِطها بالمدائن ، فجفا معسكرُ فارس لذلك وانهزَمُوا فى اليوم الرابع .

وأما الرُّوم وملوك القوطِ بالأندلس وأكثر العجم فكانوا يتخذون لذلك الأَسِرَّة ينصبون للملك سريره فى حومة الحرب ، ويَحُفُّ به من خدمه وحاشيته وجنوده من هو زعيم بالاستِمَاتَةِ دونَه ، وترفع الرَّايات فى أركان السرير ، ويحدق به سياجٌ آخر من الرماة والرَّجَّالة (٢) ، فيعظم هيكل السرير ويصير فِئَةً للمقاتلة وملجأً للكرّ والفر .

وجعل ذلك الْفُرسُ أيام القادسية ، وكان رسْتم جالساً على سرير نصبه لجلوسه ؛ حتى اختلفت صفوفُ فارس وخالطه العرب فى سريره ذلك ، فتحول عنه إلى الفرات وقُتِل .

وأما أهل الكَرِّ والفر من العرب وأكثر الأمم البدوية الرَّحَّالة فيصُفّون لذلك إبلَهم والظَّهر الذى يحمل ظعائنهم فيكون فِئَةً لهم ، ويسمّونها المجبوذة(١) .

وليس أمة من الأمم إلا وهى تفعلُ ذلك فى حروُبها ، وتراه أوثقَ فى الْجوْلة ، و آمن من الغِرَّة والهزيمة . وهو أمرٌ مشاهد .

وقد أغفلتهُ الدولُ لعهدنا بالجملة ، واعْتَاضُوا عنه بالظَّهر الحامل للأثقال والفسَاطيط، يجعلونها ساقة من خلفهم ؛ ولا تغنى غَنَاءَ الفيلة والابل . فصارت العساكر بذلك عُرْضَةً للهزائم ، ومستَشْعِرَةً للفِرار فى المواقف .

وكان الحرب أولَ الإسلام كله زحفاً . وكان إنما يعرفون الكَرَّ والفر . لكن حملهم على ذلك أولَ الإسلام أمران : أحدهما أن عدوَّهم كانوا يقاتلون زحفاً فيضطرون إلى مقاتلتهم بمثل قِتالهم ؛

الثانى أنهم كانوا مُسْتَميتين فى جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر ، ولما رَسَخ فيهم من الإيمان . والزحفُ إلى الاستماتة أقرب .

وأول من أبطَل الصفَّ فى الحــروب وصار إلى التعبئة كراديس : مروانُ بنُ الحكم فى قتال الضَّحَّاك الخَارجىِّ والجُبَيْرِىِّ بعده .

(١) «بعجه كبنعه شقه» (القاموس) . (٢) المشاة .

(١) لأنها مجذوبة إلى الجيش ومشدودة به .

قال الطبرى لما ذكر قتال الحبيرى : «فولى الخوارجُ عليهم شيبانَ بن عبد العزيز اليشكرى ويلقب أبا الدَّلْفاء وقاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس وأبطلَ الصفَّ من يومئذ» انتهى . — فتنوسى قتال الزحف بإبطال الصَّف ، ثم تنوسى الصَّفُّ وراء المُقَاتِلَةِ بما داخل الدول من الترف . وذلك أنها حينما كانت بدوية وسكناهم الخيـام كانوا يستكثرون من الإبل وسكنى النساء والوِلدان معهم فى الأحياء فلما حصلوا على ترف المُلْك والفواسكنى القصور والحواضر وتركوا شأن البادية والقفر نسوا لذلك عهد الإبل والظَّعائن وصعُب عليهم اتخاذها ، فخلفوا النساء فى الأسفار ، وحملهم الملك والترف على اتخاذ الفساطيط والأخبية ، فاقتصروا على الظهر الحامل للأثقال والأبنية[١] . وكان ذلك صفتهم فى الحرب . ولا يغنى كل الغَنَاء لأنه لا يدْعُو إلى الاستماتة كما يدعوا إليها الأهل والمال. فيخف الصبر من أجل ذلك وتصرفهم الهَيْعات وتُخْرِم صُفُوفُهم .

(فصل) ولَمَّا ذكرناه من ضرب المصَافِّ وراء العساكر وتـأكده فى قتال الكَرِّ والفَرِّ ، صار ملوك المغرب يتخَذون طائفة من الافرنج فى جندهم ، واختُصُّوا بذلك لأن قتال أهل وطنهم كلَّه بالكَرِّ والفَرِّ . والسلطان يتـأكد فى حقه ضرب المصاف ليكون رِدْءًا للمقاتِلة أمامه ، فلا بد وأن يكون أهل ذلك الصفِّ من قوم متعودِين للثبات فى الزحف ، وإلا أجفلوا[١] على طريقة أهل الكرِّ والفر ، فانهزم السلطانُ والعساكر بإجفالهم ؛ فاحتاج الملوك بالمغرب أن يتخذوا جندًا من هذه الأمة المتعوِّدة الثبات فى الزحف وهم الإفرنج ، ويرتبون مصافَّهم المحدق بهم منها . هذا على ما فيه من الاستعانة بأهل الكفر . وإنما استخفوا ذلك للضرورة التى أريناكها من تخوف الإجفال على مصَافِّ السلطان . والإفرنج لا يعرفون غير الثبات فى ذلك ، لأن عادتَهم فى القتال الزحفُ ، فكانوا أقوم بذلك من غيرهم . مع أن الملوكَ فى المغرب إنما يفعلون ذلك عند الحرب مع أمم العرب والبربَر وقتالهم على الطَّاعة ؛ وأما فى الجهادِ فلا يستعينُون بهم حذرًا من ممالأتهم على المسلمين . هذا هو الواقعُ بالمغرب لهذا العهد ؛ وقد أبْدينا سببه . والله بكلِّ شىء عليمٌ .

(فصل) وبلغنا أن أممَ الترك لهذا العهد قتالُهم مناضلةٌ بالسهام ، وأن تعبئةَ الحرب عندهم بالمَصافِّ ، وأنهم يقسمون بثلاثة صفوف ، يضربون صفًا وراء صفٍّ ، ويترجَّلون عن خيولهم ، ويفرغون سهامهم بين أيديهم ، ثم يتَنَاضَلون جلوسًا ، وكل صف رِدْء للذى أمامه أن يَكْبِسَهُم العدو ، إلى أن يتهيأَ النصرُ لإحدى الطائفتين على الأُخرى . وهى تعبئةٌ محكمة غريبة .

(فصل) وكان من مذاهب الأُوَل فى حروبهم حفرُ الخَنَادق على معسكرهم عندما يتقاربون حذرًا من مَعَرَّةِ البَيَاتِ[٢] والهجوم على العسكر بالليل

(١) علق الهوريني على الكلمة بقوله «مراده بالأبنية الخيام ، كما يدل له فى قوله فى فصل الخندق الآتى قريبا «إذا نزلوا وضربوا أبنيتهم».

(١) أجفل القوم أسرعوا فى الهرب .
(٢) الإيقاع بالعدو ليلا .

لما فى ظلمته ووَحْشته من مضاعفة الخوف فيلوذ الجيش بالفرار وتجد النفوس فى الظلمة سترًا من عاره ، فإذا تساووْا فى ذلك أُرْجِفَ (١) العسكر ووقعت الهزيمةُ . فكانوا لذلك يحتفرون الخنادقَ على معسكرهم إذا نزلوا وضربوا أبنيتهم ، ويديرُون الحفائر نطاقًا عليهم من جميع جهاتهم ، حرصًا أن يخالطهم العدو بالبيات فيتخاذلوا .

وكانت للدّول فى أمثال هذا قوةٌ وعليه اقتدارٌ باحتشاد الرجالِ وجمع الأَيْدى عليه فى كل منزلٍ من منازلهم ، بما كانوا عليه من وفُور العمران وضخَامة الملك . فلما خَرِب العمران وتبعه ضعفُ الدولة وقلّة الجنود وعدم الفَعلَة نُسِى هذا الشأْن جُمْلَةً كأنّه لم يكن . والله خيرُ القَادِرين .

وانظر وَصيةَ على رضى الله عنه وتحريضَه لأصحابه يوم صِفِّين تجد كثيرًا من علم الحرب ولم يكن أحد أبصر بها منه (٢) .

قال فى كلام له : « فَسوّوا صفُوفكُم كالبُنْيانِ المَرْصُوصِ . وقدموا الدّارِعَ (٣) وأخروا الحاسِرَ (٤) وعَضُّوا على الأضراس ، فإنه أَنْبَى للسّيوفِ عن الهام (٥) . والتَووا على أَطْراف الرِّماح ، فإنه أَصْوَنُ للأَسِنّة . وغُضوا الأَبصار ، فإنه أَرْبطُ للجأْشِ وأَسكَنُ للقُلوب . وأَخْفِتوا الأَصوات ، فإنه أطردُ للفَشَل وأَولَى بالوَقارِ . وأَقِيمُوا راياتكم فلا تمِيلُوها ولا تجعلُوها إلا بأَيْدى شُجْعانِكم . واستعِينُوا بالصدق والصّبرِ ، فإنه بقدر الصّبرِ ينزِلُ النّصرُ » .

وقال الأَشْتَرُ يومئذٍ يحرض الأَزْدَ : « عَضُّوا على النّواجِذِ من الأَضْراس . واستقبلوا القَومَ بِهَامِكم . وشُدُّوا شدّة قومٍ موتُورِينَ يثأَرونَ بآبائِهم وإخوانِهم حناقًا على عدوهم ، وقد وطّنوا على الموت أنفسَهم لئلا يُسبقوا بوتْر ، ولا يلحقهم فى الدّنيا عارٌ » .

وقد أشار إلى كثير من ذلك أبو بكر الصّيرفىُّ شاعِر لمتُونَةَ وأهـلِ الأندلس فى كلمة يمدح بها تَاشَفِين بن علىّ بن يُوسف ، ويصف ثباته فى حرب شهدها ، ويُذَكِّره بأُمور الحرب فى وصايًا وتحليراتٍ تنبهك على معرفة كثير من سياسة الحرب يقول فيها :

يا أيُّها الملا الذى يتقَنّع
من مِنكُم المَلِكُ الهُمام الأَرْوَعُ
ومن الذى غَدَرَ العَدُوُّ به دُجى
فانفَضّ كلٌّ وهو لا يَتَزَعزعُ
تمضى الفوارس والطّعَان يصدُّها
عنه ويُذْمِرُها الوفاءُ فترجعُ
والليلُ من وَضح التّرائِكِ (١) إنّه
صبحٌ على هَام الجيُوش يُلمّعُ
أنّى فزعْتم يا بنى صِنْهاجةٍ
وإليكمُ فى الرّوْع كانَ المفزَع

(١) من معانى الإرجاف . الاضطراب والزلزلة .
(٢) انظر الكامل للمبرد ج ١ ص ١٠ – ١٤ ط : التقدم .
(٣) لابس الدرع .
(٤) من لا درع له .
(٥) الهامة من الشخص رأسه وجمعه هام » .

(١) من معانى التريكة كمقهنة بيضة الحديد تلبس فى الحرب » .

إنسانُ عينٍ لم يصبه مِنكم
حَضْنٌ وقلب أسلَمتهُ الأضْلُع
وصددتمُ عن تَاشِفِين وأنّه
لعقَابِه لو شَاء فِيكم موْضِع
ما أنتمُ إلا أسودُ خَفِيّةٍ (١)
كلٌّ لكلِّ كريهَةٍ مستطْلِعُ
يا تَاشِفين أقِمْ لجيشك عذْرَه
باللّيل والعذر (٢) الذى لا يُدفع

(ومنها فى سياسة الحرب)

أُهدِيكَ من أدبَ السيّاسةِ ما به
كانت ملوكُ الفرس قبلك تُولَع
لا إنّنى أدْرَى بهَا لكنّها
ذكرى تحضُّ المؤمنِين وتنفَع
والبس من الحلَق (٣) المضاعفةَ التى
وصّى بها صِنْعُ الصنائع (٤) تُبَّعُ
والهِنْدُوَانِىّ (٥) الرقيقُ فإنه
أمضى على حد الدِّلاص (٦) وأقطع
واركب مِنَ الخيلِ السوابقَ عُدّة
سيان تَتْبَع ظافرًا أو تُتْبَع
خَنْدق عليك إذا ضربت مَحَلّةً
حِصْنًا حصينًا ليس فيه مَدْفَعُ

(١) الخفية كغنية الغيضة الملتفة الأشجار .
(٢) فى نسخة : « والقدر » .
(٣) الحلقة : الدرع ... وجمعه حلق . (القاموس) .
(٤) يقال رجل صنع اليدين بالكسر وصنع اليدين وصناعهما أى حاذق فى الصنعة (القاموس) .
(٥) السيف الهندوانى بكسر الهاء وضمها منسوب إلى الهند كما فى (القاموس) .
(٦) يقال درع دلاص ككتاب ملساء لينة . والمعنى أن السيف الهندوانى أقوى السيوف على قطع الدروع وأمضاها على حدها .

والوَادِ لا تعْبُرْه وانزِلْ عندَه
بين العدوِّ وبين جيشِك يقطع
وأجعل مُنَاجزة الجُيوشِ عَشِيّةً
ووراءك الصّدَفُ (١) الذى هو أمنع
وإذا تضايَقَتِ الجيوش بمعرك
ضَنْك فأطرافُ الرماح تُوَسِّعُ
وأصدِمْهُ أولَ وَهْلة لا تكترث
شيئًا فإظهار النُّكول يُضَعْضِع
واجعل من الطُّلّاع (٢) أهلَ شهامَة
للصِّدق فيهم شِيمَةٌ لا تَخْدَع
لَا تَسْمع الكذّاب جاءك مُرْجِفًا
لا رأْىَ للكذّاب فيما يصْنَع

قوله : « واصدِمه أوّلَ وهلةٍ لا تكترث » ... البيت مخالف لما عليه الناس فى أمر الحرب . فقد قال عُمرُ لأبى عبيد بن مسعود الثقفى لما ولّاه حرب فارس والعراق فقال له : : « اسمعْ وأطِع من أصحاب النبى صلَّى الله عليه وسلم وأشركهم فى الأمر ، ولا تُجِيبَنّ مسرعًا حتى تَتَبيَّنَ ، فإنها الحربُ ! ولا يصلُحُ لهـا إلّا الرَّجل المَكيث (٣) الذى يعرفَ الفرصة والكَفّ » . وقال له فى أخرى : إنه لن يمنعنى أن أُؤمّر سليطًا إلا سُرْعتُهُ فى الحرب ، وفى التسرع فى الحرب إلا عن

(١) فى جميع النسخ : « الصدق » بالقاف ، وهو تحريف وصوابه الصدف . والصدف منقطع الجبل أو ناحيته وكل مرتفع من حائط ونحوه . والمعنى : لتناجز الأعداء ووراءك ما يحمى ظهرك من جبل ونحوه . أو لعل الكلمة محرفة من « الصف » أى لتناجز الأعداء ووراءك صف منيع من الجيش يحمى ظهرك .
(٢) الطليعة القوم يبعثون أمام الجيش يتعرفون طلع العدو أى خبره والجمع طلائع .
(٣) المكيث : الرزين الذى لا يعجل .

بيان ضَيَاعٌ . والله لولا ذلك لأَمّرْته . لكن الحرب لا يصلح لها إلا الرجل المَكِيث) » . هذا كلامُ عمر ؛ وهو شاهد بأن التثاقل فى الحرب أولى من الخُفوف(١) ، حتى يتبين حال تلك الحرب وذلك عكسُ ما قاله الصيرفى ؛ إلا أن يريد أن الصَّدم بعد البيان ، فله وجهٌ . والله تعالى أعلم .

(فصل) ولا وثوقَ فى الحرب بالظَّفَر وإن حصلتْ أسبابه من العدة والعديد ؛ وإنما الظَّفَر فيها والغَلَب من قَبِيل البخْت والاتِّفاق .

وبيان ذلك أن أسبابَ الغَلَب فى الأكثرِ مجتمعةٌ من أمور ظاهرةٍ وهى الجيوش ووفُورها وكمالُ الأَسلحة واستجادتها وكثرة الشجعان وترتيبُ المصاف ، ومنه صدق القتال وما جرى مجرى ذلك ؛

ومن أمور خفية وهى : إما من خِدَع البشر وحيلهم فى الإرجاف والتشانيع التى يقع بها التَّخذِيلُ ، وفى التَّقدُّم إلى الأماكِن المرتَفِعة ، ليكون الحربُ من أعلى فيتوهم المنخفض لذلك ، وفى الكُمُون فى الغِياض ومطمئن الأرض والتَّوارِى بالكدى (٢) عن العدوّ حتى يتداولهم العسكرُ دفعة وقد تورّطوا فيتلفتون (٣) إلى النَّجاة ، وأمثال ذلك . وإما أن تكون تلك الأَسباب الخفية أُموراً سماوية لاقدرة للبشر على اكتسابِها تلْقى فى القُلوب ، فيستولى الرَّهَبُ عليهم لأجلها فتختلّ مراكزهم فتقع الهزيمةُ . وأكثر ماتقع الهزائم عن هذه الأَسباب الخفية لكثرة ما يُحْتَمَلُ لكل واحد من الفريقين فيها حرصًا على الغَلَب ، فلا بد من وقوع التَّأْثير فى ذَلك لأَحدِهمَا ضرورة . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : «الحربُ خُدْعة» ومن أَمثال العرب : «رب حيلةٍ أَنفعُ من قَبيلة» .

فقد تبين أن وقوع الغلب فى الحروب غالبًا عن أَسباب خفية غير ظاهرة ، ووقوع الأَشياء عن الأَسباب الخفية هو معنى البخت كما تقرر فى موضعه . فاعتبره ، وتفهَّمْ من وقوع الغلب عن الأُمور السماوية كما شرحناه معنى قوله صلى الله عليه وسلم : «نُصِرْتُ بالرعب مَسيرةَ شهرٍ» ، وما وقع من غَلَبِهِ للمشركين فى حياته بالعدد القليل وغَلَب المسلمين من بعده كذلك فى الفتوحات . فإن الله سبحانه وتعالى تكفل لنبيه بإلقاء الرُّعب فى قُلوب الكافرين حتى يستولى على قلوبهم فينهزمُوا معجزةً لرسوله صلى الله عليه وسلم ؛ فكان الرعبُ فى قلوبهم سببًا للهزائم فى الفتوحات الإسلاميّة كلها ؛ إلا أنه خفى عن العُيون .

وقد ذكر الطَّرطُوشى : أن من أَسباب الغلب فى الحروب أن تفضل عِدّةُ الفرسان المشاهير من الشُّجعان فى أَحَد الجانِبين على عِدَّتهم فى الجانب الآخر ، مثل أن يكون أحد الجانبين فيه عشرةٌ أَو عشرون من الشجعان المَشَاهير وفى الجانب الاخر ثمانيةٌ أَو ستة عشر فالجانب الزائد ولو بواحدٍ يكون له الغلب ؛ وأَعاد فى ذلك وأَبدى ؛ وهو راجع إلى الأَسباب الظاهرة التى قدمنا ؛ وليس بصحيح .

(١) خف إلى العدو خفوفاً أسرع (المصباح) .
(٢) الكدية : الأرض الصلبة ، والجمع كدى مثل مدية ومدى (المصباح) .
(٣) فى جميع النسخ « فيتلمون » .

وإنما الصحيحُ المعتبرُ فى الغلب حال العصبية أن يكون فى أحد الجانبين عصبيةٌ واحدة جامعة لكلِّهم ، وفى الجانب الآخر عصائب متعددةٌ ، لأن العصائبَ إذا كانت متعددة يقع بينها من التخاذل مايقع فى الوِحْدان المتفرِّقين الفاقِدين للعصبية ، إذًا تتنزل كل عصابة منهم منزلةَ الواحد ، ويكون الجانبُ الذى عصابتُه متعددة لايقاوم الجانب الذى عصبيته واحدة لأَجل ذلك فتفهمه واعلم أنه أصح فى الاعتبار مما ذهب إليه الطَّرطُوشى ولم يحمله على ذلك إلا نسيان شأن العصبية فى حِلّته وبلده ، وأنهم إنما يردُّون ذلك الدفاع والحماية والمطالبة إلى الوِحْدان والجماعةِ الناشئة منهم [١] لا يعتبرُون فى ذلك عصبية ولا نسبًا . وقد بينا ذلك أول الكتاب مع أن هذا وأمثالَه على تقدير صحَّته إنما هو من الأسبابِ الظَّاهرة مثل اتفاق الجيش فى العدة وصدقِ القتال وكثرةِ الأسلحة وما أشبهها ؛ فكيف يجعل ذلك كفيلًا بالغلَب ؟ ونحن قد قررنا لك الآن أن شيئًا منها لا يعارضُ الأسبابَ الخفيّة من الحِيَل والخِداع ولا الأُمور السَّماوية من الرُّعب والخذْلان الإلاهى . فافهمه وتفهم أحوال الكون . واللهُ مقدِّر الليل والنَّهار .

(فصل) ويلحق بمعنى الغلَب فى الحروب وأن أسبابهَ خفيّة وغير طبيعيّة حال الشُّهرة والصِّيت . فقلَّ أن تصادف موضعها فى أحد من طبقات الناس من الملوكِ والعلماء والصَّالحين والمنتحلين للفضَائل على العموم ، وكثير ممن اشتهر بالشَّر وهو بخلافه وكثير ممَّن تجاوزَت عنه الشُّهرة وهو أحقُّ بها وأهلُها . وقد تصادف موضِعهَا وتكون طبقًا على صَاحبها .

والسببُ فى ذلك أنَ الشُّهرةَ والصَيتَ إنما هما بالأَخبارِ ، والأَخبارُ يدخلها الذهولُ عن المقَاصِد عند التَناقُل ، ويدخُلها التعصُّب والتشيع ، ويدخُلها الأَوهَام ، ويدخُلها الجهلُ بمطابقة الحكايات للأحوال ، لخفائِها بالتَلبُّس والتصنّع أو لِجهْل النَاقل ، ويدخلها التقربُ لأَصحاب التَّجلَّة والمراتبِ الدنيوية بالثَّناء والمَدح وتحسين الأَحوال وإشاعَة الذكر بذَلك ، والنفوسُ مولعةٌ بحب الثناء ، والناس متطاولون إلى الدُّنيا وأسبابها من جَاه أو ثروةٍ ، وليسُوا فى الأكثرِ براغبين فى الفضائل ولا متنافِسين فى أهلها [١] وأين مطابقة الحق مع هذه كلها ؟ فتختل الشهرةُ عن أسباب خفية من هذه ، وتكون غيرَ مطابِقة ، وكل ما حصلَ بسبب خفى فهو الذى يعبر عنه بالبخْت كما تقرَّر . واللهُ سبحانهَ وتعالى أعلم وبه التوفيق .

٤٨ – فصل فى الجباية وسبب قلتها وكثرتها

اعلم أن الجباية أوَّلَ الدولةِ تكونُ قليلَة الوزائع كثيرة الجملة ، [٢] وآخِرَ الدولةِ تكونُ كثيرةَ الوزَائع قليلَة الجُملَة .

والسببُ فى ذلك : أنَ الدولة إن كانت على

---

(١) فى جميع النسخ : يرون ذلك الدفاع والحماية ... الخ . وهو تحريف . يحيل بذلك على ما ذكره فى الفصل التاسع من هذا الباب .

(١) أشار ابن خلدون إلى هذا كله فى هذه العبارات نفسها فى تمهيده للكتاب الأول .

(٢) جمع وزيعة وهو ما يتوزع على الأشخاص .

سنن الدين فليست تقتضى إلا المغارمَ الشرعيةَ من الصدقات والخَرَاج والجِزْية ، وهى قليلةُ الوزائع ، لأن مقدارَ الزكاة من المال قليلٌ كما علمت ، وكذا زكاةُ الحبوبِ والماشية ، وكذا الجزيةُ والخراجُ وجميعُ المغارم الشرعيَّةِ ، وهى حدود لا تتعدَّى .

وإنْ كانتْ على سنَن التغلُّب والعصبيَّة فلا بدَّ من البَدَاوة فى أولها كما تقدم ، والبداوةُ تقتضى المسامحةَ والمكارَمَةَ وخفضَ الجناحِ والتَّجافى عن أموالِ الناس، والغفلةَ عنِ تحصيل ذلك إلا فى النَّادر ، فيقل لذلكَ مقدارُ الوظيفة الواحدةِ والوَزيعةِ التى تُجمع الأموالُ من مجموعِها . وإذا قلَّت الوزائعُ والوظائف على الرَّعايا نشِطوا للعَمل ورغِبوا فيه ، فيكثر الاعتمادُ . ويتزايدُ محصولُ الاغتباط (١) بقلة المَغْرَمِ ، وإذا كثرَ الاعتمادُ كثرت أعدادُ تلك الوظائف والوزائع ، فكثرة الجِباية التى هى جملَتُها . فإذا استمرَّت الدولةُ واتصلت ، وتعاقبَ ملوكَها واحدًا بعد واحد واتصفوا بالكَيس ، وذهب شر البداوة والسذَاجة وخُلقُها من الإغضَاء والتَّجافى ، وجاء المُلْكُ العَضُوض والحضارةُ الداعية إلى الكَيْس ، وتخلق أهلُ الدولة حينئذ بخلق التحذْلُق (٢) وتكثرت عوائِدُهم وحوائجهم بسبب ما انغمسوا فيه من النَّعيم والترَف ، فيكثرُون الوظائف والوزائع حينئذ على الرَّعايا والأكَرَة (١) والفلاَّحين وسائرِ أهل المغَارِم ، ويزيدون فى كل وظيفةٍ ووزيعةٍ مقدارًا عظيمًا لتكثرَ لهم الجِباية ، ويضعون المكُوسَ على المبايعات وفى الأبوابِ كما نذكر بعد ، ثم تتدرَّج الزيادات فيها بمقدارٍ بعد مقدار لتدرُّج عوائِد الدَّولة فى التَّرفِ وكثرةِ الحاجات والإنفاق بسببه ، حتى تثقل المغَارِمَ على الرَّعايا وتنهضِمَ وتصير عادةً مفروضة ، لأنَّ تلك الزيادة تدرجت قليلاً قليلا ولم يشعر أحدٌ بمن زادهَا على التَّعيين ولا مَن هُوَ واضِعها ،إنَّما تثبتُ على الرَّعايا (٢) (كأنَّها عادةٌ مفروضةٌ ثم تزيد إلى الخرُوج عن حدِّ الاعتدال فتذهب غبطةُ الرَّعايا) (٢) فى الاعتمارِ لذهاب الأمَل من نفُوسهم بقلة النَّفع ، إذا قَابَل بين نفْعه ومغَارِمه وبينَ ثمرته وفائدتِه ، فتنقبض كثيرٌ من الأيدى عن الاعتمارِ جملةً ، فتنقُص جملة الجِباية حينئذ بنقصان تلك الوَزَائع منها . وربما يزيدُون فى مقدار الوظَائف إذا رأوا ذلك النقص فى الجباية ويحسبونَه جبرًا لما نقصَ ، حتى تنتهى كلُّ وظيفة ووزَيعة إلى غَاية ليس وراءها نفعٌ ولا فائِدة ، لكثرةِ الإنفاق حينئذ فى الاعتمار وكثرةَ المغارِمِ وعدمِ وفَاء الفائِدة المرجوَّة به ، فلا تزالُ الجملةُ فى نقص ومقدارُ الوزائع والوظَائف فى زيادة لما يعتقدونَه من جبرِ الجملة بها ، إلى أن ينتقصَ العمران بذهاب الآمال من الاعتمار ، ويعودَ وبالُ ذلك على الدَّولةِ . لأنَّ فائدة الاعتمار عائدةٌ إليها .

(١) الغبطة حسن الحال والاغتباط التبجح بالحال الحسنة ، (من المصباح والقاموس) .

(٢) حذلق : أظهر الحذق أو ادعى اكثر مما عنده كتحذلق .

(١) الأكار : الحراث والجمع أكرة . والمعنى من يشتغلون بالزراعة .

(٢) انفردت : «التيمورية» بهذه الزيادة التى لايستقيم بدونها المعنى .

وإذا فهمتَ ذلك علمتَ أن أقوى الأسباب فى الاعمارِ تقليلُ مقدارِ الوظائفِ على المعتمِرين ما أمكن ؛ فبذلك تنبسط النفوسُ إليه لثقتها بإدراكِ المنفعةِ فيه . والله سبحانه وتعالى مالِكُ الأمور كلها ، و « بيدِه ملكوتُ كلِّ شىء [1] » .

٣٩ – فصل فى ضرب المكوس أواخر الدولة

أعلم أن الدولةَ تكونُ فى أولها بدويَّةً كماقلنا ، فتكون لذلك قليلةَ الحاجاتِ لعدم الترفِ وعوائدِهِ ، فيكون خرجُها وإنفاقُها قليلًا ، فيكون فى الجبايةِ حينئذ وفاءٌ بأزيد منها ، بل يفضلُ منها كثير عن حاجاتِهم .

ثم لا تلبثُ أن تأخذَ بدينِ الحضارةِ فى الترف وعوائِدِها ، وتجرى على نهج الدولِ السابِقَة قبلَها ، فيكثر لذلِك خراج أهل الدولةِ ، ويكثر خراجُ السُّلطان خصوصًا كثرةً بالغة بنفقته فى خاصّته ، وكثرة عطائِه ، ولا تفى بذلك الجِبايةُ . فتحتاج الدولةُ إلى الزيادةِ فى الجباية لما تحتاج إليه الحاميَة من العطاء والسلطانُ من النفقة ؛ فيزيد فى مقدار الوظائف والوزائع أولًا كما قلناه ، ثم يزيد الخَراجُ والحاجاتُ والتدريجُ فى عوائد الترف وفى العطاء للحامية ، ويدرك الدولة الهرَمُ ، وتضعف عصابتها عن جبايةِ الأموال منَ الأعمالِ والقاصِية ، فتقِلُّ الجبايةُ وتكثر العوائِدُ ، ويكثُر بكثرتِها أرزاقُ الجند وعطاؤهم . فيستحدث صاحب الدولة أنواعًا من الجِباية يضربها على البِياعات ، ويفرِض لها قدرًا معلومًا على الأثمان فى الأسواق ، وعلى أعيان السّلعِ فى أموال المدينَة . وهو مع هذا مضطرٌ لذلك بما دعاه إليه ترف الناس من كثرةِ العطاء مع زيادة الجُيوش والحَامِية . وربما يزيد ذلك فى أواخر الدّولة زيادةً بالغة ، فتكسُدَ الأسواقُ لفسادِالآمال ، ويؤذن ذلك باختلال العُمْران ، ويعود على الدّولة ؛ ولا يزال ذلك يتزايد إلى أن تضمَحِلَّ .

وقد كان وقعَ منه بأمصار المشرقِ فى أُخريات الدّولة العباسيّة والعُبَيْدية كثيرٌ ، وفرضت المغارم حتَّى على الحَاجِّ فى الموْسِم ، وأسقط صلاحُ الدين أيوب تِلك الرُّسومَ جملةً وأعاضَها بآثار الْخير . وكذلِكَ وقع بالأندلس لعهدِ الطّوائف حتى محارَسَه: يوسف بن تاشفين أميرُ المرابطين . وكذلك وقع بأمصار الجَرِيدِ بإفْرِيقيَة لهذا العهد حين استبدَّ بها رؤساؤها . والله تعالى أعلم .

٤٠ – فصل فى أن التجارة من السلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية

اعلم أن الدولة إذا ضاقت جبايتُها بما قدمناه من الترَف وكثرةِ العوائد والنفقات وقَصُرَ الحاصلُ من جبايتها على الوفاء بِحاجاتها ونفقاتها ، واحتاجت إلى مزيدِ المال والجبَاية ، فتارةً توضع المكوسُ على بياعات الرّعايا وأسواقِهم كما قدمنا ذلك فى الفصل قبله ، وتارةً بالزيادة فى ألقاب الْمكوس إن كان قد ستحدث من قبل ؛ وتارة بمقاسمة العُمّال والجباة وامْتِكَاك [1] عظامِهم ، لمَّا يرون أنهم قد حصلوا على شىء طائلٍ من أموال الجبَاية لا يظهرُه الحُسْبان

---

(١) آخر آية من سورة يس .

(١) مكه رامتكه ... امتصه جميعه (القاموس) .

وتارة باستحداث التجارة والفلاحة للسلطان على تسمية الجباية [١] ، لَمّا يرون التجار والفلاحين يحصلون على الفوائد والغلّات مع يَسَارة أموالهم ، وأن الأرباح تكون على نسبة رؤوس الأموال . فيأخذون فى اكتساب الحيوان والنبات لاستغلاله فى شراء البضائع والتعرّض بها لحوالة الأسواق ، ويحسبونَ ذلك من إدْرار الجباية وتكثير الفوائد. غلطٌ عظيم وإدخال الضرر على الرّعايا من وُجوه متعدّدة .

فأولاً : مضايقة الفلاحين والتجّار فى شراء الحيوان والبضائع وعدم تيسير أسباب ذلك ؛ فإن الرّعايا متكافئون ، فى اليَسَار متقاربُون ، ومزاحمة بعضهم بعضًا تنتهى إلى غاية موجودهم أو تقرُب ، وإذا رافقهم السلطان فى ذلك ، وماله أعظم كثيرًا منهم ، فلا يكادُ أحدٌ منهم يحصل على غرضه فى شىء من حاجاته ، ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد .

ثم إن السلطان قد ينتزع الكثيرَ مَن ذلك إذا تعرّض له غضا أو بأيسر ثمن ، (إذ) [٢] لا يجد من ينافسه فى شرائه فيبخس ثمنَه على بائعِه .

ثم إذا حصل فوائدُ الفلاحة ومُغلها كله من زرع أو حريرٍ أو عَسَل أو سكر أو غير ذلك من أنواعِ الغلات ، وحصلت بضائع التجارة من سائر الأنواع فلا ينتظرون به حوالَة الأسواق

(١) أى باسم الجباية أو كما نقول نحن : على أنها ضرائب غير مباشرة تجبى من المستهلكين .

(٢) فى جميع النسخ « أو لا يجد » وهو تحريف كما لا يخفى .

ولا نفاق البياعات لما يدعوهم إليه تكاليف الدولة ، فيكلفونَ أهلَ تِلك الأصناف من تاجرٍ أو فلّاح بشراء تلك البضائع ، ولا يرضَون فى أثمانها إلا القيَمَ وأزيد فيستوعبون فى ذلك ناضّ [١] أموالهم وتبقى تلك البضائعُ بأيديهم عُرُوضًا جامدَة ويمكثون عُطّلاً من التجارةَ التى فيها كسبُهم ومعاشُهم . وربما تدعوهم الضرورةُ إلى شىء من المال فيَبيعون تلك السلع على كساد من الأسواق بأبخسِ ثمن . وربما يتكرّرُ ذلك على التاجرِ والفلاح منهم بما يُذهِبُ رأسَ ماله ، فيقعد عن سُوقه ، ويتعدد ذلك ويتكرّر ، ويدخل به على الرّعايا من العَنَت والمضايقَة وفساد الأرباح ما يقبض آمالهم عن السعى فى ذلك جُملَةً ويؤدّى إلى فساد الجباية ، فإن معظم الجباية إنما هى من الفلّاحين والتجار ، لاسيما بعد وضع المكوس ونمو الجبايَة بها ؛ فإذا انقبض الفلّاحون عن الفلاحة وقعد التجّار عن التجارَة ، ذهبت الجباية جملة أو دخلها النقصُ المتفاحش [٢]

واذا قايَس السلطَان بين ما يحصلُ له من الجباية وبين هذه الأرباح القَليلة وجدها بالنسبة إلى الجباية أقلّ من القليل . ثم إنه ولَو كان مفيدًا فيذهب له بحظٍ عظم من الجَباية فيما يعانيه من شرَاء أو بيع ؛ فانه من البعيد أن يوجد فيه من

(١) الناض : الدرهم والدينار (القاموس) .

(٢) يعنى أن حاشية السلطان بعد أن تحصل على السلع لا تعرضها فى الأسواق لتسرى عليها قوانين العرض والطلب ، بل تستدعى التجار وتلزمهم بشرائها بأثمان باهظة ، فتمتص بذلك أموالهم ، وتبقى هذه البضائع جامدة بأيديهم ، إذ لا يجدون من يشتريها منهم بأثمان مجزية ، فتتعطل تجارتهم التى فيها كسبهم ومعاشهم .

المكس . ولو كان غيرُهُ فى تلك الصفقات لكان تكسُّبها كلها حاصلاً من جهة الجبايَة . ثم فيه التعرضُ لأهل عُمرانه ، واختلالُ الدولة بفسادهم ونقصه ؛ فان الرعايا إذا قعدُوا عن تثمير أموالهم بالفلاحة والتجارة نقصتْ وتلاشت النفقاتُ ، وكان فيها إتلافُ أحوالِهم ، فافهم ذلك .

وكان الفرس لايملِّكُون عليهم إلا من أهل بيت المملكة ، ثم يختارونه من أهل الفضل والدين والأدب والسخاء والشجاعة والكرم ، ثم يشترطون عليه مع ذلك العدلَ ، وأن لايتخذ صنعةً فيضر بجيرانه ، ولا يتاجر فيحب غلاءَ الأسعار فى البضائع وأن لايستخدِم العبيدَ فانهم لايشيرون بخير ولا مصلحة

واعلم أن السلطانَ لاينمى ماله ولايدرُّ موجودَهُ إلا الجبايةُ ، وإدرارها إنما يكون بالعدل فى أهل الأموال ، والنَّظرِ لهم بذلك ؛ فبذلك تنبسط آمالهم ، وتنشرح صدُورُهم للأخذ فى تثمير الأموال وتنميتها ؛ فتعظم منها جبايةُ السلطان . وأما غير ذلك من تجارة أو فلح فانما هو مضرةٌ عاجلة للرعايا وفساد للجباية ونقصٌ للعمارة . وقد ينتهى الحال بهؤلاء المنسلخين للتجارة والفلاحة من الأمراء والمتغلبين فى البلدان أنهم يتعرضون لشراء الغلَّات والسلع من أربَابها الواردين على بلَدهم ، ويفرضون لذلك من الثَّمن مايشاؤون ، ويبيعونها فى وقتها لمن تَحتَ أيديهم من الرعايا بما يفرضون من الثمن وهذه أشدُّ من الأُولى وأقرب إلى فساد الرعيَّة واختلالِ أحوالهم . وربما يحمل السلطانَ على ذلك مَنْ يدُاخله من هذه الأَصناف ـ أعنى التجار والفلاحين ـ لما هى صناعتُه التى نشأ عليها ، فيحمل السلطانَ على ذلك ويضربُ معه بسهم لنفسه ليحصل على غرضه من جمع المال سريعاً ، سِيَّما مع ما يحصلُ له من التجارة بلا مَغْرم ولامَكْس ، فانها أجدرُ بنموّ الأَموال ، وأسرع فى تثميره ؛ ولا يفهم مايدخلُ على السلطان من الضر بنقص جبايَته . فينبغى للسلطان أن يحذرَ من هولاء ، ويُعرِضَ عن سِعَايتهم المضرة بجبايته وسلْطانه . والله يلهمنَا رشد أنفسنا ، وينفعنا بصَالح الأعمال . والله تعالى أعلم .

٤١ ـ فصل فى أن ثروة السلطان وحاشيته إنما تكون فى وسط الدولة

والسبب فى ذلك أن الجبايةَ فى أولِ الدَّولة تتوزع على أهل القبيلِ والعصبيةِ بمقدار غَنائهم وعصبيتهم ، ولأن الحاجةَ إليهم فى تمهيدِ الدَّولة كما قلناه من قبل . فرئيسهُم فى ذلك متجَافٍ لهم عما يَسْمُون إليه من الجِبَاية ، معتاضٌ عن ذلك بما يرومُ مِن الاستبدادِ عليهم ، فله عليهم عزة وله إليهم حاجة . فلا يُطَيِّر[1] فى سُهمْانه من الجباية إلا الأقلَّ من حاجَته . فتجد حاشيتهَ لذلك وأذياله من الوزراء والكتاب والموالى مُملِقينَ فى الغالب ، وجاهُهم متقلص لأنه من جاه مخدومهم ، ونطاقه قد ضاقَ بمن يزاحمه فيه من أهل عصبيَّته .

فاذا استفحلتْ طبيعةُ الملْك ، وحصل لصاحب الدولة الاستبدادُ على قومه ، قبضَ أيديهم عن

(١) أطار المال وطيره : قسمه (القاموس) .

الجبايات إلا مايُطَيِّر لهم بين الناس فى سُهمانِهم، وتقل حظوظهم إذ ذاك لقلة غَنائهم فى الدولة، بما انكبح من أعِنَّتهم، وصار الموالى والصنائع مساهمين لهم فى القيام بالدولة وتمهيد الأمر؛ فينفرد صاحب الدولة حينئذ بالجباية أو معظمها، ويحتوى على الأموال ويحتجنها (١) للنفقات فى مهمّات الأحوال، فتكثر ثروتُه وتمتلىء خزائنُه ويتسع نطاقُ جاهه، ويعتز على سائر قومه، فيعظم حالُ حاشيته وذويه، من وزير وكاتب وحاجب ومولًى وشُرَطِيّ ويتسع جاهُهم، ويقتنون الأموال ويتأثّلونها.

ثم إذا أخذَت الدولةُ فى الهَرَم بتلاشى العصبيّة وفناء القَبيل الماهدين للدولة احتاجَ صاحبُ الأمر حينئذ إلى الأعوانِ والأنصارِ. ولكثرة الخَوارج والمنازعين والثوّار، وتوهمّ الانتقاض، فصار خَراجه لظُهَرائِه وأعوانِه، وهم أربابُ السيوف وأهل العصبيّات، وأنفقَ خزائنه وحاصِلَه فى مهمات الدولة، وقلّت مع ذلك الجباية لما قدمناه من كثرة العطاء والإنفاق، فيقل الخراجُ وتشتد حاجةُ الدولة إلى المال، فيتقلص ظلُّ النعمة والترف عن الخَواصّ والحُجّاب والكُتّاب بتقلّص الجاهِ عنهم، وضيق نطاقه على صَاحب الدولة. ثم يشتد حاجةُ صَاحِب الدّولة إلى المالَ وتنفق أبناءُ البطانة والحَاشية مَا تأثّله آباؤهم من الأموال فى غير سبيلها من إعانةِ صاحبِ الدولةِ، ويقبلُون على غير ما كان عليهم آباؤهم وسلفُهم من المناصَحة، ويرَى صاحبُ الدّولة أنه أحق بتلك الأموال التى اكتُسبت فى دولة سلفه وبجاههم، فَيَصْطلمها (١) وينتزعها منهم لنفسه شيئًا فشيئًا وواحدًا بعد واحد، على نسبة رُتبهم وتنكُّر الدولة لهم، ويَعودَ وبالُ ذلك على الدولة بفَنَاء حاشيتها ورجَالاتها وأهلِ الثّروة والنِّعمةَ من بِطانتها، ويتقوّض بذلك كثيرٌ من مبانى المجد بعد أن يدعمه أهلُه ويرفعُوه.

وانظر ما وقَع من ذلك لوزراء الدّولة العباسية فى بنى قَحْطَبة، وبنى بَرْمَك، وبنى سَهْل، وبنى طَاهِر وأمثالهم فى الدولة الأُمويّة بالأندلس عند انحلالِها أيام الطوائف فى بنى شُهيد وبنى عبدَةَ وبنى حدَيْرَة وبنى برد وأمثالهم، وكذا فى الدولة التى أدركناها لعهدِنا: سنة الله التى قد خلَتْ فى عِبادِهِ.

(فصل) ولما يتوقّعه أهلُ الدولة من أمثال هذه المعاطبِ صار الكثير منهم ينزِعون إلى الفِرار عن الرُّتب والتخلّص من ربقَة السُّلطانِ بما حصل فى أيديهم من مالِ الدّولة إلى قُطرٍ آخرِ، ويرون أنه أهنأُ لهم وأسلم فى إنفاقه وحُصول ثَمرته. وهومن الأغلاطِ الفَاحِشَة والأوْهامِ المفْسدة لأحوالِهم ودنْياهم.

واعلَم أن الْخلاَصَ من ذَلك بعد الْحصُولِ فيه عسيرٌ ممتنِعٌ. فإن صَاحِب هذا الغرَض إذا كانَ هو الملِكُ نفسِه، فلا تمكنه الرعيّة من ذلك طرفةَ عين ولا أهْل العصبيّةِ المزاحِمُون له، بل فى ظهُور ذلك منه هدْمٌ لملكِه وإتلاف لنفسه بمجارِى العادة بذلك؛ لأن ربقةَ الملك يعسُرُ الخلاصُ منها، سيَّما عند استفحال الدّولة وضِيق نطاقِها وما يعرضُ فيها من البعد عن المجدِ والخِلال والتخلّق بالشّر. وأما إذا

(١) يختص نفسه بها.

(١) الاصطلام: الاستئصال.

كان صاحبُ هذا الغرض من بطانَةِ السلطان وحاشيته وأهلِ الرُتَب فى دولته ، فقلَّ أن يُخَلّى بينه وبين ذلك .

أما أوّلا : فلما يراه الملوك أن ذَوِيهم وحاشيتهم - بل وسائر رعاياهم - مماليك لهم مطّلِعون على ذَاتِ صدُورِهم ، فلا يسمحون بحلِّ رِبقتِهِ من الخدمة ضِنًّا بأسرَارهم وأحوالهم أن يطّلع عليها أحدٌ ، وغَيْرَةً من خدمته لِسواهم . ولقد كان بنو أمية بِالأندلس يمنعُون أهلَ دولتِهم من السَّفر لفريضَة الحج لما يتوهّمونه من وقوعِهم بأيْدى بنى العبَّاس ؛ فلم يحج سائرَ أيامهم أحدٌ من أهل دَوْلَتِهم ، وما أُبيح الحج لأهل الدُّول من الأندلس إلا بعد فراغ شأْن الأُمويَّة ورجُوعِها إلى الطَّوائف .

وأما ثانيًا فلأنهم وإنْ سمحُوا بحلِّ رِبقته هو فلا يسمحُون بِالتَّجافى عن ذلك المال ، لما يرون أنه جزءٌ من مالهم كما يرون أنه جزءٌ من دولتِهم ، إذ لم يُكتسب إلا بهَا وفى ظلِّ جاهها ؛ فتحوم نفوسهم على انتزاع ذلك المالِ والتقامه كما هو جزءٌ من الدولة ينتفعون به .

ثم إذا توهمنا أنه خَلَصَ بذلك المال إلى قُطْر آخر وهو فى النّادر الأقل ، فتمتد إليه أعينُ الملوك بِذلك القطر وينتزِعُونَه بالإرْهاب والتَّخويف تعريضا أو بالقَهْر ظاهرًا ، لما يرون أنه مالُ الجِبَاية والدول ، وأنه مستحقٌّ للانفاق فى المَصالح . وإذا كانت أعينهم تمتد إلى أهلِ الثروة واليسار المكتسبين من وجوهِ المعاش ، فأحْرَى بها أن تمتدَّ إلى أموال الجبايةِ والدُّول التى تجدُ السَّبيلَ إليه بالشرع والعادَةِ . ولقد حاول السلطانُ أبو يحيى زكريّا بنُ أحمد اللّحيانى تَاسِع أو عاشر ملوك الحفْصِيِّينَ بإفريقِيَة الْخُروجَ عن عهدَة الملك واللَّحاق بمصرَ فرارًا من طلَب صاحبِ الثُّغور الغربية لمَّا استجمَعَ لغزْو تُونس ، فاستعمل اللّحيانى لرحلة إلى ثغرا طرابلس يُوَرِّى بتمْهيده ، ورَكِبَ لسَّفين من هنالك ، وخَلَصَ إلى الإسكندريّة بعد أن حملَ ما وجدَه ببيت المال من الصَّامِتِ [1] والذَّخيرة ، وباعَ كلَّ ما كان بخزائنهم من المتَاع والعقَار والجواهِرِ ، حتى الكُتُب ، واحتمل ذلك كله إلى مصر ونزَلَ على الملك الناصرِ محمد بن قلَاوُون ، سنةَ سبعَ عشرة من المائَةِ الثَّامنة ، فأكرمَ نزله ورفعَ مجلسَه ، ولم يزل يستخلصُ ذخيرته شيئًا فشيئًا بالتَّعريضِ إلى أن حصل عليها ، ولم يبقَ معاشُ ابن اللّحيَانى إلا فى جرايته التى فرضت له إلى أن هلكَ سنة ثمان وعشرين حسبمَا نذكره فى أخباره .

فهذا وأمثالُهُ من جملةِ الوسْوَاس الذى يعترى أهلَ الدُّول لما يتوقَّعونَه من ملوكِهِم من المعاطب ، وإنما يخلصون إن اتَّفقَ لهم الْخَلَاصُ بأنفسهم ، وما يتوهَّمونه من الحاجة فغلِط ووهم . والذى حصل لهم من الشهرة بخدمة الدول كافٍ فى وجْدَانِ المعاش لهم بالجرايات السُّلطانيّة أو بالجاه فى انتحالِ طرقِ الكسب من التجارَة والفلاحة . والدُّول أنسابٌ ، لكن :

النَّفْسُ راغبَةٌ إذَا رغَّبتهَا
وإذَا تُردُّ إلى قَليل تَقْنَع

(١) الصامت من المال : الذهب والفضة (المصباح) .

والله سبحانه هو الرزّاق ، وهو الموفّق بمنّه وفضله ، والله أعلم .

٤٢ – فصل فى أن نقص العطاء من السلطان نقص فى الجباية

والسببُ فى ذلك أن الدولةَ والسُّلطانَ هى السوق الأعظَمُ للعالم ، ومنه مادّة العمران ، فإذا احتَجَنَ السلْطَان الأموالَ أو الجبايَاتِ ، أو فُقِدت فلم يصرفْها فى مصارفِها ، قلّ حينئذ مَا بأيدِى الحَاشِية والحَامِية ، وانقَطع أيضًا ما كان يصلُ منهم وفويهم ، وقلت نفقَاتُهم ، جملةً ، وهم معظم السّوادِ ، ونفقاتهم أكثر مادّةً للأسواق ممن سوَاهم فيقع الكسادُ حينئذ فى الأسْواقِ ، وتضعف الأَرباحُ فى المتاجرِ فيقلّ الخرَاج لذلك ؛ لأن الخراجَ والجباية إنما تكون من الاعتمار والمعاملات ونفاق الأسواقِ وطلب الناس للفوائد والأربَاح . وَوبالُ ذلك عائدٌ على الدولة بالنقص لقلة أموال السلطان حينئذ بقلة الخراجِ . فإن الدولة كما قلْناهُ هى السُّوق الأَعظمُ ، أمُّ الأَسْوَاقِ كلها ، وأصلُها ومادتها فى الدَّخل والخرْج ؛ فإن كسدتْ وقلّت مصاريفُها فأجدر بما بعدها من الأسواقِ أن يلحقها مثلُ ذلك وأشدّ منه . وأيضًا فالمالَ إنما هو متردد بين الرعيةِ والسلطانِ ، منهم إليه ، ومنهُ إليهم ، فإذا حبسه السلطان عنده فقدته الرَّعية . سنةَ اللهِ فى عباده .

٤٣ – فصل فى أن الظلم مؤذن بخراب العمران

اعلَم أن العدْوانَ على الناس فى أموالهم ذاهبٌ بآمالهم فى تحصيلِها واكتسابِها لما يرونه حينئذ من أن غايتَها ومصيرهَا انتهابُها من أيديهم . وإذا ذهبت آمالهم فى اكتسابها وتحصيلهَا انقبضتْ أيديهم عن السّعى فى ذلك . وعلى قدْر الاعتداء ونسبته يكونُ انقباض الرّعايا عن السعى فى الاكتساب فإذا كان الاعتداءُ كثيرًا عامًا فى جميع أبوابِ المعَاشِ كان القُعُودُ عن الكسبِ كذلك لذهابه بالآمالِ جملةً بدخوله من جميع أبوابهَا . وإن كان الاعتداءُ يسيرًا كان الانقباض عن الكسب على نسبته . والعمران ووفوره ونَفَاق أسواقه إنما هو بالأعمالِ وسعْى الناسِ فى المصالحِ والمكاسبِ ذاهبين وجَائِينَ . فإذا قعدَ الناس عن المعاش وانقبضتْ أيديهم عن المَكاسبِ كَسدتْ أسواقُ العمرانِ ، وانتقضتْ الأَحوال وابْذَعَرّ(١) الناس فى الآفاق من غير تلك الإيالَة فى طلب الرزْق فيما خرجَ عن نطاقها . فخفّ ساكن القطرِ ، وخلت ديارُه ، وخربتْ أمصارُه ، واختل باختلال حالُ الدولة والسّلطان ؛ لما أنها صورةٌ للعمران تفسد بفسادِ مادتها ضرورةً .

وانظر فى ذلك ماحكاه المسعودى فى أخبار الفرس عن المُوبذَان صاحبِ الدين عندهم أيام بهْرَام بن بهْرَام ، وما عرّض به للملك فى إنكار ماكان عليه من الظُّلم والغفْلةِ عن عائدِته على الدولة ، بضرب المثال فى ذلك على لسَانِ البوم حين سمع الملك صوتَها وسأله عن فهم كلامها فقال له : إن بومًا ذكرًا يَرُومُ نكاح بُوم أنثى ،

(١) ابذعروا : تفرقوا وفروا .

وأنها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب فى أيام بهرام فقبل شرطها ، وقال لها : إن دامت أيام الملك أقطعتك ألف قرية ، وهذا أسهل مرام . فتنبه الملك من غفلته وخلا بالموبذان وسأله عن مراده ، فقال : أيها الملك إن الملك لا يتم عزه إلا بالشريعة ، والقيام لله بطاعته ، والتصرف تحت أمره ونهيه ؛ ولا قوام للشريعة إلا بالملك ؛ ولا عز للملك إلا بالرجال ؛ ولا قوام للرجال إلا بالمال ؛ ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة ؛ ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل . والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة ، نصبه الرب وجعل له قيما ، وهو الملك . وأنت أيها الملك عمدت إلى الضياع فانتزعتها من أربابها وعمارها ؛ وهم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الأموال ، وأقطعتها الحاشية والخدم وأهل البطالة ، فتركوا العمارة ، والنظر فى العواقب وما يصلح الضياع ، وسومحوا فى الخراج لقربهم من الملك . ووقع الحيف على من بقى من أرباب الخراج وعمار الضياع ؛ فانجلوا عن ضياعهم ، وخلوا ديارهم ، وآووا إلى ماتعذر من الضياع فسكنوها ، فقلت العمارة وخربت الضياع وقلت الأموال وهلكت الجنود والرعية وطمع فى ملك فارس من جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع المواد التى لا تستقيم دعائم الملك إلا بها .

فلما سمع الملك ذلك أقبل على النظر فى ملكه ، وانتزعت الضياع من أيدى الخاصة وردت على أربابها ، وحملوا على رسومهم السالفة وأخذوا فى العمارة ، وقوى من ضعف منهم ، فعمرت الأرض ، وأخصبت البلاد وكثرت الأموال عند جباة الخراج ، وقويت الجنود ، وقطعت مواد الأعداء ، وشحنت الثغور ، وأقبل الملك على مباشرة أموره بنفسه ، فحسنت أيامه ، وانتظم ملكه . فتفهم من هذه الحكاية أن الظلم مخرب للعمران ، وأن عائدة الخراب فى العمران على الدولة بالفساد والانتقاض .

ولا تنظر فى ذلك إلى أن الاعتداء قد يوجد بالأمصار العظيمة من الدول التى بها ، ولم يقع فيها خراب واعلم أن ذلك إنما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء وأحوال أهل المصر . فلما كان المصر كبيرا وعمرانه كثيرا وأحواله متسعة بما لا ينحصر ، كان وقوع النقص فيه بالاعتداء والظلم يسيرا ؛ لأن النقص إنما يقع بالتدريج . فإذا خفى بكثرة الأحوال واتساع الأعمال فى المصر لم يظهر أثره إلا بعد حين . وقد تذهب تلك الدولة المعتدية من أصلها قبل خراب المصر ، وتجى الدولة الأخرى ، فترقعه بجدتها ، وتجبر النقص الذى كان خفيا فيه ، فلا يكاد يشعر به ، إلا أن ذلك فى الأقل النادر .

والمراد من هذا أن حصول النقص فى العمران عن الظلم والعدوان أمر واقع لا بد منه لما قدمناه ووباله عائد على الدول .

ولا تحسبن الظلم إنما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور ، بل الظلم أعم من ذلك . وكل من أخذ

ملكَ أحد أو غصبه فى عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقًا لم يفرضه الشرع فقد ظلمه . نجباةُ الأموا بغير حقها ظَلَمَةٌ ، والمعتدون عليها ظلمة ، والمنتبُون لها ظَلَمةٌ ، والمانعون لحقوق الناس ظَلَمةٌ ، وغُصّاب الأملاك على العموم ظلَمةٌ ؛ ووبال ذلك كله عائدٌ على الدولة بخراب العمران الذى هو مادتها لإذهابه الآمال من أهله .

واعلَمْ أنَّ هذه هى الحكمةُ المقصُودَةُ للشّارِع فى تحريم الظُّلم ، وهو ماينْشَأ عنه من فسادَ العمرَان وخَرابهِ ، وذلك مؤْذِنٌ بانقطاع النوعِ البشرىِّ ، وهى الحِكمةُ العامَّةُ المراعاةُ للشّرع فى جميع مقاصِدِه الضّروريّة الخمسَةِ ، من حفظِ الدِّين والنفسِ والعقلِ والنَّسلِ والمال . فلما كان الظلمُ كمَا رأيتَ مُؤْذنًا بانقطاع النَّوع لما أدى إليه من تخريبِ العُمرَان ، كانت حكمةُ الحظرِ فيه موجُودَةً ، فكان تحريمُه مهمًّا . وأدِلَّته من القرآنِ والسُّنَّةِ كثيرةٌ ، أكثرُ من أن يأخذَها قانونُ الضّبطِ والحَصْرِ .

ولو كان كلٌّ واحد قادرًا عليه لوضع بإزائه من العقُوبَات الزّاجرة ماوضِع بإزاء غيره من المفسِدَات للنَّوعِ ، التى يقدرُ كلٌّ أحد على اقترافها من الزِّنا والقتْلِ والسُّكر ، إلّا أن الظلم لايقْدِر عليه إلا من لا يُقْدَر عليه ، لأنه إنما يقع من أهلِ القُدرَة والسُّلطان . فبُولغ فى ذمّه وتكريرِ الوَعيد فيه ، عسى أن يكونَ الوازعُ فيه للقادِرِ عليه فى نفسِه . « وَمَا رَبُّكَ بظَلّامٍ للْعَبِيدِ » (١) .

(١) آخر آية ٤٦ من سورة فصلت .

وَلَاتقولنَّ إنّ العقُوبةَ قد وضعت بإزّاء الحِرَابة (١) فى الشَّرع ، وهى من ظلم القادِر ؛ لأن المحارِبَ زَمن حِرابتهِ قادِر . فإن فى الجوابَ عن ذلك طريقين : أحدهما أن تقول : العقوبة على مايقترفه من الجنَايَاتِ فى نفس أو مالٍ على ماذَهب إليهِ الكثِيرُ ، وذلك إنما يكونُ بعدَ القدْرَة عليه والمطَالَبة بجنَايَته ، وأما نفسُ الحِرَابَةِ فهى خِلْوٌ من العقوبَة .
الطريقُ الثانى أن تقولَ : المحارِبُ لا يوصفُ بالقدرة ؛ لأنّا إنما نعنى بقدرَةِ الظّالم اليدَ المبسوطَةَ التى لا تعارِضُها قدرة ؛ فهى المؤْذِنَة بالخَراب ؛ وأما قدرَةُ المحارب فإنما هى إخَافَةٌ يجعلها ذريعةً لأخذِ الأموالِ ؛ والمدافَعةُ عنها بيد الكلِّ موجودَةٌ شرعًا وسياسةً ؛ فليست من القدر المؤْذِنِ بالخرَاب . والله قادرٌ على ما يَشاء .

(فصل) ومن أشَدِّ الظُّلماتِ وأعظَمِها فى إفْسَاد العمرَانِ تكليفُ الأعمالِ وتسخيرُ الرَّعايا بغير حقٍّ . وذلك أن الأعمالَ من قبيلِ المتموّلاتِ كما سنُبين فى باب الرزق (٢) ؛ لأن الرِّزقَ والكسب إنما هو قِيمُ أعْمالِ أهْل العُمْرَان . فإذًا مَساعِيهم وأعمالُهم كلُّها متموّلات ومكَاسِب لهم ، بل لامكاسب لهم سِوَاها ؛ فإن الرَّعيةَ المعتمِلين فى العمَارة إنما معاشُهم ومكاسِبُهم من اعمَالِهم ذلك . فإذا كُلِّفوا العملَ فى غيرِ شأنهم واتَّخِذوا سُخْرِيًا فى معاشِهم بطل كسبُهم واغتُصِبوا قيمةَ عملهم ذلك ، وهو متمولُهم فدخلَ عليهم الضَّررُ ، وذهب لهم حظٌ كبيرٌ من

(١) الحرابة هى قطع الطريق . وعقوبتها القتل أو الصلب أو كلاهما معاً ولكل عقوبة حالتها التى تجد تفصيلها عند الفقهاء .

(٢) يقصد الباب الخامس « فى المعاش ووجوهه ... » الخ .

معاشِهِم ، بل هو معاشُهم بالجملة . وإن تكرَّرَ ذلك أفسدَ آمالَهم فى العمارةِ ، وقعدُوا من السعى فيها جملةً ؛ فأدَّى ذلك إلى انتقاضِ العمران وتخريبِه ، والله سبحانَه وتعالى أعلمُ وبه التَّوفيق .

(فصل) وأعظمُ من ذلك فى الظُّلم وإفسادِ العمرانِ والدَّولة التسلُّط على أموالِ النَّاسِ ، بشراء ما بينِ أَيْدِيهم بأَبْخَسِ الأثمانِ ، ثم فَرْضِ البضائعِ عليهم بأرْفع الأثمانِ على وجه الغصب والإكراه فى الشراء والبَيْع ، وربما تُفرض عليهم تلك الأثمانُ على (التَّراخى [١] والتأجيل ، فيتعلَّلُونَ فى تلك الخَسارَة التى تلحقهم بما تحدثهم المطامعُ من جَبْرِ ذلك بحوالَة الأسْواقِ فى تلك البَضائع التى فرضت بالغلاء إلى بَيْعِها بأبخسِ الأثْمان ، وتعود خسارةُ ما بين الصَّفقَتَين على رؤوس أمْوالَهم .

وقد يعمُّ ذلك أصنافَ التجار المقيمِينَ بالمدينة والوَارِدِينَ من الآفاقِ فى البضائعِ ، وسائرَ السوقة وأهلَ الدكاكين فى المأكل والفواكه ، وأهلَ الصنائع فيما يتخذ من الآلاتِ والمواعين ، فتشمل الخسارةُ سائرَ الأصناف والطَبقَاتِ ، وتتوالى على الساعات ، وتجحف برؤوس الأموالِ ، ولا يجدون عنها وَليجَةً [٢] إلا القعودَ عنِ الأسواق لِذهَابِ رءوس الأموالِ فى جَبْرها بالأرباح [٣] ، ويتثاقل

(١) فى جميع النسخ : التواحى ، ولا يستقيم به المعنى .

(٢) يعنى لا يجدون مفراً ولا متندحاً وهو استعمال للكلمة فى غير معناها الأصلى .

(٣) هكذا فى جميع النسخ ، ولا بد أن يكون هنا سقط وتحريف ، والوضع الصحيح للعبارة هو ما يلى : « لذهاب رءوس الأموال والعجز عن جبرها بالأرباح » أى إن جزءاً من رؤوس أموالهم قد ذهب فى ثمن تلك البضائع التى فرضت عليهم بأكثر من ثمنها الطبيعى ، ولم تمكنهم حالة السوق من تحقيق ربح يجبر ماخسروه . انظر جـ ٢ ص ٨٥٥ منشورة د . وافى .

الوارِدُونَ من الآفاق لشراء البضائعِ وبيعها من أَجل ذَلك ، فتكسدَ الأَسواقُ ويبطَل معاش الرَّعايَا ، لأَن عامَّته منَ البيعِ والشِّراء . وإذا كانت الأَسواقُ عطَّلا منها بطلَ معاشُهم ، وتنقص جِبَاية السلطان أو تفْسد ، لأَن معظمها من أَواسِط الدَّولة ، وما بعدَها إنما هُو من المكُوس على البياعَات كما قدمناه [١] . ويؤُولُ ذلك إلى تلَاشِى الدولة وفَساد عمرَان المدينَةِ . ويطرق هذا الخللُ على التَّدريج ولا يُشعر به .

هذا ما كانَ بأَمثال هذه الذَّرائع والأَسبابِ إلى أَخْذ الأَموالِ ، وأما أَخذُها مجَّانًا والعدوانُ على الناسِ فى أَموالِهِم وحُرَمِهم ودمائهم وأَسرارِهم وأَعراضهم فَهُو يفضى إلى الخلل والفَساد دفعة ، وتنتقض الدَّولة سريعًا بما ينشأُ عنه من الهَرْج المفضى إلى الانتِقَاض .

ومن أَجل هذه المفَاسد حظَر الشَّرعُ ذلك كلَّه وشرعَ المكَايَسَةَ [٢] فى البيع والشِّراء ، وحظر أَكلَ أَموالِ الناسِ بالباطلِ ، سدًّا لأَبوابِ المفَاسد المفْضية إلى انتقاض العمران بالهَرْجِ أو بطلان المعَاش .

واعلم أَن الدَّاعى لذلك كله إنما هو حاجَةُ الدولة والسلطان إلى الإكْثارِ من المالِ بما يعْرض لهم من الترفِ فى الأَحوال ، فتكثر نفقاتُهم ويعظم الخَرْجُ ولاَ يفى به الدَّخْل على القوانين المعتادة ، فيستحدثون

(١) انظر الفصول ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ من هذا الباب ، وخاصة فصل ٤١ .

(٢) المكايسة فى البيع فى عرف الفقهاء هى المغالبة التى تتمثل فى المساومة ومحاولة كل من البائع والمشترى أن يصل إلى الثمن الذى يحقق فائدته . وفى الحديث : إنما كستك لآخذ جملك ، أى غلبتك بالكياسة .

أقابًا ووجوهًا يوسعون بها الجِبَاية ليفى لهم الدخلُ بالخرْج ، ثم لا يزال الترف يزيد ، والخرجُ بسببه يكثر ، والحَاجة إلى أموالِ النّاس تشتد ، ونطاق الدولة بذلك يزيد ، إلى أن تنمحى دائرتها ويذهب رسمُها ويغلبها طالِبُها ، والله أعلم .

٤٤ – فصل فى الحجاب كيف يقع فى الدول وأنه يعظم عند الهرم

اعلم أن الدولةَ فى أوَّل أمرِها تكون بعيدةً عن منازع الملكِ كما قدمناه ، لأنه لا بد لها من العصبيَّة التى بها يتمُّ أمرُها ويحصل استيلاؤها ، والبداوةُ هى شعارُ العصبيَّة . والدولةُ إن كان قيامُها بالدين فإنه بعيدٌ عن منازع الملك ؛ وإن كان قيامُها بعز الغَلَب فقط. فالبداوة التى بها يحصل الغَلَب بعيدة أيضًا عن منازع الملك ومذاهبه ، فإذا كانت الدولةُ فى أول أمرها بدويةً كان صاحبُها على حال الغضاضة والبداوة والقربِ من النَّاس وسهولةِ الإذن .

فاذا رسخ عزُّه وصار إلى الانفراد بالمجدِ ، واحتاجَ إلى الانفراد بنفسه عن الناس للحديثِ مع أوليائه فى خواصِ شئونه ، لما يكثر حينئذ مَن بحاشيته فيطلبُ الانفراد عَن العامة مااستطاع ، ويتخذ الإذنَ ببابه على من لايأمنه من أوليائه وأهل دولته ، ويتخذ حاجباً عن الناس يقيمه ببابه لهذه الوظيفة .

ثم إذا استفحل الملك وجاءت مذاهبه ومنازعه استحالت خُلق صاحب الدولة إلى خُلق المُلْك ، وهى خُلُق غريبةٌ مخصوصة ، يحتاج مباشرُها إلى مدارَاتها ومعَاملتها بما يجب لها ، وربما جهل تلك الخلقَ منهم [١] بعض من يباشرُهم فوقع فيما لا يرضيهم ، فسَخِطوه وصارُوا إلى حالة الانتقام منه . فانفردَ بمعرفة هذه الآداب الخواصُّ من أوليائهم ، وحجَبُوا غير أولئك الخاصة عن لقائهم فى كل وقت ، حفظاً على أنفسهم من معاينةِ ما يُسْخِطهم ، وعلى الناس من التعرض لعقابهم .

فصار لهم حجابٌ آخر أخص من الحجَاب الأَولَّ ، يُفْضِى إليهم منه خَواصُهم من الأولياء ، ويحْجب دُونَه مَنْ سواهم من العامة ، والحجابُ الثانى بيُفضى إلى مجالسِ الأولياء ، ويحجَبُ دونه من سواهم من العامة[٢] .

والحجابُ الأَول يكون فى أوَّل الدولةِ كما ذكرنا ، كما حدث لأيام معاويةَ وعبد الملك وخلفاء بنى أميَّة ، وكان القائمُ على ذلك الحجابِ يسمى عندهم الحاجِب جريًا على مذهب الاشتقاقِ الصَّحيح .

ثم لما جاءت دولة بنى العباس وجدت الدولةُ من الترف والعزِّ ما هو معروف وكملت خلق الملك على

(١) أى من الملوك .

(٢) هكذا وردت العبارة فى جميع النسخ . ولا بد أن يكون قد حدث فيها حذف وتكرار ، والوضع الصحيح للعبارة هو ما يلى « فصار لهم حجاب آخر أخص من الحجاب الأول يفضى إليهم منه خواصهم من الأولياء ، ويحجب دونه من سواهم من الخاصة والعامة ؛ بينما كان الحجاب الأول يفضى إليهم منه الخاصة دونه من سواهم من العامة . والحجاب الأول يكون فى أول الدولة كما ذكرنا ... » . وقد سهل هذا السقط وهذه الزيادة وجود كلمة « من سواهم » فى الجملتين هذا ، وقد سبق الكلام على الحجاب متضمناً هذه الحقائق كلها فى الفصل الرابع والثلاثين من هذا الباب فى فقرتى « الوزارة » و « الحجابة » .

ما يجب فيها ، فدعا ذلك إلى الحجاب الثَّانى ، وصار اسمُ الحاجب أخصَّ به ، وصار بباب الخلفاء دَران للعبَّاسيةَ : دارُ الخاصَّة ، ودَارُ العامَّة ، كما هو مسطورٌ فى أخبارهم (١) .

ثم حدث فى الدُّول حجابٌ ثالث أخصُّ من الأوَّلين ، وهو عند محاولة الحجر على صاحبِ الدَّولة . وذلك أن أهلَ الدولة وخواصَّ الملك إذا نَصَبُوا الأبناء من الأعقابِ ، وحاولُوا الاستبداد عليهم ، فأوَّل ما يبدأ به ذلك المستبد أن يحجب عنه بطانة (أبيه) (٢) وخواصَّ أوليائه ، يوهمُه أن فى مباشَرتهم إياهُ خرق حجَاب الهيْبَة ، وفسادَ قانونِ الأدب ، ليقطعُ بذلك لِقَاء الغَير ، ويعوِّده ملابسةَ أخلاقهِ هو ، حتى لا يتبدَّل به سواه ، إلى أن يستحكم الاستيلاءُ عليه ، فيكون هذا الحجابُ من دواعيه . وهذا الحجابُ لا يقع فى الغالِب إلا أواخر الدولة كما قدمناه فى الحجر (٣) ، ويكونُ دليلاً على هَرَم الدولة ونفاد قوتها . وهو مما يخشاه أهلُ الدول على أنفسِهم ، لأن القائمينَ بالدَّولة يحاولون ذلك بطِبَاعهم عند هَرَم الدولة وذهابِ

(١) ذكر فيما سبق أن الحجاب الأول فقط هو الذى كان متبعاً فى دولة بنى أمية وبنى العباس . (انظر فقرة «الحجابة» وأن : «هذا اللقب كان مخصوصاً فى الدولة الأموية والعباسية بمن يحجب السلطان عن العامة ويغلق بابه دونهم أو يفتحه لهم على قدره فى مواقيته ... وهكذا كانت سائر أيام بنى العباس ... أما فى الدولة الأموية بالأندلس فكانت الحجابة لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة ... » .

والمقرر فى كتب التاريخ أن الحجاب الثانى والحجاب الثالث اللذين جاء ذكره قد اتبعا فى أواخر الدولة العباسية .

(٢) فى جميع النسخ «بطانة ابنه» ولا يستقيم معه المعنى .

(٣) يقصد الفصل الواحد والعشرين من هذا الباب : «فصل فيما يعرض فى الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه» .

الاستبداد من أعقاب ملوكهم ، لما رُكِّب فى النفوس من محبَّة الاستبداد بالملك وخصوصًا مع الترشيح لذلكَ وحصُول دواعِيه ومَبَاديه .

٤٥ فصل فى انقسام الدولة الواحدة بدولتين

اعلم أن أوَّل ما يقع من آثار الهَرَم فى الدَّولة انقسامُها . وذلك أن المُلْكُ عندما يستفحلُ ويبلغ من أحوال الترف والنَّعيم إلى غَايتها ، ويستبدُّ صاحبُ الدَّولة بالمجد وينفرد به ، يأْنفُ حينئذ عن المشاركةِ ، ويصير إلى قَطْع أسبابِها ما استطاعَ بإهلاك من استرابَ به من ذوى قَرَابته المرشَّحين لمنْصبه . فربما ارتاب المساهمون له فى ذلك بأنفسهم ونزعوا إلى القاصية ، (واجتمع) (١) إليهم من يلحق بهم (فى) مثل حالهم من الاغْتِرار والاستِرابة . ويكون نطاقُ الدَّولة قد أخذ فى التَّضايق ورجع عن القاصِية . فيستبد ذلك النَّازع من القرابة فيها . ولا يزالُ أمرُه يعظم بتراجُع نطاق الدَّولة ، حتى يقاسِم الدولة أو يكاد .

وانظر ذلك فى الدولةِ الإسلاميَّة العربية حين كان أمرُها حريزًا (٢) مجتمعًا ، ونطاقها ممتدًا فى الاتساع ، وعصبيَّة بنى عبد مناف واحدةٌ غالبةٌ على سائر مُضَر ، فلم يَنْبِض عرقٌ من الخلاف سائر أيامها إلا ما كان من بِدْعَةِ الخوارج المستَميتين فى شأن بدعتهم ، لم يكن ذلك لنزعة مُلْكٍ ولا رياسَةٍ ، ولم يتم أمرهم لمزاحمتهم العصبيَّة القوية .

ثم لما خرجَ الأمر من بنى أمية ، واستقلَّ بنو العباس بالأَمرِ وكانت الدولة العربية قد بلغت الغاية

(١) انفردت بها «التيمورية» وبدونها لا يستقيم المعنى .

(٢) أى حين كان أمرها متماسكاً قوياً .

من الغَلَب والترف ، وآذنت بالتقلُّص عن القاصِية نزع عبدُ الرَّحمن الداخل إلى الأندلِس ـ قاصية دولةِ الإسلام ـ فاستحدثَ بها ملكًا ، واقتطعها عن دولتهم ، وصيرَّ الدولة دولتين . ثم نزع إدْرِيسُ إلى المغرب ، وخرج به وقام بأمره . وأمر ابنَه من بعده البرابرةُ من أوربة ومغيلة وزَنَاتة ، واستولى ناحيةَ المغربين . ثم ازدادت الدولة تقلصاً فاضطرب الأغالبةُ فى الامتناع عليهم . ثم خرج الشِّيعة وقام بأمرهم كتامة وصنهاجة ، واستولوا على إفرِيقِيَة والمغرب ، ثم مصر والشام والحجاز ، وغلبوا على الأدارسة ، وقسموا الدولة دولتين أُخريين ، وصارت الدولة العربية ثلاثَ دول : دولَ بنى العباس بمركز العرب ، وأصلُهُم ومادتهم الإسلام ؛ ودولة بنى أمية المجددين بالأندلس ملكهم القديمَ وخلافتَهم بالمشرق ؛ ودولةَ العُبَيْديين بإفريقية ومصر والشامَ والحجازَ . ولم تزل هذه (الدول) إلى أن كان انقراضها متقارباً أو جميعاً .

وكذلك انقسمت دولةُ بنى العبَّاسِ بدول أخرى : وكان بالقاصية بنوسَامَان فيما وراء النهر وخراسان ، والعلويَّة فى الدَّيلم وطبرسْتَان ، وآل ذلك إلى استيلاء الدَّيلم على العراقَينْ وعلى بغْدَاد والخلفَاء . ثم جاء السلجوقيَّةُ فملكوا جميعَ ذلك . ثم انقسمتْ دولتهم أيضاً بعد الاستفحالِ كما هو معروف فى أخبارهم .

وكذلك اعتبِرْهُ فى دولة صنهاجة بالمغرب وإفريقيَة ، لما بلغت إلى غايتها أيام بَاديس بن المنصُور ، خرج عليه عمه حمَّاد واقتطع ممالكَ الغرب لنفسه ، ما بين جبل أوراس إلى تِلِمْسان وملوية واختطَّ القلعة بجبل كتامة حيال المسيلة ، ونزلَها واستولى على مركزهم أشير بجبل تيطرى واستحدث ملكاً آخر قسيماً لملك آل بَاديس ، وبقى آلُ باديس بالقَيْروان وما إليها ، ولم يزل ذلك إلى أن انقرض أمرهما جميعاً .

وكذلك دولةُ الموحِّدين لما تقلَّص ظلُّها ثار بإفْرِيقيَة بنو أبى حفص فاستقلُّوا بِها واستحدثوا ملكًا لأعقابِهم بنَواحيها . ثم لما استفحلَ أمرُهم واستولَى على الغاية ، خَرج علَى المَمَالِكِ الغربيَّة من أعقابِهم الأمير أبو زَكريا يحيى ابنُ السلطان أبى إسحَق إبراهيم رابع خُلَفائهم ، واستحدث ملكًا ، ببِجَايَة وقُسَنْطينَة وما إليها ، أورثه بنيه ، وقسمُوا به الدولة قسمين ، ثم استولى على كرسِّى الحضرة بتونس ، ثم انقسم الملك ما بين أعقابهم ثم عَاد الاستيلاءُ فيهم .

وقد ينْتهى الانقسامُ إلى أكثر من دولَتين وثلاثة ، وفى غير أعْيَاص المُلْك من قومه ، كما وقع فى ملُوك الطَّوائف بالأندلس . وملُوك العجم بالمشرق ، وفى ملك صِنْهَاجَة بأفْرِيقِيَة : فقد كان لآخرِ دولتهم فى كلِّ حصن من حصون إفريقية ثائرٌ مستقلٌ بأمره كما تقدم ذكرُه . وكذا حال الجريد والزَّاب من إفْرِيقِيَة قبيل هذا العهد كما نذكره .

وهكذا شأن كل دولة لابدَّ وأن يعرض فيها عوارِض الهَرَم بالترف والدَّعة ، وتقلص ظل الغَلَب فيقتسم أعياصُها أو مِن يغلبُ من رِجَال دولتها

الأمر ، وتتعدد فيها الدّول ، والله وارثُ الأرضِ ومنْ عليها .

٤٦ - فصل فى أن الهَرَم إذا نزل بالدولة لا يرتفع

قد قدَّمنا ذكر العوارض المؤْذنة بالهَرَم وأسبابه واحدًا بعد واحد ، وبينّا أنها تحدث للدولة بالطبع ، وأنها كلها أمورٌ طبيعية لهَا . وإذا كان الهَرَم طبيعيًا فى الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الأمور الطَّبيعية كما يحدث الهَرَم فى المِزاج الحيوانى .

والهَرَم من الأمراض المزمنة التى لايمكن دواؤُها ولا ارتفاعها ؛ لما أنه طبيعيٌّ ، والأمور الطبيعيَّة لا تتبدّل . وقد يتنبه كثيرٌ من أهل الدول ممن له يقظةٌ فى السياسة ، فيرى مانزل بدولتهم من عوارض الهَرَم ، ويظن أنه ممكن الارتفاع ، فيأخذ نفسه بتلافى الدولة ، وإصلاح مزاجِها عن ذلك الهرم ويحسبه أنه لحقها بتقصير مَنْ قبله من أهل الدولة وغفلتهم ؛ وليسَ كذلك ، فإنها أمور طبيعية للدولة ، والعوائد هى المانعةُ له من تلافِيها والعوائد منزلة طبيعية أخرى ؛ فان من أدرك مثلاً أباه وأكثر أهل بيته يلبسون الحرِيرَ والديباج ، ويتحلَّون بالذهب فى السّلاح والمراكب ، ويحتجبونَ عن الناس فى المجالس والصَّلوات ، فلا يمكنه مخالفةُ سلَفه فى ذلك إلى الخشونَة فى اللباس والزىّ والاختلاط بالناس ؛ إذ العوائدُ حينئذ تمنعه وتقبح عليه مرتَكبه.

ولو فعله لرمى بالجنون والوسْواس فى الخروج عن العوائد دفعة ، وخشى عليه عائدة ذلك وعاقبته فى سلطانه . وانظر شأْن الأنبياء فى إنكارِ العوائد ومخالفتها ، لولا التأْييد الإلَهى والنصر السَّماوى.

وربما تكون العصبية قد ذهبت فتكون الأُبَّهَةُ تعوض عن موقعها من النفوس . فاذا أُزيلت تلك الأُبَّهَة مع ضعف العصبية تجاسرت الرعايا على الدولة بذهاب أوهَام الأُبَّهَة ، فتتذرع الدولةُ بتلك الأُبَّهة ما أمكنها حتى ينقضِى الأمر .

وربما يحدث عند آخر الدولة قوة توهِّم أن الهَرَم قد ارتفع عنها ويومض ذُبالُها إيماضَة الخمود كما يقع فى الذبال المشتعل فإنه عند مقاربة انطفائه يومض إيماضة توهم أنها اشتعال ، وهى انطفاء . فاعتبر ذلك ، ولاتغفل سر اللهِ تعالى وحكمته فى اطِّراد وجوده على ماقدر فيه . و «لِكلِ أجلٍ كِتَابٌ » (١) .

٤٧ - فصل فى كيفية طروق الخلل للدولة

اعلم أن مبنى الملك على أساسين لابد منهما: فالأول : الشَّوكةُ والعصبية وهوالمعبَّر عنه بالجند؛ والثانى : المال لذى هو قوام أولئك الجند وإقامة ما يحتاج إليه الملكُ من الأحوال . والخلَلُ إذا طرَق الدَولة طرقها فى هذين الأساسين . فلنذكر أولا طروق الخلل فى الشوكة والعصبية ؛ ثم نرجع إلى طروقه فى المال والجباية .

١ - واعلم أن تمهيدَ الدولة وتأسيسهَا كما قلناه إنما يكون بالعصبيَّة ، وأنه لابد من عصبيَّة كبرى جامعة للعَصَائب مستتْبعة لها ، وهىعصبية صاحب الدولة الخاصة من عشيرة وقبيلة . فاذا

---

(١) آخر آية ٣٨ من سورة الرعد .

جاءت الدولةُ طبيعةُ الملكِ من الترفِ وجدْعِ أنوفِ أهلِ العصبيّة ، كان أولُ ما يجدع أنوفَ عشيرته وذوى قرباه المقاسمين له فى اسم الملك . فيستبدّ فى جدْع أنوفهم بما بلغ من سِوَاهم . ويأخذهم الترف أيضًا أكثر من سواهم لمكانهم من الملك والعزّ والغَلَب ، فيحيط بهم هادِمَان وهما : الترفُ والقهرُ . ثم يصير القهر آخِرًا إلى القَتْل لما يحصل من مرضِ قلوبهم عند رُسوخ الملك لصاحبِ الأمر ، فيقلب غيرتَه منهم إلى الخوْف على ملكه ، فيأخذهم بالقَتل والإهانةَ وسلْبِ النعمة والترفِ الذى تعوّدُوا الكثيرَ منه ، فيهلِكون ويقلّون وتفسد عصبيّةُ صاحِب الدولة منهم ، وهى العصبيّةُ الكبرى التى كانت تجمعُ بها العصائبُ وتستتبعها ، فتنحل عُرْوتُها ، وتضعف شَكِيمَتُها ، ويستبدل عنها بالبطانة (١) من موالى النعمة وصنائعِ الإحْسان ، ويتخذَ منهم عصبية . إلا أنها ليست مثل تلك الشدة الشكِيميّة ، لفقدان الرحم (٢) لما جعَل الله فى ذلك . فينفرد صاحبُ الدّولة عن العَشيرِ والأنْصارِ الطبيعيّة ، ويحسُ بذلك أهل العصائِبِ الأخْرَى ، فيتجاسَرُون عليه وعلى بطانته تجاسرًا طبيعيًا ، فيهلكُهم صاحب الدولة ، ويتبعهم بالقتل واحدًا بعد واحد . ويقلد الآخِرُ من أهل الدولة فى ذلك الأوّلَ ؛ مع ما يكون قد نزل بهم من مَهْلَكَة الترف الذى قدمنا . فيستوْلى عليهم الهلاك بالترفِ والقتلِ ، حتى يخرجوا عن صِبْغَةِ تلك العَصَبيّة ، وينسوا نُعْرتها وسورتها (١) ويصيروا أُجراء على الحِمَاية . ويقلّون لذلك ، فتقل الحامِية التى تنزل بالأطْرافِ والثُّغور . فيتجاسرُ الرعايا على نَقْض (٢) الدعوة فى الأطْرَاف ، ويبادر الخوَارِجُ على الدولة من الأعْيَاص وغيرهم إلى تلك الأطراف ، لما يرجون حينئذ من حصُول غرَضهم بمبايَعة أهل القَاصيةِ لهم ، وأمنهم من وُصُول الحامِيَة إليهم . ولا يزال ذلك يتدرَّجَ ونطاق الدّولةِ يتضايقُ حتى تَصِير الخوارِجُ فى أقرب الأماكن إلى مَرْكَز الدولة . وربما انقسمت الدولةُ عند ذلك بدولَتَين أو ثَلاثَة على قدْر قوتها فى الأصل كما قلْناه (٣) ، ويقوم بأمرها غير أهلِ عصبيتها ، ولكن إذعانًا لأهل عصبيتها ولغَلبهم المعهود .

واعتبرْ هذا فى دول العرَب فى الإسْلام ، انتهتْ أولا إلى الأندلس والهندِ والصِّين . وكان أمرُ بنى أمية نافذًا فى جميع العرَب بعصبيّة بنى عبدمنَاف ، حتى لقد أمرَ سليمانُ بنُ عبْد المَلك من دمشق بقَتل عبد العزيز بن مُوسى بن نُصيرِ بقرطبة فقتل ولم يُردَّ أمره . ثم تلاشت عصبيةُ بنى أمية بما أصابهم من التَّرف فانقرَضُوا . وجاء بنو العباس فَغَضُّوا أعِنّة بنى هاشم ، وقتلوا الطَّالِبيّين وشرَّدوهم ، فانحلّت عصبيةُ عبدِ مناف وتلاشت ، وتجاسَر العربُ عليهم ، فاستبدّ عليهم أهل القَاصِيَة مثل

(١) فى جميع النسخ « البطالة » باللام ، وهو تحريف واضح .

(٢) انظر لتفصيل ذلك الفصل الثامن من الباب الثانى فى أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب وما فى معناه

(١) وردت هذه الجملة محرفة فى جميع النسخ : ففى بعضها « ويفشو بعزتها وثورتها »

(٢) فى جميع النسخ : « على بعض الدعوة » ولعله من خطأ النساخ .

(٣) انظر الفصل الخامس والأربعين من هذا الباب .

بَنِى الأَغْلب بإفْريقية وأهل الأَندلس وغيرهم وانقسمت الدّولة ، ثم خرج بنو إدريس بالمغرب ، وقام البرْبرُ بأمرهم إذعانًا للعصَبيّة التى لهم ، وأمنًا أن تصلهم مقاتِلةٌ أو حامية للدولة .

فإذا خرج الدعاة آخرًا فيتغلبون على الأطراف والقَاصِيةَ ، وتحصّل لهم هناك دعوةٌ ومُلكٌ تنقسم به الدولة . وربما يزيدُ ذلك متى زادت الدّولة نقصًا ، إلى أن ينتهى إلى المركز ، وتضعف البطانة بعد ذلك بما أخَذَ منها الترف ، فتهلِك وتضمَحِلّ وتضعُف الدولة المنقسمةُ كلها .

وربما طال أمدُها بعد ذلك فتستغْنى عن العصبيّة بما حصلَ لها مِن الصِّبغة فى نفوس أهل إيَالتها ، وهى صبغة الانقيادِ والتّسليم منذ السنين الطّويلة التى لا يَعقِل أحدٌ من الأجيال مبدأها ولا أوَّليتها فلا يعقِلُون إلا التّسليم لصاحب الدولة ، فيستغنى بذلك عن قوّة العصَائب ، ويكفى صاحبَها ، بماحصل لها فى تمهيد أمرها ، الأجراءُ على الحامية من جُندى ومُرْتَزِق ، ويعضُد ذلك ما وقع فى النفوس عامة من التسليم ؛ فلا يكادُ أحدٌ أن يتصور عصيانًا أو خروجًا إلا والجمهورُ منكِرون عليه مخالِفون له ؛ فلا يقدرْ على التّصدى لذلك ولَو جهد جهده .

وربما كانت الدولةُ فى هذا الحال أسلَم من الخَوارِج والمنَازعَة لاستحكام صِبْغَة التّسليم والانقياد لَهم . فلا تكَادُ النفوسُ تحدث سرّهَا بمخَالَفَة ، ولايختلج فى ضَميرِها إنحرافٌ عَنِ الطاعةِ . فيكون أسلم من الهَرْج والانْتِقَاض الذى يحدث من العصَائِب والعشَائِر . ثم لا يزالُ أمرُ الدولة كذلِك وهى تَتَلاشى فى ذاتِها ، شأْن الحَرَارَة الغريزيّةَ فى البَدن العَادِم للغذاء ، إلى أن تنتهى إلى وقْتِها المقدور . و « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » [(١)] ؛ ولكلّ دولة أمد . « واللهُ يقَدِّرُ اللّيل والنّهار [(٢)] » وهو الواحد القهار .

***

٢ – وأما الخللُ الذى يتطرّق من جهَة المَال ، فاعلم أن الدّولَة فى أولها تكونُ بدَوِيّةً كما مر ، فيكون خُلُقَ الرِّفق بالرَّعَايا والقَصد فى النفقات ، والتّعفُّف عَن الأَموال ، فَتتَخَافى عن الإمعان فى الجِبَاية ، والتّحذْلُقِ والكَيْس فى جمع الأموال وحُسْبان العمّال ، ولا داعيةَ حينئذ إلى الإسْراف فى النفقة ، فلا تحتاجُ الدولة إلى كثْرة المال . ثم يحصلُ الاستيلاء ويعظمُ ، ويستفحِلُ الملك ، فيدْعو إلى الترف ، ويكثر الإنفاق بسببه ، فتعظم نفقَاتُ السّلطان وأهل الدولة على العمُوم ، بل يتعدّى ذلك إلى أهلِ المِصْر ، ويدْعو ذَلِك إلى الزّيادَة فى أعْطِيات الجُنْد وأرزَاقِ أهلِ الدولة . ثم يعظم الترف فيكثر الإسْرَاف فى النفقَات ، وينتشِرُ ذَلك فى الرَّعية ، لأنَّ الناس علَى دينِ ملُوكها وعوائدها . ويحتَاج السّلطان إلى ضَرْب المكوس على أثمانِ البِيَاعَات فى الأسْوَاق لإدْرَار الجبَايَة لما يراه من ترَف المدِينة الشّاهِد عليهم بالرَّفه ، ولما يحتاجُ هو إليه من نفقَاتِ سلْطَانه وأرزَاق جنده . ثم تَزيد عوائد الترَف فلا تَفى بها المُكوس ، وتكون

(١) آخر الآية ٣٧ من سورة الرعد .
(٢) من الآية ٢٠ من سورة المزمل .

الدّولة قد استفحَلَت فى الاستِطَالة القَهْر لمن تحت يدها من الرعايا ، فتمتد أيْديهم إلى جَمْع المَالِ مِنْ أموال الرَّعايا من مكْس أو تِجارة أو نقْدٍ فى بعض الأحوال ، بشُبْهَةٍ أو بغير شبهة . ويكونَ الجندُ فى ذَلك الطَّور قد تَجاسر على الدَّولَة بمالحِقها من الفَشَل والهَرَم فى العَصَبيّة فتتوقّع ذلك منهم ، وتُدَاوى بسَكينة العَطَايا وكثرة الإنفاق فيهم ، ولا تجِدُ عن ذَلكَ وليجَةً . ويكون جباة الأموالِ فى الدولةِ قد عظمت ثروتُهم فى هذا بكثرة الجبَاية وكونِها بأَيديهم وبما اتّسع لذلك من جاههم . فيُتَوَجّه إليهم باحتجان الأموال من الجِبَاية ، وتفشُو السّعَاية فيهم بعضِهم من بعض للمنافَسة والحِقد ، فتعمّهم النكبات والمصَادرات واحدًا واحدً إلى أن تذهب ثروتُهم وتتلاشَى أحوالهم ، ويُفْقَد ماكان للدولة من الأُبّهة والجمال بهم.وإذا اصطُلِمت نِعمتهم تجاوزتْهم الدّولة إلى أهل الثّروةِ من الرعايا سواهم . ويكون الوَهَن فى هذا الطور قد لَحِق الشوكة وضعفَت عن الاستِطالة والقَهر ، فتنصرف سِياسَةُ صاحب الدّولة حينئذٍ إلى مداراة الأُمور ببذْل المال ، ويراه أرفعَ من السّيف لقلة غنَائه ، فتعظُم حاجتُه إلى الأموال ، زِادةً على النفقَات وأرزاق الجندُ ، ولا يغنى فيا يريد [١] . ويعظُم الهَرم بالدولَة ويتجاسَر عليها أهلُ النواحى ، والدولةُ تنحلُّ عرَاها فى كل طور من هذه ، إلى أن تُفضِى إلى الهلاك ، وتتعرض لاستيلاء الطُّلّاب . فإن قَصدَها طالِبٌ انتزَعها من أيدِى القَايمين بها ، وإلا بَقِيتْ وهى تتَلاشى إلى أن تضْمحِل كالذُّبَال فى السّراج إذا فنى زيته وطفىء . والله مالك الأُمور ، ومدَبّر الأكوان ، لا إله إلا هو .

(١) أى لا يغنى ما يبذله فى تحقيق ما يريده .

• • •

٤٨ – فصل فى إتساع نطاق الدولة أولا إلى نهايته ثم تضايقه طورا بعد طور إلى فناء الدولة واضمحلالها[١]

قد كان تقدم لنا فى فصل الخلافَة والملك ، وهو الثالثُ من هذه المقدمة ، أن كل دولة لها حصةٌ من الممالك والعِمالَات لا تزيدُ عليها[٢] . واعتبر ذلك بتوزيع عصابَة الدَّولة على حمَاية أقطارها وجِهَاتها . فحيثُ نفد عددهم فالطَّرَف الذى انتهى عنده هو الثغر ، ويحيط بالدولة مِن سائر جهاتِها كالنِّطاق . وقد تكون النهايةُ هى نطاق الدولَة الأُولى . وقد يكون أوسع منه إذا كان عددُ العصابة أوفَر من الدَّولة قبلها . وهذا كله عندما تكون الدولَة فى شعار البدَاوَة وخشونة البأْس . فإذا آستفحَلَ

(١) هذا الفصل هو أحد الفصول التى تزيد بها طبعة باريس عن الطبعات المتداولة فى العالم العربى . وقد وضع فى طبعة باريس فى هذا هذا الموضع ، أى بعد الفصل السابع والأربعين من هذا الباب وهو كذلك مثبت بالنسخة التى عرفت فى منشورة د . وافى بالتيمورية .

هذا وسنضع من الآن فصاعداً هذين القوسين الكبيرين ( ) للإشارة إلى الفصول والفقرات التى تزيد بها طبعة باريس وهذه النسخة الخطية عن غيرها من الطبعات والمخطوطات .

(٢) انظر الفصل السابع الفرعى من هذا الباب . وعنوانه « فصل فى أن كل دولة لها حصة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها » .

العزُّ والغَلَبُ وتوفرت النعمُ والأرزاق بدرورِ الجبايات ، وزخر بحرُ الترف والحضارةِ ، ونشأت الأجيالُ على اعتياد ذلك ، لطفت أخلاقُ الحامية ورقَّت حواشيهم ، وعاد من ذَلك إلى نفوسِهم هيئاتُ الجبن والكَسل بما يعانونه من خَنَث (١) الحضارةِ المؤدى إلى الانسلاخ لامن شعَار البأس والرجُولِيَّة بمفارقَةُ البداوة وخشُونَتها وبأَخْذهم العزَّ بالتطَاول إلى الرِّيَاسة والتنازُع عليها . فيفضى إلى قَتْل بعضِهم بعضَهم ، ويكبحُهم السلطان عن ذلك بما يودى إلى قتل أكابرهم وإهْلاك رؤسائِهم . فتفقد الأُمراءُ والكُبراءَ ، ويكثرَ التابعُ والمرءُوس ، فَيَفُلُّ (٢) ذلك من حدّ الدولَةِ ، ويكسر من شوكَتِها ، ويقع الخللُ الأَولُ فى الدولة ، وهو الذى من جهة الجُندِ والحَامية كما تقدم . ويُسَاوق ذَلك السَّرَفُ فى النفقَات بما يعتريهم من أُبَّهة العز ، وتجاوز الحدود بالبذَخ ، بالمناغاه فى المطَاعِم والمَلابس ، وتشييد القصُور واستجادة السِّلاح وارْتباط الْخيول ، فيَقْصُر دخلُ الدولة حينئذ عن (٣) خرْجها ، ويطرق الخلَلُ الثَّانى فى الدولةِ وهو الذى من جهة المَال والجِبَاية . ويحصل العجز والانتقاض بوجود الخَلَلَيْن . وربما تنافسَ رؤساوهم ، فتنازعوا وعجزُوا عن مغالبة المجاوِرين والمنازِعين ومدافَعَتهم .

(١) خنث خنثاً من باب تعب إذا كان فيه لين وتكسر » .
وفى طبعة باريس « حنث » بالحاء المهملة ، وهو تحريف .

(٢) فى طبعة باريس « فيقل » بالقاف ، وهو تحريف. وفى « التيمورية » : « فيقل ذلك من حدود الدولة » وهو معنى محتمل .

(٣) فى طبعة باريس : « ويقصر دخل الدولة من خرجها » . وفى « التيمورية » : « ويقصر دخل الدولة عن خروجها » وكلتاهما تشتمل على تحريف .

وربما اعتزَّ أهل الثغُور والأطراف مما يحسُّون من ضعفِ الدَّولة وراءهم . فيصيرُون إلى الإستقلال والاستِبْدَاد بما فى أَيديهم من العِمَالات ، ويعجزَ صاحبُ الدولة عن حمْلهم على الجَادَّة ، فيضيق نطاقُ الدولة عما كانت انتهتْ إليْه فى أوَّلها ، وترجع العِنَاية فى تدبيرها بنطاق دونه ، إلى أن يحدُث فى النِّطاق الثانى ما حدَث فى الأول بعينه من العجْز والكسل فى العصَابة وقلَّة الأَموَال والجِبَاية . فيذهب القائم بالدولَة إلى تغيير القوَانين التى كانت عليها سياسة الدول من قِبَل الجنْد والمَال والوِلايات ليجْرى حالُها على استقامة بتكافو الدَّخْل والخَرْج والحامية والعِمالَات وتوزيع الجبَاية على الأَرْزَاق ، ومقَايسة (١) ذلك بأول الدولة فى سائر الأحوال . والمفاسِدُ مع ذلك متوقَّعةٌ من كل جهَة . فيحدث فى هذا الطور من بعدُ ما حدَث فى الأَوَّل من قبلُ . ويعتبرُ صَاحب الدَّولة ما اعتبره الأول ، ويقايس بالوِزان (٢) الأَول أحوالها الثَّانية ، يروم دفعَ مفاسِد الخلَل الذى يتجدَّد فى كل طوْرٍ ، ويأخذ من كل طرف ، حتى يضيق نطاقَها الآخر إلى نِطاق دونه كذلك ، ويقعُ فيه ما وقَع فى الأَوَّل . فكلُّ واحد من هؤلاء المغيِّرين للقوانين قبلَهم كأنهم منشِئُون دولةً أُخرى ، ومجدِّدون مُلْكًا ، حتى تنقرضَ الدولة ، وتتطاولَ الأمم حولَها إلى التغلُّب عليها وإنشاء دولَة أُخرى لهم ، فيقع من ذلك ما قدَّر الله وقُوعه .

(١) « قايسته جاريته فى القياس » وقايست بين الأمرين قدرت » يعنى المقارنة بينهما .

(٢) فى القاموس « وازنه موازنة ووزانا عادله وقابله وحاذاه» .

واعتبر ذلك فى الدولة الإسلاميّة كيف اتّسع نطاقُها بالفُتوحَات والتغلّب على الأُمم ، ثم تزَايد الحَامِيَة وتكاثرعددهم بما تخوَّلُوه من النِّعم والأرزَاق إلى أن انقرضَ أمرُ بنى أميَّة وغلَب بنُو العباس . ثم تزايد التَّرَف ، ونشأَت الحضارةُ ، وطرق الخللُ ، فضاق النِّطاقُ من الأندلُس والمغرب بحدوثِ الدولة الأُمويَّة المرْوَانِيَّة والعلَويّة ، واقتطعُوا ذَيْنِك الثَّغرين عن نِطَاقِها ، إلى أن وقع الخلافُ بين بَنِى الرَّشِيد ، وظهر دعاة العلَوية فى كل جانب ، وتمهَّدت لهم دولٌ ، ثم قُتِلَ المتوكِّل ، واستبدَّ الأُمراءُ على الخلَفَاءِ وحجَرُوهم ، واستقلَّ الولاة بالعِمالات فى الأَطراف ، وانقطع الخراجُ منها ، وتزايدَ الترفُ . وجاء المُعْتَضِدُ فغيرَّ قوانينَ الدولة إلى قانونٍ آخر من السِّيَاسَة أَقْطع (١) فيه ولاةَ الأَطراف ما غلَبُوا عليه ، مثل بنى سَامَان وَرَاءَ النهر ، وبنى طَاهرٍ العراقَ وخُراسانَ ، وبنى الصَّفارِ السِّندَ وفارِس ، وبَنِى طُولُون مِصْر ، وبنى الأَغْلَب إفْرِيقِيَة إلى أن استقرَّ أمر العربِ وغلب العجمُ ، واستبد بَنُو بُوَيْه والدَّيلَمُ بدولة الإسلامِ وحجرُوا الخِلَافة ، وبقى بَنُو سامَانَ فى استبدادهم وراءَ النهر ، وتطاولَ الفاطميونَ من المغرِب إلى مصرَ والشَّام فملكوه .

ثم قامت الدولة السّلجُوقِية من الترك فاستولَوْا على ممالك الإسلام ، وأبقوا الخلفاءَ فى حَجْرهم ، إلى أن تلاشتْ دُولهم . واستبدَّ الخلفاءُ منذ عهدِ النَّاصر فى نطاقٍ أضيق من هالةِ القمر وهو عِراقُ العرب إلى أَصْبهان وفَارِس والبَحْرين . وأَقامت الدولة كذلك بعض الشىء إلى انقراض أمر الخلفاء على يد هُولَاكُو بن طُولى ابن دُوشى خَان ملك التَّتَر والمُغُل حين غلَبُوا السَّلجُوقِية وملكوا ماكانَ فى أيدِيهم من ممالك الإسلام .

وهكذا يتضايقُ نطاق كل دولة على نسبةِ نطَاقها الأَول . ولا يزال طوراً بعد طور إلى أن تنقرضَ الدولة . واعتبر ذلك فى كل دولة عظمت أو صغرت . فهكذا سنة الله فى الدول ، إلى أن يأْتِى ماقدَّر الله من الفناء على خلقه . و «كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إلَّا وَجْهَهُ » (١) .

٤٩ – فصل فى حدوث الدولة وتجددها كيف يقع

اعلم أن نشأَة الدولة وبدايتها إذا أخذت الدولةُ المستقِرّةُ فى الهَرم والانتقاص يكون على نوعين :

إما بأَنْ يستبِدَّ ولاةُ الأَعمال فى الدولة بالقَاصِية عندما يتقلَّص ظلُّها عنهم ، فتكون لكل واحد منهم دولةٌ يستجدُّها لقومه وما يستقرُّ فى نصابه ، يرِثه عنه أبناوه أو مواليه ، ويستفحِلُ لهم الملك بالتدريج ، وربما يزدَحِمون على ذلك المُلْكِ ويتقارعُون عليه ، ويتنازَعون فى الاستئثارِ به ، ويغلب منهم من يكون له فضلُ قوة على صاحبه ، وينتزع ما فى يده ؛ كما وقع فى دولة بَنِى العبّاس حين أخذت دولتهم فى الهَرمَ ، وتقلص ظلها عن القَاصِية ، واستبدَ بَنو سامَانَ

(١) أول ص ١١٧ من الجزء الثانى من طبعة باريس .

(١) فقرة من الآية (٨٨) من سورة القصص .

بما وَرَاءَ النهر ، وبنو حَمْدَانَ بالمَوْصِل والشَّام ، وبنو طُولُون بمصرَ ؛ وكما وقع بالدولة الأُموية بالأَندلس ؛ وافترق ملكها فى الطوائف الذين كانوا وُلاتَها فى الأَعمال ، وانقسمت دولاً وملوكا أَورثوها مَنْ بعدهم من قرابتهم أو مواليهم . وهذا النوع لايكون بينهم وبين الدولة المستقرة حرْبٌ ، لأَنهم مستقرون فى رِيَاساتِهم ، ولا يطمعُون فى الاستيلاء على الدَّولة المستقرة بحرْب ؛ وإنَما الدولة أَدركَها الهَرَمَ وتقلص ظلها عن القَاصِية ، وعجزت عن الوصُول إليها .

والنوعُ الثانى بأَن يخرج عن الدولة خَارِجٌ ممن يجاورُها من الأُمم والقبائل إما بدعوَةٍ يحمل النَاس عليها كما أشرنا إليه ، أو يكون صاحِب شوكة وعصبيَّة كبيرًا فى قومه قد استفحل أمره فيسمُو بهم إلى الملك ، وقد حدثوا به أَنفسهم بما حصلَ لهم من الاعتِزَازِ على الدَّولة المستقرة ، وما نَزَل بها من الهَرَم . فيتعين له ولقومه الاستيلاءُ عليها ويمارِسُونها بالمطالبة إلى أن يظفروا بها ويرِثُونَ أمرها(١) كما يتبين . الله سبحانه وتعالى أعلم .

٥٠ - فصل فى أن الدولة المستجدة

إنما تستولى على الدولة المستقرة

بالمطاولة لا بالمناجزة

قد ذكرنا أن الدول الحادِثة المتجددة نوعان : نوع من ولاية الأطراف إذا تقلَّص ظِل الدولة عنهم وانحسرَ تيارها ، وهولاء لا يقع منهم مطالبة للدَّولة فى الأَكثر كما قدمناه ، لأَن قُصاراهم القُنُوع بما فى أَيديهم وهو نهاية قوتهِم ؛ والنوعُ الثانى نوعُ الدُّعَاة والخَوارِج على الدولة وهؤلاءِ لابد لهم من المطالَبة ، لأَن قوتهم وافيةٌ بها ، فإن ذلك إنما يكون فى نصاب يكون له من العصبية والاعتزاز ماهو كِفَاءُ (١) ذلك وَوَاف به . فيقع بينهم وبين الدولة المستقرة حروب سِجال تتكرَّر وتتصلُ إلى أن يقع لهم الاستيلاءُ والظَّفَر بالمطلُوب ولا يحصل لهم فى الغالب ظَفَرٌ بالمناجَزَة . والسبب فى ذلك أَن الظَّفَر فى الحرُوب إنما يقع كما قدَّمناه بأُمور نفسانية وَهْمِية ، وإن كانَ العددُ والسِّلاح وصِدْقُ القِتَال كفِيلًا به لكنَّه قَاصرٌ مع تلكَ الأُمور الوهمية كما مر (٢) ؛ ولذلك كان الخِدَاع من أَنفع ما يستعمل فى الحرب وأَكثر ما يقع الظَّفَرُ به ؛ وفى الحديث : « الحرْب خدْعَة » .

والدولة المستقرة قد صيَّرتْ العوائدُ المأْلوفةُ طاعَتَها ضروريةً واجبَةً كما تقدم فى غير موضع . فتكثر بذلك العوائِقُ لصاحب الدَّولة المستجدة ، ويُكْسَر (٣) منْ هُم أَتباعه وأَهل شوكته ؛ وإن كان الأَقْرَبُون من بطانته على بصيرةٍ فى طاعَتِه وموازَرَته ، إلا أن الآخَرِين أَكْثَر ، وقد داخلهم الفشَل بتلك العقائد فى التسليم للدَّولة المستقِرة ، فيحصل بعض الفُتُور منهم ولا يكاد صاحبُ الدولة المستجِدَّة يقاوم صاحبَ الدولة المستقرة . فَيرجع

(١) فى بعض النسخ « ويرفون أمرها » ، من رفا الثوب أصلحه كما فى القاموس ولعل الكلمة محرفة عن « يرثون » .

(١) يعنى : الكفء .

(٢) أنظر الفصل السابع والثلاثين من هذا الباب ، وعنوانه : « فصل فى الحروب ومذاهب الأمم فى ترتيبها » .

(٣) فى جميع النسخ « و ويكثر » بالثاء . وهو تحريف . والمقصود أن ذلك يكسر همهم ويضعف عزائمهم .

إلى الصَّبر والمَطَاولَة ، حتّى يتضح هَرَمُ الدولة المستقِرَّة ، فَتَضْمَحِلَ عقائِد التَّسليم لها من قوْمه ، وتنبعث منهم الهمم لصدق المطالبة معه ، فيقع الظَّفر والاستِيلاء .

وأيضًا فالدولة المستقرة كثيرةُ الرِّزقِ بما استحْكَمَ لَهم من الملك ، وتوسَّع من النَّعيم واللَّذاتِ ، واختُصُّوا به دون غيرهم من أموال الجِبَاية ، فيكثر عندهم ارتباط الخُيُول واستجادَةُ الأسلِحة ، وتعظم فيهم الأُبَّهَة الملكِيَّة ، ويفيض العطاء بينهم من ملوكهم اختيارًا واضطرارًا ، فيُرهِبون بذلك كلِّه عدوَّهم . وأهل الدولة المستجدَّة بمعزِل عن ذلك ؛ لما هم فيه من البداوة وأحوال الفقْر والخَصاصة [1] (التى يُفْقَدُ معها الاستعداد من ذلك) [2] فيسبق إلى قلوبهم أوهامُ الرّعب بما يبلغهم من أحوال الدَّولة المستقِرة (وكثرة إستعدادها) [2] ، ويُحجمُون عن قتالهم من أجل ذلك فيصير أمرُهم إلى المطاوَلة حتى تأخُذ المستقِرة مأخذها من الهرَمَ ، ويستحكم الخَلَل فيها فى العَصبيَّة والجباية ، فينتهز حينئذ صاحب الدولة المستجِدَّة فرصَتَه فى الاستِيلاء عليها بعد حين منذ المطالبة . سنَّة الله فى عباده .

وأيضًا فأهلُ الدولة المستجدة كلُّهم مباينُون للدولة المستقِرة بأنْسابهم وعوائِدهم وفى سائِر مَناحيهم ، ثم هم مفاخِرون لهم ومنابِذون بما وقَعَ

(١) الخصاصة بالفتح الفقر والحاجة .

(٢) ما بين القوسين ساقط من جميع النسخ ومثبت فى « التيمورية » .

من هذه المطالبة وبطمَعهم فى الاستيلاء عليها ، فتتمكن المباعَدَة بين أهلِ الدَّولتين سرًا وجهرًا ، ولا يصل إلى أهل الدولة المستجِدَّة خبرٌ عن أهل الدولة المستقرَّة يصيبون منه غِرَّة باطنًا وظاهرًا ، لانقطاعِ المدَاخلة بين الدَّولتين ، فَيقِيمون على المطالَبَة وهم فى إحْجام ، ويَنْكُلون [1] عن المناجزة حتى يأْذَنَ الله بزوال الدولة المستقِرَّة ، وفَنَاءِ عمرها ووفُور الخَلَل فى جَميعِ جهاتها ، ويتَّضِحَ لأهل الدولة المستَجِدَّة مع الأيام ما كان يخفَى منها ، من هَرَمها وتَلاشِيها ، وقد عظمت قوتهم بما اقتطعوه من أعمالها ونقصُوه من أطرافِها ، فتنبعث هممهم يدًا واحدة للمناجزة ، ويذهب ما كان يَفُتُّ فى عزائمهم من التوهُّمات ، وتنتهى المطاولة إلى حدها ، ويقع الاستيلاء آخِرًا بالمعاجلة .

واعتبر ذلك فى دولة بَنِى العبَّاس حين ظهورها ، حين قام الشِّيعةُ بخُرَاسان بعد انعقاد الدعوة واجتماعهم على المطالَبةِ عشْرَ سِنين أو تزيد . وحينئذ تم لهم الظَّفَر واستوْلوا على الدَّولة الأُموية .

وكذا العلوية بطَبَرِسْتَان عند ظهور دعوتهم فى الدَّيْلَم : كيف كانت مطاولتهم حتّى استوْلَوا على تلك الناحية . ثم لما انقضى أمرُ العلوِيَّة وسَمَا الدَّيلم إلى مُلْك فارس والعراقين ، فمكثوا سنين كثيرة يُطَاوِلون حتى اقتطعوا أصبهان ثم استولوا على الخليفة ببغداد .

وكذا العُبَيْدِيون أقام دَاعِيَتُهم بالمغرب أبو عَبْد الله الشِّيعىّ ببنى كتامة من قبائل البربر عشر سنين

(١) يجبنون من القتال ، ويقعدون عنه .

ويزيد ، يطاول بنى الأغلب بإفريقية حتى ظفر بهم واستولوا على المغرب كله . وسَمَوْا إلى ملك مصر ؛ فمكثوا ثلاثين سنة أو نحوها فى طلبها يجهزون إليها العساكر والأساطيل فى كل وقت ويجيء المدد لمدافعتهم برًا وبحرًا من بغداد والشام ، وملكوا الإسكندرية والفيوم والصعيد ، وتخطت دعوتهم من هنالك إلى الحجاز وأقيمت بالحرمين . ثم نازل قائدهم جوهر الكاتب بعساكره مدينة مصر واستولى عليها ، واقتلع دولة بنى طُغج [(١)] من أصولها ، واختط القاهرة ، فجاء الخليفة بعدُ ـ المُعِزّ لدين الله ـ فنزلها لستين سنةً أو نحوها منذ استيلائهم على الإسكندرية [(٢)] .

وكذا السلجوقية ملوك الترك لما استولوا على بنى سامان ، وأجازوا من وراء النهر مكثوا نحوًا من من ثلاثين سنة ، يطاولون بنى سبكتكين بخراسان حتى استولوا على دولته . ثم زحفوا إلى بغداد فاستولوا عليها وعلى الخليفة بها بعد أيام من الدهر .

وكذا التتر من بعدهم خرجوا من المفازة عام سبع عشرة وستمائة فلم يتم لهم الاستيلاء إلا بعد أربعين سنة .

وكذا أهلُ المغرب خرج به المرابطون من لمتونة على ملوكه من مغراوة ، فطاولوهم سنين ثم استولوا عليه . ثم خرج الموحدون بدعوتهم على لمتونة فمكثوا نحوًا من ثلاثين سنة يحاربونهم حتى استولوا على كرسيهم بمراكش

وكذا بنو مرين من زناتة خرجوا على الموحدين فمكثوا يطاولونهم نحوًا من ثلاثين سنة ، واستولوا على فاس واقتطعوها وأعمالها من ملكهم . ثم أقاموا فى محاربتهم ثلاثين أخرى ، حتى استولوا على كرسيهم بمراكش . حسبما نذكر ذلك كله فى تواريخ هذه الدول .

فهكذا حالُ الدول المستجدّة مع المستقرّة فى المطالبة والمطاولة . سنة الله فى عباده ؛ ولن تجد لسُنّةِ الله تبديلا

ولا يُعارَض ذلك بما وقع فى الفتوحات الاسلامية وكيف كان استيلاؤهم على فارس والروم لثلاث أو أربع من وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ؛ واعلم أن ذلك إنما كان معجزة من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم ؛ سِرُّها استماتةُ المسلمين فى جهاد عدوهم استبصارًا [(١)] بالإيمان ، وما أوقع الله فى قلوب عدوهم من الرعب والتخاذل . فكان ذلك كله خارقًا للعادة المقرّرة فى مطاولة الدول المستجدّة للمستقِرّة. وإذا كان ذلك خارقًا فهو من معجزات نبينا ، صلوات الله عليه ، المتعارف ظهورُها فى الملّة الإسلامية . والمعجزات لا يقاس عليها الأمور العادية ، ولا يُعترَض بها . والله سبحانه وتعالى أعلم ، وبه التوفيق .

---

(١) هى دولة الأخشيد التى كان أول سلاطينها محمد بن طغج الأخشيد ، وقد ظلت هذه الدولة تحكم مصر نحو ست وثلاثين سنة (من ٣٢٣ ﻫ إلى ٣٥٨ ﻫ) .

(٢) كان هذا سنة ٣٠١ ﻫ ، ولم يتم للفاطميين الاستيلاء على مصر الا سنة ٣٥٨ ﻫ أنظر : الكندى ، وأبا المحاسن ، والمقريزى ، وابن الأثير .

(١) فى جميع النسخ : « استبعاداً » وهو تحريف .

٥١ ـ فصل فى وفور العمران آخرَ الدولة وما يقع فيها من كثرة المَوَتان(١) والمجاعات .

أعلم أنه قد تقرر لك فيما سلف (٢) أن الدولة فى أول أمرها لا بدّ لها من الرفق فى مَلَكتها والاعتدال فى إيالتها ؛ إما من الدِّين إن كانت الدعوة دينيةً ، أو من المكارمةِ والمحاسَنَة التى تقتضيها البداوةُ البيعيّةُ للدول . وإذا كانت المَلَكَةُ رفيقةً محسنةً انبسطت آمالُ الرَّعايا ، وانتشطوا للعمران وأسبابه فتوفر ، ويكثر التناسل . وإذا كان ذلك كلّه بالتدريج فإنما يظهرُ أثره بعدَ جيلٍ أو جيلَين فى الأقل . وفى انقِضاء الجيلَيْن تشرفُ الدّولة على نهاية عمرها الطبيعى . فيكون حينئذ العمرانُ فى غاية الوفورِ والنَّماء . ولا تقولَنَّ إنه قد مرّ لك (٣) أن أواخر الدّولةِ يكونُ فيها الإجْحاف بالرعايا وسوءُ المَلَكَة ، فذلك صحيحٌ ، ولا يُعارِض ما قلناه ؛ لأن الإجحافَ وإن حدث حينئذ وقلّت الجبايات فإنما يظهر أثرهُ فى تناقُص العمرَان بعد حين ، من أجل التَّدريج فى الأُمورِ الطَّبيعية . ثم إن المجاعاتِ وَالمَوَتانَ تكثرُ عند ذلك فى أواخر الدول . والسبب فيه :

أما المجاعاتُ : فلقبْض الناس أيديهم عن الفَلْح فى الأكْثر ، بسبب ما يقعُ فى آخر الدولة من العدْوان فى الأَموَال والجبَايات ، أو الفتنِ الواقعة فى انتقاض الرَّعايا وكثرةِ الخوارج لهَرَم الدولة ، فيقل احتكارُ الزرع غالبًا ؛ وليس صلاح الزرْع وثمرته بمستمرِّ الوجود ، ولا على وَتيرة واحدة ، فطبيعةُ العالم فى كثرةِ الأمطار وقلتها مُختلفة ؛ والمطرُ يقوى ويضعف ويقل ويكثر ، والزَّرعُ والثمارُ والضرع على نسبته ، إلا أن الناس واثقونَ فى أقواتِهم بالاحْتكار . فإذا فُقد الاحتكار عظم توقُّع الناس للمجاعات ، فغلا الزرعُ ، وعجز عنه أولوالخَصَاصَة فهلَكوا . وكان (١) بعضُ السنوات ، والاحتكار مفقودٌ ، فشمل الناسَ الجوعُ .

وأما كثرة المَوَتان : فلها أسبابٌ من كثرة المجاعاتِ كما ذكرناه ، أو كثرةِ الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهَرْج والقتل ، أو وقوعُ الوَبَاء ؛ وسببه فى الغالب فَسادُ الهواء بكثرة العُمرَان لكثرةِ مايخالطُه من العَفَن والرطوبات الفاسدةِ . وإذا فسدَ الهواءُ وهو غذاءُ الروح الحيوانى ومُلابِسُهُ دائماً فيسرى الفسادُ إلى مِزَاجه . فان كان الفسادُ قوياً وقع المرضُ فى الرِّئة . وهذه هى الطَّواعين وأمراضها مخصوصةٌ بالرئة . وإن كان الفسادُ دون القوى والكثير فيكثر العَفَن ويتضاعف ، فتكثر الحميَاتُ فى الأَمزجة وتمرض الأَبدان وتهلك . وسبب كثرة العَفَن والرطوبات الفاسدة فى هذا

(١) الموتان بفتحتين الموت ، وهو كذلك مصدر ماتت الأرض موتاناً أى خلت من العمارة والسكان .

(٢) فى الفصل الرابع والعشرين من هذا الباب ، وعنوانه : فصل فى أن إرهاف الحد مضر بالملك ومفسد له فى الأكثر وفى الفصل الثالث والأربعين من هذا الباب ، وعنوانه : « فصل فى أن الظلم مؤذن بخراب العمران » .

(٣) فى الفصل السابع والأربعين من هذا الباب ، وعنوانه : « فصل فى كيفية طروق الخلل بالدولة » ، وقد عرض كذلك لهذه الحقيقة نفسها فى الفصل الثالث والأربعين من هذا الباب .

(١) « كان » هنا تامة بمعنى حصل ، و « بعض » فاعل كان ؛ وجملة « والاحتكار مفقود » جملة حالية ، والواو فيها للحال لا للعطف .

كله كَثرة العمران ووفوره آخرَ الدولة ، لما كان في أوائلها من حسن الملَكة ورفقتها وقلة المَغْرَم ، وهو ظاهر . ولهذا تبيَّن فى موضعه من الحكمةِ أن تخلُّل الخَلاَء والقَفْربين العمران ضروريٌّ ، ليكون تموج الهَوَاء يذهب بما يحصل فى الهواء من الفساد والعَفَن بمخالطَة الحيوانَات ، وياتى بالهواءالصحيح ولهذا أيضاً فان المَوَتان يكون فى المدن الموفورَة العمْران أكثرَ من غيرها بكثيرٍ ، كمصر بالمشرق وفَاس بالمغرب . والله يقدِّر مايشاء .

٥٢ ـ فصل فى أن العمران البشرى لابدله من سياسة ينتظم بها أمره

اعلم أنه تقدم لنا فى غير موضع أن الاجتماع للبشَر ضرورىٌ (١) ، وهو معنى العمران الذى نتكلم فيه ، وأنه لابدَلَهم فى الاجتماع من وَازعٍ حاكم يرجعون إليه . وحكمهُ فيهم : تارةً يكون مستنداً إلى شرع منزل من عند الله يوجب انقيادَهم إليه إيمانُهم بالثَّواب والعقاب عليه الذى جاء به مبلِّغُه ؛ وتارةً إلى سياسة عقلِّية يوجب انقياد إليهاما يتوقعونه من ثوابِ ذَلك الحاكم بعدمعرفَته بمصالحهم . فالأولى يحصلُ نفعُها فى الدُّنيا والآخرة لعلْم الشَّارع بالمصالح فى العاقبَة ، ولمراعاته نجاةَ العباد فى الآخرة ؛ والثَّانية إنما يحصلُ نفعُها فى الدنيا فقط .

وماتسمعُه من السِّياسة المدنة فليس من هذَا الباب ، وإنما معناه عندَ الحكماء مايجبُ أن يكون عليه كل واحدٍ من أهل ذلك المجتَمع فى نفسه وخَلْقه حتى يستغنُوا عن الحكّام رأساً : ويسمون المجتَمعَ الذى يحصلُ فيه ما يسمى من ذلك «بالمدينة الفاضلة » ؛ والقوانينَ المراعاةَ فى ذلك « بالسياسة المدنية » (١) وليس مرادهم السِّياسَةَ التى يحْمَل عليها أهلُ الاجتماع بالمصالح العامة ؛ فان هذه غير تلك . وهذه المدينةُ الفاضِلَة عندهم نادرة أو بعيدة الوقوع ، وإنما يتكلمون عليها علَى جهة الفرض والتقدير .

ثم إن السِّياسة العقلِية التى قدَّمناهَا تكونُ على وجْهين :

أحدهما يراعى فيها المصالح على العموم ومصالح السُّلْطان فى استقامَةِ ملْكِه على الخصُوص . وهذه كانت سياسةَ الفُرس وهى علَى جهَة الحِكمة . وقد أغنانا الله تعالى عنها فى الملَّة ولعهد الخلافة ؛ لأن الأحكام الشرعيَّة مُغْنيةٌ عنها فى المصالح العامَّة والخاصَّة والآداب ، وأحكام الملك مندرجة فيها .

الوجه : الثانى أن يراعى فيها مصلحة السلطان وكيفَ يستقيم له الملك مع القهر والاستِطالة ، وتكونُ المصالح العامة فى هذه تبعًا . وهذه السيَاسَة التى يحملُ عليها أهلُ الاجتمَاع التى لسائِر الملُوكِ فى العالَم من مسلم وكافر (٢) : إلا أن ملوك المسلمين يجرون منها على ماتقتضيه الشريعة الإسلامية بحسَب جهدهم ؛ فقوانينها إذًا مجتمعةٌ

(١) انظر فى المقدمة الأولى من الكتاب الأول وعنوانها « المقدمة الأولى فى أن الاجتماع الإنسانى ضرورى » .

(١) يشير بذلك على الأخص إلى آراء أفلاطون فى كتابه « الجمهورية » وإلى آراء الفارابى فى كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة » انظر : فصول من آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى بقلم د. وافى .

(٢) استبدل بكلمة « وكافر » كلمة « وغيره » فى طبعة دار الكتاب اللبنانى مجاملة لنصارى لبنان .

من أحكام شرعيَّة ، وآداب خُلُقية ، وقوانينَ فى الاجتماع طبيعيَّة ، وأشياء من مراعاة الشوكة والعصبيَّة ضروريَّة ؛ والاقتداءُ فيها بالشرع أوَّلا ، ثم الحكماء فى آدابهم والملوك فى سيرهم ؛ ومن أحسن ماكتب فى ذلك وأُودع كتابُ طَاهِرِ بن الحُسَيْن لابنه عبدِ الله بنِ طَاهِرٍ لما ولاه المأمونُ الرَّقَّة ومصر وما بينهما . فكتب إليه أبوه طاهر كتابَه المشهورَ عهدَ إليهِ فيهِ ووصَّاه بجميع مايحتاج إليه فى دولتِه وسلطَانه من الآداب الدينيَّة والخلقيَّة ، والسياسَة الشرعيَّة والملوكيَّة ، وحثَّهُ على مكارِم الأخلاق ومحاسن الشِّيم بما لا يستغنى عنه ملكٌ ولا سُوقةٌ . ونص الكتاب :

«بِسْم اللهِ الرَّحمن الرَّحيم : أما بعد فعليكَ بتقوىَ اللهِ وحدَه لا شريكَ له وخَشْيتِه ، ومُراَقبته عزّ وجل ، ومزايلةِ (١) سُخْطه . واحفظْ رعيتك فى اللَّيلِ والنَّهار . والزَم ما ألبسَكَ الله من العَافيةِ بالذِّكرِ لمعَادكَ وما أنتَ صائِرٌ إليه وموقوفٌ عليه ومسئُولٌ عنه ، والعمل فى ذلك كلِه بما يعصمُكَ من اللهِ عزّ وجلّ وينجّيكَ يومَ القيامَةِ ن عقابه وأليم عذابه . فإن الله سبحانه قد أحسنَ إليكَ وأوجبَ الرَّأفةَ عليكَ بمَن استَرْعاك أمرَهم من عِباده ، وألزمكَ العدْل فيهم ، والقيامَ بحقهوحدوده علَيهم ، والذبَّ عنهم ، والدفعَ عن حَرِيمهم ومنْصِبهم والحقْنَ لِدمَائِهم ، والأمنَ لسرْبهم ، وإدخالَ الراحم علَيهم . ومؤاخِذكَ بما فرضَ عليكَ ، ومُوقِفكَ عليه ، وسائلُكَ عنْه ، ومُثيبُكَ عليه بما قدمت وأخرت . ففرِّغ لذلك فهمَك وعقلك وبصرَك ولا يشغلك عنه شاغِل ، وإنه راس أمرِك ومِلاكُ شأنِك ، وأول ما يُوَفِّقُكَ الله عليه . وليكن أوَّلُ ما تُلزم به نفسَك وتَنْسبُ إليه فعلَكَ المواظَبةَ على مافرض الله عز وجل عليك من الصَّلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قبَلَكَ ، وتُوقعها على سنَنها ، من اسبَاغ الوضُوء لها وافتتاح ذكر الله عز وجل فيها ورتِّل فى قِرَاءتِك ، وتمكَّن فى ركُوعِك وسجُودك وتَشَهُّدك ، ولتَصْرِفَ فيه رأيَك ونيتَك ، واحضُضْ علَيه جماعةً ممن معك وتحتَ يدك ، وآداب علَيها ، فإنها كما قال الله عز وجل : «تنْهَى عَن الفَحْشَاء والمنْكَر (١)» .

«ثم أتبَع ذَلِكَ بالأَخْذِ بسنَن رسُول الله صلى الله عليه وسلم ، والمثَابَرةِ على خَلائقِه ، واقْتفاء أثر السَّلفِ الصَّالح من بعده . وإذا وردَ عليك أمرٌ فاستعن عليه باسْتِخَارَة الله عزّ وجل وتقواه ، وبلزوم ما أنزل الله عزّ وجلّ فى كِتابه من أمره ونهْيه وحلاَله وحَرامه ، وأتِمَام ما جاءت به الآثارُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم قُمْ فيه بالحقِّ لله عز وجل . ولا تميلَنَّ عن العدْل فيا أحببتَ أو كرهتَ لقريب من النَّاس أو لبعيد » .

«وآثِر الفِقهَ وأهلَه ، والدينَ وحمَلَته وكتابَ الله عز وجل والعاملين به ؛ فإن أفضلَ ما يتزيَّنُ به المرءُ الفِقهُ فى الدِّين ، والطلبُ له والحثُّ عليه والمعرفةُ بما يتقرَّب به إلى اللهِ عزّ وجل ، فإنه الدَّليل على الخيرِ ، كلِّه ، والقائدُ إليه والآمرُ به ، والنَّاهى عن المعاصى والموبقات

(١) يعنى الابتعاد عنه .

(١) فقرة من آية ٤٥ من سورة العنكبوت .

كلّها . ومع توفيق الله عزّ وجل يزدادُ المرءُ معرفةً وإجلالًا له ودَرَكًا للدرجاتِ العُلَى فى المَعادِ ، مع مَا فى ظُهورِه للنـاس من التَوْقِير لأَمرِكَ والهيبَة لِسلطانِك ، والأَنَسة بك والثقةِ بعدْلك » .

«وعلَيكَ بالاقتصادِ فى الأُمورِ كلِّها فليس شىء أبين نفعًا ، ولا أخصّ أمنًا . ولا أجمع فضلًا منه ، والقصدُ داعيةٌ إلى الرّشد ، والرّشد دليلٌ على التوفيق . والتّوفيقُ قائدٌ إلى السّعادة ، وقِوامُ الدِّين والسنن الهادِية بالاقتِصاد فآثِرْه فى دنياك كلها » .

«ولا تقصر فى طلب الآخرة والأَجْرِ والأَعمالِ الصّالحة والسنن المعرُوفَة ومعالِم الرشد والإعانة ، والاستكثارِ من البِرِّ والسّعى له إذا كان يطلبُ به وجهُ الله تعالى ومرْضَاته ، ومرافقة أولياء الله فى دارِ كرامته . واعلم أَن القصدَ فى شأْن الدنيا يورثُ العزّ ويمحّصُ من الذّنوب ، وأنكَ لن تحوطَ نفسَكَ من قائِل ولا تنصَلحُ أُمورك بأَفضَل منه ، فأْتِه واهتَدِ به تتمَّ أُمورُك وتزد مقدرتُك وتصلح عامّتك وخاصّتك . وأَحسنْ ظنَّك بالله عز وجل تستقِمْ لك رعيّتك ، والتمِس الوسيلَةَ إليه فى الأُمُورِ كلّها تستدِمْ به النّعمةَ عليكَ » .

«ولَا تتهمنّ أحدًا من الناس فيما تُوليه من عمَلِك قبلَ أن تكشِفَ أمره ؛ فإن إيقاعَ التهم بالبُرَآء والظنونَ السيئة بهم آثمٌ . فاجعـلْ من شأْنِك حسنَ الظَن بأَصحابِك ، واطردْ عنكَ سوء الظّن بهم . وارفُضه يُعِنْـك ذلك على استِطَاعتهم ورِيَاضتهم . ولا تَتّخِذَن عدوّ الله الشيطانَ فى أَمرِك معمدًا ؛ فإنه يكتَفى بالقليل من وَهَنك ويدخل عليكَ من الغَمِّ بسوءِ الظن بهم ماينتقِصُ لذاذةَ عيشكَ . واعلم أَنَّك تجد بحسْن الظَّن قوة وراحة . وتكتفى به ماأَحببتَ كفايته من أُمورِك ، وتدْعو النّاس إلى محبّتك والاستِقَامة فى الأُمورِ كلِّها . ولا يمنعْكَ حسنُ الظن بأَصْحابِكَ ، والرأفة برعيّتك ، أن تستعمِلَ المسأَلَةَ والبحثَ عن أُمورِكَ . والمبـاشَرةُ لأُمور الأَولِيَاء وحياطَةَ الرعيَّة والنظرُ فى حوائجهم ، وحملُ مؤونَاتهم ، أيسرُ عندك مما سوى ذلك ؛ فإنه أقومُ للدين وأحيىَ للسّنة » .

«وأَخلِص نيّتك فى جميع هذا ، وتفرَّد بتقويم نفسِك تفرُّدَ من يعلم أنه مسئولٌ عما صنع ، ومَجْزِىّ بما أَحسن ، ومُؤَاخذٌ بما أساء . فإن الله عز وجل جعل الدين حرزًا وعزًا ، ورفع من اتبعه وعزَّزه » .

«واسلُكْ بمن تسوسُه وترعاهُ نهجَ الدِّينِ وطريقَه الأَهدى . وأَقِم حدُودَ اللهِ تعالى فى أَصحَابِ الجرائم على قدْر منازِلهم وما استحقُّوه ، ولا تعطِّلْ ذلك ولا تتهاونْ به ، ولا تؤخِّر عقوبةَ أَهلِ العقوبة ، فإن فى تفريطِكَ فى ذلك مايفسدُ عليك حسنَ ظنِّك . واعتزم على أَمْرك فى ذلك بالسنن المعروفَة ، وجانِب البدعَ والشُّبهاتِ يسلمْ لك دِينك وتتم لك مُروءَتك » .

«وإذا عاهدتَ عهدًا فأَوفِ به ، وإذا وعدتَ الخيرَ فأَنجزه . واقبِلْ الحسنة وادفع بها . واغمض عن عيبِ كلِّ ذى عيب من رعيّتك . واشدد

لسانك عن قول الكذب والزور ، وابغض أهل النميمة ؛ فإن أول فساد أمورك فى عاجلها وآجلها ، تقريب الكذوب والجــراءة على الكذب ؛ لأن الكذب رأس المآثم . والزور والنميمة خاتمها ، لأن النميمة لا يسلم صاحبها . وقائلها لا يسلم له صاحب ولا يستقيم له أمر . وأحبب أهل الصلاح والصدق ، وأعز الأشراف بالحق ، وأعن الضعفاء وصل الرحم ؛ وابتغ بذلك وجه الله تعالى وإعزاز أمره ، والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة. واجتنب سوء الأهواء والجور ، واصرف عنهما رأيك ، وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك . وأنعم بالعدل سياستهم وقم بالحق فيهم . وبالمعرفة التى تنتهى بك إلى سبيل الهدى . وأملك نفسك عند الغضب ، وآثر الحلم والوقار . وإياك والحدة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله » .

« وإياك أن تقول أنا مسلط، أفعل ما أشاء ؛ فإن ذلك سريع إلى نقص الرأى وقلة اليقين بالله عز وجل . وأخلص لله وحده النية فيه واليقين به . واعلم أن الملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء . ولن تجد تغير النعمة وحلول النقمة إلى أحـد أسرع منه إلى جهلة النعمة من أصحاب السلطان ، والمبسوط لهم فى الدولة إذا كفروا نعم الله وإحسانه ، واستطالوا بما أعطاهم الله عز وجل من فضله » .

ودع عنك شره نفسك ولتكن ذخائرك وكنوزك التى تدخر وتكنز البر والتقوى ، واستصلاح الرعية ، وعمارة بلادهم والتفقد لأمورهم ، والحفظ لدمائهم ، والإغاثة لملهوفهم » .

« واعلم أن الأموال إذا اكتنزت وادخرت فى الخزائن لاتنمو ، وإذا كانت فى صلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكف الأذية عنهم نمت وزكت ، وصلحت بها العامة ، وترتبت بها الولاية ، وطاب بها الزمان ، واعتقد فيها العز والمنفعة . فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال فى عمارة الإسلام وأهله ، ووفر منه على أولياء أمير المومنين قبلك حقوقهم ، وأوف من ذلك حصصهم ، وتعهد ما يصلح أمورهم ومعاشهم ؛ فإنك إذا فعلت ذلك قرت النعمة لك ، واستوجبت المزيد من الله تعالى ، وكنت بذلك على جباية أموال رعيتك وخراجك أقدر ، وكان الجميع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلس لطاعتك . وطب نفسا بكل ما أردت ، وأجهد نفسك فيما حددت لك فى هذا الباب ، وليعظم حقك فيه . وإنما يبقى من المال ما أنفق فى سبيل الله وفى سبيل حقه . واعرف للشاكرين حقهم وأثبهم عليه . وإياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة فتتهاون بما يحق عليك ، فإن التهاون يورث التفريط ، والتفريط يورث البوار . وليكن عملك لله عز وجل وفيه ، وارج الثواب منه ، فإن الله سبحانه قد أسبغ عليك فضله . واعتصم بالشكر ، وعليه فاعتمد ، يزدك الله خيرا وإحسانا فإن الله عز وجل يثيب بقدر شكر الشاكرين وإحسان المحسنين » .

« ولا تحقرن ذنبا ، ولا تمالئن حاسدا ،

ولا ترحمن فاجرًا ، ولا تَصِلَنّ كفورًا ولا تُدَاهِنَنّ عدوًا ، ولا تصدقن نمامًا ، ولا تأمَنَنّ غدارًا ، ولَا تُوالِيَن فاسقًا ، ولا تتبعن غاويًا ، ولا تحمدَن مرائيًا ، ولا تحقّرَنّ إنسانًا ، ولا تردنّ سائلا فقيرًا ، ولا تحسّنن باطلًا ، ولا تلاحظن مضحكًا ، ولا تخلفن وعدًا ، ولا تزهُوَنّ فخرًا ، ولا تظهرن غضبًا ، ولا تباينَنّ رجاءً ، ولا تمْشين مرحا ، ولا تزَكّين سفيهًا ، ولا تفرّطن فى طلَب الآخرةِ ، ولا ترفعنّ للنّمام عينًا ، ولا تغمضن عن ظالِمٍ رهبةً منه أو محاباةً ، ولا تطلبَنّ ثوابَ الآخِرَة فى الدّنيا » .

« وأكثر مشاورة الفقهاء ، وآستعمل نفسك بالحلم ، وخذ عن أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة . ولا تدخلن فى مشورتك أهل الرّفه والبخل ولا تسمعن لهم قولا ، فإن ضررهم أكثر من نفعهم » .

« وليس شئ أسرعَ فسادًا لما استقبلتَ فيه أمر رعيّتك من الشُّحّ . وآعلم أنك إذا كنت حريصًا كنتَ كثيرَ الأخذِ قليلَ العطيّةِ ، وإذا كنتَ كذلك لم يستقمْ أمرُك إلا قليلاً ؛ فإن رعيّتكَ تعقد على محبّتك بالكفّ عن أموالِهم وترك الجَوْرِ عليهم . وَوَالِ من صافاكَ من أوّليائك بالإفضال عليهم وحُسنِ العطيّةِ لهم واجتَنِبْ الشُّحّ ، وآعلم أنه أول ما عصى الإنسانُ به ربّه ، وأن العاصى بمنزلة الخزى ، وهو قول الله عز وجل : « ومن يُوقَ شُحّ نفْسِه فأُولئكَ هُم المفلحُون[1] » . فسهِّل طرِيقَ الجُودِ بالحقّ ، واجعلْ للمسلمينَ كلهم فى فَيئِكَ حظًا ونصيبًا ، وأيقنْ أن الجودَ أفضلُ أعمَالِ العباد ، فأَعِدَّهُ لنفسك خلقًا وآرض به عملا ومذهبًا . وتفقّد الجندَ فى دَواوِينهم ومكاتِبِهم وأَدِرْ عليهم أرزاقهم ، ووسّعْ عليهم فى معايِشِهم ، يُذْهِب الله عز وجل بذلك فاقتَهم ، فيقوَى لكَ أمرُهم ، وتزيد قلوبُهم فى طَاعتِكَ وأمرِكَ خلوصًا وانشراحًا . وحسبُ ذِى السُّلطانِ من السَّعادةِ أن يكُون على جُنْدِه ورعيّته ذا رحمَةٍ فى عدله وعطيّته وإنصَافِه وعنَايته وشفَقَته وبره وتوسعته . فزايل مكرُوهَ أَحَدِ البابين باستِشعار فضل البَابِ الآخر ، ولزُوم العمَل به ، تلْقَ إن شاء الله تعالى به نجاحًا وصلاحًا وفلاحًا » .

«وآعلَم أن القضَاء من الله تعالَى بالمكَانِ الذى ليس فوقَه شئٌ من الأُمور ؛ لأنّه ميزان الله الذى تعدل عليه أَحوال النّاسَ فى الأَرض . وبإقامة العدل فى القضاء والعمل تصلح الرعية وتُؤْمَنُ السبل ، ويَنْتَصِف المظلوم ، وتأْخذ الناس حقوقهم ، وتحسن المعيشة ، ويؤَدّى حق الطاعة ، ويرزق الله العافية والسلامة ، ويقيم الدينَ ، ويُجْرى السُّننَ والشرائع فى مَجاريها . واشتد فى أمر الله عز وجل . وتَورّع عن النّطَف[1] . وآمضِ لإقَامَةِ الحدود . وأقلل العجَلَة ، وآبعد عن الضّجَر والقَلَق ، وآقْنَع بالقسَم ، وأنتفع بتجْرِبتَك ، وانتَبه فى صمْتك ، واسدُدْ فى منطقك ، وأنْصف الخصمَ ، وقِفْ

(١) آخر آية ١٦ من سورة التغابن .

(١) فى القاموس « نطف كفرح وعى نطفاً ونطافة ونطوفة : تلطخ بعيب ، واتهم بريبة ، وفسد » ؛ أى ابتعد عن كل مواطن الريب والشبهات .

عند الشُّبهة ، وأَبْلِغْ فى الحجة ، ولا يأْخذكَ فى أحد من رعيتك محاباةٌ ولا مجاملةٌ ولا لوْمةُ لائم ، وتثبت ، وراقبْ ، وانظر ، وتفكَّر ، وتدَّبر ، واعتبِر ، وتواضعْ لربك ، وارفق بجميع الرَّعية ، وسَلِّط الحقَّ على نفسك ، ولا تسرعَنَّ إلى سفْك دم ، فإن الدماء من الله عز وجل بمكان عظيم ، (فإياك)(١) انتهاكاً لها بغير حقِّها » .

«وانظر هذا الخَراجَ الذى استقَامتْ عليه الرعيةُ ، وجعلَه اللهُ للإسلاَم عزا ورفعة ، ولأهله توسعةً ومَنَعَة ؛ ولعدوه كبتاً وغيظاً ، ولأَهل الكفر من معَاديهم ذُلًّا وصغارا ، فوزِّعه بين أَصحابه بالحقِّ والعدلِ والتسويَة والعمُوم ، ولا تدفَعن شيأً منه عن شَريف لشَرفه . ولا عن غنى لغناه ، عن كاتِب لكَ ، ولا عن أحد من خاصَّتك ولا حاشيتكَ ، ولا تاخذَنَّ منه فوقَ الاحتمال له . ولا تكلِّف أمرا فيه شَطَطٌ . واحمل الناس كلَّهم على أمرِ الحق ، فان ذلك أجمع لألفتِهم وألْزَم لرضاء العامة » .

«واعلم أنك جُعلْتَ بولايتك خازناً وحافظاً وراعياً . وإنما سمى أهل عملك رعيتَك لأنك راعيهم وقيِّمهم ، فخذْ منهم ما أعطَوْكَ من عفوهم(٢) ونفذه فى قِوام أمرهم وصلاَحهم وتقويمِ أَوَدهم . واستعملْ عليهم أولِى الرَّأى والتدبير والتجربَة والخِبرة بالعلم والعدْلِ بالسياسة والعفاف . ووسع عليهم فى الرزق ؛ فان ذَلك من الحقوقِ اللاَزمة لك فيما تقلَّدت وأُسند إليك ، فلا يشغلك عنه شاغلٌ ولا يصرفُك عنه صارف . فإنك متى آثرتَه وقمتَ فيه بالواجِب استدعيتَ به زيادة النعمةِ من ربِّك ، وحسن الأُحْدَوثة فى عمَلك ، واستجررْتَ به المحبةَ من رعيتك ، وأعنتَ على الصلاح ، فدَرَّتْ الخيراتُ ببلدك ، وفشَت العمارةُ بناحيتك ، وظَهر الخِصب فى كُورِكَ(١) (٢) ، وكثر خراجُك وتوفرت أَموالك ، وقويْتَ بذلك على ارتِياضِ جندك ، وإرضَاء العامَّة بإفاضة العطَاء فيهم من نفسك ، وكنتَ محمودَ السياسة مرْضىَّ العدْل فى ذلك عند عدُوِّك ، وكنتَ فى أُمورك كلِّها ذا عدْل وآلَة وقوة وعُدَّة . فنافس فيها ولا تقدم عليها شيئاً تُحمَدْ عاقبة أمرك إن شَاءَ اللهُ تعالى » .

واجعَلْ فى كل كُورة من عَملِك أميناً يخبرك خَبَر عُمَّالك ويكتبْ إليك بِسِيرَهم وأعمَالِهم . حتى كأَنَّك مع كلِّ عاملٍ فى عملِهِ معايناً لأُمورِه كلها . وإذا أَردْتَ أن تأْمرهم بأمرٍ فانظر فى عواقب ما أردتَ من ذلك ، فإن رأَيت السَّلامةَ فيهِ والعافية ورجوتَ فيه حسن الدِّفاع والصنع فأَمْضِه ، وإلا فتوقَّف عنه ، وَراجعْ أَهل البَصَر والعلم به ، ثم خُذْ فيه عُدَته ؛ فإنه ربما نظر الرجل فى أمره وقد أتاهُ على ما يهْوى ، فأَغْواه ذلك وأعجَبه ؛ فإن لم ينظر فى عوَاقبه أهلكَهُ ، ونقض عليه أمره . فاستعمل الحزمَ فى كل ما أردت وباشِرْه بعد عون

(١) الكلمة بين القوسين ساقطة من جميع النسخ . وقد اثبتناها لتقويم العبارة .

(٢) عفو المال : ما يفضل عن النفقة .

(١) فى القاموس : الكورة : المدينة ، والصقع وجمعه كور .

الله عز وجلّ بالقوّة . وأكثر من استخارة ربّك في جميع أمورك » .

« وافرغ من عمل يومك ولا تؤخّره لغدك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فإن لغد أمورا وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذى أخرت . واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه . فإذا أخرت عمله اجتمع عليك عمل يومين فيشغلك ذلك حتى تمرض منه . وإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت بدنك ونفسك ، وجمعت أمر سلطانك » .

« وانظر أحرار النّاس وذوى الفضل منهم ممّن بلوت صفاء طويّتهم ، وشهدت مودّتهم لك ، ومظاهرتهم بالنّصح والمحافظة على أمرك ، فاستخلصهم وحلت عليهم الحاجة واحتمل موونتهم ، وأصلح حالها ، حتى لا يجدوا لخلّتهم منافرا[1] . وأفرد نفسك بالنّظر فى أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمته إليك ، والمحتقر الذى لا علم له بطلب حقه ، فسل عنه أحفى[2] مسألة وكل بأمثاله أهل الصّلاح فى رعيّتك ، ومرهم برفع حوائجهم وخلالهم[3] إليك لتنظر فيما يصلح الله به أمرهم . وتعاهد ذوى البأساء ويتامهم وأراملهم ، واجعل لهم أرزاقا من بيت المال اقتداء بأمير المومنين أعزه الله تعالى فى العطف عليهم والصّلة لهم ، ليصلح الله بذلك عيشهم ، ويرزقك به بركة وزيادة . وأجر للأضرّاء[1] من بيت المال ، وقدّم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره فى الجراية على غيرهم . وانصب لمرضى المسلمين دورا تأويهم وقوّاما يرفقون بهم ، وأطبّاء يعالجون أسقامهم ، وأسعفهم بشهواتهم ما لم يؤدّ ذلك إلى سرف فى بيت المال » .

« واعلم أن النّاس إذا أعطوا حقوقهم وأفضل أمانيّهم لم يرضهم ذلك ولم تطب أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى ولاتهم ، طمعا فى نيل الزّيادة وفضل الرّفق بهم . وربما تبرّم المتصفّح لأمور النّاس لكثرة ما يرد عليه ، ويشغل ذكره وفكره منها ما يناله به من مؤونة ومشقّة . وليس من يرغب فى العدل ويعرف محاسن أموره فى العاجل وفضل ثواب الآجل كالذى يستقل ما يقرّ به من الله تعالى وتلتمس به رحمته » .

« وأكثر الإذن للناس عليك وأرهم وجهك ، وسكّن لهم حواسك[2] واخفض لهم جناحك ، وأظهر لهم بشرك ، ولن لهم فى المسألة والنطق ، واعطف عليهم بجودك وفضلك ، وإذا أعطيت فأعط بسماحة وطيب نفس والتماس للصّنيعة والأجر من غير تكدير ولا امتنان ؛ فإن العطيّة على ذلك تجارة مربحة إن شاء الله تعالى » .

« واعتبر بما ترى من أمور الدّنيا ومن مضى من قبلك من أهل السّلطان والرّياسة فى القرون الخالية والأمم البائدة » .

---

(١) من معانى المنافرة المفاخرة (من القاموس) . وهذا المعنى هو المقصود فى هذه العبارة . أى حتى لا يجدوا من يتعاظم عليهم بسبب فقرهم .

(٢) يعنى : اهتم بأمره وبالغ فى رعايته .

(٣) يعنى هنا : الحاجة والفقر والخصاصة .

---

(١) فى القاموس : الأضراء ، جمع ضرير وهو الذاهب البصر وفى بعض النسخ « الأمراء » .

(٢) فى بعض النسخ : « وسكن حراسك » أى اجعلهم ساكنين حتى يدخل عليك من يريد لقاءك .

«ثم اعتصِمْ فى أحوالِك كلِّها بالله سبحانه وتعالى ، والوقوفِ عندَ محبتِه والعمل بشريعَتِهِ وسنَّته ، وبإقامة دينه و كتَابه ، واجتنِبْ ما فَارقَ ذلك وخَالفَه ودعا إلى سخطِ الله عز وجل » .

«واعرف ما يجمعُ عمَّالُك من الأموال ، وما ينفِقُون منها . ولا تجمع حَرامًا ، ولا تنفِقْ إسرافًا »

«وأكثِرْ مجالسةَ العلماء ومشاورتهم ومخالَطَتهم وليكنْ هواكَ اتباعَ السنن وإقامَتِهَا ، وإيثارَ مكارِمِ الأخلاق ومعَاليها . وليكنْ أكرمُ دخلائك وخاصَّتك عليكَ من إذَا رأى عيبًا لم تمنعه هيبَتُك من إنْهاء ذلِك إليكَ فى سِتر ، وإعلامِك بما فيه من النَّقص ؛ فإن أولئك أنْصحُ أوليائك ومظاهِرِيك » .

« وانظرْ عمَّالك الَّذين بحضْرَتِك وكُتَّابَك فوقِّت لكل رجل منهم فى كل يوْم وقتًا يدخلُ فيه بكُتبه ومؤامرته وما عِندَه من حَوائج عمَّالِ وأمورِ الدَّولة ورعيتِك . ثم فرِّغْ لما يورد عليك من ذَلك سمعَك وبصرَك وفهمك وعقْلَك ، وكرِّر النظر فيه والتدبُّر له ؛ فما كان موافقًا للحق والحزم فأمْضِه ، واستخر الله عزَّ وجل فيه ، وما كان مخالفًا لذلك فاصرفه إلى المسْألة عنه ، والتثَبُّت منه » .

«ولا تمننْ على رعيتك ولا غيرهم بمعروف تؤتيه إليهم . ولا تقبلْ من أحد إلا الوفاءَ والاستقَامة والعونَ فى أمور المسلِمينَ ، ولا تَضعَنَّ المعروفَ إلا علَى ذلك » .

« وتفهَّم كِتَابى إليكَ وأمعِن النَّظر فيه والعَملَ به ، واستعِن بالله علَى جميع أمورك واسْتَخِرْه ، فإن الله عزْ وجل مع الصَّلاح وأهله . وليكن أعظم سيرَتِك وأفعلُ رغْبَتِك ما كان لله عز وجل رضًا ، ولدينه نظامًا ، ولأهله عزًا وتمكينًا ، وللملَّة والذِّمة عدلاً وصلاحًا . وأنا أسأَلُ الله عزَّ وجلَّ أن يُحسِنَ عونَك وتَوْفيقَك ورشْدك وكَلاءتك والسلام » .

وحدث الأخباريُون أن هذَا الكتاب لما ظَهر وشَاع أمره أُعْجِبَ به الناس واتصلَ بالمأمون فلما قرىء عليه قال :

ما أبْقَى أبُو الطَّيب - يعنى طاهرًا - شيئًا من أُمورِ الدُّنيا والدِّين والتَّدبِيرِ والرَّأى والسِّيَاسةِ وصَلاح المُلْك والرعيَّة وحفْظِ السُّلطان وطاعةِ الخُلفاء وتقْويم الخِلاَفة إلا وقَد أحكمَه وأوصَى به .

ثم أمر المأمون فكتب به إلى جميع العُمال فى النواحى ليقْتدُوا به ، ويعْمَلُوا بما فيه ، هذا أحسنُ ما وقفْتُ عليه فى هذِه السِّياسة والله أعلم

٥٣ — فى أمر الفاطمى وما يذهب إليه الناس فى شأنه وكشف الغطاء عن ذلك

اعلم أنَّ المشهورَ بين الكافَة مِن أهل الإسلام على ممر الأعصارِ ، أنه لابد فى آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيِّد الدين ، ويُظهر العدلَ ، ويتبعه المسلمون ، ويَستوْلى على الممالك الإسلاميةِ ، ويُسمى بالمهدِىّ ؛ ويكون خُروجُ الدَّجّال وما بعدَه من أشراطِ السَّاعة - الثابتة فى الصحيح - على أثره ؛ وأن عيسَى ينزل من بعده فيقتل الدَّجَّالِ ، أوْ ينزل معه فيساعده على قَتله ، ويأتم بالمهدِىِّ فى صَلاته ويحتجُّون فى هذا الشأن بأحاديث خَرَّجها الأئمة وتكلم فيها

المنكِرُون لذلك ، وربما عارضُوها ببعض الأخبار .
وللمتصَوِّفَة المتأخرين فى أمر هذا الفاطمى طريقة أخرى ، ونوع من الاستدلال ؛ وربما يعتمدون فى ذلك على الكَشْفِ الذى هو أصل طَرائقهم .

ونحن الآن نذكر هنا الأحاديث الواردة فى هذا الشأن وما لمنكرين فيها من المطاعن ومالَهم فى إنكارِهم مَن المستند ، ثم نتبعه بذكر كَلاَم المتصوفة ورأْيهم ، ليبين لك الصحيح من ذلك إن شاء الله تعالى . فنقول :

إن جَماعةً من الأئمة خرجوا أحاديث المهدىّ منهم التزمذى وأبو داود والبزّار وابن ماجة والحاكم والطّبرانى وأبو يَعْلَى الموصلى، وأسندوها إلى جماعة من الصحابة مثل علىٍّ وابن عباس وابن عمَر وطلحةَ وابن مسعو وأبى هريرة وأنس وأبى سعيد الخدرى وأم حبيبة وأم سلمه وثوبان وقُرَّة ابن إيَاس وعلىٍّ الهلالى وعبد الله بن الحارث بن جَزْء ، بأسانيد ربما يعرض لها المنكرون كما نذكره إلا أن المعروفَ عند أهل الحديث أن الجَرْح مَقَدمٌ على التَّعديل . فاذا وجدنا طعناً فى بعض رجال الأسانيد بغفلَة أو بسُوء حفظ، أو سوء رأى تطرق ذلك إلَىَ صَّحة الحديث وأوهن منهاً . ولا تقولن : مثلُ ذلك ربما يتطرق إلى رجال الصَّحيحين [١] فان الإجماع قد اتصل فى الأمة على تَلَقِّيهما بالقبول والعمل بما فيهما ؛ وفى الإجماع أعظم حماية وأحسن دفع . وليس غير الصحيحين بمثابتهما فى ذلك ؛ فقد نجد مجالا للكلام فى أسانيدها بما نقل عن عن أئمة الحديث فى ذلك .

ولقد توغَّل أبو بكر بن أبى خيثمة ، على ما نقل السهيلى عنه ، فى جمعه للأحاديث الواردة فى المهدىّ فقال : ومن أغربها إسنادا ماذكره أبو بكر الإسْكَاف فى فوائد الأخبار ، مسندا إلى مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر عن جابر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من كذَّبَ بالمهدىّ فقدْ كفَر ومن كذَّب بالدَّجّالِ فقد كفَر» [١] . وقال فى طلوع الشمس من مغاربها مثل ذلك فيا أحسب . وحسبك هذا غلوا . والله أعلم بصحّة طريقة إلى مالك بن أنس . على أن أبا بكر الإسكافَ عندهم متَّهم وَضَّاعٌ [٢] .

وأما الترمذى فخرَّج هو وأبو داود بسنديهما إلى ابن عباس من طريق عاصم بن أبى النَّجود أحد القراء السبعة إلى زِرِّ بن حُبَيْش عن عبد الله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم : «لَوْ لَم يبقَ منَ الدُّنيا إلاّ يومٌ لطوَّل الله ذلِكَ اليومَ حتّى يبعثَ الله فيه رجُلاً منّى أَوْ من أَهْلِ بيْتِى يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسمى ، واسمُ أبيه اسمَ أبى » .. هذا لفظ أبى دواد وسكت عليه . وقال فى رسالته المشهورة : «إنّ ما سكت عليه فى كتابه فهو صالح» . ولفظ الترمذى : «لا تذْهبُ الدُّنيا حتى يملِكَ العربَ رجلٌ من أهل بيْتى يواطِئُ اسمه اسمى » ؛ وفى لفظ آخر : «حتَّى يلِى رجلٌ من أهلِ بيْتى» وكلاهما حديث حسن صحيح

(١) يعنى : البخارى ومسلم .

(١) فى بعض النسخ : « ومن كذب بالدجال فقد كذب » .
(٢) أى يكثر من وضع الأحاديث واختلافها .

ورواه أيضًا من طريق مقوفًا على أبى هريرة ، وقال الحاكم : رواه الثورى وشعبة وزائدة وغيرهم من أئمة المسلمين عن عاصم . قال : وطرق عاصم عن زرٍّ عن عبد الله كلها صحيحة على ما أصّلتُه من الاحتجاج بأخبار عاصم ، إذ هو إمام من أئمة المسلمين . انتهى .

إلا أن عاصماً قال فيه أحمد بن حنبل : كان رجلا صالحاً قارئاً للقرآن خيّرا ثقةً ، والأعمش أحفظ منه . وكان شعبة يختار الأعمش عليه فى تثبيت الحديث . وقال العِجلى : كان يُختلَف عليه فى زرٍ وأبى وائل ، يشير بذلك إلى ضعف روايته عنهما . وقال محمد بن سعد : كان ثقةً إلا أنه كثيرُ الخطأ فى حديثه . وقال يعقوبُ بن سفيان : فى حديثة اضطراب . وقال عبد الرحمن بن أبى حاتم : قلت لأبى إن أبا زرعة يقول : عاصمٌ ثقةٌ ، فقال : ليس محله هذا . وقد تكلّم فيه ابنُ علية فقال : كلُّ من آسمُه عاصمٌ سيِّي الحفظ . وقال أبو حاتم . محله عندى محل الصدق صالحِ الحديث ، ولم يكن بذلك الحافظ . واختلف فيه قول النسائى . وقال ابن حرَاش : فى حديثه نكرة . وقال أبو جعفر العقيلى : لم يكن فيه إلا سُوءُ الحفْظ . وقال الدَّارقُطْنى : فى حفظه شىءٌ . وقال يحيى القطان : ماوجدت رجلا اسمه عاصم إلاوجدته ردى الحفظ . وقال أيضاً سمعت شعبة يقول : حدثنا عاصم بن أبى النَّجود وفى الناس ، مافيها (١) . وقال الذهبى : ثَبَتٌ فى القراءة ، وهو فى الحديث دون الثَّبَتْ ، صُدوق فَهِم . وهو حسن الحديث . وإن احتج أحد بأن الشيخين أخرجا له ، فنقول أخرجا له مقرونًا بغيره لا أصلاً . والله أعلم .

وخرّج أبو دواد فى الباب عن على رضى الله عنه من رواية فطر بن خليفة عن القاسم بن أبى بُرة عن أبى الطفيل عن على عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «لوْ لم يبْقَ من الدَّهرِ إلا يومٌ لبعثَ الله رجلاً من أهلِ بيْتى يملوُهَا عدلاً كما مُلِئت جَوْرًا »

وفطر بن خليفة وإن وثَّقة أحمد ويحيى بن القطان وابن معين والنسائى وغيرهم ، إلا أن العَجلىّ قال : حسنُ الحديثِ وفيه تشَيُّعٌ قليل . وقال ابن معين مَرَّةً : ثقةٌ شِيعىٌّ . وقال أحمد بن عبد الله ابن يونس : كنا نمرُّ على فطر وهو مطروحٌ لانكتب عنه . وقال مَرَّةً كنتُ أمر به وأدعُه مثلَ الكلب وقال الدَّار قُطْنى : لا يحتج به . وقال أبو بكر بن عياش : ما تركْتُ الرواية عنه إلا لسُوء مذهبه . وقال الجرجانى : زائغٌ غير ثقة . انتهى .

وخرّج أبو داود أيضًا بسنده إلى على رضى الله عنه عن هرون بن المغيرة عن عمر بن أبى قيس ، عن شعيب بن أبى خالد ، عن أبى إسحق السَّبيعى قال : قال على ونظر إلى ابنه الحسن : «إن ابنى هذا سيِّدٌ كما سمّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيخْرجُ من صُلْبه رجل يسمى باسم نبيكم يشبهه

(١) لعل كلمة « الناس » محرفة عن كلمة « النفس » : أى وفى النفس من ناحيته وناحية الثقة بكلامة ما فيها .

فى الخُلُق ولا يشبهُه فى الخَلْق يملأ الأَرض عدلاً » .
وقال هرون : حدثنا عمر بن أبى قيس عن مُطَرِّف ابن طَرِيف عن أبى الحسن عن هلال بن عمر ، سمعت عليًا يقول ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : «يخرج رجلٌ من وراء النَّهر يقالُ له الحارثُ على مقدمته رجلٌ يقال له منصورٌ يوطِّىء أو يمكِّنُ لآل محمد كما مكنتْ قريشٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجَبَ على كلِّ مؤْمن نصرُه ، أو قال إجابتُه » .

سكت أبو داود عليه . وقال فى موضع آخر هرون : هو من وُلْد الشيعة وقال السليمانى : فيه نظر . وقال أبو داود فى عمر بن أبى قيس : لابأس به ، فى حديثه خطأ . وقال الذهبى : صَدُوقٌ [1] له أوهام . وأما أبو إسحق السَّبيعى وإن خرج عنه فى الصحيحين فقد ثبت أنه اختلط آخِرَ عمره ، وروايته عن علىٍّ منقطعة وكذلك رواية أبى داود عن هرون بن المغيرة. وأما السند الثانى فأبو الحسن فيه وهلال بن عمر مجهولان ، ولم يعرف أبو الحسن إلا من رواية مُطَرِّف بن طَرِيف عنه . انتهى .

وخرَّج أبو داود أيضًا عن أم سَلَمةَ وكذا ابن ماجة والحاكم فى المستدرك من طريق على بن نفيل ، عن سعيد بن المسِّيب عن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «المهدىُّ من وُلْد فاطِمة » . ولفظ الحاكم : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر المهدىَّ فقال : «نَعَمْ هو حقٌّ وهُو منْ بَنِى فَاطِمَة » .

(١) فى القاموس الصدق الصادق والكامل من كل شئ .

ولم يتكلم عليه بتصحيح ولا غيره ، وقد ضَعَّفَهُ أبو جعفر العقيلى وقال : لا يُتابَع على بن نفيل عليه ، ولا يعرَفُ إلا به .

وخَرج أبو داود أيضًا عن أم سلمة من رواية صالح بن الخليل عن صاحب عن أم سلمة قال : « يكون اختلافٌ عند موت خليفة ، فيخرج رجلٌ من أهل المدينة هاربًا إلى مكة ، فيأتيه ناسٌ من أهل مكة فيُخْرِجُونَه وهو كارِهٌ ، فيبايعونه بين الركْن والمقَام ، فيُبْعَثُ إليه بعث من الشام ، فيخسفُ بهم بالبيداء بين مكة والمدينةَ ، فإذا رأى النَّاسُ ذلك أتاه أبْدَالُ [1] أهل الشام ، وعصَائِبُ أهل العراق فيبايعونَه . ثم ينشأُ رجلٌ من قريش أخواله كلبٌ فيَبْعَثُ إليهم بعثًا فيظهرون عليهم وذلك بَعْثُ كلْبٍ والخيبةُ لمن لم يشهد غنيمةَ كلْب فيقسم المال ويعمل فى الناس بسنَّة نَبِيهم صلى الله عليه وسلم ويُلْقِى الإسلام بِجِرَانه [2] على الأَرض فيلبث سبعَ سنين » . وقال بعضهم : تسع سنين . ثم رواه أبو داود من رواية أبى خليل عن عبد الله بن الحارث عن أم سلمة فتبين بذلك المبهم فى الإسناد الأول . ورجاله رجال الصحيحين لا مطعنَ فيهم ولا مغمز .

وقد يقال : إنه من رواية قَتَادةَ عن أبى الخليل وقتادة مُدَلِّس . وقد عنْعَنَهُ والمدلس

(١) فى القاموس « الأبدال قوم بهم يقيم الله عز وجل الأرض ، وهم سبعون : أربعون بالشام ، وثلاثون بغيرها . لا يموت أحدهم إلا قام مكانه آخر من الناس .

(٢) الجران مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره . فإذا برك البعير ومد عنقه على الأرض قيل ألقى جرانه . والتعبير هنا كناية عن الاستقرار والتمكن .

لا يقبل من حديثه إلا ما صرّح فيه بالسماع . مع أن الحديث ليس فيه تصريح بذكر المهدى . نعم ذكره أبو داود فى أبوابه .

وخرّج أبو داود أيضًا وتابَعَه الحاكم عن أبى سعيد الخدرى من طريق عمران القطان عن قَتادة عن أبى بصرة عن أبى سعيد الخدرى قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المهدىّ منّى أجْلَى(١) الجبهة أقنى(٢) الأنف يملأ الأَرض قسطًا وعدلًا كما ملئت ظلمًا وجَوْرًا يملك سبع سنين » . هذا لفظ أبى داود وسكت عليه . ولفظ الحاكم : « المهدِىُّ منَّا أهلَ البيت ، أَشَمُّ الأَنف أقنى أجْلَى يملأ الأَرض قسطًا وعدلًا ، كما ملئت جَوْرًا وظلمًا ، يعيش هكذا ، وبَسطَ يساره وإصبعين من يَمينه السَّبابةَ والإبهام وعقد ثلاثة » قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم . ولم يُخَرِّجاه .

وعِمرانُ القطان مختلفٌ فى الاحتجاج به ، وإنما أخرج له البخارى استشهادًا لا أصلا . وكان يحيِى القطان لا يحدث عنه . وقال يحيى بن معين: ليس بالقوىّ ، وقال مرة : ليس بشىء . وقال أحمدُ بن حنبل : أرجو أن يكون صَالح الحديث. وقال يزيد بن زُرَيْع : كان حَرُوريا(٣) وكان يرى السيف على أهل القِبْلَة . وقال النسائى : ضعيف . وقال أبو عبيد الآجُرّى : سألت أبا داود عنه فقال من أصحاب الحسَن ، وما سمعت عنه إلا خيرا . وسمعته مرة أخرى ذكره فقال : ضعيفٌ أفتى فى أيام إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بفتوى شديدة فيها سَفْكُ الدِّماء .

وخرّج الترمذى وابن ماجة والحاكم عن أبى سعيد الخدرى من طريق زيد العمى عن أبى صديق الناحى عن أبى سعيد الخدرى قال : خشينا أن يكون بعض شىء حدث ، فسألنا نبى الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « إنَّ فى أُمّتى المهدِىَ يخرجُ ، يعيش خمسًا أو سبعًا أو تسعًا » ، زيد الشاكُّ قال قلنا : وما ذاكَ ؟ قال : « سِنين » قال : « فيجىءُ إليه الرجل فيقول يا مهدِىُّ أعطنى » . قال : « فيحْثُو له فى ثوْبِهِ ما اسْتَطاعَ أن يحْمِله » . لفظ الترمذى قال : هذا حديث حسن . وقد روى من غير وجه عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم . ولفظ ابن ماجه والحاكم : « يكونُ فى أمّتى المهدِىُّ إن قَصُر فسبع وإلا فتسعٌ ، فتَنْعَم أُمّتى فيه نعمةً لَم ينعمُوا بمثلهَا قطّ ، تُؤْتِى الأَرضُ أُكُلَها ولا يدخَرُ منه شَىءٌ . والمالُ يومئذ كُدُوسٌ(١) فيقوم الرجل فيقول : يا مهدى أعطنى ! فيقولُ خُذْ » . انتهى .

وزيد العمى وإن قال فيه الدَّارقُطْنى وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين : إنه صالح ، وزاد أحمد : إنه فوق يزيد الرقاشى وفضل بن عيسى ، إلا أنه قال فيه أبو حاتم : ضعيف ، يُكتب حديثه ولا يُحْتَجُّ به . وقال يحيى بن معين فى رواية أخرى :

---

(١) فى القاموس هو أجلى الجبهة واسعها .

(٢) فى القاموس : « قنا الأنف ارتفاع أعلاه واحديداب وسطه وسبوغ طرفه » .

(٣) الحرورية فرقة من الخوارج، ينسبون إلى « حروراء » قريه بقرب الكوفة كان بها أول اجتماع لهم .

(١) يعنى « كثير » ، يكدس بعضه فوق بعض .

لا شيء . وقال مَرَّةً : يُكتب حديثه ، وهو ضعيف. وقال الجرجانى : متماسك . وقال أبو زرعة : ليس بقوى واهى الحديث ضعيف . وقال أبو حاتم ليس بذاك ، وقد حدث عنه شعبة . وقال النسائى : ضعيف . وقال ابن عدى : عامة ما يرويه ومن يروى عنهم ضعفاء ، على أن شعبة قد روى عنه ، ولعل شعبة لم يرو عن أضعف منه .

وقد يقال إن حديث الترمذى وقع تفسيرًا لما رواه مسلم فى صحيحه من حديث جابر قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ويَكُونُ فى آخِرِ أُمّتِى خليفةٌ يحثو المالَ حثوًا لا يَعُدُّه عدًا » . ومن حديث أبى سعيد قال : « من خُلفَائِكم خليفةٌ يحثُو المالَ حثوًا » . ومن طريق أخرى عنهما قال : « يكونُ فى آخرِ الزَّمَان خليفةٌ يقسِمُ المالَ ولا يعدّه » انتهى . — وأحاديث مسلم لم يقع فيها ذكر المهدى ولا دليل يقوم على أنه المراد منها .

ورواه الحاكم أيضًا من طريق عوف الأعرابى عن أبى الصديق الناجى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لاتَقُومُ السّاعة حتّى تُملأَ الأرضُ جَوْرًا وظلمًا وعدوانًا ، ثم يخرجُ من أهْلِ بيْتِى رجلٌ يملؤها قِسْطا وعدْلًا كما مُلِئتْ ظُلمًا وعدوانًا » .

وقال فيه الحاكم : هذا صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرّجاهُ .

ورواه الحاكم أيضًا من طريق سليمان بن عبيد عن أبى الصديق الناجى عن أبى سعيد الخدرى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يخرجُ فى آخرِ أُمّتى المَهْدِىُّ يسْقِيه اللهُ الغَيْثَ ، وتُخْرِجُ الأَرضُ نَبَاتَها . ويعْطِى المَال صَحَاحًا ، وتكثُر الماشيةُ ، وتعظُم الأُمة ، يعيش سبعًا أو ثمانيا » يعنى حِجَجًا . وقال فيه : حديث صحيح الإسناد ولم يُخَرِّجاه . مع أن سليمان بن عبيد لَم يخرج له أحد من الستة . ولكن ذكره ابن حبّان فى الثقات . ولم يرد أن أحدًا تكلم فيه .

ثم رواه الحاكم أيضًا من طريق أسد بن موسى عن حماد بن سلمة عن مطر الوراق وأبى هرون العبدى عن أبى الصديق الناجى عن أبى سعيد أن رسول الله صلى الله عليه ورسلم قال : « تُملأُ الأرضُ جَوْرًا وظلمًا فيُخْرِج رجلٌ من عِتْرتى فيملكُ سبعًا أوتسعًا فيملأُ الأَرضَ عدْلًا وقِسطًا كما مُلِئتْ جَوْرًا وظلمًا » .

وقال الحاكم فيه : هذا حديث صحيح على شرط مسلم . وإنما جعله على شرط مسلم لأنه أخرج عن حماد بن سلمة وعن شيخه مطر الوراق . وأما شيخة الآخر وهو أبو هرون العبدى فلم يُخَرِّج له . وهو ضعيف جدًا متهم بالكذب ، ولا حاجة إلى بسط أقوال الأئمة فى تضعيفه .

وأما الراوى له عن حماد بن سلمة وهو أسد بن موسى ويلقب أسد السنة ، وإن قال البخارى : مشهور الحديث ، واستشهد به فى صحيحه واحتج به أبو داود والنسائى ، إلا أنه قال مرة أخرى : ثقة لو لم يُصَنِّف كان خيرًا له . وقال فيه محمد بن حزم : مُنْكَرُ الحديث .

ورواه الطبراني في معجمه الأوسط من رواية أبي الواصل عبد الحميد بن واصل عن أبي الصديق الناجي عن الحسن بن يزيد السعدى أحد بني بهدلة عن أبي سعيد الخدرى قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يَخرج رجلٌ من أُمّتي يقولُ بسنّتي، يُنْزِلُ اللهُ عزَّ وجل له القطرَ من السَّماء، وتُخرِجُ الأرضُ بركتَها، وتُملأُ الأَرضُ منه قسطًا وعدلا كما ملئت جوْرًا وظلمًا، يَعمل على هذه الأُمّة سبْعَ سِنينَ وينْزِلُ على بيْتِ المقْدِس».

وقال الطبراني فيه: ورواه جماعة عن أبي الصديق، ولم يُدْخِل أحد منهم بينه وبين أبي سعيد أحدًا إلا أبا الواصل، فإنه رواه عن الحسن ابن يزيد عن أبي سعيد. انتهى.

وهذا الحسن بن يزيد ذكره ابن أبي حاتم ولم يعرفه بأكثر مما في هذا الإسناد من روايته عن أبي سعيد، ورواية أبي الصديق عنه. وقال الذهبي في الميزان: مجهول. لكن ذكره ابن حبّان في الثقات وأما أبو الواصل الذى رواه عن أبي الصديق فلم يخرّج له أحد من الستة. وذكره ابن حبّان في الثقات في الطبقة الثانية، وقال فيه: يروى عن أنس وروى عنه شعبة وعتاب بن بشر.

وخرّج ابن ماجة في كتاب السنن عن عبد الله ابن مسعود، من طريق يزيد بن أبي زياد، عن إبراهيم عن علقمة، عن عبد الله قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ أقبل فتية من بني هاشم، فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذرفت عيناه وتغير لونه. قال فقلت مانزال نرى في وجهك شيئًا نكرهه. فقال: «إنَّا أهلَ البيْتِ اخْتارَ اللهُ لنا الآخِرَةَ على الدنْيا، وإنَّ أهْلَ بيْتى سَيلْقَونَ بعْدِى بَلاءً وتشريدًا وتطْريدًا، حتّى يأتِى قَوْمٌ من قِبَلِ المشْرِقِ معهم راياتٌ سودٌ، فيسألونَ الخيرَ فلا يُعْطَوْنَه، فيقاتلون ويُنْصَرون، فيُعْطَون ما سألُوا فلا يقْبَلُونَه، حتى يدفعُوهَا إلى رجُلٍ من أهل بيْتى فيملؤها قِسْطا كما ملئُوهَا جَوْرًا. فمن أدركَ ذلِك منكم فَليأتِهِم ولو حَبْوًا على الثَّلْج». انتهى.

وهذا الحديث يعرف عند المُحَدِّثين بحديث الرايات. ويزيد أبي زياد راويه، قال فيه شعبة: كان رفّاعًا، يعني يرفع الأحاديث التي لا تعرف مرفوعة. وقال محمد بن الفضيل: وكان من كبارِ أئمة الشّيعة. وقال أحمدُ بن حنبلٍ: لم يكن بالحافظ. وقال مَرَّةً: حديثه ليس بذلك. وقال يحيى بن معين: ضَعيفٌ. وقال العِجْليُّ: جائِزُ الحديث، وكان بِآخِرِه يلقن. وقال أبو زرعة: لَيِّنٌ يُكتب حديثه ولا يُحتجُّ به. وقال أبو حاتم: ليس بالقوى. وقال الجرجاني: سمعتهم يضعفون حديثه. وقال أبو داود: لا أعلم أحدًا ترك حديثه، وغيره أحب إلى منه. وقال ابن عدى: هو من شيعَةِ أهل الكوفة، ومع ضعفه يُكتب حديثه. وروى له مسلم لكن مقرونًا بغيره. وبالجملة فالأكثرونَ على ضعْفِه. وقد صرح الأئمة بتضعيف هذا الحديث، الذى رواه عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله وهو حَدِيثُ الرَّايَاتِ. وقال وكيع بن

الجراح فيه : ليس بشيء . وكذلك قال أحمد ابن حنبل . وقال أبو قدامة : سمعت أبا أسامة يقول فى حديث يزيد عن إبراهيم فى الرايات ، لوحلَفَ عندِى خمسين يمينًا قَسامَةً ماصدَّقتهُ ، أهذَا مذهبُ إبراهيم ، أهذا مذهبُ علقَمَة ؟ أهذَا مذهَبُ عبدِ الله ؟! . وأورد العقيلى هذا الحديث فى الضعفاء وقال الذهبى : ليس بصحيح .

وخرَّج ابن ماجة عن على رضى الله عنه من رواية ياسين العَجَلىِّ ، عن إبراهيم بن محمد بن الحنفيَّة عن أبيه عن جده قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المهْدِىُّ منَّا أهلَ البيْتِ يُصْلِحُ اللهُ به فى لَيْلَة » .

ويا سين العَجَلىُّ وإن قال فيه ابن معين :ليس به بأس ، فقد قال البخارى : فيه نظر . وهذه اللفظة من اصطلاحه قوية فى التضعيف جدًا .وأورد له ابن عدى فى « الكامل » والذهبىُّ فى « الميزان » هذا الحديث على وجه الاستنكار له ، وقال: هو معروف به .

وخرَّج الطبرانى فى معجمه الأوسط ، عن على رضى الله عنه ، أنه قال للنبى صلى الله عليه وسلم : أمِنَّا المهدِىُّ أم منْ غيرِنا يارسول الله ؟ فقال : « بلْ منَّا ، بنَا يختِمُ اللهُ كمَا بنَا فتَحَ ، وبنَا يُستَنقَذُونَ مِن الشِّرْكِ ، وبنَا يولِّفُ اللهُ بينَ قلُوبِهِم بعدَ عداوَةٍ بينة ، كما بِنَا ألَّفَ بَيْنَ قلوبهم بعد عداوةِ الشِّرك » . قال على : أمؤْمِنون أم كافرون ؟ قال : « مَفتُونٌ وكافِرٌ » . انتهى .

وفيه عبد الله بن لَهِيعَةَ وهو ضعيف معروف الحال . وفيه عمر بن جابر الحضرمى وهو أضعف منه . قال أحمد بن حنبل : روى عن جابر مناكير وبلغنى أنه كان يكذب . وقال النسائى . ليس بثقة ، وقال :كان ابن لَهِيعَةَ شيخًا أحمقَ ضعيفَ العقْلِ ، وكان يقول : علىٌّ فى السَّحابَ ، وكان يجلسُ معنا فيُبصِرُ سحابةً فيقول هذا علىٌّ قد مَرَّ فى السَّحابِ .

وخرَّج الطبرانى عن على رضى الله تعالى عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يكون فى آخرِ الزَّمان فتْنةٌ يحصلُ النَّاسُ فيها كَمَا يحصلُ الذَّهبُ فى المعْدِن فلا تسبُّوا أهلَ الشَّامِ ولكنْ سُبُّوا أشرَارهم فإنَّ فيهم الأبْدَالَ . يُوشِكُ أنْ يُرْسَلَ على أهلِ الشَّام صيِّبٌ من السَّماء فيفرق جماعتهم ، حتى لو قاتَلَتْهم الثعالِبُ غلبتهُم . فعندَ ذلكَ يخرجُ خارِجٌ من أهل بيتِى فى ثَلاث رَايات ، المكثِرُ يقولُ : هم خمسةَ عشَر ألفًا ، والمقلل يقول : هم اثنَا عشَرَ ألفًا ، وأمارَتُهم أمِتْ أمِتْ (١)، يلقون سبعَ رايات تحت كل راية منها رجلٌ يطلب المُلْك ، فيقتلَهم الله جميعًا ، ويردُّ الله إلى المسلِمينَ ألفَتهم ونعمتهم وقاصيتِهم ودانيتهم » اهـ .

وفيه عبد الله بن لَهِيعَة وهو ضعيف معروف الحال .

---

(١) كلمة « أمت أمت » كانت كلمة السر بين أفراد جيش المسلمين فى غزوة بدر يعرف بها بعضهم بعضاً ، وستكون كلمة السر بين أهل هذه الرايات – هذا وفى كثير من الأحاديث الخاصة بالمهدى يشبه أنصاره بأهل بدر ؛ سيأتى فى الحديث التالى أن عدتهم على عدة أهل بدر .

وورواه الحاكم فى المستدرك ، وقال : صحيح الإسناد ، ولم يخرّجاه . وفى روايته : ثم يظهرُ الهاشمىُّ فيردُّ الله النَّاسَ إلى أُلفتهم . الخ ، وليس فى طريقه ابن لَهِيعَة ، وهو إسناد صحيح كما ذكر .

وخرَّج الحاكم فى المستدرك عن على رضى الله عنه ، من رواية أبى الطفيل عن محمد بن الحنفية قال : « كنَّا عند علىٍّ رضى الله عنه ، فسأله رجلٌ عن المهدىِّ ، فقال علىٌّ : هيهاتَ . ثم عقد بيدِه سَبعًا ، فقال ذلك يخرجُ فى آخر الزَّمَان ، إذَا قالَ الرَّجلُ اللهَ اللهَ قُتِل . ويجمعُ الله قومًا قَزَعًا كقَزَعِ السَّحاب (١) ، يؤلفُ الله بينَ قلوبهم فلا يستوْحِشون إلى أحد ، ولا يفرَحُون بأحد دخل فيهم ، عِدَّتهم على عِدَّة أَهْلِ بدْرٍ ، لم يسبقهم الأوَّلُون ، ولايدْرِكُهم الآخرون ، وعلى عَددِ أصحاب طالوت الذين جاوزُوا معه النهر (٢) . قال أبو الطفيل ، قال ابن الحنفية أتريدُه ؟ قلت نعم ! قال فإنه يخرج من بين هذين الأَخْشَبين (٣) . قلتُ لا جرمَ والله ، ولا أدعهَا حتَّى أموتَ ، وماتَ بها يعنى مَكَّة » . قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين . انتهى .

وإنما هو على شرط مُسْلِم فقط ، فإن فيه عَمَّارًا الدُّهْنى ويونس بن أبى إسحاق ، ولم يُخَرِّج لهما البخارى ، وفيه عمرو بن محمد العَنْقَزِى ولم يخرِّج له البخارى احتجاجًا بل استشهادًا ، مع ما ينضم إلى ذلك من تشيُّعٍ فى عمار الدُّهْنىّ ، وهو وإن وثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم والنسائى وغيرهم ، فقد قال على بن المدينى عن سفيان : إن بشر بن مروان قطع عرقوبيه(١) قلت فى أى شىء قال : فى التشيع .

وخرَّجَ ابن ماجة عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى رواية سعد بن عبد الحميد ابن جعفر ، عن على بن زياد اليمامى ، عن عِكْرِمَة بن عَمَّار عن إسحاق بن عبد الله ، عن أنس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « نحن وُلْدَ عبد المطلب ساداتُ أهل الجنةِ ، أنا وحمزةُ وعلىٌّ وجعفرٌ والحسنُ والحسينُ والمهدِىّ » . انتهى .

وعِكْرِمة بن عَمَّار وإن أخرج له مسلم فإنما أخرج متابَعَة . وقد ضعّفه بعض ووثّقه آخرون . وقال أبو حاتم الرازى : هو مدلِّس فلا يقبل ، إلا أن يصرِّحَ بالسماع . وعلى بن زياد ، قال الذهبى فى الميزان : لاندرى من هو ؟ ثم قال : الصواب فيه عبد الله بن زياد . وسعد بن عبد الحميد وإن وثقه يعقوب بن أبى شيبة ، وقال فيه يحى بن معين ليس به بأس ، فقد تكلم فيه الثورى ، قالوا لأنه رآه يفتى فى مسائل ويخطىء فيها . وقال ابن حَبَّان كان ممن فحش عطاؤه فلا يحتج به . وقال أحمدبن حنبل : سعد بن عبد الحميد يدعى أنه سمع عَرْض كتب مالك والناس ينكرون عليه ذلك وهو ههنا

(١) القزع محركة : قطع من السحاب الواحدة بهاء . ، والمعنى يجتمع الناس إليه أفواجاً ويلتئم بعضهم ببعض .

(٢) الذين ورد ذكرهم فى قوله سبحانه : « فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر ... » الآية ٢٤٩ من سورة البقرة .

(٣) الأخشبان : جبلا مكة ، أبو قبيس ، والأحمر .

(١) هذا التعبير كناية عن التفانى فى الأمر .

ببغداد لم يحج ، فكيف سمعها ؟ وجعله الذهبي ممن لم يقدح فيه كلام من تكلم فيه .

وخَرَّج الحاكم فى مستدركه من رواية مجاهد عن ابن عباس موقوفا عليه ، قال مجاهد قال ابن عباس : لو لم أسمع أنك مثل أهل البيت ماحدثتك بهذا الحديث ، قال ؛ فقال مجاهد : فإنه فى ستر لا أذكره لمن يكره ! قال ، فقال ابن عباس « منا أهلَ البيت أربعة . منا السفاح ، ومنا المنذر ، ومنا المنصور ، ومنا المهدى » . قال : فقال مجاهد : بيّن لي هولاءِ الأربعة . فقال ابن عباس : « أما السفاح فربما قتل أنصاره وعفا عن عدوه ؛ وأما المنذر ، أراه قال ، فإنه يعطى المال الكثير ولا يتعاظم فى نفسه ، ويمسك القليل من حقه ؛ وأما المنصور فإنه يُعْطَى النصر على عدوه الشطرَ مما كان يُعطى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ويَرْهَب منه عدوُّه على مسيرة شهرين ، والمنصور يرهب منه عدوه على مسيرة شهر ؛ وأما المهدى فإنه الذى يملأُ الأَرض عدلًا كما ملئت جوْرا ، وتأْمن البهائمُ السباعَ ، وتلقى الأرض أفلاذ كبدها » . قال . قلت وما أفلاذُ كبدها ؟ قال : « مثال الأُسطوانة من الذهب والفضة » . ا هـ .

وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخرِجاه ، وهو من رواية إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر عن أبيه ؛ وإسماعيل ضعيف ؛ وإبراهيم أبوه وإن خَرّج له مسلم ' فالأكثرون على تضعيفه . ا هـ .

وخَرَّجَ ابن ماجة عن ثَوْبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقتتل عند كَنْزِكم ثلاثة كلهم ابن خليفة ، ثم لا يصير إلى واحد منهم ، ثم تطلع الرَّايات السُّود من قِبَل المشْرقِ فيقتلُونَهم قتلًا لم يقتلْه قومٌ » . ثم ذكر شيئًا لا أحفظه قال « فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبوًا على الثلج فإنه خليفة الله المهدى » ا هـ .

ورجاله رجال الصحيحين ؛ إلا أن فيه أبا قلابة الجرْمِي ، وذكر الذهبي وغيره أنه مُدَلِّس ؛ وفيه سفيان الثورى وهو مشهور بالتدليس ؛ وكل واحد منهما عنعن ولم يصرح بالسماع فلا يقبل ؛ وفيه عبد الرزاق بن همام وكان مشهورًا بالتشيع وعمى فى آخر وقته فخلط ؛ قال ابن عدى حدث بأَحاديث فى الفضائل لم يوافقه عليها أحد ، ونسبوه إلى التشيع . انتهى .

وخرَّج ابن ماجة عن عبد الله بن الحارث بن جَزْءِ الزبيدى من طريق بن لَهِيعَة عن أبى زرعة عمر بن جابر الحضرمى عن عبد الله بن الحارث ابن جَزْءٍ قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يخرجُ نَاسٌ من المشْرِق فيوطئُونَ للمَهْدِيِّ يعنى سلْطَانَهُ » .

قال الطبرانى تفرد به بن لَهِيعَةَ ، وقد تقدم لنا فى حديث على الذى خرجه الطبرانى فى معجمه الأَوسط أن ابن لَهِيعَة ضعيف وأن شيخه عمر بن جابر أضعف منه .

وخرَّج البزار فى مسنده والطبرانى فى معجمه الأَوسط واللفظ للطبرانى ، عن أبى هريره عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يكونُ فى أُمَّتى المهدِيّ إن قصُرَ فسبعٌ وإلا فثمَان وإلا فتسع ،

تنعمُ فيها أُمَّتِى نعمةً لم ينْعَمُوا بِمِثْلِها تُرْسَل السماءُ عليهم مدرارًا ، ولا تدَّخِرُ الأرض شيئًا من النَّباتِ ، والمالُ كدوسٌ يقومُ الرَّجل يقولُ يامهدِىُّ أعطِنى ، فيقولُ خُذْ » .

قال الطبرانى والبزَّار : تفرد به محمد بن مروان العَجَلى . زاد البزار ولا نعلم أنه تابعه عليه أحد ، وهو وإن وثَّقَهُ أبو داود وابن حبَّان أيضًا بما ذكره فى الثقات وقال فيه يحيى بن معين : صالح ، وقال مرَّةً : ليس به بأس ، فقد اختلفوا فيه : قال أبو زرعة : ليس عندى بذلك ، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : رأيت محمد بن مروان العَجَلىّ حدث بأحاديث وأنا شاهد لم نكتبها ، تركتها على عمد ، وكتب بعض أصحابنا عنه كأنَّه ضَعَّفَه .

وخرج أبو يَعْلَى المَوْصِلىُّ فى مسنده عن أبى هريرة ، قال : « حدثنى خليلى أبو القاسم صلى الله عليه وسلم وقال : لا تقومُ السَّاعةُ حتى يخْرجَ عليهم رجُلٌ من أهْلِ بيْتِى فيَضْرِبهُم حتى يرْجِعُوا إلى الْحقِّ . قال : قلْتُ وكم يمْلِك ؟ قال خمسًا واثنَتَينَ . قال قُلتُ ، وما خمسًا واثْنَتَينَ ؟ قال لا أدرى » اهـ .

وهذا السند ، وإن كان فيه بشير بن نَّهيك ، وقال فيه أبو حاتم لا يحتج به ، فقد احتج به الشيخان ووثَّقَهُ الناس ولم يلتفتوا إلى قول أبى حاتم لا يحتج به . إلا أن فيه رجاء بن أبى رجاء اليَشْكُرى ، وهو مختلف فيه . قال أبو زرعة : ثقة ، وقال يحيى بن معين : ضعيف ، وقال أبو داود : ضعيف ، وقال مَرَّةً : صالح . وعلَّق له البخارى فى صحيحه حديثًا واحدًا .

وخرَّجَ أبو بكر البزار فى مسنده والطبرانى فى معجمه الكبير والأوسط عن قُرَّة بن إياس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لتُمْلأنَّ الأرض جوْرًا وظلمًا ، فإذا ملئتْ جورًا وظلمًا بعث الله رجلًا من أمتى اسمه اسمى واسمُ أبيه اسم أبى يملؤها عدلًا وقسطًا كما مُلئت جورًا وظلمًا ، فلا تمنعُ السماءُ من قطرها شيئًا ولا تدخر الأرض شيئًا من نباتها . يلبثُ فيكم سبعًا أو ثمانيًا أو تسعًا » يعنى سنين اهـ .

وفيه داود بن المُحَبَّر بن قَحْذَم (١) . عن أبيه وهما ضعيفان جدًا .

وخرَّجَ الطبرانى فى معجمه الأوسط عن ابن عمر قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفرٍ من المهاجرينَ والأنصارِ ، وعلىّ بن أبى طالب عن يساره ، والعباسُ عن يمينه ، إذ تلاحى (٢) العبَّاسُ ورجلٌ من الأنصار ، فأغلظ الأنصارىُّ للعباسِ . فأخذ النبى صلى الله عليه وسلم بيد العباس وبيد علىٍّ وقال : « سيخرجُ من صلْب هذا فتى يملأُ الأرضَ جورًا وظلمًا ، وسيخرجُ مِن صلْب هذا فتى يملأُ الأرض قسطًا وعدلا . فإذ رأيتم ذلك فعليكم بالفتَى التَّميمىّ ، فإنه يُقبِلُ من قِبلِ المشرق وهو صاحبُ رايةِ المهدى » اهـ .

---

(١) ورد هذا الاسم محرفاً فى جميع النسخ وقد صوبه د. وافى عن « تهذيب التهذيب لابن حجر ج ٣ ص ١٩٩ » .

(٢) تلاحيا ، تشاتما .

وفيه عبد الله بن عمر العمرى وعبد الله بن لَهِيعَة وهما ضعيفان ا ه .

وخرج الطبرانى فى معجمه الأوسط عن طلحة ابن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ستكون فتنةٌ لا يسكنُ منها جانبٌ إلا تشَاجرَ جانبٌ ، حتى ينادى منَادٍ من السماء أن أميركم فُلان » ا ه .

وفيه المثنى بن الصباح وهو ضعيف جدا . وليس فى الحديث تصريح بذكر المهدى وإنما ذكروه فى أبوابه وترجمته استئناسًا .

• • •

فهذه جملة الآحاديث التى خرَّجها الأئمة فى شأن المهدى وخروجه آخرَ الزمان . وهى كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه .

وربما تمسك المنكرون لشأنه بما رواه محمد بن خالد الجندى عن أبان بن صالح بن أبى عَيَّاش عن الحسن البصرى عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا مهدِى إلاَّ عِيسى ابن مريم » .

وقال يحيى بن معين فى محمد بن خالد الجندى : إنه ثقة . وقال البيهقى : تفرد به محمد بن خالد . وقال الحاكم فيه : إنه رجل مجهولٌ واختلِفَ عليه فى إسناده : فمرة يروى كما تقدم وينسب ذلك لمحمد بن إدريس الشافعى ؛ ومرة يروى عن محمد بن خالد عن أبان عن الحسن عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلا . قال البيهقى فرجع إلى رواية محمد بن خالد وهو مجهولٌ ، عن أبان أبى عياش وهو متروك ، عن الحسن عن النبى صلى الله عليه وسلم وهو منقطع . وبالجملة فالحديث ضعيف مضطرب . وقد قيل فى « أنْ لَا مهْدِى إلا عِيسَى » أى لا يتكلم فى المهد إلا عيسى ، يحاولون بهذا التأويل رد الاحتجاج به ، أو الجمع بينه وبين الأحاديث ، وهو مدفوع بحديث جُرَيْج ومثله من الخوارق .

وأما المتصوِّفةُ فلم يكن المتقدمونَ منهم يخوضُون فى شىء من هذا ، وإنما كان كلامُهم فى المجاهَدَة بالأعمال وما يحصلُ عنها من نتائج المواجِدِ والأَحْوال وكان كلام الإماميَّة والرَّافِضَة من الشِّيعة فى تفضِيل علىٍّ رضى الله تعالى عنه والقول بإمامته وادعاء الوصية لهُ بذلك من النبىِّ صلى الله عليه وسلم والتَّبرى من الشيخين كما ذكرناه فى مذاهبهم [١] ثم حدث فيهم بعد ذلك القولُ بالإمام المعصُوم ، وكثرت التآليفُ فى مذاهبهم . وجاء الإسماعيليَّة منهم يدّعون ألوهية الإمام بنوع من الحُلول ؛ وآخرون يدعون رَجْعَةَ من مات من الأئمة بنوع التَّناسُخ ، وآخرون منتظِرون مجىء من يقطع بموته منهم ؛ وآخرون منتظِرُون عودَ الأمر فى أهل البيت مستدلين على ذلك بما قدمناه من الأحاديث فى المهدى وغيرها .

ثم حدث أيضًا عند المتأخرين من الصوفية الكلامُ فى الكشف وفيما وراء الحس . وظهر من كثير منهم القول على الإطلاق بالحلول والوحْدَة ، فشاركوا فيها الإماميَّة والرَّافضَة لقولهم بألوهية

(١) يحيل بذلك على ما ذكره فى الفصل السابع والعشرين من هذا الباب .

الأئمة وحلول الإله فيهم . وظهر منهم أيضا القول بالقطب والأبدال وكأنه يحاكى مذهبَ الرافضة فى الإمام والنُقَباء . وأُشربوا أقوال الشيعة ، وتوغلوا فى الديانة بمذاهبهم ، حتى لقد جعلوا مستند طريقهم فى لبس الخرقة أن عليًا رضى الله عنه ألبسهَا الحسن البصرى وأخذ عليه العهد بالتزام الطريقة . واتصل ذلك عنهم بالْجُنَيْد من شيوخِهم . ولا يعلم هذا عن علىّ من وجه صحيح . ولم تكن هذه الطريقة خاصةً بعلى كرم الله وجهه ، بل الصحابة كلهم أسوةٌ فى طرق الهدى ، وفى تخصيص هذا بعَلى دونهم رائحةٌ من التشيع قوية ، يفهم منها ومن غيرها مما تقدم دخولهم فى التشيع ، وانخراطِهم فى سلكه .

وظهر منهم أيضًا القول بالقُطْب وامتلأت كتب الإسماعيليَّة من الرافضة وكتب المتأخرين من المتصوِّفة بمثل ذلك فى الفاطمى المنتظر . وكان بعضهم يمليه على بعض ويلقنه بعضهم من بعض ، وكأنه مبنى على أُصول واهية من الفريقين . وربما يستدل بعضهم بكلام المنجمين فى القِرانات ، وهو من نوع الكلام فى الملاحم ، ويأتى الكلام عليها فى الباب الذى يلى هذا .

وأكثر من تكلَّم من هولاء المتصوِّفة المتأخرين فى شأن الفاطمى ، ابن العربى الحاتمى [(١)] فى كتاب « عَنْقَاءُ مُغرِب » ، وابن قسى فى كتاب « خلع النعلين » ، وعبدُ الحق بن سَبْعين ، وابن أبى واطيل تلميذه فى شرحه لكتاب « خلع النعلين » . وأكثر كلماتهم فى شأنه ألغاز وأمثال ، وربما يصرحون فى الأقل أو يصرح مفسرُو كلامهم .

وحاصلُ مذهبهم فيه : على ما ذكر ابن أبى واطيل ، أن النبوةَ بها ظهر الحقُّ والهدى بعد الضلال والعمى ؛ وأنها تعقبها الخلافة ؛ ثم يعقب الخلافَةَ الملكُ ؛ ثم يعود تجبرًا وتكبرا وباطلًا .

قالوا : ولما كان فى المعهود من سنة الله رجوعُ الأمور إلى ما كانت وجب أن يحيا أمرُ النبوة والحق بالولاية ، ثم بخلافتها ، ثم يعقبها الدّجل مكانَ الملك والتسلط ، ثم يعود الكفرُ بحاله . يشيرون بهذا لما وقع من شأن النبوة ، والخلافة بعدها والملك بعد الخلافة : هذه ثلاث مراتب . وكذلك الولاية التى هى لهذا الفاطمى ، والدجل بعدها كنايةً عن خروج الدجّال على أثره ، والكفر من بعد ذلك . فهى ثلاث مراتب على نسبة الثلاث مراتب الأولى .

قالوا ولما كان أمر الخلافَة لِقريش حكمًا شرعيًا بالإجماع الذى لا يُوهِنه إنكارُ من لم يزاول علمه وجب أن تكون الامامةُ فيمن هو أخصُّ من قريش بالنبى صلى الله عليه وسلم ، إما ظاهرًا كبنى عبد المطلب ، وإما باطنًا ممن كانَ من حقيقة الآل ، والآل من إذا حضرَ لم يغب منْ هو آله . وابن العربى الحاتمى سماه فى كتابه « عنقَاء مُغْرِب » من تأليفه : « خاتم الأولياء » ، وكنى عنه بِلَبِنَة الفضَّة إشارة إلى حديث البخارى فى باب خاتَم النبيين ، قال صلى الله عليه وسلم : « مثلى فيمَن قبلى من الأنبياء كمثلِ رجلٍ ابتَنَى بيتًا وأكملَه ، حتى إذا لم يبق

---

(١) يعنى محيى الدين بن عربى من أشهر الصوفية . وقد وصفه « بالحاتمى » تمييزاً له عن القاضى أبى بكر بن العربى من أهل الأندلس والذى سيأتى ذكره فى الفصل الأربعين من هذه الطبعة .

منهُ إلا موضع لَبِنَة فأنا تلك اللَّبِنَةُ »(١) فيفسرون خاتم النبيين باللبنةِ التى أكملت البنيان ، ومعناه النبيُّ الذى حصلت له النبوةُ الكامِلَة . ويمثلون الولايةَ فى تفاوتِ مراتِبها بالنبوةِ ، ويجعلونَ صاحب الكمال فيها خاتِمَ الأولياء أى حائز الرتبة التى هى خاتمة الولايَة ، كما كان خاتِمَ الأنبياء حائزًا للمرتبة التى هى خاتمة النبوَّة ، فكنَّى الشارِعُ عن تلك المرتبة الخاتمة بلَبِنَةِ البيت فى الحديث المذكور . وهما على نسبة واحدة فيها . فهى لَبِنَة واحدة فى التمثيل . فنى النبوّة لبِنَة ذَهب ؛ وفى الولاية لَبِنَة فضة ؛ للتفاوت بين الرتبتين ، كما بين الذهب والفضة . فيجعلون لَبِنَةَ الذهب كناية عن النبى صلى الله عليه وسلم ؛ ولَبِنَةَ الفضة كنايةً عن هذا الولَى الفاطمىِّ المنتظر . وذلك خاتَمَ الأنبياء ، وهذا خاتَم الأولياء .

وقال ابن العربى فيما نقل ابن أبى واطيل عنه : « وهذا الإمام المنتظر وهوَ منْ أهلِ البيْت من وُلْدِ فاطمةَ ، وظهورُه يكون من بعْد مُضِىِّ (خ ف ج) من الهجْرَة » ورسم حروفًا ثلاثة يريد عدَدَهم بحساب الجمَّل ، وهو الخاء المعجمة بواحدة من فوق ستمائة ، والفاءُ أُخت القاف بثمانين ، والجيم المعجمة بواحدة من أسفل ثلاثة ، وذلك ستمائة وثلاثٌ وثمانُون سنةً ، وهى فى آخر القرن السابع

(١) ورد هذا الحديث فى البخارى (كتاب المناقب ، باب خاتم النبيين) بالنص الآتى : « مثل ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة . فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » .

ولما انصرَمَ هذا العصرُ ولم يظهر حمل ذلك بعض المقلدين لهم على أن المراد بتلك المدّة مولدُه ، وعبَّر بظهوره عن مولده ، وأن خروجَه يكون بعد العشر والسَّبعمائة فإنه الإمامُ النَّاجم من ناحيةِ المغرب قال : « وإذا كان مولده كما زعم ابنُ العربى سنة ثلاث وثمانين وستمائة فيكون عمرُه عند خروجه ستًا وعشرينِ سنة » . قال : « وزعموا أن خروج الدَّجال يكون سنة ثَلاث وأربعين وسبعمائة من اليوم المحمَّدى ، وابتداءُ اليوم المحمَّدى عندهم من يوم وفاة النبى صلَّى الله عليه وسلم إلى تمام ألفِ سنة » . قال ابن أبى واطيل فى شرحه كتابَ « خلْع النعلين » : « الولىُّ المنتظرُ القائِمُ بأمر الله المشارُ إليه بمحمد المهدِيّ وخاتَم الأولياء ، وليس هو بنبيٍّ وإنما هو ولى ابتعثَه روحهُ وحبيبُه . قال صلى الله عليه وسلم : « العالِمُ فى قومه كالنبىِّ فى أُمّته » . وقال : « علماءُ أُمّتى كأنبيَاء بنى إسرائيل » . ولم تزل البشْرى تتَابع به منْ أول اليوم المحمدى إلى قبيل الخمسمائة نصف اليوم . وتأكَّدت وتضاعفَت بتباشير المشايخ بتقريب وقته ، وازدلاف زمانه منذ انقضت إلى هلم جرا » قال : وذكر الكندى (١) أن هذا الولى هو الذى يصلى بالناس صلاة الظهر ، ويجدد الإسلام ، ويظهر العدل ، ويفتح جزيرة الأندلس ، ويصل إلى رومية فيفتحها ، ويسير إلى المشرق فيفتحه ، ويفتح القسطنطينية ، ويصير له ملك الأرض ،

(١) يقصد هنا الكندى الفيلسوف أبا يوسف يعقوب بن إسحاق ابن الصباح المتوفى حوالى سنة ٢٥٢ هـ .

فيتقوى المسلمون ويعلو الاسلام ، ويظهر دين الحنيفية (١) فإن من صلاة الظهر إلى صلاة العصر وقتَ صلاة ؛ قال عليه الصلاة والسلام : «مابين هذَين وقت » . وقال الكندى أيضًا : الحروفُ العربية غير المعجمة يعنى المفتتح بها سورُ القرآن جملةٌ عددها سبعمائة وثلاثةٌ وأربعون ، وسبعة دجّالِيةٌ ، ثم ينزل عيسَى فى وقت صلاة العصر ، فيصلح الدنيا وتمشى الشّاةُ مع الذّئب . ثم يبقى مُلك العجم بعد إسلامهم مع عيسى مائةً وستّين عامًا ، عدد حروف المعجم وهى (ق ى ن) ، دولةُ العدل منها أربعون عامًا » . قال ابن أبى واطيل : « وما وردَ من قوله لا مَهْدِىَّ إلا عيسَى ، فمعناه لا مهدىَّ تساوى هدايتُه ولا يتَه ؛ وقيل : لايتكلّم فى المهد إلا عيسَى . وهذا مدفوعٌ بحديث جُرَيْج وغيره . وقد جاء فى الصحيح أنه قال : « لا يزالُ هذا الأمر قائمًا حتى تقوم السّاعةُ أو يكون عليهم اثنا عشر خليفةً » يعنى قرشيًا . وقد أعطى الوجود أن منهم من كان فى أول الإسلام ، ومنهم من سيكون فى آخره . وقال : « الخلافةُ بعدى ثلاثون أو إحدى وثلاثون أو ستةٌ وثلاثون » . وانقضاؤها فى خلافة الحسن وأوّل أمر معاوية ، فيكون أول أمر معاوية خلافة أخذًا بأوائل الأسماء فهو سادس الخلفاء ، وأما سابع الخلفاء فعمر بن عبد العزيز ، والباقون خمسة من أهل البيت من ذرية على ، يؤيده قوله(١) « إنك لذو قَرْنَيْها » ، يريد الأمة ، أى إنك لخليفة فى أولها ، وذريتك فى آخرها . وربما استدل بهذا الحديث القائلون بالرجعة . فالأوّلُ هو المشار إليه عندهم بطلوع الشمس من مغربها وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إذا هلكَ كسْرَى فلا كِسْرى بعده ، وإذا هلكَ قيصرُ فلا قيصرَ بعده والذى نفسى بيده لتنفِقُن كنوزَهما فى سَبيل الله » وقد أنفق عمر بن الخطاب كنوز كسْرَى فى سبيل الله . والذى يهلكُ قَيصر وينفقُ كنوزه فى سبيل الله هو هذا المنتظرُ حين يفتحُ القسطنطينية . فنعم الأمير أميرها ، ونعم الجيش ذلك الجيش . كذا قال صلى الله عليه وسلم : « ومدة حكْمه بضْعٌ » ، والبضع من ثلاث إلى تسع وقيل إلى عشر . وجاء ذكر أربعين ، وفى بعض الروايات سبعين . فأما الأربعون فإنها مدته ومدة الخلفا الأربعة الباقين من أهله القائمين بأمره من بعده على جميعهم السلام » . قال : « وذكر أصحابُ النُّجوم والقِرانَات أن مدة بقاء أمره وأهل بيته من بعده مائةٌ وتسعةٌ وخمسون عامًا فيكون الأمر على هذا جاريًا على الخلافَة والعدل أربعِينَ أو سبعين ، ثم تختلف الأحوال فتكون مُلْكًا » . انتهى كلام ابن أبى واطيل .

وقال فى موضع آخر : « نزولُ عيسى يكون فى وقت صلاة العصْر من اليوم المحمّدِى حين تمضى ثلاثة أرباعه » . قال : « وذكر الكندىُّ يعقوب ابن إسحاق فى كتاب « الجفر » الذى ذكر فيه

(١) يذهب د . واف إلى أن هنا جملة ساقطة تقديرها : ويصل بالناس صلاة بين الظهر والعصر ، فإن من صلاة الظهر .. الخ . انظر ج ٢ ، ص ٩٢١ .

(١) أى قوله عليه الصلاة والسلام لعلى بن أبى طالب .

القِرانَات أنه إذا وصل القرانُ إلى الثّور على رأس ضح بحرفين: الضاد المعجمة والحاء المهملة (١) ، يريد ثمانية وتسعين وستمائة من الهجرة ، ينزل المسيح فيحكم فى الأرض ما شاء الله تعالى » . قال : « وقد ورد فى الحديث أن عيسى ينزلُ عند المنارة البيضاء شرقى دمشق ، ينزل بين مهرودتين ، يعنى حلتين مزعفرتين صفراوين ممصرتين واضعاً كفّيه على أجنحة الملكين ، له لِمَّةٌ (٢) ، كأنما خرج من دَيْماس ، إذا طأطأ رأسه قَطَرَ (٣) ، وإذا رفعه تحدر منه جُمَانٌ كاللؤلؤ ، كثير خيلان الوجْه . وفى حديث آخرٍ : مربُوع الخلق وإلى البياض والحمرة. وفى آخر : إنه يتزوج فى الغرب والغَرْبُ دلو البادية ، يريد أنه يتزوّج منها وتلد زوجته . وذكر وفاته بعد أربعين عامًا . وجاء أن عيسى يموت بالمدينة ويدفن إلى جانب عمر بن الخطاب . وجاء أن أبا بكر وعمر يُحشران بين نبيين » . قال ابن أبى واطيل : « والشيعة تقول إنه هو المسيحُ مَسِيحُ المَسَايح من آل محمد . قلت وعليه حملَ بعض المتصوفة حديث « لا مهدى إلا عيسى » أى لا يكون مهدىً إلا المهدىّ الذى نِسْبَتُه إلى الشريعة المحمدية نسبة عِيسَى إلى الشريعة الموسَوِية فى الاتباع وعدَم النّسخ » .

(١) علق الهورينى على ذلك بقوله : « الضاد عند المغاربة بتسعين والصاد بستين » . والصاد لا داعى لذكرها هنا ، وكان الأوضح أن يقول الضاد عند المغاربة بتسعين والحاء عند المشارقة والمغاربة بثلاثية ، فيكون المجموع ثمانية وتسعين .

(٢) فى القاموس : اللمة بالكسر : الشعر المجاور شحمة الأذن جمعه لم ولمام .

(٣) فى القاموس : الديماس بفتح الدال ويكسر الكن والسرب والحمام . والأخير المقصود هنا .

إلى كلام من أمثال هذا يعيّنون فيه الوقت والرجل والمكان بأدلة واهية وتحكُّمات مختلفة ، فينقضى الزمان ولا أثر لشىء من ذلك ، فيرجعون إلى تجديد رأى آخر منتحَل كما تراه من مفهومات لغوية وأشياء تخيّلية وأحكام نُجُومية . فى هذا انقضت أعمار الأول منهم والاخر .

وأما المتصوفة الذين عاصرناهم فأكثرهم يشيرون إلى ظهور رجل مجدِّد لأحكام الملة ومراسم الحق ويتحيّنُون ظهوره لما قرب من عصرنا . فبعضهم يقول من وُلْد فَاطمة ، وبعضهم يطلق القول فيه . سمعناه من جماعة أكبرهم أبو يعقوب البَادِسِىّ كبيرُ الأولياء بالمغرب ، كان فى أول هذه المائة الثامنة ، وأخبرنى عنه حافده (١) صاحبنا أبو يحيى زكريا عن أبيه أبى محمد عبد الله عن أبيه الولى أبى يعقوب المذكور .

* * *

هذا آخر ما اطلعنا عليه أو بلغنا من كلام هؤلاء المتصوفة ، وما أورده أهل الحديث من أخبار المهدى قد استوفينا جميعه بمبلغ طاقتنا .

والحق الذى ينبغى أن يتقرر لديك : أنه لا تتم دعوةٌ من الدين والمُلْك إلا بوجود شوكة عصبيّة تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتم أمر الله فيه . وقد قررنا ذلك من قبل بالبراهين القطعية التى أريناك هناك(٢). وعصبيةُ الفاطميين بل وقريش أجمع قد تلاشت من جميع الآفاق ، ووجد أمم

(١) يعنى حفيده .

(٢) يحيل بذلك على ما ذكره فى الفصلين الأول والسادس من هذا الباب .

آخرون قد استعلت عصبيتهم على عصبية قريش إلا ما بقى بالحجاز فى مكّة وينبع بالمدينة من الطّالبيّين من بنى حسن وبنى حسين وبنى جعفر ، منتشرون فى تلك البلاد وغالبون عليها . وهم عصائب بدويةٌ متفرقون فى مواطنهم وإماراتهم وآرائهم يبلغون آلافا من الكثرة .

فإن صح ظهور هذا المهْدىّ فلا وجه لظهور دعوته إلا بأن يكون منهم ، ويؤلّف الله بين قلوبهم فى اتباعه حتى تتم له شوكة وعصبيّةٌ وافية بإظهار كلمته وحل الناس عليها .

وأما على غير هذا الوجه ، مثل أن يدعو فاطمىٌّ منهم إلى مثل هذا الأمر فى أفق من الآفاق من غير عصبية ولا شوكة إلا مجرّد نسبة فى أهل البيت ، فلا يتم ذلك ولا يمكن ، لما أسلفناه من البراهين الصحيحة .

وأما ما تدعيه العامة والأغْمار من الدّهماء ممن لا يرجع فى ذلك إلى عقل يهديه ولا علم يقيده ، فيتحيّنُون ذلك على غير نسبة وفى غير مكان تقليدًا لما اشتهر من ظهور فاطمىّ ، ولا يعلمون حقيقة الأمر كما بيناه . وأكثر ما يتحيَّنون فى ذلك القاصية من الممالك وأطراف العمران ، مثل الزّاب بإفْرِيقِيَة والسُّوس من المغرب . ونجد الكثير من ضعفاء البصائر يقصدون رباطًا بماسَة لما كان ذلك الرباطُ بالمغرب من الملثّمين من كدالة واعتقادهم أنه منهم أو قائمون بدعوته ، زعمًا لا مستند لهم ، إلا غرابة تلك الأمم وبعدهم عن يقين المعرفة بأحوالها من كثرة أو قلة أو ضعف أو قوّة ، ولبعد القاصيَة عن منال الدولة وخروجها عن نطاقها ، فتقوى عندهم الأوهامُ فى ظهوره هناك بخروجه عن رِبْقَة الدولة ومنال الأحكام والقهر ؛ ولا محصولَ لديهم فى ذلك إلا هذا . وقد يقصد ذلك الموضع كثير من ضعفاء العقول للتلبيس بدعوة تمنيه النفسُ تمامَها وسواسًا وحمقًا . وقُتل كثير منهم .

أخبرنا شيخنا محمد بن إبراهيم الآبِلِى قال : خرج برباط ماسة لأول المائة الثامنة وعصر السلطان يوسف بن يعقوب رجل من منتحلى التصوف ، يعرف بالتُّوَيْزِرِىّ نسبة إلى تُوزَرَ مصغرًا ، وادعى أنه الفاطمى المنتظر واتبعه الكثير من أهل السوس من ضالة وكزولة وعظم أمره وخافه رؤساء المصامدة على أمرهم ، فدس عليه السكسوى من قتله بَياتًا(١) وانحلَّ أمره . وكذلك ظَهر فى غمارةَ فى آخر المائة السّابعة وعشر التسعين منها رجلٌ يعرفُ بالعباس ، وادعى أنه الفاطمى ، واتبعه الدَّهماءُ من غُمارةَ ، ودخل مدينة فاس عَنْوَةً وحرق أسواقها وارتَحل إلى بلدُ المزْمَةَ » فقُتل بها غِيلةً ولم يتم أمره . وكثير من هذا النمط .

وأخبرنى شيخنا المذكور بغَريبة فى مثل هذا ، وهو أنه صحبَ فى حَجّه فى رباط العباد . وهو مدفن الشيخ أبى مدين فى جبل تِلمْسَان المطل عليها ـ رجلًا من أهل البيت من سكان كَرْبلَاء . كان متبوعًا معظمًا كثيرَ التّلميذ والخادم . قال : وكان الرجالُ من موطنه يتلقّونه بالنفقَات فى أكثر البلدان . قال وتأكدت الصُّحبة بيننا فى ذلك الطريق فانكشَفَ لى أمرُهم ، وأنهم إنما جاءوا من

(١) البيات : الإغارة ليلا .

موطنهم بكربلاء لطلب هذا الأمر وانتحال دعوة الفاطمى بالمغرب . فلما عاين دولة بنى مرين ، ويوسف بن يعقوب يومئذ منازلٌ لتلمسان قال لأصحابه : ارجعوا فقد أزرى بنا الغلط ، وليس هذا الوقتُ وقتنا . ويدل هذا القول من هذا الرجل على أنه مستبصرٌ فى أن الأمرَ لايتم إلا بالعصبية المُكافئة لأهل الوقت ، فلما علم أنه غريبٌ فى ذلك الوطن ولا شوكة له وأن عصبيةَ بن مرين لذلك العهد لايُقاومُها أحدٌ من أهل المغرب آستكان ورجعَ إلى الحقّ وأقصر عن مطامعه : وبقى عليه أن يستيقنَ أن عصبيةَ الفواطم وقُريش أجمع قد ذهبت ، لاسيما فى المغرب . إلا أن التعصب لشأنه لم يتركه لهذا القول . والله يعلمُ وأنتم لاتعلمُون .

وقد كانت بالمغرب لهذه العصُور القريبة نزعةٌ من الدُّعاة إلى الحقّ والقيام بالسُّنَّة لاينتحلون فيها دعوةَ فاطمىٍّ ولا غيره ، وإنما ينزع منهم فى بعض الأحيان الواحدُ فالواحدُ إلى إقامة السُّنة وتغيير المنكر ويعتنى بذلك ويكثر تابعه . وأكثر ما يُعنَوْن بإصلاح السَّابلة لِمَا أنَّ أكثر فسادِ الأعراب فيها ، لما قدمناه من طبيعة معاشهم[1] . فيأخذون فى تغيير المنكَر بما آستطاعوا . إلا أن الصِّبغةَ الدِّينية فيهم لا تَستحْكم ، لِمَا أنَّ توبةَ العرَب ورُجوعَهم إلى الدين إنما يقصدون بها الإقصار عن الغارَة والنَّهب ؛ لا يعقِلُون فى توبتهم وإقبالِهم إلى مَناحى الدِّيانة غير ذلك ، لأنَّها المعصيةُ التى كانُوا عليها قبل المَقْرَبة ، ومنها توبتهم . فتجد تابع[1] ذلك المنتحل للدَّعوة القائم بزَعمه بالسُّنة غيرَ متعمقين فى فرُوع الاقتداء والاتِّبَاع ، إنما دينهم الإعراض عن النَّهب والبغْى وإفْسَاد السَّابِلَة ، ثمَّ الإقبالُ على طَلب الدُّنيا والمعاشِ بأقْصَى جهدهم . وشتانَ بين طَلب هذا الأمر فى صَلَاح الخلْق وبين طلب الدنيا[2] ، فاتفاقُهما ممتنِعٌ ، ولا تستحكم لهم صبغةٌ فى الدِّين ولا يكمل لهم نزوعٌ عن البَاطل على الجملة ، ولا يكثرون . ويختلفُ حال صاحب الدَّعوة معهمُ فى استحكام دينه وولَايته فى نفسه دونَ تَابِعه . فإذا هَلكَ انْحلَّ أمرُهم وتلاشَت عصبيَّتُهم . وقد وقَعَ ذلك بإفريقيةَ لرجُل من كَعْبٍ من سليم يسمى قاسِم بنَ مُرّة بن أحمد فى المائة السابعة ، ثمّ من بعده لرجل آخر من بادِية رِياح من بطْنٍ منهم يعرفُون بمسلم وكان يسمى سَعَادة وكان أشدّ دينًا من الأوّل وأقوم طريقةً فى نفسه ، ومع ذلك فلم يستتبّ أمر تابِعه كما ذكرناه حسبما يأتى ذكر ذلك فى موضعه عند ذكر قبائل سليم ورياح[3] . وبعد ذلك ظهر ناسٌ بهذه الدعوة يتشبَّهون بمثل ذلك ، ويُلَبِّسون فيها وينتحِلون آسْمَ السُّنة وليسُوا عليها إلَّا الأقل ، فلا يتم لهم ولا لمن بعدهم شىءٌ من أمرهم . انتهى .

---

(١) انظر على الأخص الفصل السادس والعشرين من هذا الباب.

(١) كلمة « تابع » ساقطة من جميع النسخ ، وقد عثرنا عليها فى « اليمورية » وهى مفرد فى اللفظ وجمع فى المعنى .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى النسخة المسماة «بالتيمورية» وقد وردت فى غيرها محرفة وناقصة .

(٣) فى القسم الخاص بتاريخ البربر من كتاب « العبر » .

٥٤ ـ فصل فى حدثان الدول والأمم وفيه الكلام على الكلام والكشف عن مسمى الجَفْر

اعلم أن من خواصّ النفوس البشريَّة التشوفَ إلى عَواقب أُمورهم ، وعِلم ما يحدثُ لهم من حياة وموْت وخيرٍ وشرٍّ ، سيما الحوادثُ العامة كمعرفَة ما بقى من الدُّنيا ، ومعرفةِ مُدد الدول أو تفاوتها . والتطلّعُ إلى هذا طبيعةٌ للبشر مجبُولون عليها . ولذلك نجدُ الكثيرَ من النَّاس يتشوّفون إلى الوُقوف على ذلك فى المَنام . والأَخبارُ من الكُهان لمن قصدَهم بمثل ذلك من الملوك والسُّوقة معروفةٌ . ولقد تجدُ فى المدنِ صنفًا من النَّاسِ ينتحلون المعاش من ذلك لعلمهِم بحرصِ النَّاس عليه ، فينتصِبُون لهم فى الطُّرقات والدَّكَاكين يتعرضُون لمن يسألُهم عنه . فتغدو عليهم وتروح نسوانُ المدينة وصِبْيَانها وكثير من ضعفَاء العقول ، يستكشِفُون عواقبَ أمرهم فى الكَسبِ والجَاه والمعَاش والمُعَاشَرة والعدَاوة وأَمثال ذلك ، ما بين خطٍّ فى الرَّمل ويسمونه المنجِّم ، وطَرْقٍ بالحصى والحبُوبِ ويسمُّونه الحَاسِب ، ونظرٍ فى المَرايا والمِياه ويسمونه ضَارِبَ المنْدَل . وهو منَ المُنْكرَات الفَاشِية فى الأَمصار ، لما تقرّر فى الشَّريعة من ذَمِّ ذلك ، وأن البشر محجُوبون عن الغيب إلا من أطلعَه الله عليهِ من عنده فى نَوْمٍ أو ولَايَة .

وأكثرُ ما يعتنى بذلك ويتطلّعُ إليه الأُمراءُ والملوكُ فى آمادِ دَولتهم . ولذلك انصرفت العنايةُ من أهل العلم إليه . وكل أُمة من الأُمم يوجدَ لهم كَلام من كاهن أَو منجِّم أَو وَلىٍّ فى مثل ذلك من مُلْك يرتقبونه أَو دولة يحدثون أنفسهُم بها ، وما يحدث لهم من الحرب والمَلاحم ، ومدة بقاء الدولة ، وعدد الملوك فيها ، والتعرض لأسمائهم ، ويسمى مثل ذلك : الحِدْثان .

وكان فى العرب الكُهَّانُ والعرَّافون يرجِعُون إِلَيهم فى ذَلك ، وقد أخبروا بما سيكون للعرب من الْملكِ والدَّولة ، كما وقع لِشقٍّ وسَطِيح[١] فى تأْويلِ روْيا ربيعةَ بن نصْر من مُلوك اليمن أخبرهم بمُلْكِ الحبشة بلادَهم ثم رجوعها إليهم ثمّ ظهور الملك والدولة للعرب من بعد ذلك . وكذا تأْويل سطيح لروْيا المُوبَذَان حين بعث إليه كسرى بها معَ عبد المسيح[٢] ، وأخبرهم بظهور دولة العرب . وكذا كان فى جبل البربر كهان من أشهرهم موسى ابن صالح من بنى يفرن ، ويقال : من غمرة ، وله كلماتٌ حِدْثَانِيَّةٌ على طريقة الشِّعر برطَانَتهم وفيها حِدْثَانٌ كثيرٌ ، ومعظمه فيما يكون لزنَاتَةَ من المُلْك والدولة بالمغرِب وهى متداوَلَةٌ بينَ أَهلِ الجيل . وهم يزعمون أنه ولىٌّ ، وتارة أنه كاهنٌ ، وقد يزعم

---

(١) أولهما شق بن انمار اللذبى ، والاخر سطيح بن مازن الغسانى . وقد علقت بهما اساطير كثيرة . فمن ذلك ما يروى من ان سطحيا اخبر بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم وانه عاش للثمانة سنة ومات فى ايام كسرى انوشروان بعد مولده صلى الله عليه وسلم ، وانه سمى بذلك لانه لم يكن بين مفاصله قصب تعتمد عليه ، فكان ابدا منبسطا منسطحا على الارض لا يقدر على قيام ولا قعود ، وانه كان يطوى كما يطوى الحصير ، وكان يتكلم بالاعاجيب . ومن ذلك ما يروى من شق من انه كان نصف انسان ، فكانت له يد واحدة ورجل واحدة ، ولذلك سمى « شقا » . وهو ابن خالة سطيح . ويروى أن ولادتهما كانت فى يوم واحد ، وانه فى ذلك اليوم توفيت طريفة ابنة الخير الحميرية الكاهنة .

(٢) هو عبدالمسيح بن عمر بن بقيلة الغسانى ابن أخت سطيح.

بعض مزاعمهم أنه كان نبيًّا ، لأن تاريخه عندهم قبل الهجرة بكثير . والله أعلم .

وقد يستندُ الجيلُ فى ذلك إلى خبر الأنبياء إن كانَ لعهدهم ، كما وقع لبنى إسرائيلَ ؛ فإن أنبياءهم المتعاقبِينَ فيهم كانوا يخبرونَهُم بمثله عندما يعنونهم فى السؤال عنه .

وأما فى الدولة الإسلامية فوقع منه كثيرٌ فيما يرجع إلى بقاء الدنيا ومدتها على العموم ، وفيما يرجعُ إلى الدولة وأعمارها على الخصوص . وكان المعتمدُ فى ذلك فى صدر الإسلام آثار منقولةٌ عن الصحابة ، وخصوصًا مُسْلِمَة بنى إسرائيل ، مثل كعبِ الأحبارِ ووهب بن مُنَبِّه وأمثالهما . وربما اقتبسوا بعض ذلك من ظواهِرَ مأثورة وتأويلات محتَمَلة .

ووقع لجعفر وأمثاله من أهل البيت كثيرٌ من ذلك ومستندُهم فيه ــ والله أعلم ــ الكشفُ بما كانوا عليه من الولَايَة . وإذا كان مثله لا ينكر من غيرِهم من الأولياء فى ذويهم وأعقابهم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ فِيكُم مُحَدَّثِينَ » ، فهم أولَى النَّاس بهذه الرتب الشريفة والكرامات الموهُوبة.

وأما بعد صدْر الملة ، وحين علق الناس على العلوم والاصطلاحات ، وتُرجمت كتب الحكماء إلى اللِّسان العربى ، فأكثر مُعتمَدِهم فى ذلك كَلَامُ المنجِّمين فى الملك والدول وسائر الأُمور العامة من القِرانات وفى المواليدِ والمسائل وسائر الأمور الخاصة من الطوالع لها ، وهى شكل الفلك عند حدوثها .

فلنذكر الآن ما وقع لأهل الأثر فى ذلك ثم نرجع لكلام المنجمين .

• • •

أما أهلُ الأثَر فى مدة الملل وبقاء الدُّنيا على ما وقَع فى كتاب السُّهَيلى فإنه نقَل عن الطبرى ما يقتضى أن مدَّةَ بقاء الدُّنيا منذُ المِلة خمسمائة سنة ، ونقِض ذلك بظهور كذبه : ومستَنَد الطبرى فى ذلك أنه نقل عن ابن عباس أن الدنيا جمعةٌ من جمْع الآخرة ، ولم يذكر لذلك دليلًا . وسره والله أعلم تقديرُ الدُّنيا بأيام خلق السموات والأرض وهى سبعةٌ ، ثمّ اليوم بألف سنة لقوله : « وإنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ »[1] قال : وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أَجَلُكُم فى أَجَلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكم من صلَاةِ العصْر إلى غُروب الشَّمس » . وقال : « بُعِثْتُ أنَا والسَّاعَةَ كهَاتَيْنِ » ، وأشار بالسبابة والوسطى ، وقدر ما بين صلاة العصر وغروب الشَّمس حين صيرورة ظل كل شىء مثليه ، يكون على التقريب نصف سبع ، وكذلك وصل الوسطى على السبابة ، فتكون هذه المدة نصف سبع الجمعة كلها ، هو خمسمائة سنة ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم : « لن يعجزَ الله أن يؤخرَ هذه الأمَّةَ نصْفَ يوْم » ، فدل ذلك على أن مدَّة الدنيا قبل المِلّة خمسةَ آلاف وخمسمائة سنة . وعن وهب ابن مُنَبِّه أنها خمسةُ آلاف وستمائة سنة ، أعنى الماضى. وعن كعب أن مدة الدنيا كلها ستة آلاف سنة .

(١) آخر آية ٤٧ من سورة الحج .

قال السهيلى : وليس فى الحديثين ما يشهد لشىء مما ذكره مع وقوع الوجود بخلافه . فأما قوله : « لن يعجزَ اللهَ أن يؤخِّرَ هذه الأمة نصف يوم » ، فلا يقتَضِى نفى الزِّيادة على النصف . وأما قوله : « بُعِثْتُ أنَا والسَّاعةَ كهَاتَيْن » ، فإنما فيه الإشَارةُ إلى القُرْبِ ، وأنه ليْسَ بَيْنَه وبيْنَ السَّاعَة نَبِىٌّ غيره ، ولا شرعٌ غير شرعه .

ثم رجع السهيلى إلى تعيين أمد المِلَّة من مدرك آخر لو ساعده التحقيق ، وهو أنه جمع الحُروفَ المقطعة فى أوائل السُّورَ بعد حذفِ المكرر ، قال : وهى أربعة عشر حرفًا يجمعها قولك (ألم يسطع نص حق كره) فأخذ عددها بحساب الجُمَّل[1] فكان سبعمائة وثلاثة[2] ، أضافه إلى المنقضى من الألف الآخر قبل بعثه ، فهذه هى مدة الملة . قال : ولا يبعد أن يكون ذلك من مقتضيات هذه الحروف وفوائدها . قلت وكونه لا يبعد لا يقتضى ظهوره ولا التعويل عليه .

والذى حمل السهيلى على ذلك إنما هو ما وقع فى السِّيرَ لابن إسحق فى حديث ابنَىْ أخطب من أحبار اليهود ، وهما أبو ياسر وأخوه حىٌّ ، حين سمعا من الأحرف المقطعة « ألم » ، وتأولاها على بيان المدة بهذا الحساب ، فبلغت إحدى وسبعين فاستقلَّا المدة . وجاء حىٌّ إلى النبى صلى الله عليه وسلم يسأله : هل مع هذا غيره ؟ فقال (المص) ، ثم استزاد (الر) . ثم استزاد (المر) . فكانت إحدَى وسَبْعِينَ ومائتين فاستطال المدَّة . وقال قد لُبِّسَ علينا أمرك يا محمد ! حتى لا ندرى أقليلا أعطيت أم كثيرًا ، ثم ذهبُوا عنه . وقال لهم أبو ياسر : ما يدريكم لعله أعطى عددها كلها تسعمائة وأربع سنين . قال ابن إسحق : فنزل قوله تعالى « مِنه آياتٌ مُحْكَمَات هن أمُّ الكِتَاب وأُخَرُ مُتَشَابِهات »[1]

ولا يقومُ من القصَّةِ دليلٌ على تقدير الملة بهذا العدد ، لأن دلالة هذه الحروف على الأعداد ليست طبيعية ولا عقلية . وإنما هى بالتَّواضع والاصطِلَاح الذى يسمُّونَه حساب الجُمَّل . نعم إنه قديمٌ مشهورٌ ، وقدم الاصطلاح لا يصير حجة . وليس أبو ياسر وأخوه حىٌّ ممن يؤْخذ رأيه فى ذلك دليلاً ، ولا من علماء اليهود ، لأنهم كانوا باديةً بالحجاز ، غُفلاً من الصَّنائع والعلوم ، حتى عن علم شريعَتهم وفِقْه كِتَابهم وملَّتهم ، وإنما يتلقَّفون مثل هذا الحَساب كما تتلقفه العوام فى كل ملة . فلا ينهض للسُّهَيلى دليلٌ على ما ادعاه من ذلك .

ووقع فى المِلَّةِ فى حِدْثَان دَوْلَتها على الخصوص مُسْنَدٌ من الأثر إجمالى فى حديث خرجه أبو داود عن حُذَيْفة بن اليَمَان من طريق شيخه محمد بن يَحيى الذهبى عن سعيد بن أبى مريم عن عبد الله بن فَرُّوخ عن أُسامةَ بن زيد الليْثى عن أبى قبيصة بن

(١) انظر الحديث منه على طريقتى المشارقة والمغاربة فى منشورة «دائرة المعارف» ص ٥٤٠ جـ ١ .

(٢) علق الهورينى على ذلك بما يلى : « هذا العدد غير مطابق ، كما أن المترجم التركى لم يطابق فى قوله ٩٣٠ ، وإنما المطابق للحروف المذكورة ٦٦٣ ، وهو الموافق لما سيذكره من يعقوب الكندى » .

(١) آية ٧ من سورة آل عمران ، وقد اجتزأ ابن إسحق بجزء منها ، مع أن المعنى الذى يريد تقريره لا يستفاد الا اذا ذكرت الآية كلها .

ذؤيب عن أبيه ، قال : قال حذيفة بن اليمان : والله ما أدرى أنسى أصحابى أم تناسوه ، والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قائد فئة إلى أن تنقضى الدنيا يبلغ من معه ثلثمائة فصاعدًا إلا قد سمّاه لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته . وسكت عليه أبو داود ، وقد تقدم أنه قال فى رسالته :ما سكت عليه فى كتابه فهو صالح . وهذا الحديث إذا كان صحيحًا فهو مجمل ، ويفتقر فى بيان إجماله وتعيين مبهماته إلى آثار أخرى يجود أسانيدها . وقد وقع إسناد هذا الحديث فى غير كتاب السنن على غير هذا الوجه . فوقع فى الصحيحين من حديث حُذيفة أيضًا قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا خطيبًا ، فما ترك شيئًا يكون فى مقامه ذاك إلى قيام الساعة إلا حدّث عنه ، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه ، قد علمه أصحابه هؤلاء ا هـ . ولفظ البخارى ما ترك شيئا إلى قيام الساعة إلا ذكره . وفى كتاب الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى قال : صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا صلاة العصر بنهار ، ثم قام خطيبًا . فلم يدع شيئًا يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به . حفظه من حفظه ونسيه من نسيه ا هـ

وهذه الأحاديث كلها محمولة على ما ثبت فى الصحيحين من أحاديث الفتن والأشراط لاغير ، لأنه المعهود من الشارع صلوات الله وسلامه عليه ، فى أمثال هذه العمومات . وهذه الزيادة التى تفرد بها أبو داود فى هذا الطريق [1] شاذّة منكرة ، مع أن الأئمة اختلفوا فى رجاله . فقال ابن أبى مريم فى ابن فرّوخ : أحاديثه مناكير ، وقال البخارى : يعرف منه وينكر ، وقال ابن عدى : أحاديثه غير محفوظة . وأسامة بن زيد [2] وإن خرّج له فى الصحيحين ، ووثّقه ابن معين ، فإنما خرّج له البخارى استشهادًا ، وضعّفه يحيى بن سعيد وأحمد ابن حنبل ، وقال أبو حاتم : يُكتب حديثه ولا يُحتج به . وأبو قبيصة بن ذؤيب مجهول . فتضعف هذه الزيادة التى وقعت لأبى داود فى هذا الحديث من هذه الجهات مع شذوذها كما مر .

وقد يستندون فى حدثان الدول على الخصوص إلى كتاب الجفر ، ويزعمون أنه فيه علم ذلك كله من طريق الآثار والنجوم ، لا يزيدون على ذلك ، ولا يعرفون أصل ذلك ولا مستنده .

واعلم أن كتاب الجفر كان أصله : أن هارون ابن سعيد العجلى ـ وهو رأس الزيدية ـ كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق ، وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص . وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم على طريق الكرامة والكشف الذى يقع لمثلهم من الأولياء . وكان مكتوبًا عند جعفر فى جلد ثور صغير ، فرواه عنه هرون العجلى وكتبه ،

---

(١) وهى قوله : « ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قائد فئة الى ان تنقضى الدنيا يبلغ من معه للثمائة فصاعدا الا قد سماه لنا باسمه واسم ابيه وقبيلته » .

(٢) يقصد اسامة بن زيد الليثى ، الذى ورد اسمه فى سند هذا الحديث .

وسماه الجَفْرَ باسم الجلْد الذى كُتب عليه ، لأن الجَفْرَ فى اللغة هو الصغير [١] ، وصار هذا الاسم عَلَمًا على هذا الكتاب عندهم . وكان فيه تفسير القرآن وما فى باطنه من غرائب المعانى مرْويَّة عن جعفر الصادق . وهذا الكتاب لم تتصل روايته ولا عُرف عينه ، وإنما يظهر منه شوَاذُّ من الكلمات لا يصحبها دليلٌ . ولو صحّ السند إلى جعفر الصادق لكان فيه نِعم المستَند من نفسه أو من رجال قومه ، فهم أهلُ الكرامَات ، وقد صحّ عنه أنه كان يُحذِّر بعضَ قرابته بوقائعَ تكُونُ لهم ، فتصح كما يقول. وقد حذر يحيى ابن عمه زيدٍ من مصرعه وعصاه ، فَخرَج وقُتل بالجوزجَان كما هو معروف . وإذا كانت الكرامة تقع لغيرهم فما ظنك بهم علمًا ودينًا وآثارًا من النبوة ، وعناية من الله بالأصل الكريم تشهد لفروعه الطيبة . وقد ينقل بين أهل البيت كثيرٌ من هذا الكلام ، غير منسوب إلى أحد . وفى أخبار دولة العُبَيْديين كثيرٌ منه . وانظر ما حكاه «ابن الرقيق» فى لقاء أبى عبد الله الشيعىِّ لعبيد الله المهدىّ مع ابنه محمد الحبيب ، وما حدثاه به ، وكيف بعثاه إلى ابن حوشب داعيتهم باليمن ، فأمره بالخروج إلى المغرب ، وبثّ الدعوة فيه على علْم لُقّنه أن دعوته تتم هناك ، وأن عبيد الله لما بنَى المهديَّة بعد آستحفالِ دولتهم بإفْريقيَة قال : «بنَيْتُها ليعْتَصِمَ بها الفَوَاطم ساعةً من نهَار» وأراهم موْقف صاحبِ الحمار (بساحتها ، وبلغ هذا الخبر حافِدَه إسْمَاعِيلَ المنصور ، فلما حاصَرَه صاحبُ الحمار[١] أبو يزيد بالمهدية كان يُسائِل عن منتهى موقفه ، حتى جاءه الخبرُ ببلُوغه إلى المكان الذى عينه جدُّه عبيد الله فأيْقن بالظَّفر ، وبرزَ من البَلد ، فهزمه واتَّبعه إلى ناحية الزَّابِ فظفِرَ به وقتَله . ومثل هذه الأخبار عندهم كثيرة .

• • •

وأما المنجِّمون فيستندون فى حِدْثَان الدُّول إلى الأحكام النُّجومية . أما فى الأُمور العامة مثل الملك والدُّول فمن القِرَانات ، وخصوصًا بين العُلْوِيَّيْن . وذلك أن العُلْوِيَّيْن : زحل والمُشْترِى يقترِنَان فى كل عشرين سنة مرة ، ثمّ يعود القِران إلى برج آخر فى تلك المثلثة من المثليث الأيمن ، ثمّ بعده إلى آخر كذلك ، إلى أن يتكرّر فى المثلَّثة الواحدة اثنتَى عشرة مرة تستوى بُرُوجُه الثلاثة فى ستين سنة ، ثمّ يعود فيستوى بها فى ستين سنة ، ثم يعود ثالثة ثمّ رابعة بالمستوى فى المثلثة باثنتى عشرة مرّة ، وأربع عودات فى مائتين وأربعين سنة ، ويكون انتقاله فى كل برج على التثليث الأيمن ، وينتقل من المثلثة إلى المثلثة التى تليها أعنى البرج الذى يلى البرج الأخير من القِران الذى قبله فى المثلثة .

وهذا القِرانُ الذى هو قِرَان العُلْوِيَّيْنِ . ينقسمُ إلى كبير وصغير ووسط : فالكبيرُ هو اجتماع العُلْوِيَّيْنِ فى درجة واحدة من الفلك ، إلى أن يعود

(١) علق د. وافى بأن فى العبارة نقصا تقديره « لان الجفر فى اللغة هو ولد الشاء أو المعز الصغير ، ثم أطلق على جلده ، ثم اطلق على كل جلد صغير » .

(١) ما بين القوسين تنفرد به النسخة المسماة « بالتيمورية » ، وبدونه لا تكون العبارة متهرمة .

إليها بعد تسعمائة وستين سنة مرة واحدة ؛ والوسط هو اقتران العُلْوِيَّيْن فى كل مثلثة اثنى عشرة مرة ، وبعد مائتين وأربعين سنة ينتقل إلى مثلثة أخرى ؛ والصغير هو اقتران العُلْوِيَّيْن فى درجة برج ، وبعد عشرين سنة يقترنان فى برج آخر على تثليثه الأيمن فى مثل درجه أو دقائقه .

مثال ذلك وقع القِرَانُ أول دقيقة من الحمل ، وبعد عشرين يكون فى أول دقيقة من القوس ، وبعد عشرين يكون فى أول دقيقة من الأسد ، وهذه كلها نَارِيَّة ، وهذا كله قِرَانٌ صغير . ثمّ إلى أول الحمل بعد ستين سنة ويسمى دور القران وعود القِرَان ، وبعد مائتين وأربعين ينتقل من النارية إلى الترابية لأنها بعدها ، وهذا قِرَانٌ وسط . ثمّ ينتقل إلى الهوائية ثمّ المائية ، ثمّ يرجع إلى أول الحمل فى تسعمائة وستين سنة وهو الكبير . والقِرَانُ الكبير يدل على عظام الأُمور مثل تغيير الملك والدولة ، وانتقال الملك من قوم إلى قوم ؛ والوسط على ظهور المتغلبين والطَّالِبين للمُلْك ؛ والصغيرُ على ظهور الخَوَارج والدعاة وخَرَابِ المدن أو عمرانها . ويقع أثناء هذه القرانات قران النَّحْسَيْن فى برج السرطان فى كل ثلاثين سنة مَرَّةً ويسمى الرَّابع . وبرج السرطان هو طالع العالم وفيه وَبَالُ زحل وهبوط المريخ ، فتعظم دلالة هذا القِرَانِ فى الفتن والحروب ، وسفْك الدِّماء ، وظهور الخَوَارج وحركة العساكر ، وعصيان الجند ، والوباء والقحط ويدوم ذلك أو ينتهى على قدر السعادة والنحوسة فى وقت قرانهما على قدر تيسير الدَّليل فيه .

قال جراسُ بنُ أحمد الحاسب فى الكِتَاب الذى ألَّفه لنظام الملك :

« ورجوع المريخ إلى العقرَب له أثرٌ عظيم فى المِلَّة الإسلامية لأنه كان دليلَها ، فالمولدُ النبوى كان عند قِرَان العُلْوِيَّيْن بِبُرج العقْرَب ؛ فلما رجع هنالك حدث التَّشويشُ على الخُلفَاء وكَثُر المرضُ فى أهلِ العلْم والدِّين ونقصت أحوالهم ، وربما انْهدَم بعضُ بيوتِ العبادة . وقد يقَال إنَّه كان عندَ قتل على رضى الله عنهُ ، ومرْوان من بنى أُميَّة ، والمتوكِّل من بنى العباس . فإذا رُوعيت هذه الأحكامُ مع أحكام القِرَانات كانت فى غاية الإحكام » .

« وذكر شاذان البلخى : أن الملة تنتهى إلى ثلثمائة وعشرين . وقد ظهر كذب هذا القول . وقال أبو مَعْشر : يظهر بعد المائة والخمسين منها اختلاف كثير ؛ ولم يصح ذلك » .

وقال جراس : « رأيتُ فى كتب القدماء أن المنجِّمين أخبروا كسرى عن مُلْك العرب وظهور النبوَّة فيهم ، وأن دليلهم الزُّهَرَة وكانت فى شرفها ، فيبقى الملك فيهم أربعين سنة . وقال أبو معشر فى كتاب القرانات : القسمة إذا انتهت إلى السابعة والعشرين من الحُوت فيها شرف الزُّهَرَة . ووقع القِرَان مع ذلك ببرج العقرب وهو دليلُ العرب : ظهرتْ حينئذ دولة العرب وكان منهم نبيٌّ ويكون قوة ملكه ومدته على ما بقى من درجات شرف الزُّهَرَة ، وهى إحدى عشرة درجة بتقريب من برج الحوت ، ومدة ذلك ستمائة وعشر سنين .

وكان ظهور أبى مسلم[1] عند انتقال الزُّهَرَة ، ووقوع القسمة أول الحمل ، وصاحب الجد المشترى » .

« وقال يعقوب بن اسحق الكندى : إن مدة الملة تنتهى إلى ستمائة وثلاث وتسعين سنة . قال : لأنَّ الزُّهَرَة كانت عند قِرَان الملة ثمان وعشرين درجة وثلاثين دقيقة من الحوت . فالباقى إحدى عشرة درجة وثمانى عشرة دقيقة ودقائقها ستون ، فيكون ستمائة وثلاثا وتسعين سنة . قال : وهذه مدة الملة باتفاق الحكماء ، ويعضده الحروف الواقعة فى أوّل السور بحذف المكرر واعتباره بحساب الجُمَّل » . قلت وهذا هو الذى ذكره السهيلى . والغالبُ أن الأول هو مستند السهيلى فيما نقلناه عنه .

قال جراس : « سأل هرمز إفريد الحكيم عن مدة أردشير وولده وملوك الساسانية فقال : دليل ملكه المُشْتَرِى ، وكان فى شرفه فيعطى أطول السنين وأجودها ، أربعمائة وسبعًا وعشرين سنة ، ثم تزيد الزُّهَرَة ، وتكون فى شرفها وهى دليل العرب ، فيملكون لأن طالع القِرَان الميزان ، وصاحبه الزُّهَرَة ، وكانت عند القران فى شرفها ، فدل أنهم يملكون ألف سنة وستين سنة . وسأل كسرى أنوشروان وزيره بزر جمهر الحكيم عن خروج الملك من فارس إلى العرب ، فأخبره أن القائم منهم يولد لخمس وأربعين من دولته . ويملك المشرق والمغرب ، والمُشْتَرِى يغوص إلى الزُّهَرة ، وينتقل القِرَان من الهوائية إلى العقرب ، وهو مائى وهو دليل العرب . فهذه الأدلة تقضى للملة عدة دَوْر الزُّهَرَة وهى ألف وستون سنة . وسأل كسرى أبرويز أليوس الحكيم عن ذلك ، فقال مثل قول بزرجمهر . وقال توفيل الرومى المنجم فى أيام بنى أمية إن ملة الإسلام تبقى مدة القِرَان الكبير تسعمائة وستين سنة ، فإذا عاد القران إلى برج العقرب كما كان فى ابتداء الملة ، وتغير وضع الكواكب عن هيئتها فى قران الملة ، فحينئذ إما أن يفتر العمل به أو يتجدد من الأحكام ما يوجب خلاف الظن » .

قال جراس : « واتفقوا على أن خراب العالم يكونُ باستيلاء الماء والنار ، حتى تهلكَ سائرُ المكوّنات ، وذلك عندما يقطع قلب الأسد أربعًا وعشرين درجة . التى هى حدُّ المرِّيخ وذلك بعد مضى تسعمائة وستين سنة » .

وذكر جراس : « أن مَلِكَ زَاملسْتان بعث إلى المأمون بحكيمه ذوبان ، أتحفه به فى هدية ، وأنه تصرف للمأمون فى الاختبارات بحروب أخيه وبعقد اللواء لطاهر ، وأن المأمون أعظم حكمته ، فسأله عن مدة ملكهم فأخبره بانقطاع الملك من عقبه واتصاله فى ولد أخيه ، وأن العجم يتغلّبون على الخلافة من الدَّيْلَم فى دولة سنة خمسين ، ويكون ما يريده الله ، ثم يسوءُ حالهم ، ثمّ تظهر الترك من من شمال المشرق فيملكونه إلى الشام والفرات وسيحون وسيملكون بلاد الروم ، ويكون ما يريدُه الله . فقال له المأمون : من أينَ لك هذا ؟ فقال من

(1) يقصد ابا مسلم الخراسانى داعية بنى العباس وموطد دولتهم .

كتب الحكماء ومن أحكام صصة بن داهر الهندىّ الذى وضع الشطرنج » . قلت والترك الذين أشار إلى ظهورهم بعد الدَّيْلم هم السَّلْجُوقيّة ، وقد انقضت دولتهم أول القرن السابع .

وقال جراس : « وانتقال القرَان إلى المثلثة المائية من برج الحوت يكون سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ليَزْدَجَرْدْ وبعدها إلى برج العقرب حيث كان قِرَان الملة ثلاث وخمسين . قال والذى فى الحوت هو أول الانتقال والذى فى العقرب يستخرج منه دلائل الملة . قال : وتحويلُ السّنة الأُولى من القِرَان الأول فى المثلثات المائية فى ثانى رجب سنة ثمان وستين وثمانمائة[1] » . ولم يستوف الكلام على ذلك .

وأما مستند المنجّمين فى دولة على الخصوص ، فمن القِرَان الأوسط وهيئة الفلك عند وقوعه ، لأن له دلالةً عندهم على حدوث الدولة ، وجهاتها من العمران ، والقائمين بها من الأمم ، وعدد ملوكهم وأسمائهم وأعمارهم ونَحِلِهم وأديانهم وعوائدهم وحروبهم ، كما ذكر أبو مَعْشر فى كتابه فى القِرَانات . وقد توجد هذه الدلالة من القِرَان الأصغر إذا كان الأوسط دالا عليه ، فمن هذا يوجد الكلام فى الدول .

وقد كان يعقوب بن إسحٰق الكندى منجّم الرّشيد والمأمون وضع فى القِرَانات الكائنَة فى الملة كتابًا سمّاه الشيعةُ بالجفر ، باسم كتابهم المنسوب إلى جعفر الصادق وذكر فيه ـ فيما يقال ـ حدْثان دولة بنى العبَّاس ، وأنها نهايته ، وأشار إلى انقِرَاضِها والحَادِثَة على بغداد أنها مع انتصاف المائة السابعة ، وأن بانقراضها يكون انقراض الملة . ولم نقف على شىء من خبر هذا الكتاب ولا رأينا من وقف عليه ؛ ولعلّه غَرِقَ فى كتبهم التى طرحها هُلاكُو مَلِكُ التَّتر فى دجلة عند استيلائهم على بغداد وقتل المستعصم آخر الخلفاء . وقد وقع بالمغرب جزءٌ منسوبٌ إلى هذا الكتاب يسمونه الجَفْرَ الصغير ، والظَّاهر أنه وضع لبنى عبد المؤمن ، لذكر الأولين من الملوك الموحدين فيه على التفصيل ، ومطابقة من تقدم عن ذلك من حِدْثانه وكذب ما بعده .

وكان فى دولة بنى العبَّاس من بعد الكندى منجِّمون وكُتُبٌ فى الحِدْثان . وانظر ما نقله الطبرى فى أخبار المهدِىّ عن أبى بُدَيْل من أصحاب صَنائِع الدولة ، قال : بعث إلىَّ الربيع والحسن فى غزاتهما مع الرّشيد أيام أبيه ، فجئتهما جوْفَ اللَّيل ، فإذا عندهما كتاب من كتب الدولة يعنى الحِدْثان ، وإذا مدَّةُ المهدِىّ فيه عشر سنين . فقلت : هذا الكتاب لا يخفى على المهدى ، وقد مضى من دولته ما مضى ، فإذا وقف عليه كنتم قد نَعَيْتمْ إليه نفسَه قالا : فما الحِيلة ؟ فاستدعيت عنبسة الوَرَّاق مولى آل بدَيل ، وقلت له انسخ هذه الورقة ، واكتب مكان عشر أربعين ففعل . فوالله لولا أنى رأيت العشرة فى تلك الورَقة والأربعين فى هذه ما كنت أشك أنها هى .

(١) انتهى هنا النص المنقول من جراس .

ثمّ كتب الناس من بعد ذلك فى حِدْثان الدول منظومًا ومنثورًا ورجزًا ما شاء الله أن يكتُبُوه ، وبأيدى الناس متفرقة كثيرٌ منها ، وتسمى الملاحم. وبعضها فى حِدْثان الملّة على العُموم ، وبعضُها فى دولة على الخصوص . وكلها منسوبةٌ إلى مشاهير أهل الخليقة . وليس منها أصل يعتمد على روايته عن واضعه المنسوب إليه .

فمن هذه الملاحم بالمغرب قصيدةُ ابن مِرّانَةَ من بحر الطويل على رَوِىّ الراء وهى متداولة بين الناس . وتحسب العامة أنها من الحِدْثان العامّ فيطلقون الكثير منها على الحاضرِ والمستقبل . والذى سمعناه من شيوخنا أنها مخصوصةٌ بدولة لَمْتُونَةَ ، لأن الرّجل كان قُبَيْل دولتهم ، وذكر فيها استيلاءهم على سَبْتَةَ من يد موالى بنى حَمُّود وملكهم لعُدْوة الأندلس .

ومن الملاحم بيد أهل المغرب أيضًا قصيدة تسمى التُّبّعِيَّة أوّلها :

طَرِبتُ وما ذَاكَ مِنّى طَرَبْ
وقدْ يطرَبُ الطّائرُ المغْتَصَبْ
وَمَا ذَاكَ مِنّى لِلَهْوٍ أراهُ
ولكِنْ لتذْكَارِ بَعْضِ السّبب

قريبًا من خمسمائة بيت أو ألف فيما يقال . ذكر فيها كثيرًا من دولة الموحدين وأشار فيها إلى الفاطمى وغيره . والظاهر أنها مصنوعة .

ومن الملاحم بالمغرِب أيضًا مَلْعَبَةٌ من الشعر الزجلىّ منسوبةٌ لبعض اليهود ، ذكر فيها أحكام القِرانات لعصره : العُلْوِيَيْنِ والنَحْسَيْن وغيرهما ، وذكر ميتتَه قَتيلًا بفَاس . وكان كذلك فيما زعموه . وأوله

فى صبغ ذا الأزرق لشرفه خيارًا
فافهموا يا قوم هذى الإشَارَا
نجم زحل بذى أخبر العلاما
وبدل الشكلا وهى سلاما
شاشية زرقا بدل العماما
وشاش أزرق بدل الغرارا

يقول فى آخره :

قد تم ذا التجنيس لإنسان يهودى
يصلب ببلدة فاس فى يوم عيد
حتى يجيه الناس من البوادى
وقتله يا قوم على الفراد

وأبياته نحو الخمسمائة ، وهى فى القِرَانات التى دلّت على دولة الموحدين .

ومن ملاحم المغرب أيضًا قصيدة من عَروض المتقارب على رَوِىّ الباء فى حِدْثَان دولة بنى أبى حفص بتونس من الموحدين ، منسوبة لابن الأبّارِ وقال لى قاضى قُسَنْطِينه الخطيب الكبير أبو على ابنُ بَاديس ، وكان بصيرًا بما يقوله ، وله قدم فى التنجيم ، فقال لى : إن هذا ابن الأبار ليس هو الحافظَ الأندلسى الكاتب مقتولَ المستنصر ، وإنما هو رجلٌ خياط من أهلِ تونس تواطأت شهرته مع شهرة الحافظ . وكان والدى رحمة الله تعالى ينشد هذه الأبيات من هذه الملحمة وبقى بعضها فى حفظى مطلَعُها :

عَذِيرِى مِنْ زَمَنٍ قُلَّبِ   يَغُرُّ بِبَسارِقَةِ الأشْنَبِ

ومنها

ويَبْعثُ منْ جيْشه قائدًا ويبقَى هُنَاك علَى مرْقَب
فتأْتى إلَى الشَّيخ أَخْبَارُهُ فَيُقْبلُ كالجمَل الأَجْرب
ويُظْهرُ من عدْلِه سِيرَةً وتلكَ سِياسَةُ مسْتَجْلِبِ

ومنها فى ذكر أحوال تونس على العموم :

فإمّا رأيْتَ الرسوم امّحت
ولم يُرْعَ حَقٌّ لذى مَنْصب
فخذ فى التَّرحُّل عن تُونُس
وودِّعْ معالِمَها واذهب
فسوفَ تكونُ بها فِتْنة
تُضِيفُ البرىء إلى المذْنب

ووقفْتُ بالمغرب على ملحمة أخرى فى دولة بنى أبى حفص هؤلاء بتونس ، فيها بعد السلطان أبى يحيى الشهير عاشر ملوكهم ذِكْرُ محمدٍ أخيه من بعده يقول فيها :

وبعدَ أبى عبْدِ الإلٰه شقيقُه
ويعرفُ بالوثّاب فى نُسخةِ الأصل

إلّا أن هذا الرّجل لم يملكها بعد أخيه ، وكان يُمَنِّى بذلك بفسه إلى أن هلك .

ومن الملاحم فى المغرب أيضًا المُلْعبَة المنسوبة إلى الهوشنى[1] على لغة العامة فى عروض البلد التى أوّلها :

دعنى بدمعى الهتّال فترت الأمطار ولم تفتر
واستقت كلها الوديان وأنى تملى وتنغدر
البلاد كلها تروى فاولى ما ميل ما تدرى
مابين الصيف والشتوى والعام والربيع تجرى
قال حين صحت الدعوى دعنى نبكى ومن عذر
أنادى من ذى الأزمان ذا القرن اشتد وتمرى

وهى طويلة ومحفوظة بين عامة المغرب الأقصى والغالب عليها الوضع ، لأنه لم يصح منها قول إلا على تأْويل تحرِّفه العامة أو الحارف فيه من ينتحلها من الخاصة .

ووقفتُ بالمشرق على ملحمة منسوبة لابن العرَبى الحاتمىِّ فى كلامٍ طويل شبه ألغاز لا يعلم تأْويلَه إلا الله تتخلله أوفاق عددية ، ورموز ملغوزة ، وأشكال حيوانات تامة ، ورؤوس مقطعة ، وتماثيل من حيوا ات غريبة . وفى آخرها قصيدة على روى اللام ، والغالب أنها كلها غيرُ صحيحة . لانها لم تنشأْ عن أصل علمى من نجامة ولا غيرها .

وسمعتُ أيضا أن هناك ملاحم أُخر . منسوبةٌ لابن سيبا وابن عقب ، وليس فى شىء منها دليل على الصحّة ، لأن ذلك إنما يؤْخذ من القِرَانَات .

ووقفت بالمشرق أيضًا على ملحمة من حِدْثان دولة الترك منسوبة إلى رجل من الصُّوفيّة يسمى البَاجَرِيقىّ وكلها ألغاز بالحروف ، أولها :

إن شِئْتَ تكشِفُ سرَّ الجَفْرِ ياسائلى
من علم جَفْرٍ وصِىٍّ والد الحسن
فافهم وكن واعيًا حرفًا وجملته
والوصفَ فافهم كفعل الحاذِقِ الفطِن
أمّا الذى قبل عصرى لست أذكره
لكننى أذكر الآتى من الزّمن

---

[1] هكذا ورد فى « التيمورية » . وفى غيرها : « الهوثنى »

بالشام ■

بشهر بيبرس يبقّى بعد محسنها
بحاء ميم بطيش نام فى الكتن
شين له أثر من تحت سرتــه
لا القضاء قضى أى ذلك المتن
فمصر والشام مع أرض العراق له
وأذربيجان فى ملك إلى اليمن

ومنها :

وآلَ بُوزَان لمــا نال طاهــرهم
القــاتك البــاتك المغنىُّ بالسمن
لخلع سين ضعيف السن سين أتى
لا لو فاق ونون ذى قــرن
قــوم شجاع له عقل ومشــورة
يبقى بحــاء وأين بعد ذو سمن

ومنها :

من بعــد باء من الأقوام قتلته
يلى المشورة ميم الملك ذو اللسن

ومنها :

هذا هو الأعرج الكلبى فاعن به
فى عصره فتن ناهيك من فتن
يأتى من الشرق فى جيش يقدمهم
عار عن القاف قاف جد بالفتن
بقتل دال ومثل الشــام أجمعها
أبدت بشجو على الأهلين والوطن
إذا أتى زلزلت ياويح مصر من
الزلزال ما زال حاء غير مقتطن
طاءٌ وظاءٌ وعين كلهم حبســوا
هلكا وينفق أمــوالا بلا ثمن
يسير القــاف قافًا عند جمعهم
هون به إن ذاك الحصن فى مكن
وينصبون أخــاه هو صالحهم
لا ســلم الألف سين لذاك بنى
تمت ولايتهم بالحــا لا أحــد
من السنين يدانى الملك فى الزمن

ويقال إنه أشارَ إلى الملك الظاهر وقدوم أبيه عليه بمصر :

يأتى إليــه أبوه بعــد هجرته
وطول غيبتــه والشظف والزرن

وأبياتُها كثيرةٌ والغالب أنها موضوعة ، ومثل صنعتها كان فى القديم كثيرًا أو معروفُ الانتالَ .

حكى المؤرخون لأخبار بغداد : أنه كان أيام المقتدر وَرّاقٌ ذكىٌّ يعرف بالدّنْيَالَ ، يبلُّ الأوراق ويكتب فيها بخط عتيق يرمز فيه بحروف من أسماء أهل الدولة ، ويشير بها إلى ما يعرف ميلهم إليه من أحوال الرفعة والجاه كأنها ملاحم ، ويحصل على ما يريد منهم من الدنيا ، وأنه وضع فى بعض دفاتره ميمًا مكررة ثلاث مرات ، وجاء به إلى مفلح مولى المقتدر (وكان عظيمًا فى الدولة) ، فقال له : هذا كناية عنك ، وهو مفلح مولى مقتدر (ميم فى كل واحدة) ، وذكر عندها ما يعلم فيه رضاه مما يناله من الدولة ونصب له علامات لذلك من أحواله المتعارفة موّه بها عليه ، فبذل له ما أغناه به . ثمّ وضعه للوزير (الحسن) بن القاسم بن وهب (على مفلح هذا) ، وكان معزولًا فجاءه بأوراق مثلها ، وذكر اسم الوزير بمثل هذه الحروف

وبعلَامَات ذكرها وأنه يلى الوزارة للثامن عشر من الخلفاء وتستقيم الأُمور على يديه ، ويقهر الأَعداء ، وتعمر الدُّنيا فى أيامه . وأوقف مفلحًا هذا على الأَوراق وذكر فيها كوائن أُخرى ، وملاحم من هذا هذا النوع ، مما وقع ومما لم يقع ، ونسب جميعه إلى دانيال . فأُعجب به مفلح . ووقف عليه المقتدرُ ، واهتدى من تلك الأُمور والعلامات إلى ابن وَهْب ، وكان ذلك سببًا لوزارته بمثل هذه الحيلة العريقة فى الكذب والجهل بمثل هذه الأَلغاز . والظاهر أن هذه المَلْحَمَةَ التى يَنْسُبونها إلى البَاجَرِيقى من هذا النوع .

ولقد سألت أكمل الدين ابن شيخ الحنفية من العجم بالدِّيار المصريَّة عن هذه الملحمة وعن هذا الرجل الذى تنسب إليه من الصوفية وهو الباجريقى وكان عارفًا بطرائقهم ، فقال : كان من القَلَنْدَرِيَّة المبتدعة فى حلق اللحية ، وكان يتحدث عما يكون بطريق الكشف ويومى إلى رجال معينين عنده ، ويلغز عليهم بحروف يعينها فى ضمنها لمن يراه منهم . وربما يظهر نظم ذلك فى أبيات قليلة كان يتعاهدها فتنوقلت عنه ، وولع الناس بها وجعلوها ملحمة مرموزة ، وزاد فيها الخرَّاصون (١) من ذلك الجنس فى كل عصر ، وشغل العامة بفك رموزها ، وهو أمر ممتنع ، إذ الرمز إنما يهدى إلى كشفه قانون يعرف قبله ، ويوضع له ، وأما مثل هذه الحروف فدلالتها على المراد منها مخصوصة بهذا النظم لا يتجاوزه . فرأيت من كلام هذا الرجل الفاضل شفاء لما كان فى النفس من أمر هذه الملحمة

« وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ »(١) .

والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

---

(١) « خرص خرصا كذب فهو خارص وخراص » .

(١) جزء من آية ٤٣ من سورة الأعراف .

(٢) عبارة : « والله سبحانه وتعالى اعلم وبه التوفيق » غير موجودة فى « التيمورية » . وبعد أن وضعت فى هذه النسخة علامة على ختام الباب ، كتب تحت هـــذه العلامة بخط فارسى (وخط النسخة نفسه من خط النسخ) العبارة الآتية :

« ثم وقفت بعد ذلك وانا بدمشق عند حلولى مع الركاب بها سنة اثنتين وثمانمائة وانا على قضاء المالكية بمصر ، فوقفت على تاريخ ابن كثير فى سنة اربع وعشرين وسبعمائة فى ترجمة التعريف بهذا الرجل ، فقال : شمس الدين محمد الباجريقى الذى نسبت اليـــه الفرقة الضالة الباجريقية ، والمشهور عندهم انكار الصانع . وكان والده جمال الدين عبد الرحيم ابن عمر الموصلى رجلا صالحا من علمـــاء الشافعية ، ودرس فى مدارس دمشق ، ونشأ ابنه هذا بين الفقهاء ، فاشتغل قليلا ، ثم اقبل على السلوك ، ولازمه جماعة يعتقدون فيه ممن هو على طريقته . ثم حكم القاضى المالكى باراقة دمه ، وهرب الى الشرق . ثم اقام البينة بالعداوة بينه وبين من شهد عليه . وحكم الحنبلى بحقن دمه . واقام بالقابون مدة سنين . وتوفى ليلة الاربعاء السادس عشر ربيع الآخر سنة اربع وعشرين (يعنى وسبعمائة) » .

ومن هذا يظهر ان الناسخ قد نقل هذه العبارة من تعليق اضافه ابن خلدون نفسه الى ما كانت عليه المقدمة قبل سنة ٨٠٢ ، ووضعه على هامشها . (انظر صفحات ٣٠٥ - ٣٠٩ ، وخاصة اول ٣٠٩ من التمهيد للمقدمة بمنشورة د . وافى) .

الباب الرابع

فى البلدان والأمصار وسائر العمران

وما يعرض فى ذلك من الأحوال وفيه سوابق ولواحق(1)

١ ـ فصل فى أن الدول أقدم من المدن والأمصار وأنها إنما توجد ثانية عن الملك

وبيانه ، أن البناء واختطاط. المنازل إنما هو من منازع الحضارة التى يدعو إليها الترف والدَّعَة كما قدمناه ، وذلك متأخرٌ عن البداوة ومنازعها .وأيضًا فالمدن والأمصارُ ذات هياكل وأجرامٍ عظيمة وبناء كَبير ، وهى موضوعةٌ للعموم لا للخصوص ، فتحتاج إلى اجتماع الأيدى وكثرة التعاون .وليست من الأمور الضرورية للناس التى تعم بها البلوى حتى يكون نزوعُهم إليها اضطرارًا ، بل لا بد من إكراههم على ذلك ، وسوْقهم إليه مضطهدين بعصا الملك أو مُرَغَّبين فى الثواب والأجرِ الذى لا يفى بكثرته إلا الملك والدولة . فلابد فى تمصير الأمصارواختِطاط. المدن من الدَّولة والمُلْك .

ثم إذا بنيت المدينةُ وكمل تشييدها بحسب نظر من شيدها ، وبما اقتضته الأحوال السماوية والأَرضيَّةُ فيها ، فعمر الدولة حينئذ عمرٌ لها ؛ فإن كان عمر الدولة قصيرًا وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمرانُها وخربت ؛وإن كان أمد الدولة طويلا ومُدَّتها منفسحةً فلا تزال المصانع فيها تُشَادُ ، والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدد ، ونطاق الأَسواق يتباعدُ وينفسح ، إلى أن تتسع الخطَّة ، وتبعد المسافة ، وينفسح ذَرْعُ المساحة ، كما وقع ببغداد وأمثالها . ذكر الخطيب فى تاريخه : أن الحمَّامات بلغ عددها ببغداد لعهد المأمون خمسةً وستِّينَ ألفَ حَمَّام ، وكانت مشتملةً على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الأَربعين ، ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لإفراط. العمران . وكذا حال القَيْروان وقرطبة والمهديَّة فى المِلَّة الإسلامية ، وحال مصر القاهرة بعدها فيما يبلغُنا لهذا العهد .

وأما بعد انقراض الدولة المشَيِّدَةِ للمدينة : فإما أن يكون لضواحى تلك المدينة وما قاربَها من الجبال والبسائط. مادةٌ تفيدها العمرانَ دائمًا ، فيكون ذلك حافظًا لوجودها ، ويستمرُّ عمرها بعد الدولة كما تراه بِفَاس وبِجَاية من المغرب ، وبعراق العجم من المشرق الموجود لها العمران من الجبال ؛

(1) علق د. وافى على هذا الباب بقوله فى ص ٩٦٥ من منشورته : « عرض ابن خلدون فى هذا الباب لما سماه العلامة دور كايم « المورفولوجيا الاجتماعية » . وقد ظن دور كايم وأعضاء مدرسته أنهم أول من فطن إلى الخواص الاجتماعية لهذه الظواهر ، وأول من أدخلها فى مسائل علم الاجتماع . ولم يدروا أنه قد سبقهم إلى ذلك ابن خلدون بأكثر من خمسة قرون .

لأن أهلَ البداوة إذا انتهت أحوالُهم إلى غاياتها من الرّفهِ والكسب ، تدعو إلى الدَّعة والسكون الذى فى طبيعة البشر ، فينزلُون المدن والأمصار ويتأهلون وأما إذا لم يكن لتلك المدينة المؤسَّسة مادةُ تفيدها العمران بترادف الساكن من بدْوها ، فيكون انقراض الدولة خرقًا لسياجها ، فيزول حفْظها ، ويتناقص عمرانها شيئًا فشيئًا إلى أن يَبْذَعِرّ[1] ساكنها وتخرب ، كما وقع بمصْر وبغداد والكوفة بالمشرق ، والقيروان والمهديَّة وقلعة بنى حَمَّاد بالمغرب ، وأمثالها فتفهمه .

وربما ينزل المدينةَ بعد انقراض مختطيها الأولين مَلِكٌ آخر ودولة ثانية ، يتخذها قرارًا وكرسيًّا يستغنى بها عن اختطاط مدينة ينزلها ، فتحفظ تلك الدولة سياجها وتتزايَدَ مبانيها ومصانعها بتزايُدِ أحْوال الدولة الثَّانية وترفها ، وتستجد بعمرانها عمرًا آخر كما وقع بفاس والقاهرة لهذا العهد . والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

٢ — فصل فى أن الملك يدعو إلى نزول الامصار

وذلك أن القبائل والعصائِبَ إذا حصلَ لهم الملك اضطُرّوا للاستيلاء على الأمصار لأمرين : أحدهما ما يدعو إليه الملكُ من الدَّعة والراحة وحَطِّ الأثقال واستكمال ما كان ناقصًا من أُمور العمران فى البدو ؛ والثانى دفع ما يُتَوَقَّعُ على الملك من أمر المنازعين والمشاغبين ، لأن المصرَ الذى يكون فى نواحيهم ربما يكون ملجأً لمن يروم منازعتَهم والخروج عليهم وانتِزَاع ذلك المُلْك الذى سموا إليه من أيديهم ، فيعتصم بذلك المِصر ويغالبهم ، ومغالبة المصر على نهاية من الصعوبة والمشقة ، والمِصْرُ يقوم مقام العساكر المتعددة لما فيه من الامتناع ونِكَاية الحرب من وراء الجدران من غير حاجة إلى كثيرِ عَدَد ولا عظيمِ شوكة ؛ لأن الشوكة والعصابة إنما احتيج إليهما فى الحرب للثبات ، لما يقع من بعد كَرَّة القوم بعضهم على بعض عند الجولة ، وثباتُ هؤلاء بالجدران ، فلا يضطرون إلى كبير عصابة ولا عدد . فيكون حال هذا الحصن ومن يعتصم به من المنازعين مما يَفُتُّ فى عضد الأمة التى تروم الاستيلاء ، ويخضِدُ شوكةَ استيلائها . فإذا كانت بين أحيائهم[1] أمصار انتظموها فى استيلائهم للأمن من مثل هذا الانْخِرَام . وإن لم يكن هناك مصرٌ استحدثوه ضرورة لتكميل عمرانهم أوّلًا وحطِّ أثقالهم ، وليكون ثانيًا شجًا فى حلق من يروم العزة والامتناع عليهم من طوائفهم وعصائبهم . فتعين أن الملك يدعو إلى نُزُول الأمْصار والاستيلاء عليها . والله سبحانه وتعالى أعلم ، وبه التوفيق لاربَّ سواه .

٣ — فصل فى أن المدن العظيمة والهياكل المرتفعة إنما يشيدها الملك الكثير

قد قدمنا ذلك فى آثار الدولة من المبانى وغيرها وأنها تكون على نسبتها . وذلك أن تَشْييد المدن

(١) يبذعر : يتفرق .

(١) هكذا وردت هذه الكلمة فى النسخة « التيمورية » ووردت فى جميع النسخ المتداولة محرفة إلى « أجنابهم » .

(٢) يحيل بذلك على ما ذكره فى الفصل الثامن عشر من الباب الثالث .

إنما يحصل باجتماع الفَعَلة وكثرتهم وتعاونهم ؛ فإذا كانت الدولة عظيمة متسعة الممالك حُشِر الفَعَلةُ من أقطارها ، وجُمعت أيديهم على عملها . وربما استعين فى ذلك فى أكثر الأمر بالهِنْدام(١) الذى يضاعف القوى والقُدرَ فى حمل أثقال البناء ، لعجز القوة البشرية وضعفها عن ذلك ، كالمَحَال(٢) وغيره . وربما يتوهم كثيرٌ من الناس إذا نظر إلى آثار الأَقدمين ومصانِعهم العظيمة ، مثل إيوان كسرى ، وأهرام مصر ، وحَنَايا المعلقة وشرْشَال بالمغرب ، أنها كانت بقدرتهم متفرقين أو مجتمعين فيتخيل لهم أجسامًا تناسب ذلك أعظم من هذه بكثير فى طولها وقُدَرِها لتناسب بينها وبين القُدَر التى صدرت تلك المبانى عنها ، ويَغْفُل عن شأن الهندام وَالمَحَال ، وما اقتضته فى ذلك الصناعةُ الهندسيَّةُ .

وكثير من المتغلبين فى البلاد يعاين فى شأن البناء واستعمال الحِيَل فى نقل الأجرام عند أهل الدّولة المعتنين بذلك من العجم ما يشهد له بما قلناه عِيانًا . وأكثر آثار الأَقدمين لهذا العهد تسميها العامة عاديَّةً نسبة إلى قوم عاد لتوهُّمهم أن مبانى عاد ومصانعهم إنما عظمت لعظم أجسامهم وتضاعف قُدَرهم وليس كذلك . فقد نجد آثارًا كثيرةً من آثار الذين تعرف مقادير أجسامهم من الأُمم وهى فى مثل ذلك العِظَم أو أعظم ، كإيوان كسرى ، ومبانى العُبَيْديِّين من الشيعة بإفريقيَة ، والصَّنْهَاجِيِّين . وأثرهم باد إلى اليوم فى صومعة قلعة بَنى حمَّاد ، وكذلك بناءُ الأَغالِبَة فى جامع القيروان ، وبناءُ المُوحِّدين فى ربَاط الفتْح ، ورباط السلطان أبى سعيد لعهد أربعين سنة فى المنصورة بإزاء تِلِمْسان ، وكذلك الحنايا التى جلب إليها أهل قرْطَاجَنَّة الماء فى القناة الراكبة عليها ماثلة أيضًا لهذا العهد ، وغير ذلك من المبانى والهياكل التى نقلت إلينا أخبار أهلها قريبًا وبعيدًا وتيقنَّا أنهم لم يكونوا بإفراط فى مقادير أجسامهم ، وإنما هذا رأى وَلِع به القصاص عن قوم عادٍ وثمود والعمالقة ، ونجد بيوت ثمود فى الحجر منحوتة إلى هذا العهد . وقد ثبت فى الحديث الصحيح أنها بيوتهم يمر بها الركب الحجازى أكثر السنين ويشاهدونها لا تزيد فى جوها ومساحتها وسمكها على المتعاهد . وإنهم ليبالغون فيما يعتقدون من ذلك ، حتى إنهم ليزعمون أن عُوجَ ابنَ عَنَاق من جِيلِ العمالقة كان يتناولُ السَّمك من البحر طريًّا فيشويه فى الشمس ، يزعمون بذلك أن الشمس حارة فيما قرب منها ، ولا يعلمون أن الحر فيما لدينا هو الضوءُ لانعكاس الشعاع بمقابلة سطح الأَرض والهواء ، وأما الشمس فى نفسها فغير حارة ولا باردة ، وإنما هى كوكب مضىءٌ لامِزَاجَ له . وقد تقدم شىءٌ من هذا فى الفصل الثانى . حيث ذكرنا أن آثار الدولة على نسبة قوتها فى أصلها والله يخلق ما يشاء ويحكم ما يريد .

---

(١) يطلق الهندام على حسن التنظيم والإصلاح والأدارة ، ويقصد به ابن خلدون هنا ما يشمل كذلك العدد والآلات والأجهزة التى يستعان بها فى الصناعات .

(٢) فى القاموس « المحالة والمحال ، الخشبة التى يستقر عليها الطيانون (البناءون) فى أثناء بنائهم وتشييدهم للبيوت » . وهى التى نسميها فى مصر « السقالة » .

(١) صوابه الفصل الثالث. انظر منشورة د. وافى ص٩٧٠ .

٤ – فصل فى أن الهياكل العظيمة جداً لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة

والسببُ فى ذلك ما ذكرناهُ من حاجة البناء إلى التَّعَاوُن ومضاعفة القُدَر البشرية ؛ وقد تكون المبانى فى عظمها أكثر من القُدَر مفردةً أو مضاعفةً بالهنْدام كما قلناه فيُحتاجُ إلى معاودة قُدَر أُخرى مثلها فى أزمنة متعاقبة إلى أن تتم ، فيبتدئ الأول منهم بالبناء ويعقبه الثانى والثالث ، وكل واحد منهم قد استكمل شأنه فى حشر الفعَلَة وجمع الأيدى حتى يتم القصد من ذلك ويكمل ويكون ماثلاً للعِيان يظنه من يراه من الآخرين أنه بناء دولة واحدة .

وانظر فى ذلك ما نقله المؤرِّخُون فى بناء سَدّ مأرب وأن الذى بناه سبأ بن يشْجب ، وساق إليه سبعين وادياً ، وعاقه الموتُ عن إتمامه فأتمَّه ملوك حمير من بعده ، ومثل هذا ما نقل فى بناء قرطاجنة وقناتها الراكبة على الحنايا العادِيَّة . وأكثر المبانى العظيمة فى الغالب هذا شأنُها ، ويشهد لذلك أن المبانى العظيمة لعهدنا نجد الملك الواحد يشرع فى اختِطاطها وتأسيسها ، فإذا لم يتبع أثرَه مَنْ بعده من الملوك فى إتمامها بقيت بحالها ولم يكمل القصد فيها .

ويشهدُ لذلك أيضاً أنا نجد آثارا كثيرة من المبانى العظيمة تعجز الدول عن هدمها وتخريبها ، مع أن الهدم أيسر من البناء بكثير ، لأن الهدْمَ رجوعٌ إلى الأصل الذى هو العدم ، والبناءَ على خلاف الأصل ؛ فاذا وجدنا بناءً تضعف قوتنا البشرية عن هدمه مع سهولة الهدم ، علمنا أن القدرة التى أسسته مفرِطةُ القوة ، وأنها ليست أثر دولة واحدة . وهذا مثل ما وقع للعرب فى إيوان كسرى لما اعتزم الرشيد على هدمه وبعث إلى يَحْيى بن خَالد وهو فى محبسه يستشيره فى ذلك ، فقال : ياأمير المؤمنين لا تفعل واتركه ماثلا ، يُستَدل به على عِظَم ملك آبائك الذين سلبوا الملك لأهل ذلك الهيكل . فاتهمه فى النصيحة ، وقال : أخذته النُّعْرة للعجم ، والله لأصرعنَّه ، وشرع فى هدمه وجمع الأيدى عليه ، واتخذ له الفؤوس وحماه بالنار ، وصب عليه الخل حتى إذا أدركه العجز بعد ذلك كله وخاف الفضيحة ، بعث إلى يحيى يستشيره ثانياً فى التجافى عن الهدم . فقال : ياأمير المؤمنين لاتفعل واستمرَّ على ذلك ، لئلا يقال عجز أميرُ المؤمنين ومَلِكُ العرب عن هدم مصنع من مصَانع العجَم . فعرفها الرشيد وأقصر[1] عن هدمه .

وكذلك اتفق للمأمونِ فى هدْم الأهرام التى بمصر وجمع الفعَلَة لهدمها فلم يَحْلَ[2] بطائل ، وشرعوا فى نقبه ، فانتهوا إلى جَوّ بين الحائط الظاهر وما بعده من الحيطان ، وهناك كان منتهى هدْمهم ؛ وهو إلى اليوم فيما يقال منفذٌ ظاهر . ويزعم الزاعمون أنه وجد رِكازا[3] بين تلك الحيطان . والله أعلم .

وكذلك حنايا المعلقة إلى هذا العهد : يحتاج أهل مدينة تونس إلى انتخاب الحجارة لبنائهم

(١) فى القاموس : أقصر عن الشىء عجز والمراد هنا كف عنه .

(٢) يعنى لم يفز بما يريد .

(٣) الركاز : المال المدفون ؛ ويقال هو المعدن (المصباح) .

ويستجيد الصناع حجارة تلك الحنايا فيحاولون على هدمها الأيام العديدة ولا يسقط الصغير من جدرانها إلا بعد عَصْب الريق[1] ، وتجتمع له المحافل المشهورة ؛ شهدت منها فى أيام صباى كثيرًا . «والله خَلَقَكُم ومَا تَعْمَلُونَ»[2] .

٥ – فصل فيما يجب مراعاته فى أوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن تلك المراعاة

اعلم أن المدن قرارٌ يتخذه الأمم عند حصول الغايةِ المطلوبة من الترف ودواعيه ، فتؤثر الدَّعةَ والسكونَ ، وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار . ولما كان ذلك للقرار والمأوى ؛ وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها ، وجلب المنافع ، وتسهيل المرافق لها .

فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعًا سِياجُ الأسْوار ؛ وأن يكون وضع ذلك فى مُتمنّع من الأمكنة ، إما على هضبة متوعرة من الجبل ، وإما باستداره بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة ، فيصعب مَنَالُها على العدو ، ويتضاعف امتناعها وحصنها .

ومما يُراعى فى ذلك للحماية من الآفات السَّماويّة طيبُ الهواء للسلامة من الأمراض ؛ فإن الهواء إذا كان راكدًا خبيثًا ، أو مجاورًا للمياه الفاسِدة أو مناقع متعفنة أو مروج خبيثَة أسرع إليه العفن من مجاورتها ، فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة ؛ وهذا مشاهد .

والمدن التى لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض فى الغالب . وقد اشتهر بذلك فى قطر المغرب بلد قابس من بلاد الجريد بإفريقية ، فلا يكاد ساكِنُها أو طارقها يخلص من حُمَّى العفَن بوجه . ولقد يقال إن ذلك حادث فيها ، ولم تكن كذلك من قبل . ونقل البكرى فى سبب حدوثه أنه وقع فيها حفر ظهر فيه إناءٌ من نحاس مختوم بالرصاص ، فلما فض ختامَه صَعِد منه دخانٌ إلى الجو وانقطع ؛ وكان ذلك مبدأَ أمراض الحميات فيه . وأراد بذلك أن الإناء كان مشتملا على بعض أعمالِ الطِّلَسْمات لوبَائه ، وأنه ذهب سره بِذَهابه ، فرجع إليها العفَن والوبَاء . وهذه الحكاية مِن مذاهب العامة ومباحثهم الركيكة . والبكرِىُّ لم يكن من نباهة العلم واستِنارة البصيرة بحيث يدفع مثل هذا أو يتبين خَرَفَه فنقله كما سمعه .

والذى يكشف لك الحق فى ذلك أن هذه الأهْوِيةَ العفِنَة أكثر ما يهيئها لتعفين الأجسام وأمراض الحميات رُكُودها ، فإذا تخللتها الريح وتفشَّت وذهبت بها يمينًا وشمالًا خف شأن العفن والمرض البادى منها للحيوانات . والبلدُ إذا كان كثيرَ السَّاكن وكثرت حركات أهله فيتموَّجُ الهواءُ ضرورةً وتحدث الريح المتخللة للهواء الرّاكد ، ويكون ذلك معينًا له على الحركة والتموّج . وإذا خفَّ السَّاكِنُ لم يجد الهواء معينًا على حركته وتموّجه ، وبقى ساكنًا راكدًا وعظُم عفنُه وكثُر ضرره . وبلد قَابس هذه كانت عندما كانت إفريقية مستجدّة العمران كثيرةَ الساكن تموج

---

(١) هو كناية عن شدة التعب .

(٢) آية ٩٦ من سورة الصافات .

بأهلها موجًا ؛ فكان ذلك معينًا على تموج الهواء واضطرابه وتخفيف الأذى منه ؛ فلم يكن فيها كثيرُ عفَن ولا مرض . وعندما خف ساكنها ركد هواؤها المتعفن بفساد مياهها ، فكثر العفن والمرض ، فهذا وجهه لا غير . وقد رأينا عكسَ ذلك فى بلاد وُضِعت ولم يُراعَ فيها طيب الهواء وكانت أوّلًا قليلة السّاكن فكانت أمراضها كثيرة ، فلما كثر ساكنها انتقل حالها عن ذلك . وهذا مِثْل دَارِ الملك بِفَاس لهذا العهد المسمى بالبلَد الجديد ، وكثير من ذلك فى العالم . فتفهّمه تجد ما قلته لك

وأما جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيه أمور . منها . . الماءُ بأن يكون البلد على نهر أو بإزائها عيون عذبة ثَرَّة(١) فإن وجود الماء قريبًا من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهى ضرورية ، فيكون لهم فى وجوده مِرْفَقَةٌ عظيمة عامة . ومما يراعى من المرافق فى المدن طيب المراعى لسائِمَتهم ؛ إذ صاحب كل قرار لا بد له من دواجن الحيوان للنّتاج والضّرع والرّكوب ، ولا بد لها من المرعى ؛ فإذا كان قريبًا طيبًا كان ذلك أرفق بحالهم ، لما يعانونَ من المشقة فى بُعده .

ومما يراعى أيضًا المزارعُ ؛ فإن الزُّروع هى الأقواتُ ؛ فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهلَ فى اتخاذه وأقربَ فى تحصيله . ومن ذلك الشجر للحطب والبِنَاء ؛ فإن الحطب مما تعم البلوى فى اتخاذه لوقود النيران للاصْطِلَاء والطَّبخ ؛ والخشب أيضًا ضرورىٌ لسقُفهم وكثير مما يستعملُ فيه الخشب من ضرورياتهم . وقد يراعى أيضًا قربُها من البحر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية ؛ إلا أن ذلك ليس بمثابة الأول .

هذه كلها متفاوتة بتفاوت الحاجات ، وماتدعو إليه ضرورة الساكن . وقد يكون الواضع غافلا عن حسن الاختيار الطّبيعى أو إنما يراعى ماهو أهم على نفسه وقومه ، ولا يذكر حاجة غيرهم ؛ كما فعله العرب لأول الإسلام فى المدن التى اختَطّوها بالعراق وإفْرِيقِيَة ، فإنهم لم يراعوا فيها إلا الأهم عندهم من مراعى الإبل وما يصلح لها من الشجر والماء المِلْح ، ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعى السائمة من ذوات الظِلْف ولا غير ذلك ، كالقيروان والكوفة والبصرة وأمثالها ، ولهذا كانت أقرب إلى الخراب لما لم تراع فيها الأُمور الطبيعية .

(فصل) ومما يُراعى فى البلاد الساحلية التى على البحر أن تكُونَ فى جَبَلٍ ، أو تكونَ بين أُمة من الأُمم موْفُورَة العدد تكون صريخًا(١) للمدينة متى طرقها طارقٌ من العدو .

والسبب فى ذلك أن المدينةَ إذا كانت حاضرةَ البحر ، ولم يكُن بساحتها عمرانٌ للقبائل أهل العصبيات ، ولا موضعها متوعر من الجبل كانت فى غِرَّةٍ للبيَاتِ ، وسَهل طروقُها فى الأساطيل البحريَّة على عدوها وتحيُّفُه لها ، لما يأْمن من وجُود الصّرِيخِ لها ، وأن الحَضَر المتعودين للدّعة قد صاروا عِيَالًا وخرجوا عن حكم المقاتلة ؛ وهذه

(١) الثرة من العيون الغزيرة (القاموس) .

(١) الصريخ والصارخ : المغيث والمستغيث (القاموس) .

كالاسكندرية من المشرق وطرابلس من المغرب وبُونَةَ ، وسَلَا . ومتى كانت القبائل والعصائب مُتَوطِّنين بقربها بحيث يبلغهم الصريخ والنَّفير ، وكانت متوعرة المسالك على من يرومها باختطاطها فى هِضَاب الجبال وعلى أَسْنِمَتِهَا ، كان لها بذلك مَنَعَةٌ من العدو ويئسوا من طروقها ، لما يكابدونه من وعرها ، وما يتوقعونه من إجابة صَريخها ، كما فى سَبْتَة وبجاية وبلد القلِّ على صغرها . فافهم ذلك واعتَبره فى اختصاص الإسكندرية باسم الثغر من لدن الدولة العباسية ، مع أن الدعوة منورائها ببرقة وإفْرِيقِيَة ، وإنما اعتبر فى ذلك المخافة المتوقعة فيها من البحر لسهولة وضعها . ولذلك ــ والله أعلم ــ كان طروق العدو للاسكندرية وطرابلس فى المِلَّة مرات متعددةً . والله تعالى أعلم .

٦ ــ فصل فى المساجد والبيوت العظيمة فى العالم

اعلم أن الله سبحانه وتعالى فضَّل من الأرض بقاعًا اختصها بتشريفه ، وجعلهَا مَواطنَ لعبادته ، يضاعِفُ فيها الثَّواب ، وينمى بها الأُجور ، وأخبرنا بذلك على ألسن رسله وأنبيائه لطفًا بعباده وتسهيلًا لطرق السعادة لهم .

وكانت المساجد الثلاثة هى أفضل بقاع الأرض حسبما ثبت فى الصحيحين وهى : مكة والمدينة وبيت المقدس .

أما البيت الحرام الذى بمكة فهو بيتُ إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، أمره الله ببنائه وأن يُؤَذِّن فى الناس بالحج إليه ، فبناهُ هو وابنه إسماعيل كما نصه القرآن ، وقام بما أمره الله فيه ، وسكَن إسماعِيلُ به مع هاجر ومن نَزَلَ معهم من جُرْهُم إلى أن قبضهما الله ودفنا بالحِجْر منه .

وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام أمرهما الله ببِناءِ مسْجِده ونصب هياكله ؛ ودفن كثير من الأَنبياءِ من وُلد إسحق عليه السلام حواليه .

والمدينة مُهاجَر نبينا محمد ، صلوات الله وسلامه عليه ، أمره الله تعالى بالهجرة إليها وإقامة دين الإسلام بها ، فبنى مسجده الحرام بها ، وكان ملحَدُه الشريف فى تربتها .

فهذه المساجد الثلاثة قرة عين المسلمين ، ومهوى أفئِدَتهم ، وعظمة دينهم . وفى الآثار من فضلها ومضاعفة الثواب فى مجاورتها والصلاة فيها كثير معروف . فلنشر إلى شىء من الخبر عن أولية هذه المساجد الثلاثة وكيف تدرّجت أحوالها إلى أن كمل ظهورها فى العالم .

فأما مكة فأوليتها ــ فيما يقال ــ أن آدم صلوات الله عليه بناها قبالة البيت المعمور ، ثم هدمها الطوفان بعد ذلك . وليس منه خبر صحيح يعول عليه ، وإنما اقتبسوه من مجمل الآية فى قوله : «وَإِذْ يَرْفَعُ إبراهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وإسْمَاعِيلُ[١]» . ثم بعث الله إبراهيم ، وكان من شأنه وشأن زوجته سارَة وغيرتها من هاجَر ماهو معروف . وأوحى الله إليه أن يترك ابنه إسماعيل وأمه هاجر بالفلاة ، فوضعهما فى مكان البيت وسار عنهما ، وكيف جعل الله لهما من اللّطف فى نَبْع ماء زمزم

(١) آية ١٢٧ من سورة البقرة .

ومرور الرفقة من جُرْهُم بهما ، حتى احتملوهما وسكنوا إليهما ، ونزلوا معهما حوالى زمزم كما كما عرف فى موضعه[١] . فاتخذ إسماعيل بموضع الكعبة بيتًا يأوى إليه ، وأدار عليه سياجًا من الدَّوْم[٢] وجعله زِرْبًا لغنمه . وجاء إبراهيم صلوات الله عليه مرارًا لزيارته من الشام ، أمر فى آخرها ببناء الكعبة مكان ذلك الزِّرْب ، فبناه واستعان فيه بابنه إسماعيل ودعا الناس إلى حجه[٣] ، وبقى إسماعيل ساكنًا به . ولما قبضت أمه هاجَر (دفنها ، ولم يزل قائما بخدمته إلى أن قبضه الله تعالى ودفن مع أمه هاجر) .[٤] وقام بنوه بعده بأمر البيت مع أخوالهم من جرهم ، ثم العماليق من بعدهم ، واستمر الحال على ذلك ، والناس يُهْرَعون إليها من كل أفق من جميع أهل الخليقة لامن بنى إسماعيل ولا من غيرهم ممن دنَا أو نَأى . فقد نقل أن التَّبابعة كانت تحج البيت وتعظمه وأن تُبَّعًا كساها الملاء الوصائل ، وأمر بتطهيرها وجعل لها مفتاحًا . ونقل أيضًا أن الفرس كانت تحجه وتُقَرِّب إليه ، وأن غَزالَيْ الذهب اللذين وجدهما عبد المطلب حين احْتَفَر زمزم كانا من قرابينهم . ولم يزل لجرهم الولاية عليه من بعد وُلْدِ إسماعيل من قِبَل خُؤُولَتهم ، حتى أخرجتهم خُزاعة وأقاموا بها بعدهم ماشاء الله . ثم كثر وُلْد إسماعيل وانتشروا وتشعبوا إلى كنانة ، ثم كنانة إلى قريش وغيرهم ، وساءت ولاية خزاعة فغلبتهم قريش على أمره وأخرجوهم من البيت وملكوا عليهم يومئذ قصَىُّ بن كلاب فبنى البيت وسقَّفه بخشب الدوم وجريد النخل . وقال الأعشى :

حلَفْتُ بثَوْبَىَ راهِبِ الدُّور والَّتى
بنَاهَا قُصَىٌّ والمَضَاضُ بنُ جُرْهُم

ثم أصاب البيت سيل ، ويقال حريق ، وتهدم وأعادوا بناءه وجمعوا النفقة لذلك من أموالهم وانكسرت سفينة بساحل جُدَّة فاشتروا خشبها للسقف . وكانت جدرانه فوق القامة فجعلوها ثمانية عشر ذراعًا ، وكان الباب لاصقًا بالأرض فجعلوه فوق القامة لئلا تدخله السيول ، وقصَّرَتْ بهم النفقة عن إتمامه فقصروا عن قواعده وتركوا منه ستة أذرع وشبرًا أداروها بجدار قصير يطاف من ورائه وهو الحِجْر[١] . وبقى البيت البيت على هذا البناء إلى أن تحصن ابن الزبير بمكة حين دعا لنفسه ، وزحفت إليه جيوش يزيد بن معاوية مع الحصين بن نمير السكونى ورمى البيت سنة أربع وستين فأصابه حريق ، يقال من النفط الذى رموابه على بن الزبير . فأعاد بناءه أحسن ماكان ، بعد أن اختلفت عليه الصحابة فى بنائه ، واحتج عليهم بقول رسول

(١) أشار القرآن الكريم إلى هذه القصة فى الآية ٣٧ من سورة إبراهيم حيث يقول : « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

(٢) الدوم بالفتح : شجر المقل والنبق . وقد حرفت هذه الكلمة فى النسخ المتداولة إلى « الردم » .

(٣) انظر الآيتين ٢٦ ، ٢٧ من سورة الحج .

(٤) ما بين الحاصرتين انفردت به النسخة المساة « التيمورية » .

(١) انظر : فتح البارى على صحيح البخارى فى باب فضل مكة وبنيانها ، وانظر كذلك شرح النووى على صحيح مسلم .

الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها : لولا قومك حديثو عهد بكفر لرددت البيت على قواعد ابراهيم ، ولجعلت له بابين شرقيًا وغربيًا ، فهدمه وكشف عن أساس إبراهيم عليه السلام وجمع الوجوه والأكابر حتى عاينوه . وأشار عليه ابن عباس بالتحرى فى حفظ القبلة على الناس فأدار على الأساس الخشب ونصب من فوقها الأستار حفظًا للقبلة . وبعث إلى صنعاء فى القَصَّة[1] والكِلْس[2] ، فحملها ، وسأل عن مقطع الحجارة الأول فجمع منها ما احتاج إليه . ثم شرع فى البناء على أساس ابراهيم عليه السلام ، ورفع جدرانها سبعا وعشرين ذراعا ، وجعل لها بابين لاصقين بالأرض كما روى فى حديثه ، وجعل فرشها وأَزْرَها[3] بالرخام ، وصاغ لها المفاتيح وصفائح الأبواب من الذهب . ثم جاء الحجاج لحصاره أيام عبد الملك ورمى على المسجد بالمنجنيقات إلى أن تصدعت حيطانها . ثم لما ظفر بابن الزبير شاوَر عبد الملك فيما بناه وزاده فى البيت فأمره بهدمه ورد البيت على قواعد قريش كما هى اليوم . ويقال إنه ندم على ذلك حين علم صحة رواية ابن الزبير لحديث عائشة وقال : أنى كنت حَمَّلتُ أبا حبيب فى أمر البيت وبنائه ما تحمل . فهدم الحجاج منها ستة أذرع وشبرا مكان الحِجْرِ ، وبناه على أساس قريش وسد الباب الغربى وما تحت عتبة بابها اليوم من الباب الشرقى ، وترك سائرها لم يغير منه شيئا . فكل البناء الذى فيه اليوم بناء ابن الزبير ، وبناء الحجاج فى الحائط. صلةٌ ظاهرةٌ للعِيان ، لحمة ظاهرة بين البناءين ، والبناء متميزٌ عن البناء بمقدار إصبع شبه الصدع ، وقد لُحِم .

وبعرض ههنا إشكال قوى لمنافاته لما يقوله الفقهاء فى أمر الطواف : «ويحذر الطائف أن يميل على الشَّاذَرْوان الدائر على أساس الجدر من أسفلها فيقع طوافه داخل البيت بناء على أن الجدر إنما قامت على بعض الأساس وترك بعضه ، وهو مكان الشَّاذَرْوَان » . وكذا قالوا فى تقبيل الحجر الأسود «لابدَّ منْ رُجُوع الطَّائِفِ من التَّقبيل حتى يستوىَ قائمًا لئلا يقع بعض طوافه داخل البيت » . وإذا كانَتَ الجدران كلها من بناء ابن الزبير ، وهو إنما بنى على أساس إبراهيم فكيف يقع هذا الذى قالوه ؟

ولا مخلص من هــــذا إلا بأحد أمرين : إما أن يكون الحجاج هدم جميعه وأعاده ، وقد نقل ذلك جماعة ، إلا أن العيان فى شواهد البناء بالتحام مابين البناءين وتمييز أحد الشقين من أعلاه عن الآخر فى الصناعة يرد ذلك ؛ وإما أن يكون ابن الزبير لم يرد البيت على أساس ابراهيم من جميع جهاته ، وإنما فعل ذلك فى الحِجْر فقط ليدخله فهى الآن مع كونها من بناء ابن الزبير ليست على قواعد إبراهيم ، وهذا بعيد . ولامحيص من هذين . والله تعالى أعلم .

(١) القصة هى الجص الذى يبنى به .

(٢) من مواد البناء تطلى به الحيطان . (المصباح) .

ثم إن مساحة البيت وهو المسجد كان فضاء للطائفين ، ولم يكن عليه جدر أيام النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر من بعده . ثم كثر الناس فاشترى عمر رضى الله عنه دوراً هدمها وزادها فى المسجد وأدار عليها جداراً دون القامة . وفعل مثل ذلك عثمان ، ثم ابن الزبير ، ثم الوليد بن عبد الملك وبناه بِعُمُد الرخام ، ثم زاد فيه المنصور وابنه المهدى من بعده . ووقفت الزيادة واستقرت على ذلك لعهدنا .

وتشريف الله لهذا البيت وعنايته به أكثر من أن يحاط. به . وكفى من ذلك أن جعله مهبطاً للوحى والملائكة ومكاناً للعبادة وفرض شعائر الحج ومناسكه ، وأوجب لَحَرَمِه من سائر نواحيه من حقوق التعظيم والحق مالم يوجبه لغيره : فمنع كل من خالف دين الإسلام من دخول ذلك الحرم ؛ وأوجب على داخله أن يتجرد من المخيط. إلا إزاراً يستره ؛ وحمى العائذ به والراتع فى مسارحه من مواقع الآفات ، فلا يرام فيه خائف ولا يصاد له وحش ولا يحتطب له شجر. وحد الحرم الذى يختص بهذه الحرمة من طريق المدينة ثلاثة أميال إلى التنعيم ، ومن طريق العراق سبعة أميال إلى الثنية من جبل المنقطع ، ومن طريق الطائف سبعة أميال إلى بطن نمرة ، ومن طريق جدة سبعة أميال إلى إلى منقطع العشائر .

هذا شأن مكة وخبرها وتسمى أمّ القُرى ، وتسمى الكعبة لعلوها من اسم الكعب . ويقال لها أيضا بكّة . قال الأصمعى لأن الناس يَبُكّ بعضهم بعضًا إليها أى يدفع . وقال مجاهد باء بَكّة أبدلوها ميما ، كما قالوا لا زِب ولازم لقرب المخرجين . وقال النخعى بالباء البيت وبالميم البلد . وقال الزهرى بالباء للمسجد كله وبالميم للحرم .

وقد كانت الامم منذ عهد الجاهلية تعظمه ، والملوك تبعث إليه بالأموال والذخائر مثل كسرى وغير . وقصة الأسياف وغزالى الذهب اللذين وجدهما عبد المطلب حين احتفر زمزم معروفة . وقد وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح مكة فى الجب الذى كان فيها سبعين ألف أوقية من الذهب ، مما كان الملوك يهدون للبيت ، فيها ألف ألف دينار مكررة مرتين بمائتى قنطار وزنا . وقال له على بن أبى طالب رضى الله عنه : « يارسولَ الله ! لوْاسْتعنْتَ بِهذا الْمالِ علَى حرْبِكَ » ، فلم يفعل . ثم ذكر لأبى بكر فلم يحركه . هكذا قال الأزرق . وفى البخارى بسنده إلى أبى وائل قال : جلست إلى شيبة بن عثمان ، وقال جلس إلى عمر بن الخطاب فقال : هممت أن لا أدع فيها صفراء ولا بيضاء إلا قسمتها بين المسلمين . قلت ما أنت بفاعل قال ولم ؟ قلت فلم يفعله صاحباك . فقال هما اللذان يقتدى بهما . وخرجه أبو داود وابن ما جه . وأقام ذلك المال إلى أن كانت فتنةُ الأفْطَس وهو الحسن بن الحسين بن على بن على زين العابدين سنة تسع وتسعين ومائة ، حين غلب على مكة ، عمد إلى الكعبة فأخذ مافى خزائنها ، وقال ماتصنع الكعبة بهذا المال موضوعا فيها لاينتفع

به ؟ نحن أحق به نستعين به على حربنا . وأخرجه ونصرف فيه . وبطلت الذخيرة من الكعبة من يومئذ .

وأما بيتُ المقدس وهو المسجد الأقصى فكان أوّلُ أمره أيام الصابئة موضع الزُهَرة[١] وكانوا يقرّبون إليه الزيت فيما يقرّبونه يصبونه على الصخرة التى هناك . ثم دثر ذلك الهيكل ، واتخذها بنو إسرائيل حين ملكوها قبلة لصلاتهم . وذلك أن موسى صلوات الله عليه لما خرج ببنى إسرائيل من مصر لتمليكهم بيت المقدس كما وعد الله أباهم إسرائيل وأباه اسحق من قبله وأقاموا بأرض التيه أمره الله باتخاذ قُبّةَ من خشب السنط عُيِّنَ بالوحى مقدارُها وصفتها وهياكلها وتماثيلها ، وأن يكون فيها التابوت ومائدة بِصِحافها ومنارة بقناديلها ، وأن يصنع مذبحًا للقربان ، وصف ذلك كله فى التوراة أكمل وصف[٢] . فصنع القبة ووضع فيها تابوت العهد ، وهو التابوت الذى فيه الألواح المصنوعة عوضًا عن الألواح المنزلة بالكلمات العشر لما تكسرت ، ووضع المذبح عندها . وعهد الله إلى موسى بأن يكون هرونُ صاحبَ القربان[٣] . ونصبوا تلك القُبَّة بين خيامهم فى التِّيه يصلون إليها ويتقربون فى المذبح أمامها ، ويتعرضون للوحى عندها . ولما ملكوا (أرض الشام أنزلوها بكَلْكَال[٤] فى بلاد الأرض المقدسة ما بين قسمى بَنِى بنْيامِين وبَنِى إفْرَايِم وبقيت هنالك أربع عشرة سنة ؛ سبعًا مدة الحرب ؛ وسبعًا بعد الفتح أيام القسمة للبلاد . ولما توفى يُوشَع عليه السلام نقلوها إلى بلد شيلو قريبا من كَلْكَال وأَدَارُوا عليها الحيطَانَ ، وأقامت هنالك ثلثمائة سنة حتى ملكها بَنُو فلسْطِين فى أيديهم كما مرّ[١] وتغلّبوا عليهم ، ثم ردوا عليهم القبة ونقلوها بعد وفاة عالى الكوهن إلى نوف ، ثم نقلت أيام طالوت إلى كنعون فى بلاد بَنِى بنْيَامِين . ولما ملك دَاودُ عليه السلام نقل التَّابُوتَ والقبة إلى بيت المقدِس ، وجعل لها خباء خاصًا ووضعها على الصخرة وبقيت تلك قبلتهم)[٢]

وأراد داود عليه السلام بناء مسجده على الصخرة مكانها ، فلم يتم له ذلك ، وعهد به إلى ابنه سليمان فبناه لأربع سنين من ملكه ولخمسمائة سنة من وفاة موسى عليه السلام ، واتخذ عُمُدَه من الصُّفْر ، وجعل به صَرْح[٣] الزُّجاج ، وغَشّى أبوابه وحيطانه بالذهب ، وصاغ هياكله وتماثيله وأوعيته ومناوره ومفاتِيحَه من الذهب ، وجعل ظهره مقبُوًّا ليودع فيه تابوت العهد ، وهو التابوتُ الذى فيه الألواح ، وجاء به من صهيون[٤] بلد أبيه داود

(١) الكوكب المعروف .

(٢) يشير بذلك إلى ما ورد فى الإصحاحات ٢٥ ، ٢٦، ٢٧ من سفر الخروج .

(٣) الإصحاح ٢٨ من سفر الخروج .

(٤) الكلكل والكلكال : الصدر (القاموس) . وهى هل ما يظهر اسم بلد أو مكان .

(٢) انظر الفصل الثالث والثلاثين وعنوانه : فصل فى شرح اسم البابا والبطرك فى الملة النصرانية واسم الكوهن عند اليهود

(٣) ما بين الحاصرتين تنفرد به النسخة التى أسماها د. موافى بالتيمورية .

(٤) الصرح المشار إليه فى قصة ملكة سبأ ، انظر الآية ٤٤ من سورة النمل .

(١) هكذا فى جميع النسخ المتداولة . وفى « التيمورية » « صيون» أو « ضيوون » .

(نقله إليها أيام عمارة المسجد ، فجىء به) تحمله الأسباط. والكهنوتية حتى وضعه فى القبو ، ووضعت القبة والأوعية والمذبح كل واحد حيث أُعِدَّ له من المسجد ، وأقام كذلك ماشاء الله . ثم خَرَّبه بُخْتَنَصَّر بعد ثمانمائة سنة من بِنَائه ، وحرق التَّوْرَاة والعَصَا ، وسبكَ(١) الهياكِلَ ونشر الأحجارَ .

ثم لما أعادهم ملوك الفرس بناه عُزَير نبى بنى إسرائيل لعهده ، باعانة بَهْمن ملك الفرس الذى كانت الولادة(٢) لبنى إسرائيل عليه من سبى بختنصر ، وحَدَّ لهم فى بنيانه حدوداً دون بناء سليمان بن داود عليهما السلام ، فلم يتجاوزوها (وأما الأواوين(٣) التى تحت المسجد ، يَرْكَبُ بعضها بعضًا ، عمود الأعلى منها على قوس الأسفل فى طبقتين ، فيتوهم كثير من الناس أنها اصطبلاتٌ لسليمان عليه السلام ، وليس كذلك ، وإنما بناها تنزيها لبيت المقدس عما يتوهمه من النجاسات ، لأن النجاسة فى شريعتهم ، وإن كانت فى باطن الأرض وكان ما بينها وبين ظاهر الأرض محشوا بالتراب بحيث يصل ما بينها وبين الظاهر خط مستقيم ، ينجس ذلك الظاهر بالتوهم ، والمتوهم عندهم كالمحقق ، فبنوا هذه الأواوين على هذه الصورة . فعمود الأواوين السفلية تنتهى إلى أقواسها وينقطع خطه فلا يتصل ، فلا ينتهى النجاسة بالأعلى على خط مستقيم . وتنزه البيت عن هذه النجاسة المتوهمة ، ليكون ذلك أبلغ فى الطهارة والتقديس فى البيت المقدس)(١)

ثم تداولتهم ملوك يونان والفرس والروم واستفحل الملك لبنى إسرائيل فى هذه المدة ، ثم لبنى حشمناى من كهنتهم ، ثم لصهرهم هيرُودُس ولبنيه من بعده . وبنى هيرُودُس بيت المقدس على بناء سليمان عليه السلام ، وتأنق فيه حتى أكمله فى ست سنين . فلما جاء طيطس من ملوك الروم وغلبهم وملك أمرهم خرب بيت المقدس ومسجدها ، وأمر أن يزرع مكانه . ثم أخذ الروم بدين المسيح عليه السلام ودانوا بتعظيمه . ثم اختلف حال ملوك الروم فى الأخذ بدين النصارى تارة وتركه أخرى إلى أن جاء قُسْطَنْطِين ، وتنصرت أُمُّهُ هيْلَانة ، وارتحلَت إلى القُدْس فى طَلَب الخشبة التى صُلِبَ عليهَا المسيح بزعمهم ، فأخبرها القساوسة بأنه رمى بخشبته على الأرض وألقى عليها القمامات والقاذورات ، فاستخرجت الخشبة ، وبنت مكان تلك القمامات كنيسة القمامة ، كأنها على قبره بزعمهم ، وخربت ما وجدت من عمارة البيت ، وأمرت بطرح الزبل والقمامات على الصخرة حتى غطاها وخفى مكانها جزاء بزعمها لما فعلوه بقبر المسيح ، ثم بنوا بإزاء القمامة بَيْتَ لَحْم وهو البيت الذى ولد فيه عيسى عليه السلام .

وبقى الأمر كذلك إلى أن جاء الإسلام وحضر عمر لفتح بيت المقدس ، وسأل عن الصخرة فأرى

(١) هكذا وردت هذه الكلمة فى النسخة « التيمورية » . وقد وردت فى جميع النسخ المتداولة محرفة إلى « وضرع » .
(٢) هكذا فى جميع النسخ ، ولعلها « الولاية » .
(٣) جمع إيوان كديوان وهو الصفة العظيمة .

(١) ما بين القوسين ساقط من جميع النسخ المتداولة ، ومثبت فقط فى « التيمورية » .

مكانها وقد علاها الزِّبلُ والتُّراب ، فكشف عنها وبنى عليها مسجدا على طريق البداوة ، وعظم من شأنه ما أذن الله من تعظيمه ، وما سبق من أم الكتاب فى فضله حسبما ثبت .

ثم احتفل الوليد بن عبد الملك فى تشييد مسجده على سنن مساجد الإسلام بما شاء الله من الاحتفال ... كما فعل فى المسجد الحرام وفى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة وفى مسجد دمشق وكانت العرب تسميه بَلَاطَ الوليد ، وألزم ملك الروم أن يبعث الفعلة والمال لبناء هذه المساجد ، وأن ينمقوها بالفُسَيْفِسَاء فأطاع لذلك وتم بناؤها على ما اقترحه .

ثم لما ضعف أمر الخلافة أعوام الخمسمائة من الهجرة فى آخرها وكانت فى مَلَكَة العُبَيْدِيين خلفاء القاهرة من الشيعة واختل أمرهم زحف الفرنجة إلى بيت المقدس ، فملكوه وملكوا معه عامة ثغور الشام ، وبنوا على الصخرة المقدسة منه كنيسة كانوا يعظمونها ويفتخرون ببنائها . حتى إذا استقل صلاح الدين بن أيوب الكردى بملك مصر والشام ومحا أثر العُبَيْدِيِّين وبدعهم زَحفَ إلى الشَّام وجاهد من كان به من الفرنجة حتى غلبهم على بيت المقدس وعلى ما كانوا ملكوه من ثغور الشام ، وذلك لنحو ثمانين وخمسمائة من الهجرة ، وهدم تلك الكنيسة وأظهر الصخرة وبنى المسجد على النَّحو الذى هو عليه اليوم لهذا العهد .

ولا يعرض لك الإشْكَالُ المعروفُ فى الحديث الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم سُئل عن أول بيت وُضع ، فقال : مكَّة ، قيل : ثم أى ؟ قال بيتُ المقدس ، قيل فكَمْ بينَهما ؟ قال : أربعون سنةً ؛ فإن المدة بين بناء مكة وبين بناء بيت المقدس بمقدار ما بين إبراهيم وسليمان ، لأن سليمان بانيه ، وهو ينيف على الألف بكثير .

واعلَم أن المراد بالوضع فى الحديث ليس البناء ، وإنما المراد أول بيت عُيِّن للعبادة ، ولا يبعد أن يكون بيت المقدس عُيِّنَ للعبادة قبل بناء سليمان بمثل هذه المدة . وقد نقل أن الصَّابئَةَ بنَوْا على الصخرة هيكل الزُّهَرَة ، فلعل ذلك أنها كانت مكانًا للعبادة كما كَانت الجاهلية تضع الأصنام والتماثيل حوالى الكعبة وفى جوفها ، والصابئة الذين بنوا هيكل الزُّهَرَة كانوا على عهد إبراهيم عليه السلام ، فلا تبعد مدة الأربعين سنة بين وضع مكة للعبادة ووضع بيت المقدس ، وإن لم يكن هناك بناءٌ كما هو المعروف ، وأن أول من بنى بيت المقدس سليمان عليه السلام . فتفهمه ففيه حل هذا الإشكال .

وأما المدينة ، وهى المسماة بَيثْرِب ، فهى من بناء يَثْرب ، بن مهْلَايل من العَمالقة وملكها بنو إسرائيل من أيديهم فيما ملكوه من أرض الحجاز ، ثم جاورهم بنوقَيْلَة (١) من غسان وغلبوهم عليها وعلى حصونها .

ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالهجرة إليها لما سبق من عناية الله بها ، فهاجر إليها ومعه أبو بكر

---

(١) قيلة أم الأوس والخزرج ، وهما القبيلتان اللتان تألف منهما « الأنصار » (القاموس) .

وتبعه أصحابه ونزل بها وبنى مسجده وبيوته فى الموضع الذى كان الله قد أعده لذلك وشرفه فى سابق أزله . وآواه أبناءُ قَيْلَة ونصروه ؛ فلذلك سموا الأنصار . وتمت كلمة الإسلام من المدينة حتى علت على الكلمات . وغلب على قومه وفتح مكة وملكها . وظن الأنصارُ أنه يتحول عنهم إلى بلده فأهمهم ذلك ، فخاطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرهم أنه غير متحول . حتى إذا قبض صلى الله عليه وسلم كان مَلْحَدُه الشَّرِيف بها . وجاء فى فضلها من الأحاديث الصحيحة مالا خفاء به .

ووقع الخلاف بين العلماء فى تفضيلها على مكة ، وبه قال مالك رحمه الله لما ثبت عنده فى ذلك من النص الصريح عن رافع بن خُدَيج أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « المدينَةُ خيرٌ منْ مكَّة » نقل ذلك عبد الوهاب فى المعونة ، إلى أحاديث أخرى تدل بظاهرها على ذلك . وخالف أبو حنيفة والشافعى . وأصبحت على كل حال ثانية المسجد الحرام ، وجنح إليها الامم بأفئدتهم من كل أوب .

فانظر كيف تدرجت الفضيلة فى هذه المساجد المعظمة لما سبق من عناية الله لها ، تفهم سر الله فى الكون وتدريجه على ترتيب محكم فى أمور الدين والدنيا .

وأما غير هذه المساجد الثلاثة فلا نعلمه فى الأرض إلا ما يقال من شأن مسجد آدم عليه السلام بسرَنْديب من جزائر الهند ، لكنه لم يثبت فيه شئ يعول عليه . وقد كانت للأمم فى القديم مساجد يعظمونها على جهة الديانة بزعمهم ، منها بيوت النار للفرس ، وهياكل يُونَان ، وبيوت العرب بالحجاز التى أمر النبى صلى الله عليه وسلم بهدمها فى غزواته . وقد ذكر المسعودى منها بيوتا السنا من ذكرها فى شئ إذ هى غير مشروعة ولا هى على طريق دينى ، ولا يلتفت إليها ولا إلى الخبر عنها . ويكفى فى ذلك ما وقع فى التواريخ ، فمن أراد معرفة الأخبار فعليه بها . واللهُ يهدى منْ يشَاء سبحانه .

٧ — فصل فى أن المدن والأمصار بافريقية والمغرب قليلة

والسبب فى ذلك أن هذه الأقطار كانت للبربر منذ آلاف من السنين قبل الإسلام ، وكان عمرانها كله بدويًا ، ولم تستمر فيهم الحضارة حتى تستكمل أحوالها . والدول التى ملكتهم من الإفرنجة والعرب لم يطل أمد ملكهم فيهم حتى ترسخ الحضارة منها. فلم تزل عوائد البداوَة وشؤونها ،فكانوا إليها أقرب ، فلم تكثر مبانيهم . وأيضًا فالصنائع بعيدة عن البَربر ، لأنهم أعرقُ فى البدو ، والصنائع من توابع الحضارة ، وإنما تتمُّ المبانى بها ، فلا بد من الحِذْق فى تعلمها ، فلما لم يكن للبربر انتحال لها لم يكن لهم تشوف إلى المبانى فضلا عن المدن. وأيضًا فهم أهل عصبيات وأنساب ، لا يخلو عن ذلك جمع منهم ، والأنساب والعصبية أجنح إلى البدو . وإنما يدعو إلى المدن الدعة والسكون ويصير ساكنها عيالا على حاميتها. فتجد أهل البدو لذلك يستنكفون عن سكنى المدينة أو الإقامة بها ، ولا يدعو إلى ذلك إلا الترف والغنى ، وقليل ماهو فى الناس .

فلذلك كان عُمران إفريقية والمغرب كله أو أكثره بدويا أهل خيام وظواعن وقياطن [١] وكنن فى الجبال ، وكان عمران بلاد العجم كله أو أكثره قرى وأمصارًا ورَساتيق [٢] من بلاد الأندلس والشام ومصر وعراق العجم وأمثالها ، لأن العجم فى الغالب ليسوا بأهل أنساب يحافظون عليها ويتنازعون فى صَراحتها [٣] والتحامها إلا فى الأقل . وأكثر ما يكون سكنَى البدو لأهل الأنساب لأن لُحْمة [٤] النسب أقربُ وأشدُّ ، فتكون عصبيته كذلك ، وتنزع بصاحبها إلى سكنَى البدو والتجافى عن المصر الذى يذهب بالبَسالة ويصيره عيالا على غيره . فافهمه وقِسْ عليه . والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

٨ ــ فصل فى أن المبانى والمصانع فى الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها وإلى من كان قبلها من الدول

والسبب فى ذلك ما ذكرنا مثله فى البربر بعينه إذ العَرَبُ أيضًا أعرقُ فى البَدْو وأبعدُ عن الصنائع . وأيضًا فكانوا أجانب من الممالك التى استولوا عليها قبل الإسلام ، ولما تملكوها لم ينفسح الأمد حتى تستوفى رسوم الحضارة ؛ مع أنهم استغنوا بما وجدوا من مبانى غيرهم . وأيضا فكان الدِّين أول الأمر مانعًا من المغالاة فى البنيان والإسراف فيه غير القَصْد كما عهد لهم عمر حين استأذنوه فى بناء الكوفة بالحجارة ، وقد وقع الحريق فى القَصَب الذى كانوا بنوا من قبل ، فقال : افعلوا ولا يزيدن أحد على ثَلاثَة أبْيات ، ولا تطاولوا فى البنيان ، والزموا السُّنَّةَ تلزمكم الدَّولة . وعهد إلى الوفد وتقدم إلى الناس أن لا يرفعوا بنيانا فوق القدرِ . قالوا وما القدْرُ ؟ قال مالا يقربكم من السَّرَف ولا يخرجكم عن القَصْد .

فلما بعد العهد بالدين والتحرج فى مثال هذه المقاصد ، وغلبت طبيعة الملك والترف ، واستخدم العرب أُمة الفرس وأخذوا عنهم الصَّنائع والمبانى ، ودعتهم إليها أحوال الدعة والترف ، فحينئذ شيدوا المبانى والمصَانع ، وكان عهد ذلك قريبا بانقراض الدولة ، ولم ينفسح الأمد لكثرة البناء واختطاط المدن والأمصار إلا قليلا . وليس كذلك غيرهم من الامم . فالفرس طالت مدَّتهم آلافا من السنين وكذلك القبط والنبط والرُّوم ، وكذلك العرب الأُولى من عاد وثمود والعَمَالِقة والتَّبابِعَة طالت آمادهم ورسخت الصنائع فيهم ؛ فكانت مبانيهم وهياكلهم أكثر عددًا وأبقَى على الأيام أثرًا واستبصر فى هذا تجده كما قلت لك . والله وَارِثُ الأرْضِ ومنْ عليها .

٩ ــ فصل فى أن المبانى التى كانت تختطها العرب يسرع إليها الخراب إلا فى الأقل

والسبب فى ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع كما قدمناه فلا تكون المبانى وثيقة فى تشييدها . وله والله أعلم وجه آخر وهو أمسُّ به ، وذلك قلة مراعاتهم لحسن الاختيار فى اختطاط المدن

---

(١) جمع قيطون وهو المخدع ، كما فى القاموس .
(٢) الرستاق والرسداق والرزداق بالضم : السواد والقرى معرب رستا (القاموس) .
(٣) صرح نسبه ككرم خلص وهو صريح (القاموس) .
(٤) اللحمة بالضم : القرابة .

كما قلناه فى [(١)] المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعى ، فإنه بالتفاوت فى هذه تتفاوت جودة المصر ورداءته من حيث العمران الطبيعى . والعرب بمعزل عن هذا ، وإنما يراعون مراعى إبلهم خاصة لا يبالون بالماء طاب أو خبث ، ولا قلّ أو كثر ، ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنابت والأهوية لانتقالهم فى الأرض ، ونقلهم الحبوب من البلد البعيد ، وأما الرياح فالقفر مختلف للمهاب كلها ، والظعن كفيل لهم بطيبها ، لأن الرياح إنما تخبث مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات .

وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا فى اختطاطها إلا مراعى إبلهم ، وما يقرب من القفر ومسالك الظعن ، فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعى للمدن ، ولم تكن لها مادة تمد عمرانها من بعدهم كما قدمنا أنه يحتاج إليه فى حفظ العمران . فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار ، ولم تكن فى وسط الأمم فيعمرها الناس . فلأول وهلة من انحلال أمرهم وذهاب عصبيتهم التى كانت سياجا لها أتى عليها الخراب والانحلال كأن لم تكن : « والله يحكم لا معقب لحكمه » [(٢)] .

١٠ – فصل فى مبادئ الخراب فى الأمصار

اعلم أن الأمصار إذا اختطت أولا تكون قليلة المساكن ، وقليلة آلات البناء من الحجر والجير

(١) يشير بذلك إلى ما ذكره فى الفصل الخامس من هذا الباب بشأن ما يجب مراعاته فى اختطاط المدن وما يعى العرب بمراعاته ويغفلون غيره .

(٢) من الآية ٤١ من سورة الرعد .

وغيرهما مما يعالى على الحيطان عند التأنق كالزُّلُج [(١)] والرخام والرُّبْج [(٢)] والزجاج والفسيفساء [(٣)] والصدف ، فيكون بناؤها يومئذ بدويا وآلاتها فاسدة . فإذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت الآلات بكثرة الأعمال حينئذ ، وكثر الصناع إلى أن تبلغ غايتها من ذلك كما سبق بشأنها . فإذا تراجع عمرانها وخف ساكنها قلت الصنائع لأجل ذلك ، ففقدت الإجادة فى البناء والإحكام والمعالاة عليه بالتنميق . ثم تقل الأعمال لعدم الساكن فيقل جلب الآلات من الحجر والرخام وغيرهما ، فتفقد ويصير بناؤهم وتشييدهم من الآلات التى فى مبانيهم ، فينقلونها من مصنع إلى مصنع لأجل خلاء أكثر المصانع والقصور والمنازل بقلة العمران وقصوره عما كان أولا . ثم لا تزال تنقل من قصر إلى قصر ومن دار إلى دار إلى أن يفقد الكثير منها جملة ، فيعودون إلى البداوة فى البناء واتخاذ الطوب عوضا عن الحجارة ، والقصور عن التنميق بالكلية ، فيعود بناء المدينة مثل بناء القرى والمداشر [(٤)] ، ويظهر عليها سيما البداوة ، ثم تمر فى التناقص إلى غايتها من الخراب إن قدر لها به . سنة الله فى خلقه .

(١) الزلج بضمتين الصخور الملس (القاموس) .

(٢) الربج والروبج الدرهم الصغير الخفيف (القاموس) .

(٣) هى ما نسميه الموزايكو .

(٤) هكذا فى إحدى النسخ ومعناها المداشر فى لغة المغرب وفى نسخ أخرى « والمدر » وهى كذلك المدن والحضر وفى أخرى « والمداثر » وكلاهما تحريف عن « المداشر » على ما يظهر .

١١ - فصل فى أن تفاضل الأمصار والمدن فى كثرة الرفه لأهلها ونفاق الأسواق إنما هو فى تفاضل عمرانها فى الكثرة والقلة

والسبب فى ذلك أنه قد عرف وثبت أن الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته فى معاشه ، وأنهم متعاونون جميعا فى عمرانهم على ذلك .والحاجة التى تحصل بتعاون طائفة منهم تَسُدُّ[1] ضرورة الأكثر من عددهم أضعافا . فالقوت من الحنطة مثلا لا يستقل الواحد بتحصيل حِصَّتِه منه . وإذا انتدب لتحصيله الستة أو العشرة من حداد ونجَّارٍ للآلات وقائم على البقر وإثارَة الأرض وحصاد السُّنبل وسائر مؤن الفَلْح ، وتوزَّعوا على تلك الأعمال أو اجتمعوا ، وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت ، فإنه حينئذ قوت لأضعافهم مَرَّات . فالأعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضروراتهم .

فأهل مدينة أو مصر إذا وزِّعت أعمالهم كلها على مقدار ضَرُورَاتهم وحاجاتهم اكتفى فيها بالأقل من تلك الأعمال ، وبقيت الأعمال كلها زائد على الضرورات فتصرف فى حالات الترف وعوائده وما يحتاج إليه غيرهم من أهل الأمصار ويستجلبونه منهم بأعواضه وقِيَمِه ، فيكون لهم بذلك حظ من الغنى . وقد تبين لك فى الفصل الخامس فى باب الكَسْبِ والرزق[2] أن المكاسب إنما هى قيم الأعمال فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمها بينهم فكثرت مكاسبهم ضرورة ، ودعتهم أحوال الرَّفْه والغنى إلى الترف وحاجاته من التأنق فى المساكن والملابس واستجادة الآنية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب . وهذه كلها أعمال تُسْتدعى بقيمها ويُخْتار المهرة فى صناعتها والقيام عليها . فتنفُق أسواقُ الأعْمال والصنائع ويكثر دخل المصر وخرجه ، ويحصل اليسار لمنتحلى ذلك من قِبَل أعمالهم ومتى زاد العمران زادت الأعمال ثانية ، ثم زَادَ التَّرفُ تابعًا للكَسْب وزادت عوائدُه وحاجَاته ، واستنبطت الصنائع لتحصيلها ، فزادت قيمها ، وتضاعف الكسب فى المدينة لذلك ثانية ، ونَفَقَت سوق الأعمال بها أكثر من الأول . وكذا فى الزيادة الثانية والثالثة ، لأن الأعمال الزائدة كلها تختص بالترف والغنى بخلاف الأعمال الأصلية التى تختص بالمعاش. فالمصر إذا فضل بعمران واحد ففضْله بزيادة كسب ورَفْه وبعوائد من الترف لا توجد فى الآخر . فما كان عمرانه من الأمصار أكثر وأوفر كان حال أهله فى الترف أبلغ من حال المصر الذى دونه على وتيرة واحدة فى الأصناف : القاضى مع القاضى ؛ والتاجر مع التاجر ؛ والصَّانعُ مع الصَّانع ؛والسُّوقِى مع السُّوقى ؛ والأمير مع الأمير ؛ والشُّرْطىّ مع الشُّرْطى .

واعتبر ذلك فى المغرب مثلا بحال فَاس مع غيرها من أمصاره الأخرى مثل بِجَاية وتِلِمْسان وسَبْتَة تجد بينهما بونًا كثيرًا على الجملة ، ثم على الخصوصيات . فحال القاضى بفاس أوسع

(١) فى جميع النسخ المتداولة « تشتد » وهو تحريف . والمعنى هنا أن ما ينتج عن تعاون جماعة منهم يكفى لسد حاجة أضعافهم .

(٢) يشير بذلك إلى ما سيذكره فى أول الفصل الخامس .

من حال القاضى بتِلِمْسان ، وهكذا كل صنف مع صنف أهله . وكذا أيضًا حال تلمسان مع وهران أو الجزائر ، وحال وهران والجزائر مع ما دونهما ، إلى أن تنتهى إلى المداشر الذين اعتمالهم فى ضروريات معاشهم فقط . ويقصرون عنها . وما ذلك إلا لتفاوت الأعمال فيها ، فكأنها كلها أسواق للأعمال. والخَرْج فى كل سوق على نسبته فالقاضى بفاس دَخْلُه كِفاء خَرْجه ، وكذا القاضى بتِلِمْسان . وحيثُ الدَّخْلُ والخَرْجُ أكثر تكون الأحوال أعظم. وهما بفاس أكثر لِنَفاق سوق الأعمال بما يدعو إليه الترف ، فالأحوال أضخم . ثم كذا حال وهران وقُسَنْطِينة والجزائر وبَسْكَرة حتى تنتهى كما قلناه إلى الأمصار التى لاتوفى أعمالها بضروراتها ، ولا تعد فى الأمصار إذ هى من قبيل القرى والمداشر فلذلك تجد أهل هذه الأمصار الصغيرة ضعفاء الأحوال ، متقاربين فى الفَقْر والخَصَاصَة لما أن أعمالهم لا تفى بضروراتهم ، ولا يفضل ما يَتَأَثَّلونه كسبًا فلا تنمو مكاسبهم ، وهم لذلك مساكين مَحَاوِيج إلا فى الأقلّ النادر .

واعتبر ذلك حتى فى أحوال الفقراء والسُّؤال . فإن السائل بفاس أحسن حالا من السائل بتِلِمْسان أو وهران . ولقد شاهدت بفاس السُّؤال يسألون أيام الأضاحى أثمان ضحاياهم ، ورأيتهم يسألون كثيرًا من أحوال الترف واقتراح المآكل ، مثل سؤال اللّحم والسّمن وعلاج الطَّبخ والملابس والماعون ، كالغربال والآنية . ولوسأل سائلٌ مثل هذا بتِلِمْسان أو وَهْران لا ستنكر وعُنِّف وزجر .

ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر (١) من الترف والغنى فى عوائدهم ما يقضى منه العجب ، حتى إن كثيرًا من الفقراء بالمغرب ينزِعُون إلى النُّقْلَة (٢) إلى مصر لذلك ، لما يبلغهم من أن شأن الرَّفْه بمصر أعظم من غيرها . ويعتقد العامة من الناس أن ذلك لزيادة إيثار فى أهل تلك الآفاق على غيرهم أو أموال مختزنة لديهم ، وأنهم أكثر صدقة وإيثارًا من جميع أهل الأمصار . وليس كذلك وإنما هو لما تعرفه من أن عمران مصر والقاهرة أكثر من عمران هذه الأمصار التى لديك ، فعظمت لذلك أحوالهم .

وأما حال الدخل والخرج فمتكافئ فى جميع الأمصار ، ومتى عظم الدخل عظم الخرج وبالعكس. ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت أحوال الساكن ووسع المصر .

كل شىء يبلغك من مثل هذا فلا تنكره واعتبره بكثرة العمران ، وما يكون عنه من كثرة المكاسب التى يسهل بسببها البذل والإيثار على مبتغيه ، ومثْلُهُ بشأن الحيوانات العجم مع بيوت المدينة الواحدة وكيف يختلف أحوالها فى هِجْرانها أو غِشْيانها . فإن بيوت أهل النِّعَم والثروة والموائد الخصبة منها تكثر بساحتها وأفنيتها بنثر الحبوب وسواقط الفتات ، فيزدحم عليها غواشِى النمل

(١) كتب هذا ابن خلدون قبل مجيئه إلى مصر ، ولم يغيره فى تعديله للمقدمة بعد قدومه إليها . انظر منشورة د. وافى ص ٣٠٦ ج ١ .

(٢) النقلة بالضم الانتقال (القاموس) . وقد حرفت هذه الجملة فى جميع النسخ المتداولة .

والخشاش (١) ويُحلِّقُ فوقها عَصَائِبُ(٢) الطيور حتى تروح بطانًا(٣) وتمتلىء شِبَعًا وريًّا . وبيوت أهل الخَصاصة والفقراء الكاسدة أرزاقهم لايسرى بساحتها دبيب ، ولا يحلق بجوها طائر ، ولاتأوى إلى زوايا بيوتهم فأرة ولا هرة . كما قال الشاعر :

تَسْقُطُ الطَّيرُ حيثُ يُلْتَقطُ الْ
حَبُّ وتُغْشَى مَنَازِلُ الْكُرَمَاءِ

فتأمل سر الله تعالى فى ذلك ، واعتبر غاشية الأناسى بغاشية العجم من الحيوانات ، وفتات الموائد بفضلات الرزق والترف وسهولتها على من يبذلها لاستغنائهم عنها فى الأكثر لوجود أمثالها لديهم . واعلم أن اتساع الأحوال وكثرة النعم فى العمران تابع لكثرته . والله سبحانه وتعالى أعلم ، وهو غنى عن العالمين .

١٢ – فصل فى أسعار المدن

اعلم أن الأسواق كلها تشتمل على حاجات الناس ، فمنها الضرورى وهى الأقوات من الحنطة وما فى معناها كالباقلا والبصل والثوم وأشباهه ، ومنها الحاجىّ والكمالى مثل الأدم والفَواكه والملابس والماعون والمراكب وسائر المصانع والمبانى . فإذا استبحر(٤) المصر وكثر ساكنه رخصت أسعار الضرورى من القوت وما فى معناه ، وغلت أسعار الكمالى من الأُدم والفواكه وما يتبعها . وإذا قل ساكن المصر وضعف عمرانه كان الأمر بالعكس .

والسبب فى ذلك أن الحبوب من ضرورات القوت ، فتتوفر الدواعى على اتخاذها ، إذ كل أحد لا يهمل قوت نفسه ولا قوت منزله لشهره أو سنته فيعم اتخاذها أهل المصر أجمع أو الأكثر منهم فى ذلك المصر أو فيما قرب منه ، لابد من ذلك . وكل متخذ لقوته تفضل عنه وعن أهل بيته فضلة كبيرة تسد خَلَّةَ كثيرين من أهل ذلك المصر ، فتفضل الأقوات عن أهل المصر من غير شك ، فترخص أسعارها فى الغالب ، إلا ما يصيبها فى بعض السنين من الآفات السماوية . ولولا احتكار الناس لها لما يُتَوَقَّع من تلك الآفات لبُذلت دون ثمن ولاعوض لكثرتها بكثرة العمران . وأما سائر المرافق من الأدم والفواكه وما إليها ، فإنها لاتعم بها البلوى ولايستغرق اتخاذها أعمال أهل المصر أجمعين ، ولا الكثير منهم . ثم إن المصر إذا كان مستبحرًا موفور العمران كثير حاجات الترف توفرت حينئذ الدواعى على طلب تلك المرافق والاستكثار منها ، كلٌ بحسب حاله ، فيقصر الموجود منها عن الحاجات قصورًا بالغًا ، ويكثر المستامون لها وهى قليلة فى نفسها ، فتزدحم أهل الأغراض ، ويبذل أهل الرَّفْه والترف أثمانها بإسراف فى الغلاء ، لحاجتهم إليها أكثر من غيرهم ، فيقع فيها الغلاء كما تراه .

وأما الصنائع والأعمال أيضًا فى الأمصار الموفورة العمران فسبب الغلاء فيها أمورٌ ثلاثةٌ : الأول كثرة الحاجة لمكان الترف فى المصر بكثرة عمرانه ،

(١) الخشاش بالكسر مالا دماغ له من دواب الأرض ومن الطير « وهى الحشرة والهامة (المصباح) .
(٢) العصابة الجماعة من الناس والخيل والطير ، والجمع عصائب .
(٣) كناية عن الشبع .
(٤) اتسع وانبسط .

والثانى اعتزازُ أهل الأعمال بخدمتهم وامتِهَان أنفُسِهم لسُهُولَة المَعَاش فى المدينة بكثرة أقْوَاتِها ؛ والثالث كثرَةُ المترفين وكثرةُ حاجَاتِهم إلى امتهان غيرهم وإلى استعمال الصُّناع فى مِهَنِهم ،فيبذلون فى ذلك لأهل الأعمال أكثر من قيمة أعمالهم مزاحمة ومنافسة فى الاستئثار بها ، فيعتز العمال والصناع وأهل الحرف وتغلو أعمالهم ، وتكثر نفقات أهل المصر فى ذلك .

وأما الأمصار الصغيرة والقليلة الساكن فأقواتهم قليلة لقلة العمل فيها ، وما يتوقعونه لصغر مصرهم من عدم القوت ؛ فيتمسكون بما يحصل منه فى أيديهم ويحتكرونه ، فيعز وجوده لديهم ، ويغلو ثمنه على مُسْتَامِه [١] . وأما مرافقهم فلا تدعو إليها أيضا حاجة لقلة الساكن وضعف الأحوال ، فلا تَنْفُق لديهم سوقه ، فيختص بالرخص فى سعره .

وقد يدخل ايضًا فى قيمة الأقوات قيمة ما يُفْرَض عليها من المكوس والمغَارِم للسلطان فى الأسواق وأبْوَاب المِصْر ، وللجباة فى منافع يفرضونها على البياعات لأنفسهم ، ولذلك كانت الأسعار فى الأمصار أغلى من الأسعار فى البادية ، إذ المكُوس والمغَارِم والفرَائض قليلةٌ لديهم أو معدومة ، وكثرتها فى الأمصار لا سيما فى آخر الدولة . وقد تدخل أيضا فى قيمة الأقوات قيمة علاجها فى الفلح ، ويحافظ على ذلك فى أسعارها ، كما وقع بالأندلس لهذا العهد . وذلك أنهم لما ألجأهم النصارى إلى سِيف البَحر وبلاده المتوعرة الخبيثة الزراعة النَّكِدة [١] النبات ، وملكوا عليهم الأرض الزاكية والبلد الطيب فاحتاجوا إلى علاج المزارع والفُدُن لإصلاح نباتها وفلحها ، وكان ذلك العلاج بأعمال ذات قيم ومواد من الزبل وغيره لها مؤونة ، وصارت فى فلحهم نفقات لها خطر فاعتبروها فى سعرهم ، واختص قُطْرُ الأَنْدَلُس بالغَلَاء منذ اضطرهم النصارى إلى هذا المعمور بالإسلام مع سواحلها لأجل ذلك [٢] ويحسب الناس إذا سمعوا بغلاء الأسعار فى قطرهم أنها لقلة الأقوات والحبوب فى أرضهم ، وليس كذلك ، فهم أكثر أهل المعمور فلحًا فيما علمناه وأقومهم عليه ، وقل أن يخلو منهم سلطان أو سوقة عن فَدَّان أو مزرعة أو فلح إلا قليل من أهل الصناعات والمهن أو الطُّرَّاء على الوطن من الغزاة المجاهدين ؛ ولهذا يختصهم السُّلطانُ فى عطائهم بالعَوْلَة [٣] ، وهى أقواتهم وعلوفَاتُهم من الزرع ، وإنما السبب فى غلاء سعر الحبوب عندهم ما ذكرناه . ولما كانت بلاد البربر بالعكس من ذلك فى زَكَاء منَابِتهم وطِيب أرضهم ارتفعت عنهم المُؤَنُ جملةً فى الفلح مع كثرته عمومًا ، فصار ذلك سببًا لرخص الأقوات ببلدهم . والله مُقَدِّر اللَّيل والنهار ، وهو الْوَاحِدُ القَهَّار لا ربَّ سِوَاهُ .

---

(١) سام المشترى السلعة من البائع : طلب شراءها منه .

(١) نكد نكداً من باب تعب فهو نكد ؛ تعسر ، ونكد العيش نكداً اشتد (المصباح) .

(٢) المعنى أن هذا الغلاء قد أخذ يظهر منذ اضطر المسلمون إلى الجلاء عن المواطن الخصبة .

(٣) عال عياله عولا كفاهم ومانهم ، والعول كل ما عالك وأثقلك (؟) ، والمستعان به ، وقوت العيال (القاموس) .

١٣ – فصل فى قصور أهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران

والسبب فى ذلك أن المصر الكثير العمران يكثر ترفه كما قدمناه وتكثر حاجات ساكنه من أجل الترف ، وتُعتاد تلك الحاجات لما يدعو إليها فتنقلب ضرورات ، وتصير فيه الأعمال كلها مع ذلك عزيزة ، والمرافق غالية بازدحام الأغراض عليها من أجل الترف ، وبالمغارم السُّلْطَانِيَّة التى توضَع على الأسواق والبياعات وتُعْتبر فى قيم المبيعَات ويعظم فيها الغَلاءُ فى المرافق والأقوات والأعمال ، فتكثر لذلك نفقات ساكنه كثرةً بالغةً على نِسبة عمرانه ويعظم خَرْجُه ، فيحتاج حينئذ إلى المال الكثير للنفقة على نفسه وعياله فى ضرورات عيشهم وسائر مؤنهم .

والبدوى لم يكن دخله كثيرًا إذا كان ساكنًا بمكان كاسد الأسواق فى الأعمال التى هى سبب الكسب ، فلم يتأثل كسبًا ولا مالا ، فيتعذر عليه من أجل ذلك سكنى المصر الكبير لغلاء مرافقه وعزة حاجاته ، وهو فى بدوه يسد خَلَّته بأقل الأعمال لأنه قليل عوائد الترف فى معاشه وسائر مونه ، فلا يضطر إلى المال . وكل من يتشوف إلى المصر ومكناه من أهل البادية فسريعًا ما يظهر عجزه ويفتضح فى استيطانه ، إلا من يُقَدم منهم تَأَثّلَ المال ويحصل له منه فوقَ الحَاجة ، ويجرى إلى الغاية الطَّبيعية لأهلِ العمران من الدَّعة والترف فحينئذ ينتقل إلى المصر وينظم حاله مع أحوالِ أهله فى عوائدهم وترفهم . وهكذا شأن بداية عُمران الأمصار . والله بكل شىء محيط .

١٤ – فصل فى أن الأقطار فى اختلاف أحوالها بالرفه والفقر مثل الأمصار

اعلم أن ما توفر عمرَانُه من الأقطار وتعددت الأمم فى جهاته وكثر ساكنه اتسعت أحوال أهله وكثرت أموالهم وأمصارهم وعظمت دولهم وممالكهم والسبب فى ذلك كله ما ذكرناه من كثرة الأعمال وما يأتى ذكره من أنها سبب للثروة بما يفضل عنها بعد الوفاء بالضروريَّات فى حاجات الساكن من الفضلة البالغة على مقدار العمران وكثرته ، فيعود على الناس كسبًا يَتأَثّلُونَه حسبما نذكر ذلك فى فصل المعاش وبيان الرزق والكسب ، فيتزيد الرَّفْه لذلك وتتسع الأحوال ويجىء الترف والغنى وتكثر الجباية للدولة بنَفَاق الأسواق فيكثر مالها ويشمخ سلْطَانُها ، وتتفنن فى اتخاذ المعاقل والحصون واختطاط المدن وتشييد الأمصار .

اعْتبِر ذَلكَ بأقْطَار المشرق ، مثل مصر والشَّام وعرَاق العجم والهند والصين وناحية الشمال كلها وأقطارها وراء الْبحر الرُّومى ، لما كثر عمرانها كيف كثر المال فيهم ، وعظمت دولتهم ، وتعددت مدنهم وحواضرهم ، وعظمت متاجرهم وأحوالهم فالذى نشاهده لهذا العهد من أحوال تجار الأمم النصرانية الواردين على المسلمين بالمغرب فى رَفْههم واتساع أحوالهم أكثر من أن يحيط به الوصف . وكذا تجار أهل المشرق وما يبلغنا عن أحوالهم . وأبلغ منها أحوال أهل المشرق الاقصى من عراق العجم

والهند والصين ، فإنه يبلغنا عنهم فى باب الغنى والرَّفْه غرائب تسير الركبان بحديثها ، وربما تُتَلقى بالإنكار فى غَالِب الأمر ، ويحسب من يسمعها من العامة أن ذلك لزيادة فى أموالهم ، أو لأن المعادن الذهبية والفضية أكثر بأرضهم ، أو لأن ذهب الأقدمين من الأمم استأثروا به دون غيرهم وليس كذلك . فمعدن الذهب الذى نعرفه فى هذه الأقطار إنما هو من بلاد السودان وهى إلى المغرب أقرب . وجميع ما فى أرضهم من البضاعة فإنما يجلبونه إلى غير بلادهم للتجارة . فلو كان المال عتيدً اموفورً لديهم لما جَلَبوا بضَائِعهم إلى سواهم يبتغون بها الأموال ، ولاستغنوا عن أموال الناس بالجملة .

ولقد ذهب المنجِّمون ، لما رأوا مثل ذلك ، واسْتَغْرَبُوا ما فى المشْرِق من كثرة الأحوال واتساعها ووفور أموالها ، فقالوا بأن عطايا الكواكب والسهام فى مواليد أهل المشرق أكثر منها حصصًا فى مواليد أهل المغرب . وذلك صحيحٌ من جهة المطابقة بين الأحكام النُّجوميَّة والأحوال الأرضيَّة كما قلناه وهم إنما أعطوا فى ذلك السبب النجومى ، وبقى عليهم أن يعطوا السبب الأرضىَ وهو ما ذكرناه من كثرة العمران واختصاصها بأرض المشرق وأقطاره . وكثرةُ العُمْران تفيدُ كثرةَ الكسْب بكثرة الاعمال التى هى سببه . فلذلك اختص المشْرق بالرَّفْه من بين الآفاق ؛ لا أن ذلك لمجرد الأثر النجومى . فقد فهمت مما أشرنا لك أولا أنه لا يستقل بذلك ، وأن المطابقة بين حكمه وعمران الأرض وطبيعتها أمر لابد منه .

واعتبر حال هذا الرفه من العمران فى قُطْرِ إفريقية وبَرْقَة لمَا خَفَّ ساكِنها وتناقص عمرانها كيف تلاشت أحوال أهلها وانتهوا إلى الفقر والخَصَاصَةِ . وضعفت جباياتها ، فقلت أموال دولها ، بعد أن كانت دُوَل الشيعة وصنْهَاجَة بها على ما بلغك من الرَّفْه وكثرة الجبايات واتساع الأحوال فى نفقاتهم وأعْطياتهم ، حتى لقد كانت الأموال ترفع من القيروان إلى صاحب مصر لحاجاته ومهماته ، وكانت أموال الدولة بحيث حمل جوهر الكاتب فى سفره إلى فتح مصر ألف حمل من المال يستعدها لأرزاق الجنود وأعْطِياتِهم ونفقات الغزاة .

وقطر المغرب وإن كان فى القديم دون إفريقية فلم يكن بالقليل فى ذلك ، وكانت أحواله فى دول الموحِّدين متسعةً وجبايَاته موفُورةً . وهو لهذا العهد قد أقصر عن ذلك لقصور العمران فيه وتناقصه فقد ذهب من عمران البربر فيه اكثره ونقص عن معهوده نقصًا ظاهرًا محسوسًا ، وكاد أن يلحق فى أحواله بمثل أحوال إفريقية ، بعد أن كان عمرانه متصلا من البحر الرومى إلى بلاد السودان فى طول ما بين السوس الأقصى وبرقة . وهى اليوم كلها أو أكثرها قفار وخلاء وصحارى ، إلا ما هو منها بِسيف البَحْرِ أو ما يقاربُه من التلول . والله وارثُ الأرض ومنْ عليها وهو خَيرُ الوَارِثين .

١٥ — فصل فى تأثل العقار والضياع فى الأمصار وحال فوائدها ومستغلاتها

اعلم أن تَأَثُّلَ العقَار والضِّياع الكثيرة لأهل الأمصار والمدن لا يكون دفعة واحدة ، ولا فى عصر

واحد ؛ إذ ليس يكون لأحد منهم من الثروة ما يملك به الأملاك التى تخرج قيمها عن الحد ، ولو بلغت أحوالهم فى الرَّفْه ما عسى أن تبلغ . وإنما يكونُ ملكهم وتأثُّلهم لها تدريجا إما بالوراثة من آبائه وذوى رحمه ، حتى تتأدى أملاكُ الكثيرين منهم إلى الوَاحِد وأكثر لذلك ، أو أن يكون بِحوالة (١) الأسواق ؛ فإن العقار فى آخر الدولة وأول الأُخرى عند فَنَاء الحامِيَة وخرْق السِّياج وتداعى المِصْر إلى الخراب تقِلُّ الغبطة به لقلة المنفعة فيها بتلاشى الأحوال فترخص قِيمها ، وتُتَمَلَّك بالأثمان اليسيرة وتتخطى بالميراث إلى ملك آخر ، وقد استجَدَّ المِصْرُ شبابَه باستفحال الدولة الثانية ، وانتظمت له أحوالٌ رائعة حسنة تحصل معها الغبطة فى العقار والضياع لكثرة منافعها حينئذ ، فتعظم قيمها ، ويكون لها خطر لم يكن فى الأول . وهذا معنى الحوالة فيها . ويصبح مالكها من أغْنَى أهل المصْر وليس ذلك بسعيه واكتسابه ، إذ قدرته تعجِز عن مثل ذلك .

وأما فوائد العقار والضياع فهى غير كافية لمالكها فى حاجات معاشه ، إذ هى لا تفى بعوائد الترف وأسبابه ، وإنما هى فى الغالب لسد الخَلَّة وضرورة المعاش . والذى سمعناه من مَشْيَخة البلدان أن القصد باقتناء الملك من العقار والضياع إنما هو الخشية على من يترك خلفه من الذرية الضعفاء ليكون مرباهم به ورزقهم فيه ونشوؤهم بفائدته ما داموا عاجزين عن الاكتساب . فإذا اقتدروا على تحصيل المكاسب سعوا فيها بأنفسهم ، وربما يكون من الوُلْد من يعجز عن التكسب لضعف فى بدنه أو آفة فى عقْله المَعَاشى ، فيكون ذلك العَقَار قِوَامًا (١) لحاله . هذا قصد المترفين فى اقتنائه . وأما التمول منه وإجراء أحوال المترفين فلا . وقد يحصل ذلك منه للقليل أو النادر بحِوالةِ الأسْواق وحصول الكثرة البالغة منه ، والعالى فى جنسه وقيمته فى المصر . إلا أن ذلك إذا حصل ربما امتدت إليه أعين الأُمراء والولاة واغتصبوه فى الغَالِب أو أرادُوه على بيْعِه منهم ونالت أصحابَه منه مضَارٌّ ومعاطب . والله غالِب على أمرِه وهو رب العرش العظِيم .

١٦ – فصل فى حاجات المتمولين من أهل الأمصار إلى الجاه والمدافعة

وذلك أن الْحضرى إذا عظم تموُّله ، وكثر للعقار والضياع تأثُّلُه ، وأصبح أغنى أهل المصر ، ورمقته العيون بذلك ، وانفسحت أحواله فى الترف والعوائد زاحم عليها الأمراء وغصُّوا به . ولما فى طباع البشر من العدوان ، تمتد أعينهم إلى تملك ما بيده وينافسونه فيه ، ويتحيلُون على ذلك بكل ممكن ، حتى يُحصِّلوه فى ربقة (٢) حكم سلْطانى ، وسبب من المؤاخذة ظاهر ينتزع به ماله . وأكثر الأحكام السلطانية جائرة فى الغالب ؛ إذ العدل المحض إنما

(١) المراد هنا أن تتحول الأسواق إلى الارتفاع .

(١) قوام الأمر نظامه وعماده ، وقوام الأمر ملاكه الذى يقوم به ، وقد يفتح (القاموس والمصباح) .

(٢) وأصل الربقة (بكسر الراء وفتحها) العروة من الحبل يشد به البهم . والمعنى حتى يوقعوه فى مأخذ ينطبق عليه فيه حكم سلطانى ويبدو فى الظاهر مصادرة أمواله .

هو فى الخلافة الشرعية وهى قليلة اللبث . قال صلى الله عليه وسلم : «الخِلَافَةُ بعْدى ثَلَاثُونَ سَنَةً ، ثم تَعُودُ ملْكًا عَضُوضًا » . فلا بدَّ حينئذ لصاحب المال والثروة الشهيرة فى العمران من حامية تذود عنه ، وجاه ينسحب عليه من ذى قرابة للملك أو خالِصة أو عصبية يتحاماها السلطان ؛ ليستظِلَّ بظلها ، ويرتع فى أمنها من طوارق التعدى . وإن لم يكن له ذلك أصبح نهبًا بوجوه التحيلات وأسباب الحكام . «والله يحكُم لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ[١]» .

١٧ — فصل فى أن الحضارة فى الأمصار من قبل الدول وأنها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها

والسبب فى ذلك أن الحضارة هى أحوال عادية زائدة على الضرورى من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرَّفْه وتفاوت الأُمم فى القلة والكثرة تفاوتًا غير منحصر . وتقع فيها عند كثرة التفنن فى أنواعها وأصنافها ، فتكون بمنزلة الصنائع . ويحتاجُ كلُّ صنف منها إلى القَوَمَة عليه والمهرة فيه . وبقدر ما يتزيد من أصنافها تتزيد أهل صناعتها ، ويتلوَّنُ ذلك الجيل بها . ومتى اتصلت الأيام وتعاقبت تلك الصناعات حَذَقَ أولئك الصناع فى صناعتهم ، ومهروا فى معرفتها . والأعصار بطولها وانفساح أمدها وتكرير أمثالها تزيدها استحكامًا ورسوخًا . وأكثر ما يقع ذلك فى الأمصار لاسْتِبْحار العمران وكثرة الرَّفْهِ فى أهلها . وذلك كله إنما يجىء من قبل الدولة . لأن الدَّولة تجمع أموال الرعية وتنفقها فى بطانتها ورجالها ، وتتسع أحوالهم بالجاه أكثر من اتساعها بالمال . فيكون دخْل تلك الأموال منَ الرَّعايا وخرْجها فى أهل الدولة ثم فيمن تعلق بهم من أهل المِصْر ، وهم الأكثر . فتعظم لذلك ثروتهم ، ويكثر غناهم ، وتتزيد عوائد التَّرَف ومذاهبه ، وتستحكم لديهم الصنائع فى سائر فنونه . وهذه هى الحَضَارة .

ولهذا تجد الأمصارَ التى فى القَاصِيَة ولو كانت موفورة العمران تغلب عليها أحوال البداوة وتبعد عن الحضارة فى جميع مذاهبها ، بخلاف المدن المتوسطة فى الأقطار التى هى مركز الدولة ومقرها . وما ذاك إلا لمجاورة السلطان لهم وفيض أمواله فيهم ، كالماء يخضر ما قرب منه فما قرب من الأرض إلى أن ينتهى إلى الجفوف على البعد . وقد قدمنا أن السُّلطانَ والدَّولة سوقٌ للعَالَم[١] . فالبضائع كلها موجودة فى السوق وما قرب منه ، وإذا بعدت عن السوق افتقدت البضائع جملة .

ثم إنه إذا اتصلت تلك الدولة وتعاقب ملوكها فى ذلك المصر واحدًا بعد واحد استحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخًا .

واعتبرْ ذلك فى اليهود لما طالَ ملكهم بالشام نحوًا من ألف وأربعمائة سنة رسخت حضارتهم ، وحَذَقُوا فى أحوال المعاش وعوائده والتفنن فى صناعته من المطاعم والملابس وسائر أحوال المنزل ؛ حتى إنها لتؤخذ عنهم فى الغالب إلى اليوم . ورسخت الحضارة أيضًا وعوائدها فى الشام منهم ومن دولة الروم بعدهم ستمائة سنة ، فكانوا فى غاية الحضارة.

(١) من الآية ٤١ من سورة الرعد .

(١) تقدم ذلك فى الفصل الثانى والأربعين من الباب الثالث .

وكذلك أيضا القبط. دام ملكهم فى الخليقة ثلاثة آلاف من السنين ، فرسخت عوائد الحضارة فى بلدهم مصر . وأعقبهم بها ملك اليونان والروم ثم ملك الإسلام الناسخ للكل . فلم تزل عوائد الحضارة بها متصلة . وكذلك أيضا رسخت عوائد الحضارة باليمن لاتصال دولة العرب بها منذُ عهد العَمَالِقة والتَّبابعة آلافًا من السنين ، وأعقبهم ملك مصر (١) وكذلك الحضَارة بالعراقَ لاتصال دولة النَّبط والفرس بها من لدن الكلدانيين والكيانية والكسروية والعرب بعدهم آلافًا من السنين . فلم يكن على وجه الأرض لهذا العهد أحضر من أهل الشام. والعراق ومصر . وكذا أيضا رسخت عوائد الحضارة واستحكمت بالأندلس لاتصال الدولة العظيمة فيها للقوط . ثم ما أعقبها من ملك بنى أمية آلافًا من السنين ، وكلتا الدولتين عظيمة ، فاتصلت فيها عوائد الحضارة واستحكمت .

وأما إفْرِيقيَة والمغرب فلم يكن بها قبل الإسلام ملكٌ ضخم . إنما قطع الروم الإفرنجة إلى إفريقية البحرَ وملكوا الساحل ، وكانت طاعة البربر أهل الضَّاحِيَة لهم طاعة غير مستحكمة ، فكانوا على قلعة وأوْفاز (٢) . وأهل المغرب لم

(١) هكذا فى جميع النسخ . ولا بد أن تكون كلمة « مصر » محرفة من كلمة أخرى ، لأنه لم يكن لمصر فى التاريخ القديم ملك فى اليمن .

(٢) من معانى الوفز المكان المرتفع . ويغلب على الظن أن هنا تحريفاً وأن صوابه « فكانوا على القلعة والقيروان» . وكلتاهما مدينة بإفريقية على الساحل . وتسمى الأولى كذلك قلعة أبى طويل . ويؤيد هذا ما سيذكره بعد بضعة أسطر إذ يقول « وإلى هذا العهد يؤنس فيمن سلف له بالقلعة أو القيروان أو المهدية سلف » .

تجاوزهم (١) دولَةَ ، وإنما كانوا يعطون بطاعتهم إلى القُوطِ من وراء البحر . ولما جاء الله بالإسلام ، وملك العرب إفريقية والمغرب لم يلبث فيهم ملك العرب إلا قليلا أول الإسلام ، وكانوا لذلك العهد فى طور البداوة ، ومن استقر منهم بإفْرِيقية والمغرب لم يجد بهمَا من الحضارة ما يقلِّد فيه من سَلَفه ، إذ كانوا برابرَة منغمسين فى البداوة . ثم انتقض برابرة المغرب الأقصى لأقرب العهود على يد مَيْسَرَة المطفرى أيَّام هِشَام بن عَبْد الملك ، ولم يراجعوا أمرَ العرب بعد ، واستقلُّوا بأمر أنفسهم ، وإن بايعوا لإدْريس فلا تُعد دولته فيهم عربيَّةً ، لأن البرابر هم الذين تولوها ، ولم يكن من العرب فيها كثير عدد ، وبقيت إفريقية للأغالبة ومن إليهم من العرب فكان لهم من الحضارة بعض الشيء بما حصل لهم من ترف الملك ونعيمه ، وكثرة عمران القيروان . وورث ذلك عنهم كُتَامة ثم صنْهاجة من بَعْدِهم ، وذلك كلّه قليل لم يبلغ أربَعمائة سنة ، وانصرمت دولتهم واستحالَت صبغة الحضارة بما كانت غيرَ مستَحْكمة . وتغلب بدو العرب الهِلَاليِّين عليها وخرَّبوها ، ويقى أثرٌ خفيٌ من حضارة العمران فيها. وإلى هذا العهد يؤنس فيمن سلف له بالقلعة أو القيروان أو المهدية سلفٌ فتجد له من الحضارة فى شؤون منزله وعوائد أحواله آثارًا ملتبسة بغيرها يميزها الحضرى

(١) يستخدم ابن خلدون فعل جاز ومزيداته فى شئون الغزو بمعنى وصل إلى البلد وغزاه . واستخدام الفعل فى هذا المعنى استخدام عربى صحيح .

البصير بها ، وكذا فى أكثر أمصار إفريقية ، وليس ذلك فى المغرب وأمصاره : لرسوخ الدولة بإفريقية أكثر أمدًا منذ عهد الأغالبة والشيعة وصنهاجة ؛ وأما المغرب فانتقل إليه منذ دولة الموَحِّدين من الأندلس حظٌ كبير من الحضارة ، واستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس ، وانتقل الكثير من أهلها إليهم طوعًا وكرهًا ، وكانت من اتساع النطاق ما علمت ، فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها ؛ ومعظمها من أهل الأندلس ثمّ انتقل أهل شرق الأندلس عند جالية النصارى إلى إفريقية فأبقوا فيها بأمصارها من الحضارة آثارًا ، ومعظمها بتونس امتزجت بحَضارة مصر ، وما ينقله المسافرون من عوائدها ؛ فكان بذلك للمغرب وأفريقية حظٌ صالح من الحضارة عَفَّى عليه الخَلَاءُ ، ورجع على أعقابِهِ ، وعاد البربر بالمغرب إلى أديانهم من البداوة والخشونة . وعلى كل حال فآثار الحضارة بإفريقية أكثرُ منها بالمغَرِب وأمصاره لما تداول فيها من الدول السالفة أكثر من المغرب ولقرب عوائدهم من أهل مصر بكثرة المتَرَدِّدين بينهم .

فتفطن لهذا السر فإنه خفى عن الناس ، واعلم أنها أمور متناسبة وهى حال الدولة فى القوة والضعف وكثرة الأمة أو الجيل ، وعِظَم المدينَة أو المصْر ، وكثرة النِّعمة واليَسار . وذلك أن الدولة والمُلْكَ صورةُ الخليقة والعمران ، وكلها مادّةٌ لها من الرعايا والأمْصار وسائر الأحوال ، وأموال الجباية عائدةٌ عليهم ، ويسارُهم فى الغالب من أسواقهم ومتاجرهم. وإذا أفاضَ السلطان عطاءه وأمواله فى أهلها انبثت فيهم ورجعت إليه ثم إليهم منه ؛ فهى ذاهبةٌ عنهم فى الجباية والخراج عائدةٌ عليهم فى العطاء . فعلى نسبة حال الدولة يكون يسارُ الرَّعايا ، وعلى نسبة يسار الرَّعايا وكثرتهم يكون مالُ الدولة . وأصله كله العمران وكثرتُه . فاعتبره وتأمله فى الدول تجده « والله يحْكُم لا مُعَقِّبَ لحُكْمه » .

١٨ — فصل فى أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وأنها مؤذنة بفساده

قد بينا لك فيما سلف أن المُلْكَ والدولةَ غايةٌ للعصبية[١] ، وأن الحضارةَ غايةٌ للبداوة[٢] ، وأن العمرانَ كله من بداوة وحضارة وملك وسوقة له عمرٌ محسوس ، كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمرًا محسوسًا[٣] . وتبين فى المعقول والمنقول أن الأربعين للإنسان غاية فى تزايد قواه ونموها ، وإنه إذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة عن أثر النشوء والنمو برهة ، ثم تأخذ بعد ذلك فى الانحطاط . . فلتعلم أن الحضارة فى العمران أيضًا كذلك. لأنه غاية لامزيد وراءها . وذلك أن الترفَ والنعمةَ إذا حصلا لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهبِ الحضارة والتخلّق بعوائدها . والحضارة كما علمت هى التفننُ فى التر فواستجادة أحواله ، والكَلَفُ بالصَّنائِع التى تؤنق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس

(١) عرض لذلك فى الفصل السابع عشر من الباب الثانى .
(٢) عرض لذلك فى الفصلين الأول والثالث من الباب الثانى.
(٣) عرض لذلك فى الفصل الرابع عشر من الباب الثالث .

أو المبانى أو الفرش أو الآنية ولسائر أحوال المنزل . وللتأنق فى كل واحد من هذه صنائعُ كثيرةٌ لا يحتاج إليها عند البداوة وعدم التأنق فيها . وإذا بلغ التأنق فى هذه الأحوال المنزلية الغايةَ تبعه طاعة الشهوات ، فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها فى دينها ولا دنياها : أما دينها فلاستحكام صبغة العوائد التى يعسر نزعها ؛ وأما دنياها فلكثرة الحاجات والمؤونات التى تطالب بها العوائد ويعجز الكسب عن الوفاء بها .

وبيانه أن المصرَ بالتفنّن فى الحضارة تعظمُ نفقاتُ أهله . والحضارة تتفاوت بتفاوت العمران ، فمتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل . وقد كنا قدمنا (١) أن المصرَ الكثيرَ العمران يختصّ بالغلاء فى أسواقه وأسعار حاجته ثم تزيدها المكوس غلاءً لأن الحضارة إنما تكون عند انتهاء الدولة فى استفحالها وهو زمن وضع المكوس فى الدولة لكثرة خرجها حينئذ كما تقدم ؛ والمكوس تعود على البياعات بالغلاء ؛ لأن السوقة والتجار كلهم يحتسبون على سلعهم وبضائعهم جميع ما ينفقونه حتى فى مؤونة أنفسهم . فيكون المكس لذلك داخلا فى قيم المبيعات وأثمانها ؛ فتعظم نفقات أهل الحضارة وتخرج عن القصد إلى الإسراف ، ولا يجدون وَليجةً عن ذلك ، لما ملكهم من أثر العوائد وطاعتها ، وتذهب مكاسبهم كلها فى النفقات ويتتابعون فى الإملاق والخصاصة ويغلب عليهم الفقر . ويقل المستامون للمبايع ، فتكسد الأسواق

(١) تقدم ذلك فى الفصل الثانى عشر من هذا الباب .

ويفسدَ حال المدينة . وداعية ذلك كله إفراطُه الحضارة والترف ؛ وهذه مفسدَاتٌ فى المدينة على العموم فى الأسواق والعمران .

وأما فساد أهلها فى ذاتهم واحدًا واحدًا على الخصوص فمن الكد والتعب فى حاجات العوائد والتلون بألوان الشر فى تحصيلها ، وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون آخر من ألوانها . فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه ، وتنصرف النفس إلى الفكر فى ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له فتجدهم أجرياء(١) على الكذب والمقامرة والغش والخلابة (٢) والسرقة والفجور فى الأيمان والربا فى البياعات . ثم تجدهم أبصرَ بطرق الفِسْق ومذاهبه والمجاهرَة به وبدَواعيه واطّراحَ الحشمة فى الخوض فيه ، حتى بين الأقارب وذوى المحارم الذين تقتضى البداوة الحياء منهم فى الإقذاع بذلك . وتجدهم أيضا أبصر بالمكر والخديعة ، يدفعون بذلك ماعساه ينالهم من القهر ، وما يتوقعونه من العقاب على تلك القبائح ، حتى يصير ذلك عادة وخلقا لأكثرهم إلا من عصمه الله . ويموجُ بحرُ المدينة بالسفلة من أهل الأخلاق الذميمة ويجاريهم فيها كثيرٌ من نَاشئة الدولة وولدانهم ممن أهمل عن التأديب وغلب عليه خلق الجوارى ، وإن كانوا أهلَ أنسابٍ وبيوتات . وذلك أن الناس بشرٌ متماثلون ؛ وإنما تفاضلوا وتميزوا بالخلق

(١) جمع جرىء على غير قياس .

(٢) خلبه خلباً : خدعه (القاموس) .

واكتساب الفضائل واجتناب الرذائل . فمن استحكمت فيه صبغة الرذائل بأى وجه كان ، وفسد خلق الخير فيه ، لم ينفعه زكاءُ نسبه ولا طيب منبته . ولهذا تجد كثيراً من أعقاب البيوت وذوى الأحساب والأصالة وأهل الدول منطرحين فى الغُمار (١) منتحلين للحرف الدنية فى معاشهم بما فسد من أخلاقهم ، وما تلونوا به من صبغة الشر والسفسفة .

وإذا كثر ذلك فى المدينة أو الأمة تأذن الله بخرابها وانقراضها ، وهو معنى قوله تعالى : « وإذَا أردْنَا أنْ نُهلِكَ قَريةً أمرْنَا مُترَفيها فَفَسقوا فِيهَا فحقَّ عَليهَا القولُ فدمَّرْناهَا تَدْمِيراً »(٢) . ووجهه حينئذ أن مكاسبهم حينئذ لاتفى بحاجاتهم لكثرة العوائد ومطالبة النفس بها ، فلا تستقيم أحوالهم . وإذا فسدت أحوال الأشخاص واحداً واحداً اختل نظام المدينة وخربت . وهذا معنى ما يقول بعض أهل الخواص : « إنَّ المدِينةَ إذ كثُر فِيها غَرْسُ النَّارنج تأذَّنت بالخَراب » ؛ حتى إن كثيراً من العامة يتحامى غرس النارنج بالدور ؛ وليس المراد ذلك ، ولا أنه خاصية فى النارنج ، وإنما معناه أن البساتين وإجراء المياه هو من توابع الحضارة . ثم إن النَّارنج واللِّيم والسرْو وأمثال ذلك مما لا طَعم فيه ولا منفعة هو من غَايَة الحضارة ، إذ لا يقصد بها فى البساتين إلا أشكالها فقط ، ولا تغرس إلا بعد التفنن فى مذاهب الترف ، وهذا هو الطور الذى يخشى معه هلاك المصر وخرابه كما قلناه . ولقد قيل مثل ذلك فى الدِّفْلَى (١) وهو من هذا الباب ، إذ الدِّفْلى لا يقصد بها إلا تلون البساتين بِنَوْرها ما بين أحمر وأبيض وهو من مذاهب الترف .

ومن مفاسد الحضارة الانهماك فى الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف ، فيقع التفنن فى شهوات البطن من المآكل والملاذ ويتبع ذلك التفنن فى شهوات الفرج بأنواع المناكح من الزنا واللواط ، فيفضى ذلك إلى فساد النوع : إما بواسطة اختلاطِ الأنساب كما فى الزِّنا فيجهل كل واحدٍ ابنَه إذ هو لغير رِشْدَه(٢) لأن المياهَ مختلطة فى الأرحام ، فتُفْقَد الشفقة الطبيعية على البنين والقيام عليهم فيهلِكُون ، ويؤدى ذلك إلى انقطاع النوع ؛ أو يكون فَسادُ النَّوع (كما فى اللِّواط المؤدى إلى عَدمِ النَّسل رأْساً وهو أشدُّ فى فَسادِ النَّوع) إذ هو يؤدى إلى أن لا يوجَدُ النوع ، والزِّنَا يؤدى إلى عدم(٣) ما يوجد منه . ولذلك كان مذْهبُ مالك رحمه الله فى اللِّواط(٤) أظهر من مذهب غيره ودلَّ على أنه أبصرُ بمَقاصِد الشَّريعة واعتبارها للمصالح .

فافهم ذلك واعتبر به أن غايةَ العُمران هى الحَضارة والتَّرفُ وأنه إذا بلغ غايته انقلب إلى

(١) المراد هنا : الدهماء والطبقات الدنيا من الناس .

(٢) آية ١٦ من سورة الإسراء .

(١) فى القاموس : الدفل بالكسر وكذكرى نبت مر قتال زهره كالورد الأحمر » .

(٢) يعنى أنه غير صحيح النسب وأنه ولد زنا .

(٣) يرى د. وافى فى منشورته أن هنا سقطا تقديره : والزنا يؤدى إلى عدم معرفة أنساب ما يوجد منه » .

(٤) من حيث اعتباره زنا وتوقيع حد الزنا عليه .

الفَساد وأخذ فى الهَرَم كالأعمارِ الطبيعية للحيوانات .

بل نقول إن الأخلاقَ الحاصلة من الحضارة والترف هى عينُ الفَساد . لأن الإنسانَ إنما هو إنسانٌ باقتداره على جلْب منافعه ودفع مضاره واستقامة خلقه للسعى فى ذلك . والحضرى لا يقدر على مباشرته حاجاته ، إما عجزًا لما حصل له من الدعة ، أو ترفعًا لما حصل له من المَرْبَى فى النعيم والترف ، وكلا الأمرين ذميم . (وكذلك لا يقدر على دفع المضارّ بما فقدَ من خَلق البأس بالترف والمَرْبى فى قهر التأدب والتعليم ؛ فهو لذلك عيالٌ على الحامية التى تدافع عنه . ثم هو فاسدٌ أيضا فى دينه غالبًا بما أفسدت منه العوائد وطاعتها وما تلوثت به النفس فى ملكاتها كما قررناه ، إلا فى الأقل النادر .

وإذا فسدَ الإنسان فى قدرته ثم فى أخلاقه ودينه فقد فسدت إنسانيته وصارَ مسْخا على الحقيقة . وبهذا الاعتبار كان الذين يربون فى جند السلطان على البدَاوة والخشونَة أنفعَ من الذين يربون على الحضارَة وخُلقها . وهذا موجود فى كل دولة) .

فقد تبين أن الحضارة هى سن الوقوف لعمر العالَم فى العمران والدولة . والله سبحانه وتعالى « كلَّ يوم هُو فى شأن » [1] لا يشغله شأن عن شأن .

١٩ – فصل فى أن الأمصار التى تكون كراسى للملك تخرب بخراب الدولة وانتقاضها

قد استقرينا فى العمران أن الدولة إذا اختلت وانتقضت فإن المصر الذى يكون كرسيًا لسلطانها ينتقض عمرانه وربما ينتهى فى انتقاضه إلى الخراب ولا يكاد ذلك يتخلف . والسبب فيه أمور :

الأَول أن الدولة لا بد فى أولها من البداوة المقتضية للتَّجافى عن أموال الناس والبعد عن التحذلق . ويدعو ذلك إلى تخفيف الجباية والمغارم التى منها مادة الدولة فتقل النفقات ويقصر الترف . فإذا صار المِصْرُ الذى كان كرسيًا للملك فى مَلَكة هذه الدولة المتجددة ، ونقصت أحوال الترف فيها ، نقص الترف فيمن تحت أيديها من أهل المصر ، لأن الرعايا تبع للدولة ، فيرجعون إلى خلق الدولة ، إما طوعا لما فى طباع البشر من تقليد متبوعهم ، أو كرهًا لما يدعو إليه خلق الدولة من الانقباض عن الترف فى جميع الأحوال وقلة الفوائد التى هى مادة العوائد ، فتقصر لذلك حضارة المصر ، ويذهب منه كثير من عوائد الترف ، وهو معنى ما نقولُ فى خَراب المصر .

الأمر الثانى أن الدولة إنما يحصل لها الملك والاستيلاء بالغَلَب ، والغلب إنما يكون بعد العداوة والحروب ، والعداوة تقتضى منافاة بين أهل الدولتين وتكثر إحداهما عن الأخرى فى العوائد والأحوال ، وغَلَب أحد المتنافيين يذهب بالمنافى الآخر ، فتكون أحوال الدولة السابقة مُنكَرَةً عند أهل الدولة الجديدة ومستبشعة وقبيحة ، وخصوصًا أحوال الترف ، فتفقد فى عرفهم بنكير الدولة لها ، حتى تنشأ لهم بالتدريج عوائد أخرى من الترف ، فتكون عنها حضارة مستأنفة . وفيما بين ذلك قصور الحضارة الأولى ونقصها . وهو معنى اختلال العمران فى المصر .

(١) من الآية ٢٩ من سورة الرحمن .

الأَمر الثالث أن كل أُمة لا بد لهم من وطن هو منشؤهم ومنه أولية ملكهم . وإذا ملكوا ملكا آخر صار تبعًا للأَول ، وأمصاره تابعة لأَمصار الأول ، واتسع نطاق الملك عليهم ، ولا بد من توسط الكرسى تُخُومَ المَمَالك التى للدولة ، لأنه شبه المركز للنِّطَاق ، فيبعد مكانه عن مكان الكرسى الأول ، وتهوى أفئدة الناس إليه من أجل الدولة والسلطان ، فينتقل إليه العمران ويخف من مصر الكرسىّ الأَول ، والحضارةُ إنما هى توفُّر العمران كما قدمناه فتنتقص حضارته وتمدنه ، وهو معنَى اختلاله .

وهذا كما وقع للسَّلْجُوقية فى عدولهم بكرسيهم عن بغداد إلى أصبهان ، وللعرب قبلهم فى العدول عن المدائن إلى الكوفة والبصرة ، ولبنى العباس فى العدول عن دمشق إلى بغداد ، ولبنِى مَرِينٍ بالمغرب فى العدول عن مراكش إلى فاس . وبالجملة فاتخاذُ الدولة الكرسى فى مِصْرٍ يخلٌّ بعمران الكرسى الأَول .

الأَمر الرابع أن الدولةَ المتجددة إذا غلبت على الدولة السابقة لا بد فيها من تَتَبُّع أهل الدولة السابقة وأشْيَاعِها بتحْوِيلهم إلى قطر آخر يؤْمَن فيه غائلتهم على الدولة . وأكثرُ أهل المصْرِالكرسىِّ أشياعُ الدولة ، إما من الحامية الذين نزلوا به أول الدولة أو من أعيان المصر ، لأن لهم فى الغالب مخالطة للدولة على طبقاتهم وتنوع أصنافهم ، بل أكثرهم نَاشِىءٌ فى الدولة فهم شِيعةٌ لها ، وإن لم يكونوا بالشوكة والعصَبية فهم بالميل والمحبَّة والعقِيدة . وطبيعةُ الدولة المتجددَة محوُ آثار الدولة السابقة . فَتنقلهم من مصر الكرسىِّ إلى وطنها المتمكن فى مَلَكتَها . فبعضهم على نوع التغريب والحبس ، وبعضهم على نوع الكرامة والتلطف بحيث لا يؤدى إلى النُّفْرة ، حتى لا يبقى فى مصر الكرسىِّ إلا الباعة والهَمَل من أهل الفلح والعِيارَة[1] وسواد العامة ، وتُنْزَل مكانهم من حاميتها وأشياعها من يشتد به المصر . وإذا ذهب من مصر أعيانه على طبقاتهم نقص ساكنه وهو معنى اختلال عمرانه . ثم لا بد من أن يستجد عمران آخر فى ظل الدولة الجديدة وتحصل فيه حضارة أُخرى على قدر الدولة وإنما ذلك بمثابة من له بيت على أوصاف مخصوصة فأَظهر من قدرته على تغيير تلك الأَوصاف وإعادة بنائها على ما يختاره ويقترحه ، فيخرب ذلك البيت ، ثم يعيد بناءه ثانيًا .

وقد وقع من ذلك كثير فى الأَمصار التى هى كراسى للملك وشاهدناه وعلمناه « واللهُ يقدِّرُ اللَّيلَ والنَّهار[2] » .

والسبب الطبيعى الأَول فى ذلك على الجملة أن الدولة والملك للعمران بمثابة الصورة للمادة وهو الشكل الحافظ بنوعه لوجودها . وقد تقرر فى علوم الحكمة أنه لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر . فالدولة دون العمران لا تتصور : والعمران دون الدولة والملك متعذر ، لما فى طباع البشر من العدوان الداعى إلى الوازع فتتعين السياسة لذلك . إمَّا

---

(١) فى القاموس « عار الرجل ذهب وجاء ... والاسم العيارة » . فلعله يقصد الذين يتسكعون فى الطرقات بلا عمل ، أو لعل الكلمة محرفة .

(٢) من الآية ٢٠ من سورة المزمل .

الشرعية أو الملكية ، وهو معنى الدولة . وإذا كانا لا ينفكان فاختلال أحدهما مؤثر فى اختلال الآخر ، كما أن عدَمَه مؤثّر فى عدمه . والخلل العظيم إنما يكون من خلل الدولة الكلية مثل دولة الروم أو الفرس أو العرب على العموم ، أو بنى أمية أو بنى العباس كذلك . وأما الدولة الشخصية مثل دولة أنُوشروان أو هِرقل أو عَبْد الملك بن مروان أو الرّشيد ، فأشخاصُها متعاقِبَةٌ على العمران حافظَةٌ لوجوده وبقَائِه وقريبةُ الشَّبه بعضها من بعض ، فلا تؤثّر كثير اختلال . لأن الدولة بالحقيقة الفاعلة فى مادة العمران إنما هى العصبيَة والشَوكَة ، وهى مستمِرةٌ على أشخاص الدّولة . فإذا ذهبت تلك العصبية ودفعتها عصبية أُخرى مؤثرة فى العمران ذهب أهل الشوكة بأجمعهم وعظم الخلل كما قررناه أولًا . والله سبحانه وتعالى أعلم .

٢٠ – فصل فى اختصاص بعض الأمصار ببعض الصنائع دون بعض

وذلك أنه من البين أن أعمال أهل المصْر يستدعى بعضُها بعضًا لما فى طبيعة العمران من التعاون . وما يُستدْعى من الأعمال يختص ببعض أهل المصْر ، فيقومون عليه ويستبْصِرون فى صِناعته ويختصون بوظيفته ، ويجعلون معاشهم فيه ورزقهم منه ، لعموم البلوى به فى المصر والحاجة إليه . وما لا يُستدعى فى المصر يكون غُفْلا إذ لا فائدة لمنتحله فى الاحتراف به . وما يُستدعى من ذلك لضرورة المعاش ، فيوجد فى كل مصر كالخياط والحداد والنجار وأمثالها . وما يُستدعى لعوائد الترف وأحواله فإنما يوجد فى المدن المستبْحِرة فى العمارة والآخذة فى عوائد الترف والحضارة ، مثل الزّجّاج[1] والصائغ والدَّهّان[2] والطباخ والصّفّار[3] والفراش والدبّاج[4] وأمثال هذه ، وهى متفاوتة . وبقدر ما تزيد عوائد الحضارة وتستدعى أحوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع ، فتوجد بذلك المصر دون غيره . ومن هذا الباب الحمامات لأنها إنما توجد فى الأمصار المستحضرة المستبحرة العمران لما يدْعُو إليه الترَّفُ والغِنى من التنعم . ولذلك لاتكون فى المدن المتوسطه . وإن نزع بعض الملوك والرؤساء إليها فيختطها ويجرى أحوالها ، إلا أنها إذا لم تكن لها داعية من كافة الناس ، فسرعان ما تهجر وتخرب ، وتفر عنها القَوَمَةُ لقلة فائدتهم ومعاشهم منها . والله يقبض ويبسط .

٢١ – فصل فى وجود العصبية فى الأمصار وتغلب بعضهم على بعض

من البين أن الالتحام والاتّصال موجودٌ فى طباع البشر ، وإن لم يكونوا أهل نسب واحد ، إلا أنه كما قدّمناه[5] أضعف مما يكون بالنسب ، وأنه تحصل به العصبية بعضا مما تحصل بالنسب . وأهل الأمصار كثير منهم ملتحمون بالصِّهر ، يجذب

---

(١) الزجاج : صانع الزجاج والمشتغل به .

(٢) الدهان : المشتغل بالدهن وبائعه أو من يدهن البيوت .

(٣) الصفار صانع الصفر ، وهو نوع من النحاس ، والمشتغل به .

(٤) الدباج : النقاش من الدبج وهو النقش ، هكذا وردت فى النسخة « التيمورية » . ولعلها محرفة عن الدباغ وهو الذى يدبغ الجلود . وقد وردت فى جميع النسخ المتداولة : الدباح .

(٥) يحيل بذلك على ما ذكره فى الفصل الثامن من الباب الثانى « فصل فى أن العصبية إنما تكون بالنسب وما فى معناه » .

بعضهم بعضًا إلى أن يكونوا لحمًا لحمًا [١] وقرابة قرابة ، وتجد بينهم من العداوة والصداقة ما يكون بين القبائل والعشائر مِثْلُهُ ، فيفترقون شيعًا وعصائب . فإذا نزل الهَرَمُ بالدولة وتقلص ظل الدولة عن القَاصِيَة ، احتاج أهل أمصارها إلى القيام على أمرهم ، والنظر فى حماية بلدهم ، ورجعوا إلى الشورى وتميز العِلْيةِ عن السِّفْلة [٢] . والنفوس بطباعها متطاولةٌ إلى الغلب والرياسة ، فَتَطْمَحَ المَشْيَخَةُ ، لخلاء الجو من السلطان والدولة القاهرة ، إلى الاسْتبدَاد ، وينازع كلٌّ صاحبه ، ويستوصلون بالأتباع من الموالى والشيع والأحلاف ، ويبذلون مافى أيديهم للأوغاد والأوشاب ؛ فيعصوصب كل لصاحبه ويتعين الغَلَبُ لبعضهم ، فيعطف على أكفائه ليقص من أعِنَّتِهم ويتتبعهم بالقتل أو التغريب حتى يَخْضِد منهم الشوكات النَّافذة ، ويُقلِّم الأظفارَ الخادشة ، ويستبد بمصره أجمع . ويرى أنه قد استحدثَ مُلْكًا يورثه عقبه . فيحدث فى ذلك المُلْك الأصغر ما يحدث فى الملك الأعظم من عوارض الجدَّةِ والهَرمِ .

وربما يَسمُو بعض هؤلاء إلى مَنَازِع الملوك الأعاظم أصحاب القبائل والعشائر والعصبيات والزحف والحروب والأقطار والمماليك ، فينتحلُون بها من الجلوس على السرير [٣] واتخاذ الآلة [٤] وإعداد المواكب للسير فى أقطار البلد والتختم والحسبة [١] والخِطَاب بالتهويل ما يسخرَ منه من يشاهد أحوالهم لما انتحلوه من شارات الملك التى ليسوا لها بأهل ، إنما دفعهم إلى ذلك تقلُّص الدولة والتحام بعض القرابات حتى صارت عصبيةً . وقد يتنزه بعضهم عن ذلك ويجرى على مذهب السذاجة فرارًا من التعريض بنفسه للسُّخرية والعبث .

وقد وقع هذا بإفْرِيقيَّةَ لهذا العهد فى آخر الدولة الحفصية لأهل بلاد الجريد من طرابلس وقَابِس وتُوزَرَ ونَفطة وقَفصة وبَسْكرة والزَّاب ، وما إلى ذلك . سَمَوْا إلى مثلها عند تقلص ظل الدولة عنهم منذ عقود من السنين ، فاستغلبوا على أمصارهم واستبدوا بأمرها على الدولة فى الأحكام والجباية ، وأعطوا طاعةً معرُوفَةً وصفقةً مُمْرِضَةً ، وأقطعوها جانبًا من الملاينة والمُلاطَفَة والانقياد ، وهم بمعزل عنه ، وأورثوا ذلك أعقابهم لهذا العهد ، وحدث فى خلفهم من الغِلظة والتَّجبُّر ما يحدث لأعقاب الملوك وخلفهم ، ونظموا أنفسهم فى عداد السلاطين على قرب عهدهم بالسُّوقَة . حتى محا ذلك مولانا أمير المؤمنين أبو العباس ، وانتزع ما كان بأيديهم من ذلك كما نذكره فى أخبار الدولة . وقد كان مثل ذلك وقع فى آخر الدولة الصنهاجية ، واستقل بأمصار الجريد أهلُها واستبدوا على الدَّولة حتى انتزع ذلك منهم شيخ الموحدين وملكهم عبدُ المؤمن

(١) جمع لحمة بضم الميم وهى القرابة .

(٢) أسافل الناس وغوغاؤهم

(٣) انظر تفسيره فى الفصل السادس والثلاثين من الباب الثالث . (٤) انظر تفسيرها فى الفصل السادس والثلاثين من الباب الثالث .

(١) انظر تفسيرها فى الفصل الحادى والثلاثين من الباب الثالث .

(٢) يعنى : غير خالصة ، صادرة عن فى قلبه مرض .

ابن عَلى ، ونقلهم كلهم من أمارتهم إلى المغرب ، ومحا من تلك البلاد آثارهم كما نذكره فى أخباره . وكذا وقع بسَبَبِه لآخر دولة بنى عبد المؤمن .

وهذا التغلب يكون غالبًا فى أهل السَّرَوات [1] والبيُوتَات المرشَّحين للمشيخة والرياسة فى المصر وقد يحدث التغلب لبعض السِّفْلة من الغوغاء والدهماء . وإذا حصلت له العصبية والالتحام بالأوغاد لأسباب يجرها له المقدار فيتغلب على المَشْيَخَةِ والعلْيَةِ إذا كانوا فاقدين للعِصابة والله سبحانه وتعالى غالب على أمره .

٢٢ – فصل فى لغات أهل الأمصار

اعلم أن لغات أهل الأمصار إنما تكون بلسان الأمة أو الجيل الغالبين عليها أو المختطين لها . ولذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية ، وإن كان اللسانُ العربى المُضَرِى قد فسدت مَلَكته وتغير إعرابه . والسبب فى ذلك ما وقع للدولة الإسلامية من الغَلَب على الأمم ، والدين والملة صورة للوجود وللملك ، وكلها مواد له ، والصورة مقدمة على المادة ، والدين إنما يستفاد من الشريعة وهى بلسان العرب ، لما أن النبى صلى الله عليه وسلم عربىٌّ ، فوجب هَجْرُ ما سوى اللسان العربى من الألسن فى جميع ممالكها . واعتبر ذلك فى نَهْىِ عمر رضى الله عنه عن بِطَانة الأعاجم وقال إنها خِبٌّ أى مكر وخديعةٌ . فلما هَجر الدين اللغات الأعجمية وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربيًّا هجرت كلها فى جميع ممالكها ، لأن الناس تبع للسلطان وعلى دينه ، فصار استعمال اللِّسان العَربى من شَعائرِ الإسْلَام وطاعة العرب ، وهجر الأمم لغاتهم وألسنتهم فى جميع الأمصار والممالك ، وصار اللسان العربىُّ لسانهم حتى رسخ ذلك لغة فى جميع أمصارهم ومدنهم ، وصارت الألسنة العجمية دخيلةً فيها وغريبة [1] .

ثم فسد اللسان العربى بمخالطتها فى بعض أحكامه وتغير أواخره ، وإن كان بقى فى الدلالات على أصله ، وسمى لسانًا حضريًا فى جميع أمصار الإسلام .

وأيضًا فأكثر أهل الأمْصَار فى الملة لهذا العهد من أعقاب العرب المالكين ، لها ، الهالكين فى ترفها ، بما كثّروا العجم الذين كانوا بها وورثوا أرضهم وديارهم . واللغات متوارثة ؛ فبقيت لغة الأعقاب على حيال لغة الآباء ، وإن فسدت أحكامها بمخالطة الأعجام شيئًا فشيئًا .

وسميت لغتهم حضرية منسوبة إلى أهل الحواضر والأمصار بخلاف لغة البدو من العرب فإنها كانت أعرق فى العروبية . ولما تملك العجم من الديلم والسلجوقية بعدهم بالمشرق ، وزناتة والبربر بالمغرب ، وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الاسلامية ، فسد اللسان العربى لذلك ، وكاد يذهب لولا ماحفظه من عناية

(١) يعنى أهل المروءة والرياسة فى شرف ومنه قول الشاعر :

لا يصلح النـاس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة إذا جهالهم سـادوا

(١) يعقب د. وافى على هذا فى منشورته مبيناً الأسباب والعوامل التى تؤدى إلى انتصار لغة من اللغات على غيرها فى أى صراع معها فليراجع فى موضعه من جـ ٣ هامش ص : ١٠٢٣ وما بعدها .

بالكتاب والسنّة اللذين بهما حفظ الدين ، وصار ذلك مرجعًا لبقاء اللغة العربية المضرية من الشعر والكلام إلا قليلا بالأمصار . فلما ملك التتر والمغول بالمشرق ولم يكونوا على دين الإسلام ذهب ذلك المرجح ، وفسدت اللغة العربية على الإطلاق ، ولم يبق لها رسمٌ فى المماليك الإسلامية بالعراق وخُرِسان وبلاد فَارِس وأرض الهِنْد والسِند وما وراء النهر وبلاد الشمال وبلاد الروم ، وذهبت أساليبَ اللغة من الشعر والكَلام إلا قليلا يقع تعليمه صناعيًا بالقوانين المتدارسة من كلام العرَب وحفظ كلامهم لمن يسره الله تعالى لذلك . وربما بقيت اللغة العربية المضرية بمصر والأَندلس والمغرب لبقاء الدين طلبًا لها ، فانحفظت بعض الشيء . وأما فى ممالك العراق وما وراءه فلم يبقَ لها أثرٌ ولا عَيْنٌ . حتى إن كتب العلوم صارت تكتب باللسان العجمى وكذا تدْرِيسه فى المجالس . والله أعلم بالصواب .

فى المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض فى ذلك كله من الأحوال وفيه مسائل

١ – فصل فى حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية

اعلم أن الإنسان مفتقر بالطبع إلى مايقوته ويمونه فى حالاته وأطواره من لدن نشوئه إلى أشده إلى كبره : « والله الغَنىُّ وأنتم الفُقَـراءُ[١] » . والله سبحانه خلق جميع مافى العالم للإنسان وامتن به عليه فى غير ما آية من كتابه فقال : «وسخر لَكم مَا فى السَّموات ومَا فى الأرْض جَميعًا منهُ[٢] » و « سَخَّـر لَكُم البَحْر[٣] » وسَخَّـر لكم الفُـلْكَ[٤] » وسَخَّرَ لكم الأنْعَام[٥] ، وكثير من شواهده . ويد الإنسان مبسوطة على العالم وما فيه بما جعل الله له من الاستخلاف ؛ وأيدى البشر منتشرة فهى مشتركة فى ذلك ؛ وما حصل عليه يد هذا امتنع عن الآخر إلا بعوض . فالإنسان متى اقتدر على نفسه ، وتجاوز طور الضعف ، سعى فى اقتناء المكاسب ، لينفق ما آتاه الله منها فى تحصيل حاجاته وضروراته بدفع الأعواض عنها ؛ قال الله تعالى : «فابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزقَ[١]

وقد يحصل له ذلك بغير سعى كالمطر للزراعة وأمثاله ؛ إلا أنها إنما تكون معينة ولا بد من سعيه معها كما يأتى .

فتكون له تلك المكاسب معاشًا إن كانت بمقدار الضرورة والحاجة ورياشا ومتمولًا إن زادت على ذلك . ثم إن ذلك الحاصل أو المقتنى إن عادت منفعته على العبد وحصلت له ثمرته من إنفاقه فى مصالحه وحاجاته سمى ذلك رزقا . قال صلى الله عليه وسلم : : «إنَّما لَكَ مِنْ مَالِكَ ما أكَلْتَ فأفْنَيتَ أو لَبسْتَ فأبْليتَ أو تصدَّقْتَ فأمْضَيْتَ» . وإن لم ينتفع به فى شئ من مصالحه ولاحاجاته فلا يسمى بالنسبة إلى المالك رزقا ؛ والمتملك منه حينئذ بسعى العبد وقدرته يسمى كسباً ؛ وهذا مثل التراث[٢] فإنه يسمى بالنسبة إلى

(١) جملة من آية ٣٨ من سورة محمد (أو القتال) .

(٢) أول آية ١٣ من سورة الجاثية .

(٣) نص الآية : « الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (آية ١٢ من سورة الجاثية) .

(٤) جملة من آية ٣٢ من سورة إبراهيم ، ونصها : « وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار » .

(٥) هذه ليست آية ؛ ومن الآيات التى وردت فى تسخير الأنعام للإنسان : الآيات من ٥ – ٨ من سورة النحل ، والآيات من ٧١ – ٧٣ من سورة يس والآية ٧٩ من سورة غافر .

(١) من الآية ١٧ من سورة العنكبوت .

(٢) التراث : الميراث .

الهالك (١) كسبًا ولا يسمى رزقًا ، إذ لم يحصل به منتفع ، وبالنسبة إلى الوارثين متى إنتفعوا به يسمى رزقًا . هذا حقيقة مسمى الرزق عند أهل السنة .

وقد اشترط المعتزلةُ فى تسميته رزقًا أن يكون بحيث يصحُّ تملُّكه ، وما لا يتملك عندهم لا يسمى رزقًا . وأَخْرَجُوا الغُصُوبات والحرام كله عن أن يسمى شىءٌ منها رزقًا . والله تعالى يرزق الغاصب والظالم والمؤمن والكافر ويختص برحمته وهدايته من يشاء . ولهم فى ذلك حجج ليس هذا موضع بسطها .

ثم اعلم أن الكسب إنما يكون بالسعى فى الاقتناء والقصد إلى التحصيل . فلا بد فى الرزق مِن سعى وعمل ولو فى تناوله وإبتغائه من وجوهه . قال تعالى : « فابْتَغُوا عنْدَ اللهِ الرِّزْقَ(٢) » . والسعى إليه إنما يكون بإقدار الله تعالى وإلهامه ؛ فالكل من عند الله ؛ فلا بد من الأعمال الانسانية فى كل مكسوب ومتمول ، لأنه إن كان عملا بنفسه مثل الصنائع فظاهر ، وإن كان مقتنى من الحيوان والنبات والمعدن فلا بد فيه من العمل الإنسانى كما تراه . وإلا لم يحصل ولم يقع به انتفاع .

ثم إن الله تعالى خلق الحجرين المعدنيين من الذهب والفضة قيمة لكل متمول ، وهما الذخيرة والقنْية (٣) لأهل العالم فى الغالب ، وإن إقتنى سواهما فى بعض الأحيان فإنما هو لقصد تحصيلهما بما يقع فى غيرهما من حوالة الأسواق التى هما عنها بمعْزِل(١) ، فهما أَصلُ المكاسب والقِنيةُ والذخيرةُ .

وإذا تقرر هذا كله فاعلم أن ما يفيده الإنسان ويقتنيه من المتمولات إن كان من الصنائع فالمفاد المقتنى منه قيمة عمله وهو القصد بالقِنية ، إذ ليس هناك إلا العمل وليس بمقصود بنفسه للقِنية . وقد يكون مع الصنائع فى بعضها غيرها مثل النجارة والحياكة معهما الخشب والغزل ، إلا أن العمل فيهما أكثر فقيمته أكثر . وإن كان من غير الصنائع فلا بد فى قيمة ذلك المفاد والقنية من دخول قيمة العمل الذى حصلت به ، إذ لولا العمل لم تحصل قِنيتها . وقد تكون ملاحظة العمل ظاهرة فى الكثير منها فتجعل له حصة من القيمة عظمت أو صغرت . وقد تخفى ملاحظة العمل كما فى أسعار الأقوات بين الناس ، فإن إعتبار الأعمال والنفقات فيها ملاحظ فى أسعار الحبوب كما قدمناه ؛ لكنه خفى فى الأقطار التى علاج الفلح فيها ومؤونته يسيرة ، فلا يشعر به إلا القليل من أهل الفلح . فقد تبين أن المُفَادَات والمُكْتسبات كلها أوأكثرها إنما هى قِيَمُ الأعمال الإنسانية (١) ، وتبين مسمى الرزق وأنه المنتفع به . فقد بان معنى الكسب والرزق وشُرح مساهما .

(١) الهالك : المتوفى .

(٢) من الآية ١٧ من سورة العنكبوت .

(٣) ما يجمع ويقتنى .

(١) انظر تعقيب د. وافى على قول ابن خلدون بعدم تغير قيمة الذهب والفضة . جـ ٣ ، ص ١٠٣٠ .

(٢) يحتج ابن خلدون فى هذه الفقرات إلى رأى القائلين بأن قيم الأشياء تختلف حسب اختلافها فى مبلغ ما بذل فيها من عمل وما يتطلبه إنتاج مثلها من مجهود . انظر مناقشة هذا الرأى فى منشورة د. وافى جـ ٣ ص ١٠٣١ .

واعلم أنه إذا فُقدت الأعمال أو قلّت بانتقاص العمران تأذّن الله برفع الكسب . ألا ترى إلى الأمصار القليلة الساكن كيف يقل الرزق والكسب فيها أو يفقد لقلة الأعمال الإنسانية . وكذلك الامصار التى يكون عمرانها أكثر يكون أهلها أوسع أحوالا وأشد رفاهية كما قدمناه قبل (١) . ومن هذا الباب تقول العامة فى البلاد إذا تناقص عمرانها إنها قد ذهب رزقها . حتى إن الأنهار والعيون ينقطع جريها فى القفر ؛ لما أن فَوْرَ العيُون إنما يكون بالإنباط، (٢) والامتراء الذى هو بالعمل الإنسانى ، كالحال فى ضروع الأنعام . فما لم يكن إنباط، ولا امتراءٌ نضبَتْ وغارت (٣) بالجملة ، كما يجفُ الضَّرع إذا ترك امتراؤه . وانظره فى البلاد التى تعهد فيها العيون لأيام عُمرانها ثم يأتى عليها الخراب كيف تغور مياهها جملة كأنها لم تكن . « والله يُقدّر الليل والنَّهار » .

٢ — فصل فى وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه

اعلم أن المعاش هو عبارة عن إبتغاء الرزق والسعى فى تحصيله ، وهو مَفعَل (٤) من العيش ؛ كأنه لما كان العيش الذى هو الحياة لا يحصل إلا بهذه جُعلت موضعًا له على طريق المبالغة . ثم إن تحصيل الرزق وكسبه : إما أن يكون بأخذه من يد الغير وانتزاعه بالاقتدار عليه على قانون متعارف ويسمى مغرمًا وجباية ؛ وإما أن يكون من الحيوان الوحشى باقتناصه وأخذه برميه من البر أو البحر ويسمى اصطيادا ؛ وإما أن يكون من الحيوان الداجن باستخراج فضوله المنصرفة بين الناس فى منافعهم كاللبن من الأنعام والحرير من دوده والعسل من نحله ؛ أو يكون من النبات فى الزرع والشجر بالقيام عليه وإعداده لاستخراج ثمرته ، ويسمى هذا كله فلحاً ؛ وإما أن يكون الكسب من الأعمال الإنسانية : إما فى مواد معينة وتسمى الصنائع من كتابة ونجارة وخياطة وحياكة وفروسية وأمثال ذلك ، أو فى موادّ غير معينة وهى الامتهانات جميع الامتهانات والتصرفات ؛ وإما أن يكون الكسب من البضائع وإعدادها للأعواض : إما بالتقلب بها فى البلاد ، أو احتكارها وارتقاب حِوالة الأسواق فيها ، ويسمى هذا تجارة .

فهذه وجوه المعاش وأصنافه وهى معنى ماذكره المحققون من أهل الأدب والحكمة كالحريرى وغيره ، فانهم قالوا : المعاش إمارة وتجارة وفلاحة وصناعة . فأما الإمارة فليست بمذهب طبيعى للمعاش فلا حاجة بنا إلى ذكرها ؛ وقد تقدم شئ من أحوال الجِبايات السُلطانية وأهلها فى الفصل الثانى(١) . وأما الفلاحة والصناعة والتجارة فهى وجوه طبيعية للمعاش . أما الفلاحة فهى متقدمة عليها كلها بالذات إذ هى بسيطة وطبيعيةٌ فطرية

(١) تكلم على ذلك فى الفصل الحادى عشر من الباب الرابع (فصل فى أن تفاضل الأمصار والمدن فى كثرة الرفة لأهلها ونفاق الأسواق إنما هو فى تفاضل عمرانها فى الكثرة والقلة) .

(٢) الانباط والامتراء : الاستخراج .

(٣) غار الماء غورا ذهب فى الأرض فهو غائر وغور . ومنه قوله تعالى : « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين » (آية ٣٠ من سورة تبارك) .

(٤) يقصد على وزن مفعل كما يدل عليه ما يلى .

(١) صوابه الفصل الثالث

لا تحتاج إلى نظر ولا علم ؛ ولهذا تُنسب فى الخليفة إلى آدم أبي البشر ، وأنه معلمها والقائم عليها ، إشارة إلى أنها أقدم وجوه المعاش وأنسبها إلى الطبيعة . وأما الصنائع فهى ثانيتها ومتأخرة عنها لأنها مركبة وعلمية تَصَرَّفُ فيها الأفكار والأنظار ؛ ولهذا لا تُوجد غالباً إلا فى أهل الحضَر الذى هو متأخِّر عن البدو وثَان عنه ؛ ومن هذا المعنى نسبت إلى إدريس الأب الثانى للخليقة ، فإنه مستنبطها لمن بعده من البشر بالوحى من الله تعالى . وأما التجارة وإن كانت طبيعية فى الكسب فالأكثر من طرقها ومذاهبها إنما هى تحيلات فى الحصول على ما بين القيمتين فى الشراء والبيع لتحصل فائدة الكسب من تلك الفضلة . ولذلك أباح الشَّرعُ فيه المكَايَسَة [١] ، لما أنه من باب المقامرة ، إلا أنه ليس أخذاً لمال الغير مجاناً ، فلهذا اختص بالمشروعية .

٣ – فصل فى أن الخدمة ليست من المعاش الطبيعى

أعلم أن السلطان لابد له من اتخاذ الخدمة فى سائر أبواب الإمارة والملك الذى هو بسبيله ، من الجندى والشرطى والكاتب . ويستكفى فى كل باب بمن يعلم غَنَاءه فيه ويتكفل بأرزاقهم من بيت ماله . وهذا كله مندرج فى الامارة ومعاشها إذ كلهم ينسحب عليهم حكم الامارة ، والملك الأعظم هو ينبوع جداولهم . وأما مادون ذلك من الخدمة فسببها أن أكثر المترفين يترفع عن مباشرة حاجاته أو يكون عاجزاً عنها لما ربى عليه من خلق التنعم والترف ؛ فيتخذ من يتولى ذلك له ويُقْطِعُهُ عليه أجراً من ماله . وهذه الحالة غير محمودة بحسب الرجولية الطبيعية للإنسان ؛ إذ الثقة بكل أحد عجز ؛ ولأنها تزيد فى الوظائف والخرج وتدل على العجْز اللذين ينبغى فى مذاهب الرجولية التنزه عنهما . إلا أن العوائد تقلب طباع الإنسان إلى مألوفها ؛ فهو ابن عوائده لا ابن نسبه . ومع ذلك فالخديم الذى يستكفى به ويوثق بَغَنائه كالمفقود ؛ إذ الخديم القائم بذلك لا يعدو أربع حالات : إما مضطلع بأمره وموثوق فيما يحصل بيده ؛ وإما بالعكس فى إحداهما فقط ، مثل أن يكون مضطلعاً غير موثوق أو موثوقاً غير مضطلع . فأما الأول وهو المضطلع الموثوق فلا يمكن أحداً استعماله بوجه ؛ إذ هو باضطلاعه وثقته غنى عن أهل الرتب الدنية ومحتقر لمنال الأجر من الخدمة لاقتداره على أكثر من ذلك ، فلا يستعمله إلا الأمراء أهل الجاه العريض لعموم الحاجة إلى الجاه . وأما الصنف الثانى وهو من ليس بمضطلع ولا موثوق . فلا ينبغى لعاقل استعماله لأنه يجحف بمخدومه فى الأمرين معاً ، فيضيع عليه لعدم الاضطلاع تارة ، ويذهب ماله بالخيانة أخرى ، فهو على كل حال كَل على مولاه . فهذان الصنفان لايطمع أحد فى استعمالهما . ولم يبق إلا استعمال الصنفين الآخرين : موثوق غير مضطلع ؛ ومضطلع غير موثوق . وللناس فى الترجيح بينهما مذهبان ، ولكل من الترجيحين وجه . إلا أن المضطلع ولو كان غير موثوق أرجح لأنه يؤمن من تضييعه ،

(١) المكايسة فى البيع : المغالبة فيه .

ويُحاوَلُ على التحرز عن خيانته جهد الاستطاعة وأما المضيع ولو كان مأموناً فضرره بالتضييع أكثر من نفعه . فاعلم ذلك واتخذه قانوناً فى الاستكفاء بالخدمة . والله سبحانه وتعالى قادر على مايشاء .

فصل فى أن ابتغاء الأموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعى

اعلم أن كثيراً من ضعفاء العقول فى الأمصار يحرصون على استخراج الأموال من تحت الأرض ويبتغون الكسب من ذلك ، ويعتقدون أن أموال الأمم السالفة مختزنة كلها تحت الأرض مختوم عليها كلها بطلاسم سحرية لايفض ختامَها ذلك إلا من عثر على علمه ، واستحضر ما يحله من البخور والدعاء والقربان . فأهل الأمصار بإفريقيَة يرون أن الإفرنجة الذين كانوا قبل الإسلام بها دفنوا أموالهم كذلك ، وأودعوها فى الصحف بالكتاب إلى أن يجدوا السبيل إلى استخراجها . وأهل الأمصار بالمشرق يرون مثل ذلك فى أمم القبط والروم والفرس ، ويتناقلون فى ذلك أحاديث تشبه حديث خرافة من انتهاء بعض الطالبين لذلك إلى حفر موضوع المال ممن لم يعرف طلّسمه ولاخبره ،فيجدونه خالياًأومعموراًبالديدان ، أويشاهد الأموال والجواهر موضوعة والحرس دونها منتضين سيوفهم ، أو تميد به الأرض حتى يظنه خسفاً ،أو مثل ذلك من الهذْر

ونجد كثيرا من طلبة البربر بالمغرب العاجزين عن المعاش الطبيعى وأسبابه يتقربون إلى أهل الدنيا بالأوراق المتخرِّمة الحواشى إما بخطوط عجمية أو بما ترجم بزعمهم منها من خطوط، أهل الدفائن بإعطاء الأمارات عليها فى أماكنها ، يبتغون بذلك الرزق منهم بما يبعثونهم على الحفر والطلب ويموهون عليهم بأنهم إنما حملهم على الاستعانة بهم طلب الجاه فى مثل هذا من منال الحكام والعقوبات . وربما تكون عند بعضهم نادرة أو غريبة من الأعمال السحرية يموه بها على تصديق ما بقى من دعواه ، وهو بمعزل عن السحر وطرقه ، فيولع كثير من ضعفاء العقول بجمع الأيدى على الاحتفار والتستر فيه بظلمات الليل مخافة الرقباء وعيون أهل الدول . فإذا لم يعثروا على شىء ردوا ذلك إلى الجهل بالطِّلَّسْم الذى ختم به على ذلك المال ، يخادعون به أنفسهم عن إخفاق مطامعهم .

والذى يحمل على ذلك فى الغالب زيادة على ضعف العقل إنما هو العجز عن طلب المعاش بالوجوه الطبيعية للكسب من التجارة والفلح والصناعة ، فيطلبونه بالوجوه المنحرفة ، وعلى غير المجرى الطبيعى من هذا وأمثاله ، عجزا عن السعى فى المكاسب وركونا إلى تناول الرزق من غير تعب ولا نصب فى تحصيله واكتسابه ؛ ولا يعلمون أنهم يوقعون أنفسهم ، بابتغاء ذلك من غير وجهه ، فى نصب ومتاعب وجهد شديد أشد من الأول ، ويعرضون أنفسهم مع ذلك لمنال العقوبات .

وربما يحمل على ذلك فى الأكثر زيادة الترف وعوائده وخروجها عن حد النهاية حتى تقصر عنها وجوه الكسب ومذاهبه ، ولا تفى بمطالبها ، فإذا

عجز عن الكسب بالمجرى الطبيعى لم يجد وليجة فى نفسه إلا التمنى لوجود المال العظيم دفعة من غير كلفة ، ليفى له ذلك بالعوائد التى حصل فى أسرها ، فيحرص على ابتغاء ذلك ويسعى فيه جهده . ولهذا فأكثر من تراهم يحرصون على ذلك هم المترفون من أهل الدولة ، ومن سكان الأمصار الكثيرة الترف المتسعة الأحوال ، مثل مصر وما فى معناها . فنجد الكثير منهم مغرمين بابتغاء ذلك وتحصيله ومساءلة الركبان عن شواذه كما يحرصون على الكيمياء . هكذا بلغنى عن أهل مصر فى مفاوضة من يلقونه من طلبة المغاربة ، لعلهم يعثرون منه على دفين أو كنز ويزيدون على ذلك البحث عن تغوير المياه لما يرون أن غالب هذه الأموال الدفينة كلها فى مجارى النيل ، وأنه أعظم ما يستر دفيناً أو مختزناً فى تلك الآفاق . ويموه عليهم أصحاب تلك الدفاتر المفتعلة فى الاعتذار عن الوصول إليها بجرية النيل تستراً بذلك من الكذب حتى يحصل على معاشه ، فيحرص سامع ذلك منهم على نضوب الماء بالأعمال السحرية لتحصيل مبتغاه من هذه كلفاً (١) بشأن السحر متوارثاً فى ذلك القطر عن أوليه ، فعلومهم السحرية وآثارها باقية بأرضهم فى البرارى وغيرها ، وقصة سحر فرعون شاهدة باختصاصهم بذلك . وقد تناقل أهل المغرب قصيدة ينسبونها إلى حكماء المشرق تعطى فيها كيفية العمل بالتغوير بصناعة سحرية حسبما تراه فيها ، وهى هذه :

يا طالباً للسر فى التغوير
إسمع كلام الصدق من خبير
دع عنك ما قد صنفوا فى كتبهم
من قول بهتان ولفظ غرور
واسمع لصدق مقالتى ونصيحتى
إن كنت ممن لا يرى بالزور
فإذا أردت تغوّر البئر التى
حارت لها الأوهام فى التدبير
صور كصورتك التى أوقفتها
والرأس رأس الشبل فى التقوير
ويداه ما سكتان للحبل الذى
فى الدلو ينشل من قرار البير
وبصدره هاء كما عاينتها
عدد الطلاق احذر من التكرير
ويطأ على الطاآت غير ملامس
مشى اللبيب الكيس النحرير
ويكون حول الكل خط دائر
تربيعه أولى من التكوير
واذبح عليه الطير والطخه به
واقصده عقب الذبح بالتبخير
بالسندروس وباللبان وميعة
والقسط والبسه بثوب حرير
من أحمر أو أصفر لا أزرق
لا أخضر فيه ولا تكدير

(١) هكذا فى جميع النسخ . ولا بد أن يكون هنا تحريف وسقط . وتستقيم العبارة بوضعها فى مثل هذه الصيغة : « لتحصيل مبتغاه من هذه ، فيزداد كلفاً بشأن السحر ، والكلف بالسحر أمر متوارث فى ذلك القطر عن أوليه » (أى عن الأولين منه) .

ويشده خيطان صوف أبيض
أو أحمر من خالص التحمير
والطالع الأَسَدُ الذى قد بينوا
ويكون بدء الشهر غير منير
والبدر متصل بسعد عطارد
فى يوم سبت ساعة التدبير

يعنى أن تكون الطاآت بين قدميه كأنه يمشى عليها . وعندى أن هذه القصيدة من تمويهات المخرقين ، فلها فى ذلك أحوال غريبة واصطلاحات عجيبة ، وتنتهى المخرقة (١) والكذب بهم إلى أن يسكنوا المنازل المشهورة والدور المعروفة بمثل هذا ويحتفرون الحفر ويضعون المطابق فيها والشواهد التى يكتبونها فى صحائف كذبهم . ثم يقصدون ضعفاء العقول بأمثال هذه الصحائف ، ويبعثون على اكتراء ذلك المنزل وسكناه ويوهمون أن به دفينًا من المال لا يعبر عن كثرته . ويطالبون بالمال لاشتراء العقاقير والبخورات لحل الطلاسم ، ويعدونه بظهور الشواهد التى قد أعدوها هنالك بأنفسهم ومن فعلهم ، فينبعث لما يراه من ذلك وهو قد خدع ولُبِّس عليه من حيث لا يشعر ، وبينهم فى ذلك إصطلاح فى كلامهم يُلَبِّسون به عليهم ليخفى عند محاورتهم فيما يتلونه من حفر وبخور وذبح حيوان وأمثال ذلك .

وأما الكلام فى ذلك على الحقيقة فلا أصل له فى علم ولا خبر . وأعلم أن الكنوز وإن كانت توجد لكنها فى حكم النادر على وجه الاتفاق لا على وجه القصد إليها ، وليس ذلك بأمر تعم به البلوى ، حتى يدخر الناس أموالهم تحت الأرض ويختمون عليها بالطلاسم لا فى القديم ولا فى الحديث. والرِّكاز الذى ورد فى الحديث وفرضه الفقهاء وهو دفين الجاهلية إنما يوجد بالعثور والاتفاق ، لا بالقصد والطلب . وأيضًا فمن اختزن ماله وختم عليه بالأعمال السحرية فقد بالغ فى إخفائه فكيف ينصب عليه الأدلة والأمارات لمن يبتغيه ، ويكتب ذلك فى الصحائف حتى يطلع على ذخيرته أهل الأعصار والآفاق : هذا يناقض قصد الإخفاء . وأيضًا فأفعالُ العقَلاء لا بد وأن تكون لغرضٍ مقصود فى الانتفاع ؛ ومن اختزن المال فإنه يختزنه لوُلده أو قريبه أو من يؤثره . وأما أن يقصد إخفاءه بالكلية عن كل أحد ، وإنما هُو للبلاء والهلاك ، أو لمن لا يعرفه بالكلية ممن سيأتى من الأمم ، فهذا ليس من مقاصد العقلاء بوجه .

وأما قولهم أين أموال الأمم من قبلنا وما علم فيها من الكثرة والوفور ، فاعلم أن الأموال من الذهب والفضة والجواهر والأمتعة إنما هى معادنُ ومكاسب مثل الحديد والنحاس والرصاص وسائر العقارات والمعادن ، والعمران يظهرها بالأعمال الإنسانية ويزيد فيها أو ينقصها . وما يوجد منها بأيدى الناس فهو متناقل متوارث . وربما انتقل من قطر إلى قطر ومن دولة إلى أخرى بحسب أغراضه والعمران الذى يستدعى له . فإن نقص المال فى المغرب وإفريقية فلم ينقص ببلاد الصقالبة والإفرنج

(١) التخريق : كثرة الكذب ، والتخرق : خلق الكذب . (القاموس).

وإن نقص فى مصر والشام فلم ينقص فى الهند والصين . وإنما هى الآلات والمكاسب والعمران يوفرها أو ينقصها . مع أن المعادن يدركها البلاء كما يدرك سائر الموجودات ويسرع إلى اللؤلؤ والجوهر أعظم مما يسرع إلى غيره ، وكذا الذهب والفضة (١) والنحاس والحديد والرصاص والقصدير ينالها من البلاء والفناء ما يذهب بأعيانها لأقرب وقت .

وأما ماوقع فى مصر من أمر المطالب والكنوز فسببه أن مصر فى مَلَكة القبط منذ آلاف أو يزيد من السنين ، وكان موتاهم يدفنون بموجودهم من الذهب والفضة والجوهر واللآلىء على مذهب من تقدم من أهل الدول . فلما انقضت دولة القبط (٢) وملك الفرس بلادهم نقروا على ذلك فى قبورهم وكشفوا عنه فأخذوا من قبورهم مالايوصف كالأهرام من قبور الملوك وغيرها . وكذا فعل اليونانيون من بعدهم وصارت قبورهم مظنة لذلك لهذا العهد . ويعثر على الدفين فيها فى كثير من الأوقات : إما مايدفنونه من أموالهم ؛ أو ما يكرمون به موتاهم فى الدفن من أوعية وتوابيت من الذهب والفضة معدة لذلك . فصارت قبور القبط منذ آلاف من السنين مظنة لوجود ذلك فيها . فلذلك عنى أهل مصر بالبحث عن المطالب لوجود ذلك فيها وإستخراجها ، حتى إنهم حين ضربت المكوسُ على الأصناف آخرَ الدولة ضُربت على أهل المطالب ، وصدرت ضريبة على من يشتغل بذلك من الحمْق والمَهْوسِين . فوجد بذلك المتعَاطُون من أهل الأطماع الذَّريعةَ إلى الكشفِ عنه والزعم باستخراجه . وما حصلوا إلا على الخيبة فى جميع مساعيهم ، نعوذ بالله من الخسران . فيحتاج من وقع له شىء من هذا الوسواس وابتلى به أن يتعوذَ بالله من العجز والكَسلِ فى طلب معَاشه ، كما تعوَّذَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك ، وينصرِف عن طرق الشيطَان ووسواسه ، ولا يشْغلَ نفسه بالمحالات والمكَاذب من الحكايات . « والله يرْزُقَ منْ يَشاءُ بغيْرِ حسَاب (١) » .

٥ — فصل فى أن الجاه مفيد للمال

وذلك أنا نجد صاحب المال والحظوه فى جميع أصناف المعاش أكثر يسارا وثروة من فاقد الجاه .

والسبب فى ذلك أن صاحبَ الجاه مخدومٌ بالأعمال يتقربُ بها إليه فى مسبيل التزلُف والحاجَة إلى جاهه . فالناس معينون له بأعمالهم فى جميع حاجاته من ضرورى أو حاجىٍّ أو كمالى ، فتحصل قيم تلك الأعمال كلها من كسبه . وجميع ما شأنه أن تبذل فيه الأعواض من العمل ، يستعمل فيها الناس من غير عوض ، فتتوفر قيم تلك الأعمال عليه فهو بين قِيم للأعمال يكتسبها وقيَم أخرى تدعوه الضرورة إلى إخراجها فتتوفر عليه . والأعمالُ لصاحب الجاه كثيرَةٌ فتفيد الغنى لأقرَبِ وقت ، ويزدادُ

(١) عقب د. وافى على هذا بقوله : « هذا غير صحيح فيما يتعلق بالذهب والفضة ؛ فإن من أهم خواص هذين المعدنين أنهما غير قابلين للاتحاد مع الهواء أو الماء أو أى جسم آخر . فهما لا يصدآن ولا تتغير خواصهما الكيميائية بتقادم الزمن ولا يفنيان ولا يبيدان بالاستعمال

(٢) يقصد بالقبط الفراعنة ، أى قدماء المصريين .

(١) الآية ٢١٢ من سورة البقرة .

مع الأيام يسارًا وثروةً . ولهذا المعنى كانت الإمارة أحد أسباب المعاش كما قدمناه .

وفاقدُ الجاه بالكلية ولو كان صاحبَ مال فلا يكون يسارُه إلا بمقدارِ ماله وعلى نسبةِ سَعْيه ؛ وهؤلاء هم أكثر التجار ؛ ولهذا تجدُ أهل الجاهِ منهم يكونونَ أيسرَ بكثير . ومما يشهد لذلك أنا نجد كثيرًا من الفقهاء وأهل الدين والعبادة إذا اشتهروا ، وحَسُنَ الظن بهم ، واعتقد الجمهور في إرْفَادِهِم (١) ، فأخلص الناس في إعانتهم على أحوال دنياهم والاعمال في مصالحهم ، أسرعت إليهم الثروةُ وأصبحوا مَيَاسِير من غير مال مُقْتَنَى ، إلا ما يحصل لهم من قِيَمِ الأعمالِ التي وقعت المعونةُ بها من الناس لهم .

ورأينا من ذلك أعدادًا في الأمصارَ والمدن وفي البدو ، يسعى لهم الناس في الفلح والتَّجْر (٢) وكلٌّ قاعدٌ بمنزله لا يبرح من مكانه ، فينمو ماله ويعظم كسبه ، ويتأثَّل الغِنَى من غير سَعْي . ويعجب من لايفطنُ لهذا السر في حالِ ثروته وأسبابِ غناهُ ويَساره . والله سبحانه وتعالى يرزق من يشاءُ بغير حساب .

٦ – فصل في أن السعادة والكسب إنما يحصل غالباً لأهل الخضوع والتملق وأن هذا الخلق من أسباب السعادة

قد سلفَ لنا فيما أن الكسبَ الذي يستفيدهُ إنما هو قِيَمُ أعمالهم (٣) . ولو قُدِّرَ أحد عُطُلٌ عن (٤) العمل جملة لكان فاقد الكسب بالكلية . وعلى قدْر عمله وشرَفه بين الأعمال وحاجةِ الناسِ إليه يكون قدرُ قيمته وعلى نسبة ذلك نمو كسْبِه أو نقصانه . وقد بينا آنفا أن الجاه يفيد المال (١) لما يحصلُ لصاحبه من تقرُّب إليه بأعمالهم وأموالهم في دفع المضار وجَلْبِ المنافع ، وكان ما يتقربون من عمل أو مال عوضًا عما يحصلون عليه بسبب الجاه من الأغراض في صالحٍ أو طالحٍ . وتصيرُ تلك الأعمالُ في كسْبِه ، وقِيمَها أموال وثروة له فيستفيد الغنَى واليسارُ لأقرب وقت .

ثم إن الجاه متوزعَ في الناس ومترتب فيهم طبقة بعد طبقة ؛ ينتهي في العلو إلى الملُوك الذين ليس فوقهم يدٌ عالية ؛ وفي السفل إلى من لا يملك ضرًّا ولا نفعًا بين أبناء جنسه ؛ وبين ذلك طبقات متعددة : حكمة الله في خلقه ، بما ينتظمُ معاشَهم وتتيسر به مصالحهم ويتم بقاؤهم . لأن النَّوعَ الإنساني لا يتم وجوده وبقاؤه إلا بتعاونِ أبنائه على مصالحهم ؛ لأنه قد تقرر أن الواحدَ منهم لايتم وجودُه إلا بالتعاون ؛ وإنه إنْ ندر فَقَدُ ذلك في صورة مفروضة فلا يصح بقاؤه (٢) .

ثم إن هذا التعاون لا يحصل إلا بالإكراه عليه لجهلهم في الأكثر بمصالح النوع ، ولما جعل لهم من الاختيار ، وأن أفعالهم إنما تصدر بالفكر والرَّوِيَّة لا بالطبع ، وقد يَمْتَنِعُ من المعاونة فيتعين

(١) في القاموس: الرفد: العطاء والصلة، ومصدر رفده يرفده أعطاه ، والإرفاد الإعانة والإعطاء . (٢) التجر : التجارة .
(٣) عرض لذلك في الفصل الأول من هذا الباب : فصل في حقيقة الرزق والكسب ، وأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية .
(٤) العطل : العاطل الذي لا عمل له وهي صفة لأحد .

(١) في الفصل السابق لهذا مباشرة .
(٢) يعني : إن حدث في حالة شاذة أن وجد شخص غير متعاون مع غيره فانه لا يطول عمر بقائه .

حَمْله عليها فلابد من حامل يُكْرِه أبناء النوع على مصالحهم ، لتتم الحكمَةُ الإلهية فى بقاء هذا النوع . وهذا معنى قوله تعالى : وَرَفَعْنَا بعضَهُم فوْقَ بعْض درَجات ليَتَّخِذَ بعضُهم بعْضًا سُخْرِيًا ، ورَحْمَةُ ربِّكَ خيرٌ مما يَجْمَعُون (١) .

فقد تبين أن الجاهَ هو القدرة الحاملةُ للبشَر على التصرُّفِ فيمن تحتَ أيديهم من أبنَاءجنسهم بالإذْن والمنع والتسلط بالقَهْر والغلبة ، ليحملهم على دفع مضارهم وجلب منافعهم فى العدل بأحكام الشرائع والسياسة ، وعلى أغْرَاضِه فيما سوى ذلك ولكن الأَوَّل مقصودٌ فى العناية الربانية بالذات ، والثانى داخلٌ فيها بالعرض كسائر الشرور الداخلة فى القضاء الإلهى ؛ لأنه قد لا يتم وجود الخير الكثير إلا بوجود شر يسير من أجْل المواد (٢) ، فلا يفوتُ الخير بذلك ، بل يقعُ على ما ينطوى عليه من الشَّر اليسير ، وهذا معنَى وقُوع الظلم فى الخليقة ، فتفهَّم .

ثم إن كل طبَقَة من طباق أهل العمران من مدينة أو إقليم لها قدرةٌ على من دُونَها من الطِّباق ، وكل واحد من الطبقة السفلى يستمد بذى الجاه من أهل الطَّبقةِ التى فوق ؛ ويزداد كسبُه تصرفًا فيمن تحتَ يده على قدر ما يستفيد منه .

والجاهُ على ذلك داخِلٌ على الناس فى جميع أبوَاب المعاش ، ويتّسعُ ويضيق بحسب الطبَقَة والطَّورِ الذى فيه صَاحِبُه . فإن كان الجاه متسعا كان الكسب النَّاشىء عنه كذلك ، وإن كان ضيقًا قليلا فمثله .

وفاقِدُ الجَاه وإن كان له مالٌ فلا يكونُ يسارهُ إلا بمقدار عمله أو ماله ونسبة سعْيه ذاهبًا وآيبا فى تنميته كأكثر التُّجّار وأهلِ الفِلاحة فى الغَالِب وأهل الصنائع كذلك إذا فقدوا الجاهَ واقتصروا على فوائد صنائِعهم ، فإنهم يصيرُون إلى الفقر والخَصَاصَةِ فى الأَكثر ولا تسرع إليهم ثروةٌ ، وإنما يُرَمِّقون العيش ترميقًا (١) ويدافعون ضرورة الفقر مدافعةً . وإذا تقرر ذلك وأن الجاه متفرع وأن السعادة والخير مقترنان بحصوله ، علمت أن بذْلَه وإفَادَته من أعظم النِّعم وأجلِّها ، وأن بَاذله من أجلِّ المنعمين . وإنما يبذله لمن تحت يديه فيكون بذله بيد عاليَة وعزَّة ، فيحتاج طالِبُه ومبتغيه إلى خضُوع وتملُّق كما يسأل أهل العز والملوك ، وإلا فيتعذر حصوله . فلذلك قلنا إن الخضوع والتملق من أسباب حصول هذا الجاه المُحَصِّل للسعادة والكسب ، وإن أكثر أهل الثروة والسعادة بهذا التملق . ولهذا نَجدُ الكثِيرَ ممن يتخلَّق بالترفع والشَّمَم لا يحصلَ لهم غرض الجاه فيقتصرون فى التكسُّب على أعمالِهم ، ويَصيرُون إلى الفقر والخَصَاصَةِ .

واعلم أن هذا الكِبْرَ والترفُّعَ من الأخلاق المذْمُومة إنما يحصلُ لمن توهم الكمال ، وأن الناس يحتاجُون إلى بضَاعَتِه من علْم أو صِناعة ، كالعالم المتبَحِّر فى علمه ، أو الكاتب المُجيدِ فى كتابته ،

(١) آخر آية ٣٢ من سورة الزخرف .

(٢) هكذا فى جميع النسخ ، وهى غير واضحة الدلالة .

(١) يعنى لا يجدون إلا ما يمسك الرمق .

أو الشاعر البليغ فى شعره ، وكلُّ محْسن فى صناعته يتوهم أن الناسَ محتاجونَ لما بيده ، فيحدث له ترفع عليهم بذلك .

وكذا يتوهم أهلُ الإنْساب ، ممن كان فى آبائه مُلْك أو عالِمٌ مشهُور أو كامل فى طوْر ، يعتبرون بما رأوه أو سمعوه من حال آبائهم فى المدينة ، ويتوهمونَ أنهم استحقوا مثل ذلك بقرَابتهم إليهم ووراثتهم عنهم ، فهم متمسكون فى الحاضر بالأمر المعدُوم .

وكذلك أهلُ الحيلة والبصَرِ والتَّجارب بالأمور قد يتوهَّم بعضهم كمالًا فى نفسه بذلِك واحتياجًا إليه .

وتجد هؤلاء الأصناف كلهم مترفِّعين لايخْضعون لصاحب الجاه ولا يتملقون لمن هو أعلى منهم ، ويستَصْغِرون مَنْ سواهم لاعتقادهم الفضلَ على الناس . فيستنكِف أحدُهم عن الخضوع ولو كان للمَلك ويعده مذَلَّةً وهوانًا وسفهًا ، ويحاسب الناس فى معَامَلتهم إياه بمقدارِ مايتوهَّم فى نفسه ، ويحقد على من قَصَّر له فى شئ مما يتوهَّمه من ذلك ، وربما يدخل على نفسه الهمومَ والأحزانَ من تقصيرهم فيه ، ويستمر فى عناء عظيم من إيجاب الحق لنفسه أو إبايَةِ الناس له من ذلك . ويحصل له المقت من الناس لما فى طبَاع البَشر من التألّه ، وقل أن يُسَلِّم أحدٌ منهم لأحد فى الكمال والترفع عليه ، إلاأن يكون ذلك بنوْع من القهر والغلبَة والاستطَالة ؛ وهذا كله فى ضمن الجاه . فإذا فقد صاحبُ هذا الخلق الجاهَ — وهو مفقودٌ له كما تبين لك — مقته الناس بهذا الترفُّع ، ولم يحصل له حظ من إحسانهم ، وفقد الجاهَ لذلك من أهل الطبقة التى هى أعلى منه ، لأجل المقت وما يحصل له بذلك من القعود عن تعاهُدهم وغشْيان منازلِهم ، فَفَسد معاشه وبقى فى خصَاصَة وفقر أو فوق ذلك بقليل ، وأما الثروةُ فلا تحصل له أصلًا .

ومن هذا اشتهر بينَ الناس أن الكَامل فى المعرفَة محروم من الحَظّ ، وأنه قد حُوسب بما رُزِقَ من المعرفَة واقتُطع له ذلك من الحظ ؛ وهذا معناه . ومن خلق لشئ يُسِّرَ له . والله المقدر لارب سواه .

ولقد يقع فى الدول اضطرابٌ فى المراتب من أجل هذا الخُلُق ، ويرتفع فيها من السفلة وينزل كثير من العِلْية بسبب ذلك . وذلك أن الدول إذا بلغت نهايتها من التغلب والاستيلاء انفرد منها منبت الملك بملكهم وسلطانهم ، ويئس من سواهم من ذلك ؛ وإنما صارُوا فى مراتِب دون مرتَبة الملك وتحتَ يد السلطان وكأنهم خَوَلٌ له[1] . فإذا استمرت الدولة وشمخ المُلكُ تساوى حينئذ فى المنزلة عند السلطان كل من انتمى إلى خدمته وتقرَّب إليه بنصيحة ، واصطنعه السلطان لغنائه فى كثير من مهماته . فتجد كثيرا من السُّوقَة يسعى فى التقريب من السلطان بجدِّه ونُصْحه ويتزلَّف إليه بوجوه خدمته ، ويستعين على ذلك بعظيم من الخضوع والتملق لَه ولحاشِيَته وأهل

(١) خول : أعوان وخدم .

نسبه ، حتى يرسخ قدمَه معهم ، وينظمه السلطان فى جملته ، فيحصل له بذلك حظ عظيم من السعادة ، وينتظم فى عدَد أهل الدولة .

وناشِئَةُ الدولة حينئذ من أبناء قومها الذين ذَلَّلوا صعابها ومهدوا أكنافَها معتزون بما كان لآبائهم فى ذلك من الآثار ، تشمخ به نفوسهم على السلطان ويعتدون بآثاره . ويجرون فى مِضْمَار الدَّالَّةِ بسببه . فيمقتهم السلطان لذلك ويباعدهم ويميل إلى هؤلاء المصطَنَعِين الذين لايعتدُّون بقديم ، ولا يذهبُون إلى دَالَّة ولا ترفع ، إنما دأْبهم الخضوع له والتملُّق والاعتماد فى غرضه متى ذهب إليه ، فيتسع جاههم ، وتعلو منازلُهم ، وتنصرف إليهم الوجوهُ والخواطر ، بما يحصل لهم من قِبَل السلطان والمكانة عنده ، ويبقى ناشئه الدولة هم فيه من الترفع والاعتدادِ بالقديم ، لايزيدهم ذلك إلا بعدًا من السلطان ومقتًا وإيثارًا لهؤلاء المصطَنَعين عليهم ، إلى أن تنقرض الدولة . وهذا أمر طبيعى فى الدولة . ومنه جاء شأن المصطَنَعين فى الغَالب . والله سبحانه وتعالى أعلم ، وبه التوفيق لارَبَّ سواه .

٧ — فصل فى أن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة والأذان ونحو ذلك لاتعظم ثروتهم فى الغالب

والسببُ لذلك أن الكسبَ كما قدمناه قيمةُ الأعمال وأنها متفاوتة بحسب الحاجة إليها ، فإذا كانت الأعمال ضرورية فى العمران عامة البلْوى به ، كانت قِيمتها أعظَم وكانت الحاجةُ إليها أشدُّ . وأهل هذه الصنائع الدينية لاتضطر إليهم عامة الخلق ، وإنما يحتاج إلى ماعندهم الخواصّ ممن أقبل على دينه ، وإن احتيج إلى الفُتْيا والقَضاء فى الخصُومات فليس على وجه الاضطرار والعموم ، فيقعُ الاستغناء عن هؤلاء فى الأكثر . وإنما يَهتم بإقَامَة مراسِمهم صاحبُ الدولة بماله من النَّظر فى المصَالح ، فيقسمُ لهم حظا من الرزق على نسبة الحاجة إليهم على النَّحو الذى قررناه ، لايساويهم بأهل الشَّوكة ولا بأهل الصَّنائع ، من حيث الدين والمرَاسِمِ الشَّرعية ، ولكنه يقسمُ بحسَب عمُوم الحاجَة وضرُورة أهل العمران ، فلا يصح فى قسمهم إلا القليل .

وهم أيضًا لشرف بضَائعهم أعزَّة على الخلق وعند نفُوسهم ، فلا يخضعون لأهل الجاه حى ينالوا منه حظًا يستدِرُّون به الرزق ، بل ولا تفرغ أوقاتهم لذلك ، لما هم فيه من الشغل بهذه الصنائع الشريفة المشتملة على إعْمَال الفكْر والبَدن ، بل ولا يسعُهم إبتذال أنفسهم لأهل الدنيا لشرف صنائعهم ، فهم بمعزل عن ذلك . فلذلك لا تعظم ثروتهم فى الغَالب . ولقد باحثْت بعض الفضلاء فأنكر ذلك علىّ ، فوقع بيدى أوراق مخرَّقة من حِسَابَات الدَّواوين بدَار المأمون تشتمل على كثير من الدَّخْل والخرج ، وكان فيما طالعتُ فيه أوراق القضاة والأئمة والمؤذِّنين فوقفتُه عليه ، وعلم منه صحة ماقلته ورجَعَ إليه ، وقضينا العجب من أسرار الله فى خلقه وحكمته فى عَوَالِمه . والله الخالق القادر لارب سواه .

٨ – فصل فى أن الفلاحة من معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو

وذلك لأنه أصيل فى الطبيعة وبسيط فى منحاه، ولذلك لا تجده ينتحله أحد من أهل الحضر فى الغالب، ولا من المترفين، ويختص منتحله بالمذلة. قال صلى الله عليه وسلم، وقد رأى السِّكَّةِ (١) ببعض دور الأنصار: «ما دَخَلَتْ هذه دَارَ قَوْمٍ إلا دَخَلَه الذُّلَّ»؛ وحمله البخارى على الاستكثار منه وترجم عليه: «باب ما يحذر من عواقب الاشْتِغَال بآلة الزَّرع أو تجاوُز الحد الذى أُمِرَ به». والسبب فيه والله أعلم ما يتبعها من المغْرَم المفْضِى إلى التحكُّم واليد العَالية، فيكون الغارم ذليلا بائسًا بما تتناوله أيدى القهر والاستطالة. قال صلى الله عليه وسلم: «لَا تَقُوم السَّاعَةُ حتَّى تَعُودَ الزَّكَاةُ مغرمًا»، إشارة إلى المُلْكِ العَضُوضِ القاهر للناس الذى معه التسلُّط والجور، ونسيان حقوق الله تعالى فى المتمولات، وَاعتبار الحقوق كلها مغرمًا للملوك والدول. والله قادرٌ على ما يشاء. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

٩ – فصل فى معنى التجارة ومذاهبها واصنافها

إعلم أن التجارة محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء أيا ما كانت السلعة من دقيق أوزرع أو حيوان أو قماش. وذلك القدر النامى يسمى ربحًا.

فالمحاولُ لذلك الربح إما أن يختزنَ السِّلعة ويتحيَّن بها حوالةَ الأسواق من الرخص إلى الغلاء فيعظم ربحه، وإما بأن ينقُلَه إلى بلد آخر تنفق فيه تلك السلعة أكثر من بلده الذى اشتراها فيه، فيعظم ربحه. ولذلك قال بعض الشيوخ من التجار لطالب الكشف عن حقيقة التجارة: أنا أعلمها لك فى كلمتين: «اشْتَرِ الرَّخيص وَبع الْغَالى، وقد حصلَت التِّجارة»، إشارة منه بذلك إلى المعنَى الذى قررناه. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لاربَّ سواه.

١٠ – فصل فى أى أصناف الناس يحترف بالتجارة وأيهم له احتجاب حرفها

قد قدمنا أن معنى التجارة تنمية المال بشراء البضائع ومحاولة بيعها بأغلى من ثمن الشراء، إما بانتظار حِوالَةِ الأَسْوَاقِ أو نقلها إلى بلد هى فيه أنْفَق وأغلى، أو بيعها بالْغلاء على الآجَالِ. وهذا الربحُ بالنسبة إلى أصل المال يسير. إلا أن المالَ إذا كان كثيرًا عظم الربح، لأن القليل فى الكَثيرِ كثيرٌ. ثم لا بد فى محاوَلَة هذه التنمية الذى هو الرِّبح من حصول هذا المال بأيدى الباعة بشراء البضائع وبيعها وتقَاضى أثمانها. وأهلُ النَّصَفَة قليل؛ فلا بد من الغِشّ والتَّطْفِيف المجْحفِ بالبضائع ومن المَطْل فى الأَثْمان المجْحِف بالرِّبح، كتعطيل المحاولة فى تلك المدة وبها نماؤه، ومن الجحود والإنكار المُسْحِت (١) لرأس المال إن لم يتقيد بالكتاب والشهادة. وغَنَاءُ الحكام فى ذَلك قليل، لأن الحكم إنما هو على الظاهر. فيعانى التاجر من ذلك

(١) السكة: حديدة الفدان وهو المحراث (القاموس).

(١) من معانى السحت: استئصال الشىء: أى المسحت لرأس المال والمستهلك لأصله.

أحوالا صعبة ، ولا يكاد يحصل على ذلك التافه من الربح إلا بعظم العناء والمشقة ، أولا يحصل أويتلاشى رأس ماله . فإن كان جريئًا على الخصومة ، بصيراً بالحُسْبان ، شديد المُماحكة [١] ، مقداما على الحكام ، كان ذلك أقرب له إلى النَّصَفَة بجراءته منهم ومماحكته ؛ وإلا فلا بدَّ له من جاه يدَّرِعُ [٢] به ، يوقع له الهيبة عند الباعة ويحمل الحكام على إنصافه من معامليه ، فيحصل له بذلك النَّصَفَةُ في ماله طوعًا في الأول وكرها في الثاني . وأما من كان فاقداً للجراءة والإقدام من نفسه فاقد الجاه من الحكام فينبغي له أن يجتنب الاحتراف بالتجارة ، لأنه يعرض ماله للضياع والذهاب ويصير مأكلة للباعة ، ولا يكاد ينتصف منهم . لأن الغالِبَ في الناس ، وخصوصًا الرَّعاعُ والبَاعة ، شرهون إلى ما في أيدي الناس سواهم ، متوثبون عليه ؛ ولولا وازع الأحكام لأصبحت أموال الناس نهبًا : « ولولا دَفْعُ الله النَّاسَ بعضَهم ببَعْضٍ لفسَدَت الأرضُ ، ولكنَّ الله ذُو فَضْل على العَالَمِين [٣] » .

١١ — فصل في أن خلق التجار نازلة عن خلق الأشراف والملوك

وذلك أن التجار في غالب أحوالهم إنما يعانون البيع والشراء ، ولا بد فيه من المُكَايَسَةِ ضرورة . فإن اقتصر عليها اقتصرت به على خلقها ؛ وهي — أعني خلق المكايسة — بعيدة عن المروءة التي تتخلق بها الملوك والأشراف . وأما إن استُرذِلَ خُلُقُهُ بما يتبع ذلك في أهل الطبقة السفلى منهم ، من المُماحكة والغش والخِلَابَة [١] وتعاهد الأيمان الكاذبة على الأثمان رداً وقبولا ، فأَجْدِرْ بذلك الخلق أن يكون في غاية المذلة لما هو معروف . ولذلك تجدُ أهلَ الرياسة يتحامونَ الاحتِراف بهذه الحرْفَة لأجل ما يُكْسِبُ من هذا الخلق . وقد يوجد منهم من يسلم من هذا الخلق ويتحاماه لشرف نفسه وكرم خلاله ، إلا أنه في النادر بين الوجود . والله يهْدِي من يشاءُ بفضْلِهِ وكرمه ، وهو ربُّ الأولين والآخرين .

١٢ — فصل في نقل التجار والسلع

التاجرُ البصِيرُ بالتجارة لا ينقل من السلع إلا ما تعم الحاجَةُ إليه من الغَنِيّ والفقير والسلطان والسوقة ، إذ في ذلِك نَفَاقُ سلعته . وأما إذا اختص نقله بما يحتاجُ إليه البعض فقط ، فقد يتعذَّر نفَاق سِلعته حينئذ بإعواز الشراء من ذلك البعض لعارض من العوارض ، فتكسد سوقه وتفسد أرباحه . وكذلك إذا نقل السِّلعة المحتاج إليها فإنما ينقلُ الوَسط من صِنْفها ؛ فإن العالِيَ من كل صنْف من السلع إنما يختص به أهلُ الثروة وحاشيةُ الدولة وهم الأقل ؛ وإنما يكون الناس أُسوةً في الحاجة إلى الوسط من كل صِنف . فليتحر ذلك جُهده ففيهِ نَفَاق سلعته أو كَسَادها . وكذلك نقل السِّلع من البَلد البعيد المسافة أو في شِدَّة الخطر في الطُرقات يكون أكثر فائدةً للتجار وأعظم أرباحا وأكفل بِحِوالة الأسواق . لأن السلعة المنقولَةَ حينئذ

(١) المماحكة : اللجاج وتماحكا تلاجّا وهو مَاحك (القاموس)
(٢) والمعنى : يتخذه درعاً .
(٣) آخر آية ٢٥١ من سورة البقرة .

(١) الخلابة : الخداع .

تكون قليلة مُعْوِزَةً لبعد مكانها أو شدة الغَرَر[(١)] فى طريقها فيقل حاملوها ويعز وجودها ؛ وإذا قلت وعزت غلت أثمانها. وأما إذا كان البلدُ قريبَ المسافة والطريقُ سابِلٌ[(٢)] بالأمن ، فإنه حينئذ يكثر ناقلوها ، فتكثر وترخص أثمانها.

ولهذا نجد التجار الذين يولعون بالدخول إلى بِلاد السُّودان أرْفَه الناس وأكثرَهم أموالًا ، لبُعْد طريقِهم ومشقته ، واعتراض المفَازَة الصَّعبة المخطرة بالخوف والعطَش ، لا يوجد فيها الماءُ إلا فى أماكن معلومة يهتدى إليها أدلاءُ الركبان ، فلا يرتكِب خطَر هذا الطريق وبُعدَه إلا الأقلُّ من الناس ؛ فتجد سلع بلاد السودان قليلةً لدينا فتختصُّ بالغلاء ؛ وكذلك سلعنا لديهم ؛ فتعظم بضائع التجار من تناقلهم ، ويسرع إليهم الغنى والثروة من أجل ذلك. وكذلك المسافرون من بلادِنَا إلى المشرق لبعد الشُّقَّة أيضًا . وأما المترددِّون فى أُفقٍ وَاحد مابين أمصاره وبلْدانه ففائدتُهم قليلة وأرباحُهُمْ تافِهَةٌ لكثرة السلع وكثرة ناقليها . و « اللهُ هُوَ الرزَّاقُ ذُو القوَّةِ المتِينُ »[(٣)] .

١٣ – فصل فى الاحتكار

ومما اشتهر عند ذَوِى البصر والتجربة فى الأمصار أن احتكارَ الزَّرْع لتحين أوقات الغلاء مشؤوم وأنه يعود على فائدته[(٤)] بالتلف والخسران . وسببه والله أعلم أن الناس لحاجتهم إلى الأقوات مضطرون إلى ما يبذلون فيها من المال اضطرارًا ، فتبقى النفوس متعلقة به ، وفى تعلق النفوس بما لها سر كبير فى وباله على من يأْخذه مجانًا . ولعله الذى اعتبره الشارع فى أخذ أموال الناس بالباطل . وهذا وإن لم يكن مجانًا فالنفوس متعلقة به ، لإعطائه ضرورة من غير سعة فى العذر فهو كالمكره . وما عدا الأقوات والمأْكولات من المبيعات لا اضطرار للناس إليها ، وإنما يبعثهم عليها التفنن فى الشهوات ، فلا يبذلون أموالهم فيها إلا باختيار وحرص ، ولا يبقى لهم تعلق بما أعطوه . فلهذا يكون من عرف بالاحتكار تجتمع القوى النفسانية على متابعته لما يأْخذه من أموالهم فيفسد ربحه . والله تعالى أعلم .

وسمعت فيما يناسب هذا حكاية ظريفة عن بعض مَشْيَخة المغرب . أخبرنى شِيخنا أبو عبد الله الآبلىُّ . قال : حضرت عند القاضى بفاس لعهد السلطان أَبِى سَعيد ، وهو الفقيه أبو الحَسَن المليلىُّ وقد عُرِض عليه أن يختار بعض الألْقاب المخزنِيَّة[(١)] لجرايتِه قال ؛ فأطرق مليا ثم قال لهم : مِنَ مَكْسِ الخَمْرِ . فاستَضْحكَ الحاضرون من أَصحَابه ، وعجبوا ، وسأَلوه عن حكمة ذلك فقال : إذا كانت الجبَاياتُ كلُّها حرامًا فأَختار منها مالا تُتَابعه نفْسُ مُعْطيه ، والخمر قلَّ أن يبذُل فيها أحدٌ ماله إلا وهو طَرِبٌ مسرورٌ بوجدانه غير آسف عليه ، ولامتعلِّقَةً

---

(١) الغرر : تعريض النفس للهلاك .

(٢) السابل من الطرق المسلوك ، وأسبلت كثرت سابلتُها .

(٣) من الآية ٥٨ من سورة الذاريات .

(٤) يعنى يتلف المنفعة ويعود بالخسران على صاحبه .

---

(١) هكذا فى جميع النسخ ، ويظهر أن هذا كان تعبيرا اصطلاحياً متعارفاً عليه فى عصرهم . والمعنى يختار بعض أبواب الدخل ليأخذ منها مرتبه .

به نفْسُه . وهذه ملاحظةٌ غريبة . والله سبحانه وتعالى يعلم ما تكن الصدور [١] .

١٤ — فصل فى أن رخص الأسعار مضر بالمحترفين بالرخيص

وذلك أن الكسب والمعاش كما قدمناه إنما هو بالصنائع أو التجارة ؛ والتجارة هى شراءُ البضائع والسلع وادخارها يتحين بها حِوالة الأسواق بالزيادة فى أثمانها ويسمى ربحا ، ويحصل منه الكسب والمعاش للمحترفين بالتجارة دائمًا ، فإذا استديم الرخص فى سلعة أو عَرَض [٢] من مأكول أو ملبوس أو متمول على الجملة ، ولم يحصل للتاجر حوالة الأسواق فسد الربح والنَّماء بطول تلك المدة ، وكسدت سوق ذلك الصنف ، فقعد التجار عن السعى فيها ، وفسدت رءوس أموالهم .

واعتبر ذلك أولًا بالزرع فإنه إذا استديم رخصه يفسد به حال المحترفين بسائر أطواره من الفلح والزراعة لقلة الربح فيه ونَدَارَتِه أو فقده ، فيفقدون النَّماء فى أمْوَالِهم أو يجدونه على قلة ، ويعودون بالإنفاق على رءوس أموالهم وتفسد أحوالهم ويصيرون إلى الفَقْر والخَصَاصَة ، ويتبع ذلك فساد حال المحترفين أيضًا بالطحن والخبز وسائر مايتعلق بالزراعة من الحرث إلى صيرورته مأكولا . وكذا يفسدُ حال الجند إذا كانت أرزاقهم من السلطان على أهل الفلح زرعا ؛ فإنها تقِلّ جبابتها من ذلك ويعجزون عن إقامَة الجندية التى هم بسببها ومطالبون بها ومتقطعون لها ، فتفسد أحوالهم .

وكذا إذا أستديمَ الرخص فى السُّكَّر أو العسل فسد جميع مايتعلق به وقعد المحترفون عن التجارة فيه . وكذا الملبوسات إذا استديم فيها الرخص .

فإذًا الرخص المفرط يجحفُ بمعاش المحترِفين بذلك الصِّنف الرَّخيص ؛ وكذا الغلاءُ المفرطا أيضًا ؛ وإنما معاش الناس وكسبهم فى المتَوسط من ذلك وسرعة حِوَالة الأسواق . وعلم ذلك يرجع إلى العوائد المتقررة بين أهلِ العمران . وإنما يُحْمَدُ الرخص فى الزرع من بين المبيعات لعموم الحاجة إليه ، واضطرار الناس إلى الأقوات من بين الغنىّ والفقير . والعالة من الخلق هم الأكثر فى العمران . فيعم الرفق بذلك ويرجح جانب القوت على جانب التجارة فى هذا الصنف الخاص . والله الرزّاق ذو القوة المتين . والله سبحانه وتعالى ربُّ العرش العظيم .

١٥ — فصل فى أن خلق التجارة نازلة عن خلق الرؤساء وبعيدة من المروءة

قد قدمنا فى الفصل قبله [١] أن التاجر مدفوع إلى معاناة البيع والشراء وجلب الفوائد

---

(١) عقب د. وافى على هذا بقوله : « لم يتكلم ابن خلدون على الاحتكار من ناحيتيه الاقتصادية والاجتماعية ، ومجال القول فيهما ذو سعه كبيرة ، ويتسق مع موضوع بحثه فى هذا الباب ، وإنما تكلم عليه من ناحية تعلق نفوس المشترين بما يبذلونه من أثمان باهظة فى المواد المحتكرة ، وأثر هذا التعلق فيما يكسبه المحتكر . وهذه ناحية غريبة كل الغرابة عن الموضوع وعن اتجاهات البحث ، وتقوم على المعتقدات المتصلة بالتشاؤم وتعلق النفوس بأموالها ... وما إلى ذلك .

(٢) العرض ، بالسكون المتاع ، والجمع عروض مثل فلس وفلوس ، ومنه عروض التجارة .

---

(١) يقصد الفصل الحادى عشر ، ولعل الفصل الحادى عشر كان سابقاً لهذا الفصل مباشرة فى الترتيب الأول للمقدمة ، ثم غير ابن خلدون ترتيب الفصول بدون أن يغير هذه العبارة .

والأرباح ولا بد فى ذلك من المُكَايَسَةِ والمُمَاحَكَةِ والتحذلُق وممارسَة الخصومات واللجاج ، وهى عوارض هذه الحرفة . وهذه الأوصاف نقص من الزَّكاء والمروءة وتجرح فيها ؛ لأن الأفعال لابد من عود آثارها على النفس ، فأفعال الخير تعودُ بآثار الخير والزَّكاء ، وأفعال الشر والسفسفة تعود بضد ذلك ، فتتمكن وترسخ إن سبقت وتكررت ، وتنقص خلال الخير إن تأخرت عنها ، بما يتطبع من آثارها المذمومَة فى النفس، شأن الملَكات الناشئة عن الأفعال .

وتتفاوت هذه الآثار بتفاوت أصناف التجار فى أطوارهم . فمن كان منهم سافل الطور محالفاً لأشرار الباعة أهل الغِشّ والخِلَابَةِ والفجور فى الأثمان إقراراً وإنكاراً ، كانت رداءةُ تلك الخلق عنده أشد ، وغلبت عليه السَّفْسَفَةُ ، وبعد عن المروءة واكتسابها بالجملة . وإلا فلا بد له من تأثير المُكَايَسَةِ والمُمَاحكَةِ فى مروءته . وفقدان ذلك منهم فى الجملة ، ووجود الصنف الثانى منهم الذى قدمناه فى الفصل قَبْلَه أنهم يَدَّعُون بالجاه ويُعَوِّض لهم من مباشرة ذلك ، فهم نادر وأقل من النادر . وذلك أن يكون المال قد يوجد عنده دفعة بنوع غريب أو ورثة عن أحد من أهل بيته ، فحصلت له ثروة تعينه على الاتصال بأهل الدولة وتكسبه ظهوراً وشهرة بين أهل عصره ، فيرتفع عن مباشرة ذلك بنفسه ويدفعه إلى من يقوم له به من وكلائه وحشمه ، ويسهل له الحكام النَّصَفة فى حقوقهم بما يؤنسونه من بره وإتحافه فيبعدونه عن تلك الخلق بالبعد عن معاناة الأفعال المقتضية لها كما مر ، فتكون مروءتهم أرسخ وأبعد عن تلك المحاجاة ، إلا مايسرى من آثار تلك الأفعال من وراء الحجاب ، فإنهم يضطرون إلى مشارفة أحوال أُولئك الوكلاء ووفاقهم أو خلافهم فيما يأتون أو يذورن من ذلك ؛ إلا أنه قليل ولا يكاد يظهر أثره . «وَاللَّهُ خَلَقَكُم وما تَعْمَلُون[1]» .

١٦ — فصل فى أن الصنائع لا بد لها من المعلم[2]

اعلم أن الصناعة هى ملكة فى أمر عملىٍّ فكرى ، وبكونه عمليا هو جسمانى محسوس والأحوالُ الجسمانية المحسُوسَةُ فنقلها [3] بالمُبَاشَرة أوعب لها وأكمل . لأن المباشرة فى الأحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة ، والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى ، حتى ترسخ صورته ؛ وعلى نسبة الأصل تكون الملكة . ونقل المعاينة أوعب وأتم من نقل الخبر والعلم ؛ فالملكة الحاصِلَةُ عنه أكملُ وأرسخُ من الملَكَة الحاصِلَة عن الخبر . وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون حذق المتعلم فى الصناعة وحصول ملكته .

ثم إن الصنائعَ منها البسيطُ، ومنها المركَّبُ والبسيطُ هو الذى يختص بالضروريات ، والمركَّبُ هو الذى يكون للكماليات . والمتقدم منها فى التعلم هو البسيط، لبساطته أولا ولأنه مختص بالضرورى

(١) آية ٩٦ من سورة الصافات .
(٢) فى بعض النسخ : لا بد لها من العلم ، وهو تحريف .
(٣) الأصح حذف الفاء ، وكثيراً ما يزيدها ابن خلدون فى مثل هذا التركيب .

الذى تتوفر الدواعى على نقله ، فيكونُ سابقاً فى التعلم ويكون تعليمُه لذلك ناقصا . ولا يزالُ الفكر يخرج أصنافها ومركّباتها من القوّة إلى الفعل بالاستنباط شيئاً فشيئاً على التدريج حتى تكمل . لا يحصل ذلك دفعة وإنما يحصل فى أزمان وأجيال إذ خروج الأشياء من القوة إلى الفعل لا يكون دفعة لا سيما فى الأمور الصناعية ، فلابد له إذن من زمان . ولهذا تجدُ الصّنائع فى الأمصار الصّغيرة ناقصةً ، ولايوجد منها إلا البسيط . فإذا تزايدت حضارتها ودعت أمور الترف فيها إلى استعمال الصنائع ، خرجت من القُوّة إلى الفعل .

وتنقسم الصنائع أيضًا : إلى ما يختص بأمر المعاش ضروريا كان أو غير ضرورى ، وإلى ما يختص بالأفكار التى هى خاصية الإنسان من العلوم والصنائع ، والسياسة (١) ومن الأول الحياكة والجزارة والنّجارة والحدادة وأمثالها ، ومن الثانى الوِراقةُ ، وهى معاناةُ الكتب بالانْتِسَاخ والتجليد ، والغناء والشعر وتعليم العلْم وأمثال ذلك ، ومن الثالث الجندية وأمثالها . والله أعلم .

١ — فصل فى أن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضرى وكثرته

والسببُ فى ذلك أن النّاس مالم يُستوف العمرانُ الحضرى وتتمدنْ المدينة إنما همهُم فى الضرورى من المعاش ، وهو تحصيلُ الأقوات من الحنْطَة وغيرها . فإذا تمدنت المدينةُ وتزايدتْ فيها الأعمال ووفت بالضرورى وزادت عليه ، صُرِفَ الزائدُ حينئذ إلى الكَمالاتِ منَ المعاش . ثم إن الصّنائع والعلوم إنما هى للإنسان من حيث فكره الذى يتميز به عن الحيوانات ، والقوت له من حيث الحيوانية والغذائية ، فهو مقدم لضروريته على العلوم والصنائع . وهى متأخرة عن الضرورى .

وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنق فيها حينئذ ، واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوفّر دوَاعى التّرفِ والثّروة . وأما العمرَان البدَوى أو القليلُ فلا يحتاجُ من الصّنائع إلا البَسيط ، خاصةً المستعمل فى الضروريّات من نَجّار أو حداد أو خياط أو حائك أو جزار . وإذا وجدت هذه بعدُ فلا توجدُ فيه كاملةً ولا مستجادةً وإنما يوجد منها بمقدار الضرورة ، إذ هى كلها وسائل إلى غيرها وليست مقصودةً لذاتها .

وإذا زخر بحرُ العمران وطلبت فيه الكَمالاتُ كان من جملتها التأنق فى الصنائع واستجادتها ، فكملت بجميع متمماتها وتزايدت صنائع أخرى معها مما تدعو إليه عوائد الترفِ وأحواله من جزار ودبّاغ وخراز (١) وصائغ وأمثال ذلك . وقد تنتهى هذه الأصناف إذا استبحَر العمرانُ إلى أن يوجد منها كثيرٌ من الكمالات ، والتأنق فيها فى الغاية ، وتكون من وجوه المعاش فى المصْر لمنتحلها ، بل تكون فائدتها من أعظم فوائد الأعمال ، لما يدعو

(١) سقط هنا كلمتان ، وتقدير العبارة بعد وضعهما : « وإلى ما يختص بالسياسة » لأنه هنا بصدد صنف ثالث كما يوضحه الجملة التالية .

(١) الخراز : صانع الأحذية ، والخرازة حرفته . خرز الخف يخرزه بضم الزاى وكسرها (القاموس) .

إليه الترفُ فى المدينة مثل الدهّان [١] والصفّار [٢] والحمّامى [٣] والطباخ والسفّاح [٤] والهرّاس [٥] ومعلم الغناء والرقص وقرع الطبول على التوقيع ، ومثل الورّاقين الذين يعانون صناعة انتساخ الكتب وتجليدها وتصحيحها ، فإن هذه الصناعة إنما يدعو إليها الترف فى المدينة من الاشتغال بالأمور الفكرية وأمثال ذلك . وقد تخرج عن الحد إذا كان العمران خارجًا عن الحد ، كما بلغنا عن أهل مصر أن فيهم من يعلم الطيور العجم والحُمرَ الإنسية ويتخيل أشياء من العجائب بإيهام قلب الأعيان ، وتعليم الحُداء [٦] والرقص والمشى على الخيوط فى الهواء ، ورفع الأثقال من الحيوان والحجارة ، وغير ذلك من الصنائع التى لا توجد عندنا بالمغرب لأن عمران أمصاره لم يبلغ عمران مصر والقاهرة . أدام الله عمرانها بالمسلمين .

---

(١) الدهان : الذى يبيع الدهن ويشتغل بصناعته . ولعله يقصد الذى يدهن حوائط البيوت .

(٢) الصفار الذى يشتغل بصناعة الصفر وهو صنف من النحاس

(٣) الحمامى : الذى يتعهد الحمامات ويزاول صناعتها .

(٤) هكذا فى جميع النسخ المتداولة . وفى النسخة « التيمورية » « السفاج » . وكلتا الكلمتين لا معنى لها هنا . ويظهر أن الكلمة محرفة من « الصباغ » وهو الذى يصبغ الثياب ، أو من « السقاء » وهو الذى ينقل الماء إلى المنازل .

(٥) الهرس : الدق العنيف ، والهراس متخذه ، وهرس الهراس الهريسة من باب قتل دقها ، والمهراس : الهاوون وحجر مستطيل ينقر ويدق فيه ويتوضأ فيه ، وقد استعير للخشبة التى يدق فيها الحب ، فقيل لها مهراس على التشبيه بالمهراس من الحجر أو الصفر الذى يهرس فيه الحبوب وغيرها (من القاموس والمصباح) .

(٦) أصل الحدو : الغناء للإبل فى سوقها ، يقال حدوت الإبل أحدوها حدوا وحداء بالضم حثثتها على السير بالحداء مثل غراب ، وهو الغناء ، وحدوته على كذا بعثته عليه (المصباح والصحاح) .

١٨ – فصل فى أن رسوخ الصنائع فى الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها

والسبب فى ذلك ظاهر وهو أن هذه كلها عوائد للعمران وألوان [١] . والعوائد إنما ترسخ بكثرة التكرار وطول الأمد فتستحكم صبغةُ ذلك وترسخ فى الأجيال ، وإذا استحكمت الصبغةُ عسر نزعُها . ولهذا نجد فى الأمصار التى كانت استبحرت فى الحضارة لما تراجع عمرانها وتناقص بقيت فيها آثار من هذه الصنائع ليست فى غيرها من الأمصار المستحدثة العمران ، ولو بلغت مبالغها فى الوفور والكثرة . وما ذاك إلا لأن أحوال تلك القديمة العمران مستحكمة راسخة بطول الأحقاب وتداول الأحوال وتكررها ، وهذه لم تبلغ الغاية بعد .

وهذا كالحال فى الأندلس لهذا العهد : فإنا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة فى جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها ، كالمبانى والطبخ وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأوتار والرقص وتنضيد الفرش فى القصور ، وحسن الترتيب والأوضاع فى البناء ، وصوغ الآنية من المعادن والخزف وجمع المواعين ، وإقامة الولائم والأعراس ، وسائر الصنائع التى يدعو إليها الترفُ وعوائده ، فنجدهم أقْوَمَ عليها وأبصر بها ، ونجد صنائعها مستحكمة لديهم ، فهم على حصة موفورة من ذلك ، وحظ متميز بين جميع

---

(١) هكذا فى النسخة « التيمورية » . وقد وردت هذه الكلمة محرفة إلى « الأوّن » فى أكثر من مخطوطة .

الأمصار ، وإن كان عمرانها قد تناقص ، والكثير منه لا يساوى عمران غيرها من بلاد العُدْوَة . وما ذاك إلا لما قدمناه من رسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الأموية ، وما قبلها من دولة القوط ، وما بعدها من دولة الطوائف إلى هلم جرا . فبلغت الحضارة فيها مبلغا لم تبلغه فى قطر ، الا ماينقل عن العراق والشام ومصر أيضًا ، لطول آماد الدول فيها ، فاستحكمت فيها الصنائع وكملت جميع أصنافها على الاستجادة والتنميق ، وبقيت صبغتها ثابتة فى ذلك العمران ، لا تفارقه إلى أن ينتقص بالكلية ، حال الصبغ إذارسخ فى الثوب .

وكذا أيضًا حال تونس فيما حصل فيهابالحضارة من الدول الصنهاجية والموحدين من بعدهم ، وما استكمل لها فى ذلك من الصنائع فى سائر الأحوال ؛ وإن كان ذلك دون الأندلس إلا أنه متضاعف برسوم منها تنقل إليها من مصر لقرب المسافة بينهما ، وتردد المسافرين من قطرها إلى قطر مصر فى كل سنة . وربما سكن أهلها هناك عصورًا ، فينقلون من عوائد ترفهم ومحكم صنائعها ما يقع لديهم موقع الاستحسان . فصارت أحوالها فى ذلك متشابهة من أحوال مصر لما ذكرناه ومن أحوال الأندلس لما أن أكثر ساكنها من شرق الأندلس حين الجلاء لعهد المائة السابعة . ورسخ فيها من ذلك أحوال ؛ وإنْ كان عمرانها ليس بمناسب لذلك لهذا العهد إلا أن الصبغة إذا استحكمت فقليلا ما تحول إلا بزوال محلها .

وكذا نجد بالقيروان ومراكش وقلعة ابن حماد أثراً باقياً من ذلك ؛ وإن كانت هذه كلها اليوم خراباً أو فى حكم الخراب . ولا يتفطن لها إلا البصير من الناس فيجد من هذه الصنائع آثاراً تدله على ماكان بها ؛ كأثر الخط الممحو فى الكتاب . والله الخلاق العليم .

١٩ – فصل فى أن الصنائع إنما تستجاد وتكثر إذا كثر طالبها

والسبب فى ذلك ظاهر ، وهو أن الإنسان لا يسمح بعمله أن يقع مَجَّاناً لأنه كسبه ومنهمعاشه إذ لا فائدة له فى جميع عمره فى شىء مما سواه ؛ فلا يصرفه إلا فيما له قيمة فى مصره ليعود عليه بالنفع . وإن كانت الصناعة مطلوبة وتوجّه إليها النَّفَاقُ كانت حينئذ الصناعة بمثابة السلعة التى تنفُقُ سوقها وتجلب للبيع ، فتجتهد الناس فى المدينة لتعلم تلك الصناعة ليكون منها معاشهم . وإذا لم تكن الصناعة مطلوبة لم تَنْفُق سوقها ، ولا يوجه قصد إلى تعلمها ، فاختصت بالترك وفقدت للأهمال . ولهذا يقال عن على رضى الله عنه : « قيمة كل أمرىء ما يحسن » ، بمعنى أن صناعته هى قيمته أى قيمة عمله الذى هو معاشه وأيضاً فهنا سر آخر وهو أن الصنائع وإجادتها إنما تطلبها الدولة . فهى التى تَنْفُق سوقَها وتوجهُ الطلبات إليها ، وما لم تطلبه الدولة وإنما يطلبها غيرها من أجل المصر فليس على نسبتها ؛ لأن الدولة هى السوق الأعظم . وفيها نَفَاق كل شىء ، والقليل والكثير فيها على نسبة واحدة ، فما نفق

كانْ أكثرياً ضرورة . والسوقة وإن طلبوا الصناعة فليس طلبهم بعام ، ولاسوقهم بنافقة والله سبحانه وتعالى قادر على مايشاء .

٢٠ – فصل فى أن الأمصار إذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع

وذلك لما بينا أن الصنائع إنما تستجاد إذا احتيج إليها وكثر طلبها ؛ وإذا ضعف أحوال المصر وأخذ فى الهَرَم بانتقاض عمرانه وقلة ساكنه تناقص فيه الترف ، ورجعوا إلى الاقصار على الضرورى من أحوالهم ، فتقل الصنائع التى كانت من توابع الترف ، لأن صاحبها حينئذ لا يصح له بها معاشه ، فيفر إلى غيرها أو يموت ، ولا يكون خلف منه ، فيذهب رسم تلك الصنائع جملة ، كما يذهب النقاشون والصواغ والكتاب والنساخ وأمثالهم من الصنائع لحاجات الترف . ولاتزال الصناعات فى التناقص مازال المصرفى التناقص إلى أن تضمحل . والله الخلاق العليم سبحانه وتعالى .

٢١ – فصل فى أن العرب[١] أبعد الناس عن الصنائع

والسبب فى ذلك أنهم أعرق فى البدو وأبعد عن العمران الحضرى ، وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها . والعجم من أهل المشرق وأمم النصرانية عُدْوَةَ البحر الرومى أقوم الناس عليها لأنهم أعرق فى العمران الحضرى وأبعد عن البدو وعمرانه : حتى إن الإبل التى أعانت العرب على التوحش فى القفر والإعراق فى البدو مفقودة لديهم بالجملة ومفقودة مراعيها والرمال المهيئة لنتاجها . ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه فى الإسلام قليل الصنائع بالجملة حتى تجلب إليه من قطر آخر . وانظر بلاد العجم من الصين والهند وأرض الترك وأمم النصرانية كيف استكثرت فيهم الصنائع واستجلبها الأمم من عندهم .

وعجم المغرب من البربر مثل العرب فى ذلك لرسوخهم فى البداوة منذ أحقاب من السنين . ويشهد لك بذلك قلة الأمصار بقطرهم كما قدمناه . فالصنائع بالمغرب لذلك قليلة وغير مستحكمة ، إلا ماكان من صناعة الصوف من نسجه ، والجلد فى خرزه[١] ودبغه . فإنهم لما استحضروا بلغوا فيها المبالغ لعموم البلوى بها ، وكون هذين أغلب السلع فى قطرهم لما هم عليه من البداوة .

وأما المشرق فقد رسخت الصنائع فيه منذ ملك الأمم الأقدمين من الفرس والنبط والقبط وبنى اسرائيل ويونان والروم أحقاباً متطاولة . فرسخت فيهم أحوال الحضارة ومن جملتها الصنائع كما قدمناه ، فلم يمح رسمها .

وأما اليمن والبحران وعُمَان والجزيرة ، وإن ملكه العرب إلا أنهم تداولوا ملكه آلافا من السنين فى أمم كثيرين منهم ، واختطوا أمصاره ومدنه ، وبلغوا الغاية من الحضارة والترف ، مثل عاد وثمود والعمالقة وحمير من بعدهم والتبابعة والأذواء ، فطال أمد الملك والحضارة واستحكمت صبغتها وتوفرت الصنائع ورسخت ، فلم تبل ببلى الدولة كما قدمناه ، فبقيت مستجدة حتى

(١) يعنى الأعراب كما سبق ذكره غير مرة .

(١) الخراز : صانع الأحذية .

الآن ، واختصت بذلك الوطن كصناعة الوشىْ (١) والعَصبْ (٢) وما يستجاد من حوك الثياب والحرير فيها . والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

٢٢ – فصل فيمن حصلت له ملكة فى صناعة فقل أن يجيد بعدها ملكة فى أخرى

ومثل ذلك الخياط. إذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها ورسخت فى نفسه فلا يجيد من بعدها ملكة النجارة أو البناء ، إلا أن تكون الأولى لم تستحكم بعد ولم ترسخ صبغتها . والسبب فى ذلك أن الملكات صفات للنفس وألوان فلا تزدحم دفعة . ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن إستعدادًا لحصولها . فإذا تلونت النفس بالملكة الأخرى وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة ، فكان قبولها للملكة الأخرى أضعف . وهذا بيِّنٌ يشهد له الوجود . فقل أن تجد صاحب صناعة يُحْكمها ثم يحكم من بعدها أخرى ويكون فيهما معًا على رتبة واحدة من الإجادة . حتى أهل العلم الذين ملكتهم فكرية فهم بهذه المثابة . ومن حصل منهم على ملكة علم من العلوم وأجادها فى الغاية فقل أن يجيد ملكة علم آخر على نسبته ، بل يكون مقصرًا فيه إن طلبه ، إلا فى الأقل النادر من الأحوال . ومبنى سببه على ماذكرناه من الاستعداد وتلونه بلون الملكة الحاصلة فى النفس . والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب سواه .

٢٣ – فصل فى الإشارة إلى أمهات الصنائع

إعلم أن الصنائع فى النوع الإنسانى كثيرة لكثرة الأعمال المتداولة فى العمران ، فهى بحيث تشذ عن الحصر ولا يأخذها العد . إلا أن منها ماهو ضرورى فى العمران أو شريف بالموضوع فنخصها بالذكر ونترك ما سواها . فأما الضرورى فالفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة . وأما الشريفة بالموضوع فكالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب. فأما التوليد فإنها ضرورية فى العمران وعامة البلوى إذ بها تحصل حياة المولود وتتم غالبًا ، وموضوعها مع ذلك المولودون وأمهاتهم . وأما الطب فهو حفظ الصحة للإنسان ودفع المرض عنه ، ويتفرع عن علم الطبيعة ، وموضوعه مع ذلك بدن الإنسان . وأما الكتابة وما يتبعها من الوراقة فهى حافظة على الإنسان حاجته ومقيدة لها عن النسيان ، ومبلغة ضمائر النفس إلى البعيد الغائب ، ومخلدة نتائج الأفكار والعلوم فى الصحف ، ورافعة رتب الوجود للمعانى . وأما الغناء فهو نسب الأصوات ومظهر جمالها للأسماع . وكل هذه الصنائع الثلاث (٣) داع إلى مخالطة الملوك الأعاظم فى خلواتهم ومجالس أنسهم ، فلها بذلك شرف ليس لغيرها . وما سوى ذلك من الصنائع فتابعة وممتهنة فى الغالب . وقد يختلف ذلك باختلاف الأغراض والدواعى . والله أعلم بالصواب .

---

(١) الوشى: نقش الثوب (القاموس) .

(٢) العصب: برد من برود اليمن على نسج خاص (من الصحاح)

(٣) يقصد الصنائع الثلاث الأخيرة وهى : الطب ويدخل فيه التوليد ، والكتابة وتتبعها الوراقة ، والغناء .

٢٤ ـ فصل فى صناعة الفلاحة

هذه الصناعة ثمرتها اتخاذ الأقوات والحبوب بالقيام على إثارة الأرض لها وإزدراعها ، وعلاج نباتها ، وتعهده بالسقى والتنمية إلى بلوغ غايته ، ثم حصاد سنبله واستخراج حبه من غلافه ، وإحكام الأعمال لذلك . وتحصيل أسبابه ودواعيه . وهى أقدم الصنائع لما أنها مُحَصِّلة للقوت المكمل لحياة الإنسان غالبًا ، إذ يمكن وجوده من دون جميع الأشياء إلا من دون القوت . ولهذا إختصت هذه الصناعة بالبدو . وإذ قدمنا أنه أقدم من الحضر وسابق عليه (١) ، فكانت هذه الصناعة لذلك بدوية لا يقوم عليها الحضر ولا يعرفونها ، لأن أحوالهم كلها ثانية على البداوة ، فصنائعهم ثانية عن صنائعها وتابعة لها . والله سبحانه وتعالى مقيم العباد فيما أراد .

٢٥ ـ فصل فى صناعة البناء

هذه الصناعة أول صنائع العمران الحضرى وأقدمها ، وهى معرفة العمل فى إتخاذ البيوت والمنازل للكِنِّ (٢) والمأوى للأبدان فى المدن .وذلك أن الإنسان لما جبل عليه من الفكر فى عواقب أحواله لا بد أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحر والبرد ، كاتخاذ البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها . والبشر مختلف فى هذه الجبلة الفكرية ، فمنهم المعتدلون فيها يتخذون ذلك باعتدال كأهالى الثانى والثالث والرابع والخامس والسادس(١) . وأما أهل البدو فبعيدون عن إتخاذ ذلك لقصور أفكارهم عن إدراك الصنائع البشرية فيبادرون للغيران والكهوف المعدة من غير علاج .

ثم المعتدلون المتخذون للمأوى قد يتكاثرون فى البسيط الواحد، بحيث يتناكرون ولا يتعارفون ، فيخشون طروق بعضهم بعضًا ، فيحتاجون إلى حفظ مجتمعهم بإدارة ماء أو أسوار تحوطهم ، ويصير جميعًا مدينة واحدة ومصرًا واحدًا ، ويحوطهم الحكام من داخل يدفع بعضهم عن بعض ؛ وقد يحتاجون إلى الإنتصاف ويتخذون المعاقل والحصون لهم ولمن تحت أيديهم مثل الملوك ومن فى معناهم من الأمراء وكبار القبائل فى المدن كل مدينة على ما يتعارفون ويصطلحون عليه ويتناسب مزاج هوائهم واختلاف أحوالهم فى الغنى والفقر .

وكذا حال أهل المدينة الواحدة ، فمنهم من يتخذ القصور والمصانع العظيمة الساحة المشتملة على عد الدور والبيوت والغرف الكبيرة لكثرة وُلْدِه وحشمه وعياله وتابعه ، ويؤسس جدرانها بالحجارة ويلحم بينها بالكِلْس (٢) ويعالى عليها بالأصبغة والجص ، ويبالغ فى ذلك بالتنجيد والتنميق إظهارًا للبسطة بالعناية فى شأن المأوى . ويهيىء مع ذلك الأسراب والمطامير للاختزان لأقواته ،

---

(١) تقدم ذلك فى الفصل الثالث من الباب الثانى .

(٢) إحدى النسخ : فلسكن .

(١) يقصد أهالى الأقاليم من الثانى إلى السادس ، وهى التى تقدم ذكرها فى المقدمة الثانية من الباب الأول .

(٢) الكلس بالكسر : الصاروج وهو النورة وأخلاطها . وقد كلست الحائط طليتها بالكلس . ويستخدم كذلك ملاطًا .

والاصطبلات لربط مُقْرَباته (١) إذا كان من أهل الجنود وكثرة التابع والحاشية كالأمراء ومن فى معناهم . ومنهم من يبنى الدويرة والبُيَيْت (٢) لنفسه وسكنه وولده لا يبتغى ما وراء ذلك ، لقصور حاله عنه واقتصاره على الكن الطبيعى للبشر . وبين ذلك مراتب غير منحصرة .

وقد يحتاج لهذه الصناعة أيضًا عند تأسيس الملوك وأهل الدول المدن العظيمة والهياكل المرتفعة ، ويبالغون فى إتقان الأوضاع وعلو الأجرام مع الإحكام لتبلغ الصناعة مبالغها . وهذه الصناعة هى التى تحصل الدواعى لذلك .

وأكثر ما تكون هذه الصناعة فى الأقاليم المعتدلة من الرابع وما حواليه ، إذ الأقاليم المنحرفة لابناء فيها ، وإنما يتخذون البيوت حظائر من القصب والطين (ويأوون إلى الكهوف والغيران) (٣) .

وأهل هذه الصناعة القائمون عليها متفاوتون : فمنهم البصير الماهر ، ومنهم القاصر . ثم هى تتنوع أنواعا كثيرة . فمنها البناء بالحجار المُنَجَّدَة يقام بها الجدران ملصقًا بعضها إلى بعض بالطين والكلس الذى يعقد معها ويلتحم كأنها جسم واحد . ومنها البناء بالتراب خاصة يُتَّخذ لها لوحات

(١) المقربة : الفرس التى تدنى وتقرب وتكرم ولا تترك وهو مقرب ، أو يفعل ذلك بالإناث لئلا يقرعها فحل لئيم ، ومن الإبل التى حزمت للركوب . (القاموس) .

(٣) وردت هذه الكلمة محرفة فى النسخ المتداولة بصيغتى . البيوت : والبيويت .

(٣) هكذا فى النسخة « التيمورية » . وقد حرفت هذه الجملة فى النسخ المتداولة إلى هذه الصيغة : « وإنما يوجد فى الأقاليم المعتدلة له » .

من الخشب مقدران طولا وعرضًا باختلاف العادات فى التقدير ، وأوسطه أربع أذرع ، فى ذراعين ، فينصبان على أساس ، وقد بوعد ما بينهما بما يراه صاحب البناء فى عرض الأساس ، ويوصل بينهما بأذرع من الخشب يربط عليها بالحبال والجدر ، بلوحين آخرين صغيرين ، ثم يوضع فيه التراب مخلطا بالكلس ، ويركز بالمراكز المعدة حتى ينعم ركزه وتختلط أجزاؤه ، ثم يزاد التراب ثانيًا وثالثًا إلى أن يمتلىء ذلك الخلاء بين اللوحين ، وقد تداخلت أجزاء الكلس والتراب وصارت جسما واحدًا ثم يعاد نصب اللوحين على الصورة ، ويركز كذلك إلى أن يتم وينتظم الألواح كلها سطرًا من فوق سطر إلى أن ينتظم الحائط كله ملتحما كأنه قطعة واحدة . ويسمى الطابية وصانعه الطوّاب . ومن صنائع البناء أيضًا أن تجلل الحيطان بالكلس بعد أن يحل بالماء ويخمر أسبوعا أو أسبوعين على قدر ما يعتدل مزاجه عن إفراط النارية الإلحام فإذا تم له ما يرضاه من ذلك علاه من فوق الحائط ، وذلك إلى أن يلتحم .

ومن صنائع البناء عمل السقف بأن تمد الخُشبَ المحكمة النجارة أو السادجة على حائطى البيت ، ومن فوقها الألواح كذلك موصلة بالدساتر (١) ، ويصب عليها التراب والكلس ، ويبسط بالمراكز

(١) هكذا فى بعض النسخ ، وفى نسخ أخرى بالدساتر . وكلتا الكلمتين محرفة على ما يظهر . ولعل صوابها « بالدسار » وهو واحد « الدسر » وهى المسامير ، قال تعالى : « وحملناه على ذات ألواح ودسر » (آية ١٢ من سورة القمر) . أو لعل « الدسائر » جمع لكلمة « الدسر » ، فتكون جمعاً لجمع .

حتى تتداخل أجزاوها وتلتحم ويعالى عليها الكلس كما يعالى على الحائط.

ومن صناعة البناء ما يرجع إلى التنميق والتزيين كما يُصنع من فوق الحيطان الأشكال المجسمة من الجصّ يخمر بالماء ثم يرجع جسدًا وفيه بقية البلل، فيشكل على التناسب تخريما بمثاقب الحديد إلى أن يبقى له رونق ورُواء. وربما عولى على الحيطان أيضا بقطع الرخام والآجر والخزف أو بالصدف أو السَّبَج (١) يفصل أجزاء متجانسة أو مختلفة، وتوضع فى الكلْس على نسب وأوضاع مقدرة عندهم يبدو به الحائط. لِلعِيَان كأنه قطع الرياض المُنَمْنَمَة (٢)، إلى غير ذلك من بناء الجباب والصهاريج لسيح الماء بعد أن تعد فى البيوت قصاع الرخام القَوْراء المحكمة الخرط، بالفوهات فى وسطها لنبع الماء الجارى إلى الصهريج، يجلب إليه من خارج القنوات المقضية إلى البيوت. وأمثال ذلك من أنواع البناء.

وتختلف الصناع فى جميع ذلك باختلاف الحذق والبصر، ويعظم عمران المدينة ويتسع يكثرون. وربما يرجع الحكام إلى نظر هولاء فيما أبصر به من أحوال البناء. وذلك أن الناس فى المدن لكثر الإزدحام والعمران يتشاحون (١) حتى فى الفضاء والهواء للأعلى والأسفل، ومن الإنتفاع بظاهر البناء مما يتوقع معه حصول الضرر فى الحيطان فيمنع جاره من ذلك، إلا ما كان له فيه حق، ويختلفون أيضًا فى إستحقاق الطرق والمنافذ للمياه الجارية والفضلات المسربة فى القنوات. وربما يدعى بعضهم حق بعض فى حائطه أو علوه أو قنانه لتضايق الجوار، أو يدَّعى بعضهم على جاره اختلال حائطه خشية سقوطه، ويحتاج إلى الحكم عليه بهدمه ودفع ضرره عن جاره عند من يراه، أو يحتاج إلى قسمة دار أو عَرْصة (١) بين شريكين، بحيث لا يقع معها فساد فى الدار ولا إهمال لمنفعتها وأمثال ذلك، ويخفى جميع ذلك إلا على أهل البصر العارفين بالبناء وأحواله، المستدلين عليها بالمعاقد والقمط، ومراكز الخشب وميل الحيطان واعتدالها وقسم المساكن على نسبة أوضاعها ومنافعها وتسريب المياه فى القنوات مجلوبة ومرفوعة بحيث لا تضر بما مرت عليه من البيوت والحيطان وغير ذلك؛ فلهم بهذا كله البصر والخبرة التى ليست لغيرهم. وهم مع ذلك يختلفون بالجودة والقصور فى الأجيال باعتبار الدول وقوتها. فإنا قدمنا أن الصنائع وكما لها إنما هو بكمال الحضارة، وكثرتها بكثر الطلب لها (٢). فلذلك عندما تكون الدولة بدوية فى أول أمرها تفتقر فى أمر البناء إلى غير قطرها، كما وقع للوليد بن عبد الملك حين أجمع على بناء مسجد المدينة والقدس ومسجده بالشام،

(١) السبج: خرز معروف، الواحدة: سبجة، مثل قصب وقصبة، (المصباح). وفى النسخة «التيمورية»: «الربج» وهو الدرهم الصغير الخفيف (القاموس).

(٢) من نمنمه إذا زخرفه وزينه.

(٣) تشاح القوم، بالتضعيف: إذا شح بعضهم على بعض من الشح وهو البخل (المصباح).

(١) العرصة: ساحة الدار وهى القطعة الواسعة التى ليس فيها بناء، أو كل بقعة ليس فيها بناء، والجمع عراص لاعرصات.

(٢) انظر الفصلين ١٨، ١٩ من هذا الباب.

فبعث إلى ملك الروم بالقسطنطينية فى الفَعلَة المهرة فى البناء فبعث إليه منهم من حصل له غرضه من تلك المساجد .

وقد يعرف صاحب هذه الصناعة أشياء من الهندسة مثل تسوية الحيطان بالوزن وإجراء المياه بأخذ الإرتفاع ، وأمثال ذلك ، فيحتاج إلى البصر بشىء من مسائله . وكذلك فى جر الأثقال بالهِنْدَام فإن الأجرام العظيمة إذا شيدت بالحجارة الكبيرة تعجز قُدَرُ الفعلة عن رفعها إلى مكانها من الحائط ، فيُتَحيل لذلك بمضاعفة قوة الحبل بإدخاله فى المعالق من أثقاب مقدر على نسب هندسية تُصَيِّر الثقيل عند معاناة الرفع خفيفا فيتم المراد من ذلك بغير كلفه ، وهذا إنما يتم بأصول هندسية معروفة متداولة بين البشر . وبمثلها كان بناء الهياكل الماثلة لهذا العهد التى يحسب الناس أنها من بناء الجاهلية وأن أبدانهم كانت على نسبتها فى العظم الجسمانى وليس كذلك ، وإنما تم لهم ذلك بالحيل الهندسية كما ذكرناه فتفهم ذلك ، والله يخلق ما يشاء سبحانه .

٢٦ — فصل فى صناعة النجارة

هذه الصناعة من ضروريات العمران ، ومادتها الخشب . وذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل للآدمى فى كل مُكوَّن من المكونات منافع تكمل بها ضروراته أو حاجاته . وكان منها الشجر فإن له فيه من المنافع ما لا ينحصر مما هو معروف لكل أحد . ومن منافعها إتخاذها خشبًا إذا يبست . وأول منافعه أن يكون وقودًا للنيران فى معاشهم وعصيًا للاتكاء والذود وغيرهما من ضرورياتهم ، ودعائم لما يخشى ميله من أثقالهم . ثم بعد ذلك منافع أخرى لأهل البدو والحضر . فأما أهل البدو فيتخذون منها العُمُد والأوتاد لخيامهم ، والحُدوج [١] لظعائنهم ، والرماح والقِسِىّ والسهام لسلاحهم ؛ وأما أهل الحضر فالسقف لبيوتهم والأغلاق [٢] لأبوابهم والكراسى لجلوسهم . وكل واحد من هذه فالخشبة مادة لها ، ولاتصير إلى الصورة الخاصة بها إلا بالصناعة .

والصناعة المتكفلة بذلك المحصلة لكل واحد من صورها هى النجارة على إختلاف رتبها . فيحتاج صاحبها إلى تفصيل الخشب أولا إما بخشب أصغر منه أو ألواح . ثم يركب تلك الفصائل بحسب الصور المطلوبة . وهو فى كل ذلك يحاول بصنعته إعداد تلك الفصائل بالإنتظام إلى أن تصير أعضاء لذلك الشكل المخصوص . والقائم على هذه الصناعة هو النجار . وهو ضرورى فى العمران . ثم إذا عظمت الحضارة ، وجاء الترف ، وتأنق الناس فيما يتخذونه من كل صنف من سقف أو باب أو كرسى أو ماعون ، حدث التأنق فى صناعة ذلك واستجادته بغرائب من الصناعة كمالية ليست من الضرورى فى شىء ، مثل التخطيط فى الأبواب والكراسى ، ومثل تهيئة القطع من الخشب بصناعة الخرط يُحكم بريها وتشكيلها ، ثم تولف على نسب مقدرة

(١) الحدج بكسر الحاء مركب للنساء كالمحفة ، وجمعه حدوج وأحداج . (القاموس) .

(٢) الغلق والمغلاق : هو ما يغلق به الباب وجمعه أغلاق . (القاموس) .

وتلحم بالدساتر (١) فتبدو لرأى العين ملتحمة ، ويؤخذ منها اختلاف الأشكال على تناسب . يُصنَع هذا فى كل شىء يتخذ من الخشب يُصنَعُ هذا فى كل شىء يتخذ من الخشب فيجىء أنقَ ما يكون وكذلك فى جميع ما يحتاج إليه من الآلات المتخذ من الخشب من أى نوع كان .

وكذلك قد يحتاج إلى هذه الصناعة فى إنشاء المراكب البحرية ذات الألواح والدسُر ، وهى أجرام هندسية صنعت على قالب الحوت واعتبار سبحه فى الما بقواده وكلكله (٢) ، ليكون ذلك الشكل أعون لها فى مصادمة الماء ، وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التى للسمك تحريك الرياح ، وربما أعينت بحركة المجاذيف (٣) كما فى الأساطيل .

وهذه الصناعة من أصلها محتاجة إلى أصل كبير من الهندسة فى جميع أصنافها ؛ لأن إخراج الصور من القوة إلى الفعل على وجه الاحكام محتاج إلى معرفة التناسب فى المقادير ، إما عموما أو خصوصا . وتناسب المقادير لا بد فيه من الرجوع إلى المهندس .

ولهذا كان أئمة الهندسة اليونانيون كلهم أئمة فى هذه الصناعة ؛ فكان أوقليدس صاحب كتاب الأصول فى الهندسة نجارا وبها كان يعرف ، وكذلك أبلونيوس صاحب كتاب المخروطات وميلاوش وغيرهم . وفيما يقال : إن معلم هذه الصناعة فى الخليقة هو نوح عليه السلام ، وبها أنشأ سفينة النجاة التى كانت بها معجزته عند الطوفان . وهذا الخبر وإن كان ممكنا ، أعنى كونه نجارا ، إلا أن كونه أول من علمها أو تعلمها لا يقوم دليل من النقل عليه لبعد الآماد . وإنما معناه والله أعلم الإشارة إلى قدم النجارة ؛ لأنه لم يصح حكاية عنها قبل خبر نوح عليه السلام ، فجعل كأنه أول من تعلمها . فتفهم أسرار الصنائع فى الخليقة . والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

٢٧ — فصل فى صناعة الحياكة والخياطة

هاتان الصناعتان ضروريتان فى العمران لما يحتاج إليه البشر من الرَّفْه فالأولى لنسج الغزل من الصوف والكتان والقطن إسداء فى الطول وإلحاما (١) فى العرض ، (وإحكاما) (٢) لذلك النسج بالالتحام الشديد فيتم منها قطع مقدرة : فمنها الأكسية من الصوف للاشتمال (٣) ؛ ومنها الثياب من القطن والكتان للباس . والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على إختلاف الأشكال والعوائد ، تفصل أولا بالمِقراض (٤) قطعا مناسبة للأعضاء البدنية ، ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلا أوتنبيتا أو تفسحا على حسب نوع الصناعة .

(١) لعله يعنى جمعاً غير قياس لكلمة « دسار » وهو المسمار .
(٢) الكلكل : الصدر .
(٣) المجداف ما يجدف به السفينة ، بالدال والذال ، وجمعه مجاذيف (الصحاح) .

(١) أسدى الثوب : نسج سداه وهو ما مد منه ، وألحمه نسج لحمته وهى الخيوط المؤلفة لعرضه .
(٢) هذه الكلمة ساقطة من جميع النسخ المتداولة ، وهى مثبتة فى النسخة « التيمورية » وبدونها لا يستقيم المعنى .
(٣) اشتمل بالثوب أداره على جسده كله حتى لا تخرج منه يده .
(٤) المقراض : المقص .

وهذه الثانية مختصة بالعمران الحضرى ؛ لما أن أهل البدو يستغنون عنها ، وإنما يشتملون الأثواب اشتمالا ؛ وإنما تفصيل الثياب وتقديرها وإلحامها بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها . وتفهم هذا فى سر تحريم المخيط فى الحج لما أن مشروعية الحج مشتملة على نبذ العلائق الدنيوية كلها والرجوع إلى الله تعالى كما خلقنا أول مرة ، حتى لا يعلق العبد قلبه بشىء من عوائد ترفه ، لا طيبا ولا نساء ولا مخيطا ولا خفا ، ولا يعرض لصيد ولا لشىء من عوائده التى تلونت بها نفسه وخلقه ، مع أنه يفقدها بالموت ضرورة ، وإنما يجىء كأنه وارد إلى المحشر ضارعا بقلبه مخلصا لربه ؛ وكان جزاؤه إن تم له إخلاصه فى ذلك أن يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه . سبحانك ماأرفقك بعبادك وأرحمك بهم فى طلب هدايتهم إليك .

وهاتان الصنعتان قديمتان فى الخليقة لما أن الدفء ضرورى للبشر فى العمران المعتدل . وأما المنحرف إلى الحر فلا يحتاج أهله إلى دفء . ولهذا يبلغنا عن أهل الإقليم الأول من السودان أنهم عراة فى الغالب . ولقدم هذه الصنائع ينسبها العامة إلى إدريس عليه السلام ، وهو أقدم الأنبياء . وربما ينسبونها إلى هرمس [1] . وقد يقال : إن هرمس هو أدريس . والله سبحانه وتعالى هو الخلاق العليم .

٢٨ – فصل فى صناعة التوليد

وهى صناعة يعرف بها العمل فى إستخراج المولود الآدمى من بطن أمه من الرفق فى إخراجه من رحمها وتهيئة أسباب ذلك ، ثم ما يصلحه بعد الخروج على ما نذكر . وهى مختصة بالنساء فى غالب الأمر ، لما أنهن الظاهرات بعضهن على عورات بعض . وتسمى القائمة على ذلك منهن القابلة . إستعير فيها معنى الإعطاء والقبول ، كأن النفساء[1] تعطيها الجنين وكأنها تقبله .

وذلك أن الجنين إذا إستكمل خلقه فى الرحم وأطواره وبلغ إلى غايته والمدة التى قدر الله لمكثه ، وهى تسعة أشهر فى الغالب ، فيطلب الخروج بما جعل الله فى المولود من النزوع لذلك ، ويضيق عليه المنفذ فيعسر ، وربما مزق بعض جوانب الفرج بالضغط ، وربما تقطع بعض ما كان فى الأغشية من الإلتصاق والالتحام بالرحم . وهذه كلها آلام يشتد لها الوجع وهو معنى الطلق ، فتكون القابلة معينة فى ذلك بعض الشىء بغمز الظهر والوركين وما يحاذى الرحم من الأسافل ، تساوق بذلك فعل الدافعة فى إخراج الجنين ، وتسهيل ما يصعب منه بما يمكنها ، وعلى ما تهتدى إلى معرفة عسره . ثم إذا خرج الجنين بقيت بينه وبين الرحم الوصلة حيث كان يتغذى منها متصلة من سرته بمعاه ، وتلك الوصلة عضو فضلى لتغذية المولود خاصة ، فتقطعها القابلة من

(١) هرمس Hermès (هكذا اسمه عند اليونان ، ويسميه الرومان مركور ، ويسميه العرب عطارد) من آلهة اليونان والرومان . يعتقدون أنه ابن كبير آلهتهم زوس (جوبيتير) . وهو رسول زوس ووحيه الأمين إلى الآلهة والخلق . وهو كذلك آله الخطابة والبيان والتجارة ... ووظائف أخرى . ولعل ابن خلدون يقصد شخصاً آخر انظر منشورة د. وافى ص ١٠٧٤ .

(١) النفساء : المرأة فى حالة النفاس بعد الولادة .

يث لا تتعدى مكان الفضلة ولاتضر بمعاه ولابرحم
ه ، ثم تدمل مكان الجراحة منه بالكى أو بما تراه
ن وجو، الإندمال . ثم إن الجنين عند خروجه
ى ذلك المنفذ الضيق ، وهو رطب العظام سهل
لإنعطاف والإنثناء ، فربما تتغير أشكال أعضائه
أوضاعها لقرب التكوين ورطوبة المواد . فتتناوله
لقابلة بالغمز والإصلاح ، حتى يرجع كل عضو
لى شكله الطبيعى ووضعه المقدر له ، ويرتد خلقه
سويا . ثم بعد ذلك تراجع النُّفَساء وتحاذيها بالغمز
والملاينة لخروج أغشية الجنين ، لأنها ربما تتأخر
ن خروجه قليلًا ، ويخشى عند ذلك أن تراجع
لماسكة حالها الطبيعية قبل استكمال خروج الأغشية
وهى فضلات فتعفن ويسرى عفنها إلى الرحم فيقع
الهلاك ، فتحاذر القابلة هذا وتحاول فى إعانة
الدفع إلى أن تخرج تلك الأغشية إن كانت قد
تأخرت ، ثم ترجع إلى المولود فتُمَرِّخ [1] أعضاءه
بالأدهان والذَّرُورات [2] القابضة لتشده ، وتجفف
رطوبات الرحم ، وتُحَنِّكه [3] لرفع لهاته
وتُسْعِطه [4] لاستفراغ نُطوف [5] دماغه وتغرغره
باللَّعُوق [1] لدفع السُّدَد [2] من معاه وتجويفها
عن الإلتصاق . ثم تداوى النُّفَساء بعد ذلك من
الوهن الذى أصابها بالطلق ، وما لحق رحمها من
ألم الإنفصال ، إذ المولود إن يكن عضوًا طبيعيًا
فحالة التكوين فى الرحم صيرته بالالتحام كالعضو
المتصل ، فلذلك كان فى إنفصاله ألم يقرب من
ألم القطع . وتداوى معذلك مايلحق الفرج من ألم
من جراحة التمزيق عند الضغط فى الخروج .
وهذه كلها أدواء نجد هولاء القوابل أبصر بدوائها .
وكذلك مايعرض للمولودمدة الرضاع من أدواء
فى بدنه إلى حين الفِصال [3] نجدهن أبصر بها من
الطبيب الماهر . وما ذاك إلا لأن بدن الإنسان فى تلك
الحالة إنما هو بدن إنسانى بالقوة فقط ، فإذا جاوز
الفصال صار بدنًا إنسانيًا بالفعل ، فكانت حاجته
حينئذ إلى الطبيب أشدّ . فهذه الصناعة ـ كماتراه ـ
ضرورية فى العمران للنوع الإنسانى لايتم كون
أشخاصه فى الغالب دونها .

وقد يعرض لبعض أشخاص النوع الاستغناء
عن هذه الصناعة : إما بخلق الله ذلك لهم معجزة
وخرقًا للعادة كما فى حق الأنبياء صلوات الله وسلامه
عليهم ؛ أو بإلهام وهداية يلهم لها المولود ويُفطر
عليها ، فيتم وجودهم من دون هذه الصناعة . فأما
شأن المعجزة من ذلك فقد وقع كثيرًا . ومنه ماروى

---

(١) مرخ الجسم : دهنه بالمروخ ، وهو مايمرخ به البدن من
ن وغيره (القاموس) .

(٢) جمع ذرور وهو ما يذر فى العين ونحوها من مساحيق
القاموس) ، والذرور كذلك نوع خاص من الطيب ، قال الزمخشرى
فتات قصب الطيب ، وهو قصب يؤتى به من الهند (المصباح) .

(٣) حنكه تحنيكا : دلك حنكه (القاموس).

(٤) سعطه الدواء وأسعطه إياه : أدخله فى أنفه ، والسعوط
دواء يسعط مما له حرارة أو يدنى من الأنف ليجد ريحه وحره ،
يسمى كذلك النشوق (القاموس) .

(٥) جمع نطف وهو العيب والشر والفساد (القاموس) .

---

(١) اللعوق كصبور : كل ما يلعق (القاموس) .
(٢) السدة بالضم باب الدار والفتحة والجمع سدد مثل غرفة وغرف (من الصحاح والقاموس) والمقصود فتحات أمعائه ، أى لتمنع فتحات أمعائه وتجاويفها من الإنسداد .
(٣) فصلت المرأة رضيعها : فطمته والاسم الفصال بالكسر (المصباح) .

أن النبي صلى الله عليه وسلم ولد مسرورًا[(١)] مختونًا واضعًا يديه على الأرض شاخصًا ببصره إلى السماء. وكذلك شأن عيسى فى المهد وغير ذلك. وأما شأن الإلهام فلا ينكر : وإذا كانت الحيونات العُجْم تختص بغرائب من الإلهامات كالنحل وغيرها[(٢)] فما ظنك بالإنسان المفضل عليها وخصوصًا بمن اختص بكرامة الله [(٣)]، ثم الإلهام العام للمولودين فى الإقبال على الثدى أوضح شاهد على وجود الإلهام العام لهم ، فشأن العناية الإلهية أعظم من أن يحاط به . ومن هنا يفهم بطلان رأى الفارابى وحكام الأندلس فيما إحتجوا به لعدم إنقراض الأنواع ، وإستحالة إنقطاع المكونات ، وخصوصًا فى النوع الإنسانى . وقالوا لو انقطعت أشخاصه لإستحال وجودها بعد ذلك ، لتوقفه على هذه الصناعة التى لا يتم كون الإنسان إلا بها ، إذ لو قدرنا مولودا دون هذه الصناعة وكفالتها إلى حين الفِصال لم يتم بقاوه أصلا . ووجود الصنائع دون الفكر ممتنع لأنها ثمرته وتابعة له . وتكلف ابن سينا فى الرد على هذا الرأى لمخالفته إياه ، وذهابه إلى إمكان إنقطاع الأنواع ، وخراب عالم التكوين ، ثم عوده ثانيًا لاقتضاءات فلكية وأوضاع غريبة تندر فى الأحقاب بزعمه ، فتقتضى تخمير طينة مناسبة لمزاجه بحرارة مناسبة فيتم كونه إنسانًا ، ثم يُقيَّض له حيوان يخلق فيه إلهام لتربيته والحنو عليه ، إلى أن يتم وجوده وفصاله وأطنب فى بيان ذلك فى الرسالة التى سماها رسالة حى بن يقظان[(١)] وهذا الاستدلال غير صحيح ، وإن كنا نوافقه على إنقطاع الأنواع ، ولكن من غير ما إستدل به ؛ فإن دليله مبنى على إسناد الأفعال إلى العلة الموجبة [(٢)] ، ودليل القول بالفاعل المختار [(٣)] يرد عليه . ولا واسطة ، على القول بالفاعل المختار ، بين الأفعال والقدرة القديمة . ولا حاجة إلى هذا التكلف . ثم لو سلمناه جدلا فغاية ما ينبنى عليه إطراد وجود هذا الشخص بخلق الإلهام لتربيته فى الحيوان الأعجم . وما الضرورة الداعية لذلك ؟ وإذا كان الإلهام يُخلق فى الحيوان الأعجم فما المانع من خلقه للمولود نفسه كما قررناه أولا ؟ وخلق الإلهام فى شخص لمصالح نفسه أقرب من خلقه فيه لمصالح غيره . فكلا المذهبين [(٤)] شاهدان على أنفسهما بالبطلان فى مناحيهما لما قررته لك . والله تعالى أعلم .

---

(١) سر الصبى : قطع سره وقد سر الصبى بالبناء مجهول أى قطع سره فهو مسرور أى مقطوع السر (الصحاح) .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ... الآيات » (آية ٦٨ وتوابعها من سورة النحل) .

(٣) يشير بذلك إلى قوله تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم » (آية ٧٠ من سورة الإسراء) .

(١) لابن سينا رسالة اسمها قصة حى بن يقظان : طبعت بمطبعة ليدن ، وهى غير الكتاب المشهور « حى بن يقظان » لابن طفيل .

(٢) أى إن الأفعال لا توجد إلا بعلة توجب وجودها .

(٣) وهو الله تعالى الذى لا يحتاج إلى علة تتوسط بين إرادته وبين خلقه للأشياء .

(٤) يقصد مذهب الفارابى فى عدم انقراض الأنواع ومذهب ابن سينا فى إمكان انقراضها وعودها ثانياً على الأوضاع الغريبة التى افترضها .

٢٩ – فصل فى صناعة الطب وأنها محتاج إليها فى الحواضر والأمصار دون البادية

هذه الصناعة ضرورية فى المدن والأمصار لما ...رف من فائدتها ، فإن ثمرتها حفظ الصحة للأصحاء ودفع المرض عن المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم . واعلم أن أصل الأمراض كلها إنما هو من الأغذية ، كما قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الجامع للطب وهو قوله : « المعدة بيت الداء ، والحِمْية رأس الدواء ، وأصل كل داء البَرْدة » (١) . فأما قوله : « المعدة بيت الداء » ...هو ظاهر . وأما قوله : « الحِمْية رأس الدواء » فالحمية الجوع وهو الإحتماء من الطعام ، والمعنى أن الجوع هو الدواء العظيم الذى هو أصل الأدوية . وأما قوله « أصل كل داء البَرْدة » فمعنى البرْدة ... الطعام على الطعام فى المعدة قبل أن يتم هضم الأول .

وشرح هذا أن الله سبحانه خلق الإنسان وحفظ ...حياته بالغذاء يستعمله بالأكل ، وينفذ فيه القوى الهاضمة والغاذية إلى أن يصير دمًا ملائمًا لأجزاء البدن من اللحم والعظم ، ثم تأخذه النامية فينقلب لحمًا وعظمًا . ومعنى الهضم طبخ الغذاء بالحرارة الغريزية طورًا بعد طور حتى يصير جزءًا بالفعل من البدن . وتفسيره أن الغذاء إذا حصل فى الفم ولاكته الأشداق أثرت فيه حرارة الفم طبخًا يسيرًا وقلبت ...مزاجه بعض الشىء كما تراه فى اللقمة إذا تناولتها طعامًا ، ثم أجدتها مضغًا ، فترى مزاجها غير مزاج الطعام ، ثم يحصل فى المعدة فتطبخه حرارة المعدة إلى أن يصير كيموسًا وهو صفو ذلك المطبوخ ، وترسله إلى الكبد ، وترسل مارسب منه فى المعى ثُفْلًا (١) ينفذ إلى المخرجين . ثم تطبخ حرارة الكبد ذلك الكيموس إلى أن يصير دمًا عبيطًا وتطفو عليه رغوة من الطبخ هى الصفراء ، وترسب منه أجزاء يابسة هى السواد ، ويقصر الحار الغريزى بعض الشىء عن طبخ الغليظ. منه فهو البلغم . ثم ترسلها الكبد كلها فى العروق والجداول ويأخذها طبخ الحار الغريزى هناك ، فيكون عن الدم الخالص بخار رطب يمد الروح الحيوانى ، وتأخذ النامية مأخذها فى الدم فيكون لحمًا ، ثم غليظة عظامًا ، ثم يرسل البدن ما يفضل عن حاجاته من ذلك فضلات مختلفة من العرق واللعاب والمخاط والدمع. هذه صورة الغذاء وخروجه من القوة إلى الفعل لحمًا (٢) .

---

(١) البردة ، بسكون الراء وفتحها التخمة . هذا ، والحديث ...كور حديث موضوع وقد أخذه الواضعون من كلام الحارث ...كلدة طبيب العرب كما حققه علماء الحديث .

(١) الثفل مثل قفل : حثالة الشىء ، وهو الثخين الذى يبقى أسفل الصافى (المصباح) .

(٢) علق د. وافى على هذا بقوله فى منشورته : « تمثل الحقائق السابق ذكرها ما وصل إليه العلم بعناصر الجهاز الهضمى وإفرازاته ووظائفه فى العالم العربى فى عصر ابن خلدون . وغنى عن البيان أن البحوث العلمية التى جرت بعد ذلك عدلت كثيراً من هذه المعلومات ، وكشفت عن خطأ كثير منها ، وأضافت إليها حقائق جديدة . ويضيق المقام عن بيان هذه الأمور . على أنها أصبحت الآن من الأمور المعروفة حتى للمبتدئين من المتعلمين . ومن الأمور التى يبدو فيها خطأ المعلومات التى كانت سائدة فى هذا الصدد ما ذكره ابن خلدون عن مضغ الطعام وأن حرارة الفم هى التى تؤثر فيه ، والحقيقة أن الذى يؤثر فيه هو مادة اللعابين التى تمتزج به ، وما ذكره عن هضم الطعام فى المعدة وأن حرارة المعدة هى التى تؤثر فى هضمه ، والحقيقة أن الذى يؤثر فيه يتمثل فى الإفرازات التى تفرزها المعدة . ومثل هذا يقال فى جميع ما سيذكره من حقائق تتعلق بتدبير الصحة أو بالطب أو بعلم وظائف الأعضاء .

ثم إن أصل الأمراض ومعظمها هي الحميات وسببها أن الحار العريزى قد يضعف عن تمام النضج. فى طبخه فى كل طور من هذه ، فيبقى ذلك الغذاء دون نضج . وسببه غالبًا كثرة الغذاء فى المعدة حتى يكون أغلب على الحار الغريزى ، أو إدخال الطعام إلى المعدة قبل أن تستوفى طبخ الأول ، فيستقل به الحار الغريزى ويترك الأول بحاله ، أو يتوزع عليهما فيقصر عن تمام الطبخ والنضج ، وترسله المعدة كذلك إلى الكبد ، فلا تقوى حرارة الكبد أيضًا على إنضاجه ، وربما بقى فى الكبد من الغذاء الأول فضلة غير ناضجة ، وترسل الكبد جميع ذلك إلى العروق غير ناضج كما هو . فإذا أخذ البدن حاجته الملائمة أرسله مع الفضلات الأخرى من العرق والدمع واللعاب إن إقتدر على ذلك . وربما يعجز عن الكثير منه ، فيبقى فى العروق والكبد والمعدة ، وتتزايد مع الأيام . وكل ذى رطوبة من الممتزجات إذا لم يأخذه الطبخ والنضج يعفن ، فيتعفن ذلك الغذاء غير الناضج وهو المسمى بالخِلط ، وكل متعفن ففيه حرارة غريبة وتلك هي المسماة فى بدن الإنسان بالحمى . وإختبر ذلك بالطعام إذا ترك حتى يتعفن وفى الزبل إذا تعفن أيضًا كيف تنبعث فيه الحرارة وتأخذ مأخذها . فهذا معنى الحميات فى الأبدان ، وهى رأس الأمراض وأصلها كما وقع فى الحديث[1] .

وهذه الحميات علاجها بقطع الغذاء عن المريض أسابيع معلومة ، ثم بتناوله الأغذية الملائمة حتى يتم برؤه . وذلك فى حال الصحة علاج فى التحفظ من هذا المرض وأصله كما وقع فى الحديث . وقد يكون ذلك العفن فى عضو مخصوص فيتولد عنه مرض فى ذلك العضو ، ويحدث جراحات[1] فى البدن إما فى الأعضاء الرئيسية أو فى غيرها . وقد يمرض العضو ويحدث عنه مرض القوى الموجودة له . هذه كلها جماع [2] الأمراض ، وأصلها فى الغالب من الأغذية ؛ وهذا كله مرفوع إلى الطبيب .

ووقوع هذه الأمراض من أهل الحضر والأمصار أكثر ، لخصب عيشهم ، وكثرة مآكلهم ، وقلة إقتصارهم على نوع واحد من الأغذية ، وعدم توقيتهم لتناولها . وكثيرا ما يخلطون بالأغذية من التوابل والبقول والفواكه رطبا ويابسًا فى سبيل العلاج بالطبخ ، ولا يقتصرون فى ذلك على نوع أو أنواع . فربما عددنا فى اليوم الواحد من ألوان الطبخ أربعين نوعًا من النبات والحيوان ، فيصير للغذاء مزاج غريب . وربما يكون غريبًا عن ملاءمة البدن وأجزائه . ثم إن الأهوية فى الأمصار تفسد بمخالطة الأبخرة العفنة من كثرة الفضلات ، والأهوية منشطة للأرواح ومقوية بنشاطها الأثر الحار الغريزى فى الهضم . ثم الرياضة مفقودة لأهل الأمصار إذ هم فى الغالب وادعون ساكنون لا تأخذ منهم الرياضة شيئًا ، ولا تؤثر فيهم أثرا . فكان وقوع الأمراض

---

(١) أنظر التعليق عليه فى صدر هذا الفصل .

(١) هكذا فى جميع النسخ ، ولعلها « خراجات » جمع خراج كغراب .

(٢) جماع الشىء بالكسر جمعه ، يقال جماع الخباء أخبية ، والخمر جماع الإثم (الصحاح) .

كثيرًا فى المدن والأمصار ، وعلى قدر وقوعه كانت حاجتهم إلى هذه الصناعة .

وأما أهل البدو فمأكولهم قليل فى الغالب ، والجوع أغلب عليهم لقلة الحبوب ، حتى صار لهم ذلك عادة ، وربما يظن أنها جِبِلّة لا ستمرارها. والأدم قليلة لديهم أو مفقودة بالجملة . وعلاج الطبخ بالتوابل والفواكه إنما يدعو إليه ترف الحضارة الذين هم بمعزل عنه ، فيتناولون أغذيتهم بسيطة بعيدة عما يخالطها ، ويَقْرُب (١) مزاجها من ملاءمة البدن . وأما أهويتهم فقليلة العفن لقلة الرطوبات والعفونات إن كانوا آهلين (٢) أو لاختلاف الأهوية إن كانوا ظواعن . ثم إن الرياضة موجودة فيهم لكثرة الحركة فى ركض الخيل أو الصيد أو طلب الحاجات لمهنة أنفسهم فى حاجاتهم فيحسن بذلك كله الهضم ويجود ويفقد إدخال الطعام على الطعام ، فتكون أمزجتهم أصلح وأبعد من الأمراض ، فتقل حاجتهم إلى الطب . ولهذا لا يوجد الطبيب فى البادية بوجه . وما ذاك إلا للاستغناء عنه ؛ إذ لو إحتيج إليه لوجد ، لأنه يكون له بذلك فى البدو معاش يدعوه إلى سكناه . سنة الله التى قد خلت فى عباده ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

---

(١) كان الأولى أن يقول : « فيقرب مزاجها من ملاءمة البدن » ذلك أن بساطتها وبعدها عما يخالطها كل ذلك يجعل مزاجها قريباً من ملاءمة البدن .

(٢) أهل المكان أهولا من باب قعد عمر بأهله فهو آهل ، وقرية آهلة عامرة . وقد أطلق ابن خلدون الوصف على الأفراد أنفسهم ، فيقصد بالآهلين المقيمين . والظاعن المسافر من ظعن ظعنا من باب نفع .

٣٠ – فصل فى أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية

وهو رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على مافى النفس ؛ فهو ثانى رتبة من الدلالة اللغوية . وهو صناعة شريفة إذ الكتابة من خواص الإنسان التى يميز بها عن الحيوان . وأيضا فهى تُطْلِع على مافى الضمائر وتتأدّى بها الأغراض إلى البلد البعيد ، فتُقضى الحاجاتُ ، وقد دُفعت مؤونةُ المباشرة لها ، ويُطّلع بها على العلوم والمعارف وصحف الأولين ، وما كتبوه من علومهم وأخبارهم . فهى شريفة بهذه الوجوه والمنافع .

وخروجها فى الإنسان من القوة إلى الفعل إنما يكون بالتعليم . وعلى قدر الاجتماع والعمران والتناغى فى الكمالات والطلب لذلك تكون جودة الخط فى المدينة ، إذ هو من جملة الصنائع ، وقد قدمنا أن هذا شأنها وأنها تابعة للعمران . ولهذا نجد أكثر البدو أميين لا يكتبون ولا يقرأون . ومن قرأ منهم أو كتب فيكون الخط قاصرا وقراءته غير نافذة . ونجد تعليم الخط فى الأمصار الخارج عمرانها عن الحد أبلغ وأحسن وأسهل طريقًا ، لاستحكام الصنعة فيها ، كما يحكى لنا عن مصر لهذا العهد ، وأن بها معلمين منتصبين لتعليم الخط يلقون على المتعلم قوانين وأحكامًا فى وضع كل حرف ، ويزيدون إلى ذلك المباشرة بتعليم وضعه ، فتعتضد لديه رتبة العلم والحس فى التعليم ، وتأتى ملكته على أتم الوجوه . وإنما أتى هذا من كمال

الصنائع ووفورها بكثرة العمران وانفساح الأعمال .

(وليس الشأن فى تعليم الخط، بالأندلس والمغرب كذلك فى تعلم كل حرف بانفراده على قوانين يلقيها المعلم للمتعلم ؛ وإنما يتعلم بمحاكاة الخط، فى كتابة الكلمات جملة (١) ويكون ذلك من المتعلم ومطالعة المعلم له إلى أن تحصل له الإجادة ، وتتمكن فى بنائه (٢) الملكة فيسمى مجيدًا) .

وقد كان الخط، العربى بالغًا مبالغه من الإحكام والإتقان والجودة فى دولة التبابعة لِمَا بلغت من الحضارة والترف ، وهو المسمى بالخط، الحِمْيَرى . وانتقل منها إلى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسباء التبابعة فى العصبية والمجددين لملك العرب بأرض العراق . ولم يكن الخط، عندهم من الإجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين ، وكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك . ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش فيما ذكر . ويقال إن الذى تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية ويقال حرب بن أمية ، وأخذها من أسلم بن سدرة ، وهو قول ممكن،

(١) عقب د . وافى بقوله : « من هذا يتبين أن الطريقة الحديثة التى تتبع الآن فى تعليم الهجاء ، والتى يسميها علماء التربية « طريقة « الجشتالت » أو طريقة الكلمات والجمل ، وهى التى تقضى بأن يبدأ فى الهجاء برسم الكلمات والجمل كانت متبعة منذ عهد بعيد فى المغرب والأندلس ، وهى أمثل طريقة من الوجهة التربوية لمسايرتها للواقع من جهة ولطبيعة العقل الإنسانى من جهة أخرى . فالواقع أن الكلمة هى التى لها مدلول فى ذهن الطفل ؛ أما الحرف فلا مدلول له . والعقل الإنسانى ينتقل بطبيعته من إدراك الكل إلى إدراك أجزائه (جشتالت) لا العكس — ومن هنا يتبين خطأ ابن خلدون فى تفضيله لطريقة المصريين فى عهده وهى الطريقة التى تبدأ بالحروف فى تعليم الهجاء .

(٢) هكذا فى الأصل ؛ ويظهر أنها محرفة عن « بنانه » بالنون؛ لأن ملكة الخط ترسخ فى أصابع اليد .

وأقرب ممن ذهب إلى أنهم تعلموها من إياد أهل العراق لقول شاعرهم :

قومٌ لهم ساحةُ العرَاقِ إذَا
سَارُوا جميعًا والخطُّ والقلَم

وهو قول بعيد لأن إيادًا وإن نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على شأنهم من البداوة ؛ والخط، من الصنائع الحضرية . وإنما معنى قول الشاعر أنهم أقرب إلى الخط، والقلم من غيرهم من العرب ، لقربهم من ساحة الأمصار وضواحيها . فالقول بأن أهل الحجاز إنما لقنوها من الحيرة ولقنها أهل الحيرة من التبابعة وحمير هو الأليق من الأقوال .

(ورأيت فى كتاب التكملة لابن الأبار عند التعريف بابن فروخ القيروانى الفاسى الأندلسى ، من أصحاب مالك رضى الله عنه واسمه عبد الله بن فروخ عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن أبيه ، قال : قلت لعبد الله بن عباس يا معشر قريش خبرونى عن هذا الكتاب (١) العربى ، هل كنتم تكتبونه قبل أن يبعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم ، تجمعون منه ما اجتمع وتفرقون منه ما افترق مثل الألف واللام والنون ؟ قال نعم . قلت وممن اتخذتموه ؟ قال عن حرب بن أمية . قلت وممن أخذه حرب ؟ قال من عبد الله بن جدعان . قلت وممن أخذه عبد الله بن جدعان ؟ قال من أهل الأنبار قلت وممن أخذه الأنبار ؟ قال من طارىء طرأ عليهم من أهل اليمن . قلت وممن أخذه ذلك الطارىء ؟

(١) مصدر كتب يكتب كتبًا وكتابا ، يعنى خبرونى عن هذه الكتابة العربية ، أى الرسم العربى .

قال من الخلجان بن قاسم كاتب الوحي لهود النبي صلى الله عليه وسلم وهو الذى يقول :

أفى كل عام سُنَّةٌ تحدثونها
ورأى على غير الطريق يعير
وللّموت خير من حياة تسبّنا
بها جُرْهُمٌ فيمن يُسَبّ وحِمْير [1]

انتهى ما نقله ابن الأَبَّار فى كتاب « التكملة » وزاد فى آخره حدثنى بذلك أبو بكير بن أبى حميرة فى كتابه عن أبى بحر بن العاصى عن أبى الوليد الوقشى عن أبى عمر الطَّلَنْكِى بن أبى عبد الله بن مفرح ، ومن خطه نقلته عن أبى سعيد بن يونس عن محمد بن موسى بن النعمان عن يحي بن محمد بن خشيش بن عمر بن أيوب المغافرى التونسى عن بهلول بن عبيدة التجيبى عن عبد الله بن فروخ . انتهى [2]) .

وكان لحميَر كتابة تسمى المُسْنَد حروفُها منفصلةٌ ، وكانوا يمنعون من تعلمها إلا بإذنهم . ومن حمير تعلمت مضرُ الكتابة العربية . إلا أنهم لم يكونوا مجيدين لها شأن الصنائع إذا وقعت بالبدو ، فلا تكون محكمة المذاهب ولا مائلة إلى الإتقان والتنميق ، لبون ما بين البدو والصناعة ، واستغناء البدو عنها فى الأكثر . فكانت كتابة العرب بدوية مثل كتابتهم أو قريباً من كتابتهم

(١) لا يخفى ما فى هذه الصورة من اختلاف . فعاد قوم هود كان لسانهم يختلف كل الاختلاف عن اللسان العربى القرشى ، وأسلوب البيتين الركيكين المضطربين يدل هو نفسه على أنهما من صنع المحدثين فى العصر الإسلامى .

(٢) مابين القوسين تزيد به طبعة باريس على الطبعات المتداولة وهو كذلك مثبت فى النسخة « التيمورية » .

لهذا العهد ، أو نقول إن كتابتهم لهذا العهد أحسن صناعة ، لأَن هؤلاء أقرب إلى الحضارة ومخالطة الأَمصار والدول . وأما مضر فكانوا أعرق فى البدو وأبعد عن الحضر من أهل اليمن وأهل العراق وأهل الشام ومصر . فكان الخط العربى لأَول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة ، ولا إلى التوسط ، لمكان العرب من البداوة والتوحش وبُعدهم عن الصنائع [1] .

(١) عقب د. وافى على هذا فى منشورته بقوله : بعض ما ذكره ابن خلدون عن أصل الخط العربى صحيح ، وكثير منه غير صحيح . وتحرير القول فى هذا الموضوع نوجزه فيما يلى :

اجتاز الرسم العربى خمس مراحل :

١ – فأقدم رسم وصلت إلينا اللغة العربية مدونة به كان مشتقاً من خط المسند (الرسم اليمنى القديم) . كما تدل على ذلك آثار اللغة العربية البائدة ، وخاصة ثلاثة أنواع من النقوش وهى النقوش اللحيانية والنقوش الثمودية والنقوش الصفوية ، وخط المسند ، أو خط الحميرى كما يسميه ابن خلدون ، مشتق من الرسم الفينيقى ، ويشبهه من عدة وجوه . ولكنه يمتاز عنه بجمال التنسيق والأشكال الهندسية المنظمة التى يتألف منها كثير من حروفه . ويرسم متفرق الحروف

٢ – ثم أخذ الرسم النبطى ، وهو نوع من أنواع الرسم الآرامى يمتاز بأن معظم حروفه تتصل بما قبلها ، فى تدوين العربية على هذا الرسم القديم ، وينتقص من مناطق نفوذه ومواطن استخدامه شيئاً فشيئاً حتى تقضى عليه . – وأقدم أثر عربى وصل إلينا بعد هذا التطور « هو نقش النمارة » .

٣ – ثم ظهر فى كتابه اللغة العربية نوع ثالث من الرسم مشتق من الرسم النبطى السابق ، ويمثل الرسم العربى فى أقدم أدواره . وبهذا النوع من الرسم دون نقشا زبد وحوران . وكلاهما لا يجد من يعرف الرسم العربى الحالى كبير عناء فى قراءته ، وخاصة نقش حوران فانه قريب جداً من الرسم الحالى .

٤ – ثم تأثر الرسم العربى بالرسم السريانى ودخلت فيه اصطلاحات كثيرة منذ القرن السابع الميلادى ، فتحول إلى رسم سريع تدون به المكاتبات العادية لا النقوش الأثرية وحدها كما كان شأن الرسم السابق ، ودخل فيه نظام الإعجام للتمييز بين الحروف المتحدة الصورة المختلفة النطق (ب ت ث ، ج ح خ ، د ذ ، ر ز ، س ش ص ض . . . الخ) . – ولكنه ظل طوال هذه المرحلة مقتصراً على الرمز إلى الأصوات الساكنة ومجرداً من علامة لتمييز بين الحرف المشدد والمخفف . =

وانظر ماوقع لأجل ذلك فى رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم ، وكانت غير مستحكمة فى الإجادة ، فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها . ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركا بما رسمه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخير الخلق من بعده المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه كما يقتفى لهذا العهد خط ولى أو عالم تبركا ويتبع رسمه خطأ أو صوابًا ، وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه ؛ فاتُّبِع ذلك وأُثْبِت رسما ونبه العلماء بالرسم على مواضعه .

ولا تلتفتن فى ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط ، وأن ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لأُصول الرسم ليس كما يتخيل بل لكلها وجه . ويقولون فى مثل زيادة الألف فى « لاأذبَحَنه » [(١)] إنه تنبيه على أن الذبح لَم يقع ، وفى زيادة الياء فى « بأَييد » [(٢)] إنه تنبيه على كمال القدرة الربانية ، وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكُم المحضَ . وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن فى ذلك تنزيهًا للصحابة عن توهم النقص فى قلة إجادة الخط ، وحسبوا أن الخط كمال فنزهوهم عن نقصه ، ونسبوا إليهم الكمال بإجادته ، وطلبوا تعليل ما خالف الإجادة من رسمه . وذلك ليس بصحيح . واعلم أن الخط ليس بكمال فى حقهم ؛ إذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية كما رأيته فيما مر ؛ والكمال فى الصنائع إضافى وليس بكمال مطلق ؛ إذ لا يعود نقصه على الذات فى الدِّين ولا فى الخلال ؛ وإنما يعود على أسباب المعاش ، وبحسب العمران والتعاون عليه لأجل دلالته على ما فى النفوس . وقد كان صلى الله عليه وسلم أُميًا وكان ذلك كمالا فى حقه ، وبالنسبة إلى مقامه لشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية التى

= ٥ - ثم أدخل فى الرسم العربى نظام الرمز إلى أصوات المد الطويلة ، واستخدم فى ذلك ثلاثة أحرف وضعت فى الأصل للرمز إلى ثلاثة أصوات وسط بين أصوات المد والأصوات الساكنة ، وهى الهمزة والياء والواو . فأصبحت هذه الحروف مزدوجة الاستخدام ؛ ترمز أحيانًا إلى ما وضعت فى الأصل للرمز إليه (أكتب ، يكتب ، وعد) ؛ وترمز أحيانا إلى أصوات المد الطويلة (كاتب ، دليل ، ملوك). وأدخل فيه كذلك نظام الحركات ، وهى علامات تشير إلى تحرك الحرف بصوت مد قصير وإلى خلوه من الحركة وإلى تشديده (الفتحة ، الكسرة ، الضمة ، السكون ، الشدة) .

وأقدم أثر إسلامى وصل إلينا متضمنا بعض مظاهر من الاصلاحات التى أدخلت على الرسم العربى فى المرحلتين الأخيرتين (٤ ، ٥) هو حجر كشف فى مصر ومحفوظ فى دار الآثار العربية فى القاهرة وتدل عباراته على أنه كان نصباً على قبر رجل يدعى عبد الرحمن ابن خير أو جبر أو جابر أو جبير الحجرى أو الحجازى ويرجع تاريخه إلى سنة ٣١ للهجرة : بسم الله الرحمن الرحيم هذا القبر لعبد الرحمن بن خير الحجرى اللهم أغفر له وأدخله فى رحمه منك ..... الخ) .

غير أنه يظهر أن إصطلاحات هذه المرحلة السابقة لها لم تكن قد كملت فى العهد الذى رسم فيه المصحف العثمانى ، أو لم يكن استخدامها قد انتشر حينئذ كل الانتشار ، أو لم يكن الصحابة ممن رسموا المصحف على عِلم تام بها (وإلى هذا الاحتمال يميل ابن خلدون فى الفقرة التالية للفقرة التى نعلق عليها) ، أو أنهم قد تحرجوا من إدخالها فى رسم القرآن ، فجاءت المصاحف العثمانية مجردة من الإعجام والشكل ، ووجدت فيها كلمات كثيرة مجردة من حروف المد الطويلة ، ورسمت فيها حروف كثيرة فى صورة مضطربة غير صحيحة .

(انظر تفصيل هذا الموضوع وما يتصل به فى صفحات ٢٤٦ - ٢٦٦ من الطبعة الخامسة من كتاب « فقه اللغة » للدكتور وافى) .

(١) فى قوله تعالى : « وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين . لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين » . (آيتى ٢٠ ، ٢١ من سورة النمل) .

(٢) فى قوله تعالى : « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون » (آية ٤٧ من سورة الذاريات) .

ى أسباب المعاش والعمران كلها ؛ وليست الأمية كمالا فى حقنا نحن إذا هو منقطع إلى ربه ، ونحن تعاونون على الحياة الدنيا ، شأن الصنائع كلها ؛ ى العلوم الاصطلاحية ؛ فإن الكمال فى حقه هو نزهه عنها جملة بخلافنا .

ثم لما جاء الملكُ للعرب وفتحوا الأمصار وملكوا لمالكَ ونزلوا البصرةَ والكوفَة ، واحتاجت الدولة لى الكتابة استعملوا الخط. وطلبوا صناعته وتعلمه نداولوه ، فترقت الإجادة فيه ، واستحكم وبلغ ى الكوفة والبصرة رتبة من الإتقان ، إلا أنها كانت ون الغاية . والخط. الكوفى معروف الرسم لهذا لعهد .

ثم انتشر العربُ فى الأقطار والممالك ، وافتتحوا فريقية والأندلس واختط. بنو العباس بغداد ترقت الخطوط. فيها إلى الغاية لما استَبْحَرَت فى عمران وكانت دارُ الإسلام ومركز الدولة العربية خالفت أوضاع الخط. ببغداد أوضاعه فى الكوفة ، ى الميل إلى إجادة الرسوم وجمال الرونق وحسن رواء ، واستحكمت هذه المخالفة فى الأعصار إلى أن ع رايتها ببغداد على بن مقلة الوزير ، ثم تلاه فى ك على بن هلال الكاتب الشهير بابن البواب . نف سند تعليمها فى المائة الثالثة وما بعدها ، عدت رسوم الخط. البغدادى وأوضاعه عن الكوفة ى انتهت إلى المباينة . ثم ازدادت المخالفة بعد ك العصور بتفنن الجهابذة فى إحكام رسومه ضاعه ، حتى انتهت إلى المتأخرين مثل ياقوت ولى على العجمى ، ووقف سند تعليم الخط. عليهم ، وانتقل ذلك إلى مصر ، وخالفت طريقة العراق بعض الشىء ، ولقنها العجم هناك ، فظهرت مخالفة لخط. أهل مصر أو مباينة) .

وكان الخط. البغدادى معروف الرسم . وتبعه الإفريقى المعروف رسمه القديم لهذا العهد . ويقرب من أوضاع الخط. المشرق . وتحيز ملك الأندلس بالأمويين فتميزوا بأحوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط. ، فتميز صنف خطهم الأندلسى كما هو معروف الرسم لهذا العهد .

وطما بحر العمران والحضارة فى الدول الإسلامية فى كل قطر ، وعظم الملك ، ونَفَقت أسواق العلوم وانتسخت الكتب وأجيد كتْبُها وتجليدها ، وملئت بها القصور والخزائن الملوكية بما لا كِفاء له وتنافس أهل الأقطار فى ذلك وتناغوا فيه .

ثم لما انحل نظام الدولة الإسلامية وتناقصت تناقص ذلك أجمع ودَرَست معالم بغداد بدروس الخلافة ، فانتقل شأنها من الخط. والكتابة بل والعلم إلى مصر والقاهرة ، فلم تزل أسواقه بها نافقة لهذا العهد ، وله بها معلمون يرسمون للمتعلم الحروف بقوانين فى وضعها وأشكالها متعارفة بينهم ، فلا يلبث المتعلم أن يحكم أشكال تلك الحروف على تلك الأوضاع وقد لقنها حسا ، وحذق فيها دربة وكتابا ، وأخذها قوانين علمية ، فتجىءُ أحسن ما يكون .

وأما أهل الأندلس فافترقوا فى الأقطار عند تلاشى ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر ، وتغلبت عليهم أمم النصرانية فانتشروا فى عُدوة

المغرب وإفريقية ، من لدن الدولة اللمتونية إلى هذا العهد ، وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع ، وتعلقوا بأذيال الدولة ، فغلب خطهم على الخط الإفريقي وعفا عليه ، ونسى خط القيروان والمهدية بنسيان عوائدهما وصنائعهما ، وصارت خطوط أهل إفريقية كلها على الرسم الأندلسى بتونس وما إليها ، لتوفر أهل الأندلس بها عند الجالية من شرق الأندلس . وبقى منه رسم ببلاد الجريد الذين لم يخالطوا كُتّاب الأندلس ولاتمرسوا بجوارهم ، إنما كانوا يفدون على دار الملك بتونس ، فصار خط أهل إفريقية من أحسن خطوط أهل الأندلس. حتى إذا تقلص ظل الدولة المُوَحِّدية بعض الشىء ، وتراجع أمر الحضارة والترف بتراجع العمران ، نقص حينئذ حال الخط. وفسدت رسومه وجُهل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقص العمران . وبقيت فيه آثار الخط الأندلسى تشهد بما كان لهم من ذلك ، لما قدمناه من أن الصنائع إذا رسخت بالحضارة فيعسر محوها [1] وحصل فى دولة بنى مَرِين من بعد ذلك بالمغرب الأقصى لون من الخط الأندلسى ، لقرب جوارهم وسقوط من خرج منهم إلى فاس قريبا ، واستعمالهم إياهم سائر الدولة [2]. ونسى عهد الخط. فيما بَعُد عن سُدة

(١) تقدم ذلك فى الفصل الثامن عشر من هذا الباب وعنوانه : (فصل فى أن رسوخ الصنائع فى الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها) .

(٢) هكذا فى جميع النسخ ، والعبارة ركيكة . ويظهر أن معناها أنه قد انتقل إلى المغرب فى عهد دولة بنى مرين لون من الخط الأندلسى لمجاورة المغرب الأقصى للأندلس وهجرة كثير من الأندلسيين إلى فاس ، ولاستخدام بنى مرين لهؤلاء المهاجرين فى بعض الوظائف طوال مدة دولتهم .

الملك وداره كأنه لم يعرف ، فصارت الخط بإفريقية والمغربين مائلة إلى الرداءة بعيدة عن الجودة وصارت الكتب إذا انتسخت فلا فائدة تحصل لمتصفحها منها إلا العناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الأشكال الخطية عن الجودة ، حتى لا تكاد تقرأ إلا بعد عسر ، ووقع فيه ما وقع فى سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول . والله أعلم .

(وللأُستاذ أبى الحسن على بن هلال الكاتب البغدادى الشهير بابن البواب قصيدة من بحر البسيط. [1] على رَوِىِّ الراء يذكر فيها صناعة الخط. وموادها من أحسن ما كتب فى ذلك ، رأيت إثباتها فى هذا الكتاب من هذا الباب لينتفع بها من يريد تعلم هذه الصناعة ، وأولها :

يَا مَنْ يريدُ إجادَةَ التَّحرير
ويرُومُ حسنَ الخطِّ والتَّصوير
إن كانَ عزْمُك فى الكِتَابَة صادقًا
فارغَب إلَى موْلَاك فى التَّيسير
أعْدد من الأقْلام كل مُثَقّف [2]
صلْبٍ يصُوغُ صِنَاعةَ التَّحْبير
وإذا عمدْتَ لِبَرْيِهِ فتوخّه
عنْد القياس بأوْسَط التَّقدير
انظر إلى طرفيه فاجعل برْيَه
من جَانب التَّدقيق والتَّخْصير

(١) أجزاء بحر البسيط هى مستفعلن فاعلن اربع مرات والقصيدة الآتية ليست من هذا البحر ، بل هى من بحر الكامل وأجزاؤه متفاعلن ست مرات .

(٢) ثقف الشىء تثقيفاً سواه وأقام المعوج منه (من القاموس والمصباح) .

وَاجعل لِجِلْفَته(١) قَوامًا (٢) عادلًا
يخلو عن التّطويل والتّقصير
والشّقّ وسْطه ليبقَى بريه
من جانبيه مشاكِلَ التّقدير
حتّى إذا أتقنت ذلك كله
إتقان طَبٍّ (٣) بالمراد خبير
فاصرف لرأى القَطّ (٤) عزمَك كلّه
فالقَطّ فيه جملة التدبير
لاتطمعنّ فى أن أبوحَ بِسِرّه
إنّى أضن بسره المستور
لكنّ جملة ما أقول بأنّه
ما بين تحريف إلى التدوير
وأَلِقْ (٥) دواتك بالدخان(٦) مُدَبّرًا
بالخل أو بالحِصْرِم (٧) المعصور
وأضف إليه مَغْرة (٨)قد صُوِّلت(٩)
مع أصفر الزّرنيخ والكَافور

(١) الجلفة بكسر الجيم وفتحها من القلم ما بين مبراه إلى سنه ، ومنه قول عبد الحميد الكاتب لمسلم بن قتيبة وقد رآه يكتب رديئاً : « إن كنت تحب أن يجود خطك فأطل جلفتك وأسمنها وحرف قطتك وأيمنها (القاموس) .

(٢) قامة الإنسان والشىء وقوامه بالفتح ، والقوام كذلك العدل والاعتدال ؛ يقال هو حسن القوام ، أى القامة أو الاعتدال . (من المصباح والقاموس) .

(٣) الطب بالفتح : الماهر الحاذق بعمله كالطبيب (القاموس) .

(٤) قط القلم قطاً ، من باب قتل : قطع رأسه عرضاً فى بريه .

(٥) لاق الدواة يليقها ليقة وليقاً وألاقها : جعل لها ليقة ، والليقة الصوفة أو الخرقة توضع فى الدواة ويصب عليها المداد ويضغط عليها بالقلم فيبتل بالمداد فيكتب به (القاموس) .

(٦) المادة السوداء التى تتكون من الدخان ، وكان يصنع منها المداد .

(٧) الحصرم بكسر الحاء والراء : أول العنب مادام أخضر (القاموس) .

(٨) المغرة بسكون الغين وفتحها : طين أحمر (القاموس) .

(٩) التصويل إخراج الشىء بالماء (أى إذابته فى الماء) ، وحنطة مصولة (القاموس) .

حتى إذا ما خُمِّرَتْ فاعمد إلى
الوَرَقِ النّقى النّاعم المَخْبُور
فاكبِسْه بعدَالقطع بالمِعصار (١)كى
ينأى عن التّشعيثِ والتّغْيير
ثم اجعل التمثيلَ (٢) دأْبكَ صابرًا
ما أدرك المأْمولَ مثلُ صبور
ابدأْ به فى اللّوح منتضيًا له
عزما تُجرِّده عن التّشْمِير
لاتَخْجلنّ من الرّدىء تخطه
فى أوّل التّمثيل والتّسطير
فالأمر يصعبُ ثم يرجع هيّنًا
ولَرُبَّ سَهْلٍ جاء بعدَ عسير
حتّى إذا أدركت ما أمّلته
أضحيت ربَّ مسرة وحبور
فاشكر إلَاهكَ واتّبع رِضوانَهُ
إن الإلاه يجيبُ كلَّ شَكور
وارغب لكفِّك أن تخط بَنانُها
خيرًا تخلفه بدار غُرور
فجميعُ فِعلِ المرْءِ يلقاهُ غدًا
عندَ التقاءِ كتَابِه المَنْشُور

[واعلم أن الخط بيان عن القول والكلام كما أن القول والكلام بيان عما فى النفس والضمير من المعانى . فلا بد لكل منهما أن يكون واضحَ الدلالة . قال الله تعالى : «خَلَقَ الإنْسَانَ علّمه

(١) المعصار الذى يجعل فيه الشىء فيعصر (القاموس) .

(٢) يقصد بالتمثيل تجربة القلم بكتابة أى شىء به ليرى مبلغ صلاحيته .

البَيَانَ » (١) . وهو يشتمل على بيان الأدلة كلها فالخط المُجَوَّد كمالُهُ أن تكون دلالته واضحة بإبانة حروفه المتواضعة ، وإجادة وضعها ورسمها كل واحد على حدة متميزة عن الآخر ، إلا ما اصطلح عليه الكُتَّابُ فى إيصال حروف الكلمة الواحدة بعضها ببعض ، سوى حروف اصطلحوا على قطعها مثل الألف المتقدمة فى الكلمة وكذا الراء والزاى والدال والذال وغيرها ، بخلاف ما إذا كانت متأخرة وهكذا إلى آخرها .

[ثم إن المتأخرين ن الكتاب اصطلحوا على وصل كلمات بعضها ببعض وحذف حروف معروفة عندهم ، لا يعرفها إلا أهل مصطلحهم فتستعجم على غيرهم . وهؤلاء كتاب دواوين السلطان وسجلات القضاة ، كأنهم انفردوا بهذا الاصطلاح عن غيرهم ، لكثرة موارد الكتابة عليهم ، وشهرة كتابتهم ، وإحاطة كثير ممن دونهم بمصطلحهم . فإن كتبوا ذلك لمن لا خبرة له بمصطلحهم . فينبغى أن يعدلوا عن ذلك إلى البيان ما استطاعوا ، وإلا كان بمثابة الخط الأعجمى ، لأنها بمنزلة واحدة فى عدم التواضع عليه . وليس يعذر فى هذا القدر إلا كُتَّاب الأعمال السلطانية فى الأموال والجيوش ؛ لأنهم مطلوبون بكتمان ذلك عن الناس ؛ فإنه من الأسرار السلطانية التى يجب إخفاؤها . فيبالغون فى رسم اصطلاح خاص بهم يصير بمثابة المُعَمَّى . وهو الاصطلاح على العبارة عن الحروق بكلمات من أسماء الطيب والفواكه

(١) الآيتان ٣ ، ٤ من سورة الرحمن .

والطيور أو الأزاهر ووضع أشكال أخرى غير أشكال الحروف المتعارفة يصطلح عليها المتخاطبون لتأدية ما فى ضمائرهم بالكتابة (١) وربما وضـ الكِتاب للعثور على ذلك . وإن لم يضعوه أو قوانين بمقاييس (٢) استخرجوها لذلك بمداركهـ ويسمونها فك المُعَمَّى . وللناس فى ذلك دواوين مشهورة . — والله العليم الحكيم] .

٣١ — فصل فى صناعة الوراقة

كانت العناية قديما بالدواوين العلمية والسجلات فى نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة . وقد ذهب ذلك لهذا العهد بذهاب الدولة وتناقص العمران بعد أن كان منه فى المـ الإسلامية بحر زاخر بالعراق والأندلس . إذ هـ كله من توابع العمران واتساع نطاق الدولة ونفاق أسواق ذلك لديهما ، فكثرت التآليف العلمية والدواوين ، وحرص الناس على تناقلهما فى الآفاق والأعصار فانتسخت وجلدت ، وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين . واختصت بالأمصار العظيمة العمران .

وكانت السجلات أولا لانتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والاقطاعات والصكوك فى الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد ، لكثرة

(١) لعله يعنى ما نسميه الآن « الشفرة » .

(٢) هكذا فى الأصل ، وفى الجملة تحريف ؛ واستقامتها أن يقال : « وتضمن هذا الكتاب قوانين بمقاييس ، ويسمونها فك المعمى » .

ة وقلة التآليف صدر الملة كما نذكره ، وقلة
رسائل السلطانية والصكوك مع ذلك . فاقتصروا
الكتاب فى الرَّقّ تشريفًا للمكتوبات وميلا بها
الصحة والإتقان . ثم طما بحر التآليف والتدوين
كثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرَّقّ عن
ك . فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغَد
نعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه ،
تخذه الناس من بعده صحفًا لمكتوباتهم السلطانية
لعلمية ، وبلغت الإجادة فى صناعته ما شاءت .

ثم وقفت عناية أهل العلوم وهمم أهل الدول
ضبط الدواوين العلمية وتصحيحها بالرواية
سندة إلى مؤلفيها وواضعيها ، لأنه الشأن الأهم
التصحيح والضبط . فبذلك تسند الأقوال
قائلها والفُتيا إلى الحاكم بها المجتهد فى طريق
ستنباطها . وما لم يكن تصحيح المتون بإسنادها
مدونها فلا يصح إسناد قول لهم ولا فُتيا . وهكذا
ن شأن أهل العلم وحملته فى العصور والأجيال
الآفاق ؛ حتى لقد قصرت فائدة الصناعة الحديثية
الرواية على هذه فقط ؛ إذ ثمرتها الكبرى
معرفة صحيح الأحاديث وحسنها ومسندها
رسلها ومقطوعها وموقوفها من موضوعها ،
ذهبت (١) وتمخضت زُبْدَة فى تلك الأمهات

(١) الحديث الموضوع هو المكذوب المفترى على الرسول عليه
لام ، ويعرف الوضع بإقرار الواضع ولو ضمنا ، وبقرائن
كها علماء الحديث : منها ما يؤخذ من حال الراوى ؛ ومنها
خذ من المروى كأن يكون مناقضاً لنص القرآن أو السنة المتواترة
الإجماع القطعى أو صريح العقل . وينقسم ما عداه أقساماً كثيرة
ابن خلدون إلى بعضها فى الفصل الخاص بعلوم الحديث .

المتلقاة بالقبول عند الأمة (١) وصار القصد إلى ذلك لغوا من العمل ، ولم تبق ثمرة الرواية والاشتغال بها إلا فى تصحيح تلك الأمهات الحديثية وسواها من كتب الفقه للفتيا وغير ذلك من الدواوين والتآليف العلمية واتصال سندها بمؤلفيها ، ليصح النقل عنهم والإسناد إليهم .

وكانت هذه الرسوم بالمشرق والأندلس معبَّدة الطرق واضحة المسالك . ولهذا نجد الدواوين المنتسخة لذلك العهد فى أقطارهم على غاية من الإتقان والإحكام والصحة . ومنها لهذا العهد بأيدى الناس فى العالم أصول عتيقة تشهد ببلوغ الغاية لهم فى ذلك وأهل الآفاق يتناقلونها إلى الآن ويشدون عليها يد الضَّنانة (٢) . ولقد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد جملة بالمغرب وأهله لانقطاع صناعة الخط والضبط والرواية منه بانتقاص عمرانه وبداوة أهله ، وصارت الأمهات والدواوين تنسخ بالخطوط اليدوية ، ينسخها طلبة البربر صحائف مستعجمة برداءة الخط وكثرة الفساد والتَّصحيف ، فتستغلق على متصفحها ولا يحصل منها فائدة إلا فى الأقل النادر . وأيضا فقد دخل الخلل من ذلك فى الفتيا فإن غالب الأقوال المعزوة غير مروية عن أئمة المذهب ، وإنما تتلقى من تلك الدواوين على ما هى عليه . وتبع ذلك أيضًا ما يتصدى إليه بعض أئمتهم من التأليف ، لقلة بصرهم بصناعته ، وعدم

(١) يقصد كتب الحديث المعتمدة كالبخارى ومسلم ، وهى التى سيتكلم عليها فى فصل الحديث .

(٢) ضن بالشئ يضن من باب تعب ضنا وضنة وضنانة بالفتح بخل ، فهو ضنين ؛ ومن باب ضرب لغة (المصباح) .

الصنائع الوافية بمقاصده . ولم يبق من هذا الرسم بالأندلس إلا أثارة [1] خفية بالامّحاء وهى على الاضمحلال . فقد كاد العلم ينقطع بالكلية من المغرب . والله غالب على أمره .

ويبلغنا لهذا العهد أن صناعة الرواية قائمة بالمشرق ، وتصحيح الدواوين لمن يرومه بذلك سهل على مبتغيه ، لنَفاق أسواق العلوم والصنائع كما نذكره بعد . إلا أن الخط الذى بقى من الإجادة فى الانتساخ هنالك إنما هو للعجم وفى خطوطهم . وأما النسخ بمصر ففسد كما فسد بالمغرب وأشد . والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

٣٢ ـ فصل فى صناعة الغناء

هذه الصناعة هى تلحين الأشعارِ الموزُونة بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة يوقع على كل صوت منها توقيعاً عند قطعه فيكون نغمة ، ثم تؤلف تلك النغم بعضها إلى بعض على نسب متعارفة ، فيلذ سماعها لأجل ذلك التناسب ، وما يحدث عنه من الكيفية فى تلك الأصوات . وذلك أنه تبين فى علم الموسيقى أن الأصوات تتناسب فيكون : صوت ، نصف صوت ، وربع آخر ، وخمس آخر ، وجزءاً من أحد عشر من آخر . واختلاف هذه النسب عند تأديتها إلى السمع يخرجها من البساطة إلى التركيب . وليس كل تركيب منها ملذوذاً عند السماع ، بل للملذوذ تراكيب خاصة هى التى حصرها أهل علم الموسيقى ، وتكلموا عليها كما مذكور فى موضعه . وقد يساوق ذلك التلحي فى النغمات الغنائية بتقطيع أصوات أخرى الجمادات إما بالقرع أو بالنفخ فى الآلات تتخ لذلك فترى لها لذة عند السماع . فمنها لهذا العه أصناف . منها ما يسمونه الشبّابة ، وهى قص جوفاء بأبخاش فى جوانبها معدودة ينفخ في فتصوّت ويخرج الصوت من جوفها على سدادة م تلك الأبخاش ، ويقطع الصوت بوضع الأصا من اليدين جميعاً على تلك الأبخاش وضعاً متعارفاً حتى تحدث النسب بين الأصوات فيه ، وتتص كذلك متناسبة فيلتذ السمع بإدراكها للتناس الذى ذكرناه . ومن جنس هذه الآلة المزمار الذ يسمى الزلامى وهو شكل القصبة منحوتة الجانبي من الخشب ، جوفاء من غير تدوير لأجل ائتلا من قطعتين منفردتين كذلك بأبخاش معدودة ينفخ فيها بقصبة صغيرة توصل فينفذ النف بواسطتها إليها ، وتصوّت بنغمة حادة يجرى في من تقطيع الأصوات من تلك الأبخاش بالأصا مثل ما يجرى فى الشبّابة .

ومن أحسن آلات الزمر لهذا العهد البوق وهو بوقٌ من نحاس أجوف فى مقدار الذراع يتس إلى أن يكونَ انفراج مخرجه فى مقدار دون الك فى شكل بَرْى القلم ، وينفخ فيه بقصبة صغير تؤدى الريح من الفم إليه ، فيخرج الصوت ثخ دوياً ، وفيه أبخاش أيضاً معدودة ، وتُقطع نغ منها كذلك بالأصابع على التناسب ، فيكو

(١) الأثارة البقية من العلم تؤثر (القاموس) ومنه قوله تعالى : « إيتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » (آية ٤ من سورة الأحقاف) .

ملذوذًا . ومنها آلات الأوتار وهى جوفاء كلها ، إما على شكل قطعة من الكرة مثل البربط. والرباب ، أو على شكل مربع كالقانون توضع الأوتار على بسائطها مشدودة فى رأسها إلى دُسُرٍ جائلة ليتأتى شد الأوتار ورخوها عند الحاجة إليه بإدارتها . ثم تقرع الأوتار إما بعود أو بوتر مشدود بين طرفى قوس يمر عليها بعد أن يطلى بالشمع والكندر ، ويقطع الصوت فيه بتخفيف اليد فى إمراره أو نقله من وتر إلى وتر . واليد اليسرى مع ذلك فى جميع آلات الأوتار توقع باصابعها على أطراف الأوتار فيما يقرع أو يحك بالوتر ، فتحدث الأصوات متناسبة ملذوذة . وقد يكونُ القَرْع فى الطُّسُوت بالقضبان أو فى الأعواد بعضها ببعض على توقيع متناسب يحدث عنه التلذذُ بالمسموع .

ولنبين لك السببَ فى اللّذة النّاشئة عن الغناء . وذلك أن اللّذة كما تقرر فى موضعه هى إدراكُ الملائم ، . والمحسوسُ إنما تدرك منه كَيْفيَّةٌ ، فإذا كانت مناسبة للمدرِك وملائمةً كانت ملذوذَةً ، وإذا كانت منافيةً له منافِرة كانت مؤلمة .

فالملائِمُ من الطعوم ما ناسبت كيفيته حاسَّةَ الذوق فى مِزَاجها ، وكذا الملائِمُ من الملمُوسات ، وفى الرّوائح ما نَاسبَ مزاج الروح القلبى البخارى لأنه المدرِك ، وإليه تؤدّيه الحاسة . ولهذا كانت الرياحين والأزهار العطريات أحسن رائحة وأشد ملاءمة للروح لغلبة الحرارة فيها التى هى مزاج الروح القلبى . وأما المرئيات والمسموعات فالملائم فيها تناسب الأوضاع فى أشكالها وكيفياتها ، فهو أنسب عند النفس وأشد ملاءمة لها . فإذا كان المرئى متناسبًا فى أشكاله وتخاطيطه التى له بحسب مادته بحيث لا يخرج عما تقتضيه مادته الخاصة من كمال المناسبة والوضع ، وذلك هو معنى الجمال والحسن فى كل مدرك ، كان ذلك حينئذ مناسبًا للنفس المدركة ، فتلتذ بإدراك ملائمها . ولهذا تجد العاشقين المستهترين فى المحبة يعبرون عن غاية محبتهم وعشقهم بامتزاج أرواحهم بروح المحبوب . وفى هذا سر تفهمه إن كنت من أهله ، وهو اتحاد المبدأ وأن كلَّ ما سواك إذا نظرته وتأملته رأيت بينك وبينه اتحادًا فى البداية ، يشهد لك به اتحاد كما فى الكون . ومعناه من وجه آخر أن الوجود يشرك بين الموجودات كما تقوله الحكماء فتود أن تمتزج بما شاهدت فيه الكمال لتتحد به بل تروم النفس حينئذ الخروج عن الوهم إلى الحقيقة التى هى اتحاد المبدأ والكون . ولما كان أنسب الأشياء إلى الإنسان وأقربها إلى أن يدرك الكمال تناسب موضوعها هو شكلهُ الإنسانى فكان إدراكُه للجمال والحسن فى تَخَاطِيطه وأصواته من المدارك التى هى أقرب إلى فطرته ، فيلهج كل إنسان بالحسن من المرئى أو المسموع بمقتضى الفطرة .

والحسن فى المسموع أن تكون الأصوات متناسبة لا متنافرة . وذلك أن الأصوات لها كيفيات من الهمس والجهر والرخاوة والشدة والقلقلة والضغط وغير ذلك ، والتناسب فيها هو الذى يوجب لها

الحسن . فأولا أن لا يخرج من الصوت إلى ضده[1] دفعة بل بتدريج ، ثم يرجع كذلك ، وهكذا إلى المثل[2] ، بل لا بد من توسط المغاير بين الصوتين . وتأمل هذا من افتتاح أهل اللسان التراكيب من الحروف المتنافرة أو المتقاربة المخارج، فإنه من بابه . وثانيًا تناسبها في الأجزاء كما مر أول الباب ؛ فيخرج من الصوت إلى نصفه أو ثلثه أو جزء من كذا منه ، على حسب ما يكون التنقل مناسبًا على ما حصره أهل الصناعة . فإذا كانت الأصوات على تناسب في الكيفيات كما ذكره أهل تلك الصناعة كانت ملائمة ملذوذة ، ومن هذا التناسب ما يكون بسيطًا ويكون الكثير من الناس مطبوعًا عليه لا يحتاجون فيه إلى تعلم ولا صناعة ، كما نجد المطبوعين على الموازين الشعرية وتوقيع الرقص وأمثال ذلك . وتسمى العامة هذه القابلية بالمضمار .

وكثير من القراء بهذه المثابة يقرأون القرآن فيجيدون في تلاحين أصواتهم كأنها المزامير فيطربون بحسن مساقهم وتناسب نغماتهم . ومن هذا التناسب ما يحدث بالتركيب . وليس كل الناس يستوى في معرفته ولا كل الطباع توافق صاحبها في العمل به إذا علم . وهذا هو التلحين الذى يتكفل به علم الموسيقى كما نشرحه بعد عند ذكر العلوم . وقد أنكر مالك رحمه الله تعالى القراءة بالتلحين ؛

(١) في جميع النسخ « إلى مده » ، وهو تحريف .

(٢) أي وهكذا لا يخرج الصوت إلى مماثله دفعة بل لابد من توسط المغاير بين الصوتين المماثلين .

وأجازها الشافعى رضى الله تعالى عنه[1] . وليس المراد تلحين الموسيقى الصناعى فانه لا ينبغى أن يُخْتَلَفَ في حظره ، إذ صناعة الغناء مباينة للقرآن بكل وجه . لأن القراءة والأداء تحتاج إلى مقدار من الصوت لتعيين أداء الحروف من حيث اتباع الحركات في موضعها ومقدار المد عند من يطلقه أو يقصره وأمثال ذلك . والتلحين أيضا يتعين له مقدار من الصوت لا يتم إلا به من أجل التناسب الذى قلناه في حقيقة التلحين ؛ واعتبار أحدهما قد يخل بالآخر إذا تعارضا ، وتقديم الرواية متعين من تغيير الرواية المنقولة في القرآن.[2] فلايمكن اجتماع التلحين والأداء المعتبر في القرآن بوجه . وإنما مرادهم التلحين البسيط. الذى يهتدى إليه صاحب المضمار بطبعه كما قدمناه . فيردد أصواته

(١) يعتمد الذين يجيزون الغناء على حديث لأبي هريرة رواه البخارى بنصين وسندين : (أحدهما) حدثنا يحيى بن بكير... عن أبي هريرة رضى الله عنه كان يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم يأذن الله لشيء ما أذن للنبي صلى الله عليه وسلم يتغنى بالقرآن » ؛ (والآخر) حدثنا على بن عبد الله . . . عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما أذن الله لشيء ما أذن النبي صلى الله عليه وسلم أن يتغنى بالقرآن » .

وأما الذين لا يجيزون التغنى ، فيقولون : إن كلمة « التغنى » في هذا الحديث معناها الجهر بالقرآن أو الاستغناء به عن غيره .

والبخارى نفسه قد اتبع النصين السابقين بما يفيد هذا التأويل ، فقال بعد أن أورد النص الأول : « وقال صاحب له يريد يجهر به » ؛ وقال بعد أن أورد النص الثانى : « قال سفيان تفسيره يستغنى به » . وعنون الباب بما يفيد أنه يؤيد تفسير التغنى بالاستغناء بالقرآن عن غيره ، فقال : « باب من لم يتغن بالقرآن ، وقوله تعالى : أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب » (آية ٥١ من سورة العنكبوت . انظر الجزء الثالث من صحيح البخارى صفحة ١٤٣ (المطبعة البهية سنة ١٣٤٣) .

(٢) العبارة ركيكة ، والمقصود أنه حينما يقتضى التلحين الغنائى تغيير الرواية المنقولة بشأن تلاوة القرآن وأداء حروفه فانه يتعين تقديم الروايه على مقتضيات التلحن .

ترديداً على نسب يدركها العالم بالغناء وغيره . ولا ينبغى ذلك بوجه كما قاله مالك . هذا هومحل الخلاف . والظاهر تنزيه القرآن عن هذا كله كما ذهب إليه الإمام رحمه الله تعالى ؛ لأن القرآن محل خشوع بذكر الموت وما بعده ؛ وليس مقام التلذذ بإدراك الحسن من الأصوات . وهكذا كانت قراءة الصحابة رضى الله عنهم كما فى أخبارهم . وأماقوله صلى الله عليه وسلم : « لقد أوتى مزماراً من مزامير آل داود »[1] فليس المراد به الترديد والتلحين ، إنما معناه حسن الصوت وأداء القراءة والإبانة فى مخارج الحروف والنطق بها .

وإذ قد ذكرنا معنى الغناء فاعلم أنه يحدث فى العمران إذا توفر وتجاوز حد الضرورى إلى الحاجى ثم إلى الكمالى وتفننوا فتحدث هذه الصناعة . لأنه لا يستدعيها إلا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره ، فلا يطلبها إلا الفارغون عن سائراحوالهم تفنناً فى مذاهب الملذوذات .

وكان فى سلطان العجم قبل الملة منها بحر زاخر فى أمصارهم ومدنهم وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به ؛ حتى لقد كان لملوك الفرس اهتمام بأهل هذه الصناعة ، ولهم مكان فى دولتهم وكانوا يحضرون مشاهدهم ومجامعهم ويغنون فيها وهذا شأن العجم لهذا العهد فى كل أفق من آفاقهم ومملكة من ممالكهم .

وأما العربُ فكان لهم أولا فنُّ الشعْر يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية على تناسب بينها فى عدة حُروفها المتحركة والساكنة . ويفصلون الكلام فى تلك الأجزاء تفصيلاً يكون كل جزء منها مستقلا بالإفادة لا ينعطف على الآخر ، ويسمونه البيت ، بتلائم الطبع بالتجزئة أولا ، ثم بتناسب الأجزاء فى المقاطع والمبادىء . ثم بتأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليها . فلهجوا به ، فامتاز من بين كلامهم بحظ من الشرف ليس لغيرهلأجل اختصاصه بهذا التناسب . وجعلوه ديواناً لأخبارهم وحكمهم وشرفهم ومحكاً لقرائحهم فى إصابة المعانى واجادة الأساليب واستمروا على ذلك . وهذا التناسب الذى من أجل الأجزاء والمتحرك والساكن من الحروف قطرة من بحر من تناسب الأصوات كما هو معروف فى كتب الموسيقى . إلا أنهم لم يشعروا بما سواه . لأنهم حينئذ لم ينتحلوا علماً ولا عرفوا صناعة . وكانت البداوة أغلب نحلهم. ثم تغنى الحُداةُ منهم فى حُداء إبلهم ، والفتيان فى فضاء خلواتهم فرجعوا الأصوات وترنموا وكانوا يسمون الترنم إذا كان بالشعر غناء ، وإذا كان بالتهليل أو نوع القراءة تغبيراً بالغين المعجمة والباء الموحدة . وعللها أبو إسحق الزجاج بأنها تذكر بالغابر وهو الباقى ، أى بأحوال الآخرة . وربما ناسبوا فى غنائهم بين النغمات مناسبة بسيطة كما ذكره ابن رشيق آخر كتاب العمدة وغيره ، وكان

(١) يشير بذلك إلى حديث البخارى فى باب حسن الصوت بالقراءة وهو : « حدثنا محمد بن خلف أبو بكر ، . . . عن أبى موسى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : يا أبا موسى لقد أوتيت مزماراً من مزامير داود » . انظر الجزء الثالث من صحيح البخارى ص ١٤٥ (المطبعة البهية سنة ١٣٤٣) .

يُسمُّونه السِّناد . وكان أكثر مايكون منهم فى الخفيف[١] الذى يرقص عليه ويمشى بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم . وكانوا يسمون هذا الهَزَجَ . وهذا البسيط كله من التلاحين هو من أوائلها . ولا يبعد أن تتفطن له الطباع من غير تعليم شأن البسائط كلها من الصنائع . ولم يزل هذا شأن العرب فى بداوتهم وجاهليتهم .

فلما جاء الإسلام واستولوا على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم وغلبوهم عليه وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال التى عرفت لهم مع غضارة الدين وشدته فى ترك أحوال الفراغ وماليس بنافع فى دين ولا معاش ، فهجروا ذلك شيئاً ما ، ولم يكن الملذوذ عندهم إلا ترجيع القراءة والترنم بالشعر الذى هو ديدنهم ومذهبهم . فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرَّفَه بما حصل لهم من غنائم الأمم صاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ . وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا إلى الحجاز وصاروا موالى للعرب ، وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والزمامير ، وسمع العرب تلحينهم للأصوات فلحنوا عليها أشعارهم وظهر بالمدينة نشيط الفارسى وطويس وسائب خاثر مولى عبيد الله بن جعفر ، فسمعوا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه وطار لهم ذكر . ثم أخذ عنهم معبد وطبقته وابن سريج وأنظاره . ومازالت صناعة الغناء تتدرج إلى أن كملت أيام بنى العباس عند إبراهيم بن المهدى وإبراهيم الموصلى وابنه اسحق وابنه حماد . وكان من ذلك فى دولتهم ببغداد ماتبعه الحديث بعده به وبمجالسه لهذا العهد . وأمعنوا فى اللهو واللعب واتخذت آلات الرقص فى الملبس والقضبان والأشعار التى يترنم بها عليه ، وجعل صنفاً وحده . واتخذت آلات أخرى للرقص تسمى بالكرج ، وهى تماثيل خيل مسرجة من الخشب ، معلقة باطراف أقبية يلبسها النسوان ، ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرون ويفرون ويثاقفون[١] ، وأمثال ذلك من اللعب المعد للولائم والأعراس وأيام الأعياد ومجالس الفراغ واللهو . وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق وانتشر منها إلى غيرها . وكان للموصليين غلام اسمه زرياب أخذ عنهم الغناء فاجاد فصرفوه إلى المغرب غيرة منه فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس ، فبالغ فى تكرمته ، وركب للقائه وأسنى له الجوائز والإقطاعات والجرايات وأحله من دولته وندمائه بمكان ، فاورث بالأندلس من صناعة الغناء ماتناقلوه إلى أزمان الطوائف ، وطما منها باشبيلية بحر زاخر ، وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد العُدْوةِ بإفريقية والمغرب ، وانقسم على أمصارها ، وبها الآن منها صُبابةٌ على تراجع عمرانها وتناقص دولها .

وهذه الصناعة آخر مايحصل فى العمران من الصنائع لأنها كمالية فى غير وظيفة من الوظائف

(١) هو بحر من بحور الشعر وأجزاؤه فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن مرتين .

(١) ثقفت الرجل فى الحرب من باب تعب أدركته ، وثقفته ظفرت به ، وتثقفا حاول كل منهما أن يدرك الآخر ويظفر به .

إلا وظيفة الفراغ والفرح ، وهى أيضاً أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه . والله أعلم .

٣٣ ـ فصل فى أن الصنائع تكسب صاحبها عقلا وخصوصاً الكتابة والحساب

قد ذكرنا فى الكتاب (١) . أن النفس الناطقة للإنسان إنما توجد فيه بالقوة ، وأن خروجها من القوة إلى الفعل إنما هو بتجدد العلوم والإدراكات عن المحسوسات أولا ، ، ثم مايكتسب بعدها بالقوة النظرية إلى أن يصير إدراكاً بالفعل وعقلا محضاً ، فتكون ذاتاً روحانية وتستكمل حينئذ وجودها . فوجب لذلك أن يكون كل نوع من العلم والنظر يفيدها عقلا فريداً . والصنائع أبداً يحصل عنها وعن ملكتها قانون علمى مستفاد من تلك الملكة . فلهذا كانت الحُنْكَة فى التجربة تفيد عقلا ، والملكات الصناعية تفيد عقلا . والحضارة الكاملة تفيد عقلا ، لأنها مجتمعة من صنائع فى شأن تدبير المنزل ، ومعاشرة أبناء الجنس ، وتحصيل الآداب فى مخالطتهم ، ثم القيام بأمور الدين واعتبار آدابها وشرائطها ، وهذه كلها قوانين تنتظم علوماً فيحصل منها زيادة عقل .

والكتابةُ من بين الصَّنائع أكثر إفادة لذلك ، لأنها تشتمل على العلوم والأنظار بخلاف الصنائع وبيانه أن فى الكتابة انتقالا من الحروف الخطية إلى الكلمات اللفظية فى الخيال ، ومن الكلمات اللفظية فى الخيال إلى المعانى التى فى النفس ، وذلك دائما . فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات وهو معنى النظر العقلى الذى يكسب العلوم المجهولة ، فيكسب بذلك ملكة من التعقل تكون زيادة عقل ، ويحصل به قوة فطنة وكَيْس فى الأمور لما تعود من ذلك الانتقال . ولذلك قال كسرى فى كُتّابه لما رآهم بتلك الفطنة والكيس ، فقال «ديوانة» أى شياطين وجنون . قالوا وذلك أصل اشتقاق الديوان لأهل الكتابة . ويلحق بذلك الحساب ؛ فان فى صناعة الحساب نوع تصرف فى العدد بالضم والتفريق ، يحتاج فيه إلى استدلال كثير ، فيبقى متعوداً للاستدلال والنظر . وهو معنى العقل . والله أعلم .

(١) أشار إلى ذلك فى الفصل السادس عشر من هذا الباب وسيعرض لذلك فى عدة فصول من الباب السادس .

الباب السادس

فى العلوم وأصنافها

والتعليم وطرقه وما يعرض فى ذلك كله من الأحوال وفيه مقدمة ولواحق

فالمقدمة فى الفكر الإنسانى الذى تميز به البشر عن الحيوانات، واهتدى به لتحصيل معاشه، والتعاون عليه بأبناء جنسه، والنظر فى معبوده، وماجاءت به الرسل من عنده، فصار جميع الحيوانات فى طاعته، وملكة قدرته، وفضله به على كثير خلقه.

١ - فصل فى الفكر الإنسانى

اعلم أن الله سبحانه وتعالى ميَّز البشر عن سائر الحيوانات بالفكر الذى جعله مبدأ كماله ونهاية فضله على الكائنات وشرفه. وذلك أن الإدراك وهو شعور المدرك فى ذاته بما هو خارج عن ذاته هو خاص بالحيوانات فقط من بين سائر الكائنات والموجودات.

فالحيوانات تشعر بما هو خارج عن ذاتها، بما ركب الله فيها من الحواس الظاهرة: السمع والبصر والشم والذوق واللمس. ويزيد الإنسان من بينها أنه يدرك الخارج عن ذاته بالفكر الذى وراء حسه، وذلك بقوى جعلت له فى بطون دماغه ينتزع بها صور المحسوسات، ويجول بذهنه فيها، فيجرد منها صورا أخرى.

والفكر هو التصرف فى تلك الصور وراء الحس وجولان الذهن فيها بالانتزاع والتركيب، وهو معنى الأفئدة فى قوله تعالى: «وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة[1]». والأفئدة جمع فؤاد، وهو هنا الفكر. وهو على مراتب:

(الأولى) تعقل الأمور المرتبة فى الخارج ترتيبا طبيعيا أو وضعيا ليقصد إيقاعها بقدرته. وهكذا الفكر أكثره تصورات[2]. وهو العقل التمييزى الذى يحصل منافعه ومعاشه ويدفع مضاره.

(الثانية) الفكر الذى يفيد الآراء والآداب فى معاملة أبناء جنسه وسياستهم. وأكثرها

---

(١) جملة من آية ٢٣ من سورة تبارك: «قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون».

(٢) عقب د. وافى بقوله فى منشورته: فى الأصل «أكثر تصورات» وصوابه «أكثره تصورات». والتصورات فى اصطلاح علماء المنطق هى إدراك مدلول المفردات وماهيات الأشياء، ويقابلها التصديقات وهى إدراك النسبة أى الحكم أو إسناد المحمول إلى الموضوع. فادراك مدلول كل من «الإنسان» و «الحيوان» فى قولك «الإنسان حيوان» أى الوقوف على تعريف كل منهما وماهيته يسمى تصوراً؛ وإدراك الحكم أو النسبة أو إسناد المحمول إلى الموضوع، أى إدراك الحكم على الإنسان بأنه من جنس الحيوان، يسمى تصديقاً. قال الأخضرى فى «السلم»:

إدراك مفرد تصور علم ودرك نسبة بتصديق وسم

تصديقات تحصل بالتجربة شيئا فشيئا إلى أن تتم الفائدة منها . وهذا هو المسمى بالعقل التجريبي

(الثالثة) الفكر الذى يفيد العلم أو الظن بمطلوب وراء الحس لا يتعلق به عمل . فهذا هو العقل النظرى . وهو تصورات وتصديقات تنتظم انتظاما خاصا على شروط خاصة ، فتفيد معلوما آخر من جنسها فى التصور أو التصديق ، ثم ينتظم مع غيره فيفيد علوما أخر كذلك . وغاية إفادته تصور الوجود على ماهو عليه بأجناسه وفصوله[1] وأسبابه وعلله ، فيكمل الفكر بذلك فى حقيقته ويصير عقلا محضًا ونفسًا مدركة ، وهو معنى الحقيقة الإنسانية .

٢ ـ فصل فى أن عالم الحوادث الفعلية إنما يتم بالفكر

إعلم أن عالم الكائنات يشتمل على ذوات محضة كالعناصر وآثارها والمكونات الثلاثة عنها التى هى المعدن والنبات والحيوان ، وهذه كلها متعلقات القدرة الإلاهية ، وعلى أفعال صادرة عن الحيوانات واقعة بمقصودها متعلقة بالقدرة التى جعل الله لها عليها .

فمنها منتظم مرتب وهى الأفعال البشرية ؛ ومنها غير منظم ولامرتب وهى أفعال الحيوانات غير البشر . وذلك الفكر يدرك الترتيب بين الحوادث بالطبع أو بالوضع . فإذا قصد إيجاد شىء من الأشياء فلأجل الترتيب بين الحوادث لابد من التفطن بسببه أو علته أو شرطه . وهى على الجملة مبادئه ؛ إذ لايوجد إلا ثانيا ا عنها ، ولا يمكن إيقاع المقدم متأخرا ، ولا المتأخر متقدما . وذلك المبدأ قد يكون له مبدأ آخر من تلك المبادىء لا يوجد إلا متأخرا عنها . وقد يرتقى ذلك أو ينتهى فإذا إنتهى إلى آخر المبادىء فى مرتبتين أو ثلاث أو أزيد وشرع فى العمل الذى يوجد به ذلك الشىء بدأ بالمبدأ الأخير الذى انتهى إليه الفكر ، فكان أول عمله ، ثم تابع مابعده إلى آخر المسببات التى كانت أول فكرته .

مثلا لو فكر فى إيجاد سقف يكنّه انتقل بذهنه إلى الحائط الذى يدعمه ، ثم إلى الأساس الذى يقف عليه الحائط . فهو آخر الفكر . ثم يبدأ فى العمل بالأساس ثم بالحائط ثم بالسقف وهو آخر العمل . وهذا معنى قولهم : أول العمل آخر الفكرة ؛ وأول الفكرة آخر العمل . فلا يتم فعل الإنسان فى الخارج إلا بالفكر فى هذه المرتبات لتوقف بعضها على بعض ؛ ثم يشرع فى فعلها ؛ وأول هذا الفكر هو المسبب الأخير وهو آخرها فى العمل ، وأولها فى العمل هو المسبب الأول وهو آخرها فى الفكر . ولأجل العثور على هذا الترتيب يحصل الإنتظام فى الأفعال البشرية . وأما الأفعال الحيوانية لغير البشر فليس فيها انتظام لعدم الفكر الذى يعثر به الفاعل على الترتيب فيما يفعل . إذ الحيوانات إنما تدرك بالحواس ، ومدركاتها متفرقة خلية من الربط ، لأنه لا يكون إلا بالفكر . ولما كانت الحواس المعتبرة فى عالم الكائنات هى المنتظمة ، وغير المنتظمة إنما هى تبع لها ،اندرجت

(١) الفصل فى اصطلاح المناطقة هو ما يميز نوعا من أنواع الجنس ويفصله من غيره ؛ كالناطق الذى يميز نوعا من الأنواع التى يشملها جنس الحيوان وهو الإنسان .

حينئذ أفعال الحيوانات فيها ؛ فكانت مسخرة للبشر ، واستولت أفعال البشر على عالم الحوادث بما فيه . فكان كله فى طاعته وتسخيره ، وهذا معنى الاستخلاف المشار إليه فى قوله تعالى : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » . فهذا الفكر هو الخاصة البشرية التى تميز بها البشر عن غيره من الحيوان .

وعلى قدر حصول الأسباب والمسببات فى الفكر مرتبة تكون إنسانيته . فمن الناس من تتوالى له السببية فى مرتبتين أو ثلاث ، ومنهم من لا يتجاوزها ومنهم من ينتهى إلى خمس أو ست فتكون إنسانيته أعلى .

واعتبر ذلك بلاعب الشطرنج . فإن فى اللاعبين من يتصور الثلاث حركات والخمس الذى ترتيبها وضعى ؛ ومنهم من يقصر عن ذلك لقصور ذهنه ، وإن كان هذا المثال غير مطابق ؛ لأن لعب الشطرنج بالملكة ، ومعرفة الأسباب والمسببات بالطبع ؛ لكنه مثال يحتذى به الناظر فى تعقل ما يورد عليه من القواعد . والله خلق الإنسان ، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا .

فصل فى العقل التجريبى وكيفية حدوثه

إنك تسمع فى كتب الحكماء قولهم : « إن الإنسان هو مدنى بالطبع » ، يذكرونه فى إثبات النبوات وغيرها . والنسبة فيه إلى المدينة ؛ وهى عندهم كناية عن الاجتماع البشرى . ومعنى هذا القول أنه لا تمكن حياة المنفرد من البشر ، ولا يتم وجوده إلا مع أبناء جنسه ؛ وذلك لما هو عليه من العجز عن استكمال وجوده وحياته ، فهو محتاج إلى المعاونة فى جميع حاجاته أبدا بطبعه ، وتلك المعاونة لا بد فيها من المفاوضة أولا ، ثم المشاركة وما بعدها . وربما تفضى المعاونة عند اتحاد الأغراض إلى المنازعة والمشاجرة ، فتنشأ المنافرة والمؤالفة والصداقة والعداوة ويؤول إلى الحرب والسلم بين الأمم والقبائل . وليس ذلك على أى وجه اتفق كما بين الهمل من الحيوانات ؛ بل للبشر – بما جعل الله فيهم من انتظام الأفعال وترتيبها بالفكر كما تقدم – جعله منتظما فيهم[1] ، ويسرهم لإيقاعه على وجوه سياسية وقوانين حكمية ، ينكبون فيها عن المفاسد إلى المصالح ، وعن القبيح إلى الحسن ، بعد أن يميزوا القبائح والمفسدة بما ينشأ عن الفعل من ذلك عن تجربة صحيحة وعوائد معروفة بينهم . فيفارقون الهمل من الحيوان ، وتظهر عليهم نتيجة الفكر فى انتظام الأفعال ، وبعدها عن المفاسد .

هذه المعانى التى يحصل بها ذلك لا تبعد عن الحس كل البعد ، ولا يتعمق فيها الناظر ؛ بل كلها تدرك بالتجربة ؛ وبها تستفاد ، لأنها معان جزئية تتعلق بالمحسوسات ، وصدقها وكذبها يظهر قريبا فى الواقع ، فيستفيد طالبها حصول العلم بها من ذلك ، ويستفيد كل واحد من البشر القدر الذى يسر له فيها ، مقتنصا له بالتجربة بين الواقع فى معاملة أبناء جنسه ، حتى يتعين له ما يجب وينبغى فعلا وتركا ، وتحصل فى ملابسته الملكة فى معاملة أبناء جنسه .

(١) المعنى : بل جعل الله هذه الأفعال منتظمة فى أفراد النوع الإنسانى بما خصهم به من انتظام الأفعال وترتيبها بالفكر .

ومن تتبع ذلك سائر عمره حصل له العثور على كل قضية ولا بد ، بما تسعه التجربة من الزمن .

وقد يسهل الله على كثير من البشر تحصيل ذلك فى أقرب من زمن التجربة إذا قلد فيها الآباء والمشيخة والأكابر ولقن عنهم ووعى تعليمهم ، فيستغنى عن طول المعاناة فى تتبع الوقائع واقتناص هذا المعنى من بينها .

ومن فقد العلم فى ذلك والتقليد فيه أو أعرض عن حسن استماعه واتباعه طال عناؤه فى التأديب بذلك ، فيجرى فى غير مألوف ، ويدركها على غير نسبة . فتوجد آدابه ومعاملاته سيئة الأوضاع ، بادية الخلل ، ويفسد حاله فى معاشه بين أبناء جنسه . وهذا معنى القول المشهور : « من لم يؤدبه والداه أدبه الزمان » ؛ أى من لم يلقن الآداب من معاملة البشر من والديه ، وفى معناهما المشيخة والأكابر ، ويتعلم ذلك منهم ، رجع إلى تعلمه بالطبع من الواقعات على توالى الأيام ، فيكون الزمان معلمه ومؤدبه ، لضرورة ذلك بضرورة المعاونة التى فى طبعه . وهذا هو العقل التجريبى ؛ وهو يحصل بعد العقل التمييزى الذى تقع به الأفعال كما بيناه . وبعد هذين مرتبة العقل النظرى الذى تكفل بتفسيره أهل العلوم ، فلا يحتاج إلى تفسيره فى هذا الكتاب . والله جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ما تشكرون(١) .

(١) نص الآية : « قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم ... » . وفى آية أخرى : « وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » (آية ٧٨ من سورة « المؤمنون ») .

فصل فى علوم البشر وعلوم الملائكة

إنا نشهد فى أنفسنا بالوجدان الصحيح وجود ثلاثة عوالم : أولها عالم الحس ، ونعتبره بمدارك الحس الذى شاركنا فيه الحيوانات بالإدراك . نعتبر الفكر الذى اختص به البشر فنعلم عنه وجود النفس الإنسانية علما ضروريا بما بين جنبينا من مداركها العلمية التى هى فوق مدارك الحس ، فنراه عالما آخر فوق عالم الحس . ثم نستدل على عالم ثالث فوقنا بما نجد فينا من آثاره التى تلقى فى أفئدتنا كالإرادات والوجهات نحو الحركات الفعلية ، فنعلم أن هناك فاعلا يبعثنا عليها من عالم فوق عالمنا ، وهو عالم الأرواح والملائكة ، وفيه ذوات مدركة ، لوجود آثارها فينا ، مع ما بيننا وبينها من المغايرة. وربما يستدل على هذا العالم الأعلى الروحانى وذواته بالرؤيا وما نجد فى النوم ويلقى إلينا فيه من الأمور التى نحن فى غفلة عنها فى اليقظة ، وتطابق الواقع فى الصحيحة منها ؛ فنعلم أنها حق ، ومن عالم الحق وأما أضغاث الأحلام فصور خيالية يخزنها الإدراك فى الباطن ، ويجول فيها بعد الغيبة عن الحس . ولا نجد على هذا العالم الروحانى برهانا أوضح من هذا ؛ فنعلمه كذلك على الجملة ولا ندرك له تفصيلا وما يزعمه الحكماء الإلاهيون فى تفصيل ذواته وترتيبها المسماة عندهم بالعقول(١) فليس شىء من ذلك بيقينى ، لاختلال شرط البرهان النظرى فيه ، كما هو مقرر فى كلامهم فى المنطق ؛ لأن من شرطه

(١) أنظر فى تفصيل القول فى هذا الموضوع كتاب : « فصول من أراء أصل المدينة الفاضلة للفارابى ... تأليف د. وافى الطبعة الثانية ص ٣٩ وما بعدها » .

أن تكون قضاياه أولية ذاتية ، وهذه الذوات الروحانية مجهولة الذاتيات ، فلا سبيل للبرهان فيها ، ولا يبقى لنا مدرك فى تفاصيل هذه العوالم إلا ما نقتبسه من الشرعيات التى يوضحها الإيمان ويحكمها. وأعقد هذه العوالم فى مدركنا عالم البشر ، لأنه وحدانى مشهود فى مداركنا الجسمانية والروحانية ، ويشترك فى عالم الحس مع الحيوانات ، وفى عالم العقل والأرواح مع الملائكة الذين ذواتهم من جنس ذواته ، وهى ذوات مجردة عن الجسمانية والمادة ، وعقل صرف يتحد فيه العقل والعاقل والمعقول ، وكأنه ذات حقيقتها الإدراك والعقل. فعلومهم حاصلة دائما مطابقة بالطبع لمعلوماتهم لا يقع فيها خلل ألبتة. وعلم البشر هو حصول صورة المعلوم فى ذواتهم بعد ألا تكون حاصلة. فهو كله مكتسب. والذات التى تحصل فيها صور المعلومات وهى النفس مادة هيولانية تلبس صور الوجود بصور المعلومات الحاصلة فيها شيئا شيئا حتى تستكمل ويصح وجودها بالموت فى مادتها وصورتها. فالمطلوبات فيها مترددة بين النفى والإثبات دائما بطلب أحدهما بالوسط الرابط بين الطرفين. فإذا حصل وصار معلوما افتقر إلى بيان المطابقة ، وربما أوضحها البرهان الصناعى ، لكن من وراء الحجاب وليس كالمعاينة التى فى علوم الملائكة. وقد ينكشف ذلك الحجاب فيصير إلى المطابقة بالعيان الإدراكى فقد تبين أن البشر جاهل بالطبع ، للتردد الذى فى علمه ، وعالم بالكسب والصناعة ، لتحصيله المطلوب بفكره بالشروط الصناعية. وكشف الحجاب الذى أشرنا إليه إنما هو بالرياضة بالأذكار التى أفضلها صلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وبالتنزه عن المتناولات المهمة ، ورأسها الصوم ، وبالوجهة إلى الله بجميع قواه. والله « علم الإنسان ما لم يعلم[(١)] ».

فصل فى علوم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

إنا نجد هذا الصنف من البشر تعتريهم حالة إلاهية خارجة عن منازع البشر وأحوالهم ؛ فتغلب الوجهة الربانية فيهم على البشرية فى القوى الإدراكية والنزوعية من الشهوة والغضب وسائر الأحوال البدنية. فتجدهم متنزهين عن الأحوال البشرية إلا فى الضرورات منها ، مقبلين على الأحوال الربانية من العبادة والذكر لله بما تقتضيه معرفتهم به ، مخبرين عنه بما يوحى إليهم فى تلك الحالة من هداية الأمة على طريقة واحدة وسنن معهود منهم لا يتبدل فيهم كأنه جبلة فطر الله عليها.

وقد تقدم لنا الكلام فى الوحى أول الكتاب فى فصل المدركين للغيب[(٢)] ، وبينا هنالك أن الوجود كله فى عوالمه البسيطة والمركبة على ترتيب طبيعى من أعلاها وأسفلها متصلة كلها اتصالا لا ينخرم ، وأن الذوات التى فى آخر كل أفق من العوالم مستعدة لأن تنقلب إلى الذات التى تجاورها من الأسفل والأعلى استعدادا طبيعيا كما فى العناصر

---

(١) آية ٥ من سورة « اقرأ ».

(٢) تقدم ذلك فى المقدمة السادسة من الباب الأول.

الجسمانية البسيطة ، وكما هو فى النخل والكرم من آخر أفق النبات مع الحلزون والصدف من أفق الحيوان ، وكما فى القردة التى إستجمع فيها الكيس والإدراك مع الإنسان صاحب الفكر والروية وهذا الاستعداد الذى فى جانبي كل أفق من العوالم هو معنى الاتصال فيها .

وفوق العالم البشرى عالم روحانى شهدت لنا به الآثار التى فينا منه ، بما يعطينا من قوى الإدراك والإرادة . فذوات ذلك إدراك صرف وتعقل محض ؛ وهو عالم الملائكة .

فوجب من ذلك كله أن يكون للنفس الإنسانية إستعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملكية لتصير بالفعل من جنس الملائكة وقتا من الأوقات وفى لمحة من اللمحات ، ثم ترجع بشريتها وقد تلقت فى عالم الملكية ما كلفت بتبليغه إلى أبناء جنسها من البشر . وهذا هو معنى الوحى وخطاب الملائكة . والأنبياء كلهم مفطورون عليه كأنه جبلة لهم . ويعالجون فى ذلك الانسلاخ من الشدة والعطيط. ماهو معروف عنهم .

وعلمهم فى تلك الحالة علم شهادة وعيان لايلحقه الخطأ والزلل ، ولا يقع فيه الغلط والوهم ؛ بل المطابقة فيه ذاتية ، لزوال حجاب الغيب وحصول الشهادة الواضحة عند مفارقة هذه الحالة إلى البشرية . لا يفارق علمهم الوضوح استصحابا له من تلك الحالة الأولى ، ولما هم عليه من الذكاء المفضى بهم إليها ؛ يتردد ذلك فيهم دائما إلى أن تكمل هداية الأمة التى بعثوا لها ، كما فى قوله تعالى : « إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلاهكم إلاه واحد فاستقيموا إليه واستغفروه[(١)] » . فافهم ذلك وراجع ماقدمناه لك فى أول الكتاب فى أصناف المدركين للغيب ، يتضح لك شرحه وبيانه ، فقد بسطناه هنالك بسطا شافيا . والله الموفق .

فصل فى أن الإنسان جاهل بالذات عالم بالكسب

قد بينا أول هذه الفصول[(٢)] أن الإنسان من جنس الحيوانات وأن الله تعالى ميزه عنها بالفكر الذى جعل له ، يوقع به أفعاله على إنتظام ، وهو العقل التمييزى ، أو يقتنص به العلم بالآراء والمصالح والمفاسد من أبناء جنسه وهو العقل التجريبى ، أو يحصل به فى تصور الموجودات غائبا وشاهدا على ماهى عليه وهو العقل النظرى . وهذا الفكر إنما يحصل له بعد كمال الحيوانية فيه . ويبدأ من التمييز . فهو قبل التمييز خلو من العلم بالجملة ، معدود من الحيوانات ، لاحق بمبدئه فى التكوين من النطفة والعلقة والمضغة ، وما حصل له بعد ذلك فهو بما جعل الله له من مدارك الحس والأفئدة التى هى الفكر . قال تعالى فى الامتنان علينا : « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة[(٣)] » فهو فى الحالة الأولى قبل التمييز هيولى فقط لجهله بجميع المعارف ، ثم تستكمل صورته بالعلم الذى

---

(١) آية ٦ من سورة فصلت « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلاهكم إلاه واحد ، فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين » .

(٢) فى الفصل الأول من هذا الباب .

(٣) من الآية ٢٣ من سورة تبارك .

يكتسبه بآلاته ، فتكمل ذاته الإنسانية فى وجودها .

وانظر إلى قوله تعالى مبدأ الوحى على تبيه : « إقرأ باسم ربك الذى خلق ؛ خلق الإنسان من علق ؛ إقرأ وربك الأكرم ؛ الذى علم بالقلم ؛ علم الإنسان مالم يعلم » ، أى أكسبه من العلم مالم يكن حاصلاً له بعد أن كان علقه ومضغة فقد كشفت لنا طبيعته وذاته ماهو عليه من الجهل الذاتى والعلم الكسبى ، وأشارت إليه الآية الكريمة تقرر فيه الامتنان عليه بأول مراتب وجوده وهى الإنسانية وحالتاها الفطرية والكسبية فى أول التنزيل ومبدإ الوحى . وكان الله عليما حكيما .

٧ ـ فصل فى أن العلم والتعليم طبيعى فى العمران البشرى

وذلك أن الإنسان قد شاركته جميع الحيوانات فى حيوانيته من الحس والحركة والغذاء والكن وغير ذلك ، وإنما تميز عنها بالفكر الذى يهتدى به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسه والاجتماع المهيء لذلك التعاون ، وقبول ماجاءت به الأنبياء عن الله تعالى . والعمل به واتباع صلاح أخراه فهو مفكر فى ذلك كله دائماً لا يفتر عن الفكر فيه طرفة عين ؛ بل اختلاج الفكر أسرع من لمح البصر . وعن هذا الفكر تنشأ العلوم وما قدمناه من الصنائع (٢) ، ثم لأجل هذا الفكر وما جبل عليه الإنسان بل الحيوان من تحصيل ما تستدعيه الطبائع فيكون الفكر راغباً فى تحصيل ماليس عنده من الإدراكات ؛ فيرجع إلى من سبقه بعلم أو زاد عليه بمعرفة أو أدراك أو أخذه ممن تقدمه من الأنبياء الذين يبلغونه لمن تلقاه ، فيلقن ذلك عنهم ويحرص على أخذه وعلمه . ثم إن فكره ونظره يتوجه إلى واحد واحد من الحقائق وينظر مايعرض له لذاته واحداً بعد آخر ، ويتمرن على ذلك حتى يصير إلحاق العوارض بتلك الحقيقة مَلَكَةً له فيكون حينئذ علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علماً مخصوصاً ، وتتشوف نفوس أهل الجيل الناشىء إلى تحصيل ذلك ، فيفزعون إلى أهل معرفته ويجىء التعليم من هذا . فقد تبين بذلك أن العلم والتعليم طبيعى فى البشر .

٨ ـ فى أن التعليم للعلم من جملة الصنائع

وذلك أن الحذق فى العلم والتفنين فيه والإستيلا عليه إنما هو بحصول مَلَكَةٍ فى الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله . وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق فى ذلك المتناول حاصلا . وهذه الملكة هى غير الفهم والوعى ؛ لأنا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعيها مشتركا بين من شدا فى ذلك الفن وبين من هو مبتدىء فيه ، وبين العامى الذى لم يحصل علماً وبين العالم النحرير . والملكة إنما هى للعالم أو الشادى فى الفنون دون من سواهما فدل على هذه الملكة غير الفهم والوعى . والملكات كلها جسمانية سواء كانت فى البدن أو فى الدماغ من الفكر وغيره كالحساب . والجسمانيات كلها محسوسه ؛ فتفتقر إلى التعليم . ولهذا كان السند

---

(١) صوابه « طبيعيات » .

(٢) التى تكلم عليها فى الباب الخامس (الفصل السادس عشر وتواليه إلى آخر الباب) .

فى التعلم فى كل علم أو صناعة إلى مشاهير المعلمين فيها معتبراً عند كل أهل أفق وجيل .

ويدل أيضاً على أن تعليم العلم صناعة اختلاف الاصطلاحات فيه . فلكل إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح فى التعليم يختص به ، شأن الصنائع كلها . فدل على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم وإلا لكان واحداً عند جميعهم . ألا ترى إلى علم الكلام كيف تخالف فى تعليمه اصطلاح المتقدمين والمتأخرين ، وكذا أصول الفقه ، وكذا العربية ، وكذا كل علم يتوجه إلى مطالعته تجد الاصطلاحات فى تعليمه متخالفة . فدل على أنها صناعات فى التعليم ، والعلم واحد فى نفسه . وإذا تقرر ذلك فاعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد أن ينقطع عن أهل المغرب باختلال عمرانه وتناقص الدول فيه ، وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها كما مر . وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتى المغرب والأندلس .واستبحر عمرانهما وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة وبحور زاخرة ، ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما وما كان فيهما من الحضارة . فلماخربتا انقطع التعليم من المغرب إلا قليلاً كان فى دولة الموحدين بمراكش مستفاداً منها ؛ ولم ترسخ الحضارة بمراكش لبداوة الدولة الموَحِّدية فى أولها وقرب عهد انقراضها بمبدئها ، فلم تتصل أحوال الحضارة فيها إلاَّ فى الأقل . وبعد انقراض الدولة بمراكش ارتحل إلى المشرق من إفريقية القاضى أبو القاسم بن زيتون لعهد أواسط المائة السابعة ، فأدرك تلميذ[1] الإمام ابن الخطيب فأخذ عنهم ولقن تعليمهم وحذق فى العقليات والنقليات ، ورجع إلى تونس بعلم كثير وتعليم حسن . وجاء على أثره من المشرق أبو عبد الله بن شعيب الدكالى كان ارتحل إليه من المغرب فأخذ عن مشيخة مصر ورجع إلى تونس واستقرّ بها ، وكان تعليمه مفيداً . فأخذ عنهما أهل تونس واتصل سند تعليمهما فى تلاميذهما جيلاً بعد جيل ، حتى انتهى إلى القاضى محمد بن عبد السلام شارح ابن الحاجب وتلميذه ، وانتقل من تونس إلى تِلمسّان فى ابن الإمام وتلميذه ، فإنه قرأ مع ابن عبد السلام على مشيخة واحدة وفى مجالس بأعيانها . وتلميذه ابن عبد السلام بتونس وابن الإمام بتلمسان لهذا العهد . إلا أنهم من القلة بحيث يُخشى انقطاعُ سندهم ، ثم ارتحل من زَوَاوَةَ[2] فى آخر المائة السابعة أبو على ناصر الدين المشدالى وأدرك تلميذ أبى عمرو ابن الحاجب ، وأخذ عنهم ولقن تعليمهم وقرأ مع شهاب الدين القرافى[3] فى مجالس واحدة ، وحذق فى العقليات والنقليات ورجع إلى المغرب بعلم كثير وتعليم مفيد ، ونزل ببجاية واتصل سندُ تعليمه فى طلبتها . وربما انتقل إلى تِلمسّان عمرانُ

---

(١) يطلق التلميذ على المفرد والجمع ، والمراد هنا الجمع .

(٢) قبيلة من قبائل المغرب .

(٣) نسبة إلى قرافة وهى بطن من معافر نزل بعضها بمصر بجوار الفسطاط فسميت الخطة التى اختطت لهم ونزلوا فيها « القرافة » باسم بطنهم . وفى هذه الخطة مقبرة عامة بها قبر الشافعى رضى الله عنه . ومن ثَمَّ يطلق الآن فى عامية القاهرة اسم القرافة على كل جبانة .

المشدالى [١] من تلميذه وأوطنها وبث طريقته فيها ؛ وتلميذه لهذا العهد ببجاية وتِلمِسان قليل أو أقل من القليل . وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب خلواً من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان ، ولم يتصل سند التعليم فيهم فعسر عليهم حصول الملكة والحذق فى العلوم . وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة فى المسائل العلمية ؛ فهو الذى يقرب شأنها ويحصل مرامها . فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم فى ملازمة المجالس العلمية سكوتاً ولا يفاوضون . وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من التصرف فى العلم والتعليم ؛ ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل تجد ملكته قاصرة فى علمه إن فاوض أو ناظر أو علّم ، وما أتاهم القصور إلا من قِبَل التعليم وانقطاع سنده ، وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به ، وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية ، وليس كذلك . ومما يشهد بذلك فى المغرب أن المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة ؛ وهى بتونس خمس سنين ، وهذه المدة بالمدارس على المتعارف هو أقل ما يأتى فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية أو اليأس من تحصيلها ، فطال أمدها فى المغرب لهذه المدة لأجل عسرها من قلة الجودة فى التعليم خاصة ، لا مما سوى ذلك .

وأما أهل الأندلس فذهب رسم التعليم من بينهم وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئين من السنين . ولم يبق من رسم العلم فيهم إلا فن العربية والأدب اقتصروا عليه وانحفظ سند تعليمه بينهم ، فانحفظ بحفظه . وأما الفقه بينهم فرسم خلو وأثر بعد عين . وأما العقليات فلا أثر ولا عين . وما ذاك إلا لانقطاع سند التعليم فيها بتناقص العمران وتغلب العدو على عامتها إلا قليلا بسيف البحر ، وشغلهم بمعايشهم أكثر من شغلهم بما بعدها . «والله غالبٌ على أمره [١]» .

وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه بل أسواقه نافقة وبحوره زاخرة لاتصال العمران الموفور واتصال السند فيه . وإن كانت الأمصار العظيمة التى كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد والبصرة والكوفة ، إلا أن الله تعالى قد أدال منها بأمصار أعظم من تلك وانتقل العلم منها إلى عراق العجم بخراسان وماوراء النهر [٢] من المشرق ثم إلى القاهرة وما إليها من المغرب . فلم تزل موفورة وعمرانها متصلا وسند التعليم بها قائماً . فأهل المشرق على الجملة أرسخ فى صناعة تعليم العلم بل وفى سائر الصنائع ، حتى إنه ليظن كثير من رحّالة أهل المغرب إلى المشرق فى طلب العلم أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب ، وأنهم أشد نباهة وأعظم كَيْساً بفطرتهم الأولى ،

(١) هكذا فى جميع النسخ المتداولة . وفى النسخة « التيمورية » « المشذالى » بالذال المعجمة .

(١) جملة من آية ٢١ من سورة يوسف وهى سورة ١٢ .

(٢) يقصد به ما وراء نهر جيحون شرقاً .

وأن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتهم من نفوس أهل المغرب ، ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم فى حقيقة الإنسانية ويتشيعون لذلك ، ويولعون به ، لما يرون من كيسهم فى العلوم والصنائع ، وليس كذلك . وليس بين قطر المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار الذى هو تفاوت الحقيقة الواحدة . اللهم إلا الأقاليم المنحرفة مثل الأول والسابع فإن الأمزجة فيها منحرفة والنفوس على نسبتها كما مر . وإنما الذى فضل به أهل المشرق أهل المغرب هو ما يحصل فى النفوس آثار الحضارة من العقل المزيد كما تقدم فى الصنائع ، ونزيده الآن تحقيقا . وذلك أن الحضر لهم آداب فى أحوالهم فى المعاش والمسكن والبناء وأمور الدين والدنيا ، وكذا سائر أعمالهم وعاداتهم ومعاملاتهم ، وجميع تصرفاتهم ، فلهم فى ذلك كله آداب يوقف عندها فى جميع ما يتناولونه ويتلبسون به من أخذ وترك ، حتى كأنها حدود لاتتعدى . وهى مع ذلك صنائع يتلقاها الآخر عن الأول منهم . ولاشك أن كل صناعة مرتبة يرجع منها إلى النفس أثر يكسبها عقلا جديدًا تستعد به لقبول صناعة أخرى ، ويتهيأ بها العقل لسرعة الإدراك للمعارف. ولقد بلغنا فى تعليم الصنائع عن أهل مصر غايات لاتدرك مثل أنهم يعلمون الحُمُرَ الإنسية والحيوانات العجم من الماشى والطائر مفردات من الكلام والأفعال يستغرب ندورها ، ويعجز أهل المغرب عن فهمها . وحسن الملكات فى التعليم والصنائع وسائر الأحوال العادية يزيد الإنسان ذكاء فى عقله وإضاءة فى فكره بكثرة الملكات الحاصلة للنفس ، إذ قدمنا أن النفس إنما تنشأ بالإدراكات وما يرجع إليها من الملكات ، فيزدادون بذلك كَيْسًا لما يرجع إلى النفس من الآثار العلمية ، فيظنه العامى تفاوتًا فى الحقيقة الإنسانية وليس كذلك . ألا ترى إلى أهل الحضر مع أهل البدو كيف تجد الحضرى متحليا بالذكاء ممتلئًا من الكيس ، حتى إن البدوى ليظنه أنه قد فاقه فى حقيقة إنسانيته وعقله وليس كذلك . وماذاك إلا لإجادته فى ملكات الصنائع والآداب فى العوائد والأحوال الحضرية مالا يعرفه البدوى . فلما امتلأ الحضرى من الصنائع وملكاتها وحسن تعليمها ، ظن كل من قصر عن تلك الملكات أنها لكمال فى عقله ، وأن نفوس أهل البدو وقاصرة بفطرتها وجبلّتها عن فطرته ، وليس كذلك . فإنا نجد من أهل البدو من هو فى أعلى رتبة من الفهم والكمال فى عقله وفطرته . إنما الذى ظهر على أهل الحضر من ذلك هو رونق الصنائع والتعليم ، فإن لها آثارًا ترجع إلى النفس كما قدمناه . وكذا أهل المشرق لمَّا كانوا فى التعليم والصنائع أرسخ رتبة وأعلى قدمًا ، وكان أهل المغرب أقرب إلى البداوة لما قدمناه فى الفصل قبل هذا ، ظن المغفلون فى بادىء الرأى أنه لكمال فى حقيقة الإنسانية اختصوا به عن أهل المغرب ، وليس ذلك بصحيح فتفهمه . والله « يَزِيدُ فى الخَلْقِ ما يشاءُ [1] » ، وهو إله السماوات والأرض .

(١) جملة من أول آية من سورة فاطر : « الحمد لله فاطر السماوات والأرض ، جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، يزيد فى الخلق ما يشاء ، إن الله على كل شىء قدير » .

١٩ ـ فصل أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة

والسبب فى ذلك أن تعليم العلم كما قدمناه من جملة الصنائع ، وقد كنا قدمنا أن الصنائع إنما تكثر فى الأمصار ، وعلى نسبة عمرانها فى الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع فى الجودة والكثرة لأنه أمر زائد على المعاش [١] . فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت إلى ماوراء المعاش من التصرف فى خاصية الإنسان وهى العلوم والصنائع . ومن تشوف بفطرته إلى العلم ممن نشأ فى القرى والأمصار غير المتمدنة فلا يجد فيها التعليم الذى هو صناعى لفقدان الصنائع فى أهل البدو كما قدمناه . ولا بد له من الرحلة فى طلبه إلى الأمصار المستبحرة شأن الصنائع كلها .

واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة ، لما كثر عمرانها صدر الإسلام واستوت فيها الحضارة ، كيف زخرت فيها بحار العلم ، وتفننوا فى إصطلاحات التعليم وأصناف العلوم ، وإستنباط المسائل والفنون ، حتى أربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين . ولما تناقص عمرانها وابذعر سكانها إنطوى ذلك البساط بما عليه جملة ، وفقد العلم بها والتعليم ، وانتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام . ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين ، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت ، ومن جملتها تعليم العلم . وأكد ذلك فيها وحفظه ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين فى دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب وهلم جرا . وذلك أن أمراء الترك فى دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم لما له عليهم من الرق أو الولاء ، ولمايخشى من معاطب الملك ونكباته ، فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط [١] ، ووقفوا عليها الأوقاف المغلة يجعلون فيها شركا لولدهم ينظر عليها أو يصيب منها ، مع ما فيهم غالبا من الجنوح إلى الخير والتماس الأجور فى المقاصد والأفعال . فكثرت الأوقاف لذلك وعظمت الغلات والفوائد وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرايتهم منها . وإرتحل إليها الناس فى طلب العلم من العراق والمغرب ، ونفقت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها . والله يخلق ما يشاء .

٢٠ ـ فصل فى أصناف العلوم الواقعة فى العمران لهذا العهد

اعلم أن العلوم التى يخوض فيها البشر ويتداولونها فى الأمصار تحصيلا وتعليما هى على صنفين : صنف طبيعى للإنسان يهتدى إليه بفكره ، وصنف نقلى يأخذه عمن وضعه . والأول هى العلوم الحكمية الفلسفية ، وهى التى يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره ، ويهتدى بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وإنحاء براهينها ووجوه تعليمها ، حتى يقفه نظره وبحثه على الصواب من

(١) انظر الفصل السابع عشر من الباب الخامس .

(١) « الرباط الذى يبنى للفقراء ، ويجمع فى القياس على ربط بضمتين ورباطات » (المصباح) .

الخطأ فيها ، من حيث هو إنسان ذو فكر .والثانى هى العلوم النقلية الوضعية وهى كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعى ، ولا مجال فيها للعقل إلا فى إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول ؛ لأن الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلى بمجرد وضعه ، فتحتاج إلى الإلحاق بوجه قياسى ؛ إلا أن هذا القياس يتفرع عن الخبر بثبوت الحكم فى الأصل ، وهو نقلىٌّ ، فرجع هذا القياس إلى النقل لتفرعه عنه .

وأصل هذه العلوم النقلية كلها هى الشرعيات من الكتاب والسنة التى هى مشروعة لنا من الله ورسوله ، وما يتعلق بذلك من العلوم التى تهيئها للافادة . ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربى الذى هو لسان الملّة وبه نزل القرآن. وأصناف هذه العلوم النقلية كثيرة. لأن المكلف يجب عليه أن يعرف أحكام الله تعالى المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه ، وهى مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص أو بالاجماع أو بالالحاق(١) فلا بد من النظر فى الكتاب ببيان ألفاظه أولا ، وهذا هو علم التفسير . ثم بإسناد نقله وروايته إلى النبى صلى الله عليه وسلم الذى جاء به من عند الله ، واختلاف روايات القراء فى قراءته ، وهذا هو علم القراءات . ثم بإسناد السنة إلى صاحبها ، والكلام فى الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق بأخبارهم بعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك ، وهذه هى علوم الحديث . ثم لا بد فى استنباط هذه الأحكام من أصولها من وجه قانونى يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط ، وهذا هو أصول الفقه . وبعد هذا تحصل الثمرة بمعرفة أحكام الله تعالى فى أفعال المكلفين ، وهذا هو الفقه . ثم إن التكاليف منها بدنى ومنها قلبى وهو المختص بالإيمان وما يجب أن يعتقد مما لا يعتقد ، وهذه هى العقائد الإيمانية فى الذات والصفات وأمور الحشر والنعيم والعذاب والقَدَر ، والحِجَاجُ عن هذه بالأدلة العقلية هو علم الكلام . ثم النظر فى القرآن والحديث لابد أن تتقدمه العلوم اللسانية لأنه متوقف عليها ، وهى أصناف ، فمنها علم اللغة وعلم النحو وعلم الأدب حسبما نتكلم عليها كلها .

وهذه العلوم النقلية كلها بالملة الإسلامية وأهلها وإن كانت كل ملة على الجملة لابد فيها من مثل ذلك . فهى مشاركة لها فى الجنس البعيد من حيث أنها علوم الشريعة المنزلة من عند الله تعالى على صاحب الشريعة المبلغ لها . وأما على الخصوص فمباينة لجميع الملل لأنها ناسخة لها ، وكل ماقبلها من علوم الملل فمهجورة والنظر فيها محظورة ؛ فقدنهى الشرع عن النظر فى الكتب المنزلة غير القرآن . قال صلى الله عليه وسلم : «لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلاهنا وإلاهكم واحد» ورأى النبى صلى الله عليه وسلم فى يد عمر رضى الله عنه ورقة من التوراة فغضب حتى تبين الغضب فى وجهه ثم قال : «ألم آتِكم بهَا بَيْضَاء نَقِيَّةً ؟ والله لوْ كَانَ مُوسَى حيًا مَاوَسِعَه إلَّا اتِّباعى (١) » .

(١) يقصد به القياس

(١) انظر فى بيان السبب فيما دخل أسفار اليهود والنصارى من تحريف . كتاب الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام للدكتور على عبد الواحد وافى .

ثم إن هذه العلوم الشرعية النقلية قد نَفَقَت أسواقها فى هذه الملة بما لامزيد عليه ، وانتهت فيها مدارك الناظرين إلى الغاية التى لافوقها ، وهذبت الاصطلاحات ورتبت الفنون ، فجاءت من وراء الغاية فى الحسن والتنميق . وكان لكل فن رجال يرجع إليهم فيه وأوضاع يستفاد منها التعليم . واختص المشرق من ذلك والمغرب بما هو مشهور منها حسبما نذكره الآن عند تعديد هذه الفنون . وقد كسدت لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه وانقطاع سند العلم والتعليم كما قدمناه فى الفصل قبله . وما أدرى مافعل الله بالمشرق ؛ والظن به نَفَاق العلم فيه واتصال التعليم فى العلوم وفى سائر الصنائع الضرورية والكمالية ، لكثرة عمرانه والحضارة ووجود الإعانة لطالب العلم بالجراية من الأوقاف التى اتسعت بها أرزاقهم . والله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد ، وبيده التوفيق والإعانة .

١١ ــ علوم القرآن من التفسير والقراءات

القرآن هو كلام الله المنزل على نبيه المكتوب بين دفتى المصحف . وهو متواتر بين الأمة . إلا أن الصحابة رووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة فى بعض ألفاظه وكيفيات الحروف فى أدائها وتنوقل ذلك واشتهر إلى أن استقرت منها سبع طرق معينة تواتر نقلها أيضا بأدائها واختصت بالانتساب إلىمن اشتهر بروايتها من الجحم الغفير . فصارت هذه القراءات السبع أصولا للقراءة . وربما زيد بعد ذلك قراءآت أُخَرُ لحقت بالسبع ؛ إلا أنها عند أئمة القراءة لاتقوى قوتها فى النقل . وهذه القراءات السبع معروفة فى كتبها . وقد خالف بعض الناس فى تواتر طرقها لأنها عندهم كيفيات للأداء وهو غير منضبط. ، وليس ذلك عندهم بقادح فى تواتر القرآن ، وأباه الأكثر ، وقالوا بتواترها . وقال آخرون بتواتر غير الأداء منها كالمد والتسهيل لعدم الوقوف على كيفيته بالسمع ؛ وهو الصحيح .

ولم يزل القراء يتداولون هذه القراءات وروايتها ، إلى أن كتبت العلوم ودونت فكتبت فيما كتب من العلوم ، وصارت صناعه مخصوصة وعلمًا مفردًا وتناقله الناس بالمشرق والأندلس فى جيل بعد جيل . إلى أن ملك بشرق الأندلس «مجاهد» من موالى العامريين وكان معتنيا بهذا الفن من بين فنون القرآن لما أخذه به مولاه المنصور بن أبى عامر ، واجتهد فى تعليمه وعرضه على من كان من أئمة القراء بحضرته ، فكان سهمه فى ذلك وافرا . واختص مجاهد بعد ذلك بإمارة دانية والجزائر الشرقية فَنَفَقَت بها سوق القراءة لما كان هو من أئمتها ، وبما كان له من العناية بسائر العلوم عمومًا وبالقراءات خصوصًا . فظهر لعهده أبو عمرو الدانى وبلغ الغاية فيها ، ووقفت عليه معرفتها ، وانتهت إلى روايته أسانيدها ، وتعددت تآليفه فيها وعوَّل الناس عليها ، وعدلوا عن غيرها ، واعتمدوا من بينها كتاب التيسير له . ثم ظهر بعد ذلك فيما يليه من العصور والأجيال أبو القاسم ابن

فيرة من أهل شاطبة ، فعمد إلى تهذيب مادونه أبو عمرو وتلخيصه ، فنظم ذلك كله فى قصيدة لغز [١] فيها أسماء القراء بحروف (أ ب ج د) ترتيبا أحكمه ليتيسر عليه ما قصده من الاختصار وليكون أسهل للحفظ. لأجل نظمها ، فاستوعب فيها الفن استيعابًا حسنًا ، وعنى الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين ، وجرى العمل على ذلك فى أمصار المغرب والأندلس .

وربما أضيف إلى فن القراءات فن الرسم أيضًا ، وهى أوضاع حروف القرآن فى المصحف ورسومه الخطيه ، لأن فيه حروفًا كثيرة وقع رسمها على غير المعروف من قياس الخط. كزيادة الياء فى بأييد وزيادة الألف فى لاأذبحنه ولا أوضعوا[٢] ، والواو فى جزاؤ الظالمين ، وحذف الألفات فى مواضع دون أخرى ، وما رسم فيه من التاءات ممدودًا والأصل فيه مربوط. على شكل الهاء ، وغير ذلك . وقد مر تعليل هذا الرسم المصحفى عند الكلام فى الخط . فلما جاءت هذه المخالفة لأوضاع الخط [٣] وقانونه احتيج إلى حصرها فكتب الناس فيها أيضًا عند كتبهم فى العلوم ، وانتهت بالمغرب إلى أبى عمرو الدانى المذكور ، فكتب فيها كتبا من أشهرها كتاب المقنع وأخذ به

(١) اشتهر هذا المتن المنظوم باسم الشاطبية نسبة إلى مؤلفها أبى القاسم الشاطبى (من أهل شاطبة) . وهو من أشهر متون القراءات.

(٢) فى قوله تعالى « ولأوضعوا خلالكم » ، وهى فقرة من آية ٤٧ من سورة براءة أو التوبة . ويلاحظ أن كلمة « ولأوضعوا » مرسومة بدون ألف زائدة فى المصحف المعتمد فى مصر ، وهو مرسوم وفق المصحف العثمانى .

(٣) تقدم ذلك فى الفصل الثلاثين من الباب الخامس .

الناس وعولوا عليه ، ونظمه أبو القاسم الشاطبى فى قصيدته المشهورة على روى الراء ، وولع الناس بحفظها . ثم كثر الخلاف فى الرسم فى كلمات من موالى مجاهد فى كتبه ، وهو من تلاميذ أبى عمرو الدانى والمشتهر بحمل علومه ورواية كتبه . ثم نقل بعده خلاف آخر فنظم الخراز من المتأخرين بالمغرب أرجوزة أخرى زاد فيها على المقنع خلافًا كثيرًا وعزاه لناقليه ، واشتهرت بالمغرب واقتصر الناس على حفظها وهجروا بها كتب أبى داود وأبى عمرو والشاطبى فى الرسم .

(وأما التفسير) فاعلم أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه .

وكان ينزل جُمَلًا جُمَلًا ، وآيات آيات ، لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب الواقع . ومنها ماهو فى العقائد الإيمانية . ومنها ماهو فى أحكام الجوارح ، ومنها مايتقدم ومنها مايتأخر ويكون ناسخًا له .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يبين المجمل ويميز الناسخ من المنسوخ ويعرفه أصحابه فعرفوه ، وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولا عنه ، كما علم من قوله تعالى « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ[١] » ، أنها نَعْىُ النبى صلى الله عليه وسلم ، وأمثال ذلك . ونقل ذلك عن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وتداول ذلك التابعون من بعدهم ، ونقل ذلك عنهم ، ولم يزل

(١) الآية الأولى من سورة الفتح .

ذلك متناقلا بين الصدر الأول والسلف حتى صارت المعارف علوماً ، ودونت الكتب ، فكتب الكثير من ذلك ، ونقلت الآثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين ، وانتهى ذلك إلى الطبرى والواقدى والثعالبى وأمثال ذلك من المفسرين ، فكتبوا فيه ماشاء الله أن يكتبوه من الآثار .

ثم صارت علوم اللسان صناعية من الكلام فى موضوعات اللغة وأحكام الإعراب والبلاغة فى التراكيب ، فوضعت الدواوين فى ذلك بعد أن كانت ملكات للعرب لايرجع فيها إلى نقل ولا كتاب ، فتنوسى ذلك وصارت تتلقى من كتب أهل اللسان ، فاحتيج إلى ذلك فى تفسير القرآن لأنه بلسان العرب وعلى مناهج بلاغتهم . وصار التفسير على صنفين :

تفسير نقلى مسندٌ إلى الآثار المنقـولة عن السلف ، وهى معرفة الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ومقاصد الآى . وكل ذلك لايعرف إلا بالنقل عن الصحابة والتابعين .

وقد جمع المتقدمون فى ذلك وأوعوا : إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين والمقبول والمردود .

والسبب فى ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم ، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية ، وإذا تشوقوا إلى معرفة شىء مما تشوق إليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات وبدأ الخلقية وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم ، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى . وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم . ولا يعرفون من ذلك إلا ماتعرفه العامة من أهل الكتاب ، ومعظمهم من حِمْيَرَ الذين أخذوا بدين اليهودية ، فلما أسلموا بقوا على ماكان عندهم مما لاتعلق له بالأحكام الشرعية التى يحتاطون لها ، مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع إلى الحِدْثان والملاحم وأمثال ذلك .

وهؤلاء مثل كَعْب الأحبار ووَهْب بن مُنَبِّه وعبد الله بن سَلام وأمثالهم . فامتلأت التفاسير من المنقولات عندهم فى أمثال هذه الأغراض أخبارًا موقوفة عليهم ، وليست مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى فيها الصحة التى يجب بها العمل. وتساهل المفسرون فى مثل ذلك ، وملئوا كتب التفسير بهذه المنقولات . وأصلها كما قلنا عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية ، ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك . إلا أنهم بَعُدَ صيتهم وعَظُمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات فى الدين والملة ، فتُلُقِّيت بالقبول من يومئذ

فلما رجع الناس إلى التحقيق والتمحيص ، وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب ، فلخص تلك التفاسير كلها وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها ، ووضع ذلك فى كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنحى . وتبعه القرطبى فى تلك الطريقة على منهاج واحد فى كتاب آخر مشهور بالمشرق .

والصنف الآخر من التفسير هو ما يرجع إلى

اللسان من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة فى تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب . وهذا الصنف من التفسير قل أن ينفرد عن الأول ، إذ الأول هو المقصود بالذات ، وإنما جاء هذا بعد أن صار اللسان وعلومه صناعة . نعم قد يكون فى بعض التفاسير غالبًا .

ومن أحسن ما اشتمل على هذا الفن من التفاسير كتابُ الكشّاف للزمخشرى من أهل خوارزم العراق. إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال فى العقائد ، فيأتى بالحِجاجِ على مذاهبهم الفاسدة ، حيث تعرض له فى آى القرآن من طرق البلاغة . فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه ، وتحذير للجمهور من مكامنه ، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة . وإذا كان الناظر فيه واقفًا مع ذلك على المذاهب السنية محسنًا للحجاج عنها فلا جرم أنه مأمون من غوائله . فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه فى اللسان .

ولقد وصل إلينا فى هذه العصور تآليف لبعض العراقيين وهو شرف الدين الطيبى من أهل توريز من عراق العجم ، شرح فيه كتاب الزمخشرى هذا وتتبع ألفاظه وتعرض لمذاهبه فى الاعتزال بأدلة تزيفها ، وتبيين أن البلاغة إنما تقع فى الآية على ما يراه أهل السنة لا على ما يراه المعتزلة . فأحسن فى ذلك ما شاء مع إمتاعه فى سائر فنون البلاغة . و « فوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيم [١] » .

(١) آخر آية ٧٦ من سورة يوسف .

١٢ ــ علوم الحديث

وأما علوم الحديث فهى كثيرة ومتنوعة ؛ لأن منها ما ينظر فى ناسخه ومنسوخه ؛ وذلك بما ثبت فى شريعتنا من جواز النسخ ووقوعه لطفًا من الله بعباده وتخفيفًا عنهم ، باعتبار مصالحهم التى تكفل لهم بها . قال تعالى : « مانَنْسَخْ مِنْ آيَة أوْنُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ منْها أو مِثْلها [١] » . (ومعرفة الناسخ والمنسوخ وإن كان عاما للقرآن والحَديث ، إلا أن الذى فى القرآن منه اندرج فى تفاسيره ، وبقى ما كان خاصا بالحديث راجعًا إلى علومه) . فإذا تعارض الخبران بالنفى والإثبات وتعذر الجمع بينهما ببعض التأويل وعلم تقدم أحدهما تعين أن المتأخر ناسخ .

ومعرفة الناسخ والمنسوخ من أهم علوم الحديث وأصعبها . قال الزهرى : أعيَى الفُقَهَاء وأعجزهم أن يعرفوا ناسخ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من منسوخه . وكان للشافعى رضى الله عنه فيه قدم راسخة .

ومن علوم الأحاديث النظر فى الأسانيد ومعرفة ما يجب العمل به من الأحاديث بوقوعه على السند الكامل الشروط ، لأن العمل إنما وجب بما يغلب على الظن صدقه من أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيَجْتَهِدُ فى الطريق التى تُحَصِّلُ ذلك الظن وهو بمعرفة رواة الحديث بالعدالة والضبط . وإنما يثبت ذلك بالنقل عن أعلام الدين بتعديلهم

(١) آية ١٠٦ من سورة البقرة .

وبراءتهم من الجرح والغفلة ، ويكون لنا ذلك دليلا على القبول أو التَّرْك (١) .

وكذلك مراتب هؤلاء النَّقَلة من الصحابة والتابعين وتفاوتهم فى ذلك وتميزهم فيه واحدا واحدًا .

وكذلك الأسانيد تتفاوت باتصالها وانقطاعها ، وبأن يكون الراوى لم يلق الراوى الذى نقل عنه ، وبسلامتها من العلل الموهنة لها ، وتنتهى بالتفاوت إلى طريقتين فيحكم بقبول الأعلى ورد الأسفل ، ويُختَلَفُ فى المتوسط بحسب المنقول عن أئمة الشأن .

ولهم فى ذلك ألفاظ اصطلحوا على وضعها لهذه المراتب المرتبة مثل الصحيح ، والحسن ، والضعيف والمراسل ، والمنقطع ، والمعضل ، والشاذ ، والغريب ، وغير ذلك من ألقابه المتداولة بينهم . وبوبوا على كل واحد منها ونقلوا ما فيه من الخلاف لأئمة الشأن أو الوفاق ، ثم النظر فى كيفية أخذ الرواة بعضهم عن بعض بقراءة أو كتابة أو مناولة أو إجازة ، وتفاوت رتبها ، وما للعلماء فى ذلك من الخلاف بالقبول والرد .

ثم اتبعوا ذلك بكلام فى ألفاظ تقع فى متون الحديث من غريب أو مشكل أو تصحيف أومفترق منها أو مختلف ، وما يناسب ذلك . هذا معظم

---

(١) العدالة هى صفة العدل وهو المسلم البالغ العاقل المتنزه عن ارتكاب كبيرة وعن الإصرار على صغيرة وعما يخل بالمروءة . والضبط قسمان : ضبط صدر وهو أن يثبت فى ذهن الراوى ما سمعه بحيث يستحضره متى شاء ، وضبط كتابة بأن يدونه الراوى حين سماعه ويصونه عنده حتى يؤديه . ويقابل العدالة الجرح ، ويقابل الضبط الغفلة

ما ينظر فيه أهل الحديث وغالبه (١) . وكانت أحوال نَقَلة الحديث فى عصور السلف من الصحابة والتابعين معروفة (كل) عند أهل بلده . فمنهم بالحجاز ومنهم بالبصرة والكوفة من العراق ، ومنهم بالشام ومصر . والجميع معروفون مشهورون فى أعصارهم . وكانت طريقة أهل الحجاز فى أعصارهم فى الأسانيد أعلى ممن سواهم وأمتن فى الصحة ، لاستبدادهم فى شروط النقل من العدالة ، وتجافيهم عن قبول المجهول الحال فى ذلك .

وسيد الطريقة الحجازية بعد السلف الإمام مالك عالم المدينة رضى الله تعالى عنه ، ثم أصحابه مثل الإمام (أبى عبد الله) محمد بن إدريس الشافعى رضى الله عنه وابن وهب وابن بكير والقعنبى ومحمد بن الحسن ومن بعدهم الإمام أحمد بن حنبل (فى آخرين من أمثالهم) .

وكان علم الشريعة فى مبدإ هذا الأمر نقلا صرفًا (لا نظرًا ولا رأْيًا ولا تعمقًا فى القياس) ؛ شمر لها السلف وتحروا الصحيح حتى أكملوها . وكتب مالك رحمه الله كتاب الموطأ (على طريقة الحجازيين) أودعه أصول الأحكام من الصحيح المتفق عليه ، ورتبه على أبواب الفقه .

ثم عنى الحفاظ بمعرفة طرق الأحاديث وأسانيدها المختلفة (الحجازية والعراقية وغيرهما) . وربما يقع إسناد الحديث من طرق متعددة عن رواة

---

(١) انظر فى بيان أقسام الحديث من حيث إسناده والإحتجاج به ثم من حيث أنواعه فى القبول والضعف وما يتصل بها . التعليق المستفيض بمنشورة د. وافى هامش ص ١١٣٤ وما بعدها وانظر كذلك مزيدا من التفاصيل فى مؤلفات مصطلح الحديث .

مختلفين ، (وقد يتَّحِدُ فى بعض الأَحاديث) . وقد يقع الحديث أَيضًا فى أبواب متعددة باختلاف المعانى التى اشتمل عليها .

وجاء محمد بن إسماعيل البخارى إمام المحدثين فى عصره ، (فوسع نطاق الرواية) ، وخرَّج أَحاديث السنة على أبوابها فى مسنده الصحيح ، وجمع طرق الحجازيين والعراقيين والشاميين . واعتمد منها ما أَجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه ، وكرر الأَحاديث يسوقها فى كل باب بمعنى ذلك الباب الذى تضمنه الحديث ، فتكررت لذلك أَحاديثه (فى الأَبواب باختلاف معانيها كما أشرنا إليه . فاشتمل كتابه على سبعة آلاف حديث ومائتين تكررت منها ثلاثة آلاف) [1] ، وفرق الطرق والأَسانيد عليها مختلفة فى كل باب .

ثم جاء مسلم بن الحجاج القشيرى رحمه الله فألَّف مسنده الصحيح ، حذا فيه حذو البخارى فى نقل المجمع على صحته ، وحذف المتكرر منها ، وجمع الطرق والأَسانيد ، وبوبه على أبواب الفقه وتراجمه . ومع ذلك فلم يستوعبا الصحيح كله ، وقد استدرك الناس عليهما فى ذلك (بما أغفلا على شروطهما) [2] .

ثم كتب أبو داود السجستانى وأبو عيسى الترمذى وأبو عبد الرحمن النسائى فى السنن بأَوسع من الصحيح ، وقصدوا ما توفرت فيه شروط العمل ، إما من الرتبة العالية فى الإسناد وهو الصحيح كما هو معروف ، وإما من الذى دونه كالحسن وغيره ليكون ذلك إمامًا للسنة والعمل بها . وهذه هى المسانيد المعتمدة فى الملة ، وهى أمهات كتب الحديث فى السنة . فإنها وإن تعددت ترجع إلى هذه فى الأَغلب .

ومعرفة هذه الشروط والاصطلاحات كلها هى علم الحديث . وربما يفرد عنها النَّاسخ والمنسوخ فيجعل فنًا برأْسه ، وكذا الغَرِيب ، وللناس فيه تآليف مشهورة ، ثم المؤتلف والمختلف .

وقد أَلف الناس فى علوم الحديث وأَكثروا . ومن فحول علمائه وأَئمتهم أَبو عبد الله الحاكم وتآليفه فيه مشهورة ، وهو الذى هذبه وأَظهر محاسنه . وأَشهر كتاب للمتأخرين فيه كتاب أبى عمرو بن الصَّلاح ، كان لعهد أوائل المائة السابعة . وتلاه مُحْيِى الدِّين النَّوَوى بمثل ذلك . والفن شريف فى مغزاه لأَنه معرفة ما يحفظ به السنن المنقولة عن صاحب الشريعة [1] .

---

(١) هكذا فى النسخة « التيمورية » . وفى النسخ المتداولة : « فتكررت لذلك أحاديثه حتى يقال إنه اشتمل على تسعة آلاف حديث ومائتين منها ثلاثة آلاف مكررة » . وعلق على ذلك الهورينى بقوله : « قوله تسعة ، الذى فى النواوى عن مسلم أنها سبعة بتقديم السين فحرره » .

(٢) أى بالأحاديث التى أغفلاها مع أنها صحيحة على شرطيهما.

(١) انفردت بعض النسخ بزيادة الفقرة التالية بعد عبارة وهى أمهات كتب الحديث وقبل عبارة وقد انقطع لهذا العهد . ونص الفقرة المزيدة هو : « ولحق بهذه الخمسة مسانيد أخرى كمسند أبى داود الطيالسى والبزاز وعبد بن حميد والدارمى وأبو يعلى الموصلى والإمام أحمد ، قاصدين فيها المسندات عن الصحابة من غير أن يكون محتجاً بها ، هكذا قال ابن الصلاح . وفى الرواية عن الإمام أحمد أنه كان يقول لابنه عبد الله فى كتابه المسند — وهو يشتمل على أحد وثلاثين ألف حديث — وعن جماعة من أصحابه أنهم قالوا قرأ علينا المسند وقال : هذا الكتاب انتقيته من سبعمائة ألف وخمسين حديثا . فما اختلف فيه المسلمون من الأحاديث النبوية ولم يجدوه فيه فليس بحجة . فهذا يدل على أن جميع ما فى مسنده يصح الاحتجاج به ، عكس ما قال ابن الصلاح . نقلته من مناقب الإمام أحمد لابن الجوزى — وقد انقطع لهذا العهد ... الخ » .

وقد انقطع لهذا العهد تخريج شيء من الأحاديث واستدراكها على المتقدمين ؛ إذ العادة تشهد بأن هؤلاء الأئمة على تعددهم وتلاحق عصورهم وكفايتهم واجتهادهم لم يكونوا ليغفلوا شيئا من السنة أو يتركوه حتى يعثر عليه المتأخر ؛ هذا بعيد عنهم . وإنما تنصرف العناية لهذا العهد إلى تصحيح الأمهات المكتوبة وضبطها بالرواية عن مصنفيها والنظر فى أسانيدها إلى مؤلفيها وعَرْضِ ذلك على ما تقرر فى علم الحديث من الشروط. والأحكام لتتصل الأسانيد محكمة (من مبدئها) إلى منتهاها . ولم يزيدوا فى ذلك على العناية بأكثر من هذه الأمهات الخمسة إلا فى الأقل .

فأما صحيح البخارى وهو أعلاها رتبة فاستصعب الناس شرحه واستغلقوا منحاه من أجل ما يحتاج إليه من معرفة الطرق المتعددة ورجالها من أهل الحجاز والشام والعراق ، ومعرفة أحوالهم واختلاف الناس فيهم ، وكذلك يحتاج إلى إمعان النظر فى التفقه فى التراجم لأنه يترجم الترجمة ويورد فيها الحديث بسند أو طريق ، ثم يترجم أخرى ويورد فيها ذلك الحديث بعينه لما تضمنه من المعنى الذى ترجم به الباب ، وكذلك فى ترجمة وترجمة إلى أن يتكرر الحديث فى أبواب متفرقة بحسب معانيه واختلافها . (ومن النظر) فى تراجمه لبيان المناسبة بين الترجمة والأحاديث التى فى ضمنها ؛ فقد وقع له فى كثير من تراجمه خفاء المناسبة بينها وبين الأحاديث التى فى ضمنها ، وطال كلام الناس فى بيانها ؛ كما وقع فى كتاب الفتنة فى الباب الذى ترجم فيه بقوله : « باب تخريب البيت ذى السويقتين من الحبشة » ؛ ثم قال فى الباب : قال الله تعالى : « وإذ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا » [1] ؛ ولم يزد على ذلك شيئا . وخفى على الناس وجه المناسبة بين هذه الترجمة وما فى الباب .

فمنهم من قال كان المصنف رحمه الله يكتب التراجم فى المسودة ثم يكتب الأحاديث فى كل ترجمة بحسب ما تيسر له ، وتوفى قبل أن يستوفى حشو التراجم ، فروى الكُتّاب كذلك . وسمعت من أصحاب القاضى بن بكار قاضى غرناطة – واستشهد فى واقعة طريف سنة إحدى وأربعين وسبعمائة – وكان قائما على صحيح البخارى ، أنه أراد بالترجمة تفسير الآية بأن ذلك مشروع لا مقدر ؛ لأن الإشكال إنما جاء من تفسير «جعلنا» بـ « قَدَّرْنا » . وإذا كان بمعنى « شرعنا » لم يكن لبس فى تخريب ذى السويقتين إياها . سمعت ذلك من شيخنا أبى البركات البلغيقى عنه . وكان من أجلة تلاميذه . ومن شَرَحَه ولم يستوف هذا كله فيه فلم يوف حق الشرح كابن بطال وابن المهلب وابن التين ونحوهم .

ولقد سمعت كثيرا من شيوخنا رحمهم الله يقولون شرح كتاب البخارى دَيْنٌ على الأمة ، يعنون أن أحدا من علماء الأمة لم يوف ما يجب له من الشرح بهذا الاعتبار .

---

(١) آية ١٢٥ من سورة البقرة . ويعقب د . وافى عليه فى منشورته بأنه وجد ما أشار إليه ابن خلدون فى كتاب الحج لا فى باب الفتن كما ذكر .

وأما صحيح مسلم فكثرت عناية علماء المغرب به ، وأكبوا عليه ، وأجمعوا على تفضيله على كتاب البخارى . (قال ابن الصلاح إنما يفضل على كتاب البخارى بما وقع فيه من تجريده عما مزج به البخارى كتابه) من غير الصحيح مما لم يكن على شرطه . وأكثر ما وقع له ذلك فى التراجم.

وأملى الإمام المارزى من فقهاء المالكية عليه شرحا وسماه « المعلم بفوائد مسلم » اشتمل على عيون من علم الحديث وفنون من الفقه .

ثم أكمله القاضى عياض من بعده وتممه وسماه إكمال المعلم . وتلاهما محيى الدين النووى بشرح استوفى مافى الكتابين وزاد عليهما ، فجاء شرحًا وافيًا.

وأما كتب السنن الأخرى (الثلاثة) (١) وفيها معظم مآخذ (٢) الفقهاء فأكثر شرحها فى كتب الفقه إلا ما يختص بعلم الحديث . فكتب الناس عليها واستوفوا من ذلك ما يحتاج إليه من علوم الحديث وموضوعاتها والأسانيد التى اشتملت على الأحاديث المعمول بها من السنة .

واعلم أن الأحاديث قد تميزت مراتبها لهذا العهد بين صحيح ، وحسن ، وضعيف ومعلول وغيرها ميزها أئمة الحديث وجَهَابِذَتُه وعرفوها ولم يبق طريق فى تصحيح ما لم يصح من قبل .

ولقد كان الأئمة فى الحديث يعرفون الأحاديث بطرقها وأسانيدها بحيث لو روى حديث بغير سنده وطريقه يفطنون إلى أنه قد قُلب عن وضعه.

(١) يقصد سنن السجستانى والترمذى والنسائى .
(٢) يعنى الأدلة والأصول التى أخذ منها الفقهاء أحكام الشريعة.

ولقد وقع مثل ذلك للإمام محمد بن إسماعيل البخارى حين ورد على بغداد وقصد المحدثون امتحانه فسألوه عن أحاديث قلبوا أسانيدها فقال لا أعرف هذه ، ولكن حدثنى فلان ، ثم أتى بجميع تلك الأحاديث على الوضع الصحيح ، ورد كل متن إلى سنده ، فاقروا له بالإمامة .

واعلم أيضًا أن الأئمة المجتهدين تفاوتوا فى الإكثار من هذه البضاعة والإقلال . فأبو حنيفة رضى الله تعالى عنه يقال (إنه إنما) بلغت روايته إلى سبعة عشر حديثًا أو نحوها (إلى خمسين) ، ومالك رحمه الله إنما صح عنده ما فى كتاب الموطأ وغايتها ثلثمائة حديث أو نحوها (١) . وأحمد بن حنبل رحمه الله تعالى فى مسنده ثلاثون ألف حديث (٢) . ولكل ما أداه إليه اجتهاده فى ذلك . وقد يقول بعض المتعصبين (٣) المتعسفين إن منهم من كان قليل البضاعة فى الحديث ، ولهذا قلت روايته . ولا سبيل إلى هذا المعتقد فى كبار الأئمة ، لأن الشريعة إنما تؤخذ من الكتاب والسنة ، ومن كان قليل البضاعة من الحديث فيتعين عليه طلبه وروايته والجد والتشمير فى ذلك ليأخذ الدين عن أصول صحيحة ويتلقى الأحكام عن صاحبها المبلغ لها (عن الله)

(١) علق الهورينى على ذلك بما يلى : « الذى فى شرح الزرقانى على الموطأ حكاية أقوال خمسة فى عدة أحاديثه : أولها خمسمائة ، وثانيها ستمائة ؛ وثالثها ألف ونيف ، ورابعها ألف وسبعمائة هذه النسخة » .
(٢) هكذا فى أصح النسخ ، وفى الطبعات المتداولة خمسون ألفا.
(٣) وفى الطبعات المتداولة « المبغضين » .

وإنما أقلَّ منهم من أقلَّ الرواية لأجل المطاعن التى تعترضه فيها والعلل التى تعرض فى طرقها ، سيما والجرح مقدم عند الأكثر ، فيؤديه الاجتهاد إلى ترك الأخذ بما يعرض مثل ذلك فيه من الأحاديث وطرق الأسانيد ، ويكثر ذلك ، فتقل روايته لضعف الطرق . هذا مع أن أهل الحجاز أكثر رواية للحديث من أهل العراق لأن المدينة دار الهجرة ومأوى الصحابة ، ومن انتقل منهم إلى العراق كان شغلهم بالجهاد أكثر .

والإمام أبو حنيفة إنما قلت روايته لما شدد فى شروط الرواية والتحمل ، وضعف الحديث إذا عارضه العقلى القطعى ، فاستصعب ، وقلت من أجلها روايته ، فقل حديثه ، لا أنه ترك رواية الحديث متعمدًا ، فحاشاه من ذلك .

ويدل على أنه من كبار المجتهدين فى علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم ، والتعويل عليه واعتباره ردًا وقبولا . وأما غيره من المحدثين وهم الجمهور فتوسعوا فى الشروط وكثر حديثهم . والكل عن اجتهاد . وقد توسع أصحابه من بعده فى الشروط وكثرت روايتهم .

روى الطحاوى فأكثر وكتب مسنده ، وهو جليل القدر ، إلا أنه لا يعدل الصحيحين ، لأن الشروط التى اعتمدها البخارى ومسلم فى كتابيهما مجمع عليها بين الأمة كما قالوه ، وشروط الطحاوى غير متفق عليها كالرواية عن المستور الحال وغيره . فلهذا قدم الصحيحان بل وكتب السنن المعروفة عليه لتأخر شروطه عن شروطهم .

ومن أجل هذا قيل فى الصحيحين بالإجماع على قبولهما من جهة الاجماع على صحة ما فيهم على الشروط المتفق عليها . فلا تأخذك ريبة فى ذلك فالقوم أحق الناس بالظن الجميل بهم ، والتماس المخارج الصحيحة لهم والله سبحانه وتعالى أعلم بما فى حقائق الأمور .

(ثم من علوم الحديث تَصريفُ هذا القانون فى الكلام على الأحاديث واحدًا واحدا فى أبوابها وتراجمها فى تفاسير هذه الأسانيد ، كما فعله الحافظ أبو عمر بن عبد البر وأبو محمد بن حزم والقاضى عياض ومحيى الدين النووى وابن العطار بعدهما وكثير من أئمة المغاربة والمشارقة . وإن كان فى كلامهم على تلك الأحاديث غير ذلك من فقه متونها ولغتها وإعرابها ، إلا أن كلامهم فى أسانيدها بصناعة الحديث أوعب وأكثر .

هذه أصناف علوم الحديث المتداولة بين أئمة الأعصار لهذا العهد ، والله الهادى إلى الحق والمعين عليه) .

١٣ — علم الفقه وما يتبعه من الفرائض

الفقهُ معرفةُ أحكام الله تعالى فى أفعال المكلَّفين بالوجوب والحظْر والندب والكَرَاهة والإبَاحة ، وهى متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة ، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه . وكان السلف يستخرجُونها من تلك الأدلَّة على اختلاف فيها بينهم ، ولابد من وقوعه ضرورةَ أن الأدلة غالبها

من النصوص وهي بلغة العرب ، وفى اقتضاءات ألفاظها لكثير من معانيها اختلاف بينهم معروف .

وأيضًا فالسنة مختلفة الطرق فى الثبوت وتتعارض فى الأكثر أحكامها ، فتحتاج إلى الترجيح ، وهو مختلف أيضًا . والأدلة من غير النصوص (١) مختلف فيها

وأيضًا فالوقائع المتجددة لا توفى بها النصوص ، وما كان منها غير ظاهر فى النصوص فيحمل على منصوص لمشابهة بينهما . وهذه كلها مثارات للخلاف ضرورية الوقوع . ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأئمة من بعدهم .

ثم إن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فُتْيا ، ولا كان الدين يؤْخذ عن جميعهم ، وإنما كان ذلك مختصا بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابِهِهِ ومُحكمه (٢) وسائر دلالته بما تلقوه من النبى صلى الله عليه وسلم أو ممن سمعه منهم من عِلْيتهم ، وكانوا يُسَمَّوْنَ لذلك القُرّاء أى الذين يقرأون الكتاب ، لأن العرب كانوا أمة أمية ، فاختص من كان منهم قارئًا للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ . وبقى الأمر كذلك صدر الملة .

ثم عظمت أمصارُ الإسلام وذهبت الأُمية من العرب بممارسَة الكتاب ، وتمكُّن الاستنباط ، وكَمُلَ الفقه وأُصبح صناعة وعلما ، فبُدِّلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء . وانقسم الفقه فيهم إلى طريقتين : طريقة أهل الرأْى والقياس ، وهم أهل العراق ؛ وطريقة أهل الحديث ، وهم أهل الحجاز . وكان الحديث قليلا فى أهل العراق لما قدمناه (١) ، فاستكثروا من القياس ومهرُوا فيه ، فلذلك قيل : أهلُ الرأْى . ومقدم جماعتهم الذى استقر المذهب فيه وفى أصحابه أبو حنيفة . وإمام أهل الحجاز مالك بن أنس والشافعى من بعده .

ثم أنكر القياسَ طائفةٌ من العلماء وأبطلوا العمل به وهم الظاهرية ، وجعلوا المدارك كلها منحصرة فى النصوص والإجماع ، وردوا القياس الجلى والعلة المنصوصة إلى النص ؛ لأن النص على العلة نص على الحكم فى جميع محالها . وكان إمام هذا المذهب دَاودُ بنُ علىٍّ وابنه (٢) وأصحابهما . وكانت هذه المذاهب الثلاثة هى مذاهب الجمهور المشتهرة بين الأمة .

وشـذ (شيعة) (٣) أهل البيت بمذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به وبنوه على مذهبهم فى تناول بعض الصحابة بالقدح ، وعلى قولهم بعصمة الأئمة ورفع الخلاف عن أقوالهم وهى كلها أصول واهية .

---

(١) الأدلة من غير النصوص يراد بها الأدلة التى ترجع إلى الإجماع أو القياس مثلا .

(٢) عقد المؤلف فصلا خاصاً لدراسة المحكم والمتشابه من القرآن ومناقشة ما قيل فى هذا الصدد من آراء ، وعنوانه « فصل فى كشف الغطاء عن المتشابه من الكتاب والسنة ... إلخ » ، وهذا هو أحد الفصول التى تزيد بها طبعة باريس على الطبعات المتداولة .

(١) فى الفصل السابق لهذا مباشرة .

(٢) هو داود بن على الأصبهانى – ويعرف بالظاهرى – كان غاية فى الزهد ، توفى سنة ٢٧٠ هـ ، وكان ابنه محمد فقيها أديباً جلس فى حلقة أبيه بعد وفاته ، وكان على مذهب أبيه الظاهرى ، وتوفى سنة ٢٩٧ هـ .

(٣) يطلق ابن خلدون كلمة « أهل البيت » على « شيعة أهل البيت » ، وكلمة « فقه أهل البيت » على « فقه شيعة أهل البيت » أو الشيعة . ونضع كلمة « شيعة » بين قوسين فى كل موطن جرى فيه ابن خلدون على هذا الاختصار ، منعاً للبس .

وشذ بمثل ذلك الخوارج . ولم يحتفل الجمهور بمذاهبهم بل أوسعوها جانب الانكار والقدح . فلا نعرف شيئاً من مذاهبهم ولا نرى كتبهم ، ولا أثر لشيء منها إلا فى مواطنهم . فكُتُبُ الشيعة فى بلادهم وحيث كانت دولهم قائمة فى المغرب والمشرق واليمن ، والخوارج كذلك . ولكل منهم كتب وتآليف وآراء فى الفقه غريبة .

ثم درَسَ مذهب أهل الظاهر اليوم بدُرُوس أئمته وإنكار الجمهور على منتحله ، ولم يبق إلا فى الكتب المجلدة . وربما يعكُفُ كثير من الطالبين ممن تكلف بانتحال مذهبهم على تلك الكتب ، يروم أخذ فقههم منها ومذهبهم ، فلا يحلو (١) بطائل ، ويصير إلى مخالفة الجمهور وإنكارهم عليه ؛ وربما عد بهذه النحلة من أهل البدع بنقله العلم من الكتب من غير مفتاح المعلمين . وقد فعل ذلك ابن حزم بالأندلس على علو رتبته فى حفظ الحديث ، وصار إلى مذهب أهل الظاهر ومهر فيه باجتهاد زعمه فى أقوالهم ، وخالف إمامهم داود وتعرض للكثير من أئمة المسلمين (٢) فنقم الناس ذلك عليه ، وأوسعوا مذهبه استهجانا وإنكاراً ، وتلقوا كتبه بالاغفال والترك ، حتى إنها ليحظر بيعها بالأسواق ، وربما تُمزّقُ فى بعض الأحيان . ولم يبق إلا مذهب أهل الرأى من العراق وأهل الحديث من الحجاز .

فأما أهل العراق فإمامهم الذى استقرت عنده مذاهبهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، ومقامه فى الفقه لا يلحق ، شهد له بذلك أهل جلدته وخصوصاً مالك والشافعى .

وأما أهل الحجاز فكان إمامهم مالك بن أنس الأصبحى (١) إمام دار الهجرة رحمه الله تعالى ، واختص بزيادة مُدْرَكٍ آخر للأحكام غير المدارك المعتبرة عند غيره ، وهو عمل أهل المدينة ، لأنه رأى أنهم فيما يتفقون عليه من فعل أو ترك متابعون لمن قبلهم ضرورة لدينهم واقتدائهم ، وهكذا إلى الجيل المباشرين لفعل النبى صلى الله عليه وسلم الآخذين ذلك عنه . وصار ذلك عنده من أصول الأدلة الشرعية .

وظن كثير أن ذلك من مسائل الاجماع فأنكره ، لأن دليل الإجماع لا يخص أهل المدينة مِنْ سِوَاهم ، بل هو شامل للأمة . واعلم أن الاجماع إنمـا هو الاتفاق على الأمر الدينى عن اجتهاد ؛ ومالك رحمه الله تعالى لم يعتبر عمل أهل المدينة من هذا المعنى ؛ وإنما اعتبره من حيث اتباع الجيل بالمشاهدة للجيل إلى أن ينتهى إلى

(١) يعنى لم يفيدوا شيئاً .

(٢) يعلق د. وافى بقوله فى منشورته : قد أفرط ابن حزم حل الأخص فى التعرض لأبى حنيفة رضى الله عنه والتهكم بمذهبه فى الأخذ بالقياس ، وهو المذهب الذى اشتهر بمذهب « أهل الرأى » أو « أهل النظر » . وفى هذا يقول ابن حزم :

من عذيرى من أناس جهلوا ... ثم ظنوا أنهم « أهل النظر »
ركبوا « الرأى » عناداً فسروا ... فى ظلام تاه فيه من عبر
وطريق الرشد نهج مهيع ... مثل ما أبصرت فى الأفق القمر
وهو الإجماع والنص الذى ... ليس إلا فى كتاب أو أثر
إن كنت كاذبة الذى حدثتنى ... فعليك إثم أبى حنيفة أو زفر
الوائبين على القياس تمرداً ... والراغبين عن التمسك بالأثر

« وزفر » هو أحد أصحاب أبى حنيفة ، وقد خصه ابن حزم بالهجاء لأنه كان أكثرهم اخذاً بالقياس والرأى .

(١) ينتهى نسب مالك رضى الله عنه إلى قبيلة يمنية وهى ذو أصبح ، وفى القاموس : « الأصبحى السوط نسبة إلى ذى أصبح لملك من ملوك اليمن من أجداد الإمام مالك بن أنس » .

الشارع صلوات الله وسلامه عليه ، وضرورة اقتدائهم تعين ذلك .

نعم : المسألة ذكرت فى باب الإجماع لأنه أليق الأبواب بها من حيث ما فيها من الاتفاق الجامع بينها وبين الإجماع إلا أن اتفاق أهل الإجماع عن نظر واجتهاد فى الأدلة ، واتفاق هؤلاء فى فعل أو ترك مستندين إلى مشاهدة من قبلهم . ولو ذكرت المسألة فى باب فعل النبى صلى الله عليه وسلم وتقريره ، أو مع الأدلة المختلف فيها مثل « مَذْهَب الصَّحابى » ، وشَرْع مَنْ قبلنا » «والاستصحاب [1] » ، لكان أليق .

ثم كان من بعد مالك بن أنس محمد بن إدريس المطَّلبىُّ الشافعىُّ رحمهما الله تعالى . رحل إلى العراق من بعد مالك ولقى أصحاب الامام أبى حنيفة وأخذ عنهم ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق ، واختص بمذهب ، وخالف مالكا رحمه الله تعالى فى كثير من مذهبه .

وجاء من بعدها أحمد بن حنبل رحمه الله . وكان من عِلْيَة المحدِّثين ، وقرأ أصحابه على أصحاب الإمام أبى حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث ، فاختصوا بمذهب آخر .

ووقف التقليد فى الأمصار عند هؤلاء الأربعة ودرس المقلدون لمن سواهم ، وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثر تشعب الاصطلاحات فى

(١) يعنى الاختلاف حول مذهب الصحابى أهو أصل من أصول الدين ، وكذا الخلاف حول اعتبار شرع من قبلنا شرعا لنا ثم الخلاف حول « الاستصحاب » الذى عرفه ابن القيم بأنه استدامة إثبات ما كان ثابتاً ، أو نفى ما كان منفياً حتى يقوم دليل على تغييره » .

العلوم ، ولما عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد ، ولما خشى من إسناد ذلك إلى غير أهله ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه ، فصرحوا بالعجز والإعواز وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء [1] ، كل بمن اختص به من المقلدين ، وحظروا أن يتداول [2] تقليدهم لما فيه من التلاعب . ولم يبق إلا نقل مذاهبهم وعَمَلُ كل مقلد بمذهب من قلده منهم ، بعد تصحيح الأُصول واتصال سندها بالرواية . لا محصول اليوم للفقه غير هذا . ومدعى الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه مهجور تقليده . وقد صار أهل الاسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة

فأما أحمد بن حنبل فمقلدوه قليل وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها ، وهم أكثر الناس حفظا للسنة ورواية للحديث (وميلا بالاستنباط. إليه مع القياس ما أمكن ، وكان لهم ببغداد صولة وكثرة ، حتى كانوا يتواقعون مع الشيعة فى نواحيها . وعظمت الفتنة فى بغداد

(١) هذا هو ما انتهى إليه رأى المتأخرين فى عصور الركود الفكرى وقصور العقول من الاجتهاد . وإلى هذا يشير اللقانى فى الجوهرة بقوله :

وواجب تقليد حبر منهم كذا حكى القوم بلفظ يفهم

والضمير فى « منهم » يعود على الأئمة الأربعة المذكورين قبل ذلك

وانظر عدد شعبان ١٣٧٩ من « مجلة الأزهر » مقالا للدكتور وافى تحت عنوان : « الحرية الدينية فى الإسلام ، وعلاقة ذلك بالاجتهاد والتقليد » . وقد فند فيه الرأى القائل بوجوب التقليد وفساد ما استند إليه وكيف أن كثيراً من الفقهاء قد عبروا إلى تحريم التقليد على كل قادر على الاجتهاد .

(٢) أى أن يقلد الشخص إماماً فى مسألة وإماماً آخر فى مسألة أخرى . أو أن يلفق فى مسألة واحدة كالصلاة مثلا مبين مذهبين أو أو أكثر ... إلخ .

من أجل ذلك ثم انقطع هذا عند استيلاء التتار عليها ولم يراجع ، وصارت كثرتهم بالشام [١] .

وأما أبو حنيفة فقلده اليوم أهل العراق ومسلمة الهند والصين ، وما وراء النهر وبلاد العجم كلها . ولما كان مذهبه أخص بالعراق ودار السلام ، وكان تِلْميذُه [٢] صحابة الخلفاء من بنى العباس ، فكثرت تآليفهم ومناظرتهم مع الشافعية ، وحسنت مباحثهم فى الخلافيات ، وجاءوا منها بعلم مستطرف وأنظار غريبة وهى بين أيدى الناس ، وبالمغرب منها شىء قليل نقله إليه القاضى ابن العربى [٣] وأبو الوليد الباجى فى رحلتهما .

وأما الشافعى فمقلدوه بمصر أكثر مما سواها ، وقد كان انتشر مذهبه بالعراق وخراسان وماوراء النهر ، وقاسموا الحنفية فى الفتوى والتدريس فى جميع الأَمصار ، وعظمت مجالس المناظرات بينهم ، وشحنت كتب الخلافيات بأَنواع استدلالاتهم . ثم درس ذلك كله بدروس المشرق وأقطاره . وكان الإمام محمد بن ادريس الشافعى لما نزل على بنى عبد الحكم بمصر أخذ عنه جماعة منهم ، (وكان من تلميذه بها البُوَيْطِىّ والحزينى

(١) معظم الحنابلة فى الوقت الحاضر فى منطقة نجد ، انظر « المجتمع العربى » للدكتور وافى صفحات ٧١-٧٤) .

(٢) من أشهر تلاميذه أربعة هم : أبو يوسف ١١٣-١٨٢ ه قاضى المهدى الهادى والرشيد وصاحب « الخراج » . والقاضى محمد ابن الحسن الشيبانى ١٣٢ ه - ١٨٩ ه وصاحب المبسوط والسير الكبير والصغير وغيرها . م والثالث : زفر بن الهذيل ١١٠-١٥٨ ه والرابع الحسن بن زياد المتوفى ٢٠٤ ه وله مؤلفات كثيرة .

(٣) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد الإشبيلى صاحب كتاب « أحكام القرآن » تولى القضاء بإشبيلية ، وتوفى بمدينة فاس سنة ٥٤٣ ه وهو غير ابن العربى الحاتمى المعروف .

وغيرهم ، وكان بها من المالكية جماعة منهم) عبد الله بن عبد الحكم وأشهب وابن القاسم وابن المواز وغيرهم ، ثم الحرث بن مسكين وبنوه . ثم انقرض فقه أهل السنة من مصر بظهور دولة الرافضة [١] وتداول بها فقه (شيعة) أهل البيت وكاد من سواهم أن يتلاشوا ويذهبوا (ثم ارتحل إليها القاضى عبد الوهاب المالكى من بغداد فى أواخر المائة الرابعة على ما علم من الحاجة والتقلب فى المعاش . وتأذن خلفاء العُبيديين بإكرامه وإظهار فضله نعيا على بنى العباس فى اطّراح مثل هذا الإمام : فنفقت سوق المالكية بمصر قليلا) إلى أن ذهبت دولة العُبيديين من الرافضة على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ورجع إليهم فقه الشافعى وأصحابه من أهل العراق والشام ، فعاد إلى أحسن ما كان ، ونفق سوقه ، واشتهر منهم محيى الدين النووى من الحلبة التى ربيت فى ظل الدولة الأيوبية بالشام ، وعز الدين بن عبد السلام أيضاً ، ثم ابن الرفعة بمصر ، وتقى الدين بن دقيق العيد ، ثم تقى الدين السبكى بعدهما ، إلى أن انتهى ذلك إلى شيخ الإسلام بمصر لهذا العهد ، وهو سراج الدين البُلْقينى [٢] فهو اليوم أكبر الشافعية بمصر ، كبير العلماء ، بل أكبر العلماء من أهل العصر .

(١) كلمة الرافضة تطلق على جميع الشيعة الإمامية ، وسموا رافضة لأنهم لما ناظروا زيد بن على بن الحسين ورأوه يقول بإمامة أبى بكر وعمر ولا يتبرأ منهما ، رفضوا ولم يجعلوه من أئمتهم .

(٢) نسبة إلى مسقط رأسه « بلقين » ، وهى بلد بمصر (تابعة لمحافظة الغربية) توفى سنة ٨٠٥ ه أى قبل وفاة ابن خلدون بثلاث سنين . وكان من زملاء ابن خلدون فى القضاء فى مصر فكان قاضى قضاة الشافعية وكان ابن خلدون قاضى قضاة المالكية

وأما مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس ، وإن كان يوجد فى غيرهم ، إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا فى القليل : لما أن رحلتهم كانت غالباً إلى الحجاز ، وهو منتهى سفرهم ، والمدينة يومئذ دار العلم ، ومنها خرج إلى العراق ، ولم يكن العراق فى طريقهم ، فاقتصروا على الأخذ عن علماء المدينة ، وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده ؛ فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل إليهم طريقته . وأيضاً فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس ، ولم يكونوا يعانون الحضارة التى لأهل العراق ، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة (١) ولهذا لم يزل المذهب المالكى غضاً عندهم ، ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع فى غيره من المذاهب .

ولما صار مذهب كل إمام علماً مخصوصاً عند أهل مذهبه ، ولم يكن لهم سبيل إلى الاجتهاد والقياس ، احتاجوا إلى تنظير المسائل فى الإلحاق وتفريقها عند الاشتباه بعد الاستناد إلى الأصول المقررة من مذهب إمامهم . وصار ذلك كله يحتاج إلى ملكة راسخة يقتدر بها على ذلك النوع من التنظير أو التفرقة واتباع مذهب إمامهم فيهما ما استطاعوا . وهذه الملكة هى علم الفقه لهذا العهد.

(١) انظر فى التعليق على هذا كتاب « مالك حياته وعصره » للشيخ أبو زهرة ص ٣٤٠ وما بعدها . وانظر هامش ص ١١٥٥ من منشورة د. وافى لمقدمة ابن خلدون .

وأهل المغرب جميعا مقلدون لمالك رحمه الله ، وقد كان تلاميذه افترقوا بمصر والعراق ، فكان بالعراق منهم القاضى إسماعيل وطبقته مثل ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد (١) وابن اللبان (٢) والقاضى أبو بكر الأَبهرى (٣) ، والقاضى أبو الحسين بن القصار والقاضى عبد الوهاب ومن بعدهم . وكان بمصر ابن القاسم وأشهب (٤) وإبن عبد الحكم (٥) والحرُث ابن مسكين وطبقتهم . ورحل من الأندلس عبدالملك ابنُ حَبِيب (٦) فأخذَ عن ابن القاسم وطبقته وبث مذهب مالك فى الأندلس ودون فيه كتاب « الوَاضِحَة » . ثم دون العُتْبى (٧) من تلامذته كتاب العُتْبِيَّة . ورحلَ من إفريقية أسد بن الفرات (٨) ، فكتب عن أصحاب أبى حنيفة أولا ثم انتقل إلى مذهب مالك وكتب على ابن القاسم فى سائر أبواب الفقه ، وجاء إلى القيروان

(١) خويز منداد هو لقب والد الإمام أبى بكر محمد بن أحمد ابن عبد الله المالكى الأصولى ، من أهل البصرة ، توفى عام ٤٠٠ هـ.

(٢) هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن الحسن المصرى ، توفى فى أوائل القرن الخامس الهجرى .

(٣) نسبة إلى أبهر وهى بلدة فى نواحى أصفهان ، وهو أبوبكر محمد بن أحمد بن الحسن ، توفى سنة ٤٨١ هـ.

(٤) من كبار فقهاء المالكية . توفى سنة ٢٠٤ هـ.

(٥) من موالى عثمان بن عفان ، توفى سنة ٢١٦ هـ.

(٦) عبد الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨ هـ ، وهو أندلسى تعلم بالأندلس ورحل منها سنة ٢٠٨ هـ ، وأخذ عن كثير من أصحاب مالك ، منهم عبد الله بن عبد الحكيم (تعليق ١٣٨٦) ثم عاد إلى الأندلس . وهو مؤلف كتاب « الواضحة » الذى يعتبر من أهم أصول الفقه المالكى .

(٧) هو محمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبى ، صاحب « المستخرجة » من « واضحة » ابن حبيب المتوفى سنة ٢٥٥ وقيل سنة ٢٥٤ هـ.

(٨) أسد بن الفرات بن سنان ، أصله من خراسان ، ولد بنجران من ديار بكر سنة ١٤٥ هـ متوفى سنة ٢١٣ هـ.

بكتابه ، وسمى الأَسَدِيَّة نسبة إلى أسد بن الفرات ، فقرأ بها سحنون [١] على أسد ، ثم ارتحل إلى الشرق ولقى ابن القاسم وأخذ عنه . وعارضه بمسائل الأسدية فرجع عن كثير منها [٢] وكتب سحنون مسائلها ودونها وأثبت مارجع عنه . وكتب [٣] لأسد أن يأخذ بكتاب سحنون فأنف من ذلك . فترك الناس كتابه [٤] واتبعوا «مدونة» سحنون على ما كان فيها من اختلاط المسائل فى الأبواب ، فكانت تسمى « المُدَوَّنَة » و « المُخْتَلَطَة [٥] » . وعكف أهل القيروان على هذه المدونة وأهل الأندلس على الواضحة والعتبية . ثم اختصر ابن أبى زيد المدونة أو المختلطة فى كتابه المسمى بالمختصر ، ولخصه أيضاً أبو سعيد البرادعى من فقهاء القيروان فى كتابه المسمى « بالتهذيب » ، واعتمده المشيخة من أهل إفريقيَة وأخذوا به ، وتركوا ما سواه . وكذلك اعتمد أهل الأندلس كتاب العُتْبِيَّة وهجروا الواضحة وما سواها .

ولم تزل علماء المذهب يتعاهدون هذه الأُمهات بالشرح والإيضاح والجمع . فكتب أهل إفريقيَة على المدونة ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن يونس واللخمى وابن محرز التونسى وابن بشير وأمثالهم. وكتب أهل الأندلس على العتبية ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن رشد [١] وأمثاله . وجمع ابن أبى زيد جميع ما فى الأُمهات من المسائل والخلاف والأقوال فى كتاب « النوادر » ، فاشتمل على جميع أقوال المذهب ، وفرع الأُمهات كلها فى هذا الكتاب . ونقل ابن يونس معظمه فى كتابه على المدونة . وزخرت بحار المذهب المالكى فى الأُفقين إلى إنقراض دولة قرطبة والقيروان . ثم تمسك بهما [٢] أهل المغرب بعد ذلك ، إلى أن جاء كتاب أبى عمرو بن الحاجب ، لخص فيه طرق أهل المذهب فى كل باب وتعديد أقوالهم فى كل مسألة ، فجاء كالبرنامج للمذهب . وكانت الطريقة المالكية بقيت فى مصر من لدن الحرث بن مسكين ، وابن المبشر وابن اللهيت وابن رشيق وابن شاش .وكانت بالإسكندرية فى بنى عوف وبنى سند وابن عطا الله . ولم أدر عمن أخذها أبو عمرو بن الحاجب ، لكنه جاء بعد إنقراض دولة العُبَيْديين وذهاب فقه (شيعة) أهل البيت وظهور فقهاء السنة الشافعية والمالكية . ولما جاء كتابه إلى المغرب آخر المائة السابعة عكف عليه الكثير من طلبة المغرب ، وخصوصاً أهل بِجَايَة لما كان كبير مشيختهم أبو على ناصر الدين الزواوى هو الذى جلبه إلى المغرب ،

(١) سحنون هو عبد السلام بن سعيد سحنون التنوخى العربى المتوفى سنة ٢٤٠ ه .

(٢) أى إن سحنون قد تناقش مع ابن القاسم فى مسائل « الأسدية » (وهى الآراء التى أخذها أسد بن الفرات عن ابن القاسم) فرجع ابن القاسم عن كثير منها .

(٣) يعنى ابن القاسم .

(٤) أى كتاب أسد بن الفرات وهو « الأسدية » .

(٥) يعد كتاب « المدونة » أهم أصل من أصول مذهب مالك ؛ بل هو الأصل الذى قام عليه الفقه المالكى المعروف اليوم . وقد كان كتاب « الأسدية » أهم مرجع اعتمد عليه سحنون فى تأليفه المدونة .

(١) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد من أشهر فقهاء المالكية . وهو صاحب كتاب « المقدمات الممهدات » وكتب أخرى كثيرة فى الفقه . ولد سنة ٤٥٠ ه . وتوفى فى الحادى عشر من ذى القعدة سنة ٥٢٠ ه (١١٢٦ م) وهو جد ابن رشد الفيلسوف .

(٢) يقصد كتاب « النوادر » لابن أبى زيد ، وكتاب ابن يونس على المدونة .

فإنه كان قرأ على أصحابه بمصر ونسخ مختصره ذلك فجاء به وانتشر بقطر بجاية فى تلميذه ، ومنهم انتقل إلى سائر الأمصار المغربية . وطلبة الفقه بالمغرب لهذا العهد يتداولون قراءته ويتدارسونه لما يؤثر عن الشيخ ناصر الدين من الترغيب فيه . وقد شرحه جماعة من شيوخهم كابن عبد السلام وابن رشد وابن هارون ، وكلهم من مشيخة أهل تونس . وسابق حلبتهم فى الإجادة فى ذلك ابن عبد السلام . وهم مع ذلك يتعاهدون كتاب التهذيب [١] فى دروسهم . « واللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »[٢] .

١٤ – علم الفرائض

وهو معرفة فروض الوراثة وتصحيح سهام الفريضة فى كم [٣] تصح باعتبار فروضها الأُصول أو مناسختها . وذلك إذا هلك أحد الورثة وإنكسرت سهامه على فروض ورثته فإنه حينئذ يحتاج إلى حساب يصحح الفريضة الأُولى حتى يصل أهل الفروض جميعًا فى الفريضتين إلى فروضهم من غير تجزئة ،

وقد تكون هذه المناسخات أكثر من واحد واثنين ، وتتعدد لذلك بعدد أكثر . وبقدر ماتتعدد تحتاج إلى الحُسبان . وكذلك إذا كانت فريضة ذات وجهين مثل أن يقر بعض الورثة بوارث وينكره الآخر فتصحح على الوجهين حينئذ ، وينظر مبلغ السهام ثم تقسم التركة على نسب سهام الورثة من أصل الفريضة . وكل ذلك يحتاج إلى الحُسبان . وكان غالبا فيه وجعلوه فنًا مفردًا .

وللناس فيه تآليف كثيرة أشهرها عند المالكية من متأخرى الأندلس كتاب ابن ثابت ومختصر القاضى أبى القاسم الحوفى ثم الجعدى ، ومن متأخرى إفريقية ابن النمر الطرابلسى وأمثالهم . وأما الشافعية والحنفية والحنابلة فلهم فيه تآليف كثيرة وأعمال عظيمة صعبة شاهدة لهم باتساع الباع فى الفقه والحساب ، وخصوصًا أبا المعالى رضى الله تعالى عنه وأمثاله من أهل المذاهب .

وهو فن شريف لجمعه بين المعقول والمنقول ، والوصول به إلى الحقوق فى الوراثات بوجوه صحيحة يقينية عندما تجهل الحظوظ ، وتشكل على القاسمين وللعلماء من أهل الأمصار بها عناية ، ومن المصنفين من يحتاج فيها إلى الغلو فى الحساب وفرض المسائل التى تحتاج إلى استخراج المجهولات من فنون الحساب كالجبر والمقابلة والتصرف فى الجذور وأمثال ذلك ، فيملؤون بها تآليفهم . وهو وإن لم يكن متداولا بين الناس ، ولا يفيد فيما يتداولونه من وراثتهم لغرابته وقلة وقوعه ، فهو يفيد المران وتحصيل الملكة فى المتداول على أكمل الوجوه .

---

(١) لأبى سعيد البرادعى السابق الإشارة إليه .

(٢) آخر آية ٤٦ من سورة النور – هذا ويلاحظ أن ابن خلدون لعظيم إلمامه بمذهب مالك ورسوخ قدمه فيه (فقد كان من كبار فقهائه وتولى منصب التدريس فى فقه المالكية فى مصر ، كما تولى بها منصب قاضى قضاة المالكية أى شيخ شيوخ هذا المذهب) قد أطال الكلام على مذهب مالك ومؤلفاته ، بينما أوجز كل الإيجاز فى الكلام على المذاهب الأخرى وتاريخها وما كتب فيها من مؤلفات .

(٣) هكذا فى النسخة « التيمورية » . وفى الطبعات المتداولة : « وتصحيح فروض الفريضة مما تصح » .

(٤) يعنى هل النص على العلة فى تحريم أمر ما مثلا كاف فى تعدى هذا التحريم إلى آخر تتوافر فيه هذه العلة .

وقد يحتج الأكثر من أهل هذا الفن على فضله بالحديث المنقول عن أبي هريرة رضى الله عنه : «إنَّ الفَرائِضَ ثُلثُ العِلمِ وإنَّها أوَّلُ ما يُنْسَى» وفى رواية : «نِصْفُ» ؛ خرجه أبو نعيم الحافظ . واحتج به أهل الفرائض بناء على أن المراد بالفرائض فروض الوراثة . والذى يظهر أن هذا المحمل بعيد وأن المراد بالفرائض إنما هى الفرائض التكليفية فى العبادات والعادات والمواريث وغيرها . وبهذا المعنى يصح فيها النصفية والثلثية . وأما فروض الوراثة فهى أقل من ذلك كله بالنسبة إلى علم الشريعة كلها .

ويعين هذا المراد أن حمل لفظ الفرائض على هذا الفن المخصوص أو تخصيصه بفروض الوراثة إنما هو اصطلاح ناشىء للفقهاء عند حدوث الفنون والاصطلاحات ، ولم يكن صدر الإسلام يطلق على هذا إلا على عمومه مشتقا من الفرض الذى هو لغة التقدير أو القطع . وما كان المراد به فى إطلاقه إلا جميع الفروض كما قلنـــاه وهى حقيقته الشرعية . فلا ينبغى أن يحمل إلا على ما كان يحمل فى عصرهم ، فهو أليق بمرادهم منه . والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

١٥ ـ أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافيات

اعلم أن أصول الفقه أعظم العلوم الشرعية وأجلها قدرا وأكثرها فائدة ؛ وهو النظر فى الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتكاليف وأصول الأدلة الشرعية هى الكتاب الذى هو القرآن ثم السنة المبينة له .

فعلى عهد النبى صلى الله عليه وسلم كانت الأحكام تُتلقى منه بما يوحى إليه من القرآن ويبينه بقوله وفعله بخطاب شفاهى لا يحتاج إلى نقل ولا إلى نظر وقياس . ومن بعده صلوات الله وسلامه عليه تعذر الخطاب الشفاهى وانحفظ القرآن بالتواتر .

وأما السنة فأجمع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم على وجوب العمل بما يصل إلينا منها قولا أو فعلا بالنقل الصحيح الذى يغلب على الظن صدقه . وتعينت دلالة الشرع فى الكتاب والسنة بهذا الاعتبار .

ثم ينزل الإجماع منزلتهما لإجماع الصحابة على النكير على مخالفيهم ولا يكون ذلك إلا عن مستند لأن مثلهم لا يتفقون من غير دليل ثابت مع شهادة الأدلة بعصمة الجماعة ؛ فصار الإجماع دليلًا ثابتًا فى الشرعيات .

ثم نظرنا فى طرق استدلال الصحابة والسلف بالكتاب والسنة ، فإذاهم يقيسون الأشباه بالأشباه منهما ، ويناظرون الأمثال بالأمثال بإجماع منهم ، وتسليم بعضهم لبعض فى ذلك . فإن كثيرًا من الواقعات بعده صلوات الله وسلامه عليه لم تندرج فى النصوص الثابتة ، فقاسوها بما ثبت وألحقوها بما نص عليه بشروط فى ذلك الإلحاق تصحح تلك المساواة بين الشبيهين أو المثلين ، حتى يغلب على الظن أن حكم الله تعالى فيهما واحد ، وصار ذلك دليلا شرعيا بإجماعهم عليه وهو القياس وهو رابع الأدلة .

واتفق جمهور العلماء على أن هذه هى أصول الأدلة وإن خالف بعضهم فى الإجماع والقياس ، إلا أنه شذوذ .

وألحق بعضهم بهذه الأربعة أدلة أخرى لاحاجة بنا إلى ذكرها لضعف مداركها وشذوذ القول فيها.

فكان أول مباحث هذا الفن النظر فى كون هذه أدلة . فأما الكتاب فدليله المعجزة القاطعة فى متنه ، والتواتر فى نقله ، فلم يبق فيه مجال للاحتمال . وأما السنة وما نقل إلينا منها فالإجماع على وجوب العمل بما يصح منها كما قلناه معتضدا بما كان عليه العمل فى حياته صلوات الله وسلامه عليه ، من إنفاذ الكتب والرسل إلى النواحى بالأحكام والشرائع آمرًا وناهيا . وأما الإجماع فلا تفاقهم رضوان الله تعالى عليهم على إنكار مخالفتهم مع العصمة الثابتة للأمة . وأما القياس فبإجماع الصحابة رضى الله عنهم عليه كما قدمناه. هذه أصول الأدلة .

ثم إن المنقول من السنة محتاج إلى تصحيح الخبر بالنظر فى طرق النقل وعدالة الناقلين لتتميز الحالة المحصِّلَة للظن بصدقه الذى هو مناط وجوب العمل . وهذه أيضًا من قواعد الفن . ويلحق بذلك عند التعارض بين الخبرين وطلب المتقدم منهما معرفة الناسخ والمنسوخ ، وهى من فصوله أيضًا وأبوابه .

ثم بعد ذلك يتعين النظر فى دلالة الألفاظ . وذلك أن استفادة المعانى على الإطلاق من تراكيب الكلام على الإطلاق يتوقف على معرفة الدلالات الوضعية مفردة ومركبة . والقوانين اللسانية فى ذلك هى علوم النحو والتصريف والبيان . وحين كان الكلام ملكة لأهله لم تكن هذه علومًا ولا قوانين ، ولم يكن الفقية حينئذ يحتاج إليها ، لأنها جِبِلَّته وملكته .

فلما فسدت الملكة فى لسان العرب قيدها الجهابذة المتجردون لذلك بنقل صحيح ومقاييس مستنبطة صحيحة ، وصارت علومًا يحتاج إليها الفقية فى معرفة أحكام الله تعالى .

ثم إن هناك استفادات أخرى خاصة من تراكيب الكلام وهى استفادة الأحكام الشرعية بين المعانى من أدلتها الخاصة من تراكيب الكلام وهو الفقة .

ولا يكفى فيه معرفة الدلالات الوضعية على الإطلاق بل لابد من معرفة أمور أخرى تتوقف عليها تلك الدلالات الخاصة ، وبها تستفاد الأحكام بحسب ماأصَّلَ أهل الشرع وجهابذة العلم من ذلك ، وجعلوه قوانين لهذه الاستفادة ، مثل أن اللغة لاتثبت قياسًا ، والمشترك لايراد به معنياه معًا ، والواو لاتقتضى الترتيب ، والعام إذا أخرجت أفراد الخاص منه هل يبقى حجة فيما عداها ، والأمر للوجوب أو الندب وللفور أو التراخى ، والنهى يقتضى الفساد أو الصحة ، والمطلق هل يحمل على المقيد ، والنص على العلة كاف فى التعدى أم لا (١) ؟ وأمثال هذه . فكانت كلها من قواعد هذا الفن . ولكونها من مباحث الدلالة كانت لغوية

---

(١) يعنى هل النص على العلة فى تحريم أمر ما كاف فى تعدى هذا التحريم إلى آخر تتوافر فيه هذه العلة ؟ .

ثم إن النظر فى القياس من أعظم قواعد هذا الفن لأن فيه تحقيقَ الأَصل والفرع فيما يقاس ويماثل من الأَحكام ، وتنقيحَ (١) الوصف الذى يغلب على الظن أن الحكم عُلِّقَ به فى الأَصل من بين أوصاف ذلك المحل ، ووجود ذلك الوصف فى الفرع من غير معارض يمنع من ترتيب الحكم فى الفرع من غير معارض يمنع من ترتيب الحكم عليه فى مسائل أخرى من توابع ذلك . كلها قواعد لهذا الفن .

واعلم أن هذا الفن من الفنون المستحدثة فى الملة ، وكان السلف فى غُنْيَة عنه ، بما أن استفادة المعانى من الأَلفاظ. لا يحتاج فيها إلى أزيد مما عندهم من الملكة اللسانية . وأما القوانين التى يحتاج إليها فى استفادة الأَحكام خصوصًا فمنهم أخذ معظمها . وأما الأَسانيد فلم يكونوا يحتاجون إلى النظر فيها لقرب العصر وممارسة النَّقَلَة وخبرتهم بهم . فلما انقرض السلف وذهب الصدر الأَول وانقلبت العلوم كلها صناعة كما قررناه من قبل ، واحتاج الفقهاء والمجتهدون إلى تحصيل هذه القوانين والقواعد لاستفادة الأَحكام من الأَدلة ، فكتبوها فنًا قائمًا برأْسه سموه أصول الفقه .

وكان أول من كتب فيه الشافعى رضى الله عنه ، أملى فيه رسالته (٢) المشهورة تكلم فيها فى الأَوامر والنواهى والبيان والخبر والنسخ وحكم العلة المنصوصة من القياس .

ثم كتب فقهاء الحنفية فيه وحققوا تلك القواعد وأَوسعوا القول فيها . وكتب المتكلمون أيضًا كذلك . إلا أن كتابة الفقهاء فيها أمس بالفقه وأَليق بالفروع لكثرة الأَمثلة منها والشواهد وبناء المسائل فيها على النكت الفقهية . والمتكلمون يجردون صور تلك المسائل عن الفقه ، ويميلون الاستدلال العقلى ما أمكن لأَنه غالب فنونهم ومقتضى طريقتهم . فكان لفقهاء الحنفية فيها اليد الطولى من الغوص على النكت الفقهية والتقاط هذه القوانين من مسائل الفقه ما أمكن . وجاء أبو زيد الدبوسى من أئمتهم فكتب فى القياس بأَوسع من جميعهم ، وتمم الأَبحاث والشروط التى يحتاج إليها فيه ، وكملت صناعة أصول الفقه بكماله ، وتهذبت مسائله وتمهدت قواعده . وعنى الناس بطريقة المتكلمين فيه .

وكان من أحسن ما كتب فيه المتكلمون كتاب « البرهان لإمام الحرمين ، « والمستصفى » للغزالى وهما من الأَشعرية ، وكتاب « العهد » لعبد الجبار ، وشرحه المعتمد لأَبى الحسين البصرى وهما من المعتزلة . وكانت الأَربعة قواعد الفن وأَركانه .

ثم لخص هذه الكتب الأَربعة فحلان من المتكلمين المتأخرين ، وهما الإمام فخر الدين بن الخطيب فى كتاب « المحصول » وسيف الدين الآمدى فى كتاب الأَحكام . واختلفت طرائقهما فى الفن بين التحقيق والحجاج . فابن الخطيب أميل إلى الاستكثار من الأَدلة والاحتجاج ، والآمدى مولع بتحقيق المذاهب وتفريع المسائل

---

(١) ومعنى التنقيح فى هذه الجملة الاستخراج والتعيين .

(٢) سماها « الرسالة » .

فأما كتاب المحصول فاختصره تلميذا الإمام (مثل) سراج الدين الأرموى فى كتاب التحصيل وتاج الدين الأرموى فى كتاب الحاصل ؛ واقتطف شهاب الدين القرافى منهما مقدمات وقواعد فى كتاب صغير سماه التنقيحات ؛ وكذلك فعل البيضاوى فى كتاب المنهاج . وعنى المبتدئون بهذين الكتابين وشرحهما كثير من الناس .

وأما كتاب الأحكام للآمدى وهو أكثر تحقيقاً فى المسائل فلخصه أبو عمرو بن الحاجب فى كتابه المعروف بالمختصر الكبير ، ثم اختصره فى كتاب آخر تداوله طلبة العلم ، وعنى أهل المشرق والمغرب به وبمطالعته وشرحه . وحصلت زبدة طريقة المتكلمين فى هذا الفن فى هذه المختصرات .

وأما طريقة الحنفية فكتبوا فيها كثيراً ؛ وكان من أحسن كتابة فيها للمتقدمين تأليف أبى زيد الدبوسى ، وأحسن كتابة المتأخرين فيها تأليف سيف الإسلام البزدوى من أئمتهم ، وهو مستوعب وجاء ابن الساعاتى من فقهاء الحنفية فجمع بين كتاب الأحكام وكتاب البزدوى فى الطريقتين ، وسمى كتابه بالبدائع ، فجاء من أحسن الأوضاع وأبدعها . وأئمة العلماء لهذا العهد يتداولونه قراءة وبحثاً ، وأولع كثير من علماء العجم بشرحه . والحال على ذلك لهذا العهد .

هذه حقيقة هذا الفن وتعيين موضوعاته وتعديد التآليف المشهورة لهذا العهد فيه . والله ينفعنا بالعلم ويجعلنا من أهله بمنه وكرمه ، إنه على كل شىء قدير .

(وأما الخلافيات) فاعلم أن هذا الفقه المستنبط من الأدلة الشرعية كثر فيه الخلاف بين المجتهدين باختلاف مداركهم وأنظارهم خلافا لابد من وقوعه لما قدمناه . واتسع ذلك فى الملة اتساعا عظيما وكان للمقلدين أن يقلدوا من شاءوا منهم

ثم لما انتهى ذلك إلى الأئمة الأربعة من علماء الأمصار ، وكانوا بمكان من حسن الظن بهم ، اقتصر الناس على تقليدهم ، ومنعوا من تقليد سواهم ، لذهاب الاجتهاد لصعوبته وتشعب العلوم التى هى مواده ، باتصال الزمان وافتقاد من يقوم على سوى هذه المذاهب الأربعة . فأقيمت هذه المذاهب الأربعة على أصول الملة ، وأجرى الخلاف بين المتمسكين بها والآخذين بأحكامها مجرى الخلاف فى النصوص الشرعية والأصول الفقهية .

وجرت بينهم المناظرات فى تصحيح كل منهم مذهب إمامه ، تجرى على أصول صحيحة وطرائق قويمة يحتج بها كل على مذهبه الذى قلده وتمسك به وأجريت فى مسائل الشريعة كلها وفى كل باب من أبواب الفقه . فتارة يكون الخلاف بين الشافعى ومالك ، وأبو حنيفة يوافق أحدهما ؛ وتارة بين مالك وأبى حنيفة ، والشافعى يوافق أحدهما ؛ وتارة بين الشافعى وأبى حنيفة ، ومالك يوافق أحدهما . وكان فى هذه المناظرات بيان مآخذ (١) هؤلاء الأئمة ، ومثارات اختلافهم

(١) أى الأدلة والأصول التى أخذ منها هؤلاء الأئمة أحكام مذهبهم .

ومواقع اجتهادهم . وكان هذا الصنف من العلم يسمى بالخلافيات ولابد لصاحبه من معرفة القواعد التى يتوصل بها إلى استنباط الأحكام كما يحتاج إليها المجتهد . إلا أن المجتهد يحتاج إليها للاستنباط ، وصاحب الخلافيات يحتاج إليها لحفظ. تلك المسائل المستنبطة من أن يهدمها المخالف بأدلته .

وهو لعمرى علم جليل الفائدة فى معرفة مآخذ الأئمة وأدلتهم ، ومران المطالعين له على الاستدلال فيما يرومون الاستدلال عليه . وتآليف الحنفية والشافعية فيه أكثر من تآليف المالكية ، لأن القياس عند الحنفية أصل للكثير من فروع مذهبهم كما عرفت ، فهم لذلك أهل النظر والبحث . وأما المالكية فالأثر أكثر معتمدهم وليسوا بأهل نظر . وأيضا فأكثرهم أهل المغرب وهم بادية غفل من الصنائع إلا فى الأقل .

وللغزالى رحمه الله تعالى فيه كتاب المآخذ ، ولأبى زيد الدبوسى كتاب التعليقة . ولابن القصار من شيوخ المالكية عيون الأدلة . وقد جمع ابن الساعاتى فى مختصره فى أصول الفقه جميع ماينبنى عليها من الفقه الخلافى مدرجا فى كل مسألة ماينبنى عليها من الخلافيات .

(وأما الجدل) وهو معرفة آداب المناظرة التى تجرى بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم ، فإنه لما كان باب المناظرة فى الرد والقبول متسعا ، وكل واحد من المناظرين فى الاستدلال والجواب يرسل عنانه فى الاحتجاج ، ومنه ما يكون صوابا ومنه ما يكون خطأ ، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابا وأحكاما يقف المتناظران عند حدودها فى الرد والقبول ، وكيف يكون حال المستدل والمجيب ، وحيث يسوغ له أن يكون مستدلا وكيف يكون مخصوصا منقطعا ، ومحل اعتراضه أو معارضته ، وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال

ولذلك قيل فيه إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب فى الاستدلال التى يتوصل بها إلى حفظ رأى أو هدمه ، كان ذلك الرأى من الفقه أو غيره. وهى طريقتان :

طريقة البزدوى وهى خاصة بالأدلة الشرعية من النص والإجماع والاستدلال .

وطريقة العميدى وهى عامة فى كل دليل يستدل به من أى علم كان ، وأكثره استدلال . وهى من المناحى الحسنة ، والمغالطات فيه فى نفس الأمر كثيرة .

وإذا اعتبرنا النظر المنطقى كان فى الغالب أشبه بالقياس المغالطى والسوفسطائى . إلا أن صور الأدلة والأقيسة فيه محفوظة مراعاة تتحرى فيها طرق الاستدلال كما ينبغى .

وهذا العميدى هو أول من كتب فيها ونسبت الطريقة إليه . وضع الكتاب المسمى بالإرشاد مختصرا وتبعه من بعده من المتأخرين كالنسفى وغيره ، جاءوا على أثره وسلكوا مسلكه وكثرت فى الطريقة التآليف . وهى لهذا العهد مهجورة لنقص العلم والتعليم فى الأمصار الإسلامية ، وهى مع ذلك كمالية وليست ضرورية . والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

١٦ - علم الكلام

هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة . وسر هذه العقائد الايمانية هو التوحيد . فلنقدم هنا لطيفة فى برهان عقلى يكشف لنا عن التوحيد على أقرب الطرق والمآخذ ، ثم نرجع إلى تحقيق علمه وفيما ينظر ويشير إلى حدوثه فى الملة وما دعا إلى وضعه فنقول :

إن الحوادث فى عالم الكائنات سواء كانت من الذوات أو من الأفعال البشرية أو الحيوانية فلا بد لها من أسباب متقدمة عليها ، بها تقع فى مستقر العادة ، وعنها يتم كونها . وكل واحد من هذه الأسباب حادث أيضا ، فلا بد له من أسباب أخر ، ولا تزال تلك الأسباب مرتقية حتى تنتهى إلى مسبب الأسباب وموجدها وخالقها سبحانه لا إله إلا هو . وتلك الأسباب فى ارتقائها تتفسح وتتضاعف طولا وعرضاً ، ويحار العقل فى إدراكها . فإذًا لا يحصرها إلا العلم المحيط ، سيما الأفعال البشرية والحيوانية ، فإن من جملة أسبابها فى الشاهد القصود والإرادات ، إذ لا يتم كون الفعل إلا بإرادته والقصد إليه . والقصود والإرادات أمور نفسانية ناشئة فى الغالب عن تصورات سابقة يتلو بعضها بعضاً ، وتلك التصورات هى أسباب قصد الفعل .

وقد تكون أسباب تلك التصورات تصورات أخرى . وكل ما يقع فى النفس من التصورات مجهول سببه إذ لا يطلع أحد على مبادىء الأمور النفسانية ، ولا على ترتيبها . إنما هى أشياء يلقيها الله فى الفكر يتبع بعضها بعضا . والإنسان عاجز عن معرفة مبادئها وغاياتها . وإنما يحيط علما فى الغالب بالأسباب التى هى طبيعة ظاهرة ، ويقع فى مداركها على نظام وترتيب ، لأن الطبيعة محصورة للنفس وتحت طورها .

وأما التصورات فنطاقها أوسع من النفس لأنها للعقل الذى هو فوق طور النفس ، فلا تدرك الكثير منها فضلا عن الإحاطة . وتأمل من ذلك حكمة الشارع فى نهيه عن النظر إلى الأسباب والوقوف معها ، فإنه واد يهيم فيه الفكر ولا يحلو منه بطائل ولا يظفر بحقيقة : « قُلِ اللَّهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ[1] » . وربما انقطع فى وقوفه عن الارتقاء إلى ما فوقه فزلت قدمه وأصبح من الضالين الهالكين . نعوذ بالله من الحرمان والخسران المبين .

ولا تحسبن أن هذا الوقوف أو الرجوع عنه فى قدرتك واختيارك ، بل هو لون يحصل للنفس وصبغة تستحكم من الخوض فى الأسباب على نسبة لا نعلمها ، إذ لو علمناها لتحرزنا منها بقطع النظر عنها جملة . وأيضا فوجه تأثير هذه الأسباب فى الكثير من مسبباتها مجهول ؛ لأنها إنما يوقف عليها بالعادة لاقتران الشاهد بالاستناد إلى الظاهر ، وحقيقة التأثير وكيفيته مجهولة : « وَمَا أُوتِيتُم

(١) الفقرة الأخيرة من آية ٩١ من سورة الأنعام « وما قدروا الله حق قدره ... الآية » .

منَ الْعلمِ إلَّا قَليلًا [١] » . فلذلك أمرنا بقطع النظر عنها وإلغائها جملة والتوجه إلى مسبب الأسباب كلها وفاعلها وموجدها لترسخ صفة التوحيد فى النفس على ما علمنا الشارع الذى هو أعرف بمصالح ديننا ، وطرق سعادتنا لاطلاعه على ما وراء الحس . قال صلى الله عليه وسلم : «من مات يشهد لا إله إلا الله دخل الجنة » . فإن وقف عند تلك الأسباب فقد انقطع وحقت عليه كلمة الكفر . وإن سبح فى بحر النظر والبحث عنها وعن أسبابها وتاثيراتها واحداً بعد واحد فأنا الضامن له أن لا يعود إلا بالخيبة . فلذلك نهانا الشارع عن النظر فى الأسباب وأمرنا بالتوحيد المطلق : «قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَد ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحدٌ »[٢] .

ولا تثقن بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على الإحاطة بالكائنات وأسبابها ، والوقوف على تفصيل الوجود كله ، وسفه رأيه ، واعلم أن الوجود عند كل مدرِك فى بادىء رأيه منحصر فى مدارکه لا يعدوها ، والأمر فى نفسه بخلاف ذلك ، والحق من ورائه ألا ترى الأصم كيف ينحصر الوجود عنده فى المحسوسات الأربع والمعقولات ، ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات . وكذلك الأعمى أيضًا يسقط عنده صنف المرئيات ، ولولا ما يردهم إلى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم والكافة لما أقروا به . لكنهم يتبعون الكافة فى إثبات هذه الأصناف لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة إدراكهم . ولو سئل الحيوان الأعجم ونطق لوجدناه منكرًا للمعقولات وساقطة لديه بالكلية .

فإذا علمت هذا فلعل هناك ضربًا من الإدراك غير مدركاتنا ، لأن إدراكاتنا مخلوقة محدثة . وخلق الله أكبر من خلق الناس . والحصر مجهول ، والوجود أوسع نطاقا من ذلك . « واللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ » [١] . فاتهم إدراكك ومدركاتك فى الحصر ، واتبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك ، فهو أحرص على سعادتك ، وأعلم بما ينفعك لأنه من طوْر فوق إدراكك ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك وليس ذلك بقادح فى العقل ومداركه ، بل العقل ميزان صحيح فأحكامه يقينية لا كذب فيها . غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلاهية وكل ما وراء طوره ، فإن ذلك طمعٌ فى محال . ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذى يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال . وهذا لا يدل [٢] على أن الميزان فى أحكامه غير صادق . لكن للعقل حدا يقف عنده[٣] ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته ، فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه . وتفطن فى هذا لغلط [٤] من يقدم العقل على السمع فى أمثال

(١) الفقرة الأخيرة من آية ٨٥ من سورة الإسراء : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

(٢) آيات سورة « الإخلاص » .

(١) آية ٢٠ من سورة البروج .

(٢) فى جميع النسخ « جدرك » وهو تحريف (د. وافى) .

(٣) الجملة تحقيق د. وافى . وقد وردت محرفة فى جميع النسخ .

(٤) التعليق السابق .

هذه القضايا وقصور فهمه واضمحلال رأيه ؛ فقد تبين لك الحق من ذلك .

وإذا تبين ذلك فلعل الأسباب إذا تجاوزت فى الارتقاء نطاق إدراكنا ووجودنا خرجت عن أن تكون مدركة ، فيضل العقل فى بيداء الأوهام ويحار وينقطع . فإذًا التوحيد هو العجز عن إدراك الأسباب وكيفيات تأثيرها ، وتفويض ذلك إلى خالقها المحيط بها ، إذ لا فاعل غيره ، وكلها ترتقى إليه وترجع إلى قدرته ، وعلمنا به إنما هو من حيث صدورنا عنه . وهذا هو معنى ما نقل عن بعض الصدِّيقين : « الْعَجْزُ عَنِ الإدْرَاكِ إدْرَاكٌ » .

ثم إن المعتبرَ فى هذا التوحيد ليس هو الإيمان فقط. الذى هو تصديق حكمى ؛ فإن ذلك من حديث النفس ، وإنما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيف بها النفس ، كما أن المطلوب من الأعمال والعبادات أيضًا حصول ملكة الطاعة والانقياد ، وتفريغ القلب عن شواغل ما سوى المعبود حتى ينقلب المريد السالك ربانيا .والفرق بين الحال والعلم فى العقائد فرق ما بين القول والاتصاف . وشرحُه أن كثيرًا من الناس يعلم أن رحمة اليتيم والمسكين قربة إلى الله تعالى مندوب إليها ، ويقول بذلك ويعترف به ويذكر مأخذه من الشريعة ؛ وهو لو رأى يتيا أو مسكينًا من أبناء المستضعفين لفرّ عنه واستنكف أن يباشره ، فضلا عن التمسح عليه للرحمة ، وما بعد ذلك من مقامات العطف والحنو والصدقة . فهذا إنما حصل له من رحمة اليتيم مَقَامُ العلم ، ولم يحصل له مَقامُ الحال والاتصاف . ومن الناس من يحصل له مع مقام العلم والاعتراف بأن رحمة المسكين قربة إلى الله تعالى مَقامٌ آخر أعلى من الأول ، وهو الاتصاف بالرحمة وحصول ملكتها ، فمتى رأى يتيمًا أو مسكينًا بادر إليه ومسح عليه والتمس الثواب فى الشفقة عليه ، لا يكاد يصبر عن ذلك ، ولو دفع عنه ، ثم يتصدق عليه بما حضره من ذات يده . وكذا علمك بالتوحيد مع اتصافك به. والعلم الحاصل عن الاتصاف ضرورة هو أوثق مبنى من العلم الحاصل قبل الاتصاف . وليس الاتصاف بحاصل عن مجرد العلم حتى يقع العمل ويتكرر مرارا غير منحصرة ، فترسخ الملكة ويحصل الاتصاف والتحقيق ، ويجىء العلم الثانى النافع فى الآخرة . فإن العلم الأول المجرد عن الاتصاف قليل الجدوى والنفع ، وهذا علم أكثر النظار ، والمطلوب إنما هو العلم الحالى (١) الناشىء عن العادة .

واعلم أن الكمال عند الشارع فى كل ما كلف به إنما هو فى هذا . فماطلب اعتقاده فالكمال فيه فى العلم الثانى الحاصل عن الاتصاف . وما طلب عمله من العبادات فالكمال فيها فى حصول الاتصاف والتحقق بها . ثم إن الإقبال على العبادات والمواظبة عليها هو المحصل لهذه الثمرة الشريفة .قال صلى الله عليه وسلم فى رأس العبادات : « جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِى فى الصَّلَاةِ » . فإن الصلاة صارت له صفة

(١) أى العلم المصحوب بحال ، أى بصفة وعادة قائمة بالشخص

وحالا يجد فيها منتهى لذته وَقُرَّةَ عينه . وأين هذا من صلاة الناس ؟! ومَن لهم بها ؟! « فوَيْلٌ للمصلِّين الذِينَ هم عن صلاتِهم سَاهُون » (١) اللهم وفقنا ، و « اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أنعمْتَ عليهِم غَيْرِ المَغضُوبِ عَلَيهِم ولَا الضَّالِّين » .

فقد تبين لك من جميع ما قررناه أن المطلوب فى التكاليف كلها حصول ملكة راسخة فى النفس يحصل عنها علم اضطرارى للنفس هو التوحيد وهو العقيدة الإيمانية وهو الذى تحصل به السعادة ، وأن ذلك سواء فى التكاليف القلبية والبدنية . ويتفهم منه أن الإيمان الذى هو أصل التكاليف وينبوعها ، وهو بهذه المثابة ، ذو مراتب : أولها التصديق القلبى الموافق للسان ، وأعلاها حصول كيفية من ذلك الاعتقاد القلبي ومايتبعه من العمل مستولية على القلب ، فيستتبع الجوارح ، وتندرج فى طاعتها جميع التصرفات حتى تنخرط الأفعال كلها فى طاعة ذلك التصديق الإيمانى ، وهذا أرفع مراتب الإيمان وهو الإيمان الكامل الذى لا يقارف المؤمن معه صغيرة ولا كبيرة ، إذ حصول الملكة ورسوخها مانع من الانحراف عن مناهجه طرفة عين قال صلى الله عليه وسلم : « لا يَزْنِى الزَّانِى حِينَ يزْنِى وهُو مؤْمِنٌ » وفى حديث هرقل لما سأل أبا سفيان بن حرب عن النبى صلى الله عليه وسلم وأحواله ، فقال فى أصحابه هل يرتد أحد منهم سخطًا لدينه (بعد أن يدخل فيه)(٢) ؟ قال لا ! قال وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب . ومعناه أن ملكة الإيمان إذا استقرت عسر على النفس مخالفتها شأن الملكات إذا استقرت ، فإنها تحصل بمثابة الجبِلَّة والفطرة . وهذه هى المرتبة العالية من الإيمان . وهى فى المرتبة الثانية من العصمة ، لأن العصمة واجبة للأنبياء وجوبًا سابقًا ، وهذه حاصلة للمؤمنين حصولا تابعا لأعمالهم وتصديقهم . وبهذه الملكة ورسوخها يقع التفاوت فى الإيمان ، كالذى يتلى عليك من أقاويل السلف . وفى تراجم البخارى رضى الله عنه فى باب الإيمان كثير منه ، مثل أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص ، وأن الصلاة والصيام من الإيمان ، وأن تطوع رمضان من الإيمان ، والحياء من الإيمان . والمراد بهذا كله الإيمان الكامل الذى أشرنا إليه وإلى ملكته ، وهو فعلى . وأما التصديق الذى هو أول مراتبه فلا تفاوت فيه . فمن اعتبر أوائل الأسماء وحمله على التصديق منع من التفاوت ، كما قال أئمة المتكلمين . ومن اعتبر أواخر الأسماء وحمله على هذه الملكة التى هى الإيمان الكامل ظهر له التفاوت ، وليس ذلك بقادح فى اتحاد حقيقته الأولى التى هى التصديق ، إذ التصديق موجود فى جميع رتبه ، لأنه أقل ما يطلق عليه اسم الإيمان وهو المخَلِّص من عهدة الكفر ، والفيصلُ بين الكافر والمسلم ، فلا يُجْزِى أقل منه . وهو فى نفسه حقيقة واحدة لا تتفاوت ، وإنما التفاوت فى الحال الحاصلة عن الأعمال كما قلناه ، فافهم .

(١) آيتى ٤ ، ٥ من سورة الماعون .

(٢) مابين القوسين مثبت فقط فى منشورة د. وافى نقلا عن للنسخ الخطية التى يسميها « التيمورية » .

واعلم أن الشارع وصف لنا هذا الإيمان الذى فى المرتبة الأولى الذى هو تصديق ، وعين أمورا مخصوصة كلفنا التصديق بها بقلوبنا واعتقادها فى أنفسنا مع الإقرار بألسنتنا ، وهى العقائد التى تقررت فى الدين . قال صلى الله عليه وسلم ، وحين سئل عن الإيمان فقال : « أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وتؤمن بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وشره » . وهذه هى العقائد الإيمانية المقررة فى علم الكلام .

ولنشر إليها مجملة لِتَتَبَيَّنَ لك حقيقة هذا وكيفية حدوثه . فنقول : اعلم أن الشارع لما أمرنا بالإيمان بهذا الخالق الذى رد الأفعال كلها إليه وأفرده به كما قدمناه ، وعرفنا أن فى هذا الإيمان نجاتنا عند الموت إذا حضرنا ، لم يعرفنا بكنه حقيقة هذا الخالق المعبود ، إذ ذاك متعذر على إدراكنا ومن فوق طورنا . فكلفنا أولا اعتقاد تنزيهه فى ذاته عن مشابهة المخلوقين ، وإلا لما صح أنه خالق لهم لعدم الفارق على هذا التقدير ، ثم تنزيهه عن صفات النقص وإلا لشابه المخلوقين ، ثم توحيده بالإيجاد وإلا لم يتم الخلق للتمانع[1] ، ثم اعتقاد أنه عالم قادر فبذلك تتم الأفعال شاهد قضيته لكمال الإيجاد والخلق ، ومريد وإلا لم يخصص شىء من المخلوقات ، ومقدر لكل كائن وإلا فالإرادة حادثة ، وأنه يعيدنا بعد الموت تكميلا لعنايته بالإيجاد الأول ، ولو كان للفناء

(١) التمانع الذى يحدثه تعدد الآلهة كما قال سبحانه : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » .

الصرف كان عبثا[1] ، فهو للبقاء السرمدى بعد الموت ، ثم اعتقاد بعثة الرسل للنجاة من شقاء هذا المعاد لاختلاف أحواله بالشقاء والسعادة ، وعدم معرفتنا بذلك وتمام لطفه بنا فى الإيتاء بذلك وبيان الطريقتين وأن الجنة للنعيم وجهنم للعذاب . هذه أمهات العقائد الإيمانية معللة بأدلتها العقلية ؛ وأدلتها من الكتاب والسنة كثيرة . وعن تلك الأدلة أخذها السلف وأرشد إليها العلماء وحققها الأئمة .

إلا أنه عرض بعد ذلك خلاف فى تفاصيل هذه العقائد أكثر مثارها من الآى المتشابهة فدعا ذلك إلى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة إلى النقل فحدث بذلك علم الكلام .

ولنبين لك تفصيل هذا المجمل ؛ وذلك أن القرآن ورد فيه وصف المعبود بالتنزيه المطلق الظاهر الدلالة من غير تأويل فى آى كثيرة ، هى سلوب[2] كلها وصريحة فى بابها ، فوجب الإيمان بها ، ووقع فى كلام الشارع صلوات الله عليه وكلام الصحابة والتابعين تفسيرها على ظاهرها . ثم وردت فى القرآن آىٌ أخرى قليلة توهم التشبيه مرة فى الذات وأخرى فى الصفات .

فأما السلف فغلبوا أدلة التنزيه لكثرتها ووضوح دلالتها . وعلموا استحالة التشبيه وقضوا بأن الآيات من كلام الله فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولا تأويل . وهذا معنى قول الكثير منهم :

(١) هكذا فى مشورة د. وأتى نقلا عن النسخة الخطية التى يسميها التيمورية . وقد وردت محرفة فى جميع النسخ المطبوعة الأخرى
(٢) أى سالبة عن الله التشبيه بالخلق .

« اقرءوها كما جاءت » ، أى آمنوا بأنها من عند الله ولا تتعرضوا لتأويلها ولا تفسيرها ، لجواز أن تكون ابتلاء ، فيجب الوقف والإذعان له.

وشذ لعصرهم مبتدعة اتبعوا ما تشابه من الآيات وتوغلوا فى التشبيه ، ففريق أشبهوا فى الذات باعتقاد اليد والقدم والوجه عملا بظواهر وردت بذلك. فوقعوا فى التجسيم الصريح ومخالفة آى التنزيه المطلق ، التى هى أكثر موارد وأوضح دلالة ، لأن معقولية الجسم تقتضى النقص والافتقار وتغليب آيات السلوب . فى التنزيه المطلق التى هى أكثر موارد وأوضح دلالة أولى من التعلق بظواهر هذه الآيات التى لنا عنها غنية ، وجمع بين الدليلين بتأويلهم . ثم يفرون من شناعة ذلك بقولهم جسم لا كالأجسام ، وليس ذلك بدافع منهم لأنه قول متناقض ، وجمع بين نفى وإثبات إن كان لمعقولية[1] واحدة من الجسم ، وإن خالفوا بينهما ونفوا المعقولية المتعارفة فقد وافقونا فى التنزيه ، ولم يبق إلا جعلهم لفظ الجسم اسما من أسمائه ، ويتوقف مثله على الإذن [2] . وفريق منهم ذهبوا إلى التشبيه فى الصفات كإثبات الجهة والاستواء والنزول والصوت والحرف وأمثال ذلك ، وآل قولهم إلى التجسيم ، فنزعوا مثل الأولين إلى قولهم صوت لا كالأصوات ، جهة لا كالجهات نزول لا كالنزول ، يعنون من الأجسام ، واندفع ذلك بما اندفع به الأول . ولم يبق فى هذه الظواهر إلا اعتقادات السلف ومذاهبهم والإيمان بها كما هى ، لئلا يكر النفي لمعانيها على نفيها ، مع أنها صحيحة ثابتة فى القرآن . وإلى هذا تنظر ما تراه فى « عقيدة الرسالة » لابن أبى زيد وكتاب المختصر له [1] ، وفى كتاب الحافظ بن عبد البر وغيرهم ، فإنهم يحومون على هذا المعنى . ولا تغمض عينك عن القرائن الدالة على ذلك فى غضون كلامهم[2] .

ثم لما كثرت العلوم والصنائع وولع الناس بالتدوين والبحث فى الأنحاء ، وألف المتكلمون فى التنزية حدثت بدعة المعتزلة فى تعميم هذا التنزيه فى آى السلوب ، فقضوا بنفى صفات المعانى من العلم والقدرة والإدارة والحياة زائدة على أحكامها ، لما يلزم على ذلك من تعدد القديم بزعمهم ، وهو مردود بأن الصفات ليست عين الذات ولاغيرها ! وقضوا بنفى السمع والبصر لكونهما من عوارض الأجسام ، وهو مردود لعدم اشتراط البنية فى مدلول هذا اللفظ، وإنما هو إدراك المسموع أو المبصر ، وقضوا بنفى الكلام لشبه ماقى السمع والبصر ، ولم يعقلوا صفة الكلام التى تقوم بالنفس ، فقضوا بأن القرآن مخلوق ، وذلك بدعة صرح السلف بخلافها [3] . وعظم ضرر

(١) يريد بالمعقولية المدلول . أى إن أطلقوا لفظى الجسم فى قولهم « جسم لا كالأجسام » على مدلول واحد ...

(٢) يعنى أن هذه التسمية لا تجوز إلا بإذن من الشارع ؛ لأن أسماء الله توقيفية » .

(١) أى وبهذا المعنى ينبغى أن تفسر العبارات التى تجدها فى كتاب « عقيدة الرسالة » لابن أبى زيد ... إلخ .

(٢) سيدرس موضوع المتشابه دراسة وافية فى الفصل التالى لهذا مباشرة » .

(٣) انظر تفصيل هذا الموضوع فى تعليق ١٤٣٥ من منشورة « د. وافى » .

هذه البدعة ، ولقنها بعض الخلفاء عن أئمتهم ؛ فحمل الناس عليها ، وخالفهم أئمة السلف ، فاستحل لخلافهم إيسار[١] كثير منهم ودماؤهم[٢] .

وكان ذلك سبباً لانتهاض أهل السنة بالأدلة العقلية على هذه العقائد دفعاً فى صدور هذه البدع ؛ وقام بذلك الشيخ أبو الحسن الأشعرى إمام المتكلمين ، فتوسط بين الطرق ، ونفى التشبيه ، وأثبت الصفات المعنوية وقصر التنزيه على ماقصره عليه السلف وشهدت له الأدلة المخصصة لعمومه . فأثبت الصفات الأربع المعنوية والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريق النقل والعقل ورد على المبتدعة فى ذلك كله ، وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والأصلح والتحسين والتقبيح ، وكمل العقائد فى البعث وأحوال الجنة والنار والثواب والعقاب ، وألحق بذلك الكلام فى الإمامة لما ظهر حينئذ من بدعة الإمامية من قولهم إنها من عقائد الإيمان ، وإنه يجب على النبى تعيينها والخروج عن العهدة فى ذلك لمن هى له ، وكذلك على الأمة . وقصارى أمر الإمامة أنها قضية مصلحية إجماعية ولا تلحق بالعقائد ، فلذلك ألحقوها بمسائل هذا هذا الفن . وسموا مجموعه علم الكلام ، إما لما فيه من المناظرة على البدع ، وهى كلام صرف وليست براجعة إلى عمل ، وإما لأن سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم فى إثبات الكلام النفسى .

وكثر أتباع الشيخ أبى الحسن الأشعرى ، واقتفى طريقته من بعده تلميذه كابن مجاهد وغيره ، وأخذ عنهم القاضى أبو بكر الباقلانى فتصدر للإمامة فى طريقتهم ، وهذبها ووضع المقدمات العقلية التى تتوقف عليها الأدلة والأنظار ، وذلك مثل إثبات الجوهر الفرد والخلاء ، وأن العرض لايقوم بالعرض وأنه لايبقى زمانين ، وأمثال ذلك مما تتوقف عليه أدلتهم ، وجعل هذه القواعد تبعا للعقائد الإيمانية فى وجوب اعتقادها لتوقف تلك الأدلة عليها ، وأن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول . وجملت هذه الطريقة وجاءت من أحسن الفنون النظرية والعلوم الدينية . إلا أن صور (الأدلة فيها «جاءت» بعض الأحيان على غير الوجه القناعى[١] لسذاجة القوم ولأن صناعة المنطق التى تسير بها[٢]) الأدلة وتعتبر بها الأقيسة لم تكن حينئذ ظاهرة فى الملة ، ولو ظهر منها بعض الشىء لم يأخذ به المتكلمون لملابستها للعلوم الفلسفية المباينة لعقائد الشرع بالجملة ، فكانت مهجورة عندهم لذلك . ثم جاء بعد القاضى أبى بكر الباقلانى إمام الحرمين أبو المعالى ، فأملى فى

---

(١) فى المصباح « آسرت الرجل لغة فى أسرته » فكلمة الإيسار فى عبارة ابن خلدون جارية على هذه اللغة ، ومعناها الأسر والاعتقال.

(٢) كان من نزلت بهم هذه المحن لعدم قولهم بخلق القرآن الإمام أحمد بن حنبل . فشد وثاقه وكبل بالحديد فى عهد المأمون ثم اشتد به البلاء على عهد المعتصم حيث ضرب بالسياط المرة بعد الأخرى ولم يكن يترك حتى يغمى عليه ثم ينخس بالسيف فلا يحس وحبس ثمانية وعشرين شهراً ... إلخ . (انظر تفصيل هذا الموضوع فى تعليق ١٤٣٨ من منشورة د. وافى) .

---

(١) نسبة إلى القناعة بمعنى الاقتناع .

(٢) المحصور بين القوسين مثبت فى منشورة د. وافى نقلا نسخة خطية .

الطريقة كتاب « الشامل » وأوسع القول فيه ، ثم لخصه فى كتاب «الإرشاد» واتخذه الناس إماما لعقائدهم /

ثم انتشرت من بعد ذلك علوم المنطق فى الملة وقرأة الناس وفرقوا بينه وبين العلوم الفلسفية بأنه قانون ومعيار للأدلة فقط يسبر به الأدلة منها كما يسبر ماسواها . ثم نظروا فى تلك القواعد والمقدمات فى فن الكلام للأقدمين فخالفوا الكثير منها بالبراهين التى أدتهم إلى ذلك ، وربما أن كثيراً منها مقتبس من كلام الفلاسفة فى الطبيعيات والإلاهيات ، فلما سبروها بمعيار المنطق ردهم إلى ذلك فيها . ولم يعتقدوا ببطلان المدلول من بطلان دليلة كما صار إليه القاضى[1] . فصارت هذه هذه الطريقة من مصطلحهم مباينة للطريقة الأولى ، وتسمى طريقة المتأخرين . وربما أدخلوا فيها الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه من العقائد الإيمانية وجعلوهم من خصوم العقائد لتناسب الكثير من مذاهب المبتدعة ومذاهبهم . وأول من كتب فى طريقة الكلام على هذا المنحى الغزالى رحمه الله ، وتبعه الإمام ابن الخطيب[2] وجماعة قفوا أثرهم واعتمدوا تقليدهم . ثم توغل المتأخرون من بعدهم فى مخالطة كتب الفلسفة والتبس عليهم شأن الموضوع فى العلمين فحسبوه فيهما واحداً من اشتباه المسائل فيهما .

واعلم أن المتكلمين لما كانوا يستدلون فى أكثر أحوالهم بالكائنات وأحوالها على وجود البارى وصفاته ، وهو نوع استدلالهم غالباً ، والجسم الطبيعى ينظر فيه الفيلسوف فى الطبيعيات وهو بعض من هذه الكائنات ، إلا أن نظره فيهامخالف لنظر المتكلم ، وهو ينظر فى الجسم من حيث يتحرك ويسكن ، والمتكلم ينظر فيه من حيث يدل على الفاعل . وكذا نظر الفيلسوف فى الإلاهيات إنما هو نظر فى الوجود المطلق ومايقتضيه لذاته ،ونظر المتكلم فى الوجود من حيث إنه يدل على الموجد .

وبالجملة فموضوع علم الكلام عند أهله إنما هو العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع ، من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية فترفع البدع وتزول الشكوك والشبة عن تلك العقائد .

وإذا تأملت حال الفن فى حدوثه وكيف تدرج كلام الناس فيه صدراً بعد صدر ، وكلهم يفرض العقائد صحيحة ويستنهض الحجج والأدلة علمت حينئذ ماقررناه لك فى موضوع الفن وأنه لا يعدوه .

ولقد اختلطت الطريقتان عند هؤلاء المتأخرين والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لايتميز أحد الفنين من الآخر ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم كما فعله البيضاوى فى الطوالع ، ومن جاء بعده من علماء العجم فى جميع تآليفهم . إلا أن هذه الطريقة قد يعنى بها بعض طلبة العلم للاطلاع على المذاهب والاغراق فى معرفة الحجاج

---

(١) يقصد القاضى أبا بكر الباقلانى الذى ذكر مذهبه فيما سبق وقال إنه يرى « أن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول » .

(٢) هو الإمام فخر الدين الرازى .

لوفور ذلك فيها . وأما محاذاة طريقة السلف بعقائد علم الكلام فانما هو للطريقة القديمة للمتكلمين وأصلها كتاب «الارشاد» ، وما حذا حذوه .

ومن أراد إدخال الرد على الفلاسفة فى عقائده فعليه بكتب الغزالى والامام ابن الخطيب ، فانها وإن وقع فيها مخالفة للاصلاح القديم فليس فيها من الاختلاط فى المسائل والالتباس فى الموضوع ماقى طريقة هؤلاء المتأخرين من بعدهم .

وعلى الجملة فينبغى أن يعلم الذى هو علم الكلام غير ضرورى لهذا العهد على طالب العلم ، إذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودونوا ، والأدلة العقلية إنما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا ؛ وأما الآن فلم يبق منها إلا كلام تنزه البارىء عن كثير إيهاماته وإطلاقه . ولقد سئل الجنيد رحمه الله عن قوم مرّ بهم من المتكلمين يفيضون فيه ، فقال : ما هؤلاء ؟ فقيل : قوم ينزهون الله بالأدلة عن صفات الحدوث وسمات النقص ، فقال : «نفىُ العيب حيث يستحيلُ العيبُ عيبُ » . لكن فائدته فى آحاد الناس وطلبة العلم فائدة معتبرة ، إذ لا يحسن بحامل السنة الجهل بالحجاج النظرية على عقائدها . والله ولى المؤمنين .

١٧ـ فصل فى كشف الغطاء عن المتشابه من الكتاب والسنة وماحدث لأجل ذلك من طوائف السنية والمبتدعة(١) فى الاعتقاد

إعلم أن الله سبحانه بعث إلينا نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم يدعونا إلى النجاة والفوز بالنعيم ، وأنزل عليه الكتاب الكريم باللسان العربى المبين ، يخاطبنا فيه بالتكاليف المفضية بنا إلى ذلك . وكان فى خلال هذا الخطاب ومن ضروراته ذكر صفاته سبحانه وأسمائه ليعرفنا بذاته ، وذكر الروح المتعلقة بنا ، وذكر الوحى والملائكة الوسائط بينه وبين رسله إلينا . وذكر لنا يوم البعث وإنذاراته ، ولم يعين لنا الوقت فى شىء منها . وثبت فى القرآن الكريم حروف من الهجاء مقطعة فى أوائل بعض سورة لا سبيل لنا إلى فهم المراد بها . وسمى هذه الأنواع كلها من الكتاب متشابهة وذم على اتباعها فقال تعالى : «هو الذى أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات ، هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ؛ فاما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الالباب »(١). وحمل العلماء من سلف الصحابة والتابعين هذه الآية على أن على أن المحكمات هى المبينات الثابتة الاحكام .

ولذا قال الفقهاء فى اصطلاحهم : المحكم المتضح المعنى . وأما المتشابهات فلهم فيها عبارات . فقيل : هى التى تفتقر إلى نظر وتفسير يصحح معناها لتعارضها مع آية أخرى أو مع العقل فتخفى دلالتها وتشتبه . وعلى هذا قال ابن عباس : « المتشابه يؤمن به ولا يعمل به » . وقال مجاهد وعكرمة : « كل ما سوى آيات الأحكام والقصص متشابه » . وعليه القاضى أبو بكر وإمام الحرمين.

(١) هذا الفصل مثبت فى منشورة د. وأى نقلا عن نسخة خطية وعن طبعة باريس .

(١) آية ٧ من سورة آل عمران .

وقال الثورى والشعبي وجماعة من علماء السلف : المتشابه ما لم يكن سبيل إلى علمه كشروط[١] الساعة وأوقات الإنذارات وحروف الهجاء فى أوائل السور . وقوله فى الآية : « هن أُم الكتاب » أى معظمه وغالبه ، والمتشابه أقله . وقد يرد إلى المحكم. ثم ذم المتبعين للمتشابه بالتأويل أو بحملها على معان لاتفهم منها فى لسان العرب الذى خوطبنا به ، وسماهم أهل زيغ أى ميل عن الحق من الكفار والزنادقة وجهلة أهل البدع ، وأن فعلهم ذلك قصد الفتنة التى هى الشرك أو اللبس على المؤمنين ، أو قصداً لتأويلها بما يشتهونه ، فيقتدون بهم فى بدعتهم . ثم أخبر سبحانه بأنه استأثر بتأويلها ولا يعلمه إلا هو فقال : « وما يعلم تأويله إلا الله » ثم أثنى على العلماء بالإيمان بها فقط ، فقال : « والراسخون فى العلم يقولون آمنا به » . ولهذا جعل السلف « والراسخون » مستأنفا ، ورجحوه على العطف[٢] لأن الإيمان بالغيب أبلغ فى الثناء ، ومع عطفه إنما يكون إيمانا بالشاهد[٣] لأنهم يعلمون التأويل حينئذ فلا يكون غيبا . ويعضد ذلك قوله : « كل من عند ربنا » . ويدل على أن التأويل فيها غير معلوم للبشر أن الألفاظ اللغوية إنما يفهم منها المعانى التى وضعها العرب لها ، فإذا استحال إسناد الخبر إلى مخبر عنه جهلنا مدلول الكلام حينئذ . وإن جاءنا من عند الله فوضنا علمه إليه ، ولا نشغل أنفسنا بمدلول نلتمسه ؛ فلا سبيل لنا إلى ذلك[١] . وقد قالت عائشة رضى الله عنها : « إذا رأيتم الذين يجادلون فى القرآن ، فهم الذين عنى الله ، فاحذروهم » . هذا مذهب السلف فى الآيات المتشابهة . وجاء فى السنة ألفاظ مثل ذلك محملها عندهم محمل الآيات ، لأن المنبع واحد .

وإذا تقررت أصناف المتشابهات على ما قلناه فلنرجع إلى اختلاف الناس فيها . فأما ما يرجع منها على ما ذكروه إلى الساعة وأشراطها وأوقات الإنذارات ، وعدد الزبانية وأمثال ذلك ، فليس هذا ، والله أعلم ، من المتشابه ؛ لأنه لم يرد فيه لفظ مجمل ولا غيره ، وإنما هى أزمنة لحادثات استأثر الله بعلمها بنصه فى كتابه وعلى لسان نبيه ، وقال إنما علمها عند الله . والعجب ممن عدها من المتشابهة . وأما الحروف المقطعة أوائل السور فحقيقتها حروف الهجاء ، وليس ببعيد أن تكون مرادة . وقد قال الزمخشرى : « فيها إشارة إلى بعد الغاية فى الإعجاز ، لأن القرآن المنزل مؤلف منها ، والبشر فيها سواء ، والتفاوت موجود فى دلالتها بعد التأليف » . وإن عدل عن هذا الوجه الذى يتضمن الدلالة على الحقيقة ، فإنما يكون بنقل صحيح كقولهم فى طه إنه نداء من

(١) الصحيح «أشراط الساعة» أى علاماتها جمع شرط بفتحتين أى العلامة .

(٢) أى جعل السلف كلمة « والراسخون » فى الآية مستأنفة على أنها مبتدأ خبره جملة « يقولون آمنا به » ، ورجحوا ذلك على عطفه على لفظ الجلالة .

(٣) الشاهد ما يقابل الغيب .

(١) فمثلا صفة الاستواء التى أسندت إلى الله تعالى قوله : « الرحمن على العرش استوى » (آية ٥ من سورة ٠) يستحيل إسنادها بحسب مدلولها اللغوى إلى المخبر عنه وهو الله تعالى ، وحينئذ نجهل مدلول الكلام ، ولكن لما كان هذا الخبر قد جاء من عند الله فإننا نفوض علمه لله ولا نشغل أنفسنا بتأويل آخر نلتمسه .

طاهر وهادى وأمثال ذلك ، والنقل الصحيح متعذر ، فيجىء المتشابه فيها من هذا الوجه . وأما الوحى والملائكة والروح والجن فاشتباهها من خفاء دلالتها الحقيقية لأنها غير متعارفة ، فجاء التشابه فيها من أجل ذلك . وقد ألحق بعض الناس بها كل ما فى معناها من أحوال القيامة والجنة والنار والدجال والفتن والشروط ، وما هو بخلاف العوائد المألوفة ، وهو غير بعيد ؛ إلا أن الجمهور لا يوافقونهم عليه ، وسيما المتكلمون ، فقد عينوا محاملها على ما تراه فى كتبهم . ولم يبق من المتشابه إلا الصفات التى وصف الله بها نفسه فى كتابه وعلى لسان نبيه مما يوهم ظاهره نقصا أو تعجيزا وقد اختلفت الناس فى هذه الظواهر من بعد السلف الذين قررنا مذهبهم وتنازعوا وتطرقت البدع إلى العقائد . فلنشر إلى بيان مذهبهم وإيثار الصحيح منها على الفاسد ، فنقول ، وما توفيقى إلا بالله :

اعلم أن الله سبحانه وصف نفسه فى كتابه بأنه عالم قادر مريد حى سميع بصير متكلم جليل كريم جواد منعم عزيز عظيم ؛ وكذا أثبت لنفسه اليدين والعينين والوجه والقدم واللسان إلى غير ذلك من الصفات . فمنها ما يقتضى صحة الألوهية مثل العلم والقدرة والإرادة ثم الحياة التى هى شرط جميعها . ومنها ما هى صفة كمال كالسمع والبصر والكلام . ومنها ما يوهم النقص كالاستواء والنزول والمجىء ، وكالوجه واليدين والعينين التى هى صفات المحدثات . ثم أخبر الشارع أننا نرى ربنا يوم القيامة كالقمر ليلة البدر ، لانضام فى رؤيته ، كما ثبت فى الصحيح . فأما السلف من الصحابة والتابعين فأثبتوا له صفات الألوهية والكمال وفوضوا إليه مايوهم النقص (١) ساكتين عن مدلوله . ثم اختلف الناس من بعدهم . وجاء المعتزلة فأثبتوا هذه الصفات أحكاما ذهنية مجردة ولم يثبتوا صفة تقوم بذاته ؛ وسموا ذلك توحيدا . وجعلوا الإنسان خالقا لأفعاله ولا تتعلق بها قدرة الله تعالى ، سيما الشرور والمعاصى منها ، إذ يمتنع على الحكيم فعلها . وجعلوا مراعاة الأصلح للعباد واجبة عليه ، وسموا ذلك عدلا ، بعد أن كانوا أولا يقولون بنفى القدر ، وإن الأمر كله مستأنف بعلم حادث وقدرة وإرادة كذلك كما ورد فى الصحيح وأن عبد الله بن عمر تبرأ من معبد الجهنى (٢) وأصحابه القائلين بذلك ، وانتهى نفى القدر إلى واصل بن عطاء الغزالى (٣) منهم تلميذ الحسن البصرى لعهد عبد الملك بن مروان ثم آخرا إلى معمر السلمى ورجعوا عن القول به . وكان منهم أبو الهذيل العلاف وهو شيخ المعتزلة ، أخذ الطريقة عن عثمان بن خالد الطويل عن واصل ، وكان من نفاة القدر ، واتبع رأى الفلاسفة فى نفى الصفات الوجودية لظهور مذاهبهم يومئذ . ثم جاء

---

(١) التفويض فى مذهب السلف أن يقال إن مداول هذه الأشياء مفوض علمه إلى الله . وأما التأويل فى مذهب الأشاعرة فيتمثل فى تفسير اليدين بالقدرة والوجه بالذات مجازا .. وهكذا ، كما سيذكر ذلك ابن خلدون فيما بعد .

(٢) هو معبد بن عبد الله الجهنى ، وهو أول من قال بنفى القدر وإثبات الاختيار المطلق .

(٣) هكذا فى الأصل . ويرجح الدكتور على عبد الواحد وافى أن الكلمة محرفة عن المعتزلى .

إبراهيم النظام وقال بالقدر واتبعوه ، وطالع كتب الفلاسفة وشدد فى نفى الصفات ، وقرر قواعد الاعتزال ثم جاء الجاحظ. والكعبى الجبائى وكانت طريقتهم تسمى علم الكلام : إما لما فيها من الحجاج والجدال ، وهو الذى يسمى كلاما ؛ وإما أن أصل طريقتهم نفى صفة الكلام . فلهذا كان الشافعى يقول : « حقهم أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم » وقرر هؤلاء طريقتهم وأثبتوا منها وردوا . إلى أن ظهر الشيخ أبو الحسن الأشعرى وناظر بعض مشيختهم فى مسائل الصلاح والأصلح ، فرفض طريقتهم ، وكان على رأى عبد الله بن سعيد بن كلاب وأبى العباس القلانسى والحارث ابن أسد المحاسبى من أتباع السلف وعلى طريقة السنة ، ففند مقالاتهم بالحجج الكلامية وأثبت الصفات القائمة بذات الله تعالى من العلم والقدرة والإرادة التى يتم بها دليل التمانع وتصح المعجزات للأنبياء . وكان من مذهبهم إثبات الكلام والسمع والبصر ، لأنها وإن أوهم ظاهرها النقص بالصوت والحرف الجسمانين فقد وجد للكلام عند العرب مدلول آخر غير الحروف والصوت وهو مايدور فى الخلد . والكلام حقيقة فيه دون الأول . فأثبتوه لله تعالى ، وانتفى إيهام النقص ، وأثبتوا هذه الصفة قديمة عامة التعلق كشأن الصفات الأخرى ، وصار القرآن اسما مشتركا بين القديم بذات الله تعالى ، وهو الكلام النفسى ، والمحدث الذى هو الحروف المؤلفة المقروءة بالأصوات . فإذا قيل قديم فالمراد الأول ، وإذا قيل مقروء مسموع فلدلالة القراءة والكتابة عليه . وتورع الإمام أحمد بن حنبل من إطلاق لفظ الحدوث عليه ؛ لأنه لم يسمع من السلف قبله ، لا أنه يقول إن المصاحف المكتوبة قديمة ، ولا أن القراءة الجارية على الألسنة قديمة ، وهو يشاهدها محدثة . وإنما منعه من ذلك الورع الذى كان عليه . وأما غير ذلك فإنكار للضروريات ، وحاشاه منه ، وأما السمع والبصر ، وإن كان يوهم إدراك الجارحة ، فهو يدل أيضا لغة على إدراك المسموع والمبصر ، وينتفى إيهام النقص حينئذ ، لأنه حقيقة لغوية فيهما . وأما لفظ الاستواء والمجىء والنزول والوجه واليدين والعينين وأمثال ذلك فعدلوا عن حقائقها اللغوية لما فيها من إيهام النقص بالتشبيه إلى مجازاتها على طريقة العرب حيث تتعذر حقائق الألفاظ ، فيرجعون إلى المجاز ، كما فى قوله تعالى : «يريد أن ينقض[1] » وأمثاله : طريقة معروفة لهم غير منكرة ولا مبتدعة . وحملهم على هذا التأويل ، وإن كان مخالفًا لمذهب السلف فى التفويض ، أن جماعة من أتباع السلف وهم المحدثون والمتأخرون من الحنابلة ارتكبوا فى محمل هذه الصفات ؛ فحملوها على صفات ثابتة لله تعالى مجهولة الكيفية ، فيقولون فى «استوى على العرش » نثبت له استواء بحسب مدلول اللفظ فرارًا من تعطيله ، ولا نقول بكيفية فرارا من القول بالتشبيه الذى تنفيه آيات السلوب ، من قوله : «ليس كمثله شىء » ؛ «سبحان الله عما

(١) إشارة إلى قوله تعالى فى قصة موسى والخضر « فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه » (آية ٧٧ من سورة الكهف).

يصفون » ؛ « تعالى الله عما يقول الظالمون »(١) ؛ «لم يلد ولم يولد » . ولا يعلمون مع ذلك أنهم ولجوا من باب التشبيه فى قولهم بإثبات الاستواء والاستواء عند أهل اللغة إنما موضوعة الاستقرار والتمكن وهو جسمانى . وأما التعطيل الذى يشنعون بإلزامه ، وهو تعطيل اللفظ ، فلا محظور فيه ، وإنما المحظور فى تعطيل الإلاه . وكذلك يشنعون بإلزام التكليف بما لا يطاق ؛ وهو تمويه : لأن التشابه لم يقع فى التكاليف . ثم يدعون أن هذا مذهب السلف ، وحاشا لله من ذلك ؛ وإنما مذهب السلف ما قررناه أولا من تفويض المراد بها إلى الله والسكوت عن فهمها .

وقد يحتجون لإثبات الاستواء لله بقول مالك «الاستواء معلوم والكيف مجهول » ؛ ولم يُرد مالك أن الاستواء معلوم الثبوت لله ، وحاشاه من ذلك ، لأنه يعلم مدلول الاستواء ؛ وإنما أراد أن الاستواء معلوم من اللغة وهو الجسمانى ، وكيفيته ، أى حقيقته ، لأن حقائق الصفات كلها كيفيات ، هى مجهولة الثبوت لله . وكذلك يحتجون على إثبات المكان بحديث السوداء ، وأنها لما قال لها النبى صلى الله عليه وسلم : أين الله ؟ وقالت : فى السماء؟ فقال : أعتقها فإنها مؤمنة . والنبى صلى الله عليه وسلم لم يثبت لها الإيمان بإثباتها المكان لله ، بل لأنها آمنت بما جاء به من ظواهر أن الله فى السماء ، فدخلت فى جملة الراسخين الذين يؤمنون بالمتشابه من غير كشف عن معناه . والقطع بنفى المكان حاصل من دليل العقل النافى للافتقار ، ومن أدلة السلوب المؤذنة بالتنزيه ، مثل «ليس كمثله شئ » وأشباهه ، ومن قوله : « وهو الله فى السموات وفى الأرض » ، إذ الموجود لا يكون فى مكانين ، فليست « فى » هنا للمكان قطعا والمراد غيره . ثم طردوا ذلك المحمل (١) الذى ابتدعوه فى ظواهر الوجه والعينين واليدين والنزول والكلام بالحرف والصوت ، يجعلون لها مدلولات أعمّ من الجسمانية وينزهون عن مدلول الجسمانى منها . وهذا شئ لا يعرف فى اللغة . وقد درج على ذلك الأول والآخر منهم . ونافرهم أهل السنة من المتكلمين الأشعرية والحنفية ورفضوا عقائدهم فى ذلك . ووقع بين متكلمى الحنفية ببخارى وبين الإمام محمد بن إسماعيل البخارى ما هو معروف .

وأما المجسّمة ففعلوا مثل ذلك فى إثبات الجسمية وأنها لا كالأجسام ؛ ولفظ الجسم لم يثبت فى منقول الشرعيات . وإنما جرّأهم عليه إثبات هذه الظواهر «لها » ؛ فلم يقتصروا عليه ، بل توغلوا وأثبتوا الجسمية ، يزعمون فيها مثل ذلك ، وينزهونه بقول متناقض سفساف ، وهو قولهم «جسم لا كالأجسام » . والجسم فى لغة العرب هو العميق المحدود ، و « أما »(٢) غير هذا التفسير ، من أنه القائم بالذات أو المركب من الجواهر وغير ذلك فاصطلاحات للمتكلمين يريدون

(١) ليس هذا نصاً قرآنياً ، والذى فى القرآن هو قوله تعالى : «سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيراً » (آية ٤٣ من سورة الإسرا ء)

(١) أى جعلوا هذا المحمل من التفسير مطرداً فى جميع الآيات التى تدل ظواهرها على الوجه والعين ... إلخ .

(٢) « أما » زادها الدكتور وافى ليستقيم المعنى .

بها غير المدلول اللغوى . فلهذا كان المجسمة أوغل فى البدعة ، بل والكفر ، حيث أثبتوا لله وصفا موهمايوهم النقص لم يرد فى كلامه ولا كلام نبيه .

فقد تبين لك الفرق بين مذاهب السلف والمتكلمين السنية والمحدثين والمبتدعة من المعتزلة والمجسمة بما أطلعناك عليه .

وفى المحدثين غلاة يسمّون المشبهة لتصريحهم بالتشبيه ؛ حتى إنه يحكى عن بعضهم أنه قال ؛ أعفونى من اللحية والفرج وسلوا عما بدا لكم من سواهما ؛ وإن لم يتأول ذلك لهم بأنهم يريدون حصر ما ورد من هذه الظواهر الموهمة وحملها على ذلك المحمل الذى لأئمتهم ، وإلا فهو كفر صريح والعياذ بالله . وكتب أهل السنة مشحونة بالحجاج على هذه البدع وبسط الرد عليهم بالأدلة الصحيحة وإنما أومأنا إلى ذلك إيماء يتميز به فصولات المقالات وجملها . «والحمد لله الذى هدانا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله[1] » .

وأما الظواهر الخفية الأدلة والدلالة كالوحى والملائكة والروح والجن والبرزخ وأحوال القيامة والدجال والفتن والشروط وسائر ما هو متعذر على الفهم أو مخالف للعادات : فإن حملناه على ما يذهب إليه الأشعرية فى تفاصيله ، وهم أهل السنة ، فلا تشابه ؛ وإن قلنا فيه بالتشابه فلنوضح القول فيه بكشف الحجاب عنه فنقول :

اعلم أن العالم البشرى أشرف العوالم من الموجودات وأرفعها . وهو ، وإن اتحدت حقيقة الإنسانية فيه ، فله أطوار يخالف كل واحد منها الآخر بأحوال تختص به ، حتى كأن الحقائق فيها مختلفة . فالطور الأول عالمه الجسمانى بحسه الظاهر وفكره المعاشى وسائر تصرفاته التى أعطاها إياه وجوده الحاضر .

الطور الثانى : عالم النوم وهو تصور الخيال بانفاذ تصوراته جائلة فى باطنه ، فيدرك منها بحواسه الظاهرة مجردة عن الأزمنة والأمكنة وسائر الأحوال الجسمانية ، ويشاهدها فى مكان ليس هو فيه . ويحدث للصالح منها البُشرى بما يترقب من مسراته الدنيوية والأخروية ، كما وعد به الصادق صلوات الله عليه . وهذان الطوران عامان فى جميع أشخاص البشر ، وهما مختلفان فى المدارك كما ترى .

الطور الثالث : طور النبوة وهو خاص باشراف صنف البشر بما خصهم الله به من معرفته وتوحيده وتنزل ملائكته عليهم بوحيه وتكليفهم باصلاح البشر فى أحوال كلها مغايرة لأحوال البشرية الظاهرة .

الطور الرابع : طور الموت الذى تفارق أشخاص البشر فيه حياتهم الظاهرة إلى وجود قبل القيامة يسمى البرزخ ، يتنعمون فيه ويعذبون على حسب أعمالهم ، ثم يفضون إلى يوم القيامة الكبرى ، وهى دار الجزاء الأكبر نعيما وعذاباً فى الجنة أو فى النار . — والطوران الأولان شاهدهما وجدانى . والطور الثالث النبوى شاهده المعجزة والأحوال المختصة بالأنبياء . والطور الرابع شاهده ماتنزل على الأنبياء من وحى الله تعالى فى المعاد وأحوال

(١) الآية رر : ٤٣ من سورة الأعراف .

البرزخ والقيامة ، مع أن العقل يقتضى به كما نبهنا الله عليه فى كثير من آيات البعث .

ومن أوضح الدلالة على صحتها أن أشخاص الإنسان لو لم يكن لهم وجود آخر بعد الموت غير هذه المشاهد ، يتلقى فيه أحوالا تليق به ، لكان إيجاده الأول عبثاً ؛ إذ الموت إذا كان عدما كان مآل الشخص إلى العدم ، فلا يكون لوجوده الأول حكمة ؛ والعبث على الحكيم محال (١) .
وإذا تقررت هذه الأحوال الأربعة فلنأخذ فى بيان مدارك الإنسان فيها كيف تختلف اختلافا بينا يكشف لك غور المتشابه :

فأما مداركه فى الطور الأول فواضحه جلية ، قال الله تعالى : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة(٢) » فبهذه المدارك يستولى على ملكات المعارف ويستكمل حقيقة إنسانيته ويوفى حق العبادة المفضية به إلى النجاة .

وأما مداركه فى الطور الثانى وهو طور النوم فهى المدارك التى فى الحس الظاهر بعينها ؛ لكن ليست فى الجوارح كما هى فى اليقظة . لكن الرائى يتيقن كل شىء أدركه فى نومه ، لايشك فيه ولا يرتاب مع خلو الجوارح عن الاستعمال العادى لها . والناس فى حقيقة هذه الحال فريقان . الحكماء ويزعمون أن الصور الخيالية يدفعها الخيال بحركة الفكر إلى الحس المشترك ، الذى هو الفصل المشترك بين الحس الظاهر والحس الباطن ، فتصور محسوسه بالظاهر فى الحواس كلها . ويشكل عليهم هذا بأن المرأى(١) الصادقة التى هى من الله تعالى أو من الملك أثبت وأرسخ فى الإدراك من المرأى الخيالية الشيطانية ، مع أن الخيال فيها على ماقرروه واحد ، الفريق الثانى المتكلمون ، أجملوا فيها القول ، وقالوا : هو إدراك يخلقه الله فى الحاسة فيقع كما يقع فى اليقظة . وهذا أليق وإن كنا لانتصور كيفيته . وهذا الإدراك النومى أوضح شاهد على مايقع بعده من المدارك الحسية فى الأطوار (التالية) .

وأما الطور الثالث وهو طور الأنبياء فالمدارك الحسية فيها مجهولة الكيفية عند وجدانيته عندهم بأوضح من اليقين(٢) . فيرى النبى الله والملائكة ويسمع كلام الله منه أو من الملائكة ، ويرى الجنة والنار والعرش والكرسى ، ويخترق السماوات السبع فى إسرائه ، ويركب البراق فيها ، ويلقى النبيين هنالك ، ويصلى بهم ، ويدرك أنواع المدارك الحسية كما يدرك فى طوره الجسمانى والنومى ، بعلم ضرورى يخلقه الله له ، لابالإدراك العادى للبشر فى الجوارح ولا يلتفت فى ذلك إلى مايقوله ابن سينا من تنزيله أمر النبوة على أمر النوم فى دفع الخيال صورة إلى الحس المشترك . فان الكلام عليهم هنا أشد من الكلام فى النوم . لأن هذا التنزيل طبيعة واحدة كما قررناه . فيكون على هذا حقيقة الوحى والرؤيا

---

(١) يشير بذلك إلى قوله تعالى : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » (آية ١١٥ من سورة المؤمنين) .
(٢) آية ٧٨ من سورة النحل .

(١) يعنى الرؤية الصادقة التى وردت فى الأثر « الرؤية الصالحة من الله والحلم من الشيطان » .
(٢) هكذا فى الأصل ، والعبارة غير واضحة المعنى .

من النبي واحدة فى يقينها وحقيقتها ، وليست كذلك على ما علمت من رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم قبل الوحي ستة أشهر ، وأنها كانت بدء الوحي ومقدمته . ويشعر ذلك بأنها رؤيا فى الحقيقة

وكذلك حال الوحي فى نفسه . فقد كان يصعب عليه ، ويقاسي منه شدة ، كما هى فى الصحيح ، حتى كان القرآن يتنزل عليه آيات مقطعات . وبعد ذلك نزل عليه «براءة» فى غزوة تبوك جملة واحدة ، وهو يسير على ناقته فلو كان ذلك من تنزل الفكر إلى الخيال فقط ، ومن الخيال إلى الحس المشترك لم يكن بين هذه الحالات فرق.

وأما الطور الرابع وهو طور الأموات فى برزخهم ، الذى أوله القبر ، وهم مجردون عن البدن ، أو فى بعثهم عندما يرجعون إلى الأجسام ، فمداركهم الحسية موجودة . فيرى الميت فى قبره الملكين يسائلونه ، ويرى مقعده من الجنة أو النار بعيني رأسه ، ويرى شهود الجنازة ويسمع كلامهم وخفق نعالهم فى الانصراف عنه ويسمع ما يذكرونه به من التوحيد أو من تلقين الشهادتين وغير ذلك .

وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على قليب[1] بدر وفيه قتلى المشركين من قريش وناداهم بأسمائهم . فقال عمر : يارسول الله! أتكلم هؤلاء الجيف؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع منهم لما أقول .

ثم فى البعثة يوم القيامة يعاينون بأسماعهم وأبصارهم ، كما كانوا يعاينون فى الحياة ، من نعيم الجنة على مراتبها . وعذاب النار على مراتبه ، ويرون الملائكة ويرون ربهم كما ورد فى الصحيح : «إنكم ترون ربكم يوم القيامة كالقمر ليلة البدر لا تضامون فى رؤيته» . وهذه المدارك لم تكن لهم فى الحياة الدنيا ، وهى حسية مثلها ، وتقع فى الجوارح بالعلم الضرورى الذى يخلقه الله كما قلناه .

وسر هذا أن تعلم أن النفس الانسانية هى تنشأ بالبدن ومداركه . فاذا فارقت البدن بنوم أو موت أو صار لنبي فى حالة الوحي من المدارك البشرية إلى المدرك الملكية ، فقد استصحبت ما كان معها من المدارك البشرية مجردة عن الجوارح ، فتدرك بها فى ذلك الطور أى إدراك شاءت منها أرفع من إدراكها وهى فى الجسد . قاله الغزالى رحمه الله . وزاد على ذلك أن للنفس الإنسانية صورة تبقى لها بعد المفارقة ، فيها العينان والأذنان وسائر الجوارح المدركة ، أمثالا لما كان فى البدن وصورا .

وأنا أقول إنما يشير بذلك إلى الملكات الحاصلة من تصريف هذه الجوارح فى بدنها زيادة على الادراك . فاذا تفطنت لهذا كله علمت أن هذه المدارك موجودة فى الأطوار الأربعة ، لكن ليس على ما كانت فى الحياة الدنيا ، وإنما هى تختلف بالقوة والضعف بحسب ما يعرض لها من الأحوال . ويشير المتكلمون إلى ذلك إشارة مجملة بأن الله يخلق فيها علما ضروريا ، بذلك تدرك أى مدرك كان . ويعنون به هذا القدر الذى أوضحناه

(١) القليب : البئر أو القديمة منها (القاموس) .

وهذه نبذة أومأنا بها إلى ما يوضح القول فى المتشابه . ولو أوسعنا الكلام فيه لقصرت المدارك عنه . فلنفزع إلى الله سبحانه فى لهداية والفهم عن أنبيائه وكتابه بما يحصل به الحق فى توحيدنا والظفر بنجاتنا . والله يهدى من يشاء .

١٨ – علم التصوف

هذا العلم من علوم الشريعة الحادثة فى الملة . وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهدية ، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والاعرض عن زخرف لدنيا وزينتها ، ولزهد فيما يقبل عليه لجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفرد عن لخلق فى لخلوة للعبادة . وكان ذلك عاما فى الصحابة ولسلف .

فلما فشا الاقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة .

وقال القشيرى رحمه الله : «ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس ، والظاهر أنه لقب ، ومن قال اشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوى » ، قال : «وكذلك من الصوف لانهم لم يختصو بلبسه » .

قلت : والأظهر إن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف ،وهم فى الغالب مختصون بلبسه ،لما كانوا عليه من مخالفة الناس فى لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف .

فلما اختص هؤلاء بمذهب الزهد والانفراد عن الخلق والاقبال على العبادة اختصوا بمواجد مدركة لهم . وذلك أن الانسان بما هو إنسان إنما يتميز عن سائر الحيوان بالإدراك وإدراكه نوعان : إدراك للعلوم والمعارف من اليقين والظن والشك والوهم ، وإدراك للأحوال القائمة من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضا والغضب والصبر والشكر وأمثال ذلك . فالمعنى(١) العاقل والمتصرف فى البدن ينشأ من إدراكات وإرادات وأحوال ، وهى التى يميز بها الانسان كما (قلناه) . وبعضها ينشأ من بعض كما ينشأ العلم من الأدلة ، والفرح والحزن عن إدراك المؤلم أو المتلذذ به ، والنشاط عن الحمام ، والكسل عن الاعياء . وكذلك المريد فى مجاهدته وعبادته لابد وأن ينشأ له عن كل مجاهدة حال (هى) نتيجة لتلك المجاهدة . وتلك الحالة : إما أن تكون نوع عبادة فترسخ وتصير مقاماً للمريد ، وإما أن لا تكون عبادة وإنما تكون صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أو غير ذلك . والمقامات لا يزال المريد يترقى فيها من مقام إلى مقام إلى أن ينتهى إلى التوحيد والمعرفة التى هى الغاية المطلوبة للسعادة . قال صلى الله عليه وسلم : «من مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة » . فالمريد لا بد له من الترقى فى هذه الأطوار وأصلها كلها الطاعة والاخلاص ويتقدمها الإيمان ويصاحبها ، وتنشأ عنها الاحوال والصفات نتائج وثمرات ، ثم تنشأ عنها أخرى وأخرى ، إلى مقام

(١) هكذا فى طبعة باريس . وفى الطبعات المتداولة « فالروح العاقل » : وطبعة باريس أوضح .

التوحيد والعرفان . وإذا وقع تقصير فى النتيجة أو خلل فيعلم أنه إنما أتى من قبل التقصير فى الذى قبله . وكذلك فى الخواطر النفسانية والواردات القلبية . فلهذا يحتاج المريد إلى محاسبة نفسه فى سائر أعماله ، وينظر فى خفاياها لأن حصول النتائج عن الأعمال ضرورى وقصورها من الخلل فيها كذلك . والمريد يجد ذلك بذوقه ويحاسب نفسه على أسبابه . ولا يشاركهم فى ذلك إلا القليل من الناس ؛ لأن الغفلة عن هذا كأنها شاملة . وغاية أهل العبادات إذا لم ينتهوا إلى هذا النوع أنهم يأتون بالطاعات مخلصة من نظر الفقه فى الأجزاء والامتثال . وهؤلاء يبحثون عن نتائجها بالأذواق والمواجد ليطلعوا على أنها خالصة من التقصير أولا . فظهر أن أصل طريقتهم كلها محاسبة النفس على الأفعال والتروك والكلام فى هذه الأذواق والمواجد التى تحصل عن المجاهدات ثم تستقر للمريد مقاماً ويترقى منها إلى غيرها . ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات فى ألفاظ تدور بينهم ؛ إذ الأوضاع اللغوية إنما هى للمعانى المتعارفة ، فاذا عرض من المعانى ما هو غير متعارف اصطلحنا عن التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه . فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذى ليس يوجد بغيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه . وصار علم الشريعة على صنفين : صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا وهى الاحكام العامة فى العبادات والعادات والمعاملات ؛ وصنف مخصوص بالقوم فى القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها ، والكلام فى الاذواق والمواجد العارضة فى طريقها ، وكيفية الترقى فيها من ذوق إلى ذوق ، وشرح الاصطلاحات التى تدور بينهم فى ذلك .

فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء فى الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك ، كتب رجال من أهل هذه الطريقة فى طريقتهم ، فمنهم من كتب فى (أحكام) الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء فى الأخذ والترك كما فعله (المحاسبى فى كتاب «الرعاية» له ، ومنهم من كتب فى آداب الطريقة وأذواق أهلها ومواجدهم فى الأحوال كما فعله»[1] القشيرى فى كتاب «الرسالة» والسهروردى فى كتاب «عوارف المعارف» وأمثالهم . وجمع الغزالى رحمه الله بين الأمرين فى كتاب «الاحياء» ، فدون فيه أحكام الورع والاقتداء ، ثم بين آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم فى عباراتهم . وصار علم التصوف فى الملة علماً مدوناً بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط ، وكانت أحكامها إنما تتلقى من صدور الرجال ، كما وقع فى سائر العلوم التى دونت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك .

ثم إن هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالباً كشف حجاب الحس ، والاطلاع على عوالم من أمر الله ، ليس لصاحب الحس إدراك شىء

---

(١) المحصور بين القوسين مثبت فى منشورة د. وافى نقلا عن طبعة باريس . وبدونه لا يستقيم المعنى .

منها . والروح من تلك العوالم . وسبب هذا الكشف أن الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن ضعفت أحوال الحس وقويت الروح ، وغلب سلطانه وتجدد نشؤه ، وأعان على ذلك الذكر ، فانه كالغذاء لتنمية الروح ولا يزال فى نمو وتزيد إلى أن يصير شهوداً بعد أن كان علماً ، ويكشف حجاب الحس ويتم وجود النفس الذى لها من ذاتهـــا وهو عين الإدراك ، فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتح الإلاهى ، وتقرب ذاته فى تحقق حقيقتها من الأفق الأعلى ، أفق الملائكة . وهذا الكشف كثيرا ما يعرض لأهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم ، وكذلك يدركون كثيرا من الواقعات قبل وقوعها ، ويتصرفون بهممهم وقوى نفوسهم فى الموجودات السفلية ، وتصير طوع إرادتهم . فالعظماء منهم لا يعتبرون هذا الكشف ولا هذا التصرف ولا يخبرون عن حقيقة شىء لم يؤمروا بالتكلم فيه ، بل يعدون ما وقع لهم من ذلك محنة ويتعوذون منه إذا وقع لهم . وقد كان الصحابة رضى الله عنهم على مثل هذه المجاهدة وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ ، لكنهم لم يقع لهم بها عناية . وفى فضائل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم كثير منها ، وتبعهم فى ذلك أهل الطريقة ممن اشتملت رسالة القشيرى على ذكرهم ، ومن تبع طريقتهم من بعدهم

ثم إن قوماً من المتأخرين انصرفت عنايتهم إلى كشف الحجاب و (الكلام فى) المدارك التى وراءه .

واختلفت طرق الرياضة عنهم فى ذلك باختلاف تعليمهم فى إماتة القوى الحسية وتغذية الروح العاقل بالذكر ، حتى يحصل للنفس إدراكها الذى لها من ذاتها بتمام نشوها وتغذيتها . فاذا حصل ذلك زعموا أن الوجود قد انحصر فى مداركها حينئذ ، وأنهم كشفوا ذوات الوجود وتصوروا حقائقها كلها من العرس إلى الفرس(١) وهكذا قال الغزالى رحمه الله فى كتاب الاحياء بعد ذكر صورة الرياضة .

ثم إن هذا الكشف لايكون صحيحاً كاملا عندهم إلا إذا كان ناشئاً عن الاستقامة ؛ لأن الكشف قد يحصل لصاحب الجوع والخلوة وإن لم يكن هناك استقامة كالسحرة وغيرهم من المرتاضين . وليس مرادنا إلا الكشف الناشىء عن الاستقامة ؛ ومثاله أن المرآة الصقيلة(٢) إذا كانت محدبة أو مقعرة وحوذى بها جهة المرئى فانه يتشكل فيه معوجا على غير صورته ، وإذا كانت مسطحة تشكل فيها المرئى صحيحا . فالاستقامة للنفس كالانبساط للمرآة فيما ينطبع فيها من الأحوال . ولما عنى المتأخرون بهذا النوع من الكشف تكلموا فى حقائق الموجودات العلوية والسفلية ، وحقائق الملك والروح والعرش والكرسى وأمثال ذلك . وقصرت مدارك من لم يشاركهم فى طريقهم عن فهم أذواقهم ومواجدهم فى ذلك . فأهل الفتيا بين منكر عليهم ومسلم لهم . وليس البرهان والدليل

(١) فى بعض النسخ « والطس والطشيش المطر الضعيف وهو دون الرذاذ . والفرش الفضاء الواسع

(٢) الصقيلة : أى المصقولة .

بنافع فى هذا الطريق ردًا وقبولا ؛ إذ هى من قبيل الوجدانيات .

(تفصيل وتحقيق) . يقع كثيرا فى كلام أهل العقائد من علماء الحديث والفقه أن الله تعالى مباين لمخلوقاته ، ويقع للمتكلمين أنه لا مباين ولا متصل ؛ ويقع للفلاسفة أنه لا داخل العالم ولا خارجه ؛ ويقع للمتأخرين من المتصوفة أنه متحد بالمخلوقات ، إما بمعنى الحلول فيها ، أو بمعنى أنه هو عينها وليس هناك غيره جملة ولا تفصيلا . فلنبين تفصيل هذه المذاهب ونشرح حقيقة كل واحد منها حتى تتضح معانيها فنقول :

إن المباينة تقال لمعنيين : أحدهما المباينة فى الحيز والجهة ؛ ويقابله الإتصال . وتشعر هذه المقابلة – على هذا التقييد (١) – بالمكان ، إما صريحا وهو تجسيم ، أو لزوما وهو تشبيه من قبيل القول بالجهة . وقد نقل مثله عن بعض علماء السلف من التصريح بهذه المباينة ، فيحتمل غير هذا المعنى . ومن أجل ذلك أنكر المتكلمون هذه المباينة . وقالوا لا يقال فى البارىء إنه مباين مخلوقاته ولا متصل بها لأن ذلك إنما يكون للمتحيزات . وما يقال من أن المحل لا يخلو عن الاتصاف بالمعنى وضده ، فهو مشروط بصحة الاتصاف أولا . وأما مع امتناعه فلا ، بل يجوز الخلوا عن المعنى وضده ، كما يقال فى الجماد لا عالم ولا جاهل ولا قادر ولا عاجز ولا كاتب ولا أمى . وصحة الاتصاف بهذه المباينة مشروطة بالحصول فى الجهة على ما تقرر من مدلولها . والبارىء سبحانه منزه عن ذلك . ذكره ابن التلمسانى فى شرح اللُّمَع لإمام الحرمين . وقال : ولا يقال فى البارىء مباين للعالم ولا متصل به ولا داخل فيه ولا خارج عنه . وهو معنى ما يقوله الفلاسفة : إنه لا داخل العالم ولا خارجه ، بناء على وجود الجواهر غير المتحيزة . وأنكرها المتكلمون لما يلزم من مساواتها للبارىء فى أخص الصفات . وهو مبسوط فى علم الكلام . وأما المعنى الآخر للمباينة فهو المغايرة والمخالفة . فيقال البارىء مباين لمخلوقاته فى ذاته وهويته ووجوده وصفاته . ويقابله الاتحاد والامتزاج والاختلاط . وهذه المباينة هى مذهب أهل الحق كلهم من جمهور السلف وعلماء الشرائع والمتكلمين والمتصوفة الأقدمين كأهل الرسالة (١) ومن نحا منحاهم .

وذهب جماعة من المتصوفة والمتأخرين الذين صيروا المدارك الوجدانية علمية نظرية إلى أن البارىء تعالى متحد بمخلوقاته فى هويته ووجوده وصفاته . وربما زعموا أنه مذهب الفلاسفة قبل أرسطو مثل أفلاطون وسقراط . وهو الذى يعنيه المتكلمون حيث ينقلونه فى علم الكلام عن المتصوفة ويحاولون الرد عليه . لأنه ذاتان تنتفى إحداهما أو تندرج اندراج الجزء . فإن تلك مغايرة صريحة ولا يقولون بذلك . وهذا الاتحاد هو الحلول الذى تدعيه النصارى فى المسيح عليه السلام . وهو أغرب لأنه حلول قديم فى محدث أو اتحاده به . وهو

(١) أى بهذا القيد ، وهو أنها مباينة فى الحيز والجهة .

(١) يقصد الرسالة القشيرية .

أيضاً عين ما تقوله الإمامية من الشيعة فى الأئمة وتقرير هذا الاتحاد فى كلامهم على طريقين :

(الأولى) أن ذات القديم كامنة فى المحدثات محسوسها ومعقولها متحدة بها فى التصورين . وهى كلها مظاهر لها ، وهو القائم عليها ، أى المقوم لوجودها ، بمعنى لولاه كانت عدما . وهو رأى أهل الحلول .

(الثانية) طريق أهل الوحدة المطلقة وكأنهم استشعروا من تقرير أهل الحلول الغيرية المنافية لمعقول الاتحاد ،فنفوها بين القديم وبين المخلوقات فى الذات والوجود والصفات ، وغالطوا فى غيرية المظاهر المدركة بالحس والعقل ، بأن ذلك من المدارك البشرية ، وهى أوهام . ولا يريدون الوهم الذى هو قسيم العلم والظن والشك . وإنما يريدون أنها كلها عدم فى الحقيقة ،ووجودٌ فى المدرك البشرى فقط . ولا وجود بالحقيقة إلا للقديم لا فى الظاهر ولا فى الباطن كما نقرره بعد بحسب الامكان . والتعويل فى تعقل ذلك على النظر والاستدلال كما فى المدارك البشرية غير مفيد . لأن ذلك إنما ينقل من المدارك المَلَكية ؛ وإنما هى حاصلة للأنبياء بالفطرة ، ومن بعدهم للأولياء بهدايتهم . وقصد من يقصد الحصول عليها بالطريقة العلمية ضلال[1] . وربما قصد بعض المصنفين بيان مذهبهم فى كشف الوجود وترتيب حقائقه (على طريقة أهل الظاهر) فأتى بالأغمض فالأغمض وبالنسبة إلى أهل النظر والاصطلاحات والعلوم كما فعل الفرغانى شارح قصيدة ابن الفارض فى الديباجة التى كتبها فى صدر ذلك الشرح ، فإنه ذكر فى صدور الوجود عن الفاعل وترتيبه : «أن الوجود كله صادر عن صفة الوحدانية التى هى مظهر الأحدية وهما معًا صادران عن الذات الكريمة التى هى عين الوحدة لاغير . ويسمون هذا الصدور بالتجلى . وأول مراتب التجليات عندهم تجلى الذات على نفسه ، وهو يتضمن الكمال بإضافة الإيجاد والظهور ، لقوله فى الحديث الذى يتناقلونه[1] : « كنتُ كنْزًا مخفيًا فأحببْتُ أن أعرف فخلقت الخلق ليعرفونى » . وهذا الكمال فى الإيجاد المتنزل فى الوجود وتفصيل الحقائق ، وهو عندهم عالم المعانى والحضرة الكمالية والحقيقة المحمدية ؛ وفيها حقائق الصفات واللوح والقلم وحقائق الأنبياء والرسل أجمعين والكمَّل من أهل الملة المحمدية . وهذا كله تفصيل الحقيقة المحمدية. ويصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى فى الحضرة الهبائية وهى مرتبة المثال ، ثم عنها العرش ثم الكرسى ثم الأفلاك ثم عالم العناصر ثم عالم التركيب ، هذا فى عالم الرتق . فإذا تجلت فهى فى عالم الفتق . ويسمى هذا المذهب مذهب أهل التجلى والمظاهر والحضرات» . انتهى ؛ وهو كلام لايقتدر أهل النظر على تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه . وبعد مابين كلام صاحب المشاهدة

(١) من قوله تفصيل وتحقيق إلى هنا مثبت فى منشورة د. وافى نقلا عن طبعة باريس ، وما بعده مرتبط به .

(١) هو حديث قدسى ، يحكيه الرسول عن الله تعالى وليس من القرآن الكريم .

والوجدان وصاحب الدليل . وربما أنكر بظاهر الشرع هذا الترتيب (فإنه لايعرف فى شىء من مناحيه وكذلك ذهب آخرون منهم إلى القول بالوحدة المطلقة ، وهو رأى أغرب من الأول فى تعلقه وتفاريعه ، ويزعمون فيه أن الوجود (كله) له قوى فى تفاصيله بها كانت حقائق الموجودات وصورها وموادها . والعناصر إنما كانت بما فيها من القوى ، وكذلك مادتها لها فى نفسها قوة بها كان وجودها ثم إن المركبات فيها تلك القوى متضمنة فى القوة التى كان بها التركيب ، كالقوة المعدنية فيها قوى العناصر بهيولاها وزيادة القوة المعدنية ، ثم القوة الحيوانية تتضمن القوة المعدنية وزيادة قوتها فى نفسها ، وكذا القوة الإنسانية مع الحيوانية ، ثم الفلك يتضمن القوة الإنسانية وزيادة ، وكذا الذوات الروحانية . والقوة الجامعة للكل من غير تفصيل هى القوة الإلهيّة التى أنبثت فى جميع الموجودات كلية وجزئية ، وجمعتها وأحاطت بها من كل وجه لا من جهة الظهور ولا من جهة الخفاء ولا من جهة الصورة ولا من جهة المادة . فالكل واحد وهو نفس الذات الإلهية ، وهى فى الحقيقة واحدة بسيطة ، والاعتبار هو المفصل لها كالانسانية مع الحيوانية . ألا ترى أنها مندرجة فيها وكائنة بكونها . فتارة يمثلونها بالجنس مع النوع فى كل موجود كما ذكرناه ، وتارة بالكل مع الجزء على طريقة المثال وهم فى هذا كله يفرون من التركيب والكثرة بوجه من الوجوه ، وإنما أوجبها عندهم الوهم والخيال والذى يظهر من كلام ابن دهاق (١) فى تقرير هذا المذهب أن حقيقة مايقولونه فى الوحدة شبيه بما تقوله الحكماء فى الألوان من أن وجودها مشروط بالضوء ، فإذا عدم الضوء لم تكن الألوان موجودة بوجه . وكذا عندهم الموجودات المحسوسة كلها مشروطة بوجود المدرك الحسى ، بل والموجودات المعقولة والمتوهمة أيضًا مشروطة بوجود المدرك العقلى . فإذًا الوجود المفصل كله مشروط بوجود المدرك البشرى . فلو فرضنا عدم المدرك البشرى جملة لم يكن هناك تفصيل الوجود ، بل هو بسيط واحد . فالحر والبرد ، والصلابة واللين ، بل والأرض والماء والنار والسماء والكواكب ، إنما وجدت لوجود الحواس المدركة لها ، لما جعل فى المدرِك من التفصيل الذى ليس فى الوجود وإنما هو فى المدارك فقط ، فإذا فُقدت المدارك المفصلَة فلا تفصيل ، إنما هو إدراك واحد وهو أنا لا غيره . ويعتبرون ذلك بحال النائم فإنه إذا نام وفقد الحس الظاهر فقد كل محسوس وهو فى تلك الحالة إلا مايفصله له الخيال ، قالوا فكذا اليقظان إنما يعتبر تلك المدركات كلها على التفصيل بنوع مُدْرَكه (٢) البشرى . ولو قدر فقد مدركه فقد التفصيل . وهذا هو معنى قولهم الوهم ، لا الوهم الذى هو من جملة المدارك البشرية .

هذا ملخص رأيهم على مايفهم من كلام ابن دهاق . وهو فى غاية السقوط ، لأنا نقطع بوجود

---

(١) فى الطبعات المتداولة «ابن دهقان» والمثبت عن « التيمورية » .

(٢) مصدر ميمى من أدرك .

البلد الذى نحن مسافرون إليه يقينا مع غيبته عن أعيننا ، وبوجود السماء المظلة والكواكب وسائر الأشياء الغائبة عنا ، والإنسان قاطع بذلك ، ولا يكابر أحد نفسه فى اليقين . مع أن المحققين من المتصوفة المتأخرين يقولون إن المريد عند الكشف ربما يعرض له توهم هذه الوحدة ، ويسمى ذلك عندهم مقام الجمع . ثم يترقى عنه إلى التمييز بين الموجودات ويعبرون ذلك بمقام الفرق ، وهو مقام العارف المحقق ، ولا بد للمريد عندهم من عقبة الجمع وهى عقبة صعبة لأنه يخشى على المريد من وقوفه عندها فتخسر صفقته . فقد تبينت مراتب أهل هذه الطريقة .

(فصل) ثم إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين فى الكشف وفيما وراء الحس توغلوا فى ذلك فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة كما أشرنا إليه ، وملأوا الصحف منه ، مثل الهروى فى كتاب المقامات له وغيره ، وتبعهم ابن العربى وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف وابن الفارض والنجم الإسرائيلى فى قصائدهم . وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول وإلاهية الأئمة مذهبا لم يعرف لأولهم . فأُشرِبَ كل واحد من الفريقين مذهب الآخر ، واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم . وظهر فى كلام المتصوفة القول بالقطب ، ومعناه رأس العارفين ، يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد فى مقامه فى المعرفة حتى يقبضه الله ، ثم يُوَرِّث مقامه لآخر من أهل العرفان . وقد أشار إلى ذلك ابن سينا فى كتاب الإشارات فى فصول التصوف منها ، فقال : « جل جناب الحق أن يكون شرعة لكل وارد ، أو يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد » . وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعى ؛ وإنما هو من أنواع الخطابة ، وهو بعينه ما تقوله الرافضة (فى توارث الأئمة عندهم . فانظر كيف سرقت طباع هؤلاء القوم هذا الرأى من الرافضة) [1] ودانوا به . ثم قالوا بترتيب وجود الأبدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة فى النقباء ، حتى إنهم لما أسندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلا لطريقتهم ونحلتهم وقفوه على [2] علىٍّ رضى الله عنه ، وهو من هذا المعنى أيضا . وإلا فعلى رضى الله عنه لم يختص من بين الصحابة بنحلة ولا طريقة فى لُبوس ولا حال . بل كان أبو بكر وعمر رضى الله عنهما أزهد الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثرهم عبادة ولم يختص أحد منهم فى الدين (والورع) بشىء يؤثر عنه فى الخصوص ، بل كان الصحابة كلهم أُسْوَةً فى الدين (والورع) والزهد والمجاهدة . تشهد بذلك (سيرهم وأخبارهم . نعم إن الشيعة يخيلون بما ينقلون من ذلك اختصاص علىٍّ بالفضائل دون من سواه من الصحابة ، ذهابا مع عقائد التشيع المعروفة لهم ؛ والذى يظهر أن المتصوفة بالعراق ، لما ظهرت الاسماعيلية من الشيعة وظهر كلامهم فى الإمامة وما يرجع إليها مما هو معروف ،

(١) المحصور بين القوسين مثبت فى منشورة هـ وأتى نقلا من طبعة باريس .

(٢) فى جميع الطبعات المتداولة « رفعوه إلى » .

فاقتبسوا من ذلك الموازنة بين الظاهر والباطن ، وجعلوا الإمامة لسياسة الخلق فى الانقياد إلى الشرع، وأفردوه بذلك ، أن لا يقع اختلاف كما تقرر فى الشرع . ثم جعلوا القطب لتعليم المعرفة بالله لأنه رأس العارفين ، وأفردوه بذلك تشبيها بالإمام فى الظاهر ، وأن يكون على وزانه فى الباطن ، وسموه قطبا ، لمدار المعرفة عليه . وجعلوا الأبدال كالنقباء مبالغة فى التشبيه . فتأمل ذلك (١)) من كلام هؤلاء المتصوفة فى أمر الفاطمى وماشحنوا كتبهم فى ذلك مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنفى أو إثبات ، وإنما هو مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم فى كتبهم . والله يهدى إلى الحق .

] (تذييل) وقد رأيت أن أجلب هنا فصلا من كلام شيخنا العارف كبير الأولياء بالأندلس أبى مهدى عيسى بن الزيات ، كان يقع له أكثر الأوقات على أبيات الهروىّ التى وقعت له فى كتاب المقامات توهم القول بالوحدة المطلقة ، أو يكاد يصرح بها ، وهى قوله :

ماوحَّد الواحدَ من واحد
إذا كلُّ من وحّده جاحدُ
توحيدُ منْ ينطِقُ عن نَعْته
تثنية أبطلها الواحد
توحيده إياه توحيده
ونعت من ينعته لاحِدُ

فيقول رحمة الله عليه على سبيل العذر عنه : « استشكل الناس لفظ الجحود على كل من وحد الواحد (١) ولفظ الإلحاد على من نعته ووصفه(٢) واستبشعوا هذه الأبيات وحملوا على قائلها واستخفوه .

ونحن نقول على رأى هذه الطائفة إن معنى التوحيد عندهم انتفاء عين الحدوث بثبوت عين القدم ، وإن الوجود كله حقيقة واحدة وأَنِيَّةٌ(٣) واحدة . وقد قال أبو سعيد الجزار من كبار القوم : الحق عين ماظهر وعين مابطن . ويرون أن وقوع التعدد فى تلك الحقيقة وجود الاثنينية ، وهم باعتبار حضرات الحس بمنزلة صور الظلال والصدا والمرأى ، وأن كل ماسوى عين القدم إذا استتبع فهو عدم . وهذا معنى : « كان الله ولا شىء معه ، وهو الآن على ما عليه كان » عندهم . ومعنى قول لبيد الذى صدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « ألا كلُّ شىءٍ ما خَلا الله بَاطِلُ » .

قالوا فمن وحد ونعت فقد قال بموجِدٍ محدِث هو نفسه ، وموجَد محدَث هو فعله ، وموجِد قديم هو معبود .

وقد تقدم أن معنى التوحيد انتفاء عين الحدوث . وعين الحدوث الآن ثابتة بل متعددة . والتوحيد مجحود ، والدعوى كاذبة ، كمن يقول لغيره وهما معا فى بيت واحد : ليس فى البيت غيرك ،

---

(١) المحصور بين القوسين مثبت فى منشورة د. وافى نقلا من طبعة باريس ، قد سقط من جميع الطبعات المتداولة .

(١) أى فى قول الهروى « إذ كل من وحده جاحد » .
(٢) أى فى قول الهروى « ونعت من ينعته لاحد » .
(٣) لعله نسبة إلى « الأنا » (ضمير المفرد المتكلم المنفصل) . وقد كثر استخدام هذا التعبير على ألسنة الفلاسفة من قبل ابن خلدون .

يقول الآخر بلسان حاله : لا يصح هذا إلا لو عدمت أنت .

وقد قال بعض المحققين فى قولهم : خلق الله الزمان ، هذه ألفاظ تتناقض أصولها ، لأن خلق الزمان متقدم على الزمان ، وهو فعل لا بد من وقوعه فى الزمان . وإنما حمل ذلك ضيق العبارة عن الحقائق وعجز اللغات عن تأديه الحق فيها وبيانها . فإذا تحقق أن الموجد هو الموجد وعدم ماسواه جملة صح التوحيد حقيقة . وهذا معنى قولهم : « لا يعرف الله إلا الله » .

ولا حرج على من وحد الحق مع بقاء الرسوم والآثار ، وإنما هو من باب « حسنات الأبرار سيئات المقربين » . لأن ذلك لازم التقييد والعبودية والشفعية [1] . ومن ترقى إلى مقام الجمع كان فى حقه نقصا مع علمه بمرتبته ، وأنه تلبيس تستلزمه العبودية ويرفعه الشهود ويطهر من دنس حدوثه عين الجمع .

وأعرق الأصناف فى هذا الزعم القائلون بالوحدة المطلقة ومدار المعرفة بكل اعتبار على الانتهاء إلى الواحد .

وإنما صدر هذا القول من الناظم على سبيل التحريض والتنبيه والتفطين لمقام أعلى ترتفع فيه الشفعية ويحصل التوحيد المطلق عينا لا خطابا وعبارة . فمن سلَّم استراح ، ومن نازعته حقيقته أنس بقوله : « كنتُ سمعَه وبصره » . وإذا عرفت المعانى لا مُشَاحةَ فى الألفاظ» . والذى يفيده هذا كله تحقق أمر فوق هذا الطور لا نطق فيه ولا خبر عنه . وهذا المقدار من الإشارة كاف . والتعمق فى مثل هذا حجاب . وهو الذى أوقع فى المقالات المعروفة » . انتهى كلام الشيخ أبى مهدى بن الزيات ونقلته من كتاب الوزير ابن الخطيب الذى ألفه فى المحبة وسماه « التعريف بالحب الشريف » ، وقد سمعته من شيخنا أبى مهدى مرارا ، إلا أنى رأيت رسوم الكتاب أوعى له لطول عهدى به والله الموفق [1]]

(فصل) ثم إن كثيرا من الفقهاء وأهل الفتيا انتدبوا للرد على هؤلاء المتأخرين فى هذه المقالات وأمثالها ، وشملوا بالنكير سائر ما وقع لهم فى الطريقة .

والحق أن كلامهم معهم فيه تفصيل . فإن كلامهم فى أربعة مواضع :

أحدها الكلام على المجاهدات وما يحصل من الأذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الأعمال لتحصل تلك الأذواق التى تصير مقاما ويترقى منه إلى غيره كما قلناه .

وثانيها الكلام فى الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسى والملائكة والوحى والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد ، وتركيب الأكوان فى صدورها عن موجدها وتكونها كما مر .

---

(١) نسبة إلى الشفع وهو المتعدد والزوج من الأعداد ، ويقابله الوتر وهو الواحد وما لم يتشفع من العدد .

(١) المحصور بين القوسين من قول «تذييل» إلى هنا مثبت فى مطبوعة د . وأتى نقلا عن نسخة خطية .

وثالثها التصرفات فى العوالم والأكوان بأنواع الكرامات . ورابعها ألفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثير من أئمة القوم يعبرون عنها فى اصطلاحهم بالشطحات تستشكل ظواهرها ، فمنكر ومحسن ومتأول .

فأما الكلام فى المجاهدات والمقامات ومايحصل من الأذواق والمواجد فى نتائجها ومحاسبة النفس على التقصير فى أسبابها فأمر لامدفع فيه لأحد ، وأذواقهم فيه صحيحة والتحقق بها هو عين السعادة .

وأما الكلام فى كرامات القوم وإخبارهم بالمغيبات وتصرفهم فى الكائنات (١) . فأمر صحيح غير منكر ، وإن مال بعض العلماء إلى إنكارها فليس ذلك من الحق . وما احتج به الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايينى من أئمة الأشعرية على إنكارها لالتباسها بالمعجزة ، فقد فرق المحققون من أهل السنة بينهما بالتحدى ، وهو دعوى وقوع المعجزة على وفق ماجاء به . قالوا ثم إن وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور ، لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية ، فإن صفة نفسها التصديق ؛ فلو وقعت مع الكاذب لتبدلت صفة نفسها وهو محال (٢) . هذا مع أن الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات ، وإنكارها نوع مكابرة . وقد وقع للصحابة وأكابر السلف كثير من ذلك وهو معلوم مشهور .

وأما الكلام فى الكشف وإعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور الكائنات فأكثر كلامهم فيه نوع من المتشابه لما أنه وجدانى وفاقد الوجدان عندهم بمعزل عن أذواقهم فيه . واللغات لاتعطى دلالة على مرادهم منه ، لانها لم توضع إلا للمتعارف وأكثره من المحسوسات . فينبغى أن لانتعرض لكلامهم فى ذلك ، ونتركه فيما تركناه من المتشابه ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فأكرم بها سعادة .

وأما الألفاظ الموهمة التى يعبرون عنها بالشطحات ويؤاخذهم بها أهل الشرع ، فاعلم أن الإنصاف فى شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لايقصدونه وصاحب الغيبة غير مخاطَب (١) ، والمجبور معذور . فمن عُلم منهم فضله واقتداؤه حمل على القصد الجميل من هذا (وأمثاله) . وإن العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع لها كما وقع لأبى يزيد (البسطامى) وأمثاله . ومن لم يُعلم فضله ولا اشتهر فمؤاخذ بما صدر عنه من ذلك ، إذ لم يتبين لنا مايحملنا على تأويل كلامه . وأما من تكلم بمثلها وهو حاضر فى حسه ولم يملكه الحال فمؤاخذ أيضاً . ولهذا أفتى الفقهاء وأكابر الصوفية بقتل الحلاج لأنه تكلم فى حضور وهو مالك لحاله . والله أعلم . وسلف المتصوفة من أهل

---

(١) تكلم ابن خلدون فى هذه الفقرة على الأمر الثالث من الأمور التى ذكرها سابقاً ، وسيتكلم من الأمر الثانى فى الفقرة التالية ، ويعرض بعده للأمر الرابع .

(٢) عرض ابن خلدون لهذه الحقائق نفسها فى مثل هذه العبارات الركيكة فى المقدمة السادسة من الباب الأول .

(١) يعنى غير مؤاخذ بما يصدر عنه وغير مكلف ، وهو تعبير فقهى مشهور يقال مثلا : الصبى والمجنون غير مخاطبين .

الرسالة (١) أعلام الملة الذين أشرنا إليهم من قبل لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب ، ولا هذا النوع من الإدراك ، إنما همهم الاتباع والاقتداء ما استطاعوا . ومن عرض له شيء من ذلك أعرض عنه ولم يحفل به ؛ بل يفرون منه ويرون أنه من العوائق والمحن ، وأنه إدراك من إدراكات النفس مخلوق حادث ، وأن الموجودات لا تنحصر فى مدارك الإنسان ، وعِلْمُ اللهِ أوسع ، وخلقه أكبر ، وشريعته بالهداية أملك ، فلم ينطقوا بشيء مما يدركون ، بل حظروا الخوض فى ذلك ، ومنعوا من يكشف له الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده ، بل يلتزمون طريقتهم كما كانوا فى عالم الحس قبل الكشف من الاتباع والاقتداء ، ويأمرون أصحابهم بالتزامها (٢) . وهكذا ينبغى أن يكون حال المريد . والله أعلم بحقيقة الحال .

١٩ - علم تعبير الرؤيا

هذا العلم من العلوم الشرعية ، وهو حادث فى الملة عندما صارت العلوم صنائع ، وكتب الناس فيها . وأما الرؤيا والتعبير لها فقد كان موجوداً فى السلف كما هو فى الخلف . وربما كان فى الملوك والأمم من قبل ، إلا أنه لم يصل إلينا للاكتفاء فيه بكلام المعبرين من أهل الإسلام . وإلا فالرؤيا موجودة فى صنف البشر على الإطلاق ولابد من تعبيرها . فلقد كان يوسف الصديق

(١) يعنى : القشيرية .

(٢) تكلم من هذه الصفات عند سلف المتصوفة فى أوائل هذا الفصل .

صلوات عليه يعبر الرؤيا كما وقع فى القرآن (١) ؛ وكذلك ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن أبى بكر رضى الله عنه . والرؤيا مدرك فى مدارك الغيب وقال صلى الله عليه وسلم : «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » . وقال : «لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له » .

وأول مابدىء به النبى صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا ، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا انفتل (٢) من صلاة الغداة يقول لأصحابه : «هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا » ، يسألهم عن ذلك ليستبشر بما وقع من ذلك مما فيه ظهور الدين وإعزازه . وأما السبب فى كون الرؤيا مدركاً للغيب فهو أن الروح القلبى وهو البخار اللطيف المنبعث من تجويف القلب اللحمى ينتشر فى الشريانات ومع الدم فى سائر البدن ، وبه تكمل أفعال القوى الحيوانية وإحساسها ؛ فإذا أدركه الملال بكثرة التصرف فى الإحساس بالحواس الخمس وتصريف القوى الظاهرة ، وغشى سطح البدن مايغشاه من برد الليل انخنس الروح من سائر أقطار البدن إلى مركزه القلبى ، فيستجم بذلك لمعاودة فعله ، فتعطلت الحواس الظاهرة كلها ؛ وذلك هو معنى النوم كما تقدم فى أول الكتاب . ثم إن هذا الروح القلبى هو مطية

(١) فى الآيات ٤٣ - ٤٩ من سورة يوسف .

(٢) فتل وجهه عن الشيء وقد انفتل وتفتل ، انصرف عنه . (من القاموس) .

للروح العاقل من الإنسان والروح العاقل مدرك لجميع ما فى عالم الأمر بذاته ، إذ حقيقته وذاته عين الإدراك . وإنما تمنع من تعقله للمدارك الغيبية ماهو فيه من حجاب الاشتغال بالبدن وقواه وحواسه . فلو قد خلا من هذا الحجاب وتجرد عنه لرجع إلى حقيقته ، وهو عين الإدراك ، فيعقل كل مدرك . فإذا تجرد عن بعضها خفت شواغله فلا بد له من إدراك لمحة من عالمه بقدر ما تجرد له ، وهو فى هذه الحالة قد خفت شواغل الحس الظاهر كلها ، وهى الشاغل الأعظم ، فاستعد لقبول ما هنالك من المدارك اللائقة من عالمه . وإذا أدرك ما يدرك من عوالمه رجع إلى بدنه ، إذ هو مادام فى بدنه جسمانى لا يمكنه التصرف إلا بالمدارك الجسمانية ، والمدارك الجسمانية للعلم إنما هى الدماغية والمتصرف منها هو الخيال ، فإنه ينتزع من الصور المحسوسة صورا خيالية ، ثم يدفعها إلى الحافظة تحفظها له إلى وقت الحاجة إليها عند النظر والاستدلال . وكذلك تجرد النفس منها صورا أخرى نفسانية عقلية ، فيترقى التجريد من المحسوس إلى المعقول ، والخيال واسطة بينهما. ولذلك إذا أدركت النفس من عالمها ماتدركه ألقته إلى الخيال فيصوره بالصورة المناسبة له ، ويدفعه إلى الحس المشترك فيراه النائم كأنه محسوس ، فيتنزع المدرك من الروح العقلى إلى الحسى . والخيال أيضا واسطة . هذه حقيقة الرؤيا .

ومن هذا التقرير يظهر لك الفرق بين الرؤيا الصالحة وأضغاث الأحلام الكاذبة . فإنها كلها صور فى الخيال حالة النوم . لكن إن كانت تلك الصور متنزلة من الروح العقلى المدرك فهو رؤيا ، وإن كانت مأخوذة من الصور التى فى الحافظة التى كان الخيال أودعها إياها منذ اليقظة فهى أضغاث أحلام .

وأما معنى التعبير فاعلم أن الروح العقلى إذا أدرك مدركه وألقاه إلى الخيال فصوره فإنما يصوره فى الصور المناسبة لذلك المعنى بعض الشىء ، كما يدرك معنى السلطان الأعظم فيصوره الخيال بصورة البحر ، أو يدرك العداوة فيصورها الخيال فى صورة الحية . فاذا استيقظ وهو لم يعلم من أمره إلا أنه رأى البحر أو الحية فينظر المعبر بقوة التشبيه بعد أن يتيقن أن البحر صورة محسوسة ، وأن المدرك وراءها ، وهو يهتدى بقرائن أخرى تعين له المدرك ، فيقول مثلا هو السلطان ، لأن البحر خلق عظيم يناسب أن يشبه به السلطان . وكذلك الحية يناسب أن تشبه بالعدو لعظم ضررها . وكذا الأوانى تشبه بالنساء لأنهن أوعية ، وأمثال ذلك . ومن المرئى مايكون صريحاً لايفتقر إلى تعبير لجلائها ووضوحها أو لقرب الشبه فيها بين المدرك وشبهه . ولهذا وقع فى الصحيح : « الرؤيات ثلاث : رؤيا من الله ، ورؤيا من الملك ، ورؤيا من الشيطان » . فالرؤيا التى من الله هى الصريحة التى لاتفتقر إلى تأويل ، والتى من الملك هى الرؤيا الصادقة تفتقر إلى التعبير ، والرؤيا التى من الشيطان هى الأضغاث .

واعلم أيضا أن الخيال إذا ألقى إليه الروح

مدركه فإنما يصوره فى القوالب المعتادة للحس ، ما لم يكن الحس أدركه قط. فلا يصور فيه . فلا يمكن من ولد أعمى أن يصور له السلطان بالبحر ، ولا العدو بالحية ، ولا النساء بالأوانى ، لأنه لم يدرك شيئاً من هذه . وإنما يصور له الخيال أمثال هذه فى شبهها ومناسبها من جنس مداركه التى هى المسموعات والمشمومات . وليتحفظ المعبر من مثل هذا ، فربما اختلط به التعبير ، وفسد قانونه .

ثم إن علم التعبير علم بقوانين كلية يبنى عليها المعبر عبارة مايقص عليه . وتأويله كما يقولون : البحر يدل على السلطان ؛ وفى موضع آخر يقولون : البحر يدل على الغيظ ؛ وفى موضع آخر يقولون : البحر يدل على الهم والأمر الفادح ومثل مايقولون : الحية تدل على العدو ؛ وفى موضع آخر يقولون هى كاتم سر ؛ وفى موضع آخر يقولون تدل على الحياة . وأمثال ذلك . فيحفظ المعبر هذه القوانين الكلية ويعبر فى كل موضع بما تقتضيه القرائن التى تعين من هذه القوانين ماهو أليق بالرؤيا وتلك القرائن منها فى اليقظة ومنها فى النوم ومنها ما ينقدح فى نفس المعبر بالخاصية التى خلقت فيه : «وكل ميسر لما خلق له» . ولم يزل هذا العلم متناقلا بين السلف . وكان محمد بن سيرين فيه من أشهر العلماء وكتب عنه فى ذلك القوانين ، وتناقلها الناس لهذا العهد . وألف الكرمانى فيه من بعده . ثم ألف المتكلمون المتأخرون وأكثروا . والمتداول بين أهل المغرب لهذا العهد كتب ابن أبى طالب القيروانى من علماء القيروان مثل «الممتع» وغيره ، وكتاب «الإشارة» للسالمى . وهو علم مضىء بنور النبوة للمناسبة بينهما ، كما وقع فى الصحيح . والله علام الغيوب .

٢٠ – العلوم العقلية وأصنافها

وأما العلوم العقلية التى هى طبيعية للإنسان من حيث إنه ذو فكر فهى غير مختصة بملة ، بل يوجد النظر فيها لأهل الملل كلهم ويستوون فى مداركها ومباحثها . وهى موجودة فى النوع الإنسانى منذ كان عمران الخليقة . وتسمى هذه العلوم علوم الفلسفة والحكمة . وهى مشتملة على أربعة علوم . الأول علم المنطق ، وهو علم يعصم الذهن عن الخطأ فى اقتناص المطالب المجهولة من الأمور الحاصلة المعلومة ، وفائدته تمييز الخطإ من الصواب فيما يلتمسه الناظر فى الموجودات وعوارضها ليقف على تحقيق الحق فى الكائنات بمنتهى فكره . ثم النظر بعد ذلك عندهم إما فى المحسوسات من الأجسام العنصرية والمكونة عنها من المعدن والنبات والحيوان ، والأجسام الفلكية والحركات الطبيعية ، والنفس التى تنبعث عنها الحركات وغير ذلك ، ويسمى هذا الفن بالعلم الطبيعى وهو الثانى منها . وإما أن يكون النظر فى الأمور التى وراء الطبيعة من الروحانيات ويسمونه العلم الإلهى وهو الثالث منها . والعلم الرابع وهو الناظر فى المقادير . ويشتمل

على أربعة علوم وتسمى التعاليم : أولها علم الهندسة وهو الناظر فى المقادير على الإطلاق : إما المنفصلة من حيث كونها معدودة ، أو المتصلة . وهى : إما ذو بعد واحد وهو الخط ، أو ذو بعدين وهو السطح ، أو ذو أبعاد ثلاثة وهو الجسم التعليمى . ينظر فى هذه المقادير وما يعرض لها إما من حيث ذاتها أو من حيث نسبة بعضها إلى بعض. وثانيهما علم الأرتماطيقى (١) وهو معرفة ما يعرض للكم المنفصل الذى هو العدد ، ويؤخذ له من الخواص والعوارض اللاحقة . وثالثها علم الموسيقى وهو معرفة نسب الأصوات والنغم بعضها من بعض وتقديرها بالعدد ، وثمرته معرفة تلاحين الغناء رابعها علم الهيئة وهو تعيين الأشكال للأفلاك ، وحصر أوضاعها وتعددها لكل كوكب من السيارة ، والقيام على معرفة ذلك من قبل الحركات السماوية المشاهدة الموجودة لكل واحد منها ، ومن رجوعها واستقامتها وإقبالها وإدبارها. فهذه أصول العلوم الفلسفية وهى سبعة : المنطق وهو المقدم منها ، وبعده التعاليم (فالأرتماطيقى أولا ثم الهندسة ثم الهيئة ثم الموسيقى) ، ثم الطبيعيات ، ثم الإلاهيات .

ولكل واحد منها فروع تتفرع عنه : فمن فروع الطبيعيات الطب ، ومن فروع علم العدد علم الحساب والفرائض والمعاملات ، ومن فروع الهيئة الأزياج وهى قوانين لحسابات حركات الكواكب وتعديلها للوقوف على مواضعها متى قصد ذلك ، ومن فروع النظر فى النجوم علم الأحكام النجومية . ونحن نتكلم عليها واحداً بعد واحد إلى آخرها .

واعلم أن أكثر من عنى بها فى الأجيال الذين عرفنا أخبارهم الأمتان العظيمتان فى الدولة قبل الإسلام وهما فارس والروم . فكانت أسواق العلوم نافقة لديهم على ما بلغنا لما كان العمران موفوراً فيهم ، والدولة والسلطان قبل الإسلام وعصره لهم . فكان لهذه العلوم بحور زاخرة فى آفاقهم وأمصارهم .

وكان للكلدانيين ومن قبلهم من السريانيين ومن عاصرهم من القبط عناية بالسحر والنجامة وما يتابعها من الطلاسم ، وأخذ ذلك عنهم الأمم من فارس ويونان ؛ فاختص بها القِبْط وطمى بحرها فيهم ، كما وقع فى المَتْلُوّ من خبر هاروت وماروت (١) ، وشأن السحرة (٢) ، وما نقله أهل العلم من شأن البرابى بصعيد مصر . ثم تتابعت الملل بحظر ذلك وتحريمه فدرست علومه وبطلت كأن لم تكن ، إلا بقايا يتناقلها منتحلو هذه الصنائع ، والله أعلم بصحتها ، مع أن سيوف الشرع قائمة على ظهورها مانعة من اختبارها .

---

(١) أريتميتيك Arithmétique (وعربت هذه الكلمة إلى الأرتماطيق او الأرتماطيقى) وهو علم العدد أو الحساب .

(١) يشير إلى قوله تعالى : « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان » الآية ١٠٢ من سورة البقرة . وهذه الآية خاصة بالسحر عند الكلدانيين .

(٢) يشير بذلك إلى ما حكاه القرآن الكريم من قصة موسى مع السحرة ، وقد تكررت هذه القصة فى أكثر من سورة لمناسبات مختلفة .

وأما الفرس فكان شأن هذه العلوم العقلية عندهم عظيما ونطاقها متسعًا لما كانت عليه دولتهم من الضخامة واتصال الملك . ولقد يقال إن هذه العلوم إنما وصلت إلى يونان منهم حين قتل الإسكندر «دارا» وغلب على مملكة الكينية فاستولى على كتبهم وعلومهم مالا يأخذه الحصر . ولما فتحت أرض فارس ووجدوا فيها كتبًا كثيرة كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب ليستأذنه فى شأنها وتلقينها للمسلمين . فكتب إليه عمر أن اطرحوها فى الماء ، فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه ، وإن يكن ضلالا فقد كفانا الله ؛ فطرحوها فى الماء أو فى النار ، وذهبت علوم الفرس فيها عن أن اتصل إلينا [١] .

وأما الروم فكانت الدولة منهم ليونان أولا ، وكانت لهذه العلوم بينهم مجال رحب ، وحملها مشاهير من رجالهم مثل أساطين الحكمة وغيرهم ، واختص فيها المشاؤون منهم أصحاب الرواق [٢]

(١) ذكر د. وافى أن هذه القصة لم تثبت عند ثقات المؤرخين ، كما لم تثبت قصة أخرى تشبهها بشأن حرق مكتبة الإسكندرية .

(٢) عقب د. وافى على ذلك بقوله : المشهور هو إطلاق كلمة المشائين على مدرسة أرسطو وتلاميذه . وقد سموا بذلك لأنهم كانوا يتدارسون الفلسفة ويتجادلون فى ويجادلون مدرسة الليسيوم . وهم مشاة ، ولأن أرسطو كان يلقى عليهم دروسه وهو يغدو ويروح . وأما كلمة الرواقيين فتطلق على أتباع المذهب الرواقى وهو مذهب زينون السيتيومى . وقد سموا بذلك لأنهم كانوا يتدارسون الفلسفة فى رواق كبير مقام فى ميدان من أكبر ميادين أثينا.فنحن إذن بصدد مدرستين مختلفتين ومذهبين فلسفيين مختلفين . ولكن يظهر أن ابن خلدون ومن سار على نهجه من مؤرخى العرب كان لهم فى ذلك بعض المبررات . فقد كان أصحاب زينون (الرواقيون) يتدارسون الفلسفة وهم مشاة كأصحاب أرسطو . (انظر تفصيل ذلك فى تعليق ١٥٣٧ من تعليقات الدكتور على عبد الواحد وافى .)

بطريقة حسنة فى التعليم ؛ كانوا يقرأون فى رواق يظلهم من الشمس والبرد على ما زعموا . واتصل فيها سند تعليمهم على ما يزعمون من لدن لقمان الحكيم فى تلميذه بقراط الدن ، ثم إلى تلميذه أفلاطون ، ثم إلى تلميذه أرسطو ، ثم إلى تلميذه الإسكندر الأفرودسى [١] وتامسطيوس [٢] وغيرهم. وكان أرسطو معلمًا للإسكندر ملكهم الذى غلب الفرس على ملكهم ، وانتزع الملك من أيديهم . وكان أرسخهم فى هذه العلوم قدما وأبعدهم فيها صيتًا ، وكان يسمى المعلم الأول فطار له فى العالم ذكر .

ولما انقرض أمر اليونان وصار الأمر للقياصرة وأخذوا بدين النصرانية ، هجروا تلك العلوم كما تقتضيه الملل والشرائع فيها ، وبقيت فى صحفها ودواوينها مخلدة باقية فى خزائنهم . ثم ملكوا الشام ، وكتب هذه العلوم باقية فيهم . ثم جاء الله بالإسلام وكان لأهله الظهور الذى لا كفاء له ، وابتزوا الروم ملكهم فيما ابتزوه للأمم وابتدأ أمرهم بالسذاجة والغفلة من الصنائع . حتى تبحبح [٣] السلطان والدولة ، وأخذوا من الحضارة بالحظ الذى لم يكن لغيرهم من الأمم ، وتفننوا فى الصنائع والعلوم ، تشوقوا إلى الاطلاع على هذه العلوم الحكمية بما سمعوا من الأساقفة والأقسة

(١) هو الإسكندر الأفروديسياسى أو الأفرودسى كما اشتهرت تسميته عند العرب ، وهو من شراح أرسطو وليس من تلاميذه المباشرين ، كما قد توهمه عبارة ابن خلدون .

(٢) من أشهر شراح أرسطو .

(٣) تبحبح : تمكن فى المقام والحلول .

المعاهدين بعض ذكر منها ، وبما تسمو إليه أفكار الإنسان فيها . فبعث أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمة فبعث إليه بكتاب أوقليدس (١) وبعض كتب الطبيعيات ، فقرأها المسلمون واطّلعوا على ما فيها ، وازدادوا حرصًا على الظفر بما بقى منها . وجاء المأمون بعد ذلك وكانت له فى العلم رغبة بما كان ينتحله فانبعث لهذه العلوم حرصًا ، وأوفد الرسل على ملوك الروم ، فى استخراج علوم اليونانيين وانتساخها بالخط العربى ، وبعث المترجمين لذلك فأوعى منه واستوعب وعكف عليها النظار من أهل الإسلام ، وحذقوا فى فنونها ، وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها ، وخالفوا كثيرًا من آراء المعلم الأول ، واختصوه بالرد والقبول ، لوقوف الشهرة عنده ، ودونوا فى ذلك الدواوين ، وأربوا على من تقدمهم فى هذه العلوم . وكان من أكابرهم فى الملة أبو نصر الفارابى ، وأبو على بن سينا بالمشرق ، والقاضى أبو الوليد ابن رشد ، والوزير أبو بكر بن الصائغ بالأندلس ، إلى آخرين بلغوا الغاية فى هذه العلوم . واختص هؤلاء بالشهرة والذكر . واقتصر كثيرون على انتحال التعاليم وما ينضاف إليها من علوم النِّجامة والسحر والطلسمات . ووقفت الشهرة فى هذا المنتحل على مَسْلمةَ بن أحمد المجْريطى من أهل الأندلس وتلميذه . ودخل على الملة من هذه العلوم وأهلها داخلة ، واستهوت الكثير من الناس بما جنحوا إليها وقلدوا آراءها والذنب فى ذلك لمن ارتكبه ، « ولو شاء الله ما فعلوه (١) » .

ثم إن المغرب والأندلس لما ركدت ريح العمران بهما وتناقصت العلوم بتناقصه اضمحل ذلك منها إلا قليلا من رسومه تجدها فى تفاريق من الناس وتحت رقبة من علماء السنة . ويبلغنا عن أهل المشرق أن بضائع هذه العلوم لم تزل عندهم موفورة ، وخصوصًا فى عراق العجم وما بعده فيما وراء النهر ، وأنهم على ثبج من علوم العقلية لتوفر عمرانهم واستحكام الحضارة فيهم . ولقد وقفت بمصر على تآليف متعددة لرجل من عظماء هراة من بلاد خراسان يشهر بسعد الدين التفتازانى ، منها فى علم الكلام وأصول الفقه والبيان ، تشهد بأن له ملكة راسخة فى هذه العلوم وفى أثنائها ما يدل له على أن له اطلاعًا على العلوم الحكمية وقدما عالية فى سائر الفنون العقلية . والله يؤيد بنصره من يشاء .

كذلك بلغنا لهذا العهد أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الإفرنجة من أرض رومة وما إليها من العدوة الشمالية نافقة الأسواق ، وأن رسومها هناك متجددة ومجالس تعليمها متعددة ، ودواوينها جامعة متوفرة ، وطلبتها متكثرة والله أعلم بما هنالك ، وهو يخلق ما يشاء ويختار .

---

(١) أوقليدس Euclide من أشهر علماء الهندسة اليونان . وكان أستاذاً بجامعة الإسكندرية القديمة فى عهد بطليموس الأول (٣٠٦ - ٢٨٣ ق.م. (والمؤلف الذى يشير إليه ابن خلدون هو كتاب الأصول أو العناصر الأولى (ا.هـ. د. وافى) .

(١) جملة من آية ١٣٧ من سورة الأنعام .

٢١ – العلوم العددية

وأولها الأرتماطيقى وهو معرفة خواص الأعداد من حيث التأليف إما على التوالى أو بالتضعيف . مثل أن الأعداد إذا توالت متفاضلة (١) بعدد واحد فإن جمع الطرفين منها مساو لجمع كل عددين بعدهما من الطرفين بعد واحد ومثل ضعف الواسطة إن كانت عدة تلك الأعداد فردًا مثل الأفراد على توالیها والأزواج على توالیها . ومثل أن الأعداد إذا توالت على نسبة واحدة (بأن) يكون أولها نصف ثانيها ، وثانيها نصف ثالثها الخ ، أو يكون أولها ثلث ثانيها وثانيها ثلث ثالثها الخ ، فإن ضرب الطرفين أحدهما فى الآخر كضرب كل عددين بُعدُهما من الطرفين بُعد واحد أحدهما فى الآخر . ومثل مربع الواسطة إن كانت العدة فردًا ، مثل أعداد الزوج فى الزوج ، وذلك مثل المتوالية من اثنين فأربعة فثمانية فستة عشر. ومثل ما يحدث من الخواص العددية فى وضع المثلثات العددية والمربعات والمخمسات والمسدسات إذا وضعت متتالية فى سطورها بأن يجمع من الواحد إلى العدد الأخير ، فتكون مثلثة ، وتتوالى المثلثات هكذا فى سطر تحت الأضلاع ، ثم تزيد على كل مثلث ثلث الضلع الذى قبله ، فتكون مربعة ، وتزيد على كل مربع مثلث الضلع الذى قبله فتكون مخمسة وهلم جرا ، وتتوالى الأشكال على توالى الأضلاع ، ويحدث جدول ذو طول وعرض : ففى عرضه الأعداد على توالیها ثم المثلثات على توالیها ثم المربعات ثم المخمسات الخ ؛ وفى طوله كل عدد وأشكاله بالغًا ما بلغ . وتحدث فى جمعها وقسمة بعضها على بعض طولا وعرضا خواص غريبة استقريت منها وتقررت فى دواوينهم مسائلها وكذلك ما يحدث للزوج والفرد وزوج الزوج وزوج الفرد وزوج الزوج والفرد ، فإن لكل منها خواص مختصه به ، فضمنها هذا الفن وليست فى غيره .

وهذا الفن أول أجزاء التعاليم وأثبتها ، ويدخل فى براهين الحساب . وللحكماء المتقدمين والمتأخرين فيه تآليف . وأكثرهم يدرجونه فى التعاليم ولا يفردونه بالتآليف ، فعل ذلك ابن سينا فى كتاب الشفاء والنجاة وغيره من المتقدمين. وأما المتأخرون فهو عندهم مهجور إذ هو غير متداول ومنفعته فى البراهين لا فى الحساب ، فهجروه لذلك ، بعد أن استخلصوا زبدته فى البراهين الحسابية ، كما فعله ابن البناء فى كتاب رفع الحجاب . والله سبحانه وتعالى أعلم .

(ومن فروع علم العدد صناعة الحساب)

وهى صناعة عملية فى حساب الأعداد بالضم والتفريق فالضم يكون فى الأعداد بالأفراد وهو الجمع ، وبالتضعيف (بأن) تضاعف عددًا بآحاد عدد آخر وهذا هو الضرب . والتفريق أيضًا يكون فى الأعداد إما بالإفراد مثل إزالة عدد من عدد ومعرفة الباقى وهو الطرح ، أو تفصيل عدد بأجزاء متساوية تكون عدتها محصلة (له) وهو القسمة ، وسواء كان هذا الضم والتفريق فى الصحيح من

(١) وهو ما نسميه الآن بالمتواليات العددية .

عدد أو الكسر . ومعنى الكسر نسبة عدد إلى عدد ، وتلك النسبة تسمى كسراً . وكذلك يكون بالضم والتفريق فى الجذور ومعناها العدد الذى يضرب فى مثله فيكون منه العدد المربع ، فإن تلك الجذور أيضًا يدخلها الضم والتفريق . وهذه الصناعة حادثة احتيج إليها للحساب فى المعاملات ، وألف الناس فيها كثيرًا ، وتداولوها فى الأمصار بالتعليم للولدان. ومن أحسن التعليم عندهم الابتداء بها لأنها معارف متضحة وبراهين منتظمة فينشأ عنها فى الغالب عقل مضىء دَرِبٌ على الصواب . وقد يقال من أخذ نفسه بتعلم الحساب أول أمره إنه يغلب عليه الصدق ، لما فى الحساب من صحة المبانى ومناقشة النفس ، فيصير ذلك خلقًا ويتعود الصدق ويلازمه مذهبًا . (١) ومن أحسن التآليف المبسوطة فيها لهذا العهد بالمغرب كتاب « الحصار الصغير » ، ولابن البناء المراكشى فيه تلخيص ضابط لقوانين أعماله مفيد ، ثم شرحه بكتاب سماه « رفع الحجاب » وهو مستغلق على المبتدىء بما فيه من البراهين الوثيقة المبانى ، وهو كتاب جليل القدر أدركنا المشيخة تعظمه ، وهو كتاب جدير بذلك ، وإنما جاءه الاستغلاق من طريق البرهان ببيان علوم التعاليم ، لأن مسائلها وأعمالها واضحة كلها ، وإذا قصد شرحها فإنما هو إعطاء العلل فى تلك الأعمال ، وفى ذلك من العسر على الفهم ما لايوجد فى أعمال المسائل ، فتأمله . والله يهدى بنوره من يشاء ، وهو القوى المتين .

(ومن فروعه الجبر والمقابلة) . وهى صناعة يستخرج بها العدد المجهول من قبل المعلوم المفروض إذا كان بينهما نسبة تقتضى ذلك . فاصطلحوا فيها على أن جعلوا للمجهولات مراتب من طريق التضعيف بالضرب . أولها العدد لأن به يتعين المطلوب المجهول باستخراجه من نسبة المجهول إليه . وثانيها الشىء لأن كل مجهول فهو من جهة إبهامه شىء ، وهو أيضا جذر لما يلزم من تضعيفه فى المرتبة الثانية . وثالثها المال وهوأمر مبهم . وما بعد ذلك فعلى نسبة الأس فى المضروبين . ثم يقع العمل المفروض فى المسألة فتخرج إلى معادلة بين مختلفين أو أكثر من هذه الأجناس فيقابلون بعضها ببعض ويجبرون مافيها من الكسر حتى يصير صحيحا ويحطون المراتب إلى أقل الأسوس إن أمكن ، حتى يصير إلى الثلاثة التى عليها مدار الجبر عندهم ، وهى العدد والشىء والمال . فإن كانت المعادلة بين واحد وواحد تعين فالمال والجذر يزول إبهامه بمعادلة العدد ويتعين . والمال وإن عادل الجذور يتعين بعدتها . وإن كانت المعادلة بين واحد واثنين أخرجه العمل الهندسى من طريق تفصيل الضرب فى الاثنين وهى مبهمه فيعينها ذلك الضرب المفصل . ولا يمكن المعادلة بين اثنين واثنين . وأكثر ما انتهت المعادلة بينهم إلى ست مسائل ، لأن المعادلة بين عدد وجذر ومال مفردة أو مركبة تجىء ستة وأول من كتب فى هذا الفن أبو عبد الله الخوارزمى وبعده أبو كامل شجاع بن

(١) يعقب د. وافى بقوله : فنظرية « الفوائد الخلقية للعلوم » La Morale des Sciences التى يظن أنها من نظريات المحدثين من علماء البيداجوجيا قد قال بها ابن خلدون قبل أن يظهر هؤلاء البيداجوجيون بأكثر من أربعة قرون .

لم ، وجاء الناس على أثره فيه . وكتابه فى مسائله
ست من أحسن الكتب الموضوعة فيه . وشرحه
كبير من أهل الأندلس فأجادوا ، ومن أحسن
روحاته كتاب القرشى . وقد بلغنا أن بعض
ة التعاليم من أهل المشرق أنهى المعاملات إلى أكثر
هذه الستة الأجناس وبلغها إلى فوق العشرين
تخرج لها كلها أعمالا وأتبعه ببراهين هندسية .
له « يزيد فى الخلق ما يشاء » (١) ، سبحانه
عالى .

(ومن فروعه أيضا المعاملات) . — وهو
ريف الحساب فى معاملات المدن فى البياعات
ساحات والزكوات وسائر ما يعرض فيه العدد
المعاملات ، يصرف فى ذلك صناعتا الحساب
المجهول والمعلوم والكسر والصحيح والجذور
برها . والغرض من تكثير المسائل المعروضة
ا حصول المران والدربة بتكرار العمل حتى ترسخ
كة فى صناعة الحساب . ولأهل الصناعة الحسابية
أهل الأندلس تآليف فيها متعددة من أشهرها
لات الزهراوى وابن السمح وأبى مسلم بن
ون من تلميذ مسلمة المجريطى وأمثالهم .

(ومن فروعه أيضا الفرائض) . — وهى
اعة حسابية فى تصحيح السهام لذوى الفروض
الوراثات إذا تعددت وهلك بعض الوارثين
كسرت سهامه على ورثته ، أو زادت الفروض
اجتماعها وتزاحمها على المال كله ، أو كان
الفريضة إقرار وإنكار من بعض الورثة ،
فيحتاج فى ذلك كله إلى عمل يعين به سهام
الفريضة من كم تصح ، وسهام الورثة من كل
بطن مصححا حتى تكون حظوظ الوارثين من
المال على نسبة سهامهم من جملة سهام الفريضة ،
فيدخلها من صناعة الحساب جزء كبير من صحيحه
وكسره وجذره ومعلومه ومجهوله ، وترتب على
ترتيب أبواب الفرائض الفقهية ومسائلها ،
فتشتمل حينئذ هذه الصناعة على جزء من الفقه ،
وهو أحكام الوراثة من الفروض والعول والإقرار
والإنكار والوصايا والتدبير وغير ذلك من مسائلها ،
وعلى جزء من الحساب وهو تصحيح السهمان
باعتبار الحكم الفقهى . وهى من أجل العلوم :
وقد يورد أهلها أحاديث نبوية تشهد بفضلها مثل :
« الفرائض ثلث العلم » ، و « أنها أول ما يرفع
من العلوم » وغير ذلك . وعندى أن ظواهر تلك
الأحاديث كلها إنما هى فى الفرائض العينية كما
تقدم لا فرائض الوراثات ؛ فإنها أقل من أن تكون
فى كميتها ثلث العلم ؛ وأما الفرائض العينية
فكثيرة .

وقد ألف الناس فى هذا الفن قديما وحديثا
وأوعبوا . ومن أحسن التآليف فيه على مذهب
مالك رحمه الله كتاب ابن ثابت ومختصر القاضى
أبى القاسم الحوفى وكتاب ابن المنمر والجعدى والصردى
وغيرهم . لكن الفضل للحوفى ، فكتابه مقدم على
جميعها . وقد شرحه من شيوخنا أبو عبد الله سليمان
الشطى كبير مشيخة فاس فأوضح وأوعب .
ولإمام الحرمين فيها تآليف على مذهب الشافعى

(١) من الآية الأولى من سورة فاطر .

تشهد باتساع باعه فى العلوم ، ورسوخ قدمه . وكذا للحنفية والحنابلة . ومقامات الناس فى العلوم مختلفة . والله يهدى من يشاء بمنه وكرمه ، لارب سواه .

٢٢ – العلوم الهندسية

هذا العلم هو النظر فى المقادير ، إما المتصلة كالخط والسطح والجسم ، وإما المنفصلة كالأعداد فيما يعرض لها من العوارض الذاتية : مثل أن كل مثلث فزواياه مثل قائمتين ؛ ومثل أن كل خطين متوازيين لا يلتقيان فى وجه ولو خرجا إلى غير نهاية ؛ ومثل أن كل خطين متقاطعين فالزاويتان المتقابلتان منهما متساويتان ؛ ومثل أن الأربعة مقادير المتناسبة ضرب الأول منها فى الثالث كضرب الثانى فى الرابع [١] وأمثال ذلك .

والكتاب المترجم لليونانيين فى هذه الصناعة كتاب أوقليدس [٢] ويسمى كتاب الأصول وكتاب الأركان ، وهو أبسط ما وضع فيها للمتعلمين ؛ وأول ما ترجم من كتاب اليونانيين فى الملة أيام أبى جعفر المنصور . ونسخه مختلفة باختلاف المترجمين . فمنها لحنين بن إسحاق ولثابت بن قرة وليوسف بن الحجاج . ويشتمل على خمس عشرة مقالة : أربع فى السطوح ؛ وواحدة فى الأقدار المتناسبة ؛ وأخرى فى نسب السطوح بعضها إلى بعض ؛ وثلاث فى العدد والعاشرة فى المنطقات والقوى على المنطقات ومعناها الجذور ؛ وخمس فى المجسمات .

وقد اختصره الناس اختصارات كثيرة ك فعله ابن سينا فى تعاليم الشفاء ، أفرد له ج منها اختصه به ، وكذلك ابن الصلت فى كتا الاقتصار وغيرهم . وشرحه آخرون شروحا كثير وهو مبدأ العلوم الهندسية بإطلاق .

واعلم أن الهندسة تفيد صاحبها إضاءة عقله واستقامة فى فكره ، لأن براهينها كلها بي الانتظام ، جلية الترتيب ، لا يكاد الغلط يد أقيستها لترتيبها وانتظامها ، فيبعد الفكر بممارس عن الخطأ ، وينشأ لصاحبها عقل على ذ المهيع [١] .

وقد زعموا أنه كان مكتوبا على باب أفلا من لم يكن مهندسا فلا يدخلن منزلنا . وكان شيو رحمهم الله يقولون : ممارسة علم الهندسة لل بمثابة الصابون للثوب الذى يغسل منه الأ وينقيه من الأوضار والأدران ؛ وإنما ذلك أشرنا إليه من ترتيبه وانتظامه .

(ومن فروع هذا الفن الهندسة المخص بالأشكال الكرية والمخروطات) :

أما الأشكال الكرية ففيها كتابان من ك

---

(١) صوب د . وافى ذلك بقوله : وصوابه : ضرب الأول منها فى الرابع كضرب الثانى فى الثالث ومثاله ٥ : ١٠ = ١٠ : ٢٠ فضرب الأول فى الرابع أى ٥ × ٢٠ = ١٠٠ يساوى ضرب الثانى فى الثالث أى ١٠ × ١٠ = ١٠٠ .
هذا ويظهر أن موضوع الأعداد المتناسبة كان عندهم من مسائل الهندسة وهو يعد الآن من مسائل الحساب .

(٢) هو كتاب « الأصول » أو « العناصر الأولى » . (د . وافى)

(١) « طريق مهيع » بين بالياء المشددة » (القاموس) .

اليونانيين لثاودوسيوس (١) وميلاوش (٢) فى سطوحها وقطوعها . وكتاب ثاودوسيوس مقدم فى التعليم على كتاب ميلاوش لتوقف كثير من براهينه عليه . ولابد منهما لمن يريد الخوض فى علم الهيئة لأن براهينها متوقفة عليهما .

فالكلام فى الهيئة كله كلام فى الكرات السماوية وما يعرض فيها من القطوع والدوائر بأسباب الحركات كما نذكره ، فقد يتوقف على معرفة أحكام الأشكال الكرية سطوحها وقطوعها.

وأما المخروطات فهو من فروع الهندسة أيضا ، وهو علم ينظر فيما يقع فى الأجسام المخروطة من الأشكال والقطوع ويبرهن على ما يعرض لذلك من العوارض ببراهين هندسية متوقفة على التعلم الأول . وفائدتها تظهر فى الصنائع العملية التى موادها الأجسام مثل النجارة والبناء وكيف تصنع التماثيل الغريبة والهياكل النادرة ، وكيف يتحيل على جر الأثقال ونقل الهياكل بالهندام والمحال وأمثال ذلك . وقد أفرد بعض المؤلفين فى هذا الفن كتابا فى الحيل العملية يتضمن من الصناعات الغريبة والحيل المستطرفة كل عجيبة . وربما استغلق على الفهوم لصعوبة براهينه الهندسية . وهو موجود بأيدى الناس ينسبونه إلى بنى شاكر . والله تعالى أعلم .

(ومن فروع الهندسة المساحة) . — وهو فن يحتاج إليه فى مسح الأرض ، ومعناه استخراج مقدار الأرض المعلومة بنسبة شبر أو ذراع أو غيرهما أو نسبة أرض من أرض إذا قويست بمثل ذلك . ويحتاج إلى ذلك فى توظيف الخراج على المزارع والفدن وبساتين الغراسة وفى قسمة الحوائط والأراضى بين الشركاء والورثة وأمثال ذلك . وللناس فيها موضوعات حسنة وكثيرة . والله الموفق للصواب بمنه وكرمه .

(المناظر من فروع الهندسة) . — وهو علم يتبين به أسباب الغلط فى الإدراك البصرى بمعرفة كيفية وقوعها بناء على إدراك البصر يكون بمخروط شعاعى رأسه يقطعه الباصر وقاعدته المرئى ؛ ثم يقع الغلط كثيرا فى رؤية القريب كبيرا والبعيد صغيرا وكذا رؤية الاشباح الصغيرة تحت الماء ووراء الاجسام الشفافة كبيرة ، ورؤية النقطة النازلة من المطر خطا مستقيما ، والشعلة دائرة وأمثال ذلك فيتبين فى هذا العلم أسباب ذلك وكيفياته بالبراهين الهندسية ، ويتبين به أيضا اختلاف المنظر فى القمر باختلاف العروض الذى ينبنى عليه معرفة رؤية الاهلة وحصول الكسوفات وكثير من أمثال هذا . وقد ألف فى هذا الفن كثير من اليونانيين . وأشهر من ألف فيه من الإسلاميين ابن الهيثم . ولغيره فيه أيضا تآليف . وهو من هذه الرياضة وتفاريعها .

---

(١) هو ثيودسيوس Théodose من أشهر علماء الهندسة اليونان ومن رجال القرن الأول الميلادى .

(٢) هكذا فى جميع النسخ وصوابه مينيلاوس Ménélaüs ويسمى مينيلاوس الاسكندرى Ménélaüs d'Alexandrie وهو من أشهر علماء الهندسة اليونان ومن رجال القرن الأول الميلادى . (د . واف)

٢٣ – علم الهيئة

وهو علم ينظر فى حركات الكواكب الثابتة والمتحركة والمتحيزة ، ويستدل بكيفيات تلك الحركات على أشكال وأوضاع للافلاك لزمت عنها هذه الحركات المحسوسة بطرق هندسية ، كما يبرهن على أن مركز الارض مباين لمركز فلك الشمس بوجود حركة الإقبال والإدبار ، وكما يستدل بالرجوع والاستقامة للكواكب على وجود أفلاك صغيرة حاملة لها متحركة داخل فلكها الأعظم ، وكما يبرهن على وجود الفلك الثامن بحركة الكواكب الثابتة ، وكما يبرهن على تعدد الافلاك للكوكب الواحد بتعداد الميول له ، وأمثال ذلك وإدراك الموجود من الحركات وكيفياتها وأجناسها إنما هو بالرصد ؛ فإنا إنما علمنا حركة الاقبال والإدبار به ، وكذا تركيب الافلاك فى طبقاتها وكذا الرجوع والاستقامة وأمثال ذلك .

وكان اليونانيون يعتنون بالرصد كثيرا ويتخذون له الآلات التى توضع ليرصد بها حركة الكوكب المعين ، وكانت تسمى عندهم ذات الحلق ، وصناعة عملها والبراهين عليه فى مطابقة حركتها بحركة الفلك منقول بايدى الناس .

وأما فى الإسلام فلم تقع به عناية إلا فى القليل ، وكان فى أيام المامون شىء منه ، وصنع الآلة المعروفة للرصد المسماة ذات الحلق ، وشرع فى ذلك فلم يتم . ولما مات ذهب رسمه وأغفل واعتمد من بعده على الارصاد القديمة ، وليست بمغنية لاختلاف الحركات باتصال الاحقاب وأن مطابقة حركة الآلة فى الرصد بحركة الافلاك والكواكب إنما هو بالتقريب ولا يعطى التحقيق فإذا طال الزمان ظهر تفاوت ذلك بالقريب .

وهذه الهيئة صناعة شريفة . وليست على ما يفهم فى المشهور أنها تعطى صورة السماوات وترتيب الافلاك والكواكب بالحقيقة ، بل إنما تعطى أن هذه الصور والهيئات للافلاك لزمت عن هذه الحركة وأنت تعلم أنه لا يبعد أن يكون الشىء الواحد لازماً لمختلفين . وإن قلنا إن الحركة لازمة فهو استدلال باللازم على وجود الملزوم ، ولا يعطى الحقيقة بوجه . على أن علم جليل ، وهو أحد أركان التعاليم ومن أحسن التآليف فيه كتاب المجسطى منسوب لبطليموس ، وليس من ملوك اليونان (١) الذين أساوهم بطليموس على ما حققه شراح الكتاب . وقد اختصره الائمة من حكماء الإسلام كما فعله ابن سينا وأدرجه فى تعاليم الشفاء ولخصه ابن راشد أيضاً من حكماء الاندلس ، وابن السمح ، وابن الصلت فى كتاب الاقتصار . ولابن الفرغانى هيئة ملخصة قربها وحذف براهينها الهندسية . والله « علم الإنسان ما لم يعلم (٢) » سبحانه لا إله إلا هو رب العالمين .

(ومن فروعه علم الازياج) . – وهى صناعة حسابية على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب من طريق حركته ، وما أدى إليه برهان الهيئة

---

(١) يقصد الذين حكموا مصر بعد الاسكندر وهم المعروفون بالبطالسة .

(٢) الآية ٥ من سورة العلق .

فى وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك ، يعرف به الكواكب فى أفلاكها لأى وقت فرض من قبل حسبان حركاتها ، على تلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة .

ولهذه الصناعة قوانين كالمقدمات والأصول لها فى معرفة الشهور والأيام والتواريخ الماضية وأصول متقررة من معرفة الأوج والحضيض والميول وأصناف الحركات واستخراج بعضها من بعض ، يضعونها فى جداول مرتبة تسهيلا على المتعلمين ، وتسمى الأزياج . ويسمى استخراج موضع الكواكب للوقت المفروض لهذه الصناعة تعديلا وتقويماً . وللناس فيه تآليف كثيرة للمتقدمين والمتأخرين مثل البتّانى وابن الكماد ، وقد عول المتأخرون لهذا العهد بالمغرب على زيج منسوب لابن إسحاق من من منجمى تونس فى أول المائة السابعة . ويزعمون أن ابن إسحاق عول فيه على الرصد ، وأن يهودياً كان بصقلية ماهرا فى الهيئة والتعاليم ، وكان قد عنى بالرصد ، وكان يبعث إليه بما يقع من أحوال الكواكب وحركاتها . فكان أهل المغرب لذلك عنوا به لوثاقة مبناه على ما يزعمون . ولخصه ابن البناء فى آخر سماه المنهاج . فولع به الناس لما سهل من الأعمال فيه . وإنما يحتاج إلى مواضع الكواكب من الفلك لتنبنى عليها الأحكام النجومية وهو معرفة الآثار التى تحدث عنها بأوضاعها فى عالم الإنسان من الملك والدول والمواليد البشرية كما نبنيه بعد ونوضح فيه أدلتهم (١) إن شاء الله تعالى . والله الموفق لما يحبه ويرضاه لا معبود سواه .

٢٤ – علم المنطق

وهو قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد فى الحدود المُعَرِّفة للماهيات ، والحجج المفيدة للتصديقات . وذلك أن الاصل فى الإدراك إنما هو المحسوسات بالحواس الخمس . وجميع الحيوانات مشتركة فى هذا الإدراك من الناطق وغيره . وإنما يتميز الإنسان عنها بإدراك الكليات وهى مجردة من المحسوسات ، وذلك بأن يحصل فى الخيال من الأشخاص المتفقة صورة منطبقة على جميع تلك الأشخاص المحسوسة ، وهى الكلى . ثم ينظر الذهن بين تلك الأشخاص المتفقة وأشخاص أخرى توافقها فى بعض ، فيحصل له صورة تنطبق أيضا عليهما باعتبار ما اتفقا فيه . ولا يزال يرتقى فى التجريد إلى الكل الذى لا يجد كليا آخر معه يوافقه ، فيكون لأجل ذلك بسيطا . وهذا مثل ما يجرد من أشخاص الإنسان صورة النوع المنطبقة عليها ، ثم ينظر بينه وبين الحيوان ويجرد صورة الجنس المنطبقة عليهما ، ثم بينهما وبين النبات إلى أن ينتهى إلى الجنس العالى ، وهو الجوهر ، فلا يجد كليا يوافقه فى شىء فيقف العقل هنالك عن التجريد . ثم إن الإنسان لما خلق الله له الفكر الذى به يدرك العلوم والصنائع ، وكان العلم إما تصورا للماهيات ويعنى به إدراك ساذج من

---

(١) سيتكلم على ذلك فى الفصل التاسع والعشرين من هذا الباب وهو الفصل الخاص بعلوم السحر والطلسمات .

غير حكم معه ، وإما تصديقا أى حكما بثبوت أمر لأمر ، فصار سعى الفكر فى تحصيل المطلوبات : إما بأن تجمع تلك الكليات بعضها إلى بعض على جهة التأليف ، فتحصل صورة فى الذهن كلية منطبقة على أفراد فى الخارج ، فتكون تلك الصورة الذهنية مفيدة لمعرفة ماهية تلك الأشخاص ؛ وإما بأن يحكم بأمر على أمر فيثبت له ويكون ذلك تصديقا وغايته فى الحقيقة راجعة إلى التصور ، لأن فائدة ذلك إذا حصل إنما هى معرفة حقائق الأشياء التى هى مقتضى العلم وهذا السعى من الفكر قد يكون بطريق صحيح وقد يكون بطريق فاسد . فاقتضى ذلك تمييز الطريق الذى يسعى به الفكر فى تحصيل المطالب العلمية ليتميز فيها الصحيح من الفاسد . فكان ذلك قانون المنطق .

وتكلم فيه المتقدمون أول ماتكلموا به جُملاً جُملاً ومفترقا ، ولم تهذب طرقه ولم تجمع مسائله حتى ظهر في يونان أرسطو ، فهذب مباحثه ورتب مسائله وفصوله ، وجعله أول العلوم الحكمية وفاتحتها . ولذلك يسمى بالمعلم الاول وكتابه المخصوص بالمنطق يسمى النص (١) ، وهو يشتمل على ثمانية كتب : أربعة منها فى صورة القياس ؛ وأربعة فى مادته . وذلك أن المطالب التصديقية على أنحاء : فمنها ما يكون المطلوب فيه اليقين بطبعه ، ومنها ما يكون المطلوب فيه الظن ، وهو على مراتب . فينظر فى القياس من حيث المطلوب الذى يفيده ، وما ينبغى أن تكون مقدماته بذلك الاعتبار ، ومن أى جنس يكون من العلم أو من الظن ، وقد ينظر فى القياس لا باعتبار مطلوب مخصوص بل من جهة إنتاجه خاصة . ويقال للنظر الأول إنه من حيث المادة ونعنى به المادة المنتجة للمطلوب المخصوص من يقين أو ظن ؛ ويقال للنظر الثانى إنه من حيث الصورة وإنتاج القياس على الإطلاق . فكانت لذلك كتب المنطق ثمانية :

الأول فى الأجناس العالية التى ينتهى إليها تجريد المحسوسات وهى التى ليس فوقها جنس ويسمى كتاب : المقولات .

والثانى فى القضايا التصديقية وأصنافها ويسمى كتاب : العبارة .

والثالث فى القياس وصورة إنتاجه على الإطلاق ويسمى : كتاب القياس ، وهذا آخر النظر من حيث الصورة .

ثم الرابع : كتاب البرهان وهو النظر فى القياس المنتج لليقين ، وكيف يجب أن تكون مقدماته يقينية ، ويختص بشروط أخرى لإفادة اليقين مذكورة فيه ، مثل كونها ذاتية وأولية وغير ذلك . وفى هذا الكتاب الكلام فى المعرفات والحدود ، إذ المطلوب فيها إنما هو اليقين لوجوب المطابقة بين الحد والمحدود لا تحتمل غيرها ، فلذلك اختصت عند المتقدمين بهذا الكتاب .

والخامس : كتاب الجدل وهو القياس المفيد قطع المشاغب وإفحام الخصم وما يجب أن يستعمل فيه من المشهورات . ويختص أيضاً من جهة إفادته

(١) يصوب د . وأتى ذلك بقوله : اسم كتابه « الأورجانون » Organon ومعنى هذه الكلمة باليونانية « الآلة » Outil أى إنه آلة تعصم الفكر من الخطأ . فترجمته « بالنص » غير صحيحة .

لهذا الغرض بشروط أخرى من حيث إفادته لهذا الغرض وهى مذكورة هناك . وفى هذا الكتاب يذكر المواضع التى يستنبط منها صاحب القياس قياسه وفيه عكوس القضايا .

والسادس: كتاب السفسطة ، وهو القياس الذى يفيد خلاف الحق ويغالط به المناظر صاحبه وهو فاسد . وهذا إنما كتب ليعرف به القياس المغالطى فيحذر منه .

والسابع : كتاب الخطابة وهو القياس المفيد ترغيب الجمهور وحملهم على المراد منهم وما يجب أن يستعمل فى ذلك من المقالات .

والثامن : كتاب الشعر وهو القياس الذى يفيد التمثيل والتشبيه خاصة للإقبال على شيء أو النفرة عنه ، وما يجب أن يستعمل فيه من القضايا التخيلية .

هذه هى كتب المنطق الثمانية عند المتقدمين .

ثم إن حكماء اليونانيين بعد أن تهذبت الصناعة ورتبت ، رأوا أنه لابد من الكلام فى الكليات الخمس المفيدة للتصور (١) فاستدركوا فيها مقالة تختص بها مقدمة بين يدى الفن فصارت تسعا ، وترجمت كلها فى الملة الإسلامية . وكتبها وتداولها فلاسفة الإسلام بالشرح كما فعله الفارابى وابن سينا ثم ابن رشد من فلاسفة الأندلس . ولابن سينا كتاب «الشفاء» استوعب فيه علوم الفلسفة السبعة كلها (٢) .

ثم جاء المتأخرون فغيروا اصطلاح المنطق وألحقوا بالنظر فى الكليات الخمس ثمرته وهى الكلام فى الحدود والرسوم ، نقلوها من كتاب البرهان وحذفوا كتاب المقولات ، لأن نظر المنطقى فيه بالعرض لا بالذات ، وألحقوا فى كتاب العبارة الكلام فى العكس ،لأنه من توابع الكلام فى القضايا ببعض الوجوه .

ثم تكلموا فى القياس من حيث إنتاجه للمطالب على العموم لا بحسب مادته ، وحذفوا النظر فيه بحسب المادة ، وهى الكتب الخمسة : البرهان والجدل والخطابة والشعر والسفسطة . وربما يلم بعضهم باليسير منها إلماما ، وأغفلوها كأن لم تكن وهى المهم المعتمد فى الفن (١) .

ثم تكلموا فيما وضعوه من ذلك كلاما مستبحرا ونظروا فيه من حيث إنه فن برأسه لا من حيث إنه آلة للعلوم ، فطال الكلام فيه واتسع . وأول من فعل ذلك الإمام فخر الدين بن الخطيب ، ومن بعده أفضل الدين الخونجى ، وعلى كتبه معتمد المشارقة لهذا العهد ، وله فى هذه الصناعة كتاب «كشف الأسرار» وهو طويل ، واختصر فيها مختصر «الموجز» وهو حسن فى التعليم ، ثم مختصر «الجمل» (٢) فى قدر أربعة أوراق أخذ بمجامع الفن وأصوله ، فتداوله المتعلمون لهذا العهد فينتفعون به ، وهجرت كتب المتقدمين وطرقهم

---

(١) وهى الجنس والفصل والنوع والخاصة والعرض .

(٢) انظر تفصيل هذه الموضوعات فى تعليق للدكتور على عبد الواحد وافى ص ١٢٣٩ من منشورته.

(١) يعنى أغفلوها مع أنها المهم المعتمد فى الفن .

(٢) هكذا فى جميع النسخ ، ورجح د . وافى أن الكلمة محرفة من كلمة « المجمل » .

كأن لم تكن ، وهى ممتلئة من ثمرة المنطق وفائدته كما قلناه والله الهادى للصواب .

٢٥ — الطبيعيات

وهو علم يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون ، فينظر فى الأجسام السماوية والعنصرية وما يتولد عنها من حيوان وإنسان ونبات ومعدن ، وما يتكون فى الأرض من العيون والزلازل وفى الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك ، وفى مبدأ الحركة للأجسام وهو النفس على تنوعها فى الإنسان والحيوان والنبات . وكتب أرسطو فيه موجودة بين أيدى الناس ترجمت مع ماترجم من علوم الفلسفة أيام المأمون ، وألف الناس على حذوها .

وأوعب من ألف فى ذلك ابن سينا فى كتاب الشفاء . جمع فيه العلوم السبعة للفلاسفة كما قدمناه ، ثم لخصه فى « كتاب النجاة » ، وفى كتاب الإشارات ، وكأنه يخالف أرسطو فى الكثير من مسائلها ويقول برأيه فيها .

وأما ابن رشد فلخص كتب أرسطو وشرحها متبعًا له غير مخالف . وألف الناس فى ذلك كثيرا ؛ لكن هذه هى المشهورة لهذا العهد والمعتبرة فى الصناعة .

ولأهل المشرق عناية بكتاب الإشارات لابن سينا ، وللإمام ابن الخطيب عليه شرح حسن ، وكذا الآمدى ، وشرحه أيضا نصير الدين الطوسى المعروف بخواجة من أهل المشرق ، وبحث مع الإمام فى كثير من مسائله فأوفى على أنظاره وبحوثه « وفوق كل ذى علم عليم » (١) ، « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » (٢) .

٢٦ — علم الطب

ومن فروع الطبيعيات صناعة الطب وهى صناعة تنظر فى بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح ، فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية ، بعد أن يتبين المرض الذى يخص كل عضو من أعضاء البدن ، وأسباب تلك الأمراض التى تنشأ عنها ، وما لكل مرض من الأدوية ، مستدلين على ذلك بأمزجة الأدوية وقواها ، وعلى المرض بالعلامات المؤذنة بنضجه وقبوله الدواء أولا فى السجية والفضلات والنبض محاذين لذلك قوة الطبيعة ، فإنها المدبرة فى حالتى الصحة والمرض ، وإنما الطبيب يحاذيها ويعينها بعض الشىء بحسب ماتقتضيه طبيعة المادة والفصل والسن . ويسمى العلم الجامع لهذا كله علم الطب.

وربما أفردوا بعض الأعضاء بالكلام وجعلوه علمًا خاصًا كالعين وعللها وأكحالها . وكذلك ألحقوا بالفن من منافع الأعضاء (٣) ومعناه المنفعة التى لأجلها خلق كل عضو من أعضاء البدن الحيوانى ، وإن لم يكن ذلك من موضوع علم الطب ، إلا أنهم جعلوه من لواحقه وتوابعه . و

(١) آخر آية ٧٦ من سورة يوسف .

(٢) آخر آية ٢١٣ من سورة البقرة .

(٣) هو علم الفيزيولوجيا أو وظائف الأعضاء Physiologie وهو الأساس المبنى عليه فى الطب ويظهر أن فى هذه الجملة تحريفا وصوابها : وكذلك ألحقوا بالطب فن منافع الأعضاء (د . وافى)

وإمام هذه الصناعة التي ترجمت كتبه فيها من الأقدمين جالينوس . يقال إنه كان معاصراً لعيسى عليه السلام ، ويقال إنه مات بصقلية في سبيل تغلب ومطاوعة اغتراب[١] ، وتآليفه فيها هي الأمهات التي اقتدى بها جميع الأطباء بعده . وكان في الإسلام في هذه الصناعة أئمة جاءوا من وراء الغاية ، مثل الرازي والمجوسي وابن سينا ، ومن أهل الأندلس أيضاً كثير وأشهرهم ابن زهر . وهي لهذا العهد في المدن الإسلامية كأنها نقصت لوقوف العمران وتناقصه ، وهي من الصنائع التي لاتستدعيها إلا الحضارة والترف كما نبينه بعد .

(فصل) وللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارثاً عن مشايخ الحي وعجائزه . وربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعي ، ولا على موافقة المزاج . وكان عند العرب من هذا الطب كثير ، وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث ابن كلدة وغيره . والطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل ، وليس من الوحي في شيء ، وإنما هو أمر كان عادياً للعرب ووقع في ذكر أحوال النبي صلى الله عليه وسلم من نوع ذكر أحواله التي هي عادة وجبلة ، لامن جهة أن ذلك النحو من العمل . فإنه صلى الله عليه وسلم إنما بعث ليعلمنا الشرائع ، ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات ، وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ماوقع ، فقال «أنتم أعلم بأمور دنياكم»[١] . فلا ينبغي أن يحمل شيء من الطب الذي الذي وقع في الأحاديث الصحيحة المنقولة على أنه مشروع ؛ فليس هناك مايدل عليه ؛ اللهم إلا إذا استعمل على جهة التبرك وصدق العقد الإيماني ، فيكون له أثر عظيم في النفع . وليس ذلك في الطب المزاجي ، وإنما هو من آثار الكلمة الإيمانية ، كما وقع في مداواة المبطون بالعسل . والله الهادي إلى الصواب لارب سواه .

٢٧ – الفلاحة

هذه الصناعة من فروع الطبيعيات وهي النظر في النبات من حيث تنميته ونشوءه بالسقي والعلاج وتعهده بمثل ذلك . وكان للمتقدمين بها عناية كبيرة ، وكان النظر فيها عندهم عاماً في النبات من جهة غرسه وتنميته ومن جهة خواصه وروحانيته ومشاكلتها لروحانيات الكواكب والهياكل المستعمل ذلك كله في باب السحر . فعظمت عنايتهم به لأجل ذلك . وترجم من كتب اليونانيين كتاب الفلاحة النبطية منسوبة لعلماء النبط ، مشتملة من ذلك على علم كبير . ولما نظر أهل الملة فيما اشتمل عليه هذا الكتاب ، وكان باب السحر مسدوداً ، والنظر فيه محظوراً ، فاقتصروا منه على الكلام في النبات من جهة غرسه وعلاجه وما يعرض له في ذلك ، وحذفوا الكلام

---

(١) انظر تعقيب د. وافي على ما ذكره ابن خلدون بشأن جالينوس وتصويبه لما قال عنه في منشورته ص ١٢٤٣ .

(١) انظر أصل هذه القصة في تعليق الدكتور على عبد الواحد وافي ص ١٢٤٤ من الجزء الثالث (طبعة لجنة البيان العربي)

فى الفن الآخر منه جملة . واختصر ابن العوام كتاب الفلاحة النبطية على هذا المنهاج ، وبقى الفن الآخر منه مغفلا ، نقل منه مسلمة فى كتبه السحرية أمهات من مسائله كما نذكره عند الكلام عن السحر إن شاء الله تعالى .

وكتب المتأخرين فى الفلاحة كثيرة ولا يعدون فيها الكلام فى الغراس والعلاج وحفظ النبات من حوائجه وعوائقه وما يعرض فى ذلك كله ، وهى موجودة .

٢٨ – علم الإلاهيات

وهو علم ينظر فى الوجود المطلق . فأولا فى الأمور العامة للجسمانيات والروحانيات من الماهيات والوحدة والكثرة والوجوب والامكان وغير ذلك ؛ ثم ينظر فى مبادىء الموجودات وأنها روحانيات ؛ ثم فى كيفية صدور الموجودات عنها ومراتبها ؛ ثم فى أحوال النفس بعد مفارقة الأجسام وعودها إلى المبدأ . وهو عندهم علم شريف يزعمون أنه يوقفهم على معرفة الوجود على ما هو عليه ، وأن ذلك عين السعادة فى زعمهم . وسيأتى الرد عليهم وهو تال للطبيعيات فى ترتيبهم . ولذلك يسمونه علم ماوراء الطبيعة وكتب المعلم الأول موجودة بين أيدى الناس (١) ولخصه ابن سينا فى كتاب : الشفاء ، والنجاة وكذلك لخصها ابن رشد من حكماء الأندلس .

ولما وضع المتأخرون فى علوم القوم ودونوا فيها ورد عليهم الغزالى ما رد منها ، ثم خلط المتأخرون من المتكلمين مسائل علم الكلام بمسائل الفلسفة لعروضها فى مباحثهم وتشابه موضوع علم الكلام بموضوع الآلهيات ومسائل بمسائلها ، فصارت كأنها فن واحد . ثم غيروا ترتيب الحكماء فى مسائل الطبيعيات والالهيات وخلطوهما فنا واحدا قدموا الكلام فى الأمور العامة ، ثم اتبعوه بالجسمانيات وتوابعها ثم بالروحانيات وتوابعها إلى آخر العلم كما فعله الامام ابن الخطيب فى المباحث المشرقية ، وجميع من بعده من علماء الكلام .

وصار علم الكلام مختلطاً بمسائل الحكمة وكتبه محشوة بها كأن الغرض من موضوعهما ومسائلهما واحد ، والتبس ذلك على الناس وهو غير صواب ؛ لأن مسائل علم الكلام إنما هى عقائد متلقاة من الشريعة كما نقلها السلف من غير رجوع فيها إلى العقل ولا تعويل عليه ، بمعنى أنها لا تثبت إلا به (١) ، فان العقل معزول عن الشرع وأنظاره ؛ وما تحدث فيه المتكلمون من إقامة الحجج فليس بحثاً عن الحق فيها ، فالتعليل بالدليل بعد أن لم يكن معلوماً هو شأن الفلسفة بل إنما هو التماس حجة عقلية تعضد عقائد الإيمان ومذاهب السلف فيها ، وتدفع شبه أهل البدع عنها الذين زعموا أن مداركهم فيها عقلية ، وذلك بعد أن تفرض صحيحة بالأدلة النقلية كما تلقاها السلف واعتقدوها : وكثير ما بين المقامين . وذلك أن مدارك صاحب الشريعة أوسع لاتساع نطاقها عن

(١) لأرسطو فى ذلك كتاب مشهور هو « الميتافيزيقا » (أى ماوراء الطبيعة) .

(١) تصوير للأمور التى يعول فيها على العقل .

مدارك الأنظار العقلية ، فهى فوقها ومحيطة بها لاستمدادها من الأنوار الآلهية . فلا تدخل تحت قانون النظر الضعيف والمدارك المحاط بها . فإذا هدانا الشارع إلى مُدرك فينبغى أن نقدمه على مداركنا ونثق به دونها ، ولا ننظر فى تصحيحه بمدارك العقل ولو عارضه ، بل نعتمد ما أمرنا به اعتقادا وعلما ، ونسكت عما لم نفهم من ذلك ونفوضه إلى الشارع ونعزل العقل عنه . والمتكلمون إنما دعاهم إلى ذلك كلام أهل الإلحاد فى معارضات العقائد السلفية بالبدع النظرية ، فاحتاجوا إلى الرد عليهم من جنس معارضتهم ، واستدعى ذلك الحجج النظرية ، ومحاذاة العقائد السلفية بها .

وأما النظر فى مسائل الطبيعيات والآلهيات بالتصحيح والبطلان فليس من موضوع علم الكلام ، ولا من جنس أنظار المتكلمين . فاعلم ذلك لتميز به بين الفنين فإنهما مختلطان عند المتأخرين فى الوضع والتأليف . والحق مغايرة كل منهما لصاحبه بالموضوع والمسائل .

وإنما جاء الالتباس من اتحاد المطالب عند الاستدلال ، وصار احتجاج أهل الكلام كأنه إنشاء لطلب الاعداد بالدليل ، وليس كذلك بل إنما هو رد على المُلحدين ، والمطلوب مفروض الصدق معلومه . كذا جاء المتأخرون من غلاة المتصوفة المتكلمين بالمواجد أيضًا فخلطوا مسائل الفنين بفنهم وجعلوا الكلام واحدًا فيها كلها مثل كلامهم فى النبوات والاتحاد والحلول والوحدة وغير ذلك . والمدارك فى هذه الفنون الثلاثة متغايرة مختلفة . وأبعدها من جنس الفنون والعلوم مدارك المتصوفة ؛ لأنهم يدعون فيها الوجدان ويفرون عن الدليل ، والوجدان بعيد عن المدارك العلمية وأبحاثها وتوابعها كما بيناه ونبينه . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . والله أعلم بالصواب .

٢٩ – علوم السحر والطلسمات

هى علوم بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات فى عالم العناصر ، إما بغر معين أو بمعين من الأمور السماوية : والأول ، هو السحر ؛ والثانى هو الطلسمات . .

ولما كانت هذه العلوم مهجورة عند الشرائع لما فيها من الضرر ولما يشترط فيها من الوجهة إلى غير الله من كوكب أو غيره كانت كتبها كالمفقود بين الناس ، إلا ماوجد فى كتب الأمم الأقدمين فيما قبل نبوة موسى عليه السلام ، مثل النبط والكلدانيين ، فإن جميع من تقدمه من الأنبياء لم يشرعوا الشرائع ولا جاءوا بالأحكام ، إنما كانت كتبهم مواعظ وتوحيدًا لله وتذكيرًا بالجنة والنار .

وكانت هذه العلوم فى أهل بابل من السريانيين والكلدانيين ، وفى أهل مصر من القبط وغيرهم وكان لهم فيها التآليف والآثار ، ولم يترجم لنا من كتبهم فيها إلا القليل مثل الفلاحة النبطية من أوضاع أهل بابل . فأخذ الناس منها هذا العلم وتفننوا فيه ، ووضعت بعد ذلك الأوضاع مثل مصاحف الكواكب السبعة وكتاب طمطم الهندى فى صورة الدرج والكواكب وغيرهم .

ثم ظهر بالمشرق جابر بن حيان كبير السحرة فى هذه الملة فتصفح كتب القوم واستخرج الصناعة ، وغاص على زبدتها واستخرجها ووضع فيها غيرها من التآليف ، وأكثر الكلام فيها وفى صناعة السيمياء لأنها من توابعها ، لأن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى إنما يكون بالقوة النفسية لابالصناعة العملية ، فهو من قبيل السحر كما نذكره فى موضعه .

ثم جاء مسلمة بن أحمد المجريطى إمام أهل الأندلس فى التعاليم والسحريات فلخص جميع تلك الكتب وهذبها وجمع طرقها فى كتابه الذى سماه «غاية الحكيم» . ولم يكتب أحد فى هذاالعلم بعده .

ولنقدم هنا مقدمة يتبين بها حقيقة السحر وذلك أن النفوس البشرية وإن كانت واحدة بالنوع فهى مختلفة بالخواص وهى أصناف كل صنف مختص بخاصية لاتوجد فى الصنف الآخر ، وصارت تلك الخواص فطرة وجبلة لصنفها . فنفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لها خاصة تستعد بها للمعرفة الربانية ومخاطبة الملائكة عليهم السلام عن الله سبحانه وتعالى كما مر ، وما يتبع ذلك من التأثير فى الأكوان . (ونفوس السحرة لها خاصية التأثير فى الأكوان) واستجلاب روحانية الكواكب للتصرف فيها والتأثير بقوة نفسانية أو شيطانية . فأما تأثير الأنبياء فبمدد إلهى وخاصية ربانية . ونفوس الكهنة لها خاصية الاطلاع على المغيبات بقوى شيطانية . وهكذا كل صنف مختص بخاصية لاتوجد فى الآخر .

والنفوس الساحرة على مراتب ثلاثة يأتى شرحها . فأولها المؤثر بالهمة فقط من غير آلة ولا معين ، وهذا هو الذى تسميه الفلاسفة السحر . والثانى بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد ويسمونه الطلسمات ، وهو أضعف رتبة من الأول . والثالث تأثير فى القوى المتخيلة : يعمد هذا التأثير إلى القوى المتخيلة فيتصرف فيها بنوع من التصرف ويلقى فيها أنواعًا من الخيالات والمحاكاة وصورًا مما يقصده من ذلك ، ثم ينزلها إلى الحس من الرائين بقوة نفسه المؤثرة فيه ، فينظر الراءون كأنها فى الخارج وليس هناك شىء من ذلك ؛ كما يحكى عن بعضهم أنه يرى البساتين والأنهار والقصور وليس هناك شىء من ذلك . ويسمى هذا عند الفلاسفة الشعوذة أو الشعبذة .

هذا تفصيل مراتبه . ثم هذه الخاصية تكون فى الساحر بالقوة شأن القوى البشرية كلها ؛ وإنما تخرج إلى الفعل بالرياضة . ورياضة السحر كلها إنما تكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل ، فهى لذلك وجهة إلى غير الله وسجود له . والوجهة إلى غير الله كفر . فلهذا كان السحر كفرًا . والكفر من مواده وأسبابه كما رأيت . ولهذا اختلف الفقهاء فى قتل الساحر هل هو لكفره السابق على فعله أو لتصرفه بالإفساد وما ينشأ عنه من الفساد فى الأكوان : والكل حاصل منه .

ولما كانت المرتبتان الأوليان من السحر لها حقيقة فى الخارج ، والمرتبة الأخيرة الثالثة لا حقيقة لها ، اختلف العلماء فى السحر هل هو حقيقة أو إنما هو تخييل : فالقائلون بأن له حقيقة نظروا إلى المرتبتين الأوليين ؛ والقائلون بأن لا حقيقة له نظروا إلى المرتبة الثالثة والأخيرة . فليس بينهم اختلاف فى نفس الأمر ، بل إنما جاء من قبل اشتباه هذه المراتب والله أعلم .

واعلم أن وجود السحر لا مرية فيه بين العقلاء من أجل التأثير الذى ذكرناه ، وقد نطق به القرآن . قال الله تعالى : «ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله (١)» . وسحر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله ، وجعل سحره فى مُشط. ومُشاقه (٢) وجُفّ (٣) طلعة (٤) ودفن فى بئر ذروان (٥) . فأنزل الله عز وجل عليه فى المعوذتين . «ومن شرّ النفاثاتِ فى العقد» .

(١) آية ١٠٢ من سورة البقرة .

(٢) « المشاقة كثمامة ماسقط من الشعر عند المشط » (القاموس)

(٣) الجف بالضم وعاء الطلع فى النخل أى غشاؤه (عن القاموس) .

(٤) الطلع بالفتح مايطلع من النخلة ثم يصير تمرا إن كانت أنثى ؛ وإن كانت النخلة ذكرا لم يصر تمرا .

(٥) « وبئر ذروان بمدينة ، أو هو ذو أروان بسكون الراء وقيل بتحريكه أصح » (القاموس)

قالت عائشة رضى الله عنها : فكان لايقرأ على عقدة من تلك العقد التى سحر فيها إلا انحلت (١)

وأما وجود السحر فى أهل بابل وهم الكلدانيون من النبط. والسريانيين فكثير ، ونطق به القرآن وجاءت به الأخبار . وكان للسحر فى بابل ومصر أزمان بعثة موسى عليه السلام أسواق نافقة . ولهذا كانت معجزة موسى من جنس ما يدعون ويتناغون فيه ، وبقى من آثار ذلك فى البرارى بصعيد مصر شواهد دالة على ذلك . ورأينا بالعيان من يصور صورة الشخص المسحور بخواص أشياء مقابلة لما نواه وحاوله موجودة بالمسحور ، وأمثال تلك المعانى من أسماء وصفات فى التأليف والتفريق ، ثم يتكلم على تلك الصورة التى أقامها مقام الشخص المسحور عينا أو معنى ، ثم ينفث من ريقه بعد اجتماعه فى فيه بتكرير مخارج تلك الحروف من الكلام السوء ، ويعقد على ذلك المعنى فى سبب (٢) أعده لذلك تفاؤلا بالعقد واللزام وأخذ العهد على من أشرك به من الجن فى نفثه فى فعله ذلك ، استشعارا للعزيمة بالعزم (٣) ولتلك البنية والأسماء السيئة روح خبيثة تخرج منه مع النفخ متعلقة بريقه الخارج من فيه بالنفث ، فتنزل عنها أرواح خبيثة ، ويقع عن ذلك بالمسحور ما يحاوله الساحر . وشاهدنا أيضا من المنتحلين للسحر وعمله من يشير إلى

(١) انظر تفصيل هذه القصة فى ص ١٢٥١ الدكتور على عبد الواحد وافى (الجزء الثالث ، طبعة لجنة البيان العربى) .

(٢) السبب الحبل . ولما كان الحبل يتوصل به إلى الاستعلاء فقد استعيرت كلمة السبب لكل شيء يتوصل به إلى أمر من الأمور .

(٣) يرجح د. وافى أن يكون فى هذه الجملة سقط أو تحريف .

كساء أو جلد ويتكلم عليه فى سره فإذا هو مقطوع متخرق . ويشير إلى بطون الغنم كذلك فى مراعيها بالبعج فإذا أمعاؤها ساقطة من بطونها إلى الأرض . وسمعنا أن بأرض الهند لهذا العهد من يشير إلى إنسان فيتحتت قلبه ويقع ميتا وينقب عن قلبه فلا يوجد فى حشاه ؛ ويشير إلى الرمانة وتفتح فلا يوجد من حبوبها شىء . وكذلك سمعنا أن بأرض السودان وأرض الترك من يسحر السحاب فيمطر الأرض المخصوصة . وكذلك رأينا من عمل الطلسمات عجائب فى الأعداد المتحابة ، وهى . رك‍رف‍د ، أحد العددين مائتان وعشرون ، والآخر مائتان وأربعة وثمانون . ومعنى المتحابة أن أجزاء كل واحد التى فيه من نصف وربع وسدس وخمس وأمثالها إذا جمع كان مساويا للعدد الآخر صاحبه ، فتسمى لأجل ذلك المتحابة . ونقل أصحاب الطلسمات أن لتلك الأعداد أثرا فى الألفة بين المتحابين واجتماعهما ، إذا وضع لهما تمثالان أحدهما بطالع الزهرة وهى فى بيتها أو شرفها ناظرة إلى القمر نظر مودة وقبول ، ويجعل طالع الثانى سابع الأول ، فيوضع على أحد التمثالين أحد العددين والآخر على الآخر . ويقصد بالأكثر الذى يراد ائتلافه أعنى المحبوب — ما أدرى الأكثر كمية أو الأكثر أجزاء — فيكون لذلك من التأليف العظيم بين المتحابين ما لا يكاد ينفك أحدهما عن الآخر. قاله صاحب الغاية وغيره من أئمة هذا الشأن ، وشهدت له التجربة . وكذا طابع الأسد ، ويسمى أيضا طابع الحصا ، وهو أن يرسم فى قالب هند إصبع صورة أسد شائلا ذنبه عاضا على حصاة قد قسمها بنصفين ، وبين يديه صورة حية منسابة من رجليه إلى قبالة وجهه فاغرة فاها إلى فيه ، وعلى ظهره صورة عقرب تدب ، ويتحين برسمه حلول الشمس بالوجه الأول أو الثالث من الأسد ، بشرط صلاح النيرين وسلامتهما من النحوس ؛ فإذا وجد ذلك وعثر عليه طبع فى ذلك الوقت فى مقدار المثقال فما دونه من الذهب ، وغمس بعد فى الزعفران محلولا بماء الورد ، ورفع فى خرقة حرير صفراء ؛ فإنهم يزعمون أن لممسكه من العز على السلاطين فى مباشرتهم وخدمتهم وتسخيرهم له مالا يعبر عنه ، وكذلك للسلاطين فيه من القوة والعز على من تحت أيديهم . ذكر ذلك أيضا أهل هذا الشأن فى الغناية وغيرها ، وشهدت له التجربة. وكذلك وفق المسدس المختص بالشمس : ذكروا أنه يوضع عند حلول الشمس فى شرفها وسلامتها من النحوس وسلامة القمر بطالع ملوكى يعتبر فيه نظر صاحب العاشر لصاحب الطالع نظر مودة وقبول ، ويصلح فيه ما يكون فى مواليد الملوك من الأدلة الشريفة ، ويرفع فى خرقة حرير صفراء بعد أن يغمس فى الطيب ؛ فزعموا أن له أثرا فى صحابة الملوك وخدمتهم ومعاشرتهم . وأمثال ذلك كثير .

وكتاب الغاية لمسلمة بن أحمد المجريطى هو مدوّنة هذه الصناعة وفيه استيفاؤها وكمال مسائلها. وذكر لنا أن الإمام الفخر بن الخطيب وضع كتابا فى ذلك وسماه بالسر المكتوم ، وأنه بالمشرق يتداوله أهله ؛ ونحن لم نقف عليه ؛ والإمام لم يكن من

أئمة الشأن فيما نظن ، ولعل الأمر بخلاف ذلك .

وبالمغرب صنف من هؤلاء المنتحلين لهذه الأعمال السحرية يعرفون بالبعاجين ، وهم الذين ذكرت أولا أنهم يشيرون إلى الكساء أو الجلد فيتخرق ، ويشيرون إلى بطون الغنم بالبعج فتنبعج . ويسمى أحدهم لهذا العهد باسم البعاج لأن أكثر ما ينتحل من السحر بعج الأنعام ، يرهب بذلك أهلها ليعطوه من فضلها وهم متسترون بذلك فى الغاية خوفا على أنفسهم من الحكام . لقيت منهم جماعة وشاهدت من أفعالهم هذه بذلك .

وأخبرونى أن لهم وجهة ورياضة خاصة بدعوات كفرية وإشراك الروحانيات الجن والكواكب ، سطرت فيها صحيفة عندهم تسمى الخزيرية يتدارسونها ، وأن بهذه الرياضة والوجهة يصلون إلى حصول هذه الأفعال لهم ، وأن التأثير الذى لهم إنما هو فيما سوى الإنسان الحر من المتاع والحيوان والرقيق ، ويعبرون عن ذلك بقولهم إنما نفعل فيما تمشى فيه الدراهم ، أى ما يملك ويباع ويشترى من سائر المتملكات ، وهذا ما زعموه . وسألت بعضهم فأخبرنى به . وأما أفعالهم فظاهرة موجودة ، وقفنا على الكثير منها وعاينتها من غير ريبة فى ذلك . هذا شأن السحر والطلسمات وآثارهما فى العالم .

فأما الفلاسفة ففرقوا بين السحر والطلسمات بعد أن أثبتوا أنها جميعا أثر للنفس الإنسانية ، واستدلوا على وجود الأثر للنفس الإنسانية بأن لهما آثارا فى بدنها على غير المجرى الطبيعى وأسبابه الجسمانية ، بل آثار عارضة من كيفيات الأرواح تارة كالسخونة الحادثة عن الفرح والسرور ، ومن جهة التصورات النفسانية أخرى كالذى يقع من قبل التوهم ؛ فإن الماشى على حرف حائط أوعلى حبل منتصب إذا قوى عنده توهم السقوط سقط بلا شك . ولهذا تجد كثيرا من الناس يعودون أنفسهم ذلك حتى يذهب عنهم هذا الوهم ، فتجدهم يمشون على حرف الحائط. والحبل المنتصب ولا يخافون السقوط . فثبت أن ذلك من آثار النفس الإنسانية وتصورها للسقوط. من أجل الوهم. وإذا كان ذلك أثرا للنفس فى بدنها من غير الأسباب الجسمانية الطبيعية فجائز أن يكون لها مثل هذا الأثر فى غير بدنها ، إذ نسبتها إلى الأبدان فى ذلك النوع من التأثير واحدة ، لأنها غير حالة فى البدن ولا منطبعة فيه ؛ فثبت أنها مؤثرة فى سائر الأجسام .

وأما التفرقة عندهم بين السحر والطلسمات فهو أن السحر لا يحتاج الساحر فيه إلى معين ، وصاحب الطلسمات يستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الأعداد وخواص الموجودات وأوضاع الفلك المؤثرة فى عالم العناصر ، كما يقوله المنجمون . ويقولون السحر اتحاد روح بروح والطلسم اتحاد روح بجسم ، ومعناه عندهم ربط. الطبائع العلوية السماوية بالطبائع السفلية ، والطبائع العلوية هى روحانيات الكواكب ، ولذلك يستعين صاحبه فى غالب الأمر بالنجامة . والساحر عندهم غير مكتسب لسحره بل هو مفطور عندهم على تلك

الجبلة المختصة بذلك النوع من التأثير . والفرق عندهم بين المعجزة والسحر أن المعجزة قوة إلهية تبعث فى النفس ذلك التأثير ؛ فهو مؤيد بروح الله على فعله ذلك . والساحر إنما يفعل ذلك من عند نفسه وبقوته النفسانية وبإمداد الشياطين فى بعض الأحوال . فبينهما الفرق فى المعقولية والحقيقة والذات فى نفس الأمر . وإنما نستدل نحن على التفرقة بالعلامات الظاهرة وهى : وجود المعجزة لصاحب الخير ، وفى مقاصد الخير ، وللنفوس المتمحضة للخير ، والتحدى بها على دعوى النبوة ؛ والسحر إنما يوجد لصاحب الشر ، وفى أفعال الشر فى الغالب ، من التفريق بين الزوجين وضرر الأعداء وأمثال ذلك ، وللنفوس المتمحضة للشر . هذا هو الفرق بينهما عند الحكماء الإلاهيين .

وقد يوجد لبعض المتصوفة وأصحاب الكرامات تأثير أيضا فى أحوال العالم ، وليس معدودا من جنس السحر ، وإنما هو بالإمداد الإلهى ؛ لأن طريقتهم ونحلتهم من آثار النبوة وتوابعها . ولهم فى المدد الإلهى حظ على قدر حالهم وإيمانهم وتمسكهم بكلمة الله . وإذا اقتدر أحد منهم على أفعال الشر فلا يأتيها لأنه متقيد فيما يأتيه ويذره للأمر الإلهى. فما لا يقع لهم فيه الإذن لا يأتونه بوجه ، ومن أتاه منهم فقد عدل عن طريق الحق وربما سلب حاله .

ولما كانت المعجزة بإمداد روح الله والقوى الإلهية فلذلك لا يعارضها شيء من السحر . وانظر شأن سحرة فرعون مع موسى فى معجزة العصا كيف تلقفت ما كانوا يأفكون ، وذهب سحرهم واضمحل كأن لم يكن . وكذلك لما أنزل على النبى صلى الله عليه وسلم فى المعوذتين « ومن شر النفاثات فى العقد» قالت عائشة رضى الله عنها : « فكان لا يقرؤها على عقدة من العقد التى سحر فيها إلا انحلت ». فالسحر لا يثبت مع اسم الله وذكره وقد نقل المؤرخون أن زركش كاويان وهى راية كسرى كان فيها الوفق المئينى العددى منسوجا بالذهب فى أوضاع فلكية رصدت لذلك الوقت ، ووجدت الراية يوم قتل رستم بالقادسية واقعة على الأرض بعد انهزام أهل فارس وشتاتهم . وهو فيما تزعم أهل الطلسمات والأوفاق مخصوص بالغلب فى الحروب ، وأن الراية التى يكون فيها أو معها لا تنهزم أصلا . إلا أن هذه عارضها المدد الإلهى من إيمان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتمسكهم بكلمة الله ، فانحل معها كل عقد سحرى ولم يثبت ، « وبطل ما كانوا يعملون »[(١)] .

وأما الشريعة فلم تفرق بين السحر والطلسمات وجعلته كله بابا واحدا محظورا . لأن الأفعال إنما أباح لنا الشارع منها ما يهمنا فى ديننا الذى فيه صلاح آخرتنا أو فى معاشنا الذى فيه صلاح دنيانا . وما لا يهمنا فى شيء منهما : فإن كان فيه ضرر أو نوع ضرر كالسحر الحاصل ضرره بالوقوع ويلحق به الطلسمات لأن أثرهما واحد وكالنجامة التى فيها نوع ضرر باعتقاد التأثير

---

(١) آخر آية ١١٨ من سورة الأعراف .

فتفسد العقيدة الإيمانية برد الأمور إلى غير الله ، فيكون حينئذ ذلك الفعل محظورا على نسبته فى الضرر ، وإن لم يكن مهما علينا ولا فيه ضرر فلا أقل من تركة قربة إلى الله ، فإن « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »[١] . فجعلت الشريعة باب السحر والطلسمات والشعوذة بابا واحدا لما فيها من الضرر ، وخصته بالحظر والتحريم .

وأما الفرق عندهم بين المعجزة والسحر فالذى ذكره المتكلمون أنه راجع إلى التحدى وهو دعوى وقوعها على وفق ما ادعاه . قالوا : والساحر مصروف عن مثل هذا التحدى فلا يقع منه ووقوع المعجزة على وفق دعوى الكاذب غير مقدور لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية ، لأن صفة نفسها التصديق ، فلو وقعت مع الكذب لاستحال الصادق كاذبا وهو محال ، فإذا لا تقع المعجزة مع الكاذب بإطلاق .

وأما الحكماء فالفرق بينهما عندهم كما ذكرناه فرق ما بين الخير والشر نهاية الطرفين . فالساحر لا يصدر منه الخير ولا يستعمل فى أسباب الخير ، وصاحب المعجزة لا يصدر منه الشر ولا يستعمل فى أسباب الشر ، وكأنهما على طرفى النقيض فى أصل فطرتهما . والله يهدى من يشاء ، وهو القوى العزيز لارب سواه .

• • •

ومن قبيل هذه التأثيرات النفسانية الإصابة بالعين وهو تأثير من نفس المعيان[٢] ، عندما يستحسن بعينه مدركا من الذوات أو الأحوال ، ويفرط فى استحسانه ، وينشأ عن ذلك الاستحسان حينئذ أنه يروم معه سلب ذلك الشىء عمن اتصف به ، فيؤثر فساده . وهو جبلة فطرية أعنى هذه الإصابة بالعين . والفرق بينها وبين التأثيرات [النفسية أن صدوره فطرى جبلى لا يتخلف ولا يرجع إلى اختيار صاحبه ولا يكتسبه . وسائر التأثيرات] وإن كل منها مالا يكتسب فصدورها راجع إلى اختيار فاعلها ، والفطرى منها قوة صدورها لا نفس صدورها . ولهذا قالوا القاتل بالسحر أو بالكرامة يقتل، والقاتل بالعين لا يقتل؛ وما ذلك إلا لأنه ليس مما يريده ويقصده أو يتركه وإنما هو مجبور فى صدوره عنه . والله أعلم بما فى الغيوب ، ومطلع على ما فى السرائر[١] :

٣١ – علم الكيمياء

وهو علم ينظر فى المادة التى يتم بها كون[٢] الذهب والفضة بالصناعة ، ويشرح العمل الذى يوصل إلى ذلك ، فيتصفحون المكونات كلها بعد معرفة أمزجتها وقواها لعلهم يعثرون على المادة المستعدة لذلك ، حتى من الفضلات الحيوانية كالعظام والريش والبيض والعذرات فضلا عن المعادن ؛ ثم يشرح الأعمال التى تخرج بها تلك المادة من القوة إلى الفعل مثل حل الأجسام إلى

(١) حديث شريف .

(٢) « رجل معيان وعيون شديد الإصابة بالعين جمعه عين » (القاموس) .

(١) « وقد خصص ابن خلدون الفصل الثلاثين من هذا الباب للكلام على أسرار الحروف وعلم الزيرجة فى حوالى خمسين صفحة . ولما كانت هذه الأمور لا أهمية لها مطلقا فى العصر الحاضر فضلا عما فيها من صعوبة وتعقيد . لذا آثرنا حذفه . ونحيل من يريده إلى أول الجزء الرابع من طبعة لجنة البيان بتحقيق د. وافى

(٢) يعنى وجود الذهب والفضة بالصناعة .

أجزائها الطبيعية بالتصعيد[1] والتقطير وجمد الذائب منها بالتكليس وإمهاء[2] الصلب بالفهر[3] والصلاية[4] وأمثال ذلك. وفي زعمهم أنه يخرج بهذه الصناعات كلها جسم طبيعي يسمونه الإكسير، وأنه يلقى منه على الجسم المعدني المستعد لقبول صورة الذهب أو الفضة بالاستعداد القريب من الفعل، مثل الرصاص والقصدير والنحاس بعد أن يحمى بالنار، فيعود ذهبا إبريزا. ويكنون عن ذلك الإكسير إذا ألغزوا اصطلاحاتهم بالروح، وعن الجسم الذي يلقى عليه بالجسد. فشرح هذه الاصطلاحات وصورة هذا العمل الصناعي الذي يقلب هذه الأجساد المستعدة إلى صورة الذهب والفضة هو علم الكيمياء.

وما زال الناس يؤلفون فيها قديما وحديثا. وربما يعزى الكلام فيها إلى من ليس من أهلها. وإمام المدونين فيها جابر بن حيان حتى إنهم يخصونها به فيسمونها «علم جابر»؛ وله فيها سبعون رسالة كلها شبيهة بالألغاز. وزعموا أنه لا يفتح مقفلها إلا من أحاط علما بجميع ما فيها. والطغرائي من حكماء المشرق المتأخرين له فيها دواوين ومناظرات مع أهلها وغيرهم من الحكماء. وكتب فيها مسلمة المجريطي من حكماء الأندلس كتابه الذي سماه «رتبة الحكيم» وجعله قرينا لكتابه الآخر في السحر والطلسمات الذي سماه «غاية الحكيم»؛ وزعم أن هاتين الصناعتين هما نتيجتان للحكمة وثمرتان للعلوم، ومن لم يقف عليهما فهو فاقد ثمرة العلم والحكمة أجمع. وكلامه في ذلك الكتاب وكلامهم أجمع في تآليفهم هي ألغاز يتعذر فهمها على من لم يعان اصطلاحاتهم في ذلك. ونحن نذكر سبب عدولهم إلى هذه الرموز والألغاز. ولابن المغيربي من أئمة هذا الشأن كلمات شعرية على حروف المعجم من أبدع ما يجيء في الشعر ملغوزة كلها لغز الأحاجي والمعاياة، فلا تكاد تفهم وقد ينسبون للغزالي رحمه الله بعض مداركه العالية لتقف عن خطأ ما يذهبون إليه حتى ينتحله وربما نسبوا بعض المذاهب والأقوال فيها لخالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم. ومن المعلوم البين أن خالدا من الجيل العربي، والبداوة إليه أقرب، فهو بعيد عن العلوم والصنائع بالجملة، فكيف له بصناعة غريبة المنحى مبنية على معرفة طبائع المركبات وأمزجتها؛ وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تظهر بعد ولم تترجم. اللهم إلا أن يكون خالد بن يزيد آخر من أهل المدارك الصناعية تشبه باسمه فممكن.

وأنا أنقل لك هنا رسالة أبي بكر بن بشرون لأبي السمح في هذه الصناعة، وكلاهما من تلاميذ مسلمة، فيستدل من كلامه فيها على ما ذهب إليه في شأنها إذا أعطيته حقه من التأمل. قال ابن بشرون بعد صدر من الرسالة خارج عن الغرض:

---

(١) التصعيد الاذابة.

(٢) أمهى الحديدة أحدها وسقاها الماء والاسم المهى.

(٣) الفهر بالكسر الحجر يملأ الكف ويدق به الجوز ونحوه، هذا، وقد وردت هذه الكلمة محرفة في جميع النسخ إلى «القهر» بالقاف.

(٤) في القاموس «الصلاية» وتهمز «الصلاءة» (مدق الطيب أي ما يدق به). وقد وردت هذه الكلمة محرفة في جميع النسخ إلى «الصلابة» بالباء الموحدة.

« والمقدمات التى لهذه الصناعة الكريمة قد ذكرها الأولون واقتص جميعها أهل الفلسفة من معرفة تكوين المعادن وتخلق الأحجار والجواهر وطباع البقاع والأماكن فمنعنا اشتهارها من ذكرها . ولكن أبين لك من هذه الصنعة ما يحتاج إليه ، فنبدأ بمعرفته . فقد قالوا :ينبغى لطلاب هذا العلم أن يعلموا أولا ثلاث خصال : أولها هل تكون ؟ والثانية من أى شىء تكون؟ والثالثة من أى كيف تكون ؟ فإذا عرف هذه الثلاثة وأحكمها فقد ظفر بمطلوبه وبلغ نهايته من هذا العلم . فأما البحث عن وجودها والاستدلال عن تكونها فقد كفيناكه بما بعثنا به إليك من الإكسير . وأما من أى شىء تكون فإنما يريدون بذلك البحث عن الحجر الذى يمكنه العمل ، وإن كان العمل موجودا من كل شىء بالقوة لأنها من الطبائع الأربع منها تركبت ابتداء وإليها ترجع انتهاء . ولكن من الأشياء ما يكون فيه بالقوة ولا يكون بالفعل وذلك أن منها ما يمكن تفصيلها ومنها ما لا يمكن تفصيلها . فالتى يمكن تفصيلها تعالج وتدبر ، وهى التى تخرج من القوة إلى الفعل . والتى لا يمكن تفصيلها لا تعالج ولا تدبر لأنها فيها بالقوة فقط ، وإنما لم يمكن تفصيلها لاستغراق بعض طبائعها فى بعض ، وفضل قوة الكبير منها على الصغير . فينبغى لك – وفقك الله أن تعرف أوفق الأحجار المنفصلة التى يمكن فيها العمل وجنسه وقته وعمله وما يدبر من الحل والعقد والتنقية والتكليس والتنشيف والتقليب ، فإن من لم يعرف هذه الأصول التى هى عماد هذه الصنعة لم ينجح ولم يظفر بخير أبدا ».

« وينبغى لك أن تعلم هل يمكن أن يستعان عليه بغيره أو يكتفى به وحده ، وهل هو واحد فى الابتداء أو شاركه غيره فصار فى التدبير واحدًا فسمى حجرًا وينبغى لك أن تعلم كيفية عمله وكمية أوزانه وأزمانه وكيفية تركيب الروح فيه وإدخال النفس عليه وهل تقدر النار على تفصيلها منه بعد تركيبها . فإن لم تقدر فلأى علة وما السبب الموجب لذلك ؟ فإن هذا هو المطلوب فافهم » .

« واعلم أن الفلاسفة كلها مدحت النفس وزعمت أنها المدبرة للجسد والحاملة له والدافعة عنه والفاعلة فيه . وذلك أن الجسد إذا خرجت النفس منه مات وبرد فلم يقدر على الحركة والامتناع من غيره ، لأنه لا حياة فيه ولا نور . وإنما ذكرت الإنسان الذى تركيبه على الغذاء والعشاء ،وقوامه وتمامه بالنفس الحية التوارنية التى بها يفعل العظائم والأشياء المتقابلة التى لا يقدر عليها غيرها بالقوة الحية التى فيها . وإنما انفعل الإنسان لاختلاف تركيب طبائعه ولو اتفقت طبائعه لسلمت من الأعراض والتضاد ، ولم تقدر النفس على الخروج من بدنه ، ولكان خالدًا باقيًا . فسبحان مدبر الأشياء تعالى » .

« واعلم أن الطبائع التى يحدث عنها هذا العمل كيفية دافعة فى الابتداء فيضية محتاجة إلى الانتهاء ، وليس لها إذا صارت فى هذا الحد أن تستحيل إلى ما منه تركبت كما قلناه آنفًا فى الإنسان ، لأن طبائع هذا الجوهر قد لزم بعضها بعضًا ،وصارت شيئا واحدًا شبيهًا بالنفس فى قوتها وفعلها وبالجسد

فى تركيبه ومجسته بعد آن كانت طبائع مفردة بأعيانها . فيا عجباً من أفاعيل الطبائع أن القوة للضعيف الذى يقوى على تفصيل الأشياء وتركيبها وتمامها ، فلذلك قُلْتُ قوىٌّ وضعيف . وإنما وقع التغيير والفناء فى التركيب الأول للاختلاف ، وعدم ذلك فى الثانى للاتفاق » .

« وقد قال بعض الأولين : التفصيل والتقطيع فى هذا العمل حياة وبقاء ، والتركيب موت وفناء ، وهذا الكلام دقيق المعنى لأن الحكيم أراد بقوله « حياة وبقاء » خروجه من العدم إلى الوجود ، لأنه ما دام على تركيبه الأول فهو فان لا محالة ، فإذا ركب التركيب الثانى عدم الفناء ، والتركيب الثانى لا يكون إلا بعد التفصيل والتقطيع . فإذا التفصيل والتقطيع فى هذا العمل خاصة . فإذا بقى الجسد المحلول انبسط فيه لعدم الصورة لأنه قد صار فى الجسد بمنزلة النفس التى لا صورة لها ، وذلك أنه لا وزن له فيه . وسترى ذلك إن شاء الله تعالى » .

« وقد ينبغى لك أن تعلم أن اختلاط اللطيف باللطيف أهون من اختلاط الغليظ بالغليظ . وإنما أريد بذلك التشاكل فى الأرواح والاجساد لأن الأشياء تتصل بأشكالها . وذكرت لك ذلك لتعلم أن العمل أوفق وأيسر فى الطبائع اللطائف الروحانية منها فى الغليظة الجسمانية . وقد يتصور فى العقل أن الأحجار أقوى وأصبر على النار من الأرواح ، كما ترى الذهب والحديد والنحاس أصبر على النار من الكبريت والزئبق وغيرهما من الأرواح . فأقول إن الأجساد قد كانت أرواحاً فى بدئها فلما أصابها حر الكيان قلبها أجساداً لزجة غليظة ، فلم تقدر النار على أكلها لإفراط غلظها وتلزجها ، فإذا أفرطت النار عليها صيرتها أرواحاً كما كانت أول خلقها ، وإن تلك الأرواح اللطيفة إذا أصابتها النار أبقت ولم تقدر على البقاء عليها . فينبغى لك أن تعلم ماصير الاجساد فى هذه الحالة وصير الأرواح فى هذا الحال ، فهو أجل ماتعرفه . أقول إنما أبقت تلك الأرواح لاشتعالها ولطافتها ، وإنما اشتعلت لكثرة رطوبتها ، ولأن النار إذا أحست بالرطوبة تعلقت بها لأنها هوائية تشاكل النار ، ولا تزال تغتذى بها إلى أن تفنى ، وكذلك الأجساد إذا أحست بوصول النار إليها لقلة تلزجها وغلظها . وإنما صارت تلك الاجساد لا تشتعل لأنها مركبة من أرض وماء صابر على النار ، فلطيفه متحد بكثيفه لطول الطبخ اللين المازج للأشياء . وذلك أن كل متلاش إنما يتلاشى بالنار لمفارقة لطيفه من كثيفه ودخول بعضه فى بعض على غير التحليل والموافقة ؛ فصار ذلك الانضمام والتداخل مجاورة لا ممازجة ؛ فسهل بذلك افتراقهما كالماء والدهن وما أشبههما ، وإنما وصفت ذلك لتستدل به على تركيب الطبائع وتقابلها . فإذا علمت ذلك علماً شافياً فقد أخذت حظك منها » .

« وينبغى لك أن تعلم أن الاخلاط التى هى طبائع هذه الصناعة موافقة بعضها لبعض مفصلة من جوهر واحد يجمعها نظام واحد بتدبير واحد لا يدخل عليه غريب فى الجزء منه ، ولا فى الكل ،

كما قال الفيلسوف : إنك إذا أحكمت تدبير الطبائع وتأليفها ولم تدخل عليها غريباً ، فقد أحكمت ما أردت إحكامه وقوامه ، إذ الطبيعة واحدة لا غريب فيها ، فمن أدخل عليها غريباً فقد زاغ عنها ووقع فى الخطأ . واعلم أن هذه الطبيعة إذا حل بها جسد من قرائنها على ما ينبغى فى الحل حتى يشاكلها فى الرقة واللطافة انبسطت فيه وجرت معه حيثما جرى ، لأن الأجساد مادامت غليظة جافية لا تنبسط. ولا تتزاوج ، وحل الأجساد لا يكون بغير الأرواح . فافهم هداك الله هذا القول ».

« واعلم هداك الله أن هذا الحل فى جسد الحيوان هو الحق الذى لا يضمحل ولا ينتقض . وهو الذى يقلب الطبائع ويمسكها ، ويظهر لها ألوانًا وأزهارًا عجيبة . وليس كل جسد يحل خلاف هذا هو الحل التام لأنه مخالف للحياة ، وإنما حله بما يوافقه ويدفع عنه حرق النار حتى يزول عن الغلظ. وتنقلب الطبائع عن حالاتها إلى مالها أن تنقلب من اللطافة والغلظ. فإذا بلغت الأجساد نهايتها من التحليل والتلطيف ظهرت لها هنالك قوة تمسك وتغوص وتقلب وتنفذ . وكل عمل لا يرى له مصداق فى أوله فلا خير فيه » .

« واعلم أن البارد من الطبائع هو ييبس الاشياء ويعقد رطوبتها ، والحار منها يظهر رطوبتها ويعقد يبسها . وإنما أفردت الحر والبرد لأنهما فاعلان ، والرطوبة واليبس منفعلان ، وعلى انفعال كل واحد منهما لصاحبه تحدث الأجسام وتتكون ، وإن كان الحر أكثر فعلا فى ذلك من البرد ، لان البرد ليس له نقل الاشياء ولا تحركها ، والحر هو علة الحركة ومتى ضعفت علة الكون وهو الحرارة لم يتم منها شىء أبدًا ، كما أنه إذا أفرطت الحرارة على شىء ولم يكن ثم برد أحرقته وأهلكته . من أجل هذه العلة احتيج إلى البارد فى هذه الأعمال ، ليقوى به كل ضد على ضده ، ويدفع عنه حر النار . ولم يحذر الفلاسفة أكثر شىء إلا من النيران المحرقة وأمرت بتطهير الطبائع والأنفاس وإخراج دنسها ورطوبتها ونفى آفاتها وأوساخها عنها . على ذلك استقام رأيهم وتدبيرهم . فإنما عملهم إنما هو مع النار أولا وإليها يصير آخرًا . فلذلك قالوا إياكم والنيران المحرقات . وإنما أرادوا بذلك نفى الآفات التى معها فتجمع على الجسد آفتين فتكون أسرع لهلاكه . وكذلك كل شىء إنما يتلاشى ويفسد من ذاته لتضاد طبائعه واختلافه فيتوسط. بين شيئين ، فلم يجد ما يقويه ويعينه إلا قهرته الآفة وأهلكته . واعلم أن الحكماء كلها ذكرت ترداد الأرواح على الأجساد مرارا ليكون ألزم إليها وأقوى على قتال النار إذا هى باشرتها عند الألفة ، أعنى بذلك النار العنصرية ، فاعلمه » .

« ولنقل الآن على الحجر الذى يمكن منه العمل على ما ذكرته الفلاسفة . فقد اختلفوا فيه : فمنهم من زعم أنه فى الحيوان ؛ ومنهم من زعم أنه فى النبات ؛ ومنهم من زعم أنه فى المعادن ؛ ومنهم من زعم أنه فى الجميع . وهذه الدعاوى ليست بنا حاجة إلى استقصائها ومناظرة أهلها

عليها ؛ لأن الكلام يطول جدًا ؛ وقد قلت فيما تقدم إن العمل يكون فى كل شىء بالقوة ، لان الطبائع موجودة فى كل شىء فهو كذلك . فنريد أن تعلم من أى شىء يكون العمل بالقوة والفعل . فنقصد إلى ما قاله الحرانى : « إن الصبغ كله أحد صبغين : إما صبغ جسد كالزعفران فى الثوب الأبيض حتى يحول فيه ، وهو مضمحل منتقض التركيب ؛ والصبغ الثانى تقليب الجوهر من جوهر نفسه إلى جوهر غيره ولونه ، كتقليب الشجر بل التراب إلى نفسه ، وقلب الحيوان والنبات إلى نفسه ، حتى يصير التراب نباتًا والنبات حيوانًا ، ولا يكون إلا بالروح الحى والكيان الفاعل الذى له توليد الأجرام وقلب الأعيان . فإذا كان هذا هكذا فنقول إن العمل لابد أن يكون إما فى الحيوان وإما فى النبات . وبرهان ذلك أنهما مطبوعان على الغذاء وبه قوامهما وتمامهما . فأما النبات فليس فيه ما فى الحيوان من اللطافة والقوة ، ولذلك قل خوض الحكماء فيه . وأما الحيوان فهو آخر الاستحالات الثلاث ونهايتها . وذلك أن المعدن يستحيل نباتًا والنبات يستحيل حيوانًا ، والحيوان لا يستحيل إلى شىء هو ألطف منه ، إلا أن ينعكس راجعًا إلى الغلظ ؛ وأنه أيضًا لا يوجد فى العالم شىء تتعلق به الروح الحية غيره ؛ والروح ألطف ما فى العالم ولم تتعلق الروح بالحيوان إلا بمشاكلته إياها . فأما الروح التى فى النبات فإنها يسيرة فيها غلظ وكثافة ، وهى مع ذلك مستغرقة كامنة فيه لغلظها وغلظ جسد النبات ، فلم يقدر على الحركة لغلظه وغلظ روحه . والروح المتحركة ألطف من الروح الكامنة كثيرًا ، وذلك أن المتحركة لها قبول الغذاء والتنقل والتنفس ، وليس للكامنة غير قبول الغذاء وحده . ولا تجرى إذا قيست بالروح الحية إلا كالأرض عند الماء . كذلك النبات عند الحيوان فالعمل فى الحيوان أعلى وأرفع وأهون وأيسر . فينبغى للعاقل إذا عرف ذلك أن يجرب ما كان سهلا ويترك ما يخشى فيه عسرًا » .

« واعلم أن الحيوان عند الحكماء ينقسم أقسامًا من الأمهات التى هى الطبائع والحديثة التى هو المواليد . وهذا معروف متيسر الفهم . فلذلك قسمت الحكماء العناصر والمواليد أقسامًا وأقسامًا ميتة ؛ فجعلوا كل متحرك فاعلاً حيًا وكل ساكن مفعولا ميتا . وقسموا ذلك فى جميع الاشياء وفى الأجساد الذائبة وفى العقاقير المعدنية . فسموا كل شىء يذوب فى النار ويطير ويشتغل حيا وما كان على خلاف ذلك سموه ميتا . فأما الحيوان والنبات فسموا كل ما انفصل منها طبائع أربعًا حيًا ، وما لم ينفصل سموه ميتًا . ثم إنهم طلبوا جميع الأقسام الحية ، فلم يجدوا لوفق هذه الصناعة مما ينفصل فصولا أربعة ظاهرة للعيان ، ولم يجدوا غير الحجر الذى فى الحيوان ، فبحثوا عن جنسه حتى عرفوه وأخذوه ودبروه ، فتكيف لهم منه الذى أرادوا وقد يتكيف مثل هذا فى المعادن والنبات بعد جمع العقاقير وخلطها ، ثم تفصل بعد ذلك . فاما النبات فمنه ما ينفصل ببعض هذه الفصول

مثل الأشنان . وأما المعادن ففيها أجساد وأرواح وأنفاس إذا مزجت ودبرت كان منها ما له تاثير . وقد دبرنا كل ذلك ، فكان الحيوان منها أعلى وأرفع وتدبيره أسهل وأيسر . فينبغى لك أن تعلم ما هو الحجر الموجود فى الحيوان ، وطريق وجوده. إنا بينا أن الحيوان أرفع المواليد ، وكذا ما تركب منه فهو ألطف منه كالنبات من الأرض . وإنما كان النبات ألطف من الأرض لأنه إنما يكون من جوهره الصافى وجسده اللطيف ، فوجب له بذلك اللطافة والرقة . وكذا هذا الحجر الحيوانى بمنزلة النبات فى التراب . وبالجملة فإنه ليس فى الحيوان شىءٌ ينفصل طبائع أربعا غيره . فافهم هذا القول فإنه لا يكاد يخفى إلا على جاهل بيِّن الجهالة ومن لاعقل له . فقد أخبرتك ماهية هذا الحجر وأعلمتك وأنا أبين لك وجوه تدابيره حتى يكمل الذى شرطناه على أنفسنا من الإنصاف إن شاء الله سبحانه » :

« (التدبير على بركة الله) خذ الحجر الكريم فأودعه القرعة والإنبيق وفصل طبائعه الأربع التى هى النار والهواء والأرض والماء ، وهى الجسد والروح والنفس والصبغ . فإذا عزلت الماء عن النار فارفع كل واحد فى إنائه على حدة وخذ الهابط أسفل الإناء ، وهو الثفل فاغسله بالنار الحارة حتى تذهب النار عنه سواده ويزول غلظه وجفاؤه ، وبيضه تبييضاً محكماً ، وطير عنه فضول الرطوبات المستجنة فيه ، فإنه يصير عند ذلك ماءً أبيض لاظلمة فيه ولا وسخ ولا تضاد . ثم أعمد إلى تلك الطبائع الأول الصاعدة منه فطهرها أيضاً من السواد والتضاد وكرر عليها الغسل والتصعيد حتى تلطف الطبائع وترق وتصفو. فإذا فعلت ذلك فقد فتح الله عليك فابدأ بالتركيب الذى عليه مدار العمل ؛ وذلك أن التركيب لا يكون إلا بالتزويج والتعفين . فأما التزويج فهو اختلاط اللطيف بالغليظ . وأما التعفين فهو التمشية والسحق حتى يختلط بعضه ببعض ويصير شيئاً واحداً لا اختلاف فيه ولا نقصان بمنزلة الامتزاج بالماء . فعند ذلك يقوى الغليظ على إمساك اللطيف ، وتقوى الروح على مقابلة النار وتصبر عليها ، وتقوى النفس على الغوص فى الأجساد والدبيب فيها . وإنما وجد ذلك بعد التركيب لأن الجسد المحلول لما ازدوج بالروح مازجه بجميع أجزائه ، ودخل بعضها فى بعض لتشاكلها فصار شيئاً واحداً . ووجب من ذلك أن يعرض للروح من الصلاح والفساد والبقاء والثبوت ما يعرض للجسد لموضع الامتزاج » .

« وكذلك النفس إذا امتزجت بهما ودخلت فيهما بخدمة التدبير اختلطت أجزاؤها بجميع أجزاء الآخرين ، أعنى الروح والجسد ، وصارت هى وهما شيئاً واحداً لا اختلاف فيه بمنزلة الجزء الكلى الذى سلمت طبائعه واتفقت أجزاؤه . فإذا لقى هذا المركب الجسد المحلول ، وألح عليه النار ، وأظهر ما فيه من الرطوبة على وجهه ، ذاب فى الجسد المحلول . ومن شأن الرطوبة الاشتغال وتعلق النار بها . فإذا أرادت النار التعلق بها منعها من الاتحاد بالنفس ممازجة الماء لها ؛ فإن

النار لا تتحد بالدهن حتى يكون خالصا . وكذلك الماء من شأنه النفور من النار ، فإذا ألحت عليه النار وأرادت تطييره حبسه الجسد اليابس الممازج له فى جوفه فمنعه من الطيران . فكان الجسد علة لإمساك الماء ؛ والماء علة لبقاء الدهن ؛ والدهن علة لثبات الصبغ ؛ والصبغ علة لظهور الدهن وإظهار الدهنية فى الأشياء المظلمة التى لا نور لها ولا حياة فيها . فهذا هو الجسد المستقيم . وهكذا يكون العمل . وهذه التصفية التى سألت عنها وهى التى سمتها الحكماء بيضة ، وإنما يعنون ، لا بيضة الدجاج » .

«واعلم أن الحكماء لم تسمها بهذا الإسم لغير معنى بل أشبهتها . ولقد سألت مسلمة عن ذلك يوماً وليس عنده غيرى ، فقلت له : أيها الحكيم الفاضل أخبرنى لأى شىء سمت الحكماء مركب الحيوان بيضة ؟ أختياراً منهم لذلك أم لمعنى دعاهم إليه ؟ فقال بل لمعنى غامض . فقلت أيها الحكيم وما ظهرلهم من ذلك من المنفعة والاستدلال على الصناعة حتى شبهوها وسموها بيضة ؟ فقال لشبهها وقرابتها من المركب ففكر فيه ، فإنه سيظهر لك معناه . فبقيت بين يديه مفكراً لا أقدر على الوصول إلى معناه . فلما رأى مابى من الفكر وأن نفسى قد مضت فيها أخذ بعضدى وهزنى هزة خفيفة ، وقال لى : يا أبا بكر ذلك للنسبة التى بينهما فى كمية الألوان عند امتزاج الطبائع وتأليفها . فلما قال ذلك انجلت عنى الظلمة ، وأضاء لى نور قلبى ، وقوى عقلى على فهمه . فنهضت شاكراً الله عليه إلى منزلى ، وأقمت على ذلك شكلا هندسيا يبرهن به على صحة ماقاله مسلمة . وأنا واضعه لك فى هذا الكتاب :»

«مثال ذلك أن المركب إذا تم وكمل كان نسبة مافيه من طبيعة الهواء إلى مافى البيضة من طبيعة الهواء كنسبة مافى المركب من طبيعة النار إلى مافى البيضة من طبيعة النار . وكذلك الطبيعتان الأخريان الأرض والماء . فأقول إن كل شيئين متناسبين على هذه الصفة فهما متشابهان . ومثال ذلك أن تجعل لسطح البيضة هزوجٌ ، فإذا أردنا ذلك فإنا نأخذ أقل طبائع المركب وهى طبيعة اليبوسة ، ونضيف إليها مثلها من طبيعة الرطوبة ، وندبرهما حتى تُنَشِّف طبيعة الرطوبة ، وتقبل قوتها ، وكأن فى هذا الكلام رمزاً ولكنه لا يخفى عليك . ثم تحمل عليهما جميعاً مثيلهما من الروح وهو الماء ، فيكون الجميع ستة أمثال . ثم تحمل على الجميع بعد التدبير مثلا من طبيعة الهواء التى هى النفس ، وذلك ثلاثة أجزاء . فيكون الجميع تسعة أمثال اليبوسة بالقوة . وتجعل تحت كل ضلعين من المركب الذى طبيعته محيطة بسطح المركب طبيعتين فتجعل أول الضلعين المحيطة بسطحه طبيعة الماء وطبيعة الهواء وهما ضلعا [اح د] وسطح (أبجد) وكذلك الضلعان المحيطان بسطح البيضة اللذان هما الماء والهواء ضلعا هزوج . فأقول إن سطح أبجد يشبه سطح هزوج طبيعة الهواء التى تسمى نفسا ، وكذلك (بج) من سطح المركب . والحكم لم تسم شيئًا باسم شىء إلا لشبهه به » .

« والكلمات التى سألت عن شرحها : الأرض المقدسة وهى المنقعدة من الطبائع العلوية والسفلية ، والنحاس هو الذى أخرج سواده وقطع حتى صار هباء ثم حمر بالزاج حتى صار نحاسيا ؛ والمغنيسيا حجرهم الذى تجمد فيه الأرواح وتخرجه الطبيعة العلوية التى تستجن فيها الأرواح لتقابل عليها النار والفررة لون أحمر قان يحدثه الكيان ؛ والرصاص حجر ثلاث قوى مختلفة الشخوص ولكنها متشاكلة ومتجانسة : فالواحدة روحانية نيرة صافية وهى الفاعلة ؛ والثانية نفسانية وهى متحركة حساسة ، غير أنها أغلظ من الأولى ومركزها دون مركز الأولى ؛ والثالثة قوة أرضية حاسة قابضة منعكسة إلى مركز الأرض لثقلها ، وهى الماسكة الروحانية والنفسانية جميعًا والمحيطة بهما . وأما سائر الباقية فمبتدعة ومخترعة إلباسًا على الجاهل . ومن عرف المقدمات استغنى عن غيرها » .

« فهذا جمع ما سألتنى عنه وقد بعثت إليك به مفسرًا ونرجو بتوفيق الله أن تبلغ أملك والسلام » .

انتهى كلام ابن بشرون وهو من كبار تلاميذ مسلمة المجريطى شيخ الأندلس فى علوم الكيميا والسيمياء والسحر فى القرن الثالث وما بعده .

وأنت ترى كيف صرف ألفاظهم كلها فى الصناعة إلى الرمز والألغاز التى لا تكاد تبين ولا تعرف . وذلك دليل على أنها ليست بصناعة طبيعية . والذى يجب أن يعتقد فى أمر الكيمياء وهو الحق الذى يعضده الواقع أنها من جنس آثار النفوس الروحانية . وتصرفها فى عالم الطبيعة إما من نوع الكرامة إن كانت النفوس خيرة أو نوع السحر إن كانت النفوس شريرة فاجرة . فأما الكرامة فظاهرة وأما السحر فلأن الساحر كما ثبت فى مكان تحقيقه[1] يقلب الأعيان المادية بقوته السحرية . ولا بد له من ذلك عندهم من مادة يقع فعله السحرى فيها كتخليق بعض الحيوانات من مادة التراب أو الشجر والنبات وبالجملة من غير مادتها المخصوصة بها كما وقع لسحرة فرعون فى الحبال والعصى ، وكما ينقل عن سحرة السودان والهنود فى قاصية الجنوب والترك فى قاصية الشمال أنهم يسحرون الجو للأمطار وغير ذلك . ولما كانت هذه تخليقًا للذهب فى غير مادته الخاصة به كان من قبيل السحر . والمتكلمون فيه من أعلام الحكماء ، مثل جابر ومسلمة ومن كان قبلهم من حكماء الأمم ، إنما نحو هذا المنحى . ولهذا كان كلامهم فيه ألغازًا حذرًا عليها من إنكار الشرائع على السحر وأنواعه ، لا أن ذلك يرجع إلى الضنانة بها كما هو رأى من لم يذهب إلى التحقيق فى ذلك . وانظر كيف سمى مسلمة كتابه فيها « رتبة الحكيم » وسمى كتابه فى السحر والطلسمات « غاية الحكيم » إشارة إلى عموم موضوع الغاية وخصوص موضوع هذه ، لأن الغاية أعلى من الرتبة ، فكأن مسائل الرتبة بعض من مسائل الغاية وتشاركها فى الموضوعات . ومن كلامه فى الفنين يتبين ما قلناه . ونحن نبين فيما بعد غلط من يزعم أن مدارك هذا الأمر بالصناعة الطبيعية[2] . والله العليم الخبير .

---

(١) يحيل بذلك على ما ذكره فى الفصل التاسع والعشرين من هذا الباب : « علوم السحر والطلسمات » .

(٢) سيبين ذلك ويزيد هذا الموضوع كله تفصيلا فى الفصل الرابع والثلاثين وعنوانه : « فصل فى إنكار ثمرة الكيمياء ... الخ » .

٣٢ – فصل فى إبطال الفلسفة وفساد منتحلها

هذ الفصل وما بعده مهم لأن هذه العلوم عارضة فى العمران كثيرة فى المدن وضررها فى الدين كثير. فوجب أن يُصدع ويُكشف عن المعتقد الحق فيها. وذلك أن قومًا من عقلاء النوع الإنسانى زعموا أن الوجود كله الحسى منه وما وراء الحسى تدرك ذواته وأحواله بأسبابها وعللها بالأنظار الفكرية والأقيسة العقلية ، وأن تصحيح العقائد الإيمانية من قبل النظر لا من جهة السمع ، فإنها بعض مدارك العقل . وهؤلاء يسمون فلاسفة جمع فيلسوف ، وهو باللسان اليونانى محب الحكمة (١) فبحثوا عن ذلك وشمروا له وحوموا على إصابة الغرض منه . ووضعوا قانونًا يهتدى به العقل فى نظره إلى التميز بين الحق والباطل ، وسموه بالمنطق ومحصل ذلك أن النظر الذى يفيد تميز الحق من الباطل إنما هو للذهن فى المعانى المنتزعة من الموجودات الشخصية ، فيجرد منها أولا صورًا منطبقة على جميع الأشخاص كما ينطبق الطابق على جميع النقوش التى ترسمها فى طين أو شمع . وهذه المجردة من المحسوسات تسمى المعقولات الأوائل ثم تجرد من تلك المعانى الكلية إذا كانت مشتركة مع معان أخرى وقد تميزت عنها فى الذهن ، فتجرد منها معان أخرى وهى التى اشتركت بها ، ثم تجرد ثانيًا إن شاركها غيرها ، وثالثًا إلى أن ينتهى التجريد إلى المعانى البسيطة الكلية المنطبقة على جميع المعانى والأشخاص ، ولا يكون منها تجريد بعد هذا ، وهى الأجناس العالية .

وهذه المجردات كلها من غير المحسوسات هى من حيث تأليف بعضها مع بعض لتحصيل العلوم منها تسمى المعقولات الثوانى . فإذا نظر الفكر فى هذه المعقولات المجردة وطلب تصور الوجود كما هو فلا بد للذهن من إضافة بعضها إلى بعض ونفى بعضها عن بعض بالبرهان العقلى اليقينى ليحصل تصوره الوجود تصورًا صحيحًا مطابقًا إذا كان ذلك بقانون صحيح كما مر . وصنف التصديق الذى هو تلك الإضافة والحكم متقدم عندهم على صنف التصور فى النهاية ، والتصور متقدم عليه فى البداية والتعليم ، لأن التصور التام عندهم هو غاية الطلب الإدراكى ، وإنما التصديق وسيلة له ، وما تسمعه فى كتب المنطقيين من تقدم التصور وتوقف التصديق عليه فبمعنى الشعور لا بمعنى العلم التام . وهذا هو مذهب كبيرهم أرسطو . ثم يزعمون أن السعادة فى إدراك الموجودات كلها ما فى الحس وما وراء الحس بهذا النظر وتلك البراهين (١) .

وحاصل مداركهم فى الوجود على الجملة وما آل إليه وهو الذى فرعوا عليه قضايا أنظارهم أنهم عثروا أولا على الجسم السفلى بحكم الشهود والحس ، ثم ترقى إدراكهم قليلا فشعروا بوجود النفس من قبل الحركة والحس بالحيوانات ، ثم

---

(١) الكلمة مأخوذة من كلمتين يونانيتين : « فيلوس » بمعنى محب أو صديق ، « وصوفيا » بمعنى الكلمة . (د . واف) .

(١) هذه هى السعادة العقلية أو الفضيلة العقلية ، وهى أرقى درجات السعادة والفضيلة عند أفلاطون ، وتابعه فى ذلك فلاسفة الإسلام . ويقابلها الفضيلة العملية وهى التخلق بالفضائل والعمل بها . (د . واف) .

أحسوا من قوى النفس بسلطان العقل . ووقف إدراكهم فقضوا على الجسم العالى السماوى بنحو من القضاء على أمر الذات الإنسانية ، ووجب عندهم أن يكون للفلك نفس وعقل كما للإنسان . ثم أنهوا ذلك نهاية عدد الآحاد وهى العشر ، تسع مفصلة ذواتها جمل وواحد أول مفرد وهو العاشر[1]. ويزعمون أن السعادة فى إدراك الوجود على هذا النحو من القضاء مع تهذيب النفس ، وتخلقها بالفضائل ، وأن ذلك ممكن للإنسان ولو لم يرد شرع لتمييزه بين الفضيلة والرذيلة من الأفعال بمقتضى عقله ونظره ، وميله إلى المحمود منها ، واجتنابه للمذموم بفطرته ، وأن ذلك إذا حصل للنفس حصلت لها البهجة واللذة ، وأن الجهل بذلك هو الشقاء السرمدى . وهذا عندهم هو معنى النعيم والعذاب فى الآخرة ... إلى خَبْط لهم فى تفاصيل ذلك معروف من كلماتهم .

وإمام هذه المذاهب الذى حصل مسائلها ودون علمها وسطر حجاجها فيما بلغنا فى هذه الأحقاب هو أرسطو المقدونى من أهل مقدونية من بلاد الروم من تلاميذ أفلاطون ، وهو معلم الاسكندر ، ويسمونه : المعلم الأول على الإطلاق ، يعنون معلم صناعة المنطق ، إذ لم تكن قبله مهذبة ، وهو أول من رتب قانونها واستوفى مسائلها وأحسن بسطها . ولقد أحسن فى ذلك القانون ما شاء لو تكفل له بقصدهم فى الإلاهيات . ثم كان من بعده فى الإسلام من أخذ بتلك المذاهب واتبع فيها رأيه حذو النعل بالنعل إلا فى القليل . وذلك أن كُتب أولئك المتقدمين لما ترجمها الخلفاء من بنى العباس من اللسان اليونانى إلى اللسان العربى تصفحها كثير من أهل الملة ، وأخذ من مذاهبهم من أضله الله من منتحلى العلوم ، وجادلوا عنها ، واختلفوا فى مسائل من تفاريعها . وكان من أشهرهم أبو نصر الفارابى فى المائة الرابعة لعهد سيف الدولة ، وأبو على بن سينا فى المائة الخامسة لعهد نظام الملك من بنى بويه بأصبهان وغيرهما

واعلم أن هذا الرأى الذى ذهبوا إليه باطل بجميع وجوهه .

فأما اسنادهم الموجودات كلها إلى العقل الأول واكتفاؤهم به فى الترقى إلى الواجب فهو قصور عما وراء ذلك من رتب خلق الله . فالوجود أوسع نطاقا من ذلك « وَيَخْلُقُ مَالاَ تَعْلَمُونَ » . وكأنهم فى اقتصارهم على إثبات العقل فقط والغفلة عما وراءه بمثابة الطبيعيين المقتصرين على إثبات الأجسام خاصة المعرضين عن النقل والعقل ، المعتقدين أنه ليس وراء الجسم فى حكمة الله شىء . وأما البراهين التى يزعمونها على مدعياتهم فى الموجودات ويعرضونها على معيار المنطق وقانونه فهى قاصرة وغير وافية بالغرض . أما ما كان منها فى الموجودات الجسمانية ويسمونه العلم الطبيعى فوجه قصوره أن المطابقة بين تلك النتائج الذهنية التى تستخرج بالحدود والأقيسة كما فى زعمهم وبين ما فى الخارج غير يقينى ؛ لأن تلك أحكام ذهنية كلية عامة ،

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى جميع النسخ . وهى غامضة المدلول . (د. وافى).

والموجودات الخارجية مشخصة بموادها . ولعل فى المواد ما يمنع من مطابقة الذهنى الكلى للخارجى الشخصى ؛ اللهم إلا ما يشهد له الحس من ذلك ، فدليله شهوده لا تلك البراهين . فأين اليقين الذى يجدونه فيها ، وربما يكون تصرف الذهن أيضا من المعقولات الأول المطابقة للشخصيات بالصور الخيالية لا فى المعقولات الثوانى التى تجريدها فى الرتبة الثانية ، فيكون الحكم حينئذ يقينيا بمثابة المحسوسات ، إذ المعقولات الأول أقرب إلى مطابقة الخارج لكمال الانطباق فيها ، فنسلم لهم حينئذ دعاويهم فى ذلك ، إلا أنه ينبغى لنا الإعراض عن النظر فيها ، إذ هو من ترك المسلم لما لا يعنيه[1] ؛ فإن مسائل الطبيعيات لا تهمنا فى ديننا ولا معاشنا فوجب علينا تركها

وأما ما كان منها من الموجودات التى وراء الحس وهى الروحانيات ويسمونه العلم الإلهى وعلم ما بعد الطبيعة ، فإن ذواتها مجهولة رأسا ، ولا يمكن التوصل إليها ولا البرهان عليها ؛ لأن تجريد المعقولات من المواد الخارجية الشخصية إنما هو ممكن فيما هو مدرك لنا ، ونحن لا ندرك الذوات الروحانية حتى نجرد منها ماهيات أخرى ، بحجاب الحس بيننا وبينها ؛ فلا يتأتى لنا برهان عليها ، ولا مُدْرَك لنا فى إثبات وجودها على الجملة إلا ما نجده بين جنبينا من أمر النفس الإنسانية وأحوال مداركها ، وخصوصا فى الرؤيا التى هى وجدانية لكل أحد ، وما وراء ذلك من حقيقتها وصفاتها فأمر غامض لا سبيل إلى الوقوف عليه

وقد صرح بذلك محققوهم حيث ذهبوا إلى أن ما لا مادة له لا يمكن البرهان عليه ، لأن مقدمات البرهان من شرطها أن تكون ذاتية . وقال كبيرهم أفلاطون إن الإلهيات لا يوصل فيها إلى يقين ، وإنما يقال فيها بالأحق والأولى يعنى الظن . وإذا كنا إنما نحصل بعد التعب والنصب على الظن فقط ، فيكفينا الظن الذى كان أولا . فأى فائدة لهذه العلوم والاشتغال بها ؟ ! ونحن إنما عنايتنا بتحصيل اليقين فيما وراء الحس من الموجودات . وهذه هى غاية الأفكار الإنسانية عندهم .

وأما قولهم إن السعادة فى إدراك الموجودات على ما هى عليه بتلك البراهين فقول مزيف مردود. وتفسيره أن الإنسان مركب من جزأين : أحدهما جسمانى والآخر روحانى ممتزج به ، ولكل واحد من الجزأين مدارك مختصة به ، والمدرك فيهما واحد ، وهو الجزء الروحانى يدرك تارة مدارك روحانية وتارة مدارك جسمانية ، إلا أن المدارك الروحانية يدركها بذاته بغير واسطة ، والمدارك الجسمانية بواسطة آلات الجسم من الدماغ والحواس ؛ وكل مدرك فله ابتهاج بما يدركه ؛ واعتبره بحال الصبى فى أول مداركه الجسمانية التى هى بواسطة كيف يبتهج بما يبصره من الضوء وبما يسمعه من الأصوات ، فلا شك أن الابتهاج بالإدراك الذى للنفس من ذاتها بغير واسطة يكون أشد وألذ . فالنفس الروحانية إذا شعرت بإدراكها الذى لها

(١) يشير بذلك إلى الأثر المشهور : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » .

من ذاتها بغير واسطة حصل لها ابتهاج ولذة لا يعبر عنها ، وهذا الإدراك لا يحصل بنظر ولا علم ، وإنما يحصل بكشف حجاب الحس ونسيان المدارك الجسمانية بالجملة . والمتصوفة كثيرًا ما يُعْنَوْن بحصول هذا الإدراك للنفس بحصول هذه البهجة ، فيحاولون بالرياضة إماتة القوى الجسمانية ومداركها حتى الفكر من الدماغ ليحصل للنفس إدراكها الذى لها من ذاتها عند زوال الشواغب والموانع الجسمانية ، فيحصل لهم بهجة ولذة لا يعبر عنها . وهذا الذى زعموه بتقدير صحته مسلم لهم ، وهو مع ذلك غير واف بمقصودهم .

فأما قولهم إن البراهين والأدلة العقلية محصلة لهذا النوع من الإدراك والابتهاج عنه فباطل كما رأيته ، إذ البراهين والأدلة من جملة المدارك الجسمانية لأنها بالقوى الدماغية من الخيال والفكر والذكر ، ونحن نقول إن أول شيء نعنى به فى تحصيل هذا الإدراك إماتة هذه القوى الدماغية كلها ، لأنها منازعة له قادحة فيه . وتجد الماهر منهم عاكفًا على كتاب الشفاء والإشارات والنجاة وتلاخيص ابن رشد للنص من تأليف أرسطو وغيره ، يبعثر أوراقها ويتوثق من براهينها ، ويلتمس هذا القسط من السعادة فيها ، ولا يعلم أنه يستكثر بذلك من الموانع عنها . ومستندهم فى ذلك ما ينقلونه عن أرسطو والفارابى وابن سينا أن من حصل له إدراك العقل الفعال واتصل به فى حياته فقد حصل حظه من هذه السعادة . والعقل الفعال عندهم عبارة عن أول رتبة ينكشف عنها الحس من رتب الروحانيات ، ويحملون الاتصال بالعقل الفعال على الإدراك العلمى ، وقد رأيت فساده . وإنما يعنى أرسطو وأصحابه بذلك الاتصال والإدراك إدراك النفس الذى لها من ذاتها وبغير واسطة ، وهو لا يحصل إلا بكشف حجاب الحس.

وأما قولهم إن البهجة الناشئة عن هذا الإدراك هى عين السعادة الموعود بها فباطل أيضًا لإنا إنما تبين لنا بما قرروه أن وراء الحس مدركا آخر للنفس من غير واسطة ، وأنها تبتهج بإدراكها ذلك ابتهاجًا شديدًا ، وذلك لا يعين لنا أنه عين السعادة الأخروية ، ولابد ، بل هى من جملة الملاذ التى لتلك السعادة .

وأما قولهم إن السعادة فى إدراك هذه الموجودات على ما هى عليه ، فقول باطل مبنى على ما كنا قدمناه فى أصل التوحيد من الأوهام والأغلاط فى أن الوجود عند كل مُدْرِك منحصر فى مداركه ، وبينا فساد ذلك ، (١) ، وأن الوجود أوسع من أن يحاط به أو يستوفى إدراكه بجملته روحانيًا أو جسمانيًا .

والذى يحصل من جميع ما قررناه من مذاهبهم أن الجزء الروحانى إذا فارق القوى الجسمانية أدرك إدراكا ذاتيًا له مختصا بصنف من المدارك ، وهى الموجودات التى أحاط بها علمنا ، وليس بعام الإدراك فى الموجودات كلها إذ لم تنحصر ، وأنه يبتهج بذلك النحو من الإدراك ابتهاجًا شديدًا كما يبتهج الصبى بمداركه الحسية فى أول نشوئه . ومن

---

(١) انظر ما سبق من رده على الفلاسفة .

لنا بعد ذلك بإدراك جميع الموجودات أو بحصول السعادة التى وعدنا بها الشارع إن لم نعمل لها ؟! : « هيهات هيهات لما توعدون [1] » .

وأما قولهم إن الإنسان مستقل بتهذيب نفسه وإصلاحها بملابسة المحمود من الخلق ومجانبة المذموم ، فأمر مبنى على أن ابتهاج النفس بإدراكها الذى لها من ذاتها هو عين السعادة الموعود بها ، لأن الرذائل عائقة للنفس عن تمام إدراكها ذلك بما يحصل لها من الملكات الجسمانية وألوانها . وقد بينا أن أثر السعادة والشقاوة من وراء الإدراكات الجسمانية والروحانية . فهذا التهذيب الذى توصلوا إلى معرفته إنما نفعه فى البهجة الناشئة عن الإدراك الروحانى فقط ، الذى هو على مقاييس وقوانين . وأما ما وراء ذلك من السعادة التى وعدنا بها الشارع على امتثال ما أمر به من الأعمال والأخلاق فأمر لا يحيط به مدارك المدركين . وقد تنبه لذلك زعيمهم أبو على بن سينا فقال فى كتاب المبدأ والمعاد ما معناه : إن المعاد الروحانى وأحواله هو مما يتوصل إليه بالبراهين العقلية والمقاييس ، لأنه على نسبة طبيعية محفوظة ووتيرة واحدة ، فلنا فى البراهين عليه سعة ، وأما المعاد الجسمانى وأحواله فلا يمكن إدراكه بالبرهان ، لأنه ليس على نسبة واحدة ، وقد بسطته لنا الشريعة الحقة المحمدية فلينظر فيها وليرجع فى أحواله إليها .

فهذا العلم كما رأيته غير واف بمقاصدهم التى حوموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها. وليس له فيما علمنا إلا ثمرة واحدة وهى شحذ الذهن فى ترتيب الأدلة والحجاج لتحصيل ملكة الجودة والصواب فى البراهين . وذلك أن نظم المقاييس وتركيبها على وجه الإحكام والإتقان هو كما شرطوه فى صناعتهم المنطقية وقولهم بذلك فى علومهم الطبيعية ، وهم كثيرًا ما يستعملونها فى علومهم الحكمية من الطبيعيات والتعاليم وما بعدها ، فيستولى الناظر فيها بكثرة استعمال البراهين بشروطها على ملكة الإتقان والصواب فى الحجاج والاستدلالات ، لأنها وإن كانت غير وافية بمقصودهم فهى أصح ما علمناه من قوانين الأنظار . هذه هى ثمرة هذه الصناعة مع الاطلاع على مذاهب أهل العلم وآرائهم . ومضارها ما علمت . فليكن الناظر فيها متحرزًا جهده من معاطبها ، وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه . ولا يكبن أحد عليها وهو خلو من علوم الملة ؛ فقل أن يسلم لذلك من معاطبها . والله الموفق للصواب وللحق والهادى إليه « وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله [1] » .

٢٣ — فصل فى إبطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها

هذه الصناعة يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات فى عالم العناصر قبل حدوثها من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها فى المولدات العنصرية مفردة ومجتمعة فتكون لذلك أوضاع الأفلاك

(١) آية ٣٦ من سورة المؤمنين

(١) الآية رقم ٤٣ من سورة الأعراف .

والكواكب دالة على ما سيحدث من كل نوع من أنواع الكائنات الكلية والشخصية .

فالمتقدمون منهم يرون أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها بالتجربة ، وهو أمر تقصر الأعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله ، إذ التجربة إنما تحصل فى المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم والظن ، وأدوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن فيحتاج تكرره إلى آماد وأحقاب متطاولة يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم . وربما ذهب ضعفاء منهم إلى أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها كانت بالوحى ، وهو رأى فائِل ، وقد كفونا مؤونة إبطاله . ومن أوضح الأدلة فيه أن تعلم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أبعد الناس عن الصنائع ، وأنهم لا يتعرضون للإخبار عن الغيب ، إلا أن يكون عن الله ، فكيف يدعون استنباطه بالصناعة ، ويشيرون بذلك لتابعيهم من الخلق .

وأما بطليموس ومن تبعه من المتأخرين فيرون أن دلالة الكواكب على ذلك دلالة طبيعية من قبل مزاج يحصل للكواكب فى الكائنات العنصرية . قال لأن فعل النيرين (١) وأثرهما فى العنصريات ظاهر لا يسع أحدًا جحده ، مثل فعل الشمس فى تبدل الفصول وأمزجتها ونضج الثمار والزرع وغير ذلك ، وفعل القمر فى الرطوبات والماء وإنضاج المواد المتعفنة وفواكه القثاء (٢) وسائر أفعاله .

ثم قال : ولنا فيما بعدهما من الكواكب طريقتان : الأولى التقليد لمن نقل ذلك عنه من أئمة الصناعة ، إلا أنه غير مقنع للنفس ، والثانية الحَدْس والتجربة بقياس كل واحد منها إلى النير الأعظم الذى عرفنا طبيعته وأثره معرفة ظاهرة ، فننظر هل يزيد ذلك الكوكب عند القران فى قوته ومزاجه فتعرف موافقته له فى الطبيعة ، أو ينقص عنها فتعرف مضادته . ثم إذا عرفنا قواها مفردة عرفناها مركبة ، وذلك عند تناظرها بأشكال التثليث والتربيع وغيرهما ، ومعرفة ذلك من قبل طبائع البروج بالقياس أيضًا إلى النير الأعظم . وإذا عرفنا قوى الكواكب كلها فهى مؤثرة فى الهواء ، وذلك ظاهر . والمزاج الذى يحصل منها للهواء يحصل لما تحتها من المولدات ، وتتخلق به النُّطَفُ والبذر فتصير حالا للبدن المتكون عنها وللنفس المتعلقة به الفائضة عليه المكتسبة لما لها منه ولما يتبع النفس والبدن من الأحوال ، لأن كيفيات البذرة والنطفة كيفيات لما يتولد عنهما وينشأ منهما . — قال وهو مع ذلك ظنى وليس من اليقين فى شىء . وليس هو أيضًا من القضاء الإلهى يعنى القدر ، إنما هو من جملة الأسباب الطبيعية للكائن ، والقضاء الإلهى سابق على كل شىء . هذا محصل كلام بطليموس وأصحابه ، وهو منصوص فى كتابه الأربع (١) وغيره . ومنه يتبين ضعف مدرك هذه الصناعة .

---

(١) الشمس والقمر .

(٢) هكذا وردت هذه الكلمة فى النسخة « التيمورية » ووردت فى غيرها بالنون « القناء » وهى قناة وهى الحفرة توضع فيها النخلة . « و . وافى »

(١) هكذا وردت هذه الكلمة فى جميع النسخ ، وهى غامضة المدلول ، ولعلها محرفة عن « المجسطى » أو « الجغرافيا » . « د . وافى »

وذلك أن العلم الكائن أو الظن به إنما يحصل من العلم بجملة أسبابه من الفاعل والقابل والصورة والغاية على ما تبين فى موضعه . والقوى النجومية على ما قرروه إنما هى فاعلة فقط. والجزء العنصرى هو القابل . ثم إن القوى النجومية ليست هى الفاعل بجملتها ، بل هناك قوى أخرى فاعلة معها فى الجزء المادى مثل قوة التوليد للأب والنوع التى فى النطفة ، وقوى الخاصة التى تميز بها صِنْفٌ صِنْفٌ من النوع وغير ذلك .

فالقوى النجومية إذا حصل كمالها وحصل العلم فيها إنما هى فاعل واحد من جملة الأسباب الفاعلة للكائن . ثم إنه يشترط مع العلم بقوى النجوم وتأثيراتها مزيد حدس وتخمين ؛ وحينئذ يحصل عنده الظن بوقوع الكائن ؛ والحدس والتخمين قوى للناظر فى فكره وليس من علل الكائن ولا من أصول الصناعة ، فإذا فقد هذا الحدس والتخمين رجعت أدراجها عن الظن إلى الشك . هذا إذا حصل العلم بالقوى النجومية على سداده ولم تعترضه آفة ، وهذا معوز لما فيه من معرفة حُسْبانات الكواكب فى سيرها لتتعرف به أوضاعها ولما أن اختصاص كل كوكب بقوة لا دليل عليه .

ومدرك بطليموس فى إثبات القوى للكواكب الخمسة بقياسها إلى الشمس مدرك ضعيف ؛ لأن قوة الشمس غالبة لجميع القوى من الكواكب ، ومستولية عليها ، فقل أن يُشْعَرَ بالزيادة فيها أو النقصان منها عند المقارنة كما قال ، وهذه كلها قادحة فى تعريف الكائنات الواقعة فى عالم العناصر بهذه الصناعة .

ثم إن تأثير الكواكب فيما تحتها باطل ؛ إذ قد تبين فى باب التوحيد أن لافاعل إلا الله بطريق استدلالى كما رأيته ، واحتج له أهل علم الكلام بما هو غنى عن البيان من أن إسناد الأسباب إلى المسببات مجهول الكيفية ، والعقل متهم على مايقضى به فيما يظهر بادىء الرأى من التأثير ، فلعل استنادها على غير صورة التأثير المتعارف . والقدرة الإلٰهية رابطة بينهما كما ربطت جميع الكائنات علوا وسفلًا ، سيما والشرع يرد الحوادث كلها إلى قدرة الله تعالى ويبرأ مما سوى ذلك .

والنبوات أيضًا منكرة لشأن النجوم وتأثيراتها واستقراء الشرعيات شاهد بذلك فى مثل قوله (١) : « إن الشمس والقمر لايخسفان لموت أحد ولا لحياته » وفى قوله (٢) : « أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر بى : فأما من قال مُطِرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب . وأما من قال مُطِرنا بِنَوْء (٣) كذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب » (حديث صحيح) .

فقد بان لك بطلان هذه الصناعة من طريق الشرع وضعف مداركها مع ذلك من طريق العقل

---

(١) يعنى قول الرسول عليه الصلاة والسلام حينما كسفت الشمس فى يوم وفاة ابنه إبراهيم ، وظن الناس أنها كسفت لذلك (د. وافى)

(٢) حديث قدسى أى يرويه الرسول عن الله تعالى بدون أن يكون من القرآن . (د. وافى)

(٣) « النوء سقوط نجم من المنازل فى المغرب مع الفجر وطلوع رقيبة من المشرق يقابله من ساعته فى كل ثلاثة عشر يوما . . وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها وقيل إلى الطالع منها . . . » (الصحاح) .

مع مالها من المضار فى العمران الإنسانى بما تبعث فى عقائد العوام من الفساد إذا اتفق الصدق من أحكامها فى بعض الأحايين اتفاقًا لايرجع إلى تعليق ولا تحقيق ، فيلهج بذلك من لامعرفة له ويظن اطراد الصدق فى سائر أحكامها وليس كذلك ، فيقع فى رد الأشياء إلى غير خالقها . ثم ماينشأ عنها كثيرًا فى الدول من توقع القواطع [1] ، وما يبعث عليه ذلك التوقع من تطاول الأعداء المتربصين بالدولة إلى الفتك والثورة ، وقد شاهدنا من ذلك كثيرًا . فينبغى أن تُحظَر هذه الصناعة على جميع أهل العمران لما ينشأ عنها من المضار فى الدين والدول ، ولا يقدح فى ذلك كون وجودها طبيعيًا للبشر بمقتضى مداركهم وعلومهم : فالخير والشر طبيعتان موجودتان فى العالم لا يمكن نزعهما ، وإنما يتعلق التكليف بأسباب حصولهما ، فيتعين السعى فى اكتساب الخير بأسبابه ودفع أسباب الشر والمضار .

هذا هو الواجب على من عرف مفاسد هذا العلم ومضاره . وليعلم من ذلك أنها وإن كانت صحيحة فى نفسها فلا يمكن أحدا من أهل الملة تحصيل علمها ولا ملكتها ، بل إن نظر فيها ناظر وظن الإحاطة بها فهو فى غاية القصور فى نفس الأمر . فإن الشريعة لما حظرت النظر فيها فُقِدَ الاجتماع من أهل العمران لقراءتها والتحليق [2] لتعليمها ، وصار المولع بها من الناس وهم الأقل وأقل من الأقل إنما يطالع كتبها ومقالاتها فى كِسْر [1] بيته متسترا عن الناس وتحت رقبة الجمهور ، مع تشعب الصناعة وكثرة فروعها واعتياصها [2] على الفهم ، فكيف يحصل منها على طائل . ونحن نجد الفقه الذى عم نفعه دينًا ودنيا وسهلت مآخذه من الكتاب والسنة وعكف الجمهور على قراءته وتعليمه ، ثم بعد التحقيق والتجميع وطول المدارسة وكثرة المجالس وتعددها ، إنما يحذِقُ فيه الواحد بعد الواحد فى الأعصار والأجيال . فكيف يُعْلَم مهجور للشريعة ، مضروب دونه سد الحظر والتحريم ، مكتوم عن الجمهور ، صعب المآخذ ، محتاج بعد الممارسة والتحصيل لأصوله وفروعه إلى مزيد حَدْس وتخمين يكتنفان به من الناظر ؟ ! فأين التحصيل والحذق فيه مع هذه كلها ؟ ! ومدعى ذلك من الناس مردود على عقبه ولا شاهد له يقوم بذلك ، لغرابة الفن بين أهل الملة وقلة حملته . فاعتبر ذلك يتبين لك صحة ما ذهبنا إليه . والله أعلم بالغيب ، « فلا يظهر على غيبه أحدًا [3] » .

ومما وقع فى هذا المعنى لبعض أصحابنا من أهل العصر عندما غلب العرب عساكر السلطان أبى الحسن وحاصروه بالقيروان وكثر إرجاف الفريقين

(١) هكذا فى جميع النسخ . والكلمة غير واضحة المدلول . (د. وافى) .

(٢) يعنى جلوس الطلاب إلى أستاذهم فى شكل حلقة .

(١) من معانى الكسر بفتح الكاف وكسرها جانب البيت .

(٢) « اعتاص عليه الأمر اشتد والتاث فلم يهتد للصواب » (القاموس) .

(٣) « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً » . (آيتى ٢٦ ، ٢٧ من سورة الجن) .

الأولياء والأعداء ، وقال فى ذلك أبو القاسم الروحى من شعراء أهل تونس :

أستغفر الله كل حين
قد ذهب العيش والهناء
أصبح فى تونس وأمسى
والصبح لله والمساء
الخوف والجوع والمنايا
يحدثها الهرج والوباء
والناس فى مرية وحرب
وما عسى ينفع المراء
فأحمدىٌّ يرى عليًّا
حل به الهلكُ والتَّواء(١)
وآخر قال سوف يأتى
به إليكم صَبا رُخَاء
والله من فوق ذا وهذا
يقضى لعبديه ما يشاء
ياراصد الخُنَّس الجوارى(٢)
ما فعلت هذه السماء
مطلْتُمونا وقد زعمتم
أنكم اليوم أملئاء (٣)
مر خميس على خميس
وجاء سبت وأربعاء
ونصف شهر وعشر ثان
وثالث ضمه القضاء
ولا نرى غير زور قول
أذاك جهل أم ازدراء ؟
إنا إلى الله قد علمنا
أن ليس يستدفع القضاء
رضيت بالله لى إلهًا
حسبكم البدر أو ذُكاء
ما هذه الأنجم السوارى
إلا عباديد (١) أو إماء
يُقضى عليها وليس تَقضى
وما لها فى الورى اقتضاء
ضلت عقول ترى قديما
ما شأنه الجرم(٢) والفناء
وحكمت فى الوجود طبعا
يحدثه الماء والهواء
لَمْ تَرَ حُلْوًا إزاء مُرٍّ
تغذوهمو تربة وماء ؟
الله ربى ولست أدرى
ما الجوهر الفرد والخلاء
ولا الهيولى التى تنادى
مالى عن صورة عراء
ولا وجود ولا انعدام
ولا ثبوت ولا انتفاء

(١) « التوى وزان الحصى وقد يمد : الهلاك » (المصباح) .
(٢) اقتبس هذا من قوله تعالى : «فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس » (آيتى ١٥ ، ١٦ من سورة التكوير) . أنظر تفصيل هذا الموضوع وتفسير الكلمات فى تعليق١٦٣١من الجزء الرابع من تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى طبعة لجنة البيان العربى).
(٣) مطله بدينه مطلا إذا سوفه بوعد الوفاء مرة بعد أخرى والأملئاء بهمزتين والملاء الأغنياء المتمولون أو الحسنو القضاء ، الواحد ملىء » (القاموس) .

(١) يرجح الدكتور على عبد الواحد وافى أنها محرفة من عبابيد جمع عبد
(٢) أى إن ما يتمثل فى جرم وما يكون مصيره. إلى الفناء كالأجرام السماوية لايمكن أن يكون قديما .

ولست أدرى ما الكسب إلا
ما جلب البيع والشراء
وإنما مذهبى ودينى
ما كان والناس أولياء
إذ لا فصول ولا أصول
ولا جدال ولا ارتياء
ما تَبَعَ الصدر واقتفينا
يا حبذا كان الاقتفاء[1]
كانوا كما يعلمون منهم
ولم يكن ذلك الهذاء[2]
يا أشعرى[3] الزمان إنى
أشعرنى الصيف والشتاء
لم أجز بالشر غير شر
والخير عن مثله جزاء
وإننى إن أكن مطيعا
فلست أعصى ولى رجاء
وإننى تحت حكم بار
أطاعه العرش والثراء
ليس انتصار لكم ولكن
أتاحه الحكم والقضاء
لو حُدِّثَ الأشعرى عَمَّنْ
له إلى رأيه انتماء
لقال أخبِرْهُمُ بأنى
مِمَّا يقولونه براء

(١) ولعله يقصد بالصدر صدر الإسلام .
(٢) الهذاء : الهذيان .
(٣) يشير إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى ، وهو من كبار أئمة علماء الكلام .

٣٤ – فصل فى إنكار ثمرة الكيمياء واستحالة وجودها وما ينشأ من المفاسد عن انتحالها

اعلم أن كثيرًا من العاجزين عن معاشهم تحملهم المطامع على انتحال هذه الصنائع ، ويرون أنها أحد مذاهب المعاش ووجوهه وأن اقتناء المال منها أيسر وأسهل على مبتغيه ، فيرتكبون فيها من المتاعب والمشاق ومعاناة الصعاب وعسف الحكام وخسارة الأموال فى النفقات زيادة على النيل من غرضه والعطب آخرًا إذا ظهر على خيبة ، وهم يحسنون صنعا[1] وإنما أطمعهم فى ذلك رؤية أن المعادن تستحيل وينقلب بعضها إلى بعض للمادة المشتركة ، فيحاولون بالعلاج صيرورة الفضة ذهبا والنحاس فضة ، ويحسبون أنها من ممكنات عالم الطبيعة . ولهم فى علاج ذلك طرق مختلفة لاختلاف مذاهبهم فى التدبير وصورته وفى المادة الموضوعة عندهم للعلاج المسماة عندهم بالحجر المكرم هل هى العذرة أو الدم أو الشعر أو البيض أو كذا أو كذا مما سوى ذلك .

وجملة التدبير عندهم بعد تعين المادة أن تُمهى بالفهر على حجر صلد أملس وتسقى أثناء إمهائها بالماء ، بعد أن يضاف إليها من العقاقير والأدوية ما يناسب القصد منها ، ويؤثر فى انقلابها إلى المعدن المطلوب ، ثم تجفف بالشمس من بعد السقى أو تطبخ بالنار أو تصعد أو تكلس لاستخراج مائها أو ترابها . فإذا رضى بذلك كله من علاجها وتم

(١) اقتباس من قوله تعالى : « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (آيتى ١٠٣ ، ١٠٤ من سورة الكهف) .

تدبيره على ما اقتضته أصول صنعته ، حصل من ذلك كله تراب أو مائع يسمونه الإكسير ، ويزعمون أنه إذا أُلقى على الفضة المحماة بالنار عادت ذهبا أو النحاس المحمى بالنار عاد فضة على حسب ما قصد به فى عمله .

ويزعم المحققون منهم أن ذلك الإكسير مادة مركبة من العناصر الأربعة حصل فيها بذلك العلاج الخاص والتدبير مزاج ذو قوى طبيعية تصرف ماحصلت فيه إليها وتقلبه إلى صورتها ومزاجها وتبث فيه ما حصل فيها من الكيفيات والقوى ، كالخميرة للخبز تقلب العجين إلى ذاتها وتعمل فيه ما حصل لها من الانفشاش والهشاشة ليحسن هضمه فى المعدة ويستحيل سريعاً إلى الغذاء ؛ وكذا إكسير الذهب والفضة فيما يحصل فيه من المعادن يصرفه إليهما ويقلبه إلى صورتهما .

هذا محصل زعمهم على الجملة فتجدهم عاكفين على هذا العلاج يبتغون الرزق والمعاش فيه ويتناقلون أحكامه وقواعده من كتب لأئمة الصناعة من قبلهم يتداولونها بينهم ، ويتناظرون فى فهم لغوزها وكشف أسرارها ، إذ هى فى الأكثر تشبه المعمى كتآليف جابر بن حيان فى رسائله السبعين ، ومسلمة المجريطى فى كتابه رتبة الحكيم ، والطغرائى والمغيرى فى قصائده العريقة فى إجادة النظم وأمثالها ولا يحلون من بعد هذا كله بطائل منها .

فاوضت يوما شيخنا أبا البركات البلفيقى كبير مشيخة الأندلس فى مثل ذلك ووقفته على بعض التآليف فيها فتصفحه طويلا ثم رده إلى وقال لى : «وأنا الضامن له أن لا يعود إلى بيته إلا بالخيبة » . ثم منهم من يقتصر فى ذلك على الدلسة [1] فقط ، إما الظاهرة كتمويه الفضة بالذهب أو النحاس بالفضة أو خلطهما على نسبة جزء أو جزأين أو ثلاثة ، أو الخفية كإلقاء الشبه بين المعادن بالصناعة مثل تبييض النحاس وتليينه بالزوق [2] المصعد فيجىء جسما معدنيا شبيها بالفضة ويخفى إلا على النقاد المهرة . فيقدر أصحاب هذا الدلس مع دلستهم هذه سكة يسربونها [3] فى الناس ويصبغونها بطابع السلطان تمويها على الجمهور بالخلاص [4] . وهؤلاء أخس الناس حرفة وأسوأهم عاقبة لتلبسهم بسرقة أموال الناس . فإن صاحب هذه الدلسة إنما هو يدفع نحاسا فى الفضة وفضة فى الذهب ليستخلصها لنفسه فهو سارق وأشر من السارق .

ومعظم هذا الصنف لدينا بالمغرب من طلبة البربر المنتبذين بأطراف البقاع ومساكن الأغمار يأوون إلى مساجد البادية ويموهون على الأغنياء منهم بأن بأيديهم صناعة الذهب والفضة ، والنفوس مولعة بحبهما والاستهلاك فى طلبهما ، فيحصلون من ذلك على معاش ، ثم يبقى ذلك عندهم تحت الخوف والرِّقْبَة إلى أن يظهر العجز

(١) الدلسة بالضم والدلس الخديعة . ودلس تدليساً كتم عيب السلعة وخدع مشتريها.

(٢) « الزوق كصرد الزئبق » .

(٣) يعنى ينشرونها بينهم .

(٤) أى بخلاص الذهب والفضة من الشوائب .

وتقع الفضيحة فيمرون إلى موضع آخر ، ويستجدون حالا أخرى فى استهواء بعض أهل الدنيا بأطماعهم فيما لديهم . ولا يزالون كذلك فى ابتغاء معاشهم . وهذا الصنف لا كلام معهم لأنهم بلغوا الغاية فى الجهل والرداءة والاحتراف بالسرقة ، ولا حاسم لعلتهم إلا اشتداد الحكام عليهم ، وتناولهم من حيث كانوا ، وقطع أيديهم متى ظهروا على شأنهم لأن فيه إفسادا للسكة التى تعم بها البلوى وهى متمول الناس كافة . والسلطان مكلف بإصلاحها والاحتياط عليها والاشتداد على مفسديها .

وأما من انتحل هذه الصناعة ولم يرض بحال الدلسة بل استنكف عنها ونزه نفسه عن إفساد سكة المسلمين ونقودهم ، وإنما يطلب إحالة الفضة للذهب ، والرصاص والنحاس والقصدير إلى الفضة بذلك النحو من العلاج ، وبالإكسير الحاصل عنده فلنا مع هؤلاء متكلم وبحث فى مداركهم لذلك ، مع أنا لا نعلم أن أحدا من أهل العلم تم له هذا الغرض أو حصل منه على بغية ؛ إنما تذهب أعمارهم فى التدبير والفهر والصلاية والتصعيد والتكليس واعتيام (١) الأخطار بجمع العقاقير والبحث عنها ، ويتناقلون فى ذلك حكايات وقعت لغيرهم ممن تم له الغرض منها أو وقف على الوصول يقنعون باستماعها والمفاوضة فيها ، ولا يسترببون فى تصديقها شأن الكلفين المغرمين بوساوس الأخبار فيما يكلفون به ، فإذا سئلوا عن تحقيق ذلك بالمعاينة أنكروه ، وقالوا إنما سمعنا ولم نر . هكذا شأنهم فى كل عصر وجيل .

واعلم أن انتحال هذه الصنعة قديم فى العالم ؛ وقد تكلم الناس فيها من المتقدمين والمتأخرين ؛ فلننقل مذاهبهم فى ذلك ، ثم نتلوه بما يظهر فيه من التحقيق الذى عليه الأمر فى نفسه . فنقول :

إن مبنى الكلام فى هذه الصناعة عند الحكماء على حال المعادن السبعة المتطرقة وهى الذهب والفضة والرصاص والقصدير والنحاس والحديد والخارصين ، هل هى مختلفات بالفصول (١) وكلها أنواع قائمة بأنفسها ؛ أو إنها مختلفة بخواص من الكيفيات ، وهى كلها أصناف لنوع واحد . فالذى ذهب إليه أبو نصر الفارابى وتابعه عليه حكماء الأندلس أنها نوع واحد ، وأن اختلافها إنما هو بالكيفيات من الرطوبة واليبوسة واللين والصلابة والألوان من الصفرة والبياض والسواد ، وهى كلها أصناف لذلك النوع الواحد . والذى ذهب إليه ابن سينا وتابعه عليه حكماء المشرق أنها مختلفة بالفصول وأنها أنواع متباينة كل واحد منها قائم بنفسه متحقق بحقيقته ، له فصل وجنس شأن سائر الأنواع . وبنى أبونصر الفارابى على مذهبه فى اتفاقها بالنوع إمكان انقلاب بعضها إلى بعض لإمكان تبدل الأعراض (٢)

---

(١) يرجح الدكتور على عبد الواحد وافى أن الكلمة محرفة من اقتحام .

(١) الفصل هو مادون الجنس عند المناطقة وهو ما يميز الأنواع بعضها من بعض . فالحيوان جنس ، والناطق فصل يميز الإنسان عما عداه من أنواع الحيوان . (د. وافى)

(٢) جمع عرض ، وهو عند المناطقة الصفة العارضة التى لا تميز جنسا ولا نوعا ، كالبياض والسواد والقصر والطول . هذا وقد حرفت هذه الكلمة فى جميع النسخ إلى « الأغراض » بالغين المعجمة . (د. وافى)

حينئذ وعلاجها بالصنعة ؛ فمن هذا الوجه كانت صناعة الكيمياء عنده ممكنة سهلة المأخذ . وبنى أبو على ابن سينا على مذهبه فى اختلافها بالنوع إنكار هذه الصنعة واستحالة وجودها بناء على أن الفصل لاسبيل بالصناعة إليه ، وإنما يخلقه خالق الأشياء ومقدرها وهو الله عز وجل . والفصول مجهولة الحقائق رأسا بالتصور ، فكيف يحاول انقلابها بالصنعة . وغلطه الطغرائى من أكابر أهل هذه الصناعة فى هذا القول ، ورد عليه بأن التدبير والعلاج ليس فى تخليق الفصل وإبداعه ، إنما هو فى إعداد المادة لقبوله خاصة . والفصل يأتى من بعد الإعداد من لدن خالقه ، كما يفيض النور على الأجسام بالصقل والإمهاء . ولاحاجة بنا فى ذلك إلى تصوره ومعرفته . قال وإذا كنا قد عثرنا على تخليق بعض الحيوانات مع الجهل بفصولها مثل العقرب من التراب والنتن (١) ، ومثل الحيات المتكونة من الشعر ، ومثل ماذكره أصحاب الفلاحة من تكوين النحل إذ فقدت من عجاجيل (٢) البقر ، وتكوين القصب من قرون ذوات الظلف وتصييره سكراً بحشو القرون بالعسل بين يدى ذلك الفلح للقرون ، فما المانع إذا من العثور على مثل ذلك فى الذهب والفضة ، فتتخذ مادة تضيفها للتدبير بعد أن يكون فيها استعداد أول لقبول صورة الذهب والفضة ، ثم تحاولها بالعلاج إلى أن يتم فيها الاستعداد لقبول فصلها انتهى كلام الطغرائى بمعناه .

وهذا الذى ذكره فى الرد على ابن سينا صحيح لكن لنا فى الرد على أهل هذه الصناعة مأخذا آخر يتبين منه استحالة وجودها وبطلان مزعمهم أجمعين لا الطغرائى ولا ابن سينا . وذلك أن حاصل علاجهم أنهم بعد الوقوف على المادة المستعدة بالاستعداد الأول يجعلونها موضوعا ويحاذون فى تدبيرها وعلاجها تدبير الطبيعة فى الجسم المعدنى حتى إحالته ذهبا أو فضة ، ويضاعفون القوى الفاعلة والمنفعلة لهم فى زمان أقصر ، لأنه تبين فى موضعه أن مضاعفة قوة الفاعل تنقص من زمن فعله ، وتبين أن الذهب إنما يتم كونه فى معدنه بعد ألف وثمانين من السنين دورة الشمس الكبرى ، فإذا تضاعفت القوى والكيفيات فى العلاج كان زمن كونه أقصر من ذلك ضرورة على ما قلناه ، أو يتحرون بعلاجهم ذلك حصول صورة مزاجية لتلك المادة تصيرها كالخميرة فتفعل فى الجسم المعالج الأفاعيل المطلوبة فى إحالته ، وذلك هو الإكسير على ما تقدم . واعلم أن كل متكون من المولدات العنصرية فلا بد فيه من اجتماع العناصر الأربعة على نسبة متفاوتة ، إذ لو كانت متكافئة فى النسبة لما تم امتزاجها ، فلا بد من الجزء الغالب على الكل . ولابد فى كل ممتزج من المولدات من حرارة غريزية هى الفاعلة لكونه ، الحافظة لصورته

---

(١) علق الدكتور وافى على ذلك بما يلى :

هكذا كان يظن قديما . والحقيقة أن الحشرة لاتخلق فى مثل هذه الحالة من التراب وما شاكله ، وإنما تنقف من بويضات كانت قد وضعتها الأم فى هذه المواد . غير أنه لما كانت بويضات الحشرات غير مرئية أو لاتكاد ترى ، لذلك يخيل للإنسان فى بادى الرأى أن الحشرة تخلق من هذه المواد مباشرة .

(٢) ح (« العجل ولد البقرة وجمعه عجاجيل » (القاموس) .

ثم كل متكون فى زمان فلابد من اختلاف أطواره وانتقاله فى زمن التكوين من طور إلى طور حتى ينتهى إلى غايته. وانظر شأن الإنسان فى طور النطفة ثم العلقة ثم المضغة ثم التصوير ثم الجنين ثم المولود ثم الرضيع ثم ثم إلى نهايته(١) ونسب الأجزاء فى كل طور تختلف فى مقاديرها وكيفياتها؛ وإلا لكان الطور بعينه الأول هو الآخر. وكذا الحرارة الغريزية فى كل طور مخالفة لها فى الطور الآخر. فانظر إلى الذهب ما يكون له فى معدنه من الأطوار منذ ألف سنة وثمانين وما ينتقل فيه من الأحوال؛ فيحتاج صاحب الكيمياء إلى أن يساوق فعل الطبيعة فى المعدن، ويحاذيه بتدبيره وعلاجه إلى أن يتم. — ومن شرط الصناعة أبدا تصور ما يقصد إليه بالصنعة. فمن الأمثال السائرة أول العمل آخر الفكرة، وآخر الفكرة أول العمل فلابد من تصور هذه الحالات للذهب فى أحواله المتعددة ونسبها المتفاوتة فى كل طور، واختلاف الحار الغريزى عند اختلافها، ومقدار الزمان فى كل طور وما ينوب عنه من مقدار القوى المضاعفة ويقوم مقامه، حتى يحاذى بذلك كله فعل الطبيعة فى المعدن، أو تعد لبعض المواد صورة مزاجية تكون كصورة الخميرة للخبز وتفعل فى هذه المادة بالمناسبة لقواها ومقاديرها. وهذه كلها إنما يحصرها العلم المحيط، والعلوم البشرية قاصرة عن ذلك. وإنما حال من يدعى حصوله على الذهب بهذه الصنعة بمثابة من يدعى بالصنعة تخليق إنسان من المنى. ونحن إذا سلمنا له الإحاطة بأجزائه ونسبته وأطواره وكيفية تخليقه فى رحمه وعلم ذلك علما محصلا بتفاصيله، حتى لا يشذ منه شىء عن علمه، سلمنا له تخليق هذا الإنسان؛ وأنى له ذلك.

ولنقرب هذا البرهان بالاختصار ليسهل فهمه فنقول: حاصل صناعة الكيمياء وما يدعونه بهذا التدبير أنه مساوقة الطبيعة المعدنية بالفعل الصناعى ومحاذاتها به إلى أن يتم كون الجسم المعدنى أو تخليق مادة بقوى وأفعال وصورة مزاجية تفعل فى الجسم فعلا طبيعياً فتصيره وتقلبه إلى صورتها. والفعل الصناعى مسبوق بتصورات أحوال الطبيعة المعدنية التى يقصد مساوقتها أو محاذاتها أو فعل المادة ذات القوى فيها تصورا مفصلا واحدة بعد أخرى، وتلك الأحوال لانهاية لها. والعلم البشرى عاجز عن الإحاطة بما دونها، وهو بمثابة من يقصد تخليق إنسان أو حيوان أو نبات. هذا محصل هذا البرهان وهو أوثق ماعلمته وليست الاستحالة فيـــه من جهة الفصول كما رأيته ولا من الطبيعة، إنما هو من تعذر الإحاطة وقصور البشر عنها. وماذكره ابن سينا بمعزل عن ذلك.

وله وجه آخر فى الاستحالة من جهة غايته، وذلك أن حكمة الله فى الحجرين وندورهما أنهما قيم لمكاسب الناس ومتمولاتهم، فلو حصل عليهما

(١) يشير بذلك إلى قوله تعالى: «ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما، فكسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين» (آيتى ١٣، ١٤ من سورة «المؤمنون»).

بالصنعة لبطلت حكمة الله في ذلك ، ولكثر وجودهما حتى لايحصل أحد من اقتنائهما على شيء .

وله وجه آخر من الاستحالة أيضاً وهو أن الطبيعة لاتترك أقرب الطرق في أفعالها وترتكب الأعوص والأبعد . فلو كان هذا الطريق الصناعي الذي يزعمون أنه صحيح وأنه أقرب من طريق الطبيعة في معدنها وأقل زماناً لما تركته الطبيعية إلى طريقها الذي سلكته في تكون الفضة والذهب وتخلقهما . وأما تشبيه الطغرائي هذا التدبير بما عثر عليه من المفردات لأمثاله في الطبيعة كالعقرب والنحل والحية وتخليقها فأمر صحيح في هذه أدى إليه العثور كما زعم ، وأما الكيمياء فلم ينقل عن أحد من أهل العلم أنه عثر عليها ولا على طريقها ، ومازال منتحلوها يخبطون فيها خبط عشواء إلى هلم جرا ، ولايظفرون إلا بالحكايات الكاذبة . ولو صح ذلك لأحد منهم لحفظه عنه أولاده أو تلميذه وأصحابه وتنوقل في الأصدقاء وضمن تصديقه صحة العمل بعده إلى أن ينتشر ويبلغ إلينا أو إلى غيرنا .

وأما قولهم إن الإكسير بمثابة الخميرة وإنه مركب يحيل مايحصل فيه ويقلبه إلى ذلك ، فاعلم أن الخميرة إنما تقلب العجين وتعده للهضم وهو فساد ، والفساد في المواد سهل يقع بأيسر شيء من الأفعال والطبائع ، والمطلوب بالإكسير قلب المعدن إلى ماهو أشرف منه وأعلى ، فهو تكوين وصلاح . والتكوين أصعب من الفساد ، فلا يقاس الإكسير بالخميرة .

وتحقيق الأمر في ذلك أن الكيمياء إن صح وجودها كما تزعم الحكماء المتكلمون فيها مثل جابر بن حيان ومسلمة بن أحمد المجريطي وأمثالهم فليست من باب الصنائع الطبيعية ، ولا تتم بأمر صناعي ، وليس كلامهم فيها من منحى الطبيعيات إنما هو من منحى كلامهم في الأمور السحرية وسائر الخوارق ، وما كان من ذلك للحلاج وغيره وقد ذكر مسلمة في كتاب الغاية ما يشبه ذلك . وكلامه فيها في كتاب رتبة الحكيم من هذا المنحى وهكذا كلام جابر في رسائله . ونحو كلامهم فيه معروف ولا حاجة بنا إلى شرحه . وبالجملة فأمرها عندهم من كليات المواد الخارجية عن حكم الصنائع فكما لا يتدبر ما منه الخشب والحيوان في يوم أو شهر خشبا أو حيوانا فيما عدا مجرى تخليقه ، كذلك لا يتدبر ذهب من مادة الذهب في يوم ولا شهر ولا يتغير طريق عادته إلا بإرفاد مما وراء عالم الطبائع وعمل الصنائع . فكذلك من طلب الكيمياء طلبا صناعيا ضيع ماله وعمله . ويقال لهذا التدبير الصناعي التدبير العقيم ؛ لأن نيله إن كان صحيحاً فهو واقع مما وراء الطبائع والصنائع فهو كالمشي على الماء وامتطاء الهواء والنفوذ في كثائف الأجساد ونحو ذلك من كرامات الأولياء الخارقة للعادة ، أو مثل تخليق الطير ونحوها من معجزات الأنبياء : قال تعالى : «وإذْ تَخلُقُ من الطِّينِ كَهَيئَةِ الطَّيرِ بإذني فتَنفُخُ فيها فتَكونُ طَيراً بإذني» (١) . وعلى ذلك فسبيل تيسيرها مختلف

(١) جزء من آية ١١٠ من سورة المائدة «٥» .

بحسب حال من يؤتاها . فربما أوتيها الصالح ويؤتيها غيرَه فتكون عنده معارة . وربما أوتيها الصالح ولا يملك إيتاءها فلا تتم فى يد غيره .

ومن هذا الباب يكون عملها سحريا . فقد تبين أنها إنما تقع بتأثيرات النفوس وخوارق العادة إما معجزة أو كرامة أو سحراً . ولهذا كان كلام الحكماء كلهم فيها ألغازاً لا يظفر بحقيقته إلا من خاض لجة من علم السحر واطلع على تصرفات النفس فى عالم الطبيعة . وأمور خرق العادة غير منحصرة ولا يقصد أحد إلى تحصيلها والله بما يعملون محيط .

وأكثر مايحمل على التماس هذه الصناعة وانتحالها هو كما قلناه(١) العجز عن الطرق الطبيعية للمعاش ، وابتغاؤه من غير وجوهه الطبيعية كالفلاحة والتجارة والصناعة ، فيستصعب العاجز ابتغاؤه من هذه ، ويروم الحصول على الكثير من المال دفعة بوجوه غير طبيعية من الكيمياء وغيرها . وأكثر من يعنى بذلك الفقراء من أهل العمران حتى فى الحكماء المتكلمين فى إنكارها واستحالتها . فإن ابن سينا القائل باستحالتها كان من علية الوزراء فكان من أهل الغنى والثروة ، والفارابى القائل بإمكانها كان من أهل الفقر الذين يعوزهم أدنى بُلْغَة من المعاش وأسبابه . وهذه تهمة ظاهرة فى أنظار النفوس المولعة بطرقها وانتحالها . والله «الرَّزاقُ ذو القوةِ المتينُ» لارب سواه .

(١) فى أول هذا الفصل وفى الفصل الحادى والثلاثين .

٣٥ – فصل فى المقاصد التى ينبغى اعتمادها بالتأليف وإلغاء ما سواها(١)

إعلم أن العلوم البشرية خزانتها النفس الإنسانية بما جعل الله فيها من الإدراك الذى يفيدها ذلك الفكر المحصل لها ذلك بتصور الحقائق أولا ، ثم بإثبات العوارض الذاتية لها أو نفيها عنها ثانياً ، إما بغير وسط أو بوسط ، حتى يستنتج الفكر بذلك مطالبه التى يعنى بإثباتها أو نفيها . فإذا استقرت من ذلك صورة علمية فى الضمير فلابد من بيانها لآخر ، إما على وجه التعليم ، أو على وجه المفاوضة لصقل الأفكار فى تصحيحها .

وذلك البيان إنما يكون بالعبارة ، وهى الكلام المركب من الألفاظ النطقية التى خلقها الله فى عضو اللسان مركبة من الحروف ، وهى كيفيات الأصوات المقطعة بعضلة اللهاة واللسان ليتبين بها ضمائر المتكلمين بعضهم لبعض فى مخاطبتهم . وهذه رتبة أولى فى البيان عما فى الضمائر ، وإن كان معظمها وأشرفها العلوم ، فهى شاملة لكل ما يندرج فى الضمير من خبر أو إنشاء على العموم

وبعد هذه الرتبة الأولى من البيان رتبة ثانية يؤدى بها مافى الضمير لمن توارى أو غاب شخصه وبعد أو لمن يأتى بعد ولم يعاصره ولا لقيه . وهذا البيان منحصر فى الكتابة . وهى رقوم باليد تدل أشكالها وصورها بالتواضع على الألفاظ حروفاً

(١) أثبت هذا الفصل الدكتور على عبد الواحد وافى فى منشورته نقلا من النسخة الخطية التى يسميها التيمورية وهو ساقط من جميع النسخ المتداولة .

بحروف وكلمات بكلمات . فصار البيان فيها على ماف الضمير بواسطة الكلام المنطقى . فلهذا كانت فى الرتبة الثانية .

وأحد قسمى هذا البيان يدل على ما فى الضمائر من العلوم والمعارف فهو أشرفها . وأهل الفنون معتنون بإيداع مايحصل فى ضمائرهم من ذلك فى بطون الأوراق بهذه الكتابة ، لتعلم الفائدة فى حصوله للغائب والمتأخر . وهؤلاء هم المؤلفون . والتواليف بين العوالم البشرية والأمم الإنسانية كثيرة ومتنقلة فى الأجيال والأعصار . وتختلف باختلاف الشرائع والملل والأخبار عن الأمم والدول . وأما العلوم الفلسفية فلا اختلاف فيها لأنها إنما تأتى على نهج واحد فيما تقتضيه الطبيعة الفكرية فى تصور الموجودات على ماهى عليه جسمانيها وروحانيها وفلكيها وعنصريها ومجردها ومادها[1] . فإن هذه العلوم لاتختلف ؛ وإنما يقع الاختلاف فى العلوم الشرعية لاختلاف الملل ، أو التاريخية لاختلاف خارج الخبر .

ثم الكتابة مختلفة باصطلاحات البشر فى رسومها وأشكالها . ويسمى ذلك قلماً وخطاً ، فمنها الخط الحميرى ، ويسمى المسند . و هو كتابة حمير وأهل اليمن الأقدمين . وهو يخالف كتابة العرب المتأخرين من مضر ، كما يخالف لغتهم ، وإن كان الكل عربياً ، إلا أن ملكة هؤلاء فى اللسان والعبارة غير ملكة أولئك . ولكل منهما قوانين كلية مستقرة فى عباراتهم

(١) فى الأصل « ومادتها » وهو تحريف .

غير قوانين الآخرين . وربما يغلط فى ذلك من لايعرف ملكات العبارة . ومنها الخط السريانى وهو كتابة النبط والكلدانيين . وربما يزعم بعض أهل الجهل أنه الخط الطبيعى لقدمه فإنهم كانوا أقدم الأمم . وهذا وهم ومذهب عامى . لأن الأفعال الاختيارية كلها ليس شىء منها بالطبع ، وإنما هو يستمر بالقدم والمران حتى يصير ملكة راسخة فيظنها المشاهد طبيعية ؛ كما هو رأى كثير من البلداء فى اللغة العربية ، فيقولون : العرب كانت تعرب بالطبع وتنطق بالطبع ؛ وهذا وهم .

ومنها الخط العبرانى ، الذى هو كتابة بنى عابر بن شامخ من بنى إسرائيل وغيرهم . ومنها الخط اللطينى خط اللطينيين[1] من الروم . ولهم أيضاً لسان مختص بهم – ولكل أمة من الأمم اصطلاح فى الكتاب يعزى إليها ويختص بها ، مثل الترك والفرنج والهنود وغيرهم[2] . وإنما وقعت العناية بالأقلام الثلاثة الأولى : أما السريانى فلقدمه كما ذكرنا ؛ وأما العربى والعبرى فلتنزل القرآن والتوراة بهما بلسانهما ، وكان هذان الخطان بيانا لمتلوهما ، فوقعت العناية بمنظومهما أولا ، وانبسطت قوانين الاطراد (فى) العبارة فى تلك اللغة على أسلوبها لتفهم الشرائع التكليفية من ذلك الكلام الربانى ؛ وأما اللطيني فكان الروم وهم أهل

(١) يقصد اللاتينى واللاتينيين .

(٢) انظر تفصيل الكلام فى الخط العربى وأصوله الأولى التى أخذ منها والمراحل التى اجتازها فى كتابى « علم اللغة » ص٢٤٤–٢٥٤ و« فقه اللغة » ص ٢٤٦ – ٢٦٦ الطبعة السادسة للدكتور على عبد الواحد وافى .

ذلك اللسان لما أخذوا بدين النصرانية وهو كله من التوراة ، كما سبق فى أول الكتاب ، ترجموا التوراة وكتب الأنبياء الإسرائيليين إلى لغتهم ، ليقتنصوا منها الأحكام على أسهل الطرق وصارت عنايتهم بلغتهم وكتابتهم أكثر من سواها[1]. — وأما الخطوط الأخرى فلم تقع بها عناية ؛ وإنما هى لكل أمة بحسب اصطلاحها .

ثم إن الناس حصروا مقاصد التأليف التى ينبغى اعتمادها وإلغاء ماسواها ، فعدوها سبعة :

(أولها) استنباط العلم بموضوعه وتقويم أبوابه وفصوله وتتبع مسائله أو استنباط مسائل ومباحث تعرض للعالم المحقق يحرص على إيصالها لغيره لتعم المنفعة به ، فيودع ذلك بالكتاب فى الصحف لعل المتأخر يظهر على تلك الفائدة . كما وقع فى الأصول فى الفقه . تكلم الشافعى أولا فى الأدلة الشرعية اللفظية ولخصها ، ثم جاء الحنفية فاستنبطوا مسائل القياس واستوعبوها ، وانتفع بذلك من بعدهم إلى الأبد .

(وثانيها) أن يقف على كلام الأولين وتواليفهم ، فيجدها مستغلقة على الأفهام ، ويفتح الله له فى فهمها . فيحرص على إبانة ذلك لغيره ممن عساه يستغلق عليه ، لتصل الفائدة لمستحقها . وهذه طريقة البيان لكتب المعقول والمنقول ، وهو فصل شريف .

(وثالثها) أن يعثر المتأخر على غلط أو خطإ فى كلام المتقدمين ممن اشتهر فضله وبعد فى الإفادة صيته ويستوثق من ذلك بالبرهان الواضح الذى لامدخل للشك فيه ، ويحرص على إيصال ذلك لمن بعده ، إذ قد تعذر محوه ونزعه بانتشار التأليف فى الآفاق والأعصار وشهرة المؤلف ووثوق الناس بمعارفه ؛ فيودع ذلك الكتاب ليقف الناظر على بيان ذلك .

(ورابعها) أن يكون الفن الواحد قد نقصت منه مسائل أو فصول بحسب انقسام موضوعه ، فيقصد المطلع على ذلك أن يتمم مانقص من تلك من تلك المسائل ، ليكمل الفن بكمال مسائله وفصوله ، ولا يبقى للنقص فيه مجال .

(وخامسها) أن تكون مسائل العلم قد وقعت غير مرتبة فى أبوابها ولا منتظمة ؛ فيقصد المطلع على ذلك أن يرتبها ويهذبها ويجعل كل مسألة فى بابها .

كما وقع فى « المدونة » من رواية سحنون عن ابن القاسم وفى العتبية من رواية العتبى عن أصحاب مالك . فإن مسائل كثيرة من أبواب الفقه منها قد وقعت فى غير بابها . فهذب ابن أبى زيد « المدونة » وبقيت « العتبية » غير مهذبة ، فنجد فى كل باب مسائل من غيره . واستغنوا بالمدونة وما فعله ابن أبى زيد فيها والبرادعى من بعده .

(وسادسها) أن تكون مسائل العلم مفرقة فى أبوابها من علوم أخرى ؛ فيتنبه بعض الفضلاء

(١) انظر تحرير هذه الحقائق وتصحيحها فى كتاب « الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للاسلام » وخاصة صفحات ١٩ – ٢١ ، ٦٤ – ٦٨ ، ٨٩ – ٩٦ . للدكتور على عبد الواحد وافى .

إلى موضوع ذلك الفن وجمع مسائله ، فيفعل ذلك ، ويظهر به فن ينظمه فى جملة العلوم التى ينتحلها البشر بأفكارهم . كما وقع فى علم البيان[١] فإن عبد القاهر الجرجانى[٢] وأبايوسف السكاكى[٣] أوجدا مسائله متفرقة فى كتب النحو . وقد جمع منها الجاحظ فى كتاب « البيان والتبيين » مسائل كثيرة تنبه الناس فيها لموضوع ذلك العلم وانفراده عن سائر العلوم . فكتبت فى ذلك تواليفهم المشهورة ، وصارت أصولا لفن البيان ، ولقنها المتأخرون فأربوا فيها على كل متقدم .

(وسابعها) أن يكون الشىء من التواليف التى هى أمهات للفنون مطولا مسهبا ، فيقصد بالتأليف تلخيص ذلك بالاختصار والإيجاز المتكرر إن وقع ، مع الحذر من حذف الضرورى لئلا يخل بمقصد المؤلف الأول .

فهذه جماع المقاصد التى ينبغى اعتمادها بالتأليف ومراعاتها ، وما سوى ذلك ففعل غير محتاج إليه وخطأ عن الجادة التى يتعين سلوكها فى نظر العقلاء مثل انتحال ماتقدم لغيره من التواليف بأن ينسبه إلى نفسه ببعض تلبيس من تبديل الألفاظ وتقديم المتأخر وعكسه ، أو بحذف مايحتاج إليه فى الفن ، أو يأتى بما لايحتاج إليه ، أو يبدل الصواب بالخطأ ، أو يأتى بما لافائدة فيه . فهذا شأن الجهل والقحة . ولذا قال أرسطو لما عدد هذه المقاصد وانتهى إلى آخرها فقال : وما سوى ذلك ففضل أو شره ، يعنى بذلك الجهل والقحة . نعوذ بالله من العمل فيما لاينبغى للعاقل سلوكه . والله « يهدى للتى هى أقوم »

٣٦ — فصل فى أن كثرة التآليف فى العلوم عائقة عن التحصيل

اعلم أنه مما أضر بالناس فى تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التآليف واختلاف الاصطلاحات فى التعليم ، وتعدد طرقها ، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك ، وحينئذ يسلم له منصب التحصيل . فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها ، ولا يفى عمره بما كتب فى صناعة واحدة إذا تجرد لها ، فيقع القصور ، ولا بد ، دون رتبة التحصيل . ويمثل ذلك من شأن الفقه فى المذهب المالكى بكتاب المدونة مثلا وما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس واللخمى وابن بشير والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على العتبية وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه . ثم إنه يحتاج إلى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم ، والإحاطة بذلك كله ، وحينئذ يسلم له منصب الفتيا ، وهى كلها متكررة والمعنى واحد ، والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها ، والعمر ينقضى فى واحد منها .

---

(١) يقصد بعلم البيان علوم البلاغة على العموم التى تنقسم الآن ثلاثة أقسام : البيان والمعانى والبديع . وكان لفظ « البيان » يطلق قديماً على مايشمل هذه البحوث الثلاثة جميعاً .

(٢) فى كتابيه « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » .

(٣) فى قسم من كتابه « المفتاح » .

ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط. لكان الأمر دون ذلك بكثير ، وكان التعليم سهلا ، ومأخذه قريبا . ولكنه داء لايرتفع لاستقرار العوائد عليه . فصارت كالطبيعة التي لايمكن نقلها ولا تحويلها . ويمثل أيضا علم العربية من كتاب سيبوية ، وجميع ماكتب عليه ، وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم ، وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ماكتب فى ذلك ، وكيف يطالب به المتعلم وينقضى عمره دونه ولا يطمع أحد فى الغاية منه إلا فى القليل النادر ؛ مثل ما وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد من تأليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام ، ظهر من كلامه فيها أنه استولى على غاية من مَلَكة تلك الصناعة لم تحصل إلا لسيبوية وابن جنى وأهل طبقتهما لعظم ملكته وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه وحسن تصرفه فيه ، ودل ذلك على أن الفضل ليس منحصرا فى المتقدمين سيا مع ما قدمناه من كثرة الشواغب بتعدد المذاهب والطرق والتآليف ؛ ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء ؛ وهذا نادر من نوادر الوجود . وإلا فالظاهر أن المتعلم ولو قطع عمره فى هذا كله فلا يفى له بتحصيل علم العربية مثلا الذى هو آلة من الآلات ووسيلة ؛ فكيف يكون فى المقصود الذى هو الثمرة ؛ « ولكنَّ الله يهدى من يشاء[1] » .

(١) جزء من آية ٥٦ من سورة القصص .

٣٧ – فصل فى أن كثرة الاختصارات المؤلفة فى العلوم مخلة بالتعليم

ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء فى العلوم يولعون بها ويدونون منها برنامجا مختصرا فى كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار فى الألفاظ. وحشو القليل منها بالمعانى الكثيرة من ذلك الفن . وصار ذلك مخلا بالبلاغة وعَسِرا على الفهم . وربما عمدوا إلى الكتب الأُمهات المطولة فى الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريبا للحفظ. كما فعله ابن الحاجب فى الفقه وأُصول الفقه وابن مالك فى العربية والخونجى فى المنطق وأمثالهم . وهو فساد فى التعليم وفيه إخلال بالتحصيل . وذلك لأن فيه تخليطا على المبتدىء بإلقاء الغايات من العلم عليه ، وهو لم يستعد لقبولها بعد ؛ وهو من سوء التعليم كما سيأتى . ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ. الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعانى عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها . لأن ألفاظ. المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة ، فينقطع فى فهمها حظ. صالح من الوقت . ثم بعد ذلك فالملكة الحاصلة من التعليم فى تلك المختصرات إذا تم على سداده ولم تعقبه آفة فهى ملكه قاصرة عن الملكات التى تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة بكثرة مايقع فى تلك من التكرار والإحالة المفيدين لحصول الملكة التامة . وإذا اقتصر عن التكرار[1] قصرت

(١) العبارة ركيكة والأوضح أن يقول : « وإذا قل التكرار قصرت الملكة . . . الخ » (د. وافى) .

الملكة لقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة . فقصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين فأركبوهم صعبا يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها. ومن يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له[1]. والله سبحانه وتعالى أعلم .

٣٨ – فصل فى وجه الصواب فى تعليم العلوم وطريق إفادته

اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدا إذا كان على التدريج شيئا فشيئا وقليلا قليلا . يلقى عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هى أصول ذلك الباب . ويقرب له فى شرحها على سبيل الإجمال ويراعى فى ذلك قوة عقله واستعداده لقبول مايرد عليه ، حتى ينتهى إلى آخر الفن ، وعند ذلك يحصل له ملكة فى ذلك العلم ؛ إلا أنها جزئية وضعيفة ، وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله . ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه فى التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها ، ويستوفى الشرح والبيان ، ويخرج عن الإجمال ، ويذكر له ماهنالك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهى إلى آخر الفن فتجود ملكته . ثم يرجع به وقد شدا[2] فلا يترك عويصا ولا مبهما ولا معلقا إلا وضحه وفتح له مقفله ؛ فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته . هذا وجه التعليم المفيد ؛ وهو كما رأيت إنما يحصل فى ثلاث تكرارات . وقد يحصل للبعض فى أقل من ذلك بحسب مايخلق له ويتيسر عليه . وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذى أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفادته ويحضرون للمتعلم فى أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ويطالبونه بإحضار ذهنه فى حلها ، ويحسبون ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه ، ويكلفونه وعى ذلك وتحصيله ، ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون فى مبادئها ، وقبل أن يستعد لفهمها . فإن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجا ، ويكون المتعلم أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة إلا فى الأقل وعلى سبيل التقريب والإجمال وبالأمثلة الحسية . ثم لايزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذى فوقه ، حتى تتم الملكة فى الاستعداد ثم فى التحصيل ، ويحيط هو بمسائل الفن . وإذا ألقيت عليه الغايات فى البدايات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعى وبعيد عن الاستعداد له كلَّ ذهنه عنها ، وحسب ذلك من صعوبة العلم فى نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى فى هجرانه . وإنما أتى ذلك من سوء التعليم .

ولا ينبغى للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذى أكب على التعليم منه بحسب طاقته ، وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئا كان أو منتهيا ، ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من

(١) مقتبس من قوله تعالى : « ومن يضلل الله فماله من هاد ؛ ومن يهد الله فما له من مضل » (آيتى ٣٦ ، ٣٧ من سورة الزمر وهى سورة ٣٩) .

(٢) شدا يشدو شدوا من باب قتل جمع قطعة من الإبل وساقها ، ومنه قيل لمن أخذ طرفا من العلم والأدب واستدل به على البعض الآخر شدا ، وهو شاد (المصباح) . – هذا ، وفى بعض النسخ « وقد شد » وهو تحريف .

أوله إلى آخره ويحصل أغراضه ويستولى منه على ملكة بها ينفذ فى غيره . لأن المتعلم إذا حصّل ملكة ما فى علم من العلوم استعد بها لقبول مابقى ، وحصل له نشاط، فى طلب المزيد والنهوض إلى مافوق ، حتى يستولى على غايات العلم . وإذا خلط، عليه الأمر عجز عن الفهم ، وأدركه الكلال وانطمس فكره ، ويئس من التحصيل . وهجر العلم والتعليم . والله يهدى من يشاء .

وكذلك ينبغى لك أن لا تطوّل على المتعلم فى الفن الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها ، لأنه ذريعة إلى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض فيعسر حصول الملكة بتفريقها . وإذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة مجانبة للنسيان كانت الملكة أيسر حصولا وأحكم ارتباطا وأقرب صبغة . لأن الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره ، وإذا تنوسى الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه . والله علمكم ما لم تكونوا تعلمون .

ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة فى التعليم أن لا يخلط، على المتعلم علمان معا ؛ فإنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما ، لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر ، فيستغلقان معا ويستصعبان ، ويعود منهما بالخيبة. وإذا تفرغ الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصرا عليه ، فربما كان ذلك أجدر بتحصيله . والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب .

(فصل) واعلم أيها المتعلم أنى أتحفك بفائدة فى تعلمك فإن تلقيتها بالقبول وأمسكتها بيد الصناعة ظفرت بكنز عظيم وذخيرة شريفة . وأقدم لك مقدمة تعينك فى فهمها . وذلك أن الفكر الإنسانى طبيعة مخصوصة فطرها الله كما فطر سائر مبتدعاته ، وهو وجدان حركة للنفس فى البطن الأوسط من الدماغ تارةيكون مبدأ للأفعال الإنسانية على نظام وترتيب ؛ وتارة يكون مبدأ لعلم ما لم يكن حاصلا بأن يتوجه إلى المطلوب . وقد يصور طرفيه ويروم نفيه أو إثباته فيلوح له الوسط، الذى يجمع بينهما أسرع من لمح البصر إن كان واحدا ، وينتقل إلى تحصيل آخر إن كان متعددا ؛ ويصير إلى الظفر بمطلوبه . هذا شأن هذه الطبيعة الفكرية التى تميز بها البشر بين سائر الحيوانات .

ثم الصناعة المنطقية هى كيفية فعل هذهالطبيعة الفكرية النظرية ، تصفه لتعلم سداده من خطئه ، لأنها وإن كان الصواب لها ذاتيا إلا أنه قد يعرض لها الخطأ فى الأقل من تصور الطرفين (١) على غير صورتهما من اشتباه الهيآت فى نظم القضايا وترتيبها للنتاج . فتعين المنطق للتخلص من ورطة هذا الفساد إذا عرض . فالمنطق إذا أمر صناعى مساوق للطبيعة الفكرية ومنطبق على صورة فعلها . ولكونه أمرا صناعيا استغنى عنه فى الأكثر . ولذلك تجد كثيرا من فحول النظار فى الخليقة يحصلون على المطالب فى العلوم دون صناعة المنطق ، ولا سيا

---

(١) انظر شرح هذا الموضوع فى تعليقى ١٦٨٣ ، ١٦٨٤ من تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى (الجزء الرابع ، الطبعة الثانية ، لجنة البيان) .

مع صدق النية والتعرض لرحمة الله ، فإن ذلك أعظم معنى ، ويسلكون بالطبيعة الفكرية على سدادها ، فيفضى بالطبع إلى حصول الوسط. والعلم المطلوب كما فطرها الله عليه .

ثم من دون هذا الأمر الصناعى الذى هو المنطق مقدمة أخرى من التعلم وهى معرفة الألفاظ ودلالتها على المعانى الذهنية تردها من مشافهة الرسوم بالكتاب ومشافهة اللسان بالخطاب . فلا بد أيها المتعلم من مجاوزتك هذه الحجب كلها إلى الفكر فى مطلوبك .

فأولا دلالة الكتابة المرسومة على الألفاظ المقولة وهى أخفها ، ثم دلالة الألفاظ المقولة على المعانى المطلوبة ، ثم القوانين فى ترتيب المعانى للاستدلال فى قوالبها المعروفة فى صناعة المنطق ، ثم تلك المعـــانى مجردة فى الفكر أشراكا يقتنص بها المطلوب بالطبيعة الفكرية بالتعرض لرحمة الله ومواهبه . وليس كل أحد يتجاوز هذه المراتب بسرعة ، ولا يقطع هذه الحجب فى التعلم بسهولة ؛ بل ربما وقف الذهن فى حجب الألفاظ بالمناقشات ، أو عثر فى أشراك الأدلة بشغب الجدال والشبهات ، وقعد عن تحصيل المطلوب . ولم يكد يتخلص من تلك الغمرة إلا قليل ممن هداه الله .

فإذا ابتليت بمثل ذلك وعرض لك ارتباك فى فهمك أو تشغيب بالشبهات فى ذهنك فاطرح ذلك وانتبذ حجب الألفاظ وعوائق الشبهات ، واترك الأمر الصناعى جملة ، وأخلص إلى فضاء الفكر الطبيعى الذى فطرت عليه ؛ وسرح نظرك فيه وفرغ ذهنك له للغوص على مرامك منه ، واضعاً لها [1] حيث وضعها أكابر النظار قبلك ، مستعرضا للفتح من الله كما فتح عليهم من ذهنهم من رحمته وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون . فإذا فعلت ذلك أشرقت عليك أنوار الفتح من الله بالظفر بمطلوبك وحصل الإلهام الوسط. الذى جعله الله من مقتضيات ذاتيات هذا الفكر وفطره عليه كما قلنا وحينئذ فارجع به إلى قوالب الأدلة وصورها فأفرغه فيها ، ووفه حقه من القانون الصناعى ، ثم اكسه صور الألفاظ. ، وأبرزه إلى عالم الخطاب والمشافهة وثيق العرى صحيح البنيان .

وأما إن وقفت عند المناقشة والشبهة فى الأدلة الصناعية وتمحيص صوابها من خطئها — وهذه أمور صناعية وضعية تستوى جهاتها المتعددة وتتشابه لأجل الوضع والاصطلاح فلا تتميز جهة الحق ، إنما تستبين إذا كانت بالطبع — فيستمر ماحصل من الشك والارتياب ، وتسدل الحجب على المطلوب ، وتقعد بالناظر عن تحصيله . وهذا شأن الأكثرين من النظار والمتأخرين ، سيما من سبقت له عجمة فى لسانه فربطت عن ذهنه ، ومن حصل له شغب بالقانون المنطقى ، تعصب له فاعتقد أنه الذريعة إلى إدراك الحق بالطبع ، فيقع فى الحيرة بين شبه الأدلة وشكوكها ، ولا يكاد يخلص منها .

(١) لعل الضمير يرجع إلى « نفسك » المعلومة من المقام ، على حد قوله تعالى : « حتى تورات بالحجاب » ، أى الشمس المعلومة من المقام ، وإن كان لم يسبق لها ذكر . (د . وافى)

والذريعة إلى درك الحق بالطبع إنما هو الفكر الطبيعي كما قلناه ، إذا جرد عن جميع الأوهام وتعرض الناظر فيه إلى رحمة الله تعالى . وأما المنطق فإنما هو واصف لفعل هذا الفكر ، فيساوقه لذلك في الأكثر فاعتبر ذلك واستمطر رحمة الله تعالى متى أعوزك فهم المسائل تشرق عليك أنواره بالإلهام إلى الصواب ، والله الهادي إلى رحمته . « وما العلم إلا من عند الله [١] » .

٣٩ – فصل في أن العلوم الآلية لا توسع فيها الأنظار ولا تفرع المسائل

اعلم أن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين : علوم مقصودة بالذات ، كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام ، وكالطبيعيات والإلهيات من الفلسفة ، وعلوم هي آلية ووسيلة لهذه العلوم كالعربية والحساب وغيرهما للشرعيات ، وكالمنطق للفلسفة ، وربما كان آلة لعلم الكلام ولأصول الفقه على طريقة المتأخرين . فأما العلوم التي هي مقاصد ، فلا حرج في توسعة الكلام فيها ، وتفريع المسائل واستكشاف الأدلة والأنظار ، فإن ذلك يزيد طالبها تمكناً في ملكته وإيضاحاً لمعانيها المقصودة . وأما العلوم التي هي آلة لغيرها مثل العربية والمنطق وأمثالها فلا ينبغي أن ينظر فيها إلا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط ، ولايوسع فيها الكلام ولا تفرع المسائل ، لأن ذلك مخرج لها عن المقصود ، إذ المقصود منها ماهي آلة له لا غير ، فكلما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود وصار الاشتغال بها لغواً مع مافيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها ، وربما يكون ذلك عائقاً عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها ، مع أن شأنها أهم والعمر يقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصورة ، فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية تضييعاً للعمر وشغلاً بما لايعني . وهذا كما فعل المتأخرون في صناعة النحو وصناعة المنطق وأصول الفقه ، لأنهم أوسعوا دائرة الكلام فيها وأكثروا من التفاريع والاستدلالات بما أخرجها من كونها آلة وصيرها من المقاصد . وربما يقع فيها أنظار لاحاجة بها في العلوم المقصودة فهي من نوع اللغو . وهي أيضاً مضرة بالمتعلمين على الإطلاق ، لأن المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها ، فإذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل فمتى يظفرون بالمقاصد ؟ . فلهذا يجب على المعلمين لهذه العلوم الآلية أن لا يستبحروا في شأنها ، وينبهوا المتعلم على الغرض منها ، ويقفوا به عنده . فمن نزعت به همته بعد ذلك إلى شيء من التوغل فليَرْق له ماشاء من المراقي صعباً أو سهلاً . وكلٌ ميسر لما خلق له .

٤٠ – فصل في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية

اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين ، أخذ به أهل الملة ، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم ، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ

---

(١) (آية ٢٩ من سورة تبارك) .

الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث . وصار القرآن أصل التعليم الذى ينبنى عليه مايحصل بعد من الملكات . وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخاً وهو أصل لما بعده ، لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات ، وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال ماينبنى عليه .

واختلفت طرقهم فى تعليم القرآن للولدان باختلافهم باعتبار ماينشأ عن ذلك التعليم من الملكات .

فأما أهل المغرب فمذهبهم فى الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط ، وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه ، لا يخلطون ذلك بسواه فى شىء من مجالس تعليمهم ، لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب ، إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه ، فيكون انقطاعه فى الغالب انقطاعاً عن العلم بالجملة . وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب فى ولدانهم إلى أن يجاوزوا حد البلوغ إلى الشبيبة . وكذا فى الكبير إذا راجع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره . فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم .

وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو [1] وهذا هو الذى يراعونه فى التعليم . إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلا فى التعليم . فلا يقتصرون لذلك عليه فقط. بل يخلطون فى تعليمهم للولدان رواية الشعر فى الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب ولا تختص عنايتهم فى التعليم بالقرآن دون هذه بل عنايتهم فيه بالخط. أكثر من جميعها ، إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة وقد شدا بعض الشىء فى العربية والشعر والبصر بهما ، وبرّز فى الخط. والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة لو كان فيها سند لتعليم العلوم . لكنهم ينقطعون عند ذلك لانقطاع سند التعليم فى آفاقهم ، ولا يحصل بأيديهم إلا ماحصل من ذلك التعليم الأول ، وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى ، واستعداد إذا وجدالمعلم

وأما أهل إفريقية فيخلطون فى تعليمهم للولدان القرآن بالحديث فى الغالب ، ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها . إلا أن عنايتهم بالقرآن ، واستظهار لولدان إياه ، ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته ، أكثر مما سواه ، وعنايتهم بالخط. تبع لذلك . وبالجملة فطريقهم فى تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس ؛ لأن سند طريقتهم فى ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين أجازوا عند تغلب النصارى على شرق الأندلس ، واستقروا بتونس ، وعنهم أخذ ولدانهم بعد ذلك .

وأما أهل المشرق فيخلطون فى التعليم كذلك على مايبلغنا ؛ ولا أدرى بم عنايتهم منها . والذى

---

(١) أى يعلمونهم الكتابة من حيث هى على الإطلاق لارسم المصحف فقط واختلاف حملة القرآن فيه كما يفعل أهل المغرب . (د . وافى)

ينقل لنا أن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه فى زمن الشبيبة ولا يخلطون بتعليم الخط، بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراده ، كما تتعلم سائر الصنائع ، ويتداولونها فى مكاتب الصبيان . وإذا كتبوا لهم الألواح فبخط قاصر عن الإجادة . ومن أراد تعلم الخط فعلى قدر مايسنح له بعد ذلك من الهمة فى طلبه ، ويبتغيه من أهل صنعته .

فأما أهل إفريقية والمغرب فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة ، وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه فى الغالب ملكة ، لما أن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله (١) ، فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بها ، وليس لهم ملكة فى غير أساليبه ، فلا يحصل لصاحبه ملكة فى اللسان العربى ، وحظه الجمود فى العبارات وقلة التصرف فى الكلام . وربما كان أهل أفريقية فى ذلك أخف من أهل المغرب لما يخلطون فى تعليمهم القرآن بعبارات العلوم فى قوانينها كما قلناه ، فيقتدرون على شىء من التصرف ومحاذاة المثل بالمثل ، إلا أن ملكتهم فى ذلك قاصرة عن البلاغة ، لما أن أكثر محفوظهم عبارات العلوم النازلة عن البلاغة كما سيأتى فى فصله .

وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن فى التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف فى اللسان العربى ، وقصروا فى سائر العلوم لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث الذى هو أصل العلوم وأساسها فكانوا لذلك أهل خط وأدب بارع أو مقصر على حسب مايكون التعليم الثانى من بعد تعليم الصبا .

ولقد ذهب القاضى أبو بكر بن العربى فى كتاب رحلته إلى طريقة غريبة فى وجه التعليم ، وأعاد فى ذلك وأبدأ ، وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس قال : «لأن الشعر ديوان العرب ويدعو إلى تقديمه وتعليم العربية فى التعليم ضرورة فساد اللغة . ثم يُنتقلُ منه إلى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين . ثم ينتقل إلى درس القرآن فإنه يتيسر عليه بهذه المقدمة » . ثم قال : «ويا غفلة أهل بلادنا فى أن يؤخذ الصبى بكتاب الله فى أول أمره ، يقرأ مالا يفهم وينصب فى أمرٍ غيرُه أهمُّ عليه » ثم قال : «ينظر فى أُصول الدين ثم أصول الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه » . — ونهى مع ذلك أن يخلط فى التعليم علمان إلا أن يكون المتعلم قابلا لذلك بجودة الفهم والنشاط .

هذا ما أشار إليه القاضى أبو بكر رحمه الله . وهو لعمرى مذهب حسن . إلا أن العوائد لا تساعد عليه ، وهى أملك بالأحوال . ووجه ما اختصّت به العوائد من تقدم دراسة القرآن إيثاراً (١)

(١) انظر تفصل هذا الموضوع ومايرمى إليه كلام ابن خلدون فى تعليق ١٦٨٨ب من تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى (الطبعة الثانية لجنة البيان العربى) .

(١) يرى الدكتور وافى أن هذا التركيب ركيك وأن استقامته أن يقول : « ووجه مااختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن أن فى ذلك إيثاراً للتبرك والثواب واتقاء لما يعرض . . . إلخ » .

للتبرك والثواب ، وخشية ما يعرض للولد فى جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم ، فيفوته القرآن ؛ لأنه ما دام فى الحجر[1] منقاد للحكم ، فإذا تجاوز البلوغ وانحل من ربقة القهر فربما عصفت به رياح الشبيبة فألقته بساحل البطالة . فيغتنمون فى زمان الحِجْر وربقة الحكم تحصيل القرآن لئلا يذهب خلوا منه . ولو حصل اليقين باستمراره فى طلب العلم وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذى ذكره القاضى أولى مما أخذ به أهل المغرب والمشرق . ولكن الله يحكم ما يشاء ، لا معقب لحكمه ، سبحانه .

٤١ — (فصل) فى أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم

وذلك أن إرهاف الحد فى التعليم مضر بالمتعلم سيما فى أصاغر الوُلد لأنه من سوء الملكة . ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر ، وضيق على النفس فى انبساطها ، وذهب بنشاطها ، ودعاه إلى الكسل ، وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما فى ضميره خوفا من انبساط الأيدى بالقهر عليه ، وعلمه المكر والخديعة لذلك ، وصارت له هذه عادة وخلقا ، وفسدت معانى الإنسانية التى له من حيث الاجتماع والتمرن ، وهى الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله ، وصار عيالا على غيره فى ذلك ، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل ، فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها ، فارتكس وعاد فى أسفل السافلين .

وهكذا وقع لكل أمة حصلت فى قبضة القهر ونال منها العسف . واعتبره فى كل من يملك أمره عليه ، ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة به ، وتجد ذلك فيهم استقراء . وانظره فى اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق السوء ، حتى إنهم يوصفون فى كل أفق وعصر بالحرج ومعناه فى الاصطلاح المشهور التخابث والكيد ، وسببه ما قلناه . فينبغى للمعلم فى متعلِّمه والوالد فى ولده أن لا يستبدّ عليهم فى التأديب . وقد قال محمد ابن أبى زيد فى كتابه الذى ألفه فى حكم المعلمين والمتعلمين لا ينبغى لمؤدب الصبيان أن يزيد فى ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئا . ومن كلام عمر رضى الله عنه : « من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله » ، حرصا على صون النفوس عن مذلة التأديب ، وعلما بأن المقدار الذى عينه الشرع لذلك أملك له ، فإنه أعلم بمصلحته .

ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده محمد الأمين فقال : « يا أحمر إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه ، فصيِّر يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة . فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين . أقرئه القرآن وعرفه الأخبار ، وروه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه . ولا تمرَّن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها ، من غير أن تحزنه

(١) يعنى مادام صغيراً تحت وصاية أهله .

فتميت ذهنه . ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه . وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة » انتهى .

٤٢ — فصل فى أن الرحلة فى طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال فى التعلم

والسبب فى ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما وإلقاء ، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها . والاصطلاحات أيضا فى تعليم العلوم مخلّطة على المتعلم . حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم . ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين . فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها ، فيجرد العلم عنها ، ويعلم أنها أنحاء تعليم وطرق توصيل ، وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام فى الملكات ، ويصحح معارفه ويميزها عن سواها ، مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم . وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية فالرحلة لابد منها فى طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال ، « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

٤٣ — فصل فى أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها

والسبب فى ذلك أنهم معتادون النظر الفكرى والغوص عن المعانى وانتزاعها من المحسوسات وتجريدها فى الذهن أمورا كلية عامة ليحكم عليها بأمر العموم لا بخصوص مادة ولا شخص ولا جيل ولا أمة ولا صنف من الناس ، ويطبقون من بعد ذلك الكلى على الخارجيات . وأيضا يقيسون الأمور على أشباهها وأمثالها بما اعتادوه من القياس الفقهى . فلا تزال أحكامهم وأنظارهم كلها فى الذهن ولا تصير إلى المطابقة إلا بعد الفراغ من البحث والنظر ولا تصير بالجملة إلى مطابقة ، وإنما يفرع ما فى الخارج عما فى الذهن من ذلك ، كالأحكام الشرعية فإنها فروع عما فى المحفوظ من أدلة الكتاب والسنة ، فتطلب مطابقة ما فى الخارج لها عكس الأنظار فى العلوم العقلية تطلب فى صحتها مطابقتها لما فى الخارج . فهم متعودون فى سائر أنظارهم الأمور الذهنية والأنظار الفكرية لا يعرفون سواها . والسياسة يحتاج صاحبها إلى مراعاة ما فى الخارج وما يلحقها من الأحوال ويتبعها فإنها خفية ، ولعل أن يكون فيها ما يمنع من إلحاقها بشبه أو مثال وينافى الكلى الذى يحاول تطبيقه عليها . ولا يقاس شىء من أحوال العمران على الآخر ؛ إذ كما اشتبها فى أمر واحد ، فلعلهما اختلفا فى أمور . فتكون العلماء لأجل ما تعودوه من تعميم الأحكام وقياس الأمور بعضها على بعض إذا نظروا فى السياسة أفرغوا ذلك فى قالب أنظارهم

ونوع استدلالاتهم ، فيقعون فى الغلط كثيرا ولا يؤمن عليهم .

ويلحق بهم أهل الذكاء والكيس من أهل العمران لأنهم ينزعون بثقوب أذهانهم إلى مثل شأن الفقهاء من الغوص على المعانى والقياس والمحاكاة ، فيقعون فى الغلط .

والعامى السليم الطبع المتوسط الكيس لقصور فكره عن ذلك وعدم اعتياده إياه يقتصر لكل مادة على حكمها ، وفى كل صنف من الأحوال والأشخاص على ما اختص به ، ولا يعدى الحكم بقياس ولا تعميم ، ولا يفارق فى أكثر نظره المواد المحسوسة ولا يجاوزها فى ذهنه ، كالسابح لا يفارق البر عند الموج .

قال الشاعر :

فلا توغلنّ إذا ما سبحت

فإن السلامة فى الساحل

فيكون مأمونا من النظر فى سياسته مستقيم النظر فى معاملة أبناء جنسه ؛ فيحسن معاشه وتندفع آفاته ومضاره باستقامة نظره : «وفوق كل ذى علم عليم» .

ومن هنا يتبين أن صناعة المنطق غير مأمونة الغلط لكثرة ما فيها من الانتزاع وبعدها عن المحسوس ، فإنها تنظر فى المعقولات الثوانى ، ولعل المواد فيها ما يمانع تلك الأحكام وينافيها عند مراعاة التطبيق اليقينى . وأما النظر فى المعقولات الأول وهى التى تجريدها قريب فليس كذلك ، لأنها خيالية وصور المحسوسات حافظة مؤذنة بتصديق انطباقه . والله سبحانه وتعالى أعلم ، وبه التوفيق .

٤٤ – فصل فى أن حملة العلم فى الاسلام أكثرهم العجم

من الغريب الواقع أن حمَلة العلم فى الملة الإسلامية أكثرهم العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا فى القليل النادر ، وإن كان منهم العربى فى نسبته فهو عجمى فى لغته ومرباه ومشيخته ، مع أن الملة عربية ، وصاحب شريعتها عربى ؛ والسبب فى ذلك أن الملة فى أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة ، وإنما أحكام الشريعة التى هى أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها فى صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ، ولا دفعوا إليه ، ولا دعتهم إليه حاجة ؛ وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين ؛ وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك ونقله «القراء» أى الذين يقرأون الكتاب وليسوا أميين ، لأن الأمية يومئذ صفة عامة فى الصحابة بما كانوا عربا ، فقيل لحملة القرآن يومئذ قراء إشارة إلى هذا ؛ فهم قراء لكتاب الله والسنة المأثورة عن رسول الله ، لأنهم لم يعرفوا الأحكام الشرعية إلا منه ومن الحديث ، الذى هو فى غالب موارده تفسير له وشرح ؛ قال صلى الله عليه وسلم : «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنتى» . فلما بعد النقل من

لدن دولة الرشيد فما بعد احتيج إلى وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه . ثم احتيج إلى معرفة الأسانيد وتعديل الناقلين للتمييز بين الصحيح من الأسانيد ومادونه . ثم كثر استخراج أحكام الواقعات من الكتاب والسنة . وفسد مع ذلك اللسان . فاحتيج إلى وضع القوانين النحوية . وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات فى الاستنباطات والاستخراج والتنظير والقياس واحتاجت إلى علوم أخرى وهى وسائل لها من معرفة قوانين العربية وقوانين ذلك الاستنباط والقياس والذب عن العقائد الإيمانية بالأدلة لكثرة البدع والإلحاد . فصارت هذه العلوم كلها علوماً ذات ملكات محتاجة إلى التعليم ، فاندرجت فى جملة الصنائع . وقد كنا قدمنا أن الصنائع من منتحل الحضر وأن العرب أبعد الناس عنها (١) . فصارت العلوم لذلك حضرية ، وبعد عنها العرب وعن سوقها . والحضر لذلك العهد هم العجم أو من فى معناهم من الموالى وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم فى الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف ، لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس ـ فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسى من بعده والزجاج من بعدهما وكلهم عجم فى أنسابهم ، وإنما ربوا فى اللسان العربى فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب وصيروه قوانين وفناً لمن بعدهم . وكذا حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى . وكان علماء أصول الفقه كلهم عجماً كما يعرف ؛ وكذا حملة علم الكلام ؛ وكذا أكثر المفسرين . ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم . وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم : « لو تعلق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس » .

وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها عن البداوة فشغلتهم الرياسة فى الدولة العباسية ومادفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم ، والنظر فيه ، فإنهم كانوا أهل الدولة وحاميتها وأولى سياستها ، مع ما يلحقهم من الأنفة عن انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع ، والرؤساء أبداً يستنكفون عن الصنائع والمهن وما يجر إليها ، ودفعوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولدين . وما زالوا يرون لهم حق القيام به ، فإنه دينهم وعلومهم ، ولا يحتقرون حملتها كل الاحتقار . حتى إذا خرج الأمر من العرب جملة وصار للعجم ، صارت العلوم الشرعية غريبة النسبة عند أهل الملك ، بما هم عليه من البعد عن نسبتها ، وامتهن حملتها بما يرون أنهم بعداء عنهم مشتغلون بما لا يغنى ولا يجدى عنهم فى الملك والسياسة كما ذكرناه فى فصل (١) المراتب الدينية .

فهذا الذى قررناه هو السبب فى أن حملة الشريعة أو عامتهم من العجم .

---

(١) فى الفصل الحادى والعشرين من الباب الخامس وعنوانه « فصل فى أن العرب أبعد الناس عن الصنائع » .

(١) يحيل على الفصل الحادى والثلاثين وما بعده من الباب الثالث (انظر صفحات ٧٣٤ - ٨٢٢)

وأما العلوم العقلية أيضًا فلم تظهر فى الملة إلا بعد أن تميز حملة العلم ومؤلفوه واستقر العلم كله صناعة فاختصت بالعجم وتركتها العرب ، وانصرفوا عن انتحالها ، فلم يحملها إلا المعربون من العجم شأن الصنائع كما قلناه أولا .

فلم يزل ذلك فى الأمصار مادامت الحضارة فى العجم وبلادهم من العراق وخراسان وما وراء النهر . فلما خربت تلك الأمصار وذهبت منها الحضارة التى هى سر الله فى حصول العلم والصنائع ذهب العلم من العجم جملة لما شملهم من البداوة ، واختص العلم بالأمصار الموفورة الحضارة . ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر فهى أم العالم وإيوان الإسلام وينبوع العلم والصنائع . وبقى بعض الحضارة فيما وراء النهر لما هناك من الحضارة بالدولة التى فيها ، فلهم بذلك حصة من العلوم والصنائع لا تنكر . وقد دلنا على ذلك كلام بعض علمائهم فى تآليف وصلت إلينا من هذه البلاد ، وهو سعد الدين التفتازانى . وأما غيره من العجم فلم نرلهم من بعد الإمام ابن الخطيب ونصير الدين الطوسى كلامًا يعول على نهايته فى الإصابة . فاعتبر ذلك وتأمله تر عجبًا فى أحوال الخليقة . والله يخلق ما يشاء ، لا إله إلا هو وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، والحمد لله .

٤٥ – فصل فى أن العجمة إذا سبقت إلى اللسان قصرت بصاحبها فى تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربى (١)

[والسرّ فى ذلك أن مباحث العلوم كلها إنما هى فى المعانى الذهنية والخيالية : من بين العلوم الشرعية التى هى أكثر مباحثها فى الألفاظ، وموادها من الأحكام المتلقاة من الكتاب والسنة ولغاتها المؤيدة لها وهى كلها فى الخيال ؛ وبين العلوم العقلية وهى فى الذهن . واللغات إنما هى ترجمان عما فى الضمائر من تلك المعانى يؤديها بعض إلى بعض بالمشافهة فى المناظرة والتعليم وممارسة البحث فى العلوم لتحصيل ملكتها بطول المران على ذلك ؛ والألفاظ واللغات وسائط وحجب بين الضمائر ، وروابط وختام على المعانى . ولابد فى اقتناص تلك المعانى من ألفاظها من معرفة دلالتها اللغوية عليها وجودة الملكة للناظر فيها . وإلا فيعتاص(٢) عليه إقتناصها ، زيادة على ما يكون فى مباحثها الذهنية من الاعتياص . وإذا كانت ملكته فى تلك الدلالات راسخة بحيث تتبادر المعانى إلى ذهنه من تلك الألفاظ عند استعمالها شأن البديهى والجبلى زال ذلك الحجاب بالجملة بين المعانى والفهم ، أو خف ولم يبق إلا معاناة ما فى المعانى من المباحث فقط . هذا كله إذا كان التعليم تلقينا وبالخطاب والعبارة . وأما إن احتاج المتعلم إلى الدراسة والتقييد بالكتاب ومشافهة الرسوم الخطية من الدواوين

---

(١) أثبت هذا الفصل الدكتور على عبد الواحد وافى نقلا عن النسخة الخطية التى يسميها التيمورية ، وهو ساقط من جميع النسخ المتداولة .

بمسائل العلوم ، كان هنالك حجاب آخر بين الخط، ورسومه فى الكتاب وبين الألفاظ المقولة فى الخيال ؛ لأن رسوم الكتابة لها دلالة خاصة على الألفاظ المقولة ، وما لم تعرف تلك الدلالة تعذرت معرفة العبارة . وإن عرفت بملكة قاصرة كانت معرفتها أيضًا قاصرة ؛ ويزداد على الناظر والمتعلم بذلك حجاب آخر بينه وبين مطلوبه من تحصيل ملكات العلوم أعوص من الحجاب الأول . وإذا كانت ملكته فى الدلالة اللفظية والخطية مستحكمة ارتفعت الحجب بينه وبين المعانى ، وصار إنما يعانى فهم مباحثها فقط . هذا شأن المعانى مع الألفاظ والخط بالنسبة إلى كل لغة . والمتعلمون لذلك فى الصغر أشد استحكامًا لملكاتهم .

ثم إن الملة الإسلامية ، لما اتسع ملكها ، واندرجت الأمم فى طيها ، ودرست علوم الأولين بنبوتها وكتابها ، وكانت أمية النزعة والشعار ، فأخذها الملك والعزة وسخرية الأمم لها بالحضارة والتهذيب (١) ، وصيروا علومهم الشرعية صناعة بعد أن كانت نقلا . فحدثت فيهم الملكات ، وكثرت الدواوين والتواليف ، وتشوقوا إلى علوم الأمم فنقلوها بالترجمة إلى علومهم ، وأفرغوها فى قالب أنظارهم وجردوها من تلك اللغات الأعجمية إلى لسانهم ، وأربوا فيها على مداركهم ؛ وبقيت تلك الدفاتر التى بلغتهم الأعجمية نسيًا منسيًا وطللاً مهجورًا وهباء منثورًا ؛ وأصبحت العلوم كلها بلغة العرب ودواوينها المسطرة بخطهم . واحتاج القائمون بالعلوم إلى معرفة الدلالات اللفظية والخطية فى لسانهم دون ما سواه من الألسن ، لدروسها وذهاب العناية بها .

وقد تقدم لنا أن اللغة ملكة فى اللسان (١) . وكذا الخط، صناعة ملكتها فى اليد (٢) . فإذا تقدمت فى اللسان ملكة العجمة صار مقصرًا فى اللغة العربية ؛ لما قدمناه من أن الملكة إذا تقدمت فى صناعة بمحل فقل أن يجيد صاحبها ملكة فى صناعة أخرى (٣) وهو ظاهر . وإذا كان مقصرًا فى اللغة العربية ودلالاتها اللفظية والخطية اعتاص عليه فهم المعانى منها ، كما مرّ ؛ إلا أن تكون ملكة العجمة السابقة لم تستحكم حين انتقل منها إلى العربية ، كأصاغر أبناء العجم الذين يربون مع العرب قبل أن تستحكم عجمتهم ؛ فتكون اللغة العربية كأنها السابقة لهم ، ولا يكون عندهم تقصير فى فهم المعانى من العربية . وكذا أيضًا شأن من سبق له تعلم الخط، الأعجمى قبل العربى . ولهذا نجد الكثير من علماء الأعاجم فى دروسهم ومجالس تعليمهم يعدلون عن نقل التفاسير من الكتب إلى قراءتها ظاهرًا ، يخففون بذلك عن أنفسهم مثونة بعض الحجب ، ليقرب

---

(١) أى فأخذها بالحضارة والتهذيب ملكها وعزتها وتسخيرها للأمم ، أى استيلاؤها على الأمم وتسخيرها لهذه الأمم . (د . واف) .

(١) لم يتقدم هذا وإنما سيأتى الكلام عليه فى الفصل ٤٧ من هذا الباب وعنوانه « فصل فى أن اللغة ملكة صناعية » . ولعل هذا الفصل كان متقدماً على الفصل الذى نحن بصدده ثم أخره عنه ابن خلدون بعد ذلك بدون أن يغير هذه العبارة . ولذلك أشباه ونظائر كثيرة فى المقدمة ، (د . واف)

(٢) تقدم هذا فى الفصل الثلاثين من الباب الخامس وعنوانه « فصل فى أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية » .

(٣) انظر الفصل الثانى والعشرين من الباب الخامس وعنوانه « فصل فى أن من حصلت له ملكة فى صناعة فقل أن يجيد بعدها ملكة أخرى » .

أعليهم تناول المعانى . وصاحب الملكة فى العبارة والخط، مستغن عن ذلك لتمام ملكته وأنه صارله فهم الأقوال من الخط والمعانى من الأقوال كالجبلة الراسخة ، وارتفعت الحجب بينه وبين المعانى . وربما يكون الدأب على التعليم والمران على اللغة وممارسة الخط، يفضيان بصاحبهما إلى تمكن الملكة كما نجده فى الكثير من علماء الأعاجم ؛ إلا أنه فى النادر . وإذا قرن بنظيره من علماء العرب وأهل طبقته منهم كان باع العربى أطول وملكته أقوى ، لما عند المستعجم من الفنون بالعجمة السابقة التى تؤثر القصور بالضرورة .

ولا يعترض على ذلك مما تقدم بأن علماء الإسلام أكثرهم العجم . لأن المراد بالعجم هنالك عجم النسب لتداول الحضارة فيهم التى قررنا أنها سبب لانتحال الصنائع والملكات ومن جملتها العلوم (١) . وأما عجمة اللغة فليست من ذلك ، وهى المرادة هنا .

ولا يعترض على ذلك أيضًا بما كان لليونانيين من رسوخ القدم ، فإنهم إنما تعلموها من لغتهم السابقة لهم وخطهم المتعارف بينهم .

والأعجمى المتعلم للعلم فى الملة الإسلامية يأخذ العلم بغير لسانه الذى سبق إليه ومن غير خطه الذى يعرف ملكته . فلهذا يكون له ذلك حجابًا كما قلناه . وهذا عام فى جميع أصناف أهل اللسان الأعجمى من الفرس والروم والترك والبربر والفرنج وسائر من ليس من أهل اللسان العربى . [وفى ذلك آيات للمتوسمين (١)] .

٤٦ – فصل فى علوم اللسان العربى

أركانه أربعة : وهى اللغة والنحو والبيان والأدب . ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة ؛ إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة ، وهى بلغة العرب ، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب ، وشرح مشكلاتها من لغاتهم . فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة . وتتفاوت فى التأكيد بتفاوت مراتبها فى التوفية بمقصود الكلام حسبما يتبين فى الكلام عليها فنًا فنًا . والذى يتحصل أن الأهم المقدم منها هو النحو ، إذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر ، ولولاه لجهل أصل الإفادة . وكان من حق علم اللغة التقدم ، لولا أن أكثر الأوضاع باقية فى موضوعاتها لم تتغير بخلاف الإعراب الدال على الإسناد والمسند والمسند إليه فإنه تغير بالجملة ولم يبق له أثر ، فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة ، إذ فى جهله الإخلال بالتفاهم جملة ، وليست كذلك اللغة . والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

(علم النحو) اعلم أن اللغة فى المتعارف هى عبارة المتكلم عن مقصوده ، وتلك العبارة فعل لسانى [ناشئة عن القصد لإفادة الكلام] . فلا بد أن تصير ملكة متقررة فى العضو الفاعل لها ، وهو

---

(١) انظر الفصل السابع عشر من الباب الخامس : « فصل فى أن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضرى وكثرته » .

(١) اقتباس من قوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات للمتوسمين » (آية ٧٥ من سورة الحجر ، والمعنى المتفكرين المتفرسين الذين يعرفون حقيقة الشىء بسمته . (د . وافى) .

اللسان . وهو فى كل أمة بحسب اصطلاحاتهم . وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعانى ، مثل الحركات التى تعين الفاعل من المفعول من المجرور أعنى المضاف ، ومثل الحروف التى تفضى بالأفعال إلى الذوات من غير تكلف ألفاظ. أخرى . وليس يوجد ذلك إلا فى لغة العرب . وأما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لابد له من ألفاظ. تخصه بالدلالة [1] ولذلك نجد كلام العجم فى مخاطباتهم أطول مما نقدره بكلام العرب . وهذا هو معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « أوتيت جوامع الكلم واختصر لى الكلام اختصارا [2] » . فصار للحروف فى لغتهم والحركات والهيئات أى الأوضاع اعتبار فى الدلالة على المقصود ، غير متكلفين فيه لصناعة يستفيدون ذلك منها ، إنما هى ملكة فى ألسنتهم يأخذها الآخر عن الأول [3] كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا .

فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذى كان فى أيدى الأمم والدول وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التى للمتعربين [من العجم] . والسمع أبو الملكات اللسانية. ففسدت بما ألقى إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع . وخشى أهل الحلوم [1] منهم أن تفسد تلك الملكة رأسا ويطول العهد فينغلق القرآن والحديث على الفهوم ، فاستنبطوا من مجارى كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد ، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه [منها] بالأشباه ، مثل أن الفاعل مرفوع ، والمفعول منصوب ،والمبتدأ مرفوع . ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات ، فاصطلحوا على تسميته إعرابا ، وتسمية الموجب لذلك التغير عاملا ، وأمثال ذلك . وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو . وأول من كتب فيها أبو الأسود الدؤلى من بنى كنانة ، ويقال بإشارة على رضى الله عنه ، لأنه رأى تغير الملكة فأشار عليه بحفظها ، ففزع إلى ضبطها بالقوانين الحاصرة [2] المستقرأة .

ثم كتب فيها الناس من بعده إلى أن انتهت إلى الخليل بن أحمد الفراهيدى أيام الرشيد أحوج ما كان الناس إليها لذهاب تلك الملكة من العرب . فهذب الصناعة وكمل أبوابها . وأخذها عنه سيبويه فكمل تفاريعها ، واستكثر من أدلتها وشواهدها ، ووضع فيها « كتابه » [3] المشهور الذى صار إماما

---

(١) انظر توضيح ذلك وتحريره وتصحيحه كتاب : علم اللغة ص١٩٧ - ٢٠٧ ، كتاب فقه اللغة ٢٠٤ - ٢١٩ للدكتور على عبد الواحد وافى (الطبعة السادسة) .

(٢) يرى الدكتور وافى أن هذا لا يصح أن يكون دليلا على ماقرره بصدد اللغة العربية ، لأن الحديث خاص بكلام الرسول عليه السلام وما أوتيه من بلاغة فى القول وقدرة على الإيجاز والتعبير عن المعانى الكثيرة بالقليل من الألفاظ .

(٣) يعنى أهل الأحلام والعقول .

(١) الأناة والعقل ، ومنه قوله تعالى : « أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ؟ » (آية ٣٢ من والأولى أصح .

(٢) الحاصرة بالصاد أى التى تحصر وتحدد .

(٣) يسمى مؤلف سيبويه « الكتاب » ولذلك وضعنا كلمة « كتابه » بين علامتى تنصيص للإشارة إلى أننا بصدد علم على مؤلف خاص (د . وافى) .

لكل ما كتب فيها من بعده . ثم وضع أبو على الفارسى وأبو القاسم الزجاج كتبًا مختصرة للمتعلقين يحذون فيها حذو الإمام فى كتابه .

ثم طال الكلام فى هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها فى الكوفة والبصرة المصرين القديمين للعرب ، وكثرت الأدلة والحجاج بينهم ، وتباينت الطرق فى التعليم ، وكثر الاختلاف فى إعراب كثير من آى القرآن باختلافهم فى تلك القواعد ، وطال ذلك على المتعلمين . وجاء المتأخرون بمذاهبهم فى الاختصار فاختصروا كثيرًا من ذلك الطول مع استيعابهم لجميع ما نقل ، كما فعله ابن مالك فى كتاب التسهيل وأمثاله ، أو اقتصارهم على المبادئ للمتعلمين كما فعله الزمخشرى فى المفصل وابن الحاجب فى المقدمة له . وربما نظموا ذلك نظمًا مثل ابن مالك فى الأرجوزتيين الكبرى والصغرى [1] ، وابن معطى فى الأرجوزة الألفية [2] وبالجملة فالتآليف فى هذا الفن أكثر من أن تحصى أو يحاط بها ، وطرق التعليم فيها مختلفة : فطريقة المتقدمين مغايرة طريقة المتأخرين ؛ والكوفيون والبصريون والبغداديون والأندلسيون مختلفة طرقهم كذلك .

وقد كادت هذه الصناعة أن تؤذن بالذهاب لما رأينا من النقص فى سائر العلوم والصنائع بتناقص العمران . ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر [1] منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها استوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة ، وتكلم على الحروف والمفردات والجمل ، وحذف ما فى الصناعة من المتكرر فى أكثر أبوابها ، وسماه « بالمغنى » فى الإعراب ، وأشار إلى نكت إعراب القرآن كلها ، وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظمت سائرها ، فوقفنا منه على علم جم ، يشهد بعلو قدرة فى هذه الصناعة ووفور بضاعته منها . وكأنه ينحو فى طريقته منحاة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جنى واتبعوا مصطلح تعليمه ، فأتى من ذلك بشىء عجيب دال على قوة ملكته واطلاعه . والله « يزيد فى الخلق ما يشاء » [2]

(علم اللغة) . هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية . وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان العربى فى الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب واستنبطت القوانين لحفظها كما قلناه ، ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم ، حتى تأدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ ، فاستعمل كثير من كلام العرب فى غير موضوعه عندهم ميلا مع هجنة المتعربين فى اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية ، فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشيه الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث ، فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين .

---

(١) تسمى أرجوزته الكبرى « الكافية الشافية » ؛ وأما أرجوزته الصغرى فهى « الألفية » المشهورة ، وهى ملخص « الكافية » . (د . واف) .

(٢) كان الأفضل أن يقدم ابن معطى ؛ لأن ألفيته سابقة على ألفية ابن مالك . وإلى هذا يشير ابن مالك نفسه فى فاتحة ألفيته إذ يقول :

وتقتضى رضا بغير سخط فائقة (ألفية) ابن معطى
وهو بسبق حائز تفضيلا مستوجب ثنائى الجميلا

(د . واف)

(١) يعنى كتابه : مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب . وقد عرض ابن هشام فيه لموضوعات يمت كثير منها بصلة إلى « بحوث فقه اللغة » . (د . واف) . (٢) من الآية الأولى من سورة فاطر .

وكان سابق الحلبة فى ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدى ، ألف فيها كتاب «العين» فحصر فيه مركبات حروف المعجم كلها من الثنائى والثلاثى والرباعى والخماسى ، وهو غاية ما ينتهى إليه التركيب فى اللسان العربى . وتأتى له حصر ذلك بوجوه عددية حاصرة . وذلك أن جملة الكلمات الثنائية تخرج من جميع الأعداد على التوالى من واحد إلى سبعة وعشرين ، وهو دون نهاية حروف المعجم بواحد ، لأن الحرف الواحد منها يؤخذ مع كل واحد من السبعة والعشرين ، فتكون سبعة وعشرين كلمة ثنائية . ثم يؤخذ الثانى مع الستة والعشرين كذلك . ثم الثالث والرابع ثم يؤخذ السابع والعشرون مع الثامن والعشرين فيكون واحدا ، فتكون كلها أعدادا على توالى العدد من واحد إلى سبعة وعشرين . فتجمع كما هى بالعمل المعروف عند أهل الحساب (وهو أن يجمع الأول مع الأخير ويضرب المجموع فى نصف العدة) ، ثم تضاعف لأجل قلب الثنائى ، لأن التقديم والتأخير بين الحروف معتبر فى التركيب ، فيكون الخارج جملة الثنائيات . وتخرج الثلاثيات من ضرب عدد الثنائيات فيما يجمع من واحد إلى ستة وعشرين ، (على توالى العدد) لأن كل ثنائية تزيد عليها حرفا فتكون ثلاثية ، فتكون الثنائية بمنزلة الحرف الواحد مع كل واحد من الحروف الباقية وهى ستة وعشرون حرفا بعد الثنائية فتجمع من واحد إلى ستة وعشرين على توالى العدد ، ويضرب فيه جملة الثنائيات ثم تضرب الخارج فى ستة جملة مقلوبات الكلمة الثلاثية ، فيخرج مجموع تركيبها من حروف الثلاثية ، فيخرج مجموع تركيبها من حروف المعجم . وكذلك فى الرباعى والخماسى. فانحصرت له التراكيب بهذا الوجه ، ورتب أبوابه على حروف المعجم بالترتيب المتعارف . واعتمد فيه ترتيب المخارج فبدأ بحروف الحلق ، ثم ما بعده من حروف الحنك ، ثم الأضراس ، ثم الشفة ، وجعل حروف العلة آخرا وهى الحروف الهوائية . وبدأ من حروف الحلق بالعين لأنه الأقصى منها ، فلذلك سمى كتابه بالعين ، لأن المتقدمين كانوا يذهبون فى تسمية دواوينهم إلى مثل هذا وهو تسميته بأول ما يقع فيه من الكلمات والألفاظ . ثم بين المهمل منها من المستعمل . وكان المهمل فى الرباعى والخماسى أكثر لقلة استعمال العرب له لثقله ، ولحق به الثنائى لقلة دورانه ، وكان الاستعمال فى الثلاثى أغلب فكانت أوضاعه أكثر لدورانه . وضمن الخليل ذلك كله كتاب العين واستوعبه أحسن استيعاب وأوعاه .

وجاء أبو بكر الزبيدى ـ وكتب لهشام المؤيد بالأندلس فى المائة الرابعة ـ فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب ، وحذف منه المهمل كله وكثيرا من شواهد المستعمل ، ولخصه للحفظ أحسن تلخيص .

وألف الجوهرى من المشارقة كتاب «الصحاح» على الترتيب المتعارف لحروف المعجم فجعل البداءة منها بالهمزة وجعل الترجمة بالحروف على الحرف

الأخير من الكلمة لأضطرار الناس فى الأكثر إلى أواخر الكلم [فيجعل ذلك بابا ، ثم يأتى بالحروف أول الكلمة على ترتيب حروف المعجم أيضا ويترجم عليها بالفصول إلى آخرها] ، وحصر اللغة اقتداء بحصر الخليل

ثم ألف فيها من الأندلسيين ابن سيده من أهل دانية فى دولة على بن مجاهد كتاب «المحكم» على ذلك المنحى من الاستيعاب ؛ وعلى نحو ترتيب كتاب «العين». وزاد فيه التعرض لاشتقاقات الكلم وتصاريفها فجاء من أحسن الدواوين . ولخصه محمد بن أبى الحسين صاحب المستنصر من ملوك الدولة الحفصية بتونس ، وقلب ترتيبه إلى ترتيب كتاب الصحاح فى اعتبار أواخر الكلم وبناء التراجم عليها ، فكانا توأمى رحم وسليلى أبوة [ولكراع من أئمة اللغة كتاب «المنجد» ، ولابن دريد كتاب «الجمهرة» ، ولابن الأنبارى كتاب «الزاهر»] .

هذه أصول كتب اللغة فيما علمناه . وهناك مختصرات أخرى مختصة بصنف من الكلم ومستوعبة لبعض الأبواب أو لكلها . إلا أن وجه الحصر فيها خفى ، ووجه الحصر فى تلك جلى من قبل التراكيب كما رأيت .

ومن الكتب الموضوعة أيضا فى اللغة كتاب الزمخشرى فى المجاز [وسماه أساس البلاغة] بين فيه كل ما تجوزت به العرب من الألفاظ ، وما تجوزت به من المدلولات ، وهو كتاب شريف الإفادة .

ثم لما كانت العرب تضع الشىء على العموم ثم تستعمل فى الأمور الخاصة ألفاظا أخرى خاصة بها ، فرق ذلك عندنا بين الوضع والاستعمال ، واحتاج إلى فقه فى اللغة عزيز المأخذ ؛ كما وضع الأبيض بالوضع العام لكل ما فيه بياض ، ثم اختص ما فيه بياض من الخيل بالأشهب ، ومن الإنسان بالأزهر ، ومن الغنم بالأملح ، حتى صار استعمال الأبيض فى هذه كلها لحنا وخروجا عن لسان العرب واختص بالتأليف فى هذا المنحى الثعالبى ، وأفرده فى كتاب له سماه «فقه اللغة» وهو من آكد ما يأخذ به اللغوى نفسه أن يحرف استعمال العرب عن مواضعه . فليس معرفة الوضع الأول بكاف فى التركيب حتى يشهد له استعمال العرب . وأكثر ما يحتاج إلى ذلك الأديب فى فنى نظمه ونثره حذرا من أن يكثر لحنه فى الموضوعات اللغوية فى مفرداتها وتراكيبها . وهو أشد من اللحن فى الإعراب وأفحش .

وكذلك ألف بعض المتأخرين فى الألفاظ المشتركة وتكفل بحصرها وإن لم تبلغ إلى النهاية فى ذلك فهو مستوعب للأكثر . وأما المختصرات الموجودة فى هذا الفن المخصوصة بالتداول من اللغة الكثير الاستعمال تسهيلا لحفظها على الطالب فكثيرة مثل «الألفاظ» لابن السكيت «والفصيح» لثعلب وغيرهما . وبعضها أقل لغة من بعض لاختلاف نظرهم فى الأهم على الطالب للحفظ والله الخلاق العليم ؛ لارب سواه .

[فصل واعلم أن النقل الذى تثبت به اللغة **إنما هو النقل عن العرب** أنهم استعملوا هذه الألفاظ **لهذه المعانى .** لا تقل إنهم وضعوها لأنه متعذر **وبعيد ، ولم يعرف** لأحد منهم[١] وكذلك لاتثبت **اللغات بقياس** ما لم نعرف استعماله على ما عرف **استعماله** (بجامع يشهد باعتباره فى الأول شأن **القياسات الفقهية** ، فيثبت الخمر للنبيذ باستعماله **فى ماء العنب** باعتبار الإسكار الجامع . لأن شهادة **الاعتبار فى باب القياس** إنما مدركها الشرع الدال **على صحة القياس** من أصله . وليس لنا مثله فى **اللغة إلا بالعقل** ، وهو محكم[٢] . وعلى هذا **جمهور الأئمة .** وإن مال إلى القياس فيها القاضى **وابن سريج وغيرهم** ؛ لكن القول بنفيه أرجح – **ولا تتوهمن أن إثبات** اللغة فى باب الحدود اللفظية ؛ **لأن الحد** راجع إلى المعانى ببيان أن مدلول اللفظ **المجهول الخفى** هو مدلول الواضح المشهور . **واللغة إثبات** أن اللفظ كذا لمعنى كذا . والفرق **فى غاية الظهور] .**

(علم البيان) ، هذا العلم حادث فى الملة **بعد علم العربية** واللغة . وهو من العلوم اللسانية **لأنه متعلق بالألفاظ** وما تفيده ويقصد بها الدلالة **عليه من المعانى .** وذلك أن الأمور التى يقصد المتكلم **بها إفادة السامع** مع كلامه هى : إما تصور مفردات تسند ويسند إليها ويفضى بعضها إلى بعض ، والدالة على هذه هى المفردات من الأسماء والأفعال والحروف ؛ وإما تمييز المسندات من المسند إليها والأزمنة ، ويدل عليها بتغير الحركات وهو الإعراب وأبنية الكلمات ، وهذه كلها هى صناعة النحو .

ويبقى من الأمور المكتنفة بالواقعات المحتاجة للدلالة أحوال المتخاطبين أو الفاعلين وما يقتضيه حال الفعل . وهو محتاج إلى الدلالة عليه لأنه من تمام الإفادة ، وإذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الإفادة فى كلامه ، وإذا لم يشتمل على شىء منها فليس من جنس كلام العرب ، فإن كلامهم بعد كمال الإعراب والإبانة . ألا ترى أن قولهم زيد جاءنى مغاير لقولهم جاءنى زيد من قبل أن المتقدم منهما هو الأهم عند المتكلم . فمن قال جاءنى زيد أفاد أن اهتمامه بالمجىء قبل الشخص المسند إليه ، ومن قال زيد جاءنى أفاد أن اهتمامه بالشخص قبل المجىء المسند . وكذا التعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام من موصول أو مبهم أو معرفة . وكذا تأكيد الإسناد على الجملة كقولهم زيد قائم وإن زيدا قائم وإن زيداً لقائم متغايرة كلها فى الدلالة ؛ وإن استوت من طريق الإعراب ؛ فإن الأول العارى عن التأكيد إنما يفيد الخالى الذهن ، والثانى المؤكد بإنَّ يفيد المتردد ، والثالث يفيد المنكر ، فهى مختلفة . وكذلك تقول جاءنى الرجل ، ثم تقول مكانه بعينه جاءنى رجل إذا قصدت بذلك التنكير تعظيمه وأنه رجل

---

(١) ومن هذا يتبين أن ابن خلدون لايرى مايراه بعضهم من أن الفضل فى نشأة اللغة يرجع إلى الوضع . (د . وافى) .

(٢) هكذا فى الأصل . والمعنى المقصود : ليس لنا مثله إلا بالعقل لامجال له فى هذه الأمور . (د . وافى) .

لا يعادله أحد من الرجال . ثم الجملة الإسنادية تكون خبرية وهي التي لها خارج تطابقه أولا ، وإنشائية وهي التي لا خارج لها كالطلب وأنواعه ثم قد يتعين ترك العاطف بين الجملتين إذا كان للثانية محل من الإعراب فتنزل بذلك منزلة التابع المفرد نعتا وتوكيدا وبدلا بلا عطف ، أو يتعين العطف إذا لم يكن للثانية محل من الإعراب ثم يقتضي المحل الإطناب والإيجاز فيورد الكلام عليهما .

ثم قد يدل باللفظ ولا يراد منطوقه ويراد لازمه إن كان مفرداً كما تقول زيد أسد ، فلا تريد حقيقة الأسد لمنطوقه وإنما تريد شجاعته اللازمة وتسندها إلى زيد ، وتسمى هذه استعارة . وقد تريد باللفظ المركب الدلالة على ملزومه ، كما تقول زيد كثير الرماد وتريد به مالزم ذلك عنه من الجود وقرى الضيف ، لأن كثرة الرمادناشئة عنهما ، فهي دالة عليهما .

وهذه كلها دلالة زائدة على دلالة الألفاظ من المفرد والمركب ، وإنما هي هيآت وأحوال لواقعات جعلت للدلالة عليها أحوال وهيآت في الألفاظ كل بحسب مايقتضيه مقامه . فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث عن هذه الدلالات التي للهيئات وجعل على ثلاثة أصناف : الصنف الأول يبحث فيه عن هذه الهيآت والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال ، ويسمى علم البلاغة . والصنف الثاني يبحث فيه عن اللازم اللفظي وملزومه وهي الاستعارة والكناية كما قلناه ، ويسمى علم البيان . وألحقوا بهما صنفاً آخر وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق إما بسجع يفصله ، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه ، أو ترصيع يقطع أوزانه ، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما ، وأمثال ذلك ، ويسمى عندهم علم البديع .

وأطلق على الأصناف الثلاثة عند المحدثين إسم « البيان » وهو اسم الصنف الثاني ، لأن الأقدمين أول ماتكلموا فيه . ثم تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد أخرى ، وكتب فيها جعفر بن يحيى والجاحظ وقدامة وأمثالهم إملاءات غير وافية فيها . ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئاً فشيئاً إلى أن « محض السكاكي » زبدته ، وهذب مسائله ، ورتب أبوابه على نحو ماذكرناه آنفاً من الترتيب ، وألف كتابه المسمى « بالمفتاح » في النحو والتصريف والبيان ، فجعل هذا الفن من بعض أجزائه . وأخذ المتأخرون من كتابه ، ولخصوا منه أمهات هي المتداولة لهذا العهد كما فعله السكاكي في كتاب « التبيان » ، وابن مالك في كتاب « المصباح » ، وجلال الدين القزويني في كتاب « الإيضاح » و « التلخيص » وهو أصغر حجماً من الإيضاح والعناية به لهذا العهد عند أهل المشرق في الشرح والتعليم منه أكثر من غيره . وبالجملة فالمشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة . وسببه والله أعلم أنه كمالي في العلوم اللسانية ، والصنائع الكمالية توجد في العمران . والمشرق أوفر عمراناً من المغرب كما ذكرناه . أو نقول لعناية العجم

وهم معظم أهل المشرق ؛ كتفسير الزمخشري وهو كله مبني على هذا الفن وهو أصله . وإنما اختص بأهل المغرب من أصنافه علم البديع خاصة وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية ، وفرعوا له ألقاباً وعددوا أبواباً ونوعوا أنواعاً . وزعموا أنهم أحصوها من لسان العرب . وإنما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الألفاظ ، وأن علم البديع سهل المأخذ . وصعبت عليهم مآخذ البلاغة والبيان لدقة أنظارهما وغموض معانيهما فتجافوا عنهما . وممن ألف في البديع من أهل إفريقية ابن رشيق ، وكتاب « العمدة » له مشهور . وجرى كثير من أهل إفريقية والأندلس على منحاه .

واعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن ؛ لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة وهي أعلى مراتب الكلام ، مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها ، وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه ، وإنما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته ، فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه . فلهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه أعلى مقاماً في ذلك ، لأنهم فرسان الكلام وجهابذته ، والذوق عندهم موجود بأوفر مايكون وأصحه . وأحوج مايكون إلى هذا الفن المفسرون . وأكثر تفاسير المتقدمين غفل عنه حتى ظهر جار الله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير[1] وتتبع آي القرآن بأحكام هذا الفن بما يبدي البعض من إعجازه ، فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير ، لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة ؛ ولأجل هذا يتحاماه كثير من أهل السنة مع وفور بضاعته من البلاغة . فمن أحكم عقائد السنة وشارك في هذا الفن بعض المشاركة حتى يقتدر على الرد عليه من جنس كلامه ، أو يعلم أنه بدعة فيعرض عنها ولاتضر معتقده ، فإنه يتعين عليه النظر في هذا الكتاب للظفر بشيء من الإعجاز مع السلامة من البدع والأهواء . والله الهادي من يشاء إلى سواء السبيل .

(علم الأدب) هذا العلم لاموضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها ، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم . فيجمعون لذلك من كلام العرب ماعساه تحصل به الملكة : من شعر عالي الطبقة ؛ وسجع متساو في الإجادة ؛ ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة يستقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية ؛ مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به مايقع في أشعارهم منها ؛ وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة . والمقصود بذلك كله أن لايخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذا تصفحه ، لأنه لاتحصل الملكة من حفظه إلا

(١) هو كتاب « الكشاف » .

بعد فهمه ، فيحتاج إلى تقديم جميع مايتوقف عليه فهمه .

ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا : الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط ، وهي القرآن والحديث ، إذ لامدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب ، إلا ماذهب إليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية . فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائماً على فهمها . وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي : أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي . وماسوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها . وكتب المحدثين في ذلك كثيرة .

وكان الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر ، إذ الغناء إنما هو تلحينه. وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه . فلم يكن انتحاله قادحا في العدالة والمروءة . وقد ألف القاضي أبو الفرج الأصبهاني ، وهو ماهو ، كتابه في «الأغاني» جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم ، وجعل مبناه على الغناء في المائة صوت التي اختارها المغنون للرشيد ، فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه . ولعمري إنه ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال ، ولايعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه ، وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها ، وأنى له بها ؟

ونحن الآن نرجع بالتحقيق على الإجمال فيما تكلمنا عليه من علوم اللسان والله الهادي للصواب .

٤٧ – فصل في أن اللغة ملكة صناعية

إعلم أن اللغات كلها شبيهة بالصناعة إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني ، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها . وليس ذلك بالنظر إلى المفردات وإنما هو بالنظر إلى التراكيب . فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال ، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع ، وهذا هو معنى البلاغة . والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال ؛ لأن الفعل يقع أولا وتعود منه للذات صفة ، ثم تكرر فتكون حالا ، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة .

فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات

فى معانيها ، فيلقنها أولا ، ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك ، ثم لايزال سماعهم لذلك يتجدد فى كل لحظة ومن كل متكلم ، واستعماله يتكرر ، إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ، ويكون كأحدهم . هكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل وتعلمها العجم والأطفال وهذا هو معنى ما تقوله العامة من أن اللغة للعرب بالطبع أى بالملكة الأولى التى أخذت عنهم ، ولم يأخذوها عن غيرهم .

ثم فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الأعاجم. وسبب فسادها أن الناشىء من الجيل ، صار يسمع فى العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التى كانت للعرب ، فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم ، ويسمع كيفيات العرب أيضا فاختلط عليه الأمر وأخذ من هذه وهذه ، فاستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الأولى . وهذا معنى فساد اللسان العربى .

ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبنى كنانة وغطفان وبنى أسد وبنى تميم . وأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم . وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم فى الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

٤٨ – فصل فى أن لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير (١)

وذلك أنا نجدها فى بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضرى ، ولم يفقد منها إلا دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول ، فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد . إلا أن البيان والبلاغة فى اللسان المضرى أكثر وأعرف . لأن الألفاظ بأعيانها دالة على المعانى بأعيانها ، ويبقى ماتقتضيه الأحوال ويسمى بساط الحال محتاجًا إلى ما يدل عليه . وكل معنى لابد وأن تكتنفه أحوال تخصه ، فيجب أن تعتبر تلك الأحوال فى تأدية المقصود لأنها صفاته . وتلك الأحوال فى جميع الألسن أكثر ما يدل عليها بألفاظ تخصها بالوضع . وأما فى اللسان العربى فإنما يدل عليها بأحوال وكيفيات فى تراكيب الألفاظ وتأليفها من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة إعراب ، وقد يُدل عليها بالحروف غير المستقلة . ولذلك تفاوتت طبقات الكلام فى اللسان العربى بحسب تفاوت الدلالة على تلك الكيفيات كما قدمناه . فكان الكلام العربى لذلك أوجز وأقل ألفاظًا وعبارة من جميع الألسن . وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم « أوتيت جوامع الكلم واختصرلى الكلام اختصارًا »

---

(١) يرى د . وافى أنه كان الأولى أن يعنون هذا الفصل « فصل فى الرد على زعم أن لغة العرب . . . إلخ » ؛ لأن موضوع هذا الفصل ليس بيانا لهذه الدعوى وتأييداً لها ، بل هو رد عليها .

واعتبر ذلك بما يحكى عن عيسى بن عمر وقد قال له بعض النحاة إنى أجد فى كلام العرب تكرارًا فى قولهم زيد قائم وإن زيدًا قائم وإن زيدًا لقائم والمعنى واحد ؛ فقال له إن معانيها مختلفة : فالأول لإفادة الخالى الذهن من قيام زيد ؛ والثانى لمن سمعه فتردد فيه ؛ والثالث لمن عرف بالإصرار على إنكاره ؛ فاختلفت الدلالة باختلاف الأحوال .

وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد . ولا تلتفتن فى ذلك إلى خَرْفَشَة(١) النحاة أهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق ، حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت ، وأن اللسان العربى فسد ، اعتبارا بما وقع أواخر الكلم من فساد الإعراب الذى يتدارسون قوانينه . وهى مقالة دسها التشيع فى طباعهم ، وألقاها القصور فى أفئدتهم . وإلا فنحن نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تزل فى موضوعاتها الأولى ، والتعبير عن المقاصد والتفاوت فيه بتفاوت الإبانة موجود فى كلامهم لهذا العهد ، وأساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجودة فى مخاطباتهم ، وفهم الخطيب المصقع فى محافلهم ومجامعهم ، والشاعر المفلق على أساليب لغتهم ، والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك . ولم يفقد من أحوال اللسان المدون إلا حركات الإعراب فى أواخر الكلم فقط الذى لزم فى لسان مضر طريقة واحدة ومهيعًا معروفًا وهو الإعراب ، وهو بعض من أحكام اللسان . وإنما وقعت العناية بلسان مضر لما فسد بمخالطتهم الأعاجم حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب ، وصارت ملكته على غير الصور التى كانت أولا فانقلب لغة أخرى . وكان القرآن متنزلا به والحديث النبوى منقولا بلغته وهما أصلا الدين والملة ؛ فخشى تناسيهما وانغلاق الأفهام عنهما بفقدان اللسان الذى تنزلا به ، فاحتيج إلى تدوين أحكامه ووضع مقاييسه واستنباط قوانينه ، وصار علمًا ذا فصول وأبواب ومقدمات ومسائل ، سماه أهله بعلم النحو ، وصناعة العربية ، فأصبح فنا محفوظًا وعلمًا مكتوبًا وسلمًا إلى فهم كتاب الله وسنة رسوله وافيًا. ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربى لهذا العهد(١) واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية فى دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه ، فتكون لها قوانين تخصها ، ولعلها تكون فى أواخره على غير المنهاج الأول فى لغة مضر . فليست اللغات وملكاتها مجانًا . ولقد كان اللسان المضرى مع اللسان الحميرى بهذه المثابة ؛ وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميرى وتصاريف كلماته تشهد بذلك الأنقال الموجودة لدينا ؛ خلافًا لمن يحمله القصور على أنهما لغة واحدة ويلتمس إجراء اللغة الحميرية على مقاييس المضرية وقوانينها ،

(١) « الخرفش بالفتح الخلط » (القاموس) . فالخرفشة التخليط والاضطراب .

(١) أى باللهجات العربية المستخدمة فى التخاطب فى هذا العهد . ومن هذا يظهر أن ابن خلدون يرى أنه من الممكن استخدام هذه اللهجات العامية فى الكتابة والاستعاضة عن حركات الإعراب ، التى تمتاز بها العربية الفصحى ، بما تشتمل عليه أساليب هذه اللهجات من قرائن تدل على وظيفة الكلمة فى الجملة – وهذا مذهب غير سديد (انظر فى الرد عليه صفحات ١٥٠ – ١٥٢ من الطبعة السادسة من كتاب فقه اللغة . (للدكتور على عبد الواحد وافى) .

كما يزعم بعضهم فى اشتقاق القيْل [١] فى اللسان الحميرى أنه من القول وكثير من أشباه هذا ، وليس ذلك بصحيح . ولغة حمير لغة أُخرى مغايرة للغة مضر فى الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها [٢] كما هى لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر . إلا أن العناية بلسان مضر من أجل الشريعة كما قلناه حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء ، وليس عندنا لهذا العهد ما يحملنا على مثل ذلك ويدعونا إليه .

ومما وقع فى لغة هذا الجيل العربى لهذا العهد حيث كانوا من الأَقطار شأْنهم فى النطق بالقاف . فإنهم لا ينطقون بها من مخرج القاف عند أهل الأَمصار كما هو مذكور فى كتب العربية أنه من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأَعلى ، وما ينطقون بها أيضًا من مخرج الكاف ، وإن كان أسفل من موضع القاف وما يليه من الحنك الأَعلى كما هى ، بل يجيئون بها متوسطة بين الكاف والقاف . وهو موجود للجيل أجمع حيث كانوا من غرب أو شرق ، حتى صار ذلك علامة عليهم من بين الأُمم والأَجيال ومختصًا بهم لا يشاركهم فيها غيرهم . حتى إن من يريد التعرب والانتساب إلى الجيل والدخول فيه يحاكيهم فى النطق بها . وعندهم أنه إنما يتميز العربى الصريح من الدخيل فى العروبية والحضرى بالنطق بهذه القاف . ويظهر بذلك أنها لغة مضر بعينها . فإن هذا الجيل الباقين معظمهم ورؤساؤهم شرقًا وغربًا فى ولد منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان من سليم بن منصور ، ومن بنى عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور . وهم لهذا العهد أكثر الأُمم فى المعمور وأغلبهم ، وهم من أعقاب مضر ، وسائر الجيل منهم فى النطق بهذه القاف أسوة . وهذه اللغة لم يبتدعها هذا الجيل بل هى متوارثة فيهم متعاقبة . ويظهر من ذلك أنها لغة مضر الأَولين ولعلها لغة النبى صلى الله عليه وسلم بعينها . وقد ادعى ذلك فقهاء أهل البيت وزعموا أن من قرأ فى أم الكتاب « اهدنا الصراط المستقيم » بغير القاف التى لهذا الجيل فقد لحن وأفسد صلاته . ولم أدر من أين جاء هذا : فإن أهل الأَمصار أيضًا لم يستحدثوها ، وإنما تناقلوها من لدن سلفهم وكان أكثرهم من مضر لما نزلوا الأَمصار من لدن الفتح . وأهل الجيل أيضًا لم يستحدثوها ، إلا أنهم أبعد من مخالطة الأَعاجم من أهل الأَمصار . فهذا يرجح فيما يوجد من اللغة لديهم أنه من لغة سلفهم. هذا مع اتفاق أهل الجيل كلهم شرقًا وغربًا فى النطق بها ، وأنها الخاصية التى يتميز بها العربى من الهجين الحضرى . فتفهم ذلك ، والله الهادى المبين .

---

(١) القيل الملك من ملوك حمير ، أو دون الملك الأعلى (من القاموس) .

(٢) انظر تحرير القول فى الفرق بين اللغة العربية المضرية واللغة اليمنية القديمة قبل تغلب اللغة المضرية عليها وبعد تغلبها عليها وما وقع فيه الباحثون فى هذا الموضوع من خطأ ومنهم الدكتور طه حسين فى كتابه « الشعر الجاهلى » ، انظر هذا كله وما إليه فى صفحات ٧٥–٨٢ من الطبعة السادسة من كتاب « فقه اللغة » . للدكتور وافى .

٤٩ – فصل فى أن لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر

اعلم أن عرف التخاطب فى الأمصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القديمة ولا بلغة أهل الجيل ، بل هى لغة أخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجيل العربى الذى لعهدنا ، وهى عن لغة مضر أبعد . فأما أنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر ، يشهد له ما فيها من التغاير الذى يعد عند صناعة أهل النحو لحنًا . وهى مع ذلك تختلف باختلاف الأمصار فى اصطلاحاتهم . فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشئ للغة أهل المغرب ، وكذا أهل الأندلس معهما وكل منهم متوصل بلغته إلى تأدية مقصوده والإبانة عما فى نفسه . وهذا معنى اللسان واللغة . وفقدان الإعراب ليس بضائر لهم كما قلناه فى لغة العرب لهذا العهد . وأما أنها أبعد عن اللسان الأول من لغة هذا الجيل ، فلأن البعد عن اللسان إنما هو بمخالطة العجمة ، فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الأصلى أبعد ، لأن الملكة إنما تحصل بالتعليم كما قلناه ، وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الأولى التى كانت للعرب ومن الملكة الثانية التى للعجم ، فعلى مقدار ما يسمعونه من العجمة ويربون عليه يبعدون عن الملكة الأولى . واعتبر ذلك فى أمصار إفريقية والمغرب والأندلس والمشرق أما إفريقية والمغرب فخالطت العرب فيها البرابرة من العجم بوفور عمرانها بهم ، ولم يكد يخلو عنهم مصر ولا جيل ، فغلبت العجمة فيها على اللسان العربى الذى كان لهم ، وصارت لغة أخرى ممتزجة والعجمة فيها أغلب لما ذكرناه ، فهى عن اللسان الأول أبعد . وكذا المشرق لما غلب العرب على أممه من فارس والترك فخالطوهم ، وتداولت بينهم لغاتهم فى الأكرة (١) والفلاحين والسبى (٢) الذين اتخذوهم خولاودايات وأظئارًا ومراضع ، ففسدت لغتهم بفساد الملكة حتى انقلبت لغة أخرى . وكذا أهل الأندلس مع عجم الجلالقة والإفرنجة . وصار أهل الأمصار كلهم من هذه الأقاليم أهل لغة أخرى مخصوصة بهم تخالف لغة مضر ويخالف أيضًا بعضها بعضًا كما نذكره وكأنها لغة أخرى لاستحكام ملكتها فى أجيالهم . والله يخلق ما يشاء ويقدر .

٥٠ – فصل فى تعليم اللسان المضرى

اعلم أن ملكة اللسان المضرى لهذا العهد قد ذهبت وفسدت ، ولغة أهل الجيل كلهم مغايرة للغة مضر التى نزل بها القرآن ، وإنما هى لغة أخرى من امتزاج العجمة بها كما قدمناه . إلا أن اللغات لما كانت ملكات كما مر كان تعلمها ممكنًا شأن سائر الملكات . ووجه التعليم لمن يبتغى هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجارى على أساليبهم من القرآن والحديث ، وكلام السلف ، ومخاطبات فحول العرب فى أسجاعهم وأشعارهم ، وكلمات المولدين أيضا فى سائر فنونهم ، حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن

(١) « أكرت الأرض من باب ضرب حرثتها ، واسم الفاعل أكار بالتشديد للمبالغة ، والجمع أكره كأنه جمع آكر وزان كفرة جمع كافر » (المصباح) .

(٢) « سبى العدو سبياً من باب رمى ، وقوم سبى وصف بالمصدر » (المصباح) .

العبارة عن المقاصد منهم . ثم يتصرف بعد ذلك فى التعبير عما فى ضميره على حسب عباراتهم ، وتأليف كلماتهم ، وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم ، فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ، ويزداد بكثرتهما رسوخا وقوة . ويحتاج مع ذلك إلى سلامة الطبع والتفهم الحسن لمنازع العرب وأساليبهم فى التراكيب ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الأحوال . والذوق يشهد بذلك . وهو ينشأ من هذه الملكة والطبع السليم فيها كما نذكر . وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المصنوع نظمًا ونثرًا. ومن حصل على هذه الملكات فقد حصل على لغة مضر ، وهو الناقد البصير بالبلاغة فيها . وهكذا ينبغى أن يكون تعلمها . والله يهدى من يشاء بفضله وكرمه .

٥١ — فصل فى أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها فى التعليم

والسبب فى ذلك أن صناعة العربية إنما هى معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة . فهو علم بكيفية لا نفس كيفية ، فليست نفس الملكة ، وإنما هى بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علمًا ، ولا يحكمها عملا . مثل أن يقول بصير بالخياطة غير مُحْكِم لملكتها فى التعبير عن بعض أنواعها : الخياطة هى أن يدخل الخيط فى خرت(١) الإبرة ، ثم يغرزها فى لِفْقَى الثوب مجتمعين ، ويخرجها من الجانب الآخر بمقدار كذا ، ثم يردها إلى حيث ابتدأت ، ويخرجها قدام منفذها الأول بمطرح ما بين الثقبين الأولين ، ثم يتمادى على ذلك إلى آخر العمل ، ويعطى صورة الحبك والتنبيت والتفتيح وسائر أنواع الخياطة وأعمالها وهو إذا طولب أن يعمل ذلك بيده لا يحكم منه منه شيئًا . وكذا لو سئل عالم بالنجارة عن تفصيل الخشب فيقول : هو أن تضع المنشار على رأس الخشبة وتمسك بطرفه وآخرُ قبالتك ممسك بطرفه الآخر وتتعاقبانه بينكما ، وأطرافه المضرسة المحددة تقطع ما مرت عليه ذاهبة وجائية إلى أن ينتهى إلى آخر الخشبة ؛ وهو لو طولب بهذا العمل أوشىء منه لم يحكمه . وهكذا العلم بقوانين الإعراب مع هذه الملكة فى نفسها . فإن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل . ولذلك نجد كثيرًا من جهابذة النحاة والمهرة فى صناعة العربية المحيطين علمًا بتلك القوانين إذا سئل فى كتابة سطرين إلى أخيه أو ذى مودته أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده أخطأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن ، ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربى . وكذا نجد كثيرًا ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور ، وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول ، ولاالمرفوع من المجرور ، ولا شيئًا من قوانين صناعة العربية .

فمن هذا تعلم أن تلك الملكة هى غير صناعة

(١) الخرت بفتح الخاء وضمها الثقب فى الأذن وغيرها « (القاموس) » .

العربية ، وأنها مستغنية عنها بالجملة . وقد نجد بعض المهرة فى صناعة الإعراب بصيرًا بحال هذه الملكة ، وهو قليـــل واتفاق . وأكثر ما يقع للمخالطين « لكتاب » سيبويه ؛ فإنه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط ، بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم ، فكان فيه جزءٌ صالح من تعليم هذه الملكة . فتجد العاكف عليه والمحصل له قد حصل على حظ من كلام العرب واندرج فى محفوظه فى أماكنه ومفاصل حاجاته ؛ وتنبه به لشأن الملكة فاستوفى تعليمها ، فكان أبلغ فى الإفادة . ومن هؤلاء المخالطين « لكتاب » سيبويه من يغفل عن التفطن لهذا فيحصل على علم اللسان صناعة ولا يحصل عليه ملكة . وأما المخالطون لكتب المتأخرين العارية عن ذلك إلا من القوانين النحوية مجردة عن أشعار العرب وكلامهم فقلما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة أو يتنبهون لشأنها . فتجدهم يحسبون أنهم قد حصلوا على رتبة فى لسان العرب وهم أبعد عنه .

وأهل صناعة العربية بالأندلس ومعلموها أقرب إلى تحصيل هذه الملكة وتعليمها من سواهم ؛ لقيامهم فيها على شواهد العرب وأمثالهم ، والتفقه فى الكثير من التراكيب فى مجالس تعليمهم ؛ فيسبق إلى المبتدئ كثير من الملكة أثناء التعليم ، فتنقطع النفس لها وتستعد إلى تحصيلها وقبولها .

وأما من سواهم من أهل المغرب وإفريقية وغيرهم فأجروا صناعة العربية مجرى العلوم بحثًا وقطعوا النظر عن التفقه فى تراكيب كلام العرب إلا إن أعربوا شاهدًا أو رجحوا مذهبًا من جهة الاقتضاء الذهنى لا من جهة محامل اللسان وتراكيبه . فأصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدل ، وبعدت عن مناحى اللسان وملكته ؛ وما ذلك إلا لعدولهم عن البحث فى شواهد اللسان وتراكيبه وتمييز أساليبه ، وغفلتهم عن المران فى ذلك للمتعلم ؛ فهو أحسن ما تفيده الملكة فى اللسان ؛ وتلك القوانين إنما هى وسائل للتعليم ؛ لكنهم أجروها على غير ما قصد بها ، وأصاروها علمًا بحتًا ، وبعدوا عن ثمرتها .

وتعلم مما قررناه فى هذا الباب أن حصول ملكة اللسان العربى إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب ، حتى يرتسم فى خياله المنوال الذى نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه ، ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم فى كلامهم ، حتى حصلت له الملكة المستقرة فى العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم . والله مقدر الأمور كلها ، والله أعلم بالغيب .

٥٢ — فصل فى تفسير الذوق فى مصطلح أهل البيان وتحقيق معناه وبيان أنه لا يحصل غالباً للمستعربين من العجم

اعلم أن لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان ، ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان . وقد مر تفسير البلاغة ، وأنها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب فى إفادة ذلك . فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم ، وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده .

فإذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة فى نظم الكلام على ذلك الوجه ، وسهل عليه أمر التركيب ، حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التى للعرب . وإن سمع تركيباً غير جار على ذلك المنحى مجه ونبا عنه سمعه بأدنى فكر ، بل وبغير ، فكر ، إلا بما استفاده من حصول هذه الملكة . فإن الملكات إذا استقرت ورسخت فى محالها ظهرت كأنها طبيعة وجِبِلّة لذلك المحل . ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب فى لغتهم إعراباً وبلاغة أمر كذلك ، وإنما هى ملكة إنسانية فى نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت فى باديء الرأى أنها جِبِلّة وطبع .

وهذه الملكة كما تقدم إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه ، وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية فى ذلك التى استنبطها أهل صناعة اللسان ؛ فإن هذه القوانين إنما تفيد علماً بذلك اللسان ولا تفيد حصول الملكة بالفعل فى محلها ، وقد مر ذلك[1] . وإذا تقرر ذلك فملكة البلاغة فى اللسان تهدى البليغ إلى وجود النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب فى لغتهم ونظم كلامهم . ولو رام صاحب هذه الملكة حَيْدًا عن هذه السبيل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه عليه لسانه ، لأنه لا يعتاده ولا تهديه إليه ملكته الراسخة عنده . وإذا عرض عليه الكلام حائداً عن أسلوب العرب وبلاغتهم فى نظم كلامهم أعرض عنه ومجه وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم ، وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك كما تصنع أهل القوانين النحوية والبيانية ، فإن ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء ، وهذا أمر وجدانى حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم .

ومثاله لو فرضنا صبياً من صبيانهم نشأ وربى فى جيلهم فإنه يتعلم لغتهم ويُحْكِمُ شأن الإعراب والبلاغة فيها حتى يستولى على غايتها ؛ وليس من العلم القانونى فى شىء ، وإنما هو بحصول هذه الملكة فى لسانه ونطقه . وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعد ذلك الجيل بحفظ كلامهم وأشعارهم وخطبهم والمداومة على ذلك بحيث يُحَصِّل الملكة ويصير كواحد ممن نشأ فى جيلهم وربى بين أجيالهم . والقوانين بمعزل عن هذا . واستعير لهذه الملكة عندما ترسخ وتستقر اسم الذوق الذى اصطلح عليه أهل صناعة البيان ، وإنما هو موضوع لإدراك الطعوم ؛ لكن لما كان محل هذه الملكة فى اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل لإدراك الطعوم استعير لها اسمه ؛ وأيضاً فهو وجدانى اللسان ، كما أن الطعوم محسوسة له ؛ فقيل له ذوق .

وإذا تبين لك ذلك علمت منه أن الأعاجم الداخلين فى اللسان العربى الطارئين عليه المضطرين إلى النطق به لمخالطة أهله ، كالفرس والروم والترك بالمشرق وكالبربر بالمغرب ، فإنه لا يحصل لهم

(١) فى الفصل السابق لهذا مباشرة .

هذا الذوق لقصور حظهم فى هذه الملكة التى قررنا أمرها . لأن قصاراهم بعد طائفة من العمر وسبق ملكة أخرى إلى اللسان وهى لغاتهم أن يعتنوا بما يتداوله أهل مصر بينهم فى المحاورة من مفرد ومركب لما يضطرون إليه من ذلك . وهذه الملكة قد ذهبت لأهل الأمصار ، وبعدوا عنها كما تقدم(١) وإنما لهم فى ذلك ملكة أخرى ، وليست هى ملكة اللسان المطلوبة . ومن عرف تلك الملكة من القوانين المسطرة فى الكتب فليس من تحصيل الملكة فى شىء إنما حصّل أحكامها كما عرفت . وإنما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتياد والتكرر لكلام العرب .

فإن عرض لك ما تسمعه من أن سيبويه والفارسى والزمخشرى وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجاماً مع حصول هذه الملكة لهم ، فاعلم أن أولئك القوم الذين تسمع عنهم إنما كانوا عجماً فى نسبهم فقط . أما المربى والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب ومن تعلمها منهم . فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لا وراءها . وكأنهم فى أول نشأتهم من العرب الذين نشئوا فى أجيالهم حتى أدركوا كنه اللغة وصاروا من أهلها . فهم وإن كانوا عجماً فى النسب فليسوا بأعجام فى اللغة والكلام ، لأنهم أدركوا الملة فى عنفوانها واللغة فى شبابها ولم تذهب آثار الملكة ولا من أهل الأمصار(٢) . ثم عكفوا على الممارسة والمدارسة لكلام العرب حتى استولوا على غايته .

(١) فى الفصل التاسع والأربعين من هذا الباب وعنوانه : «فصل فى أن لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة بنفسها . . . إلخ »

(٢) أى لا من البدو ولا من أهل الأمصار .

واليوم الواحد من العجم إذا خالط أهل اللسان العربى بالأمصار ، فأول ما يجد تلك الملكة المقصودة من اللسان العربى ممتحية الآثار ، ويجد ملكتهم الخاصة بهم ملكة أخرى مخالفة لملكة اللسان العربى . ثم إذا فرضنا أنه أقبل على الممارسة لكلام العرب وأشعارهم بالمدارسة والحفظ. يستفيد تحصيلها فقل أن يحصل له ، لما قدمناه(١) من أن الملكة إذا سبقتها ملكة أخرى فى المحل فلا تحصل إلا ناقصة مخدوشة . وإن فرضنا عجمياً فى النسب سلم من مخالطة اللسان العجمى بالكلية وذهب إلى تعلم هذه الملكة بالمدارسة فربما يحصل له ذلك . لكنه من الندور بحيث لا يخفى عليك بما تقرر . وربما يدعى كثير ممن ينظر فى هذه القوانين البيانية حصول هذا الذوق له بها ، وهو غلط أو مغالطة . وإنما حصلت له الملكة إن حصلت فى تلك القوانين البيانية وليست من ملكة العبارة فى شىء . «والله يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقيمٍ »(٢) .

٥٣ – فصل فى أن أهل الأمصار على الإطلاق قاصرون فى تحصيل هذه الملكة اللسانية التى تستفاد بالتعليم ، ومن كان منهم أبعد عن اللسان العربى كان حصولها له أصعب وأعسر

والسبب فى ذلك ما يسبق إلى المتعلم من حصول ملكة منافية للملكة المطلوبة ، بما سبق إليه من اللسان الحضرى الذى أفادته العجمة ، حتى نزل

(١) يشير بذلك إلى ماذكره فى الفصل الثانى والعشرين من الباب الخامس ، وعنوانه « فصل فى أن من حصلت له ملكة فى صناعة فقل أن يجيد بعدها ملكة أخرى » .

(٢) آخر آية ٤٦ من سورة النور وهى سورة ٢٤ .

بها اللسان عن ملكته الأُولى إلى ملكة أخرى هى لغة الحضرى لهذا العهد . ولهذا نجد المعلمين يذهبون إلى المسابقة بتعليم اللسان للوِلْدان . وتعتقد النحاة أن هذه المسابقة بصناعتهم وليس كذلك . إنما هى بتعليم هذه الملكة بمخاطبة اللسان وكلام العرب . نعم صناعة النحو أقرب إلى مخالطة ذلك . وما كان من لغات أهل الأمصار أعرق فى العجمة وأبعد عن لسان مضر قصر بصاحبه عن تعلم اللغة المضرية وحصول ملكتها لتمكن المنافاة حينئذ . واعتبر ذلك فى أهل الأمصار . فأهل إفريقية والمغرب لما كانوا أعرق فى العجمة وأبعد عن اللسان الأول ، كان لهم قصور تام فى تحصيل ملكته بالتعليم . ولقد نقل ابن الرقيق(1) أن بعض كتاب القيروان كتب إلى صاحب له : «يا أخى ومن لا عدمت فقده أعلمنى أبو سعيد كلاماً أنك كنت ذكرت أنك تكون مع الذين تأتى ، وعاقنا اليوم فلم يتهيأ لنا الخروج . وأما أهل المنزل الكلاب من أمر الشين فقد كذبوا هذا باطلا ، ليس من هذا حرفاً واحداً ، وكتابى إليك ، وأنا مشتاق إليك إن شاء الله » . — وهكذا كانت ملكتهم فى اللسان المضرى شبيها بما ذكرنا . وكذلك أشعارهم كانت بعيدة عن الملكة نازلة عن الطبقة ؛ ولم تزل كذلك ، لهذا العهد . ولهذا ما كان بإفريقية من مشاهير الشعراء إلا ابن رشيق وابن شرف . وأكثر ما يكون فيها الشعراء طارئين عليها ، ولم تزل طبقتهم فى البلاغة حتى الآن مائلة إلى القصور .

وأهل الأندلس أقرب منهم إلى تحصيل هذه الملكة بكثرة معاناتهم وامتلائهم من المحفوظات اللغوية نظماً ونثراً . وكان فيهم ابن حيان المؤرخ ، إمام أهل الصناعة فى هذه الملكة ورافع الراية لهم فيها ، وابن عبد ربه والقسطلى وأمثالهم من شعراء ملوك الطوائف ، لما زخرت فيها بحار اللسان والأدب وتداول ذلك فيهم مئين من السنين ، حتى كان الانفضاض والجلاء أيام تغلب النصرانية ، وشغلوا عن تعلم ذلك ، وتناقص العمران فتناقص لذلك شأن الصنائع كلها فقصرت الملكة فيهم عن شأنها حتى بلغت الحضيض . وكان من آخرهم صالح بن شريف ، ومالك بن المرحل من تلاميذ الطبقة الإشبيليين بسَبْتَة وكُتَّاب دولة ابن الأحمر فى أولها . وألقت الأندلس أفلاذ كبدها من أهل تلك الملكة بالجلاء إلى العُدوة من إشبيلية إلى سبتة ، ومن شرق الأندلس إلى إفريقية . ولم يلبثوا إلى أن انقرضوا وانقطع سند تعليمهم فى هذه الصناعة ، لعسر قبول العدوة لها وصعوبتها عليهم ، بعوج ألسنتهم ورسوخهم فى العجمة البربرية ، وهى منافية لما قلناه . ثم عادت الملكة من بعد ذلك إلى الأندلس كما كانت ، ونجم بها ابن بشرين وابن جابر وابن الجياب وطبقتهم ثم إبراهيم الساحلى الطريحى وطبقته ، وقفاهم ابن الخطيب من بعدهم الهالك لهذا العهد شهيداً بسعاية أعدائه . وكان له فى اللسان ملكة

(1) هكذا فى جميع النسخ ، ويرجح الدكتور وافى أنه محرف عن ابن رشيق القيروانى صاحب كتاب « العمدة » .

لا تدلك ، واتْبِعَ أثَرَهُ بعده ، وبالجملة فشأن هذه الملكة بالأندلس أكثر ، وتعليمها أيسر وأسهل ، بما هم عليه لهذا العهد كما قدمناه من معاناة علوم اللسان ومحافظتهم عليها وعلى علوم الأدب وسند تعليمها ، ولأن أهل اللسان العجمي الذين تفسد ملكتهم إنما هم طارئون عليهم ، وليست عجمتهم أصلا للغة أهل الأندلس . والبربر فى هذه العدوة هم أهلها ولسانهم لسانها ؛ إلا فى الأمصار فقط ، فهم فيها منغمسون فى بحر عجمتهم ورطانتهم البربرية فيصعب عليهم تحصيل الملكة اللسانية بالتعليم بخلاف أهل الأندلس .

واعتبر ذلك بحال أهل المشرق لعهد الدولة الأموية والعباسية ، فكان شأنهم شأن أهل الأندلس فى تمام هذه الملكة وإجادتها ؛ لبعدهم لذلك العهد عن الأعاجم ومخالطتهم إلا فى القليل . فكان أمر هذه الملكة فى ذلك العهد أقوم ، وكان فحول الشعراء والكتاب أوفر لتوفر العرب وأبنائهم بالمشرق . وانظر ما اشتمل عليه كتاب الأغانى من نظمهم ونثرهم ، فإن ذلك الكتاب هو كتاب العرب وديوانهم ؛ وفيه لغتهم وأخبارهم وأيامهم ، وملتهم العربية وسيرتهم وآثار خلفائهم وملوكهم وأشعارهم وغناؤهم وسائر مغانيهم له ، فلا كتاب أوعب منه لأحوال العرب . وبقى أمر هذه الملكة مستحكماً فى المشرق فى الدولتين ، وربما كانت فيهم أبلغ ممن سواهم ممن كان فى الجاهلية كما نذكره بعد ، حتى تلاشى أمر العرب ودرست لغتهم وفسد كلامهم وانقضى أمرهم ودولتهم ، وصار الأمر للأعاجم والملك فى أيديهم والتغلب لهم ، وذلك فى دولة الديلم والسلجوقية ، وخالطوا أهل الأمصار والحواضر حتى بعدوا عن اللسان العربى وملكته ، وصار متعلمها منهم مقصرا عن تحصيلها . وعلى ذلك نجد لسانهم لهذا العهد فى فنى المنظوم والمنثور وإن كانوا مكثرين منه . والله يخلق ما يشاء ويختار ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وبه التوفيق ، لا رب سواه .

٥٤ — فصل فى إنقسام الكلام إلى فنى النظم والنثر

إعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنين : فى الشعر المنظوم ، وهو الكلام الموزون المقفى ، ومعناه الذى تكون أوزانه كلها على روى واحد وهو القافية ؛ وفى النثر وهو الكلام غير الموزون . وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب فى الكلام . فأما الشعر فمنه المدح والهجاء والرثاء وأما النثر : فمنه السجع الذى يؤتى بها قطعاً ، ويلتزم فى كل كلمتين منه قافية واحدة يسمى سجعاً ؛ ومنه المرسل وهو الذى يطلق فيه الكلام إطلاقاً ولا يقطع أجزاء بل يرسل إرسالا من غير تقييد بقافية ولا غيرها ، ويستعمل فى الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم

وأما القرآن وإن كان من المنثور إلا أنه خارج عن الوصفين وليس يسمى مرسلا مطلقاً ولا مسجعاً . بل تفصيل آيات ينتهى إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها . ثم يعاد الكلام فى الآية الأخرى بعدها ؛ ويثنى من غير

التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية ، وهو معنى قوله تعالى : «اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ(١) » . وقال : « قد فصّلنا الآيات(٢) » . ويسمى آخر الآيات منها فواصل ؛ إذ ليست أسجاعاً ، ولا التزم فيها ما يلتزم فى السجع ، ولا هى أيضاً قواف . وأُطلق اسم المثانى على آيات القرآن كلها على العموم لما ذكرناه ، واختصت بأُم القرآن(٣) للغلبة فيها كالنجم للثريا ، ولهذا سميت السبع المثانى . وانظر هذا مع ما قاله المفسرون فى تعليل تسميتها بالمثانى يشهد لك الحق برجحان ما قلناه .

واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون أساليب تختص به عند أهله لا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه ، مثل النسيب المختص بالشعر ، والحمد والدعاء المختص بالخطب ، والدعاء المختص بالمخاطبات وأمثال ذلك . وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه فى المنثور من كثرة الأسجاع والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدى الأغراض ، وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنه ولم يفترقا إلا فى الوزن . واستمر المتأخرون من الكتّاب على هذه الطريقة واستعملوها فى المخاطبات السلطانية ، وقصروا الاستعمال فى المنثور كله على هذا الفن الذى ارتضوه ، وخلطوا الأساليب فيه ، وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصاً أهل المشرق . وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتّاب الغفل جارية على هذا الأسلوب الذى أشرنا إليه . وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ فى تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاطِب والمخاطَب . وهذا الفن المنثور المقفى أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر . فوجب أن تنزه المخاطبات السلطانية عنه . إذ أساليب الشعر تناسبها اللوذعية وخلط الجد بالهزل والإطناب فى الأوصاف وضرب الأمثال وكثرة التشبيهات والاستعارات حيث لا تدعو ضرورة إلى ذلك فى الخطاب . والتزام التقفية أيضاً من اللوذعية والتزيين ؛ وجلال الملك والسلطان وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب ينافى ذلك ويباينه . والمحمود فى المخاطبات السلطانية الترسل وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تسجيع إلا فى الأقل النادر ، وحيث ترسله الملكة إرسالاً من غير تكلف له ، ثم إعطاءُ الكلام حقه فى مطابقته لمقتضى الحال ؛ فإن المقامات مختلفة ، ولكل مقام أسلوب يخصه من إطناب أو إيجاز أو حذف أو إثبات أو تصريح أو إشارة وكناية واستعارة . وأما إجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذى هو على أساليب الشعر فمذموم . وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه فى مطابقته لمقتضى الحال . فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده فى البلاغة

---

(١) آية ٢٣ من سورة الزمر .

(٢) (آية ١٢٦ من سورة الأنعام) « وهذا صراط ربك مستقيما ، قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون » .

(٣) وهى سورة الفاتحة ، فانه يطلق عليها السبع المثانى .

وانفساح خطوبه . وولعوا بهذا المسجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه ، ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البديعية ، ويغفلون عما سوى ذلك . وأكثر من أخذ بهذا الفن وبالغ فيه فى سائر أنحاء كلامهم كتّاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد ، حتى إنهم ليخلون بالإعراب فى الكلمات والتصريف إذا دخلت لهم فى تجنيس أو مطابقة لا يجتمعان معها ، فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ويدعون الاعراب ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف التجنيس : فتأمل ذلك بما قدمناه لك تقف على صحة ما ذكرناه . والله الموفق للصواب بمنه وكرمه ؛ والله تعالى أعلم .

٥٥ – فصل فى أنه لاتتفق الإجادة فى فنى المنظوم والمنثور معاً إلا للأقل

والسبب فى ذلك أنه كما بيناه ملكة فى اللسان ؛ فإذا تسبقت إلى محله ملكة أخرى قصرت بالمحل عن تمام الملكة اللاحقة ، لأن تمام الملكات وحصولها للطبائع التى على الفطرة الأولى أسهل وأيسر . وإذا تقدمتها ملكة أخرى كانت منازعة لها فى المدة القابلة وعائقة عن سرعة القبول ، فوقعت المنافاة وتعذر التمام فى الملكة . وهذا موجود فى الملكات الصناعية كلها على الإطلاق . وقد برهنا عليه فى موضعه بنحو من هذا البرهان[١] . فاعتبر مثله فى اللغات فإنها ملكات اللسان وهى بمنزلة الصناعة . وانظر من تقدم له شىء من العجمة كيف يكون قاصراً فى اللسان العربى أبداً . فالأعجمى الذى سبقت له اللغة الفارسية لا يستولى على ملكة العربى ، ولا يزال قاصراً فيه ولو تعلمه وعلمه . وكذا البربرى والرومى الأفرنجى قل أن تجد أحداً منهم محكماً لملكة اللسان العربى . وما ذلك إلا لما سبق إلى ألسنتهم من ملكة اللسان الآخر . حتى إن طالب العلم من أهل هذه الألسن إذا طلبه بين أهل اللسان العربى جاء مقصراً فى معارفه عن الغاية والتحصيل ، وما أتى إلا من قبل اللسان . وقد تقدم لك من قبل أن الألسن واللغات شبيهة بالصنائع . وقد تقدم لك أن الصنائع وملكاتها لا تزدحم وأن من سبقت له إجادة فى صناعة فقل أن يجيد أخرى أو يستولى فيها على الغاية « والله خلقكم وما تعملون » .

٥٦ – فصل فى صناعة الشعر ووجه تعلمه

هذا الفن من فنون كلام العرب وهو المسمى بالشعر عندهم . ويوجد فى سائر اللغات . إلا أنا الآن إنما نتكلم فى الشعر الذى للعرب . فإن أمكن أن تجد فيه أهل الألسن الأخرى مقصودهم من كلامهم ، وإلا فلكل لسان أحكام فى البلاغة تخصه . وهو فى لسان العرب غريب النزعة عزيز المنحى ؛ إذ هو كلام مفصل قطعاً قطعاً متساوية فى الوزن متحدة فى الحرف الأخير من كل قطعة . وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتاً ؛ ويسمى الحرف الأخير الذى تتفق فيه روياً وقافية. ويسمى جملة الكلام إلى آخره قصيدة وكلمة .

(١) يشير بذلك إلى ما ذكره فى الفصل الثانى والعشرين من الباب الخامس ، وعنوانه « فصل فى أن من حصلت له ملكة فى صناعة فقل أن يجيد بعدها ملكة أخرى » .

وينفرد كل بيت منه بإفادته فى تراكيبه حتى كأنه كلام وحده مستقل عما قبله وما بعده . وإذا أفرد كان تامًّا فى بابه فى مدح أو تشبيب أو رثاء . فيحرص الشاعر على إعطاء ذلك فى البيت ما يستقل فى إفادته . ثمّ يستأنف فى البيت الآخر كلامًا آخر كذلك . ويستطرد للخروج من فن إلى فن ومن مقصود إلى مقصود بأن يوطىء المقصود الأول ومعانيه إلى أن تناسب المقصود الثانى ، ويبعد الكلام عن التنافر ، كما يستطرد من التشبيب إلى المدح ، ومن وصف البيداء والطلول إلى وصف الركاب أو الخيل أو الطيف ، ومن وصف الممدوح إلى وصف قومه وعساكره ، ومن التفجع والعزاء فى الرثاء إلى التأثر وأمثال ذلك .

ويراعى فيه اتفاق القصيدة كلها فى الوزن الواحد حذرًا من أن يتساهل الطبع فى الخروج من وزن إلى وزن يقاربه ، فقد يخفى ذلك من أجل المقاربة على كثير من الناس . ولهذه الموازين شروط وأحكام تضمنها علم العَرُوض . وليس كل وزن يتفق فى الطبع استعملته العرب فى هذا الفن ؛ وإنما هى أوزان مخصوصة تسميها أهل تلك الصناعة البحور . وقد حصروها فى خمسة عشر بحرًا ، بمعنى أنهم لم يجدوا للعرب فى غيرها من الموازين الطبيعية نظمًا .

واعلم أن فن الشعر من بين الكلام كان شريفًا عند العرب ، ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم ، وشاهد صوابهم وخطئهم ، وأصلا يرجعون إليه فى الكثير من علومهم وحكمهم . وكانت ملكته مستحكمة فيهم شأن الملكات كلها . والملكات اللسانية كلها إنما تكتسب بالصناعة والارتياض فى كلامهم حتى يحصل شبه فى تلك الملكة . والشعر من بين فنون الكلام صعب المأخذ على من يريد اكتساب ملكته بالصناعة من المتأخرين لاستقلال كل بيت منه بأنه كلام تام فى مقصوده ، ويصلح أن ينفرد دون ما سواه . فيحتاج من أجل ذلك إلى نوع تلطف فى تلك الملكة ، حتى يفرغ الكلام الشعرى فى قوالبه التى عرفت له فى ذلك المنحى من شعر العرب ، ويبرزه مستقلا بنفسه ، ثم يأتى ببيت آخر كذلك ، ثم ببيت ، ويستكمل الفنون الوافية بمقصوده ، ثم يناسب بين البيوت فى موالاة بعضها مع بعض بحسب اختلاف الفنون التى فى القصيدة . ولصعوبة منحاه وغرابة فنه كان محكا للقرائح فى استجادة أساليبه وشحذ الأفكار فى تنزيل الكلام فى قوالبه . ولا يكفى فيه ملكة الكلام العربى على الإطلاق ، بل يحتاجُ بخصوصه إلى تلطف ومحاولة فى رعاية الأساليب التى اختصته العرب بها واستعمالها .

ولنذكر هنا سلوك الأسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها فى إطلاقهم . فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذى ينسج فيه التراكيب ، أو القالب الذى يفرغ فيه ؛ ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذى هو وظيفة الإعراب ، ولا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذى هو وظيفة البلاغة والبيان ، ولا باعتبار الوزن كما استعمله

العرب فيه الذى هو وظيفة العروض . فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية . وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص . وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها فى الخيال كالقالب أو المنوال ، ثم ينتقى التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان فيرصها فيه رصًا كما يفعله البنّاء فى القالب أو النسّاج فى المنوال ، حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ؛ ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربى فيه . فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة : فسؤال الطلول فى الشعر يكون بخطاب الطلول كقوله :

يا دارَ ميّةَ بالعلياء فالسند

ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال كقوله :

قفا نسأل الدار التى خف أهلها

أو باستبكاء الصحب على الطلل كقوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله :

ألم تسأل فتخبرك الرسوم ؟

ومثل تحية الطلول بالأمر لمخاطب غير معين بتحيتها كقوله :

حى الديار بجانب العزل

أو بالدعاء لها بالسُقْيا كقوله :

أسقى طلولهم أجشُّ هزيم
وغدت عليهم نضرة ونعيم

أو سؤاله السقيا لها من البرق كقوله :

يابَرْقُ طالع منزلاً بالأبرق
واحْدُ السحاب لها حُداء الأَيْنُق

أو مثل التفجع فى الجزع باستدعاء البكاء كقوله :

كذا فليجلْ الخطب وليفدح الأمر
فليس لعين لم يَفِضْ ماؤها عذر

أو باستعظام الحادث كقوله :

أرأيت من حُملوا على الأعواد ؟

أو بالتسجيل على الأكوان بالمصيبة لفقده كقوله :

منابت العُشب لاحام ولاراع
مضى الردى بطويل الرمح والباع

أو بالإنكار على من لم يتفجع له من الجمادات كقول الخارجية (١) :

أيا شجر الخابور مالك مورقاً
كأنك لم تجزع على ابن طريف

أو بتهنئة قريعه (٢) بالراحة من ثقل وطأته كقوله :

ألقِى الرماح ربيعة بن نِزار
أودى الردى بقريعِك المغوار

وأمثال ذلك كثير فى سائر فنون الكلام ومذاهبه .

---

(١) هى ليل بنت طريف .
(٢) القريع الخصم الغالب والمغلوب ؛ .

وتنتظم التراكيب فيه بالجمل وغير الجمل، إنشائية وخبرية، إسمية وفعلية، متفقة وغير متفقة، مفصولة وموصولة، على ما هو شأن التراكيب فى الكلام العربى فى مكان كل كلمة من الأخرى يعرفك به ما تستفيده بالارتياض فى أشعار العرب من القالب الكلى المجرد فى الذهن من التراكيب المعينة التى ينطبق ذلك القالب على جميعها. فإن مؤلف الكلام هو كالبنَّاء أو النسَّاج، والصورة الذهنية المنطبقة كالقالب الذى يبنى فيه أو المنوال الذى ينسج عليه؛ فإن خرج عن القالب فى بنائه أو على المنوال فى نسجه كان فاسدا. ولا تقولن إن معرفة قوانين البلاغة كافية فى ذلك؛ لأنا نقول: قوانين البلاغة إنما هى قواعد علمية وقياسية تفيد جواز استعمال التراكيب على هيأتها الخاصة بالقياس، وهو قياس علمى صحيح مطرد كما هو قياس القوانين الإعرابية. وهذه الأساليب التى نحن نقررها ليست من القياس فى شىء إنما هى هيئة ترسخ فى النفس من تتبع التراكيب فى شعر العرب، لجريانها على اللسان حتى تستحكم صورتها فيستفيد بها العمل على مثالها والاحتذاء بها فى كل تركيب من الشعر كما قدمنا ذلك فى الكلام بإطلاق. وإن القوانين العلمية من العربية والبيان لا يفيد تعليمه بوجه. وليس كل ما يصح فى قياس كلام العرب وقوانينه العلمية استعملوه، وإنما المستعمل عندهم من ذلك أنحاء معروفة يطلع عليها الحافظون لكلامهم تندرج صورتها تحت تلك القوانين القياسية. فإذا نظر فى شعر العرب على هذا النحو وبهذه الأساليب الذهنية التى تصير كالقوالب كان نظرًا فى المستعمل من تراكيبهم لا فيما يقتضيه القياس.

ولهذا قلنا إن المحصل لهذه القوالب فى الذهن إنما هو حفظ أشعار العرب وكلامهم. وهذه القوالب كما تكون فى المنظوم تكون فى المنثور؛ فإن العرب استعملوا كلامهم فى كلا الفنين، وجاءوا به مفصلا فى النوعين. ففى الشعر بالقطع الموزونة والقوافى المقيدة واستقلال الكلام فى كل قطعة؛ وفى المنثور يعتبرون الموازنة والتشابه بين القطع غالبًا، وقد يقيدونه بالأسجاع، وقد يرسلونه، وكل واحد من هذه معروفة فى لسان العرب. والمستعمل منها عندهم هو الذى يبنى مؤلف الكلام عليه تأليفه، ولا يعرفه إلا من حفظ كلامهم حتى يتجرد فى ذهنه من القوالب المعينة الشخصية قالب كلى مطلق يحذو حذوه فى التأليف كما يحذو البنَّاء على القالب، والنسَّاج على المنوال. فلهذا كان فن تأليف الكلام منفرداً عن نظر النحوى والبيانى والعروضى. نعم إن مراعاة قوانين هذه العلوم شرط فيه لا يتم بدونها، فإذا تحصلت هذه الصفات كلها فى الكلام اختص بنوع من النظر لطيف فى هذه القوالب التى يسمونها أساليب، ولا يفيده إلا حفظ كلام العرب نظماً ونثرًا. وإذا تقرر معنى الأسلوب ما هو فلنذكر بعده حداً أو رسماً للشعر تفهم حقيقته على صعوبة هذا الغرض. فإنا لم نقف عليه لأحد من المتقدمين فيما رأيناه.

وقول العروضيين فى حده: إنه الكلام الموزون المقفى ليس بحد لهذا الشعر الذى نحن بصدده ولا رسم له . وصناعتهم إنما تنظر فى الشعر باعتبار مافيه من الإعراب والبلاغة والوزن والقوالب الخاصة . فلا جرم أنَّ حَدَّهم ذلك لايصلح له عندنا . فلا بد من تعريف يعطينا حقيقته من هذه الحيثية فنقول : الشعر هو الكلام البليغ المبنى على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة فى الوزن والروى مستقل كل جزء منها فى غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجارى على أساليب العرب المخصوصة به . فقولنا الكلام البليغ جنس. وقولنا المبنى على الاستعارة والأوصاف فصل عما يخلو من هذه ، فإنه فى الغالب ليس بشعر . وقولنا المفصل بأجزاء متفقة الوزن والروى فصل له عن الكلام المنثور الذى ليس بشعر عند الكل . وقولنا مستقل كل جزء منها فى غرضه ومقصده عما قبله وبعده بيان للحقيقة ، لأن الشعر لاتكون أبياته إلا كذلك ولم يفصل به شئ . وقولنا الجارى على الأساليب المخصوصة به فصل له عما لم يجر منه على أساليب العرب المعروفة ، فإنه حينئذ لاتكون شعراً إنما هو كلام منظوم ، لأن الشعر له أساليب تخصه لاتكون للمنثور . وكذا أساليب المنثور لاتكون للشعر . فما كان من الكلام منظوماً وليس على تلك الأساليب فلا يكون شعراً . وبهذا الاعتبار كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا فى هذه الصناعة الأدبية يرون أنَّ نظم المتنبى والمعرى ليس هو من الشعر فى شئ لأنهما لم يجريا على أساليب العرب من الأمم ، عند من يرى أنَّ الشعر يوجد للعرب وغيرهم ؛ ومن يرى أنه لا يوجد لغيرهم فلا يحتاج إلى ذلك ، ويقول مكانه الجارى على الأساليب المخصوصة (١) .

وإذ قد فرغنا من الكلام على حقيقة الشعر فلنرجع إلى الكلام فى كيفية عمله فنقول :

اعلم أن لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطاً أولها : الحفظ. من جنسه أى من جنس شعر العرب حتى تنشأ فى النفس ملكة ينسج على منوالها ، ويتخير المحفوظ. من الحر النقى الكثير الأساليب. وهذا المحفوظ. المختار أقل مايكفى فيه شعر شاعر من الفحول الإسلاميين مثل ابن أبى ربيعة وكُثَيِّر وذى الرُّمَّة وجرير وأبى نواس وحبيب والبحترى والرضى وأبى فراس . وأكثره شعر كتاب الأغانى ، لأنه جمع شعر أهل الطبقة الإسلامية كله ، والمختـــار من شعر الجاهلية . ومن كان خالياً من المحفوظ. فنظمه قاصر ردئ . ولايعطيه الرونق والحلاوة إلا كثرة المحفوظ. ، فمن قل حفظه أو عدم لم يكن له شعر وإنما هو نظم ساقط. ، واجتناب الشعر أولى ممن لم يكن له محفوظ. . ثم بعد الامتلاء من الحفظ وشحذ القريحة للنسج على المنوال يقبل على النظم ، وبالإكثار منه تستحكم ملكته وترسخ . وربما يقال إن من شرطه

---

(١) يرجح د. وافى أنه قد سقطت جملة من هذه العبارة ، وبتقديرها يكون الكلام كما يلى : « ويرون أن نظم المتنبى والمعرى ليس هو من الشعر فى شئ ، لأنهما لم يجريا على تلك الأساليب . وقولنا أساليب العرب . فصل له عن شعر غير العرب من الأمم عند من يرى أن الشعر يوجد للعرب وغيرهم ... ألخ » .

نسيان ذلك المحفوظ لتمحى رسومه الحرفية الظاهرة إذا هى صادة عن استعمالها بعينها ؛ فإذا نسيها وقد تكيفت النفس بها انتقش الأسلوب فيها كأنه منوال يأخذ بالنسج عليه بأمثالها من كلمات أخرى ضرورة .

ثم لابد له من الخلوة واستجادة المكان المنظور فيه من المياه والأزهار ، وكذا المسموع لاستنارة القريحة باستجماعها وتنشيطها بملاذ السرور . ثم مع هذا كله فشرطه أن يكون على جَمام . ونشاط ، فذلك أجمع له وأنشط للقريحة أن تأتى بمثل ذلك المنوال الذى فى حفظه . قالوا وخير الأوقات لذلك أوقات البُكر عند الهبوب من النوم وفراغ المعدة ونشاط الفكر ، وفى هؤلاء الجمام . وربما قالوا : إن من بواعثه العشق والانتشاء ، ذكر ذلك ابن رشيق فى كتاب « العمدة » وهو الكتاب الذى انفرد بهذه الصناعة وإعطاء حقها ، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله . قالوا فإن استصعب عليه بعد هذا كله فليتركه إلى وقت آخر ، ولايكره نفسه عليه . وليكن بناء البيت على القافية من أول صوغه ونسجه ، ويبنى الكلام عليها إلى آخره ، لأنه إن غفل عن بناء البيت على القافية صعب عليه وضعها فى محلها ، فربما تجىء نافرة قلقة . وإذا سمح الخاطر بالبيت ولم يناسب الذى عنده فليتركه إلى موضعه الأليق به . فإن كل بيت مستقل بنفسه ، ولم تبق إلا المناسبة فليتخير فيها كما كما يشاء . وليراجع شعره بعد الخلاص منه بالتنقيح والنقد . ولايضن به على الترك إذا لم يبلغ الإجادة ؛ فإن الإنسان مفتون بشعره إذ هو نبات فكره واختراع قريحته . ولا يستعمل فيه من الكلام إلا الأفصح من التراكيب والخالص من الضرورات اللسانية ، فليهجرها ، فإنها تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة . وقد حظر أئمة اللسان عن المولَّد وارتكاب الضرورة[1] . إذ هو فى سعة منها بالعدول عنها إلى الطريقة المثلى من الملكة . ويجتنب أيضاً المعقد من التراكيب جهده ؛ وإنما يقصد منها ما كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الفهم . وكذلك كثرة المعانى فى البيت الواحد فإن فيه نوع تعقيد على الفهم ؛ وإنما المختار منه ماكانت ألفاظه طبقاً على معانيه أو أوفى . فإن كانت المعـــانى كثيرة كان حشواً ، واستعمل الذهن بالغوص عليها ، فمنع الذوق عن استيفاء مُدْرَكه من البـــلاغة . ولا يكون الشعر سهلاً إلا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الذهن . ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعر أبى إسحق[1] ابن خفاجة شاعر شرق الأندلس لكثرة معـانيه وازدحامها فى البيت الواحد ، كما كانوا يعيبون شعر المتنبى والمعرى بعدم النسج على الأساليب العربية كما مر ، فكان شعرهما كلاماً منظوماً نازلاً عن طبقة الشعر ؛ والحاكم بذلك هو الذوق ،

(١) أى حرموا استخدام الألفاظ المولدة ، وهى التى استحدثها المولدون ، وحرموا ارتكاب الضرورة أى تغيير إعراب الكلمة أو بنيتها مثلا لضرورة الشعر .

(١) ولد ببلدة شقرة ، ويطلق عليها العرب جزيرة شقر ، سنة ٤٥٠ وتوفى بها سنة ٥٣٣ .

وليجتنب الشاعر أيضاً الحوشى من الألفاظ والمقعَّر(١)، وكذلك السوقى المبتذل بالتـــداول بالإستعمال فإنه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة أيضاً فيصير مبتذلا ويقرب من عدم الإفادة، كقولهم النار حارة والسماء فوقنا . وبمقدار مايقرب من طبقة عدم الإفادة يبعد عن رتبة البلاغة إذ هما طرفان ولهذا كان الشعر فى الربانيات والنبويات قليل الإجادة فى الغالب ولايحذق فيه إلا الفحول، وفى القليل على العسر، لأن معانيها متداولة بين الجمهور فتصير مبتذلة لذلك .

وإذا تعذر الشعر بعد هذا كله فليراوضه ويعاوده فإن القريحة مثل الضرع يدر بالامتراء. ويجف بالترك والإهمال .

وبالجملة فهذه الصناعة وتعلمها مستوفى فى كتاب «العمـــدة» لابن رشيق . وقد ذكرنا منها ماحضرنا بحسب الجهد . ومن أراد استيفاء ذلك فعليه بذلك الكتاب ففيه البغية من ذلك . وهذه نبذة كافية والله المعين .

وقد نظم الناس فى أمر هذه الصناعة الشعرية مايجب فيها . ومن أحسن ماقيل فى ذلك وأظنه لابن رشيق(٢) :

لعن الله صنعة الشعر ماذا
من صنوف الجهال منه لقينا
يؤثرون الغريب منه على ما
كان سهلاً للسامعين مبينا
ويرون المحال معنى صحيحاً
وخسيس الكلام شيئاً ثميناً
يجهلون الصواب منه ولا يد
رون للجهل أنهم يجهلونا
فهم عند من سوانا يلامو
ن وفى الحق عندنا يعذرونا
إنما الشعر مايناسب فى النظم
وإن كان فى الصفات فنونا
فأتى بعضه يشاكل بعضاً
وأقامت له الصدور المتونا
كل معنًى أتاك منه على ما
تتمنى لو لم يكن أن يكونا
فتناهى من البيان إلى أن
كاد حسناً يبين للناظرينا
فكأن الألفاظ منه وجوه
والمعانى ركبن فيها عيونا
قائما فى المرام حسب الامانى
يتحلى بحسنه المنشدونا
فإذا مامدحت بالشعر حراً
رمت فيه مذاهب المسهبينا
فجعلت النسيب سهلاً قريباً
وجعلت المديح صدقاً مبينا
وتنكبت مايهجن فى السمع
وإن كان لفظه موزونا
وإذا ماقرضته بهجاء
عبْت فيه مذاهب المرفثينا

(١) قعر فى كلامه تقعيرا وتقعر تشادق وتكلم بأقصى فمه (القاموس) . ويطلق مجازاً على التكلف والبحث عن الغريب من الألفاظ .

(٢) ليس لابن رشيق ؛ وإنما هو للناشىء أبى العباس من شعراء عصر بنى بويه . واسمه على بن عبد الله بن وصيف . (د. وافى)

فجعلت التصريح منه دواء
وجعلت التعريض داء دفينا
وإذا مابكيت فيه على الغا
دين يوماً للبين والظاعنينا
حلت دون الأسى وذلك ماكا
ن من الدمع فى العيون مصونا
ثم إن كنت عاتبا شبت بالوء
د وعيداً وبالصعوبة لينا
فتركت الذى عتبت عليه
حذراً آمناً عزيزاً مهيناً
وأصح القريض ماقارب النظ
م وإن كان واضحا مستبينا
فإذا قيل أطمع الناس طرا
وإذا ريم أعجز المعجزينا
ومن ذلك أيضا قول بعضهم :
الشعر ما قومت زيغ صدوره
وشددت بالتهذيب أس متونه
ورأبت بالإطناب شَعْبَ صدوعه
وفتحت بالايجاز عور عيونه
وجمعت بين قريبه وبعيده
وجمعت بين مُجِمّهِ ومَعِينه (١)
وإذا مدحت به جوادا ماجدا
وقضيته بالشكر حق ديونه
أصفيته بنفيسه ورصينه
وخصصته بخطيره وثمينه
فيكون جزلا فى اتساق صنوفه
ويكون سهلا فى اتفاق فنونه
وإذا بكيت به الديار وأهلها
أجريت للمحزون ماء شئونه
وإذا أردت كناية عن ريبة
باينت بين ظهوره وبطونه
فجعلت سامعه يشوب شُكوكَهُ
بثبوته وظنونه بيقينه

٥٧ – فصل فى أن صناعة النظم والنثر إنما هى فى الألفاظ لا فى المعانى

اعلم أن صناعة الكلام نظما ونثراً إنما هى فى الألفاظ، لافى المعانى ، وإنما المعانى تبع لها ، وهى أصل . فالصانع الذى يحاول ملكة الكلام فى النظم والنثر إنما يحاولها فى الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب ، ليكثر استعماله وجريه على لسانه ، حتى تستقر له الملكة فى لسان مضر ، ويتخلص من العجمة التى ربى عليها فى جيله ، ويفرض نفسه مثل وليد ينشأ فى جيل العرب ويلقن لغتهم كما كما يلقَّنها الصبى حتى يصير كأنه واحد منهم فى لسانهم . وذلك أنا قدمنا(١) أن للسان ملكة من الملكات فى النطق يحاول تحصيلها بتكرارها على اللسان حتى تحصل . والذى فى اللسان والنطق إنما هو الألفاظ ، وأما المعانى فهى فى الضمائر ، وأيضا فالمعانى موجودة عند كل واحد وفى طلوع

(١) جمت البئر تراجع ماؤها وأجمت كذلك فهى مجمة ، وجم الماء تركه يجتمع كأجمة فالماء مجم . – والماء المعين الظاهر الجارى على وجه الأرض ، فهو ضد الجم ؛ ومنه قوله تعالى : « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين » (آية ٣٠ من سورة تبارك أو الملك) .

(١) فى الفصل السابع والأربعين من هذا الباب وعنوانه « فصل فى أن اللغة ملكة صناعية » .

كل فكر منها ما يشاء ويرضى ، فلا نحتاج إلى صناعة ، وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه . وهو بمثابة القوالب للمعانى . فكما أن الأوانى التى يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف ، والماء واحد فى نفسه ؛ وتختلف الجودة فى الأوانى المملوءة بالماء باختلاف جنسها لاباختلاف الماء ؛ كذلك جودة اللغة وبلاغتها فى الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام فى تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد ، والمعانى واحدة فى نفسها . وإنما الجاهل بتأليف الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللسان إذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن بمثابة المقعد الذى يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه . والله يعلمكم مالم تكونوا تعلمون .

٥٨ – فصل فى أن حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ

قد قدمنا[١] أنه لابد من كثرة الحفظ لمن يروم تعلم اللسان العربى وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته فى جنسه وكثرته من قلته تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ . فمن كان محفوظه شعر حبيب أو العتابى[٢] أو ابن المعتز أو ابن هانىء أو الشريف الرضى أو رسائل ابن المقفع أو سهل بن هارون أو ابن الزيات أو البديع أو الصابىء تكون ملكته أجود وأعلى مقاما ورتبة فى البلاغة ممن يحفظ شعر ابن سهل من المتأخرين أو ابن النبيه أو ترسل البيسانى[١] أو العماد الأصبهانى ، لنزول طبقة هؤلاء عن أولئك . يظهر ذلك للبصير الناقد صاحب الذوق . وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال من بعده ثم إجادة الملكة من بعدهما . فبارتقاء المحفوظ فى طبقته من الكلام ترتقى الملكة الحاصلة لأن الطبع إنما ينسج على منوالها . وتنمو قوى الملكة بتغذيتها . وذلك أن النفس وإن كانت فى جبلتها واحدة بالنوع فهى تختلف فى البشر بالقوة والضعف فى الإدراكات . واختلافها إنما هو باختلاف مايرد عليها من الإدراكات والملكات والألوان التى تكفيها من خارج ؛ فبهذه يتم وجودها ، وتخرج من القوة إلى الفعل صورتها . والملكات التى تحصل لها إنما تحصل على التدريج كما قدمنا . فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر ؛ وملكة الكتابة بحفظ الأسجاع والترسيل ؛ والعلمية بمخالطة العلوم والإدراكات والأبحاث والأنظار ؛ والفقهية بمخالطة الفقه وتنظير المسائل وتفريعها وتخريج الفروع على الأصول ؛ والتصوفية الربانية بالعبادات والأذكار وتعطيل الحواس الظاهرة بالخلوة والانفراد عن الخلق ما استطاع ، حتى تحصل له ملكة الرجوع إلى حسه الباطن وروحه ، وينقلب ربانيا ؛ وكذا سائرها . وللنفس فى كل واحد منها لون تتكيف به . وعلى حسب

(١) فى الفصل الخمسين من هذا الباب وعنوانه « فصل فى تعليم اللسان المضرى »

(٢) حبيب هو أبو تمام . والعتابى هو شاعر من شعراء صدر الدولة العباسية ، وهو من الطبقة الثانية من شعراء العباسيين ، أى من طبقة أبى نواس وأبى العتاهية ومسلم لامن طبقة مخضرمى الدولتين كبشار . (د. وافى) .

(١) هو المعروف باسم القاضى الفاضل ، وهو عبد الرحيم بن على البيسانى نسبة إلى بيسان وهو بلد بالشام . (د. وافى) .

ما نشأت الملكة عليه من جودة أو رداءة تكون تلك الملكة فى نفسها . فملكة البلاغة العالية الطبقة فى جنسها إنما تحصل بحفظ العالى فى طبقته من الكلام . ولهذا كان الفقهاء وأهل العلوم كلهم قاصرين فى البلاغة . وما ذلك إلا لما يسبق إلى محفوظهم ويمتلىء به من القوانين العلمية والعبارات الفقهية الخارجة عن أسلوب البلاغة والنازلة عن الطبقة ، لأن العبارات عن القوانين والعلوم لاحظ لها فى البلاغة . فإذا سبق ذلك المحفوظ إلى الفكر وكثر وتلونت به النفس جاءت الملكة الناشئة عنه فى غاية القصور وانحرفت عباراته عن أساليب العرب فى كلامهم . وهكذا نجد شعر الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار وغيرهم ممن لم يمتلىء من حفظ النقى الحر من كلام العرب .

أخبرنى صاحبنا الفاضل أبو القاسم بن رضوان كاتب العلامة بالدولة المَرِينِيَّة قال : ذاكرت يوما صاحبنا أبا العباس بن شعيب كاتب السلطان أبى الحسن ، وكان المقدم فى البصر باللسان لعهده ، فأنشدته مطلع قصيدة ابن النحوى ولم أنسبها له ، وهو هذا :

لم أدر حين وقفت بالأطلال
ما الفرق بين جديدها والبالى

فقال لى عن البديهة هذا شعر فقيه . فقلت له ومن أين لك ذلك ؟ قال من قوله « ما الفرق » إذ هى من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب . فقلت له : لله أبوك ! إنه ابن النحوى .

وأما الكتاب والشعراء فليسوا كذلك لتخيرهم فى محفوظهم ومخالطتهم كلام العرب وأساليبهم فى الترسل وانتقائهم له الجيد من الكلام .

ذاكرت يوما صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب وزير الملوك بالأندلس من بنى الأحمر ، وكان الصدر المقدَّم فى الشعر والكتابة ، فقلت له أجد استصعابا علىَّ فى نظم الشعر متى رمتُه مع بصرى به وحفظى لجيد من الكلام من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب ، وإن كان محفوظى قليلا وإنما أتت والله أعلم من قِبل ما حصل فى حفظى من الأشعار العلمية والقوانين التأليفية . فإنى حفظت قصيدتى الشاطبى الكبرى والصغرى فى القراءات ، وتدارست كتابى ابن الحاجب فى الفقه والأصول وجمل الخونجى فى المنطق وبعض كتاب التسهيل وكثيرا من قوانين التعليم فى المجالس ، فامتلأ محفوظى من ذلك ، وخدش وجه الملكة التى استعددت لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب ، فعاق القريحة عن بلوغها . فنظر إلىَّ ساعة مُعْجبا ثم قال : لله أنت ! وهل يقول هذا إلا مثلك ؟ !

ويظهر لك من هذا الفصل وما تقرر فيه سر آخر ، وهو إعطاء السبب فى أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة فى البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية فى منثورهم ومنظومهم . فإنا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبى ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونُصَيب وغَيلان ذى الرمة والأحوص وبشار ، ثم كلام السلف من العرب

في الدولة الأموية وصدراً من الدولة العباسية ، في خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك ، أرفع طبقة من البلاغة من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عَبَدَة وطرفة بن العبد ، ومن كلام الجاهلية في منثورهم ومحاوراتهم . والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة . والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثليهما ، لكونها ولجت في قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم ، فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها ؛ فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقاً من أولئك ، وأرصف مبنى وأعدل تثقيفاً بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة . وتأمل ذلك يشهد لك به ذوقك إن كنت من أهل الذوق والتبصر بالبلاغة

ولقد سألت يوماً شيخنا الشريف أبا القاسم قاضي غرناطة لعهدنا - وكان شيخ هذه الصناعة ، أخذ بِسَبْتَةَ عن جماعة من مشيختها من تلاميذ الشَّلَوْبِين (١) ، واستبحر في علم اللسان وجاء من وراء الغاية فيه - فسألته يوماً ما بال العرب الإسلاميين أعلى طبقة في البلاغة من الجاهليين . ولم يكن ليستنكر ذلك بذوقه . فسكت طويلا ثم قال لي : والله ما أدري ! فقلت أعرض عليك شيئاً ظهرَ لي في ذلك ، ولعله السبب فيه . وذكرت له هذا الذي كتبت . فسكت معجباً . ثم قال لي : يا فقيه هذا كلام من حقه أن يكتب بالذهب . وكان من بعدها يؤثر محلي ويُصيخُ في مجالس التعليم إلى قولي ، ويشهد لي بالنباهة في العلوم ، والله خلق الإنسان وعلمه البيان .

(٥٩ - فصل في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع وكيفية جودة المصنوع أو قصوره)

[اعلم أن الكلام الذي هو العبارة والخطاب إنما سرُّه وروحه في إفادة المعنى . وأما إذا كان مهملا فهو كالموات الذي لا عبرة به . وكمال الإفادة هو البلاغة على ما عرفت من حدّها عند أهل البيان؛ لأنهم يقولون : هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال . ومعرفة الشروط والأحكام التي بها تطابق التراكيب اللفظية مقتضى الحال هو فن البلاغة . وتلك الشروط والأحكام للتراكيب في المطابقة استقرئت من لغة العرب وصارت كالقوانين .

فالتراكيب بوضعها تفيد الإسناد بين المُسندين بشروط وأحكام هي جل قوانين العربية .

وأحوال هذه التراكيب من تقديم وتأخير ، وتعريف وتنكير ، وإضمار وإظهار ، وتقييد وإطلاق ، وغيرها - يفيد الأحكام المكتنفة من خارج بالإسناد وبالمتخاطبين حال التخاطب (١) بشروط وأحكام هي قوانين لفنّ يسمونه علم المعاني من فنون البلاغة . فتندرج قوانين العربية لذلك في قوانين علم المعاني ؛ لأن إفادتها الإسناد

(١) من أشهر علماء النحو واللغة .

(١) أي تدل على الأمور والمعاني التي تحيط بالإسناد من خارج وضع الجملة والتي تحيط بالمتخاطبين حال التخاطب .

جزء من إفادتها للأحوال المكتنفة بالإسناد . وما قصر من هذه التراكيب عن إفادة مقتضى الحال لخلل فى قوانين الإعراب أو قوانين المعانى كان قاصراً عن المطابقة لمقتضى الحال ، ولحق بالمهمل الذى هو فى عداد الموات . ثم يتبع هذه الإفادة لمقتضى الحال التفنن فى انتقال الذهن بين المعانى بأصناف الدلالات . لأن التركيب يدل بالوضع على معنى ثم ينتقل الذهن إلى لازمه أو ملزومه أو شبهه فيكون فيه فيها مجازاً إما باستعارة أو كناية كما هو مقرر فى موضعه . ويحصل للفكر بذلك الانتقال لذة ، كما تحصل فى الإفادة وأشد ؛ لأن فى جميعها ظفرا بالمدلول من دليله ؛ والظفر من أسباب اللذة كما علمت . ثم لهذه الانتقالات أيضاً شروط وأحكام كالقوانين صيروها صناعة وسموها بالبيان وهى شقيقة علم المعانى المفيد لمقتضى الحال ، لأنها راجعة إلى معانى التراكيب ومدلولاتها ، وقوانين علم المعانى راجعة إلى أحوال التراكيب أنفسها من حيث الدلالة . واللفظ والمعنى متلازمان متضايفان كما علمت . فإذاً علم المعانى وعلم البيان هما جزءا البلاغة ، وبهما كمال الإفادة والمطابقة لمقتضى الحال . فما قصر من هذه التراكيب عن المطابقة وكمال الإفادة فهو مقصر عن البلاغة ، ويلتحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات العجم ، وأجدر به يكون عربياً ؛ لأن العربى هو الذى يطابق بإفادته مقتضى الحال ، فالبلاغة على هذا هى أصل الكلام العربى وسجيته وروحه وطبيعته .

ثم اعلم أنهم إذا قالوا الكلام المطبوع فإنهم يعنون به الكلام الذى كملت طبيعته وسجيته ، من إفادة مدلوله المقصود منه ، لأنه عبارة وخطاب ليس المقصود منه النطق فقط ، بل المتكلم يقصد به أن يفيد سامعه ما فى ضميره إفادة تامة ويدل به عليه دلالة وثيقة .

ثم يتبع تراكيب الكلام فى هذه السجية التى له بالأصالة ضروب من التحسين والتزيين بعد كمال الإفادة ، وكأنها تعطيها رونق الفصاحة ، من تنميق الأسجاع ، والموازنة بين جمل الكلام وتقسيمه بالأقسام المختلفة الأحكام ، والتورية باللفظ المشترك عن الخفى من معانيه ، والمطابقة بين المتضادات ، ليقع التجانس بين الألفاظ والمعانى فيحصل للكلام رونق ولذة فى الأسماع ، وحلاوة وجمال كلها زائدة على الإفادة . وهذه الصنعة موجودة فى الكلام المعجز فى مواضع متعددة مثل : « والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى[1] » ومثل : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى .. » إلى آخر التقسيم فى الآية[2] ؛ وكذا : « فأما من طغى ، وآثر الحياة الدنيا . . . » إلى آخر الآية[3] وكذا « وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنْعاً[4] » ؛ وأمثاله كثيرة . وذلك بعد كمال الإفادة فى أصل هذه التراكيب قبل وقوع هذا البديع فيها . وكذا وقع فى كلام الجاهلية منه لكن عفوا من غير

(١) آيتى ١ ، ٢ من سورة الليل .
(٢) « فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى » (آيات ٥ — ١٠ من سورة الليل) .
(٣) آيات ٣٧ — ٤١ من سورة النازعات .
(٤) آيتى ١٠٣ ، ١٠٤ من سورة الكهف .

قصد ولا تعمد . ويقال إنه وقع فى شعر زهير . وأما الإسلاميون فوقع لهم عفوا وقصدا ، وأتوا منه بالعجائب . وأول من أحكم طريقته حبيب بن أوس والبحترى ومسلم بن الوليد ، فقد كانوا مولعين بالصنعة ويأتون منها بالعجب . وقيل إن أول من ذهب إلى معانانها بشار بن براد وابن هرمة . وكانا آخر من يستشهد بشعره فى اللسان العربى . ثم اتبعهما كلثوم بن عمرو والعتّابى ومنصور النميرى ومسلم بن الوليد وأبو نواس . وجاء على آثارهم حبيب والبحترى . ثم ظهر ابن المعتز فختم على البديع والصناعة أجمع .

ولنذكر مثالا من المطبوع الخالى من الصنعه ، مثل قول قيس بن ذريح :

وأخرج من بين البيوت لعلنى
أحدث عنك النفس فى السر خاليا

وقول كُثيِّر :

وإنى وتَهْيَامى بعزَّة بعد ما
تخلَّيْت عما بيننا وتخلتِ
لكالمرتجى ظل الغمامة كلما
تبوأ منها للمقيل اضمحلتِ

فتأمل هذا المطبوع الفقيد الصنعة فى إحكام تأليفه وثقافة تركيبه فلو جاءت فيه الصنعة من بعد هذا الأصل زادته حسنا .

وأما المصنوع فكثير من لدن بشار ثم حبيب وطبقتهما ، ثم ابن المعتز خاتم الصنعة ، الذى جرى المتأخرون بعدهم فى ميدانهم ، ونسجوا على منوالهم . وقد تعددت أصناف هذه الصنعة عند أهلها ، واختلفت اصطلاحاتهم فى ألقابها ، وكثير منهم يجعلها مندرجة فى البلاغة ، على أنها غير داخلة فى الإفادة ؛ وإنما هى تعطى التحسين والرونق . وأما المتقدمون من أهل البديع فهى عندهم خارجة عن البلاغة . ولذلك يذكرونها فى الفنون الأدبية التى لا موضوع لها ، وهى رأى ابن رشيق فى كتاب « العمدة » له وأدباء الأندلس .

وذكروا فى استعمال هذه الصنعة شروطا منها أن تقع من غير تكلف ولا اكتراث فيما يقصد منها . وأما العفو فلا كلام فيه ؛ لأنها إذا برئت من التكلف سلم الكلام من عيب الاستهجان ؛ لأن تكلفها ومعاناتها يصير إلى الغفلة عن التراكيب الأصلية للكلام فتخل بالإفادة من أصلها ، وتذهب بالبلاغة رأسا ، ولا يبقى فى الكلام إلا تلك التحسينات . وهذا هو الغالب اليوم على أهل العصر . وأصحاب الأذواق فى البلاغة يسخرون من كَلَفهم بهذه الفنون ويعدون ذلك من القصور عن سواه . سمعت شيخنا الأستاذ أبا البركات البَلَّفيقى وكان من أهل البصر فى اللسان والقريحة فى ذوقه يقول : « إن من أشهى ما تقترحه على نفسى أن أشاهد فى بعض الأيام من ينتحل فنون هذا البديع فى نظمه أو نثره وقد عوقب بأشد العقوبة ونودى عليه » ؛ يحذر بذلك تلاميذه أن يتعاطوا هذه الصنعة فيكَلفون بها ويتناسون البلاغة

ثم من شروط استعمالها عندهم الإقلال منها ، وأن تكون فى بيتين أو ثلاثة من القصيد فتكفى فى زينة الشعر ورونقه . والإكثار منها عيب ؛

قاله ابن رشيق وغيره . وكان شيخنا أبو القاسم الشريف السبتى مُنفِّق[1] اللسان العربى بالأندلس لوقته يقول : هذه الفنون البديعة إذا وقعت للشاعر أو للكاتب فيقبح أن يستكثر منها ؛ لأنها من محسنات الكلام ومزيناته . فهى بمثابة الخيلان فى الوجه ، يحسن بالواحد والاثنين منها ،ويقبح بتعدادها .

وعلى نسبة الكلام المنظوم هو الكلام المنثور فى الجاهلية والإسلام . كان أولا مرسلا ، معتبر الموازنة بين جمله وتراكيبه ، شاهدة موازنه بفواصله من غير التزام سجع ولا اكتراث بصنعة ؛ حتى نبغ إبراهيم بن هلال الصابى كاتب بنى بويه ، فتعاطى الصنعة والتقفية وأتى من ذلك بالعجب . وعاب الناس عليه كلفَه بذلك فى المخاطبات السلطانية . وإنما حمله عليه ما كان فى ملوكه من العجمة والبعد عن صولة الخلافة المنفِّقَة لسوق البلاغة . ثم انتشرت الصناعة بعده فى منثور المتأخرين ، ونسى عهد الترسيل ، وتشابهت السلطانيات بالإخوانيات ، والمربيات بالسوقيات ، واختلط المرعى بالهَمَل . وهذا كله يدلك على أن الكلام المصنوع بالمعاناة والتكلف قاصر عن الكلام المطبوع ، لقلة الاكتراث فيه بأصل البلاغة . والحاكم فى ذلك الذوق . والله خلقكم وعلمكم مالم تكونوا تعلمون .

(١) والمعنى أنه يرجع إليه الفضل فى إشاعة الثقافة العربية ونشر اللسان العربى .

٦٠ – فصل فى ترفع أهل المراتب عن انتحال الشعر

اعلم أن الشعر كان ديوانا للعرب ، فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم . وكان رؤساء العرب منافسين فيه ، وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإنشاده وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول الشأن وأهل البصر لتمييز حوله[1] ، حتى انتهوا إلى المناغاة فى تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت إبراهيم كما فعل امرؤُ القيس بن حُجْر والنابغة الذبيانى ، وزهير بن أبى سلمى ، وعنترة بن شداد ، وطرفة بن العبد ، وعلقمة بن عبدة ، والأعشى وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع ، فإنه إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر بها من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه فى مضر على ما قيل فى سبب تسميتها بالمعلقات . ثم انصرف العرب عن ذلك أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحى وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه ، فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض فى النظم والنثر زمانا . ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ولم ينزل الوحى فى تحريم الشعر وحظره ، وسمعه النبى صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه ، فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه . وكان لعمر بن أبى ربيعة كبير قريش لذلك العهد مقامات فيه عالية وطبقة مرتفعة ، وكان كثيرا ما يعرض شعره على ابن عباس فيقف لاستماعه معجبا به . ثم جاء من بعد ذلك الملك [الفحل] والدولة العزيزة وتقرب إليهم العرب

(١) يعنى لاختبار مقدرته .

بأشعارهم بمدحوتهم بها ، ويجيزهم الخلفاء بأعظم الجوائز على نسبة الجودة فى أشعارهم ومكانهم من قومهم ، ويحرصون على استهداء أشعارهم يطلعون منها على الآثار والأخبار واللغة وشرف اللسان ، والعرب يطالبون ولدهم بحفظها . ولم يزل هذا الشأن أيام بنى أمية وصدرا من دولة بنى العباس . وانظر ما نقله صاحب العقد فى مسامرة الرشيد للأصمعى فى باب الشعر والشعراء تجد ما كان عليه الرشيد من المعرفة بذلك والرسوخ فيه والعناية بانتحاله والتبصر بجيد الكلام ورديئه وكثرة محفوظه منه . ثم جاء خَلْفٌ من بعدهم لم يكن اللسان لسانهم من أجل العجمة وتقصيرها باللسان ، وإنما تعلموه صناعة ، ثم مدحوا بأشعارهم أمراء العجم الذين ليس اللسان لهم ، طالبين معروفهم فقط لاسوى ذلك من الأغراض ، كما فعله حبيب والبحترى والمتنبى وابن هانىء ومن بعدهم إلى هلم جرا . فصار غرض الشعر فى الغالب إنما هو الكذب والاستجداء لذهاب المنافع التى كانت فيه للأولين كما ذكرناه آنفا . وأنف منه لذلك أهل الهمم والمراتب من المتأخرين . وتغير الحال ، وأصبح تعاطيه هجنة فى الرئاسة ومذمة لأهل المناصب الكبيرة والله مقلب الليل والنهار .

٦١ — فصل فى أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد

اعلم أن الشعر لا يختص باللسان العربى فقط بل هو موجود فى كل لغة ، سواء كانت عربية أو عجمية . وقد كان فى الفرس شعراء وفى يونان كذلك ، وذكر منهم أرسطو فى كتاب المنطق أوميروس الشاعر (١) وأثنى عليه ، وكان فى حمير أيضا شعراء متقدمون . ولما فسد لسان مضر ولغتهم دونت مقاييسها وقوانين إعرابها وفسدت اللغات من بعد بحسب ما خالطها ومازجها من العجمة ، فكانت لجيل العرب بأنفسهم لغة خالفت لغة سلفهم من مضر فى الإعراب جملة ، وفى كثير من الموضوعات اللغوية وبناء الكلمات . وكذلك الحضر أهل الأمصار نشأت فيهم لغة أخرى خالفت لسان مضر فى الإعراب وأكثر الأوضاع والتصاريف وخالفت أيضا لغة الجيل من العرب لهذا العهد ، واختلفت هى فى نفسها بحسب اصطلاحات أهل الآفاق ، فلأهل المشرق وأمصاره لغة غير لغة أهل المغرب وأمصاره ، وتخالفهما أيضا لغة أهل الأندلس وأمصاره.

ثم لما كان الشعر موجودا بالطبع فى أهل كل لسان لأن الموازين على نسبة واحدة فى أعداد المتحركات والسواكن وتقابلها موجودة فى طباع البشر ، فلم يهجر الشعر بفقدان لغة واحدة وهى لغة مضر الذين كانوا فحوله وفرسان ميدانه ، حسبما اشتهر بين أهل الخليقة ، بل كل جيل وأهل كل لغة من العرب المستعجمين والحضر أهل الأمصار يتعاطون منه ما يطاوعهم فى انتحاله ورصف بنائه على مهيع كلامهم . فأما العرب أهل هـذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد فى سائر الأعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون ، ويتأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء ،

(١) انظر تعليق ١٨٠٢ من منشورة د. واف .

ويستطردون فى الخروج من فن إلى فن فى الكلام. وربما هجموا على المقصود لأول كلامهم . وأكثر ابتدائهم فى قصائدهم باسم الشاعر ثم بعد ذلك ينسبون[١]. فأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالأصمعيات نسبة إلى الأصمعى راوية العرب فى أشعارهم . وأهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوى . وربما يلحنون فيه ألحانا بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقية ، ثم يغنون به . ويسمون الغناء به باسم الحورانى نسبة إلى حوران من أطراف العراق والشام ، وهى من منازل العرب البادية ومساكنهم إلى هذا العهد .

ولهم فن آخر كثير التداول فى نظمهم يجيئون به معصبا على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة فى رويه ويلتزمون القافية الرابعة فى كل بيت إلى آخر القصيدة شبيها بالمربع والمخمس الذى أحدثه المتأخرون من المولدين ، ولهؤلاء العرب فى هذا الشعر بلاغة فائقة ، وفيهم الفحول والمتأخرون . والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد وخصوصا علم اللسان يستنكرون هذه الفنون التى لهم إذا سمعها ، ويمج نظمهم إذا أنشد ، ويعتقد أن ذوقه إنما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها . وهذا إنما أتى من فقدان الملكة فى لغتهم . فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليما من الآفات فى فطرته ونظره . وإلا فالإعراب لا مدخل له فى البلاغة ؛ إنما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود فيه ، سواء كان الرفع دالا على الفاعل والنصب دالا على المفعول أو بالعكس ؛ وإنما يدل على ذلك قرائن الكلام كما هو فى لغتهم هذه . فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة . فإذا عرف اصطلاح فى ملكة واشتهر ، صحت الدلالة ، وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال ، صحت البلاغة ؛ ولاعبرة بقوانين النحاة فى ذلك . وأساليب الشعر وفنونه موجودة فى أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب فى أواخر الكلم ، فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر ، ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدإ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب .

• • •

(تنبيه)

أثبت ابن خلدون فى الفصل كثيرا من الأشعار العامة المغربية ونظرا لعدم إمكان الإفادة منه للعجز عن فهمه فقد آثرنا حذفه ، ونحيل من يريد تتبعه على منشورة د. وافى ص ١٤٣٧ وما بعدها إلى آخر الجزء الرابع ط. (لجنة البيان العربى)

قال مؤلف الكتاب عفا الله عنه : أتممت هذا الجزء الأول[١] بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتهذيب فى مدة خمسة أشهر آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعمائة . ثم نقحته بعد ذلك وهذبته وألحقت به تواريخ الأمم كما ذكرت فى أوله وشرطته : وما العلم إلا من عند الله العزيز الحكيم[٢].

---

(١) « نسب المرأة نسباً ونسيباً شبب بها فى الشعر » .

(١) يقصد به ما سماه « الكتاب الأول » وهو الذى يطلق عليه الآن « مقدمة ابن خلدون » .

(٢) ليست هذه آية قرآنية ، وإن أوهم ظاهرها ذلك . وقوله تعالى « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » (آخر آية ١٢٦ من سورة آل عمران .

الفهرس

تنبيــــه هـــام

اعتمد فى نشر هـذه المقدمة على الطبعة التى أصدرتها « لجنة البيان العربى » بتحقيق الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى .

وما ذكر فى هـذه الطبعة من تعليقات ملخص من بعض تعليقاته وتحت إشرافه : ونحيل على طبعته لمن يريد مزيداً من التفصيل .

(دار الشعب)

مطبوعات الشعب
ثقافة وعلوم وآداب للشعب
٩٢ شارع قصر العيني ت: ٢٥٥١٨١٠ - ٢٥٥١٤٩٩